THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

...RA SPEM SPE...

W. Arthur Jeffery

Arthur Jeffery

Cairo 1932.

[illegible]

فتح القدير

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

للقاضي الحافظ الضابط المحدث المفسر الشهير محمد بن على بن محمد
الشوكاني اليماني الصنعاني صاحب (نيل الأوطار وغيره) المتوفى
بمدينة صنعاء فى جمادى الآخرة سنة ١٢٥٠ هـ عن ست وسبعين
سنة وسبعة أشهر رحمه الله تعالى وإيانا والمؤمنين آمين

الطبعة الأولى

على النسخة الوحيدة بقلم المؤلف الامام الشوكاني رحمه الله تعالى
أذن لنا بالطبع عليها فرع الشجرة النبوية حضرة صاحب الفضيلة العلامة السيد
محمد بن محمد زبارة الحسني الصنعاني أحد عظماء رجال الدولة الاسلامية اليمنية
المتوكلية أدام نصرها رب البرية آمين

تنبيه — لايجوز لأحد أن يطبع كتاب «فتح القدير للشوكاني» من هذه
الطبعة وكل من طبعها يكون مكلفا بابراز أصل قديم يثبت أنه طبع منه
والا فيكون مسئولا عن التعويض قانونا

الجزء الثالث

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

وباشر طبعه ـ محمد أمين عمران

جمادى الثانية ١٣٥٠ هجرية رقم ٤٤٦

BP
130.4
.S542
v.3

كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة يوسف [1]

عليه السلام

قيل هي مائة وإحدى عشرة آية

وهي مكية كلها ، وقيل نزلت مابين مكة والمدينة وقت الهجرة . وقال ابن عباس في رواية عنه وقتادة الا أربع آيات . وأخرج النحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة يوسف بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج الحاكم وصححه عن رفاعة بن رافع الزرقي أنه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء حتى قدما مكة ، وذكر قصة وفي آخرها أن رسول الله ﷺ علمهما سورة يوسف ، واقرأ باسم ربك ، ثم رجعا . وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن حبرا من اليهود دخل على رسول الله ﷺ فوافقه وهو يقرأ سورة يوسف ، فقال يامحمد من علمكها ؟ قال الله علمنيها ، فعجب الحبر لما سمع منه فرجع الى اليهود ، فقال لهم والله ان محمدا ليقرأ القرآن كما أنزل في التوراة ، فانطلق بنفر منهم حتى دخلوا عليه فعرفوه بالصفة ، ونظروا الى خاتم النبوة بين كتفيه ، فجعلوا سمعهم الى قراءته لسورة يوسف فتعجبوا منه ، وأسلموا عند ذلك . وأخرج الثعلبي عن أبيّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « علموا أقاربكم سورة يوسف فانه أيما مسلم تلاها أوعلمها أهله وما ملكت يمينه هوّن الله عليه سكرات الموت ، وأعطاه القوّة أن لايحسد مسلما » . وفي إسناده سلام بن سالم ، ويقال ابن سليم المدائني ، وهو متروك عن هرون بن كثير . قال أبو حاتم مجهول ، وقد ذكره الحافظ ابن عساكر متابعا من طريق القاسم بن الحكم عن هرون بن كثير ، ومن طريق شبابة عن مجاز بن عبد الواحد البصري عن عليّ بن زيد بن جدعان ، وعن عطاء بن ميمون عن ذرّ بن حبيش

عن

﴿١﴾ تنبيه ﴾ جرى المفسر رحمه الله في ضبط ألفاظ القرآن في تفسيره هذا على رواية نافع مع تعرضه للقراءات السبع وأثبتنا القرآن طبق رسم المصحف العثماني

عن أبيّ بن كعب مرفوعا فذكر نحوه وهو منكر من جميع طرقه . قال القرطبي . قال سعد بن أبي وقاص أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زمانا ، فقالوا لو حدّثتنا ، فنزل قوله تعالى ـ الله نزّل أحسن الحديث ـ قال : قال العلماء ، وذكر الله أقاصيص الانبياء فى القرآن وكرّرها بمعنى واحد فى وجوه مختلفة بألفاظ متباينة على درجات البلاغة . وقد ذكر قصة يوسف ولم يكرّرها فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرّر ، ولا على معارضة غير المتكرّر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ آيَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ * إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ * قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *

قوله (الر) قد تقدّم الكلام فيه فى فاتحة سورة يونس ، والاشارة بقوله (تلك) إلى آيات السورة ، والكتاب المبين : السورة ، أى تلك الآيات التى أنزلت إليك فى هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها فى إعجاز العرب وتبكيتهم ، والمبين من أبان بمعنى بان : أى الظاهر أمره فى كونه من عند الله وفى إعجازه أو المبين بمعنى الواضح المعنى ، بحيث لايلتبس على قارئه وسامعه ، أو المبين لما فيه من الأحكام (إنا أنزلناه) أى الكتاب المبين حال كونه (قرآنا عربيا) ؛ فعلى تقدير أن الكتاب السورة تكون تسميتها قرآنا باعتبار أن القرآن اسم جنس يقع على الكل ، وعلى البعض ، وعلى تقدير أن المراد بالكتاب كل القرآن ، فتكون تسميته قرآنا واضحة ، وعربيا صفة لقرآنا : أى على لغة العرب (لعلكم تعقلون) أى لكى تعلموا معانيه وتفهموا مافيه (نحن نقص عليك أحسن القصص) القصص : تتبع الشىء ، ومنه قوله تعالى ـ وقالت لأخته قصيه ـ : أى تتبعى أثره وهو مصدر ، والتقدير نحن نقص عليك قصصا أحسن القصص ، فيكون بمعنى الاقتصاص ، أو هو بمعنى المفعول : أى المقصوص (بما أوحينا إليك) أى بإيحائنا إليك (هذا القرآن) وانتصاب القرآن على أنه صفة لاسم الاشارة ، أو بدل منه ، أو عطف بيان ، وأجاز الزجاج الرفع على تقدير مبتدأ ، وأجاز الفراء الجرّ ، ولعلّ وجهه أن يقدّر حرف الجرّ فى بما أوحينا داخلا على اسم الاشارة ، فيكون المعنى : نحن نقص عليك أحسن القصص بهذا القرآن (وإن كنت من قبله لمن الغافلين) ان هى المخففة من الثقيلة بدليل اللام الفارقة بينها و بين النافية ، والضمير فى من قبله عائد على الايحاء المفهوم من أوحينا ، والمعنى : أنك قبل إيحائنا اليك من الغافلين عن هذه القصة .

واختلف فى وجه كون ما فى هذه السورة هو أحسن القصص ، فقيل لأن ما فى هذه السورة من القصص يتضمن من العبر والمواعظ والحكم مالم يكن فى غيرها ، وقيل لما فيها من حسن المحاورة وما كان من يوسف عليه السلام من الصبر على أذاهم ، وعفوه عنهم ، وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة

والشياطين والجنّ والانس والأنعام والطير وسير الملوك والمماليك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهنّ ومكرهنّ ، وقيل لأنّ فيها ذكر الحبيب والمحبوب ومادار بينهما ، وقيل ان أحسن هنا : بمعنى أعجب ، وقيل ان كل من ذكر فيها كان مآله السعادة * قوله (إذ قال يوسف لأبيه) إذ منصوب على الظرفية بفعل مقدّر : أى اذكر وقت قال يوسف . قرأ الجمهور يوسف بضم السين . وقرأ طلحة بن مصرف بكسرها مع الهمز مكان الواو . وحكى ابن زيد الهمز وفتح السين ، وهو غير منصرف للعجمة والعلمية ، وقيل هو عربىّ * والأوّل أولى بدليل عدم صرفه (لأبيه) أى يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم (ياأبت) بكسر التاء فى قراءة أبى عمرو وعاصم وحمزة والكسائى ونافع وابن كثير ، وهى عند البصريين علامة التأنيث ، ولحقت فى لفظ أب فى النداء خاصة بدلا من الياء ، وأصله ياأبى : وكسرها للدلالة على أنها عوض عن حرف يناسب الكسر . وقرأ ابن عامر بفتحها ، لأن الأصل عنده ياأبتا ، ولا يجمع بين العوض والمعوّض ، فيقال ياأبتى ، وأجاز الفراء ياأبت بضم التاء (انى رأيت) من الرؤيا النومية لا من الرؤية البصرية كما يدل عليه (لاتقصص رؤياك على إخوتك) * قوله (أحد عشر كوكبا) قرئ بسكون العين تخفيفا لتوالى الحركات ، وقرأ بفتحها على الأصل (والشمس والقمر) انما أخرهما عن الكواكب لاظهار مزيتهما وشرفهما كما فى عطف جبريل وميكائيل على الملائكة ، وقيل ان الواو بمعنى مع ، وجملة (رأيتهم لى ساجدين) مستأنفة لبيان الحالة التى رآهم عليها ، وأجريت مجرى العقلاء فى الضمير المختص بهم لوصفها بوصف العقلاء ، وهو كونها ساجدة كذا قال الخليل وسيبويه ، والعرب تجمع مالا يعقل جمع من يعقل اذا أنزلوه منزلته (قال يابنىّ لاتقصص رؤياك على اخوتك) الرؤيا مصدر رأى فى المنام رؤيا على وزن فعلى كالسقيا والبشرى ، وألفه للتأنيث ولذلك لم يصرف ، نهى يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عن أن يقص رؤياه على اخوته : لأنه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها على اخوته فيفهمون تأويلها ويحصل منهم الحسد له ، ولهذا قال (فيكيدوا لك كيدا) وهذا جواب النهى وهو منصوب باضمار أن : أى يفعلوا لك : أى لأجلك كيدا مثبتا راسخا لاتقدر على الخلوص منه ، أوكيدا خفيا عن فهمك ، وهذا المعنى الحاصل بزيادة اللام آكد من أن يقال فيكيدوك كيدا ، وقيل انما جىء باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدّى باللام ، فيفيد هذا التضمين معنى الفعلين جميعا ، الكيد والاحتيال كما هو القاعدة فى التضمين أن يقدّر أحدهما أصلا والآخر حالا ، وجملة (إن الشيطان للانسان عدوّ مبين) مستأنفة ، كأن يوسف عليه السلام قال : كيف يقع ذلك منهم ؟ فنبهه بأن الشيطان يحملهم على ذلك ، لأنه عدوّ للانسان مظهر للعداوة مجاهر بها * قوله (وكذلك يجتبيك ربك) أى ومثل ذلك الاجتباء البديع الذى رأيته فى النوم من سجود الكواكب والشمس والقمر يجتبيك ربك ، ويحقق فيك تأويل تلك الرؤيا ، فيجعلك نبيا ، ويصطفيك على سائر العباد ، ويسخرهم لك كما تسخرت لك تلك الأجرام التى رأيتها فى منامك فصارت ساجدة لك . قال النحاس : والاجتباء أصله من جبيت الشىء حصلته ومنه جبيت الماء فى الحوض : جمعته ، ومعنى الاجتباء : الاصطفاء ، وهذا يتضمن الثناء على يوسف وتعديد نعم الله عليه ، ومنها (ويعلمك من تأويل الأحاديث) أى تأويل الرؤيا . قال القرطبى : وأجمعوا أن ذلك فى تأويل الرؤيا ، وقد كان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها ، وقيل المراد ويعلمك من تأويل أحاديث الأمم والكتب ، وقيل المراد به إحواج اخوته اليه ، وقيل انجاؤه من كل مكروه ، وقيل انجاؤه من القتل خاصة (ويتمّ نعمته عليك) فيجمع لك بين النبوّة والملك كما تدلّ عليه هذه الرؤيا التى أراك الله ، أو يجمع لك بين خيرى الدنيا والآخرة (وعلى آل يعقوب) وهم قرابته من اخوته وأولاده ومن بعدهم ، وذلك أن الله سبحانه أعطاهم النبوّة كما قاله جماعة من المفسرين ، ولايبعد أن يكون اشارة إلى ماحصل لهم بعد

دخولهم مصر من النعم التى من جملتها كون الملك فيهم مع كونهم أنبياء (كما أتمها على أبويك) أى اتماما مثل اتمامها على أبويك : وهى نعمة النبوّة عليهما ، مع كون ابراهيم اتخذه الله خليلا ، ومع كون اسحاق نجاه الله سبحانه من الذبح وصار لهما الذرّية الطيبة : وهم يعقوب ، ويوسف ، وسائر الأسباط ، ومعنى (من قبل) من قبل هذا الوقت الذى أنت فيه ، أو من قبلك ، وابراهيم واسحاق عطف بيان لأبويك ، وعبر عنهما بالأبوين مع كون أحدهما جدًا : وهو ابراهيم ، لأن الجد أب (ان ربك عليم) بكل شىء (حكيم) فى كل أفعاله ، والجملة مستأنفة مقرّرة لمضمون ماقبلها تعليلا له : أى فعل ذلك لأنه عليم حكيم ، وكان هذا الكلام من يعقوب مع ولده يوسف تعبيرا لرؤياه على طريق الاجمال ، أو علم ذلك من طريق الوحى ، أوعرفه بطريق الفراسة وما تقتضيه المخايل اليوسفية .

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله (تلك آيات الكتاب المبين) قال : بين الله حلاله وحرامه . وأخرج ابن جرير عن معاذ قال : بين الله الحروف التى سقطت عن ألسن الأعاجم ، وهى ستة أحرف . وأخرج الحاكم عن جابر أن رسول الله ﷺ تلا قرآنا عربيا ثم قال رسول الله ﷺ « ألهم اسماعيل هذا اللسان العربى إلهاما » . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال : نزل القرآن بلسان قريش ، وهو كلامهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قالوا يارسول الله لوقصصت علينا فنزلت (نحن نقص عليك أحسن القصص) . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (نحن نقص عليك أحسن القصص) قال : من الكتب الماضية وأمور الله السالفة فى الأمم ، (وان كنت من قبله) أى من قبل هذا القرآن (لمن الغافلين) . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك (نحن نقص عليك أحسن القصص) قال : القرآن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (إنى رأيت أحد عشر كوكبا) قال : رؤيا الأنبياء وحى . وأخرج سعيد بن منصور والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والعقيلى وابن حبان فى الضعفاء وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن جابر بن عبد الله قال : جاء بستانى اليهودى الى النبى ﷺ فقال يامحمد أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف ساجدة له ماأسماؤها ؟ فسكت النبى ﷺ فلم يجبه بشىء ، فنزل عليه جبريل فأخبره بأسمائها ، فبعث رسول الله ﷺ الى البستانى اليهودى فقال هل أنت مؤمن ان أخبرتك بأسمائها ؟ قال نعم ، قال : خرتان ، والطارق ، والذيال ، وذو الكتفان ، وقابس ، ووثاب ، وعمودان ، والفيلق ، والمصبح ، والضروح ، وذو الفرغ ، والضياء ، والنور : رآها فى أفق السماء ساجدة له : فلما قصّ يوسف على يعقوب قال : هذا أمر مشتت يجمعه الله من بعد ، فقال اليهودى : إى والله انها لأسماؤها ، هكذا ساقه السيوطى فى الدرّ المنثور ، وأما ابن كثير فجعل قوله فلما قص الخ رواية منفردة وقال تفرّد بها الحكم بن ظهيرة الفزارى . وقد ضعفوه وتركه الأكثرون . وقال الجوزجانى : ساقط ، وقال ابن الجوزى هو موضوع . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (أحد عشر كوكبا) قال : اخوته ، والشمس قال : أمه ، والقمر قال أبوه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير عن السدّى نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس (وكذلك يجتبيك ربك) قال : يصطفيك . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (ويعلمك من تأويل الأحاديث) قال : عبارة الرؤيا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد (ويعلمك من تأويل الأحاديث) قال : تأويل العلم والحلم ، وكان يوسف من أعبر الناس . وأخرج ابن جرير عن عكرمة (كما أتمها على أبويك) قال : فنعمته

XII ٦-١٥

على ابراهيم : أن نجاه من النار ، وعلى اسحاق : أن نجاه من الذبح .

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَٰتٌ لِّلسَّائِلِينَ ❊ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ❊ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ❊ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ❊

أى (لقد كان) فى قصتهم علامات دالة على عظيم قدرة الله و بديع صنعه (للسائلين) من الناس عنها . وقرأ أهل مكة آية على التوحيد . وقرأ الباقون على الجمع ، واختار قراءة الجمع أبو عبيد . قال النحاس : وآية هاهنا قراءة حسنة ، وقيل المعنى : لقد كان فى يوسف واخوته آيات دالة على نبوّة محمد ﷺ للسائلين له من اليهود ، فانه روى أنه قال له جماعة من اليهود وهو بمكة : أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام . أخرج ابنه الى مصر فبكى عليه حتى عمى ، ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ولا من يعرف خبر الأنبياء ، وانما وجهوا اليه من أهل المدينة من يسأله عن هذا ، فأنزل الله سورة يوسف جملة واحدة كما فى التوراة ، وقيل معنى آيات للسائلين عجب لهم ، وقيل بصيرة ، وقيل عبرة . قال القرطبى : وأسماؤهم يعنى اخوة يوسف : روبيل ، وهو أكبرهم ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، وربالون ، ويشجر ، وأمهم ليا بنت ليان وهى بنت خال يعقوب ، وولد له من سريتين أربعة ، وهم : دان ، ونفتالى ، وجاد ، وآشر ، ثم ماتت ليا فتزوّج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف ، و بنيامين . وقال السهيلى : ان أم يوسف اسمها وفقا ، وراحيل ماتت من نفاس بنيامين وهو أكبر من يوسف (إذ قالوا ليوسف وأخوه) أى وقت قالوا ، والظرف متعلق بكان (أحب الى أبينا منا) والمراد بقوله (وأخوه) هو بنيامين ، وخصوه بكونه أخاه مع أنهم جميعا اخوته ، لأنه أخوه لأبويه كما تقدم ، ووحد الخبر فقال أحب مع تعدد المبتدأ ، لأن أفعل التفضيل يستوى فيه الواحد وما فوقه اذا لم يعرّف ، واللام فى ليوسف هى الموطئة للقسم ، وانما قالوا هذا لأنه بلغهم خبر الرؤيا فأجمع رأيهم على كيده ، وجملة (ونحن عصبة) فى محل نصب على الحال ، والعصبة : الجماعة ، قيل وهى ما بين الواحد الى العشرة ، وقيل الى الخمسة عشر ، وقيل من العشرة الى الأربعين ولا واحد لها من لفظها ، بل هى كالنفر والرهط . وقد كانوا عشرة (ان أبانا لفى ضلال مبين) أى لفى ذهاب عن وجه التدبير بالترجيح لهما علينا وايثارهما دوننا مع استوائنا فى الانتساب اليه ، ولا يصح أن يكون مرادهم أنه فى دينه فى ضلال مبين (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا) أى قالوا افعلوا به أحد الأمرين : إما القتل ، أو الطرح فى أرض ، أو المشير بالقتل بعضهم ، والمشير بالطرح البعض الآخر ، أو كان المتكلم بذلك واحدا منهم فوافقه الباقون ، فكانوا كالقائل فى نسبة هذا القول اليهم ، وانتصاب أرضا على الظرفية ، والتنكير للابهام : أى أرضا مجهولة ، وجواب الأمر (يخل لكم وجه أبيكم) أى يصف ويخلص فيقبل عليكم ويحبكم حبا كاملا (وتكونوا) معطوف على يخل ، ويجوز أن يكون منصوبا باضمار أن (من بعده) أى من بعد يوسف ، والمراد بعد الفراغ من قتله أو طرحه ، وقيل من بعد الذنب الذى اقترفوه فى يوسف (قوما صالحين) فى أمور دينكم وطاعة أبيكم ، أو صالحين فى أمور دنياكم لذهاب ما كان يشغلكم عن ذلك ، وهو الحسد ليوسف وتكدر خواطركم بتأثيره عليكم هو وأخوه ، أو المراد بالصالحين : التائبون من الذنب (قال قائل منهم) أى من الاخوة ، قيل هو يهوذا ، وقيل روبيل وقيل شمعون (لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابات الجب) ، قيل ووجه الاظهار فى لا تقتلوا يوسف استجلاب

شفقتهم

شفقتهم عليه . قرأ أهل مكة وأهل البصرة ، وأهل الكوفة وأهل الشام فى غيابة الجب بالافراد . وقرأ أهل المدينة فى غيابات بالجمع ، واختار أبو عبيد الافراد ، وأنكر الجمع ، لأن الموضع الذى ألقوه فيه واحد . قال النحاس : وهذا تضييق فى اللغة ، وغيابات على الجمع تجوّز ، والغيابة كلّ شىء غيب عنك شيئا ، وقيل للقبر غيابة ، والمراد بها هنا غور البئر الذى لايقع البصر عليه ، أو طاقة فيه . قال الشاعر :

ألا فالبثا شهرين أو نصف ثالث * الى ذا كما قد غيبتنى غيابيا

والجب : البئر التى لم تطو ، ويقال لها قبل الطى ركية ، فاذا طويت قيل لها بئر ، سميت جبا لأنها قطعت فى الأرض قطعا ، وجمع الجب جبب وجباب وأجباب ، وجمع بين الغيابة والجب مبالغة فى أن يلقوه فى مكان من الجب شديد الظلمة حتى لايدركه نظر الناظرين ، قيل وهذه البئر بيت المقدس ، وقيل بالأردن ، وجواب الأمر (يلتقطه بعض السيارة) قرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة تلتقطه بالمثناة الفوقية ، ووجهه أن بعض السيارة سيارة . وحكى عن سيبويه سقطت بعض أصابعه ، ومنه قول الشاعر :

أرى مرّ السنين أخذن منى * كما أخذ السرار من الهلال

وقرأ الباقون يلتقطه بالتحتية ، والسيارة : الجمع الذى يسيرون فى الطريق ، والالتقاط هو أخذ شىء مشرف على الضياع ، وكأنهم أرادوا أن بعض السيارة اذا التقطه حمله الى مكان بعيد بحيث يخفى عن أبيه ومن يعرفه ولايحتاجون الى الحركة بأنفسهم الى المكان البعيد ، فربما أن والدهم لايأذن لهم بذلك ، ومعنى (إن كنتم فاعلين) ان كنتم عاملين بما أشرت به عليكم فى أمره ، كأنه لم يجزم بالأمر ، بل وكله الى مايجمعون عليه كما يفعله المشير مع من استشاره * وفى هذا دليل على أن اخوة يوسف ما كانوا أنبياء ، فان الأنبياء لايجوز عليهم التواطؤ على القتل لمسلم ظلما و بغيا ، وقيل كانوا أنبياء ، وكان ذلك منهم زلة قدم أوقعهم فيها التهاب نار الحسد فى صدورهم واضطرام جمرات الغيظ فى قلوبهم ، وردّ بأن الأنبياء معصومون عن مثل هذه المعصية الكثيرة المتبالغة فى الكبر مع مافى ذلك من قطع الرحم وعقوق الوالد وافتراء الكذب ، وقيل انهم لم يكونوا فى ذلك الوقت أنبياء ، بل صاروا أنبياء من بعد .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (آيات للسائلين) قال : عبرة . وأخرج أيضا عن قتادة فى الآية يقول : من سأل عن ذلك فهو هكذا ماقص الله عليكم وأنبأكم به . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن اسحاق قال : انما قص الله على محمد ﷺ خبر يوسف و بغى اخوته عليه وحسدهم اياه حين ذكر رؤياه لما رأى رسول الله ﷺ من بغى قومه عليه وحسدهم اياه حين أكرمه الله بنبوته ليأتسى به . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (إذ قالوا ليوسف وأخوه) يعنى بنيامين هو أخوه لأبيه وأمه ، وفى قوله (ونحن عصبة) قال العصبة : مابين العشرة الى الأربعين . وأخرج ابن أبى حاتم وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد قال : العصبة الجماعة (إن أبانا لفى ضلال مبين) قال لفى خطأ من رأيه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ فى قوله (قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف) قال : قاله كبيرهم الذى تخلف ، قال : والجب بئر بالشام (يلتقطه بعض السيارة) قال : التقطه ناس من الأعراب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (وألقوه فى غيابة الجب) يعنى الركية . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : الجب البئر . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ قال : هى بئر بيت المقدس ، يقول فى بعض نواحيها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : الجب بحذاء طبرية بينه و بينها أميال .

XII. 11-14

قَالُوا يَـٰأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَـٰصِحُونَ ۞ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ۞ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ۞ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ۞ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۞ قَالُوا يَـٰأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ۞ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۞

لما أجمع رأيهم على أن يلقوه فى غيابات الجب جاءوا الى أبيهم وخاطبوه بلفظ الأبوّة استعطافاله وتحريكاللحنوّ الذى جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء وتوسلا بذلك الى تمام مايريدونه من الكيد الذى دبروه ، واستفهموه استفهام المنكرلأمر ينبغى أن يكون الواقع على خلافه ، ف(قالوا ياأبانامالك لاتأمناعلى يوسف) أى أى شىء لك لاتجعلنا أمناءعليه : وكأنهم قدكانواسألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى . وقرأ يزيد بن القعقاع وعمرو بن عبيد والزهرى لاتأمنا بالادغام بغيراشمام . وقرأ طلحة بن مصرف (لاتأمننا) بنونين ظاهرتين على الأصل . وقرأ يحيى بن وثاب وأبورزين والأعمش لاتيمنا ، وهو لغة تميم كما تقدم . وقرأ سائر القراء بالادغام والاشمام ليدلّ على حال الحرف قبل ادغامه (وانا له لناصحون) فى حفظه وحيطته حتى نردّه اليك (أرسله معناغدا) أى الى الصحراء التى أرادوا الخروج اليها ، وغدا ظرف ، والأصل عند سيبويه غدوة . قال النضر بن شميل مابين الفجر وطلوع الشمس . يقال له غدوة : وكذا يقال له بكرة (نرتع ونلعب) هذا جواب الأمر . قرأ أهل البصرة وأهل مكة وأهل الشام بالنون واسكان العين . كما رواه البعض عنهم . وقرءوا أيضا بالاختلاس ، وقرأ الباقون بالنون وكسر العين ، والقراءة الأولى مأخوذة من قول العرب رتع الانسان ، أو البعير اذا أكل كيف شاء ، أو المعنى نتسع فى الخصب ، وكل مخصب راتع : قال الشاعر ۞ فارعى فزارة لاهناك المرتع ۞ ومنه قول الشاعر

ترتع مارتعت حتى إذا ادّكرت ۞ فانما هى اقبال وادبار

والقراءة الثانية مأخوذة من رعى الغنم . وقرأ مجاهد وقتادة (يرتع ويلعب) بالتحتية فيهما ، ورفع يلعب على الاستئناف ، والضمير ليوسف . وقال القتيبى معنى نرتع : نتحارس ونتحافظ ويرعى بعضنا بعضا من قولهم رعاك الله : أى حفظك ، ونلعب من اللعب قيل لأبى عمرو بن العلاء كيف قالوا ونلعب وهم أنبياء فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء ، وقيل المراد به اللعب المباح من الأنبياء ، وهو مجرد الانبساط ، وقيل هو اللعب الذى يتعلمون به الحرب ويتقوون به عليه كما فى قولهم (انا ذهبنا نستبق) لا اللعب المحظور الذى هو ضدّ الحق ، ولذلك لم ينكر يعقوب عليهم لما قالوا ونلعب ، ومنه قوله ﷺ لجابر فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك ، فأجابهم يعقوب بقوله (إنى ليحزننى أن تذهبوا به) أى ذهابكم به ، واللام فى (ليحزننى) لام الابتداء للتأكيد ولتخصيص المضارع بالحال ، أخبرهم انه يحزن لغيبة يوسف عنه لفرط محبته له وخوفه عليه (وأخاف أن يأكله الذئب) أى ومع ذلك أخاف أن يأكله الذئب . قال يعقوب هذا تخوّفا عليه منهم فكنى عن ذلك بالذئب ، وقيل انه خاف أن يأكله الذئب حقيقة ، لأن ذلك المكان كان كثير الذئاب ، ولوخاف منهم عليه أن يقتلوه لأرسل معهم من يحفظه . قال ثعلب : والذئب مأخوذ من تذأبت الريح اذا هاجت من

كل وجه . قال والذئب مهموز ، لأنه يجىء من كل وجه . وقد قرأ ابن كثير ونافع فى رواية عنه بالهمز على الأصل وكذلك أبو عمرو فى رواية عنه وابن عامر وعاصم وحمزة . وقرأ الباقون بالتخفيف (وأنتم عنه غافلون) لاشتغالكم بالرتع واللعب : أو لكونهم غير مهتمين بحفظه (قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة) اللام هى الموطئة للقسم * والمعنى : والله لئن أكله الذئب ، والحال ان نحن عصبة : أى جماعة كثيرة عشرة (انا إذا لخاسرون) أى إنا فى ذلك الوقت ، وهو أكل الذئب له لخاسرون هالكون ضعفا وعجزا ، أو مستحقون للهلاك لعدم الاعتداد بنا ، وانتفاء القدرة على أيسر شىء وأقله ، أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار والدمار ، وقيل لخاسرون لجاهلون حقه ، وهذه الجملة جواب القسم المقدّر فى الجملة التى قبلها (فلما ذهبوا به) من عند يعقوب (وأجمعوا) أمرهم (أن يجعلوه فى غيابة الجبّ) قد تقدّم تفسير الغيابة والجب قريبا ، وجواب لما محذوف لظهوره ودلالة المقام عليه ، والتقدير فعلوا به مافعلوا ، وقيل جوابه (قالوا ياأبانا انا ذهبنا نستبق) وقيل الجواب المقدّر جعلوه فيها وقيل الجواب أوحينا ، والواو مقحمة . ومثله قوله تعالى ــ فلما أسلما وتله للجبين وناديناه ــ أى ناديناه (وأوحينا اليه) أى الى يوسف تبشيرا له وتأنيسا لوحشته مع كونه صغيرا اجتمع على انزال الضرر به عشرة رجال من اخوته بقلوب غليظة قد نزعت عنها الرحمة وسلبت منها الرأفة فان الطبع البشرى ، دع عنك الدين يتجاوز عن ذنب الصغير و يغتفره لضعفه عن الدفع وعجزه عن أيسر شىء يراد منه ، فكيف بصغير لاذنب له بل كيف بصغير هو أخ وله ولهم أب مثل يعقوب فلقد أبعد من قال انهم كانوا أنبياء فى ذلك الوقت ، فما هكذا عمل الأنبياء ولا فعل الصالحين ، وفى هذا دليل على أنه يجوز أن يوحى الله الى من كان صغيرا و يعطيه النبوّة حينئذ كما وقع فى عيسى ويحيى بن زكريا ، وقد قيل انه كان فى ذلك الوقت قد بلغ مبالغ الرجال ، وهو بعيد جدّا ، فان من كان قد بلغ مبالغ الرجال لايخاف عليه أن يأكله الذئب (لتنبئنهم بأمرهم هذا) أى لتخبرنّ اخوتك بأمرهم هذا الذى فعلوه معك بعد خلوصك مما أرادوه بك من الكيد وأنزلوه عليك من الضرر ، وجملة (وهم لايشعرون) فى محل نصب على الحال : أى لايشعرون بأنك أخوهم يوسف لاعتقادهم هلاكك بالقائهم لك فى غيابة الجبّ ، ولبعد عهدهم بك ولكونك قد صرت عند ذلك فى حال غير ما كنت عليه ، وخلاف ماعهدوه منك ، وسيأتى ماقاله لهم عند دخولهم عليه بعد أن صار اليه ملك مصر * قوله (وجاءوا أباهم عشاء يبكون) عشاء منتصب على الظرفية ، وهو آخر النهار ، وقيل فى الليل ، و يبكون فى محل نصب على الحال : أى باكين أومتباكين ، لأنهم لم يبكوا حقيقة بل فعلوا فعل من يبكى ترويجا لكذبهم وتنفيقا لمكرهم وغدرهم ، فلما وصلوا إلى أبيهم (قالوا ياأبانا انا ذهبنا نستبق) أى نتسابق فى العدو ، أوفى الرمى ، وقيل ننتضل ، و يؤيده قراءة ابن مسعود ننتضل . قال الزجاج : وهو نوع من المسابقة . وقال الأزهرى : النضال فى السهام ، والرهان فى الخيل ، والمسابقة تجمعهما ، قال القشيرى نستبق : أى فى الرمى ، أوعلى الفرس ، أو على الأقدام ، والغرض من المسابقة التدرّب بذلك فى القتال (وتركنا يوسف عند متاعنا) أى عند ثيابنا ليحرسها (فأكله الذئب) الفاء للتعقيب : أى أكله عقب ذلك . وقد اعتذروا اليه بما خافه سابقا عليه ، وربّ كلمة تقول لصاحبها دعنى (وما أنت بمؤمن لنا) بمصدّق لنا فى هذا العذر الذى أبدينا ، والكلمة التى قلناها (ولوكنا) عندك أو فى الواقع (صادقين) لما قد علق بقلبك من التهمة لنا فى ذلك مع شدة محبتك له . قال الزجاج : والمعنى ولوكنا عندك من أهل الثقة ، والصدق ماصدّقتنا فى هذه القضية لشدّة محبتك ليوسف ، وكذا ذكره ابن جرير وغيره (وجاءوا على قميصه بدم كذب) على قميصه فى محل نصب على الظرفية : أى جاءوا فوق قميصه بدم ، ووصف الدم بأنه كذب مبالغة كما هو المعروف فى وصف اسم العين باسم المعنى ، وقيل المعنى بدم ذى كذب

أو بدم مكذوب فيه . وقرأ الحسن وعائشة بدم كدب بالدال المهملة : أى بدم طرى : يقال للدم الطرى كدب . وقال الشعبى انه المتغير ، والكذب أيضا البياض الذى يخرج فى أظفار الأحداث ، فيجوز أن يكون شبه الدم فى القميص بالبياض الذى يخرج فى الظفر من جهة اللونين . وقد استدل يعقوب على كذبهم بصحة القميص : وقال لهم متى كان هذا الذئب حكيما يأكل يوسف ولايخرق القميص ، ثم ذكر الله سبحانه ماأجاب به يعقوب عليهم فقال (قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا) أى زينت وسهلت ، قال النيسابورى التسويل تقرير معنى فى النفس مع الطمع فى تمامه ، وهو تفعيل من السول وهو الأمنية . قال الأزهرى وأصله مهموز غير أن العرب استثقلوا فيه الهمزة (فصبر جميل) قال الزجاج : أى فشأنى أو الذى أعتقده صبر جميل . وقال قطرب : أى فصبرى صبر جميل ، وقيل فصبر جميل أولى بى ، قيل والصبر الجميل هو الذى لاشكوى معه . قال الزجاج : قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسف فصبرا جميلا قال وكذا فى مصحف أنس قال المبرد : فصبر جميل بالرفع أولى من النصب ، لأن المعنى قال رب عندى صبر جميل ، وانما النصب على المصدر أى فلأصبرن صبرا جميلا . قال الشاعر :

شكا الىّ جملى طول السرى ❊ صبرا جميلا فكلانا مبتلى

(والله المستعان) أى المطلوب منه العون (على ماتصفون) أى على اظهار حال ماتصفون أو على احتمال ماتصفون ، وهذا منه عليه السلام انشاء لا اخبار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (أرسله معنا غدا نرتع ونلعب) قال نسعى وننشط ونلهو . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والسلفى فى الطيوريات عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « لاتلقنوا الناس فيكذبوا فان بنى يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس ، فلما لقنهم أبوهم كذبوا ، فقالوا أكله الذئب » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وأوحينا اليه) الآية . قال أوحى الى يوسف وهو فى الجب لتنبئن إخوتك بما صنعوا وهم لايشعرون بذلك الوحى . وأخرج هؤلاء عن قتادة قال : أوحى الله اليه وحيا وهو فى الجب أن سينبئهم بما صنعوا وهم : أى إخوته لايشعرون بذلك الوحى ، فهوّن ذلك الوحى عليه ماصنع به . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (وهم لايشعرون) قال لم يعلموا بوحى الله إليه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : لما دخل اخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون جىء بالصواع فوضعه على يده ، ثم نقره فطن ، فقال انه ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف يدنيه دونكم وأنكم انطلقتم به فألقيتموه فى غيابة الجب فأتيتم أباكم فقلتم : ان الذئب أكله وجئتم على قميصه بدم كذب ، فقال بعضهم لبعض : ان هذا الجام ليخبره وبخبركم ، فقال ابن عباس فلا نرى هذه الآية نزلت إلا فى ذلك لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى بكر بن عياش قال كان يوسف فى الجب ثلاثة أيام . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك (وما أنت بمؤمن لنا) قال بمصدّق لنا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس (وجاءوا على قميصه بدم كذب) قال كان دم سخلة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (وجاءوا على قميصه بدم كذب) قال لما أتى يعقوب بقميص يوسف فلم ير فيه خرقا . قال كذبتم لو كان كما تقولون أكله الذئب لخرق القميص . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا) قال أمرتكم أنفسكم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا) يقول

بل

XII 19-22

بل زينت لكم أنفسكم أمرا (فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون) أى على ماتكذبون . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب الصبر وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن حبان بن أبى جبلة قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله (فصبر جميل) قال لاشكوى فيه ، من بث لم يصبر ، وهومن طريق هشيم عن عبد الرحمن عن حبان بن أبى جبلة ، وهو مرسل . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (فصبر جميل) قال ليس فيه جزع .

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ *

هذا شروع فى حكاية خلاص يوسف وما كان بعد ذلك من خبره ، وقد تقدّم تفسير السيارة ، والمراد بها هنا : رفقة مارّة تسير من الشام إلى مصر ، فأخطئوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريبا من الجبّ ، وكان فى قفرة بعيدة من العمران ، والوارد : الذى يرد الماء ليستقى للقوم ، وكان اسمه فيما ذكر المفسرون مالك بن ذعر من العرب العاربة (فأدلى دلوه) أى أرسله ، يقال أدلى دلوه : إذا أرسلها ليملأها ، ودلاها : إذا أخرجها ، قاله الأصمعى وغيره ، فتعلق يوسف بالحبل ، فلما خرج الدلو من البئر أبصره الوارد ، ف(قال يابشراى) هكذا قرأ أهل المدينة ، وأهل مكة ، وأهل البصرة ، وأهل الشام باضافة البشرى الى الضمير ، وقرأ أهل الكوفة يابشرى غير مضاف ، ومعنى مناداته للبشرى : أنه أراد حضورها فى ذلك الوقت فكأنه قال هذا وقت مجيئك وأوان حضورك ، وقيل انه نادى رجلا اسمه بشرى * والأول أولى . قال النحاس والمعنى : من نداء البشرى التبشير لمن حضر ، وهو أوكد من قولك بشرته كما تقول ياعجبا : أى ياعجب هذا من أيامك فاحضر . قال وهذا مذهب سيبويه (وأسرّوه) أى أسرّ الوارد وأصحابه الذين كانوا معه يوسف فلم يظهروه لهم ، وقيل انهم لم يخفوه ، بل أخفوا وجدانه لهم فى الجب ، وزعموا أنه دفعه اليهم أهل الماء ليبيعوه لهم بمصر ، وقيل ضمير الفاعل فى أسرّوه لاخوة يوسف ، وضمير المفعول ليوسف ، وذلك أنه كان يأتيه أخوه يهوذا كل يوم بطعام ، فأتاه يوم خروجه من البئر فأخبر إخوته فأتوا الرفقة . وقالوا هذا غلام أبق منا فاشتروه منهم ، وسكت يوسف مخافة أن يأخذوه فيقتلوه * والأول أولى ، وانتصاب بضاعة على الحال : أى أخفوه حال كونه بضاعة : أى متاعا للتجارة ، والبضاعة : مايبضع من المال : أى يقطع منه ، لأنها قطعة من المال الذى يتجر به ؛ قيل قاله لهم الوارد وأصحابه انه بضاعة استبضعناها من الشام مخافة أن يشاركوهم فيه ، وفى قوله (والله عليم بما يعملون) وعيد شديد لمن كان فعله سببا لما وقع فيه يوسف من المحن وماصار فيه من الابتذال بجرى البيع والشراء فيه ، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم كما قال نبينا ﷺ فى وصفه بذلك * قوله (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة) يقال شراه بمعنى اشتراه ، وشراه بمعنى باعه . قال الشاعر :

* وشريت بردا ليتنى * من بعد برد كنت هامه

أى بعته . وقال آخر : * فلما شراها فاضت العين عبرة * أى اشتراها ، والمراد هنا : وباعوه : أى باعه الوارد وأصحابه (بثمن بخس) أى ناقص أو زائف ، وقيل يعود الى إخوة يوسف على القول السابق ، وقيل عائد الى الرفقة ، والمعنى : اشتروه ، وقيل بخس : ظلم ، وقيل حرام ، قيل باعوه بعشرين درهما ، وقيل بأربعين ، ودراهم بدل من ثمن : أى لادنانير ، ومعدودة وصف لدراهم ، وفيه إشارة الى أنها قليلة تعدّ ولاتوزن ، لأنهم كانوا لايزنون مادون أوقية وهى أربعون درهما (وكانوا فيه من الزاهدين) يقال زهدت وزهدت بفتح الهاء وكسرها . قال سيبويه والكسائى : قال أهل اللغة ، يقال زهد فيه : أى رغب عنه وزهد عنه : أى رغب فيه ، والمعنى أنهم كانوا فيه من الراغبين عنه الذين لايبالون به فلذلك باعوه بذلك الثمن البخس ، وذلك لأنهم التقطوه ، والملتقط للشىء : متهاون به ، والضمير من كانوا يرجع الى ماقبله على حسب اختلاف الأقوال فيه (وقال الذى اشتراه من مصر) هو العزيز الذى كان على خزائن مصر ، وكان وزيرا لملك مصر ، وهو الريان بن الوليد من العمالقة ، وقيل ان الملك هو فرعون موسى ، قيل اشتراه بعشرين دينارا ، وقيل تزايدوا فى ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكا ، وعنبرا ، وحريرا ، وورقا ، وذهبا ، ولآلئ وجواهر ، فلما اشتراه العزيز قال (لامرأته) ، واللام متعلقة باشتراه (أكرمى مثواه) أى منزله الذى يثوى فيه بالطعام الطيب واللباس الحسن ، يقال ثوى بالمكان : أى أقام به (عسى أن ينفعنا) أى يكفينا بعض المهمات مما نحتاج إلى مثله فيه (أو نتخذه ولدا) أى نتبناه فنجعله ولدا لنا ، قيل كان العزيز حصورا لايولد له ، وقيل كان لايأتى النساء ، وقد كان تفرّس فيه أنه ينوب عنه فيما إليه من أمر المملكة * قوله (وكذلك مكنا ليوسف) الكاف فى محل نصب على أنه نعت مصدر محذوف ، والاشارة الى ماتقدّم من إنجائه من إخوته و إخراجه من الجبّ ، وعطف قلب العزيز عليه ، أى مثل ذلك التمكين البديع مكنا ليوسف حتى صار متمكنا من الأمر والنهى ، يقال مكنه فيه : أى أثبته فيه ، ومكن له فيه : أى جعل له فيه مكانا ، ولتقارب المعنيين يستعمل كل واحد منهما مكان الآخر * قوله (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) هو علة لمعلل محذوف كأنه قيل فعلنا ذلك التمكين لنعلمه من تأويل الأحاديث أو كان ذلك الانجاء لهذه العلة ، أو معطوف على مقدّر ، وهو أن يقال مكنا ليوسف ليترتب على ذلك مايترتب مما جرى بينه و بين امرأة العزيز ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، ومعنى تأويل الأحاديث : تأويل الرؤيا فانها كانت من الأسباب التى بلغ بها مابلغ من التمكن ، وقيل معنى تأويل الأحاديث : فهم أسرار الكتب الالهية ، وسنن من قبله من الانبياء ، ولا مانع من حمل ذلك على الجميع (والله غالب على أمره) أى على أمر نفسه لايمتنع منه شىء ، ولا يغالبه عليه غيره من مخلوقاته ـ انما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ـ ، ومن جملة مايدخل تحت هذا العامّ كما يفيد ذلك إضافة اسم الجنس الى الضمير مايتعلق بيوسف عليه السلام من الأمور التى أرادها الله سبحانه فى شأنه ، وقيل معنى (والله غالب على أمره) أنه كان من أمر يعقوب أن لايقصّ رؤيا يوسف على إخوته ، فغلب أمر الله سبحانه حتى قصت عليهم حتى وقع منهم ماوقع ، وهذا بعيد جدّا (ولكنّ أكثر الناس لايعلمون) أى لايطلعون على غيب الله ومافى طيه من الأسرار العظيمة والحكم النافعة ، وقيل المراد بالأكثر : الجميع لأنه لايعلم الغيب إلا الله ، وقيل ان الله سبحانه قد يطلع بعض عبيده على بعض غيبه كما فى قوله ـ فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ـ ، وقيل المعنى ولكنّ أكثر الناس لايعلمون أن الله غالب على أمره وهم المشركون ، ومن لايؤمن بالقدر * قوله (ولما بلغ أشدّه آتيناه حكما وعلما) الأشد . قال سيبويه جمع واحده شدّة . وقال الكسائى واحده : شدّ . وقال أبو عبيد انه لاواحد له من لفظه عند العرب ، و يردّه قول الشاعر :

عهدى به شدّ النهار كأنما ٭ خضب البنان ورأسه بالعظلم

والأشدّ هو وقت استكمال القوّة ، ثم يكون بعده النقصان ، قيل هو ثلاث وثلاثون سنة ، وقيل بلوغ الحلم ، وقيل ثمانى عشرة سنة ، وقيل غير ذلك مما قد قدمنا بيانه فى النساء والأنعام ، والحكم هو ما كان يقع منه من الأحكام فى سلطان ملك مصر ، والعلم هو العلم بالحكم الذى كان يحكمه ، وقيل العقل والفهم والنبوّة ، وقيل الحكم هو النبوّة ، والعلم هو العلم بالدين ، وقيل علم الرؤيا ، ومن قال انه أوتى النبوّة صبيا قال المراد بهذا الحكم والعلم الذى آتاه الله هو الزيادة فيهما (وكذلك نجزى المحسنين) أى ومثل ذلك الجزاء العجيب نجزى المحسنين ، فكل من أحسن فى عمله أحسن الله جزاءه ، وجعل عاقبة الخير من جملة ما يجزيه به ، وهذا عامّ يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولا أوّليا . قال الطبرى هذا وان كان مخرجه ظاهرا على كل محسن ، فالمراد به محمد ﷺ يقول الله تعالى كما فعل هذا بيوسف ، ثم أعطيته ما أعطيته كذلك أنجيك من مشركى قومك الذين يقصدونك بالعداوة وأمكن لك فى الأرض ، والأولى ما ذكرناه من حمل العموم على ظاهره فيدخل تحته ما ذكره ابن جرير الطبرى .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله (وجاءت سيارة) قال جاءت سيارة فنزلت على الجبّ (فأرسلوا واردهم) فاستقى الماء فاستخرج يوسف فاستبشروا بأنهم أصابوا غلاما لا يعلمون علمه ولا منزلته من ربه ، فزهدوا فيه فباعوه ، وكان بيعه حراما ، وباعوه بدراهم معدودة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة (فأرسلوا واردهم) يقول فأرسلوا رسولهم (فأدلى دلوه) فنشب الغلام بالدلو ، فلما خرج (قال يابشراى هذا غلام) تباشروا به حين استخرجوه ، وهى بئر بيت المقدس معلوم مكانها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله (يابشرى) قال كان اسم صاحبه بشرى كما تقول يازيد ، وهذا على ما فيه من البعد لا يتمّ إلا على قراءة من قرأ يابشرى بدون إضافة . وأخرج أبو الشيخ عن الشعبى نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (وأسرّوه بضاعة) يعنى إخوة يوسف أسرّوا شأنه وكتموا أن يكون أخاهم وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ، واختار البيع فباعه إخوته بثمن بخس . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد قال أسرّه التجار بعضهم من بعض . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه (وأسرّوه بضاعة) قال صاحب الدلو ومن معه قالوا لأصحابهم انا استبضعناه خيفة أن يشركوهم فيه ان علموا به واتبعهم إخوته يقولون للدلى وأصحابه استوثقوا منه لا يأبق حتى وقفوا بمصر ، فقال من يبتاعنى ويبشر ، فابتاعه الملك ، والملك مسلم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (وشروه) قال إخوة يوسف باعوه حين أخرجه المدلى دلوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس قال بيع بينهم بثمن بخس ، قال حرام لم يحلّ لهم بيعه ، ولا أكل ثمنه . وأخرج ابن جرير عن قتادة (وشروه بثمن بخس) قال هم السيارة . وأخرج أبو الشيخ عن علىّ بن أبى طالب أنه قضى فى اللقيط أنه حرّ ، وقرأ (وشروه بثمن بخس) . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال البخس : القليل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الشعبى مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : انما اشترى يوسف بعشرين درهما ، وكان أهله حين أرسل اليهم بمصر ثلثمائة وتسعين انسانا : رجالهم أنبياء ، ونساؤهم صدّيقات ، والله ما خرجوا مع موسى حتى بلغوا ستمائة ألف وسبعين ألفا . وقد روى فى مقدار ثمن يوسف غير هذا المقدار مما لا حاجة الى التطويل بذكره . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وقال الذى اشتراه من مصر) قال كان اسمه

XII 23-29

قطيفير . وأخرج أبو الشيخ عن شعيب الجبائى أن اسم امرأة العزيز زليخا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن محمد بن اسحق . قال الذى اشتراه أطيفير بن روحب ، وكان اسم امرأته راعيل بنت رعاييل . وأخرج ابن جرير وابن اسحق وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : اسم الذى باعه من العزيز مالك بن ذعر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله (أكرمى مثواه) قال منزلته . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرس فى يوسف فقال لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، والمرأة التى أتت موسى فقالت لأبيها يا أبت استأجره ، وأبو بكر حين استخلف عمر . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) قال عبارة الرؤيا . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى كتاب الأضداد والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (ولما بلغ أشده) قال ثلاثا وثلاثين سنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : أربعين سنة . وأخرج عن عكرمة قال : خمسا وعشرين سنة . وأخرج عن السدى قال : ثلاثين سنة . وأخرج عن سعيد بن جبير قال : ثمانية عشر سنة . وأخرج عن ربيعة قال : الحلم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن الشعبى نحوه . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : عشرين سنة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد (وآتيناه حكما وعلما) قال هو الفقه والعلم والعقل قبل النبوة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (وكذلك نجزى المحسنين) قال المهتدين .

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ * وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ *

المراودة الارادة والطلب برفق ولين ، وقيل هى مأخوذة من الرود : أى الرفق ، والتأنى ، يقال أرودنى : أمهلنى ، وقيل المراودة مأخوذة من راد يرود : اذا جاء وذهب : كأن المعنى أنها فعلت فى مراودتها له فعل المخادع ، ومنه الرائد لمن يطلب الماء والكلأ ، وقد تخص بمحاولة الوقاع ، فيقال : راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هى عن نفسه : اذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع ، وهى مفاعلة ، وأصلها أن تكون من الجانبين فجعل السبب هنا فى أحد الجانبين قائما مقام المسبب ، فكأن يوسف عليه السلام لما كان ما أعطيه من كمال الخلق والزيادة فى الحسن سببا لمراودة امرأة العزيز له مراود ، وانما قال : التى هو فى بيتها ، ولم يقل

امرأة العزيز ، وزليخا ، قصدا الى زيادة التقرير مع استهجان التصريح باسم المرأة والمحافظة على الستر عليها (وغلقت الأبواب) قيل فى هذه الصيغة مايدل على التكثير ، فيقال غلق الأبواب ، ولايقال غلق الباب ، بل يقال أغلق الباب ، وقد يقال أغلق الأبواب ، ومنه قول الفرزدق فى أبى عمرو بن العلاء :

مازلت أغلق أبوابا وأفتحها * حتى أتيت أبا عمرو بن عمار

قيل وكانت الأبواب سبعة * قوله (هيت لك) . قرأ أبو عمرو وعاصم والكسائى وحمزة والأعمش بفتح الهاء وسكون الياء وفتح التاء ، وبها قرأ ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد وعكرمة قال ابن مسعود : لاتنطعوا فى القراءة ، فانما هو مثل قول أحدكم هلم وتعال . وقرأ ابن أبى اسحق النحوى بفتح الهاء وكسر التاء . وقرأ عبد الرحمن السلمى وابن كثير هيت بفتح الهاء وضم التاء ، ومنه قول طرفة :

ليس قومى بالأبعدين اذا ما * قال داع من العشيرة هيت

وقرأ أبو جعفر ونافع بكسر الهاء وسكون الياء وفتح التاء . وقرأ على وابن عباس فى رواية عنه وهشام بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة وضم التاء . وقرأ ابن عامر وأهل الشام بكسر الهاء وبالهمزة وفتح التاء ، ومعنى هيت على جميع القراءات معنى هلم وتعال ، لأنها من أسماء الأفعال الا فى قراءة من قرأ بكسر الهاء بعدها همزة وتاء مضمومة ، فانها بمعنى تهيأت لك ، وأنكر أبو عمرو هذه القراءة . وقال أبو عبيدة : سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء والهمزة وضم التاء فقال باطل جعلها بمعنى تهيأت اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهى الى اليمن ، هل تعرف أحدا يقول هكذا ، وأنكرها أيضا الكسائى . وقال النحاس : هى جيدة عند البصريين ، لأنه يقال : هاء الرجل يهاء ويهىء هيئة ، ورجح الزجاج القراءة الأولى ، وأنشد بيت طرفة المذكور هنا بالفتح ، ومنه قول الشاعر فى على بن أبى طالب رضى الله عنه :

أبلغ أمير المؤمنينا * أخا العراق اذا أتينا

ان العراق وأهله * سلم اليك فهيت هيتا

وتكون اللام فى (لك) على القراءات الأولى التى هى فيها بمعنى اسم الفعل للبيان : أى لك * أقول هذا كما فى هلم لك . قال النحويون : هيت جاء بالحركات الثلاث ، فالفتح للخفة ، والكسر لالتقاء الساكنين ، والضم تشبيها بحيث ، واذا بين باللام نحو هيت لك فهو صوت قائم مقام المصدر كأف له : أى لك أقول هذا وان لم يبين باللام فهو صوت قائم مقام مصدر الفعل فيكون اسم فعل ، إما خبر : أى تهيأت ، وإما أمر أى أقبل . وقال فى الصحاح : يقال هوت به وهيت به اذا صاح به ودعاه ، ومنه قول الشاعر : * يحدو بها كل فتى هيات * وقد روى عن ابن عباس والحسن أنها كلمة سريانية معناها أنها تدعوه الى نفسها . قال أبو عبيدة كان الكسائى يقول : هى لغة لأهل حوران وقعت الى أهل الحجاز معناها تعال . قال أبو عبيدة فسألت شيخا عالما من حوران فذكر أنها لغتهم (قال معاذ الله) أى أعوذ بالله معاذا مما دعوتنى اليه فهو مصدر منتصب بفعل محذوف مضاف الى اسم الله سبحانه ، وجملة (انه ربى أحسن مثواى) تعليل للامتناع الكائن منه ببعض الأسباب التى هى أقرب الى فهم امرأة العزيز ، والضمير للشأن : أى ان الشأن ربى يعنى العزيز : أى سيدى الذى ربانى وأحسن مثواى حيث أمرك بقوله (أكرمى مثواه) ، فكيف أخونه فى أهله وأجيبك الى ماتريدين من ذلك . وقال الزجاج ان الضمير لله سبحانه : أى ان الله ربى تولانى بلطفه فلا أركب ماحرمه ، وجملة (انه لايفلح الظالمون) تعليل آخر للامتناع منه عن اجابتها ، والفلاح الظفر * والمعنى أنه لايظفر الظالمون بمطالبهم ، ومن جملة الظالمين الواقعون فى مثل هذه المعصية التى تطلبها امرأة العزيز من يوسف * قوله (ولقد همت به وهم بها) يقال هم بالأمر : اذا قصده وعزم

عليه * والمعنى أنه همّ بمخالطتها كما همت بمخالطته ومال كل واحد منهما الى الآخر بمقتضى الطبيعة البشرية والجبلة الخلقية ، ولم يكن من يوسف عليه السلام القصد الى ذلك اختيارا كما يفيده ماتقدم من استعاذته بالله وان ذلك نوع من الظلم ، ولما كان الأنبياء معصومين عن الهمّ بالمعصية والقصد اليها شطح أهل العلم فى تفسيرهذه الآية بما فيه نوع تكلف ، فمن ذلك ماقاله أبوحاتم قال : كنت أقرأ على أبى عبيدة غريب القرآن فلما أتيت على ولقد همت به وهمّ بها قال هذا على التقديم والتأخير : كأنه قال : ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها . وقال أحمد بن يحيى ثعلب : أى همت زليخا بالمعصية وكانت مصرة ، وهمّ يوسف ولم يوقع ماهمّ به فبين الهمين فرق ، ومن هذا قول الشاعر :

هممت بهمّ من ثنية لؤلؤ * شفيت غليلات الهوى من فؤاديا

فهذا انما هو حديث نفس من غيرعزم ، وقيل همّ بها ، أى همّ بضربها ، وقيل همّ بها بمعنى تمنى أن يتزوجها . وقد ذهب جمهور المفسرين من السلف والخلف الى ماقدمنا من حمل اللفظ على معناه اللغوى ، ويدل على هـذا ماسيأتى من قوله ـ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ـ * وقوله ـ وماأبرئ نفسى ان النفس لأمارة بالسوء ـ ومجرد الهمّ لاينافى العصمة ، فانها قدوقعت العصمة عن الوقوع فى المعصية ، وذلك المطلوب ، وجواب لو فى (لولا أن رأى برهان ربه) محذوف : أى لولا أن رأى برهان ربه لفعل ماهمّ به .

واختلف فى هذا البرهان الذى رآه ماهو ؟ فقيل ان زليخا قامت عند أن همت به وهمّ بها الى صنم لها فى زاوية البيت فسترته بثوب فقال ماتصنعين ؟ قالت أستحى من إلهى هـذا أن يرانى على هذه الصورة فقال يوسف أنا أولى أن أستحى من الله تعالى ، وقيل انه رأى فى سقف البيت مكتوبا ـ ولاتقربوا الزنا انه كان فاحشة ـ الآية ، وقيـل رأى كفا مكتوبا عليها ـ وان عليكم لحافظين ـ ، وقيل ان البرهان هو تذكره عهد الله وميثاقه وماأخذه على عباده ، وقيـل نودى يايوسف أنت مكتوب فى الأنبياء وتعمل عمل السفهاء ، وقيل رأى صورة يعقوب على الجدار عاضا على أنملته يتوعده ، وقيل غير ذلك ممـا يطول ذكره * والحاصل أنه رأى شيئا حال بينه و بين ماهمّ به * قوله (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) الكاف نعت مصـدر محذوف ، والاشارة بذلك الى الاراءة المدلول عليها بقوله (لولا أن رأى برهان ربه) أوالى التثبيت المفهوم من ذلك : أى مثل تلك الاراءة أريناه ، أومثل ذلك التثبيت ثبتناه (لنصرف عنـه السوء) أى كل مايسوؤه ، والفحشاء كل أمر مفرط القبح ، وقيل السوء : الخيانة للعزيز فى أهله ، والفحشاء الزنا ، وقيل السوء : الشهوة ، والفحشاء المباشرة ، وقيل السوء الثناء القبيح ، والأولى الحمل على العموم فيدخل فيه مايدل عليه السياق دخولا أوليا ، وجملة (انه من عبادنا المخلصين) تعليل لما قبله . قرأ ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو المخلصين بكسر اللام . وقرأ الآخرون بفتحها * والمعنى على القراءة الأولى أن يوسف عليه السلام كان ممن أخلص طاعته لله ، وعلى الثانية أنه كان ممن استخلصه الله للرسالة ، وقد كان عليه السلام مخلصا مستخلصا (واستبقا الباب) أى تسابقا اليه ، فحذف حرف الجر وأوصل الفعل بالمفعول أو ضمن الفعل معنى فعل آخر يتعدى بنفسه كابتدرا الباب ، وهذا الكلام متصل بقوله (ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه) ومابينهما اعتراض ، ووجه تسابقهما أن يوسف يريد الفرار والخروج من الباب ، وامرأة العزيز تريد أن تسبقه اليه لتمنعه ، ووحد الباب هنا وجمعه فيما تقدم ، لأن تسابقهما كان الى الباب الذى يخلص منه الى خارج الدار (وقدّت قميصه من دبر) أى جذبت قميصه من ورائه فانشق الى أسفله ، والقدّ : القطع ، وأكثر مايستعمل فيما كان طولا ، والقط بالطاء يستعمل فيما كان عرضا ، وقع منها ذلك عند أن فرّ يوسف لما رأى برهان ربه فأرادت أن تمنعه من الخروج بجذبها لقميصه (وألفيا سيدها لدى الباب)

أى

أى وجدا العزيز هنالك ، وعنى بالسيد : الزوج ، لأن القبط يسمون الزوج سيدا ، وانما لم يقل سيدهما ، لأن ملكه ليوسف لم يكن صحيحا فلم يكن سيدا له ، وجملة (قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءا) مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فما كان منهما عند أن ألفيا سيدها لدى الباب ، وما استفهامية ، والمراد بالسوء هنا الزنا ، قالت هذه المقالة طلبا منها للحيلة والستر على نفسها ، فنسبت ما كان منها الى يوسف : أى جزاء يستحقه من فعل مثل فعل هذا ، ثم أجابت عن استفهامها بقولها (الا أن يسجن) أى ماجزاؤه الا أن يسجن ، ويحتمل أن تكون ما نافية : أى ليس جزاؤه الا السجن ، أو العذاب الأليم ، قيل والعذاب الأليم هو الضرب بالسياط ، والظاهر أنه مايصدق عليه العذاب الأليم من ضرب أو غيره ، وفى الابهام للعذاب زيادة تهويل ، وجملة (قال هى راودتنى عن نفسى) مستأنفة كالجملة الأولى . وقد تقدم بيان معنى المراودة أى هى التى طلبت منى ذلك ولم أرد بها سوءا (وشهد شاهد من أهلها) أى من قرابتها ، وسمى الحكم بينهما شهادة لما يحتاج فيه من التثبت والتأمل ؛ قيل لما التبس الأمر على العزيز احتاج الى حاكم يحكم بينهما ليتبين له الصادق من الكاذب ؛ قيل كان ابن عم لها واقفا مع العزيز فى الباب ، وقيل ابن خال لها ، وقيل انه طفل فى المهد تكلم . قال السهيلى : وهو الصحيح للحديث الوارد فى ذلك عن النبى ﷺ فى ذكر من تكلم فى المهد ، وذكر من جملتهم شاهد يوسف ، وقيل انه رجل حكيم كان العزيز يستشيره فى أموره ، وكان من قرابة المرأة (ان كان قميصه قد من قبل) أى فقال الشاهد هذه المقالة مستدلا على بيان صدق الصادق منهما وكذب الكاذب بأن قميص يوسف ان كان مقطوعا من قبل : أى من جهة القبل (فصدقت) أى فقد صدقت بأنه أراد بها سوءا (وهو من الكاذبين) فى قوله انها راودته عن نفسه . وقرأ يحيى بن يعمر وابن أبى اسحاق من قبل بضم اللام . وكذا قرأ من دبر . قال الزجاج : جعلاهما غايتين كقبل و بعد كأنه قيل من قبله ومن دبره ، فلما حذف المضاف اليه : وهو مراد صار المضاف غاية بعد أن كان المضاف اليه هو الغاية (وان كان قميصه قد من دبر) أى من ورائه (فكذبت) فى دعواها عليه (وهو من الصادقين) فى دعواه عليها ، ولايخفى أن هاتين الجملتين الشرطيتين لاتلازم بين مقدميهما وتاليهما ، لا عقلا ولا عادة ، وليس هاهنا الا مجرد أمارة غير مطردة ، إذ من الجائز أن تجذبه اليها وهو مقبل عليها فينقد القميص من دبر ، وأن تجذبه وهو مدبر عنها فينقد القميص من قبل (فلما رأى) أى العزيز (قميصه) أى قميص يوسف (قد من دبر قال انه) أى هذا الأمر الذى وقع فيه الاختلاف بينكما ، أو ان قولك : ماجزاء من أراد بأهلك سوءا (من كيدكن) أى من جنس كيدكن يامعشر النساء (ان كيدكن عظيم) والكيد : المكر والحيلة ، ثم خاطب العزيز يوسف عليه السلام بقوله (يوسف أعرض عن هذا) أى عن هذا الأمر الذى جرى واكتمه ولاتتحدث به ، ثم أقبل عليها بالخطاب ، فقال (واستغفرى لذنبك) الذى وقع منك (انك كنت) بسبب ذلك (من الخاطئين) أى من جنسهم ، والجملة تعليل لما قبلها من الأمر بالاستغفار ولم يقل من الخاطئات تغليبا للذكر على المؤنث كما فى قوله ــ وكانت من القانتين ــ ومعنى من الخاطئين من المتعمدين ، يقال خطئ اذا أذنب متعمدا ، وقيل ان القائل ليوسف ولامرأة العزيز بهذه المقالة هو الشاهد الذى حكم بينهما .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه) قال هى امرأة العزيز . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال راودته حين بلغ مبلغ الرجال . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله (هيت لك) قال : هلم لك تدعوه الى نفسها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : هلم لك بالقبطية . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : هى كلمة بالسريانية : أى عليك . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : معناها تعال .

XII 50-314

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد أنها لغة عربية تدعوه بها الى نفسها . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قرأ هئت لك مكسورة الهاء مضمومة التاء مهموزة قال : تهيأت لك . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (انه ربي) قال سيدى ، قال : يعني زوج المرأة . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : لما همت به تزينت ثم استلقت على فراشها وهمّ بها جلس بين رجليها يحلّ ثيابه ، فنودى من السماء يابن يعقوب لاتكن كطائر نتف ريشه فبقي لاريش له ، فلم يتعظ على النداء شيئا حتى رأى برهان ربه جبريل فى صورة يعقوب عاضا على أصبعه ففزع ، فخرجت شهوته من أناملة ، فوثب الى الباب فوجده مغلقا ، فرفع يوسف رجله فضرب بها الباب الأدنى فانفرج له واتبعته فأدركته : فوضعت يديها فى قميصه فشقته حتى بلغت عضلة ساقه فألفيا سيدها لدى الباب . وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن عليّ بن أبي طالب فى قوله (همت به وهمّ بها) قال : طمعت فيه وطمع فيها ، وكان فيه من الطمع أن همّ أن يحلّ التكة فقامت الى صنم لها مكلل بالدرّ والياقوت فى ناحية البيت فسترته بثوب أبيض بينها وبينه ، فقال : أى شيء تصنعين ؟ فقالت أستحي من إلهي أن يراني على هذه السوءة ، فقال يوسف تستحيين من صنم لايأكل ولايشرب ، ولا أستحي أنا من إلهي الذى هو قائم على كل نفس بما كسبت ، ثم قال لاتناليها مني أبدا ، وهو البرهان الذى رأى . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله (لولا أن رأى برهان ربه) قال مثل له يعقوب ، فضرب بيده فى صدره فخرجت شهوته من أنامله . وقد أطال المفسرون فى تعيين البرهان الذى رآه ، واختلفت أقوالهم فى ذلك اختلافا كثيرا . وأخرج ابن جرير عن زيد بن ثابت قال السيد : الزوج يعنى فى قوله (وألفيا سيدها لدى الباب) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (الا أن يسجن أو عذاب أليم) قال : القيد . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (وشهد شاهد من أهلها) قال صبيّ أنطقه الله كان فى الدار . وأخرج أحمد وابن جرير والبيهقي فى الدلائل عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال « تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (وشهد شاهد من أهلها) قال كان رجلا ذا لحية . وأخرج الفريابي وابن جرير وأبو الشيخ عنه قال كان من خاصة الملك . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال هو رجل له فهم وعلم . وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال ابن عمّ لها كان حكيما . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال انه ليس بانسيّ ولا جنيّ هو خلق من خلق الله . قلت ولعله لم يستحضر قوله تعالى (من أهلها) .

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ

مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّٰغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَٰهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *

يقال نسوة بضم النون ، وهى قراءة الأعمش والفضل وسليمان ، ويقال نسوة بكسر النون ، وهى قراءة الباقين والمراد جماعة من النساء ، ويجوز التذكير فى الفعل المسند إليهن كما يجوز التأنيث ، قيل : وهن امرأة ساقى العزيز وامرأة خبازه ، وامرأة صاحب دوابه ، وامرأة صاحب سجنه ، وامرأة حاجبه ، والفتى فى كلام العرب : الشاب ، والفتاة : الشابة ، والمراد به هنا : غلامها ، يقال فتاى وفتاتى : أى غلامى وجاريتى ، وجملة (قد شغفها حبا) فى محل رفع على أنها خبر ثان لمبتدأ ، أوفى محل نصب على الحال ، ومعنى شغفها حبا : غلبها حبه ، وقيل دخل حبه فى شغافها . قال أبو عبيدة وشغاف القلب : غلافه وهو جلدة عليه ، وقيل هو وسط القلب ، وعلى هذا يكون المعنى دخل حبه الى شغافها فغلب عليه ، وأنشد الأصمعى قول الراجز : * يتبعها وهى له شغاف * . وقرأ جعفر بن محمد وابن محيصن والحسن شعفها بالعين المهملة . قال ابن الأعرابى معناه : أجرى حبه عليها . وقرأ غيرهم بالمعجمة . قال الجوهرى شعفه الحبّ : أحرق قلبه . وقال أبو زيد : أمرضه . قال النحاس معناه عند أكثر أهل اللغة قد ذهب بها كل مذهب لأن شعاف الجبال : أعاليها ، وقد شغف بذلك شغفا باسكان الغين المعجمة : اذا ولع به ، وأنشد أبو عبيدة بيت امرئ القيس :

أتقتلنى من قد شغفت فؤادها * كما شعف المهنوءة الرجل الطالى

قال فشبهت لوعة الحبّ بذلك . وقرأ الحسن قد شغفها بضم الغين . قال النحاس : وحكى قد شغفها بكسر الغين ، ولا يعرف ذلك فى كلام العرب الاشغفها بفتح الغين ، ويقال ان الشغاف : الجلدة اللاصقة بالكبد التى لاترى ، وهى الجلدة البيضاء فكأنه لصق حبه بقلبها كلصوق الجلدة بالكبد ، وجملة (انا لنراها فى ضلال مبين) مقرّرة لمضمون ماقبلها * والمعنى انا لنراها : أى نعلمها فى فعلها هذا ، وهو المراودة لفتاها فى ضلال عن طريق الرشد والصواب مبين : واضح لايلتبس على من نظر فيه (فلما سمعت) امرأة العزيز (بمكرهنّ) أى بغيبتهنّ إياها ، سميت الغيبة مكرا لاشتراكهما فى الاخفاء ، وقيل أردن أن يتوسلن بذلك إلى رؤية يوسف ، فلهذا سمى قولهنّ مكرا ، وقيل انها أسرّت عليهنّ فأفشين سرّها فسمى ذلك مكرا (أرسلت اليهنّ) أى تدعوهنّ اليها لينظرن إلى يوسف حتى يقعن فيما وقعت فيه (وأعتدت لهنّ متكأ) أى هيأت لهنّ مجالس يتكئن عليها ، وأعتدت من الاعتداد ، وهو كل ماجعلته عدّة لشىء . وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير متكا مخففا غير مهموز ، والمتك هو الأترج بلغة القبط ، ومنه قول الشاعر :

نشرب الاثم بالصواع جهارا * وترى المتك بيننا مستعارا

وقيل ان ذلك هولغة أزدشنوءة ، وقيل حكى ذلك عن الأخفش . وقال الفراء : انه ماء الورد . وقرأ الجمهور متكأ بالهمز ، والتشديد ، وأصح ماقيل فيه انه المجلس ، وقيل هو الطعام ، وقيل المتكأ كل ما اتكئ عليه عند طعام أو شراب أو حديث . وحكى القتيبى أنه يقال اتكأنا عند فلان : أى أكلنا ، ومنه قول الشاعر :

فظللنا بنعمة واتكأنا * وشربنا الحلال من قلله

ويؤيد هذا قوله (وآتت كل واحدة منهن سكينا) فان ذلك انما يكون لشىء يأكلنه بعد أن يقطعنه ، والسكين تذكر وتؤنث ، قاله الكسائى والفراء . قال الجوهرى والغالب عليه التذكير ، والمراد من إعطائها لكل واحدة سكينا أن يقطعن مايحتاج الى التقطيع من الأطعمة ، ويمكن أنها أرادت بذلك ماسيقع منهن من تقطيع أيديهن (وقالت) ليوسف (اخرج عليهن) أى فى تلك الحالة التى هن عليها من الاتكاء والأكل وتقطيع مايحتاج الى التقطيع من الطعام * قوله (فلما رأينه أكبرنه) أى عظمنه ، وقيل أمذين ، ومنه قول الشاعر :

اذا مارأين الفحل من فوق قلة * صهلن وأكبرن المنىّ المقطرا

وقيل حضن . قال الأزهرى : أكبرن بمعنى حضن ، والهاء للسكت ، يقال أكبرت المرأة : أى دخلت فى الكبر بالحيض ، وقع منهن ذلك دهشا وفزعا لما شاهدنه من جماله الفائق ، وحسنه الرائق ، ومن ذلك قول الشاعر :

نأتى النساء على أطهارهن ولا * نأتى النساء اذا أكبرن إكبارا

وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره . وقالوا ليس ذلك فى كلام العرب . قال الزجاج ، يقال أكبرنه ولا يقال حضنه فليس الاكبار بمعنى الحيض . وأجاب الأزهرى ، فقال يجوز أن تكون هاء الوقف لاهاء الكناية . وقد زيف هذا بأن هاء الوقف تسقط فى الوصل . وقال ابن الأنبارى ان الهاء كناية عن مصدر الفعل : أى أكبرن إكبارا بمعنى حضن حيضا (وقطعن أيديهن) أى جرحنها ، وليس المراد به القطع الذى تبين منه اليد ، بل المراد به الخدش والحزّ ، وذلك معروف فى اللغة كما قال النحاس ، يقال قطع يد صاحبه : اذا خدشها ، وقيل المراد بأيديهن هنا : أناملهن ، وقيل أكمامهن * والمعنى أنه لما خرج يوسف عليهن أعظمنه ودهشن وراعهن حسنه حتى اضطربت أيديهن فوقع القطع عليها وهن فى شغل عن ذلك بما دهمهن ، مما تطيش عنده الأحلام ، وتضطرب له الأبدان ، وتزول به العقول (وقلن حاشا لله) كذا قرأ أبو عمرو بن العلاء باثبات الألف فى حاشا . وقرأ الباقون بحذفها . وقرأ الحسن حاش لله باسكان الشين . وروى عنه أنه قرأ حاش الاله ، وقرأ ابن مسعود وأبىّ حاشا الله . قال الزجاج ، وأصل الكلمة من الحاشية بمعنى الناحية ، تقول كنت فى حاشية فلان : أى فى ناحيته ، فقولك حاشا لزيد من هذا : أى تباعد منه . وقال أبو علىّ هو من المحاشاة ، وقيل ان حاش حرف ، وحاشا فعل ، وكلام أهل النحو فى هذه الكلمة معروف ، ومعناها هنا التنزيه كما تقول أسى القوم حاشا زيدا ، فمعنى حاشا لله : براءة لله وتنزيه له * قوله (ماهذا بشرا) إعمال ما عمل ليس هى لغة أهل الحجاز ، وبها نزل القرآن كهذه الآية ، وكقوله سبحانه ـ ماهن أمهاتهم ـ ، وأما بنو تميم فلا يعملونها عمل ليس . وقال الكوفيون أصله ماهذا ببشر ، فلما حذفت الباء انتصب . قال أحمد بن يحيى ثعلب : اذا قلت ما زيد بمنطلق فموضع الباء موضع نصب ، وهكذا سائر حروف الخفض ، وأما الخليل وسيبويه وجمهور النحويين فقد أعملوها عمل ليس ، وبه قال البصريون والبحث مقرّر فى كتب النحو بشواهده وحججه ، وانما نفين عنه البشرية لأنه قد برز فى صورة قد لبست من الجمال البديع مالم يعهد على أحد من البشر ، ولا أبصر المبصرون مايقاربه فى جميع الصور البشرية ، ثم لما نفين عنه البشرية لهذه العلة أثبتن له الملكية وان كن لايعرفن الملائكة لكنه قد تقرّر فى الطباع أنهم على شكل فوق شكل البشر فى الذات والصفات ، وأنهم فائقون فى كل شىء كما تقرّر أن الشياطين على العكس من ذلك ، ومن هذا قول الشاعر :

فلست لانسى ولكن لملأك * تنزل من جوّ السماء يصوّت

وقرأ

وقرأ الحسن ماهذا بشراء على أن الباء حرف جرّ ، والشين مكسورة : أى ماهذا بعبد يشترى ، وهذه قراءة ضعيفة لاتناسب مابعدها من قوله (إن هذا إلا ملك كريم) * واعلم أنه لايلزم من قول النسوة هذا أن الملائكة صورهم أحسن من صور بنى آدم فانهن لم يقلنه لدليل ، بل حكمن على الغيب بمجرد الاعتقاد المرتكز فى طباعهن ، وذلك ممنوع ، فان الله سبحانه يقول ـ لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ـ * وظاهر هذا أنه لم يكن شىء مثله من أنواع المخلوقات فى حسن تقويمه ، وكمال صورته ، فما قاله صاحب الكشاف فى هذا المقام هو من جملة تعصباته لما رسخ فى عقله من أقوال المعتزلة ، على أن هذه المسألة : أعنى مسألة المفاضلة بين الملائكة والبشر ليست من مسائل الدين فى ورد ولا صدر ، فما أغنى عباد الله عنها وأحوجهم إلى غيرها من مسائل التكليف (قالت فذلكن الذى لمتننى فيه) الاشارة الى يوسف ، والخطاب للنسوة : أى عيرتننى فيه . قالت لهنّ هذا لما رأت افتتانهن بيوسف إظهارا لعذر نفسها ، ومعنى فيه : أى فى حبه ، وقيل الاشارة الى الحب ، والضمير له أيضا ، والمعنى فذلك الحبّ الذى لمتننى فيه هو ذلك الحبّ ، والأوّل أولى ، ورجحه ابن جرير ، وأصل اللوم : الوصف بالقبيح ، ثم لما أظهرت عذر نفسها عند النسوة بما شاهدته مما وقعن فيه عند ظهوره لهنّ ضاق صدرها عن كتم ماتجده فى قلبها من حبه ، فأقرّت بذلك وصرّحت بما وقع منها من المراودة له ، فقالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أى استعف وامتنع مما أريده طالبا لعصمة نفسه عن ذلك ، ثم توعدته ان لم يفعل ماتريده كاشفة لجلباب الحياء هاتكة لستر العفاف ، فقالت (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) أى لئن لم يفعل ماقد أمرته به فيما تقدّم ذكره عند أن غلقت الأبواب وقالت هيت لك ليسجنن : أى يعتقل فى السجن وليكونن من الصاغرين الأذلاء لما يناله من الاهانة ، ويسلب عنه من النعمة والعزّة فى زعمها ، قرئ ليكونن بالتثقيل والتخفيف ، قيل والتخفيف أولى ، لأن النون كتبت فى المصحف ألفا على حكم الوقف ، وذلك لايكون إلا فى الخفيفة ، وأما ليسجننّ فبالتثقيل لاغير ، فلما سمع يوسف مقالها هذا ، وعرف أنها عزمة منها مع ماقد علمه من نفاذ قولها عند زوجها العزيز . قال مناجيا لربه سبحانه (ربّ السجن) أى يارب السجن الذى أوعدتنى هذه به (أحبّ الىّ مما يدعوننى اليه) من مؤاتاتها والوقوع فى المعصية العظيمة التى تذهب بخير الدنيا والآخرة . قال الزجاج أى دخول السجن ، فحذف المضاف . وحكى أبو حاتم أن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قرأ السجن بفتح السين ، وقرأ كذلك ابن أبى اسحق وعبد الرحمن الأعرج ويعقوب ، وهو مصدر سجنه سجنا ، وإسناد الدعوة اليهن جميعا ، لأن النسوة رغبنه فى مطاوعتها وخوّفنه من مخالفتها ، ثم جرى على هذا فى نسبة الكيد اليهنّ جميعا ، فقال (وإلا تصرف عنى كيدهنّ) أما الكيد من امرأة العزيز فما قد قصه الله سبحانه فى هذه السورة ، وأما كيد سائر النسوة فهو ماتقدم من الترغيب له فى المطاوعة والتخويف من المخالفة ، وقيل انها كانت كل واحدة تخلو به وحدها وتقول له يايوسف اقض لى حاجتى فأنا خير لك من امرأة العزيز ، وقيل انه خاطب امرأة العزيز بما يصلح لخطاب جماعة النساء تعظيما لها ، أو عدولا عن التصريح الى التعريض ، والكيد : الاحتيال ، وجزم (أصب اليهنّ) على أنه جواب الشرط : أى أمل اليهنّ ، من صبا يصبو : اذا مال واشتاق ، ومنه قول الشاعر :

إلى هند صبا قلبى * وهند حبها يصبى

(وأكن من الجاهلين) معطوف على أصب : أى أكن ممن يجهل مايحرم ارتكابه ويقدم عليه ، أو ممن يعمل عمل الجهال * قوله (فاستجاب له ربه) لما قال : وإلا تصرف عنى كيدهنّ كان ذلك منه تعرضا للدعاء ، وكأنه قال : اللهمّ اصرف عنى كيدهنّ ، فالاستجابة من الله تعالى له هى بهذا الاعتبار ، لأنه لم

يتقدم دعاء صريح منه عليه السلام ، والمعنى أنه لطف به وعصمه عن الوقوع فى المعصية ، لأنه اذا صرف عنه كيدهنّ لم يقع شىء مما رمنه منه ، ووجه إسناد الكيد قد تقدم ، وجملة (انه هو السميع العليم) تعليل لما قبلها من صرف كيد النسوة عنه : أى انه هو السميع لدعوات الداعين له : العليم بأحوال الملتجئين اليه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (قد شغفها) قال غلبها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه (قد شغفها) قال قتلها حبّ يوسف الشغف : الحبّ القاتل ، والشعف : حبّ دون ذلك ، والشغاف : حجاب القلب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا (قد شغفها) قال قد علقها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (فلما سمعت بمكرهنّ) قال بحديثهنّ . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان (فلما سمعت بمكرهنّ) قال بعملهنّ ، وكل مكر فى القرآن فهو عمل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى قوله (وأعتدت لهنّ متكأ) قال هيأت لهنّ مجلسا ، وكان سنتهم إذا وضعوا المائدة أعطوا كل انسان سكينا يأكل بها (فلما رأينه) قال فلما خرج عليهنّ يوسف (أكبرنه) قال أعظمنه ونظرن اليه ، وأقبلن يحززن أيديهنّ بالسكاكين وهنّ يحسبن أنهنّ يقطعن الطعام . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس (وأعتدت لهنّ متكأ) قال أعطتهنّ أترنجا ، وأعطت كل واحدة منهنّ سكينا ، فلما رأين يوسف أكبرنه ، وجعلن يقطعن يديهنّ وهنّ يحسبن أنهنّ يقطعن الاترنج . وأخرج مسدد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه المتكأ : الاترنج ، وكان يقرؤها خفيفة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد (متكأ) قال طعاما . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عنه قال هو الاترنج . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال هو كل شىء يقطع بالسكين . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الضحاك مثله . وأخرج أبو الشيخ من طريق عبد العزيز بن الوزير بن الكميت بن زيد قال حدثنى أبى عن جدى يقول فى قوله (فلما رأينه أكبرنه) قال أمنين ، وأنشد :

ولما رأته الخيل من رأس شاهق * صهلن وأمنين المنىّ المدفقا

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عبد الصمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده ابن عباس فى قوله (فلما رأينه أكبرنه) قال لما خرج عليهنّ يوسف حضن من الفرح ، وذكر قول الشاعر الذى قدمنا ذكره : نأتى النساء لدى أطهارهنّ البيت . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (أكبرنه) قال أعظمنه (وقطعن أيديهنّ) قال حزا بالسكين حتى ألقينها (وقلن حاشا لله) قال معاذ الله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (ان هذا الا ملك كريم) قال قلن ملك من الملائكة من حسنه . وأخرج أبو الشيخ عن منبه عن أبيه قال مات من النسوة التى قطعن أيديهنّ تسع عشرة امرأة كمدا . وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم عن أنس عن النبى ﷺ قال أعطى يوسف وأمه شطر الحسن ، وقد وردت روايات عن جماعة من السلف فى وصف حسن يوسف ، والمبالغة فى ذلك ، ففى بعضها أنه أعطى نصف الحسن ، وفى بعضها ثلثه ، وفى بعضها ثلثيه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (فاستعصم) قال امتنع . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة (فاستعصم) قال فاستعصى . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله (والا تصرف عنى كيدهنّ) قال ان لا تكن منك أنت القوى والمنعة لا تكن منى ولا عندى . وأخرج

ابن

ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ (أصب اليهن) قال أتبعهن . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال أطاوعهن .

ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ * وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ *

معنى (بدا لهم) ظهر لهم ، والضمير للعزيز وأصحابه الذين يدبرون الأمر معه ويشيرون عليه ، وأما فاعل (بدا لهم) فقال سيبويه هو (ليسجننه) أى ظهر لهم أن يسجنوه . قال المبرد : وهذا غلط ، لأن الفاعل لا يكون جملة ، ولكن الفاعل مادلّ عليه بدا ، وهو المصدر كما قال الشاعر :

وحق لمن أبو موسى أبوه * يوفقه الذى نصب الجبالا

أى وحق الحقّ فحذف الفاعل لدلالة الفعل عليه ، وقيل الفاعل المحذوف هو رأى : أى وظهر لهم رأى لم يكونوا يعرفونه من قبل ، وهذا الفاعل حذف لدلالة ليسجننه عليه ، واللام فى ليسجننه جواب قسم محذوف على تقدير القول : أى ظهر لهم من بعد ماراوا الآيات قائلين والله ليسجننه . وقرئ لتسجننه بالمثناة فوقية على الخطاب ، اما للعزيز ومن معه ، أوله وحده على طريق التعظيم ، والآيات . قيل هى القميص وشهادة الشاهد وقطع الأيدى . وقيل هى البركات التى فتحها الله عليهم بعد وصول يوسف اليهم ولم يجد ذلك فيهم بل كانت امرأته هى الغالبة على رأيه الفاعلة لما يطابق هواها فى يوسف ، وانفاذ ماتقدّم منها من الوعيد له بقولها ـ ولئن لم يفعل ما آمره به ليسجنن وليكونن من الصاغرين ـ قيل وسبب ظهور هذا الرأى لهم فى سجن يوسف أنهم أرادوا ستر القالة ، وكتم ماشاع فى الناس من قصة امرأة العزيز معه ، وقيل ان العزيز قصد بسجنه الحيلولة بينه وبين امرأته لما علم أنها قد صارت بمكان من حبه لاتبالى معه بحمل نفسها عليه على أىّ صفة كانت ، ومعنى قوله (حتى حين) إلى مدّة غير معلومة كما قاله أكثر المفسرين ، وقيل إلى انقطاع ماشاع فى المدينة . وقال سعيد بن جبير الى سبع سنين ، وقيل الى خمس ، وقيل الى ستة أشهر وقد تقدّم فى البقرة الكلام فى تفسير الحين ، وحتى بمعنى الى * قوله (ودخل معه السجن فتيان) فى الكلام حذف متقدّم عليه ، والتقدير وبدا لهم من بعد ماراوا الآيات ليسجننه حتى حين فسجنوه ودخل معه السجن فتيان ، ومع للصاحبة ، وفتيان تثنية فتى ، وذلك يدلّ على أنهما عبدان له ، ويحتمل أن يكون الفتى اسما للخادم وان لم يكن مملوكا ، وقد قيل ان أحدهما خباز الملك ، والآخر ساقيه ، وقد كانا وضعا للملك

سما لما ضمن لهما أهل مصر مالا فى مقابلة ذلك ، ثم ان الساقى رجع عن ذلك ، وقال للملك لاتأكل الطعام فانه مسموم ، وقال الخباز لاتشرب فان الشراب مسموم ، فقال الملك للساقى اشرب فشرب فلم يضره ، وقال للخباز كل فأبى فجرّب الطعام على حيوان فهلك مكانه فحبسهما ، وكان دخولهما السجن مع دخول يوسف وقيل قبله ، وقيل بعده . قال ابن جرير : انهما سألا يوسف عن علمه فقال انى أعبر الرؤيا . فسألاه عن رؤياهما كما قصّ الله سبحانه (قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا) أى رأيتنى ، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة ٭ والمعنى انى أرانى أعصر عنبا فسماه باسم مايئول اليه لكونه المقصود من العصر ، وفى قراءة ابن مسعود أعصر عنبا . قال الاصمعى : أخبرنى المعتمر بن سليمان أنه لقى أعرابيا ومعه عنب ، فقال له مامعك ؟ فقال خمر ، وقيل معنى أعصر خمرا : أى عنب خمر ، فهو على حذف المضاف ، وهذا الذى رأى هذه الرؤيا هو الساقى ، وهذه الجملة مستأنفة بتقدير سؤال ، وكذلك الجملة التى بعدها وهى (وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا) ثم وصف الخبز هذا بقوله (تأكل الطير منه) وهذا الرائى لهذه الرؤيا هو الخباز ، ثم قالا ليوسف جميعا بعد أن قصا رؤياهما عليه (نبئنا بتأويله) أى بتأويل ماقصصناه عليك من مجموع المرئيين ، أو بتأويل المذكور لك من كلامنا ، وقيل ان كل واحد منهما قال له ذلك عقب قص رؤياه عليه ، فيكون الضمير راجعا الى مارآه كل واحد منهما ، وقيل ان الضمير فى بتأويله موضوع موضع اسم الاشارة ، والتقدير بتأويل ذلك (إنا نراك من المحسنين) أى من الذين يحسنون عبارة الرؤيا وكذا قال الفراء إن معنى من المحسنين : من العالمين الذين أحسنوا العلم ، وقال ابن اسحق من المحسنين الينا ان فسرت ذلك ، أو من المحسنين الى أهل السجن . فقد روى أنه كان كذلك ، وجملة (قال لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) مستأنفة جواب سؤال مقدر ، ومعنى ذلك أنه يعلم شيئا من الغيب وأنه لايأتيهما الى السجن طعام الا أخبرهما بماهيته قبل أن يأتيهما ، وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبيرماقصاه عليه ، بل جعله عليه السلام مقدمة قبل تعبيره لرؤياهما بيانا لعلو مرتبته فى العلم ، وانه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظن وتخمين ، فهو كقول عيسى عليه السلام ـ وأنبئكم بما تأكلون ـ وانما قال يوسف عليه السلام لهما بهذا ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الايمان بالله والخروج من الكفر ، ومعنى ترزقانه : يجرى عليهما من جهة الملك أو غيره ، والجملة صفة لطعام ، أو يرزقكما الله سبحانه ، والاستثناء بقوله (إلا نبأتكما بتأويله) مفرّغ من أعمّ الأحوال : أى لايأتيكما طعام فى حال من الأحوال الاحال مانبأتكما : أى بينت لكما ماهيته وكيفيته قبل أن يأتيكما ، وسماه تأويلا بطريق المشاكلة ، لأن الكلام فى تأويل الرؤيا ، أو المعنى إلا نبأتكما بمايئول اليه الكلام من مطابقة ماأخبركما به للواقع ، والاشارة بقوله (ذلكما) الى التأويل ، والخطاب للسائلين له عن تعبير رؤياهما (مما علمنى ربى) بما أوحاه إلىّ وألهمنى إياه لامن قبيل الكهانة والتنجيم ونحو ذلك مما يكثر فيه الخطأ ، ثم بين لهما أن ذلك الذى ناله من هذه الرتبة العلية والعلوم الجمة هو بسبب ترك الملة التى لايؤمن أهلها بالله ولا بالآخرة واتباعه لملة الأنبياء من آبائه فقال (إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله) وهو كلام مستأنف يتضمن التعليل لماقبله ، والمراد بالترك هو عدم التلبس بذلك من الأصل ، لا أنه قد كان تلبس به ، ثم تركه كما يدلّ عليه قوله (ما كان لنا أن نشرك بالله) ثم وصف هؤلاء القوم بمايدلّ على تصلبهم فى الكفر وتهالكهم عليه . فقال (وهم بالآخرة هم كافرون) أى هم مختصون بذلك دون غيرهم لافراطهم فى الكفر بالله ٭ وقوله (واتبعت) معطوف على تركت ، وسماهم آباء جميعا لأن الأجداد آباء ، وقدم الجدّ الأعلى ، ثم الجدّ الأقرب ثم الأب لكون ابراهيم هو أصل هذه الملة التى كان عليها أولاده ثم تلقاها عنه اسحق ، ثم يعقوب ، وهذا

منه عليه السلام لترغيب صاحبيه فى الايمان بالله (ما كان لنا أن نشرك بالله) أى ماصح لنا ذلك فضلا عن وقوعه ، والضمير فى لنا له وللأنبياء المذكورين ، والاشارة بقوله (ذلك) إلى الايمان المفهوم من قوله ما كان لنا أن نشرك بالله ، و (من فضل الله علينا) خبراسم الاشارة : أى ناشىء من تفضلات الله علينا ولطفه بنا بما جعله لنا من النبوّة المتضمنة للعصمة عن معاصيه ، ومن فضل الله على الناس كافة بعثة الأنبياء اليهم وهدايتهم إلى ربهم وتبيين طرائق الحقّ لهم (ولكنّ أكثر الناس لايشكرون) الله سبحانه على نعمه التى أنعم بها عليهم فيؤمنون به ويوحدونه ويعملون بما شرعه لهم * قوله (ياصاحبي السجن ءأرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهار) جعلهما مصاحبين للسجن لطول مقامهما فيه ، وقيل المراد ياصاحبيّ فى السجن ، لأن السجن ليس بمصحوب بل مصحوب فيه ، وأن ذلك من باب ياسارق الليلة ، وعلى الأوّل يكون من باب قوله _ أصحاب الجنة أصحاب النار _ والاستفهام للانكار مع التقريع والتوبيخ ، ومعنى التفرّق هنا هو التفرّق فى الذوات والصفات والعدد : أى هل الأرباب المتفرّقون فى ذواتهم ، المختلفون فى صفاتهم المتنافون فى عددهم خير لكما ياصاحبي السجن أم الله المعبود بحقّ المتفرّد فى ذاته وصفاته الذى لاضدّ له ولا ندّ ولاشريك القهار الذى لايغالبه مغالب ولايعانده معاند : أورد يوسف عليه السلام على صاحبي السجن هذه الحجة القاهرة على طريق الاستفهام ، لأنهما كانا ممن يعبد الأصنام ، وقد قيل انه كان بين أيديهما أصنام يعبدونها عند أن خاطبهما بهذا الخطاب ، ولهذا قال لهما (ماتعبدون من دونه الا أسماء سميتموها) أى إلا أسماء فارغة سميتموها ولا مسميات لها ، وان كنتم تزعمون أن لها مسميات ، وهى الآلهة التى تعبدونها ؛ لكنها لما كانت لاتستحق التسمية بذلك صارت الأسماء كأنها لامسميات لها ، وقيل المعنى ماتعبدون من دون الله الا مسميات أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم من تلقاء أنفسكم وليس لها من الالهية شىء إلا مجرّد الأسماء لكونها جمادات لاتسمع ولاتبصر ولاتنفع ولاتضرّ ، وانما قال : ماتعبدون على خطاب الجمع وكذلك مابعده من الضمائر ، لأنه قصد خطاب صاحبي السجن ومن كان على دينهم ، ومفعول سميتموها الثانى محذوف ، أى سميتموها آلهة من عند أنفسكم (ماأنزل الله بها) أى بتلك التسمية (من سلطان) من حجة تدلّ على صحتها (ان الحكم إلا لله) أى ماالحكم الالله فى العبادة فهوالذى خلقكم وخلق هذه الأصنام التى جعلتموها معبودة بدون حجة ولابرهان ، وجملة (أمر ألاتعبدوا إلاإياه) مستأنفة ، والمعنى أنه أمركم بتخصيصه بالعبادة دون غيره مما تزعمون أنه معبود ، ثم بين لهم أن عبادته وحده دون غيره هى دين الله الذى لادين غيره فقال (ذلك) أى تخصيصه بالعبادة (الدين القيم) أى المستقيم الثابت (ولكنّ أكثر الناس لايعلمون) أن ذلك هودينه القويم ، وصراطه المستقيم ، لجهلهم وبعدهم عن الحقائق .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : سألت ابن عباس عن قوله (ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات) فقال ماسألنى عنها أحدقبلك : من الآيات قدّ القميص وأثرها فى جسده ، وأثر السكين وقالت امرأة العزيز ان أنت لم تسجنه ليصدقنه الناس . وأخرج أبوالشيخ عن ابن زيد : قال من الآيات كلام الصبى . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : الآيات حزّهنّ أيديهنّ وقدّ القميص .

وأقول ان كان المراد بالآيات : الآيات الدالة على براءته فلا يصح عدّ قطع أيدى النسوة منها ، لأنه وقع منهنّ ذلك لما حصل لهنّ من الدهشة عند ظهوره لهنّ مع ماألبسه الله سبحانه من الجمال الذى تنقطع عند مشاهدته عرى الصبر وتضعف عند رؤيته قوى التجلد ، وان كان المراد الآيات الدالة على أنه قد أعطى من الحسن مايسلب عقول المبصرين ، ويذهب بإدراك الناظرين ، فنعم يصح عدّ قطع الأيدى من جملة الآيات ولكن ليس هذه الآيات هى المرادة هنا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم

XII ٥١ . ٤٢

وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن عباس : قال عوقب يوسف ثلاث مرات ، أما أول مرة فبالحبس لما كان من همه بها ، والثانية لقوله ـ اذكرنى عند ربك فلبث فى السجن بضع سنين ـ عوقب بطول الحبس ، والثالثة حيث قال ـ أيتها العير انكم لسارقون ـ فاستقبل فى وجهه ـ ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل ـ . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ودخل معه السجن فتيان) قال : أحدهما خازن الملك على طعامه ، والآخر ساقيه على شرابه . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله (إنى أرانى أعصر خمرا) قال : عنبا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد (نبئنا بتأويله) قال عبارته . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (إنا نراك من المحسنين) قال : كان إحسانه فيما ذكرلنا أنه كان يعزّى حزينهم ويداوى مريضهم ، ورأوا منه عبادة واجتهادا فأحبوه . وأخرج سعيدبن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى فى الشعب عن الضحاك : قال كان إحسانه أنه اذا مرض انسان فى السجن قام عليه ، واذا ضاق عليه المكان أوسع له ، واذا احتاج جمع له . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس : قال دعا يوسف لأهل السجن ، فقال : اللهم لاتعمّ عليهم الأخبار وهوّن عليهم مرّ الأيام . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله (لايأتيكما طعام) الآية قال : كره العبارة لهما فأجابهما بغير جوابهما ليريهما أن عنده علما ، وكان الملك اذا أراد قتل إنسان صنع له طعاما معلوما فأرسل به اليه فقال يوسف (لايأتيكما طعام ترزقانه) الى قوله (يشكرون) فلم يدعه صاحبا الرؤيا حتى يعبرلهما ، فكره العبارة ، فقال (ياصاحبى السجن ءأرباب متفرقون) الى قوله (ولكن أكثر الناس لايعلمون) قال فلم يدعاه فعبرلهما . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس) قال ان المؤمن ليشكرما به من نعمة الله ، ويشكرمابالناس من نعم الله ، ذكرلنا أن أبا الدرداء كان يقول : يارُبّ شاكر نعمة غير منعم عليه لايدرى ، ويارُبّ حامل فقه غير فقيه . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (ءأرباب متفرقون) الآية قال : لما عرف يوسف أن أحدهما مقتول دعاهما الى حظهما من ربهما والى نصيبهما من آخرتهما . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله (ذلك الدين القيم) قال : العدل . فقال

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ❊ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ❊

هذا هو بيان ماطلباه منه من تعبير رؤياهما ، والمراد بقوله (أما أحدكما) هو الساقى ، وانما أبهمه لكونه مفهوما أولكراهة التصريح للخباز بأنه الذى سيصلب (فيسقى ربه خمرا) أى مالكه ، وهى عهدته التى كان قائما بها فى خدمة الملك ، فكأنه قال : أما أنت أيها الساقى فستعود الى ما كنت عليه ويدعوبك الملك ويطلقك من الحبس (وأما الآخر) وهو الخباز (فيصلب فتأكل الطير من رأسه) تعبيرا لما رآه من أنه يحمل فوق رأسه خبزا فتأكل الطير منه (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) وهو ما رأياه وقصاه عليه ، يقال استفتاه : اذا طلب منه بيان حكم شىء سأله عنه مما أشكل عليه ، وهما قد سألاه تعبير ما أشكل عليهما من الرؤيا (وقال للذى ظنّ أنه ناج منهما) أى قال يوسف ، والظانّ هو أيضا يوسف ، والمراد بالظنّ العلم لأنه قد علم من الرؤيا نجاة الشرابى وهلاك الخباز : هكذا قال جمهور المفسرين ، وقيل الظاهر على معناه ، لأن عابر الرؤيا انما يظن ظنا ،

والأول

والأوّل أولى وأنسب بحال الأنبياء . ولاسيا وقد أخبر عن نفسه عليه السلام بأنه قد أطلعه الله على شيء من علم الغيب كما فى قوله ــ لا يأتيكما طعام ترزقانه ــ الآية ، وجملة (اذكرنى عند ربك) هى مقول القول أمره بأن يذكره عند سيده ويصفه بما شاهده منه من جودة التعبير والاطلاع على شىء من علم الغيب وكانت هــذه المقالة منه عليه السلام صادرة عن ذهول ونسيان عن ذكر الله بسبب الشيطان ، فيكون ضمير المفعول فى أنساه عائدا الى يوسف ، هكذا قال بعض المفسرين ، ويكون المراد بربه فى قوله (ذكر ربه) هو الله سبحانه : أى إنساء الشيطان يوسف ذكر الله تعالى فى تلك الحال (وقال للذى ظنّ أنه ناج منهما) يذكره عند سيده ليكون ذلك سببا لانتباهه على ما أوقعه من الظلم البين عليه بسجنه بعد أن رأى من الآيات مايدل على براءته ، وذهب كثير من المفسرين الى أن الذى أنساه الشيطان ذكر ربه هو الذى نجا من الغلامين : وهو الشرابى ، والمعنى إنساء الشيطان الشرابى ذكر سيده : أى ذكره لسيده فلم يبلغ اليه ماأوصاه به يوسف من ذكره عند سيده ، ويكون المعنى فأنساه الشيطان ذكر اخباره بما أمره به يوسف مع خلاصه من السجن ورجوعه الى ما كان عليه من القيام بسقى الملك ، وقد رجح هــذا بكون الشيطان لاسبيل له على الأنبياء . وأجيب بأن النسيان وقع من يوسف ، ونسبته الى الشيطان على طريق المجاز ، والأنبياء غير معصومين عن النسيان الا فيما يخبرون به عن الله سبحانه ، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال « إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فاذا نسيت فذكرونى » ورجح أيضا بأن النسيان ليس بذنب ، فلو كان الذى أنساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه فى السجن بضع سنين ، وأجيب بأن النسيان هنا بمعنى الترك ، وأنه عوقب بسبب استعانته بغير الله سبحانه ، ويؤيد رجوع الضمير الى يوسف مابعــده من قوله (فلبث فى السجن بضع سنين) ويؤيد رجوعه الى الذى نجا من الغلامين قوله فيما سيأتى (وقال الذى نجا منهما وادّكر بعد أمة) سنة (فلبث) أى يوسف فى السجن بسبب ذلك القول الذى قاله للذى نجا من الغلامين ، أو بسبب ذلك الانساء (بضع سنين) البضع مابين الثلاث الى التسع كما حكاه الهروى عن العرب . وحكى عن أبى عبيدة أن البضع مادون نصف العقد يعنى مابين واحد الى أربعة ، وقيل مابين ثلاث الى سبع ، حكاه قطرب ، وحكى الزجاج أنه مابين الثلاث الى الخمس ، وقد اختلف فى تعيين قدر المدّة التى لبث فيها يوسف فى السجن فقيل سبع سنين ، وقيل ثنتا عشرة سنة ، وقيل أربع عشرة سنة ، وقيل خمس سنين :

وقد أخرج ابن جرير عن عكرمة فى قوله (أما أحدكما) قال أتاه فقال رأيت فيما يرى النائم أنى غرست حبلة من عنب فنبتت ، فخرج فيــه عناقيد فعصرتهن ، ثم سقيتهنّ الملك ، فقال : تمكث فى السجن ثلاثة أيام ، ثم تخرج فتسقيه خمرا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال : مارأى صاحبا يوسف شيئا ، انما تحالما ليجرّبا علمه ، فلما أوّل رؤياهما قالا انما كنا نلعب ولم نر شيئا فقال (قضى الأمر الذى فيــه تستفتيان) يقول : وقعت العبارة فصار الأمر على ماعبر يوسف . وأخرج أبو عبيد وابن المنــذر وأبو الشيخ عن أبى مجلز : قال كان أحد اللذين قصا على يوسف الرؤيا كاذبا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن سابط (وقال للذى ظنّ أنه ناج منهما اذكرنى عنــد ربك) قال : عند ملك الأرض . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب العقوبات وابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « لو لم يقل يوسف الكلمة التى قال مالبث فى السجن طول مالبث حيث يبتغى الفرج من عند غير الله » . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة مرفوعا نحوه وهو مرسل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا نحوه . وأخرج

XII. 43-49

أحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن مرفوعا نحوه وهو مرسل . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فذكر نحوه وهو مرسل أيضا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد الله ابن أحمد فى زوائد الزهد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أنس : قال أوحى الى يوسف من استنقذك من القتل حين همّ إخوتك أن يقتلوك ؟ قال أنت يارب ، قال فمن استنقذك من الجب اذ ألقوك فيه ؟ قال أنت يارب ، قال فمن استنقذك من المرأة اذ همت بك ؟ قال أنت يارب ، قال فما لك نسيتنى وذكرت آدميا ؟ قال جزعا ، وكلمة تكلم بها لسانى ، قال فوعزتى لأخلدنك فى السجن بضع سنين ، فلبث فيه سبع سنين . وقد اختلف السلف فى تقدير مدة لبثه فى السجن على حسب ماقدمنا ذكره ، فلم نشتغل هاهنا بذكر من قال بذلك ومن خرّجه .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ‌* قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ‌* وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ‌* يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ‌* قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ‌* ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ‌* ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ‌*

المراد بالملك هنا : هو الملك الأكبر ، وهو الريان بن الوليد الذى كان العزيز وزيراً له ، رأى فى نومه لما دنى فرج يوسف عليه السلام أنه خرج من نهر يابس (سبع بقرات سمان) جمع سمين وسمينة ، فى إثرهن سبع عجاف : أى مهازيل . وقد أقبلت العجاف على السمان فأكلتهن * والمعنى انى رأيت ، ولكنه عبر بالمضارع لاستحضار الصورة ، وكذلك قوله (يأكلهن) عبر بالمضارع للاستحضار ، والعجاف جمع عجفاء ، وقياس جمعه عجف ، لأن فعلاء وأفعل لاتجمع على فعال ، ولكنه عدل عن القياس حملا على سمان (وسبع سنبلات) معطوف على سبع بقرات ، والمراد بقوله (خضر) أنه قد انعقد حبها ، واليابسات التى قد بلغت حدّ الحصاد * والمعنى وأرى سبعا أخر يابسات ، وكان قد رأى أن السبع السنبلات اليابسات قد أدركت الخضر والتوت عليها حتى غلبتها ، ولعل عدم التعرض لذكر هذا فى النظم القرآنى للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات (يأيها الملأ) خطاب للأشراف من قومه (أفتونى فى رؤياى) أى أخبرونى بحكم هذه الرؤيا (إن كنتم للرؤيا تعبرون) أى تعلمون عبارة الرؤيا ، وأصل العبارة مشتقة من عبور النهر ، فمعنى عبرت النهر : بلغت شاطئه فعابر الرؤيا يخبر بما يئول اليه أمرها . قال الزجاج : اللام فى للرؤيا للتبيين : أى ان كنتم تعبرون ، ثم بين فقال للرؤيا ، وقيل هو للتقوية ، وتأخير الفعل العامل فيه لرعاية الفواصل ، وجملة (قالوا أضغاث أحلام) مستأنفة جواب سؤال مقدر ، والأضغاث جمع ضغث : وهو كل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما * والمعنى أخاليط أحلام ، والأحلام جمع حلم : وهى الرؤيا الكاذبة التى لاحقيقة لها كما يكون من حديث النفس ووسواس الشيطان ، والاضافة بمعنى من ، وجمعوا الأحلام ولم يكن من الملك الا رؤيا واحدة مبالغة منهم فى

وصفها

وصفها بالبطلان ، ويجوز أن يكون رأى مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصه الله علينا (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) قال الزجاج : المعنى بتأويل الأحلام المختلطة ، نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له ، لا مطلق العلم بالتأويل ، وقيل انهم نفوا عن أنفسهم علم التعبير مطلقا ولم يدّعوا أنه لا تأويل لهذه الرؤيا ، وقيل انهم قصدوا محوها من صدر الملك حتى لا يشتغل بها ، ولم يكن ما ذكروه من نفي العلم حقيقة (وقال الذي نجا منهما) أي من الغلامين ، وهو الساقي الذي قال له يوسف ـ اذكرني عند ربك ـ (وادّكر بعد أمّة) بالدال المهملة على قراءة الجمهور : وهي القراءة الفصيحة : أي تذكر الساقي يوسف وما شاهده منه من العلم بتعبير الرؤيا . وقرئ بالمعجمة ، ومعنى بعد أمة : بعد حين ، ومنه ـ الى أمة معدودة ـ : أي الى وقت . قال ابن درستويه : والأمة لا تكون على الحين الا على حذف مضاف واقامة المضاف اليه مقامه ، كأنه قال : والله أعلم وادكر بعد حين أمة أو بعد زمن أمة ، والأمة : الجماعة الكثيرة من الناس . قال الأخفش : هو في اللفظ واحد وفي المعنى جمع ، وكل جنس من الحيوان أمة . وقرأ ابن عباس وعكرمة بعد أمة بفتح الهمزة وتخفيف الميم : أي بعد نسيان ، ومنه قول الشاعر :

أمِهت وكنت لا أنسى حديثا * كذاك الدهر يودي بالعقول

ويقال أمه يأمه أمها : اذا نسي . وقرأ الأشهب العقيلي بعد إمّة بكسر الهمزة : أي بعد نعمة : وهي نعمة النجاة (أنا أنبئكم بتأويله) أي أخبركم به بسؤالي عنه من له علم بتأويله ، وهو يوسف (فأرسلون) خاطب الملك بلفظ التعظيم ، أو خاطبه ومن كان عنده من الملأ ، طلب منهم أن يرسلوه الى يوسف ليقصّ عليه رؤيا الملك حتى يخبره بتأويلها فيعود بذلك الى الملك (يوسف أيها الصديق أفتنا) أي يا يوسف ، وفي الكلام حذف ، والتقدير فأرسلوه الى يوسف فسار اليه ، فقال له يوسف أيها الصديق الى آخر الكلام * والمعنى أخبرنا في رؤيا من رأى سبع بقرات الخ ، وترك ذكر ذلك اكتفاء بما هو واثق به من فهم يوسف بأن ذلك رؤيا ، وأن المطلوب منه تعبيرها (لعلي أرجع الى الناس) أي الى الملك ومن عنده من الملأ (لعلهم يعلمون) ما تأتي به من تأويل هذه الرؤيا أو يعلمون فضلك ومعرفتك لفن التعبير ، وجملة (قال تزرعون) الخ مستأنفة جواب سؤال مقدر كغيرها مما يرد هذا المورد (سبع سنين دأبا) أي متوالية متتابعة ، وهو مصدر ، وقيل هو حال : أي دائبين ، وقيل صفة لسبع : أي دائبة ، وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه قرأ (دأَبا) بتحريك الهمزة ، وكذا روى حفص عن عاصم وهما لغتان . قال الفراء : حرك ، لأن فيه حرفا من حروف الحلق وكذلك كل حرف فتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز في كلمات معروفة ، فعبر يوسف عليه السلام السبع البقرات السمان بسبع سنين فيها خصب ، والعجاف بسبع سنين فيها جدب ، وهكذا عبر السبع السنبلات الخضر والسبع السنبلات اليابسات ، واستدل بالسبع السنبلات الخضر على ما ذكره في التعبير من قوله (فما حصدتم فذروه في سنبله) أي ما حصدتم في كل سنة من السنين المخصبة فذروا ذلك المحصود في سنبله ولا تفصلوه عنها لئلا يأكله السوس (إلا قليلا مما تأكلون) في هذه السنين المخصبة فانه لا بدّ لكم من فصله عن سنبله واخراجه عنها ، واقتصر على استثناء المأكول دون ما يحتاجون اليه من البذر الذي يبذرونه في أموالهم لأنه قد علم من قوله : تزرعون (ثم يأتي من بعد ذلك) أي من بعد السبع السنين المخصبة (سبع شداد) أي سبع سنين مجدبة يصعب أمرها على الناس (يأكلن ما قدّمتم لهن) من تلك الحبوب المتروكة في سنابلها ، واسناد الأكل الى السنين مجاز * والمعنى يأكل الناس فيهن أو يأكل أهلهن ما قدّمتم لهن : أي ما ادّخرتم لأجلهن فهو من باب : نهاره صائم ، ومنه قول الشاعر :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة * وليلك نوم والردى لك لازم

(إلا قليلا مما تحصنون) أى مما تحبسون من الحب لتزرعوا به لأن فى استبقاء البذر تحصين الأقوات . وقال أبو عبيدة : معنى تحصنون تحرزون ، وقيل تدخرون ، والمعنى واحد * قوله (ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) أى من بعد السنين المجدبات ، فالاشارة اليها ، والعام السنة (فيه يغاث الناس) من الاغاثة أو الغوث ، والغيث المطر ، وقد غاث الغيث الأرض : أى أصابها ، وغاث الله البلاد يغيثها غوثا : أمطرها ، فمعنى يغاث الناس يمطرون (وفيه يعصرون) أى يعصرون الأشياء التى تعصر كالعنب والسمسم والزيتون ، وقيل أراد حلب الألبان ، وقيل معنى يعصرون ينجون ، مأخوذ من العصرة ، وهى المنجاة . قال أبو عبيدة : والعصر بالتحريك الملجأ والمنجاة ، ومنه قول الشاعر :

صاديا يستغيث غير مغاث * ولقد كان عصرة المنجود

واعتصرت بفلان : التجأت به . وقرأ حمزة والكسائى (تعصرون) بتاء الخطاب . وقرئ يعصرون بضم حرف المضارعة وفتح الصاد ، ومعناه يمطرون ، ومنه قوله تعالى ـ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ـ وقد أخرج ابن اسحاق وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : قال يوسف للساقى اذكرنى عند ربك : أى الملك الأعظم ومظلمتى وحبسى فى غير شىء فقال أفعل ، فلما خرج الساقى ردّ على ما كان عليه ورضى عنه صاحبه وأنساه الشيطان ذكر الملك الذى أمره يوسف أن يذكره له فلبث يوسف بعد ذلك فى السجن بضع سنين ، ثم ان الملك ريان بن الوليد رأى رؤياه التى أرى فيها فهالته وعرف أنها رؤيا واقعة ولم يدر ما تأويلها فقال للملأ حوله من أهل مملكته (إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) فلما سمع من الملك ماسمع منه ومسألته عن تأويلها ذكر يوسف ما كان عبر له ولصاحبه وماجاء من ذلك على ماقال فقال : أنا أنبئكم بتأويله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (أضغاث أحلام) يقول مشتبهة . وأخرج أبو يعلى وابن جرير عنه قال : من الأحلام الكاذبة . وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس فى قوله (وادّكر بعد أمة) قال بعد حين . وأخرج ابن جرير عن مجاهد والحسن وعكرمة وعبد الله بن كثير والسدّى مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : بعد سنين . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : بعد أمة من الناس . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (أفتنا فى سبع بقرات) الآية . قال أما السمان فسنون فيها خصب ، وأما العجاف فسنون مجدبة ، وسبع سنبلات خضر هى السنون المخاصيب تخرج الأرض نباتها وزرعها وثمارها وآخر يابسات المحول الجدوب لاتنبت شيئا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : قال رسول الله ﷺ لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ماأخبرتهم حتى أشترط عليهم أن يخرجونى ، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العذر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (إلا قليلا مما تحصنون) يقول تخزنون ، وفى قوله (وفيه يعصرون) يقول الأعناب والدهن . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (فيه يغاث الناس) يقول يصيبهم فيه غيث (وفيه يعصرون) يقول يعصرن فيه العنب و يعصرون فيه الزبيب و يعصرون من كل الثمرات . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا (وفيه يعصرون) قال يحتلبون . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه أيضا (ثم يأتى من بعد ذلك عام) قال أخبرهم بشىء لم يسألوه عنه كأن الله قد علمه اياه فيه يغاث الناس بالمطر ، وفيه يعصرون السمسم دهنا والعنب خمرا والزيتون زيتا .

XII 50-57

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا
عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ *
ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ
لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي
فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ
عَلِيمٌ * وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا
نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ *

قوله (وقال الملك ائتونى به) فى الكلام حذف قبل هذا والتقدير فذهب الرسول الى الملك فأخبره بما أخبره به يوسف من تعبير تلك الرؤيا . وقال الملك لمن بحضرته ائتونى به : أى بيوسف رغب الى رؤيته ومعرفة حاله بعد أن علم من فضله ماعلمه من وصف الرسول له ومن تعبيره لرؤياه (فلما جاءه) أى جاء الى يوسف (الرسول) واستدعاه الى حضرة الملك وأمره بالخروج من السجن (قال) يوسف للرسول (ارجع الى ربك) أى سيدك (فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) أمره بأن يسأل الملك عن ذلك وتوقف عن الخروج من السجن ، ولم يسارع الى اجابة الملك ، ليظهر للناس براءة ساحته ونزاهة جانبه ، وأنه ظلم بكيد امرأة العزيز ظلما بينا ، ولقد أعطى عليه السلام من الحلم والصبر والأناة ماتضيق الأذهان عن تصوره ، ولهذا ثبت فى الصحيح من قوله ﷺ « ولو لبثت فى السجن مالبث يوسف لأجبت الداعى » يعنى الرسول الذى جاء يدعوه إلى الملك . قال ابن عطية هذا الفعل من يوسف أناة وصبرا ، وطلبا لبراءة ساحته ، وذلك أنه خشى أن يخرج وينال من الملك مرتبة ، ويسكت عن أمر ذنبه فيراه الناس بتلك العين يقولون هذا الذى راود امرأة العزيز ، وإنما قال (فاسأله مابال النسوة) وسكت عن امرأة العزيز رعاية لذمام الملك العزيز ، أو خوفا منه من كيدها ، وعظيم شرّها ، وذكر السؤال عن تقطيع الأيدى ولم يذكر مراودتهن له ، تنزها منه عن نسبة ذلك إليهن ، ولذلك لم ينسب المراودة فيما تقدم الى امرأة العزيز الا بعد أن رمته بدائها وانسلت . وقد اكتفى هنا بالاشارة الاجمالية بقوله (ان ربى بكيدهن عليم) فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهن مغنيا عن التصريح ، وجملة (قال فما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه) مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قال الملك بعد أن أبلغه الرسول ماقال يوسف ؟ والخطب الشأن العظيم الذى يحق له أن يخاطب فيه صاحبه خاصة ، والمعنى : ماشأنكن اذا راودتن يوسف عن نفسه . وقد تقدم معنى المراودة ، وانما نسب اليهن المراودة ، لأن كل واحدة منهن وقع منها ذلك كما تقدم ، ومن جملة من شمله خطاب الملك امرأة العزيز ، أو أراد بنسبة ذلك اليهن وقوعه منهن فى الجملة كما كان من امرأة العزيز تحاشيا عن التصريح منه بنسبة ذلك اليها لكونها امرأة وزيره وهو العزيز ، فأجبن عليه بقولهن (قلن حاش لله) أى معاذ الله (ماعلمنا عليه من سوء) أى من أمر سىء ينسب اليه ، فعند ذلك (قالت امرأة العزيز) منزهة لجانبه مقرّة على نفسها بالمراودة له (الآن حصحص الحق) أى تبين

وظهر ، وأصله حصّ ، فقيل حصحص كما قيل فى كبوا كبكبوا : قاله الزجاج ، وأصل الحصّ : استئصال الشئ ، يقال حصّ شعره : اذا استأصله ، ومنه قول أبى قيس بن الأسلت :

قد حصت البيضة رأسى فما * أطعم نوما غير تهجاع

والمعنى أنه انقطع الحق عن الباطل بظهوره وبيانه ، ومنه :

فمن مبلغ عنى خداشا فانه * كذوب اذا ماحصحص الحق ظالم

وقيل هو مشتق من الحصة * والمعنى : بانت حصة الباطل . قال الخليل معناه ظهر الحق بعد خفائه ثم أوضحت ذلك بقولها (أنا راودته عن نفسه) ولم تقع منه المراودة لى أصلا (وانه لمن الصادقين) فيما قاله من تبرئة نفسه ، ونسبة المراودة اليها ، وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام * قوله (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) . ذهب أكثر المفسرين الى أن هذا من كلام يوسف عليه السلام . قال الفراء : ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر اذا دلت القرينة الصارفة لكل منهما الى مايليق به ، والاشارة الى الحادثة الواقعة منه ، وهى تثبته وتأنيه : أى فعلت ذلك ليعلم العزيز أنى لم أخنه فى أهله بالغيب ، والمعنى بظاهر الغيب ، والجار والمجرور فى محل نصب على الحال : أى وهو غائب عنى ، أو وأنا غائب عنه ، قيل انه قال ذلك وهو فى السجن بعد أن أخبره الرسول بما قالته النسوة ، وما قالته امرأة العزيز ، وقيل انه قال ذلك . وقد صار عند الملك ، والأوّل أولى ، وذهب الأقلون من المفسرين الى أن هذا من كلام امرأة العزيز * والمعنى ذلك القول الذى قلته فى تنزيهه ، والاقرار على نفسى بالمراودة ليعلم يوسف أنى لم أخنه فأنسب اليه مالم يكن منه وهو غائب عنى ، أو وأنا غائبة عنه (وأن الله لايهدى كيد الخائنين) أى لايثبته ويسدده ، أو لايهديهم فى كيدهم حتى يوقعوه على وجه يكون له تأثير يثبت به ويدوم ، واذا كان من قول يوسف ففيه تعريض بامرأة العزيز حيث وقع منها الكيد له ، والخيانة لزوجها ، وتعريض بالعزيز حيث ساعدها على حبسه بعد أن علم براءته ونزاهته (وما أبرئ نفسى) ان كان من كلام يوسف فهو من باب الهضم للنفس ، وعدم التزكية بها مع أنه قد علم هو وغيره من الناس أنه برىء ، وظهر ذلك ظهور الشمس ، وأقرّت به المرأة التى ادّعت عليه الباطل ، ونزهته النسوة اللاتى قطعن أيديهنّ ، وان كان من كلام امرأة العزيز فهو واقع على الحقيقة ، لأنها قد أقرّت بالذنب ، واعترفت بالمراودة وبالافتراء على يوسف . وقد قيل ان هذا من قول العزيز وهو بعيد جدّا * ومعناه وما أبرئ نفسى من سوء الظن بيوسف ، والمساعدة على حبسه بعد أن علمت ببراءته (ان النفس لأمارة بالسوء) أى ان هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله الى الشهوات ، وتأثيرها بالطبع ، وصعوبة قهرها ، وكفها عن ذلك (الا مارحم ربى) أى الا من رحم من النفوس فعصمها عن أن تكون أمّارة بالسوء ، أو الا وقت رحمة ربى وعصمته لها ، وقيل الاستثناء منقطع * والمعنى لكن رحمة ربى هى التى تكفها عن أن تكون أمارة بالسوء ، وجملة (ان ربى غفور رحيم) تعليل لماقبلها : أى ان من شأنه كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم * قوله (وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى) الملك هو الريان بن الوليد لاالعزيز كما تقدم ، ومعنى أستخلصه لنفسى : أجعله خالصا لى دون غيرى ، وقد كان قبل ذلك خالصا للعزيز ، والاستخلاص : طلب خلوص الشىء من شوائب الشركة ، قال ذلك لما كان يوسف نفيسا ، وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم (فلما كلمه) فى الكلام حذف ، وتقديره فأتوه به فلما كلمه : أى فلما كلم الملك يوسف ، ويحتمل أن يكون المعنى فلما كلم يوسف الملك ، قيل والأوّل أولى ، لأن مجالس الملوك لايتكلم فيها ابتداء الاهم دون من يدخل عليهم ، وقيل الثانى أولى لقول الملك (قال انك اليوم لدينا مكين أمين) فان هذا يفيد أنه لماتكلم

يوسف فى مقام الملك جاء بصاحبه الى الملك ، وقرّبه من قلبه ، فقال له هذه المقالة ، ومعنى مكين : ذو مكانة وأمانة بحيث يتمكن مما يريده من الملك ويأمنه الملك على مايطلع عليه من أمره ، أو على مايكله اليه من ذلك * قيل انه لما وصل الى الملك أجلسه على سريره ، وقال له انى أحب أن أسمع منك تعبير رؤياى ، فعبرها له بأكمل بيان ، وأتم عبارة ، فلما سمع الملك منه ذلك قال له (انك اليوم لدينا مكين أمين) فلما سمع يوسف منه ذلك (قال اجعلنى على خزائن الأرض) أى ولنى أمر الأرض التى أمرها اليك وهى أرض مصر ، أواجعلنى على حفظ خزائن الأرض ، وهى الأمكنة التى تخزن فيها الأموال * طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به الى نشر العدل ورفع الظلم ، ويتوسل به الى دعاء أهل مصر الى الايمان بالله ، وترك عبادة الأوثان * وفيه دليل على أنه يجوز لمن وثق من نفسه اذا دخل فى أمر من أمور السلطان أن يرفع منار الحق ، ويهدم ما أمكنه من الباطل طلب ذلك لنفسه ، ويجوز له أن يصف نفسه بالأوصاف التى لها ترغيبا فيما يرومه ، وتنشيطا لمن يخاطبه من الملوك بالقاء مقاليد الأمور اليه ، وجعلها منوطة به ، ولكنه يعارض هذا الجواز ماورد عن نبينا ﷺ من النهى عن طلب الولاية والمنع من تولية من طلبها أو حرص عليها ، والخزائن جمع خزانة ، وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشىء ، والحفيظ : الذى يحفظ الشىء : أى (انى حفيظ) لما جعلته إلىّ من حفظ الأموال لاأخرجها فى غير مخارجها ، ولا أصرفها فى غير مصارفها (عليم) بوجوه جمعها وتفريقها ، ومدخلها ومخرجها (وكذلك مكنا ليوسف) أى ومثل ذلك التمكين العجيب مكنا ليوسف فى الأرض : أى جعلنا له مكانا ، وهو عبارة عن كمال قدرته ونفوذ أمره ونهيه حتى صار الملك يصدر عن رأيه ، وصار الناس يعملون على أمره ونهيه (يتبوّأ منها حيث يشاء) أى ينزل منها حيث أراد ، ويتخذه مباءة ، وهو عبارة عن كمال قدرته كما تقدّم ، وكأنه يتصرف فى الأرض التى أمرها الى سلطان مصر كما يتصرف الرجل فى منزله . وقرأ ابن كثير بالنون * وقد استدلّ بهذه الآية على أنه يجوز تولى الأعمال من جهة السلطان الجائر بل الكافر لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق . وقد قدّمنا الكلام على هذا مستوفى فى قوله سبحانه ـ ولاتركنوا الى الذين ظلموا ـ * (نصيب برحمتنا من نشاء) من العباد فنرحمه فى الدنيا بالاحسان اليه والانعام عليه ، وفى الآخرة بادخاله الجنة ، وانجائه من النار (ولانضيع أجر المحسنين) فى أعمالهم الحسنة التى هى مطلوب الله منهم : أى لانضيع ثوابهم فيها ، ومجازاتهم عليها (ولأجر الآخرة) أى أجرهم فى الآخرة ، وأضيف الأجر الى الآخرة للملابسة ، وأجرهم هو الجزاء الذى يجازيهم الله به فيها ، وهو الجنة التى لاينفد نعيمها ، ولا تنقضى مدّتها (خير للذين آمنوا) بالله (وكانوا يتقون) الوقوع فيما حرّمه عليهم ، والمراد بهم المحسنون المتقدم ذكرهم ، وفيه تنبيه على أن الاحسان المعتدّ به هو الايمان والتقوى .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (مابال النسوة) قال أراد يوسف العذر قبل أن يخرج من السجن . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى فى الشعب عنه قال لما قالت امرأة العزيز : أنا راودته ، قال يوسف (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) فغمزه جبريل ، فقال ولاحين هممت بها ، فقال (وما أبرّئ نفسى) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (حصحص الحق) قال تبين . وأخرج ابن جرير عن مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد والسدّى مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى حاتم عن حكيم بن حزام فى قوله (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) فقال له جبريل ولا حين حللت السراويل ؟ فقال عند ذلك (وما أبرئ نفسى) . وأخرج ابن عبد الحكم فى فتوح مصر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله (وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى) قال فأتاه الرسول فقال : ألق عنك ثياب السجن ، والبس ثيابا جددا ، وقم الى الملك ، فدعا له

أهل السجن وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فلما أتاه رأى غلاما حدثا ، فقال : أيعلم هذا رؤياى ولا يعلمها السحرة والكهنة ؟ وأقعده قدامه ، وقال لاتخف وألبسه طوقا من ذهب ، وثياب حرير ، وأعطاه دابة مسروجة مزينة كدابة الملك ، وضرب الطبل بمصر : ان يوسف خليفة الملك . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : قال الملك ليوسف : أنى أحبّ أن تخالطنى فى كل شىء إلا فى أهلى ، وأنا آنف أن تأكل معى ، فغضب يوسف وقال : أنا أحق أن آنف : أنا ابن ابراهيم خليل الله ، وأنا ابن اسحق ذبيح الله ، وأنا ابن يعقوب نبىّ الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن شيبة بن نعامة الضبي فى قوله (اجعلنى على خزائن الأرض) يقول على جميع الطعام (انى حفيظ) لما استودعتنى (عليم) بسنى المجاعة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) قال ملكناه فيها يكون فيها حيث يشاء من تلك الدنيا يصنع فيها مايشاء . وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم أن يوسف تزوّج امرأة العزيز فوجدها بكرا ، وكان زوجها عنينا .

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ *

قوله (وجاء إخوة يوسف) أى جاءوا الى مصر من أرض كنعان ليمتاروا لما أصابهم القحط (فدخلوا) على يوسف (فعرفهم) لأنه فارقهم رجالا (وهم له منكرون) لأنهم فارقوه صبيا يباع بالدراهم فى أيدى السيارة بعد أن أخرجوه من الجبّ ، ودخلوا عليه الآن وهو رجل عليه أبهة الملك ، ورونق الرئاسة ، وعنده الخدم والحشم ، وقيل انهم أنكروه لكونه كان فى تلك الحال على هيئة ملك مصر ، ولبس تاجه وتطوّق بطوقه ، وقيل كانوا بعيدا منه فلم يعرفوه ، وقيل غير ذلك (ولما جهزهم بجهازهم) المراد به هنا أنه أعطاهم ماطلبوه من الميرة ومايصلحون به سفرهم من العدّة التى يحتاجها المسافر ، يقال جهزت القوم تجهيزا : اذا تكلفت لهم جهازا للسفر . قال الأزهرى : القراء كلهم على فتح الجيم ، والكسر لغة جيدة (قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) قيل لابدّ من كلام ينشأ عنه طلبه لهم بأن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، فروى أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم : ماأنتم وما شأنكم فانى أنكركم ؟ فقالوا : نحن قوم من أهل الشام جئنا نمتار ولنا أب شيخ صديق نبىّ من الأنبياء اسمه يعقوب . قال كم أنتم ؟ قالوا عشرة وقد كنا اثنى عشر ، فذهب

أخ لنا الى البرية فهلك ، وكان أحبنا الى أبينا ، وقد سكن بعده الى أخ له أصغر منه هو باق لديه يتسلى به ، فقال لهم حينئذ (ائتونى بأخ لكم من أبيكم) يعنى أخاه بنيامين الذى تقدم ذكره ، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه ، فوعدوه بذلك فطلب منهم أن يتركوا أحدهم رهينة عنده حتى يأتوه بالأخ الذى طلبه ، فاقترعوا فأصابت القرعة شمعون فخلفوه عنده ، ثم قال لهم (ألاترون أنى أوفى الكيل) أى أتمه ، وجاء بصيغة الاستقبال مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم ، للدلالة على أن ذلك عادته المستمرة ، ثم أخبرهم بما يزيدهم وثوقا به وتصديقا لقوله ، فقال (وأنا خير المنزلين) أى والحال أنى خير المنزلين لمن نزل بى كما فعلته بكم من حسن الضيافة ، وحسن الانزال . قال الزجاج : قال يوسف (وأنا خير المنزلين) لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم ، ثم توعدهم اذا لم يأتوه به ، فقال (فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون) أى فلا أبيعكم شيئا فيما بعد ، وأما فى الحال فقد أوفاهم كيلهم ، ومعنى لاتقربون : لاتدخلون بلادى فضلا عن أن أحسن اليكم ، وقيل معناه لا أنزلكم عندى كما أنزلتكم هذه المرة ، ولم يرد أنهم لايقربون بلاده ، وتقربون مجزوم إما على أن لاناهية أو على أنها نافية ، وهو معطوف على محل الجزاء داخل فى حكمه كأنه قال فان لم تأتونى تحرموا ولا تقربوا ، فلما سمعوا منه ذلك وعدوه بما طلبه منهم فـ(قالوا سنراود عنه أباه) أى سنطلبه منه ، ونجتهد فى ذلك بما نقدر عليه ، وقيل معنى المراودة هنا : المخادعة منهم لأبيهم ، والاحتيال عليه حتى ينتزعوه منه (وانا لفاعلون) هذه المراودة غير مقصرين فيها ، وقيل معناه : وانا لقادرون على ذلك : لانتعانى به ، ولا نتعاظمه (وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم) ، قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم من رواية شعبة وابن عامر لفتيته ، واختار هذه القراءة أبوحاتم والنحاس وغيرهما . وقرأ سائر الكوفيين لفتيانه ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وفى مصحف عبد الله بن مسعود كالقراءة الآخرة . قال النحاس لفتيانه مخالف للسواد الأعظم ، ولا يترك السواد المجمع عليه لهذا الاسناد المنقطع ، وأيضا فان فتية أشبه من فتيان لأن فتية عند العرب لأقل العدد وأمر القليل بأن يجعلوا البضاعة فى الرحال أشبه ، والجملة مستأنفة جواب سؤال كأنه قيل فما قال يوسف بعد وعدهم له بذلك ؟ فأجيب بأنه قال لفتيته . قال الزجاج : الفتية والفتيان فى هذا الموضع المماليك ، وقال الثعلبى : هما لغتان جيدتان مثل الصبيان والصبية ، والمراد بالبضاعة هنا هى التى وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام ، وكانت نعالا وأدما ، فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلا عليهم ، وقيل فعل ذلك ليرجعوا اليه مرة أخرى لعلمه أنهم لايقبلون الطعام الا بثمن . قاله الفراء ، وقيل فعل ذلك ليستعينوا بها على الرجوع اليه لشراء الطعام ، وقيل انه استقبح أن يأخذ من أبيه واخوته ثمن الطعام ، ثم علل يوسف عليه السلام ما أمر به من جعل البضاعة فى رحالهم بقوله (لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى أهلهم) فجعل علة جعل البضاعة فى الرحال هى معرفتهم لها إذا انقلبوا إلى أهلهم ، وذلك لأنهم لايعلمون رد البضاعة اليهم إلا عند تفريغ الأوعية التى جعلوا فيها الطعام ، وهم لايفرغونها الاعند الوصول الى أهلهم ، ثم علل معرفتهم للبضاعة المردودة اليهم المجعولة فى رحالهم بقوله (لعلهم يرجعون) فانهم اذا عرفوا ذلك وعلموا أنهم أخذوا الطعام بلا ثمن ، وان مادفعوه عوضا عنه قد رجع اليهم ، وتفضل به من وصلوا اليه عليهم نشطوا الى العود اليه ، ولاسيما مع ماهم فيه من الجدب الشديد والحاجة الى الطعام وعدم وجوده لديهم ، فان ذلك من أعظم مايدعوهم الى الرجوع ، وبهذا يظهر أن يوسف عليه السلام لم يرد البضاعة اليهم الا لهذا المقصد ، وهو رجوعهم اليه فلا يتم تعليل ردها بغير ذلك ، والرحال جمع رحل ، والمراد به هنا مايستصحبه الرجل معه من الأثاث . قال الواحدى : الرحل كل شىء معد للرحيل من وعاء للمتاع ، ومركب للبعير ، ومجلس ورسن انتهى ، والمراد هنا الأوعية

التى يجعلون فيها مايمتارونه من الطعام . قال ابن الأنبارى : يقال للوعاء رحل وللبيت رحل (فلما رجعوا الى أبيهم قالوا ياأبانا منع منا الكيل) أرادوا بهذا ماتقدم من قول يوسف لهم : فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى : أى منع منا الكيل فى المستقبل ، وفيه دلالة على أن الامتيار مرة بعد مرة معهود فيما بينهم و بينه ولعلهم قالوا له بهذه المقالة قبل ان يفتحوا متاعهم و يعلموا برد بضاعتهم كما يفيد ذلك قوله فيما بعد ــ ولما فتحوا متاعهم ــ الى آخره ، ثم ذكروا له ماأمرهم به يوسف ، فقالوا (فأرسل معنا أخانا) يعنون بنيامين و(نكتل) جواب الأمر : أى نكتل بسبب ارساله معنا مانريده من الطعام . قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وابن عامر وعاصم : نكتل بالنون . وقرأ سائر الكوفيين بالياء التحتية ، واختار أبو عبيد القراءة الأولى قال ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكتال ، وزعم أنه اذا كان بالياء كان للأخ وحده : أى يكتال أخونا بنيامين ، واعترضه النحاس بما حاصله أن اسناد الكيل إلى الأخ لاينافى كونه للجميع * والمعنى يكتال بنيامين لنا جميعا . قال الزجاج : أى ان أرسلته اكتلنا والا منعنا الكيل (وانا له) أى لأخيهم بنيامين (لحافظون) من أن يصيبه سوء أو مكروه ، وجملة (قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) مستأنفة جواب سؤال مقدر كما تقدم فى نظائر ذلك فى مواضع كثيرة * والمعنى أنه لايأمنهم على بنيامين الا كما أمنهم على أخيه يوسف ، وقد قالوا له فى يوسف ــ وانا له لحافظون ــ كما قالوا هنا (وانا له لحافظون) ثم خانوه فى يوسف فهو ان أمنهم فى بنيامين خاف أن يخونوه فيه كما خانوه فى يوسف (فالله خير حفظا وهو أرحم الراحمين) لعل هنا اضمارا ، والتقدير فتوكل يعقوب على الله ودفعه اليهم . وقال فالله خير حفظا . قرأ أهل المدينة حفظا ، وهو منتصب على التميز ، وهى قراءة أبى عمرو وعاصم وابن عامر . وقرأ سائر الكوفيين حافظا ، وهو منتصب على الحال . وقال الزجاج على البيان يعنى التميز ، ومعنى الآية أن حفظ الله إياه خير من حفظهم له ، لما وكل يعقوب حفظه الى الله سبحانه حفظه وأرجعه اليه ، ولما قال فى يوسف ــ وأخاف أن يأكله الذئب ــ وقع له من الامتحان ماوقع * (ولما فتحوا متاعهم) أى أوعية الطعام أوماهو أعمّ من ذلك مما يطلق عليه لفظ المتاع سواء كان الذى فيه طعاما أو غير طعام (وجدوا بضاعتهم ردّت اليهم) أى البضاعة التى حملوها الى مصر ليمتاروا بها ، وقد تقدم بيانها ، وجملة (قالوا ياأبانا) مستأنفة كما تقدم (مانبغى) ما استفهامية والمعنى : أىّ شىء نطلب من هذا الملك بعد أن صنع معنا ماصنع من الاحسان بردّ البضاعة والاكرام عند القدوم اليه ، وتوفير ماأردناه من الميرة ، ويكون الاستفهام للانكار ، وجملة (هذه بضاعتنا ردّت الينا) مقررة لما دلّ عليه الاستفهام من الانكار لطلب شىء مع كونها قد ردّت اليهم ، وقيل ان «ما» فى مانبغى نافية أى مانبغى فى القول وماتتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك الينا واكرامه لنا ، ثم برهنوا على مالقوه من التزيد فى وصف الملك بقولهم (هذه بضاعتنا ردّت الينا) فان من تفضل عليهم بردّ ذلك حقيق بالثناء عليه منهم ، مستحق لما وصفوه به ، ومعنى (ونمير أهلنا) نجلب اليهم الميرة ، وهى الطعام ، والمائر الذى يأتى بالطعام . وقرأ السلمى بضم النون ، وهو معطوف على مقدّر يدلّ عليه السياق ، والتقدير هذه بضاعتنا ردّت إلينا فنحن نستعين بها على الرجوع ونمير أهلنا (ونحفظ أخانا) بنيامين مما نخافه عليه (ونزداد) بسبب ارساله معنا (كيل بعير) أى حمل بعير زائد على ماجئنا به هذه المرة ، لأنه كان يكال لكل رجل وقر بعير ، ومعنى (ذلك كيل يسير) أن زيادة كيل بعير لأخينا يسهل على الملك ، ولايمتنع علينا من زيادته له لكونه يسيرا لايتعاظمه ولايضايقنا فيه ، وقيل ان المعنى : ذلك المكيل لأجلنا قليل نريد أن ينضاف اليه حمل بعير لأخينا ، واختار الزجاج الأول ، وقيل ان هذا من كلام يعقوب جوابا على ماقاله أولاده : ونزداد كيل بعير ، يعنى ان حمل بعير شىء يسير لايخاطر لأجله بالولد وهو ضعيف ، لأن جواب يعقوب هو (قال لن أرسله معكم حتى

تؤتون موثقا من الله) أى حتى تعطونى ما أثق به وأركن إليه من جهة الله سبحانه ، وهو الحلف به ، واللام فى (لتأتننى به) جواب القسم ، لأن معنى حتى تؤتون موثقا من الله حتى تحلفوا بالله لتأتننى به : أى لتردنّ بنيامين إلىّ ، والاستثناء بقوله (إلا أن يحاط بكم) هو من أعمّ العام ، لأن لتأتننى به وان كان كلاما مثبتا ، فهو فى معنى النفى فكأنه قال : لاتمنعون من إتيانى به فى حال من الأحوال لعلة من العلل الا لعلة الاحاطة بكم ، والاحاطة مأخوذة من إحاطة العدوّ ، ومن أحاط به العدوّ فقد غلب أو هلك : فأخذ يعقوب عليهم العهد بأن يأتوه ببنيامين الا أن تغلبوا عليه أو تهلكوا دونه ، فيكون ذلك عذرا لكم عندى (فلما آتوه موثقهم) أى أعطوه ماطلبه منهم من اليمين (قال الله على مانقول وكيل) أى قال يعقوب الله على ماقلناه من طلبى الموثق منكم واعطائكم لى ماطلبته منكم مطلع رقيب لايخفى عليه منه خافية ، فهو المعاقب لمن خاس فى عهده وفجر فى الحلف به ، أو موكول إليه القيام بما شهد عليه منا .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن ابن عباس قال إن إخوة يوسف لما دخلوا عليه نعرفهم وهم له منكرون ، جاء بصواع الملك الذى كان يشرب فيه فوضعه على يده فجعل ينقره و يطنّ و ينقره و يطنّ ، فقال ان هذا الجام ليخبرنى عنكم خبرا : هل كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف ! وكان أبوه يحبه دونكم ، وانكم انطلقتم به فألقيتموه فى الجب وأخبرتم أباكم أن الذئب أكله ، وجئتم على قميصه بدم كذب ، قال فجعل بعضهم ينظر إلى بعض و يعجبون . وأخرج أبوالشيخ عن وهيب قال : لما جعل يوسف ينقر الصواع و يخبرهم قام اليه بعض إخوته فقال : أنشدك بالله أن لاتكشف لنا عورة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (ائتونى بأخ لكم من أبيكم) قال : يعنى بنيامين ، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن ابن عباس فى قوله (وأنا خير المنزلين) قال : خير من يضيف بمصر . وأخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله (لفتيته) أى لغلمانه (اجعلوا بضاعتهم) أى أوراقهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن قتادة فى قوله (مانبغى هذه بضاعتنا ردّت الينا) يقولون مانبغى وراء هذا (ونزداد كيل بعير) أى حمل بعير . وأخرج أبوعبيد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ونزداد كيل بعير قال : حمل حمار قال وهى لغة : قال أبوعبيد يعنى مجاهدا ان الحمار يقال له فى بعض اللغات بعير . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن مجاهد فى قوله (إلا أن يحاط بكم) قال تهلكوا جميعا ، وفى قوله (فلما آتوه موثقهم) قال عهدهم . وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (إلا أن يحاط بكم) قال : إلا أن تغلبوا حتى لاتطيقوا ذلك .

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۞ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۞ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَاذَا تَفْقِدُونَ ۞ قَالُوا

XII. 72-76

نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَنْ جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ * قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ
فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِنْ كُنْتُمْ كَٰذِبِينَ * قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَنْ وُجِدَ فِي
رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِنْ
وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ
مَنْ نَشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ *

لما تجهز أولاد يعقوب للسير إلى مصر خاف عليهم أبوهم أن تصيبهم العين لكونهم كانوا ذوى جمال ظاهر وثياب حسنة مع كونهم أولاد رجل واحد فنهاهم أن يدخلوا مجتمعين من باب واحد لأن فى ذلك مظنة لاصابة الأعين لهم ، وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرّقة ، ولم يكتف بقوله (لاتدخلوا من باب واحد) عن قوله (وادخلوا من أبواب متفرقة) لأنهم لو دخلوا من بابين مثلا كانوا قد امتثلوا النهى عن الدخول من باب واحد ، ولكنه لما كان فى الدخول من بابين مثلا نوع اجتماع يخشى معه أن تصيبهم العين أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة ، قيل وكانت أبواب مصر أربعة ،

وقد أنكر بعض المعتزلة كأبى هاشم والبلخى أن للعين تأثيرا وقالا لايمتنع أن صاحب العين اذا شاهد الشىء وأعجب به كانت المصلحة له فى تكليفه أن يغير الله ذلك الشىء حتى لايبقى قلب ذلك المكلف معلقا به * وليس هذا بمستنكر من هذين وأتباعهما ، فقد صار دفع أدلة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم ، وأىّ مانع من إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك ؟ وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حقّ ، وأصيب بها جماعة فى عصر النبوّة ، ومنهم رسول الله ﷺ * وأعجب من انكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة مايقع من بعضهم من الازراء على من يعمل بالدليل المخالف لمجرد الاستبعاد العقلى والتنطع فى العبارات كالزمخشرى فى تفسيره ، فانه فى كثير من المواطن لايقف على دفع دليل الشرع بالاستبعاد الذى يدّعيه على العقل حتى يضمّ الى ذلك الوقاحة فى العبارة على وجه يوقع المقصرين فى الأقوال الباطلة والمذاهب الزائفة ، وبالجملة فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة واجماع من يعتدّ به من هذه الأمة سلفا وخلفا ، وبما هو مشاهد فى الوجود ، فكم من شخص من هذا النوع الانسانى وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب .

وقد اختلف العلماء فيمن عرف بالاصابة بالعين ، فقال قوم : يمنع من الاتصال بالناس دفعا لضرره بحبس أو غيره من لزوم بيته ، وقيل ينفى ، وأبعد من قال انه يقتل إلا اذا كان يتعمد ذلك وتتوقف اصابته على اختياره وقصده ولم ينزجر عن ذلك فانه اذا قتل كان له حكم القاتل ، ثم قال يعقوب لأولاده (وما أغنى عنكم من الله من شىء) أى لاأدفع عنكم ضررا ولا أجلب اليكم نفعا بتدبيرى هذا ، بل ماقضاه الله عليكم فهو واقع لامحالة . قال الزجاج وابن الانبارى : لو سبق فى علم الله أن العين تهلكهم مع الاجتماع لكان تفرّقهم كاجتماعهم . وقال آخرون : ما كان يغنى عنهم يعقوب شيئا قط حيث أصابهم ما أصابهم مع تفرقهم من اضافة السرقة اليهم ، ثم صرح يعقوب بأنه لاحكم إلا لله سبحانه فقال (إن الحكم إلا لله) لالغيره ولايشاركه فيه مشارك فى ذلك (عليه توكلت) فى كل ايراد واصدار لاعلى غيره : أى اعتمدت ووثقت (وعليه) لاعلى غيره (فليتوكل المتوكلون) على العموم ، ويدخل فيه أولاده دخولا أوّليا (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) أى من الأبواب المتفرقة ولم يجتمعوا داخلين من باب واحد ، وجواب لما (ما كان يغنى عنهم) ذلك الدخول (من الله) أى من جهته (من شىء) من الأشياء مما قدره الله عليهم لأن الحذر

لايدفع القدر ، والاستثناء بقوله (إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها) منقطع * والمعنى ولكن حاجة كانت فى نفس يعقوب ، وهى شفقته عليهم ومحبته لسلامتهم قضاها يعقوب : أى أظهرها لهم ووصاهم بها غير معتقد أن للتدبير الذى دبره لهم تأثيرا فى دفع ماقضاه الله عليهم ، وقيل انه خطر ببال يعقوب أن الملك إذا رآهم مجتمعين مع مايظهر فيهم من كمال الخلقة ، وسيما الشجاعة أوقع بهم حسدا وحقدا أو خوفا منهم ، فأمرهم بالتفرق لهذه العلة ، وقد اختار هذا النحاس وقال : لامعنى للعين هاهنا ، وفيه أن هذا لو كان هو السبب لأمرهم بالتفرق لم يخص النهى عن ذلك بالاجتماع عند الدخول من باب واحد ، لأن هذا الحسد أو الخوف يحصل باجتماعهم داخل المدينة كما يحصل باجتماعهم عند الدخول من باب واحد ، وقيل ان الفاعل فى قضاها ضمير يعود إلى الدخول لا إلى يعقوب * والمعنى ما كان الدخول يغنى عنهم من جهة الله شيئا ، ولكنه قضى ذلك الدخول حاجة فى نفس يعقوب لوقوعه حسب ارادته (وانه لذو علم لما علمناه) أى وان يعقوب لصاحب علم لأجل تعليم الله إياه بما أوحاه الله من أن الحذر لايدفع القدر ، وأن ماقضاه الله سبحانه فهو كائن لامحالة (ولكن أكثر الناس لايعلمون) بذلك كما ينبغى ، وقيل لايعلمون أن الحذر مندوب اليه وان كان لايغنى من القدر شيئا ، والسياق يدفعه ، وقيل المراد بأكثر الناس المشركون (ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه) أى ضم اليه أخاه بنيامين ، قيل انه أمر بانزال كل اثنين فى منزل فبقى أخوه منفردا فضمه اليه و (قال إنى أنا أخوك) يوسف قال له ذلك سرا من دون أن يطلع عليه اخوته (فلا تبتئس) أى فلا تحزن (بما كانوا يعملون) أى اخوتك من الأعمال الماضية التى عملوها ، وقيل انه لم يخبره بأنه يوسف ، بل قال له : إنى أخوك مكان أخيك يوسف فلا تحزن بما كنت تلقاه منهم من الجفاء حسدا و بغيا ، وقيل انه أخبره بما سيدبره معهم من جعل السقاية فى رحله ، فقال لا أبالى ، وقيل انه لما أخبر يوسف أخاه بنيامين بأنه أخوه قال لاتردنى اليهم ، فقال قد علمت اغتمام أبينا يعقوب فاذا حبستك عندى ازداد غمه ، فأبى بنيامين فقال له يوسف : لايمكن حبسك عندى إلا بأن أنسبك الى مالايجمل بك ، فقال لا أبالى ، فدس الصاع فى رحله ، وهو المراد بالسقاية وأصلها المشربة التى يشرب بها جعلت صاعا يكال به ، وقيل كانت تسقى بها الدواب و يكال بها الحب ، وقيل كانت من فضة ، وقيل كانت من ذهب ، وقيل غير ذلك . وقد تقدم تفسير الجهاز والرحل * والمعنى أنه جعل السقاية التى هو الصواع فى رحل أخيه الذى هو الوعاء الذى يجعل فيه مايشترى به من الطعام من مصر (ثم) بعد ذلك (أذن مؤذن) أى نادى مناد قائلا (أيتها العير) قال الزجاج : معناه ياأصحاب العير ، وكل ما امتير عليه من الابل والحمير والبغال فهو عير ، وقيل هى قافلة الحمير ، وقال أبو عبيدة : العير الابل المرحولة المركوبة (انكم لسارقون) نسبة السرق اليهم على حقيقتها ، لأن المنادى غير عالم بما دبره يوسف ، وقيل ان المعنى أن حالكم حال السارقين كون الصواع صار لديكم من غير رضا من الملك (قالوا) أى اخوة يوسف (وأقبلوا عليهم) أى حال كونهم مقبلين على من نادى منهم المنادى من أصحاب الملك (ماذا تفقدون) أى ما الذى فقدتموه ، يقال فقدت الشيء اذا عدمته بضياع أو نحوه ، فكأنهم قالوا ماذا ضاع عليكم ؟ وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة (قالوا) فى جوابهم (نفقد صواع الملك) قرأ يحيى بن يعمر صواغ بالغين المعجمة . وقرأ أبو رجاء صوع بضم الصاد المهملة وسكون الواو بعدها عين مهملة . وقرأ أبى صاع . وقرأ أبو جعفر صاع ، وبها قرأ أبو هريرة . وقرأ الجمهور صواع بالصاد والعين المهملتين . قال الزجاج : الصواع هو الصاع بعينه ، وهو يذكر و يؤنث ، وهو السقاية ، ومنه قول الشاعر : * نشرب الخمر بالصواع جهارا * (ولمن جاء به حمل بعير) أى قالوا ولمن جاء بالصواع من جهة نفسه حمل بعير ، والبعير الجمل ، وفى لغة بعض العرب أنه الحمار ، والمراد بالحمل هاهنا ما يحمله

البعير من الطعام ، ثم قال المنادى (وأنا به زعيم) أى بحمل البعير الذى جعل لمن جاء بالصواع قبل التفتيش للأوعية ، والزعيم هو الكفيل ، ولعل القائل نفقد صواع الملك هو المنادى ، وإنما نسب القول الى الجماعة لكونه واحدا منهم ، ثم رجع الكلام إلى نسبة القول الى المنادى وحده لأنه القائل بالحقيقة (قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض) التاء بدل من واو القسم عند الجمهور ، وقيل من الباء ، وقيل أصل بنفسها ، ولاتدخل الا على هذا الاسم الشريف دون سائر أسمائه سبحانه ، وقد دخلت نادرا على الربّ ، وعلى الرحمن ، والكلام على هذا مستوفى فى علم الاعراب ، وجعلوا المقسم عليه هو علم يوسف وأصحابه بنزاهة جانبهم وطهارة ذيلهم عن التلوث بقذر الفساد فى الأرض الذى من أعظم أنواعه السرقة ، لأنهم قد شاهدوا منهم فى قدومهم عليه المرّة الأولى ، وهذه المرّة من التعفف والزهد عما هو دون السرقة بمراحل ، مايستفاد منه العلم الجازم بأنهم ليسوا ممن يتجارأ على هذا النوع العظيم من أنواع الفساد ، ولو لم يكن من ذلك الارد هم لبضاعتهم التى وجدوها فى رحالهم ، والمراد بالأرض هنا أرض مصر ، ثم أكدوا هذه الجملة التى أقسموا بالله عليها بقولهم (وما كنا سارقين) لزيادة التبرى مما قرفوهم به والتنزه عن هذه النقيصة الخسيسة والرذيلة الشنعاء (قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين) هذه الجملة مستأنفة كما تقدّم غير مرة فى نظائرها ، والقائلون هم أصحاب يوسف ، أو المنادى منهم وحده كما مرّ ، والضمير فى جزاؤه للصواع على حذف مضاف : أى فما جزاء سرقة الصواع عندكم ، أو الضمير للسارق : أى فما جزاء سارق الصواع عندكم (ان كنتم كاذبين) فيما تدعونه لأنفسكم من البراءة عن السرقة ، وذلك بأن يوجد الصواع معكم ، فأجاب اخوة يوسف و (قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه) أى جزاء سرقة الصواع ، أو جزاء سارق الصواع ، وجزاؤه مبتدأ ، والجملة الشرطية : وهى من وجد فى رحله فهو جزاؤه خبر المبتدأ على اقامة الظاهر مقام المضمر فيها ، والأصل جزاؤه من وجد فى رحله فهو ، فيكون الضمير الثانى عائدا الى المبتدأ ، والأوّل الى من ، ويجوز أن يكون خبر المبتدأ من وجد فى رحله ، والتقدير جزاء السرقة للصواع أخذ من وجد فى رحله ، وتكون جملة فهو جزاؤه لتأكيد الجملة الأولى وتقريرها . قال الزجاج : وقوله فهو جزاؤه زيادة فى البيان : أى جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لاغير . قال المفسرون : وكان حكم السارق فى آل يعقوب أن يسترق سنة ، فلذلك استفتوهم فى جزائه (كذلك نجزى الظالمين) أى مثل ذلك الجزاء الكامل نجزى الظالمين لغيرهم من الناس بسرقة أمتعتهم ، وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها اذا كانت من كلام اخوة يوسف ، ويجوز أن تكون من كلام أصحاب يوسف : أى كذلك نحن نجزى الظالمين بالسرق ، ثم لما ذكروا جزاء السارق أرادوا أن يفتشوا أمتعتهم حتى يتبين الأمر ، فأقبل يوسف على ذلك (فبدأ) بتفتيش (أوعيتهم) أى أوعية الاخوة العشرة (قبل وعاء أخيه) أى قبل تفتيشه لوعاء أخيه بنيامين دفعا للتهمة ورفعا لما دبره من الحيلة (ثم استخرجها) أى السقاية أو الصواع ، لأنه يذكر ويؤنث (كذلك كدنا ليوسف) أى مثل ذلك الكيد العجيب كدنا ليوسف : يعنى علمناه إياه وأوحيناه اليه ، والكيد مبدؤه السعى فى الحيلة والخديعة ، ونهايته إلقاء المخدوع من حيث لايشعر فى أمر مكروه لاسبيل الى دفعه ، وهو محمول فى حق الله سبحانه على النهاية لاعلى البداية . قال القتيبى : معنى كدنا دبرنا . وقال ابن الانبارى : أردنا * وفى الآية دليل على جواز التوصل الى الاغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة اذا لم يخالف ذلك شرعا ثابتا (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) أى ما كان يوسف ليأخذ أخاه بنيامين فى دين الملك : أى ملك مصر ، وفى شريعته التى كان عليها ، بل كان دينه وقضاؤه أن يضرب السارق ويغرم ضعف ماسرقه دون الاستعباد سنة كما هو دين يعقوب وشريعته * وحاصله أن يوسف ما كان يتمكن من اجراء حكم يعقوب على

أخيه مع كونه مخالفا لدين الملك وشريعته لولا ما كاد الله له ودبره وأراده حتى وجد السبيل اليه : وهو ما أجراه على ألسن اخوته من قولهم : ان جزاء السارق الاسترقاق ، فكان قولهم هذا هو بمشيئة الله وتدبيره ، وهو معنى قوله (إلا أن يشاء الله) أى إلا حال مشيئته واذنه بذلك وارادته له ، وهذه الجملة : أعنى ما كان ليأخذ أخاه الخ تعليل لما صنعه الله من الكيد ليوسف أو تفسير له (نرفع درجات من نشاء) بضروب العلوم والمعارف والعطايا والكرامات كما رفعنا درجة يوسف بذلك (وفوق كل ذى علم) ممن رفعه الله بالعلم (عليم) أرفع رتبة منهم وأعلى درجة لا يبلغون مداه ولا يرتقون شأوه ، وقيل معنى ذلك أن فوق كل أهل العلم عليم وهو الله سبحانه .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وقال يابنىّ لاتدخلوا من باب واحد) قال رهب يعقوب عليهم العين. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب قال : خشى عليهم العين . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وأبو الشيخ عن النخعى فى قوله (وادخلوا من أبواب متفرقة) قال أحبّ يعقوب أن يلقى يوسف أخاه فى خلوة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها) قال : خيفة العين على بنيه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (وانه لذو علم لما علمناه) قال انه لعامل بما علم ، ومن لا يعمل لا يكون عالما . وأخرج هؤلاء عنه فى قوله (آوى اليه أخاه) قال : ضمه اليه . وفى قوله (فلا تبتئس) قال : لاتحزن ولاتيأس ، وفى قوله (فلما جهزهم بجهازهم) قال قضى حاجتهم وكال لهم طعامهم ، وفى قوله (جعل السقاية) قال : هو إناء الملك الذى يشرب منه (فى رحل أخيه) قال : فى متاع أخيه . وأخرج ابن أبى حاتم وابن الانبارى فى المصاحف عن ابن عباس فى قوله (جعل السقاية) قال : هو الصواع ، وكل شىء يشرب منه فهو صواع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (أيتها العير) قال : كانت العير حميرا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (ولمن جاء به حمل بعير) قال : حمل حمار طعام : وهى لغة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (وأنا به زعيم) يقول : كفيل . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والضحاك مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس فى قوله (ماجئنا لنفسد فى الأرض) يقول : ماجئنا لنعصى فى الأرض . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله (فما جزاؤه) قال : عرفوا الحكم فى حكمهم فقالوا من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، وكان الحكم عند الأنبياء يعقوب وبنيه أن يؤخذ السارق بسرقته عبدا يسترقّ . وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (فبدأ بأوعيتهم) قال : ذكر لنا أنه كان كلما فتح متاع رجل استغفر تائبا مما صنع حتى بقى متاع الغلام قال : ماأظن أن هذا أخذ شيئا ؛ قالوا بلى فاستبره . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله (كذلك كدنا ليوسف) قال كذلك صنعنا ليوسف (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) يقول فى سلطان الملك قال : كان فى دين ملكهم أنه من سرق أخذت منه السرقة ومثلها معها من ماله فيعطيه المسروق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) يقول فى سلطان الملك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (إلا أن يشاء الله) قال إلا بعلة كادها الله ليوسف فاعتلّ بها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله (نرفع درجات من نشاء) قال ، يوسف واخوته أوتوا علما فرفعنا

XII 76-72

يوسف فى العلم فوقهم درجة . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد ابن جبير قال : كنا عند ابن عباس فحدث بحديث ، فقال رجل عنده (وفوق كل ذى علم عليم) فقال ابن عباس بئس ماقلت الله العليم الخبير ، وهو فوق كل عالم . وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال : سأل رجل عليا عن مسألة ، فقال فيها ، فقال الرجل ليس هكذا ، ولكن كذا وكذا ، قال علىّ أصبت وأخطأت (وفوق كلّ ذى علم عليم) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن عكرمة فى قوله (وفوق كل ذى علم عليم) قال : علم الله فوق كل عالم .

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ * قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ * فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ *

قوله (قالوا ان يسرق) أى بنيامين (فقد سرق أخ له من قبل) يعنون يوسف .
وقد اختلف المفسرون فى هذه السرقة التى نسبوها الى يوسف ماهى ؟ فقيل انه كان ليوسف عمة هى أكبر من يعقوب ، وكانت عندها منطقة اسحق لكونها أسنّ أولاده وكانوا يتوارثونها فيأخذها الأكبر سنا من ذكر أو أنثى ، وكانت قد حضنت يوسف وأحبته حبا شديدا ، فلما ترعرع قال لها يعقوب سلمى يوسف إلىّ فأشفقت من فراقه واحتالت فى بقائه لديها فجعلت المنطقة تحت ثيابه وحزمته بها ، ثم قالت قد سرقت منطقة اسحق فانظروا من سرقها فبحثوا عنها فوجدوها مع يوسف فأخذته عندها كما هو شرع الأنبياء فى ذلك الوقت من آل ابراهيم . وقد سبق بيان شريعتهم فى السرقة ، وقيل ان يوسف أخذ صنما كان لجده أبى أمه فكسره وألقاه على الطريق تغييرا للمنكر ، وحكى عن الزجاج أنه كان صنما من ذهب . وحكى الواحدى عن الزجاج أنه قال الله أعلم ، أسرق أخ له أم لا ؟ وحكى القرطبى فى تفسيره عن الزجاج أنه قال : كذبوا عليه فيما نسبوه اليه * قلت وهذا أولى ، فما هذه الكذبة بأول كذباتهم ، وقد قدّمنا مايدفع قول من قال انهم قد كانوا أنبياء عند صدور هذه الأمور منهم * قوله (فأسرّها يوسف فى نفسه) قال الزجاج وغيره الضمير فى أسرّها يعود الى الكلمة أو الجملة كأنه قيل فأسرّ الجملة فى نفسه (ولم يبدها لهم) ثم فسرها بقوله (قال أنتم شرّ مكانا) وقد ردّ أبو علىّ الفارسى هذا فقال ان هذا النوع من الاضمار على شريطة التفسير غير مستعمل ، وقيل الضمير عائد الى الاجابة : أى أسرّ يوسف إجابتهم فى ذلك الوقت الى وقت آخر ، وقيل أسرّ فى نفسه قولهم : ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل ، وهذا هو الأولى ، ويكون معنى ولم يبدها لهم أنه لم يبد لهم هذه المقالة التى أسرها فى نفسه بأن يذكر لهم صحتها أو بطلانها ، وجملة قال أنتم شرّ مكانا مفسرة على القول الأوّل ، ومستأنفة على القولين الآخرين ، كأنه قيل ، فماذا قال يوسف لما قالوا هذه المقالة ؟ أى أنتم شرّ مكانا : أى موضعا ومنزلا ممن نسبتموه الى السرقة ، وهو برئ ، فانكم قد فعلتم مافعلتم من القاء يوسف الى الجب والكذب على أبيكم

وغير ذلك من أفاعيلكم ، ثم قال (والله أعلم بما تصفون) من الباطل بنسبة السرق الى يوسف ، وأنه لاحقيقة لذلك ، ثم أرادوا أن يستعطفوه ليطلق له أخاهم بنيامين يكون معهم يرجعون به الى أبيهم لما تقدم من أخذه الميثاق عليهم بأن يردوه اليه ، (قالوا ياأيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا) أى ان لبنيامين هذا أبا متصفا بهذه الصفة ، وهى كونه شيخا كبيرا لايستطيع فراقه ولايصبر عنه ولايقدر على الوصول اليه (فخذ أحدنا مكانه) يبقى لديك ، فان له منزلة فى قلب أبيه ليست لواحد منا فلا يتضرر بفراق أحدنا كمالايتضرر بفراق بنيامين ثم عللوا ذلك بقوله (انا نراك من المحسنين) الى الناس كافة ، والينا خاصة ، فتمم احسانك الينا باجابتنا الى هذا المطلب ، فأجاب يوسف عليهم بقوله (معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده) أى نعوذ بالله معاذا ، فهو مصدر منصوب بفعل محذوف ، والمستعيذ بالله هو المعتصم به ، وأن نأخذ منصوب بنزع الخافض ، والأصل من أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده ، وهو بنيامين لأنه الذى وجد الصواع فى رحله فقد حل لنا استعباده بفتوا كم التى أفتيتمونا بقولكم – جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه – ‌‌‌(إنا إذا لظالمون) أى انا اذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده لظالمون فى دينكم وما تقتضيه فتوا كم (فلما استيئسوا منه) أى يئسوا من يوسف واسعافهم منه الى مطلبهم الذى طلبوه ، والسين والتاء للمبالغة (خلصوا نجيا) أى انفردوا حال كونهم متناجين فيما بينهم ، وهو مصدر يقع على الواحد والجمع كما فى قوله – وقربناه نجيا – . قال الزجاج معناه انفردوا وليس معهم أخوهم متناجين فيما يعملون به فى ذهابهم الى أبيهم من غير أخيهم (قال كبيرهم) ، قيل هو روبيل ، لأنه الأسن ، وقيل يهوذا ، لأنه الأوفر عقلا ، وقيل شمعون ، لأنه رئيسهم (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله) أى عهدا من الله فى حفظ ابنه ورده إليه ، ومعنى كونه من الله أنه باذنه (ومن قبل مافرطتم فى يوسف) معطوف على ماقبله ، والتقدير ألم تعلموا أن أباكم وتعلموا تفريطكم فى يوسف : ذكر هذا النحاس وغيره ، ومن قبل متعلقة بتعلموا : أى وتعلموا تفريطكم فى يوسف من قبل ، على أن ما مصدرية ، ويجوز أن تكون زائدة ، وقيل مافرطتم مرفوع المحل على الابتداء ، وخبره من قبل ، وقيل ان ما موصولة أو موصوفة ، وكلاهما فى محل النصب ، أو الرفع ، وما ذكرناه هو الأولى ، ومعنى فرطتم : قصرتم فى شأنه ، ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه (فلن أبرح الأرض) ، يقال برح براحا وبروحا : أى زال ، فاذا دخله النفى صار مثبتا : أى لن أبرح من الأرض ، بل ألزمها ولا أزال مقيما فيها (حتى يأذن لى أبى) فى مفارقتها والخروج منها ، وانما قال ذلك لأنه يستحى من أبيه أن يأتى اليه بغير ولده الذى أخذ عليهم الموثق بارجاعه اليه الا أن يحاط بهم كما تقدم (أو يحكم الله لى) بمفارقتها والخروج منها ، وقيل المعنى أو يحكم الله لى بخلاص أخى من الأسر حتى يعود الى أبى وأعود معه ، وقيل المعنى أو يحكم الله لى بالنصر على من أخذ أخى فأحاربه وآخذ أخى منه ، أو أعجز فأنصرف بعد ذلك (وهو خير الحاكمين) لأن أحكامه لاتجرى الا على مايوافق الحق ، ويطابق الصواب ، ثم قال كبيرهم مخاطبا لهم (ارجعوا الى أبيكم فقولوا ياأبانا ان ابنك سرق) ، قرأ الجمهور سرق على البناء للفاعل ، وذلك لأنهم قد شاهدوا استخراج الصواع من وعائه . وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو رزين على البناء للمفعول ، وروى ذلك النحاس عن الكسائى . قال الزجاج ان سرق يحتمل معنيين : أحدهما علم منه السرق ، والآخر اتهم بالسرق (وماشهدنا الا بما علمنا) من استخراج الصواع من وعائه ، وقيل المعنى : ماشهدنا عند يوسف بأن السارق يسترق الا بما علمنا من شريعتك وشريعة آبائك (وما كنا للغيب حافظين) حتى يتضح لنا هل الأمر على ماشاهدناه أو على خلافه ؟ وقيل المعنى ما كنا وقت أخذنا له منك ليخرج معنا الى مصر للغيب حافظين بأنه سيقع منه السرق الذى افتضحنا به ، وقيل الغيب

XI ٤٤-٤٥

هو الليل ، ومرادهم أنه سرق وهم نيام ، وقيل مرادهم أنه فعل ذلك وهو غائب عنهم ، فخفى عليهم فعله (واسأل القرية التى كنا فيها) هذا من تمام قول كبيرهم لهم : أى قولوا لأبيكم اسأل القرية التى كنا فيها : أى مصر ، والمراد أهلها : أى اسأل أهل القرية ، وقيل هى قرية من قرى مصر نزلوا فيها وامتاروا منها ، وقيل المعنى : واسأل القرية نفسها وان كانت جمادا فانك نبىّ الله ، والله سبحانه سينطقها فتجيبك ، ومما يؤيد هذا أنه قال سيبويه لايجوز كلم هندا ، وأنت تريد غلام هند (والعير التى أقبلنا فيها) أى وقولوا لأبيكم اسأل العير التى أقبلنا فيها : أى أصحابها ، وكانوا قوما معروفين من جيران يعقوب (وانا لصادقون) فيما قلنا ، جاءوا بهذه الجملة مؤكدة هذا التأكيد ، لأن ماقد تقدم منهم مع أبيهم يعقوب يوجب كمال الريبة فى خبرهم هذا عند السامع .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل) قال يعنون يوسف . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال سرق مكحلة لخالته يعنى يوسف . وأخرج أبو الشيخ عن عطية : قال سرق فى صباه ميلين من ذهب . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « سرق يوسف صنما لجدّه أبى أمه من ذهب وفضة فكسره وألقاه على الطريق فعيره بذلك اخوته » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير مثله غير مرفوع ، وقد روى نحوه عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فأسرّها يوسف فى نفسه) قال أسرّ فى نفسه قوله (أنتم شرّ مكانا والله أعلم بما تصفون) وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن اسحق فى قوله (فلما استيئسوا منه) قال أيسوا منه ، ورأوا شدّته فى أمره . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (خلصوا نجيا) قال وحدهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (قال كبيرهم) قال شمعون الذى تخلف أكبرهم عقلا ، وأكبر منه فى الميلاد روبيل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة (قال كبيرهم) هو روبيل ، وهو الذى كان نهاهم عن قتله ، وكان أكبر القوم . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد فى قوله (أو يحكم الله لى) قال أقاتل بسيفى حتى أقتل . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن أبى صالح نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة (وما كنا للغيب حافظين) قال ما كنا نعلم أن ابنك يسرق . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (واسأل القرية) قال يعنون مصر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة مثله .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۞ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۞ قَالُوا تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا

ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ *

قوله (قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا) أى زينت ، والأمر هنا قولهم (ان ابنك سرق) وماسرق فى الحقيقة ، وقيل المراد بالأمر : إخراجهم بنيامين ، والمضىّ به الى مصر طلبا للمنفعة ، فعاد ذلك بالمضرّة ، وقيل التسويل : التخييل : أى خيلت لكم أنفسكم أمرا لا أصل له ، وقيل الأمر الذى سوّلت لهم أنفسهم فتياهم بأن السارق يؤخذ بسرقته ، والاضراب هناهو باعتبار ماأثبتوه من البراءة لأنفسهم ، لا باعتبار أصل الكلام فانه صحيح ، والجملة مستأنفة مبنية على سؤال مقدّر كغيرها ، وجملة (فصبر جميل) خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ خبره محذوف : أى فأمرى صبر جميل ، أوفصبر جميل أجمل بى وأولى لى ، والصبر الجميل هو الذى لايبوح صاحبه بالشكوى ، بل يفوّض أمره الى الله ويسترجع ، وقد ورد ان الصبر عند أوّل الصدمة (عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) أى بيوسف وأخيه بنيامين ، والأخ الثالث الباقى بمصر ، وهو كبيرهم كما تقدّم ، وانما قال هكذا لأنه قدكان عنده أن يوسف لم يمت ، وأنه باق على الحياة وان غاب عنه خبره (انه هو العليم) بحالى (الحكيم) فيما يقضى به (وتولى عنهم) أى أعرض عنهم ، وقطع الكلام معهم (وقال ياأسفا على يوسف) . قال الزجاج : الأصل ياأسفى ، فأبدل من الياء ألفا لخفة الفتحة ، والأسف : شدة الجزع ، وقيل شدّة الحزن ، ومنه قول كثير :

فيا أسفا للقلب كيف انصرافه * وللنفس لما سليت فتسلت

قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه الحزن غاية مبالغه بسبب فراقه ليوسف ، وانضمام فراقه لأخيه بنيامين ، وبلوغ مابلغه من كونه أسيرا عند ملك مصر ، فتضاعفت أحزانه ، وهاج عليه الوجد القديم بما أثاره من الخبر الأخير ، وقد روى عن سعيد بن جبير أن يعقوب لم يكن عنده ماثبت فى شريعتنا من الاسترجاع والصبر على المصائب ، ولو كان عنده ذلك لما قال : ياأسفا على يوسف ، ومعنى المناداة للأسف طلب حضوره كأنه قال : تعال ياأسفى وأقبل الىّ (وابيضت عيناه من الحزن) أى انقلب سواد عينيه بياضا من كثرة البكاء ، قيل انه زال إدراكه بحاسة البصر بالمرة ، وقيل كان يدرك إدراكا ضعيفا ، وقد قيل فى توجيه ماوقع من يعقوب عليه السلام من هذا الحزن العظيم المفضى الى ذهاب بصره كلا أو بعضا بأنه انما وقع منه ذلك لأنه علم أن يوسف حىّ ، فخاف على دينه مع كونه بأرض مصر ، وأهلها حينئذ كفار ، وقيل ان مجرد الحزن ليس بمحرّم ، وانما المحرّم مايفضى منه الى الوله ، وشق الثياب ، والتكلم بما لاينبغى ، وقد قال النبى ﷺ عند موت ولده ابراهيم « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول مايسخط الربّ ، وانا عليك ياابراهيم لمحزونون » . ويؤيد هذا قوله (فهو كظيم) أى مكظوم ، فان معناه أنه مملوء من الحزن ممسك له لايبثه ، ومنه كظم الغيظ ، وهو إخفاؤه فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه من كظم السقاء : إذا سدّه على مافيه ، والكظم بفتح الظاء : مخرج النفس ، يقال أخذ بأكظامه ، وقيل الكظيم بمعنى الكاظم : أى المشتمل على حزنه الممسك له ، ومنه :

فان أك كاظما لمصاب ناس * فانى اليوم منطلق لسانى

ومنه ـ والكاظمين الغيظ ـ . وقال الزجاج : معنى كظيم : محزون ، وروى عن ابن عباس أنه قال معناه مغموم مكروب . قال بعض أهل اللغة : الحزن بالضم والسكون : البكاء ، وبفتحتين : ضدّ الفرح . وقال أكثر أهل اللغة هما لغتان بمعنى (قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف) أى لاتفتؤ ، فحذف حرف النفى

لعدم اللبس . قال الكسائي : فتأت وفتئت أفعل كذا : أي مازلت . وقال الفراء : ان لا مضمرة : أي لاتفتأ . قال النحاس والذى قال صحيح ، وقد روى عن الخليل وسيبويه مثل قول الفراء ، وأنشد الفراء محتجا على ماقاله :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولوقطعوا رأسى لديك وأوصالى

ويقال فتىء وفتأ لغتان ، ومنه قول الشاعر :

فما فتئت حتى كأن غبارها * سرادق يوم ذى رياح ترفع

(حتى تكون حرضا) الحرض مصدر يستوى فيه الواحد ، والجمع ، والمذكر ، والمؤنث ، والصفة المشبهة حرض بكسر الراء كدنف ودنف ، وأصل الحرض : الفساد فى الجسم ، أو العقل من الحزن ، أو العشق ، أوالهرم ، حكى ذلك عن أبى عبيدة وغيره ، ومنه قول الشاعر :

سرى همى فأمرضنى * وقدمازادنى مرضا

كذاك الحب قبل اليو * م ممايورث الحرضا

وقيل الحرض : مادون الموت ، وقيل الهرم ، وقيل الحارض : البالى الداثر . وقال الفراء : الحارض : الفاسد الجسم والعقل ، وكذا الحرض . وقال مؤرج هو الذائب من الهمّ ، ويدلّ عليه قول الشاعر :

انى امرؤلجّ بى حب فأحرضنى * حتى بليت وحتى شفنى السقم

ويقال رجل محرض ، ومنه قول الشاعر :

طلبته الخيل يوما كاملا * ولو ألفته لأضحى محرضا

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أحرضه الهمّ : اذا أسقمه ، ورجل حارض : أى أحمق . وقال الأخفش الحارض : الذاهب . وقال ابن الأنبارى : هو الهالك * والأولى تفسير الحرض هنابغير الموت والهلاك من هذه المعانى المذكورة حتى يكون لقوله (أو تكون من الهالكين) معنى غير معنى الحرض ، فالتأسيس أولى من التأكيد ، ومعنى من الهالكين : من الميتين ، وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقة عليه وان كانوا هم سبب أحزانه ، ومنشأ همومه وغمومه (قال انما أشكو بثى وحزنى إلى الله) هذه الجملة مستأنفة ، كأنه قيل فما قال يعقوب لما قالوا له ماقالوا ؟ والبث : مايرد على الانسان من الأشياء التى يعظم حزن صاحبها بها حتى لايقدر على إخفائها كذا قال أهل اللغة ، وهو مأخوذ من بثثته : أى فرقته ، فسميت المصيبة بثا مجازا . قال ذوالرمة :

وقفت على ربع لمية يافتى * فمازلت أبكى عنده وأخاطبه

وأسقيه حتى كاد مما أبثه * تكلمنى أحجاره وملاعبه

وقد ذكر المفسرون أن الانسان اذا قدر على كتم مانزل به من المصائب كان ذلك حزنا ، وان لم يقدر على كتمه كان ذلك بثا ، فالبث على هذا : أعظم الحزن وأصعبه ، وقيل البث : الهمّ ، وقيل هوالحاجة ، وعلى هذا القول يكون عطف الحزن على البث واضح المعنى ، وأما على تفسير البث بالحزن العظيم ، فكأنه قال : انما أشكو حزنى العظيم ومادونه من الحزن إلى الله لا إلى غيره من الناس ، وقد قرئ حزنى بضم الحاء وسكون الزاى وحزنى بفتحهما (وأعلم من الله مالا تعلمون) أى أعلم من لطفه وإحسانه ، وثوابه على المصيبة مالا تعلمونه أنتم ، وقيل أراد علمه بأن يوسف حىّ ، وقيل أراد علمه بأن رؤياه صادقة ، وقيل أعلم من إجابة المضطرين الى الله مالاتعلمون (يابنىّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) التحسس بمهملات : طلب الشىء بالحواس ، مأخوذ من الحسّ ، أو من الاحساس : أى اذهبوا فتعرّفوا خبر يوسف

وأخيه

وأخيه وتطلبوه ، وقرئ بالجيم ، وهو أيضا التطلب (ولا تيأسوا من روح الله) أى لاتقنطوا من فرجه وتنفيسه . قال الأصمعى الروح : مايجده الانسان من نسيم الهواء فيسكن اليه ، والتركيب يدل على الحركة والهزة ، فكل مايهتز الانسان بوجوده ويلتذ به فهو روح ، وحكى الواحدى عن الأصمعى أيضا أنه قال الروح : الاستراحة من غمّ القلب . وقال أبوعمرو الروح : الفرج ، وقيل الرحمة (انه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) لكونهم لايعلمون بقدرة الله سبحانه ، وعظيم صنعه ، وخفىّ ألطافه * قوله (فلما دخلوا عليه) أى على يوسف ، وفى الكلام حذف ، والتقدير فذهبوا كما أمرهم أبوهم الى مصر ليتحسسوا من يوسف وأخيه ، فلما دخلوا على يوسف (قالوا ياأيها العزيز) أى الملك الممتنع القادر (مسنا وأهلنا الضرّ) أى الجوع والحاجة * وفيه دليل على أنه تجوز الشكوى عند الضرورة اذا خاف من إصابته على نفسه كما يجوز للعليل أن يشكو الى الطبيب مايجده من العلة ، وهذه المرّة التى دخلوا فيها مصر هى المرّة الثالثة كما يفيده ماتقدم من سياق الكتاب العزيز (وجئنا ببضاعة مزجاة) البضاعة هى القطعة من المال يقصد بها شراء شىء ، يقال أبضعت الشىء واستبضعته : إذا جعلته بضاعة ، وفى المثل « كمستبضع التمر الى هجر » . والازجاء : السوق بدفع . قال الواحدى الازجاء فى اللغة : السوق والدفع قليلا قليلا ، ومنه قوله تعالى ــ ألم تر أن الله يزجى سحابا ــ ، والمعنى أنها بضاعة تدفع ولايقبلها التجار . قال ثعلب البضاعة المزجاة : الناقصة غير التامة . قال أبوعبيدة انما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة .

واختلف فى هذه البضاعة ماهى ؟ فقيل كانت قديداً وحيسا ، وقيل صوف وسمن ، وقيل الحبة الخضراء والصنوبر ، وقيل دراهم رديئة ، وقيل النعال والأدم ، ثم طلبوا منه بعد أن أخبروه بالبضاعة التى معهم أن يوفى لهم الكيل : أى يجعله تاما لا نقص فيه ، وطلبوا منه أن يتصدّق عليهم إما بزيادة يزيدها لهم على مايقابل بضاعتهم ، أو بالاغماض عن رداءة البضاعة التى جاءوا بها ، وأن يجعلها كالبضاعة الجيدة فى إيفاء الكيل لهم بها ، و بهذا قال أكثر المفسرين ، وقد قيل كيف يطلبون التصدق عليهم وهم أنبياء والصدقة محرّمة على الأنبياء * وأجيب باختصاص ذلك بنبينا محمد ﷺ (ان الله يجزى المتصدّقين) عما يجعله لهم من الثواب الأخروى ، أو التوسيع عليهم فى الدنيا .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) قال يوسف وأخيه وروبيل . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال : يوسف وأخيه وكبيرهم الذى تخلف : وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله (ياأسفا على يوسف) قال : ياحزنا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن قتادة مثله . وأخرجوا عن مجاهد قال : ياجزعا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (فهو كظيم) قال : حزين . وأخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : كظم على الحزن فلم يقل الا خيرا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطاء الخراسانى قال : كظيم مكروب . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك قال : الكظيم الكمد . وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (تالله تفتؤا تذكر يوسف) قال : لاتزال تذكر يوسف (حتى تكون حرضا) قال دنفا من المرض (أو تكون من الهالكين) قال الميتين . وأخرج هؤلاء عن مجاهد نحوه وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (تفتؤا تذكر يوسف) قال :

XIL ٩٩-٩٦٠

لاتزال تذكر يوسف (حتى تكون حرضا) قال هرما (أو تكون من الهالكين) قال أو تموت . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك (حتى تكون حرضا) قال : الحرض البالى (أو تكون من الهالكين) قال من الميتين . وأخرج ابن جرير وعبدالرزاق عن مسلم بن يسار يرفعه الى النبى ﷺ قال من بث لم يصبر ، ثم قرأ (انما أشكو بثى وحزنى الى الله) . وأخرج ابن منده فى المعرفة عن مسلم بن يسار عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ فذكره . وأخرج ابن مردويه من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعا مثله . وأخرجه ابن المنذر وابن مردويه عن عبد الرحمن ابن يعمر مرفوعا مرسلا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (انما أشكو بثى) قال : همى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (وأعلم من الله مالا تعلمون) قال : أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأنى سأسجد له . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى قوله (ولا تيأسوا من روح الله) قال : من رحمة الله . وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد قال : من فرج الله يفرج عنكم الغم الذى أنتم فيه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (مسنا وأهلنا الضر) قال : أى الضرّ فى المعيشة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ببضاعة) قال دراهم (مزجاة) قال كاسدة . وأخرج عبدالرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال : مزجاة رثة المتاع خلقة الحبل والغرارة والشئ . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا مزجاة قال : الورق الزيوف التى لاتنفق حتى يوضع منها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جرير فى قوله (وتصدق علينا) قال : اردد علينا أخانا .

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَافَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَٰهِلُونَ * قَالُوا أَءِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ * ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ * قَالُوا تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَٰأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ *

الاستفهام فى قوله (هل علمتم) للتوبيخ والتقريع ، وقد كانوا عالمين بذلك ، ولكنه أراد ماذكرناه. ويستفاد منه تعظيم الواقعة لكونه فى قوة : ماأعظم الأمر الذى ارتكبتم من يوسف وأخيه ، وماأقبح ماأقدمتم عليه ؟ كما يقال للمذنب : هل تدرى من عصيت ؟ والذى فعلوا بيوسف هو ماتقدم مما قصه الله سبحانه علينا فى هذه السورة ، وأما مافعلوا بأخيه ، فقال جماعة من المفسرين هو ماأدخلوه عليه من الغم بفراق أخيه يوسف ، وماكان يناله منهم من الاحتقار والاهانة ، ولم يستفهمهم عما فعلوا بأبيهم يعقوب

مع أنه قد ناله منهم ماقصه الله فيا سبق من صنوف الأذى . قال الواحدى : ولم يذكر أباه يعقوب مع عظم مادخل عليه من الغم بفراقه تعظيما له ورفعا من قدره ، وعلما بأن ذلك كان بلاء له من الله عزّ وجلّ ليزيد فى درجته عنده (اذ أنتم جاهلون) نفى عنهم العلم وأثبت لهم صفة الجهل ، لأنهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم ، وقيل انه أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم وتخفيف الأمر عليهم ، فكأنه قال : انما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر وقت عدم علمكم بما فيه من الاثم وقصور معارفكم عن عاقبته ، وما يترتب عليه ، أو أراد أنهم عند ذلك فى أوان الصبا وزمان الصغر ، اعتذارا لهم ودفعا لما يدهمهم من الخجل والحيرة مع علمه وعلمهم بأنهم كانوا فى ذلك الوقت كبارا (قالوا ءانك لأنت يوسف) قرأ ابن كثير إنك على الخبر بدون استفهام . وقرأ الباقون على الاستفهام التقريرى ، وكان ذلك منهم على طريق التعجب والاستغراب : قيل سبب معرفتهم له بمجرد قوله لهم (ما فعلتم بيوسف وأخيه) أنهم لما قال لهم ذلك تنبهوا وفهموا أنه لا يخاطبهم بمثل هذا الاهو ، وقيل انه لما قال لهم بهذه المقالة وضع التاج عن رأسه فعرفوه ، وقيل انه تبسم فعرفوا ثناياه (قال أنا يوسف وهذا أخى) أجابهم بالاعتراف بما سألوه عنه . قال ابن الانبارى أظهر الاسم فقال أنا يوسف ولم يقل أنا هو ، تعظيما لما وقع به من ظلم اخوته ، كأنه قال أنا المظلوم المستحل منه المحرّم المراد قتله . فاكتفى باظهار الاسم عن هذه المعانى ، وقال : وهذا أخى مع كونهم يعرفونه ولاينكرونه لأن قصده وهذا أخى المظلوم كظلمى (قد منّ الله علينا) بالخلاص عما ابتلينا به ، وقيل منّ الله علينا بكل خير فى الدنيا والآخرة ، وقيل بالجمع بيننا بعد التفرق ، ولامانع من ارادة جميع ذلك (انه من يتق ويصبر) قرأ الجمهور بالجزم على أن من شرطية . وقرأ ابن كثير باثبات الياء فى يتقى ، كما فى قول الشاعر :

ألم يأتيك والأنباء تنمى ٭ بما لاقت لبون بنى زياد

وقيل انه جعل من موصولة لاشرطية ، وهو بعيد ٭ والمعنى . انه من يفعل التقوى أو يفعل مايقيه عن الذنوب ويصبر على المصائب (فان الله لايضيع أجر المحسنين) على العموم ، فيدخل فيه مايفيده السياق دخولا أوليا ، وجاء بالظاهر ، وكان المقام مقام المضمر : أى أجرهم للدلالة على أن الموصوفين بالتقوى موصوفون بصفة الاحسان (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) أى لقد اختارك وفضلك علينا بما خصك به من صفات الكمال ، وهذا اعتراف منهم بفضله وعظيم قدره ، ولايلزم من ذلك أن لا يكونوا أنبياء ، فان درج الأنبياء متفاوتة . قال الله تعالى ــ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ــ (وان كنا لخاطئين) أى وان الشأن ذلك . قال : أبوعبيدة خطئ وأخطأ بمعنى واحد ، وقال الأزهرى المخطئ من أراد الصواب ، فصار الى غيره ، ومنه قولهم : المجتهد يخطئ ويصيب ، والخاطئ من تعمد مالاينبغى . قالوا هذه المقالة المتضمنة للاعتراف بالخطأ والذنب استجلابا لعفوه واستجذابا لصفحه (قال لاتثريب عليكم) التثريب التعيير والتوبيخ : أى لاتعيير ولاتوبيخ : ولالوم عليكم قال الأصمعى : ثربت عليه : قبحت عليه فعله . وقال الزجاج المعنى لا إفساد لما بينى وبينكم من الحرمة وحق الاخوة ، ولكم عندى الصلح والعفو ، وأصل التثريب الافساد ، وهى لغة أهل الحجاز . وقال ابن الأنبارى معناه قد انقطع عنكم توبيخى عند اعترافكم بالذنب . قال ثعلب : ثرب فلان على فلان اذا عدّد عليه ذنوبه ، وأصل التثريب من الثرب ، وهو الشحم الذى هو غاشية الكرش ، ومعناه ازالة التثريب كما أن التجليد والتقريع ازالة الجلد ، والقرع ، وانتصاب اليوم بالتثريب : أى لاأثرب عليكم أو منتصب بالعامل المقدّر فى عليكم وهو مستقرّ أو ثابت أو نحوهما : أى لاتثريب مستقرّ أو ثابت عليكم ، وقد جوّز الأخفش الوقف على عليكم ، فيكون اليوم متعلق بالفعل الذى بعده . وقد ذكر مثل هذا ابن الأنبارى : ثم دعا لهم بقوله (يغفر الله لكم) على تقدير الوقف على اليوم ، أو أخبرهم بأن الله قد غفر لهم

ذلك اليوم على تقدير الوقف على عليكم (وهو أرحم الراحمين) يرحم عباده رحمة لايتراحمون بها فيما بينهم فيجازى محسنهم ويغفر لمسيئهم * قوله (اذهبوا بقميصى هذا) قيل هذا القميص هو القميص الذى ألبسه الله ابراهيم لما ألقى فى النار وكساه ابراهيم اسحق وكساه اسحق يعقوب . وكان يعقوب أدرج هذا القميص فى قضيبه وعلقه فى عنق يوسف لما كان يخاف عليه من العين ، فأخبر جبريل يوسف أن يرسل به الى يعقوب ليعود عليه بصره لأن فيه ريح الجنة ، وريح الجنة لايقع على سقيم إلا شفى ولامبتلى إلا عوفى (فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا) أى يصر بصيرا على أن يأت هى التى من أخوات كان . قال الفراء يرجع بصيرا . وقال السدى يعد بصيرا ، وقيل معناه : يأت الىّ الى مصر وهو بصير قد ذهب عنه العمى ، ويؤيده قوله (وأتونى بأهلكم أجمعين) أى جميع من شمله لفظ الأهل من النساء والذرارى ، قيل كانوا نحو سبعين ، وقيل ثلاثة وتسعين (ولما فصلت العير) أى خرجت منطلقة من مصر الى الشام ، يقال فصل فصولا ، وفصلته فصلا ، لازم ومتعدّ ، ويقال فصل من البلد فصولا : اذا انفصل عنه وجاوز حيطانه (قال أبوهم) أى يعقوب لمن عنده فى أرض كنعان من أهله (انى لأجد ريح يوسف) * قيل انها هاجت ريح فحملت ريح القميص الى يعقوب مع طول المسافة ، فأخبرهم بما وجد ، ثم قال (لولا أن تفندون) لولا أن تنسبونى الى الفند ، وهو ذهاب العقل من الهرم ، يقال أفند الرجل : اذا خرف وتغير عقله . وقال أبو عبيدة لولا أن تسفهون ، فجعل الفند السفه . وقال الزجاج لولا أن تجهلون ، فجعل الفند الجهل ، ويؤيد قول من قال انه السفه قول النابغة :

الا سليمان اذ قال المليك له * قم فى البرية فاحددها عن الفند

أى امنعها عن السفه . وقال أبو عمرو الشيبانى التفنيد : التقبيح ، ومنه قول الشاعر :

ياصاحبىّ دعا لومى وتفنيــد * فليس مافات من أمرى بمردود

وقيل هو الكذب ، ومنه قول الشاعر :

هل فى افتخار الكريم من أود * أم هل لقول الصدّيق من فند

وقال ابن الأعرابى (لولا أن تفندون) لولا أن تضعفوا رأيى . وروى مثله عن أبى عبيدة . وقال الأخفش التفنيد : اللوم وضعف الرأى ، وكل هذه المعانى راجع الى التعجيز وتضعيف الرأى ، يقال فنده تفنيدا : اذا عجزه ، وأفند : اذا تكلم بالخطأ ، والفند : الخطأ من الكلام ، ومما يدل على إطلاقه على اللوم قول الشاعر :

ياعاذلىّ دعا الملام وأقصرا * طال الهوى وأطلتما التفنيدا

أخبرهم يعقوب بأن الصبا قد حملت اليه ريح حبيبه ، وأنه لولا مايخشاه من التفنيد لما شك فى ذلك :

فان الصبا ريح اذا ماتنفست * على نفس مهموم تجلت همومها

اذا قلت هذا حين أسلو يهيجنى * نسيم الصبا من حيث ما يطلع الفجر

ولقد تهبّ لى الصبا من أرضها * فيلذّ مسّ هبوبها وتطيب

(قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم) أى قال الحاضرون عنده من أهله انك يايعقوب لفى ذهابك عن طريق الصواب الذى كنت عليه قديما من إفراط حبك ليوسف لاتنساه ، ولا تفترّ عنه ، ولسان حال يعقوب يقول لهم :

لايعرف الشوق الا من يكابده * ولا الصبابة الا من يعانيها

لاتعذل المشتاق فى أشواقه * حتى تكون حشاك فى أحشائه

وقيل المعنى : انك لفى جنونك القديم ، وقيل فى محبتك القديمة . قالوا له ذلك لأنه لم يكن قد بلغهم

قدوم

قدوم البشير (فلما أن جاء البشير) . قال المفسرون البشير : هو يهوذا بن يعقوب قال لاخوته : أنا جئته بالقميص ملطخا بالدم ، فأعطني اليوم قميصك لأخبره أنك حيّ ، فأفرحه كما أحزنته (ألقاه على وجهه) أى ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب ، أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه (فارتدّ بصيرا) الارتداد انقلاب الشيء الى حال قد كان عليها ، والمعنى : عاد ورجع الى حالته الأولى من صحة بصره (قال ألم أقل لكم) أى قال يعقوب لمن كان عنده من أهله الذين قال لهم : انى لأجد ريح يوسف : ألم أقل لكم هذا القول فقلتم ماقلتم ، ويكون قوله (انى أعلم من الله مالا تعلمون) كلاما مبتدأ لايتعلق بالقول ، ويجوز أن تكون جملة (انى أعلم من الله مالا تعلمون) مقول القول ، ويريد بذلك إخبارهم بما قاله لهم سابقا ـ انما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله مالا تعلمون ـ (قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين) طلبوا منه أن يستغفر لهم ، واعترفوا بالذنب ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : ولما رجعوا من مصر ووصلوا الى أبيهم قالوا هذا القول ، فوعدهم بما طلبوه منه و (قال سوف أستغفر لكم ربى) . قال الزجاج أراد يعقوب أن يستغفر لهم فى وقت السحر ، لأنه أخلق باجابة الدعاء ، لا أنه بخل عليهم بالاستغفار ، وقيل أخره الى ليلة الجمعة ، وقيل أخره الى أن يستحلّ لهم من يوسف ، ولم يعلم أنه قد عفا عنهم ، وجملة (انه هو الغفور الرحيم) تعليل لما قبله .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة فى قوله (لاتثريب) قال لاتعيير . وأخرج أبو الشيخ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال : قال لما فتح رسول الله ﷺ مكة التفت الى الناس ، فقال ماذا تقولون ، وماذا تظنون ؟ فقالوا ابن عم كريم ، فقال لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة مرفوعا نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء الخراسانى قال : طلب الحوائج الى الشباب أسهل منها عند الشيوخ : ألم تر الى قول يوسف لاتثريب عليكم اليوم ؟ . وقال يعقوب (سوف أستغفر لكم ربى)

أقول وفى هذا الكلام نظر فانهم طلبوا من يوسف أن يعفو عنهم بقولهم : لقد آثرك الله علينا ، فقال لاتثريب عليكم اليوم ، لأن مقصودهم صدور العفو منه عنهم ، وطلبوا من أبيهم يعقوب أن يستغفر الله لهم وهو لا يكون الا بطلب ذلك منه الى الله عزّ وجلّ ، وبين المقامين فرق ، فلم يكن وعد يعقوب لهم بخلا عليهم بسؤال الله لهم ، ولاسيما اذا صحّ ماتقدّم من أنه أخر ذلك الى وقت الاجابة ، فانه لوطلبه لهم فى الحال لم يحصل له علم بالقبول .

وأخرج الحكيم الترمذى وأبو الشيخ عن وهب بن منبه : قال لما كان من أمر إخوة يوسف ما كان ، كتب يعقوب الى يوسف وهو لايعلم أنه يوسف : بسم الله الرحمن الرحيم : من يعقوب بن اسحق ابن ابراهيم الى عزيز آل فرعون : سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لاإله إلا هو . أما بعد فانا أهل بيت مولع بنا أسباب البلاء ، كان جدّى ابراهيم خليل الله ألقى فى النار فى طاعة ربه ، فجعلها الله عليه بردا وسلاما ، وأمر الله جدّى أن يذبح له أبى ففداه الله بما فداه وكان لى ابن ، وكان من أحب الناس الىّ ففقدته ، فأذهب حزنى عليه نور بصرى ، وكان له أخ من أمه كنت اذا ذكرته ضممته الى صدرى ، فأذهب عنى بعض وجدى ، وهو المحبوس عندك فى السرقة ، وانى أخبرك أنى لم أسرق ، ولم ألد سارقا ، فلما قرأ يوسف الكتاب بكى وصاح ، وقال : اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا . وأخرج أبو الشيخ عن أنس أن رسول الله ﷺ قال فى قوله (اذهبوا بقميصى هذا) أن نمروذ لما ألقى ابراهيم فى النار نزل إليه جبريل بقميص من الجنة ، وطنفسة من الجنة ، فألبسه القميص ، وأقعده على الطنفسة ، وقعد معه يتحدث ، فأوحى الله إلى النار ـ كونى بردا وسلاما ـ ، ولولا أنه قال وسلاما

لأذاه البرد . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مرفوعا « ان الله كسا ابراهيم ثوبا من الجنة فكساه ابراهيم اسحق ، وكساه اسحق يعقوب ، فأخذه يعقوب فجعله فى قصبة من حديد وعلقه فى عنق يوسف ، ولو علم إخوته اذ ألقوه فى الجب لأخذوه ، فلما أراد الله أن يرد يوسف على يعقوب كان بين رؤياه وتعبيره أربعون سنة أمر البشير أن يبشره من ثمان مراحل ، فوجد يعقوب ريحه ، فقال : إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ، فلما ألقاه على وجهه ارتد بصيرا ، وليس يقع شىء من الجنة على عاهة من عاهات الدنيا إلا أبرأها باذن الله . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وأحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (ولما فصلت العير) قال لما خرجت العير هاجت الريح ، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف ، فقال (انى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) تسفهون ، فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه : قال وجد ريحه من مسيرة عشرة أيام . وأخرج ابن أبى حاتم من وجه آخر عنه : قال وجده من مسيرة ثمانين فرسخا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه أيضا (لولا أن تفندون) قال تجهلون . وأخرج ابن جرير عنه أيضا : قال تكذبون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد : قال تهرمون : يقولون قد ذهب عقلك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع : قال لولا أن تحمقون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (انك لفى ضلالك القديم) يقول خطئك القديم . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير : قال جنونك القديم . وأخرج ابن جرير عن مجاهد : قال حبك القديم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال البشير : البريد . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الضحاك مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سفيان : قال البشير هو يهوذا بن يعقوب . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : لما أن جاء البشير الى يعقوب فألقى عليه القميص . قال على أى دين خلفت يوسف ؟ قال : على الاسلام . قال : الآن تمت النعمة . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن مسعود فى قوله (سوف أستغفر لكم ربى) قال ان يعقوب أخر بنيه الى السحر . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس : قال أخرهم الى السحر ، وكان يصلى بالسحر . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عنه قال : أخرهم الى السحر ، لأن دعاء السحر مستجاب . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه أيضا قال : قال النبى ﷺ فى قصة هو قول أخى يعقوب لبنيه : سوف أستغفر لكم ربى « يقول حتى تأتى ليلة الجمعة » .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ *

قوله (فلما دخلوا على يوسف) لعل فى الكلام محذوفا مقدرا ، وهو فرحل يعقوب وأولاده وأهله الى مصر فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه : أى ضمهما وأنزلهما عنده . قال المفسرون : المراد

بالأبوين

بالأبوين هنا : يعقوب وزوجته خالة يوسف ، لأن أمه قد كانت ماتت فى ولادتها لأخيه بنيامين كما تقدم ، وقيل أحيا الله له أمه تحقيقا للرؤيا حتى سجدت له (وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين) مما تكرهون ، وقد كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر ، ولا يدخلونها الا بجواز منهم ، قيل والتقييد بالمشيئة عائد الى الأمن ، ولا مانع من عوده الى الجميع ، لأن دخولهم لا يكون إلا بمشيئة الله سبحانه ، كما أنهم لا يكونون آمنين الا بمشيئته ، وقيل ان التقييد بالمشيئة راجع الى قوله (سوف أستغفر لكم ربى) وهو بعيد * وظاهر النظم القرآنى : أن يوسف قال لهم هذه المقالة : أى ادخلوا مصر قبل دخولهم ، وقد قيل فى توجيه ذلك أنه تلقاهم الى خارج مصر ، فوقف منتظرا لهم فى مكان ، أو خيمة ، فدخلوا عليه (آوى اليه أبويه ، وقال ادخلوا مصر) فلما دخلوا مصر ودخلوا عليه دخولا آخر فى المكان الذى له بمصر (رفع أبويه على العرش) أى أجلسهما معه على السرير الذى يجلس عليه كما هو عادة الملوك (وخروا له سجدا) أى الأبوان والأخوة ، والمعنى أنهم خروا ليوسف سجدا ، وكان ذلك جائزا فى شريعتهم منزلا منزلة التحية وقيل لم يكن ذلك سجودا ، بل هو مجرد إيماء ، وكانت تلك تحيتهم ، وهو يخالف معنى : وخرّوا له سجدا ، فان الخرور فى اللغة المقيد بالسجود لا يكون الا بوضع الوجه على الأرض ، وقيل الضمير فى قوله «له» راجع الى الله سبحانه : أى وخرّوا لله سجدا ، وهو بعيد جدّا ، وقيل ان الضمير ليوسف ، واللام للتعليل : أى وخرّوا لأجله ، وفيه أيضا بعد (وقال) يوسف (يا أبت هذا تأويل رؤياى) يعنى التى تقدم ذكرها (من قبل) أى من قبل هذا الوقت (قد جعلها ربى حقا) بوقوع تأويلها على مادلت عليه (وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن) الأصل أن يتعدّى فعل الاحسان بالى ، وقد يتعدّى بالباء كما فى قوله تعالى ــ وبالوالدين إحسانا ــ وقيل انه ضمن أحسن معنى لطف : أى لطف بى محسنا ، ولم يذكر اخراجه من الجبّ ، لأن فى ذكره نوع تثريب للاخوة ، وقد قال لا تثريب عليكم ؛ وقد تقدم سبب سجنه ومدّة بقائه فيه ، وقد قيل ان وجه عدم ذكر اخراجه من الجبّ أن المنة كانت فى اخراجه من السجن أكبر من المنة فى اخراجه من الجبّ ، وفيه نظر (وجاء بكم من البدو) أى البادية ، وهى أرض كنعان بالشام ، وكانوا أهل مواش وبرّية ، وقيل ان الله لم يبعث نبيا من البادية ، وأن المكان الذى كان فيه يعقوب يقال له بدا ، واياه عنى جميل بقوله

وأنت الذى حببت شعبا الى بدا * الىّ وأوطانى بلاد سواهما

وفيه نظر (من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى) أى أفسد بيننا وحمل بعضنا على بعض ، يقال نزغه اذا نخسه ، فأصله من نخس الدابة ليقوى مشيها ، وأحال يوسف ذنب اخوته على الشيطان تكرّما منه وتأدبا (ان ربى لطيف لما يشاء) اللطيف الرفيق ، قال الأزهرى : اللطيف من أسماء الله تعالى معناه الرفيق بعباده ، يقال لطف فلان بفلان يلطف : اذا رفق به ، وقال عمرو بن أبى عمرو : اللطيف الذى يوصل اليك أربك فى لطف . قال الخطابى : اللطيف هو البرّ بعباده الذى يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون ، وقيل اللطيف العالم بدقائق الأمور ، ومعنى : لما يشاء لأجل ما يشاء حتى يجىء على وجه الصواب (انه هو العليم الحكيم) أى العليم بالأمور الحكيم فى أفعاله ، ولما أتم الله نعمته على يوسف عليه السلام بما خلصه منه من المحن العظيمة ، وبما خوّله من الملك وعلمه من العلم ، تاقت نفسه الى الخير الأخروى الدائم الذى لا ينقطع ، فقال (ربّ قد آتيتنى من الملك) من للتبعيض : أى بعض الملك ، لأنه لم يؤت كل الملك ، انما أوتى ملكا خاصا ، وهو ملك مصر فى زمن خاص (وعلمتنى من تأويل الأحاديث) أى بعضها ، لأنه لم يؤت جميع علم التأويل سواء أريد به مطلق العلم والفهم ، أو مجرد تأويل الرؤيا ، وقيل من للجنس كما فى قوله ــ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ــ وقيل زائدة : أى آتيتنى

XII 156-164

الملك وعلمتنى تأويل الأحاديث (فاطر السموات والأرض) منتصب على أنه صفة لربّ، لكونه منادى مضافا، ويجوز أن يكون انتصابه على أنه منادى بحرف مقدّر: أى يافاطر، والفاطر الخالق، والمنشىء، والمخترع، والمبدع (أنت ولىّ) أى ناصرى ومتولى أمورى (فى الدنيا والآخرة) تتولانى فيهما (توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) أى توفنى على الاسلام لايفارقنى حتى أموت، وألحق بالصالحين من النبيين من آبائى وغيرهم: فأظفر بثوابهم منك ودرجاتهم عندك، قيل انه لما دعا بهذا الدعاء توفاه الله عزّ وجلّ، قيل كان عمره عند أن ألقى فى الجبّ سبع عشرة سنة، وكان فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة الى قدوم أبيه يعقوب عليه، ثم عاش بعد اجتماع شملهم حتى كمل عمره المقدار الذى سيأتى وتوفاه الله، قيل لم يتمنّ الموت أحد غير يوسف لانبىّ ولاغيره، وذهب الجمهور الى أنه لم يتمنّ الموت بهذا الدعاء، وانما دعا ربه أن يتوفاه على الاسلام ويلحقه بالصالحين من عباده عند حضور أجله.

وقد أخرج أبوالشيخ عن أبى هريرة قال: دخل يعقوب مصر فى ملك يوسف وهو ابن مائة وثلاثين سنة، وعاش فى ملكه ثلاثين سنة، ومات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة. قال أبو هريرة وبلغنى أنه كان عمر ابراهيم خليل الله مائة وخمسة وتسعين سنة. وأخرج ابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن قتادة فى قوله (آوى اليه أبويه) قال أبوه وأمّه ضمهما. وأخرجا عن وهب قال أبوه وخالته، وكانت توفيت أمّ يوسف فى نفاس أخيه بنيامين. وأخرج أبوالشيخ نحوه عن سفيان بن عيينة. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ورفع أبويه على العرش) قال: السرير. وأخرج ابن أبى حاتم عن عدى بن حاتم فى قوله (وخرّوا له سجدا) قال: كانت تحية من كان قبلكم فأعطاكم الله السلام مكانها. وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد قال: ذلك سجود تشرفة كما سجدت الملائكة تشرفة لآدم، وليس سجود عبادة. وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله (ان ربى لطيف لما يشاء) قال: لطيف ليوسف وصنع له حين أخرجه من السجن، وجاء بأهله من البدو، ونزع من قلبه نزغ الشيطان وتحريشه على اخوته. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: ماسأل نبىّ الوفاة غير يوسف وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عنه قال: اشتاق الى لقاء الله وأحب أن يلحق به وبآبائه، فدعا الله أن يتوفاه، وأن يلحقه بهم. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله (وألحقنى بالصالحين) قال: يعنى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب. وأخرج عبدبن حيد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال: يعنى أهل الجنة.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ۞ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۞ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۞ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۞ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞

الخطاب بقوله (ذلك) لرسول الله ﷺ وهو مبتدأ خبره (من أنباء الغيب)، و (نوحيه اليك) خبر

ثان . قال الزجاج : ويجوز أن يكون ذلك بمعنى الذى ونوحيه اليك خبره : أى الذى من أنباء الغيب نوحيه اليك * والمعنى الاخبار من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن هذا الذى قصه عليه من أمر يوسف واخوته من الأخبار التى كانت غائبة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأوحاه الله اليه وأعلمه به ، ولم يكن عنده قبل الوحى شىء من ذلك ، وفيه تعريض بكفار قريش ، لأنهم كانوا مكذبين له ﷺ بما جاء به جحودا وعنادا وحسدا ، مع كونهم يعلمون حقيقة الحال (وما كنت لديهم) أى لدى اخوة يوسف (اذ أجمعوا أمرهم) اجماع الأمر : العزم عليه : أى وما كنت لدى اخوة يوسف اذ عزموا جميعا على إلقائه فى الجب (وهم) فى تلك الحالة (يمكرون) به : أى بيوسف فى هذا الفعل الذى فعلوه به ويبغونه الغوائل ، وقيل الضمير ليعقوب : أى يمكرون بيعقوب حين جاءوه بقميص يوسف ملطخا بالدم وقالوا أكله الذئب * واذا لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لديهم عند أن فعلوا ذلك ، انتفى علمه بذلك مشاهدة ، ولم يكن بين قوم لهم علم بأحوال الأمم السالفة ، ولا خالطهم ولا خالطوه ، فانتفى علمه بذلك بطريق الرواية عن الغير ، فلم يبق لعلمه بذلك طريق الا مجرد الوحى من الله سبحانه ، فهذا يستلزم الايمان بما جاء به ، فلما لم يؤمن بذلك من عاصره من الكفار ، قال الله سبحانه ذاكرا لهذا (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) أى وما أكثر الناس المعاصرين لك يا محمد ، أو ما أكثر الناس على العموم ولو حرصت على هدايتهم وبالغت فى ذلك بمؤمنين بالله لتصميمهم على الكفر الذى هو دين آبائهم ، يقال حرص يحرص مثل ضرب يضرب ، وفى لغة ضعيفة حرص يحرص مثل حمد يحمد ، والحرص طلب الشىء باجتهاد . قال الزجاج : ومعناه وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على أن تهديهم لأنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء . قال ابن الأنبارى : ان قريشا واليهود سألت رسول الله ﷺ عن قصة يوسف واخوته فشرحها شرحا شافيا ، وهو يؤمل أن يكون ذلك سببا لاسلامهم ، فخالفوا ظنه ، وحزن رسول الله ﷺ لذلك فعزاه الله بقوله (وما أكثر الناس) الآية (وما تسألهم عليه من أجر) أى على القرآن وما تتلوه عليهم منه ، أو على الايمان وحرصك على وقوعه منهم أو على ما تحدثهم به من هذا الحديث من أجر من مال يعطونك إياه ويجعلونه لك كما يفعله أحبارهم (إن هو) أى القرآن أو الحديث الذى حدثتهم به (إلا ذكر للعالمين) أى ما هو الا ذكر للعالمين كافة لا يختص بهم وحدهم (وكأين من آية فى السموات والأرض) قال الخليل وسيبويه والأكثر أن كأين أصلها أى دخل عليها كاف التشبيه ، لكنه انمحى عن الحرفين المعنى الافرادى ، وصار المجموع كاسم واحد بمعنى كم الخبرية ، والأكثر ادخال من فى مميزه ، وهو تمييز عن الكاف لا عن أى كما فى مثلك رجلا . وقد مر الكلام على هذا مستوفى فى آل عمران * والمعنى كم من آية تدلهم على توحيد الله كائنة فى السموات من كونها منصوبة بغير عمد مزينة بالكواكب النيرة السيارة والثوابت ، وفى الأرض من جبالها وقفارها وبحارها ونباتها وحيواناتها تدلهم على توحيد الله سبحانه وانه الخالق لذلك : الرازق له المحيى المميت ، ولكن أكثر الناس يمرون على هذه الآيات غير متأملين لها ولا مفكرين فيها ، ولا ملتفتين الى ما تدل عليه من وجود خالقها ، وأنه المتفرد بالألوهية مع كونهم مشاهدين لها (يمرون عليها وهم عنها معرضون) وان نظروا اليها بأعيانهم فقد أعرضوا عما هو الثمرة للنظر بالحدقة ، وهى التفكر والاعتبار والاستدلال . وقرأ عكرمة وعمرو بن فايد برفع الأرض على أنه مبتدأ ، وخبره يمرون عليها . وقرأ السدى بنصب الأرض بتقدير فعل . وقرأ ابن مسعود : يمشون عليها (وما يؤمن أكثرهم بالله) أى وما يصدق ويقر أكثر الناس بالله من كونه الخالق ، الرازق ، المحيى ، المميت (الا وهم مشركون) بالله يعبدون معه غيره كما كانت تفعله الجاهلية ، فانهم مقرون بالله سبحانه وبأنه الخالق لهم — ولئن سألتهم من

خلقهم ليقولن الله ، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ـ لكنهم كانوا يثبتون له شركاء فيعبدونهم ليقرّبوهم الى الله : انما نعبدهم ليقربونا الى الله ، ومثل هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله المعتقدون فى الأموات بأنهم يقدرون على مالايقدر عليه الا الله سبحانه كما يفعله كثير من عباد القبور ، ولاينافى هذا ماقيل من أن الآية نزلت فى قوم مخصوصين فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ ، لا بما يفيده السبب من الاختصاص بمن كان سببا لنزول الحكم (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) الاستفهام للانكار ، والغاشية مايغشاهم و يغمرهم من العذاب كقوله تعالى ـ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ـ وقيل هى الساعة ، وقيل الصواعق والقوارع ، ولامانع من الحمل على العموم (أو تأتيهم الساعة بغتة) أى فجأة ، وانتصاب بغتة على الحال . قال المبرد : جاء عن العرب حال بعد نكرة ، وهو قولهم وقع أمر بغتة ، يقال بغتهم الأمر بغتا و بغتة : اذا فاجأهم (وهم لايشعرون) باتيانه ، ويجوز انتصاب بغتة على أنها صفة مصدر محذوف (قل هذه سبيلى) أى قل يامحمد للمشركين هذه الدعوة التى أدعو اليها والطريقة التى أنا عليها سبيلى : أى طريقتى وسنتى ، فاسم الاشارة مبتدأ وخبره سبيلى ، وفسر ذلك بقوله (أدعوا الى الله على بصيرة) أى على حجة واضحة ، والبصيرة المعرفة التى يتميز بها الحق من الباطل والجملة فى محل نصب على الحال (أنا ومن اتبعنى) أى ويدعو اليها من اتبعنى واهتدى بهديى . قال الفراء : والمعنى ومن اتبعنى يدعو الى الله كما أدعو ، وفى هذا دليل على أن كل متبع لرسول الله ﷺ حق عليه أن يقتدى به فى الدعاء الى الله : أى الدعاء الى الايمان به وتوحيده والعمل بما شرعه لعباده (وسبحان الله وما أنا من المشركين) أى وقل يامحمد لهم سبحان الله وما أنا من المشركين بالله الذين يتخذون من دونه أندادا . قال ابن الانبارى : ويجوز أن يتم الكلام عند قوله (أدعوا الى الله) ثم ابتدأ ، فقال (على بصيرة أنا ومن اتبعنى)

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) قال : هم بنو يعقوب اذ يمكرون بيوسف . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية يقول : وما كنت لديهم وهم يلقونه فى غيابة الجب وهم يمكرون بيوسف . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك (وكأين من آية) قال : كم من آية فى السماء يعنى شمسها ، وقمرها ونجومها وسحابها ، وفى الأرض مافيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) قال : سلهم من خلقهم ومن خلق السموات والأرض فسيقولون الله ، فذلك ايمانهم وهم يعبدون غيره . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عطاء فى قوله (ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) قال : كانوا يعلمون أن الله ربهم وهو خالقهم وهو رازقهم ، وكانوا مع ذلك يشركون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك فى الآية قال : كانوا يشركون به فى تلبيتهم يقولون : لبيك اللهم لبيك لاشريك لك الا شريكا هو لك تملكه وماملك . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن فى الآية قال : ذلك المنافق يعمل بالرياء وهو مشرك بعمله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتاده فى قوله (غاشية من عذاب الله) قال : وقيعة تغشاهم وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (هذه سبيلى) قل هذه دعوتى . وأخرج أبو الشيخ عنه قل هذه سبيلى قال : صلاتى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى الآية قال : أمرى ومشيئتى ومنهاجى ، وأخرجا عن قتادة فى قوله (على بصيرة) أى على هدى (أنا ومن اتبعنى) .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَىٰ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا

كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُنجِيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۞ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞

قوله (وماأرسلنامن قبلك الارجالا) هذارد على من قال ـ لولا أنزل عليه ملك ـ : أى لم نبعث من الأنبياء الى من قبلهم الا رجالا ، لاملائكة ، فكيف ينكرون ارسالنا اياك ۞ وتدل الآية على أن الله سبحانه لم يبعث نبيا من النساء ولامن الجن ، وهذا يرد على من قال : ان فى النساء أربع نبيات حواء ، وآسية ، وأم موسى ومريم ، وقد كان بعثة الأنبياء من الرجال دون النساء أمرا معروفا عند العرب ، حتى قال قيس بن عاصم فى سجاح المتنبئة :

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها ۞ وأصبحت أنبياء الله ذكرانا

فلعنة الله والأقوام كلهم ۞ على سجاح ومن باللوم أغرانا

(نوحى اليهم) كما نوحى اليك (من أهل القرى) أى المدائن دون أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على البدو : ولكون أهل الأمصار أتم عقلا وأكمل حلما وأجل فضلا (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) يعنى المشركين المنكرين لنبوة محمد ﷺ : أى أفلم يسر المشركون هؤلاء فينظروا الى مصارع الأمم الماضية فيعتبروا بهم حتى ينزعوا عما هم فيه من التكذيب (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) : أى لدار الساعة الآخرة ، أو الحالة الآخرة على حذف الموصوف . وقال الفراء : ان الدار هى الآخرة ، وأضيف الشىء الى نفسه لاختلاف اللفظ كيوم الجمعة وصلاة الأولى ومسجد الجامع ، والكلام فى ذلك مبين فى كتب الاعراب ، والمراد بهذه الدار : الجنة : أى هى خير للمتقين من دار الدنيا . وقرئ وللدار الآخرة . وقرأ نافع وعاصم و يعقوب (أفلا تعقلون) بالتاء الفوقية على الخطاب . وقرأ الباقون بالتحتية (حتى اذا استيأس الرسل) هذه الغاية لمحذوف دل عليه الكلام ، وتقديره وماأرسلنا من قبلك يامحمد الارجالا ولم نعاجل أممهم الذين لم يؤمنوا بما جاءوا به بالعقوبة حتى اذا استيأس الرسل من النصر بعقوبة قومهم ، أو حتى اذا استيأس الرسل من ايمان قومهم لانهماكهم فى الكفر (وظنوا أنهم قد كذبوا) . قرأ ابن عباس وابن مسعود وأبو عبد الرحمن السلمى وأبو جعفر بن القعقاع والحسن وقتادة وأبو رجاء العطاردى وعاصم وحمزة والكسائى ويحيى بن وثاب والأعمش وخلف كذبوا بالتخفيف : أى ظن القوم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب ولم يصدقوا ، وقيل المعنى ظن القوم أن الرسل قد كذبوا فيما ادعوا من نصرهم ، وقيل المعنى وظن الرسل أنها قد كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون عليهم ، أو كذبهم رجاؤهم للنصر . وقرأ الباقون كذبوا بالتشديد ۞ والمعنى عليها واضح : أى ظن الرسل بأن قومهم قد كذبوهم فيما وعدوهم به من العذاب ، ويجوز فى هذا أن يكون فاعل ظن القوم المرسل اليهم على معنى أنهم ظنوا أن الرسل قد كذبوا فيما جاءوا به من الوعد والوعيد . وقرأ مجاهد وحميد قد كذبوا بفتح الكاف والذال مخففتين على معنى : وظن قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا ، وقد قيل ان الظن فى هذه الآية بمعنى اليقين ، لأن الرسل قد تيقنوا أن قومهم كذبوهم ، وليس ذلك مجرد ظن منهم ، والذى ينبغى أن يفسر الظن باليقين فى مثل هذه الصورة و يفسر بمعناه الأصلى فيما يحصل فيه مجرد ظن فقط من الصور السابقة (جاءهم نصرنا)

أي جاء الرسل نصر الله سبحانه ، فجأة ، أو جاء قوم الرسل الذين كذبوهم نصر الله لرسله بايقاع العذاب على المكذبين (فنُنجي من نشاء) . قرأ عاصم فنجي بنون واحدة . وقرأ الباقون فننجي بنونين، واختار أبوعبيدة القراءة الأولى ، لأنها في مصحف عثمان كذلك . وقرأ ابن محيصن فنجا على البناء للفاعل ، فتكون من على القراءة الأولى في محل رفع على أنها نائب الفاعل ، وتكون على القراءة الثانية في محل نصب على أنها مفعول ، وعلى القراءة الثالثة في محل رفع على أنها فاعل ، والذين نجاهم الله هم الرسل ومن آمن معهم ، وهلك المكذبون (ولايرد بأسنا عن القوم المجرمين) عند نزوله بهم ، وفيه بيان من يشاء الله نجاته من العذاب وهم من عدا هؤلاء المجرمين (لقد كان في قصصهم) : أي قصص الرسل ومن بعثوا اليه من الأمم ، أو في قصص يوسف واخوته وأبيه (عبرة لأولي الألباب) والعبرة : الفكرة والبصيرة المخلصة من الجهل والحيرة ، وقيل هي نوع من الاعتبار : وهي العبور من الطرف المعلوم الى الطرف المجهول ، وأولوا الألباب هم ذوو العقول السليمة الذي يعتبرون بعقولهم فيدرون مافيه مصالح دينهم ، وانما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الاخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدة بين النبي ﷺ و بين الرسل الذين قص حديثهم ، ومنهم يوسف واخوته وأبوه مع كونه لم يطلع على أخبارهم ولا اتصل بأحبارهم (ما كان حديثا يفترى) أي ما كان هذا المقصوص الذي يدل عليه ذكر القصص ، وهو القرآن المشتمل على ذلك حديثا يفترى (ولكن تصديق الذي بين يديه) أي ماقبله من الكتب المنزلة كالتوراة والأنجيل والزبور . وقرئ رفع تصديق على أنه خبر مبتدأ محذوف : أي هو تصديق وتفصيل كل شيء من الشرائع المجملة المحتاجة الى تفصيلها ، لأن الله سبحانه لم يفرط في الكتاب من شيء ، وقيل تفصيل كل شيء من قصة يوسف مع اخوته وأبيه ، قيل وليس المراد به مايقتضيه من العموم ، بل المراد به الأصول والقوانين ، ومايئول اليها (وهدى) في الدنيا يهتدى به كل من أراد الله هدايته (ورحمة) في الآخرة يرحم الله بها عباده العاملين بما فيه شرط الايمان الصحيح ، ولهذا قال (لقوم يؤمنون) أي يصدقون به و بما تضمنه من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائعه وقدره ، وأما من عداهم فلاينتفع به ولايهتدى بما اشتمل عليه من الهدى ، فلا يستحق مايستحقونه .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وماأرسلنا من قبلك الا رجالا) قال : أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال : مانعلم أن الله أرسل رسولا قط الا من أهل القرى ، لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العمور . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) قال : كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط وقوم صالح والأمم التي عذب الله . وأخرج البخاري وغيره من طريق عروة أنه سأل عائشة عن قول الله سبحانه : حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا قال : قلت أكذبوا أم كذبوا يعني هل هذه الكلمة مخففة أم مشددة ، فقالت بل كذبوا تعني بالتشديد ، قلت والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن ، قالت أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك ، فقلت : لعلها : وظنوا أنهم قد كذبوا مخففة ، قالت معاذ الله لم تكن الرسل لتظن ذلك بربها ، قلت فما هذه الآية ؟ قالت هم أتباع الرسل الذين آمنوا بهم وصدقوهم وطال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر ، حتى اذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله ابن أبي مليكة أن ابن عباس قرأها عليه وظنوا أنهم قد كذبوا مخففة ، يقول أخلفوا . وقال ابن عباس كانوا بشرا ، وتلا ــ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ــ قال : ابن أبي مليكة وأخبرني عروة عن

عائشة

عائشة أنها خالفت ذلك وأبته ، وقالت والله ماوعد الله رسوله من شيء إلا علم أنه سيكون قبل أن يموت ، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم ، وكانت تقرؤها مثقلة . وأخرج ابن مردويه من طريق عروة عن عائشة أن النبي ﷺ قرأ : وظنوا أنهم قد كذبوا مخففة . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ : قد كذبوا مخففة قال : يئس الرسل من قومهم أن يستجيبوا لهم ، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم بما جاءوا به (جاءهم نصرنا) قال : جاء الرسل نصرنا . وأخرج عبدالرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ عن تميم بن حذلم قال قرأت على ابن مسعود القرآن فلم يأخذ علىّ إلا حرفين ـ كلا آتوه داخرين ـ فقال أتوه مخففة . وقرأت عليه (وظنوا أنهم قد كذبوا) فقال كذبوا مخففة . قال : استيأس الرسل من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم . وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا . وأخرج ابن مردويه من طريق أبي الأحوص عنه قال : حفظت عن رسول الله ﷺ في سورة يوسف وظنوا أنهم قد كذبوا خفيفة ، وللسلف في هذا كلام يرجع الى ما ذكرناه من الخلاف عن الصحابة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (فنجى من نشاء) قال : فننجي الرسل ومن نشاء (ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) وذلك أن الله بعث الرسل يدعون قومهم ، فأخبروهم أن من أطاع الله نجا ومن عصاه عذب وغوى . وأخرج أبو الشيخ عنه قال (جاءهم نصرنا) العذاب . وأخرج أبو الشيخ عن السدي (ولا يرد بأسنا) قال عذابه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (لقد كان في قصصهم) قال يوسف واخوته . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ (عبرة لأولي الألباب) قال : معروفة لذوي العقول . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة (ما كان حديثا يفترى) قال : الفرية الكذب (ولكن تصديق الذي بين يديه) قال : القرآن يصدق الكتب التي كانت قبله من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه كالتوراة والانجيل والزبور ويصدق ذلك كله ويشهد عليه أن جميعه حق من عند الله (وتفصيل كل شيء) فصل الله بين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته .

تفسير سورة الرعد

قد وقع الخلاف هل هي مكية أو مدنية ؟ فروى النحاس في ناسخه عن ابن عباس أنها نزلت بمكة ، وروى أبو الشيخ وابن مردويه عنه أنها نزلت بالمدينة ، وممن ذهب الى أنها مكية سعيد بن جبير والحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد ، وممن ذهب الى أنها نزلت بالمدينة ابن الزبير والكلبي ومقاتل ، وقول ثالث أنها مدنية إلا آيتين منها فانهما نزلتا بمكة ، وهما قوله تعالى ـ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ـ وقيل قوله ـ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ـ ، وقد روى هذا عن ابن عباس أيضا وقتادة . وقد أخرج ابن أبي شيبة والمروزي في الجنائز عن جابر بن زيد قال : كان يستحب اذا حضر الميت أن يقرأ عنده سورة الرعد ، فان ذلك يخفف عن الميت وانه أهون لقبضه وأيسر لشأنه .

XIII ١٠-١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرٰ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *

قوله (المر) قد تقدم الكلام فى هذه الحروف الواقعة فى أوائل السور بما يغنى عن الاعادة ، وهو اسم للسورة مرفوع المحل على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو على أنه مبتدأ خبره مابعده ، والتقدير على الأول هذه السورة اسمها هذا ، والاشارة بقوله (تلك) الى آيات هذه السورة ، والمراد بالكتاب السورة : أى تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة الشأن ، ويكون قوله (والذى أنزل اليك من ربك الحق) مرادا به القرآن كله : أى هو الحق البالغ فى اتصافه بهذه الصفة ، أو تكون الاشارة بقوله (تلك) الى آيات القرآن جميعه على أن المراد بالكتاب جميع القرآن ، ويكون قوله (والذى أنزل اليك من ربك الحق) جملة مبينة لكون هذا المنزل هو الحق . قال الفراء : والذى رفع بالاستئناف وخبره الحق . قال : وإن شئت جعلت الذى خفضا نعتا للكتاب ، وان كانت فيه الواو كما فى قوله : * إلى الملك القرم وابن الهمام * ويجوز أن يكون محل والذى أنزل اليك الجر على تقدير وآيات الذى أنزل اليك ، فيكون الحق على هذا خبرا لمبتدأ محذوف (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) بهذا الحق الذى أنزله الله عليك . قال الزجاج : لما ذكر أنهم لا يؤمنون ذكر الدليل الذى يوجب التصديق بالخالق فقال (الله الذى رفع السموات بغير عمد) والعمد : الأساطين جمع عماد : أى قائمات بغير عمد تعتمد عليه ، وقيل لها عمد ولكن لا نراه . قال الزجاج : العمد قدرته التى يمسك بها السموات ، وهى غير مرئية لنا ، وقرئ عمد على أنه جمع عمود يعمد به : أى يسند اليه . قال النابغة :

وخبر الجن أنى قد أذنت لهم * يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وجملة ترونها مستأنفة استشهاد على رؤيتهم لها كذلك ، وقيل هى صفة لعمد ، وقيل فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير رفع السموات ترونها بغير عمد ولا ملجئ الى مثل هذا التكلف (ثم استوى على العرش) أى استولى عليه بالحفظ والتدبير ، أو استوى أمره ، أو أقبل على خلق العرش ، وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى ، والاستواء على العرش صفة لله سبحانه بلا كيف كما هو مقرر فى موضعه من علم الكلام (وسخر الشمس والقمر) أى ذللهما لما يراد منهما من منافع الخلق ومصالح العباد (كل يجرى الى أجل مسمى) أى كل من الشمس والقمر يجرى الى وقت معلوم : وهو فناء الدنيا وقيام الساعة التى تكور عندها الشمس ويخسف القمر وتنكدر النجوم وتنتثر ، وقيل المراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التى تنتهيان

اليها لايجاوزانها ، وهي سنة للشمس ، وشهر للقمر (يدبر الأمر) أى يصرّفه على مايريد ، وهو أمر ملكوته وربوبيته (يفصل الآيات) أى يبينها : وهى الآيات الدالة على كمال قدرته وربوبيته ، ومنها ماتقدم من رفع السماء بغير عمد وتسخير الشمس والقمر وجريهما لأجل مسمى ، والجملتان فى محل نصب على الحال أو خبران لقوله (الله الذى رفع) على أن الموصول صفة للمبتدأ ، والمراد من هذا تنبيه العباد أن من قدر على هذه الأشياء فهو قادر على البعث والاعادة ، ولذا قال (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) أى لعلكم عند مشاهدة هذه الآيات توقنون بذلك لاتشكون فيه ولاتمترون فى صدقه ، ولما ذكر الدلائل السماوية أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال (وهو الذى مدّ الأرض) قال الفراء : بسطها طولا وعرضا . وقال الأصم : ان المدّ هو البسط الى مالايدرك منتهاه ، وهذا المدّ الظاهر للبصر لاينافى كريتها فى نفسها لتباعد أطرافها (وجعل فيها رواسى) أى جبالا ثوابت ، واحدها راسية لأن الأرض ترسو بها : أى تثبت والارساء : الثبوت . قال عنترة :

فصرت عارفة لذلك حرة * ترسو إذا نفس الجبان تطلع

وقال جميل :

أحبها والذى أرسى قواعده * حتى إذا ظهرت آياته بطنا

(وأنهارا) أى مياها جارية فى الأرض فيها منافع الخلق ، أو المراد جعل فيها مجارى الماء (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) من كل الثمرات متعلق بالفعل الذى بعده : أى جعل فيها من كل الثمرات زوجين اثنين ، الزوج يطلق على الاثنين ، وعلى الواحد المزاوج لآخر ، والمراد هنا بالزوج الواحد ، ولهذا أكد الزوجين بالاثنين لدفع توهم أنه أريد بالزوج هنا الاثنين ، وقد تقدّم تحقيق هذا مستوفى ، أى جعل كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين ، إما فى اللونية : كالبياض والسواد ونحوهما ، أوفى الطعمية كالحلو والحامض ونحوهما ، أوفى القدر كالصغر والكبر ، أوفى الكيفية كالحر والبرد . قال الفراء : يعنى بالزوجين هنا الذكر والأنثى ، والأول أولى (يغشى الليل النهار) أى يلبسه مكانه ، فيصير أسود مظلما بعدما كان أبيض منيرا شبه إزالة نور الهدى بالظلمة بتغطية الأشياء الحسية بالأغطية التى تسترها ، وقد سبق تفسير هذه فى الأعراف (ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى فيما ذكر من مدّ الأرض واثباتها بالجبال ، وما جعله الله فيها من الثمرات المتزاوجة ، وتعاقب النور والظلمة آيات بينة للناظرين المتفكرين المعتبرين (وفى الأررض قطع متجاورات) هذا كلام مستأنف مشتمل على ذكر نوع آخر من أنواع الآيات ، قيل وفى الكلام حذف : أى قطع متجاورات ، وغير متجاورات كما فى قوله ـ سرابيل تقيكم الحرّ ـ أى وتقيكم البرد ، قيل والمتجاورات المدن وما كان عامرا ، وغير المتجاورات الصحارى وما كان غير عامر ، وقيل المعنى متجاورات متدانيات ترابها واحد ، وماؤها واحد ، وفيها زرع وجنات ، ثم تتفاوت فى الثمار فيكون البعض حلوا ، والبعض حامضا ، والبعض طيبا ، والبعض غير طيب ، والبعض يصلح فيه نوع : والبعض الآخر نوع آخر (وجنات من أعناب) الجنات البساتين ، قرأ الجمهور برفع جنات على تقدير ، وفى الأرض جنات ، فهو معطوف على قطاع متجاورات ، أو على تقدير وبينها جنات . وقرأ الحسن بالنصب على تقدير : وجعل فيها جنات وذكر سبحانه الزرع بين الأعناب والنخيل ، لأنه يكون فى الخارج كثيرا كذلك ، ومثله فى قوله سبحانه ـ جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ـ (صنوان وغير صنوان) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص (وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان) برفع هذه الأربع عطفا على جنات . وقرأ الباقون بالجرّ عطفا على أعناب . وقرأ مجاهد والسلمى بضم الصاد من صنوان . وقرأ الباقون بالكسر ، وهما لغتان . قال أبو عبيدة صنوان جمع صنو ، وهو أن يكون الأصل واحدا ، ثم يتفرّع فيصير نخيلا ، ثم

يحمل ، وهذا قول جميع أهل اللغة والتفسير : قال ابن الأعرابى : الصنو المثل ، ومنه قوله ﷺ عم الرجل صنو أبيه ، فعنى الآية على هذا أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة وقد لاتكون . قال فى الكشاف : والصنوان جمع صنو ، وهى النخلة لها رأسان وأصلها واحد ، وقيل الصنوان المجتمع ، وغير الصنوان المتفرق . النحاس : وهو كذلك فى اللغة ، يقال للنخلة اذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صنوان ، والصنو : المثل ولافرق بين التثنية والجمع الا بكسر النون فى المثنى ، وبما يقتضيه الاعراب فى الجمع (يسقى بماء واحد) قرأ عاصم وابن عامر : يسقى بالتحتية أى يسقى ذلك كله . وقرأ الباقون بالفوقية بارجاع الضمير الى جنات واختاره أبو حاتم وأبو عبيد وأبو عمرو . قال أبو عمرو : التأنيث أحسن لقوله (ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) ولم يقل بعضه . وقرأ حمزة والكسائى : يفضل بالتحتية كما فى قوله ـ يدبر الأمر يفصل الآيات ـ وقرأ الباقون بالنون على تقدير : ونحن نفضل .

وفى هذا من الدلالة على بديع صنعه وعظيم قدرته مالايخفى على من له عقل ، فان القطع المتجاورة والجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات مع كونها تسقى بماء واحد وتتفاضل فى الثمرات فى الأكل ، فيكون طعم بعضها حلوا ، والآخر حامضا ، وهذا فى غاية الجودة ، وهذا ليس بجيد ، وهذا فائق فى حسنه ، وهذا غير فائق مما يقطع من تفكر واعتبر ونظر نظر العقلاء أن السبب المقتضى لاختلافها ليس الاقدرة الصانع الحكيم جل سلطانه وتعالى شأنه ، لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون فى نظر العقلاء الالسببين ، اما اختلاف المكان الذى هو المنبت ، أواختلاف الماء الذى تسقى به ، فاذا كان المكان متجاورا وقطع الأرض متلاصقة ، والماء الذى تسقى به واحدا لم يبق سبب للاختلاف فى نظر العقل الا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب ، ولهذا قال الله سبحانه (انا فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى يعملون على قضية العقل وما يوجبه غير مهملين لما يقتضيه من التفكر فى المخلوقات والاعتبار فى العبر الموجودات .

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (المر) قال أنا الله أرى . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد المر فواتح يفتتح بها كلامه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله (تلك آيات الكتاب) قال : التوارة والانجيل (والذى أنزل اليك من ربك الحق) قال : القرآن . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (رفع السماء بغير عمد ترونها) قال : وما يدريك لعلها بعمد لاترونها . وأخرج عبدالرزاق وابن المنذر وأبو الشيخ عنه فى الآية قال : يقول لها عمد ولكن لاترونها : يعنى الأعماد . وأخرج ابن جرير عن اياس بن معاوية فى الآية : قال السماء مقببة على الأرض مثل القبة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : السماء على أربعة أملاك كل زاوية موكل بها ملك . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ فى قوله (لأجل مسمى) قال : الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (يدبر الأمر) قال : يقضيه وحده . وأخرج ابن أبى حاتم عن عبد الله بن عمرو قال : الدنيا مسيرة خمسمائة عام : أربعمائة خراب ومائة عمران فى أيدى المسلمين من ذلك مسيرة سنة ، وقد روى عن جماعة من السلف فى ذلك تقديرات لم يأت عليها دليل يصح . وأخرج ابن جرير عن على بن أبى طالب قال : لما خلق الله الأرض قمصت وقالت : أى رب تجعل على بنى آدم يعملون على الخطايا ويجعلون على الخبث ، فأرسل الله فيها من الجبال ماترون ومالاترون ، فكان اقرارها كاللحم ترجرج . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وجعل فيها زوجين اثنين) قال : ذكرا وأنثى من كل صنف . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (يغشى الليل النهار) أى يلبس الليل النهار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ

عن ابن عباس فى قوله (وفى الأرض قطع متجاورات) قال : يريد الأرض الطيبة العذبة التى تخرج نباتها باذن ربها تجاورها السبخة القبيحة المالحة التى لا تخرج ، وهما أرض واحدة ، وماؤها شىء واحد ملح أو عذب ، ففضلت احداهما على الأخرى . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : قرى متجاورات قريب بعضها من بعض . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : الأرض تنبت حلوا ، والأرض تنبت حامضا ، وهى متجاورات تسقى بماء واحد . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن البراء بن عازب فى قوله (صنوان وغير صنوان) قال : الصنوان ما كان أصله واحدا وهو متفرق ، وغير صنوان التى تنبت وحدها ، وفى لفظ صنوان النخلة فى النخلة ملتصقة ، وغير صنوان النخل المتفرق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس صنوان قال : مجتمع النخل فى أصل واحد ، وغير صنوان قال : النخل المتفرق . وأخرج الترمذى وحسنه والبزار وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله (ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) قال : الدقل والفارسى والحلو والحامض . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : هذا حامض ، وهذا حلو ، وهذا دقل ، وهذا فارسى .

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ * اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ *

قوله (وان تعجب فعجب قولهم) أى ان تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم من الصادقين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث ، والله تعالى لا يجوز عليه التعجب ، لأنه تغير النفس بشىء تخفى أسبابه وانما ذكر ذلك ليعجب منه رسوله وأتباعه . قال الزجاج : أى هذا موضوع عجب أيضا أنهم أنكروا البعث وقد بين لهم من خلق السموات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل فى القدرة ، وقيل الآية فى منكرى الصانع : أى ان تعجب من انكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لابد له من مغير ، فهو محل التعجب ، والأول أولى لقوله (أإذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد) وهذه الجملة فى محل رفع على البدلية من قولهم ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على أنها مقول القول ، والعجب على الأول كلامهم ، وعلى الثانى تكلمهم بذلك ، والعامل فى اذا ما يفيده قوله (أئنا لفى خلق جديد) وهو نبعث أو نعاد ، والاستفهام منهم للانكار المفيد لكمال الاستبعاد ، وتقديم الظرف فى قوله (لفى خلق) لتأكيد الانكار بالبعث ، وكذلك تكرير

الهمزة فى قوله : أئنا ، ثم لما حكى الله سبحانه ذلك عنهم حكم عليهم بأمور ثلاثة : الأوّل (أولئك الذين كفروا بربهم) أى أولئك المنكرون لقدرته سبحانه على البعث هم المتمادون فى الكفر الكاملون فيه ، والثانى (وأولئك الأغلال فى أعناقهم) الأغلال جمع غلّ ، وهو طوق تشدّ به اليد الى العنق : أى يغلون بها يوم القيامة ، وقيل الأغلال أعمالهم السيئة التى هى لازمة لهم لزوم الأطواق للأعناق ، والثالث (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لاينفكون عنها بحال من الأحوال ، وفى توسيط ضمير الفصل دلالة على تخصيص الخلود بمنكرى البعث (و يستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) السيئة العقوبة المهلكة ، والحسنة العافية والسلامة ، قالوا هذه المقالة لفرط إنكارهم وشدّة تصميمهم وتهالكهم على الكفر ، وقيل معنى الآية : أنهم طلبوا العقوبة قبل الحسنة ، وهى الايمان (وقد خلت من قبلهم المثلات) قرأ الجمهور مثلات بفتح الميم وضمّ المثلثة جمع مثلة كسمرة ، وهى العقوبة . قال ابن الأنبارى : المثلة العقوبة التى تبق فى المعاقب شينا بتغيير بعض خلقه من قولهم : مثل فلان : بفلان اذا شان خلقه بقطع أنفه وسمل عينيه وبقر بطنه . وقرأ الأعمش بفتح الميم واسكان المثلثة تخفيفا لثقل الضمة ، وفى لغة تميم بضم الميم والمثلثة جميعا واحدتها على لغتهم مثلة بضم الميم وسكون المثلثة مثل غرفة وغرفات ، وحكى عن الأعمش فى رواية أخرى أنه قرأ هذا الحرف بضمها على لغة تميم * والمعنى أن هؤلاء يستعجلونك بانزال العقوبة بهم ، وقد مضت من قبلهم عقوبات أمثالهم من المكذبين ، فما لهم لايعتبرون بهم ويحذرون من حلول ماحلّ بهم ، والجملة فى محل نصب على الحال ، وهذا الاستعجال من هؤلاء هو على طريقة الاستهزاء كقولهم (اللهم ان كان هذا هو الحقّ من عندك) الآية (وان ربك لذو مغفرة) أى لذو تجاوز عظيم (للناس على ظلمهم) أنفسهم باقترافهم الذنوب ووقوعهم فى المعاصى أن تابوا عن ذلك ، ورجعوا الى الله سبحانه ، والجارّ والمجرور : أى على ظلمهم فى محل نصب على الحال : أى حال كونهم ظالمين ، وعلى بمعنى مع : أى مع ظلمهم ، وفى الآية بشارة عظيمة ورجاء كبير ، لأن من المعلوم أن الانسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائبا ، ولهذا قيل انها فى عصاة الموحدين خاصة ، وقيل المراد بالمغفرة هنا تأخير العقاب الى الآخرة ليطابق ماحكاه الله من استعجال الكفار للعقوبة ، وكما تفيده الجملة المذكورة بعد هذه الآية ، وهى (وان ربك لشديد العقاب) يعاقب العصاة المكذبين من الكافرين عقابا شديدا على ماتقتضيه مشيئته فى الدار الآخرة (و يقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) أى هلا أنزل عليه آية غير ماقد جاء به من الآيات ، وهؤلاء الكفار القائلون هذه المقالة هم المستعجلون للعذاب . قال الزجاج : طلبوا غير الآيات التى أتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى ، فقال الله تعالى (انما أنت منذر) تنذرهم بالنار ، وليس اليك من الآيات شىء انتهى ، وهذا مكابرة من الكفار وعناد ، والا فقد أنزل الله على رسوله من الآيات مايغنى البعض منه ، وجاء فى : انما أنت منذر بصيغة الحصر لبيان أنه ﷺ مرسل لانذار العباد ، و بيان مايحذرون عاقبته ، وليس عليه غير ذلك ، وقد فعل ماهو عليه ، وأنذر أبلغ إنذار ، ولم يدع شيئا مما يحصل به ذلك الا أتى به ، وأوضحه وكرره : فجزاه الله عن أمته خيرا (ولكل قوم هاد) أى نبىّ يدعوهم إلى مافيه هدايتهم ورشادهم ، وان لم تقع الهداية لهم بالفعل ولم يقبلوها ، وآيات الرسل مختلفة هذا يأتى بآية أوآيات لم يأت بها الآخر بحسب مايعطيه الله منها ، ومن طلب من بعضهم ماجاء به البعض الآخر فقد بلغ فى التعنت الى مكان عظيم ، فليس المراد من الآيات الا الدلالة على النبوّة لكونها معجزة خارجة عن القدرة البشرية ، وذلك لايختص بفرد منها ، ولا بأفراد معينة ، وقيل ان المعنى ولكل قوم هاد ، وهو الله عزّ وجلّ فانه القادر على ذلك ، وليس على أنبيائه الا مجرد الانذار (الله يعلم ماتحمل كل أنثى) الجملة مستأنفة مسوقة لبيان إحاطته بالعلم سبحانه ، وعلمه بالغيب الذى هذه

الأمور

الأمور المذكورة منه ، قيل ويجوز أن يكون الاسم الشريف خبرا لمبتدأ محذوف : أى ولكل قوم هاد وهو الله ، وجملة (يعلم ما تحمل كل أنثى) تفسير لهاد على الوجه الأخير ، وهذا بعيد جدّا ، وما ، موصولة : أى يعلم الذى تحمله كل أنثى فى بطنها من علقة ، أو مضغة ، أو ذكر ، أو أنثى ، أو صبيح ، أو قبيح ، أو سعيد ، أو شقىّ ، ويجوز أن تكون استفهامية : أى يعلم أىّ شىء فى بطنها ، وعلى أىّ حال هو ، ويجوز أن تكون مصدرية : أى يعلم حملها (وما تغيض الأرحام وما تزداد) الغيض النقص : أى يعلم الذى تغيضه الأرحام : أى تنقصه ، ويعلم ما تزداده ، فقيل المراد نقص خلقة الحمل وزيادته كنقص أصبع أو زيادتها ، وقيل ان المراد نقص مدّة الحمل على تسعة أشهر ، أو زيادتها ، وقيل اذا حاضت المرأة فى حال حملها كان ذلك نقصا فى ولدها ، وقيل الغيض : ما تنقصه الأرحام من الدم ، والزيادة ما تزداده منه ، و «ما» فى ما تغيض وما تزداد تحتمل الثلاثة الوجوه المتقدّمة فى ما تحمل كل أنثى (وكل شىء عنده بمقدار) : أى كل شىء من الأشياء التى من جملتها الأشياء المذكورة عند الله سبحانه بمقدار ، والمقدار : القدر الذى قدّره الله ، وهو معنى قوله سبحانه ــ انا كل شىء خلقناه بقدر ــ أى كل الأشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الذى قد سبق ، وفرغ منه لايخرج عن ذلك شىء (عالم الغيب والشهادة) أى عالم كل غائب عن الحسّ ، وكل مشهود حاضر ، أو كل معدوم وموجود ، ولا مانع من حمل الكلام على ما هو أعم من ذلك (الكبير المتعال) أى العظيم الذى كل شىء دونه المتعالى عما يقوله المشركون ، أو المستعلى على كل شىء بقدرته وعظمته وقهره ، ثم لما ذكر سبحانه أنه يعلم تلك المغيبات لايغادره شىء منها ، بين أنه عالم بما يسرّونه فى أنفسهم وما يجهرون به لغيره ، وأن ذلك لايتفاوت عنده فقال (سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به) فهو يعلم ما أسرّه الانسان كعلمه بما جهر به من خير وشرّ * وقوله : منكم متعلق بسواء على معنى يستوى منكم من أسرّ ومن جهر ، أو سرّ من أسرّ وجهر من جهر (ومن هو مستخف بالليل) أى مستتر فى الظلمة الكائنة فى الليل متوار عن الأعين ، يقال خفى الشىء واستخفى : أى استتر وتوارى (وسارب بالنهار) قال الكسائى : سرب يسرب سربا وسروبا اذا ذهب ، ومنه قول الشاعر :

وكل أناس قاربوا قيد فحلهم * ونحن خلعنا قيده فهو سارب

أى ذهب . وقال القتيبى سارب بالنهار متصرف فى حوائجه بسرعة ، من قولهم : أسرب الماء . قال الاصمعى خلّ سربه : أى طريقه . وقال الزجاج : معنى الآية الجاهر بنطقه ، والمضمر فى نفسه ، والظاهر فى الطرقات والمستخفى فى الظلمات علم الله فيهم جميعا سوىّ ، وهذا ألصق بمعنى الآية كما تفيده المقابلة بين المستخفى والسارب ، فالمستخفى المستتر ، والسارب البارز الظاهر (له معقبات) الضمير فى له راجع الى من فى قوله : من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف : أى لكل من هؤلاء معقبات ، والمعقبات المتناوبات التى يخلف كل واحد منها صاحبه ويكون بدلا منه ، وهم الحفظة من الملائكة فى قول عامة المفسرين قال الزجاج : المعقبات ملائكة يأتى بعضهم بعقب بعض ، وانما قال : معقبات مع كون الملائكة ذكورا لأن الجماعة من الملائكة يقال لها معقبة ، ثم جمع معقبة على معقبات : ذكر معناه الفراء ، وقيل أنث لكثرة ذلك منهم نحو نسابة وعلامة . قال الجوهرى : والتعقب العود بعد البدء . قال الله تعالى ــ ولى مدبرا ولم يعقب ــ وقرئ معاقيب جمع معقب (من بين يديه ومن خلفه) أى من بين يدى من له المعقبات والمراد إن الحفظة من الملائكة من جميع جوانبه ، وقيل المراد بالمعقبات الأعمال ، ومعنى من بين يديه ومن خلفه ما تقدم منها وما تأخر (يحفظونه من أمر الله) أى من أجل أمر الله ، وقيل يحفظونه من بأس الله إذا أذنب بالاستمهال له والاستغفار حتى يتوب قال الفراء : فى هذا قولان ، أحدهما أنه على التقديم والتأخير

تقديره له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، والثانى أن كون الحفظة يحفظونه هو مما أمرالله به . قال الزجاج : المعنى حفظهم اياه من أمرالله : أى مما أمرهم به لا أنهم يقدرون أن يدفعوا أمر الله . قال ابن الأنبارى : وفى هذا قول آخر ، وهوأن من بمعنى الباء : أى يحفظونه بأمرالله ، وقيل ان من بمعنى عن : أى يحفظونه عن أمرالله بمعنى من عندالله ، لامن عند أنفسهم كقوله ـ أطعمهم من جوع ـ أى عن جوع ، وقيل يحفظونه من ملائكة العذاب ، وقيل يحفظونه من الجن ، واختار ابن جرير : أن المعقبات المواكب بين أيدى الأمراء ، على معنى أن ذلك لايدفع عنه القضاء (ان الله لايغير مابقوم) من النعمة والعافية (حتى يغيروا مابأنفسهم) من طاعة الله * والمعنى أنه لايسلب قوما نعمة أنعم بها عليهم حتى يغيروا الذى بأنفسهم من الخير والأعمال الصالحة ، أو يغيروا الفطرة التى فطرهم الله عليها ، قيل وليس المراد أنه لاينزل بأحد من عباده عقوبة حتى يتقدمله ذنب ، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير كما فى الحديث انه « سأل رسول الله سائل ، فقال : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم اذا كثر الخبث » (واذا أراد الله بقوم سوءا) أى هلاكا وعذابا (فلامرد له) أى فلارد له ، وقيل المعنى اذا أراد الله بقوم سوءا أعمى قلوبهم حتى يختاروا مافيه البلاء (وما لهم من دونه من وال) يلى أمرهم و يلتجئون اليه ، فيدفع عنهم ماينزل بهم من الله سبحانه من العقاب ، أومن ناصر ينصرهم و يمنعهم من عذاب الله * والمعنى أنه لاراد لعذاب الله ولا ناقض لحكمه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله (وإن تعجب فعجب قولهم) قال : إن تعجب يامحمد من تكذيبهم اياك فعجب قولهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية قال : إن تعجب يامحمد من تكذيبهم ، وهم رأوا من قدرة الله وأمره ، وماضرب لهم من الأمثال وأراهم من حياة الموتى والأرض الميتة (فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد) أولايرون أنه خلقهم من نطفة ، فالخلق من نطفة أشد من الخلق من تراب وعظام . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وقد خلت من قبلهم المثلات) قال العقوبات . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى المثلات . قال وقائع الله فى الأمم فيمن خلا قبلكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : المثلات ماأصاب القرون الماضية من العذاب . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية (وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب) قال رسول الله ﷺ « لولا عفو الله وتجاوزه ماهنأ لأحد العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (ولكل قوم هاد) قال : داع وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (انما أنت منذر ولكل قوم هاد) قال المنذر محمد ﷺ ، ولكل قوم هاد نبى يدعوهم الى الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : محمد المنذر والهادى الله عز وجل . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه أيضا . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : رسول الله ﷺ هو المنذر وهو الهادى . وأخرج ابن جرير عن عكرمة وأبى الضحى نحوه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم فى المعرفة والديلمى وابن عساكر وابن النجار عن ابن عباس قال لما نزلت (انما أنت منذر ولكل قوم هاد) وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فقال « أنا المنذر ، وأومأ بيده الى منكب على ، فقال أنت الهادى ياعلى بك يهتدى المهتدون من بعدى » قال ابن كثير فى تفسيره . وهذا الحديث فيه نكارة شديدة . وأخرج ابن مردويه عن أبى برزة الأسلمى

قال سمعت رسول الله ﷺ فذكر نحوه . وأخرج ابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط والحاكم وصححه وابن مردويه وابن عساكر عن علىّ بن أبى طالب فى الآية نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن الضحاك (الله يعلم ماتحمل كل أنثى) قال كل أنثى من خلق الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى الآية : قال يعلم ذكرا هو أو أنثى (وما تغيض الأرحام) قال هى المرأة ترى الدم فى حملها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وما تغيض الأرحام) قال خروج الدم (وما تزداد) قال استمساكه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (وما تغيض الأرحام) قال أن ترى الدم فى حملها (وما تزداد) قال فى التسعة أشهر . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عنه فى الآية : قال مازداد على تسعة ، وما نقص من التسعة . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عنه أيضا فى الآية (ماتغيض الأرحام) قال السقط (وما تزداد) مازادت فى الحمل على ماغاضت حتى ولدته تماما ، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومنهن من تحمل تسعة أشهر ، ومنهن من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التى ذكر الله ، وكل ذلك يعلمه تعالى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (عالم الغيب والشهادة) قال السرّ والعلانية . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى قوله (ومن هو مستخف بالليل) قال راكب رأسه فى المعاصى (وسارب بالنهار) قال ظاهر بالنهار بالمعاصى . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس (وسارب بالنهار) قال الظاهر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : هو صاحب ريبة مستخف بالليل ، واذا خرج بالنهار أرى الناس أنه برىء من الاثم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الكبير وابن مردويه وأبو نعيم فى الدلائل من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس أن سبب نزول الآية قدوم عامر بن الطفيل ، وأربد بن قيس على رسول الله ﷺ فى القصة المشهورة ، وأنه لما أصيب عامر ابن الطفيل بالغدّة نزل قوله تعالى (الله يعلم ماتحمل كل أنثى) الى قوله (معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) قال المعقبات من أمر الله يحفظون محمدا ﷺ ، ثم ذكر أربد بن قيس وماقتله ، فقال (هو الذى يريكم البرق) الى قوله (وهو شديد المحال) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (معقبات) الآية قال هذه للنبى ﷺ خاصة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه (يحفظونه من أمر الله) قال ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (من أمر الله) قال باذن الله . وأخرج ابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : ولىّ السلطان يكون عليه الحراس يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، يقول : يحفظونه من أمرى ، فانى اذا أردت بقوم سوءا فلا مردّ له . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى الآية قال : الملوك يتخذون الحرس يحفظونه من أمامه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله يحفظونه من القتل : ألم تسمع أن الله يقول (اذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له) أى اذا أراد سوءا لم يغن الحرس عنه شيئا . وأخرج ابن جرير عن عكرمة فى الآية : قال هؤلاء الأمراء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية : قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فاذا جاء قدر الله خلوا عنه . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن علىّ فى الآية : قال ليس من عبد إلا ومعه ملائكة يحفظونه من أن تقع عليه حائط ، أو يتردى فى بئر ، أو

XIII 13-16

يأكله سبع ، أوغرق ، أوحرق ، فاذا جاء القدرخلوا بينه و بين القدر ، وقد ورد فى ذكرالحفظة الموكلين بالانسان أحاديث كثيرة مذكورة فى كتب الحديث .

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ * لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ * قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ * أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ *

لما خوّف سبحانه عباده بانزال مالا مردّ له أتبعه بأمور ترجى من بعض الوجوه ويخاف من بعضها ، وهى البرق ، والسحاب ، والرعد ، والصاعقة ، وقد مرّ فى أوّل البقرة تفسيرهذه الألفاظ ، وأسبابها .

وقد اختلف فى وجه انتصاب (خوفا وطمعا) ، فقيل على المصدرية : أى لتخافوا خوفا ، ولتطمعوا طمعا ، وقيل على العلة بتقدير إرادة الخوف والطمع لئلا يختلف فاعل الفعل المعلل ، وفاعل المفعول له ، أوعلى الحالية من البرق ، أومن المخاطبين بتقدير ذوى خوف ، وقيل غيرذلك مما لاحاجة اليه ، قيل والمراد بالخوف هو الحاصل من الصواعق ، وبالطمع هو الحاصل فى المطر . وقال الزجاج : الخوف للمسافرلما يتأذى به من المطر ، والطمع للحاضر ، لأنه اذا رأى البرق طمع فى المطر الذى هو سبب الخصب (وينشئ السحاب الثقال) التعريف للجنس ، والواحدة سحابة ، والثقال جمع ثقيلة ، والمراد أن الله سبحانه يجعل السحاب التى ينشئها ثقالا بما يجعله فيها من الماء (ويسبح الرعد بحمده) أى يسبح الرعد نفسه بحمد الله : أى متلبسا بحمده ، وليس هـذا بمستبعد ، ولا مانع من أن ينطقه الله بذلك ــ وان من شىء الا يسبح بحمده ــ ، وأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد فى ذلك ، ويكون ذكره على الانفراد مع ذكرالملائكة بعده لمزيد خصوصية له ، وعناية به ، وقيل المراد و يسبح سامعو الرعد : أى يقولون : سبحان الله والحمد لله (والملائكة من خيفته) أى ويسبح الملائكة من خيفة الله سبحانه ، وقيـل من خيفة الرعد ، وقد ذكرجماعة من المفسرين أن هؤلاء الملائكة هم أعوان الرعـد ، وأن الله سبحانه جعل له أعوانا (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) من خلقه فيهلكه ، وسياق هـذه الأمور هنا

للغرض الذى سيقت له الآيات التى قبلها ، وهى الدلالة على كمال قدرته (وهم يجادلون فى الله) الضمير راجع الى الكفار المخاطبين فى قوله (هو الذى يريكم البرق) أى وهؤلاء الكفرة مع هذه الآيات التى أراهم الله يجادلون فى شأن الله سبحانه فينكرون البعث تارة ، ويستعجلون العذاب أخرى ، ويكذبون الرسل ، ويعصون الله ، وهذه الجملة فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون مستأنفة (وهو شديد المحال) قال ابن الأعرابى : المحال المكر ، والمكر من الله : التدبير بالحق . وقال النحاس المكر من الله : ايصال المكروه الى من يستحقه من حيث لا يشعر . وقال الأزهرى المحال : القوة والشدة ، والميم أصلية ، وماحلت فلانا محالا : أينا أشد . وقال أبو عبيد المحال : العقوبة والمكروه . قال الزجاج ، يقال ماحلته محالا : اذا قاويته حتى يتبين أيكما أشد ، والمحل فى اللغة : الشدة . وقال ابن قتيبة : أى شديد الكيد ، وأصله من الحيلة جعل الميم كميم المكان ، وأصله من الكون ، ثم يقال تمكنت . قال الأزهرى : غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة ، بل هى أصلية ، واذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهى أصلية مثل مهاد وملاك ومراس ، وغير ذلك من الحروف ، وقرأ الأعرج : وهو شديد المحال بفتح الميم ، وقد فسرت هذه القراءة بالحول .

وللصحابة والتابعين فى تفسير المحال هنا أقوال ثمانية ، الأول العداوة ، الثانى الحول ، الثالث الأخذ ، الرابع الحقد ، الخامس القوة ، السادس الغضب ، السابع الهلاك ، الثامن الحيلة (له دعوة الحق) إضافة الدعوة الى الحق للملابسة : أى الدعوة الملابسة للحق المختصة به التى لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه كما يقال كلمة الحق ، والمعنى أنها دعوة مجابة واقعة فى موقعها ، لا كدعوة من دونه ، وقيل الحق هو الله سبحانه ، والمعنى أن لله سبحانه دعوة المدعو الحق وهو الذى يسمع فيجيب ، وقيل المراد بدعوة الحق هاهنا كلمة التوحيد والاخلاص ، والمعنى لله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له ، وقيل دعوة الحق دعاؤه سبحانه عند الخوف فانه لا يدعى فيه سواه ، كما قال تعالى ــ ضل من تدعون إلا إياه ــ ، وقيل : الدعوة العبادة ، فان عبادة الله هى الحق والصدق (والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء) أى والآلهة الذين يدعونهم يعنى الكفار من دون الله عز وجل لا يستجيبون لهم بشىء مما يطلبونه منهم كائنا ما كان الا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه من بعيد فانه لا يجيبه ، لأنه جماد لا يشعر بحاجته اليه ، ولا يدرى أنه طلب منه أن يبلغ فاه ، ولهذا قال (وما هو) أى الماء (ببالغه) أى ببالغ فيه . قال الزجاج الا كما يستجاب للذى يبسط كفيه الى الماء يدعو الماء الى فيه ، والماء لا يستجيب ، أعلم الله سبحانه أن دعاءهم الأصنام كدعاء العطشان الى الماء يدعوه الى بلوغ فمه ، وما الماء ببالغه ، وقيل : المعنى أنه كباسط كفيه الى الماء ليقبض عليه فلا يحصل فى كفه شىء منه ، وقد ضربت العرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقبض على الماء كما قال الشاعر :

فأصبحت مما كان بينى وبينها * من الود مثل القابض الماء باليد

وقال الآخر ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض * على الماء خانته فروج الاصابع

وقال الفراء ان المراد بالماء هنا : ماء البئر لأنها معدن للماء ، وأنه شبهه بمن مد يده الى البئر بغير رشاء ، ضرب الله سبحانه هذا مثلا لمن يدعو غيره من الأصنام (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) أى يضل عنهم ذلك الدعاء ، فلا يجدون منه شيئا ، ولا ينفعهم بوجه من الوجوه ، بل هو ضائع ذاهب (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها) ان كان المراد بالسجود معناه الحقيقى ، وهو وضع الجبهة على الأرض للتعظيم مع الخضوع والتذلل ، فذلك ظاهر فى المؤمنين ، والملائكة ، ومسلمى الجن ، وأما فى الكفار فلا يصح تأويل السجود بهذا فى حقهم ، فلا بد أن يحمل السجود المذكور فى الآية على معنى حق لله

السجود ووجب حتى يتناول السجود بالفعل وغيره ، أو يفسر السجود بالانقياد ، لأن الكفار وإن لم يسجدوا لله سبحانه فهم منقادون لأمره ، وحكمه فيهم بالصحة ، والمرض ، والحياة ، والموت ، والفقر ، والغنى ، ويدل على إرادة هذا المعنى قوله (طوعا وكرها) فان الكفار ينقادون كرها كما ينقاد المؤمنون طوعا ، وهما منتصبان على المصدرية : أى انقياد طوع ، وانقياد كره ، أو على الحال : أى طائعين وكارهين . وقال الفراء : الآية خاصة بالمؤمنين ، فانهم يسجدون طوعا ، وبعض الكفار يسجدون إكراها وخوفا كالمنافقين ، فالآية محمولة على هؤلاء ، وقيل الآية فى المؤمنين ، فمنهم من سجد طوعا لايثقل عليه السجود ، ومنهم من يثقل عليه ، لأن التزام التكاليف مشقة ولكنهم يتحملون المشقة إيمانا بالله وإخلاصا له (وظلالهم بالغدوّ والآصال) وظلالهم جمع ظل ، والمراد به ظل الانسان الذي يتبعه ، جعل ساجدا بسجوده حيث صار لازما له لاينفك عنه . قال الزجاج وابن الأنبارى ، ولا يبعد أن يخلق الله للظلال أفهاما تسجد بها لله سبحانه كما جعل للجبال أفهاما حتى اشتغلت بتسبيحه ، فظل المؤمن يسجد لله طوعا ، وظل الكافر يسجد لله كرها ، وخص الغدوّ والآصال بالذكر لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما ، وهما ظرف للسجود المقدّر : أى ويسجد ظلالهم فى هذين الوقتين . وقد تقدّم تفسير الغدوّ والآصال فى الأعراف ، وفى معنى هذه الآية قوله سبحانه – أولم يروا إلى ماخلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون – وجاء بمن فى من فى السموات والأرض ، تغليبا للعقلاء على غيرهم ، ولكون سجود غيرهم تبعا لسجودهم ، ومما يؤيد حمل السجود على الانقياد مايفيده تقديم لله على الفعل من الاختصاص ، فان سجود الكفار لأصنامهم معلوم ولاينقادون لهم كانقيادهم لله فى الأمور التى يقرّون على أنفسهم بأنها من الله ، كالخلق والحياة والموت ونحو ذلك (قل من رب السموات والأرض) أمر الله سبحانه رسوله أن يسأل الكفار من ربّ السموات والأرض ؟ ثم لما كانوا يقرّون بذلك ويعترفون به كما حكاه الله سبحانه فى قوله – ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم – وقوله – ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله) أمر رسوله ﷺ أن يجيب ، فقال (قل الله) فكأنه حكى جوابهم ومايعتقدونه ، لأنهم ربما تلعثموا فى الجواب حذرا مما يلزمهم ، ثم أمره بأن يلزمهم الحجة ويبكتهم فقال (قل أفاتخذتم من دونه أولياء) والاستفهام للإنكار : أى إذا كان ربّ السموات والأرض هو الله كما تقرّون بذلك وتعترفون به كما حكاه سبحانه عنكم بقوله – قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله – فما بالكم اتخذتم لأنفسكم من دونه أولياء عاجزين (لايملكون لأنفسهم نفعا) ينفعونها به (ولاضرا) يضرون به غيرهم أو يدفعونه عن أنفسهم ، فكيف ترجون منهم النفع والضر ؟ وهم لايملكونهما لأنفسهم ، والجملة فى محل نصب على الحال ، ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلا وأمر رسوله ﷺ أن يقوله لهم ، فقال (قل هل يستوى الأعمى والبصير) أى هل يستوى الأعمى فى دينه ، وهو الكافر ، والبصير فيه ، وهو الموحد ، فان الأول جاهل لما يجب عليه ومايلزمه ، والثانى عالم بذلك . قرأ ابن محيصن وأبو بكر والأعمش وحمزة والكسائى (أم هل يستوى الظلمات والنور) بالتحتية . وقرأ الباقون بالفوقية ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد ، والمراد بالظلمات الكفر ، وبالنور الايمان ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ : أى كيف يكونان مستويين وبينهما من التفاوت مابين الأعمى والبصير ، ومابين الظلمات والنور ، ووحد النور وجمع الظلمة ، لأن طريق الحق واحدة لاتختلف ، وطرائق الباطل كثيرة غير منحصرة (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه) أم هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة : أى بل أجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، والاستفهام لانكار الوقوع . قال ابن الأنبارى : معناه أجعلوا لله شركاء خلقوا مثل ماخلق الله فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم : أى ليس الأمر على هذا حتى يشتبه

الأمر

الأمر عليهم ، بل اذا فكروا بعقولهم وجدوا الله هو المنفرد بالخلق ، وسائر الشركاء لايخلقون شيئا ، وجملة : خلقوا كخلقه فى محل نصب صفة لشركاء * والمعنى أنهم لم يجعلوا لله شركاء متصفين بأنهم خلقوا كخلقه (فتشابه) بهذا السبب (الخلق عليهم) حتى يستحقوا بذلك العبادة منهم ، بل إنما جعلوا له شركاء الأصنام ونحوها ، وهى بمعزل عن أن تكون كذلك ، ثم أمره الله سبحانه بأن يوضح لهم الحق ويرشدهم إلى الصواب ، فقال (قل الله خالق كل شىء) كائنا ما كان ليس لغيره فى ذلك مشاركة بوجه من الوجوه. قال الزجاج : والمعنى أنه خالق كل شىء مما يصح أن يكون مخلوقا ، ألاترى أنه تعالى شىء وهو غير مخلوق (وهو الواحد) أى المتفرد بالربوبية (القهار) لماعداه ، فكل ماعداه مربوب مقهور مغلوب ، ثم ضرب سبحانه مثلا آخر للحق وذويه ، وللباطل ومنتحليه فقال (أنزل من السماء ماء) أى من جهتها والتنكير للتكثير ، أوللنوعية (فسالت أودية) جمع واد : وهو كل منفرج بين جبلين أونحوهما . قال أبو على الفارسى : لانعلم فاعلا جمع على أفعلة إلا هذا ، وكأنه حمل على فعيل فجمع على أفعلة ، مثل جريب وأجربة كما أن فعيلا حمل على فاعل ، فجمع على أفعال مثل : يتيم وأيتام وشريف وأشراف ، كأصحاب وأنصار فى صاحب وناصر قال : وفى قوله (فسالت أودية) توسع : أى سال ماؤها ، قال ومعنى (بقدرها) بقدر مائها ، لأن الأودية ماسالت بقدر أنفسها . قال الواحدى : والقدر مبلغ الشىء ، والمعنى بقدرها من الماء ، فان صغر الوادى قلّ الماء وان اتسع كثر ، وقال فى الكشاف : بقدرها بمقدارها الذى يعرف الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضارّ . قال ابن الأنبارى : شبه نزول القرآن الجامع للهدى والبيان بنزول المطر ، إذ نفع نزول القرآن يعمّ كعموم نفع نزول المطر ، وشبه الأودية بالقلوب : اذ الأودية يستكنّ فيها الماء كما يستكنّ القرآن والايمان فى قلوب المؤمنين (فاحتمل السيل زبدا رابيا) الزبد هو الأبيض المرتفع المنتفخ على وجه السيل ، ويقال له الغثاء والرغوة ، والرابى العالى المرتفع فوق الماء . قال الزجاج : هو الطافى فوق الماء ، وقال غيره : هو الزائد بسبب انتفاخه ، من ربا يربو اذا زاد ، والمراد من هذا تشبيه الكفر بالزبد الذى يعلو الماء ، فانه يضمحل ويعلق بجنبات الوادى وتدفعه الرياح ، فكذلك يذهب الكفر ويضمحل . وقدتمّ المثل الأول ، ثم شرع سبحانه فى ذكر المثل الثانى فقال (ومما يوقدون عليه فى النار) من لابتداء الغاية : أى ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء ، أو للتبعيض بمعنى : وبعضه زبد مثله ، والضمير للناس ، أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره ، هذا على قراءة يوقدون بالتحتية ، وبها قرأ حميد وابن محيصن والأعمش وحمزة والكسائى وحفص . وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد * والمعنى ومما توقدون عليه فى النار فيذوب من الأجسام المنطرقة الذائبة (ابتغاء حلية) أى لطلب اتخاذ حلية تتزينون بها وتتجملون كالذهب والفضة (أومتاع) أى أو طلب متاع تتمتعون به من الأوانى والآلات المتخذة من الحديد والصفر والنحاس والرصاص (زبد مثله) المراد بالزبد هنا الخبث ، فانه يعلو فوق ماأذيب من تلك الأجسام كما يعلو الزبد على الماء ، فالضمير فى مثله يعود الى زبدا رابيا ، وارتفاع زبد على الابتداء وخبره مما يوقدون (كذلك يضرب الله الحق والباطل) أى مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله مثل الحق ومثل الباطل ، ثم شرع فى تقسيم المثل فقال : (فأما الزبد فيذهب جفاء) يقال جفأ الوادى بالهمز جفاء . اذارمى بالقذر والزبد . قال الفراء : الجفاء الرمى يقال : جفأ الوادى غثاءه جفاء : اذارمى به ، والجفاء بمنزلة الغثاء ، وكذا قال أبو عمرو بن العلاء ، وحكى أبوعبيدة أنه سمع رؤبة يقرأ جفالا . قال أبو عبيدة : يقال أجفلت القدر اذا قذفت بزبدها ، وأجفلت الريح السحاب اذا قطعته . قال أبو حاتم لايقرأ بقراءة رؤبة ، لأنه كان يأكل الفأر * واعلم أن وجه المماثلة بين الزبدين فى الزبد الذى يحمله السيل والزبد الذى يعلو الأجسام المنطرقة أن تراب الأرض لما خالط الماء وحمله معه صار

زبدا رابيا فوقه ، وكذلك مايوقد عليه فى النار حتى يذوب من الأجسام المطرقة ، فان أصله من المعادن التى تنبت فى الأرض فيخالطها التراب ، فاذا أذيبت صار ذلك التراب الذى خالطها خبثا مرتفعا فوقها (وأما ماينفع الناس) منهما ، وهو الماء الصافى ، والذائب الخالص من الخبث (فيمكث فى الأرض) أى يثبت فيها ، أما الماء فانه يسلك فى عروق الأرض فتنتفع الناس به ، وأما ماأذيب من تلك الأجسام فانه يصاغ حلية وأمتعة ، وهذان مثلان ضربهما الله سبحانه للحق والباطل ، يقول : ان الباطل وان ظهر على الحق فى بعض الأحوال وعلاه ، فان الله سبحانه سيمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذى يعلو الماء فيلقيه الماء ويضمحل ، وكخبث هذه الأجسام فانه وان علا عليها فان الكير يقذفه ويدفعه ، فهذا مثل الباطل ، وأما الماء الذى ينفع الناس وينبت المراعى فيمكث فى الأرض ، وكذلك الصفو من هذه الأجسام فانه يبقى خالصا لاشوب فيه ، وهو مثل الحق . قال لزجاج : فمثل المؤمن واعتقاده ونفع الايمان كمثل هذا الماء المنتفع به فى نبات الأرض وحياة كل شىء ، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر لأنها كلها تبقى منتفعا بها ، ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذى يذهب جفاء ، وكمثل خبث الحديد وماتخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذى لاينتفع به . وقد حكينا عن ابن الأنبارى فيما تقدم أنه شبه نزول القرآن الى آخر ماذكرناه فجعل ذلك مثلا ضربه الله للقرآن (كذلك يضرب الله الأمثال) أى مثل ذلك الضرب العجيب يضرب الله الأمثال فى كل باب لكمال العناية بعباده واللطف بهم ، وهذا تأكيد لقوله : كذلك يضرب الله الحق والباطل ، ثم بين سبحانه من ضرب له مثل الحق ومثل الباطل من عباده ، فقال فيمن ضرب له مثل الحق (للذين استجابوا لربهم) أى أجابوا دعوته اذ دعاهم الى توحيده وتصديق أنبيائه والعمل بشرائعه ، والحسنى صفة موصوف محذوف : أى المثوبة الحسنى وهى الجنة ، وقال سبحانه فيمن ضرب له مثل الباطل (والذين لم يستجيبوا) لدعوته الى مادعاهم اليه ، والموصول مبتدأ وخبره الجملة الشرطية ، وهى (لو أن لهم مافى الأرض جميعا) من أصناف الأموال التى تملكها العباد ويجمعونها بحيث لايخرج عن ملكهم منها شىء (ومثله معه) أى مثل مافى الأرض جميعا كائنا معه ومنضما اليه (لافتدوا به) أى بمجموع ماذكر وهو مافى الأرض ومثله ، والمعنى ليخلصوا به مما هم فيه من العذاب الكبير والهول العظيم ، ثم بين الله سبحانه ما أعده لهم فقال (أولئك) يعنى الذين لم يستجيبوا (لهم سوء الحساب) قال الزجاج : لأن كفرهم أحبط أعمالهم وقال غيره : سوء الحساب المناقشة فيه ، وقيل هو أن يحاسب الرجل بذنبه كله لايغفر منه شىء (ومأواهم جهنم) أى مرجعهم اليها (وبئس المهاد) أى المستقرّ الذى يستقرّون فيه ، والمخصوص بالذم محذوف .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا) قال : خوفا للمسافر يخاف أذاه ومشقته ، وطمعا للمقيم يطمع فى رزق الله ويرجو بركة المطر ومنفعته . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : خوفا لأهل البحر وطمعا لأهل البرّ . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : الخوف مايخاف من الصواعق والطمع : الغيث . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والخرائطى فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى سننه من طرق عن علىّ بن أبى طالب قال : البرق مخاريق من نار بأيدى ملائكة السحاب يزجرون به السحاب ، وروى عن جماعة من السلف مايوافق هذا ويخالفه ، ولعلنا قد قدّمنا فى سورة البقرة شيئا من ذلك . وأخرج أحمد عن شيخ من بنى غفار قد صحب رسول الله ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله ينشئ السحاب فتنطق أحسن النطق وتضحك أحسن الضحك » قيل والمراد بنطقها الرعد ، وبضحكها البرق . وقد ثبت عند أحمد والترمذى والنسائى فى اليوم والليلة والحاكم فى مستدركه من حديث ابن عمر قال :

كان رسول الله ﷺ اذا سمع الرعد والصواعق قال « اللهم لاتقتلنا بغضبك ولاتهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك . وأخرج العقيلي وضعفه وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ينشئ الله السحاب ثم ينزل فيه الماء ، فلا شئ أحسن من ضحكه ، ولاشيء أحسن من نطقه ، ومنطقه الرعد وضحكه البرق . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبدالله : أن خزيمة بن ثابت ، وليس بالأنصاري ، سأل رسول الله ﷺ عن منشأ السحاب ، فقال : ان ملكا موكلا يلمّ القاصية ويلحم الدانية في يده مخراق ، فاذا رفع برقت واذا زجر رعدت ، واذا ضرب صعقت . وأخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والضياء في المختارة عن ابن عباس قال أقبلت يهود الى رسول الله ﷺ فقالوا ياأبا القاسم انانسألك عن خمسة أشياء ، فان أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبيّ واتبعناك ، فأخذ عليهم ما أخذ اسرائيل على بنيه اذقال الله على مانقول وكيل ، قال هاتوا ، قالوا : أخبرنا عن علامة النبي قال : تنام عيناه ولاينام قلبه ، قالوا : أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر ؟ قال يلتقي الماآن ، فاذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت ، واذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت ، قالوا أخبرنا عما حرّم اسرائيل على نفسه ، قال : كان يشتكي عرق النسا ، فلم يجد شيئا يلائمه الا ألبان كذا وكذا : يعني الابل ، فحرّم لحومها ، قالوا صدقت ، قالوا أخبرنا ماهذا الرعد ؟ قال : ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله ، قالوا فما هذا الصوت الذي نسمع ؟ قال صوته . قالوا صدقت انما بقيت واحدة : وهي التي نتابعك ان أخبرتنا انه ليس من نبيّ الاله ملك يأتيه بالخبر ، فأخبرنا من صاحبك ؟ قال : جبريل ، قالوا جبريل ذاك ينزل بالحراب والقتال والعذاب عدوّنا ، لوقلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان ، فأنزل الله ــ قل من كان عدوّا لجبريل ــ الى آخر الآية . وأخرج البخاري في الأدب المفرد وابن أبي الدنيا في المطر وابن جرير عن ابن عباس أنه كان اذا سمع صوت الرعد قال : سبحان الذي سبحت له ، وقال ان الرعد ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعي بغنمه . وقد روى نحو هذا عنه من طرق . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن الرعد صوت الملك ، وكذا أخرج نحوه أبو الشيخ عن ابن عمر . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : الرعد ملك اسمه الرعد ، وصوته هذا تسبيحه ، فاذا اشتدّ زجره احتك السحاب واضطرم من خوفه فتخرج الصواعق من بينه . وأخرج ابن أبي حاتم والخرائطي وأبو الشيخ في العظمة عن أبي عمران الجوني قال : أن بحورا من نار دون العرش يكون منها الصواعق . وأخرج أبو الشيخ عن السدي قال : الصواعق نار وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس وهو شديد المحال قال : شديد القوّة . وأخرج ابن جرير عن عليّ قال : شديد الأخذ . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه في قوله (له دعوة الحق) قال : التوحيد : لاإله إلا الله . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات من طرق عن ابن عباس في قوله دعوة الحق قال : شهادة أن لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير عن علي في قوله (الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه) قال : كان الرجل العطشان يمدّ يده الى البئر ليرتفع الماء اليه وماهو ببالغه : وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في الآية قال : هـذا مثل المشرك الذي عبد مع الله غيره ، فمثله كمثل الرجل العطشان الذي ينظر إلى خياله في الماء من بعيد وهو يريد أن يتناوله ولايقدر عليه . وأخرج أبو الشيخ عنه في قوله (هل يستوى الأعمى والبصير) قال : المؤمن والكافر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا في قوله (أنزل من السماء ماء) الآية قال : هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها ، فأما الشك فلا ينفع معه العمل ، وأما اليقين فينفع الله

به أهله ، وهو قوله (فأما الزبد فيذهب جفاء) وهو الشك (وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض) وهو اليقين ، وكما يجعل الحلىّ فى النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه فى النار ، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك . وأخرج هؤلاء عنه أيضا (فسالت أودية بقدرها) قال : الصغير قدر صغره ، والكبير قدر كبره .

أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب * والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلوة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار * والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار *

الهمزة فى قوله (أفمن يعلم) للانكار على من يتوهم المماثلة بين من يعلم أنما أنزله الله سبحانه الى رسوله ﷺ من الحق الذى لاشك فيه ولا شبهة ، وهو القرآن ، وبين من هو أعمى لايعلم ذلك ، فان الحال بينهما متباعد جدّا كالتباعد الذى بين الماء والزبد ، وبين الخبث والخالص من تلك الأجسام ، ثم بين سبحانه أنه انما يقف على تفاوت المنزلتين ، وتباين الرتبتين أهل العقول الصحيحة ، فقال (انما يتذكر أولوا الألباب) ، ثم وصفهم بهذه الأوصاف المادحة ، فقال (الذين يوفون بعهد الله) أى بما عقدوه من العهود فيما بينهم وبين ربهم : أو فيما بينهم وبين العباد (ولا ينقضون الميثاق) الذى وثقوه على أنفسهم ، وأكدوه بالأيمان ونحوها ، وهذا تعميم بعد التخصيص ، لأنه يدخل تحت الميثاق كل ماأوجبه العبد على نفسه كالنذور ونحوها ، ويحتمل أن يكون الأمر بالعكس فيكون من التخصيص بعد التعميم على أن يراد بالعهد جميع عهود الله ، وهى أوامره ونواهيه التى وصى بها عبيده ، ويدخل فى ذلك الالتزامات التى يلزم بها العبد نفسه ، ويراد بالميثاق ماأخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب آدم فى عالم الذرّ المذكور فى قوله سبحانه ـ واذ أخذ ربك من بنى آدم ـ الآية (والذين يصلون ماأمر الله به أن يوصل) ظاهره شمول كل ماأمر الله بصلته ، ونهى عن قطعه من حقوق الله ، وحقوق عباده ، ويدخل تحت ذلك صلة الأرحام دخولا أوّليا ، وقد قصره كثير من المفسرين على صلة الرحم ، واللفظ أوسع من ذلك (ويخشون ربهم) خشية تحملهم على فعل ماوجب ، واجتناب مالايحلّ (ويخافون سوء الحساب) وهو الاستقصاء فيه والمناقشة للعبد ، فمن نوقش الحساب عذب ، ومن حق هذه الخيفة أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) ، قيل هو كلام مستأنف ، وقيل معطوف على ماقبله والتعبير عنه بلفظ المضىّ للتنبيه على أنه ينبغى تحققه ، والمراد بالصبر : الصبر على الاتيان بما أمر الله به ، واجتناب مانهى عنه ، وقيل على الرزايا والمصائب ، ومعنى كون ذلك الصبر لابتغاء وجه الله أن يكون خالصا له ، لاشائبة فيه لغيره (وأقاموا الصلاة) أى فعلوها فى أوقاتها على ماشرعه الله سبحانه فى أذكارها وأركانها مع الخشوع والاخلاص ، والمراد بها : الصلوات المفروضة ، وقيل أعمّ من ذلك (وأنفقوا مما

رزقناهم)

رزقناهم) أى أنفقوا بعض مارزقناهم ، والمراد بالسر : صدقة النفل ، والعلانية : صدقة الفرض ، وقيل السر لمن لم يعرف بالمال ، أو لايتهم بترك الزكاة ، والعلانية لمن كان يعرف بالمال أو يتهم بترك الزكاة (ويدرءون بالحسنة السيئة) أى يدفعون سيئة من أساء اليهم بالاحسان اليه كما فى قوله تعالى ـ ادفع بالتى هى أحسن ـ ، أو يدفعون بالعمل الصالح العمل السيء ، أو يدفعون الشر بالخير ، أو المنكر بالمعروف ، أو الظلم بالعفو ، أو الذنب بالتوبة ، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الامور ، والاشارة بقوله (أولئك) الى الموصوفين بالصفات المتقدّمة (لهم عقبى الدار) العقبى مصدر كالعاقبة ، والمراد بالدار الدنيا ، وعقباها الجنة ، وقيل المراد بالدار : الدار الآخرة ، وعقباها الجنة للطيعين ، والنار للعصاة (جنات عدن يدخلونها) بدل من عقبى الدار : أى لهم جنات عدن ، ويجوز أن يكون مبتدأ ، وخبره يدخلونها ، والعدن أصله الاقامة ، ثم صار علما لجنة من الجنان . قال القشيرى وجنات عدن : وسط الجنة وقصبتها وسقفها عرش الرحمن ، ولكن فى صحيح البخارى وغيره « اذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » . (ومن صلح من آبائهم) يشمل الآباء والأمّهات (وأزواجهم وذرياتهم) معطوف على الضمير فى يدخلون ، وجاز ذلك للفصل بين المعطوف والمعطوف عليه : أى ويدخلها أزواجهم وذرياتهم ، وذكر الصلاح دليل على أنه لايدخل الجنة الا من كان كذلك من قرابات أولئك ، ولاينفع مجرد كونه من الآباء أو الأزواج أو الذرية بدون صلاح (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) أى من جميع أبواب المنازل التى يسكنونها ، أو المراد من كل باب من أبواب التحف والهدايا من الله سبحانه (سلام عليكم) أى قائلين سلام عليكم : أى سلمتم من الآفات أو دامت لكم السلامة (بما صبرتم) أى بسبب صبركم وهو متعلق بالسلام : أى إنما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم أو متعلق بعليكم . أو بمحذوف : أى هذه الكرامة بسبب صبركم ، أو بدل مااحتملتم من مشاق الصبر (فنعم عقبى الدار) جاء سبحانه بهذه الجملة المتضمنة لمدح ماأعطاهم من عقبى الدار المتقدم ذكرها للترغيب والتشويق ، ثم أتبع أحوال السعداء بأحوال الأشقياء ، فقال (والذين ينقضون عهدالله ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل) وقدمر تفسيرعدم النقض وعدم القطع فعرف منهما تفسير النقض والقطع ، ولم يتعرض لنفى الخشية والخوف عنهم وما بعدهما من الأوصاف المتقدّمة لدخولها فى النقض والقطع (ويفسدون فى الأرض) بالكفر وارتكاب المعاصى والاضرار بالأنفس والأموال (أولئك) الموصوفون بهذه الصفات الذميمة (لهم) بسبب ذلك (اللعنة) : أى الطرد والابعاد من رحمة الله سبحانه (ولهم سوء الدار) أى سوء عاقبة دار الدنيا ، وهى النار أو عذاب النار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله تعالى (أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق) قال هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه (كمن هو أعمى) قال عن الحق فلا يبصره ولايعقله (إنما يتذكر أولوا الألباب) فبين من هم ؟ فقال (الذين يوفون بعهدالله) . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير أولوا الألباب قال : من كان له لب : أى عقل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة ان الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق فى بضع وعشرين آية من القرآن . وأخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ ان البر والصلة ليخففان سوء الحساب يوم القيامة ، ثم تلا رسول الله ﷺ (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) يعنى من إيمان بالنبيين وبالكتب كلها (ويخشون ربهم) يعنى يخافون من قطيعة

XIII 76-79

ما أمر الله به أن يوصل (ويخافون سوء الحساب) يعنى شدة الحساب .

وقد ورد فى صلة الرحم وتحريم قطعها أحاديث كثيرة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك (ويدرءون بالحسنة السيئة) قال : يدفعون بالحسنة السيئة . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن مسعود فى قوله (جنات عدن) قال : بطنان الجنة يعنى وسطها . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أن عمر قال : لكعب ما عدن ؟ قال هو قصر فى الجنة لا يدخله إلا نبى ، أو صديق ، أو شهيد ، أو حكم عدل . وأخرج ابن مردويه عن على قال : قال رسول الله ﷺ جنة عدن قضيب غرسه الله بيده ، ثم قال له كن فكان . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (ومن صلح من آبائهم) قال من آمن فى الدنيا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى عمران الجونى فى قوله (سلام عليكم بما صبرتم) قال على دينكم (فنعم عقبى الدار) قال نعم ما أعقبكم الله من الدنيا الجنة . وأخرج أحمد والبزار وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الايمان عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء فيقول الله لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم ؟ قال الله : ان هؤلاء عبادى كانوا يعبدوننى ولا يشركون بى شيئا ، وتسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى أمامة « ان المؤمن ليكون متكئا على أريكته اذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل الملك فيستأذن ، فيقول أقصى الخدم للذى يليه : ملك يستأذن ، ويقول الذى يليه : ملك يستأذن ، حتى يبلغ المؤمن ، فيقول ائذنوا له ، فيقول أقربهم الى المؤمن : ائذنوا له ، ويقول الذى يليه للذى يليه ائذنوا له حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب فيفتح له فيدخل ويسلم عليه ، ثم ينصرف » . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (ولهم سوء الدار) قال : سوء العاقبة .

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ * كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ *

لما ذكر الله سبحانه عاقبة المشركين بقوله (ولهم سوء الدار) كان لقائل أن يقول قد نرى كثيرا منهم قد وفر الله له الرزق وبسط له فيه ، فأجاب عن ذلك بقوله (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) فقد يبسط الرزق

لمن

لمن كان كافرا ، ويقتره على من كان مؤمنا ابتلاء وامتحانا ، ولايدل البسط على الكرامة ولا القبض على الاهانة ، ومعنى يقدر : يضيق ، ومنه ـ ومن قدر عليه رزقه ـ أى ضيق ، وقيل معنى يقدر يعطى بقدر الكفاية ، ومعنى الآية أنه الفاعل لذلك وحده : القادر عليه دون غيره (وفرحوا بالحياة الدنيا) أى مشركو مكة فرحوا بالدنيا وجهلوا ماعند الله ، قيل وفى هـذه الآية تقديم وتأخير ، والتقدير الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا فيكون وفرحوا معطوفا على يفسدون (وما الحياة الدنيا فى الآخرة الا متاع) أى ماهى الا شىء يستمتع به ، وقيل المتاع واحد الأمتعة كالقصعة والسكرجة ونحوهما ، وقيل المعنى : شىء قليل ذاهب ، من متع النهار: اذا ارتفع فلابد له من زوال ، وقيل زاد كزاد الراكب يتزود به منها الى الآخرة (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من) أى يقول أولئك المشركون من أهل مكة هلا أنزل على محمد آية من ربه ؟ . وقد تقدم تفسير هذا قريبا ، وتكرر فى مواضع (قل ان الله يضل من يشاء) أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بهذا : وهو أن الضلال بمشيئة الله سبحانه ، من شاء أن يضله ضل كما ضل هؤلاء القائلون لولا أنزل عليه آية من ربه (ويهدى اليه من أناب) أى ويهدى الى الحق ، أو الى الاسلام ، أو الى جنابه عز وجل من أناب : أى من رجع الى الله بالتوبة والاقلاع عما كان عليه ، وأصل الانابة الدخول فى نوبة الخير، كذا قال النيسابورى ، ومحل الذين آمنوا النصب على البدلية من قوله : من أناب : أى انهم هم الذين هداهم الله وأنابوا اليه ، ويجوز أن يكون الذين أمنوا خبر مبتدأ محذوف : أى هم الذين آمنوا ، أو منصوب على المدح (وتطمئن قلوبهم بذكر الله) أى تسكن وتستأنس بذكر الله سبحانه بألسنتهم : كتلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتكبير والتوحيد ، أو بسماع ذلك من غيرهم ، وقد سمى سبحانه القرآن ذكرا ، قال ـ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ـ ، وقال ـ انا نحن نزلنا الذكر ـ قال الزجاج : أى اذا ذكر الله وحده آمنوا به غير شاكين بخلاف من وصف بقوله ـ واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة ـ وقيل تطمئن قلوبهم بتوحيد الله ، وقيل المراد بالذكر هنا الطاعة ، وقيل بوعد الله ، وقيل بالحلف بالله ، فاذا حلف خصمه بالله سكن قلبه ، وقيل بذكر رحمته ، وقيل بذكر دلائله الدالة على توحيده (ألا بذكر الله) وحده دون غيره (تطمئن القلوب) والنظر فى مخلوقات الله سبحانه وبدائع صنعه وان كان يفيد طمأنينة فى الجملة ، لكن ليست كهذه الطمأنينة ، وكذلك النظر فى المعجزات من الأمور التى لايطيقها البشر، فليس افادتها للطمأنينة كافادة ذكر الله ، فهذا وجه مايفيده هذا التركيب من القصر (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) الموصول مبتدأ خبره الجملة الدعائية ، وهى طوبى لهم على التأويل المشهور ، ويجوز أن يكون الموصول فى محل نصب على المدح ، وطوبى لهم خبر مبتدأ محذوف ، ويجوز أن يكون الموصول بدلا من القلوب على حذف مضاف : أى قلوب الذين آمنوا . قال أبو عبيدة والزجاج وأهل اللغة : طوبى فعلى من الطيب . قال ابن الانبارى : وتأويلها الحال المستطابة ، وقيل طوبى شجرة فى الجنة ، وقيل هى الجنة ، وقيل هى البستان بلغة الهند ، وقيل معنى طوبى لهم حسنى لهم ، وقيل خير لهم ، وقيل كرامة لهم ، وقيل غبطة لهم . قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة ، والأصل طيبى فصارت الياء واوا لسكونها وضم ماقبلها ، واللام فى لهم للبيان مثل سقيا لك ورعيا لك . وقرئ حسن مآب بالنصب والرفع ، من آب اذا رجع : أى وحسن مرجع ، وهو الدار الآخرة (كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم) أى مثل ذلك الارسال العظيم الشأن المشتمل على المعجزة الباهرة أرسلناك يامحمد ، وقيل شبه الانعام على من أرسل اليه محمد ﷺ بالانعام على من أرسل اليه الأنبياء قبله ، ومعنى فى أمة قد خلت من قبلها أمم فى قرن قد مضت

من قبلك قرون ، أوفى جماعة من الناس قد مضت من قبلها جماعات (لتتلوا عليهم الذى أوحينا إليك) أى لتقرأ عليهم القرآن ، (و) الحال أن (هم يكفرون بالرحمن) أى بالكثير الرحمة لعباده ، ومن رحمته لهم ارسال الرسل إليهم وانزال الكتب عليهم كما قال سبحانه ــ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ــ وجملة (قل هو ربى) مستأنفة بتقدير سؤال كأنهم قالوا : وما الرحمن ؟ فقال سبحانه (قل) يامحمد (هو ربى) أى خالقى (لا إله إلا هو) أى لايستحق العبادة له والايمان به سواه (عليه توكلت) فى جميع أمورى (و إليه) لا إلى غيره (متاب) أى توبتى ، وفيه تعريض بالكفار وحثّ لهم على الرجوع الى الله والتوبة من الكفر والدخول فى الاسلام .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن سابط فى قوله (وما الحياة الدنيا فى الآخرة الامتاع) قال : كزاد الراعى يزوده أهله الكف من التمر أو الشىء من الدقيق أو الشىء يشرب عليه اللبن . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : كان الرجل يخرج فى الزمان الأول فى إبله ، أو غنمه فيقول لأهله متعونى فيمتعونه فلقة الخبز أو التمر ، فهذا مثل ضربه الله للدنيا . وأخرج الترمذى وصححه عن عبدالله بن مسعود قال : نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر فى جنبه فقلنا يارسول الله لو اتخذنا لك ؟ فقال مالى وللدنيا ، ماأنا فى الدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة ، ثم راح وتركها . وأخرج مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه عن المستورد قال : قال رسول الله ﷺ «ماالدنيا فى الآخرة إلا كمثل مايجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليمّ فلينظر بم يرجع ؟ وأشار بالسبابة » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (وتطمئنّ قلوبهم بذكر الله) قال : هشت اليه واستأنست به . وأخرج أبو الشيخ عن السدّى فى الآية قال : اذا حلف لهم بالله صدقوا (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) قال : تسكن . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : بمحمد وأصحابه . وأخرج أبو الشيخ عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه حين نزلت هذه الآية : ألا بذكر الله تطمئن القلوب هل تدرون مامعنى ذلك ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال من أحب الله ورسوله وأحبّ أصحابى . وأخرج ابن مردويه عن علىّ أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) قال : ذاك من أحب الله ورسوله وأحب أهل بيتى صادقا غير كاذب وأحب المؤمنين شاهدا وغائبا ألا بذكر الله يتحابون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (طوبى لهم) قال : فرح وقرّة عين . وأخرج ابن أبى شيبة وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله (طوبى لهم) قال نعم مالهم .

وقد روى عن جماعة من السلف نحو ما قدمنا ذكره من الأقوال ، والأرجح تفسير الآية بما روى مرفوعا الى النبى ﷺ كما أخرجه أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى وابن مردويه والبيهقى عن عتبة بن عبد قال : جاء أعرابى الى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله فى الجنة فاكهة ؟ قال : نعم فيها شجرة تدعى طوبى الحديث ، وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان والخطيب فى تاريخه عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أن رجلا قال : يارسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك قال : طوبى لمن آمن بى ورآنى ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى : فقال رجل وما طوبى ؟ قال : شجرة فى الجنة مسيرمائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها ، وفى الباب أحاديث وآثار عن السلف ، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ فى الجنة شجرة يسيرالراكب فى ظلها مائة سنة . اقرءوا ان شئتم ــ وظلّ ممدود ــ وفى بعض الألفاظ انها شجرة الخلد ، وأخرج أبو الشيخ عن السدى (وحسن مآب) قال حسن منقلب . وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله

وأخرج

XIII. 50 - 62

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (وهم يكفرون بالرحمن) قال ذكر لنا أن رسول الله ﷺ زمن الحديبية حين صالح قريشا كتب في الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقالت قريش : أما الرحمن فلا نعرفه ، وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم : فقال أصحابه : دعنا نقاتلهم ، فقال لا ، ولكن اكتبوا كما يريدون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في هذه الآية نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد (واليه متاب) قال توبتي .

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۞ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۞ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۞ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ۞

قوله (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) قيل هذا متصل بقوله ـ لولا أنزل عليه آية من ربه ـ وأن جماعة من الكفار سألوا رسول الله ﷺ أن يسير لهم جبال مكة حتى تنفسح فانها أرض ضيقة ، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم بهذا الجواب المتضمن لتعظيم شأن القرآن وفساد رأى الكفار حيث لم يقنعوا به وأصرّوا على تعنتهم وطلبهم مالو فعله الله سبحانه لم يبق ماتقتضيه الحكمة الالهية من عدم انزال الآيات التى يؤمن عندها جميع العباد ۞ ومعنى سيرت به الجبال أى بانزاله وقراءته فسارت عن محل استقرارها (أو قطعت به الأرض) أى صدّعت حتى صارت قطعا متفرقة (أو كلم به الموتى) أى صاروا أحياء بقراءته عليهم فكانوا يفهمونه عند تكليمهم به كما يفهمه الاحياء .

وقد اختلف فى جواب لو ماذا هو ؟ فقال الفراء هو محذوف ، وتقديره لكان هذا القرآن ، وروى عنه أنه قال ان الجواب لكفروا بالرحمن : أى لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن ، وقيل جوابه لما آمنوا كما سبق فى قوله ـ وما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ـ وقيل الجواب متقدّم ، وفى الكلام تقديم وتأخير : أى وهم يكفرون بالرحمن لو أن قرآنا الى آخره ، وكثيرا ما تحذف العرب جواب لو اذا دلّ عليه سياق الكلام ، ومنه قول امرئ القيس :

فلو أنها نفس تموت جميعة ۞ ولكنها نفس تساقط أنفسا

أى لهان علىّ ذلك (بل لله الأمر جميعا) أى لو أن قرآنا فعل به ذلك لكان هذا القرآن ، ولكن لم يفعل بل فعل ماعليه الشأن الآن ، فلو شاء أن يؤمنوا لآمنوا واذا لم يشأ أن يؤمنوا لم ينفع تسيير الجبال وسائر ما اقترحوه من الآيات ، فالاضراب متوجه الى مايؤدّى اليه كون الأمر لله سبحانه ويستلزمه من

توقف الأمر على ماتقتضيه حكمته ومشيئته ويدل على أن هـذا هو المعنى المراد من ذلك قوله (أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو شاء الله لهدى الناس جميعا) قال الفراء : قال الكلبي أفلم ييأس بمعنى أفلم يعلم وهي لغـة النخع . قال فى الصحاح وقيل هى لغة هوازن ، وبهذا قال جماعة من السلف . قال أبوعبيدة أفلم يعلموا ويتبينوا . قال الزجاج وهومجاز لأن اليائس من الشيء عالم بأنه لايكون ، نظيره استعمال الرجاء فى معنى الخوف ، والنسيان فى الترك لتضمنهما اياهما ، و يؤيده قراءة على وابن عباس وجماعة أفلم يتبين ، ومن هذا قول رباح بن عدى :

ألم ييأس الأقوام أنى أنا ابنه * وان كنت عن أرض العشيرة نائيا

أى ألم يعلم ، وأنشد فى هذا أبوعبيدة قول مالك بن عوف النضرى :

أقول لهم بالشعب اذ يأسروننى * ألم تيأسوا أنى ابن فارس زهدم

أى ألم تعلموا ، فمعنى الآية على هـذا : أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات ، وقيل ان الاياس على معناه الحقيق : أى أفلم ييأس الذين آمنوا من ايمان هؤلاء الكفار ، لعلمهم أن الله تعالى لوأراد هدايتهم لهداهم ، لأن المؤمنين تمنوا نزول الآيات التى اقترحها الكفار طمعا فى إيمانهم (ولايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) هذا وعيد للكفار على العموم أولكفار مكة على الخصوص : أى لايزال الذين كفروا تصيبهم بسبب ماصنعوا من الكفر والتكذيب للرسل قارعة : أى داهية تفجؤهم ، يقال قرعه الأمر اذا أصابه ، والجمع قوارع ، والأصل فى القرع الضرب . قال الشاعر :

أفنى تلادى وماجمعت من نشب * قرع القواقيز أفواه الأباريق

والمعنى أن الكفار لايزالون كذلك حتى تصيبهم داهية مهلكة من قتل أو أسر أو جدب أو نحو ذلك من العذاب ، وقد قيل ان القارعة النكبة ، وقيل الطلائع والسرايا ، ولايخفى أن القارعة تطلق على ماهو أعم من ذلك (أو تحل) أى القارعة (قريبا من دارهم) فيفزعون منها و يشاهدون من آثارها ماترجف له قلوبهم وترعد منه بوادرهم ، وقيل ان الضمير فى (تحل) للنبى ﷺ ، والمعنى أوتحل أنت يامحمد قريبا من دارهم محاصراً لهم آخذا بمخانقهم كما وقع منه ﷺ لأهل الطائف (حتى يأتى وعد الله) وهو موتهم ، أو قيام الساعة عليهم ، فانه اذا جاء وعد الله المحتوم حل بهم من عذابه ماهو الغاية فى الشدة ، وقيل المراد بوعـد الله هنا الاذن منه بقتال الكفار ، والأول أولى (ان الله لايخلف الميعاد) فما جرى به وعـده فهو كائن لامحالة (ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا) التنكير فى رسل للتكثير : أى برسل كثيرة ، والاملاء : الامهال ، وقدمر تحقيقه فى الأعراف (ثم أخذتهم) بالعذاب الذى أنزلته بهم (فكيف كان عقاب) الاستفهام للتقريع والتهديد : أى فكيف كان عقابى لهؤلاء الكفار الذين استهزءوا بالرسل ، فأمليت لهم ثم أخذتهم ، ثم استفهم سبحانه استفهاما آخر للتوبيخ والتقريع يجرى مجرى الحجاج للكفار واستركاك صنعهم والازراء عليهم ، فقال (أفمن هو قائم على كل نفس) القائم الحفيظ والمتولى للأمور ، وأراد سبحانه نفسه ، فانه المتولى لأمور خلقه المدبر لأحوالهم بالآجال والأرزاق ، واحصاء الأعمال على كل نفس من الأنفس كائنة ما كانت ، والجواب محذوف : أى أفمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التى لاتنفع ولاتضر . قال الفراء : كأنه فى المعنى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم الذين اتخذوهم من دون الله ، والمراد من الآية انكار المماثلة بينهما ، وقيل المراد بمن هو قائم على كل نفس الملائكة الموكلون ببنى آدم ، والأول أولى ، وجملة (وجعلوا لله شركاء) معطوفة على الجواب المقدر مبينة له أو حالية بتقدير قد : أى وقد جعلوا ، أو معطوفة على (ولقد استهزئ) أى استهزءوا وجعلوا (قل سموهم)

أى قل يامحمد جعلتم له شركاء فسموهم من هم ؟ وفى هذا تبكيت لهم وتوبيخ ، لأنه انما يقال هكذا فى الشىء المستحقر الذى لا يستحق أن يلتفت اليه ، فيقال : سمه ان شئت : يعنى أنه أحقر من أن يسمى ، وقيل ان المعنى سموهم بالآلهة كما تزعمون ، فيكون ذلك تهديدا لهم (أم تنبئونه) أى بل أتنبئون الله (بما لا يعلم فى الأرض) من الشركاء الذين تعبدونهم مع كونه العالم بما فى السموات والأرض (أم بظاهر من القول) أى بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن تكون له حقيقة ، وقيل المعنى : قل : لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه ، أم بظاهر يعلمه ، فان قالوا بباطن لا يعلمه فقد جاءوا بدعوى باطلة ، وان قالوا بظاهر يعلمه فقل لهم سموهم ، فاذا سموا اللات والعزى ونحوهما ، فقل لهم ان الله لا يعلم لنفسه شريكا ، وانما خصّ الأرض بنفى الشريك عنها ، وان لم يكن له شريك فى غير الأرض ، لأنهم ادّعوا له شريكا فى الأرض ، وقيل معنى (أم بظاهر من القول) أم بزائل من القول باطل ، ومنه قول الشاعر :

أعيرتنا ألبانها ولحومها * وذلك عار يابن ريطة ظاهر

أى زائل باطل ، وقيل بكذب من القول ، وقيل معنى بظاهر من القول بحجة من القول ظاهرة على زعمهم (بل زين للذين كفروا مكرهم) أى ليس لله شريك ، بل زين للذين كفروا مكرهم . وقرأ ابن عباس زين على البناء للفاعل على أن الذى زين لهم ذلك هو مكرهم . وقرأ من عداه بالبناء للمفعول ، والمزين هو الله سبحانه ، أو الشيطان ، ويجوز أن يسمى المكر كفرا ، لأن مكرهم برسول الله ﷺ كان كفرا ، وأما معناه الحقيق فهو الكيد ، أو التمويه بالأباطيل (وصدّوا عن السبيل) قرأ حمزة والكسائى وعاصم (صدّوا) على البناء للمفعول : أى صدّهم الله ، أو صدّهم الشيطان . وقرأ الباقون على البناء للفاعل : أى صدّوا غيرهم ، واختار هذه القراءة أبو حاتم . وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الصاد (ومن يضلل الله فماله من هاد) أى يجعله ضالا وتقتضى مشيئته اضلاله ، فما له من هاد يهديه الى الخير . قرأ الجمهور (هاد) من دون اثبات الياء على اللغة الكثيرة الفصيحة . وقرئ باثباتها على اللغة القليلة ، ثم بين سبحانه مايستحقونه ، فقال (لهم عذاب فى الحياة الدنيا) بما يصابون به من القتل والأسر وغير ذلك (ولعذاب الآخرة أشقّ) عليهم من عذاب الحياة الدنيا (ومالهم من الله واق) يقيهم عذابه ، ولا عاصم يعصمهم منه ، ثم لما ذكر سبحانه ما يستحقه الكفار من العذاب فى الأولى والأخرى ، ذكر ما أعدّه للمؤمنين ، فقال (مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار) أى صفتها العجيبة الشأن التى هى فى الغرابة كالمثل ، قال ابن قتيبة : المثل الشبه فى أصل اللغة ، ثم قد يصير بمعنى صورة الشىء وصفته ، يقال مثلت لك كذا : أى صورته ووصفته ، فأراد هنا بمثل الجنة صورتها وصفتها ، ثم ذكرها ، فقال (تجرى من تحتها الأنهار) وهو كالتفسير للمثل . قال سيبويه : وتقديره فيما قصصنا عليك مثل الجنة ، وقال الخليل وغيره : ان مثل الجنة مبتدأ والخبر تجرى ، وقال الزجاج : انه تمثيل للغائب بالشاهد ، ومعناه مثل الجنة جنة تجرى من تحتها الأنهار ، وقيل ان فائدة الخبر ترجع إلى (أكلها دائم) أى لا ينقطع ، ومثله قوله سبحانه ـ لا مقطوعة ولا ممنوعة ـ ، وقال الفراء : المثل مقحم للتأكيد ، والمعنى الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار ، والعرب تفعل ذلك كثيرا (وظلها) أى كذلك دائم لا ينقلص ولا تنسخه الشمس ، والاشارة بقوله (تلك) الى الجنة الموصوفة بالصفات المتقدمة ، وهو مبتدأ خبره (عقبى الذين اتقوا) أى عاقبة الذين اتقوا المعاصى ، ومنتهى أمرهم (وعقبى الكافرين النار) ليس لهم عاقبة ولا منتهى الا ذلك .

وقد أخرج الطبرانى وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : قالوا للنبى ﷺ ان كان كما تقول فأرنا أشياخنا الأول من الموتى نكلمهم ، وافسح لنا هذه الجبال جبال مكة التى قد ضمتنا ، فنزلت ـ ولو أن قرآنا سيرت

XIII. 36-39

به الجبال ـ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عطية العوفى قال : قالوا لمحمد ﷺ لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أوقطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أوأحييت لنا الموتى كما كان يحيى عيسى الموتى لقومه ، فأنزل الله ـ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ـ الآية الى قوله (أفلم ييأس الذين آمنوا) قال أفلم يتبين الذين آمنوا ، قالوا هل تروى هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبى ﷺ ؟ قال عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ ، وأخرجه أيضا ابن أبى حاتم ، قال حدّثنا أبو زرعة حدّثنا منجاب بن الحرث أخبرنا بشر بن عمارة حدّثنا عمر بن حسان عن عطية العوفى فذكره . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفى عن ابن عباس نحوه مختصرا . وأخرج أبو يعلى وأبو نعيم فى الدلائل وابن مردويه عن الزبير بن العوام فى ذكر سبب نزول الآية نحو ما تقدّم مطوّلا . وأخرج ابن اسحق وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (بل لله الأمر جميعا) لايصنع من ذلك الا مايشاء ولم يكن ليفعل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (أفلم ييأس) يقول : يعلم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ من طريق أخرى عنه نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى العالية أفلم ييأس قال : قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا ولو شاء الله لهدى الناس جميعا . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (تصيبهم بما صنعوا قارعة) قال السرايا . وأخرج الطيالسى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عنه نحوه ، وزاد أوتحل قريبا من دارهم قال : أنت يامحمد حتى يأتى وعدالله قال : فتح مكة . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (قارعة) قال : نكبة . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفى عنه قارعة قال : عذاب من السماء ، أوتحل قريبا من دارهم : يعنى نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله اياهم . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضا فى قوله (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) قال يعنى بذلك نفسه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء فى الآية قال : الله تعالى قائم بالقسط والعدل على كل نفس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (أم بظاهر من القول) قال : الظاهر من القول هو الباطل . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله (مثل الجنة) قال : نعت الجنة ، ليس للجنة مثل . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابراهيم التيمى فى قوله : أكلها دائم قال : لذاتها دائمة فى أفواههم .

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ * وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ *

اختلف المفسرون فى تفسير الكتاب المذكور فقيل : هو التوراة والانجيل ، والذين يفرحون بما أنزل الى الى رسول الله ﷺ هم من أسلم من اليهود والنصارى ، وقيل الذين يفرحون هم أهل الكتابين لكون ذلك

موافقا لما فى كتبهم مصدّقا له ، فعلى الأوّل يكون المراد بقوله (ومن الأحزاب من ينكر بعضه) من لم يسلم من اليهود والنصارى ، وعلى الثانى يكون المراد به المشركين من أهل مكة ومن عمائلهم ، أو يكون المراد به البعض من أهل الكتابين : أى من أحزابهما ، فانهم أنكروه لما يشتمل عليه من كونه ناسخا لشرائعهم فيتوجه فرح من فرح به منهم الى ماهو موافق لما فى الكتابين ، وانكار من أنكر منهم الى ماخالفهما ، وقيل المراد بالكتاب القرآن ، والمراد بمن يفرح به المسلمون ، والمراد بالأحزاب المتحزبون على رسول الله ﷺ من المشركين واليهود والنصارى ، والمراد بالبعض الذى أنكروه من خالف مايعتقدونه على اختلاف اعتقادهم * واعترض على هذا بأن فرح المسلمين بنزول القرآن معلوم فلا فائدة فى ذكره * وأجيب عنه بأن المراد زيادة الفرح والاستبشار . وقال كثير من المفسرين ان عبدالله بن سلام والذين آمنوا معه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن فى القرآن مع كثرة ذكره فى التوراة ، فأنزل الله (قل ادعوا الله أوادعوا الرحمن) ففرحوا بذلك ، ثم لما بين مايحصل بنزول القرآن من الفرح للبعض والانكار للبعض صرح بما عليه رسول الله ﷺ ، وأمره أن يقول لهم ذلك ، فقال (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولاأشرك به) أى لاأشرك به بوجه من الوجوه : أى قل لهم يامحمد الزاما للحجة ورداً للانكار انما أمرت فيما أنزل الىّ بعبادة الله وتوحيده ، وهذا أمر اتفقت عليه الشرائع وتطابقت على عدم انكاره جميع الملل المقتدية بالرسل ، وقد اتفق القراء على نصب ولا أشرك به عطفا على أعبد . وقرأ أبو خليد بالرفع على الاستئناف ، وروى هذه القراءة عن نافع (اليه أدعوا) أى إلى الله لا إلى غيره أو إلى ماأمرت به وهو عبادة الله وحده ، والأوّل أولى لقوله (واليه مآب) فان الضمير لله سبحانه : أى اليه وحده : لاإلى غيره مرجعى ، ثم ذكر بعض فضائل القرآن ، وأوعد على الاعراض عن اتباعه مع التعرّض لردّ ما أنكروه من اشتماله على نسخ بعض شرائعهم ، فقال (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) أى مثل ذلك الانزال البديع أنزلنا القرآن مشتملا على أصول الشرائع وفروعها ، وقيل المعنى : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان العرب ونريد بالحكم مافيه من الأحكام أو حكمة عربية مترجمة بلسان العرب ، وانتصاب حكما على الحال (ولئن اتبعت أهواءهم) التى يطلبون منك موافقتهم عليها كالاستمرار منك على التوجه الى قبلتهم وعدم مخالفتك لشىء مما يعتقدونه (بعد ماجاءك من العلم) الذى علمك الله إياه (مالك من الله) أى من جنابه (من ولىّ) يلى أمرك وينصرك (ولا واق) يقيك من عذابه ، والخطاب لرسول الله ﷺ تعريض لأمته ، واللام فى ولئن اتبعت هى الموطئة للقسم ، ومالك سادّ مسدّ جواب القسم والشرط (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) أى ان الرسل الذين أرسلناهم قبلك هم من جنس البشر لهم أزواج من النساء ولهم ذرية توالدوا منهم ومن أزواجهم ، ولم نرسل الرسل من الملائكة الذين لايتزوّجون ولا يكون لهم ذرية * وفى هذا ردّ على من كان ينكر على رسول الله ﷺ تزوّجه بالنساء : أى أن هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فمابالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه ؟ (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا باذن الله) أى لم يكن لرسول من الرسل أن يأتى بآية من الآيات ، ومن جملتها مااقترحه عليه الكفار إلا باذن الله سبحانه * وفيه ردّ على الكفار حيث اقترحوا على رسول الله ﷺ من الآيات مااقترحوا مما سبق ذكره (لكل أجل كتاب) أى لكل أمر مما قضاه الله ، أو لكل وقت من الأوقات التى قضى الله بوقوع أمر فيها كتاب عند الله يكتبه على عباده ويحكم به فيهم . وقال الفراء فيه تقديم وتأخير * والمعنى : لكل كتاب أجل : أى لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل ووقت معلوم كقوله سبحانه ـ لكل نبأ مستقرّ ـ وليس الأمر على حسب ارادة الكفار واقتراحاتهم : بل على حسب ما يشاؤه ويختاره (يمحوالله مايشاء

ويثبت) أى يمحو من ذلك الكتاب ويثبت مايشاء منه ، يقال محوت الكتاب محوا إذا أذهبت أثره . قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويثبت بالتخفيف . وقرأ الباقون بالتشديد ، واختارهذه القراءة أبوحاتم وأبوعبيد ، وظاهر النظم القرآنى العموم فى كل شىء مما فى الكتاب فيمحو مايشاء محوه من شقاوة أوسعادة أو رزق أوعمر أوخير أوشر ، ويبدل هذا بهذا ، ويجعل هذا مكان هذا ـ لايسأل عما يفعل وهم يسألون ـ وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وابن عباس وأبو وائل وقتادة والضحاك وابن جريج وغيرهم ، وقيل الآية خاصة بالسعادة والشقاوة ، وقيل يمحو مايشاء من ديوان الحفظة ، وهو ماليس فيه ثواب ولا عقاب ويثبت مافيه الثواب والعقاب ، وقيل يمحو مايشاء من الرزق ، وقيل يمحو من الأجل ، وقيل يمحو مايشاء من الشرائع فينسخه ويثبت مايشاء فلا ينسخه ، وقيل يمحو مايشاء من ذنوب عباده ويترك مايشاء ، وقيل يمحو مايشاء من الذنوب بالتوبة ويترك مايشاء منها مع عدم التوبة ، وقيل يمحو الآباء ويثبت الأبناء ، وقيل يمحو القمر ويثبت الشمس كقوله ـ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ـ وقيل يمحو مايشاء من الأرواح التى يقبضها حال النوم فيميت صاحبه ويثبت مايشاء فيرده إلى صاحبه ، وقيل يمحو مايشاء من القرون ويثبت مايشاء منها ، وقيل يمحو الدنيا ويثبت الآخرة ، وقيل غير ذلك مما لاحاجة إلى ذكره ، والأول أولى كما تفيده ما فى قوله : مايشاء من العموم مع تقدم ذكر الكتاب فى قوله (لكل أجل كتاب) ومع قوله (وعنده أم الكتاب) أى أصله ، وهو اللوح المحفوظ ، فالمراد من الآية أنه يمحو مايشاء مما فى اللوح المحفوظ فيكون كالعدم ، ويثبت مايشاء مما فيه فيجرى فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته ، وهذا لاينافى ماثبت عنه ﷺ من قوله « جف القلم » وذلك لأن المحو والاثبات هو من جملة ماقضاه الله سبحانه ، وقيل ان أم الكتاب هو علم الله تعالى بما خلق وماهو خالق .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (يفرحون بما أنزل اليك) قال أولئك أصحاب محمد ﷺ فرحوا بكتاب الله وبرسله وصدقوا به (ومن الأحزاب من ينكر بعضه) يعنى اليهود والنصارى والمجوس . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية : قال هؤلاء من آمن برسول الله ﷺ من أهل الكتاب يفرحون بذلك ، ومنهم من يؤمن به ، ومنهم من لايؤمن به (ومن الأحزاب من ينكر بعضه) قال الأحزاب : الأمم اليهود والنصارى والمجوس . وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (وإليه مآب) قال اليه مصير كل عبد . وأخرج ابن ماجه وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق قتادة عن الحسن عن سمرة قال : نهى رسول الله ﷺ عن التبتل . وقرأ قتادة (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن سعد بن هشام قال : دخلت على عائشة فقلت انى أريد أن أتبتل ؟ قالت لاتفعل : أما سمعت الله يقول (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) ، وقد ورد فى النهى عن التبتل ، والترغيب فى النكاح ماهو معروف . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : قالت قريش حين أنزل (ما كان لرسول أن يأتى بآية إلا باذن الله) مانراك يامحمد تملك من شىء ، ولقد فرغ من الأمر ، فأنزلت هذه الآية تخويفا لهم ووعيدا لهم (يمحوا الله مايشاء ويثبت) إنا إن شئنا أحدثناله من أمرنا شيئا ، ويحدث الله فى كل رمضان فيمحو مايشاء ويثبت من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن نصر وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله (يمحو الله مايشاء ويثبت) قال : ينزل الله فى كل شهر رمضان الى سماء الدنيا ، فيدبر أمر السنة الى السنة فيمحو مايشاء

ويثبت الا الشقاوة والسعادة والحياة والموت . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة ، فهو الذي يمحو ، والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله . وقد سبق له خير حتى يموت على طاعة الله . وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عنه أيضا في الآية قال : هما كتابان يمحو الله مايشاء من أحدهما ويثبت ، وعنده أم الكتاب : أي جملة الكتاب . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال « ان لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوت ، والدفتان لوحان : لله كل يوم ثلاث وستون لحظة يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . وإسناده عند ابن جرير : هكذا حدثنا محمد بن شهر بن عسكر حدثنا عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس فذكره . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ « ان الله ينزل في ثلاث ساعات يبقين من الليل فيفتح الذكر في الساعة الأولى منها ينظر في الذكر الذي لاينظر فيه أحد غيره فيمحو الله مايشاء ويثبت الحديث » . وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه باسناد . قال السيوطي ضعيف عن ابن عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول « يمحو الله مايشاء ويثبت إلا الشقاوة ، والسعادة ، والحياة والممات » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال « لاينفع الحذر من القدر ولكن الله يمحو بالدعاء مايشاء من القدر » . وأخرج ابن جرير عن قيس ابن عباد قال « العاشر من رجب وهو يوم يمحو الله فيه مايشاء » . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عنه نحوه بأطول منه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه قال وهو يطوف بالبيت « اللهمّ ان كنت كتبت عليّ شقوة أو ذنبا فامحه ، فانك تمحو ماتشاء وتثبت ، وعندك أمّ الكتاب ، فاجعله سعادة ومغفرة » . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني عن ابن مسعود نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في المدخل عن ابن عباس في قوله (يمحو الله مايشاء ويثبت) قال يبدّل الله مايشاء من القرآن فينسخه ، ويثبت مايشاء فلا يبدّله (وعنده أمّ الكتاب) يقول وجملة ذلك عنده في أمّ الكتاب : الناسخ والمنسوخ ، مايبدّل ، ومايثبت كل ذلك في كتاب . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (وعنده أمّ الكتاب) قال الذكر . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن يسار عن ابن عباس أنه سأل كعبا عن أمّ الكتاب ؟ فقال : علم الله ماهو خالق ، وما خلقه عاملون ، فقال لعلمه كن كتابا ، فكان كتابا .

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ۝

(وإما نرينك) ما زائدة وأصله : وان نرك (بعض الذى نعدهم) من العذاب كما وعدناهم بذلك بقولنا ـ لهم عذاب في الحياة الدنيا ـ ، وبقولنا ـ ولايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ـ ،

والمراد أريناك بعض ما نعدهم قبل موتك ، أوتوفيناك قبل إراءتك لذلك (فإنما عليك البلاغ) أى فليس عليك إلا تبليغ أحكام الرسالة ، ولا يلزمك حصول الاجابة منهم لما بلغته إليهم (وعلينا الحساب) أى محاسبتهم بأعمالهم ، ومجازاتهم عليها ، وليس ذلك عليك ، وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ و إخبار له أنه قد فعل ما أمره الله به ، وليس عليه غيره ، وأن من لم يجب دعوته ، و يصدق نبوته فالله سبحانه محاسبه على ما اجترم واجترأ عليه من ذلك (أولم يروا) يعنى أهل مكة ، والاستفهام للانكار : أى أولم ينظروا (أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) أى نأتى أرض الكفر كمكة ننقصها من أطرافها بالفتوح على المسلمين منها شيئا فشيئا . قال الزجاج : أعلم الله أن بيان ما وعد المشركين من قهرهم قد ظهر ، يقول : أولم يروا أنا فتحنا على المسلمين من الأرض ماقد تبين لهم ، فكيف لا يعتبرون ! وقيل ان معنى الآية : موت العلماء والصلحاء . قال القشيرى : وعلى هذا فالأطراف الأشراف ، وقد قال ابن الأعرابى الطرف : الرجل الكريم . قال القرطبى : وهذا القول بعيد ، لأن مقصود الآية : أنا أريناهم النقصان فى أمرهم ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز إلا أن يحمل على موت أحبار اليهود والنصارى ، وقيل المراد من الآية : خراب الأرض المعمورة حتى يكون العمران فى ناحية منها ، وقيل المراد بالآية : هلاك من هلك من الأمم ، وقيل المراد : نقص ثمرات الأرض ، وقيل المراد : جور ولاتها حتى تنقص (والله يحكم لامعقب لحكمه) أى يحكم مايشاء فى خلقه ، فيرفع هذا ، و يضع هذا ، ويحيى هذا ، و يميت هذا ، و يغنى هذا ، و يفقر هذا ، وقد حكم بعزة الاسلام وعلوه على الأديان ، وجملة (لامعقب لحكمه) فى محل نصب على الحال ، وقيل معترضة ، والمعقب : الذى يكر على الشيء فيبطله ، وحقيقته الذى يقفيه بالرد والابطال . قال الفراء : معناه لاراد لحكمه . قال والمعقب : الذى يتبع الشيء فيستدركه ، ولا يستدرك أحد عليه ، والمراد من الآية أنه لايتعقب أحد حكم الله سبحانه بنقص ولا تغيير (وهو سريع الحساب) فيجازى المحسن باحسانه ، والمسيء باساءته على السرعة (وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا) أى قد مكر الكفار الذين من قبل كفار مكة بمن أرسله الله اليهم من الرسل ، فكادوهم وكفروا بهم ، وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ حيث أخبره أن هذا ديدن الكفار من قديم الزمان مع رسل الله سبحانه ، ثم أخبره بأن مكرهم هذا كالعدم ، وأن المكر كله لله ، فقال (فلله المكر جميعا) لااعتداد بمكر غيره ، ثم فسر سبحانه هذا المكر الثابت له دون غيره ، فقال (يعلم ماتكسب كل نفس) من خير وشر فيجازيها على ذلك ، ومن علم ماتكسب كل نفس وأعد لها جزاءها كان المكر كله له ، لأنه يأتيهم من حيث لايشعرون . وقال الواحدى : ان مكر الماكرين مخلوق فلا يضر إلا بارادته ، وقيل المعنى : فلله جزاء مكر الماكرين (وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار) ، قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : الكافر بالافراد ، وقرأ الباقون : الكفار بالجمع : أى سيعلم جنس الكافر لمن العاقبة المحمودة من الفريقين فى دار الدنيا ، أوفى الدار الآخرة ، أوفيهما ، وقيل المراد بالكافر : أبوجهل (و يقول الذين كفروا لست مرسلا) أى يقول المشركون ، أوجميع الكفار : لست يامحمد مرسلا إلى الناس من الله ، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم ، فقال (قل كفى بالله شهيدا بينى و بينكم) فهو يعلم صحة رسالتى ، وصدق دعواتى ، و يعلم كذبكم (ومن عنده علم الكتاب) أى علم جنس الكتاب كالتوراة والانجيل ، فان أعلمهما العالمين بهما يعلمون صحة رسالة رسول الله ﷺ ، وقد أخبر بذلك من أسلم منهم كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسى وتميم الدارى ونحوهم ، وقد كان المشركون من العرب يسألون أهل الكتاب و يرجعون اليهم ، فأرشدهم الله سبحانه فى هذه الآية الى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك ، وقيل المراد بالكتاب القرآن ومن عنده

علم

علم منه هم المسلمون ، وقيل المراد من عنده علم اللوح المحفوظ ، وهو الله سبحانه ، واختار هـذا الزجاج وقال : لأن الأشبه أن الله لا يستشهد على خلقه بغيره .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله (ننقصها من أطرافها) قال ذهاب العلماء . وأخرج عبـد الرزاق وابن أبى شيبة ونعيم بن حماد فى الفتن وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله (ننقصها من أطرافها) قال موت علمائها وفقهائها وذهاب خيار أهلها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن مجاهـد فى تفسير الآية : قال موت العلماء . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية : قال أولم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعـد الأرض . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق أخرى عنه نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك فى الآية : قال يعنى أن نبىّ الله ﷺ كان ينتقص له ما حوله من الأرضين ينظرون إلى ذلك فلا يعتبرون . وقال الله فى سورة الأنبياء ــ نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ــ ، بل نبىّ الله وأصحابه هم الغالبون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية : قال نقصان أهلها وبركتها . وأخرج ابن المنذر عنه قال : إنما تنقص الأنفس والثمرات وأما الأرض فلا تنقص . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : أولم يروا الى القرية تخرب حتى يكون العمران فى ناحية منها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهـد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد (والله يحكم لا معقب لحكمه) ليس أحد يتعقب حكمه فيردّه كما يتعقب أهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيرده . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم على رسول الله ﷺ أسقف من اليمن فقال : رسول الله ﷺ هل تجدنى فى الانجيل ؟ قال لا ، فأنزل الله (قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) يقول عبدالله بن سلام . وأخرج ابن مردويه من طريق عبد الملك ابن عمير عن جندب قال : جاء عبد الله بن سلام حتى أخذ بعضادتى باب المسجد ، ثم قال : أنشدكم بالله أتعلمون أنى الذى أنزلت فىّ (ومن عنده علم الكتاب) ؟ قالوا : اللهم نعم . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق أخرى عنـه نحوه . وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس (ومن عنـده علم الكتاب) قال : هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى الآية قال : كان قوم من أهل الكتاب يشهدون بالحق و يعرفونه : منهم عبدالله بن سلام والجارود وتميم الدارى وسلمان الفارسى . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن مردويه وابن عدىّ بسند ضعيف عن ابن عمر أن النبى ﷺ قرأ (ومن عنده علم الكتاب) قال : ومن عنـد الله علم الكتاب . وأخرج أبو عبيـد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه كان يقرأ (ومن عِنْدِهِ عِلْمُ الكتاب) يقول : ومن عند الله علم الكتاب . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس فى ناسخه عن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله (ومن عنده علم الكتاب) أهو عبدالله بن سلام ، قال كيف وهذه السورة مكية ؟ وأخرج ابن المنذر عن الشعبى قال «ما نزل فى عبدالله بن سلام شىء من القرآن» . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (ومن عنده علم الكتاب) قال جبريل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال هو الله .

XV · 1-5

تفسير سورة ابراهيم

عليه السلام

اثنتان وخمسون آية . وقيل احدى وخمسون .

وهي مكية كما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس . وأخرجه ابن مردويه أيضا عن الزبير ، وحكاه القرطبي عن الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وقتادة إلا آيتين منها ، وقيل إلا ثلاث آيات نزلت فى الذين حاربوا رسول الله ﷺ وهى قوله ـ ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا ـ الى قوله ـ فان مصيركم إلى النار ـ . وأخرج النحاس فى ناسخه عن ابن عباس : قال هى مكية سوى آيتين منها نزلتا بالمدينة ، وهى ـ ألم تر الى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا ـ : الآيتين نزلتا فى قتلى بدر من المشركين .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ * وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ *

قوله (الر) قد تقدّم الكلام فى أمثال هذا ، و بيان قول من قال انه متشابه ، و بيان قول من قال انه غير متشابه ، وهو إما مبتدأ خبره كتاب ، أوخبر مبتدأ محذوف ، ويكون (كتاب) خبرا لمحذوف مقدر أو خبرا ثانيا لهـذا المبتدأ ، أو يكون الر مسرودا على نمط التعديد فلا محلّ له ، و (أنزلناه اليك) صفة لكتاب : أى أنزلنا الكتاب اليك يا محمد ، ومعنى (لتخرج الناس من الظلمات الى النور) لتخرجهم من ظلمات الكفر ، والجهل ، والضلالة الى نور الايمان ، والعلم ، والهداية : جعل الكفر بمنزلة الظلمات ، والايمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة ، واللام فى لتخرج للغرض والغاية ، والتعريف فى الناس للجنس ، والمعنى أنه ﷺ يخرج بالكتاب المشتمل على ماشرعه الله لهم من الشرائع مما كانوا فيه من الظلمات الى ماصاروا اليه من النور ، وقيل ان الظلمة مستعارة للبدعة ، والنور مستعار للسنة ، وقيل من الشك الى اليقين ، ولامانع من إرادة جميع هذه الأمور ، والباء فى (باذن ربهم) متعلقة بتخرج ، وأسند

الفعل إلى النبي ﷺ ، لأنه الداعي والهادي والمنذر . قال الزجاج : بما أذن لك من تعليمهم ودعائهم إلى الإيمان (الى صراط العزيز الحميد) هو بدل من الى النور بتكرير العامل كما يقع مثله كثيرا : أى لتخرج الناس من الظلمات الى صراط العزيز الحميد ، وهو طريقة الله الواضحة التى شرعها لعباده ، وأمرهم بالمصير اليها ، والدخول فيها ، ويجوز أن يكون مستأنفا بتقدير سؤال كأنه قيل ماهذا النور الذى أخرجهم اليه ؟ فقيل صراط العزيز الحميد ، والعزيز هو القادر الغالب ، والحميد هو الكامل فى استحقاق الحمد (الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض) . قرأ نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف : أى هو الله المتصف بملك مافى السموات ومافى الأرض . وقرأ الجمهور بالجرّ على أنه عطف بيان لكونه من الأعلام الغالبة ، فلا يصح وصف ماقبله به ، لأن العلم لايوصف به ، وقيل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى . وقال أبو عمرو ان قراءة الجر محمولة على التقديم والتأخير ، والتقدير الى صراط الله العزيز الحميد ، وكان يعقوب اذا وقف على الحميد رفع ، واذا وصل خفض . قال ابن الأنبارى : من خفض وقف على ومافى الأرض ، ثم توعد من لايعترف بربوبيته ، فقال (وويل للكافرين من عذاب شديد) قد تقدّم بيان معنى الويل ، وأصله النصب كسائر المصادر ، ثم رفع للدلالة على الثبات . قال الزجاج هى كلمة تقال للعذاب والهلكة ، فدعا سبحانه وتعالى بذلك على من لم يخرج من الكفار بهداية رسول الله ﷺ له بما أنزله الله عليه مما هو فيه من ظلمات الكفر الى نور الإيمان و(من عذاب شديد) متعلق بويل على معنى يولولون ويضجون من العذاب الشديد الذى صاروا فيه ، ثم وصف هؤلاء الكفار بقوله (الذين يستحبون الحياة الدنيا) أى يؤثرونها لمحبتهم لها (على الآخرة) الدائمة والنعيم الأبدى ، وقيل ان الموصول فى موضع رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف : أى هم الذين ، وقيل الموصول مبتدأ وخبره أولئك ، وجملة (ويصدّون) وكذلك ويبغون معطوفتان على يستحبون ، ومعنى الصدّ (عن سبيل الله) صرف الناس عنه ومنعهم منه ، وسبيل الله دينه الذى شرعه لعباده (ويبغونها عوجا) أى يطلبون لها زيغا وميلا لموافقة أهوائهم وقضاء حاجاتهم وأغراضهم ، والعوج بكسر العين فى المعانى وبفتح العين فى الأعيان . وقد سبق تحقيقه ، والأصل يبغون لها فحذف الحرف وأوصل الفعل الى الضمير ، واجتماع هذه الخصال نهاية الضلال ، ولهذا وصف ضلالهم بالبعد عن الحق ، فقال (أولئك فى ضلال بعيد) والاشارة الى الموصوفين بتلك الصفات القبيحة ، والبعد وان كان من صفة الضالّ لكنه يجوز وصف الضلال به مجازا لقصد المبالغة ، ثم لما منّ على المكلفين بانزال الكتاب وارسال الرسول ذكر من كمال تلك النعمة أن ذلك المرسل بلسان قومه ، فقال (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) أى متلبسا بلسانهم متكلما بلغتهم ، لأنه اذا كان كذلك فهم عنه المرسل اليهم مايقوله لهم وسهل عليهم ذلك ، بخلاف مالو كان بلسان غيرهم فانهم لايدرون مايقول ولايفهمون مايخاطبهم به حتى يتعلموا ذلك اللسان دهرا طويلا ومع ذلك فلا بدّ أن يصعب عليهم فهم ذلك بعض صعوبة ، ولهذا علل سبحانه ماامتنّ به على العباد بقوله (ليبين لهم) أى ليوضح لهم ماأمرهم الله به من الشريعة التى شرعها لهم ، ووحد اللسان لأن المراد بها اللغة * وقد قيل فى هذه الآية اشكال ، لأن النبى ﷺ أرسل الى الناس جميعا بل الى الجنّ والانس ، ولغاتهم متباينة ، وألسنهم مختلفة * وأجيب بأنه وان كان ﷺ مرسلا الى الثقلين كما مرّ لكن لما كان قومه العرب وكانوا أخصّ به وأقرب اليه كان ارساله بلسانهم أولى من ارساله بلسان غيرهم وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه حتى يصير فاهما له كفهمهم إياه ، ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل اليهم ، وبينه رسول الله لكل قوم بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف ، وفتحا لباب التنازع ، لأن كل أمة قد تدّعى من المعانى فى لسانها مالايعرفه غيرها ، وربما كان ذلك أيضا مفضيا الى التحريف

والتصحيف بسبب الدعاوى الباطلة التى يقع فيها المتعصبون ، وجملة (فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) مستأنفة : أى يضلّ من يشاء اضلاله ويهدى من يشاء هدايته . قال الفراء اذا ذكر فعل وبعده فعل آخر فان لم يكن النسق مشاكلا للأوّل فالرفع على الاستئناف هو الوجه ، فيكون معنى هذه الآية وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم تلك الشرائع باللغة التى ألفوها وفهموها ومع ذلك فان المضل والهادى هوالله عزّ وجلّ ، والبيان لايوجب حصول الهداية الااذاجعله الله سبحانه واسطة وسببا ، وتقديم الاضلال على الهداية ، لأنه متقدّم عليها ، اذ هو ابقاء على الأصل والهداية انشاء مالم يكن (وهوالعزيز) الذى لايغالبه مغالب (الحكيم) الذى يجرى أفعاله على مقتضى الحكمة ، ثم لما بين أن المقصود من بعثة نبينا ﷺ هواخراج الناس من الظلمات إلى النور أراد أن يبين أن الغرض من ارسال الأنبياء لم يكن الاذلك ، وخصّ موسى بالذكر لأن أمته أكثر الأمم المتقدمة على هذه الأمة المحمدية ، فقال (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) أى متلبسا بها والمراد بالآيات المعجزات التى لموسى ، ومعنى (أن أخرج) أى أخرج ، لأن الارسال فيه معنى القول ، ويجوز أن يكون التقدير بأن أخرج ، والمراد بقومه بنو إسرائيل بعد ملك فرعون (من الظلمات) من الكفر أومن الجهل الذى قالوا بسببه : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة (الى النور) الى الايمان أو الى العلم (وذكرهم بأيام الله) أى بوقائعه . قال ابن السكيت : العرب تقول الأيام فى معنى الوقائع ، يقال فلان عالم بأيام العرب : أى بوقائعها . وقال الزجاج : أى ذكرهم بنعم الله عليهم وبنقم أيام الله التى انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود * والمعنى عظهم بالترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد (ان فى ذلك) أى فى التذكير بأيام الله أو فى نفس أيام الله (لآيات) لدلالات عظيمة دالة على التوحيد وكمال القدرة (لكل صبار) أى كثير الصبر على المحن والمنح (شكور) كثير الشكر للنعم التى أنعم الله بها عليه ، وقيل المراد بذلك كل مؤمن ، وعبر عنه بالوصفين المذكورين لأنهما ملاك الايمان ، وقدّم الصبار على الشكور ، لكون الشكر عاقبة الصبر .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (لتخرج الناس من الظلمات الى النور) قال من الضلالة الى الهدى . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله (يستحبون) قال يختارون . وأخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : ان الله فضل محمدا على أهل السماء وعلى الأنبياء ، قيل مافضله على أهل السماء ؟ قال ان الله قال لأهل السماء ــ ومن يقل منهم انى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ــ وقال لمحمد ــ ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ــ فكتب له براءة من النار ، قيل فما فضله على الأنبياء ؟ قال ان الله يقول (وماأرسلنامن رسول إلابلسان قومه) وقال لمحمد ــ وماأرسلناك إلا كافة للناس ــ فأرسله الى الانس والجن . وأخرج ابن مردويه عن عثمان بن عفان (إلابلسان قومه) قال : نزل القرآن بلسان قريش . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد وعطاء وعبيد بن عمير فى قوله (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) قال بالآيات التسع : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا ، ويده ، والسنين ، ونقص من الثمرات . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس (أن أخرج قومك من الظلمات الى النور) قال من الضلالة الى الهدى . وأخرج النسائى وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى شعب الايمان عن أبىّ ابن كعب عن النبى ﷺ فى قوله (وذكرهم بأيام الله) قال بنعم الله وآلائه . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس وذكرهم بأيام الله قال نعم الله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد وذكرهم بأيام الله قال وعظهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى الآية قال : بوقائع الله فى القرون الأولى .

XV 6-15

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور) قال نعم العبد عبد إذا ابتلى صبر ، واذا أعطى شكر .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ *

قوله (وإذ قال موسى) الظرف متعلق بمحذوف هو اذكر : أى اذكر وقت قول موسى و (إذ نجاكم) متعلق باذكروا : أى اذكروا إنعامه عليكم وقت انجائه لكم من آل فرعون ، أو بالنعمة ، أو بمتعلق عليكم : أى مستقرة عليكم وقت انجائه ، وهو بدل اشتمال من النعمة مرادا بها الانعام أو العطية (يسومونكم سوء العذاب) أى يبغونكم ، يقال سامه ظلما : أى أولاه ظلما ، وأصل السوم الذهاب في طلب الشيء وسوء العذاب : مصدر ساء يسوء ، والمراد جنس العذاب السيء ، وهو استعبادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة ، وعطف (يذبحون أبناءكم) على (يسومونكم سوء العذاب) وان كان التذبيح من جنس سوء العذاب اخراجا له عن مرتبة العذاب المعتاد حتى كأنه جنس آخر لما فيه من الشدة ، ومع طرح الواو كما في الآية الأخرى يكون التذبيح تفسيرا لسوء العذاب (ويستحيون نساءكم) أى يتركونهن في الحياة لاهانتهن وإذلالهن (وفي ذلكم) المذكور من أفعالهم (بلاء من ربكم عظيم) أى ابتلاء لكم ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة مستوفى (واذ تأذن ربكم) تأذن بمعنى أذن ، قاله الفراء . قال في الكشاف : ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليست في أفعل ، كأنه قيل واذ أذن ربكم ايذانا بليغا تنتفي عنه الشكوك وتنزاح الشبه * والمعنى : واذ تأذن ربكم ، فقال (لئن شكرتم) أو أجرى تأذن مجرى قال ، لأنه ضرب من القول انتهى ، وهذا من قول موسى لقومه ، وهو معطوف على نعمة الله : أى اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم ، وقيل هو معطوف على قوله : اذ أنجاكم : أى اذكروا نعمة الله تعالى في هذين الوقتين ، فان هذا التأذن أيضا نعمة ، وقيل هو من قول الله سبحانه : أى واذكر يا محمد اذ تأذن ربكم .

وقرأ ابن مسعود واذ قال ربكم * والمعنى واحد كما تقدم ، واللام فى لئن شكرتم هى الموطئة للقسم ، وقوله (لأزيدنكم) سادّ مسدّ جوابى الشرط والقسم ، وكذا اللام فى (ولئن كفرتم) وقوله (إن عذابى لشديد) سادّ مسدّ الجوابين أيضا * والمعنى : لأن شكرتم انعامى عليكم بما ذكر لأزيدنكم نعمة الى نعمة تفضلا منى ، وقيل لأزيدنكم من طاعتى ، وقيل لأزيدنكم من الثواب ، والأوّل أظهر فالشك سبب المزيد ، ولئن كفرتم ذلك وجحدتموه ان عذابى لشديد ، فلابد أن يصيبكم منه مايصيب ، وقيل ان الجواب محذوف : أى ولئن كفرتم لأعذبنكم ، والمذكور تعليل للجواب المحذوف (وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا) أى ان تكفروا نعمته تعالى أنتم وجميع الخلق ولم تشكروها (فان الله) سبحانه (لغنى) عن شكركم لايحتاج اليه ولايلحقه بذلك نقص (حميد) أى مستوجب للحمد لذاته لكثرة انعامه ، وان لم تشكروه ، أو يحمده غيركم من الملائكة (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم) يحتمل أن يكون هذا خطابا من موسى لقومه ، فيكون داخلا تحت التذكير بأيام الله ، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه ابتداء خطابا لقوم موسى وتذكيرا لهم بالقرون الأولى وأخبارهم ومجىء رسل الله إليهم ، ويحتمل أنها ابتداء خطاب من الله سبحانه لقوم محمد صلى الله عليه وآله وسلم تحذيرا لهم عن مخالفته ، والنبأ : الخبر ، والجمع الأنباء . ومنه قول الشاعر :

ألم تأتيك والأنباء تنمى * بما لاقت لبون بنى زياد

و (قوم نوح) بدل من الموصول ، أو عطف بيان (وعاد وثمود والذين من بعدهم) أى من بعد هؤلاء المذكورين (لايعلمهم إلا الله) أى لايحصى عددهم ويحيط بهم علما إلا الله سبحانه ، والموصول مبتدأ وخبره لايعلمهم إلا الله ، والجملة معترضة أو يكون الموصول معطوفا على ماقبله ، ولايعلمهم إلا الله اعتراض ، وعدم العلم من غير الله إما أن يكون راجعا إلى صفاتهم وأحوالهم وأخلاقهم ومدد أعمارهم : أى هذه الأمور لايعلمها إلا الله ، ولايعلمها غيره ، أو يكون راجعا الى ذواتهم : أى أنه لايعلم ذوات أولئك الذين من بعدهم إلا الله سبحانه ، وجملة (جاءتهم رسلهم بالبينات) مستأنفة لبيان النبأ المذكور فى (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم) أى جاءتهم الرسل بالمعجزات الظاهرة وبالشرائع الواضحة (فردّوا أيديهم فى أفواههم) أى جعلوا أيدى أنفسهم فى أفواههم ليعضوها غيظا مما جاءت به الرسل كما فى قوله تعالى ــ عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ــ لأن الرسل جاءتهم بتسفيه أحلامهم وشتم أصنامهم ، وقيل ان المعنى أنهم أشاروا بأصابعهم الى أفواههم لما جاءتهم الرسل بالبينات : أى اسكتوا واتركوا هذا الذى جئتم به تكذيبا لهم وردّا لقولهم ، وقيل المعنى أنهم أشاروا الى ألسنتهم ومايصدر عنها من المقالة ، وهى قولهم (انا كفرنا بما أرسلتم به) أى لاجواب لكم سوى هذا الذى قلناه لكم بألسنتنا هذه ، وقيل وضعوا أيديهم على أفواههم استهزاء وتعجبا كما يفعله من غلبه الضحك من وضع يده على فيه ، وقيل المعنى ردّوا على الرسل قولهم وكذبوهم بأفواههم ، فالضمير الأوّل للرسل ، والثانى للكفار ، وقيل جعلوا أيديهم فى أفواه الرسل ردّا لقولهم ، فالضمير الأوّل على هذا للكفار ، والثانى للرسل ، وقيل معناه أومئوا إلى الرسل أن اسكتوا ، وقيل أخذوا أيدى الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم ، وقيل ان الأيدى هنا النعم : أى ردّوا نعم الرسل بأفواههم : أى بالنطق والتكذيب ، والمراد بالنعم هنا ماجاءوهم به من الشرائع . وقال أبوعبيدة : ونعم ماقال : هوضرب مثل : أى لم يؤمنوا ولم يجيبوا ، والعرب تقول للرجل اذا أمسك عن الجواب وسكت : قد ردّ يده فى فيه ، وهكذا قال الأخفش ، واعترض ذلك القتيبى ، فقال لم يسمع أحد من العرب يقول : ردّ يده فى فيه اذا ترك ماأمر به ، وانما المعنى عضوا على الأيدى حنقا وغيظا ، كقول الشاعر :

يردّ

يردن فى فيه غيظ الحسود * حتى يعض علىّ الا كفا

وهذا هو القول الذى قدّمناه على جميع هذه الأقوال ، ومنه قول الشاعر :

لوأن سلمى أبصرت تخدّ مدى * عضت من الوجد بأطراف اليد

وهو أقرب التفاسير للآية إن لم يصح عن العرب ماذكره أبو عبيدة والاخفش فان صح ماذكراه فتفسير الآية به أقرب (وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم به) أى قال الكفار للرسل انا كفرنا بما أرسلتم به من البينات على زعمكم (وانا لفى شك مما تدعوننا اليه) أى فى شك عظيم مما تدعوننا اليه من الايمان بالله وحده وترك ماسواه (مريب) أى موجب للريب ، يقال أربته اذا فعلت أمرا أوجب ريبة وشكا والريب قلق النفس وعدم سكونها * وقد قيل كيف صرحوا بالكفر ، ثم بنوا أمرهم على الشك * وأجيب بأنهم أرادوا انا كافرون برسالتكم وان نزلنا عن هذا المقام ، فلا أقلّ من أنا نشك فى صحة نبوّتكم ، ومع كمال الشك لامطمع فى الاعتراف بنبوّتكم ، وجملة (قالت رسلهم أفى الله شك) مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل فماذا قالت لهم الرسل ؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ : أى أفى وحدانيته سبحانه شك ، وهى فى غاية الوضوح والجلاء ، ثم ان الرسل ذكروا بعد انكارهم على الكفار مايؤكد ذلك الانكار من الشواهد الدالة على عدم الشك فى وجوده سبحانه ووحدانيته . فقالوا (فاطر السموات والأرض) أى خالقهما ومخترعهما ومبدعهما وموجدهما بعد العدم (يدعوكم) الى الايمان به وتوحيده (ليغفر لكم من ذنوبكم) قال أبو عبيدة من زائدة ، ووجه ذلك قوله فى موضع آخر – ان الله يغفر الذنوب جميعا – وقال سيبويه هى للتبعيض ، ويجوز أن يذكر البعض ويراد منه الجميع ، وقيل التبعيض على حقيقته ولايلزم من غفران جميع الذنوب لأمة محمد ﷺ غفران جميعها لغيرهم ، وبهذه الآية احتج من جوّز زيادة من فى الاثبات ، وقيل من للبدل ، وليست بزائدة ولا تبعيضية : أى لتكون المغفرة بدلا من الذنوب (ويؤخركم الى أجل مسمى) أى الى وقت مسمى عنده سبحانه ، وهو الموت فلا يعذبكم فى الدنيا (قالوا ان أنتم إلا بشر مثلنا) أى ماأنتم الابشر مثلنا فى الهيئة والصورة تأكلون وتشربون كما نأكل ونشرب ولستم ملائكة (تريدون أن تصدونا) وصفوهم بالبشر أوّلا ، ثم بارادة الصدّ لهم عما كان يعبد آباؤهم ثانيا : أى تريدون أن تصرفونا عن معبودات آبائنا من الأصنام ونحوها (فأتونا) ان كنتم صادقين بأنكم مرسلون من عند الله (بسلطان مبين) أى بحجة ظاهرة تدل على صحة ماتدّعونه ، وقد جاءوهم بالسلطان المبين والحجة الظاهرة ، ولكن هذانوع من تعنتاتهم ، ولون من تلوناتهم (قالت لهم رسلهم ان نحن إلا بشر مثلكم) أى مانحن فى الصورة والهيئة الا بشر مثلكم كما قلتم (ولكنّ الله يمنّ على من يشاء من عباده) أى يتفضل على من يشاء منهم بالنبوّة ، وقيل بالتوفيق والهداية (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان) أى ماصح ولااستقام لنا أن نأتيكم بحجة من الحجج (الابإذن الله) أى إلا بمشيئته وليس ذلك فى قدرتنا ، قيل المراد بالسلطان هنا هو مايطلبه الكفار من الآيات على سبيل التعنت ، وقيل أعم من ذلك فان ماشاءه الله كان ومالم يشأه لم يكن (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى عليه وحده ، وهذا أمر منهم للمؤمنين بالتوكل على الله دون من عداه ، وكأن الرسل قصدوا بهذا الأمر للمؤمنين الأمر لهم أنفسهم قصدا أوّليا ، ولهذا قالوا (ومالنا ألا نتوكل على الله) أى وأى عذر لنا فى ألا نتوكل عليه سبحانه (وقدهدانا سبلنا) أى والحال أنه قد فعل بنا مايوجب توكلنا عليه من هدايتنا الى الطريق الموصل الى رحمته وهو ماشرعه لعباده وأوجب عليهم سلوكه (ولنصبرنّ على ما آذيتمونا) بما يقع منكم من التكذيب لنا والاقتراحات الباطلة (وعلى الله) وحده دون من عداه (فليتوكل المتوكلون) قيل المراد بالتوكل الأوّل استحداثه ، وبهذا السعى فى بقائه وثبوته ،

٤٧٢ .١٠١٦

وقيل معنى الأول ان الذين يطلبون المعجزات يجب عليهم أن يتوكلوا فى حصولها على الله سبحانه لا علينا فان شاء سبحانه أظهرها وان شاء لم يظهرها ، ومعنى الثانى ابداء التوكل على الله فى دفع شر الكفار وسفاهتهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى قوله (واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم) قال : أخبرهم موسى عن ربه أنهم ان شكروا النعمة زادهم من فضله وأوسع لهم من الرزق وأظهرهم على العالم . وأخرج ابن جرير عن الحسن لأزيدنكم قال : من طاعتى . وأخرج ابن المبارك وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب عن علىّ بن صالح مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سفيان الثورى فى الآية قال : لاتذهب أنفسكم الى الدنيا فانها أهون عند الله من ذلك ، ولكن يقول لئن شكرتم لأزيدنكم من طاعتى . وأخرج أحمد والبيهقى عن أنس قال « أتى النبىّ ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها وأتاه آخر فأمر له بتمرة فقبلها ، وقال تمرة من رسول الله ، فقال للجارية اذهبى الى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهما التى عندها » وفى إسناد أحمد عمارة بن زاذان ، وثقه أحمد و يعقوب بن سفيان وابن حبان ، وقال ابن معين صالح ، وقال أبو زرعة لابأس به ، وقال أبو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به ليس بالمتين ، وقال البخارى ربما يضطرب فى حديثه ، وقال أحمد روى عنه أحاديث منكرة ، وقال أبو داود ليس بذاك ، وضعفه الدارقطنى ، وقال ابن عدىّ لابأس به . وأخرج البخارى فى تاريخه والضياء المقدسى فى المختارة عن أنس قال : قال رسول الله من ألهم خمسة لم يحرم خمسة وفيها ومن ألهم الشكر لم يحرم الزيادة . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأغرّ أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ أربع من أعطيهن لم يمنع من الله أربعا ، وفيها ومن أعطى الشكر لم يمنع الزيادة ، ولاوجه لتقييد الزيادة بالزيادة فى الطاعة بل الظاهر من الآية العموم كما يفيده جعل الزيادة جزاء للشكر فمن شكر الله على مارزقه وسع الله عليه فى رزقه ومن شكر الله على ماأقدره عليه من طاعته زاده من طاعته ، ومن شكره على ما أنعم عليه به من الصحة زاده الله صحة ونحو ذلك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود أنه كان يقرأ (والذين من بعدهم لايعلمهم الاالله) ويقول : كذب النسابون . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن عمرو بن ميمون مثله . وأخرج ابن الضريس عن أبى مجلز قال : قال رجل لعلىّ بن أبى طالب أنا أنسب الناس قال انك لاتنسب الناس ، فقال بلى ، فقال له علىّ أرأيت قوله ـ وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ـ قال أنا أنسب ذلك الكثير ، قال أرأيت قوله (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم الا الله) فسكت . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير قال : ماوجدنا أحدا يعرف ماوراء معدّ بن عدنان . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن عباس قال : بين عدنان واسماعيل ثلاثون أبا لايعرفون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (فردّوا أيديهم فى أفواههم) قال : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم الى أفواههم (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب) يقولون لانصدقكم فيما جئتم به فان عندنا فيه شكا قويا . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وأبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه عن ابن مسعود فردّوا أيديهم فى أفواههم قال : عضوا عليها وفى لفظ على أناملهم غيظا على رسلهم .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ *

واستفتحوا

وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ * مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ *

قوله (وقال الذين كفروا) هؤلاء القائلون هم طائفة من المتمرّدين عن اجابة الرسل ، واللام فى لنخرجنكم هى الموطئة للقسم : أى والله لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا ، لم يقنعوا بردهم لما جاءت به الرسل وعدم امتثالهم لما دعوهم اليه حتى اجترءوا عليهم بهذا ، وخيروهم بين الخروج من أرضهم ، أو العود فى ملتهم الكفرية ، وقد قيل ان أو فى أو لتعودن بمعنى حتى أو ، يعنى الا أن تعودوا ، كما قاله بعض المفسرين ، وردّ بأنه لا حاجة الى ذلك بل أو على بابها للتخيير بين أحد الأمرين ، وقد تقدّم تفسير الآية فى سورة الأعراف . قيل والعود هنا بمعنى الصيرورة لعصمة الأنبياء عن أن يكونوا على ملة الكفر قبل النبوّة و بعدها ، وقيل ان الخطاب للرسل ولمن آمن بهم فغلب الرسل على أتباعهم (فأوحى اليهم ربهم) أى الى الرسل (لنهلكنّ الظالمين) أى قال لهم لنهلكنّ الظالمين (ولنسكننكم الأرض) أى أرض هؤلاء الكفار الذين توعدوكم بما توعدوا من الاخراج أو العود ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه ـ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ـ ، وقال ـ وأورثكم أرضهم وديارهم ـ . وقرئ ليهلكنّ وليسكننكم بالتحتية فى الفعلين اعتبارا بقوله فأوحى ، والاشارة بقوله (ذلك) الى ما تقدّم من اهلاك الظالمين واسكان المؤمنين فى مساكنهم (لمن خاف مقامى) أى موقفى ، وذلك يوم الحساب ، فانه موقف الله سبحانه ، والمقام بفتح الميم ، مكان الاقامة ، وبالضم فعل الاقامة وقيل : ان المقام هنا مصدر بمعنى القيام : أى لمن خاف قيامى عليه ومراقبتى له كقوله تعالى ـ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ـ ، وقال الأخفش : ذلك لمن خاف مقامى : أى عذابى (وخاف وعيد) أى خاف وعيدى بالعذاب ، وقيل بالقرآن وزواجره ، وقيل هو نفس العذاب ، والوعيد الاسم من الوعد (واستفتحوا) معطوف على أوحى * والمعنى أنهم استنصروا بالله على أعدائهم ، أو سألوا الله القضاء بينهم ، من الفتاحة وهى الحكومة ، ومن المعنى الأول قوله ـ ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ـ أى ان تستنصروا فقد جاءكم النصر ، ومن المعنى الثانى قوله ـ ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحقّ ـ أى احكم ، والضمير فى استفتحوا للرسل ، وقيل للكفار ، وقيل للفريقين (وخاب كلّ جبار عنيد) الجبار المتكبر الذى لا يرى لأحد عليه حقا ، هكذا حكاه النحاس عن أهل اللغة ، والعنيد المعاند للحقّ والمجانب له ، وهو مأخوذ من العند ، وهو الناحية : أى أخذ فى ناحية معرضا . قال الشاعر :

اذا نزلت فاجعلونى وسطا * انى كبير لا أطيق العندا

قال الزجاج : العنيد الذى يعدل عن القصد ، و بمثله قال الهروى ، وقال أبو عبيد : هو الذى عند و بغى ، وقال ابن كيسان : هو الشامخ بأنفه ، وقيل المراد به العاصى ، وقيل الذى أبى أن يقول لا إله إلا الله ، ومعنى الآية أنه خسر وهلك من كان متصفا بهذه الصفة (من ورائه جهنم) أى من بعده جهنم ، والمراد بعد هلاكه على أن وراء هاهنا بمعنى بعد ، ومنه قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب

أى ليس بعد الله ، ومثله قوله (ومن ورائه عذاب غليظ) أى من بعده . كذا قال الفراء ، وقيل من

ورائه : أى من أمامه قال أبو عبيدة : هو من أسماء الاضداد ، لأن أحدهما ينقلب الى الآخر ، ومنه قول الشاعر :

ومن ورائك يوم أنت بالغه * لاحاضر معجز عنه ولابادى

وقال آخر أترجو بنو مروان سمعى وطاعتى * وقومى تميم والفلاة ورائيا

أى أمامى ، ومنه قوله تعالى ـ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ـ أى أمامهم ، و بقول أبى عبيدة هذا قال قطرب . وقال الأخفش : هو كما يقال : هذا الأمر من ورائك : أى سوف يأتيك ، وأنا من وراء فلان : أى فى طلبه . وقال النحاس : من ورائه : أى من أمامه ، وليس من الاضداد ، ولكنه من توارى : أى استتر فصارت جهنم من ورائه ، لأنها لاترى ، وحكى مثله ابن الأنبارى (و يسقى من ماء صديد) معطوف على مقدّر جوابا عن سؤال سائل ، كأنه قيل فماذا يكون إذن ؟ قيل يلقى فيها و يسقى ، والصديد مايسيل من جلود أهل النار واشتقاقه من الصدّ ، لأنه يصدّ الناظرين عن رؤيته ، وهو دم مختلط بقيح ، والصديد صفة لماء ، وقيل عطف بيان منه (ويتجرعه) فى محل جر على أنه صفة لماء ، أو فى محل نصب على أنه حال ، وقيل هو استئناف مبنىّ على سؤال ، والتجرع التحسى : أى يتحساه مرة بعد مرة لامرّة واحدة . لمرارته وحرارته (ولايكاد يسيغه) أى يبتلعه ، يقال ساغ الشراب فى الحلق يسوغ سوغا : اذا كان سهلا * والمعنى ولا يقارب إساغته ، فكيف تكون الاساغة ؟ بل يغص به فيطول عذابه بالعطش تارة ، و بشر به على هذه الحال أخرى ، وقيل انه يسيغه بعد شدة وابطاء ، كقوله ـ وما كادوا يفعلون ـ أى يفعلون بعد ابطاء ، كما يدلّ عليه قوله تعالى فى آية أخرى ـ يصهر به مافى بطونهم ـ (و يأتيه الموت من كلّ مكان) أى تأتيه أسباب الموت من كلّ جهة من الجهات ، أو من كلّ موضع من مواضع بدنه ، وقال الأخفش : المراد بالموت هنا البلايا التى تصيب الكافر فى النار ، سماها موتا لشدّتها (وماهو بميت) أى والحال انه لم يمت حقيقة فيستريح ، وقيل تعلق نفسه فى حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت . ولاترجع الى مكانها من جوفه فيحيا ، ومثله قوله تعالى ـ لايموت فيها ولايحيا ـ ، وقيل معنى وماهو بميت لتطاول شدائد الموت به ، وامتداد سكراته عليه ، والأولى تفسير الآية بعدم الموت حقيقة لما ذكرنا من قوله سبحانه ـ لايموت فيها ولايحيا ـ * وقوله ـ لايقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ـ (ومن ورائه عذاب غليظ) أى من أمامه ، أو من بعده عذاب شديد ، وقيل هو الخلود ، وقيل حبس النفس (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد) قال سيبويه : مثل مرتفع على الابتداء ، والخبر مقدّر : أى فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا و به قال الزجاج ، وقال الفراء : التقدير مثل أعمال الذين كفروا فحذف المضاف . وروى عنه أنه قال : بالغاء مثل ، والتقدير الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد ، وقيل هو : أعنى مثل مبتدأ وخبره أعمالهم كرماد على أن معناه الصفة ، فكأنه قال صفتهم العجيبة أعمالهم كرماد * والمعنى أن أعمالهم باطلة غير مقبولة ، والرماد مايبقى بعد احتراق الشيء * ضرب الله سبحانه هذه الآية مثلا لأعمال الكفار فى أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد فى يوم عاصف * ومعنى اشتدّت به الريح حملته بشدّة وسرعة ، والعصف شدّة الريح ، وصف به زمانها مبالغة كما يقال : يوم حار و يوم بارد ، والبرد والحرّ فيهما ، لامنهما (لايقدرون مما كسبوا على شيء) أى لايقدر الكفار مما كسبوا من تلك الأعمال الباطلة على شيء منها ، ولايرون له أثرا فى الآخرة يجازون به و يثابون عليه ، بل جميع ماعملوه فى الدنيا باطل ذاهب كذهاب الريح بالرماد عند شدة هبوبها ، والاشارة بقوله (ذلك) إلى مادلّ عليه التمثيل : أى هذا البطلان لأعمالهم ، وذهاب أثرها (هو الضلال البعيد) عن طريق الحقّ المخالف لمنهج الصواب ، لما كان هذا خسرانا لايمكن تداركه سماه بعيدا .

وقد

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (لنخرجنكم من أرضنا) الآية قال : كانت الرسل والمؤمنون يستضعفهم قومهم ويقهرونهم ويكذبونهم ويدعونهم الى أن يعودوا في ملتهم ، فأبى الله لرسوله والمؤمنين أن يعودوا في ملة الكفر ، وأمرهم أن يتوكلوا على الله ، وأمرهم أن يستفتحوا على الجبابرة ، ووعدهم أن يسكنهم الأرض من بعدهم فأنجز لهم ماوعدهم ، واستفتحوا كما أمرهم الله أن يستفتحوا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : وعدهم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة ، فبين الله من يسكنها من عباده فقال ـ ولمن خاف مقام ربه جنتان ـ وان لله مقاما هو قائمه ، وان أهل الايمان خافوا ذاك المقام فنصبوا ودأبوا الليل والنهار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (واستفتحوا) قال : للرسل كلها يقول استنصروا ، وفي قوله : وخاب كل جبار عنيد قال معاند للحق مجانب له . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : استنصرت الرسل على قومها وخاب كل جبار عنيد يقول عنيد عن الحق معرض عنه أبى أن يقول لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير عن ابراهيم النخعي قال : العنيد الناكب عن الحق . وأخرج أحمد والترمذي والنسائي وابن أبي الدنيا وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو نعيم في الحلية وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله : ويسقى من ماء صديد يتجرعه قال : يقرب إليه فيتكرهه ، فاذا دنا منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فاذا شرب به قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره ، يقول الله تعالى ـ وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ـ وقال ـ وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ـ . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس في قوله من ماء صديد قال : يسيل من جلد الكافر ولحمه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : من ماء صديد هو القيح والدم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ويأتيه الموت من كل مكان قال : أنواع العذاب ، وليس منها نوع الا الموت يأتيه منه لو كان يموت ، ولكنه لا يموت ، لأن الله يقول ـ لا يقضى عليهم فيموتوا ـ . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران ويأتيه الموت من كل مكان قال : من كل عظم وعرق وعصب . وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن محمد بن كعب نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابراهيم التيمي قال : من موضع كل شعرة في جسده ، ومن ورائه عذاب غليظ قال : الخلود وأخرج ابن المنذر عن الفضيل بن عياض : ومن ورائه عذاب غليظ قال : حبس الأنفاس . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (مثل الذين كفروا بربهم) الآية قال : مثل الذين عبدوا غيره فأعمالهم يوم القيامة كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون على شيء من أعمالهم ينفعهم كما لا يقدر على الرماد اذا أرسل في يوم عاصف .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ * وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفٰؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَيٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنٰكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ * وَقَالَ الشَّيْطٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا

أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ *

قوله (ألم تر أنّ الله خلق السموات والأرض بالحقّ) الرؤية هنا هي القلبية ، والخطاب لرسول الله ﷺ تعريضا لأمّته ، أو الخطاب لكلّ من يصلح له . وقرأ حمزة والكسائي خالق السموات * ومعنى بالحقّ بالوجه الصحيح الذي يحقّ أن يخلقها عليه ليستدلّ بها على كال قدرته ، ثم بين كال قدرته سبحانه واستغنائه عن كل واحد من خلقه ، فقال (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) فيعدم الموجودين ويوجد المعدومين ويهلك العصاة ويأتى بمن يطيعه من خلقه ، والمقام يحتمل أن يكون هذا الخلق الجديد من نوع الانسان ، ويحتمل أن يكون من نوع آخر (وماذلك على الله بعزيز) أى بممتنع ، لأنه سبحانه قادر على كلّ شىء ، وفيه أن الله تعالى هو الحقيق بأن يرجى ثوابه ويخاف عقابه ، فلذلك أتبعه بذكر أحوال الآخرة ، فقال (وبرزوا لله جميعا) أى برزوا من قبورهم يوم القيامة ، والبروز الظهور ، والبراز المكان الواسع لظهوره ، ومنه امرأة برزة : أى تظهر للرجال ، فمعنى برزوا ظهروا من قبورهم ، وعبر بالماضى عن المستقبل تنبيها على تحقق وقوعه كما هو مقرّر فى علم المعانى ، وانما قال : وبرزوا لله مع كونه سبحانه عالما بهم لاتخفى عليه خافية من أحوالهم برزوا أو لم يبرزوا ، لأنهم كانوا يستترون عن العيون عن فعلهم للمعاصى ويظنون أن ذلك يخفى على الله تعالى ، فالكلام خارج على مايعتقدونه (فقال الضعفاء للذين استكبروا) أى قال الأتباع الضعفاء للرؤساء الأقوياء المتكبرين لما هم فيه من الرياسة (انا كنا لكم تبعا) أى فى الدنيا ، فكذبنا الرسل وكفرنا بالله متابعة لكم ، والتبع جمع تابع ، أو مصدر وصف به للمبالغة ، أو على تقدير ذوى تبع ، قال الزجاج : جمعهم فى حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع ، فقال الضعفاء للذين استكبروا من أكابرهم عن عبادة الله انا كنا لكم تبعا جمع تابع ، مثل خادم وخدم وحارس وحرس وراصد ورصد (فهل أنتم مغنون عنا) أى دافعون عنا من عذاب الله من شىء ، من الأولى للبيان ، والثانية للتبعيض : أى بعض الشىء الذى هو عذاب الله ، يقال أغنى عنه اذا دفع عنه الأذى ، وأغناه اذا أوصل اليه النفع (قالوا لو هدانا الله لهديناكم) أى قال المستكبرون مجيبين عن قول المستضعفين ، والجملة مستأنفة بتقدير سؤال كأنه قيل كيف أجابوا ؟ أى لوهدانا الله الى الايمان لهديناكم اليه ، وقيل لوهدانا الله الى طريق الجنة لهديناكم اليها ، وقيل : لونجانا الله من العذاب لنجيناكم منه (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص) أى مستو علينا الجزع والصبر ، والهمزة وأم لتأكيد التسوية كما فى قوله ــ سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم ــ (مالنا من محيص) أى من منجا ومهرب من العذاب ، يقال : حاص فلان عن كذا : أى فرّ وزاغ يحيص حيصا وحيوصا وحيصانا * والمعنى ما لنا وجه نتباعد به عن النار ، ويجوز أن يكون هذا من كلام الفريقين ، وان كان الظاهر أنه من كلام المستكبرين (وقال الشيطان لما قضى الأمر) أى قال للفريقين هذه المقالة ، ومعنى لما قضى الأمر لما دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار على ما يأتى بيانه فى سورة مريم (ان الله وعدكم وعد الحق) وهو وعده سبحانه بالبعث والحساب ، ومجازاة المحسن باحسانه والمسىء باساءته (ووعدتكم فأخلفتكم) أى وعدتكم وعدا باطلا ، بأنه لابعث ولاحساب ولاجنة ولانار فأخلفتكم ما وعدتكم به من ذلك ، قال الفراء : وعد الحق هو من إضافة الشىء الى نفسه كقولهم : مسجد الجامع ، وقال البصريون

وعدكم

وعدكم وعد اليوم الحق (وما كان لى عليكم من سلطان) أى تسلط عليكم باظهار حجة على ماوعدتكم به وزينته لكم (إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) أى الا مجرّد دعائى لكم الى الغواية والضلال بلا حجة ولابرهان، ودعوته اياهم ليست من جنس السلطان حتى تستثنى منه، بل الاستثناء منقطع: أى لكن دعوتكم فاستجبتم لى: أى فسارعتم الى إجابتى، وقيل المراد بالسلطان هنا القهر: أى ما كان لى عليكم من قهر يضطركم الى إجابتى، وقيل هذا الاستثناء هو من باب * تحية بينهم ضرب وجيع * مبالغة فى نفيه للسلطان عن نفسه كأنه قال انما يكون لى عليكم سلطان إذا كان مجرّد الدعاء من السلطان، وليس منه قطعا (فلا تلومونى) بما وقعتم فيه بسبب وعدى لكم بالباطل و إخلافى لهذا الموعد (ولوموا أنفسكم) باستجابتكم لى بمجرّد الدعوة التى لاسلطان عليها ولاحجة، فان من قبل المواعيد الباطلة والدعاوى الزائغة عن طريق الحق فعلى نفسه جنى، ولمارنه قطع، ولاسيا ودعوتى هذه الباطلة وموعدى الفاسد وقعا معارضين لوعد الله لكم وعد الحق ودعوته لكم الى دار السلام مع قيام الحجة التى لاتخفى على عاقل ولاتلتبس الا على مخذول * وقريب من هذا من يقتدى بآراء الرجال المخالفة لما فى كتاب الله سبحانه، ولما فى سنة رسوله ﷺ و يؤثرها على مافيهما، فانه قد استجاب للباطل الذى لم تقم عليه حجة، ولادلّ عليه برهان، وترك الحجة والبرهان خلف ظهره كما يفعله كثير من المقتدين بالرجال المتسكين طريق الحق بسوء اختيارهم: اللهم غفرا (ماأنا بمصرخكم وماأنتم بمصرخىّ) يقال صرخ فلان اذا استغاث يصرخ صراخا وصرخا، واستصرخ بمعنى صرخ، والمصرخ المغيث، والمستصرخ المستغيث، يقال استصرخنى فأصرخته، والصريخ: صوت المستصرخ، والصريخ أيضا الصارخ: وهو المغيث، والمستغيث: وهو من أسماء الاضداد كما فى الصحاح. قال ابن الأعرابى الصارخ: المستغيث، والمصرخ: المغيث * ومعنى الآية: ماأنا بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب، وما أنتم بمغيثىّ مما أنا فيه، وفيه إرشاد لهم إلى أن الشيطان فى تلك الحالة مبتلى بما ابتلوا به من العذاب محتاج إلى من يغيثه ويخلصه مما هو فيه، فكيف يطمعون فى إغاثة من هو محتاج إلى من يغيثه؟ ومما ورد مورد هذه الأقوال من قول العرب قول أمية بن أبى الصلت:

فلا تجزعوا إنى لكم غير مصرخ * وليس لكم عندى غناء ولانفر

ومصرخىّ بفتح الياء فى قراءة الجمهور. وقرأ الأعمش وحمزة بكسر الياء على أصل التقاء الساكنين. قال الفراء قراءة حمزة وهم منه، وقلّ من سلم عن خطأ. وقال الزجاج هى قراءة رديئة ولاوجه لها إلاوجه ضعيف، يعنى ماذكرناه من أنه كسرها على الأصل فى التقاء الساكنين. وقال قطرب: هذه لغة بنى يربوع يزيدون على ياء الاضافة ياء، وأنشد الفراء فيما ورد على هذه القراءة قول الشاعر:

قلت لها ياتاه هل لك فىّ * قالت له ماأنت بالمرضىّ

(إنى كفرت بما أشركتمون من قبل) لما كشف لهم القناع بأنه لايغنى عنهم من عذاب الله شيئا، ولا ينصرهم بنوع من أنواع النصر، صرح لهم بأنه كافر باشراكهم له مع الله فى الرّبوبية من قبل هذا الوقت الذى قال لهم الشيطان فيه هذه المقالة، وهو ما كان منهم فى الدنيا من جعله شريكا، ولقد قام لهم الشيطان فى هذا اليوم مقاما يقصم ظهورهم ويقطع قلوبهم، فأوضح لهم أوّلا أن مواعيده التى كان يعدهم بها فى الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله سبحانه، وأنه أخلفهم ماوعدهم من تلك المواعيد ولم يف لهم بشىء منها، ثم أوضح لهم، ثانيا بأنهم قبلوا قوله بما لايوجب القبول، ولاينفق على عقل عاقل لعدم الحجة التى لابدّ للعاقل منها فى قبول قول غيره، ثم أوضح ثالثا بأنه لم يكن منه إلا مجرّد الدعوة العاطلة عن البرهان الخالية عن أيسر شىء مما يتمسك به العقلاء، ثم نعى عليهم رابعا ماوقعوا فيه، ودفع لومهم له

وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم ، لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذى لايلتبس بطلانه على من له أدنى عقل ، ثم أوضح لهم خامسا بأنه لا نصر عنــده ولا إغاثة ولا يستطيع لهم نفعا ولا يدفع عنهم ضرا بل هو مثلهم فى الوقوع فى البلية والعجز عن الخلوص عن هذه المحنة ، ثم صرح لهم ، سادسا بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه وأثبتوه له فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب ، وإذا كان جملة (إن الظالمين لهم عذاب أليم) من تتمة كلامه كما ذهب اليه البعض فهو نوع سابع من كلامه الذى خاطبهم به ، فأثبت لهم الظلم ، ثم ذكر ماهو جزاؤهم عليــه من العذاب الأليم ، لاعلى قول من قال : انه ابتداء كلام من جهة الله سبحانه ، وقــد ذهب جمهور المفسرين إلى أن ما مصدرية فى «ماأشركتمون» ، وقيل يجوز أن تكون موصولة على معنى إنى كفرت بالذى أشركتمونيه وهو الله عزّ وجلّ ، ويكون هذا حكاية لكفره بالله عند أن أمره بالسجود لآدم (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار) لما أخبر سبحانه بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة ، وقرأ الجمهور أدخل على البناء للمفعول ، وقرأ الحسن وأدخل على الاستقبال والبناء للفاعل : أى وأنا أدخل الذين آمنوا ، ثم ذكر سبحانه خلودهم فى الجنات وعدم انقطاع نعيمهم ، ثم ذكر أن ذلك باذن ربهم : أى بتوفيقه ، ولطفه ، وهدايته ، هذا على قراءة الجمهور ، وأما على قراءة الحسن فيكون باذن ربهم متعلقا بقوله (تحيتهم فيها سلام) أى تحية الملائكة فى الجنة سلام باذن ربهم . وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة يونس .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله (ويأت بخلق جديد) قال : بخلق آخر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله (وقال الضعفاء) قال الأتباع (للذين استكبروا) قال للقادة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) . قال زيد بن أسلم جزعوا مائة سنة ، وصبروا مائة سنة . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن كعب بن مالك يرفعه الى النبى ﷺ فى قوله (سواء علينا) الآية قال : يقول أهل النار هلموا فلنصبر فيصبرون خمسمائة عام ، فلما رأوا ذلك لاينفعهم قالوا : هلموا فلنجزع ، فبكوا خمسمائة عام ، فلما رأوا ذلك لاينفعهم قالوا : سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص * والظاهر أن هذه المراجعة كانت بينهم بعد دخولهم النار كما فى قوله تعالى ـ واذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد ـ . وأخرج ابن المبارك فى الزهد وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه وابن عساكر عن عقبة بن عامر يرفعه ، وذكر فيه حديث الشفاعة ، ثم قال ويقول الكافر عند ذلك : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ، فمن يشفع لنا ؟ ماهو إلا إبليس فهو الذى أضلنا ، فيأتون إبليس فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم أنت فاشفع لنا فانك أنت أضللتنا ، فيقوم إبليس فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط ، ثم يعظهم بجهنم ، ويقول عند ذلك (ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم) الآية ، وضعف السيوطى إسناده ، ولعلّ سبب ذلك كون فى إسناده رشدين بن سعد عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن دجين الحجرى عن عقبة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال « اذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيبا على منبر من نار ، فقال : ان الله وعدكم الى قوله وما أنتم بمصرخىّ : قال بناصرىّ انى كفرت بما أشركتمونى من قبل : قال بطاعتكم إياى فى الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الشعبى فى هــذه الآية قال « خطيبان يقومان يوم القيامة : إبليس ، وعيسى ، فأما إبليس فيقوم فى حزبه فيقول هذا القول : يعنى المذكور فى الآية ، وأما عيسى فيقول ـ ماقلت لهم إلا ماأمرتنى به أن اعبدوا الله ربى

وربكم

وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ـ .
وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ماأنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ) قال ماأنا بنافعكم ، وما أنتم بنافعىّ (إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل) قال شركه : عبادته . وأخرج عبدالرزاق وابن المنذر عن قتادة (ماأنا بمصرخكم) قال ماأنا بمغيثكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله (تحيتهم فيها سلام) قال الملائكة يسلمون عليهم فى الجنة .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَاءِ * تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ *

لما ذكر سبحانه مثل أعمال الكفار ، وأنها كرماد اشتدت به الريح ، ثم ذكر نعيم المؤمنين ، وما جازاهم الله به من إدخالهم الجنة خالدين فيها ، وتحية الملائكة لهم ذكر تعالى هاهنا مثلا للكلمة الطيبة ، وهى كلمة الاسلام : أى لا إله إلا الله ، أو ما هو أعمّ من ذلك من كلمات الخير ، وذكر مثلا للكلمة الخبيثة ، وهى كلمة الشرك ، أو ماهو أعمّ من ذلك من كلمات الشرّ ، فقال مخاطبا لرسول الله ﷺ ، أو مخاطبا لمن يصلح للخطاب (ألم تر كيف ضرب الله مثلا) أى اختار مثلا وضعه فى موضعه اللائق به ، وانتصاب مثلا على أنه مفعول ضرب ، وكلمة بدل منه ، ويجوز أن تنتصب الكلمة على أنها عطف بيان لمثلا ، ويجوز أن تنتصب الكلمة بفعل مقدّر : أى جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة ، وحكم بأنها مثلها ، ومحل كشجرة النصب على أنها صفة لكلمة ، أو الرفع على تقدير مبتدا : أى هى كشجرة ، ويجوز أن تكون كلمة أوّل مفعولى ضرب ، وأخرت عن المفعول الثانى ، وهو مثلا لئلا تبعد عن صفتها ، والأوّل أولى ، وكلمة وما بعدها تفسير للمثل ، ثم وصف الشجرة بقوله (أصلها ثابت) أى راسخ آمن من الانقلاع بسبب تمكنها من الأرض بعروقها (وفرعها فى السماء) أى أعلاها ذاهب الى جهة السماء مرتفع فى الهواء ، ثم وصفها سبحانه بأنها (تؤتى أكلها كل حين) كل وقت (باذن ربها) بإرادته ومشيئته ، قيل وهى النخلة ، وقيل غيرها ، قيل والمراد بكونها تؤتى أكلها كل حين : أى كل ساعة من الساعات من ليل أو نهار فى جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء وصيف ، وقيل المراد فى أوقات مختلفة من غير تعيين ، وقيل كل غدوة وعشية ، وقيل كل شهر ، وقيل كل ستة أشهر . قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت ، يقع القليل الزمان وكثيره ، وأنشد الأصمعى قول النابغة :

* تطلقه حينا وحينا تراجع *

قال النحاس : وهذا يبين لك أن الحين بمعنى الوقت . وقد ورد الحين فى بعض المواضع يراد به أكثر كقوله ـ هل أتى على الانسان حين من الدهر ـ . وقد تقدّم بيان أقوال العلماء فى الحين فى سورة البقرة فى قوله ـ ولكم فى الأرض مستقرّ ومتاع الى حين ـ . وقال الزجاج الحين : الوقت طال أم قصر (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) يتفكرون أحوال المبدأ والمعاد ، وبدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده ووحدانيته ، وفى ضرب الأمثال زيادة تذكير وتفهيم وتصوير للمعانى (ومثل كلمة خبيثة) قد تقدّم تفسيرها ، وقيل هى الكافر نفسه ، والكلمة الطيبة : المؤمن

نفسه (كشجرة خبيثة) أى كمثل شجرة خبيثة ، قيل هى شجرة الحنظل ، وقيل هى شجرة الثوم ، وقيل الكمأة ، وقيل الطحلبة . وقيل هى الكشوث بالضم وآخره مثلثة ، وهى شجرة لاورق لها ولا عروق فى الأرض . قال الشاعر : ٭ وهى كشوث فلا أصل ولا ثمر ٭ . وقرئ ومثلا كلمة بالنصب عطفا على كلمة طيبة (اجتثت من فوق الأرض) أى استؤصلت واقتلعت من أصلها ، ومنه قول الشاعر : ٭ هو الجلاء الذى يجتث أصلكم ٭ . قال المؤرخ أخذت جثتها وهى نفسها ، والجثة : شخص الانسان ، يقال جثه : قلعه ، واجتثه : اقتلعه ، ومعنى من فوق الأرض : أنه ليس لها أصل راسخ وعروق متمكنة من الأرض (مالها من قرار) أى من استقرار على الأرض ، وقيل من ثبات على الأرض ، كما أن الكافر وكلمته لاحجة له ولا ثبات فيه ولا خير يأتى منه أصلا ، ولا يصعد له قول طيب ولا عمل طيب (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) أى بالحجة الواضحة ، وهى الكلمة الطيبة المتقدم ذكرها . وقد ثبت فى الصحيح أنها كلمة الشهادة « شهادة أن لا إله إلاالله وأن محمدا رسول الله » وذلك اذا قعد المؤمن فى قبره قال النبى ﷺ فذلك قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) ، وقيل معنى تثبيت الله لهم هو أن يدوموا على القول الثابت ، ومنه قول عبد الله بن رواحة :

يثبت الله ما آتاك من حسن ٭ تثبيت موسى ونصرا كالذى نصروا

ومعنى فى الحياة الدنيا : أنهم يستمرون على القول الثابت فى الحياة الدنيا ، قال جماعة : المراد بالحياة الدنيا فى هذه الآية : القبر لأن الموتى فى الدنيا حتى يبعثوا ، ومعنى (وفى الآخرة) وقت الحساب . وقيل المراد بالحياة الدنيا : وقت المساءلة فى القبر ، وفى الآخرة : وقت المساءلة يوم القيامة ، والمراد أنهم اذا سئلوا عن معتقدهم ودينهم أوضحوا ذلك بالقول الثابت من دون تلعثم ولا تردد ولاجهل كما يقول من لم يوفق : لاأدرى ، فيقال له لادريت ولا تليت (و يضل الله الظالمين) أى يضلهم عن حجتهم التى هى القول الثابت فلايقدرون على التكلم بها فى قبورهم ، ولا عند الحساب كما أضلهم عن اتباع الحق فى الدنيا ، قيل والمراد بالظالمين هنا الكفرة ، وقيل كل من ظلم نفسه ، ولو بمجرد الاعراض عن البينات الواضحة فانه لايثبت فى مواقف الفتن ولا يهتدى الى الحق ، ثم ذكر سبحانه أنه يفعل مايشاء من التثبيت والخذلان لاراد لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل . قال الفراء : أى لاتنكر له قدرة ولا يسأل عما يفعل ، والاظهار فى محل الاضمار فى الموضعين لتربية المهابة كما قيل والله أعلم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة) قال شهادة أن لا إله إلا الله (كشجرة طيبة) وهو المؤمن (أصلها ثابت) يقول لا إله إلاالله ثابت فى قلب المؤمن (وفرعها فى السماء) يقول يرفع بها عمل المؤمن الى السماء (ومثل كلمة خبيثة) وهى الشرك (كشجرة خبيثة) يعنى الكافر (اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار) يقول الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ، ولا برهان ولا يقبل الله مع الشرك عملا . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين ومن بعدهم . وأخرج الترمذى والنسائى والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس قال « أتى رسول الله ﷺ بقناع من بسر فقال مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة حتى بلغ تؤتى أكلها كل حين باذن ربها . قال : هى النخلة ، ومثل كلمة خبيثة حتى بلغ مالها من قرار . قال : هى الحنظلة » . وروى موقوفا على أنس . قال الترمذى : الموقوف أصح . وأخرج أحمد وابن مردويه . قال السيوطى بسند جيد عن عمر عن النبى ﷺ فى قوله (كشجرة طيبة) قال : هى التى لاينقص ورقها قال : هى النخلة . وأخرج البخارى وغيره من حديث

ابن

XIV. 11-31

ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ يوما لأصحابه « ان شجرة من الشجر لايطرح ورقها مثل المؤمن قال فوقع الناس فى شجرة البوادى ، ووقع فى قلبى أنها النخلة فاستحييت حتى قال رسول الله ﷺ «هى النخلة» وفى لفظ للبخارى قال : أخبرونى عن شجرة كالرجل المسلم لايتحات ورقها ولا تؤتى أكلها كل حين فذكر نحوه ، وفى لفظ لابن جرير وابن مردويه من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «هل تدرون ماالشجرة الطيبة ؟ » ثم قال هى النخلة » وروى نحو هذا عن جماعة من الصحابة والتابعين . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (تؤتى أكلها كل حين باذن ربها) قال : كل ساعة بالليل والنهار والشتاء والصيف ، وذلك مثل المؤمن يطيع ربه بالليل والنهار والشتاء والصيف . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : يكون أخضر ، ثم يكون أصفر . وأخرج عنه أيضا فى قوله (كلّ حين) قال : جذاذ النخل وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا تؤتى أكلها كلّ حين قال : تطعم فى كل ستة أشهر . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا قال : الحين هنا سنة . وأخرج البيهقى عنه أيضا قال . الحين قد يكون غدوة وعشية ، وقد روى عن جماعة من السلف فى هذا أقوال كثيرة . وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن البراء بن عازب : أن رسول الله ﷺ قال « المسلم اذا سئل فى القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله سبحانه يثبت الله الذين الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة» . وأخرج ابن أبى شيبة والبيهقى عن البراء بن عازب فى قوله يثبت الله الذين آمنوا الآية قال : التثبيت فى الحياة الدنيا اذا جاء الملكان الى الرجل فى القبر فقالا من ربك ؟ فقال ربى الله ، قال وما دينك ؟ قال دينى الاسلام ، قال ومن نبيك ؟ قال نبى محمد ﷺ فذلك التثبيت فى الحياة الدنيا . وأخرج البيهقى عن ابن عباس نحوه . وأخرج الطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن أبى سعيد فى الآية قال : فى الآخرة القبر . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال النبى ﷺ فى قوله تعالى « يثبت الله الذين آمنوا الآية قال : هذا فى القبر » . وأخرج البيهقى من حديثها نحوه . وأخرج البزار عنها أيضا قالت : قلت يارسول الله تبتلى هذه الأمة فى قبورها ، فكيف بى وأنا امرأة ضعيفة ؟ قال «يثبت الله الذين آمنوا الآية » ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى سؤال الملائكة للميت فى قبره ، وفى جوابه عليهم وفى عذاب القبر وفتنته ، وليس هذا موضع بسطها ، وهى معروفة :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ * قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ *

قوله (ألم تر) هذا خطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له ، وهو تعجيب من حال الكفار حيث جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر : أى بدل شكرها الكفر بها ، وذلك بتكذيبهم محمدا

ﷺ حين بعثه الله منهم وأنعم عليهم به ، وقد ذهب جمهور المفسرين الى أنهم كفار مكة وأن الآية نزلت فيهم ، وقيل نزلت فى الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر ، وقيل نزلت فى بطنين من بطون قريش بنى مخزوم و بنى أمية ، وقيل نزلت فى متنصرة العرب ، وهم جبلة بن الأيهم وأصحابه ، وفيه نظر : فان جبلة وأصحابه لم يسلموا الا فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقيل انها عامة فى جميع المشركين ، وقيل المراد بتبديل نعمة الله كفرا أنهم لما كفروها سلبهم الله ذلك فصاروا متبدلين بها الكفر (وأحلوا قومهم دار البوار) أى أنزلوا قومهم بسبب ما زينوه لهم من الكفر دار البوار ، وهى جهنم ، والبوار الهلاك ، وقيل هم قادة قريش أحلوا قومهم يوم بدر دار البوار : أى الهلاك وهو القتل الذى أصيبوا به ، ومنه قول الشاعر :

فلم أر مثلهم أبطال حرب * غداة الحرب اذ خيف البوار

والأول أولى لقوله (جهنم) فانه عطف بيان لدار البوار ، و (يصلونها) فى محل نصب على الحال ، أو هو مستأنف لبيان كيفية حلولهم فيها (و بئس القرار) أى بئس القرار قرارهم فيها ، أو بئس المقرّ جهنم ، فالمخصوص بالذم محذوف (وجعلوا لله أندادا) معطوف على : وأحلوا : أى جعلوا لله شركاء فى الربوبية ، أو فى التسمية وهى الأصنام . قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضلوا بفتح الياء : أى ليضلوا أنفسهم عن سبيل الله ، وتكون اللام للعاقبة : أى ليتعقب جعلهم لله أندادا اضلالهم ، لأن العاقل لا يريد ضلال نفسه ، وحسن استعمال لام العاقبة هنا لأنها تشبه الغرض والغاية من جهة حصولها فى آخر المراتب ، والمشابهة أحد الأمور المصححة للمجاز . وقرأ الباقون بضم الياء ليوقعوا قومهم فى الضلال عن سبيل الله ، فهذا هو الغرض من جعلهم لله أندادا ، ثم هددهم سبحانه ، فقال لنبيه ﷺ (قل تمتعوا) بما أنتم فيه من الشهوات ، وما زينته لكم أنفسكم من كفران النعم واضلال الناس (فان مصيركم الى النار) أى مردكم ومرجعكم اليها ليس إلا ، ولما كان هذا حالهم ، وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه وانهما كهم فيه لا يقلعون عنه ، ولا يقبلون فيه نصح الناصحين جعل الأمر بمباشرته مكان النهى قربانه ايضاحا لما تكون عليه عاقبتهم ، وأنهم لامحالة صائرون الى النار فلابدّ لهم من تعاطى الأسباب المقتضية لذلك ، فجملة (فان مصيركم الى النار) تعليل للأمر بالتمتع ، وفيه من التهديد ما لا يقادر قدره ، ويجوز أن تكون هذه الجملة جوابا لمحذوف دلّ عليه سياق الكلام ، كأنه قيل : فان دمتم على ذلك فان مصيركم إلى النار ، والأوّل أولى . والنظم القرآنى عليه أدلّ ، وذلك كما يقال لمن يسعى فى مخالفة السلطان : اصنع ما شئت من المخالفة ، فان مصيرك الى السيف (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة و ينفقوا مما رزقناهم سرّا وعلانية) لما أمره بأن يقول للمبدّلين نعمة الله كفرا الجاعلين لله أندادا ما قاله لهم أمره سبحانه أن يقول للطائفة المقابلة لهم ، وهى طائفة المؤمنين هذا القول والمقول محذوف دلّ عليه المذكور : أى قل لعبادى أقيموا وأنفقوا يقيموا و ينفقوا ، فجزم يقيموا على أنه جواب الأمر المحذوف ، وكذلك ينفقوا ، ذكر معنى هذا الفراء . وقال الزجاج : ان يقيموا مجزوم بمعنى اللام : أى ليقيموا فأسقطت اللام : ثم ذكر وجها آخر للجزم مثل ما ذكره الفراء : وانتصاب سرّا وعلانية ، اما على الحال : أى مسرّين ومعلنين ، أو على المصدر : أى انفاق سر وانفاق علانية ، أو على الظرف : أى وقت سر ووقت علانية . قال الجمهور : السرّ ما خفى ، والعلانية ما ظهر ، وقيل السر التطوّع والعلانية الفرض ، وقد تقدم بيان هذا عند تفسير قوله ـ ان تبدوا الصدقات فنعما هى ـ (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) قال أبو عبيدة : البيع هاهنا الفداء والخلال المخالة ، وهو مصدر . قال الواحدى : هذا قول جميع أهل اللغة . وقال أبو على الفارسى يجوز أن يكون جمع خلة مثل برمة و برام وعلبة وعلاب ، والمعنى أن يوم القيامة لا بيع فيه حتى يفتدى المقصر فى العمل نفسه من عذاب الله بدفع عوض عن ذلك ، وليس

هناك

هناك مخالة حتى يشفع الخليل لخليله وينقذه من العذاب ، فأمرهم سبحانه بالانفاق فى وجوه الخير مما رزقهم الله سبحانه ماداموا فى الحياة الدنيا قادرين على انفاق أموالهم من قبل أن يأتى يوم القيامة ، فانهم لايقدرون على ذلك بل لامال لهم إذ ذاك ، فالجملة أعنى من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلال لتأكيد مضمون الأمر بالانفاق مما رزقهم الله ، ويمكن أن يكون فيها أيضا تأكيد لمضمون الأمر باقامة الصلاة ، وذلك لأن تركها كثيرا ما يكون بسبب الاشتغال بالبيع ورعاية حقوق الأخلاء ، وقد تقدم فى البقرة تفسير البيع والخلال (الله الذى خلق السموات والأرض) أى أبدعهما واخترعهما على غير مثال ، وخلق مافيهما من الأجرام العلوية والسفلية ، والاسم الشريف مبتدأ وما بعده خبره (وأنزل من السماء ماء) المراد بالسماء هنا جهة العلو ، فانه يدخل فى ذلك الفلك عند من قال ان ابتداء المطر منه ، ويدخل فيه السحاب عند من قال ان ابتداء المطر منها ، وتدخل فيه الأسباب التى تثير السحاب كالرياح ، وتنكير الماء هنا للنوعية : أى نوعا من أنواع الماء ، وهو ماء المطر (فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) أى أخرج بذلك الماء من الثمرات المتنوعة رزقا لبنى آدم يعيشون به ، و « من » فى من الثمرات للبيان كقولك : أنفقت من الدراهم ، وقيل للتبعيض ، لأن الثمرات منها ماهو رزق لبنى آدم ، ومنها ماليس برزق لهم ، وهو مالا يأكلونه ولاينتفعون به (وسخر لكم الفلك) جرت على ارادتكم واستعملتموها فى مصالحكم ، ولذا قال (لتجرى فى البحر) كما تريدون وعلى ماتطلبون (بأمره) أى بأمر الله ومشيئته ، وقد تقدم تفسير هذا فى البقرة (وسخر لكم الأنهار) أى ذللها لكم بالركوب عليها ، والاجراء لها إلى حيث تريدون (وسخر لكم الشمس والقمر) لتنتفعوا بهما وتستضيئوا بضوئهما ، وانتصاب (دائبين) على الحال ، والدؤوب مرور الشىء فى العمل على عادة جارية : أى دائبين فى إصلاح مايصلحانه من النبات وغيره ، وقيل دائبين فى السير امتثالا لأمر الله * والمعنى يجريان الى يوم القيامة لايفتران ولاينقطع سيرهما (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان ، فالنهار لسعيكم فى أمور معاشكم وما تحتاجون إليه من أمور دنياكم ، والليل لتسكنوا كما قال سبحانه — ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله — (وآتاكم من كلّ ماسألتموه) قال الأخفش : أى أعطاكم من كلّ مسئول سألتموه شيئا فحذف شيئا ، وقيل المعنى وآتاكم من كل ماسألتموه ومن كل مالم تسألوه ، فحذفت الجملة الأخرى قاله ابن الأنبارى ، وقيل من زائدة : أى آتاكم كل ماسألتموه ، وقيل للتبعيض : أى آتاكم بعض كل ماسألتموه . وقرأ ابن عباس والضحاك والحسن وقتادة من كل بتنوين كلّ ، وعلى هذه القراءة يجوز أن تكون ما نافية : أى آتاكم من جميع ذلك حال كونكم غير سائلين له ، ويجوز أن تكون موصولة : أى آتاكم من كل شىء الذى سألتموه (وان تعدّوا نعمة الله لا تحصوها) أى وان تتعرضوا لتعداد نعم الله التى أنعم بها عليكم إجمالا فضلا عن التفصيل لاتطيقوا احصاءها بوجه من الوجوه ، ولاتقوموا بحصرها على حال من الأحوال ، وأصل الاحصاء أن الحاسب إذا بلغ عقدا معينا من عقود الأعداد وضع حصاة ليحفظه بها ، ومعلوم أنه لورام فرد من أفراد العباد أن يحصى ما أنعم الله به عليه فى خلق عضو من أعضائه ، أوحاسة من حواسه لم يقدر على ذلك قط ولا أمكنه أصلا ، فكيف بما عدا ذلك من النعم فى جميع ماخلقه الله فى بدنه ، فكيف بما عدا ذلك من النعم الواصلة اليه فى كل وقت على تنوعها واختلاف أجناسها * اللهم إنا نشكرك على كل نعمة أنعمت بها علينا مما لايعلمه إلا أنت ، ومما علمناه شكرا لايحيط به حصر ولايحصره عدّ وعدد ماشكرك الشاكرون بكل لسان فى كل زمان (ان الانسان لظلوم) لنفسه باغفاله لشكر نعم الله عليه ، وظاهره شمول كل انسان . وقال الزجاج : ان الانسان اسم جنس يقصد به الكافر خاصة كما قال — ان الانسان لفى خسر —

(كفار) أى شديد كفران نعم الله عليه جاحد لها غير شاكر لله سبحانه عليها ، كما ينبغى ويجب عليه .
وقد أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والبخارى والنسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا) قال هم كفار أهل مكة . وأخرج البخارى فى تاريخه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عمر بن الخطاب فى قوله (ألم تر الى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا) قال : هما الأفجران من قريش بنو المغيرة و بنو أميه ، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتعوا الى حين . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن عمر نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط والحاكم وصححه وابن مردويه من طرق عن علىّ فى الآية نحوه أيضا . وأخرج عبد الرزاق والفريابى والنسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن الأنبارى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن أبى الطفيل أن ابن الكوّاء سأل عليا عن الذين بدلوا نعمة الله كفرا قال هم الفجار من قريش كفيتهم يوم بدر قال : فمن الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا ؟ قال منهم أهل حروراء ، وقد روى فى تفسير هذه الآية عن علىّ من طرق نحو هذا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : هم جبلة بن الأيهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس (وأحلوا قومهم دار البوار) قال : الهلاك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله (وجعلوا لله أندادا) قال : أشركوا بالله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد (وسخر لكم الأنهار) قال بكل فائدة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) قال دؤوبهما فى طاعة الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة (وآتاكم من كل ماسألتموه) قال : من كل شىء رغبتم اليه فيه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : من كل الذى سألتموه . وأخرج ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب عن سليمان التيمى قال : ان الله أنعم على العباد على قدره وكلفهم الشكر على قدرهم . وأخرجا أيضا عن بكر بن عبد الله المزنى قال : يابن آدم ان أردت أن تعلم قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك . وأخرج البيهقى عن أبى الدرداء قال : من لم يعرف نعمة الله عليه إلا فى مطعمه ومشربه ، فقد قلّ عمله وحضر عذابه . وأخرج ابن أبى الدنيا والبيهقى عن أبى أيوب القرشى مولى بنى هاشم قال : قال داود عليه السلام « ربّ أخبرنى ماأدنى نعمتك علىّ ، فأوحى اليه : ياداود تنفس فتنفس ، فقال هذا أدنى نعمتى عليك» . وأخرج ابن أبى حاتم عن عمر ابن الخطاب أنه قال : اللهم اغفرلى ظلمى وكفرى . فقال قائل يا أمير المؤمنين هذا الظلم ، فما بال الكفر ؟ قال ان الانسان لظلوم كفار .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ * رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ *

رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿

قوله (و إذ قال ابراهيم) متعلق بمحذوف : أى اذكر وقت قوله ، ولعلّ المراد بسياق ماقاله إبراهيم عليه السلام فى هذا الموضع بيان كفر قريش بالنعم الخاصة بهم ، وهى اسكانهم مكة بعد مابين كفرهم بالنعم العامة ، وقيل ان ذكر قصة إبراهيم هاهنا لمثال الكلمة الطيبة ، وقيل لقصد الدعاء الى التوحيد ، وانكار عبادة الأصنام (ربّ اجعل هذا البلد آمنا) المراد بالبلد هنا مكة : دعا ابراهيم ربه أن يجعله آمنا : أى ذا أمن ، وقدّم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده ، لأنه اذا انتفى الأمن لم يفرغ الانسان لشىء آخر من أمور الدين والدنيا ، وقد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى البقرة عند قوله تعالى ـ ربّ اجعل هذا بلدا آمنا ـ ، والفرق بين ماهنا وما هنالك أن المطلوب هنا مجرد الأمن للبلد ، والمطلوب هنالك البلدية والأمن (واجنبنى و بنىّ أن نعبد الأصنام) ، يقال جنبته كذا ، وأجنبته ، وجنبته : أى باعدته عنه ، والمعنى : باعدنى ، و باعد بنىّ عن عبادة الأصنام ، قيل أراد بنيه من صلبه ، وكانوا ثمانية ، وقيل أراد من كان موجودا حال دعوته من بنيه و بنى بنيه ، وقيل أراد جميع ذريته ماتناسلوا ، و يؤيد ذلك ماقيل من أنه لم يعبد أحد من أولاد إبراهيم صنما ، والصنم : هو التمثال الذى كانت تصنعه أهل الجاهلية من الأحجار ونحوها فيعبدونه ، وقرأ الجحدرى وعيسى بن عمر ، وأجنبنى بقطع الهمزة على أن أصله أجنب (ربّ إنهنّ أضللن كثيرا من الناس) أسند الاضلال الى الأصنام مع كونها جمادات لاتعقل ، لأنها سبب لضلالهم فكأنها أضلتهم ، وهذه الجملة تعليل لدعائه لربه ، ثم قال (فمن تبعنى) أى من تبع دينى من الناس فصار مسلما موحدا (فانه منى) أى من أهل دينى : جعل أهل ملته كنفسه مبالغة (ومن عصانى) فلم يتابعنى و يدخل فى ملتى (فانك غفور رحيم) قادر على أن تغفر له ، قيل قال هذا قبل أن يعلم أن الله لايغفر أن يشرك به كما وقع منه الاستغفار لأبيه وهو مشرك : كذا قال ابن الأنبارى ، وقيل المراد عصيانه هنا فيما دون الشرك ، وقيل ان هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك ، ثم قال (ربنا انى أسكنت من ذرّيتى) . قال الفراء من للتبعيض : أى بعض ذرّيتى . وقال ابن الأنبارى انها زائدة : أى أسكنت ذرّيتى ، والأوّل أولى ، لأنه انما أسكن اسمعيل وهو بعض ولده (بواد غير ذى زرع) أى لازرع فيه ، وهو وادى مكة (عند بيتك المحرّم) أى الذى يحرم فيه مايستباح فى غيره ، وقيل انه محرّم على الجبابرة ، وقيل محرّم من أن تنتهك حرمته ، أو يستخفّ به . وقد تقدّم فى سورة المائدة مايغنى عن الاعادة ، ثم قال (ربنا ليقيموا الصلاة) اللام متعلقة بأسكنت : أى أسكنتهم ليقيموا الصلاة فيه ، متوجهين اليه ، متبرّكين به ، وخصها دون سائر العبادات لمزيد فضلها ، ولعلّ تكرير النداء لاظهار العناية الكاملة بهذه العبادة (فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم) الأفئدة جمع فؤاد ، وهو القلب ، عبر به عن جميع البدن ، لأنه أشرف عضو فيه ، وقيل هو جمع وفد ، والأصل أوفدة ، فقدّمت الفاء ، وقلبت الواو ياء ، فكأنه قال : واجعل وفودا من الناس تهوى اليهم ، و «من» فى من الناس للتبعيض ، وقيل زائدة ولايلزم منه أن يحج اليهود والنصارى لدخولهم تحت لفظ الناس ، لأن المطلوب توجيه قلوب الناس اليهم للسكون معهم والجلب إليهم لاتوجيهها الى الحج ، ولو كان هذا مرادا لقال تهوى إليه ، وقيل من للابتداء كقولك : القلب منى سقيم ، يريد قلبى ، ومعنى تهوى اليهم : تنزع اليهم ، يقال هوى نحوه : اذا مال ، وهوت الناقة تهوى هويا ، فهى هاوية : إذا عدت عدوا شديدا كأنها تهوى فى بئر ، ويحتمل أن يكون المعنى : تجىء اليهم ، أو تسرع اليهم ، والمعنى متقارب (وارزقهم من الثمرات) أى ارزق ذريتى الذين أسكنتهم هنالك

أوهم ومن يساكنهم من الناس من أنواع الثمرات التى تنبت فيـه ، أوتجلب إليه (لعلهم يشكرون) نعمك التى أنعمت بها عليهم (ربنا انك تعلم مانخفى وما نعلن) أى مانكتمه وما نظهره ، لأن الظاهر والمضمر بالنسبة اليه سبحانه سيان ، قيل والمراد هنا بما نخفى مايقابل مانعلن ، فالمعنى مانظهره ومالا نظهره ، وقدّم مانخفى على مانعلن : للدلالة على أنهما مستويان فى علم الله سبحانه ، وظاهر النظم القرآنى عموم كل مالا يظهر وما يظهر من غير تقييد بشىء معين من ذلك ، وقيل المراد مايخفيه ابراهيم من وجده باسماعيل وأمه حيث أسكنهما بواد غير ذى زرع ، وما يعلنه من ذلك ، وقيل مايخفيه ابراهيم من الوجد و يعلنه من البكاء والدعاء ، والمجىء بضمير الجماعة يشعر بأن ابراهيم لم يرد نفسه فقط ، بل أراد جميع العباد ، فكأن المعنى أن الله سبحانه يعلم بكل مايظهره العباد ، و بكل مالا يظهرونه ، وأما قوله (وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء) ، فقال جمهور المفسرين : هو من كلام الله سبحانه تصديقا لما قاله ابراهيم من أنه سبحانه يعلم بما يخفيه العباد وما يعلنونه ، فقال : سبحانه وما يخفى على الله شىء من الأشياء الموجودة كائنا ماكان ، وانما ذكر السموات والأرض لأنها المشاهدة للعباد ، والا فعلمه سبحانه محيط بكل ماهو داخل فى العالم ، وكل ماهو خارج عنه لاتخفى عليه منه خافية ، قيل ويحتمل أن يكون هذا من قول ابراهيم تحقيقا لقوله الأوّل ، وتعميما بعد التخصيص ، ثم حمد الله سبحانه على بعض نعمه الواصلة اليه ، فقال (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل و إسحق) أى وهب لى على كبر سنى وسنّ امرأتى ، قيل ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وولد له إسحق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة ، قيل و «على» هنا بمعنى مع : أى وهو لى مع كبرى و يأسى عن الولد (ان ربى لسميع الدعاء) أى لمجيب الدعاء من قولهم سمع كلامه : اذا أجابه واعتدّ به ، وعمل بمقتضاه ، وهو من إضافة الصفة المتضمنة للمبالغة إلى المفعول ، والمعنى إنك لكثير إجابة الدعاء لمن يدعوك : ثم سأل الله سبحانه بأن يجعله مقيم الصلاة محافظا عليها غير مهمل لشىء منها ، ثم قال (ومن ذرّيتى) أى بعض ذرّيتى : أى اجعلنى واجعل بعض ذرّيتى مقيمين للصلاة ، وانما خصّ البعض من ذريته ، لأنه علم أن منهم من لايقيمها كما ينبغى . قال الزجاج : أى اجعل من ذرّيتى من يقيم الصلاة ، ثم سأل الله سبحانه أن يتقبل دعاءه على العموم ، ويدخل فى ذلك دعاؤه فى هـذا المقام دخولا أوّليا ، قيل والمراد بالدعاء هنا : العبادة ، فيكون المعنى : وتقبل عبادتى التى أعبدك بها ، ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر له ماوقع منه مما يستحق أن يغفره الله وان لم يكن كبيرا لما هو معلوم من عصمة الأنبياء عن الكبائر ، ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر لوالديه . وقد قيـل انه دعا لهما بالمغفرة قبل أن يعلم أنهما عدوّان لله سبحانه كما فى قوله سبحانه ـ وما كان استغفار ابراهيم لأبيـه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرأ منه ـ . وقيل كانت أمّه مسلمة . وقيل أراد بوالديه آدم وحوّاء . وقرأ سعيد بن جبير ولوالدى بالتوحيد على ارادة الأب وحده . وقرأ ابراهيم النخعى ولولدىّ : يعنى اسماعيل واسحق ، وكذا قرأ يحيى بن يعمر : ثم استغفر للمؤمنين . وظاهره شمول كل مؤمن سواء كان من ذرّيتـه أو لم يكن منهم ، وقيل أراد المؤمنين من ذرّيته فقط (يوم يقوم الحساب) أى يوم يثبت حساب المكلفين فى المحشر استعير له لفظ يقوم الذى هو حقيقة فى قيام الرجل للدلالة على أنه فى غاية الاستقامة . وقيل ان المعنى يوم يقوم الناس للحساب ، والأوّل أولى .

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله (واذ قال ابراهيم) الآية قال : فاستجاب الله لابراهيم دعوته فى ولده فلم يعبد أحـد من ولده صنما بعد دعوته ، واستجاب الله له ، وجعل هذا البلد آمنا ، ورزق أهله من الثمرات ، وجعله إماما ، وجعل من ذرّيته من يقيم الصلاة ، و تقبل دعاءه ، فأراه مناسكه وتاب عليه .

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن عقيل بن أبى طالب أن النبىّ ﷺ لما أتاه الستة النفر من الأنصار جلس اليهم عند جمرة العقبة ، فدعاهم الى الله والى عبادته والمؤازرة على دينه ، فسألوه أن يعرض عليهم ماأوحى اليه ، فقرأ من سورة ابراهيم (واذ قال ابراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى و بنىّ أن نعبد الأصنام) الى آخر السورة فرقّ القوم وأخبتوا حين سمعوا منه ماسمعوا وأجابوه . وأخرج الواقدى وابن عساكر من طريق عامر بن سعد عن أبيه قال : كانت سارّة تحت ابراهيم ، فمكثت تحته دهرا لاترزق منه ولدا ، فلما رأت ذلك وهبت له هاجر أمة لها قبطية ، فولدت له اسماعيل ، فغارت من ذلك سارّة ووجدت فى نفسها وعتبت على هاجر ، فحلفت أن تقطع منها ثلاثة أطراف ، فقال لها ابراهيم هل لك أن تبرى يمينك ؟ قالت كيف أصنع ؟ قال اثقبى أذنيها واخفضيها ، والخفض : هو الختان ، ففعلت ذلك بها فوضعت هاجر فى أذنيها قرطين فازدادت بهما حسنا . فقالت سارّة أرانى أنما زدتها جمالا فلم تقارّه على كونه معها ووجد بها ابراهيم وجدا شديدا فنقلها الى مكة فكان يزورها فى كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها وقلة صبره عنها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (انى أسكنت من ذرّيتى) قال أسكن اسمعيل وأمّه مكة . وأخرج ابن المنذر عنه قال : ان ابراهيم حين قال (فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم) لو قال أفئدة الناس تهوى اليهم لازدحمت عليه فارس والروم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحكم قال : سألت عكرمة وطاوسا وعطاء بن أبى رباح عن هذه الآية (فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم) . فقالوا البيت تهوى اليه قلوبهم يأتونه وفى لفظ قالوا هواهم الى مكة أن يحجوا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (تهوى اليهم) قال تنزع اليهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن محمد بن مسلم الطائفى أن ابراهيم لما دعا للحرم (وارزق أهله من الثمرات) نقل الله الطائف من فلسطين . وأخرج ابن أبى حاتم عن الزهرى قال « ان الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة ابراهيم » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى شعب الايمان قال السيوطى بسند حسن عن ابن عباس قالوا : لو كان ابراهيم عليه السلام قال فاجعل أفئدة الناس تهوى اليهم لحج اليهود والنصارى والناس كلهم ، ولكنه قال أفئدة من الناس فخصّ به المؤمنين . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله (مانخفى وما نعلن) قال من الحزن . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابراهيم النخعى فى قوله (ربنا انك تعلم مانخفى) قال من حبّ اسماعيل وأمّه (وما نعلن) قال مانظهر لسارّة من الجفاء لهما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحق) قال هذا بعد ذلك بحين . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير : قال بشر ابراهيم بعد سبع عشرة سنة ومائة سنة .

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ * وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ *

قوله (ولا تحسبن) خطاب للنبي ﷺ وهو تعريض لأمته ، فكأنه قال ولا تحسب أمتك يامحمد ، ويجوز أن يكون خطابا لكل من يصلح له من المكلفين ، وان كان الخطاب للنبي ﷺ من غير تعريض لأمته ، فمعناه التثبيت على ما كان عليه من عدم الحسبان كقوله ـ ولا تكونن من المشركين ـ ونحوه ، وقيل المراد : ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ، ولكن معاملة الرقيب عليهم ، أو يكون المراد بالنهى عن الحسبان الايذان بأنه عالم بذلك لاتخفى عليه منه خافية . وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ واعلام للمشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنة الله سبحانه فى امهال العصاة (انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) أى يؤخر جزاءهم ولا يؤاخذهم بظلمهم . وهذه الجملة تعليل للنهى السابق . وقرأ الحسن والسلمى وهو رواية عن أبى عمرو بالنون فى نؤخرهم . وقرأ الباقون بالتحتية . واختارها أبو عبيد وأبو حاتم لقوله (ولا تحسبن الله) ومعنى (ليوم تشخص فيه الأبصار) أى ترفع فيه أبصار أهل الموقف ، ولا تغمض من هول ماتراه فى ذلك اليوم : هكذا قال الفراء . يقال شخص الرجل بصره وشخص البصر نفسه الى السماء من هول مايرى : والمراد أن الأبصار بقيت مفتوحة لاتتحرك من شدة الحيرة والدهشة (مهطعين) أى مسرعين من أهطع يهطع إهطاعا : اذا أسرع ، وقيل المهطع : الذى ينظر فى ذل وخشوع . ومنه :

بدجلة دارهم ولقد أراهم * بدجلة مهطعين الى السماء

وقيل المهطع : الذى يديم النظر . قال أبو عبيدة قد يكون الوجهان جميعا : يعنى الاسراع مع ادامة النظر ، وقيل المهطع : الذى لايرفع رأسه . وقال ثعلب المهطع : الذى ينظر فى ذل وخضوع ، وقيل هو الساكت . قال النحاس والمعروف فى اللغة أهطع : اذا أسرع (مقنعى رؤوسهم) أى رافعى رؤوسهم واقناع الرأس : رفعه . وأقنع صوته : اذا رفعه ، والمعنى أنهم يومئذ رافعون رؤوسهم الى السماء ينظرون اليها نظر فزع وذل ولا ينظر بعضهم الى بعض ، وقيل ان اقناع الرأس نكسه ، وقيل يقال أقنع : اذا رفع رأسه ، وأقنع : اذا طأطأ ذلة وخضوعا ، والآية محتملة للوجهين . قال المبرد ، والقول الأول أعرف فى اللغة . قال الشاعر :

أنغض نحوى رأسه وأقنعا * كأنما أبصر شيئا أطمعا

(لايرتد اليهم طرفهم) أى لاترجع اليهم أبصارهم ، وأصل الطرف : تحريك الأجفان ، وسميت العين طرفا لأنه يكون بها ، ومن اطلاق الطرف على العين قول عنترة :

وأغض طرفى مابدت لى جارتى * حتى توارى جارتى مأواها

(وأفئدتهم هواء) الهواء فى اللغة : الجوف الخالى الذى لم تشغله الاجرام ، والمعنى أن قلوبهم خالية عن العقل والفهم لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش ، وجعلها نفس الهوى مبالغة ، ومنه قيل للأحمق والجبان قلبه هواء : أى لارأى فيه ولا قوة ، وقيل معنى الآية أنها خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت فى الحناجر . وقيل المعنى ان أفئدة الكفار فى الدنيا خالية عن الخير . وقيل المعنى وأفئدتهم ذات هواء . ومما يقارب معنى هذه الآية قوله تعالى ـ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ـ أى خاليا من كل شىء الا من هم موسى (وأنذر الناس) هذا رجوع الى خطاب رسول الله ﷺ أمره الله سبحانه بأن ينذر الناس ، والمراد الناس على العموم ، وقيل المراد كفار مكة ، وقيل الكفار على العموم * والأول أولى لأن الانذار كما يكون للكافر يكون أيضا للمسلم . ومنه قوله تعالى ـ انما تنذر من اتبع الذكر ـ ومعنى (يوم يأتيهم العذاب) يوم القيامة : أى خوفهم هذا اليوم ، وهو يوم اتيان العذاب ، وانما اقتصر على ذكر اتيان العذاب فيه

مع كونه يوم اتيان الثواب ، لأن المقام مقام تهديد ، وقيل المراد به يوم موتهم ، فانه أوّل أوقات اتيان العذاب ، وقيل المراد يوم هلاكهم بالعذاب العاجل ، وانتصاب يوم على أنه مفعول ثان لأنذر (فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب) المراد بالذين ظلموا هاهنا : هم الناس : أى فيقولون ، والعدول الى الاظهار مكان الاضمار للاشعار بأن الظلم هو العلة فيما نزل بهم ، هذ إذا كان المراد بالناس هم الكفار ، وعلى تقدير كون المراد بهم من يعمّ المسلمين ، فالمعنى فيقول الذين ظلموا منهم وهم الكفار ربنا أخرنا أمهلنا إلى أجل قريب الى أمد من الزمان معلوم غير بعيد (نجب دعوتك) أى دعوتك لعبادك على ألسن أنبيائك الى توحيدك (ونتبع الرسل) المرسلين منك إلينا فنعمل بما بلغوه الينا من شرائعك ، ونتدارك مافرط منا من الاهمال ، وانما جمع الرسل ، لأن دعوتهم الى التوحيد متفقة ، فاتباع واحد منهم اتباع لجميعهم ، وهذا منهم سؤال للرجوع الى الدنيا لما ظهر لهم الحق فى الآخرة ــ ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه ــ ثم حكى سبحانه مايجاب به عنهم عند أن يقولوا هذه المقالة . فقال (أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) أى فيقال لهم هذا القول توبيخا وتقريعا : أى أو لم تكونوا أقسمتم من قبل هذا اليوم مالكم من زوال من دار الدنيا ، وقيل انه لاقسم منهم حقيقة ، وانما كان لسان حالهم ذلك لاستغراقهم فى الشهوات واخلادهم الى الحياة الدنيا ، وقيل قسمهم هذا هو ماحكاه الله عنهم فى قوله ــ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت ــ ، وجواب القسم (مالكم من زوال) وإنما جاء بلفظ الخطاب فى مالكم من زوال ، لمراعاة أقسمتم ولولا ذلك لقال : مالنا من زوال (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) أى استقررتم . يقال سكن الدار وسكن فيها : وهى بلاد ثمود ونحوهم من الكفار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله والعصيان له (وتبين لكم كيف فعلنا بهم) قرأ عبدالرحمن السلمى نبين بالنون والفعل المضارع . وقرأ من عداه بالتاء الفوقية والفعل الماضى : أى تبين لكم بمشاهدة الآثار كيف فعلنا بهم من العقوبة والعذاب الشديد بما فعلوه من الذنوب وفاعل تبين مادلت عليه الجملة المذكورة بعده : أى تبين لكم فعلنا العجيب بهم (وضربنا لكم الأمثال) فى كتب الله وعلى ألسن رسله ايضاحا لكم وتقريرا وتكميلا للحجة عليكم (وقد مكروا مكرهم) الجملة فى محل نصب على الحال : أى فعلنا بهم مافعلنا ، والحال أنهم قد مكروا فى ردّ الحق واثبات الباطل مكرهم العظيم ، الذى استفرغوا فيه وسعهم (وعندالله مكرهم) أى وعندالله جزاء مكرهم ، أوعندالله مكتوب مكرهم فهو مجازيهم ، أو وعند الله مكرهم الذى يمكرهم به على أن يكون المكر مضافا الى المفعول ، قيل والمراد بهم قوم محمد ﷺ مكروا بالنبى ﷺ حين هموا بقتله أو نفيه ، وقيل المراد ماوقع من النمروذ حيث حاول الصعود الى السماء ، فاتخذ لنفسه تابوتا وربط قوائمه بأربعة نسور (وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) قرأ عمر وعلى وابن مسعود وأبىّ وان كاد مكرهم بالدال المهملة مكان النون . وقرأ غيرهم من القرّاء وان كان بالنون . وقرأ ابن محيصن وابن جريج والكسائى لتزول بفتح اللام على أنها لام الابتداء . وقرأ الجمهور بكسرها على أنها لام الجحود . قال ابن جرير الاختيار هذه القراءة . يعنى قراءة الجمهور ، لأنها لوكانت زالت لم تكن ثابتة ، فعلى قراءة الكسائى ومن معه تكون ان هى المخففة من الثقيلة ، واللام هى الفارقة وزوال الجبال مثل لعظم مكرهم وشدّته : أى وان الشأن كان مكرهم معدّا لذلك . قال الزجاج : وان كان مكرهم يبلغ فى الكيد الى ازالة الجبال ، فان الله ينصر دينه ، وعلى قراءة الجمهور يحتمل وجهين . أحدهما أن تكون ان هى المخففة من الثقيلة : والمعنى كما مرّ . والثانى أن تكون نافية واللام المكسورة لتأكيد النفى كقوله ــ وما كان الله ليضيع إيمانكم ــ ٭ والمعنى ومحال أن تزول الجبال بمكرهم على أن الجبال مثل لآيات الله وشرائعه الثابتة على حالها مدى الدهر ، فالجملة على هذا حال من الضمير فى مكروا لامن قوله

(وعند الله مكرهم) أى والحال أن مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والخرائطى فى مساوى الأخلاق عن ميمون بن مهران فى قوله (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) قال : هى تعزية للمظلوم ووعيد للظالم . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (ليوم تشخص فيه الأبصار) قال : شخصت فيه والله أبصارهم فلا ترتدّ اليهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (مهطعين) قال : يعنى بالاهطاع النظر من غير أن يطرف (مقنعى رؤوسهم) قال : الاقناع رفع رؤوسهم (لا يرتدّ إليهم طرفهم) قال : شاخصة أبصارهم (وأفئدتهم هواء) ليس فيها شىء من الخير ، فهى كالخربة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد مهطعين قال : مديمى النظر . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة مهطعين قال : مسرعين . وأخرج هؤلاء عن قتادة فى قوله (وأفئدتهم هواء) قال : ليس فيها شىء ، خرجت من صدورهم فنشبت فى حلوقهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مرة وأفئدتهم هواء قال : منخرقة لاتعى شيئا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب) يقول : أنذرهم فى الدنيا من قبل أن يأتيهم العذاب . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال (يوم يأتيهم العذاب) هو يوم القيامة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (مالكم من زوال) قال : عما أنتم فيه الى ماتقولون . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (مالكم من زوال) قال : بعث بعد الموت . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن فى قوله (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) قال : عملتم بمثل أعمالهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (وان كان مكرهم) يقول : ماكان مكرهم (لتزول منه الجبال) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (وان كان مكرهم) يقول شركهم كقوله ـ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّا ـ وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الانبارى عن علىّ بن أبى طالب أنه قرأ هذه الآية (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) ثم فسرها فقال : ان جبارا من الجبابرة قال : لا أنتهى حتى أنظر إلى مافى السماء ، فأمر بفراخ النسور تعلف اللحم حتى شبت وغلظت ، وأمر بتابوت فنجر يسع رجلين ، ثم جعل فى وسطه خشبة ، ثم ربط أرجلهنّ بأوتاد ، ثم جوّعهنّ ، ثم جعل على رأس الخشبة لحما ، ثم دخل هو وصاحبه فى التابوت ، ثم ربطهنّ الى قوائم التابوت ، ثم خلى عنهنّ يردن اللحم ، فذهبن به ماشاء الله ، ثم قال لصاحبه افتح فانظر ماذا ترى ، ففتح فقال : أنظر الى الجبال كأنها الذباب ، قال أغلق فأغلق ، فطرن به ماشاء الله ، ثم قال افتح ففتح ، فقال انظر ماذا ترى ، فقال ما أرى إلا السماء وما أراها تزداد إلا بعدا ، قال صوّب الخشبة فصوّبها فانقضت تريد اللحم ، فسمع الجبال هدّتها فكادت تزول عن مراتبها .

وقد روى نحو هذه القصة لبختنصر وللنمروذ من طرق ذكرها فى الدرّ المنثور .

فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ * وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ * لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ *

(مخلف) منتصب على أنه مفعول تحسبنّ ، وانتصاب رسله على أنه مفعول وعده ، قيل وذلك على

الاتساع * والمعنى مخلف رسله وعده . قال القتيبي : هو من المقدم الذي يوضحه التأخير ، والمؤخر الذي يوضحه التقديم ، وسواء في ذلك مخلف وعده رسله ومخلف رسله وعده ، ومثل ما في الآية قول الشاعر :

ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه * وسائره باد إلى الشمس أجمع

وقال الزمخشري : قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا كقوله ـ ان الله لا يخلف الميعاد ـ ثم قال رسله ليؤذن أنه اذا لم يخلف وعده أحدا ، وليس من شأنه اخلاف المواعيد ، فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته ، والمراد بالوعد هنا هو ماوعدهم سبحانه بقوله ـ انا لننصر رسلنا ـ و ـ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ـ . وقرئ مخلف وعده رسله بجر رسله ونصب وعده . قال الزمخشري : وهذه القراءة في الضعف كمن قرأ ، قتل أولادهم شركائهم (ان الله عزيز) غالب لا يغالبه أحد (ذو انتقام) ينتقم من أعدائه لأوليائه والجملة تعليل للنهي ، وقد مر تفسيره في أول آل عمران (يوم تبدل الأرض غير الأرض) قال الزجاج : انتصاب يوم على البدل من يوم يأتيهم ، أو على الظرف للانتقام انتهى ، ويجوز أن ينتصب بمقدر يدل عليه الكلام : أي واذكر ، أو وارتقب ، والتبديل قد يكون في الذات كما في بدلت الدراهم دنانير ، وقد يكون في الصفات كما في بدلت الحلقة خاتما ، والآية تحتمل الأمرين ، وقد قيل المراد تغير صفاتها ، وبه قال الأكثر وقيل تغير ذاتها ، ومعنى (والسموات) أي وتبدل السموات غير السموات على الاختلاف الذي مر (وبرزوا لله الواحد القهار) أي برز العباد لله أو الظالمون كما يفيده السياق : أي ظهروا من قبورهم ، أو ظهر من أعمالهم ما كانوا يكتمونه ، والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي للتنبيه على تحقق وقوعه كما في قوله ـ ونفخ في الصور ـ والواحد القهار المتفرد بالألوهية الكثير القهر لمن عانده (وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد) معطوف على برزوا أو على تبدل ، والمجيء بالمضارع لاستحضار الصورة ، والمجرمون هم المشركون ، ويومئذ يعني يوم القيامة و (مقرنين) أي مشدودين إما بجعل بعضهم مقرونا مع بعض ، أو قرنوا مع الشياطين كما في قوله ـ نقيض له شيطانا فهو له قرين ـ أو جعلت أيديهم مقرونة الى أرجلهم ، والأصفاد : الأغلال ، والقيود ، والجار والمجرور متعلق بمقرنين أو حال من ضميره ، يقال صفدته صفدا : أي قيدته ، والاسم الصفد ، فاذا أردت التكثير قلت صفدته . قال عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا * وأبنا بالملوك مصفدينا

وقال حسان بن ثابت :

من بين مأسور يشد صفاده * صقر إذا لاقى الكريهة حامي

ويقال صفدته وأصفدته : اذا أعطيته ، ومنه قول النابغة : * ولم أعرض أبيت اللعن بالصفد *
(سرابيلهم من قطران) السرابيل : القمص ، واحدها سربال ، ومنه قول كعب بن مالك :

تلقاكم عصب حول النبي لهم * من نسج داود في الهيجا سرابيل

والقطران : هو قطران الابل الذي تهنأ به : أي قمصانهم من قطران تطلى به جلودهم حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل ، وخص القطران لسرعة اشتعال النار فيه مع نتن رائحته . وقال جماعة هو النحاس : أي قمصانهم من نحاس . وقرأ عيسى بن عمر من قطران بفتح القاف وتسكين الطاء . وقرئ بكسر القاف وسكون الطاء ، وقرئ بفتح القاف والطاء : رويت هذه القراءة عن ابن عباس وأبي هريرة وعكرمة وسعيد بن جبير ويعقوب ، وهذه الجملة في محل نصب على الحال (وتغشى وجوههم النار) أي تعلو وجوههم وتضربها ، وخص الوجوه لأنها أشرف ما في البدن ، وفيها الحواس المدركة ، والجملة في محل نصب على الحال أيضا ، و (ليجزي الله) متعلق بمحذوف أي يفعل ذلك بهم ليجزي (كل نفس ما كسبت)

من المعاصي : أي جزاء موافقا لما كسبت من خير أو شرّ (ان الله سريع الحساب) لايشغله عنه شيء . وقد تقدّم تفسيره (هـذا بلاغ) أي هـذا الذي أنزل اليك بلاغ : أي تبليغ وكفاية في الموعظة والتذكير ، قيل ان الاشارة الى ماذكره سبحانه هنا من قوله ــ ولا تحسبنّ الله غافلا ــ الى سريع الحساب ــ أي هذا فيه كفاية من غيرماانطوت عليه السورة ، وقيل الاشارة الى جميع السورة ، وقيل الى القرآن ، ومعنى (للناس) للكفار ، أولجميع الناس على ماقيل في قوله ــ وأنذر الناس ــ ، (ولينذروا به) معطوف على محذوف : أي لينصحوا ولينذروا به ، والمعنى وليخوّفوا به ، وقرئ ولينذروا بفتح الياء التحتية والذال المعجمة ، يقال نذرت بالشيء أنذر : اذا علمت به فاستعددت له (وليعلموا أنما هو إله واحد) أي ليعلموا بالأدلة التكوينية المذكورة سابقا وحدانية الله سبحانه ، وأنه لاشريك له (وليذكر أولوا الالباب) أي وليتعظ أصحاب العقول ، وهذه اللامات متعلقة بمحذوف ، والتقدير وكذلك أنزلنا ، أو متعلقة بالبلاغ المذكور : أي كفاية لهم في أن ينصحوا و ينذروا و يعلموا بما أقام الله من الحجج والبراهين وحدانيته سبحانه وأنه لاشريك له ، وليتعظ بذلك أصحاب العقول التي تعقل وتدرك .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (ان الله عزيز ذو انتقام) قال : عزيز والله في أمره ، يملي وكيده متين ، ثم إذا انتقم انتقم بقدرة . وأخرج مسلم وغيره من حديث ثوبان قال « جاء رجل من اليهود الى رسول الله ﷺ فقال : أين يكون الناس يوم تبدّل الأرض غير الأرض ؟ فقال رسول الله ﷺ في الظلمة دون الجسر » . وأخرج مسلم أيضا وغيره من حديث عائشة . قالت « أنا أوّل من سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية يوم تبدّل الأرض غيرالأرض ، قلت أين الناس يومئذ ؟ قال على الصراط » . وأخرج البزار وابن المنذر والطبراني في الأوسط وابن مردويه والبيهقي في البعث وابن عساكر عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ في قول الله « يوم تبدّل الأرض غير) الأرض قال : أرض بيضاء ، كأنها فضة لم يسفك فيها دم حرام ، ولم يعمل بها خطيئة » . وأخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عنه موقوفا نحوه قال البيهقي : الموقوف أصح . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال « أتى اليهود النبيّ ﷺ فقال جاءوني يسألوني وسأخبرهم قبل أن يسألوني يوم تبدّل الأرض غير الأرض : قال أرض بيضاء كالفضة ، فسألهم فقالوا : أرض بيضاء كالنقيّ » وأخرج ابن مردويه مرفوعا عن عليّ نحو ماتقدّم عن ابن مسعود . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أنس موقوفا نحوه ، وقد روى نحو ذلك عن جماعة من الصحابة ، وثبت في الصحيحين من حديث سهل بن سعد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نقي » . وفيهما أيضا من حديث أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده » الحديث . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (مقرّنين في الأصفاد) قال الكبول . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة (في الأصفاد) قال القيود والأغلال . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير : قال في السلاسل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (في الأصفاد) يقول : في وثاق . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي (سرابيلهم) قال قمصهم . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (من قطران) قال : قطران الابل . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية قال هـذا القطران يطلى به حتى يشتعل نارا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال هو

النحاس

النحاس المذاب . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه قرأ من قطران ، فقال القطر : الصفر ، والآن : الحار . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة نحوه . وأخرج مسلم وغيره عن أبي مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « النائحة اذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ، ودرع من جرب » . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد فى قوله (هذا بلاغ للناس) قال القرآن (ولينذروا به) قال بالقرآن .

تفسير سورة الحجر

وهى تسع وتسعون آية

وهى مكية بالاتفاق كما قال القرطبى . وأخرج النحاس فى ناسخه وابن مردويه عن ابن عباس : قال نزلت سورة الحجر بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ آيَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ * رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ * مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ * وَقَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا إِذًا مُّنظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوٓا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ *

قوله (الٓر) قد تقدم الكلام فى محله مستوفى ، والاشارة بقوله (تلك) الى ماتضمنته السورة من الآيات والتعريف فى الكتاب . قيل هو للجنس ، والمراد جنس الكتب المتقدمة ، وقيل المراد به القرآن ، ولا يقدح فى هذا ذكر القرآن بعد الكتاب . فقد قيل انه جمع له بين الاسمين ، وقيل المراد بالكتاب هذه السورة ، وتنكير القرآن للتفخيم : أى القرآن الكامل (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) قرأ نافع وعاصم

بتخفيف الباء من ربما . وقرأ الباقون بتشديدها . وهما لغتان . قال أبوحاتم : أهل الحجاز يخففون ، ومنه قول الشاعر :

ربما ضربة بسيف صقيل * بين بصرى وطعنة نجلاء

وتميم وربيعة يثقلونها . وقد تزاد التاء الفوقية ، وأصلها أن تستعمل فى القليل . وقد تستعمل فى الكثير . قال الكوفيون : أى يود الكفار فى أوقات كثيرة لوكانوا مسلمين . ومنه قول الشاعر :

رب رفد هرقته ذلك اليو * م وأسرى من معشر أقيال

وقيل هى هنا للتقليل لأنهم ودوا ذلك فى بعض المواضع لافى كلها لشغلهم بالعذاب . قيل وماهنا لحقت رب لتهيئها للدخول على الفعل ، وقيل هى نكرة بمعنى شىء ، وإنما دخلت ربّ هنا على المستقبل مع كونها لاتدخل الا على الماضى ، لأن المترقب فى أخباره سبحانه كالواقع المتحقق : فكأنه قيل : ربما ودّ الذين كفروا لوكانوا مسلمين : أى منقادين لحكمه مذعنين له من جملة أهله . وكانت هذه الودادة منهم عند موتهم . أويوم القيامة . والمراد أنه لما انكشف لهم الأمر واتضح بطلان ما كانوا عليه من الكفر وأن الدين عند الله سبحانه هو الاسلام لادين غيره حصلت منهم هذه الودادة التى لاتسمن ولاتغنى من جوع بل هى لمجرد التحسر والتندم ولوم النفس على مافرّطت فى جنب الله ، وقيل كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم وحال المسلمين . وقيل عند خروج عصاة الموحدين من النار ، والظاهر أن هذه الودادة كائنة منهم فى كل وقت مستمرة فى كل لحظة بعد انكشاف الأمر لهم (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا) هذا تهديد لهم : أى دعهم عما أنت بصدده من الأمر لهم والنهى فهم لايرعوون أبدا ولا يخرجون من باطل ولا يدخلون فى حق بل مرهم بما هم فيه من الاشتغال بالأكل والتمتع بزهرة الدنيا فانهم كالأنعام التى لاتهتم الا بذلك ولا تشتغل بغيره ، والمعنى اتركهم على ماهم عليه من الاشتغال بالأكل ونحوه من متاع الدنيا ومن إلهاء الأمل لهم عن اتباعك فسوف يعلمون عاقبة أمرهم وسوء صنيعهم ، وفى هذا من التهديد والزجر مالايقادر قدره ، يقال ألهاه كذا : أى شغله ، ولهى هو عن الشىء يلهى : أى شغلهم الأمل عن اتباع الحق وما زالوا فى الآمال الفارغة والتمنيات الباطلة حتى أسفر الصبح لذى عينين وانكشف الأمر ورأوا العذاب يوم القيامة فعند ذلك يذوقون وبال ماصنعوا ، والأفعال الثلاثة مجزومة على أنها جواب الأمر ، وهذه الآية منسوخة بآية السيف (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) أى وما أهلكنا قرية من القرى بنوع من أنواع العذاب (إلا ولها) أى لتلك القرية (كتاب) أى أجل مقدر لاتتقدم عليه ولاتتأخر عنه (معلوم) غير مجهول ولا منسىّ فلايتصور التخلف عنه بوجه من الوجوه ، وجملة (لها كتاب) فى محل نصب على الحال من قرية وان كانت نكرة لأنها قد صارت بما فيها من العموم فى حكم الموصوفة ، والواو للفرق بين كون هذه الجملة حالا ، أو صفة فانها تعينها للحالية كقولك جاءنى رجل على كتفه سيف ، وقيل ان الجملة صفة لقرية ، والواو لتأكيد اللصوق بين الصفة والموصوف (ماتسبق من أمة أجلها) أى ماتسبق أمة من الأمم أجلها المضروب لها المكتوب فى اللوح المحفوظ ، والمعنى أنه لايأتى هلاكها قبل مجىء أجلها (ومايستأخرون) أى وما يتأخرون عنه ، فيكون مجىء هلاكهم بعد مضىّ الأجل المضروب له وإيراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل ، ولذلك حذف الجار والمجرور ، والجملة مبينة لما قبلها فكأنه قيل ان هذا الامهال لاينبغى أن يغترّ به العقلاء ، فان لكل أمّة وقتا معينا فى نزول العذاب لايتقدّم ولا يتأخر . وقد تقدّم تفسير الأجل فى أوّل سورة الأنعام ، ثم لما فرغ من تهديد الكفار شرع فى بيان بعض عتوهم فى الكفر ، وتماديهم فى الغىّ مع تضمنه لبيان كفرهم

بمن

بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب ، فقال (وقالوا يأيها الذى نزّل عليه الذكر) أى قال كفار مكة مخاطبين لرسول الله ﷺ ومتهكمين به حيث أثبتوا له انزال الذكر عليه مع انكارهم لذلك فى الواقع أشدّ انكار ونفيهم له أبلغ نفى ، أو أرادوا : يا أيها الذى نزل عليه الذكر فى زعمه ، وعلى وفق مايدعيه (إنك لمجنون) أى إنك بسبب هذه الدعوى التى تدعيها من كونك رسولا لله مأمورا بتبليغ أحكامه لمجنون ، فانه لايدّعى مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلا ، فقولهم هذا لمحمد ﷺ هو كقول فرعون ـ إن رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون ـ (لوما تأتينا بالملائكة) لوما حرف تحضيض مركب من لو المفيدة للتمنى ومن ما المزيدة ، فأفاد المجموع الحث على الفعل الداخلة هى عليه ، والمعنى هلا تأتينا بالملائكة ليشهدوا على صدقك (ان كنت من الصادقين) . قال الفراء الميم فى لوما بدل من اللام فى لولا . وقال الكسائى لولا ولوما سواء فى الخبر ، والاستفهام . قال النحاس : لوما ولولا وهلا واحد ، وقيل المعنى لوما تأتينا بالملائكة فيعاقبونا على تكذيبنا لك (ماننزل الملائكة إلا بالحق) قرئ ماننزل بالنون مبنيا للفاعل ، وهو الله سبحانه فهو على هذا من التنزيل ، والمعنى على هذه القراءة . قال الله سبحانه مجيبا على الكفار ، لما طلبوا اتيان الملائكة اليهم ماننزل نحن (الملائكة الا بالحق) أى تنزيلا متلبسا بالحق الذى يحق عنده تنزيلنا لهم فيما تقتضيه الحكمة الالهية والمشيئة الربانية وليس هذا الذى اقترحتموه مما يحق عنده تنزيل الملائكة ، وقرئ تنزل مخففا من الانزال : أى ماننزل نحن الملائكة إلا بالحق ، وقرئ ماتنزل بالمثناة من فوق مضارعا مثقلا مبنيا للفاعل من التنزيل بحذف احدى التاءين : أى تتنزل ، وقرى أيضا بالفوقية مضارعا مبنيا للمفعول ، وقيل معنى الا بالحق الا بالقرآن ، وقيل بالرسالة ، وقيل بالعذاب (وما كانوا إذا منظرين) فى الكلام حذف ، والتقدير ولو نزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة وما كانوا إذا منظرين ، فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة ، ثم أنكر على الكفار استهزاءهم برسول الله ﷺ بقولهم (يأيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون) ، فقال سبحانه (إنا نحن نزلنا الذكر) أى نحن نزلنا ذلك الذكر الذى أنكروه ونسبوك بسببه الى الجنون (وانا له لحافظون) عن كل مالا يليق به من تصحيف وتحريف وزيادة ونقص ونحو ذلك ، وفيه وعيد شديد للمكذبين به المستهزئين برسول الله ﷺ ، وقيل الضمير فى له لرسول الله ﷺ ، والأول أولى بالمقام ، ثم ذكر سبحانه أن عادة أمثال هؤلاء الكفار مع أنبيائهم كذلك تسلية لرسول الله ﷺ ، فقال (ولقد أرسلنا من قبلك) أى رسلا وحذف لدلالة الارسال عليه : أى رسلا كائنة من قبلك (فى شيع الأوّلين) فى أممهم وأتباعهم وسائر فرقهم وطوائفهم . قال الفراء : الشيع الأمة التابعة بعضهم بعضا فيما يجتمعون عليه ، وأصله من شاعه اذا تبعه ، واضافته الى الأوّلين من اضافة الصفة الى الموصوف عند بعض النحاة ، أو من حذف الموصوف عند آخرين منهم (وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزءون) أى ما يأتى رسول من الرسل شيعته الا كانوا به يستهزءون كما يفعله هؤلاء الكفار مع محمد ﷺ ، وجملة الا كانوا به يستهزءون فى محل نصب على الحال ، أو فى محل رفع على أنها صفة رسول ، أو فى محل جر على أنها صفة له على اللفظ لا على المحل (كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين) أى مثل ذلك الذى سلكناه فى قلوب أولئك المستهزئين برسلهم (نسلكه) أى الذكر (فى قلوب المجرمين) ، فالاشارة الى مادلّ عليه الكلام السابق من إلقاء الوحى مقرونا بالاستهزاء ، والسلك ادخال الشىء فى الشىء ، كالخيط فى المخيط . قاله الزجاج قال : والمعنى كما فعل بالمجرمين الذين استهزءوا نسلك الضلال فى قلوب المجرمين ، وجملة (لا يؤمنون به) فى محل نصب على الحال من ضمير نسلكه : أى لا يؤمنون بالذكر الذى أنزلناه ، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ماقبلها فلا محل لها ، وقيل ان الضمير

فى نسلكه للاستهزاء ، وفى لايؤمنون به للذكر ، وهو بعيد ، والأولى أن الضميرين للذكر (وقد خلت سنة الأولين) أى مضت طريقتهم التى سنها الله فى اهلاكهم ، حيث فعلوا مافعلوا من التكذيب والاستهزاء . وقال الزجاج : وقد مضت سنة الله فى الأولين بأن سلك الكفر والضلال فى قلوبهم ، ثم حكى الله سبحانه اصرارهم على الكفر وتصميمهم على التكذيب والاستهزاء ، فقال (ولو فتحنا عليهم) أى على هؤلاء المعاندين لمحمد ﷺ المكذبين له المستهزئين به (بابا من السماء) أى من أبوابها المعهودة ومكناهم من الصعود اليه (فظلوا فيه) أى فى ذلك الباب (يعرجون) يصعدون بآلة أو بغير آلة حتى يشاهدوا مافى السماء من عجائب الملكوت التى لايجحدها جاحد ولا يعاند عند مشاهدتها معاند ، وقيل الضمير فى فظلوا للملائكة : أى فظل الملائكة يعرجون فى ذلك الباب ، والكفار يشاهدونهم وينظرون صعودهم من ذلك الباب (لقالوا) أى الكفار لفرط عنادهم وزيادة عتوهم (انما سكرت أبصارنا) ، قرأ ابن كثير سكرت بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد ، وهو من سكر الشراب ، أو من السكر ، وهو سدها عن الاحساس ، يقال سكر النهر : اذا سده وحبسه عن الجرى ، ورجح الثانى بقراءة التخفيف . وقال أبو عمرو بن العلاء سكرت : غشيت وغطيت ، ومنه قول الشاعر :

وطلعت شمس عليها مغفر * وجعلت عين الجزور تسكر

وبه قال أبو عبيد وأبو عبيدة ، وروى عن أبى عمرو أيضا أنه من سكر الشراب : أى غشيهم ماغطى أبصارهم كما غشى السكران ماغطى عقله ، وقيل معنى سكرت حبست كما تقدم ، ومنه قول أوس بن حجر :

فصرت على ليلة ساهره * فليست بطلق ولا ساكره

قال النحاس وهذه الأقوال متقاربة (بل نحن قوم مسحورون) أضربوا عن قولهم : سكرت أبصارنا ثم ادعوا أنهم مسحورون : أى سحرهم محمد ﷺ ، وفى هذا بيان لعنادهم العظيم الذى لايقلعهم عنه شىء من الأشياء كائنا ما كان ، فانهم اذا رأوا آية توجب عليهم الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله نسبوا الى أبصارهم أن إدراكها غير حقيقى لعارض السكر ، أوأن عقولهم قد سحرت فصار إدراكهم غير صحيح ، ومن بلغ فى التعنت الى هذا الحد فلا تنفع فيه موعظة ، ولا يهتدى بآية .

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله (تلك آيات الكتاب) قال : التوراة والانجيل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى : تلك آيات الكتاب قال : الكتب التى كانت قبل القرآن وقرآن مبين قال : مبين والله هداه ورشده وخيره . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبى ﷺ فى قوله ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين قال : ود المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم فعرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى الآية قال : هذا فى الجهنميين اذا رأوهم يخرجون من النار . وأخرج سعيد بن منصور وهناد بن السرى فى الزهد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى البعث والنشور عن ابن عباس قال : مازال الله يشفع ويدخل ويشفع ويرحم حتى يقول : من كان مسلما فليدخل الجنة ، فذلك قوله (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) . وأخرج ابن المبارك فى الزهد وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى البعث عن ابن عباس وأنس أنهما تذاكرا هذه الآية (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) فقالا : هذا حيث يجمع الله من أهل الخطايا من المسلمين والمشركين فى النار ، فيقول المشركون : ماأغنى عنكم ماكنتم تعبدون ، فيغضب الله لهم فيخرجهم بفضله ورحمته . وأخرج الطبرانى فى الأوسط وابن مردويه بسند : قال السيوطى صحيح عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ

« ان

XV ١٠-٤٥

« ان ناسا من أمتى يعــذبون بذنوبهم فيكونون فى النار ماشاء الله أن يكونوا ثم يعيرهم أهــل الشرك ، فيقولون مانرى ماكنتم فيــه من تصديقــكم نفعكم فلا يبقى موحــد إلا أخرجه الله من النار ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ربمـا يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » . وأخرج ابن أبى عاصم فى السنة وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا نحوه . وأخرج اسحق بن راهويه وابن حبان والطبرانى وابن مردويه عن أبى سـعيد الخدرى مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج هناد بن السرى والطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم عن أنس مرفوعا نحوه أيضا ، وفى الباب أحاديث فى تعيين هــذا السبب فى نزول هــذه الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا) الآية قال : هؤلاء الـكفرة . وأخرج أيضا عن أبى مالك فى قوله (ذرهم) قال : خل عنهم . وأخرج ابن جرير عن الزهرى فى قوله (ماتسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) قال : نرى انه إذا حضره أجله ، فانه لايؤخر ساعة ولا يقدّم ، وأما مالم يحضر أجله فان الله يؤخر ماشاء ويقــدّم ماشاء ﴿ قلت : وكلام الزهرى هذا لاحاصل له ولا مفاد فيه . وأخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) قال : القرآن . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (ماننزل الملائكه الا بالحق) قال : بالرسالة والعذاب . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (وما كانوا اذا منظرين) قال : وما كانوا لو نزلت الملائكة بمنظرين من أن يعذبوا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد (وانا له لحافظون) قال عندنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فى شيع الأوّلين) قال : أمم الأوّلين . وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس فى قوله (كذلك نسلكه فى قلوب المجرمــين) قال : الشرك نسلكه فى قلوب المشركين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة مثله . وأخرج عبــد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن الحسن مثله أيضا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة (وقد خلت سنة الأوّلين) قال : وقائع الله فيمن خلا من الأمم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله (فظلوا فيــه يعرجون) قال ابن جريج قال : ابن عباس فظلت الملائكة تعرج فنظروا اليهم لقالوا (انمـا سكرت أبصارنا) قال : قريش تقوله . وأخرج عبــد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى الآية عن ابن عباس أيضا يقول : ولو فتحنا عليهم بابا من أبواب السماء فظلت الملائكة تعرج فيه يختلفون فيه ذاهبين وجائين ، لقال أهل الشرك : انما أخذ أبصارنا وشبه علينا ، وانما سحرنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد سكرت أبصارنا : قال سدّت . وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه قال : ومن قرأ سكرت مخففة ، فانه يعنى سحرت .

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا

الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ *

لما ذكر سبحانه كفر الكافرين وعجزهم وعجز أصنامهم ، ذكر قدرته الباهرة وخلقه البديع ليستدل بذلك على وحدانيته ، فقال (ولقد جعلنا فى السماء بروجا) الجعل إن كان بمعنى الخلق ، ففى السماء متعلق به ، وإن كان بمعنى التصيير ففى السماء خبره ، والبروج فى اللغة : القصور والمنازل ، والمراد بها هنا منازل الشمس والقمر والنجوم السيارة ، وهى الاثنا عشر المشهورة كما تدل على ذلك التجربة ، والعرب تعدّ المعرفة بمواقع النجوم ومنازلها من أجلّ العلوم ، ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجدب ، وقالوا الفلك اثنا عشر برجا ، وأسماء هذه البروج : الحمل الثور الجوزاء السرطان الأسد السنبلة الميزان العقرب القوس الجدى الدلو الحوت ، كل ثلاثة منها على طبيعة عنصر من العناصر الأربعة عند المشتغلين بهذا العلم ، ويسمون الحمل والأسد والقوس مثلثة نارية ، والثور والسنبلة والجدى مثلثة أرضية ، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائيـة ، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية . وأصل البروج الظهور ، ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها . وقال الحسن وقتادة البروج : النجوم ، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها ، وقيل : السبعة السيارة منها قاله أبو صالح ، وقيل : هى قصور وبيوت فى السماء فيها حرس ، والضمير فى وزيناها راجع إلى السماء : أى وزينا السماء بالشمس والقمر والنجوم والبروج للناظرين اليها : أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين اذا كان من النظر ، وهو الاستدلال (وحفظناها) أى السماء (من كل شيطان رجيم) قال أبو عبيدة الرجيم المرجوم بالنجوم ، كما فى قوله ــ رجوما للشياطين ــ والرجم فى اللغة هو الرمى بالحجارة ، ثم قيل للعن والطرد والابعاد رجم ، لأن الرمى بالحجارة يوجب هذه المعانى (إلا من استرق السمع) استثناء متصل : أى إلا ممن استرق السمع ، ويجوز أن يكون منقطعا : أى ولكن من استرق السمع (فأتبعه شهاب مبين) والمعنى : حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحى وغيره الا من استرق السمع فانها تتبعه الشهب فتقتله أو تخبله : ومعنى فأتبعه : تبعه ولحقه أو أدركه . والشهاب : الكوكب ، أو النار المشتعلة الساطعة كما فى قوله ــ بشهاب قبس ــ قال ذو الرمّة :

* كأنه كوكب فى اثر عفريت * وسمى الكوكب شهابا لبريقه شبه النار ، والمبين : الظاهر للمبصرين يرونه لا يلتبس عليهم . قال القرطبى ، واختلف فى الشهاب هل يقتل أم لا ، فقال : ابن عباس الشهاب يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل ، وقال الحسن وطائفة يقتل ، فعلى هذا القول فى قتلهم بالشهب قبل القاء السمع إلى الجن قولان : أحدهما أنهم يقتلون قبل القائهم ما استرقوه من السمع الى غيرهم فلا تصل أخبار السماء الى غير الأنبياء ، ولذلك انقطعت الكهانة . والثانى أنهم يقتلون بعد القائهم ما استرقوه من السمع الى غيرهم من الجن . قال ذكره الماوردى ثم قال والقول الأوّل أصح قال : واختلف هل كان رمى بالشهب قبل المبعث ، فقال الأكثرون نعم ، وقيل لا وانما ذلك بعد المبعث ، قال الزجاج والرمى بالشهب من آيات النبى ﷺ مما حدث بعد مولده لأن الشعراء فى القديم لم يذكروه فى أشعارهم . قال كثير من أهل العلم نحن نرى انقضاض الكواكب ، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى ، ثم يصير نارا إذا أدرك الشيطان ، ويجوز أن يقال يرمون بشعلة من نار الهواء فيخيل إلينا أنه نجم يسرى (والأرض مددناها) أى بسطناها وفرشناها كما فى قوله ــ والأرض بعد ذلك دحاها ــ وفى قوله ــ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ــ وفيه ردّ على من زعم أنها كالكرة (وألقينا فيها رواسى) أى جبالا ثابتة لئلا تحرك بأهلها ، وقد تقدم بيان ذلك فى سورة الرعد (وأنبتنا فيها من كل شىء موزون) أى أنبتنا فى الأرض من كل شىء مقدّر معلوم ، فعبر عن ذلك بالوزن لأنه مقدار تعرف به الأشياء ومنه

قول الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مرّة * عندى لكل مخاصم ميزانه

وقيل معنى موزون مقسوم ، وقيل معدود ، والمقصود من الانبات الانشاء والايجاد ، وقيل الضمير راجع الى الجبال : أى أنبتنا فى الجبال من كل شىء موزون من الذهب والفضة والنحاس والرصاص ونحو ذلك وقيل موزون بميزان الحكمة ، ومقدّر بقدر الحاجة ، وقيل الموزون هو المحكوم بحسنه كما يقال كلام موزون : أى حسن (وجعلنا لكم فيها معايش) تعيشون بها من المطاعم والمشارب جمع معيشة ، وقيل هى الملابس ، وقيل هى التصرف فى أسباب الرزق مدّة الحياة . قال الماوردى : وهو الظاهر ؛ قلت بل القول الأوّل أظهر ، ومنه قول جرير :

تكلفنى معيشة آل زيد * ومن لى بالمرقق والصناب

(ومن لستم له برازقين) معطوف على معايش : أى وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين : وهم المماليك والخدم والأولاد الذين رازقهم فى الحقيقة هو الله ، وان ظنّ بعض العباد أنه الرازق لهم باعتبار استقلاله بالكسب ويجوز أن يكون معطوفا على محل لكم : أى جعلنا لكم فيها معايش وجعلنا لمن لستم له برازقين فيها معايش وهم من تقدم ذكره ، ويدخل فى ذلك الدواب على اختلاف أجناسها ، ولا يجوز العطف على الضمير المجرور فى لكم ، لأنه لا يجوز عند الأكثر الا باعادة الجارّ ، وقيل أراد الوحش (وان من شىء إلا عندنا خزائنه) ان هى النافية ومن مزيدة للتأكيد ، وهذا التركيب عام لوقوع النكرة فى حيز النفى مع زيادة من ، ومع لفظ شىء المتناول لكل الموجودات الصادق على كل فرد منها . فأفاد ذلك أن جميع الأشياء عند الله خزائنها لا يخرج منها شىء : والخزائن جمع خزانة . وهى المكان الذى يحفظ فيه نفائس الأمور ، وذكر الخزائن تمثيل لاقتداره على كل مقدور : والمعنى أن كل الممكنات مقدورة ومملوكة يخرجها من العدم الى الوجود بمقدار كيف شاء . وقال جمهور المفسرين : ان المراد بما فى هذه الآية هو المطر ، لأنه سبب الأرزاق والمعايش ، وقيل الخزائن المفاتيح : أى ما من شىء الا عندنا فى السماء مفاتيحه ، والأولى ما ذكرناه من العموم لكل موجود ، بل قد يصدق الشىء على المعدوم على الخلاف المعروف فى ذلك (وما ننزله الا بقدر معلوم) أى ما ننزله من السماء الى الأرض أو نوجده للعباد إلا بقدر معلوم ، والقدر المقدار : والمعنى أن الله سبحانه لا يوجد للعباد شيئا من تلك الأشياء المذكورة إلا متلبسا ذلك الايجاد بمقدار معين حسبما تقتضيه مشيئته على مقدار حاجة العباد اليه كما قال سبحانه ـ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ـ وقد فسر الانزال بالاعطاء ، وفسر بالانشاء ، وفسر بالايجاد والمعنى متقارب ، وجملة وما ننزله معطوفة على مقدّر : أى وان من شىء إلا عندنا خزائنه ننزله وما ننزله ، أو فى محل نصب على الحال (وأرسلنا الرياح لواقح) معطوف على (وجعلنا لكم فيها معايش) وما بينهما اعتراض . قرأ حمزة الريح بالتوحيد . وقرأ من عداه الرياح بالجمع ، وعلى قراءة حمزة فتكون اللام فى الريح للجنس . قال الأزهرى : وجعل الرياح لواقح ، لأنها تحمل السحاب : أى تقله وتصرفه ، ثم تمرّ به فتنزله . قال الله سبحانه ـ حتى اذا أقلت سحابا ثقالا ـ : أى حملت . وناقة لاقح اذا حملت الجنين فى بطنها ، وبه قال الفراء وابن قتيبة ، وقيل لواقح بمعنى ملقحة . قال ابن الأنبارى تقول العرب : أبقل النبت فهو باقل : أى مبقل . والمعنى أنها تلقح الشجر : أى بقوّتها ، وقيل معنى لواقح ذوات لقح . قال الزجاج : معناه وذات لقحة ، لأنها تعصر السحاب وتدره كما تدر اللقحة ، يقال رامح ، أى ذو رمح : ولابن : أى ذو لبن ، وتامر : أى ذو تمر . قال أبو عبيدة لواقح بمعنى ملاقح ذهب الى أنها جمع ملقحة ، وفى هذه الآية تشبيه الرياح التى تحمل الماء بالحامل ، ولقاح

الشجر بلقاح الحمل (وأنزلنا من السماء ماء) أى من السحاب وكل ماعلاك فأظلك فهو سماء ، وقيل من جهة السماء ، والمراد بالماء هنا ماء المطر (فأسقيناكموه) أى جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم . قال أبوعلى : يقال سقيته الماء اذا أعطيته قدرمايروى ، وأسقيته نهرا : أى جعلته شربا له ، وعلى هذا فأسقيناكموه أبلغ من سقيناكموه ، وقيل سقى وأسقى بمعنى واحد (وماأنتم له بخازنين) أى ليست خزائنه عندكم ، بل خزائنه عندنا ، ونحن الخازنون له ، فنفى عنهم سبحانه ماأثبته لنفسه فى قوله ـ وان من شىء الاعندنا خزائنه ـ وقيل المعنى ان ماأنتم له بخازنين بعد أن أنزلناه عليكم : أى لاتقدرون على حفظه فى الآبار والغدران والعيون ، بل نحن الحافظون له فيها ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة اليه (وإنا لنحن نحيى ونميت) أى توجد الحياة فى المخلوقات ونسلبها عنها متى شئنا ، والغرض من ذلك الاستدلال بهذه الأمور على كمال قدرته عزّ وجلّ ، وأنه القادرعلى البعث والنشور والجزاء لعباده على حسب مايستحقونه وتقتضيه مشيئته ، ولهذا قال (ونحن الوارثون) أى للأرض ومن عليها ، لأنه سبحانه الباقى بعد فناء خلقه الحىّ الذى لايموت ، الدائم الذى لاينقطع وجوده ، ـ ولله ميراث السموات والأرض ـ (ولقد علمنا المستقدمين منكم) هذه اللام هى الموطئة للقسم ، وهكذا اللام فى (ولقد علمنا المستأخرين) ، والمراد من تقدّم ولادة وموتا ، ومن تأخر فيهما ، وقيل من تقدّم طاعة ومن تأخر فيها ، وقيل من تقدّم فى صف القتال ومن تأخر ، وقيل المراد بالمستقدمين الأموات ، وبالمستأخرين الأحياء ، وقيل المستقدمين هم الأمم المتقدمون على أمة محمد ، والمستأخرون هم أمة محمد ، وقيل المستقدمون من قتل فى الجهاد والمستأخرون من لم يقتل (وإن ربك هو يحشرهم) أى هو المتولى لذلك القادر عليه دون غيره كما يفيده ضمير الفصل من الحصر ، وفيه أنه سبحانه يجازى المحسن باحسانه ، والمسىء باساءته ، لأنه الأمر المقصود من الحشر (إنه حكيم) يجرى الأمور على ماتقتضيه حكمته البالغة (عليم) أحاط علمه بجميع الأشياء لايخفى عليه شىء منها ، ومن كان كذلك فله القدرة البالغة على كل شىء مما وسعه علمه ، وجرى فيه حكمه سبحانه لاإله إلا هو .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (ولقد جعلنا فى السماء بروجا) قال كواكب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى صالح قال : الكواكب العظام . وأخرج أيضا عن عطية قال : قصورا فى السماء فيها الحرس . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال الرجيم : الملعون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (الا من استرق السمع) أراد أن يخطف السمع كقوله ـ الا من خطف الخطفة ـ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الضحاك قال : كان ابن عباس يقول « ان الشهب لاتقتل ، ولكن تحرق وتخبل وتجرح من غير أن تقتل » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله (وأنبتنا فيها من كل شىء موزون) قال معلوم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا (من كل شىء موزون) قال بقدر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد قال الأشياء التى توزن . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال ماأنبتت الجبال مثل الكحل وشبهه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (ومن لستم له برازقين) قال الدواب والأنعام . وأخرج هؤلاء عن منصور قال الوحش . وأخرج البزار وابن مردويه وأبو الشيخ فى العظمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « خزائن الله الكلام ، فاذا أراد شيئا قال له كن فكان » . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج فى قوله (إلا عندنا خزائنه) قال : المطر خاصة . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن

ابن

ابن عباس قال « مانقص المطر منذ أنزله الله ، ولكن تمطر أرض أكثرمما تمطر أخرى ، ثم قرأ وماننزله إلا بقدر معلوم » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود قال « مامن عام بأمطر من عام ، ولكنّ الله يصرفه حيث يشاء ، ثم قرأ وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » . وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن مسعود في قوله (وأرسلنا الرياح لواقح) قال: يرسل الله الريح فتحمل الماء فتلقح به السحاب فتدرّ كما تدرّ اللقحة ثم تمطر » . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبيد بن عمير قال « يبعث الله المبشرة فتقمّ الأرض قما ، ثم يبعث المثيرة فتثير السحاب فتجعله كسفا ، ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه ، فيجعله ركاما ، ثم يبعث اللواقح فتلقحه فتمطر » . وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير وأبوالشيخ في العظمة وابن مردويه والديلمي بسند ضعيف عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ريح الجنوب من الجنة ، وهي الريح اللواقح التي ذكر الله في كتابه » . وأخرج الطيالسي وسعيد بن منصور وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن خزيمة وابن حبان والطبراني والحاكم وصححه عن ابن عباس قال « كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن النساء ، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأوّل لئلا يراها ، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر ، فاذا ركع نظر من تحت ابطيه ، فأنزل الله ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » ، وهذا الحديث هومن رواية أبي الجوزاء عن ابن عباس . وقد رواه عبدالرزاق وابن المنذرمن قول أبي الجوزاء . قال الترمذي وهذا أشبه أن يكون أصح . وقال ابن كثير في هذا الحديث نكارة شديدة . وأخرج الحاكم وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : المستقدمين الصفوف المقدّمة : والمستأخرين ، الصفوف المؤخرة وقد وردت أحاديث كثيرة في أن خير صفوف الرجال أوّلها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرّها أوّلها . وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء ومقاتل بن حبان أن الآية في صفوف القتال . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال: المستقدمين في طاعة الله : والمستأخرين في معصية الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : يعني بالمستقدمين من مات ، وبالمستأخرين من هو حيّ لم يمت . وأخرج هؤلاء عنه أيضا قال : المستقدمين آدم ومن مضى من ذريته ، والمستأخرين في أصلاب الرجال . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة نحوه .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ * قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا

عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ *

المراد بالانسان فى قوله (ولقد خلقنا الانسان) هو آدم لأنه أصل هذا النوع : والصلصال قال أبو عبيدة هو الطين المخلوط بالرمل الذى يتصلصل اذا حرك . فاذا طبخ فى النار فهو الفخار . وهذا قول أكثر المفسرين وقال الكسائى : هو الطين المنتن ، مأخوذ من قول العرب صلّ اللحم . وأصل اذا أنتن ، مطبوخا كان أو نيئا قال الحطيئة :

ذاك فتى يبذل ذا قدرة * لا يفسد اللحم لديه الصلول

والحمأ : الطين الأسود المتغير . أو الطين الأسود من غير تقييد بالمتغير . قال ابن السكيت : تقول منه حمأت البئر حمأ بالتسكين اذا نزعت حمأتها ، وحمئت البئر حمأ بالتحريك كثرت حمأتها ، وأحميتها احماء ألقيت فيها الحمأة . قال أبو عبيدة : الحمأة بسكون الميم مثل الحمأة يعنى بالتحريك ، والجمع حمء مثل تمرة وتمر والحمأ المصدر مثل الهلع والجزع ، ثم سمى به : والمسنون . قال الفراء : هو المتغير ، وأصله من سننت الحجر على الحجر اذا حككته ، وما يخرج بين الحجرين يقال له السنانة والسنين ، ومنه قول عبد الرحمن بن حسان :

ثم حاصرتها الى القبة الحمرا * تمشى فى مرمر مسنون

أى محكوك : ويقال ، أسن الماء اذا تغير ، ومنه قوله لم يتسنه ، وقوله — ماء غير آسن — ، وكلا الاشتقاقين يدلّ على التغير ، لأن ما يخرج بين الحجرين لا يكون الا منتنا . وقال أبو عبيدة : المسنون المصبوب ، وهو من قول العرب : سننت الماء على الوجه اذا صببته ، والسنّ الصب . وقال سيبويه : المسنون المصوّر ، مأخوذ من سنة الوجه ، وهى صورته ، ومنه قول ذى الرمة :

تريك سنة وجه غير مقرفة * ملساء ليس بها خال ولا ندب

وقال الأخفش : المسنون المنصوب القائم ، من قولهم : وجه مسنون اذا كان فيه طول * والحاصل على هذه الأقوال أن التراب لما بلّ صار طينا ، فلما أنتن صار حمأ مسنونا ، فلما يبس صار صلصالا . فأصل الصلصال : هو الحمأ المسنون . ولهذا وصف بهما (والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم) الجانّ أبو الجنّ عند جمهور المفسرين . وقال عطاء والحسن وقتادة ومقاتل : هو ابليس . وسمى جانا لتواريه عن الأعين . يقال : جن الشىء اذا ستره . فالجانّ يستر نفسه عن أعين بنى آدم ، ومعنى من قبل : من قبل خلق آدم ، والسموم الريح الحادة النافذة فى المسام تكون بالنهار . وقد تكون بالليل كذا قال أبو عبيدة ، وذكر خلق الانسان والجانّ فى هذا الموضع للدلالة على كمال القدرة الالهية ، وبيان أن القادر على النشأة الأولى قادر على النشأة الأخرى (واذ قال ربك للملائكة) الظرف منصوب بفعل مقدّر : أى اذكر ، بين سبحانه بعد ذكره لخلق الانسان ما وقع عند خلقه له . وقد تقدّم تفسير ذلك فى البقرة ، والبشر : مأخوذ من البشرة . وهى ظاهر الجلد . وقد تقدّم تفسير الصلصال والحمأ المسنون قريبا مستوفى (فاذا سوّيته) أى سويت خلقه وعدلت صورته الانسانية وكملت أجزاءه (ونفخت فيه من روحى) النفخ : اجراء الريح فى تجاويف جسم آخر . فمن قال : ان الروح جسم لطيف كالهواء فمعناه ظاهر ، ومن قال : انه جوهر مجرد غير متحيز ولا حالّ فى متحيز . فمعنى النفخ عنده تهيئة البدن لتعلق النفس الناطقة به . قال النيسابورى ولا خلاف فى أن الاضافة

فى

فى روحى للتشريف والتكريم . مثل ناقة الله ، وبيت الله . قال القرطبى : والروح : جسم لطيف أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن مع ذلك الجسم : وحقيقته اضافة خلق الى خالق ، فالروح خلق من خلقه أضافه الى نفسه تشريفا وتكريما ، قال ومثله ـ وروح منه ـ . وقد تقدم فى النساء (فقعوا له ساجدين) الفاء تدل على أن سجودهم واجب عليهم عقب التسوية والنفخ من غير تراخ ، وهو أمر بالوقوع من وقع يقع ، وفيه دليل على أن المأمور به هو السجود لا مجرد الانحناء كما قيل ، وهذا السجود هو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة ولله أن يكرم من يشاء من مخلوقاته كيف يشاء بما يشاء ، وقيل كان السجود لله تعالى وكان آدم قبلة لهم (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) أخبر سبحانه بأن الملائكة سجدوا جميعا عند أمر الله سبحانه لهم بذلك من غير تراخ ، قال المبرد قوله : كلهم أزال احتمال أن بعض الملائكة لم يسجد ، وقوله أجمعون توكيد بعد توكيد ، ورجح هذا الزجاج . قال النيسابورى : وذلك لأن أجمع معرفة فلا يقع حالا ولو صح أن يكون حالا لكان منتصبا ، ثم استثنى ابليس من الملائكة فقال (الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين) قيل هذا الاستثناء متصل لكونه كان من جنس الملائكة ، ولكنه أبى ذلك استكبارا واستعظاما لنفسه وحسدا لآدم فحقت عليه كلمة الله ، وقيل انه لم يكن من الملائكة ولكنه كان معهم فغلب اسم الملائكة عليه وأمر بما أمروا به ، فكان الاستثناء بهذا الاعتبار متصلا ، وقيل ان الاستثناء منفصل بناء على عدم كونه منهم ، وعدم تغليبهم عليه : أى ولكن ابليس أبى أن يكون مع الساجدين ، وقد تقدم الكلام فى هذا فى سورة البقرة ، وجملة (أبى أن يكون مع الساجدين) استئناف مبين لكيفية ما فهم من الاستثناء من عدم السجود ، لأن عدم السجود قد يكون مع التردد فبين سبحانه أنه كان على وجه الاباء ، وجملة (قال يا ابليس مالك أن لا تكون مع الساجدين) مستأنفة أيضا جواب سؤال مقدر كأنه قيل فماذا قال الله سبحانه لابليس بعد أن أبى السجود ؟ وهذا الخطاب له ليس للتشريف والتكريم ، بل للتقريع والتوبيخ : والمعنى : أى غرض لك فى الامتناع : وأى سبب حملك عليه على أن لا تكون مع الساجدين لآدم مع الملائكة وهم فى الشرف وعلو المنزلة والقرب من الله بالمنزلة التى قد علمتها ، وجملة (قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) مستأنفة كالتى قبلها ، جعل العلة لترك سجوده كون آدم بشرا مخلوقا من صلصال من حمأ مسنون زعما منه أنه مخلوق من عنصر أشرف من عنصر آدم ، وفيه اشارة اجمالية فى كونه خيرا منه . وقد صرح بذلك فى موضع آخر . فقال ـ أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ـ وقال فى موضع آخر ـ أأسجد لمن خلقت طينا ـ ، واللام فى لأسجد لتأكيد النفى أى لا يصح ذلك منى ، فأجاب الله سبحانه عليه بقوله (قال فاخرج منها فانك رجيم) والضمير فى منها ، قيل عائد الى الجنة ، وقيل الى السماء ، وقيل الى زمرة الملائكة : أى فاخرج من زمرة الملائكة فانك رجيم أى مرجوم بالشهب . وقيل معنى رجيم ملعون : أى مطرود لأن من يطرد يرجم بالحجارة (وأن عليك اللعنة الى يوم الدين) أى عليك الطرد والابعاد من رحمة الله سبحانه مستمرا عليك لازما لك الى يوم الجزاء ، وهو يوم القيامة ، وجعل يوم الدين غاية للعنة لا يستلزم انقطاعها فى ذلك الوقت ، لأن المراد دوامها من غير انقطاع ، وذكر يوم الدين للمبالغة كما فى قوله تعالى ـ ما دامت السموات والأرض ـ أو أن المراد انه فى يوم الدين وما بعده يعذب بما هو أشد من اللعن من أنواع العذاب ، فكأنه لا يجد له ما كان يجده قبل أن يمسه العذاب (قال رب فأنظرنى) أى أخرنى وأمهلنى ولا تمتنى الى يوم يبعثون : أى آدم وذريته . طلب أن يبقى حيا الى هذا اليوم لما سمع ذلك علم أن الله قد أخر عذابه الى الدار الآخرة وكأنه طلب أن لا يموت أبدا ، لانه اذا أخر موته إلى ذلك اليوم فهو يوم لا موت فيه ، وقيل انه لم يطلب أن لا يموت ، بل طلب أن يؤخر عذابه

الى يوم القيامة ولا يعذب فى الدنيا (قال فانك من المنظرين) لما سأل الانظار أجابه الله سبحانه الى ماطلبه وأخبره بأنه من جملة من أنظره ممن أخر آجالهم من مخلوقاته ، أو من جملة من أخر عقوبتهم بما اقترفوا ، ثم بين سبحانه الغاية التى أمهله اليها . فقال (إلى يوم الوقت المعلوم) وهو يوم القيامة ، فان يوم الدين ويوم يبعثون ويوم الوقت المعلوم كلها عبارات عن يوم القيامة ، وقيل المراد بالوقت المعلوم هو الوقت القريب من البعث ، فعند ذلك يموت (قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض) الباء للقسم ، وما مصدرية ، وجواب القسم لأزينن لهم : أى أقسم باغوائك اياى لأزينن لهم فى الأرض : أى ماداموا فى الدنيا : والتزيين منه اما بتحسين المعاصى لهم وايقاعهم فيها ، أو بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل ماأمرهم الله به فلا يلتفتون الى غيرها . وإقسامه هاهنا باغواء الله له لاينافى إقسامه فى موضع آخر بعزة الله التى هى سلطانه وقهره ، لأن الاغواء له هو من جملة ماتصدق عليه العزة (ولأغوينهم أجمعين) أى لأضلنهم عن طريق الهدى وأوقعهم فى طريق الغواية وأحملهم عليها (إلا عبادك منهم المخلصين) قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام : أى الذين استخلصتهم من العباد . وقرأ الباقون بكسر اللام : أى الذين أخلصوا لك العبادة فلم يقصدوا بها غيرك (قال هذا صراط علىّ مستقيم) أى حق علىّ أن أراعيه ، وهو أن لايكون لك على عبادى سلطان . قال الكسائى : هذا على الوعيد والتهديد ، كقولك لمن تهدده طريقك علىّ ومصيرك الىّ ، وكقوله ــ ان ربك لبالمرصاد ــ فكأن معنى هذا الكلام هذا طريق مرجعه الىّ فأجازى كلا بعمله ، وقيل على هنا بمعنى الى ، وقيل المعنى على أن أدلّ على الصراط المستقيم بالبيان والحجة ، وقيل بالتوفيق والهداية . وقرأ ابن سيرين وقتادة والحسن وقيس بن عباد وأبو رجاء وحميد ويعقوب هـذا صراط علىّ على أنه صفة مشبهة ، ومعناه رفيع (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان) المراد بالعباد هنا هم المخلصون ، والمراد أنه لاتسلط له عليهم بايقاعهم فى ذنب يهلكون به ولا يتوبون منه ، فلاينافى هذا ماوقع من آدم وحواء ونحوهما فانه ذنب مغفور لوقوع التوبة عنـه (الا من اتبعك من الغاوين) استثنى سبحانه من عباده هؤلاء ، وهم المتبعون لابليس من الغاوين عن طريق الحقّ الواقعين فى الضلال ، وهو موافق لما قاله ابليس اللعين من قوله : لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين ، ويمكن أن يقال ان بين الكلامين فرقا . فكلام الله سبحانه فيـه نفى سلطان ابليس على جميع عباده الا من اتبعه من الغاوين فيدخل فى ذلك المخلصون وغيرهم ممن لم يتبع ابليس من الغاوين ، وكلام ابليس اللعين يتضمن اغواء الجميع الا المخلصين فدخل فيهم من لم يكن مخلصا ولاتابعا لابليس غاويا * والحاصل أن بين المخلصين والغاوين التابعين لابليس طائفة لم تكن مخلصة ولاغاوية تابعة لابليس ، وقد قيل ان الغاوين المتبعين لابليس هم المشركون ، ويدلّ على ذلك قوله تعالى ــ انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ــ ، ثم قال الله سبحانه متوعدا أتباع ابليس (وان جهنم لموعدهم أجمعين) أى موعد المتبعين الغاوين ، وأجمعين تأكيد للضمير أوحال (لها سبعة أبواب) يدخل أهل النار منها وانما كانت سبعة لكثرة أهلها (لكل باب منهم) أى من الاتباع الغواة (جزء مقسوم) أى قدر معلوم متميز عن غيره ، وقيل المراد بالأبواب : الأطباق طبق فوق طبق ، وهى جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية ، فأعلاها للموحدين ، والثانية لليهود ، والثالثة للنصارى ، والرابعة للصابئين ، والخامسة للمجوس ، والسادسة للمشركين ، والسابعة للمنافقين ، فجهنم أعلى الطباق ، ثم مابعدها تحتها ، ثم كذلك ، كذا قيل .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس قال : خلق الانسان من ثلاث من طين لازب ، وصلصال ، وحمأ مسنون ، فالطين اللازب : اللازم الجيد ، والصلصال : المدقق الذى يصنع

منه الفخار ، والحمأ المسنون : الطين الذى فيه الحمأة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه قال الصلصال : الماء يقع على الأرض الطيبة ثم يحسر عنها فتشقق ثم تصير مثل الخزف الرقاق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال الصلصال : هو التراب اليابس الذى يبل بعد يبسه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال الصلصال : طين خلط برمل . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا ، قال : الصلصال الذى اذا ضربته صلصل . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا . قال الصلصال : الطين تعصر بيدك فيخرج الماء من بين أصابعك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (من حمأ مسنون) قال : من طين رطب . وأخرج هؤلاء عنه أيضا من حمأ مسنون قال : من طين منتن . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الجانّ مسيخ الجنّ كالقردة والخنازير مسيخ الانس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : الجانّ . هو ابليس خلق من قبل آدم وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم) قال : من أحسن النار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : نار السموم الحارة التى تقتل . وأخرج الطيالسى والفريابى وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال : السموم . التى خلق منها الجانّ جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ، ثم قرأ والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم . وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله قال رب فأنظرنى الى يوم يبعثون قال : أراد ابليس لايذوق الموت فقيل انك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم قال النفخة الأولى يموت فيها ابليس و بين النفخة والنفخة أربعون سنة . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر عن ابن سيرين (هذا صراط علىّ مستقيم) : أى رفيع . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (لها سبعة أبواب) بعدد أطباق جهنم كما قدمنا . وأخرج ابن المبارك وابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد وهناد وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا فى صفة النار وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث من طرق عن علىّ قال : أطباق جهنم سبعة بعضها فوق بعض ، فيملأ الأول ، ثم الثانى ، ثم الثالث حتى تملأ كلها ، وأخرج البخارى فى تاريخه والترمذى وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « لجهنم سبعة أبواب : باب منها لمن سلّ السيف على أمتى » . وقد ورد فى صفة النار أحاديث وآثار . وأخرج ابن مردويه والخطيب فى تاريخه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « فى قوله تعالى (لكل باب منهم جزء مقسوم) قال : جزء أشركوا بالله ، وجزء شكوا فى الله ، وجزء غفلوا عن الله » .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ * نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ * وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَٰكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَٰنِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا الضَّآلُّونَ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ

قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ * فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ *

قوله (ان المتقين فى جنات وعيون) أى المتقين للشرك بالله كما قاله جمهور الصحابة والتابعين ، وقيل هم الذين اتقوا جميع المعاصى فى جنات ، وهى البساتين ، وعيون ، وهى الأنهار ، قرئ بضم العين من عيون على الأصل ، وبالكسر مراعاة للياء ، والتركيب يحتمل أن يكون لجميع المتقين جنات وعيون ، أو لكل واحد منهم جنات وعيون ، أو لكل واحد منهم جنة وعين (ادخلوها) ، قرأ الجمهور بلفظ الأمر على تقدير القول : أى قيل لهم ادخلوها ، وقرأ الحسن وأبو العالية ، وروى عن يعقوب بضم الهمزة مقطوعة ، وفتح الخاء على أنه فعل مبنى للمفعول : أى أدخلهم الله إياها * وقد قيل انهم اذا كانوا فى جنات وعيون ، فكيف يقال لهم بعد ذلك ادخلوها على قراءة الجمهور ؟ فان الأمر لهم بالدخول يشعر بأنهم لم يكونوا فيها * وأجيب بأن المعنى أنهم لما صاروا فى الجنات ، فاذا انتقلوا من بعضها إلى بعض يقال لهم عند الوصول الى التى أرادوا الانتقال اليها ادخلوها ، ومعنى (بسلام آمنين) بسلامة من الآفات ، وأمن من المخافات ، أو مسلمين على بعضهم بعضا ، أو مسلما عليهم من الملائكة ، أو من الله عزّ وجلّ (ونزعنا ما فى صدورهم من غلّ) الغلّ : الحقد والعداوة ، وقدم تفسيره فى الأعراف ، وانتصاب (اخوانا) على الحال : أى اخوة فى الدين والتعاطف (على سرر متقابلين) أى حال كونهم على سرر ، وعلى صورة مخصوصة ، وهى التقابل ، ينظر بعضهم الى وجه بعض ، والسرر جمع سرير ، وقيل هو المجلس الرفيع المهيأ للسرور ، ومنه قولهم : سرّ الوادى لأفضل موضع منه (لا يمسهم فيها نصب) أى تعب واعياء لعدم وجود ما يتسبب عنه ذلك فى الجنة ، لأنها نعيم خالص ، ولذة محضة تحصل لهم بسهولة ، وتوافيهم مطالبهم بلا كسب ولا جهد ، بل بمجرد خطور شهوة الشىء بقلوبهم يحصل ذلك الشىء عندهم صفوا عفوا (وما هم منها بمخرجين) أبدا ، وفى هذا الخلود الدائم وعلمهم به تمام اللذة ، وكمال النعيم ، فان علم من هو فى نعمة ولذة بانقطاعها وعدمها بعد حين موجب لتنغص نعيمه وتكدر لذته ، ثم قال سبحانه بعد أن قصّ علينا ما للمتقين عنده من الجزاء العظيم ، والأجر الجزيل (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) أى أخبرهم يا محمد أنى أنا الكثير المغفرة لذنوبهم ، الكثير الرحمة لهم ، كما حكمت به على نفسى « ان رحمتى سبقت غضبى » : اللهم اجعلنا من عبادك الذين تفضلت عليهم بالمغفرة ، وأدخلتهم تحت واسع الرحمة : ثم انه سبحانه لما أمر رسوله بأن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة ، أمره بأن يذكر لهم شيئا مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف ، ويتقابل التبشير والتحذير ليكونوا راجين خائفين ، فقال (وأن عذابى هو العذاب الأليم) أى الكثير الايلام ، وعند أن جمع الله لعباده بين هذين الأمرين : من التبشير والتحذير صاروا فى حالة وسطا بين اليأس والرجاء ، وخير الأمور أوساطها ، وهى القيام على قدمى الرجاء والخوف ، وبين حالتى الأنس والهيبة ، وجملة (ونبئهم عن ضيف ابراهيم) معطوفة على جملة نبئ عبادى : أى أخبرهم بما

جرى على ابراهيم من الأمر الذى اجتمع فيه له الرجاء والخوف ، والتبشير الذى خالطه نوع من الوجل ليعتبروا بذلك و يعلموا أنها سنة الله سبحانه فى عباده ، وأيضا لما اشتملت القصة على انجاء المؤمنين واهلاك الظالمين كان فى ذلك تقريرا لكونه الغفور الرحيم وان عذابه هو العذاب الأليم ، وقد مر تفسير هذه القصة فى سورة هود ، وانتصاب (اذ دخلوا عليه) بفعل مضمر معطوف على « نبئ عبادى » أى واذكر لهم دخولهم عليه ، أو فى محل نصب على الحال ، والضيف فى الأصل مصدر ، ولذلك وحد وان كانوا جماعة ، وسمى ضيفا لاضافته الى المضيف (فقالوا سلاما) أى سلمنا سلاما (قال إنا منكم وجلون) أى فزعون خائفون ، وانما قال هذا بعد أن قرب اليهم العجل فرآهم لايأكلون منه كما تقدم فى سورة هود — فلما رأى أيديهم لاتصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة — ، وقيل أنكر السلام منهم لأنه لم يكن فى بلادهم ، وقيل أنكر دخولهم عليه بغير استئذان (قالوا لاتوجل) أى قالت الملائكة لاتخف ، وقرئ لاناجل ولاتوجل من أوجله : أى أخافه ، وجملة (انا نبشرك بغلام عليم) مستأنفة لتعليل النهى عن الوجل ، والعليم : كثير العلم ، وقيل هو الحليم كما وقع فى موضع آخر من القرآن ، وهذا الغلام : هو اسحاق كما تقدّم فى هود ، ولم يسمه هنا ولاذكر التبشير يعقوب اكتفاء بما سلف (قال أبشرتمونى) . قرأ الجمهور بألف الاستفهام . وقرأ الأعمش بشرتمونى بغير ألف (على أن مسنى الكبر) فى محل نصب على الحال : أى مع حالة الكبر والهرم (فبم تبشرون) استفهام تعجب ، كأنه عجب من حصول الولد له مع ماقد صار اليه من الهرم الذى جرت العادة بأنه لايولد لمن بلغ اليه * والمعنى فبأىّ شىء تبشرون ، فان البشارة بما لايكون عادة لاتصح . وقرأ نافع تبشرون بكسر النون والتخفيف وابقاء الكسرة لتدلّ على الياء المحذوفة . وقرأ ابن كثير وابن محيصن بكسر النون مشدّدة على ادغام النون فى النون ، وأصله تبشروننى . وقرأ الباقون تبشرون بفتح النون (قالوا بشرناك بالحق) أى باليقين الذى لاخلف فيه ، فان ذلك وعد الله وهو لايخلف الميعاد ولايستحيل عليه شىء ، فانه القادر على كل شىء (فلا تكن من القانطين) هكذا قرأ الجمهور باثبات الألف . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب من القنطين بغير ألف ، وروى ذلك عن أبى عمرو : أى من الآيسين من ذلك الذى بشرناك به (قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون) قرئ بفتح النون من يقنط وبكسرها وهما لغتان . وحكى فيه ضم النون : والضالون المكذبون ، أو المخطئون الذاهبون عن طريق الصواب: أى انما استبعدت الولد لكبر سنى لا لقنوطى من رحمة ربى ، ثم سألهم عما لأجله أرسلهم الله سبحانه ف(قال فما خطبكم أيها المرسلون) الخطب : الأمر الخطير والشأن العظيم : أى فما أمركم وشأنكم وما الذى جئتم به غير ماقد بشرتمونى به ، وكأنه قد فهم أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة ، بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا (قالوا إنا أرسلنا الى قوم مجرمين) أى الى قوم لهم اجرام ، فيدخل تحت ذلك الشرك وما هو دونه وهؤلاء القوم : هم قوم لوط ، ثم استثنى منهم من ليسوا مجرمين فقال (إلا آل لوط) وهو استثناء متصل ، لأنه من الضمير فى مجرمين ، ولو كان من قوم لكان منقطعا لكونهم قد وصفوا بكونهم مجرمين ، وليس آل لوط مجرمين ، ثم ذكر ماسيختص به آل لوط من الكرامة لعدم دخولهم مع القوم فى اجرامهم فقال (انا لمنجوهم أجمعين) أى آل لوط ، وهم أتباعه وأهل دينه ، وهذه الجملة مستأنفة على تقدير كون الاستثناء متصلا كأنه قيل ماذا يكون حال آل لوط ؟ فقال : انا لمنجوهم أجمعين ، وأما على تقدير كون الاستثناء منقطعا فهى خبر : أى لكن آل لوط ناجون من عذابنا . وقرأ حمزة والكسائى لمنجوهم بالتخفيف من أنجا . وقرأ الباقون بالتشديد من نجى ، واختار هذه القراءة الأخيرة أبو عبيد وأبو حاتم : والتنجية والانجاء التخليص مما وقع فيه غيرهم (إلا امرأته) هذا الاستثناء من الضمير فى منجوهم إخراجا لها من التنجية : أى

الا امرأته فليست ممن ننجيه بل ممن نهلكه ، وقيل ان الاستثناء من آل لوط باعتبار ماحكم لهم به من التنجية * والمعنى قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين لنهلكهم الا آل لوط انا لمنجوهم الا امرأته فانها من الهالكين ، ومعنى (قدرنا أنها لمن الغابرين) قضينا وحكمنا أنها من الباقين فى العذاب مع الكفرة ، والغابر الباقى ، قال الشاعر :

لاتكسع الشول بأغبارها * انك لاتدرى من الناتج

والاغبار : بقايا اللبن . قال الزجاج : معنى قدرنا دبرنا وهو قريب من معنا قضينا ، وأصل التقدير : جعل الشيء على مقدار الكفاية . وقرأ عاصم من رواية أبى بكر والمفضل قدرنا بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد قال الهروى : هما بمعنى ، وانما أسند التقدير الى الملائكة مع كونه من فعل الله سبحانه لما لهم من القرب عند الله (فلما جاء آل لوط المرسلون) هذه الجملة مستأنفة لبيان اهلاك من يستحق الهلاك وتنجية من يستحق النجاة (قال انكم قوم منكرون) أى قال لوط مخاطبا لهم انكم قوم منكرون : أى لا أعرفكم بل أنكركم (قالوا بل جئناك بما كانو فيه يمترون) أى بالعذاب الذى كانوا يشكون فيه : فالاضراب هو عن مجيئهم بما ينكره ، كأنهم قالوا : ماجئناك بما خطر ببالك من المكروه ، بل جئناك بما فيه سرورك ، وهو عذابهم الذى كنت تحذرهم منه وهم يكذبونك (وأتيناك بالحق) أى باليقين الذى لامرية فيه ولاتردد : وهو العذاب النازل بهم لامحالة (وانا لصادقون) فى ذلك الخبر الذى أخبرناك . وقد تقدم تفسير قوله (فاسر بأهلك بقطع من الليل) فى سورة هود (واتبع أدبارهم) أى كن من ورائهم تذودهم لئلا يتخلف منهم أحد فيناله العذاب (ولايلتفت منكم أحد) أى لاتلتفت أنت ولايلتفت أحد منهم فيرى مانزل بهم من العذاب فيشتغل بالنظر فى ذلك ويتباطأ عن سرعة السير والبعد عن ديار الظالمين ، وقيل معنى لايلتفت : لايتخلف (وامضوا حيث تؤمرون) أى الى الجهة التى أمركم الله سبحانه بالمضىّ اليها : وهى جهة الشام ، وقيل مصر ، وقيل قرية من قرى لوط ، وقيل أرض الخليل (وقضينا اليه) أى أوحينا الى لوط (ذلك الأمر) وهو اهلاك قومه ، ثم فسره بقوله (أن دابر هولا مقطوع) قال الزجاج : موضع أن نصب ، وهو بدل من ذلك الأمر : والدابر هو الآخر : أى ان آخر من يبق منهم يهلك وقت الصبح ، وانتصاب (مصبحين) على الحال : أى حال كونهم داخلين فى وقت الصبح ، ومثله ــ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ــ .

وقدأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله (آمنين) قال : آمنوا الموت فلايموتون ولا يكبرون ولايسقمون ولا يعرون ولايجوعون . وأخرج ابن جرير عن علىّ (ونزعنا مافى صدورهم من غلّ) قال : العداوة . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن الحسن البصرى قال : قال علىّ بن أبى طالب فينا والله أهل الجنة نزلت (ونزعنا مافى صدورهم من غلّ اخوانا على سرر متقابلين) . وأخرج ابن عساكر وابن مردويه عنه فى الآية قال : نزلت فى ثلاثة أحياء من العرب ، فى بنى هاشم ، و بنى تيم ، و بنى عدى فىّ وفى أبى بكر وعمر . وأخرج ابن أبى حاتم وابن عساكر عن كثير النواء . قال : قلت لأبى جعفر ان فلانا حدثنى عن علىّ بن الحسين أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر وعمر وعلىّ (ونزعنا مافى صدورهم من غلّ) قال والله انها لفيهم أنزلت وفيمن تنزل الافيهم ، قلت : وأىّ غلّ هو ؟ قال غلّ الجاهلية ، ان بنى تيم و بنى عدىّ و بنى هاشم كان بينهم فى الجاهلية فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا فأخذت أبا بكر الخاصرة فجعل علىّ يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبى بكر ، فنزلت هذه الآية . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه عن علىّ من طرق أنه قال لابن طلحة : انى لأرجو أن

أكون

أكون أنا وأبوك من الذين قال الله فيهم (ونزعنا ما فى صدورهم) الآية ، فقال رجل من همدان : الله أعدل من ذلك ، فصاح علىّ صيحة عليه تداعى لها القصر . وقال فيمن إذن ان لم نكن نحن أولئك . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة والطبرانى وابن مردويه عن علىّ قال : انى لأرجو أن أكون أنا وعثمان والزبير وطلحة فيمن قال الله (ونزعنا ما فى صدورهم من غلّ) . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى هذه الآية قال نزلت فى عشرة : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان وعلىّ ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وسعيد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود . وأخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى صالح موقوفا عليه . وأخرج ابن أبى شيبة وهناد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (على سرر متقابلين) قال لايرى بعضهم قفا بعض . وأخرجه ابن المنذر وابن مردويه عن مجاهد عن ابن عباس . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وأبو القاسم البغوى وابن مردويه وابن عساكر عن زيد بن أبى أوفى قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية (اخوانا على سرر متقابلين) قال المتحابون فى الله فى الجنة ينظر بعضهم الى بعض . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (لايمسهم فيها نصب) قال : المشقة والأذى . وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق عطاء بن أبى رباح عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : اطلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذى يدخل منه بنو شيبة فقال : ألا أراكم تضحكون ، ثم أدبر حتى اذا كان عند الحجر رجع القهقرى ؟ فقال : انى لما خرجت جاء جبريل فقال يامحمد ان الله عزّ وجلّ يقول : لم تقنط عبادى ؟ (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مصعب بن ثابت قال : مرّ النبى ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال «اذكروا الجنة واذكروا النار» فنزلت نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأخرج الطبرانى والبزار وابن مردويه عن عبدالله بن الزبير قال : مرّ النبى ﷺ فذكر نحوه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «ان الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة ، وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر كل الذىّ عند الله من رحمته لم ييأس من الرحمة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار» وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة (قالوا لاتوجل) لاتخف . وأخرج بن أبى حاتم عن السدّى (من القانطين) قال : الآيسين . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة (انها لمن الغابرين) يعنى الباقين فى عذاب الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (انكم قوم منكرون) قال : أنكرهم لوط ، وفى قوله (بما كانوا فيه يمترون) قال : بعذاب قوم لوط . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة (بما كانوا فيه يمترون) قال : يشكون . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (واتبع أدبارهم) قال : أمر أن يكون خلف أهله يتبع أدبارهم فى آخرهم اذا مشوا . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى (وامضوا حيث تؤمرون) قال : أخرجهم الله الى الشام . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد (وقضينا اليه ذلك الأمر) قال : أوحيناه اليه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (أن دابر هؤلاء مقطوع) يعنى استئصال هلاكهم .

وَجَاءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ * قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ

يَعْمَهُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ *

ذكر سبحانه ما كان من قوم لوط عند وصول الملائكة الى قريتهم فقال (وجاء أهل المدينة يستبشرون) أى أهل مدينة قوم لوط، وهى سدوم كما سبق، وجملة يستبشرن فى محل نصب على الحال: أى مستبشرين بأضياف لوط طمعا فى ارتكاب الفاحشة منهم ف(قال) لهم لوط (ان هؤلاء ضيفى) وحد الضيف لأنه مصدر كما تقدم، والمراد أضيافى، وسماهم ضيفا لأنه رآهم على هيئة الأضياف، وقومه رأوهم مردا حسان الوجوه، فلذلك طمعوا فيهم (فلا تفضحون) يقال: فضحه يفضحه فضيحة وفضحا، اذا أظهر من أمره مايلزمه العار باظهاره * والمعنى لاتفضحون عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة فيعلمون انى عاجز عن حماية من نزل بى، أولاتفضحون بفضيحة ضيفى، فان من فعل مايفضح الضيف فقدفعل مايفضح المضيف (واتقوا الله) فى أمرهم (ولاتخزون) يجوز أن تكون من الخزى: وهو الذلّ والهوان، ويجوز أن يكون من الخزاية وهى الحياء والخجل، وقد تقدّم تفسير ذلك فى هود (قالوا): أى قوم لوط مجيبين له (أولم ننهك عن العالمين) الاستفهام للانكار، والواو للعطف على مقدّر: أى ألم نتقدّم اليك وننهك عن أن تكلمنا فى شأن أحد من الناس اذا قصدناه بالفاحشة، وقيل نهوه عن ضيافة الناس، ويجوز حمل مافى الآية على ماهو أعمّ من هذين الأمرين (قال هؤلاء بناتى) فتزوّجوهنّ (ان كنتم فاعلين) ماعزمتم عليه من فعل الفاحشة بضيفى فهؤلاء بناتى تزوّجوهنّ حلالا ولاتركبوا الحرام، وقيل أراد ببناته نساء قومه، لكون النبيّ بمنزلة الأب لقومه، وقد تقدّم تفسير هذا فى هود (لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون) العمر والعمر بالفتح والضم واحد، لكنهم خصوا القسم بالمفتوح لايثار الأخف فانه كثير الدور على ألسنتهم، ذكر ذلك الزجاج. قال القاضى عياض: اتفق أهل التفسير فى هذا أنه قسم من الله جلّ جلاله بمدة حياة محمد ﷺ، وكذا حكى اجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربى. فقال قال المفسرون بأجمعهم أقسم الله تعالى هاهنا بحياة محمد ﷺ تشريفا له. قال أبو الجوزاء: ما أقسم الله سبحانه بحياة أحد غير محمد ﷺ لأنه أكرم البرية عنده. قال ابن العربى: ما الذى يمتنع أن يقسم الله سبحانه بحياة لوط ويبلغ به من التشريف ماشاء، وكل مايعطيه الله تعالى للوط من فضل يؤتى ضعفه من شرف لمحمد ﷺ؟ لأنه أكرم على الله منه، أو لاتراه سبحانه أعطى ابرهيم الخلة، وموسى التكليم، وأعطى ذلك لمحمد ﷺ فاذا أقسم الله سبحانه بحياة لوط فحياة محمد أرفع. قال القرطبى ماقاله حسن فانه يكون قسمه سبحانه بحياة محمد ﷺ كلاما معترضا فى قصة لوط * فان قيل قد أقسم الله سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين، ونحو ذلك فما فيهما من فضل؟ * وأجيب بأنه مامن شىء أقسم الله به إلا وفى ذلك دلالة على فضله على جنسه، وذكر صاحب الكشاف وأتباعه أن هذا القسم هو من الملائكة على إرادة القول: أى قالت الملائكة للوط لعمرك ثم قال: وقيل الخطاب لرسول الله ﷺ وانه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له انتهى * وقد كره كثير من العلماء القسم بغير الله سبحانه وجاءت بذلك الأحاديث الصحيحة فى النهى عن القسم بغير الله فليس لعباده أن يقسموا بغيره، وهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته ــ لايسأل عما يفعل وهم يسألون ــ، وقيل الاقسام منه سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين، والنجم، والضحى، والشمس، والليل، ونحو ذلك هو على حذف مضاف هو المقسم به: أى وخالق التين وكذلك مابعده، وفى قوله لعمرك: أى وخالق عمرك، ومعنى انهم لفى سكرتهم يعمهون: لفى

غوايتهم يتحيرون ، جعل الغواية لكونها تذهب بعقل صاحبها كما تذهب به الخمر سكرة ، والضمير لقريش على أن القسم بمحمد ﷺ ، أو لقوم لوط على أن القسم بلوط عليه السلام (فأخذتهم الصيحة) العظيمة أو صيحة جبريل حال كونهم (مشرقين) أى داخلين فى وقت الشروق ، يقال أشرقت الشمس : أى أضاءت ، وشرقت اذا طلعت ، وقيل هما لغتان بمعنى واحد ، وأشرق القوم اذا دخلوا فى وقت شروق الشمس ، وقيل أراد شروق الفجر ، وقيل أول العذاب كان عند شروق الفجر وامتد الى طلوع الشمس . والصيحة العذاب (فجعلنا عاليها سافلها) أى عالى المدينة سافلها (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) من طين متحجر ، وقد تقدم الكلام مستوفى على هذا فى سورة هود (ان فى ذلك) أى فى المذكور من قصتهم و بيان ما أصابهم (لآيات) لعلامات يستدل بها (للمتوسمين) للمتفكرين الناظرين فى الأمر ، ومنه قول زهير .

وفيهن ملهى للصديق ومنظر * أنيق لعين الناظر المتوسم

وقال الآخر

أو كلما وردت عكاظ قبيلة * بعثوا الى عريفهم يتوسم

وقال أبو عبيدة : للمتبصرين ، وقال ثعلب : الواسم الناظر اليك من قرنك الى قدمك * والمعنى متقارب وأصل التوسم التثبت والتفكر ، مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة فى جلد البعير (وانها لسبيل مقيم) يعنى قرى قوم لوط أو مدينتهم على طريق ثابت وهى الطريق من المدينة الى الشام فان السالك فى هذه الطريق يمر بتلك القرى (ان فى ذلك) المذكور من المدينة أو القرى (لآية للمؤمنين) يعتبرون بها فان المؤمنين من العباد هم الذين يعتبرون بما يشاهدونه من الآثار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وجاء أهل المدينة يستبشرون) قال استبشروا بأضياف نبى الله لوط حين نزلوا به لما أرادوا أن يأتوا اليهم من المنكر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (أولم ننهك عن العالمين) قال يقولون أولم ننهك أن تضيف أحدا أو تؤويه . (قال هؤلاء بناتى ان كنتم فاعلين) أمرهم لوط بتزويج النساء وأراد أن يقى أضيافه ببناته . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس قال : ماخلق الله وماذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد ﷺ وماسمعت الله أقسم بحياة أحد غيره . قال (لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون) يقول وحياتك يامحمد وعمرك و بقائك فى الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله لعمرك . قال لعيشك . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال . ماحلف الله بحياة أحد إلا بحياة محمد . قال لعمرك الآية . وأخرج ابن جرير عن ابراهيم النخعى قال : كانوا يكرهون أن يقول الرجل لعمرى يرونه كقوله وحياتى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة (انهم لفى سكرتهم يعمهون) أى فى ضلالهم يلعبون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الأعمش فى الآية لفى غفلتهم يترددون . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فأخذتهم الصيحة مثل الصاعقة ، وكل شىء أهلك قوم فهو صاعقة وصيحة . وأخرج ابن جرير عنه (مشرقين) قال حين أشرقت الشمس . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم عن ابن عباس فى قوله (ان فى ذلك لآية) قال علامة أماترى الرجل يرسل خاتمة الى أهله ، فيقول هاتوا كذا وكذا ، فاذا رأوه عرفوا أنه حق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه (للمتوسمين) قال : للناظرين . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن قتادة قال : للمعتبرين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال . للمتفرسين ، وأخرج البخارى فى التاريخ والترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن السنى وأبو نعيم وابن مردويه والخطيب عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر

بنور الله ثم قرأ ان فى ذلك لآيات للمتوسمين » . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (وانها لبسبيل مقيم) يقول لبهلاك . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : لبطريق مقيم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : لبطريق واضح .

وَإِنْ كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ * فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ * وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَٰهُمْ آيَٰتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ *

قوله (وان كان أصحاب الأيكة) أن هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضميرا الشأن المحذوف : أى وان الشان كان أصحاب الأيكة . والأيكة الغيضة ، وهى جماع الشجر ، والجمع الأيك ، ويروى أن شجرهم كان دوما ، وهو المقل ، فالمعنى وان كان أصحاب الشجر المجتمع ، وقيل الأيكة اسم القرية التى كانوا فيها ، قال أبو عبيدة الأيكة وليكة مدينتهم كمكة و بكة ، وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب ، وقد تقدم خبرهم ، واقتصر الله سبحانه هنا على وصفهم بالظلم ، وقد فصل ذلك الظلم فيما سبق ، والضمير فى (وانهما لبامام مبين) يرجع الى مدينة قوم لوط ، ومكان أصحاب الأيكة : أى وان المكانين لبطريق واضح ، والامام اسم لما يؤتم به ، ومن جملة ذلك الطريق التى تسلك . قال الفراء والزجاج : سمى الطريق اماما لأنه يؤتم ويتبع ، وقال ابن قتيبة لأن المسافر يأتم به حتى يصل إلى الموضع الذى يريده ، وقيل الضمير للأيكة ومدين ، لأن شعيبا كان ينسب اليهما ، ثم ان الله سبحانه ختم القصص بقصة ثمود ، فقال (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) الحجر اسم لديار ثمود . قاله الأزهرى ، وهى مابين مكة وتبوك . وقال ابن جرير هى أرض بين الحجاز والشام . وقال : المرسلين ، ولم يرسل اليهم الا صالح ، لأن من كذب واحدا من الرسل فقد كذب الباقين لكونهم متفقين فى الدعوة إلى الله ، وقيل كذبوا صالحا ومن تقدمه من الأنبياء ، وقيل كذبوا صالحا ومن معه من المؤمنين (وآتيناهم آياتنا) أى الآيات المنزلة على نبيهم ، ومن جملتها الناقة فان فيها آيات جمة كخروجها من الصخرة ودنو نتاجها عند خروجها وعظمها وكثرة لبنها (فكانوا عنها معرضين) أى غير معتبرين ، ولهذا عقروا الناقة وخالفوا ما أمرهم به نبيهم (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا) النحت فى كلام العرب البرى والنجر ، نحته ينحته بالكسر نحتا : أى براه ، وفى التنزيل ـ أتعبدون ما تنحتون ـ أى تنجرون ، وكانوا يتخذون لأنفسهم من الجبال بيوتا : أى يخرقونها فى الجبال ، وانتصاب (آمنين) على الحال . قال الفراء آمنين من أن يقع عليهم ، وقيل آمنين من الموت ، وقيل من العذاب ركونا منهم على قوتها ووثاقتها (فأخذتهم الصيحة مصبحين) أى داخلين فى وقت الصبح ، وقد تقدم ذكر الصيحة فى الأعراف وفى هود ، وتقدم أيضا قريبا (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى لم يدفع عنهم شيئا من عذاب الله ما كانوا يكسبون من الأموال والحصون فى الجبال (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق) أى متلبسة بالحق ، وهو مافيهما من الفوائد والمصالح ، وقيل المراد بالحق مجازاة المحسن باحسانه والمسىء باساءته كما فى قوله سبحانه ـ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى

الذين

الذين أحسنوا بالحسنى – وقيل المراد بالحق الزوال لأنها مخلوقة وكل مخلوق زائل (وان الساعة لآتية) وعند اتيانها ينتقم الله ممن يستحق العذاب، ويحسن الى من يستحق الاحسان، وفيه وعيد للعصاة وتهديد، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يصفح عن قومه، فقال (فاصفح الصفح الجميل) أى تجاوز عنهم واعف عفوا حسنا، وقيل فأعرض عنهم اعراضا جميلا، ولا تعجل عليهم، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم، قيل وهذا منسوخ بآية السيف (إن ربك هو الخلاق العليم) أى الخالق للخلق جميعا العليم بأحوالهم وبالصالح والطالح منهم.

وقد أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ «ان مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله اليهما شعيبا». وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس: قال أصحاب الأيكة هم قوم شعيب، والأيكة ذات آجام وشجر كانوا فيها. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الأيكة الغيضة. وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال: أصحاب الأيكة أهل مدين والأيكة الملتفة من الشجر. وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الأيكة مجمع الشيء. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال: فى قوله (وانهما لبامام مبين) طريق ظاهر. وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى أصحاب الحجر. قال أصحاب الوادى. وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال: كان أصحاب الحجر ثمود وقوم صالح. وأخرج البخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الحجر «لاتدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم». وأخرج ابن مردويه عنه قال: نزل رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من مياه الآبار التى كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم، فأمرهم باهراق القدور، وعلفوا العجين الابل، ثم ارتحل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، فقال إنى أخشى أن يصيبكم مثل الذى أصابهم فلا تدخلوا عليهم. وأخرج ابن مردويه عن سبرة بن معبد أن النبى ﷺ قال بالحجر لأصحابه «من عمل من هذا الماء شيئا فليلقه». قال ومنهم من عجن العجين، ومنهم من حاس الحيس. وأخرج ابن مردويه وابن النجار عن عليّ فى قوله (فاصفح الصفح الجميل) قال الرضا بغير عتاب. وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال هذه الآية قبل القتال. وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة مثله.

وَلَقَدْ آتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْآنَ ٱلْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ * كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ * ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ * ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ ٱلسَّٰجِدِينَ * وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ *

اختلف أهل العلم فى السبع المثانى ماذا هى؟ فقال جمهور المفسرين انها الفاتحة. قال الواحدى

وأكثر المفسرين على أنها فاتحة الكتاب ، وهو قول عمر وعليّ وابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة والربيع والكلبي ، وزاد القرطبي أبا هريرة وأبا العالية ، وزاد النيسابوري الضحاك وسعيد بن جبير ، وقد روى ذلك من قول رسول الله ﷺ كما سيأتي بيانه فتعين المصير إليه ، وقيل هي السبع الطوال ، البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة والأنعام ، والأعراف ، والسابعة الأنفال ، والتوبة ، لأنها كسورة واحدة إذ ليس بينهما تسمية ، روى هذا القول عن ابن عباس ، وقيل المراد بالمثانى السبعة الأحزاب فانها سبع صحائف ، والمثانى جمع مثناة من التثنية أو جمع مثنية . وقال الزجاج تثنى بما يقرأ بعدها معها ، فعلى القول الأوّل يكون وجه تسمية الفاتحة مثانى أنها تثنى : أي تكرّر في كل صلاة ، وعلى القول بأنها السبع الطوال فوجه التسمية إن العبر والأحكام والحدود كررت فيها ، وعلى القول بأنها السبعة الأحزاب يكون وجه التسمية هو تكرير ما في القرآن من القصص ونحوها ، وقد ذهب إلى أن المراد بالسبع المثانى القرآن كله الضحاك وطاوس وأبو مالك ، وهو رواية عن ابن عباس واستدلوا بقوله تعالى ـ كتابا متشابها مثانى ـ وقيل المراد بالسبع المثانى أقسام القرآن ، وهي الأمر ، والنهى ، والتبشير ، والانذار وضرب الأمثال وتعريف النعم وأنباء قرون ماضية ، قاله زياد بن أبي مريم ، ولا يخفى عليك أن تسمية الفاتحة مثانى لا تستلزم نفى تسمية غيرها بهذا الاسم ، وقد تقرّر أنها المرادة بهذه الآية ، فلا يقدح في ذلك صدق وصف المثانى على غيرها (والقرآن العظيم) معطوف على : سبعا من المثانى ، ويكون من عطف العام على الخاص ، لأنّ الفاتحة بعض من القرآن ، وكذلك إن أريد بالسبع المثانى : السبع الطوال لأنها بعض من القرآن ، وأما إذا أريد بها السبعة الأحزاب أو جميع القرآن أو أقسامه ، فيكون من باب عطف أحد الوصفين على الآخر ، كما قيل في قول الشاعر :

* إلى الملك القرم وابن الهمام * ومما يقوى كون السبع المثانى . هي الفاتحة أن هذه السورة مكية ، وأكثر السبع الطوال مدنية ، وكذلك أكثر القرآن وأكثر أقسامه ، وظاهر قوله (ولقد آتيناك سبعا من المثانى) انه قد تقدّم إيتاء السبع على نزول هذه الآية ، و« من » في من المثانى للتبعيض أو البيان على اختلاف الأقوال ، ذكر معنى ذلك الزجاج ، فقال هي للتبعيض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال ، وللبيان إذا أردت الاسباع ، ثم لما بين لرسوله ﷺ ما أنعم به عليه من هذه النعمة الدينية نفره عن اللذات العاجلة الزائلة ، فقال (لاتمدّنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) أي لا تطمح ببصرك إلى زخارف الدنيا طموح رغبة فيها وتمنّ لها ، والأزواج الأصناف ، قاله ابن قتيبة ، وقال الجوهرى : الأزواج القرناء ، قال الواحدى إنما يكون مادا عينيه إلى الشيء إذا أدام النظر نحوه ، وإدامة النظر اليه تدل على استحسانه وتمنيه ، وقال بعضهم معنى الآية لا تحسدنّ أحدا على ما أوتى من الدنيا ، وردّ بأن الحسد منهيّ عنه مطلقا ، وانما قال في هذه السورة لاتمدنّ بغير واو ، لأنه لم يسبقه طلب بخلاف ما في سورة طه ، ثم لما نهاه عن الالتفات إلى أموالهم وأمتعتهم نهاه عن الالتفات إليهم ، فقال (ولا تحزن عليهم) حيث لم يؤمنوا وصمموا على الكفر والعناد ، وقيل المعنى : لا تحزن على ما متعوا به في الدنيا فلك الآخرة . والأوّل أولى ، ثم لما نهاه عن أن يمدّ عينيه الى أموال الكفار ولا يحزن عليهم ، وكان ذلك يستلزم التهاون بهم وبما معهم أمره أن يتواضع للمؤمنين ، فقال (واخفض جناحك للمؤمنين) وخفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب ، ومنه قوله سبحانه ـ واخفض لهما جناح الذل ـ ، وقول الكميت :

خفضت لهم منى جناحى مودّة * الى كنف عطفاه أهل ومرحب

وأصله أن الطائر اذا ضم فرخه الى نفسه بسط جناحه ، ثم قبضه على الفرخ فجعل ذلك وصفا لتواضع

الانسان لأتباعه ، و يقال فلان خافض الجناح : أى وقور ساكن ، والجناحان من ابن آدم جانباه ، ومنه ــ واضمم يدك إلى جناحك ــ ، ومنه قول الشاعر :

وحسبك فتنة لزعيم قوم * يمدّ على أخى سقم جناحا

(وقل إنى أنا النذير المبين) أى المنذر المظهر لقومه مايصيبهم من عذاب الله (كما أنزلنا على المقتسمين) قيل المفعول محذوف : أى مفعول أنزلنا ، والتقدير كما أنزلنا على المقتسمين عذابا ، فيكون المعنى إنى أنا النذير المبين لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين الذى أنزلناه عليهم كقوله تعالى ــ أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ــ ، وقيل ان الكاف زائدة ، والتقدير إنى أنا النذير المبين أنذرتكم ماأنزلنا على المقتسمين من العذاب ، وقيل هو متعلق بقوله ــ ولقد آتيناك ــ أى أنزلنا عليك مثل ماأنزلنا على أهل الكتاب : وهم المقتسمون ، والأولى أن يتعلق بقوله (إنى أنا النذير المبين) لأنه فى قوّة الأمر بالانذار . وقد اختلف فى المقتسمين من هم ؟ فقال الفراء : هم ستة عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا أعقاب مكة وفجاجها يقولون لمن دخلها : لاتغتروا بهذا الخارج فينا فانه مجنون ، وربما قالوا ساحر وربما قالوا شاعر وربما قالوا كاهن ، فقيل لهم مقتسمين ، لأنهم اقتسموا هذه الطرق ، وقيل انهم قوم من قريش اقتسموا كتاب الله ، فجعلوا بعضه شعرا ، و بعضه سحرا ، و بعضه كهانة ، و بعضه أساطير الأوّلين . قاله قتادة : وقيل هم أهل الكتاب ، وسموا مقتسمين لأنهم كانوا يقتسمون القرآن استهزاء ، فيقول بعضهم هذه السورة لى ، وهذه لك ، روى هذا عن ابن عباس : وقيل انهم قسموا كتابهم وفرّقوه و بدّدوه وحرّفوه ، وقيل المراد قوم صالح تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين ، كما قال تعالى ــ تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ــ وقيل تقاسموا أيمانا تحالفوا عليها . قاله الأخفش ، وقيل انهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ومنبه بن الحجاج ذكره الماوردى (الذين جعلوا القرآن عضين) : جمع عضة ، وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة اذا جعلها أجزاء ، فيكون المعنى على هذا : الذين جعلوا القرآن أجزاء متفرّقة ، بعضه شعر ، و بعضه سحر ، و بعضه كهانة ونحو ذلك ، وقيل هو مأخوذ من عضهته اذا بهته ، فالمحذوف منه الهاء لاالواو ، وجمعت العضة على العضين جمع العقلاء لما لحقها من الحذف فجعلوا ذلك عوضا عما لحقها من الحذف ، وقيل معنى عضين ايمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض ، ومما يؤيد ، أن معنى عضين التفريق ، قول رؤبة : * وليس دين الله بالمعضين * : أى بالمفرق ، وقيل العضة والعضين فى لغة قريش السحر : وهم يقولون للساحر عاضه ، وللساحرة عاضهة ، ومنه قول الشاعر :

أعوذ بربى من النافثات * فى عقد العاضهة والعضه

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ لعن العاضهة والمستعضهة ، وفسر بالساحرة والمستسحرة ، والمعنى أنهم أكثروا البهت على القرآن ، وسموه سحرا وكذبا وأساطير الأوّلين ، ونظير عضة فى النقصان شفة ، والأصل شفهة ، وكذلك سنة ، والأصل سنهة . قال الكسائى العضة : الكذب والبهتان ، وجمعها عضون . وقال الفراء انه مأخوذ من العضاه ، وهى شجر يؤذى ويجرح كالشوك ، ويجوز أن يراد بالقرآن التوراة والانجيل لكونهما مما يقرأ ، ويراد بالمقتسمين هم اليهود والنصارى : أى جعلوهما أجزاء متفرّقة ، وهو أحد الأقوال المتقدّمة (فوربك لنسألنهم أجمعين) أى لنسألنّ هؤلاء الكفرة أجمعين يوم القيامة (عما كانوا يعملون) فى الدنيا من الاعمال التى يحاسبون عليها و يسألون عنها ، وقيل ان المراد سؤالهم عن كلمة التوحيد ، والعموم فى عما كانوا يعملون ، يفيد ماهو أوسع من ذلك ، وقيل ان المسئولين هاهنا هم جميع المؤمنين والعصاة والكفار ، و يدلّ عليه قوله ــ ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم ــ وقوله ــ وقفوهم

انهم مسئولون ـ ، وقوله ـ إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم ـ ، ويمكن أن يقال ان قصر هـذا السؤال على المذكورين فى السياق ، وصرف العموم إليهم لاينافى سؤال غيرهم (فاصدع بما تؤمر) . قال الزجاج يقول : أظهرماتؤمر به ، أخذ من الصديع ، وهو الصبح انتهى ، وأصل الصدع الفرق والشق ؛ يقال صدعته فانصدع : أى انشق ، وتصدّع القوم : أى تفرّقوا ـ ومنه يومئذ يصدّعون ـ أى يتفرّقون . قال الفراء : أراد فاصدع بالأمر : أى أظهر دينك فما مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر ، وقال ابن الأعرابى : معنى اصدع بما تؤمر : أى اقصد ، وقيل : فاصـدع بما تؤمر : أى فرق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم الى التوحيد فانهم يتفرّقون ، والأولى أن الصدع الاظهار ، كما قاله الزجاج والفراء وغيرهم . قال النحويون : المعنى بما تؤمر به من الشرائع ، وجوّزوا أن تكون مصدرية : أى بأمرك وشأنك . قال الواحدى . قال المفسرون : أى اجهر بالأمر : أى بأمرك بعد إظهار الدعوة ، وما زال النبى ﷺ مستخفيا حتى نزلت هذه الآية ، ثم أمره سبحانه بعد أمره بالصدع بالاعراض وعدم الالتفات الى المشركين ، فقال (وأعرض عن المشركين) أى لاتبال بهم ولاتلتفت اليهم إذا لاموك على إظهار الدعوة ، ثم أكد هذا الأمر وثبت قلب رسوله بقوله (إنا كفيناك المستهزئين) مع كونهم كانوا من أكابر الكفار ، وأهل الشوكة فيهم ، فاذا كفاه الله أمرهم بقمعهم وتدميرهم كفاه أمر من هو دونهم بالأولى ، وهؤلاء المستهزئون كانوا خمسة من رؤساء أهل مكة : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والاسود بن المطلب بن الحرث بن زمعة ، والاسود ابن عبد يغوث ، والحرث بن الطلاطلة كذا قال القرطبى ووافقه غيره من المفسرين . وقد أهلكهم الله جميعا وكفاه أمرهم فى يوم واحد ، ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك ، فقال (الذين يجعلون مع الله إلها آخر) فلم يكن ذنبهم مجرّد الاستهزاء ، بل لهم ذنب آخر وهو الشرك بالله سبحانه ، ثم توعدهم ، فقال (فسوف يعلمون) كيف عاقبتهم فى الآخرة وما يصيبهم من عقوبة الله سبحانه ، ثم ذكر تسلية أخرى لرسول الله ﷺ بعد التسلية الاولى بكفايته شرهم ودفعه لمكرهم ، فقال (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) من الاقوال الكفرية المتضمنة للطعن على رسول الله ﷺ بالسحر والجنون والكهانة والكذب ، وقد كان يحصل ذلك مع رسول الله ﷺ بمقتضى الجبلة البشرية والمزاج الانسانى ، ثم أمره سبحانه بأن يفزع لكشف مانابه من ضيق الصدر الى تسبيح الله سبحانه وحمده ، فقال (فسبح بحمد ربك) أى متلبسا بحمده : أى افعل التسبيح المتلبس بالحمد (وكن من الساجدين) أى المصلين فانك اذا فعلت ذلك كشف الله همك وأذهب غمك وشرح صدرك ، ثم أمره بعبادة ربه : أى بالدوام عليها الى غاية هى قوله (حتى يأتيك اليقين) أى الموت . قال الواحدى . قال جماعة المفسرين : يعنى الموت لانه موقن به . قال الزجاج : المعنى اعبد ربك أبدا ، لأنه لو قيل اعبد ربك بغير توقيت لجاز اذا عبد الانسان مرّة أن يكون مطيعا ، فاذا قال : حتى يأتيك اليقين : فقد أمره بالاقامة على العبادة أبدا مادام حيا .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عمر فى قوله (ولقد آتيناك سبعا من المثانى) قال السبع المثانى : فاتحة الكتاب . وأخرجه سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والدارقطنى وابن مردويه والبيهقى من طرق عن علىّ بمثله . وأخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود مثله وزاد والقرآن العظيم سائر القرآن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس فى الآية قال : فاتحة الكتاب استثناها الله لأمة محمد فرفعها فى أمّ الكتاب فادّخرها لهم حتى أخرجها ولم يعطها أحد قبل ، قيل فأين الآية السابعة ، قال بسم الله الرحمن الرحيم . وروى عنه نحو هذا من طرق . وأخرج ابن الضريس وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة قال السبع المثانى :

فاتحة الكتاب . وأخرج ابن جرير عن أبي بن كعب قال السبع المثاني : الحمد لله رب العالمين . وروى نحو قول هؤلاء الصحابة عن جماعة من التابعين . وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلى أنه قال له النبي ﷺ « ألا أعلمك أفضل سورة قبل أن أخرج من المسجد ، فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت ، فقال الحمد لله رب العالمين : هي السبع المثاني والقرآن العظيم » . وأخرج البخاري أيضا من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم » فوجب بهذا المصير الى القول بأنها فاتحة الكتاب ، ولكن تسميتها بذلك لاينافي تسمية غيرها به كما قدمنا . وأخرج ابن مردويه عن عمر قال في الآية : هي السبع الطوال . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثله . وأخرج الفريابي وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال في الآية : هي السبع الطوال ، وأخرج الدارمي وابن مردويه عن أبي بن كعب مثله . وروى نحو ذلك عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : هي فاتحة الكتاب والسبع الطوال . وأخرج بن جرير عنه في الآية قال : مائتى من القرآن ألم تسمع لقول الله ــ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى ــ . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال المثاني : القرآن يذكر الله القصة الواحدة مرارا . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن زياد بن أبي مريم في الآية قال : أعطيتك سبعة أجزاء : مر ، وانه ، وبشر ، وأنذر ، واضرب الأمثال ، واعدد النعم ، واتل نبأ القرآن . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (لاتمدن عينيك) قال : نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله (أزواجا منهم) قال : الأغنياء الأمثال والاشباه . وأخرج ابن المنذر عن سفيان بن عيينة قال : من أعطى القرآن فمد عينه الى شيء مما صغر القرآن فقد خالف القرآن ، ألم يسمع الى قوله (ولقد آتيناك سبعا من المثاني) والى قوله (ورزق ربك خير وأبقى) وقد فسر ابن عيينة أيضا الحديث الصحيح ليس منا من لم يتغن بالقرآن ، فقال ان المعنى يستغنى به . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (واخفض جناحك) قال : اخضع . وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله (كما أنزلنا على المقتسمين) الآية قال : هم أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه . وأخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عنه قال : عضين فرقا . وأخرج ابن اسحاق وابن أبي حاتم وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس أنها نزلت في نفر من قريش كانوا يصدون الناس عن رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة . وأخرج الترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أنس عن النبي ﷺ في قوله (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) قال عن قول لا إله إلا الله . وأخرجه ابن أبي شيبة والترمذي وابن جرير وابن المنذر من وجه آخر عن أنس موقوفا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (فاصدع بما تؤمر) فامضه ، وفي علي بن أبي طلحة مقال معروف . وأخرج ابن جرير عن أبي عبيدة ابن عبدالله بن مسعود قال مازال النبي ﷺ مستخفيا حتى نزل (فاصدع بما تؤمر) فخرج هو وأصحابه . وأخرج ابن اسحاق وابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : هذا أمر من الله لنبيه بتبليغ رسالته قومه وجميع من أرسل اليه . وأخرج ابن المنذر عنه (فاصدع بما تؤمر) قال : أعلن بما تؤمر . وأخرج أبو داود في ناسخه وابن أبي حاتم عن ابن عباس (وأعرض عن المشركين) قال : نسخه قوله تعالى ــ فاقتلوا المشركين ــ .

وأخرج الطبرانى فى الأوسط وابن مردويه وأبو نعيم والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله (إنا كفيناك المستهزئين) قال: المستهزئون الوليد بن المغيرة والأسود بن عبد يغوث والأسود بن عبد المطلب والحرث ابن عيطل السهمى والعاص بن وائل، وذكر قصة هلاكهم. وقد روى هذا عن جماعة من الصحابة مع زيادة فى عددهم ونقص على طول فى ذلك. وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم فى التاريخ وابن مردويه والديلمى عن أبى مسلم الخولانى قال: قال رسول الله ﷺ «ماأوحى إلىّ أن اجمع المال وأكن من التاجرين ولكن أوحى الىّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين». وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا مثله. وأخرج ابن مردويه والديلمى عن أبى الدرداء مرفوعا نحوه. وأخرج الخطيب فى المتفق والمفترق من طريق عبيد الله بن أبان بن عثمان بن حذيفة ابن أوس الطائفى قال: حدثنى أبان بن عثمان عن أبيه عن جده يرفعه مثل حديث أبى مسلم الخولانى. وأخرج ابن أبى شيبة عن سالم بن عبدالله بن عمر (حتى يأتيك اليقين) قال: الموت وأخرج ابن المبارك عن الحسن مثله. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله.

تفسير سورة النحل

آياتها مائة آية وثمان وعشرون آية.

وهى مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ورواه ابن مردويه عن ابن عباس وعن أبى الزبير. وأخرج النحاس من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: سورة النحل نزلت بمكة سوى ثلاث آيات من آخرها فانهن نزلن بين مكة والمدينة فى منصرف رسول الله ﷺ من أحد، قيل وهى قوله ـ وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ـ الآية وقوله ـ واصبر وماصبرك الا بالله ـ فى شأن التمثيل بحمزة وقتلى أحد * وقوله ـ ثم ان ربك للذين هاجروا ـ الآية، وقيل الثالثة ـ ولا تشتروا بعهدالله ثمنا قليلا ـ الى قوله ـ بأحسن ما كانوا يعملون ـ وتسمى هذه السورة سورة النعم بسبب ماعدد الله فيها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ * خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ

أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ *

قوله (أتى أمر الله) أى عقابه للمشركين ، وقال جماعة من المفسرين القيامة . قال الزجاج : هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم ، وعبر عن المستقبل بلفظ الماضى تنبيها على تحقق وقوعه ، وقيل ان المراد بأمر الله حكمه بذلك ، وقد وقع وأتى ، فأما المحكوم به فانه لم يقع ، لأنه سبحانه حكم بوقوعه فى وقت معين فقبل مجيء ذلك الوقت لايخرج إلى الوجود ، وقيل ان المراد بإتيانه إتيان مباديه ومقدماته (فلا تستعجلوه) نهاهم عن استعجاله : أى فلا تطلبوا حضوره قبل ذلك الوقت ، وقد كان المشركون يستعجلون عذاب الله كما قال النضر بن الحرث ـ اللهمّ إن كان هـذا هو الحق من عندك ـ الآية ، والمعنى : قرب أمر الله فلا تستعجلوه ، وقـد كان استعجالهم له على طريقة الاستهزاء من دون استعجال على الحقيقة ، وفى نهيهم عن الاستعجال تهكم بهم (سبحانه وتعالى عما يشركون) أى تنزه وترفع عن إشراكهم ، أو عن أن يكون له شريك ، وشركهم ههنا هو ما وقع منهم من استعجال العذاب ، أو قيام الساعة استهزاء وتكذيبا ، فانه يتضمن وصفهم له سبحانه بأنه لايقدر على ذلك ، وأنه عاجز عنه ، والعجز وعدم القدرة من صفات المخلوق لا من صفات الخالق ، فكان ذلك شركا (ينزل الملائكة بالروح من أمره) ، قرأ المفضل عن عاصم تنزل الملائكة ، والأصل تتنزل ، فالفعل مسند الى الملائكة ، وقرأ الأعمش تنزل على البناء للمفعول ، وقرأ الجعفى عن أبى بكر عن عاصم ننزل بالنون ، والفاعل هو الله سبحانه ، وقرأ الباقون ينزل الملائكة بالياء التحتية إلا أن ابن كثير وأبا عمرو يسكنان النون ، والفاعل هو الله سبحانه ، ووجه اتصال هـذه الجملة بما قبلها أنه ﷺ لما أخبرهم عن الله أنه قد قرب أمره ، ونهاهم عن الاستعجال ترددوا فى الطريق التى علم بها رسول الله ﷺ بذلك ، فأخبر أنه علم بها بالوحى على ألسن رسل الله سبحانه من ملائكته ، والروح : الوحى ، ومثله (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده) وسمى الوحى روحا لأنه يحيى قلوب المؤمنين ، فان من جملة الوحى القرآن ، وهو نازل من الدين منزلة الروح من الجسد ، وقيل المراد : أرواح الخلائق ، وقيل الروح : الرحمة ، وقيل الهداية لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا الأبدان بالأرواح . قال الزجاج الروح : ما كان فيه من الله حياة بالارشاد إلى أمره . وقال أبو عبيد الروح هنا جبريل ، وتكون الباء على هـذا بمعنى مع ، « ومن » فى من أمره بيانية : أى بأشياء ، أو مبتدئا من أمره أو صفة للروح ، أو متعلق بينزل ، ومعنى « على من يشاء من عباده » على من اختصه بذلك ، وهم الأنبياء (أن أنذروا) . قال الزجاج « أن أنذروا » بدل من الروح : أى ينزلهم بأن أنذروا ، وأن إما مفسرة لأن تنزل الوحى فيه معنى القول ، وإما مخففة من الثقيلة وضمير الشأن مقدّر : أى بأن الشأن أقول لكم أنذروا : أى أعلموا الناس (أنه لا إله إلا أنا) أى مروهم بتوحيدى وأعلموهم ذلك مع تخويفهم ، لأن فى الانذار تخويفا وتهديدا ، و الضمير فى أنه للشأن (فاتقون) الخطاب للمستعجلين على طريق الالتفات ، وهو تحذير لهم من الشرك بالله ، ثم ان الله سبحانه لما أرشدهم إلى توحيده ذكر دلائل التوحيد ، فقال (خلق السموات والأرض بالحق) أى أوجدهما على هذه الصفة التى هما عليهما بالحق : أى للدلالة على قدرته ووحدانيته ، وقيل المراد بالحق هنا : الفناء والزوال (تعالى) الله (عما يشركون)

أى ترفع وتقدّس عن إشراكهم ، أوعن شركة الذى يجعلونه شريكا له ، ثم لما كان نوع الانسان أشرف أنواع المخلوقات السفلية قدّمه وخصه بالذكر ، فقال (خلق الانسان) وهو اسم لجنس هذا النوع (من نطفة) من جماد يخرج من حيوان ، وهو المنىّ فنقله أطوارا الى أن كملت صورته ، ونفخ فيه الروح وأخرجه من بطن أمه إلى هذه الدار فعاش فيها (فاذا هو) بعد خلقه على هذه الصفة (خصيم) أى كثير الخصومة والمجادلة ، والمعنى أنه كالمخاصم لله سبحانه فى قدرته ، ومعنى (مبين) ظاهر الخصومة واضحها ، وقيل يبين عن نفسه مايخاصم به من الباطل ، والمبين هو المفصح عما فى ضميره بمنطقه ، ومثله قوله تعالى ـ أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين ـ ، ثم عقب ذكر خلق الانسان بخلق الأنعام لما فيها من النفع لهذا النوع ، فالامتنان بها أكمل من الامتنان بغيرها ، فقال (والأنعام خلقها لكم) وهى الابل والبقر والغنم ، وأكثر مايقال نعم وأنعام للابل ، ويقال للمجموع ، ولايقال للغنم مفردة ، ومنه قول حسان :

وكانت لايزال بها أنيس ۞ خلال مروجها نعم وشاء

فعطف الشاء على النعم ، وهى هنا الابل خاصة . قال الجوهرى والنعم : واحد الأنعام ، وأكثر مايقع هـذا الاسم على الابل ، ثم لما أخبر سبحانه بأنه خلقها لبنى آدم بين المنفعة التى فيها لهم ، فقال (فيها دفء) الدفء : السخانة ، وهو مااستدفئ به من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، والجملة فى محلّ النصب على الحال (ومنافع) معطوف على دفء ، وهى درّها ، وركوبها ، ونتاجها ، والحراثة بها ، ونحوذلك ، وقد قيل ان الدفء : النتاج واللبن . قال فى الصحاح الدفء : نتاج الابل وألبانها ومايتنفع به منها ، ثم قال والدفء أيضا : السخونة ، وعلى هذا فان أريد بالدفء المعنى الأوّل فلابدّ من حمل المنافع على ماعداه مما ينتفع به منها ، وان حمل على المعنى الثانى كان تفسير المنافع بما ذكرناه واضحا ، وقيل المراد بالمنافع : النتاج خاصة ، وقيل الركوب (ومنها تأكلون) أى من لحومها وشحومها ، وخصّ هذه المنفعة بالذكر مع دخولها تحت المنافع لأنها أعظمها ، وقيل خصها لأن الانتفاع بلحمها وشحمها تعدم عنده عينها بخلاف غيره من المنافع التى فيها ، وتقديم الظرف المؤذن بالاختصاص للإشارة الى أن الأكل منها هو الأصل ، وغيره نادر (ولكم فيها جمال) أى لكم فيها مع ماتقدّم ذكره جمال ، والجمال : مايتجمل به ويتزين ، والجمال : الحسن ، والمعنى هنا : لكم فيها تجمل وتزين عند الناظرين إليها (حين تريحون وحين تسرحون) أى فى هذين الوقتين ، وهما وقت ردّها من مراعيها ، ووقت تسريحها اليها ، فالرواح رجوعها بالعشىّ من المراعى ، والسراح : مسيرها إلى مراعيها بالغداة ، يقال سرحت الابل أسرحها سرحا وسروحا : اذا غدوت بها إلى المرعى ، وقدّم الاراحة على التسريح ، لأن منظرها عند الاراحة أجمل ، وذواتها أحسن لكونها فى تلك الحالة قد نالت حاجتها من الأكل والشرب ، فعظمت بطونها ، وانتفخت ضروعها ، وخصّ هذين الوقتين لأنهما وقت نظر الناظرين اليها لأنها عند استقرارها فى الحظائر لايراها أحد ، وعند كونها فى مراعيها هى متفرّقة غيرمجتمعة كل واحد منها يرعى فى جانب (وتحمل أثقالكم) الأثقال جمع ثقل ، وهو متاع المسافر من طعام وغيره ، وسمى ثقلا لأنه يثقل الانسان حمله ، وقيل المراد أبدانهم (إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) أى لم تكونوا واصلين إليه لو لم يكن معكم إبل تحمل أثقالكم إلا بشق الأنفس لبعده عنكم ، وعدم وجود مايحمل مالا بدّ لكم منه فى السفر ۞ وظاهره يتناول كل بلد بعيدة من غير تعيين ، وقيل المراد بالبلد مكة ، وقيل اليمن ومصر والشام لأنها متاجر العرب ، وشق الأنفس : مشقتها ، قرأ الجمهور بكسر الشين . وقرأ أبوجعفر بفتحها . قال الجوهرى والشق : المشقة

ومنه

ومنه قوله (لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) وحكى أبو عبيدة بفتح الشين ، وهما بمعنى ، ويجوز أن يكون المفتوح مصدرا من شققت عليه أشق شقا ، والمكسور بمعنى النصف ، يقال أخذت شق الشاة وشقة الشاة ، ويكون المعنى على هـذا فى الآية : لم تكونوا بالغيه الابذهاب نصف الأنفس من التعب ؛ وقد امتنّ الله سبحانه على عباده بخلق الأنعام على العموم ، ثم خصّ الابل بالذكر لما فيها من نعمة حمل الأثقال دون البقر والغنم ، والاستثناء من أعمّ العام : اى لم تكونوا بالغيه بشيء من الأشياء إلابشق الأنفس (والخيل والبغال والحمير) بالنصب عطفا على الأنعام : أى وخلق لكم هـذه الثلاثة الأصناف ، وقرأ ابن أبى عبلة بالرفع فيها كلها ، وسميت الخيل خيلا لاختيالها فى مشيها ، وواحد الخيل خائل كضائن واحد الضأن ، وقيل لاواحد له ، ، ثم علل سبحانه خلق هذه الثلاثة الأنواع بقوله (لتركبوها) وهذه العلة هى باعتبار معظم منافعها لأن الانتفاع بها فى غير الركوب معلوم كالتحميل عليها (و) عطف (زينة) على محل « لتركبوها » لأنه فى محل نصب على أنه علة لخلقها ، ولم يقل لتتزينوا بها حتى يطابق لتركبوها ، لأن الركوب فعل المخاطبين ، والزينة فعل الزائن ، وهو الخالق ، والتحقيق فيه أن الركوب هو المعتبر فى المقصود ، بخلاف الزينة فانه لايلتفت إليه أهل الهمم العالية ، لأنه يورث العجب فكأنه سبحانه قال خلقتها لتركبوها فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الاعياء والمشقة ، وأما التزين بها فهو حاصل فى نفس الأمر ولكنه غير مقصود بالذات * وقد استدلّ بهـذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل قائلين بأن التعليل بالركوب يدلّ على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها . قالوا ويؤيد ذلك إفراد هـذه الأنواع الثلاثة بالذكر وإخراجها عن الأنعام فيفيد ذلك اتحاد حكمها فى تحريم الأكل . قالوا : ولو كان أكل الخيل جائزا لكان ذكره والامتنان به أولى من ذكر الركوب ، لأنه أعظم فائدة منه ، وقد ذهب الى هـذا مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والأوزاعى ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم ، وذهب الجمهور من الفقهاء والمحدثين وغيرهم إلى حلّ لحوم الخيل ، ولا حجة لأهل القول الأوّل فى التعليل بقوله « لتركبوها » لأن ذكر ماهو الأغلب من منافعها لاينافى غيره ، ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب ، وأيضا لو كانت هـذه الآية تدلّ على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحمر الأهلية ، وحينئذ لا يكون ثم حاجة لتجديد التحريم لها عام خيبر ، وقد قدّمنا أن هذه السورة مكية * والحاصل أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حلّ أكل لحوم الخيل ، فلو سلمنا أن فى هـذه الآية متمسكا للقائلين بالتحريم لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال ، ودافعة لهذا الاستدلال ، وقد أوضحنا هـذه المسئلة فى مؤلفاتنا بما لايحتاج الناظر فيه إلى غيره (ويخلق مالا تعلمون) أى يخلق مالا يحيط علمكم به من المخلوقات غير ماقد عدّده هاهنا ، وقيل المراد من أنواع الحشرات والهوام فى أسافل الأرض ، وفى البحر بما لم يره البشر ، ولم يسمعوا به ، وقيل هو ماأعدّ الله لعباده فى الجنة ، وفى النار بما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولا خطر على قلب بشر ، وقيل هو خلق السوس فى النبات ، والدود فى الفواكه ، وقيل عين تحت العرش ، وقيل نهر من النور ، وقيل أرض بيضاء ، ولاوجه للاقتصار فى تفسير هذه الآية على نوع من هذه الأنواع ، بل المراد أنه سبحانه يخلق مالايعلم به العباد ، فيشمل كل شيء لايحيط علمهم به ، والتعبير هنا بلفظ المستقبل لاستحضار الصورة ، لأنه سبحانه قد خلق مالا يعلم به العباد (وعلى الله قصد السبيل) القصد مصدر بمعنى الفاعل ، فالمعنى وعلى الله قاصد السبيل ، أى هـداية قاصد الطريق المستقيم بموجب وعده المحتوم ، وتفضله الواسع ، وقيل هو على حذف مضاف ، والتقدير وعلى الله بيان قصد السبيل ، والسبيل : الاسلام ، وبيانه بارسال الرسل ، و إقامة الحجج والبراهين ، والقصد فى السبيل

هو كونه موصلا إلى المطلوب ، فالمعنى : وعلى الله بيان الطريق الموصل إلى المطلوب (ومنها جائر) الضمير فى « منها » راجع الى السبيل بمعنى الطريق ، لأنها تذكر وتؤنث ، وقيل راجع اليها بتقدير مضاف : أى ومن جنس السبيل جائر مائل عن الحق عادل عنه ، فلا يهتدى به ، ومنه قول امرئ القيس :

ومن الطريقة جائر وهدى ٭ قصد السبيل ومنه ذودخل

وقيل ان الطريق كناية عن صاحبها ، والمعنى : ومنهم جائر عن سبيل الحق : أى عادل عنه ، فلا يهتدى اليه ، قيل وهم أهل الأهواء المختلفة ، وقيل أهل الملل الكفرية ، وفى مصحف عبدالله : ومنكم جائر ، وكذا قرأ على (ولو شاء لهداكم أجمعين) أى ولو شاء أن يهديكم جميعا إلى الطريق الصحيح ، والمنهج الحق لفعل ذلك ، ولكنه لم يشأ ، بل اقتضت مشيئته سبحانه إراءة الطريق والدلالة عليها ـ وهديناه النجدين ـ ، وأما الايصال اليها بالفعل ، فذلك يستلزم أن لايوجد فى العباد كافر ، ولا من يستحق النار من المسلمين ، وقد اقتضت المشيئة الربانية أنه يكون البعض مؤمنا والبعض كافرا كما نطق بذلك القرآن فى غير موضع .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال « لما نزل أتى أمرالله ذعر أصحاب رسول الله ﷺ حتى نزلت فلا تستعجلوه فسكنوا » . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى بكر بن حفص قال « لما نزلت أتى أمرالله قاموا ، فنزلت فلاتستعجلوه » . وأخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس (أتى أمر الله) قال : خروج محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال « لما نزلت هذه الآية : أتى أمر الله ، قال رجال من المنافقين بعضهم لبعض ان هذا يزعم أن أمر الله أتى ، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا ماهو كائن ، فلما رأوا أنه لاينزل شىء قالوا : مانراه نزل شىء ؟ ـ فنزلت ـ اقترب للناس حسابهم ـ ، فقالوا ان هذا يزعم مثلها أيضا ، فلما رأوا أنه لاينزل شىء قالوا : مانراه نزل شىء ! فنزلت ـ ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة ـ الآية » وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله (أتى أمر الله) قال الأحكام والحدود والفرائض . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس فى قوله (ينزل الملائكة بالروح) قال بالوحى . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ فى العظمة وابن مردويه والبيهقى عنه قال الروح : أمر من أمر الله ، وخلق من خلق الله ، وصورهم على صورة بنى آدم ، وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح ، ثم تلا ـ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ـ . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن (ينزل الملائكة بالروح) قال القرآن . وأخرج ابن جرير وابن المنذروابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (لكم فيها دفء) قال الثياب (ومنافع) قال ماتنتفعون به من الأطعمة والأشربة . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : نسل كل دابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (وتحمل أثقالكم إلى بلد) يعنى مكة (لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) قال لو تكلفتموه لم تطيقوه إلا بجهد شديد

وقد ورد فى حل أكل لحوم الخيل أحاديث منها فى الصحيحين وغيرهما من حديث أسماء قالت « نحرنا فرسا على عهد رسول الله ﷺ فأكلناه » . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبة والترمذى وصححه والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم عن جابر قال « أطعمنا رسول الله ﷺ لحوم الخيل ، ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية » . وأخرج أبو داود نحوه من حديثه أيضا ، وهما على شرط مسلم ، وثبت أيضا فى الصحيحين من حديث جابر قال « نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية وأذن فى الخيل » .

وأما

وأما ماأخرجه أبو عبيد وأبو داود والنسائي من حديث خالد بن الوليد قال « نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذى ناب من السباع وعن لحوم الخيل والبغال والحمير » ، ففي إسناده صالح بن يحيى بن أبي المقدام ، وفيه مقال ، ولو فرضنا أن الحديث صحيح لم يقو على معارضة أحاديث الحلّ على أنه يمكن أن هذا الحديث المصرّح بالتحريم متقدّم على يوم خيبر فيكون منسوخا . وأخرج الخطيب وابن عساكر قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله (ويخلق مالا تعلمون) قال البراذين . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « ان مما خلق الله أرضا من لؤلؤة بيضاء ، ثم ساق من أوصافها مايدلّ على أن الحديث موضوع ، ثم قال فى آخره ، فذلك قوله ويخلق مالا تعلمون . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (وعلى الله قصد السبيل) يقول على الله أن يبين الهدى والضلالة (ومنها جائر) قال السبل المتفرّقة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة فى قوله (وعلى الله قصد السبيل) قال على الله بيان حلاله ، وحرامه ، وطاعته ، ومعصيته (ومنها جائر) قال من السبل ناكب عن الحق قال ، وفى قراءة ابن مسعود ومنكم جائر . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن الأنباري فى المصاحف عن عليّ أنه كان يقرأ هذه الآية ومنكم جائر .

هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ *

لما استدلّ سبحانه على وجوده وكمال قدرته وبديع صنعته بعجائب أحوال الحيوانات أراد أن يذكر الاستدلال على المطلوب بغرائب أحوال النبات ، فقال (هو الذى أنزل من السماء) أى من جهة السماء ، وهى السحاب (ماء) أى نوعا من أنواع الماء ، وهو المطر (لكم منه شراب) يجوز أن يتعلق لكم بأنزل أوهوخبرمقدّم ، وشراب مبتدأمؤخر ، والجملة صفة لما (ومنه) فى محل نصب على الحال ، والشراب اسم لما يشرب كالطعام لما يطعم ، والمعنى : أن الماء النازل من السماء قسمان : قسم يشربه الناس ، ومن جملته ماء الآبار والعيون ، فانه من المطر لقوله ـ فسلكه ينابيع فى الأرض ـ وقسم يحصل منه شجر ترعاه المواشى . قال الزجاج : كل ماينبت من الأرض فهو شجر ، لأن التركيب يدل على الاختلاط ، ومنه تشاجر القوم اذا اختلط أصوات بعضهم بالبعض ، ومعنى الاختلاط حاصل فى العشب والكلأ وفيما له ساق ، وقال ابن قتيبة : المراد من الشجر فى الآية الكلأ ، وقيل الشجر كل ماله ساق كقوله تعالى ـ والنجم والشجر

يسجدان ـ والعطف يقتضى التغاير ، فلما كان النجم مالا ساق له وجب أن يكون الشجر ماله ساق ، وأجيب بأن عطف الجنس على النوع جائز (فيه تسيمون) أى فى الشجر ترعون مواشيكم : يقال سامت السائمة تسوم سوما رعت ، فهى سائمة وأسمتها : أى أخرجتها الى الرعى فأنا مسيم ، وهى مسامة وسائمة ، وأصل السوم الابعاد فى المرعى . قال الزجاج : أخذ من السومة وهى العلامة ، لأنها تؤثر فى الأرض علامات برعيها (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب) قرأ أبو بكر عن عاصم ننبت بالنون ، وقرأ الباقون بالياء التحتية : أى ينبت الله لكم بذلك الماء الذى أنزله من السماء ، وقدم الزرع لأنه أصل الأغذية التى يعيش بها الناس وأتبعه بالزيتون لكونه فاكهة من وجه و إداما من وجه لكثرة مافيه من الدهن ، وهو جمع زيتونة ، ويقال للشجرة نفسها زيتونة ، ثم ذكر النخيل لكونه غذاء وفاكهة وهو مع العنب أشرف الفواكه ، وجمع الأعناب لاشتمالها على الأصناف المختلفة ، ثم أشار الى سائر الثمرات ، فقال (ومن كل الثمرات) كما أجمل الحيوانات التى لم يذكرها فيما سبق بقوله ـ ويخلق مالا تعلمون ـ ، وقرأ أبى ابن كعب ينبت لكم به الزرع برفع الزرع ومابعده (إن فى ذلك) أى الانزال والانبات (لآية) عظيمة دالة على كمال القدرة والتفرد بالربوبية (لقوم يتفكرون) فى مخلوقات الله ولا يهملون النظر فى مصنوعاته (وسخر لكم الليل والنهار) معنى تسخيرهما للناس تصييرهما نافعين لهم بحسب ماتقتضيه مصالحهم وتستدعيه حاجاتهم يتعاقبان دائما كالعبد الطائع لسيده لايخالف مايأمره به ولايخرج عن إرادته ولايهمل السعى فى نفعه ، وكذا الكلام فى تسخير الشمس والقمر والنجوم ، فانها تجرى على نمط متحد يستدل بها العباد على مقادير الأوقات ويهتدون بها ويعرفون أجزاء الزمان ، ومعنى مسخرات مذللات ، وقرأ ابن عامر وأهل الشام (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) بالرفع على الابتداء والخبر ، وقرأ الباقون بالنصب عطفا على الليل والنهار ، وقرأ حفص عن عاصم برفع النجوم على أنه مبتدأ وخبره مسخرات (بأمره) وعلى قراءة النصب فى مسخرات يكون حالا مؤكدة ، لأن التسخير قد فهم من قوله : وسخر ، وقرأ حفص فى رواية برفع مسخرات مع نصب ماقبله على أنه خبر مبتدأ محذوف : أى هى مسخرات (إن فى ذلك) التسخير (لآيات لقوم يعقلون) أى يعملون عقولهم فى هذه الآثار الدالة على وجود الصانع وتفرده وعدم وجود شريك له ، وذكر الآيات ، لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة ، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة ، وجمعها ليطابق قوله مسخرات ، وقيل : ان وجه الجمع هو أن كلا من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم آية فى نفسها بخلاف ماتقدم من الانبات فانه آية واحدة ولايخلو كل هذا عن تكلف ، والأولى أن يقال : ان هذه المواضع الثلاثة التى أفرد الآية فى بعضها ، وجمعها فى بعضها كل واحد منها يصلح للجمع باعتبار وللافراد باعتبار فلم يجرها على طريقة واحدة افتنانا وتنبيها على جواز الأمرين وحسن كل واحد منهما (وما ذرأ لكم فى الأرض) أى خلق : يقال ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءا : خلقهم ، فهو ذارئ ، ومنه الذرية ، وهى نسل الثقلين ، وقد تقدم تحقيق هذا ، وهو معطوف على النجوم رفعا ونصبا : أى وسخر لكم ماذرأ فى الأرض * فالمعنى أنه سبحانه سخر لهم تلك المخلوقات السماوية والمخلوقات الأرضية وانتصاب مختلفا ألوانه على الحال ، وألوانه هيئاته ومناظره ، فان ذرء هذه الأشياء على اختلاف الألوان والأشكال مع تساوى الكل فى الطبيعة الجسمية آية عظيمة دالة على وجود الصانع سبحانه وتفرده (إن فى ذلك) التسخير لهذه الأمور (لآية) واضحة (لقوم يذكرون) فان من تذكر اعتبر ، ومن اعتبر استدل على المطلوب ، قيل وانما خص المقام الأول بالتفكر لامكان ايراد الشبهة المذكورة ، وخص المقام الثانى بالعقل لذكره بعد إماطة الشبهة وازاحة العلة فمن لم يعترف بعدها بالوحدانية

فلاعقل له ، وخص المقام الثالث بالتذكر لمزيد الدلالة ، فمن شك بعد ذلك فلا حس له ، وفى هـذا من التكلف مالايخفى ، والأولى أن يقال هنا كما قلنا فيما تقدم فى إفراد الآية فى البعض وجمعها فى البعض الآخر ، و بيانه أن كلا من هـذه المواضع الثلاثة يصلح لذكر التفكر ولذكر التعقل ولذكر التذكر لاعتبارات ظاهرة غير خفية فكان فى التعبير فى كل موضع بواحد منها افتنان حسن لايوجد فى التعبير بواحد منها فى جميع المواضع الثلاثة (وهو الذى سخر البحر) امتن الله سبحانه بتسخير البحر بامكان الركوب عليه واستخراج مافيه من صيد وجواهر ، لكونه من جملة النعم التى أنعم الله بها على عباده مع مافيه من الدلالة على وحدانية الرب سبحانه وكمال قدرته ، وقد جمع الله سبحانه لعباده فى هذا المقام بين التذكير لهم بآياته الأرضية والسماوية والبحرية ، فأرشدهم إلى النظر والاستدلال بالآيات المتنوعة المختلفة الأمكنة إتماما للحجة ، وتكميلا للانذار ، وتوضيحا لمنازع الاستدلال ، ومناطات البرهان ، ومواضع النظر والاعتبار ، ثم ذكر العلة فى تسخير البحر فقال (لتأكلوا منه لحما طريا) المراد به السمك ، ووصفه بالطراوة للاشعار بلطافته ، والارشاد إلى المسارعة بأكله ، لكونه مما يفسد بسرعة (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) أى لؤلؤا ومرجانا كما فى قوله سبحانه ـ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ـ وظاهر قوله تلبسونها أنه يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان : أى يجعلونه حلية لهم كما يجوز للنساء ، ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين فى تأويل قوله تلبسونها بقوله تلبسه نساؤهم ، لأنهن من جملتهم ، أو لكونهن يلبسنها لأجلهم ، وليس فى الشريعة المطهرة مايقتضى منع الرجال من التحلى باللؤلؤ والمرجان مالم يستعمله على صفة لايستعمله عليها إلا النساء خاصة ، فانّ ذلك ممنوع من جهة كونه تشبها بهن ، وقد ورد الشرع بمنعه لامن جهة كونه حلية لؤلؤ أو مرجان (وترى الفلك مواخر فيه) : أى ترى السفن شواق للماء تدفعه بصدرها : ومخر السفينة شقها الماء بصدرها . قال الجوهرى : مخر السابح اذا شق الماء بصدره ، ومخر الأرض شقها للزراعة ، وقيل مواخر : جوارى ، وقيل معترضة ، وقيل تذهب وتجىء ، وقيل ملججة ، قال ابن جرير : المخر فى اللغة صوت هبوب الريح ، ولم يقيد بكونه فى ماء (ولتبتغوا من فضله) معطوف على تستخرجوا ، ومابينهما اعتراض ، أوعلى علة محذوفة تقديره لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا أوعلى تقدير فعل ذلك لتبتغوا : أى لتتجروا فيه فيحصل لكم الربح من فضل الله سبحانه (ولعلكم تشكرون) أى اذا وجدتم فضله عليكم واحسانه اليكم اعترفتم بنعمته عليكم فشكرتم ذلك باللسان والأركان ، قيل ولعل وجه تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث أن فيها قطعا لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة من غير مزاولة أسباب السفر ، بل من غير حركة أصلا مع أنها فى تضاعيف المهالك ، ويمكن أن يضم الى ما ذكر من قطع المسافة على الصفة المذكورة ما اشتمل عليه البحر من كون فيه أطيب مأكول وأنفس ملبوس وكثرة النعم مع نفاستها وحسن موقعها من أعظم الأسباب المستدعية للشكر الموجبة له ، ثم أردف هـذه النعم الموجبة للتوحيد المفيدة للاستدلال على المطلوب بنعمة أخرى وآية كبرى فقال (وألقى فى الأرض رواسى) أى جبالا ثابتة ، يقال رسا يرسو اذا ثبت وأقام ، قال الشاعر :

فصبرت عارفة لذلك حرة * ترسو اذا نفس الجبان تطلع

(أن تميد بكم) أى كراهة أن تميد بكم على ماقاله البصريون ، أو لئلا تميد بكم على ماقاله الكوفيون والميد الاضطراب يمينا وشمالا ، ماد الشىء يميد ميدا تحرك ، ومادت الأغصان تمايلت ، وماد الرجل تبختر (وأنهارا) أى وجعل فيها أنهارا ، لأن الالقاء هاهنا بمعنى الجعل والخلق كقوله ـ وألقيت عليك محبة منى ـ (وسبلا) أى وجعل فيها سبلا وأظهرها و بينها لأجل تهتدون بها فى أسفاركم الى مقاصدكم : والسبل الطرق (وعلامات) أى

وجعل فيها علامات وهى معالم الطرق * والمعنى أنه سبحانه جعل للطرق علامات يهتدون بها (و بالنجم هم يهتدون) المراد بالنجم الجنس : أى يهتدون به فى سفرهم ليلا . وقرأ ابن وثاب و بالنجم بضم النون والجيم ، ومراده النجوم فقصره ، أو هو جمع نجم كسقف وسقف ، وقيل المراد بالنجم هنا الجدى والفرقدان قاله الفراء ، وقيل الثريا ، وقيل العلامات : الجبال ، وقيل هى النجوم ، لأن من النجوم مايهتدى به ، ومنها مايكون علامة لايهتدى بها ، وذهب الجمهور إلى أن المراد فى الآية الاهتداء فى الأسفار ، وقيل هو الاهتداء إلى القبلة ، ولامانع من حمل مافى الآية على ماهو أعمّ من ذلك ، قال الأخفش : تمّ الكلام عند قوله وعلامات ، وقوله « وبالنجم هم يهتدون » كلام منفصل عن الأول ، ثم لما عدّد الآيات الدالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته أراد أن يوبخ أهل الشرك والعناد فقال (أفمن يخلق) هذه المصنوعات العظيمة ويفعل هذه الأفاعيل العجيبة (كمن لايخلق) شيئا منها ولا يقدر على ايجاد واحد منها ، وهو هذه الأصنام التى تعبدونها وتجعلونها شركاء لله سبحانه ، وأطلق عليها لفظ من إجراء لها مجرى أولى العلم جريا على زعمهم بأنها آلهة ، أو مشاكلة لقوله « أفمن يخلق » لوقوعها فى صحبته ، وفى هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ للكفار مالا يخفى ، وما أحقهم بذلك ، فانهم جعلوا بعض المخلوقات شريكا لخالقه ـ تعالى الله عما يشركون ـ (أفلا تذكرون) مخلوقات الله الدالة على وجوده وتفرّده بالربوبية وبديع صنعته فتستدلون بها على ذلك ، فانها لوضوحها يكفى فى الاستدلال بها مجرّد التذكر لها ، ثم لما فرغ من تعديد الآيات التى هى بالنسبة إلى المكلفين نعم قال (وإن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها) وقد مرّ تفسير هذا فى سورة ابراهيم ، قال العقلاء : إنّ كل جزء من أجزاء الانسان لو ظهر فيه أدنى خلل وأيسر نقص لنغص النعم على الانسان وتمنى أن ينفق الدنيا لو كانت فى ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل ، فهو سبحانه يدبر بدن هذا الانسان على الوجه الملائم له ، مع أن الانسان لاعلم له بوجود ذلك ، فكيف يطيق حصر بعض نعم الله عليه أو يقدر على احصائها ، أو يتمكن من شكر أدناها .

يار بنا هذه نواصينا بيدك خاضعة لعظيم نعمك معترفة بالعجز عن بادية الشكر لشىء منها لانحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، ولانطيق التعبير بالشكر لك فتجاوز عنا واغفر لنا وأسبل ذيول سترك على عوراتنا فانك إن لاتفعل ذلك نهلك بمجرّد التقصير فى شكر نعمك ، فكيف بما قد فرط منا من التساهل فى الائتمار بأوامرك ، والانتهاء عن مناهيك ، وما أحسن ماقال من قال :

العفو يرجى من بنى آدم * فكيف لايرجى من الرّب

فقلت مذيلا لهذا البيت الذى هو قصر مشيد :

فانه أرءف بى منهم * حسبى به حسبى به حسبى

وما أحسن ماختم به هذا الامتنان الذى لايلتبس على انسان مشيرا الى عظيم غفرانه وسعة رحمته فقال (إنّ الله لغفور رحيم) أى كثير المغفرة والرحمة لايؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه ، والقصور عن احصائها ، والعجز عن القيام بأدناها ، ومن رحمته ادامتها عليكم وادرارها فى كل لحظة وعند كل نفس تتنفسونه وحركة تتحركون بها : اللهم إنى أشكرك عدد ماشكرك الشاكرون بكلّ لسان فى كل زمان وعدد ماسيشكرك الشاكرون بكل لسان فى كل زمان ، فلقد خصصتنى بنعم لم أرها على كثير من خلقك وان رأيت منها شيئا على بعض خلقك لم أر عليه بقيتها ، فأنى أطيق شكرك وكيف أستطيع بادية أدنى شكر أدناها فكيف أستطيع أعلاها ؟ فكيف أستطيع شكر نوع من أنواعها ؟ ثم بين لعباده بأنه عالم بجميع مايصدر منهم لاتخفى عليه منه خافية ، فقال (والله يعلم ماتسرون) أى تضمرونه من الأمور

(وما

XVI 20-290

(وماتعلنون) أى تظهرونه منها ، وفيه وعيد وتعريض وتوبيخ ، وتنبيه على أنّ الاله يجب أن يكون عالما بالسرّ والعلانية لا كأصنام التى يعبدونها ، فانها جمادات لاشعور لها بشىء من الظواهر فضلا عن السرائر فكيف يعبدونها :

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وماذرأ لكم فى الأرض) قال : ماخلق لكم فى الأرض مختلفا من الدواب ، والشجر ، والثمار نعم من الله متظاهرة فاشكروها لله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (لتأكلوا منه لحما طريا) يعنى حيتان البحر (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) قال : هذا اللؤلؤ . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) قال : هو السمك ومافيه من الدواب . وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى جعفر قال : ليس فى الحلى زكاة ، ثم قرأ : وتستخرجوا منه حلية تلبسونها * أقول وفى هذا الاستدلال نظر ، والذى ينبغى التعويل عليه أن الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها فى شىء من أنواع المال فتلزم ، وقد ورد فى الذهب والفضة ماهو معروف ، ولم يرد فى الجواهر على اختلاف أصنافها مايدلّ على وجوب الزكاة فيها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس مواخر قال : جوارى . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة : مواخر قال تشقّ الماء بصدرها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك مواخر قال : السفينتان تجريان بريح واحدة مقبلة ومدبرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (ولتبتغوا من فضله) قال : هى التجارة . وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (رواسى) قال : الجبال (أن تميد بكم) قال حتى لاتميد بكم ، كانوا على الأرض تمور بهم لاتستقر ، فأصبحوا صبحا . وقد جعل الله الجبال ، وهى الرواسى أوتادا فى الأرض . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (وسبلا) قال السبل : هى الطرق بين الجبال . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والخطيب عن قتادة (وسبلا) قال : طرقا (وعلامات) قال : هى النجوم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال : علامات النهار الجبال . وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر عن الكلبى وعلامات قال الجبال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (وعلامات) يعنى معالم الطرق بالنهار (وبالنجم هم يهتدون) يعنى بالليل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (أفمن يخلق كمن لايخلق) قال الله هو الخالق الرازق ، وهذه الأوثان التى تعبد من دون الله تخلق ولا تخلق شيئا ولا تملك لأهلها ضرّا ولا نفعا .

وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ * قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللهُ بُنْيَٰنَهُمْ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ

شرع سبحانه فى تحقيق كون الأصنام التى أشار اليها بقوله (كمن لايخلق) عاجزة عن أن يصدر منها خلق شيء فلا تستحق عبادة فقال (والذين تدعون من دون الله) أى الآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون الله سبحانه صفتهم هذه الصفات المذكورة : وهى أنهم (لايخلقون شيئا) من المخلوقات أصلا لا كبيرا ولاصغيرا ولاجليلا ولاحقيرا (وهم يخلقون) أى وصفتهم أنهم يخلقون ، فكيف يمكن المخلوق من أن يخلق غيره ، ففى هذه الآية زيادة بيان لأنه أثبت لهم صفة النقصان بعد أن سلب عنهم صفة الكمال ، بخلاف قوله «أفمن يخلق كمن لايخلق» فانه اقتصر على مجرد سلب صفة الكمال . وقراءة الجمهور والذين تدعون بالمثناة الفوقية على الخطاب مطابقة لما قبله ، وروى أبو بكر عن عاصم ، وروى هبيرة عن حفص يدعون بالتحتية : وهى قراءة يعقوب ، ثم ذكر صفة أخرى من صفاتهم فقال (أموات غير أحياء) يعنى أن هذه الأصنام أجسادها ميتة لاحياة بها أصلا ، فزيادة غير أحياء لبيان أنها ليست كبعض الأجساد التى تموت بعد ثبوت الحياة لها بل لاحياة لهذه أصلا ، فكيف يعبدونها ، وهم أفضل منها لأنهم أحياء (ومايشعرون أيان يبعثون) الضمير فى يشعرون للآلهة ، وفى يبعثون للكفار الذين يعبدون الأصنام ، والمعنى ماتشعر هذه الجمادات من الأصنام أيان يبعث عبدتهم من الكفار ، ويكون هذا على طريقة التهكم بهم ، لأن شعور الجماد مستحيل بما هو من الأمور الظاهرة فضلا عن الأمور التى لايعلمها الا الله سبحانه ، وقيل يجوز أن يكون الضمير فى يبعثون للآلهة : أى وماتشعر هذه الأصنام أيان تبعث ، ويؤيد ذلك ماروى أن الله يبعث الأصنام ويخلق لها أرواحا معها شياطينها فيؤمر بالكل الى النار ، ويدل على هذا قوله ـ انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ـ وقيل قد تم الكلام عند قوله «وهم يخلقون» ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ، فيكون الضميران على هذا للكفار ، وعلى القول بأن الضميرين أو أحدهما للأصنام يكون التعبير عنها مع كونها لاتعقل بما هو للعقلاء جريا على اعتقاد من يعبدها بأنها تعقل . وقرأ السلمى إيان بكسر الهمزة ، وهما لغتان ، وهو فى محل نصب بالفعل الذى قبله (إلهكم إله واحد) لما زيف سبحانه طريقة عبدة الأوثان صرح بما هو الحق فى نفس الأمر : وهو وحدانيته سبحانه ، ثم ذكر ما لأجله أصر الكفار على شركهم فقال (فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) للوحدانية لايؤثر فيها وعظ ولاينجع فيها تذكير (وهم مستكبرون) عن قبول الحق ، متعظمون عن الاذعان للصواب ، مستمرون على الجحد (لاجرم أن الله يعلم مايسرون ومايعلنون) قال الخليل : لاجرم كلمة تحقيق ولا تكون الا جوابا : أى حقا أن الله يعلم مايسرون من أقوالهم وأفعالهم ومايعلنون من ذلك ، وقد مر تحقيق الكلام فى لاجرم (إنه لايحب المستكبرين) أى لايحب هؤلاء الذين يستكبرون عن توحيد الله والاستجابة لأنبيائه ، والجملة تعليل لما تضمنه الكلام المتقدم (واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم) : أى واذا قال لهؤلاء الكفار المنكرين المستكبرين قائل ماذا أنزل ربكم : أى أى شيء أنزل ربكم ؟ أو ماذا الذى أنزل ، قيل القائل النضر بن الحارث والآية نزلت فيه ، فيكون هذا القول منه على طريق التهكم ، وقيل القائل هو من يفد عليهم ، وقيل القائل المسلمون ، فأجاب المشركون المنكرون المستكبرون ف (قالوا أساطير الأولين) بالرفع : أى ماتدعون أيها المسلمون نزوله أساطير الأولين ، أو ان المشركين أرادوا السخرية بالمسلمين فقالوا المنزل عليكم أساطير الأولين . وعلى هذا فلا يرد ماقيل من أن هذا لايصلح أن يكون جوابا من المشركين ، والا لكان المعنى الذى أنزله ربنا أساطير الأولين والكفار لايقرون بالانزال ، ووجه عدم وروده هو ماذكرناه ، وقيل هو كلام مستأنف : أى ليس ماتدعون انزاله أيها المسلمون منزلا ، بل هو أساطير الأولين ، وقد جوز على مقتضى علم النحو نصب أساطير وان لم تقع القراءة به ولابد فى النصب

من التأويل الذى ذكرنا : أى أنزل على دعوا كم أساطير الأولين ، أو يقولون ذلك من أنفسهم على طريق السخرية . والأساطير : الأباطيل والترّهات التى يتحدّث الناس بها عن القرون الأولى ، وليس من كلام الله فى شىء ولا مما أنزله الله أصلا فى زعمهم (ليحملوا أوزارهم كاملة) أى قالوا هذه المقالة لكى يحملوا أوزارهم كاملة . لم يكفر منها شىء لعدم اسلامهم الذى هو سبب لتكفير الذنوب ، وقيل ان اللام هى لام العاقبة ، لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير لأجل يحملون الأوزار ، ولكن لما كان عاقبتهم ذلك حسن التعليل به كقوله ــ ليكون لهم عدوّا وحزنا ــ وقيل هى لام الأمر (ومن أوزار الذين يضلونهم) أى ويحملون بعض أوزار الذين أضلوهم لأن من سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ، وقيل من للجنس لا للتبعيض : أى يحملون كل أوزار الذين يضلونهم ، ومحلّ (بغير علم) النصب على الحال من فاعل « يضلونهم » : أى يضلون الناس جاهلين غير عالمين بما يدعونهم إليه ، ولا عارفين بما يلزمهم من الآثام ، وقيل انه حال من المفعول : أى يضلون من لا علم له ، ومثل هذه الآية ــ وليحملنّ أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ــ . وقد تقدّم فى الأنعام الكلام على قوله ــ ولا تزر وازرة وزر أخرى ــ ، (ألا ساء ما يزرون) أى بئس شيئا يزرونه ذلك ، ثم حكى سبحانه حال أضرابهم من المتقدّمين ، فقال (قد مكر الذين من قبلهم) ذهب أكثر المفسرين الى أن المراد به نمروذ بن كنعان حيث بنى بناء عظيما ببابل ، ورام الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها ، فأهبّ الله الريح ، فخرّ ذلك البناء عليه وعلى قومه فهلكوا ، والأولى أن الآية عامة فى جميع المبطلين من المتقدّمين الذين يحاولون إلحاق الضرّ بالمحقين ، ومعنى المكر هنا : الكيد والتدبير الذى لا يطابق الحق ، وفى هذا وعيد للكفار المعاصرين له ﷺ بأن مكرهم سيعود عليهم كما عاد مكر من قبلهم على أنفسهم (فأتى الله بنيانهم) أى أتى أمر الله ، وهو الريح التى أخربت بنيانهم . قال المفسرون أرسل الله ريحا فألقت رأس الصرح فى البحر ، وخرّ عليهم الباقى (من القواعد) . قال الزجاج من الأساطين ، والمعنى أنه أتاها أمر الله من جهة قواعدها فزعزعها (فخرّ عليهم السقف من فوقهم) ، قرأ ابن أبى هريرة وابن محيصن السقف بضم السين والقاف جميعا . وقرأ مجاهد بضم السين وسكون القاف ، وقرأ الباقون السقف بفتح السين وسكون القاف ، والمعنى أنه سقط عليهم السقف ، لأنه بعد سقوط قواعد البناء يسقط جميع ما هو معتمد عليها . قال ابن الأعرابى ، وانما قال « من فوقهم » ليعلمك أنهم كانوا حالين تحته ، والعرب تقول خرّ علينا سقف ، ووقع علينا حائط اذا كان يملكه وان لم يكن وقع عليه ، فجاء بقوله « من فوقهم » ليخرج هذا الشك الذى فى كلام العرب ، فقال « من فوقهم » أى عليهم وقع ، وكانوا تحته فهلكوا ، وما أفلتوا ، وقيل إن المراد بالسقف السماء : أى أتاهم العذاب من السماء التى فوقهم ، وقيل ان هذه الآية تمثيل لهلاكهم ، والمعنى : أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه عليه .

وقد اختلف فى هؤلاء الذين خرّ عليهم السقف ، فقيل هو نمروذ كما تقدّم ، وقيل انه بختنصر وأصحابه ، وقيل هم المقتسمون الذين تقدّم ذكرهم فى سورة الحجر (وأتاهم العذاب) أى الهلاك (من حيث لا يشعرون) به ، بل من حيث انهم فى أمان ، ثم بين سبحانه أن عذابهم غير مقصور على عذاب الدنيا ، فقال (ثم يوم القيامة يخزيهم) بادخالهم النار ، ويفضحهم بذلك ويهينهم ، وهو معطوف على مقدّر : أى هذا عذابهم فى الدنيا ، ثم يوم القيامة يخزيهم (ويقول) لهم مع ذلك توبيخا وتقريعا (أين شركائى كما تزعمون وتدّعون ، قرأ ابن كثير من رواية البزى شركاى من دون همز ، وقرأ الباقون بالهمز ، ثم وصف هؤلاء الشركاء بقوله (الذين كنتم تشاقون فيهم) ، قرأ نافع بكسر النون على الاضافة ، وقرأ الباقون

بفتحها : أى تخاصمون الأنبياء والمؤمنين فيهم ، وعلى قراءة نافع تخاصمونى فيهم وتعادونى : ادعوهم فليدفعوا عنكم هذا العذاب النازل بكم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (لاجرم) يقول بلى . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك (لاجرم) قال يعنى لحق . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك قال : لا كذب . وأخرج مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه وغيرهم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فقال رجل يارسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا ، فقال ان الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمص الناس » ، وفى ذم الكبر ومدح التواضع أحاديث كثيرة ، وكذلك فى إخراج محبة حسن الثوب ، وحسن النعل ، ونحو ذلك من الكبر أحاديث كثيرة * والحاصل أن النبى ﷺ قد بين ماهية الكبر أنه بطر الحق ، وغمص الناس ، فهذا هو الكبر المذموم ، وقد ساق صاحب الدر المنثور عند تفسيره لهذه الآية ، أعنى قوله سبحانه (انه لايحب المستكبرين) أحاديث كثيرة ليس هذا مقام ايرادها ، بل المقام مقام ذكر ماله علاقة بتفسير الكتاب العزيز . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (قالوا أساطير الأولين) أن ناسا من مشركى العرب كانوا يقعدون بطريق من أتى نبى الله ﷺ فاذا مروا سألوهم فأخبروهم بما سمعوا من النبى ﷺ فقالوا انما هو أساطير الأولين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ليحملوا أوزارهم) الآية يقول يحملون مع ذنوبهم ذنوب الذين يضلونهم بغير علم ، وذلك مثل قوله سبحانه ـ وأثقالا مع أثقالهم ـ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه ، وزاد ولا يخفف ذلك عمن أطاعهم من العذاب شيئا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (قد مكر الذين من قبلهم) قال نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن زيد بن أسلم أنه النمروذ أيضا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (فأتى الله بنيانهم من القواعد) قال أتاها أمر الله من أصلها (فخر عليهم السقف من فوقهم) والسقف : أعالى البيوت فائتفكت بهم بيوتهم ، فأهلكهم الله ودمرهم (وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس (تشاقون فيهم) قال تخالفونى .

قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَٱدْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ * وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ *

قوله (قال الذين أوتوا العلم) قيل هم العلماء قالوه لأممهم الذين كانوا يعظونهم ولايلتفتون الى وعظهم ،

وكان

وكان هذا القول منهم على طريق الشماتة ، وقيل هم الأنبياء ، وقيل الملائكة ، والظاهر الأوّل لأن ذكرهم بوصف العلم يفيد ذلك وان كان الأنبياء والملائكة هم من أهل العلم ، بل هم أعرق فيه لكن لهم وصف يذكرون به هو أشرف من هذا الوصف ، وهو كونهم أنبياء ، أوكونهم ملائكة ، ولايقدح فى هذا جواز الاطلاق ، لأن المراد الاستدلال على الظهور فقط (ان الخزى اليوم) أى الذلّ والهوان والفضيحة يوم القيامة (والسوء) أى العذاب (على الكافرين) مختص بهم (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) قدتقدم تفسيره ، والموصول فى محل الجرعلى أنه نعت للكافرين ، أو بدل منه ، أو فى محل نصب على الاختصاص أوفى محل رفع على تقديرمبتدأ : أى هم الذين تتوفاهم ، وانتصاب ظالمى أنفسهم على الحال (فألقوا السلم) معطوف على « فيقول أين شركائى » ومابينهما اعتراض : أى أقرّوا بالربوبية ، وانقادوا عند الموت ، ومعناه الاستسلام ، قاله قطرب ، وقيل معناه المسالمة : أى سالموا وتركوا المشاقة : قاله الأخفش ، وقيل معناه الاسلام أى أقرّوا بالاسلام وتركوا ما كانوا فيه من الكفر ، وجملة (ما كنا نعمل من سوء) يجوز أن تكون تفسيرا للسلم على أن يكون المراد بالسلم الكلام الدال عليه ، ويجوز أن يكون المراد بالسوء هنا الشرك ، ويكون هذا القول منهم على وجه الجحود والكذب ، ومن لم يجوّز الكذب على أهل القيامة حمله على أنهم أرادوا انهم لم يعملوا سوءا فى اعتقادهم وعلى حسب ظنونهم ، ومثله قولهم — والله ربنا ما كنا مشركين — فلما قالوا هذا أجاب عليهم أهل العلم بقولهم (بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون) أى بلى كنتم تعملون السوء إن الله عليم بالذى كنتم تعملونه فجازيكم عليه ولا ينفعكم هذا الكذب شيئا (فادخلوا أبواب جهنم) أى يقال لهم ذلك عند الموت . وقد تقدّم ذكر أبواب جهنم وان جهنم درجات بعضها فوق بعض ، و (خالدين فيها) حال مقدّرة ، لأن خلودهم مستقبل (فلبئس مثوى المتكبرين) المخصوص بالذم محذوف ، والتقدير لبئس مثوى المتكبرين جهنم ، والمراد بتكبرهم هنا هو تكبرهم عن الايمان والعبادة كما فى قوله — إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون — ثم أتبع أوصاف الاشقياء بأوصاف السعداء ، فقال (وقيل للذين اتقوا) وهم المؤمنون (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) أى أنزل خيرا . قال الثعلبى : فان قيل لم ارتفع الجواب فى قوله « أساطير الأوّلين » وانتصب فى قوله « خيرا » فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل فكأنهم قالوا الذى يقولونه محمد هوأساطير الأوّلين ، والمؤمنون آمنوا بالنزول ، فقال أنزل خيرا (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) قيل هذا من كلام الله عزّ وجلّ ، وقيل هو حكاية لكلام الذين اتقوا ، فيكون على هذا بدلا من خيرا ، وعلى الأوّل يكون كلاما مستأنفا مسوقا للمدح للمتقين ، والمعنى للذين أحسنوا أعمالهم فى الدنيا حسنة : أى مثوبة حسنة (ولدار الآخرة) أى مثوبتها (خير) مما أوتوا فى الدنيا (ولنعم دار المتقين) دار الآخرة ، فحذف المخصوص بالمدح لدلالة ماقبله عليه ، وارتفاع (جنات عدن) على أنها مبتدأ خبرها مابعدها ، أوخبرمبتدأ محذوف ، وقيل يجوز أن تكون هى المخصوص بالمدح (يدخلونها) هو إما خبر المبتدأ ، أو خبر بعد خبر ، وعلى تقدير تنكير عدن تكون صفة لجنات وكذلك (تجرى من تحتها الأنهار) وقيل يجوز أن تكون الجملتان فى محل نصب على الحال على تقدير أن لفظ عدن علم . وقد تقدّم معنى جرى الأنهار من تحت الجنات (لهم فيها مايشاءون) أى لهم فى الجنات ماتقع عليه مشيئتهم صفوا عفوا يحصل لهم بمجرّد ذلك (كذلك يجزى الله المتقين) أى مثل ذلك الجزاء يجزيهم ، والمراد بالمتقين كل من يتق الشرك وما يوجب النار من المعاصى ، والموصول فى قوله (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) فى محل نصب نعت للمتقين المذكور قبله ، قرأ الأعمش وحمزة تتوفاهم فى هذا الموضع ، وفى الموضع الأوّل بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالمثناة الفوقية ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد مستدلا بما

XVI 55-47

روى عن ابن مسعود أنه قال : ان قريشا زعموا أن الملائكة أناث فذكروهم أنتم ، وطيبين فيه أقوال : طاهرين من الشرك ، أو صالحين ، أو زاكية أفعالهم وأقوالهم ، أو طيبين الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله ، أو طيبة نفوسهم بالرجوع الى الله ، أو طيبين الوفاة : أى هى عليهم سهلة لاصعوبة فيها ، وجملة (يقولون سلام عليكم) فى محل نصب على الحال من الملائكة : أى قائلين سلام عليكم ، ومعناه يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون السلام انذارا لهم بالوفاة : الثانى أن يكون تبشيرا لهم بالجنة ، لأن السلام أمان ، وقيل ان الملائكة يقولون السلام عليك ولىّ الله ان الله يقرأ عليك السلام (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) أى بسبب عملكم ، قيل يحتمل هذا وجهين : الأول أن يكون تبشيرا بدخول الجنة عند الموت : الثانى أن يقولوا ذلك لهم فى الآخرة ولا ينافى هذا دخول الجنة بالتفضل ، كما فى الحديث الصحيح « سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله ، قيل ولا أنت يارسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » وقد قدّمنا البحث عن هذا .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وقيل للذين اتقوا) قال : هؤلاء المؤمنون ، يقال لهم (ماذا أنزل ربكم) فيقولون (خيرا للذين أحسنوا) أى آمنوا بالله وكتبه وأمروا بطاعته وحثوا عباد الله على الخير ودعوهم اليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) قال : أحياء وأمواتا قدّر الله لهم ذلك .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُهْدَىٰ مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ *

قوله (هل ينظرون) الآية هذا جواب شبهة أخرى لمنكرى النبوّة ، فانهم طلبوا من النبى ﷺ أن ينزل عليهم ملكا من السماء يشهد على صدقه فى ادّعا النبوّة ، فقال هل ينظرون فى تصديق نبوّتك (إلا أن تأتيهم الملائكة) شاهدين بذلك ، ويحتمل أن يقال انهم لما طعنوا فى القرآن بأنه أساطير الأوّلين أوعدهم الله بقوله (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة) لقبض أرواحهم (أو يأتى أمر ربك) أى عذابه فى الدنيا المستأصل لهم ، أو المراد بأمر الله القيامة ، وقرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائى وخلف إلا أن يأتيهم الملائكة بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالمثناة الفوقية ، والمراد بكونهم ينظرون : أى ينتظرون اتيان الملائكة أو اتيان أمر الله على التفسير الآخر أنهم قد فعلوا فعل من وجب

عليه العذاب وصار منتظرا له ، وليس المراد أنهم ينتظرون ذلك حقيقة ، فانهم لايؤمنون بذلك ولا يصدّقونه (كذلك فعل الذين من قبلهم) أى مثل فعل هؤلاء من الاصرار على الكفر والتكذيب والاستهزاء فعل الذين خلوا من قبلهم من طوائف الكفار فأتاهم أمر الله فهلكوا (وما ظلمهم الله) بتدميرهم بالعذاب فانه أنزل بهم مااستحقوه بكفرهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بما ارتكبوه من القبائح ، وفيه أن ظلمهم مقصور عليهم باعتبار ماإليه يئول ، وجملة (فأصابهم سيئات ماعملوا) معطوفة على فعل الذين من قبلهم ، ومابينهما اعتراض ، وقيل فى الكلام تقديم وتأخير والتقدير كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ماعملوا وما ظلمهم الله * والمعنى فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم ، أو جزاء أعمالهم السيئة (وحاق بهم) أى نزل بهم على وجه الاحاطة (ماكانو به يستهزءون) أى العذاب الذى كانوا به يستهزءون أو عقاب استهزائهم (وقال الذين أشركوا) هذا نوع آخر من كفرهم الذى حكاه الله عنهم ، والمراد بالذين أشركوا هنا أهل مكة (لوشاء الله ما عبدنا من دونه من شىء) أى لوشاء عدم عبادتنا لشىء غيره ماعبدنا ذلك (نحن ولا آباؤنا) الذين كانوا على مانحن عليه الآن من دين الكفر والشرك بالله . قال الزجاج : انهم قالوا هذا على جهة الاستهزاء ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين ، وقد مضى الكلام على مثل هذا فى سورة الأنعام (ولا حرّمنا من دونه من شىء) من السوائب والبحائر ونحوهما ، ومقصودهم بهذا القول المعلق بالمشيئة الطعن فى الرسالة : أى لوكان ماقاله الرسول حقا من المنع من عبادة غيرالله ، والمنع من تحريم مالم يحرّمه الله حاكيا ذلك عن الله لم يقع منا مايخالف ماأراده منا ، فانه قد شاء ذلك وما شاءه كان ومالم يشأه لم يكن ، فلما وقع منا العبادة لغيره وتحريم مالم يحرمه كان ذلك دليلا على أن ذلك هو المطابق لمراده والموافق لمشيئته مع أنهم فى الحقيقة لايعترفون بذلك ولايقرّون به لكنهم قصدوا ماذكرنا من الطعن على الرسل (كذلك فعل الذين من قبلهم) من طوائف الكفرفانهم أشركوا بالله وحرّموا مالم يحرمه وجادلوا رسله بالباطل واستهزءوا بهم ، ثم قال (فهل على الرسل) الذين يرسلهم الله الى عباده بما شرعه لهم من شرائعه التى رأسها توحيده ، وترك الشرك به (إلا البلاغ) إلى من أرسلوا اليهم بما أمروا بتبليغه بلاغا واضحا يفهمه المرسل اليهم ولا يلتبس عليهم ، ثم انه سبحانه أكد هذا وزاده إيضاحا ، فقال (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) كما بعثنا فى هؤلاء لاقامة الحجة عليهم — وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا — و « أن » فى قوله (أن اعبدوا الله) إما مصدرية : أى بعثنا بأن اعبدوا الله ، أومفسرة ، لأن فى البعث ، معنى القول (واجتنبوا الطاغوت) أى اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم وكل من دعا الى الضلال (فمنهم) أى من هذه الأمم التى بعث الله اليها رسله (من هدى الله) أى أرشده الى دينه وتوحيده وعبادته ، واجتناب الطاغوت (ومنهم من حقت عليه الضلالة) أى وجبت وثبتت لاصراره على الكفر والعناد . قال الزجاج : أعلم الله أنه بعث الرسل بالأمر بالعبادة ، وهو من وراء الاضلال والهداية ، ومثل هذه الآية قوله تعالى — فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة — ، وفى هذه الآية التصريح بأن الله أمر جميع عباده بعبادته ، واجتناب الشيطان وكل مايدعو الى الضلال ، وأنهم بعد ذلك فريقان فمنهم من هدى ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فكان فى ذلك دليل على أن أمر الله سبحانه لايستلزم موافقة ارادته فانه يأمر الكل بالايمان ولايريد الهداية الا للبعض ، اذ لوأرادها للكل لم يكفر أحد ، وهذا معنى ماحكيناه عن الزجاج هنا (فسيروا فى الأرض) سير معتبرين (فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) من الأمم السابقة عند مشاهدتكم لآثارهم كعاد وثمود : أى كيف صار آخر أمرهم الى خراب الديار بعد هلاك الأبدان بالعذاب ، ثم خصص الخطاب برسوله ﷺ مؤكدا لما تقدم ، فقال (ان تحرص على هداهم) أى

تطلب بجهدك ذلك (فان الله لايهدى من يضلّ) . قرأ ابن مسعود وأهل الكوفة لايهدى بفتح حرف المضارعة على أنه فعل مستقبل مسند الى الله سبحانه : أى فان الله لايرشد من أضله ، ومن فى موضع نصب على المفعولية ، وقرأ الباقون لايهدى بضم حرف المضارعة على أنه مبنى للمجهول ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم على معنى أنه لايهديه هاد كائنا من كان ، ومن فى موضع رفع على أنها نائب الفاعل المحذوف ، فتكون هذه الآية على هذه القراءة كقوله فى الآية الأخرى ــ من يضلل الله فلاهادى له ــ والعائد على القراءتين محذوف : أى من يضله ، وروى أبو عبيد عن الفراء على القراءة الأولى : أن معنى لايهدى لايهتدى كقوله تعالى ــ أمّن لايهدّى إلا أن يهدى ــ بمعنى يهتدى . قال أبو عبيد ولا نعلم أحدا روى هذا غير الفراء وليس بمتهم فيما يحكيه . قال النحاس : حكى عن محمد بن يزيد المبرد ، كأن معنى لايهدى من يضل من علم ذلك منه ، وسبق له عنده (وما لهم من ناصرين) ينصرونهم على الهداية لمن أضله الله أو ينصرونهم بدفع العذاب عنهم ، ثم ذكر عناد قريش وانكارهم للبعث ، فقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) مصدر فى موضع الحال : أى جاهدين (لايبعث الله من يموت) من عباده ، زعموا أن الله سبحانه عاجز عن بعث الأموات ، فردّ الله عليهم ذلك بقوله (بلى وعدا عليه حقا) هذا اثبات لما بعد النفى : أى بلى يبعثهم ، ووعدا مصدر مؤكد لما دلّ عليه بلى ، وهو يبعثهم ، لأن البعث وعد من الله وعد عباده به ، والتقدير وعد البعث وعدا عليه حقا لاخلف فيه ، وحقا صفة لوعد ، وكذا عليه ، فانه صفة لوعد : أى كائنا عليه ، أو نصب حقا على المصدرية : أى حق حقا (ولكنّ أكثر الناس لايعلمون) أن ذلك يسير عليه سبحانه غير عسير * وقوله (ليبين لهم) أى ليظهر لهم ، وهو غاية لما دلّ عليه بلى من البعث ، والضمير فى (لهم) راجع الى من يموت ، والموصول فى قوله (الذى يختلفون فيه) فى محل نصب على أنه مفعول ليبين : أى الأمر الذى وقع الخلاف بينهم فيه ، و بيانه اذ ذاك يكون بما جاءتهم به الرسل ، ونزلت عليهم فيه كتب الله ، وقيل ان ليبين متعلق بقوله (ولقد بعثنا) أى بعثنا فى كل أمة رسولا ليبين وهو بعيد (وليعلم الذين كفروا) بالله سبحانه وأنكروا البعث (أنهم كانوا كاذبين) فى جدالهم وانكارهم البعث بقولهم (لايبعث الله من يموت) وجملة (إنما قولنا لشىء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون) مستأنفة لبيان كيفية الابداء والاعادة بعد بيان سهولة البعث عليه سبحانه . قال الزجاج : أعلمهم بسهولة خلق الأشياء عليه فأخبر أنه متى أراد الشىء كان ، وهذا كقوله ــ و إذا قضى أمرا أن يقول له كن فيكون ــ ، وقرأ ابن عامر والكسائى فيكون بالنصب عطفا على أن نقول . قال الزجاج : يجوز أن يكون نصبا على جواب كن ، وقرأ الباقون بالرفع على معنى : فهو يكون . قال ابن الأنبارى : أوقع لفظ الشىء على المعلوم عند الله تعالى قبل الخلق ، لأنه بمنزلة ماقد وجد وشوهد ، وقال الزجاج : أن معنى لشىء لأجل شىء فجعل اللام سببية ، وقيل هى لام التبليغ ، كما فى قولك قلت له قم فقام « وانما قولنا » مبتدأ وأن نقول له كن خبره ، وهذا الكلام من باب التمثيل على معنى : أنه لايمتنع عليه شىء ، وأن وجوده عند ارادته كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع اذا ورد على المأمور المطيع وليس هناك قول ولا مقول له ولا أمر ولا مأمور حتى يقال انه يلزم منه أحد محالين ، اما خطاب المعدوم ، أو تحصيل الحاصل ، وقد مضى تفسير ذلك فى سورة البقرة مستوفى .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة) قال : بالموت ، وقال فى آية أخرى ــ ولوترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ــ وهوملك الموت ، وله رسل (أو يأتى أمر ربك) وذاكم يوم القيامة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج

ابن

ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله (فإن الله لايهدى من يضل) قال: من يضله الله لايهديه أحد. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به: والذي أرجوه بعد الموت انه لكذا وكذا، فقال له المشرك أنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت، فأقسم بالله جهد يمينه لايبعث الله من يموت، فأنزل الله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت) الآية. وأخرج ابن العقيلي وابن مردويه عن علي في قوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت) قال: نزلت في. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر عن أبي هريرة قال: قال الله تعالى «سبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يسبني، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني، أما تكذيبه إياي، فقال وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت، وقلت بلى وعدا عليه حقا، وأما سبه إياي، فقال ان الله ثالث ثلاثة، وقلت هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» هكذا ذكره أبو هريرة موقوفا وهو في الصحيحين مرفوعا بلفظ آخر. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (ليبين لهم الذي يختلفون فيه) يقول: للناس عامة.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَٱلْمَلَٰئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ *

قد تقدم تحقيق معنى الهجرة في سورة النساء، وهي ترك الأهل والأوطان، ومعنى (هاجروا في الله) في شأن الله سبحانه، وفي رضاه، وقيل (في الله) في دين الله، وقيل في بمعنى اللام: أي لله (من بعد ماظلموا) أي عذبوا وأهينوا فان أهل مكة عذبوا جماعة من المسلمين حتى قالوا ماأرادوا منهم فلما تركوهم هاجروا. وقد اختلف في سبب نزول الآية، فقيل نزلت في صهيب و بلال وخباب وعمار، واعترض بأن السورة مكية، وذلك يخالف قوله (والذين هاجروا) وأجيب بأنه يمكن أن تكون هذه الآية من جملة الآيات المدنية في هذه السورة كما قدمنا في عنوانها، وقيل نزلت في أبي جندل بن سهيل، وقيل نزلت في أصحاب محمد ﷺ لما ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة (لنبوئنهم في الدنيا حسنة) اختلف في معنى هذا على أقوال، فقيل المراد نزولهم المدينة. قاله ابن عباس والحسن والشعبي وقتادة، وقيل المراد الرزق الحسن. قاله مجاهد، وقيل النصر على عدوهم، قاله الضحاك، وقيل مااستولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات، وقيل مابقى لهم فيها من الثناء وصار لأولادهم من الشرف ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور، ومعنى «لنبوئنهم في الدنيا حسنة» لنبوئنهم مباءة حسنة

أو تبوئة حسنة ، فحسنة صفة مصدر محذوف (ولأجر الآخرة) أى جزاء أعمالهم فى الآخرة (أكبر) من أن يعلمه أحد من خلق الله قبل أن يشاهده ، ومنه قوله تعالى ـ وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيما وملكا كبيرا ـ . (لو كانوا يعلمون) أى لو كان هؤلاء الظلمة يعلمون ذلك ، وقيل ان الضمير فى « يعلمون » راجع إلى المؤمنين : أى لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا (الذين صبروا) الموصول فى محل نصب على المدح ، أو الرفع على تقدير مبتدأ ، أو هو بدل من الموصول الأوّل ، أو من الضمير فى « لنبوّئنهم » (وعلى ربهم يتوكلون) أى على ربهم خاصة يتوكلون فى جميع أمورهم معرضين عما سواه ، والجملة معطوفة على الصلة ، أو فى محل نصب على الحال (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم) قرأ حفص عن عاصم نوحى بالنون ، وقرأ الباقون يوحى بالياء التحتية ، وهذه الآية ردّ على قريش حيث زعموا أن الله سبحانه أجلّ من أن يرسل رسولا من البشر ، فردّ الله عليهم بأن هذه عادته وسنته أن لا يرسل إلا رجالا من البشر يوحى إليهم ، وزعم أبو علىّ الجبائى أن معنى الآية أن الله سبحانه لم يرسل إلى الأنبياء بوحيه إلا من هو على صورة الرجال من الملائكة ، ويردّ عليه بأن جبريل كان يأتى رسول الله ﷺ على صور مختلفة ، ولما كان كفار مكة مقرّين بأن اليهود والنصارى هم أهل العلم بما أنزل الله فى التوراة والانجيل صرف الخطاب إليهم وأمرهم أن يرجعوا إلى أهل الكتاب ، فقال (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) أى فاسألوا أيها المشركون مؤمنى أهل الكتاب ان كنتم لا تعلمون فانهم سيخبرونكم بأن جميع الأنبياء كانوا بشرا ، أو اسألوا أهل الكتاب من غير تقييد بمؤمنيهم كما يفيده الظاهر فانهم كانوا يعترفون بذلك ولا يكتمونه ، وقيل المعنى فاسألوا أهل القرآن ، و (بالبينات والزبر) يتعلق بأرسلنا ، فيكون داخلا فى حكم الاستثناء مع رجالا ، وأنكر الفراء ذلك . وقال ان صفة ماقبل إلا لا تتأخر إلى ما بعدها ، لأن المستثنى عنه هو مجموع ماقبل الامع صلته ، كما لو قيل أرسلنا إلا رجالا بالبينات ، فلما لم يصر هذا المجموع مذكورا بتمامه امتنع ادخال الاستثناء عليه ، وقيل فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالا ، وقيل يتعلق بمحذوف دل عليه المذكور : أى أرسلناهم بالبينات والزبر ، ويكون جوابا عن سؤال مقدّر كأنه قيل بماذا أرسلهم ؟ فقال أرسلناهم بالبينات والزبر ، وقيل متعلق بتعلمون على أنه مفعوله والباء زائدة : أى ان كنتم لا تعلمون البينات والزبر وقيل متعلق برجالا : أى رجالا متلبسين بالبينات والزبر ، وقيل بنوحى : أى نوحى اليهم بالبينات والزبر ، وقيل منصوب بتقدير أعنى ، والباء زائدة ، وأهل الذكر هم أهل الكتاب كما تقدّم . وقال الزجاج : اسألوا كل من يذكر بعلم ، والبينات : الحجج والبراهين ، والزبر : الكتب . وقد تقدّم الكلام على هذا فى آل عمران (وأنزلنا إليك الذكر) أى القرآن ، ثم بين الغاية المطلوبة من الانزال ، فقال (لتبين للناس) جميعا (ما نزل إليهم) فى هذا الذكر من الأحكام الشرعية والوعد والوعيد (ولعلهم يتفكرون) أى إرادة أن يتأملوا و يعملوا أفكارهم فيتعظوا (أفأمن الذين مكروا السيئات) يحتمل أن تكون السيئات صفة مصدر محذوف : أى مكروا المكرات السيئات ، وأن تكون مفعولة للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل أى عملوا السيئات ، أوصفة لمفعول مقدّر : أى أفأمن الماكرون العقوبات السيئات ، أوعلى حذف حرف الجرّ : أى مكروا بالسيئات (أن يخسف الله بهم الأرض) هو مفعول أمن ، أو بدل من مفعوله على الأول بأن مفعوله محذوف ، وأن السيئات صفة للمحذوف ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، ومكر السيئات : سعيهم فى إيذاء رسول الله ﷺ و إيذاء أصحابه على وجه الخفية ، واحتيالهم فى ابطال الاسلام ، وكيد أهله (أن يخسف الله بهم) كما خسف بقارون ، يقال خسف المكان يخسف خسوفا : ذهب فى الأرض ، وخسف الله

به الأرض خسوفا : أى غاب به فيها ، ومنه قوله ـ نخسفنا به وبداره الأرض ـ وخسف هو فى الأرض وخسف به (أو يأتيهم العذاب من حيث لايشعرون) به فى حال غفلتهم عنه كما فعل بقوم لوط وغيرهم ، وقيل يريد يوم بدر فانهم أهلكوا ذلك اليوم ولم يكن فى حسبانهم (أو يأخذهم فى تقلبهم)

ذكر المفسرون فيه وجوها ، فقيل المراد فى أسفارهم ومتاجرهم فانه سبحانه قادر على أن يهلكهم فى السفر كما يهلكهم فى الحضر ، وهم لايفوتونه بسبب ضربهم فى الأرض ، وبعدهم عن الأوطان ، وقيل المراد فى حال تقلبهم فى قضاء أوطارهم بوجوه الحيل ، فيحول الله بينهم وبين مقاصدهم وحيلهم ، وقيل فى حال تقلبهم فى الليل على فرشهم ، وقيل فى حال إقبالهم وإدبارهم ، وذهابهم ومجيئهم بالليل والنهار ، والتقلب بالمعنى الأوّل مأخوذ من قوله ـ لايغرّنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ـ ، وبالمعنى الثانى مأخوذ من قوله ـ وقلبوا لك الأمور ـ (فماهم بمعجزين) أى بفائتين ولا ممتنعين (أو يأخذهم على تخوّف) أى حال تخوّف وتوقع للبلايا بأن يكونوا متوقعين للعذاب حذرين منه غير غافلين عنه ، فهو خلاف ماتقدّم من قوله « أو يأتيهم العذاب من حيث لايشعرون » ، وقيل معنى « على تخوّف » على تنقص . قال ابن الأعرابى : أى على تنقص من الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم كلهم . قال الواحدى : قال عامة المفسرين : على تخوّف قال تنقص : إما بقتل أو بموت ، يعنى بنقص من أطرافهم ونواحيهم يأخذهم الأوّل فالأوّل حتى يأتى الأخذ على جميعهم . قال والتخوّف : التنقص ، يقال هو يتخوف المال : أى يتنقصه ، ويأخذ من أطرافه انتهى ، يقال تخوّفه الدهر وتخونه بالفاء والنون : تنقصه . قال ذو الرّمة :

لا بل هو الشوق من دار تخوّفها * مرا سحاب ومرا بارح ترب

وقال لبيد : * تخوّفها نزولى وارتحالى * أى تنقص لحمها وشحمها . قال الهيثم بن عدىّ التخوّف بالفاء : التنقص لغة لأزدشنوءة ، وأنشد :

تخوّف عدوهم مالى وأهدى * سلاسل فى الحلوق لها صليل

وقيل : على تخوّف : على عجل ، قاله الليث بن سعد ، وقيل على تقريع بما قدّموه من ذنوبهم ، روى ذلك عن ابن عباس ، وقيل على تخوّف : أن يعاقب ويتجاوز ، قاله قتادة (فان ربكم لرءوف رحيم) لايعاجل ، بل يمهل رأفة بكم ، ورحمة لكم مع استحقاقهم للعقوبة (أولم يروا إلى ماخلق الله من شىء) لما خوّف سبحانه الماكرين بما خوّف أتبعه ذكر مايدل على كمال قدرته فى تدبير أحوال العالم العلوى والسفلى ومكانهما ، والاستفهام فى « أولم يروا » للانكار ، وما مبهمة مفسرة بقوله « من شىء » ، قرأ حمزة والكسائى وخلف ويحيى بن وثاب والأعمش تروا بالمثناة الفوقية على أنه خطاب لجميع الناس ، وقرأ الباقون بالتحتية بارجاع الضمير إلى الذين مكروا السيئات ، وقرأ أبو عمرو ويعقوب (تتفيؤا ظلاله) بالمثناة الفوقية وقرأ الباقون بالتحتية ، واختارها أبو عبيد : أى يميل من جانب إلى جانب ، ويكون أوّل النهار على حال ويتقلص ، ثم يعود فى آخر النهار على حالة أخرى . قال الأزهرى : تفيؤ الظلال : رجوعها بعد انتصاف النهار ، فالتفيؤ لايكون إلا بالعشىّ ، وما انصرف عنه الشمس والقمر ، والذى يكون بالغداة هو الظلّ . وقال ثعلب : أخبرت عن أبى عبيدة أن رؤبة قال : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فىء ، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظلّ ، ومعنى « من شىء » من شىء له ظلّ ، وهى الأجسام فهو عامّ أريد به الخاص ، وظلاله جمع ظلّ ، وهو مضاف إلى مفرد ، لأنه واحد يراد به الكثرة (عن اليمين والشمائل) أى عن جهة أيمانها وشمائلها : أى عن جانبى كل واحد منها . قال الفراء : وحد اليمين ، لأنه أراد واحدا من ذوات الأظلال ، وجمع الشمائل لأنه أراد كلها ، لأن ماخلق الله لفظه مفرد ، ومعناه جمع . وقال الواحدى

وحد اليمين ، والمراد به الجمع إيجازا فى اللفظ كقوله ـ ويولون الدبر ـ ، ودلت الشمائل على أن المراد به الجمع ، وقيل ان العرب اذا ذكرت صيغتى جمع عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله ـ وجعل الظلمات والنور ـ * و ـ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ـ ، وقيل المراد باليمين : النقطة التى هى مشرق الشمس ، وأنها واحدة والشمائل عبارة عن الانحراف فى فلك الأظلال بعد وقوعها على الأرض ، وهى كثيرة ، وإنما عبر عن المشرق باليمين لأن أقوى جانبى الانسان يمينه ، ومنه تظهر الحركة القوية (سجدا لله) منتصب على الحال : أى حال كون الظلال سجدا لله . قال الزجاج : يعنى أن هذه الأشياء مجبولة على الطاعة . وقال أيضا سجود الجسم : انقياده وما يرى فيه من أثر الصنعة (وهم داخرون) فى محل نصب على الحال : أى خاضعون صاغرون ، والدخور : الصغار والذل ، يقال دخر الرجل فهو داخر وأدخره الله . قال الشاعر :

فلم يبق إلا داخر فى مخيس * ومنجحر فى غير أرضك فى جحر

ومخيس : اسم سجن كان بالعراق (ولله يسجد مافى السموات ومافى الأرض من دابة) أى له وحده يخضع و ينقاد لالغيره مافى السموات جميعا ، وما فى الأرض من دابة تدب على الأرض ، والمراد به : كل دابة . قال الأخفش : هو كقولك : ماأتانى من رجل مثله ، وما أتانى من الرجال مثله . وقد دخل فى عموم مافى السموات وما فى الأرض جميع الأشياء الموجودة فيهما ، وإنما خص الدابة بالذكر ، لأنه قد علم من قوله (أولم يروا إلى ماخلق الله من شىء) انقياد الجمادات ، وعطف الملائكة على ماقبلهم تشريفا لهم ، وتعظيما لدخولهم فى المعطوف عليه (وهم لايستكبرون) أى والحال أنهم لايستكبرون عن عبادة ربهم والمراد الملائكة ، ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة ، وفى هذا رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله ، ويجوز أن تكون حالا من فاعل يسجد وما عطف عليه : أى يسجد لله مافى السموات وما فى الأرض والملائكة ، وهم جميعا لا يستكبرون عن السجود (يخافون ربهم من فوقهم) هذه الجملة فى محل نصب على الحال : أى حال كونهم يخافون ربهم من فوقهم ، أوجملة مستأنفة لبيان نفى استكبارهم ، ومن آثار الخوف عدم الاستكبار ، ومن فوقهم متعلق بيخافون على حذف مضاف : أى يخافون عذاب ربهم من فوقهم ، أو يكون حالا من الرب : أى يخافون ربهم حال كونه من فوقهم ، وقيل معنى « يخافون ربهم من فوقهم » يخافون الملائكة ، فيكون على حذف المضاف : أى يخافون ملائكة ربهم كائنين من فوقهم وهو تكلف لاحاجة اليه ، وإنما اقتضى مثل هذه التأويلات البعيدة المحاماة على مذاهب قد رسخت فى الأذهان ، وتقررت فى القلوب ، قيل وهذه المخافة هى مخافة الاجلال ، واختاره الزجاج ، فقال « يخافون ربهم » خوف مجلين ، ويدل على صحة هذا المعنى قوله ـ وهو القاهر فوق عباده ـ ، وقوله إخبارا عن فرعون ـ و إنا فوقهم قاهرون ـ ، (و يفعلون مايؤمرون) أى مايؤمرون به من طاعة الله : يعنى الملائكة ، أو جميع من تقدم ذكره ، وحمل هذه الجمل على الملائكة أولى ، لأن فى مخلوقات الله من يستكبر عن عبادته ، ولا يخافه ، ولا يفعل مايؤمر به كالكفار والعصاة الذين لايتصفون بهذه الصفات و إبليس وجنوده .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (والذين هاجروا فى الله من بعد ماظلموا) قال هم قوم من أهل مكة هاجروا إلى رسول الله ﷺ بعد ظلمهم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وابن عساكر عن داود بن أبى هند قال نزلت هذه الآية فى أبى جندل بن سهيل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (والذين هاجروا فى الله)

الآية

الآية قال هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ، ثم بوّأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة ، وجعل لهم أنصارا من المؤمنين (ولأجر الآخرة أكبر) قال : أى والله لما يثيبهم الله من جنته ونعمته أكبر (لو كانوا يعلمون) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الشعبي فى قوله (فى الدنيا حسنة) قال المدينة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : لنرزقنهم فى الدنيا رزقا حسنا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال « لما بعث الله محمدا رسولا أنكرت العرب ذلك ، فأنزل الله : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم » . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى قوله (فاسألوا أهل الذكر) الآية ، يعنى مشركى قريش أن محمدا رسول الله فى التوراة والانجيل . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : نزلت فى عبد الله بن سلام ونفر من أهل التوراة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (بالبينات) قال الآيات (والزبر) قال الكتب . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (أفأمن الذين مكروا السيئات) قال : نمروذ بن كنعان وقومه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : أى الشرك . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك قال : تكذيبهم الرسل ، وأعمالهم بالمعاصى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (أو يأخذهم فى تقلبهم) قال فى اختلافهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه (فى تقلبهم) قال ان شئت أخذته فى سفره (أو يأخذهم على تخوف) يقول على أثر موت صاحبه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا (على تخوف) قال تنقص من أعمالهم . وأخرج ابن جرير عن عمر أنه سألهم عن هذه الآية « أو يأخذهم على تخوف » ، فقالوا مانرى الا أنه عند تنقص ما يردّده من الآيات ؟ فقال عمر ماأرى الا أنه على ماينتقصون من معاصى الله ، فخرج رجل ممن كان عند عمر فلقى أعرابيا ، فقال يافلان : مافعل ربك ؟ قال قد تخيفته ، يعنى انتقصته ، فرجع الى عمر فأخبره ، فقال قد رأيته ذلك . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (أو يأخذهم على تخوف) قال يأخذهم بنقص بعضهم بعضا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (يتفيؤا) قال تميل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (وهم داخرون) قال صاغرون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (ولله يسجد) الآية . قال لم يدع شيئا من خلقه الا عبده له طائعا أو كارها . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال : يسجد من فى السموات طوعا ، ومن فى الأرض طوعا وكرها .

وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَٱرْهَبُونِ * وَلَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ

أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ *

لما بين سبحانه أن مخلوقاته السماوية والأرضية منقادة له ، خاضعة لجلاله ، أتبع ذلك بالنهى عن الشرك بقوله (وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد) فنهى سبحانه عن اتخاذ إلهين ، ثم أثبت أن الالهية منحصرة فى إله واحد ، وهو الله سبحانه ، وقد قيل ان التثنية فى إلهين قد دلت على الاثنينية ، والافراد فى إله قد دلّ على الوحدة ، فما وجه وصف إلهين باثنين ، ووصف إله بواحد ، فقيل فى الجواب ان فى الكلام تقديما وتأخيرا ، والتقدير لاتتخذوا اثنين إلهين انما هو واحد إله ، وقيل ان التكرير لأجل المبالغة فى التنفير عن اتخاذ الشريك ، وقيل ان فائدة زيادة اثنين هى أن يعلم أن النهى راجع إلى التعدد لاإلى الجنسية ، وفائدة زيادة واحد دفع توهم أن المراد إثبات الالهية دون الواحدية ، مع أن الالهية له سبحانه مسلمة فى نفسها ، وانما خلاف المشركين فى الواحدية ، ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة الى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب ، فقال (فإياى فارهبون) أى إن كنتم راهبين شيئا فإياى فارهبون لاغيرى . وقد مرّ مثل هذا فى أوّل البقرة ، ثم لما قرّر سبحانه وحدانيته ، وأنه الذى يجب أن يخصّ بالرهبة منه ، والرغبة إليه ، ذكر أن الكلّ فى ملكه ، وتحت تصرّفه ، فقال (وله مافى السموات والأرض) وهذه الجملة مقرّرة لما تقدّم فى قوله — ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض — إلى آخره ، وتقديم الخبر لافادة الاختصاص (وله الدين واصبا) أى ثابتا واجبا دائما لايزول ، والدين هو الطاعة والاخلاص . قال الفراء « واصبا » معناه دائما ، ومنه قول الدؤلى :

لاأبتغى الحمد القليل بقاؤه * بذمّ يكون الدهر أجمع واصبا

أى دائما ، وروى عن الفراء أيضا أنه قال الواصب : الخالص ، والأوّل أولى ، ومنه قوله سبحانه — ولهم عذاب واصب — أى دائم . وقال الزجاج : أى طاعته واجبة أبدا ، ففسر الواصب بالواجب . وقال ابن قتيبة فى تفسير الواصب : أى ليس أحد يطاع الا انقطع ذلك بزوال أو بهلكة غير الله تعالى فان الطاعة تدوم له ، ففسر الواصب بالدائم ، واذا دام الشيء دواما لاينقطع فقد وجب وثبت ، يقال وصب الشيء يصب وصوبا فهو واصب : اذا دام ، ووصب الرجل على الأمر : اذا واظب عليه ، وقيل الوصب التعب والاعياء : أى يجب طاعة الله سبحانه وان تعب العبد فيها وهو غير مناسب لما فى الآية ، والاستفهام فى قوله (أفغير الله تتقون) للتقريع والتوبيخ ، وهو معطوف على مقدّر كما فى نظائره * والمعنى اذا كان الدين : أى الطاعة واجبا له دائما لاينقطع كان المناسب لذلك تخصيص التقوى به وعدم ايقاعها لغيره ، ثم امتنّ سبحانه عليهم بأن جميع ماهم متقلبون فيه من النعم هو منه لامن غيره ، فقال (وما بكم من نعمة) أى مايلابسكم من النعم على اختلاف أنواعها فمن الله : أى فهى منه ، فتكون ماشرطية ، ويجوز أن تكون موصولة متضمنة معنى الشرط ، وبكم صلتها ، ومن نعمة حال من الضمير فى الجار والمجرور ، أو بيان لما * وقوله (فمن الله) الخبر ، وعلى كون ماشرطية يكون فعل الشرط محذوفا : أى ما يكن ، والنعمة إما دينية وهى معرفة الحق لذاته ومعرفة

الخير

الخير لأجل العمل به ، و إما دنيوية نفسانية ، أو بدنية ، أوخارجية : كالسعادات المالية وغيرها ، وكل واحدة من هـذه جنس تحته أنواع لاحصر لها ، والكل من الله سبحانه ، فعلى العاقل أن لايشكر الا إياه ، ثم بين تلوّن الانسان بعد استغراقه فى بحر النعم فقال (ثم إذا مسكم الضر فاليه تجأرون) أى إذا مسكم الضر أىّ مس فالى الله سبحانه لا الى غيره تتضرعون فى كشفه فلا كاشف له الا هو ، يقال جأر يجأر جؤورا : اذا رفع صوته فى تضرع . قال الأعشى يصف بقرة :

فطافت ثلاثا بين يوم وليلة * وكان النكير أن تضيف وتجأرا

والضرّ : المرض والبلاء والحاجة والقحط وكل مايتضرر به الانسان (ثم اذا كشف الضرّ عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون) أى اذا رفع عنكم مانزل بكم من الضر إذا فريق : أى جماعة منكم بربهم الذين رفع الضر عنهم يشركون فيجعلون معه إلها آخر من صنم أونحوه ، والآية مسوقة للتعجيب من فعل هؤلاء حيث يضعون الاشراك بالله الذى أنعم عليهم بكشف مانزل بهم من الضرّ مكان الشكر له وهـذا المعنى قد تقدّم فى الأنعام و يونس ، ويأتى فى سبحان . قال الزجاج : هذا خاص بمن كفر ، وقابل كشف الضر عنه بالجحود والكفر ، وعلى هذا فتكون من فى منكم للتبعيض حيث كان الخطاب للناس جميعا ، والفريق هم الكفرة وان كان الخطاب موجها الى الكفار فمن للبيان ، واللام فى (ليكفروا بما آتيناهم) لام كى : أى لكى يكفروا بما آتيناهم من نعمة كشف الضرّ ، حتى كأن هـذا الكفر منهم الواقع فى موضع الشكر الواجب عليهم غرض لهم ومقصد من مقاصدهم ، وهذا غاية فى العتو والعناد ليس وراءها غاية ، وقيل اللام للعاقبة : يعنى ما كانت عاقبة تلك التضرعات الا هذا الكفر ، ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والترهيب ملتفتا من الغيبة الى الخطاب (فتمتعوا) بما أنتم فيه من ذلك (فسوف تعلمون) عاقبة أمركم ومايحل بكم فى هـذه الدار وماتصيرون إليه فى الدار الآخرة ، ثم حكى سبحانه نوعا آخر من قبائح أعمالهم فقال (و يجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم) : أى يقع منهم هـذا الجعل بعد ماوقع منهم الجؤار الى الله سبحانه فى كشف الضرّ عنهم ومايعقب كشفه عنهم من الكفر منهم بالله والاشراك به ، ومع ذلك يجعلون لما لايعلمون حقيقته من الجمادات والشياطين نصيبا مما رزقناهم من أموالهم يتقربون به إليه ، وقيل المعنى أنهم : أى الكفار يجعلون للأصنام وهم لايعلمون شيئا لكونهم جمادات ، ففاعل يعلمون على هذا هى الأصنام وأجراها مجرى العقلاء فى جمعها بالواو والنون جريا على اعتقاد الكفار فيها ، وحاصل المعنى ويجعل هؤلاء الكفار للاصنام التى لاتعقل شيئا نصيبا من أموالهم التى رزقهم الله اياها (تالله لتسألنّ عما كنتم تفترون) هذا رجوع من الغيبة الى الخطاب ، وهـذا السؤال سؤال تقريع وتوبيخ (عما كنتم تفترون) تختلقونه من الكذب على الله سبحانه فى الدنيا (و يجعلون لله البنات) هذا نوع آخر من فضائحهم وقبائحهم ، وقد كانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات (الله سبحانه) نزّه سبحانه نفسه عما نسبه اليـه هؤلاء الجفاة الذين لاعقول لهم صحيحة ولا أفهام مستقيمة ـ ان هم الا كالانعام ، بل هم أضلّ ـ وفى هذا التنزيه تعجيب من حالهم (ولهم مايشتهون) أى ويجعلون لأنفسهم مايشتهونه من البنين على أن « ما » فى محل نصب بالفعل المقدّر ، ويجوز أن تكون فى محل رفع على الابتداء ، وأنكر النصب الزجاج قال : لأن العرب لايقولون جعل له كذا وهو يعنى نفسه ، وإنما يقولون جعل لنفسه كذا ، فلو كان منصوبا لقال ولأنفسهم مايشتهون . وقد أجاز النصب الفراء ، ثم ذكر سبحانه كراهتهم للأناث التى جعلوها لله سبحانه فقال (وإذا بشر أحدهم بالأنثى) أى اذا أخبر أحدهم بولادة بنت له (ظل وجهه مسودّا) أى متغيرا ، وليس المراد السواد الذى هو ضدّ البياض ، بل المراد الكناية بالسواد عن الانكسار والتغير

عما يحصل من الغم ، والعرب تقول لكل من لقى مكروها قد اسود وجهه غما وحزنا . قاله الزجاج ، وقال الماوردي : بل المراد سواد اللون حقيقة قال: وهو قول الجمهور ، والأول أولى فان المعلوم بالوجدان أن من غضب وحزن واغتم لا يحصل فى لونه إلا مجرد التغير وظهور الكآبة والانكسار لا السواد الحقيقى ، وجملة (وهو كظيم) فى محل نصب على الحال : أى ممتلئ من الغم غيظا وحنقا . قال الأخفش : هو الذى يكظم غيظه ولا يظهره ، وقيل انه المغموم الذى يطبق فاه من الغم ، مأخوذ من الكظامة وهو سد فم البئر قاله على ابن عيسى ، وقد تقدم فى سورة يوسف (يتوارى من القوم) أى يتغيب ويختفى (من سوء مابشر به) أى من سوء الحزن والعار والحياء الذى يلحقه بسبب حدوث البنت له (أيمسكه على هون) أى لايزال مترددا بين الأمرين : وهو إمساك البنت التى بشر بها ، أودفنها فى التراب (على هون) أى هوان ، وكذا قرأ عيسى الثقفى . قال اليزيدى : والهون الهوان بلغة قريش ، وكذا حكاه أبو عبيد عن الكسائى ، وحكى عن الكسائى أنه البلاء والمشقة ، قالت الخنساء :

نهين النفوس وهون النفو * س يوم الكريهة أبقى لها

وقال الفراء : الهون القليل بلغة تميم ، وحكى النحاس عن الأعمش أنه قرأ أيمسكه على سوء (أم يدسه فى التراب) أى يخفيه فى التراب بالوأد كما كانت تفعله العرب ، فلايزال الذى بشر بحدوث الأنثى مترددا بين هذين الأمرين ، والتذكير فى يمسكه ويدسه مع كونه عبارة عن الأنثى لرعاية اللفظ . وقرأ الجحدرى أم يدسها فى التراب ، ويلزمه أن يقرأ أيمسكها ، وقيل دسها اخفاؤها عن الناس حتى لاتعرف كالمدسوس لاخفائه عن الأبصار (ألا ساء مايحكمون) حيث أضافوا البنات التى يكرهونها الى الله سبحانه وأضافوا البنين المحبوبين عندهم الى أنفسهم ، ومثل هذا قوله تعالى ــ ألكم الذكر وله الأنثى . تلك اذا قسمة ضيزى ــ (للذين لايؤمنون بالآخرة مثل السوء) أى لهؤلاء الذين وصفهم الله سبحانه بهذه القبائح الفظيعة مثل السوء : أى صفة السوء من الجهل والكفر بالله ، وقيل هو وصفهم لله سبحانه بالصاحبة والولد ، وقيل هو حاجتهم الى الولد ليقوم مقامهم ووأد البنات لدفع العار وخشية الاملاق ، وقيل العذاب والنار (ولله المثل الأعلى) وهو أضداد صفة المخلوقين من الغنى الكامل والجود الشامل والعلم الواسع ، أو التوحيد واخلاص العبادة ، أو أنه خالق رازق قادر مجاز ، وقيل شهادة أن لا إله إلا الله ، وقيل ــ الله نور السموات والأرض مثل نوره ــ (وهو العزيز) الذى لايغالب فلايضره نسبتهم اليه مالايليق به (الحكيم) فى أفعاله وأقواله ، ثم لما حكى سبحانه عن القوم عظيم كفرهم بين سعة كرمه وحلمه حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ولم يؤاخذهم بظلمهم ، فقال (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) والمراد بالناس هنا الكفار أو جميع العصاة (ماترك عليها) أى على الأرض وان لم يذكر فقد دل عليها ذكر الناس وذكر الدابة ، فان الجميع مستقرون على الأرض ، والمراد بالدابة الكافر ، وقيل كل مادب ، وقد قيل على هذا كيف يعم بالهلاك مع أن فيهم من لاذنب له ، وأجيب باهلاك الظالم انتقاما منه ، واهلاك غيره ان كان من أهل التكليف فلأجل توفير أجره ، وان كان من غيرهم فبشؤم ظلم الظالمين ، ولله الحكمة البالغة ــ لايسأل عما يفعل وهم يسألون ــ ، ومثل هذا قوله ــ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ــ ، وفى معنى هذا أحاديث منها ماعند مسلم وغيره من حديث ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « اذا أراد الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم » وكذلك حديث الجيش «الذين يخسف بهم فى البيداء وفى آخره أنهم يبعثون على نياتهم » وقد قدمنا عند تفسير قوله سبحانه ــ واتقوا فتنة ــ الآية تحقيقا حقيقا بالمراجعة له (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) معلوم عنده وهو منتهى حياتهم وانقضاء أعمارهم أو أجل عذابهم ، وفى هذا

التأخير

التأخير حكمة بالغة منها الاعذار اليهم وارخاء العنان معهم ، ومنها حصول من سبق فى علمه من أولادهم (فاذا جاء أجلهم) الذى سماه لهم حقت عليهم كلة الله سبحانه فى ذلك الوقت من دون تقدم عليه ولا تأخر عنه ، والساعة المدة القليلة ، وقد تقدم تفسير هذا وتحقيقه ، ثم ذكر نوعا آخر من جهلهم وحمقهم . فقال (ويجعلون لله ما يكرهون) أى ينسبون اليه سبحانه ما يكرهون نسبته الى أنفسهم من البنات ، وهو تكرير لما قد تقدم لقصد التأكيد والتقرير ولزيادة التوبيخ والتقريع (وتصف ألسنتهم الكذب) هذا من النوع الآخر الذى ذكره سبحانه من قبائحهم وهو : أى هذا الذى تصفه ألسنتهم من الكذب هو قولهم (أن لهم الحسنى) أى الخصلة الحسنى ، أو العاقبة الحسنى . قال الزجاج : يصفون أن لهم مع قبح قولهم من الله الجزاء الحسن . قال الزجاج أيضا والفراء أبدل من قوله وتصف ألسنتهم الكذب قوله أن لهم الحسنى ، والكذب منصوب على أنه مفعول تصف . وقرأ ابن عباس وأبو العالية ومجاهد وابن محيصن الكذب برفع الكاف والذال والباء على أنه صفة للألسن وهو جمع كذب ، فيكون المفعول على هذا هو أن لهم الحسنى ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله (لا جرم أن لهم النار) أى حقا أن لهم مكان ما جعلوه لأنفسهم من الحسنى النار ، وقد تقدم تحقيق هذا (وأنهم مفرطون) قال ابن الأعرابى وأبو عبيدة : أى متروكون منسيون فى النار ، وبه قال الكسائى والفراء ، فيكون مشتقا من أفرطت فلانا خلفى : اذا خلفته ونسيته ، وقال قتادة والحسن : معجلون اليها مقدمون فى دخولها من أفرطته : أى قدمته فى طلب الماء ، والفارط هو الذى يتقدم الى الماء ، والفراط المتقدمون فى طلب الماء ، والوراد المتأخرون ، ومنه قوله ﷺ « أنا فرطكم على الحوض » أى متقدمكم . قال القطامى :

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنا ✽ كما تعجل فراط لوراد

وقرأ نافع فى رواية ورش مفرطون بكسر الراء وتخفيفها وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس ؛ ومعناه مسرفون فى الذنوب والمعاصى ، يقال أفرط فلان على فلان : اذا أربى عليه وقال له أكثر مما قال من الشر . وقرأ أبو جعفر القارى مفرطون بكسر الراء وتشديدها : أى مضيعون أمر الله ، فهو من التفريط فى الواجب . وقرأ الباقون مفرطون بفتح الراء مخففا ، ومعناه مقدمون الى النار .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وله الدين واصبا) قال الدين : الاخلاص ، وواصبا دائما . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى صالح (وله الدين واصبا) قال لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (واصبا) قال : دائما . وأخرج الفريابى وابن جرير عنه قال واجبا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد (تجأرون) قال : تتضرعون دعاء . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : تصيحون بالدعاء . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (فتمتعوا فسوف تعلمون) قال وعيد . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله (ويجعلون لما لا يعلمون) الآية قال : يعلمون أن الله خلقهم ويضرهم وينفعهم ، ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضرهم ولا ينفعهم (نصيبا مما رزقناهم) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : هم مشركو العرب جعلوا لأوثانهم وشياطينهم مما رزقهم الله وجزءوا من أموالهم جزءا جعلوه لأوثانهم وشياطينهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال : هو قولهم هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (ويجعلون لله البنات) الآية يقول يجعلون لى البنات يرتضونهن لى ولا يرتضونهن لأنفسهم ، وذلك أنهم كانوا فى الجاهلية اذا ولد للرجل منهم جارية أمسكها على هوان أو دسها فى التراب وهى حية . وأخرج ابن المنذر وابن

أبي حاتم عن الضحاك (ولهم مايشتهون) قال : يعني به البنين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج (أم يدسه في التراب) قال : يئد ابنته . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله (ألا ساء مايحكمون) قال بئس ماحكموا ، يقول شيء لايرضونه لأنفسهم فكيف يرضونه لي . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (ولله المثل الأعلى) قال : شهادة أن لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس ولله المثل الأعلى قال : يقول ليس كمثله شيء . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (ماترك عليها من دابة) قال : ماسقاهم المطر وأخرج أيضا عن السدّي نحوه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في الآية قال : قد فعل ذلك في زمن نوح ، أهلك الله ماعلى ظهر الأرض من دابة إلا ماحمل في سفينته . وأخرج أحمد في الزهد عن ابن مسعود قال : ذنوب ابن آدم ، قتلت الجعل في جحره ؟ ثم قال : اى والله زمن غرق قوم نوح . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عنه قال : كاد الجعل أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة) . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا عن أنس نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة أنه سمع رجلا يقول ان الظالم لايضرّ الا نفسه قال أبو هريرة : بلى والله ان الحبارى لتموت هزالا في وكرها من ظلم الظالم . وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك (ويجعلون لله مايكرهون) : قال يجعلون لي البنات ويكرهون ذلك لأنفسهم . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) قال قول كفار قريش لنا البنون وله البنات . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد (وأنهم مفرطون) قال منسيون . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : معجلون . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن نحوه .

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّٰرِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَٰتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَٰتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *

بين سبحانه أن مثل صنيع قريش قد وقع من سائر الأمم ، فقال مسليا لرسول الله ﷺ (تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك) أى رسلا (فزين لهم الشيطان أعمالهم) الخبيثة (فهو وليهم اليوم) يحتمل

أن

أن يكون اليوم عبارة عن زمان الدنيا ، فيكون المعنى : فهو قرينهم فى الدنيا ، ويحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة ومابعده ، فيكون للحال الآتية ، ويكون الولىّ بمعنى الناصر ، والمراد نفى الناصر عنهم على أبلغ الوجوه ، لأن الشيطان لايتصوّر منه النصرة أصلا فى الدار الآخرة ، واذا كان الناصر منحصرا فيه لزم أن لانصرة من غيره ، ويحتمل أن يراد باليوم بعض زمان الدنيا ، وهو على وجهين : الأوّل أن يراد البعض الذى قد مضى ، وهو الذى وقع فيه التزيين من الشيطان للأمم الماضية فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية ، الثانى أن يراد البعض الحاضر ، وهو وقت نزول الآية ، والمراد تزيين الشيطان لكفار قريش فيكون الضمير فى « وليهم » لكفار قريش : أى فهو ولىّ هؤلاء اليوم ، أو على حذف مضاف : أى فهو ولىّ أمثال أولئك الأمم اليوم (ولهم عذاب أليم) أى فى الآخرة وهو عذاب النار ، ثم ذكر سبحانه أنه ماهلك من هلك الا بعد إقامة الحجة عليهم وازاحة العلة منهم ، فقال (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه) وهذا خطاب لرسول الله ﷺ ، والمراد بالكتاب القرآن والاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال : أى ماأنزلناه عليك لحال من الأحوال ولا لعلة من العلل الالعلة التبيين لهم : أى للناس الذى اختلفوا فيه من التوحيد وأحوال البعث وسائر الأحكام الشرعية ، (و) انتصاب (هدى ورحمة) على أنهما مفعول لهما معطوفان على محل لتبين ، ولاحاجة الى اللام ، لأنهما فعلا فاعل الفعل المعلل ، بخلاف التبيين فانه فعل المخاطب لافعل المنزل (لقوم يؤمنون) بالله سبحانه ويصدّقون ماجاءت به الرسل ونزلت به الكتب ، ثم عاد سبحانه الى تقرير وجوده وتفرّده بالالهية بذكر آياته العظام فقال (والله أنزل من السماء ماء) أى من السحاب ، أومن جهة العلو كما مرّ : أى نوعا من أنواع الماء (فأحيا به الأرض بعد موتها) أى أحياها بالنبات بعد أن كانت يابسة لاحياة بها (ان فى ذلك) الانزال والاحياء (لآية) أى علامة دالة على وحدانيته وعلى بعثه للخلق ومجازاتهم (لقوم يسمعون) كلام الله ويفهمون مايتضمنه من العبر ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض (وان لكم فى الأنعام لعبرة) الأنعام هى الابل والبقر والغنم ويدخل فى الغنم المعز ، والعبرة أصلها تمثيل الشىء بالشىء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة ، ومنه — فاعتبروا ياأولى الأبصار — وقال أبو بكر الوراق العبرة فى الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم ، والظاهر أن العبرة هى قوله (نسقيكم مما فى بطونه) فتكون الجملة مستأنفة لبيان العبرة . قرأ أهل المدينة وابن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر نسقيكم بفتح النون من سقى يسقى . وقرأ الباقون وحفص عن عاصم بضم النون من أسقى يسقى ، قيل هما لغتان . قال لبيد :

سقى قومى بنى مجد وأسقى ＊ نميرا والقبائل من هلال

وقرئ بالتاء الفوقية على أن الضمير راجع إلى الانعام ، وقرئ بالتحتية على ارجاع الضمير إلى الله سبحانه ، وهما ضعيفتان ، وجميع القراء على القراءتين الأوليين ، والفتح لغة قريش ، والضم لغة حمير ، وقيل ان بين سقى وأسقى فرقا ، فاذا كان الشراب من يد الساقى إلى فم المسقى فيقال سقيته ، وان كان بمجرّد عرضه عليه وتهيئته له قيل أسقاه ، والضمير فى قوله مما فى بطونه راجع إلى الأنعام . قال سيبويه العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد . وقال الزجاج لما كان لفظ الجمع يذكر ويؤنث ، فيقال هو الأنعام ، وهى الأنعام جاز عود الضمير بالتذكير . وقال الكسائى معناه مما فى بطون ما ذكرنا فهو على هذا عائد الى المذكور . قال الفراء وهو صواب . وقال المبرد هذا فاش فى القرآن كثير مثل قوله للشمس — هذا ربى — يعنى هذا الشىء الطالع ، وكذلك — وانى مرسلة اليهم بهدية — ثم قال — فلما جاء سليمان — ولم يقل جاءت ، لأن المعنى جاء الشىء الذى ذكرنا انتهى ، ومن ذلك قوله — ان هذه تذكرة فمن شاء ذكره —

ومثله قول الشاعر : * مثل الفراخ نيفت حواصله * ولم يقل حواصلها ، وقول الآخر : * وطاب القاح اللبان وبرد * ولم يقل وبردت ، وحكى عن الكسائى ان المعنى مما فى بطون بعضه ، وهى الاناث ، لأن الذكور لاألبان لها ، وبه قال أبو عبيدة وحكى عن الفراء أنه قال : النعم والأنعام واحد يذكر ويؤنث ، ولهذا تقول العرب : هذه نعم وارد فرجع الضمير الى لفظ النعم الذى هو بمعنى الأنعام ، وهو كقول الزجاج ورجحه ابن العربى ، فقال انما يرجع التذكير الى معنى الجمع ، والتأنيث الى معنى الجماعة ، فذكره هنا باعتبار لفظ الجمع وأنثه فى سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة (من بين فرث ودم) الفرث الزبل الذى ينزل الى الكرش ، فاذا خرج منه لم يسم فرثا : يقال أفرثت الكرش اذا أخرجت مافيها * والمعنى : أن الشىء الذى تأكله يكون منه مافى الكرش ، وهو الفرث ويكون منه الدم ، فيكون أسفله فرثا وأعلاه دما وأوسطه (لبنا) فيجرى الدم فى العروق واللبن فى الضروع ، ويبقى الفرث كما هو (خالصا) يعنى من حمرة الدم وقذارة الفرث بعد أن جمعهما وعاء واحد (سائغا للشاربين) أى لذيذا هنيئا لايغص به من شربه : يقال ساغ الشراب يسوغ سوغا : أى سهل مدخله فى الحلق (ومن ثمرات النخيل والأعناب) قال ابن جرير التقدير ، ومن ثمرات النخيل والأعناب ماتتخذون ، فحذف ما ودل على حذفه قوله منه ، وقيل هو معطوف على الأنعام والتقدير وان لكم من ثمرات النخيل والأعناب لعبرة ، ويجوز أن يكون معطوفا على مما فى بطونه : أى نسقيكم مما فى بطونه ومن ثمرات النخيل ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف دل عليه ماقبله تقديره : ونسقيكم من ثمرات النخيل ، ويكون على هذا (تتخذون منه سكرا) بيانا للاسقاء وكشفا عن حقيقته ، ويجوز أن يتعلق بتتخذون تقديره ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكرا ، ويكون تكرير الظرف ، وهو قوله منه للتأكيد كقولك زيد فى الدار فيها ، وانما ذكر الضمير فى منه لأنه يعود الى المذكور ، أو الى المضاف المحذوف ، وهو العصير كأنه قيل ومن عصير ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ، والسكر مايسكر من الخمر ، والرزق الحسن جميع مايؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والدبس والزبيب والخل ، وكان نزول هذه الآية قبل تحريم الخمر ، وقيل ان السكر : الخل بلغة الحبشة ، والرزق الحسن الطعام من الشجرتين ، وقيل السكر العصير الحلو الحلال ، وسمى سكرا لأنه قد يصير مسكرا إذا بقى ، فاذا بلغ الاسكار حرم ، والقول الأول أولى وعليه الجمهور ، وقد صرح أهل اللغة بأن السكر اسم للخمر ، ولم يخالف فى ذلك إلا أبو عبيدة فانه قال : السكر الطعم ، ومما يدل على ماقاله جمهور أهل اللغة قول الشاعر :

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم * إذا جرى فيهم المذى والسكر

ومما يدل على ماقاله أبو عبيدة ماأنشده : * جعلت عيب الأكرمين سكرا * أى جعلت ذمهم طعما ، ورجح هذا ابن جرير ، فقال إن السكر مايطعم من الطعام ويحل شربه من ثمار النخيل والأعناب وهو الرزق الحسن ، فاللفظ مختلف والمعنى واحد مثل – إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله – قال الزجاج قول أبى عبيدة هذا لايعرف ، وأهل التفسير على خلافه ، ولا حجة له فى البيت الذى أنشده لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تتخمر بعيوب الناس ، وقد حمل السكر جماعة من الحنفية على مالا يسكر من الأنبذة ، وعلى ماذهب ثلثاه بالطبخ ، قالوا وإنما يمتن الله على عباده بما أحله لهم لابما حرمه عليهم ، وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر اهـ (إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون) أى لدلالة لمن يستعمل العقل ويعمل بما يقتضيه عند النظر فى الآيات التكوينية (وأوحى ربك إلى النحل) قد تقدم الكلام فى الوحى ، وأنه يكون بمعنى الالهام ، وهو

ماتخلقه

ما يخلقه فى القلب ابتداء من غير سبب ظاهر ، ومنه قوله سبحانه ـ ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها ـ ومن ذلك إلهام البهائم لفعل ما ينفعها وترك ما يضرها ، وقرأ يحيى بن وثاب إلى النحل بفتح الحاء . قال الزجاج : وسمى نحلا لأن الله سبحانه نحله العسل الذى يخرج منه . قال الجوهرى والنحل والنحلة الدبر يقع على الذكر والأنثى (أن اتخذى من الجبال بيوتا) أى بأن اتخذى على أن أن هى المصدرية ، ويجوز أن تكون تفسيرية لأن فى الايحاء معنى القول ، وأنث الضمير فى اتخذى لكونه أحد الجائزين كما تقدم ، أوللحمل على المعنى أولكون النحل جمعا ، وأهل الحجاز يؤنثون النحل « ومن » فى من الجبال بيوتا (و) كذا فى (من الشجر و) كذا فى (مما يعرشون) للتبعيض : أى مساكن توافقها وتليق بها فى كوى الجبال وتجويف الشجر ، وفى العروش التى يعرشها بنو آدم من الأجناح والحيطان وغيرها وأكثر ما يستعمل فيما يكون من الخشب ، يقال عرش يعرش بكسر الراء وضمها ، وبالضم قرأ ابن عامر وشعبة . وقرأ الباقون بالكسر . وقرئ أيضا بيوتا بكسر الباء وضمها (ثم كلى من كل الثمرات) من للتبعيض لأنها تأكل النور من الأشجار فاذا أكلتها (فاسلكى سبل ربك) أى الطرق التى فهمك الله وعلمك ، وأضافها الى الرب لأنه خالقها وملهم النحل أن تسلكها : أى ادخلى طرق ربك لطلب الرزق فى الجبال وخلال الشجر ، أو اسلكى ما أكلت فى سبل ربك : أى فى مسالكه التى يحيل فيها بقدرته النور عسلا أو إذا أكلت الثمار فى الأمكنة البعيدة فاسلكى إلى بيوتك راجعة سبل ربك لاتضلين فيها ، وانتصاب (ذللا) على الحال من السبل ، وهى جمع ذلول : أى مذللة غير متوعرة ، واختار هذا الزجاج وابن جرير ، وقيل حال من النحل ، يعنى مطيعة للتسخير واخراج العسل من بطونها ، واختار هذا ابن قتيبة ، وجملة (يخرج من بطونها) مستأنفة عدل به عن خطاب النحل ، تعديدا للنعم ، وتعجيبا لكل سامع وتنبيها على العبر وإرشادا إلى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا الحيوان الشبيه بالذباب ، والمراد بالشراب فى الآية هو العسل ، ومعنى (مختلف ألوانه) أن بعضه أبيض و بعضه أحمر وبعضه أزرق وبعضه أصفر باختلاف ذوات النحل وألوانها ومأكولاتها ، وجمهور المفسرين على أن العسل يخرج من أفواه النحل ، وقيل من أسفلها ، وقيل لايدرى من أين يخرج منها ، والضمير فى قوله (فيه شفاء للناس) راجع إلى الشراب الخارج من بطون النحل ، وهو العسل ، والى هذا ذهب الجمهور . وقال الفراء وابن كيسان وجماعة من السلف ان الضمير راجع إلى القرآن ، ويكون التقدير فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس ، ولا وجه للعدول عن الظاهر ومخالفة المرجع الواضح والسياق البين .

وقد اختلف أهل العلم هل هذا الشفاء الذى جعله الله فى العسل عام لكل داء أو خاص ببعض الأمراض ، فقالت طائفة هو على العموم ، وقالت طائفة ان ذلك خاص ببعض الأمراض ، ويدل على هذا أن العسل نكرة فى سياق الاثبات فلا يكون عاما ، وتنكيره ان أريد به التعظيم لايدل الا على أن فيه شفاء عظيما لمرض أوأمراض ، لالكل مرض فان تنكير التعظيم لايفيد العموم ، والظاهر المستفاد من التجربة ، ومن قوانين علم الطب انه اذا استعمل منفردا كان دواء لامراض خاصة ، وان خلط مع غيره كالمعاجين ونحوها كان مع ما خلط به دواء لكثير من الأمراض : وبالجملة فهو من أعظم الاغذية وأنفع الأدوية ، وقليلا ما يجتمع هذان الأمران فى غيره (ان فى ذلك) المذكور من أمر النحل (لآية لقوم يتفكرون) أى يعملون أفكارهم عند النظر فى صنع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته فان أمر النحل من أعجبها وأغربها وأدقها وأحكمها .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وأبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر

XVI ٦٦-٦٢

وابن أبى حاتم والنحاس والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه وابن مردويه عن ابن عباس أنه سئل عن قوله (تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا) قال السكر : ماحرم من ثمرتيهما ، والرزق الحسن ماحلّ . وأخرج الفريابى وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه قال : السكر الحرام ، والرزق الحسن زبيبه وخله وعنبه ومنافعه . وأخرج أبوداود فى ناسخه وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : السكر النبيذ والرزق الحسن الزبيب ، فنسختها هذه الآية ـ إنما الخمر والميسر ـ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عنه أيضا فى الآية قال : حرّم الله بعد ذلك السكر مع تحريم الخمر لأنه منه ، ثم قال ورزقا حسنا فهو الحلال من الخلّ والزبيب والنبيذ وأشباه ذلك فأقرّه الله وجعله حلالا للمسلمين . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن ابن عمر أنه سئل عن السكر ، فقال الخمر بعينها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود قال : السكر خمر . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (وأوحى ربك إلى النحل) قال : ألهمها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (فاسلكى سبل ربك ذللا) قال طرقا لايتوعر عليها مكان سلكته . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ذللا قال : مطيعة . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال : ذليلة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (يخرج من بطونها شراب) قال العسل . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : هو العسل فيه الشفاء ، وفى القرآن . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن ابن مسعود قال : إن العسل شفاء من كل داء ، والقرآن شفاء لما فى الصدور . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن مسعود قال : عليكم بالشفاءين العسل والقرآن . وأخرج ابن ماجه والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب وابن السنى وأبو نعيم والخطيب عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « عليكم بالشفاءين العسل والقرآن » . وقد وردت أحاديث فى كون العسل شفاء : منها ما أخرجه البخارى من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال « الشفاء فى ثلاثة فى شرطه محجم أو شربة عسل أوكية بنار وأنا أنهى أمتى عن الكىّ » . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد أن رجلا أتى رسول الله ﷺ ، فقال يارسول الله ان أخى استطلق بطنه ، فقال اسقه عسلا فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال سقيته عسلا فما زاده الا استطلاقا . قال اذهب فاسقه عسلا فذهب فسقاه ، ثم جاء ، فقال ما زاده الا استطلاقا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلا فذهب فسقاه عسلا فبرأ .

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ * وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ *

لما ذكر سبحانه بعض أحوال الحيوان وما فيها من عجائب الصنعة الباهرة ، وخصائص القدرة القاهرة أتبعه بعجائب خلق الانسان وما فيه من العبر ، فقال (والله خلقكم) ولم تكونوا شيئا (ثم يتوفاكم) عند انقضاء آجالكم (ومنكم من يردّ الى أرذل العمر) يقال رذل يرذل رذالة والأرذل والرذالة أردأ الشيء وأوضعه . قال النيسابوري : واعلم ان العقلاء ضبطوا مراتب عمر الانسان في أربع أولاها سنّ النشو : وثانيها سنّ الوقوف ، وهو سنّ الشباب ، وثالثها سنّ الانحطاط اليسير ، وهو سنّ الكهولة ، ورابعها سنّ الانحطاط الظاهر : وهو سنّ الشيخوخة ، قيل وأرذل العمر هو عند أن يصير الانسان الى الخرف ، وهو أن يصير بمنزلة الصبي الذي لا عقل له ، وقيل خمس وسبعون سنة ، وقيل تسعون سنة ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه ـ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ـ ثم علل سبحانه ردّ من يرده الى أرذل العمر بقوله (لكيلا يعلم بعد علم) كان قد حصله (شيئا) من العلم لا كثيرا ولا قليلا أوشيئا من المعلومات اذا كان العلم هنا بمعنى المعلوم ، وقيل المراد بالعلم هنا العقل ، وقيل المراد لئلا يعلم زيادة على علمه الذي قد حصل له قبل ذلك ، ثم لما بين سبحانه خلق الانسان وتقلبه في أطوار العمر ذكر طرفا من أحواله لعله يتذكر عند ذلك ، فقال (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) فجعلكم متفاوتين فيه فوسع على بعض عباده حتى جعل له من الرزق ما يكفي ألوفا مؤلفة من بني آدم ، وضيقه على بعض عباده حتى صار لا يجد القوت إلا بسؤال الناس والتكفف لهم ، وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلها ، والاطلاع على حقيقة أسبابها ، وكما جعل التفاوت بين عباده في المال جعله بينهم في العقل ، والعلم والفهم وقوّة البدن وضعفه والحسن والقبح والصحة والسقم وغير ذلك من الأحوال ، وقيل معنى الآية : أن الله سبحانه أعطى الموالي أفضل مما أعطى مماليكهم بدليل قوله (فما الذين فضلوا برادّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم) أي فما الذين فضلهم الله بسعة الرزق على غيرهم برادّي رزقهم الذي رزقهم الله إياه على ما ملكت أيمانهم من المماليك (فهم) أي المالكون والمماليك (فيه) أي في الرزق (سواء) أي لا يردّونه عليهم بحيث يساوونهم ، فالفاء على هذا للدلالة على أن التساوي مترتب على التراد : أي لا يردّونه عليهم ردّا مستتبعا للتساوي ، وإنما يردّون عليهم منه شيئا يسيرا ، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لعبدة الأصنام : أي اذا لم يكونوا عبيدكم معكم سواء ولا ترضون بذلك فكيف تجعلون عبيدي معي سواء ، والحال أن عبيدكم مساوون لكم في البشرية والمخلوقية ، فلما لم تجعلوا عبيدكم مشاركين لكم في أموالكم ، فكيف تجعلون بعض عباد الله سبحانه شركاء له فتعبدونهم معه ، أو كيف تجعلون بعض مخلوقاته كالأصنام شركاء له في العبادة ذكر معنى هذا ابن جرير ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه ـ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ـ وقيل ان الفاء في « فهم فيه سواء » بمعنى حتى (أفبنعمة الله تجحدون) حيث تفعلون ما تفعلون من الشرك ، والنعمة هي كونه سبحانه جعل المالكين مفضلين على المماليك ، وقد قرئ تجحدون بالتحتية والفوقية . قال أبو عبيدة وأبو حاتم : وقراءة الغيبة أولى لقرب المخبر عنه ، ولأنه لو كان خطابا لكان ظاهره للمسلمين ، والاستفهام للانكار ، والفاء للعطف على مقدر : أي يشركون به فيجحدون نعمته ، ويكون المعنى على قراءة الخطاب أن المالكين ليسوا برادّي رزقهم على مماليكهم بل أنا الذي أرزقهم وإياهم فلا يظنوا أنهم يعطونهم شيئا ، وإنما هو رزقي أجريه على أيديهم وهم جميعا في ذلك سواء لا مزية لهم على مماليكهم ، فيكون المعطوف عليه المقدر فعلا يناسب هذا المعنى ، كأن يقال لا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة الله ، ثم ذكر سبحانه الحالة الأخرى من أحوال الانسان ، فقال (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) . قال المفسرون : يعني النساء فانه خلق حواء من ضلع آدم ، أو

المعنى خلق لكم من جنسكم أزواجا لتستأنسوا بها ، لأن الجنس يأنس إلى جنسه ويستوحش من غير جنسه وبسبب هذه الانسة يقع بين الرجال والنساء ماهو سبب للنسل الذى هو المقصود بالزواج ، ولهذا قال (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) الحفدة : جمع حافد ، يقال حفد يحفد حفدا وحفودا ، اذا أسرع فكل من أسرع فى الخدمة فهو حافد . قال أبو عبيد : الحفد العمل والخدمة . قال الخليل بن أحمد : الحفدة عند العرب الخدم ، ومن ذلك قول الشاعر وهو الأعشى :

كانت محمولنا نوقا يمانية * اذ الحداة على أكتافها حفدوا

أى الخدم والأعوان ، وقال الأزهرى : قيل الحفدة أولاد الأولاد ، روى عن ابن عباس ، وقيل الأختان . قاله ابن مسعود وعلقمة وأبو الضحى وسعيد بن جبير وابراهيم النخعى ، ومنه قول الشاعر :

فلو أن نفسى طاوعتنى لأصبحت * لها حفد مما تعد كثير

ولكنها نفس علىّ أبية * عيوف لأصهار اللئام قذور

وقيل الحفدة الأصهار . قال الأصمعى الختن : من كان من قبل المرأة كابنها وأخيها وما أشبههما ، والأصهار منهما جميعا ، يقال أصهر فلان الى بنى فلان وصاهر ، وقيل هم أولاد امرأة الرجل من غيره ، وقيل الأولاد الذين يخدمونه ، وقيل البنات الخادمات لأبيهنّ ، ورجح كثير من العلماء أنهم أولاد الأولاد ، لأنه سبحانه امتنّ على عباده بأن جعل لهم من الأزواج بنين وحفدة ، فالحفدة فى الظاهر معطوفون على البنين ، وان كان يجوز أن يكون المعنى جعل لكم من أزواجكم بنين وجعل لكم حفدة ، ولكن لايمتنع على هذا المعنى الظاهر أن يراد بالبنين من لايخدم ، وبالحفدة من يخدم الأب منهم ، أو يراد بالحفدة البنات فقط ، ولا يفيد أنهم أولاد الأولاد إلا إذا كان تقدير الآية ، وجعل لكم من أزواجكم بنين ، ومن البنين حفدة (ورزقكم من الطيبات) التى تستطيبونها وتستلذونها ، ومن للتبعيض لأن الطيبات لاتكون مجتمعة إلا فى الجنة ، ثم ختم سبحانه الآية بقوله (أفبالباطل يؤمنون) والاستفهام للانكار التوبيخى ، والفاء للعطف على مقدّر : أى يكفرون بالله فيؤمنون بالباطل ، وفى تقدم بالباطل على الفعل دلالة على أنه ليس لهم ايمان الابه ، والباطل هو اعتقادهم فى أصنامهم أنها تضر وتنفع ، وقيل الباطل مازين لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة ونحوهما ، قرأ الجمهور يؤمنون بالتحتية ، وقرأ أبو بكر بالفوقية على الخطاب (وبنعمة الله هم يكفرون) أى ماأنعم به عليهم مما لا يحيط به حصر ، وفى تقديم النعمة وتوسيط ضمير الفصل دليل على أن كفرهم مختص بذلك لايتجاوزه لقصد المبالغة والتأكيد (ويعبدون من دون الله) هو معطوف على يكفرون داخل تحت الانكار التوبيخى انكارا منه سبحانه عليهم حيث يعبدون الأصنام ، وهى لاتنفع ولا تضر ، ولهذا قال (مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا) . قال الأخفش : ان شيئا بدل من الرزق ، وقال الفراء هو منصوب بايقاع الرزق عليه ، فجعل رزقا مصدرا عاملا فى شيئا ، والأخفش جعله اسما للرزق ، وقيل يجوز أن يكون تأكيدا لقوله « لايملك » أى لايملك شيئا من الملك ، والمعنى : أن هؤلاء الكفار يعبدون معبودات لاتملك لهم رزقا أىّ رزق ، ومن السموات والأرض صفة لرزق : أى كائنا منهما ، والضمير فى (ولا يستطيعون) راجع الى ما ، وجمع جمع العقلاء بناء على زعمهم الباطل ، والفائدة فى نفى الاستطاعة عنهم أن من لايملك شيئا قد يكون موصوفا باستطاعة التملك بطريق من الطرق فبين سبحانه أنها لاتملك ولاتستطيع ، وقيل يجوز أن يكون الضمير فى يستطيعون للكفار : أى لايستطيع هؤلاء الكفار مع كونهم أحياء متصرفين فكيف بالجمادات التى لاحياة لها ولا تستطيع التصرف ؟ ثم نهاهم سبحانه عن أن يشبهوه بخلقه ، فقال (فلا تضربوا لله الأمثال) فان ضارب المثل يشبه حالا بحال

وقصة

XVI . ٦٦ . ٩٧

وقصة بقصة . قال الزجاج : لاتجعلوالله مثلالأنه واحد لامثل له ، وكانوايقولون ان إله العالم أجلّ من أن يعبده الواحد منا فكانوا يتوسلون إلى الأصنام ، والكواكب كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك وأولئك الأكابر يخدمون الملك فنهوا عن ذلك ، وعلل النهى بقوله (إن الله) عليم (يعلم) ماعليكم من العبادة (وأنتم لاتعلمون) مافى عبادتها من سوء العاقبة ، والتعرض لعذاب الله سبحانه أو أنتم لاتعلمون بشيء من ذلك ، وفعلكم هذا هوعن توهم فاسد ، وخاطر باطل ، وخيال مختلّ ، ويجوزأن يراد فلاتضربوا لله الأمثال ان الله يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لاتعلمون ذلك .

وقد أخرج ابن جرير عن علىّ فى قوله ـ ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر ـ قال : خمس وسبعون سنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال : هو الخرف . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : من قرأ القرآن لم يردّ إلى أرذل العمر ، ثم قرأ (لكيلا يعلم بعد علم شيئا) . وأخرج ابن أبى شيبة عن طاوس قال : العالم لايخرف . وقدثبت عنه ﷺ فى الصحيح وغيره أنه كان يتعوّذ بالله أن يردّ الى أرذل العمر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) قال لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم ونسائهم فكيف يشركون عبيدى معى فى سلطانى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : هذا مثل لآلهة الباطل مع الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) قال خلق آدم ، ثم خلق زوجته منه . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور والبخارى فى تاريخه وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن مسعود فى قوله (بنين وحفدة) قال : الحفدة الأختان . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الحفدة الاصهار . وأخرجا عنه قال الحفدة الولد وولد الولد . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الحفدة بنو البنين . وأخرج ابن جرير عن أبى جمرة قال : سئل ابن عباس عن قوله بنين وحفدة قال : من أعانك فقد حفدك أما سمعت الشاعر يقول :

حفد الولائد حولهنّ وأسلمت * بأكفهن أزمة الأجمال

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الحفدة بنو امرأة الرجل ليسوا منه . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة (أفبالباطل يؤمنون) قال : الشرك . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : هو الشيطان (وبنعمة الله) قال : محمد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (ويعبدون من دون الله) الآية قال : هذه الأوثان التى تعبد من دون الله لاتملك لمن يعبدها (رزقا من السموات والأرض) ولاخيرا ولاحياة ولانشورا (فلا تضربوا لله الأمثال) فانه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله سبحانه (فلا تضربوا لله الأمثال) يعنى اتخاذهم الأصنام ، يقول لاتجعلوا معى إلها غيرى ، فانه لاإله غيرى .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ

XVI · ٦٩-٩١

يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم * ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير * والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصر والأفئدة لعلكم تشكرون * ألم يروا إلى الطير مسخرت في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيت لقوم يؤمنون *

قوله (ضرب الله مثلا) لما قال سبحانه ان الله يعلم : أى بالمعلومات التى من جلتها كيف يضرب الأمثال وأنتم لاتعلمون ، علمهم سبحانه كيف تضرب الأمثال فقال : ضرب الله مثلا : أى ذكر شيئا يستدل به على تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه ، و بين ماجعلوه شريكا له من الأصنام ، ثم ذكر ذلك فقال (عبدا مملوكا) والمثل فى الحقيقة هى حالة للعبد عارضة له ، وهى المملوكية والعجز عن التصرّف ، فقوله (عبدا مملوكا لايقدر على شيء) تفسير للمثل و بدل منه ، ووصفه بكونه مملوكا ، لأن العبد والحرّ مشتركان فى كون كل واحد منهما عبدا لله سبحانه ، ووصفه بكونه لايقدر على شيء ، لأن المكاتب والمأذون يقدران على بعض التصرفات ، فهذا الوصف لتمييزه عنهما (ومن رزقناه) من هى الموصولة ، وهى معطوفة على عبدا : أى والذى رزقناه (منا) أى من جهتنا (رزقا حسنا) من الأحرار الذين يملكون الأموال و يتصرفون بها كيف شاءوا ، والمراد بكون الرزق حسنا أنه مما يحسن فى عيون الناس ، لكونه رزقا كثيرا مشتملا على أشياء مستحسنة نفيسة تروق الناظرين اليها ، والفاء فى قوله (فهو ينفق منه) لترتيب الانفاق على الرزق : أى ينفق منه فى وجوه الخير و يصرف منه الى أنواع البرّ والمعروف ، وانتصاب (سرّا وجهرا) على الحال : أى ينفق منه فى حال السرّ وحال الجهر ، والمراد بيان عموم الانفاق للأوقات ، وتقديم السرّ على الجهر مشعر بفضيلته عليه ، وأن الثواب فيه أكثر ، وقيل ان «من» فى ومن رزقناه موصوفة كأنه قيل : وحرّا رزقناه ، ليطابق عبدا (هل يستوون) أى الحرّ والعبد الموصوفان بالصفات المتقدّمة ، وجمع الضمير لمكان من ، لأنه اسم مبهم يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث ، وقيل انه أريد بالعبد والموصول الذى هو عبارة عن الحرّ الجنس : أى من اتصف بتلك الأوصاف من الجنسين ، والاستفهام للانكار : أى هل يستوى العبيد والأحرار الموصوفون بتلك الصفات مع كون كلا الفريقين مخلوقين لله سبحانه من جملة البشر ، ومن المعلوم أنهم لايستوون عندهم ، فكيف يجعلون لله سبحانه شركاء لايملكون لهم ضرّا ولانفعا ويجعلونهم مستحقين للعبادة مع الله سبحانه * وحاصل المعنى أنه كما لايستوى عندكم عبد مملوك لايقدر من أمره على شيء ، ورجل حرّ قد رزقه الله رزقا حسنا ، فهو ينفق منه ، كذلك لايستوى الربّ الخالق الرازق ، والجمادات من الأصنام التى تعبدونها وهى لا تبصر ولاتسمع ولا تضرّ ولاتنفع ، وقيل المراد بالعبد المملوك فى الآية هو الكافر المحروم من طاعة الله وعبوديته ، والآخر هو المؤمن والغرض أنهما لايستويان فى الرتبة والشرف ، وقيل العبد هو الصنم ، والثانى عابد الصنم ، والمراد أنهما لايستويان فى القدرة والتصرّف ، لأن الأوّل جماد ، والثانى انسان (الحمد لله) أى الحمد لله كله ، لأنه المنعم لايستحق غيره من العباد شيئا منه ، فكيف تستحق الأصنام منه شيئا ولانعمة منها أصلا لا بالاصالة ولا بالتوسط ، وقيل أراد الحمد لله على ما أنعم به على أوليائه من نعمة التوحيد ، وقيل أراد قل الحمد لله ، والخطاب إما لمحمد ﷺ أو لمن رزقه الله رزقا حسنا ، وقيل انه لما ذكر مثلا مطابقا للغرض كاشفا عن المقصود قال الحمد لله : أى على قوة هذه الحجة (بل أكثرهم لايعلمون) ذلك حتى يعبدوا من تحق له العبادة و يعرفوا

المنعم

المنعم عليهم بالنعم الجليلة ، ونفى العلم عنهم إما لكونهم من الجهل بمنزلة لايفهمون بسببها مايجب عليهم ، أو هم يتركون الحق عنادا مع علمهم به فكانوا كمن لاعلم له ، وخص الأكثر بنفى العلم : إما لكونه يريد الخلق جميعا ، وأكثرهم المشركون ، أو ذكر الأكثر وهو يريد الكل ، أو المراد أكثر المشركين ، لأن فيهم من يعلم ولا يعمل بموجب العلم ، ثم ذكر سبحانه مثلا ثانيا ضربه لنفسه ، ولما يفيض على عباده من النعم الدينية والدنيوية ، وللأصنام التى هى أموات لاتضر ولا تنفع ، فقال (وضرب الله مثلا) أى مثلا آخر أوضح مما قبله وأظهر منه و (رجلين) بدل من مثل وتفسير له ، والأبكم العيى المفحم ، وقيل هو الأقطع اللسان الذى لايحسن الكلام ، وروى ثعلب عن ابن الاعرابى أنه الذى لايسمع ولا يبصر ، ثم وصف الأبكم فقال (لايقدر على شىء) من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره لعدم فهمه وعدم قدرته على النطق ، ومعنى (كل على مولاه) ثقيل على وليه وقرابته وعيال على من يلى أمره ويعوله ووبال على اخوانه ، وقد يسمى اليتيم كلا لثقله على من يكفله ، ومنه قول الشاعر :

أكول لمال الكل قبل شبابه * اذا كان عظم الكل غير شديد

وفى هذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شىء مطلقا ، ثم وصفه بصفة رابعة ، فقال (أينما يوجهه لايأت بخير) أى اذا وجهه الى أى جهة لايأت بخير قط ، لانه لايفهم ولا يعقل مايقال له ولا يمكنه أن يقول ، وقرأ يحيى بن وثاب أينما يوجه على البناء للمجهول ، وقرأ ابن مسعود أينما توجه على صيغة الماضى (هل يستوى هو) فى نفسه مع هذه الأوصاف التى اتصف بها (ومن يأمر بالعدل) أى يأمر الناس بالعدل مع كونه فى نفسه ينطق بما يريد النطق به ويفهم ، ويقدر على التصرف فى الأشياء (وهو) فى نفسه (على صراط مستقيم) على دين قويم وسيرة صالحة ليس فيه ميل إلى أحد جانبى الافراط والتفريط ، قابل أوصاف الأول بهذين الوصفين المذكورين للآخر ، لأن حاصل أوصاف الأول عدم استحقاقه لشىء ، وحاصل وصفى هذا أنه مستحق أكمل استحقاق ، والمقصود الاستدلال بعدم تساوى هذين المذكورين على امتناع التساوى بينه سبحانه وبين مايجعلونه شريكا له ، ولما فرغ سبحانه من ذكر المثلين مدح نفسه بقوله (ولله غيب السموات والارض) أى يختص ذلك به لايشاركه فيه غيره ولايستقل به ، والمراد علم ماغاب عن العباد فيهما ، أو أراد بغيبهما يوم القيامة لان علمه غائب عن العباد ، ومعنى الاضافة اليهما التعلق بهما * والمعنى التوبيخ للمشركين والتقريع لهم : أى ان العبادة إنما يستحقها من كانت هذه صفته لامن كان جاهلا عاجزا لايضر ولا ينفع ولا يعلم بشىء من أنواع العلم (وما أمر الساعة) التى هى أعظم ماوقعت فيه المماراة من الغيوب المختصة به سبحانه (الا كلمح البصر) اللمح النظر بسرعة ، ولابد فيه من زمان تتقلب فيه الحدقة نحو المرئى وكل زمان قابل للتجزئة ، ولذا قال (أوهو) أى أمرها (أقرب) وليس هذا من قبيل المبالغة ، بل هو كلام فى غاية الصدق ، لأن مدة مابين الخطاب وقيام الساعة متناهية ، ومنها إلى الأبد غير متناه ، ولانسبة للمتناهى الى غير المتناهى ، أو يقال ان الساعة لما كانت آتية ولا بد جعلت من القرب كلمح البصر ، وقال الزجاج : لم يرد أن الساعة تأتى فى لمح البصر ، وانما وصف سرعة القدرة على الاتيان بها ، لأنه يقول للشىء كن فيكون ، وقيل المعنى هى عند الله كذلك ، وان لم تكن عند المخلوقين بهذه الصفة ، ومثله قوله سبحانه — انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا — ولفظ أو فى « أوهو أقرب » ليس للشك بل للتمثيل ، وقيل دخلت لشك المخاطب ، وقيل هى بمنزلة بل (ان الله على كل شىء قدير) ومجىء الساعة بسرعة من جملة مقدوراته . ثم انه سبحانه ذكر حالة أخرى للانسان دالة على غاية قدرته ونهاية رأفته ، فقال (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون

شيئا) وهذا معطوف على قوله : والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا منتظم معه فى سلك أدلة التوحيد : أى أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لاعلم لكم بشىء ، وجملة لاتعلمون شيئا فى محل نصب على الحال ، وقيل المراد لاتعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق ، وقيل لاتعلمون شيئا مما قضى به عليكم من السعادة والشقاوة ، وقيل لاتعلمون شيئا من منافعكم ، والأولى التعميم لتشمل الآية هذه الأمور وغيرها اعتبارا بعموم اللفظ ، فان شيئا نكرة واقعة فى سياق النفى . وقرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة أمهاتكم بكسر الهمزة والميم هنا ، وفى النور والزمر والنجم . وقرأ الكسائى بكسر الهمزة وفتح الميم . وقرأ الباقون بضم الهمزة وفتح الميم (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) أى ركب فيكم هذه الأشياء ، وهو معطوف على أخرجكم ، وليس فيه دلالة على تأخير هذا الجعل عن الاخراج لما أن مدلول الواو هو مطلق الجمع * والمعنى : جعل لكم هذه الأشياء لتحصلوا بها العلم الذى كان مسلوبا عنكم عند اخراجكم من بطون أمهاتكم وتعملوا بموجب ذلك العلم من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه ، والافئدة جمع فؤاد ، وهو وسط القلب منزل منه بمنزلة القلب من الصدر ، وقدقدمنا الوجه فى إفراد السمع وجمع الأبصار والأفئدة ، وهو أن افراد السمع لكونه مصدرا فى الأصل يتناول القليل والكثير (لعلكم تشكرون) أى لكى تصرفوا كل آلة فيما خلقت له ، فعند ذلك تعرفون مقدار ماأنعم الله به عليكم فتشكرونه ، أوأن هذا الصرف هو نفس الشكر ، ثم ذكر سبحانه دليلا آخر على كمال قدرته ، فقال (ألم يروا الى الطير مسخرات) أى ألم ينظروا اليها حال كونها مسخرات : أى مذللات للطيران بما خلق الله لها من الأجنحة وسائر الأسباب المواتية لذلك كرقة قوام الهواء وإلهامها بسط الجناح وقبضه كما يفعل السابح فى الماء (فى جوّ السماء) أى فى الهواء المتباعد من الأرض فى سمت العلوّ ، واضافته الى السماء لكونه فى جانبها (مايمسكهن) فى الجوّ (الا الله) سبحانه بقدرته الباهرة ، فان ثقل أجسامها ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها ، لأنها لم تتعلق بشىء من فوقها ولا اعتمدت على شىء تحتها . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وابن عامر وحمزة ويعقوب ألم تروا بالفوقية على الخطاب ، واختارهذه القراءة أبو عبيد . وقرأ الباقون بالتحتية (ان فى ذلك لآيات) أى ان فى ذلك التسخير على تلك الصفة لآيات ظاهرات تدلّ على وحدانية الله سبحانه وقدرته الباهرة (لقوم يؤمنون) بالله سبحانه و بما جاءت به رسله من الشرائع التى شرعها الله .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا) الآية قال يعنى الكافر انه لايستطيع أن ينفق نفقه فى سبيل الله ومن رزقناه منا رزقا حسنا الآية قال يعنى المؤمن وهذا المثل فى النفقة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم نحوه بأطول منه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية ، وفى قوله (مثلا رجلين أحدهما أبكم) قال : كل هذا مثل إله الحق ومايدعون من دونه الباطل . وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال : فى المثل الأوّل يعنى بذلك الآلهة التى لا تملك ضرّا ولا نفعا ولا تقدر على شىء ينفعها (ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرّا وجهرا) قال علانية الذى ينفق سرّا وجهرا لله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عنه قال : نزلت هذه الآية (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا) فى رجل من قريش وعبدة بن هشام بن عمرو ، وهوالذى ينفق سرّا وجهرا ، وفى عبدة أبى الجوزاء الذى كان ينهاه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم) الآية قال : يعنى بالأبكم الذى هو كلّ على مولاه الكافر (ومن يأمر بالعدل) المؤمن ، وهذا المثل فى الأعمال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عنه

أيضا قال : نزلت هذه الآية ـ وضرب الله مثلا رجلين ـ الآية فى عثمان بن عفان ومولى له كافر ، وهو أسيد ابن أبى العيص كان يكره الاسلام ، وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤنة ، وكان الآخر ينهاه عن الصدقة والمعروف ، فنزلت فيهما . وأخرج ابن سعد وابن أبى شيبة والبخارى فى تاريخه وابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء فى المختارة عنه أيضا فى قوله (ومن يأمر بالعدل) قال عثمان بن عفان . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (كلّ) قال : الكلّ العيال ، كانوا اذا ارتحلوا حملوه على بعير ذلول ، وجعلوا معه نفرا يمسكونه خشية أن يسقط عليهم ، فهو عناء وعذاب وعيال عليهم (هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) يعنى نفسه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر) هو أن يقول : كن فهو كلمح البصر (أو هو أقرب) فالساعة كلمح البصر أو هى أقرب . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم) قال : من الرحم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (فى جوّ السماء) أى فى كبد السماء .

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ۞ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ۞ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۞ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۞

قوله (والله جعل لكم) معطوف على ماقبله ، وهذا المذكور من جملة أحوال الانسان ، ومن تعديد نعم الله عليه ، والسكن مصدر يوصف به الواحد والجمع ، وهو بمعنى مسكون : أى تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة ، وهذه نعمة ، فان الله سبحانه لوشاء لخلق العبد مضطربا دائما كالافلاك ولو شاء لخلقه ساكنا أبدا كالأرض (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا) لما ذكر سبحانه بيوت المدن ، وهى التى للإقامة الطويلة عقبها بذكر بيوت البادية والرحلة : أى جعل لكم من جلود الأنعام ، وهى الأنطاع والأدم بيوتا كالخيام والقباب (تستخفونها) أى يخف عليكم حملها فى الأسفار وغيرها ، ولهذا قال (يوم ظعنكم) والظعن بفتح العين وسكونها ، وقرئ بهما سير أهل البادية للانتجاع والتحوّل من موضع الى موضع ، ومنه قول عنترة :

ظعن الذين فراقهم أتوقع ۞ وجرى بينهم الغراب الأبقع

والظعن الهودج أيضا (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا) معطوف على ـ جعل ـ أى وجعل لكم من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها ، والأنعام تعمّ الابل ، والبقر ، والغنم كما تقدّم ، والأصواف للغنم ، والأوبار للابل ، والأشعار للمعز ، وهى من جملة الغنم ، فيكون ذكر هذه الثلاثة على وجه التنويع كل واحد منها لواحد من الثلاثة ، أعنى الابل ، ونوعى الغنم ، والأثاث متاع البيت ، وأصله الكثرة والاجتماع ، ومنه شعر أثيث : أى كثير مجتمع ، قال الشاعر :

وفرع يزين المتن أسود فاحم ۞ أثيث كقنو النخلة المتعثكل

قال الخليل أثاثا : أى منضما بعضه الى بعض ، من أثّ اذا أكثر ، قال الفراء : لاواحد له ، والمتاع : مايتمتع به بأنواع التمتع ، وعلى قول أبي زيد الأنصارى : ان الأثاث المال أجمع : الابل ، والغنم ، والعبيد والمتاع يكون عطف المتاع على الأثاث من عطف الخاص على العام ، وقيل ان الأثاث مايكتسى به الانسان و يستعمله من الغطاء والوطاء ، والمتاع مايفرش فى المنازل و يتزين به ، ومعنى (إلى حين) إلى أن تقضوا أوطاركم منه ، أو إلى أن يبلى ويفنى ، أو إلى الموت ، أو إلى القيامة ، ثم لما كان الانسان قد لا يكون له خيام ، أو أبنية يستظل بها لفقر ، أو لعارض آخر فيحتاج الى أن يستظلّ بشجر ، أو جدار ، أو غمام ، أو نحو ذلك نبه سبحانه على ذلك ، فقال (وجعل لكم مما خلق ظلالا) أى أشياء تستظلون بها كالأشياء المذكورة * والحاصل أن الظلال تعمّ الأشياء التى تظلّ ، ثم لما كان المسافر قد يحتاج الى ركن يأوى اليه فى نزوله ، والى مايدفع به عن نفسه آفات الحرّ والبرد ، نبه سبحانه على ذلك ، فقال (وجعل لكم من الجبال أكنانا) وهى جمع كنّ ، وهو مايستكنّ به من المطر ، وهى هنا الغيران فى الجبال ، جعلها الله سبحانه عدّة للخلق يأوون اليها و يتحصنون بها و يعتزلون عن الخلق فيها (وجعل لكم سرابيل) جمع سربال ، وهى القمصان والثياب من الصوف والقطن والكتان وغيرها . قال الزجاج : كل مالبسته فهو سربال ، ومعنى (تقيكم الحرّ) تدفع عنكم ضرر الحرّ ، وخصّ الحرّ ولم يذكر البرد اكتفاء بذكر أحد الضدّين عن ذكر الآخر ، لأن مارقى من الحرّ وقى من البرد ، ووجه تخصيص الحرّ بالذكر أن الوقاية منه كانت أهمّ عندهم من الوقاية من البرد لغلبة الحرّ فى بلادهم (وسرابيل تقيكم بأسكم) وهى الدروع والجواشن يتقون بها الطعن والضرب والرمى * والمعنى أنها تقيهم البأس الذى يصل من بعضهم الى بعض فى الحرب (كذلك يتمّ نعمته عليكم) أى مثل ذلك الانعام البالغ يتمّ نعمته عليكم ، فانه سبحانه قد منّ على عباده بصنوف النعم المذكورة هاهنا و بغيرها ، وهو بفضله واحسانه سيتمّ لهم نعمة الدين والدنيا (لعلكم تسلمون) إرادة أن تسلموا، فان من أمعن النظر فى هذه النعم لم يسعه الا الاسلام والانقياد للحق ، وقرأ ابن محيصن وحميد تتم نعمته بتاءين فوقيتين على أن فاعله نعمته ، وقرأ الباقون بالتحتية على أن الفاعل هو الله سبحانه ، وقرأ ابن عباس وعكرمة تسلمون بفتح التاء واللام ، من السلامة من الجراح ، وقرأ الباقون بضم التاء وكسر اللام ، من الاسلام . قال أبوعبيد والاختيار قراءة العامة ، لأن ماأنعم الله به علينا من الاسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح ، وقيل الخطاب لأهل مكة : أى لعلكم ياأهل مكة تخلصون لله الربوبية ، والأولى الحمل على العموم ، وإفراد النعمة هنا ، لأن المراد بها المصدر (فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين) أى ان تولوا عنك ولم يقبلوا ماجئت به فقد تمهد عذرك فانما عليك البلاغ لما أرسلت به اليهم المبين : أى الواضح ، وليس عليك غير ذلك ، وصرف الخطاب الى رسول الله ﷺ تسلية له ، وجملة (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) استئناف لبيان تولهم : أى هم يعرفون نعمة الله التى عدّدها ، و يعترفون بأنها من عند الله سبحانه ثم ينكرونها بما يقع من أفعالهم القبيحة من عبادة غير الله و بأقوالهم الباطلة ، حيث يقولون هى من الله ولكنها بشفاعة الأصنام ، وحيث يقولون انهم ورثوا تلك النعم من آبائهم ، وأيضا كونهم لايستعملون هذه النعم فى مرضاة الرب سبحانه ، وفى وجوه الخير التى أمرهم الله بصرفها فيها ، وقيل نعمة الله نبوّة محمد ﷺ كانوا يعرفونه ثم ينكرون نبوّته (وأكثرهم الكافرون) أى الجاحدون لنعم الله ، أو الكافرون بالله ، وعبر هنا بالأكثر عن الكلّ أوأراد بالأكثر العقلاء دون الأطفال ونحوهم ، أو أراد كفر الجحود ولم يكن كفر كلهم كذلك ، بل كان كفر بعضهم كفر جهل ، وكفر بعضهم بسبب تكذيب الرسول ﷺ مع اعترافهم بالله وعدم الجحد لربوبيته ، ومثل

هذه

هذه الآية قوله تعالى ــ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ــ .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد سكنا قال: تسكنون فيها. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّى نحوه: قال (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا) وهي خيام العرب (تستخفونها) يقول: في الحل (ومتاعا) يقول بلاغا (الى حين) قال الى الموت. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس تستخفونها يوم ظعنكم قال: بعض بيوت السيارة بنيانه في ساعة، وفي قوله (وأوبارها) قال: الابل (وأشعارها) قال الغنم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله (أثاثا) قال: الأثاث المتاع. وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال: الأثاث المال (ومتاعا الى حين) يقول: تنتفعون به إلى حين. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) قال: من الشجر ومن غيرها (وجعل لكم من الجبال أكنانا) قال: غارات يسكن فيها (وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ) قال: من القطن والكتان والصوف (وسرابيل تقيكم بأسكم) من الحديد (كذلك يتمّ نعمته عليكم لعلكم تسلمون) ولذلك هذه السورة تسمى سورة النعم. وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (سرابيل تقيكم الحرّ) قال: يعني الثياب وسرابيل تقيكم بأسكم قال: يعني الدروع والسلاح كذلك يتمّ نعمته عليكم لعلكم تسلمون يعني من الجراحات، وكان ابن عباس يقرؤها تسلمون، كما قدّمنا، واسناده ضعيف.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ * وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ * وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَٰنِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *

لما بين سبحانه من حال هؤلاء أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها، وأن أكثرهم كافرون أتبعه بأصناف وعيد يوم القيامة، فقال (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا) أي واذكر يوم نبعث، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه، وشهيد كل أمة نبيها يشهد لهم بالايمان والتصديق، وعليهم بالكفر والجحود والتكذيب (ثم لا يؤذن للذين كفروا) أي في الاعتذار، اذ لا حجة لهم ولا عذر كقوله سبحانه ــ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ــ أو في كثرة الكلام، أو في الرجوع الى دار الدنيا، و إيراد ثم هاهنا للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبئ عن الاقناط الكلى أشد من ابتلائهم بشهادة الأنبياء (ولاهم يستعتبون) لأن العتاب انما يطلب لأجل العود الى الرضا، فاذا كان على عزم السخط فلا فائدة في العتاب * والمعنى أنهم لا يسترضون: أي لا يكلفون أن يرضوا ربهم، لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يتركون الى رجوع

الدنيا فيتوبون ، وأصل الكلمة من العتب وهو الموجد ، يقال عتب عليه يعتب ، اذا وجد عليه ، فاذا أفاض عليه ماعتب فيه عليه قيل عاتبه ، فاذا رجع الى مسرته قيل أعتبه ، والاسم العتبى ، وهو رجوع المعتوب عليه الى مايرضي العاتب ، قاله الهروى ، ومنه قول النابغة :

فان كنت مظلوما فعبدا ظلمته ❊ وان كنت ذا عتبى فمثلك يعتب

(واذ رأى الذين ظلموا العذاب) أى واذا رأى الذين أشركوا العذاب الذى يستحقونه بشركهم ، وهو عذاب جهنم (فلا يخفف) ذلك العذاب (عنهم ولاهم ينظرون) أى ولاهم يمهلون ليتوبوا اذلا توبة هنالك (واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم) أى أصنامهم وأوثانهم التى عبدوها ، لما تقرر من أنهم يبعثون مع المشركين ليقال لهم من كان يعبد شيئا فليتبعه ، كما ثبت فى الصحيح من قوله ﷺ (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك) أى الذين كنا نعبدهم من دونك . قال أبو مسلم الأصفهانى : مقصود المشركين بهذا القول إحالة الذنب على تلك الأصنام تعللا بذلك واسترواحا مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لامحالة ، ولكن الغريق يتعلق بكل ماتقع يده عليه (فألقوا اليهم القول) أى ألقى أولئك الأصنام والأوثان والشياطين ونحوهم الى المشركين القول (انكم لكاذبون) أى قالوا لهم انكم أيها المشركون لكاذبون فيما تزعمون من احالة الذنب علينا الذى هو مقصودكم من هذا القول ❊ فان قيل ان المشركين أشاروا إلى الأصنام ونحوها أن هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك ، وقد كانوا صادقين فى ذلك ، فكيف كذبتهم الأصنام ونحوها ❊ فالجواب بأن مرادهم من قولهم : هؤلاء شركاؤنا هؤلاء شركاء الله فى المعبودية ، فكذبتهم الأصنام فى دعوى هذه الشركة ، والأصنام والأوثان وان كانت لاتقدر على النطق فان الله سبحانه ينطقها فى تلك الحال لتخجيل المشركين وتوبيخهم ، وهذا كما قالت الملائكة ــ بل كانوا يعبدون الجن ــ يعنون أن الجن هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لهم (وألقوا إلى الله يومئذ السلم) أى ألقى المشركون يوم القيامة الاستسلام والانقياد لعذابه والخضوع لعزته ، وقيل استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم (وضل عنهم ماكانوا يفترون) أى ضاع وبطل ما كانوا يفترونه من أن لله سبحانه شركاء وما كانوا يزعمون من شفاعتهم لهم ، وأن عبادتهم لهم تقربهم إلى الله سبحانه (الذين كفروا) فى أنفسهم (وصدوا) غيرهم (عن سبيل الله) أى عن طريق الحق ، وهى طريق الاسلام والايمان بأن منعوهم من سلوكها وحملوهم على الكفر ، وقيل المراد بالصد عن سبيل الله : الصد عن المسجد الحرام ، والأولى العموم ، ثم أخبر عن هؤلاء الذين صنعوا هذا الصنع بقوله (زدناهم عذابا فوق العذاب) أى زادهم الله عذابا لأجل الاضلال لغيرهم فوق العذاب الذى استحقوه لأجل ضلالهم ، وقيل المعنى زدنا القادة عذابا فوق عذاب أتباعهم : أى أشد منه ، وقيل ان هذه الزيادة هى اخراجهم من النار الى الزمهرير ، وقيل غير ذلك (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم) أى نبيا يشهد عليهم (من أنفسهم) من جنسهم ، إتماما للحجة وقطعا للمعذرة ، وهذا تكرير لما سبق لقصد التأكيد والتهديد (وجئنا بك) يامحمد (شهيدا على هؤلاء) أى تشهد على هذه الأمم وتشهد لهم ، وقيل على أمتك ، وقد تقدم مثل هذا فى البقرة والنساء (ونزلنا عليك الكتاب) أى القرآن ، والجملة مستأنفة ، أو فى محل نصب على الحال بتقدير قد (تبيانا لكل شىء) أى بيانا له ، والتاء للمبالغة ، ونظيره من المصادر التلقاء ، ولم يأت غيرهما ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه ــ مافرطنا فى الكتاب من شىء ــ ، ومعنى كونه تبيانا لكل شىء أن فيه البيان لكثير من الأحكام ، والاحالة فيما بقى منها على السنة ، وأمرهم باتباع رسوله ﷺ فيما يأتى به من الأحكام وطاعته كما فى الآيات القرآنية الدالة على ذلك ، وقد صح

عنه

عنه ﷺ أنه قال «انى أوتيت القرآن ومثله معه» (وهدى) للعباد (ورحمة) لهم (و بشرى للمسلمين) خاصة دون غيرهم ، أو يكون الهدى والرحمة والبشرى خاصة بهم ، لأنهم المنتفعون بذلك * ثم لما ذكر سبحانه أن فى القرآن تبيان كل شىء ذكر عقبه آية جامعة لأصول التكليف كلها تصديقا لذلك ، فقال (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) .

وقد اختلف أهل العلم فى تفسير العدل والاحسان فقيل : العدل لا إله الا الله ، والاحسان أداء الفرائض ، وقيل : العدل الفرض ، والاحسان النافلة ، وقيل : العدل استواء العلانية والسريرة ، والاحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية ، وقيل : العدل الانصاف ، والاحسان التفضل ، والأولى تفسير العدل بالمعنى اللغوى وهو التوسط بين طرفى الافراط والتفريط ، فمعنى أمره سبحانه بالعدل أن يكون عباده فى الدين على حالة متوسطة ليست بمائلة الى جانب الافراط وهو الغلوّ المذموم فى الدين ، ولا الى جانب التفريط وهو الاخلال بشىء مما هو من الدين ، وأما الاحسان فمعناه اللغوى يرشد الى أنه التفضل بما لم يجب كصدقة التطوّع ، ومن الاحسان فعل مايثاب عليه العبد مما لم يوجبه الله عليه فى العبادات وغيرها ، وقد صحّ عن النبى ﷺ أنه فسر الاحسان بأن يعبد الله العبد حتى كأنه يراه ، فقال فى حديث ابن عمر الثابت فى الصحيحين « والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » وهذا هو معنى الاحسان شرعا (و إيتاء ذى القربى) أى اعطاء القرابة ماتدعو إليه حاجتهم ، وفى الآية ارشاد الى صلة الأقارب وترغيب فى التصدّق عليهم ، وهو من باب عطف الخاص على العام ان كان اعطاء الأقارب قد دخل تحت العدل والاحسان ، وقيل من باب عطف المندوب على الواجب ، ومثل هذه الآية قوله ــ وآت ذا القربى حقه ــ وانما خصّ ذوى القربى ، لأن حقهم آكد فان الرحم قد اشتق الله اسمها من اسمه وجعل صلتها من صلته ، وقطيعتها من قطيعته (وينهى عن الفحشاء) هى الخصلة المتزايدة فى القبح من قول أو فعل ، وقيل هى الزنا ، وقيل البخل (والمنكر) ما أنكره الشرع بالنهى عنه ، وهو يعمّ جميع المعاصى على اختلاف أنواعها ، وقيل هو الشرك (و) أما (البغى) فقيل هو الكبر ، وقيل الظلم ، وقيل الحقد وقيل التعدّى ، وحقيقته تجاوز الحدّ ، فيشمل هذه المذكورة ويندرج بجميع أقسامه تحت المنكر ، وانما خصّ بالذكر اهتماما به لشدّة ضرره ووبال عاقبته ، وهو من الذنوب التى ترجع على فاعلها لقوله سبحانه ــ انما بغيكم على أنفسكم ــ وهذه الآية هى من الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله (يعظكم لعلكم تذكرون) أى يعظكم بما ذكره فى هذه الآية مما أمركم به ونهاكم عنه ، فانها كافية فى باب الوعظ ، والتذكير لعلكم تذكرون ارادة أن تتذكروا ماينبغى تذكره فتتعظوا بما وعظكم الله به .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (ويوم نبعث من كلّ أمة شهيدا) قال : شهيدها نبيها على أنه قد بلغ رسالات ربه ، قال الله (وجئنا بك شهيدا على هؤلاء) قال ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان اذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (فألقوا اليهم القول) قال : حدّثوهم . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج (وألقوا الى الله يومئذ السلم) قال : استسلموا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه . وأخرج عبدالرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وهناد بن السريّ وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى البعث والنشور عن ابن مسعود فى قوله (زدناهم عذابا فوق العذاب) قال : زيدوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال . واخرج ابن مردويه

والخطيب عن البراء أن النبي ﷺ سئل عن قول الله تعالى زدناهم عذابا فوق العذاب فقال : عقارب أمثال النخل الطوال ينهشونهم فى جهنم . وأخرج أبو يعلى وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله زدناهم عذابا فوق العذاب قال : خمسة أنهار من نار صبها الله عليهم يعذبون ببعضها بالليل ، و ببعضها بالنهار ، وقد روى ابن مردويه من حديث جابر عن النبي ﷺ قال « الزيادة خمسة أنهار تجرى من تحت العرش على رءوس أهل النار ثلاثة أنهار على مقدار الليل ونهران على مقدار النهار » فذلك قوله زدناهم عذابا فوق العذاب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : ان الله أنزل فى هذا الكتاب تبيانا لكل شىء ، ولكن علمنا يقصر عما بين لنا فى القرآن ، ثم قرأ : ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن الضريس فى فضائل القرآن ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة والطبرانى والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال : من أراد العلم فليثور القرآن ، فان فيه علم الأولين والآخرين . وأخرج أحمد عن عثمان بن أبى العاص قال : كنت عند رسول الله ﷺ جالسا اذ شخص بصره فقال : أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) الآية ، وفى اسناده شهر بن حوشب ، وقال ابن كثير فى تفسيره اسناده لا بأس به ، وقد أخرجه مطوّلا أحمد والبخارى فى الأدب وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه من حديث ابن عباس ، وحسن ابن كثير اسناده . وأخرج البارودى وابن السكن وابن منده وأبو نعيم فى معرفة الصحابة عن عبد الملك بن عمير أن هذه الآية لما بلغت أكثم بن صيفى حكيم العرب قال : انى أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها ، ثم قال لقومه كونوا فى هذا الأمر رؤوسا ولا تكونوا فيه أذنابا ، وكونوا فيه أوّلا ولا تكونوا فيه آخرا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (إن الله يأمر بالعدل) قال : شهادة أن لا إله الا الله والاحسان أداء الفرائض (وايتاء ذى القربى) قال اعطاء ذوى الأرحام الحق الذى أوجبه الله عليك بسبب القرابة والرحم (وينهى عن الفحشاء) قال الزنا (والمنكر) قال الشرك (والبغى) قال الكبر والظلم (يعظكم) قال يوصيكم (لعلكم تذكرون) وأخرج سعيد بن منصور والبخارى فى الأدب ومحمد بن نصر فى الصلاة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب قال « أعظم آية فى كتاب الله ــ الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم ــ وأجمع آية فى كتاب الله للخير والشرّ الآية التى فى النحل : ان الله يأمر بالعدل والاحسان ، وأكثر آية فى كتاب الله تفويضا ــ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ــ وأشد آية فى كتاب الله رجاء ــ ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ــ الآية » . وأخرج البيهقى فى الشعب عن الحسن أنه قرأ هذه الآية : ان الله يأمر بالعدل والاحسان الى آخرها ، ثم قال ان الله عزّ وجلّ جمع لكم الخير كله والشرّ كله فى آية واحدة ، فوالله ما ترك العدل والاحسان من طاعة الله شيئا الا جمعه ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغى من معصية الله شيئا إلا جمعه . وأخرج البخارى فى تاريخه من طريق الكلبى عن أبيه قال : مرّ علىّ بن أبى طالب بقوم يتحدثون فقال : فيم أنتم ؟ قالوا نتذاكر المروءة فقال : أو ما كفاكم الله عزّ وجلّ ذلك فى كتابه اذ يقول (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) فالعدل الانصاف ، والاحسان التفضل ، فما بقى بعد هذا .

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ

أيمانكم

XVI، ٩٢-٩٦

أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ *

خص سبحانه من جملة المأمورات التى تضمنها قوله ـ ان الله يأمر بالعدل ـ الوفا بالعهد فقال (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) وظاهره العموم فى كل عهد يقع من الانسان من غير فرق بين عهد البيعة وغيره ، وخص هذ العهد المذكور فى هذه الآية بعض المفسرين بالعهد الكائن فى بيعة النبى ﷺ على الاسلام وهو خلاف مايفيده العهد المضاف الى اسم الله سبحانه من العموم الشامل لجميع عهود الله ، ولو فرض أن السبب خاص بعهد من العهود لم يكن ذلك موجبا لقصره على السبب ، فالاعتبار بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، وفسره بعضهم باليمين ، وهو مدفوع بذكر الوفاء بالأيمان بعده حيث قال سبحانه (ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها) أى بعد تشديدها وتغليظها وتوثيقها ، وليس المراد اختصاص النهى عن النقض بالأيمان الموكدة ، لابغيرها مما لاتأكيد فيه ، فان تحريم النقض يتناول الجميع ، ولكن فى نقض اليمين الموكدة من الاثم فوق الاثم الذى فى نقض مالم يوكد منها ، يقال وكد وأكد توكيدا وتأكيدا ، وهما لغتان وقال الزجاج : الأصل الواو والهمزة بدل منها ، وهذا العموم مخصوص بما ثبت فى الأحاديث الصحيحة من قوله ﷺ « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه » حتى بالغ فى ذلك ﷺ فقال « والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها الا أتيت الذى هو خير وكفرت عن يمينى » وهذه الألفاظ ثابتة فى الصحيحين وغيرهما ، ويخص أيضا من هذا العموم يمين اللغو لقوله سبحانه ـ لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ـ ، ويمكن أن يكون التقييد بالتوكيد هنا لاخراج أيمان اللغو ، وقد تقدم بسط الكلام على الأيمان فى البقرة (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) أى شهيدا ، وقيل حافظا ، وقيل ضامنا ، وقيل رقيبا ، لأن الكفيل يراعى حال المكفول به ، وقيل ان توكيد اليمين هو حلف الانسان على الشىء الواحد مرارا ، وحكى القرطبى عن ابن عمر أن التوكيد هو أن يحلف مرتين ، فان حلف واحدة فلا كفارة عليه (ان الله يعلم ماتفعلون) فيجازيكم بحسب ذلك ان خيرا فخير وان شرا فشر ، وفيه ترغيب وترهيب ، ثم أكد وجوب الوفاء ، وتحريم النقض فقال (ولاتكونوا كالتى نقضت غزلها) أى لاتكونوا فيما تصنعون من النقض بعد التوكيد كالتى نقضت غزلها : أى ماغزلته (من بعد قوة) أى من بعد ابرام الغزل و إحكامه ، وهو متعلق بنقضت (أنكاثا) جمع نكث بكسر النون ما ينكث فتله . قال الزجاج : انتصب أنكاثا على المصدر ، لأن معنى نقضت نكثت ، ورد بأن أنكاثا ليس بمصدر ، وانما هو جمع كما ذكرنا . وقال الواحدى : هو منصوب على أنه مفعول ثان كما تقول كسرته أقطاعا وأجزاء : أى جعلته أقطاعا وأجزاء ، ويحتمل أن يكون حالا . قال ابن قتيبة : هذه الآية متعلقة بما قبلها ، والتقدير وأوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الأيمان ، فانكم ان فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلا وأحكمته ثم جعلته

أنكاثا ، وجملة (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) فى محل نصب على الحال . قال الجوهرى : والدخل المكر والخديعة ، وقال أبو عبيدة : كلّ أمر لم يكن صحيحا فهو دخل ، وقيل الدخل ما أدخل فى الشيء على فساده ، وقال الزجاج : غشا وغلا (أن تكون أمة هى أربى من أمة) أى بأن تكون جماعة هى أربى من جماعة : أى أكثر عددا منها وأوفر مالا ، يقال ربا الشيء يربو اذا كثر . قال الفراء : المعنى لاتغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم وقد عززتموهم بالأيمان ، قيل وقد كانت قريش اذا رأوا شوكة فى أعادى حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم ، وقيل هو تحذير للمؤمنين أن يغترّوا بكثرة قريش وسعة أموالهم فينقضوا بيعة النبى ﷺ (انما يبلوكم الله به) أى يختبركم بكونكم أكثر وأوفر لينظر هل تمسكون بحبل الوفاء أم تنقضون اغترارا بالكثرة ؟ فالضمير فى به راجع الى مضمون جملة : أن تكون أمة هى أربى من أمة : أى انما يبلوكم الله بتلك الكثرة ليعلم ماتصنعون ، أو انما يبلوكم الله بما يأمركم وينهاكم (وليبيننّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) فيوضح الحق والمحقين ويرفع درجاتهم ، ويبين الباطل والمبطلين فينزل بهم من العذاب مايستحقونه ، وفى هذا انذار وتحذير من مخالفة الحق والركون الى الباطل ، أو يبين لكم ماكنتم تختلفون فيه من البعث والجنة والنار ، ثم بين سبحانه أنه قادر على أن يجمع المؤمنين والكافرين على الوفاء ، أوعلى الايمان فقال (ولوشاءالله لجعلكم أمة واحدة) متفقة على الحق (ولكن) بحكم الالهية (يضلّ من يشاء) بخذلانه اياهم عدلا منه فيهم (ويهدى من يشاء) بتوفيقه اياهم فضلا منه عليهم ـ لايسأل عما يفعل وهم يسألون ـ ولهذا قال (ولتسألنّ عما كنتم تعملون) من الأعمال فى الدنيا ، واللام فى وليبيننّ لكم ، وفى ولتسألنّ هما الموطئتان للقسم ، ثم لما نهاهم سبحانه عن نقض مطلق الأيمان نهاهم عن نقض أيمان مخصوصة فقال (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) وهى أيمان البيعة ، قال الواحدى : قال المفسرون : وهذا فى نهى الذين بايعوا رسول الله ﷺ عن نقض العهد على الاسلام ونصرة الدين ، واستدلوا على هذا التخصيص بما فى قوله (فتزلّ قدم بعد ثبوتها) من المبالغة ، وبما فى قوله (وتذوقوا السوء بما صددتم) لأنهم اذا نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ صدّوا غيرهم عن الدخول فى الاسلام ، وعلى تسليم أن هذه الأيمان مع رسول الله ﷺ هى سبب نزول هذه الآية ، فالاعتبار بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، وقال جماعة من المفسرين : ان هذا تكرير لما قبله لقصد التأكيد والتقرير ، ومعنى فتزلّ قدم بعد ثبوتها : فتزلّ قدم من اتخذ يمينه دخلا عن محجة الحق بعد ثبوتها عليها ورسوخها فيها ، قيل وأفرد القدم للايذان بأن زلل قدم واحد أىّ قدم كانت عزّت أو هانت محذور عظيم ، فكيف بأقدام كثيرة ؟ وهذا استعارة للمستقيم الحال يقع فى شرّ عظيم ويسقط فيه لأن القدم اذا زلت نقلت الانسان من حال خير الى حال شرّ ، ويقال لمن أخطأ فى شيء : زلت به قدمه ، ومنه قول الشاعر :

تداركتما عبسا وقد ثلّ عرشها ٭ وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

(وتذوقوا السوء بما صددتم) أى تذوقوا العذاب السيء فى الدنيا ، أو فى الآخرة ، أو فيهما بما صددتم (عن سبيل الله) أى بسبب صدودكم أنتم عن سبيل الله ، وهو الاسلام ، أو بسبب صدّكم لغيركم عن الاسلام فان من نقض البيعة وارتدّ اقتدى به غيره فى ذلك فكان فعله سنة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها ، ولهذا قال (ولكم عذاب عظيم) أى متبالغ فى العظم ، وهو عذاب الآخرة ان كان المراد بما قبله عذاب الدنيا ، ثم نهاهم سبحانه عن الميل الى عرض الدنيا والرجوع عن العهد لأجله فقال (ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا) أى لاتأخذوا فى مقابلة عهدكم عوضا يسيرا حقيرا ، وكل عرض دنيوى وان كان فى الصورة كثيرا ولكونه ذاهبا زائلا

يسير ، ولهذا ذكر سبحانه بعد تقليل عرض الدنيا خيرية ماعند الله ، فقال (انما عند الله هو خير لكم) أى ماعنده من النصر فى الدنيا والغنائم والرزق الواسع ، وماعنده فى الآخرة من نعيم الجنة الذى لايزول ولاينقطع هو خير لهم ، ثم علل النهى عن أن يشتروا بعهد الله ثمنا قليلا وأن ماعند الله هو خير لهم بقوله (ان كنتم تعلمون) أى ان كنتم من أهل العلم والتمييز بين الأشياء ، ثم ذكر دليلا قاطعا على حقارة عرض الدنيا وخيرية ماعند الله ، فقال (ماعندكم ينفد وما عند الله باق) ومعلوم لكل عاقل أن ماينفد ويزول وان بلغ فى الكثرة الى أىّ مبلغ فهو حقير يسير ، وما كان يبقى ولايزول فهو كثير جليل ، أما نعيم الآخرة فظاهر ، وأما نعيم الدنيا الذى أنعم الله به على المؤمنين ، فهو وان كان زائلا لكنه لما كان متصلا بنعيم الآخرة كان من هذه الحيثية فى حكم الباقى الذى لاينقطع ، ثم قال (ولنجزينّ الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانو يعملون) اللام هى الموطئة : أى لنجزينهم بسبب صبرهم على مانالهم من مشاق التكليف وجهاد الكافرين والصبر على ماينالهم منهم من الايذاء بأحسن ما كانوا يعملون من الطاعات ، قيل وانما خص أحسن أعمالهم ، لأن ماعداه ، وهو الحسن مباح ، والجزاء انما يكون على الطاعة ، وقيل المعنى : ولنجزينهم بجزاء أشرف وأوفر من عملهم كقوله — من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها — أولنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم على معنى ، لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم المذكورة مانعطيهم بمقابلة الفرد الأعلى منها من الجزاء الجزيل ، لاأنا نعطى الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة فى مراتب الحسن بأن نجزى الحسن منها بالأجر الحسن ، والأحسن بالأحسن ، كذا قيل . قرأ عاصم وابن كثير لنجزين بالنون وقرأ الباقون بالياء التحتية .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مزيدة بن جابر فى قوله (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) قال أنزلت هذه الآية فى بيعة رسول الله ﷺ كأن من أسلم بايع على الاسلام ، فقال : وأوفوا بعهد الله الآية فلا يحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الاسلام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها) يقول بعد تغليظها . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن مردويه من طريق عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس أن سعيدة الأسدية كانت تجمع الشعر والليف ، فنزلت فيها هذه الآية (ولاتكونوا كالتى نقضت غزلها) . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر ابن حفص مثله ، وفى الروايتين جميعا أنها كانت مجنونة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدّى فى سبب نزول الآية قال : كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء مكة كانت تغزل فاذا أبرمت غزلها نقضته . وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن كثير معناه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (أن تكون أمة هى أربى من أمة) قال ناس أكثر من ناس . وأخرجوا عن مجاهد فى الآية قال : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعزّ ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون هؤلاء الذين هم أعزّ فنهوا عن ذلك .

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ

XVI ١٥٦-١٥٧

مُشْرِكُونَ * وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ *

هذا شروع فى ترغيب كل مؤمن فى كل عمل صالح ، وتعميم للوعد ، ومعنى من عمل صالحا من عمل عملا صالحا أىّ عمل كان ، وزيادة التمييز بذكر أو أنثى مع كون لفظ من شاملا لهما لقصد التأكيد والمبالغة فى تقرير الوعد ، وقيل ان لفظ من ظاهر فى الذكور ، فكان فى التنصيص على الذكر والأنثى بيان لشموله للنوعين ، وجملة (وهو مؤمن) فى محل نصب على الحال ، جعل سبحانه الايمان قيدا فى الجزاء المذكور لأن عمل الكافر لا اعتداد به لقوله سبحانه ــ وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ــ ثم ذكر سبحانه الجزاء لمن عمل ذلك العمل الصالح فقال (فلنحيينه حياة طيبة) وقد وقع الخلاف فى الحياة الطيبة بماذا تكون ، فقيل بالرزق الحلال ، روى ذلك عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك ، وقيل بالقناعة قاله الحسن البصرى وزيد بن وهب ووهب بن منبه . وروى أيضا عن علىّ وابن عباس ، وقيل بالتوفيق الى الطاعة قاله الضحاك ، وقيل الحياة الطيبة هى حياة الجنة ، روى عن مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وحكى عن الحسن أنه قال لا تطيب الحياة لأحد الا فى الجنة ، وقيل الحياة الطيبة هى السعادة ، روى ذلك عن ابن عباس ، وقيل هى المعرفة بالله ، حكى ذلك عن جعفر الصادق . وقال أبو بكر الورّاق هى حلاوة الطاعة . وقال سهل بن عبد الله التسترى هى أن ينزع عن العبد تدبير نفسه وردّ تدبيره الى الحق ، وقيل هى الاستغناء عن الخلق والافتقار الى الحق ، وأكثر المفسرين على أن هذه الحياة الطيبة هى فى الدنيا لا فى الآخرة ، لأن حياة الآخرة قد ذكرت بقوله (ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقد قدّمنا قريبا تفسير الجزاء بالأحسن ، ووحد الضمير فى لنحيينه وجمعه فى ولنجزينهم حملا على لفظ من ، وعلى معناه * ثم لما ذكر سبحانه العمل الصالح والجزاء عليه أتبعه بذكر الاستعاذة التى تخلص بها الأعمال الصالحة عن الوساوس الشيطانية ، فقال (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) والفاء لترتيب الاستعاذة على العمل الصالح ، وقيل هذه الآية متصلة بقوله ــ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ــ والتقدير فاذا أخذت فى قراءته فاستعذ . قال الزجاج وغيره من أئمة اللغة معناه اذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ ، وليس معناه استعذ بعد أن تقرأ القرآن ، ومثله اذا أكلت فقل بسم الله . قال الواحدى : وهذا اجماع الفقهاء أن الاستعاذة قبل القراءة الا ماروى عن أبى هريرة وابن سيرين وداود ومالك وحمزة من القراء ، فانهم قالوا : الاستعاذة بعد القراءة ذهبوا الى ظاهر الآية ، ومعنى فاستعذ بالله : اسأله سبحانه أن يعيذك من الشيطان الرجيم : أى من وساوسه ، وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند ارادتها للتنبيه على أنها لسائر الأعمال الصالحة عند ارادتها أهمّ ، لأنه اذا وقع الأمر بها عند قراءة القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كانت عند ارادة غيره أولى ، كذا قيل ، وتوجيه الخطاب الى رسول الله ﷺ

للاشعار بأن غيره أولى منه بفعل الاستعاذة ، لأنه اذا أمر بها لدفع وساوس الشيطان مع عصمته ، فكيف بسائر أمته ؟ وقد ذهب الجمهور الى أن الأمر فى الآية للندب . وروى عن عطاء الوجوب أخذا بظاهر الأمر . وقد تقدّم الكلام فى الاستعاذة ،مستوفى فى أوّل هذا التفسير ، والضمير فى (انه ليس له سلطان) للشأن أوللشيطان : أى ليس له تسلط (على) اغواء (الذين آمنوا و على ربهم يتوكلون) وحكى الواحدى عن جميع المفسرين أنهم فسروا السلطان بالحجة . وقالوا المعنى ليس له حجة على المؤمنين فى اغوائهم ودعائهم الى الضلالة ، ومعنى : وعلى ربهم يتوكلون يفوّضون أمورهم اليه فى كل قول وفعل ، فان الايمان بالله والتوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته لهم ، وان وسوس لأحد منهم لاتؤثر فيه وسوسته وهذه الجملة تعليل للأمر بالاستعاذة ، وهؤلاء الجامعون بين الايمان والتوكل هم الذين قال فيهم ابليس : ــ الا عبادك منهم المخلصين ــ وقال الله فيهم : ــ ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين ــ ثم حصر سبحانه سلطان الشيطان ، فقال (إنما سلطانه) أى تسلطه على الاغواء (على الذين يتولونه) أى يتخذونه وليا و يطيعونه فى وساوسه (والذين هم به مشركون) الضمير فى به يرجع الى الله تعالى : أى الذين هم بالله مشركون ، وقيل يرجع الى الشيطان * والمعنى : والذين هم من أجله و بسبب وسوسته مشركون بالله (واذا بدّلنا آية مكان آية) هذا شروع منه سبحانه فى حكاية شبه كفرية ودفعها ، ومعنى التبديل : رفع الشيء مع وضع غيره مكانه ، وتبديل الآية رفعها بأخرى غيرها ، وهو نسخها بآية سواها . وقد تقدّم الكلام فى النسخ فى البقرة (قالوا) أى كفار قريش الجاهلون للحكمة فى النسخ (انما أنت) يامحمد (مفتر) أى كاذب مختلق على الله ،متقوّل عليه بما لم يقل حيث تزعم أنه أمرك بشيء ، ثم تزعم أنه أمرك بخلافه ، فردّ الله سبحانه عليهم بما يفيد جهلهم ، فقال (بل أكثرهم لايعلمون) شيئا من العلم أصلا ، أو لايعلمون بالحكمة فى النسخ ، فانه ،مبنيّ على المصالح التى يعلمها الله سبحانه ، فقد يكون فى شرع هذا الشيء مصلحة ،مؤقتة بوقت ، ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت فى شرع غيره ، ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة لعرفوا أن ذلك وجه الصواب ومنهج العدل والرفق واللطف ، ثم بين سبحانه لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله ، وأن رسوله ﷺ افتراه ، فقال : (قل نزّله) أى القرآن المدلول عليه بذكر الآية (روح القدس) أى جبريل ، والقدس التطهير * والمعنى : نزّله الروح المطهر من أدناس البشرية ، فهو من اضافة الموصوف الى الصفة (من ربك) أى ابتداء تنزيله من عنده سبحانه ،و(بالحق) فى محل نصب على الحال : أى متلبسا بكونه حقا ثابتا لحكمة بالغة (ليثبت الذين آمنوا) على الايمان ، فيقولون : كلّ من الناسخ والمنسوخ من عند ربنا ، ولأنهم أيضا اذا عرفوا مافى النسخ من المصالح ثبتت أقدامهم على الايمان ورسخت عقائدهم . وقرئ ليثبت من الاثبات (وهدى وبشرى للمسلمين) وهما معطوفان على محل لتثبيت : أى تثبيتا لهم وهداية و بشارة ، وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم * ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبههم ، فقال (ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر) اللام هى الموطئة : أى ولقد نعلم أن هؤلاء الكفار يقولون انما يعلم محمدا القرآن بشر من بنى آدم غير ملك * وقد اختلف أهل العلم فى تعيين هذا البشر الذى زعموا عليه مازعموا ، فقيل هوغلام الفاكه بن المغيرة ، واسمه جبر ،وكان نصرانيا فأسلم ، وكان كفار قريش اذا سمعوا من النبى ﷺ أخبار القرون الأولى مع كونه أمّيا . قالوا انما يعلمه جبر ، وقيل اسمه يعيش ، عبد لبنى الحضرمىّ ، وكان يقرأ الكتب الأعجمية ، وقيل غلام لبنى عامر بن لؤىّ ، وقيل هما غلامان : اسم أحدهما يسار ، واسم الآخر جبر ، وكانا صيقليين يعملان السيوف وكانا

يقرآن كتابا لهم ، وقيل كانا يقرآن التوراة والانجيل ، وقيل عنوا سلمان الفارسى ، وقيل عنوا نصرانيا بمكة اسمه بلعام ، وكان يقرأ التوراة ، وقيل عنوا رجلا نصرانيا كان اسمه أبا ميسرة يتكلم بالرومية ، وفى رواية اسمه عداس . قال النحاس : وهذه الأقوال غير متناقضة ، لأنه يجوز أنهم زعموا أنهم جميعا يعلمونه ، ولكن لا يمكن الجمع باعتبار قول من قال انه سلمان ، لأن هذه الآية مكية ، وهو انما أتى الى النبى ﷺ بالمدينة * ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال (لسان الذى يلحدون اليه أعجمى) الالحاد : الميل ، يقال لحد وألحد : أى مال عن القصد . وقد تقدم فى الأعراف . وقرأ حمزة والكسائى يلحدون بفتح الياء والحاء . وقرأ من عداهما بضم الياء وكسر الحاء : أى لسان الذين يميلون اليه ويزعمون أنه يعلمك أعجمىّ ، يقال : رجل أعجم وامرأة عجماء : أى لا يفصحان ، والعجمة الاخفاء ، وهى ضد البيان ، والعرب تسمى كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بها أعجميا . قال الفراء : الأعجم الذى فى لسانه عجمة ، وان كان من العرب ، والأعجمىّ : هو العجمى الذى أصله من العجم . وقال أبو على الفارسى : العجمى المنسوب الى العجم الذى لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم ، وكذلك الأعجم ، والأعجمى المنسوب الى العجم ، وان كان فصيحا (وهذا لسان عربىّ مبين) الاشارة الى القرآن ، وسماه لسانا ، لأن العرب تقول للقصيدة والبيت لسانا ، ومنه قول الشاعر :

لسان الشر تهديها الينا * وخنت وماحسبتك أن تخونا

أو أراد باللسان البلاغة فكأنه قال : وهذا القرآن ذو بلاغة عربية وبيان واضح ، فكيف تزعمون أن بشرا يعلمه من العجم . وقد عجزتم أنتم عن معارضة سورة منه ، وأنتم أهل اللسان العربى ورجال الفصاحة وقادة البلاغة ، وهاتان الجملتان مستأنفتان سيقتا لابطال طعنهم ودفع كذبهم * ولما ذكر سبحانه جوابهم وبخهم وهددهم ، فقال (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله) أى لا يصدقون بها (لا يهديهم الله) الى الحق الذى هو سبيل النجاة هداية موصلة الى المطلوب لما علم من شقاوتهم (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) بسبب ماهم عليه من الكفر والتكذيب بآيات الله * ثم لما وقع منهم نسبة الافتراء الى رسول الله ﷺ ردّ عليهم بقوله (انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) فكيف يقع الافتراء من رسول الله ﷺ ، وهو رأس المؤمنين بها ، والداعين الى الايمان بها ، وهؤلاء الكفار هم الذين لا يؤمنون بها ، فهم المفترون للكذب . قال الزجاج : المعنى انما يفترى الكذب الذين اذا رأوا الآيات التى لا يقدر عليها الا الله كذبوا بها هؤلاء أكذب الكذبة ، ثم سماهم الكاذبين ، فقال (وأولئك) أى المتصفون بذلك (هم الكاذبون) أى ان الكذب نعت لازم لهم وعادة من عاداتهم فهم الكاملون فى الكذب اذ لا كذب أعظم من تكذيبهم بآيات الله .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه سئل عن الحياة الطيبة المذكورة فى الآية ، فقال الحياة الطيبة الرزق الحلال فى هذه الحياة الدنيا ، واذا صار الى ربه جازاه بأحسن ما كان يعمل . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : الكسب الطيب والعمل الصالح . وأخرج العسكرى فى الأمثال عن علىّ فى الآية قال : القناعة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس قال : القنوع قال : وكان رسول الله ﷺ يدعو « اللهم قنعنى بما رزقتنى وبارك لى فيه ، واخلف علىّ كل غائبة لى بخير » . وأخرج أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجه عن ابن عمرو أن رسول الله ﷺ قال « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه » . وأخرج الترمذى والنسائى من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله

ﷺ يقول «قدأفلح من هدى الى الاسلام ، وكان عيشه كفافا وقنع به» . وأخرج عبدالرزاق فى المصنف وابن المنذر عن عطاء قال : الاستعاذة واجبة لكل قراءة فى الصلاة وغيرها من أجل قوله (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) وقد ورد فى مشروعية الاستعاذة عند التلاوة مالعلنا قد قدمنا ذكره . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (انما سلطانه على الذين يتولونه) يقول سلطان الشيطان على من تولى الشيطان وعمل بمعصية الله . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله (واذا بدلنا آية مكان آية) وقوله (ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا) قال عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان يكتب لرسول الله ﷺ فأزله الشيطان فلحق بالكفار ، فأمر به رسول الله أن يقتل يوم الفتح ، فاستجار له عثمان رسول الله ﷺ فأجاره . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وإذا بدلنا آية مكان آية) قال هو كقوله — ماننسخ من آية أو ننسها — . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه . قال : السيوطى بسند ضعيف عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعلم بمكة قينا اسمه بلعام ، وكان أعجميا ، فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا انما يعلمه بلعام فأنزل الله (ولقد نعلم أنهم يقولون) الآية . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الايمان عنه فى الآية . قال : قلوا انما يعلم محمدا عبد ابن الحضرمى وهو صاحب الكتب ، فأنزل الله هذه الآية . وأخرج آدم بن أبى إياس وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن عبد الله بن مسلم الحضرمى قال : كان لنا عبدان من أهل عين التمر ، يقال لأحدهما يسار والآخر جبر ، وكانا يصنعان السيوف بمكة ، وكانا يقرآن الانجيل ، فربما مر بهما النبى ﷺ وهما يقرآن فيقف ويستمع ، فقال المشركون إنما يتعلم منهما ، فنزلت هذه الآية .

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَٰنِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَٰنِ وَلَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَٰسِرُونَ * ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ *

قوله (من كفر بالله من بعد ايمانه) قد اختلف أهل العلم فى اعرابه فذهب الأكثرون على أنه بدل ، اما — من الذين لايؤمنون بآيات الله — وما بينهما اعتراض * والمعنى إنما يفترى الكذب من كفر ، واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء ثم قال (ولكن من شرح بالكفر صدرا) أى اعتقده وطابت به نفسه واطمأن اليه (فعليهم غضب) واما من المبتدأ الذى هو — أولئك — أومن الخبر الذى هو — الكاذبون — وذهب الزجاج إلى الأول ، وقال الأخفش : ان من مبتدأ وخبره محذوف اكتفى منه بخبر من الثانية كقولك : من يأتنا منكن نكرمه ، وقيل هو : أى من فى من كفر منصوب على الذم ، وقيل ان من شرطيه والجواب محذوف لأن جواب من شرح دال عليه ، وهو كقول الأخفش وانما خالفه فى

اطلاق لفظ الشرط على من والجواب على خبرها فكأنه قيل على هذا من كفر بالله فعليهم غضب إلا من أكره ، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب ، وانما صح استثناء المكره من الكافر مع أنه ليس بكافر لأنه ظهر منه بعد الايمان مالا يظهر إلا من الكافر لولا الاكراه . قال القرطبي : أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل أنه لا اثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالايمان ولا تبين منه زوجته ، ولا يحكم عليه بحكم الكفر ، وحكى عن محمد بن الحسن أنه إذا أظهر الكفر كان مرتدا فى الظاهر ، وفيما بينه و بين الله على الاسلام ، وتبين منه امرأته ولا يصلى عليه إن مات ولا يرث أباه إن مات مسلما ، وهذا القول مردود على قائله مدفوع بالكتاب والسنة ، وذهب الحسن البصرى والأوزاعى والشافعى وسحنون إلى أن هذه الرخصة المذكورة فى هذه الآية إنما جاءت فى القول ، وأما فى الفعل فلا رخصة : مثل أن يكره على السجود لغير الله و يدفعه ظاهر الآية ، فانها عامة فيمن أكره من غير فرق بين القول والفعل ، ولا دليل لهؤلاء القاصرين للآية على القول وخصوص السبب لا اعتبار به مع عموم اللفظ كما تقرر فى علم الأصول ، وجملة (وقلبه مطمئن بالايمان) فى محل نصب على الحال من المستثنى : أى الا من كفر باكراه ، والحال أن قلبه مطمئن بالايمان لم تتغير عقيدته ، وليس بعد هذا الوعيد العظيم وهو الجمع للمرتدين بين غضب الله وعظيم عذابه ، والاشارة بقوله (ذلك) الى الكفر بعد الايمان ، أو الى الوعيد بالغضب والعذاب ، والباء فى (بأنهم استحبوا الحياة الدنيا) للسببية : أى ذلك بسبب تأثيرهم للحياة الدنيا (على الآخرة وأن الله لايهدى القوم الكافرين) معطوف على ــ أنهم استحبوا ــ أى ذلك بأنهم استحبوا وبأن الله لايهدى القوم الكافرين الى الايمان به ، ثم وصفهم بقوله (أولئك) أى الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة (الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) فلم يفهموا المواعظ ولا سمعوها ولا أبصروا الآيات التى يستدل بها على الحق ، وقد سبق تحقيق الطبع فى أول البقرة ، ثم أثبت لهم صفة نقص غير الصفة المتقدمة فقال (وأولئك هم الغافلون) عما يراد بهم ، وضمير الفصل يفيد أنهم متناهون فى الغفلة ، إذ لاغفلة أعظم من غفلتهم هذه (لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) أى الكاملون فى الخسران البالغون إلى غاية منه ليس فوقها غاية ، وقد تقدم تحقيق الكلام فى معنى ــ لاجرم ــ فى مواضع منها ماهو فى هذه السورة (ثم ان ربك للذين هاجروا) من دار الكفر الى دار الاسلام ، وخبر إن محذوف ، والتقدير لغفور رحيم ، وانما حذف لدلالة خبر إن ربك المتأخرة عليه ، وقيل الخبر هو للذين هاجروا : أى إن ربك لهم بالولاية والنصرة لاعليهم ، وفيه بعد ، وقيل ان خبرها هو قوله لغفور رحيم ، وان ربك الثانية تأكيد للأولى . قال فى الكشاف : ثم هاهنا للدلالة على تباعد حال هؤلاء ، يعنى الذين نزلت الآية فيهم عن حال أولئك ، وهم عمار وأصحابه ، و يدل على ذلك ماروى أنها نزلت فى عبد الله بن أبى سرح ، وسيأتى بيان ذلك (من بعد مافتنوا) أى فتنهم الكفار بتعذيبهم لهم ليرجعوا فى الكفر ، وقرىء فتنوا على البناء للفاعل : أى للذين فتنوا المؤمنين وعذبوهم على الاسلام (ثم جاهدوا) فى سبيل الله وصبروا على ما أصابهم من الكفار ، وعلى مايلقونه من مشاق التكليف (لغفور رحيم) أى كثير الغفران والرحمة لهم ، ومعنى الآية على قراءة من قرأ فتنوا على البناء للفاعل واضح ظاهر : أى إن ربك لهؤلاء الكفار الذين فتنوا من أسلم وعذبوهم ثم جاهدوا وصبروا لغفور رحيم ، وأما على قراءة البناء للمفعول وهى قراءة الجمهور ، فالمعنى أن هؤلاء المفتونين الذين تكلموا بكلمة الكفر مكرهين وصدورهم غير منشرحة للكفر إذا صلحت أعمالهم وجاهدوا فى الله وصبروا على المكاره لغفور لهم رحيم بهم ، وأما اذا كان سبب الآية هذه هو عبد الله بن أبى سرح الذى ارتد عن الاسلام ثم رجع بعد ذلك الى الاسلام ، فالمعنى أن

هذا

هذا المفتون فى دينه بالرّدة اذا أسلم وجاهدوصبر فالله غفور له رحيم به ، والضمير فى بعدها يرجع الى الفتنة أو إلى المهاجرة والجهاد والصبر ، أوالى الجيع (يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها) قال الزجاج يوم تأتى منتصب بقوله رحيم ، أو باضماراذكر ، أوذكرهم ، أوأنذرهم ، وقداستشكل اضافة ضميرالنفس الى النفس ولابد من التغاير بين المضاف والمضاف اليه ؛ وأجيب بأن المرادبالنفس الأولى جملة بدن الانسان ، وبالنفس الثانية الذات فكأن قيل يوم يأتى كل انسان يجادل عن ذاته لايهمه غيرها ، ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها فهو مجادل ومخاصم عن نفسه لايتفرغ لغيرها يوم القيامة .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال لما أراد رسول الله ﷺ أن يهاجر الى المدينة قال لأصحابه تفرقوا عنى فمن كانت به قوة فليتأخر الى آخر الليل ومن لم تكن به قوة فليذهب فى أول الليل فاذا سمعتم بى قد استقرّت بى الأرض فألحقوا بى ، فأصبح بلال المؤذن وخباب وعمار وجارية من قريش كانت أسلمت ، فأخذهم المشركون وأبوجهل ، فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى ، فجعلوا يضعون درعا من حديد فى الشمس ثم يلبسونها إياه ، فاذا ألبسوها إياه قال : أحد أحد ، وأما خباب فجعلوا يجرّونه فى الشوك ، وأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية ، وأما الجارية فوتد لها أبو جهل أربعة أوتاد ثم مدّها فأدخل الحربة فى قبلها حتى قتلها ، ثم خلوا عن بلال وخباب وعمار فلحقوا برسول الله ﷺ فأخبروه بالذى كان من أمرهم ، واشتدّ على عمار الذى كان تكلم به ، فقال له رسول الله ﷺ كيف كان قلبك حين قلت الذى قلت ، أكان منشرحا بالذى قلت أم لا ؟ قال لا ، فأنزل الله (الا من أكره وقلبه مطمئنّ بالايمان) وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر من طريق أبى عبيدة بن محمد بن عمار عن أبيه قال أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سبّ النبى ﷺ وذكر آلهتهم بخير فتركوه ، فلما أتى النبى ﷺ قال ماوراءك ؟ قال شرما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير ، قال كيف تجد قلبك ؟ قال مطمئنا بالايمان قال ان عادوا فعد ، فنزلت (إلا من أكره وقلبه مطمئنّ بالايمان) قال ذاك عمار بن ياسر (ولكن من شرح بالكفر صدرا) عبد الله بن أبى سرح . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن عساكر عن أبى مالك فى قوله (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) قال نزلت فى عمار بن ياسر ، وفى الباب روايات مصرّحة بأنها نزلت فى عمار بن ياسر . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن سيرين قال نزلت هذه الآية إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان فى عياش بن أبى ربيعة . وأخرج ابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال فى سورة النحل فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ثم نسخ واستثنى من ذلك فقال (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا) الآية قال وهوعبدالله بن أبى سرح الذى كان يكتب لرسول الله ﷺ فأزله الشيطان فلحق بالكفار فأمر به النبى ﷺ أن يقتل يوم فتح مكة ، فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره النبى ﷺ . وأخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن مثله . وأخرج ابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية (ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا) فيمن كان يفتن من أصحاب النبى ﷺ . وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان قوم من أهل مكة قد أسلموا وكانوا يستخفون بالاسلام فنزلت فيهم (ثم إن ربك للذين هاجروا) الآية فكتبوا اليهم بذلك إنّ الله قد جعل لكم مخرجا فاخرجوا ، فأدركهم المشركون فقاتلوهم فنجا من نجا ، وقتل من قتل . وأخرج ابن أبى شيبة عن الحسن أن عيونا لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما فقال لأحدهما أتشهد أن محمدا رسول الله قال : نعم ، قال أتشهد أنى رسول الله ، فأهوى إلى أذنيه فقال انى أصمّ ، فأمر

به فقتل ، وقال للآخر أتشهد أن محمدا رسول الله قال : نعم ، قال أتشهد أنى رسول الله قال : نعم ، فأرسله فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : له أما صاحبك فمضى على إيمانه ، وأما أنت فأخذت بالرخصة ، وهو مرسل .

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ *

قوله (وضرب الله مثلا قرية) قد قدمنا أن ضرب مضمن معنى جعل حتى تكون قرية المفعول الأوّل ومثلا المفعول الثانى ، وإنما تأخرت قرية لئلا يقع الفصل بينها وبين صفاتها . وقدمنا أيضا أنه يجوز أن يكون ضرب على بابه غير مضمن ويكون مثلا مفعوله الأوّل وقرية بدلا منه . وقد اختلف المفسرون هل المراد بهذه القرية قرية معينة ، أو المراد قرية غير معينة ، بل كل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة ؟ فذهب الأكثر إلى الأوّل وصرحوا بأنها مكة ، وذلك لما دعا عليهم رسول الله ﷺ وقال : اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ، فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام ، والثانى أرجح لأن تنكير قرية يفيد ذلك ، ومكة تدخل فى هذا العموم البدلىّ دخولا أوّليا ، وأيضا يكون الوعيد أبلغ ، والمثل أكمل ، وغير مكة مثلها ، وعلى فرض إرادتها فى المثل انذار لغيرها من مثل عاقبتها ، ثم وصف القرية بأنها (كانت آمنة) غير خائفة (مطمئنة) غير منزعجة : أى لا يخاف أهلها ولا ينزعجون (يأتيها رزقها) أى ما يرتزق به أهلها (رغدا) واسعا (من كل مكان) من الأمكنة التى يجلب ما فيها إليها (فكفرت) أى كفر أهلها (بأنعم الله) التى أنعم بها عليهم ، والأنعم جمع نعمة كالأشدّ جمع شدّة ، وقيل جمع نعمى مثل بؤسى وأبؤس ، وهذا الكفر منهم هو كفرهم بالله سبحانه وتكذيب رسله (فأذاقها الله) أى أذاق أهلها (لباس الجوع والخوف) سمى ذلك لباسا لأنه يظهر به عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس ، فاستعير له اسمه وأوقع عليه الاذاقة ، وأصلها الذوق بالفم ، ثم استعيرت لمطلق الاتصال مع إنبائها بشدّة الاصابة لما فيها من اجتماع الادراكين : ادراك اللمس والذوق * روى أن ابن الراوندى الزنديق قال لابن الاعرابى إمام اللغة والأدب هل يذاق اللباس ؟ فقال له ابن الاعرابى لا بأس أيها النسناس هب أن محمدا ما كان نبيا أما كان عربيا ؟ كأنه طعن فى الآية بأن المناسب أن يقال : فكساها الله لباس الجوع أو فأذاقها الله طعم الجوع ، فردّ عليه ابن الاعرابى ، وقد أجاب علماء البيان أن هذا من تجريد الاستعارة وذلك

أنه

أنه استعار اللباس لما غشى الانسان من بعض الحوادث كالجوع والخوف لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللابس ، ثم ذكر الوصف ملائما للمستعار له وهو الجوع والخوف ، لأن اطلاق الذوق على ادراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة ، فيقولون ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه غيره ، فكانت الاستعارة مجرّدة ، ولو قال فكساها كانت مرشحة ، قيل وترشيح الاستعارة وان كان مستحسنا من جهة المبالغة الا أنّ للتجريد ترجيحا من حيث إنه روعى جانب المستعار له فازداد الكلام وضوحا ، وقيل إن أصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف والاختبار ، ومن ذلك قول الشاعر :

ومن يذق الدنيا فانى طعمتها ٭ وسيق إلينا عذبها وعذابها

وقرأ حفص ابن غياث ونصر بن عاصم وابن أبى اسحاق وأبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث بنصب الخوف عطفا على لباس ، وقرأ الباقون بالضم عطفا على الجوع ، قال الفراء كل الصفات أجريت على القرية إلا قوله (يصنعون) تنبيها على أن المراد فى الحقيقة أهلها (ولقد جاءهم) يعنى أهل مكة (رسول منهم) من جنسهم يعرفونه ويعرفون نسبه ، فأمرهم بما فيه نفعهم ونهاهم عما فيه ضرهم (فكذبوه) فيما جاء به (فأخذهم العذاب) النازل بهم من الله سبحانه ، والحال أنهم فى حال أخذ العذاب لهم (ظالمون) لأنفسهم بإيقاعها فى العذاب الأبدى ولغيرهم بالاضرار بهم وصدّهم عن سبيل الله ، وهذا الكلام من تمام المثل المضروب ، وقيل ان المراد بالعذاب هنا هو الجوع الذى أصابهم ، وقيل القتل يوم بدر : ثم لما وعظهم الله سبحانه بما ذكره من حال أهل القرية المذكورة ، أمرهم أن يأكلوا مما رزقهم الله من الغنائم ونحوها ، وجاء بالفاء للاشعار بأن ذلك متسبب عن ترك الكفر ٭ والمعنى أنكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب وهو الغنيمة واتركوا الخبائث وهو الميتة والدم (واشكروا نعمة الله) التى أنعم بها عليكم واعرفوا حقها (إن كنتم إياه تعبدون) ولا تعبدون غيره ، أو إن صحّ زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة التى زعمتم عبادة الله تعالى ، وقيل ان الفاء فى فكلوا داخلة على الأمر بالشكر وانما أدخلت على الأمر بالأكل لأن الأكل ذريعة الى الشكر (انما حرّم عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) كرّر سبحانه ذكر هذه المحرمات فى البقرة والمائدة والأنعام وفى هذه السورة قطعا للأعذار وازالة للشبهة ، ثم ذكر الرخصة فى تناول شىء مما ذكر فقال (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فانّ الله غفور رحيم) وقد تقدّم الكلام على جميع ما هو مذكور هنا مستوفى ، ثم زيف طريقة الكفار فى الزيادة على هذه المحرمات كالبحيرة والسائبة وفى النقصان عنها كتحليل الميتة والدّم ، فقال (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب) قال الكسائى والزجاج ما هنا مصدرية وانتصاب الكذب بلا تقولوا : أى لا تقولوا الكذب لأجل وصف ألسنتكم ، ومعناه لا تحرموا ولا تحلوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة ، ويجوز أن تكون ما موصولة والكذب منتصب بتصف : أى لا تقولوا للذى تصف ألسنتكم الكذب فيه (هذا حلال وهذا حرام) فحذف لفظة فيه لكونه معلوما ، فيكون قوله هذا حلال وهذا حرام بدلا من الكذب ، ويجوز أن يكون فى الكلام حذف بتقدير القول : أى ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم فتقول هذا حلال وهذا حرام أو قائلة هذا حلال وهذا حرام ، ويجوز أن ينتصب الكذب أيضا بتصف وتكون ما مصدرية : أى لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب ، وقرئ الكذب بضم الكاف والذال والباء على انه نعت للألسنة ، وقرأ الحسن بفتح الكاف وكسر الذال والباء نعتا لما ، وقيل على البدل من ما : أى ولا تقولوا الكذب الذى تصفه ألسنتكم هذا حلال وهذا حرام ، واللام فى (لتفتروا على الله الكذب) هى لام العاقبة لا لام الغرض : أى فيتعقب ذلك افتراؤكم على الله الكذب

بالتحليل والتحريم واسناد ذلك اليه من غير أن يكون منه (إن الذين يفترون على الله الكذب) أى افتراء كان (لايفلحون) بنوع من أنواع الفلاح، وهو الفوز بالمطلوب والارتفاع (متاع قليل) على انه خبر مبتدأ محذوف، قال الزجاج: أى متاعهم متاع قليل، أو هو مبتدأ خبره محذوف: أى لهم متاع قليل (ولهم عذاب أليم) يردّون اليه فى الآخرة، ثم خص محرمات اليهود بالذكر، فقال (وعلى الذين هادوا حرّمنا) أى حرّمنا عليهم خاصة دون غيرهم (ماقصصنا عليك) بقولنا ــ حرّمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما ــ الآية، و(من قبل) متعلق بقصصنا أو بحرمنا (وماظلمناهم) بذلك التحريم بل جزيناهم ببغيهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) حيث فعلوا أسباب ذلك فحرّمنا عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم، ثم بين سبحانه ان الافتراء على الله سبحانه ومخالفة أمره لايمنعهم من التوبة وحصول المغفرة فقال (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة) أى متلبسين بجهالة، وقد تقدّم تفسير هذه الآية فى سورة النساء (ثم تابوا من بعد ذلك) أى من بعد عملهم للسوء، وفيه تأكيد، فان ثم قد دلت على البعدية فأكدها بزيادة ذكر البعدية (وأصلحوا) أعمالهم التى كان فيها فساد بالسوء الذى عملوه ثم كرّر ذلك تأكيدا وتقريرا فقال (ان ربك من بعدها) أى من بعد التوبة (لغفور رحيم) كثير الغفران واسع الرحمة.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (وضرب الله مثلا قرية) قال: يعنى مكة. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطية فى الآية مثله وزاد فقال: ألا ترى أنه قال (ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه). وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر نحوه. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب قال: القرية التى قال الله (كانت آمنة مطمئنة) هى يثرب قلت ولاأدرى: أىّ دليل دله على هذا التعيين، ولا أى قرينة قامت له على ذلك، ومتى كفرت دار الهجرة ومسكن الأنصار بأنعم الله، وأىّ وقت أذاقها الله لباس الجوع والخوف، وهى التى تنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد كما صحّ ذلك عن الصادق المصدوق، وصحّ عنه أيضا أنه قال: والمدينة خير لهم لوكانوا يعلمون. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب) الآية قال: فى البحيرة والسائبة. وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى نضرة قال: قرأت هذه الآية فى سورة النحل ولاتقولوا لماتصف ألسنتكم الكذب (هذا حلال وهذا حرام) الى آخر الآية فلم أزل أخاف الفتيا الى يومى هذا، قلت صدق رحمه الله، فان هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى بخلاف مافى كتاب الله أو فى سنة رسوله ﷺ كما يقع كثيرا من المؤثرين للرأى المقدّمين له على الرواية، أو الجاهلين لعلم الكتاب والسنة كالمقلدة، وانهم لحقيقون بأن يحال بينهم وبين فتاويهم ويمنعوا من جهالاتهم، فانهم أفتوا بغير علم من الله ولا هدى ولاكتاب منير فضلوا وأضلوا فهم ومن يستفتيهم كما قال القائل:

كبهيمة عمياء قاد زمامها * أعمى على عوج الطريق الجائر

وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال: عسى رجل يقول ان الله أمر بكذا أو نهى عن كذا، فيقول الله عزّ وجلّ له كذبت، أو يقول ان الله حرّم كذا أو أحلّ كذا، فيقول الله له كذبت. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (وعلى الذين هادوا حرّمنا ما قصصنا عليك) قال: فى سورة الأنعام. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة مثله، وقال حيث يقول ــ وعلى الذين هادوا ــ الى قوله ــ وانا لصادقون ــ.

إن

XVI

إِنَّ إِبْرٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبٰهُ وَهَدٰهُ
إِلَىٰ صِرٰطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنٰهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّٰلِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ
اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ
رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجٰدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ
لِلصّٰبِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ *
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ *

لما فرغ سبحانه من دفع شبه المشركين وابطال مطاعنهم ، وكان ابراهيم عليه السلام من الموحدين وهو قدوة كثير من النبيين ذكره الله فى آخر هذه السورة فقال (ان ابراهيم كان أمّة) قال ابن الاعرابى يقال للرجل العالم أمّة ، والأمّة الرجل الجامع للخير . قال الواحدى : قال أكثر أهل التفسير : أى معلما للخير ، وعلى هذا فعنى كون ابراهيم كان أمّة أنه كان معلما للخير أو جامعا لخصال الخير أو عالما بما علمه الله من الشرائع ، وقيل أمّة بمعنى مأموم : أى يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير كما قال سبحانه ـ انى جاعلك للناس اماما ـ والقانت المطيع ، وقد تقدّم بيان معانى القنوت فى البقرة : والحنيف المائل عن لأديان الباطلة الى دين الحق ، وقد تقدّم بيانه فى الأنعام (ولم يك من المشركين) بالله كما ترعمه كفار قريش أنه كان على دينهم الباطل (شاكرا لأنعمه) التى أنعم الله بها عليه وان كانت قليلة كما يدلّ عليه جمع القلة فهو شاكر لما كثر منها بالأولى (اجتباه) أى اختاره للنبوة واختصه بها (وهداه الى صراط مستقيم) وهو ملة الاسلام ودين الحق (وآتيناه فى الدنيا حسنة) أى خصلة حسنة أو حالة حسنة ، قيل هى الولد الصالح ، وقيل الثناء الحسن ، وقيل النبوّة ، وقيل الصلاة منا عليه فى التشهد ، وقيل هى أنه يتولاه جميع أهل الأديان ، ولامانع أن يكون ما آتاه الله شاملا لذلك كله ولماعداه من خصال الخير (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) حسبما وقع منهم السؤال لربه حيث قال ـ وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم ـ (ثم أوحينا اليك) يامحمد مع علوّ درجتك وسموّ منزلتك وكونك سيد ولد آدم (أن اتبع ملة ابرهيم) وأصل الملة اسم لما شرعه الله لعباده على لسان نبيّ من أنبيائه ، قيل والمراد هنا اتباع النبي ﷺ لملة ابراهيم فى التوحيد والدعوة إليه ، وقال ابن جرير فى التبرى من الأوثان والتدين بدين الاسلام ، وقيل فى مناسك الحج ، وقيل فى الأصول دون الفروع ، وقيل فى جميع شريعته الامانسخ منها ، وهذا هو الظاهر ، وقدأمر النبي ﷺ بالاقتداء بالأنبياء مع كونه سيدهم فقال تعالى ـ فبهداهم اقتده ـ ، وانتصاب (حنيفا) على الحال من ابراهيم ، وجاز مجىء الحال منه ، لأن الملة كالجزء منه ، وقد تقرر فى علم النحو أن الحال من المضاف اليه جائز اذا كان يقتضى المضاف العمل فى المضاف اليه أو كان جزءا منه أو كالجزء (وما كان من المشركين) وهو تكرير لماسبق للنكتة التى ذكرناها (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) أى انما جعل وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه ، أو انما جعل فرض تعظيم السبت وترك الصيد فيه على الذين اختلفوا فيه لا على

غيرهم من الأمم .

وقد اختلف العلماء فى كيفية الاختلاف الكائن بينهم فى السبت ، فقالت طائفة ان موسى أمرهم بيوم الجمعة وعينه لهم وأخبرهم بفضيلته على غيره فخالفوه وقالوا ان السبت أفضل ، فقال الله له دعهم وما اختاروا لأنفسهم ، وقيل ان الله سبحانه أمرهم بتعظيم يوم فى الأسبوع ، فاختلف اجتهادهم فيه فعينت اليهود السبت ، لأن الله سبحانه فرغ فيه من الخلق ، وعينت النصارى يوم الأحد لأن الله بدأ فيه الخلق فألزم الله كلا منهم ما أدّى اليه اجتهاده ، وعين لهذه الأمة الجمعة من غير أن يكلهم الى اجتهادهم فضلا منه ونعمة ، ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن اليهود كانوا يزعمون أن السبت من شرائع ابراهيم ، فأخبر الله سبحانه أنه انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ولم يجعله على ابراهيم ولا على غيره (وان ربك ليحكم بينهم) أى بين المختلفين فيه (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) فيجازى كلا فيه بما يستحقه ثوابا وعقابا ، كما وقع منه سبحانه من المسخ لطائفة منهم والتنجية لأخرى ، ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يدعو أمته الى الاسلام ، فقال (أدع الى سبيل ربك) وحذف المفعول للتعميم لكونه بعث الى الناس كافة ، وسبيل الله هو الاسلام (بالحكمة) أى بالمقالة المحكمة الصحيحة ، قيل وهى الحجج القطعية المفيدة لليقين (والموعظة الحسنة) وهى المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التى يستحسنها السامع وتكون فى نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها ، قيل وهى الحجج الظنية الاقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة ، قيل وليس للدعوة إلا هاتان الطريقتان ، ولكن الداعى قد يحتاج مع الخصم الألد إلى استعمال المعارضة والمناقضة ونحو ذلك من الجدل ، ولهذا قال سبحانه (وجادلهم بالتى هى أحسن) أى بالطريق التى هى أحسن طرق المجادلة ، وانما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعى محقا وغرضه صحيحا ، وكان خصمه مبطلا وغرضه فاسدا (ان ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله) لما حث سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة بين أن الرشد والهداية ليس الى النبى ﷺ وانما ذلك اليه تعالى فقال (ان ربك هو أعلم) أى هو العالم بمن يضلّ ومن يهتدى (وهو أعلم بالمهتدين) أى بمن يبصر الحقّ فيقصده غير متعنت ، وانما شرع لك الدعوة وأمرك بها قطعا للمعذرة وتتميما للحجة وازاحة للشبهة ، وليس عليك غير ذلك ، ثم لما كانت الدعوة تتضمن تكليف المدعوّين بالرجوع الى الحق فان أبوا قوتلوا ، أمر الداعى بأن يعدل فى العقوبة ، فقال (وان عاقبتم) أى أردتم المعاقبة (فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به) أى بمثل مافعل بكم لاتجاوزوا ذلك . قال ابن جرير : أنزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة أن لاينال من ظالمه اذا تمكن الا مثل ظلامته لايتعدّاها الى غيرها ، وهذا صواب ، لأن الآية وان قيل ان لها سببا خاصا كما سيأتى ، فالاعتبار بعموم اللفظ ، وعمومه يؤدّى هذا المعنى الذى ذكره ، وسمى سبحانه الفعل الأوّل الذى هو فعل البادئ بالشرّ عقوبة ، مع أن العقوبة ليست إلا فعل الثانى وهو المجازى للمشاكلة ، وهى باب معروف وقع فى كثير من الكتاب العزيز ، ثم حث سبحانه على العفو فقال (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) أى لئن صبرتم عن المعاقبة بالمثل فالصبر خير لكم من الانتصاف ، ووضع الصابرين موضع الضمير ، ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد : وقد ذهب الجمهور الى أن هذه الآية محكمة لأنها واردة فى الصبر عن المعاقبة والثناء على الصابرين على العموم ، وقيل هى منسوخة بآيات القتال ، ولاوجه لذلك ، ثم أمر الله سبحانه رسوله بالصبر فقال (واصبر) على ماأصابك من صنوف الأذى (وماصبرك إلا بالله) أى بتوفيقه وتثبيته ، والاستثناء مفرغ من أعمّ الأشياء : أى وماصبرك مصحوبا بشىء من الأشياء إلا بتوفيقه لك ، وفيه تسلية للنبى ﷺ ، ثم نهاه عن الحزن فقال (ولا تحزن عليهم) أى على الكافرين فى اعراضهم

عنك ، أو لاتحزن على قتلى أحد ، فانهم قد أفضوا الى رحمة الله (ولا تك فى ضيق مما يمكرون) قرأ الجمهور بفتح الضاد . وقرأ ابن كثير بكسرها . قال ابن السكيت : هما سواء يعنى المفتوح والمكسور . وقال الفراء : الضيق بالفتح ماضاق عنه صدرك ، والضيق بالكسر ما يكون فى الذى يتسع مثل الدار والثوب ، وكذا قال الأخفش ، وهو من الكلام المقلوب ، لأن الضيق وصف للانسان يكون فيه ولا يكون الانسان فيه ، وكأنه أراد وصف الضيق بالعظم حتى صار كالشىء المحيط بالانسان من جميع جوانبه ، ومعنى مما يمكرون من مكرهم لك فيما يستقبل من الزمان ، ثم ختم هذه السورة بآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات ، فقال (ان الله مع الذين اتقوا) أى اتقوا المعاصى على اختلاف أنواعها (والذين هم محسنون) بتأدية الطاعات والقيام بما أمروا بها منها ، وقيل المعنى ان الله مع الذين اتقوا الزيادة فى العقوبة ، والذين هم محسنون فى أصل الانتقام ، فيكون الأول اشارة الى قوله فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، والثانى اشارة الى قوله ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، وقيل الذين اتقوا ، اشارة الى التعظيم لأمر الله ، والذين هم محسنون ، اشارة الى الشفقة على عباد الله تعالى .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود أنه سئل عن الأمة ماهى ؟ فقال الذى يعلم الناس الخير ، قالوا فما القانت ؟ قال الذى يطيع الله ورسوله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ان ابراهيم كان أمة قانتا لله) قال : كان على الاسلام ولم يكن فى زمانه من قومه أحد على الاسلام غيره فلذلك . قال الله (كان أمة قانتا لله) . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله كان أمة قال : اماما فى الخير قانتا قال : مطيعا . وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ «ما من عبد تشهد له أمة الا قبل الله شهادتهم» والأمة الرجل فما فوقه ان الله يقول ان ابراهيم كان أمة والأمة الرجل فما فوقه . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى عن ابن عمرو قال : صلى جبريل بابراهيم الظهر والعصر بعرفات ، ثم وقف حتى اذا غابت الشمس دفع به ، ثم صلى المغرب والعشاء بجمع ، ثم صلى الفجر به كأسرع مايصلى أحدكم من المسلمين ، ثم وقف به حتى اذا كان كابطا مايصلى أحد من المسلمين دفع به ، ثم رمى الجمرة ثم ذبح ثم حلق ثم أفاض به الى البيت فطاف به ، فقال الله لنبيه (ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا) وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) قال : أراد الجمعة فأخذوا السبت مكانها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق السدى عن أبى مالك وسعيد بن جبير فى الآية قال : باستحلالهم اياه : رأى موسى رجلا يحمل حطبا يوم السبت فضرب عنقه ، وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيدأنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم يعنى الجمعة فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس فيه لنا تبع اليهود غدا والنصارى بعدغد» . وأخرج مسلم وغيره من حديث حذيفة نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وجادلهم بالتى هى أحسن) قال : اعرض عن أذاهم إياك . وأخرج الترمذى وحسنه وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن خزيمة فى الفوائد وابن حبان والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل والضياء فى المختارة عن أبى بن كعب قال : لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلا ، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم ، فقالت الأنصار لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين

عليهم فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله تعالى (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) فقال رسول الله ﷺ «نصبر ولا نعاقب كفوا عن القوم الا أربعة» . وأخرج ابن سعد والبزار وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه وأبو نعيم فى المعرفة وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة أن النبى ﷺ «وقف على حمزة حيث استشهد فنظر الى منظر لم ينظر الى شىء قط كان أوجع لقلبه منه ونظر اليه قد مثل به فقال رحمة الله عليك فانك كنت ماعلمت وصولا للرحم فعولا للخير ولولا حزن من بعدك عليك لسرنى أن أتركك حتى يحشرك الله من أرواح شتى أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك فنزل جبريل والنبى ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل» وان عاقبتم الآية فكفر النبى ﷺ عن يمينه وأمسك عن الذى أراد وصبر ، وأخرج ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس مرفوعا نحوه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (وان عاقبتم) الآية قال : هذا حين أمر الله نبيه أن يقاتل من قاتله ، ثم نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم فهذا منسوخ . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) قال : اتقوا فيما حرّم عليهم وأحسنوا فيما افترض عليهم .

تفسير سورة الاسراء

آياتها مائة واحدى عشرة آية ، وهى مكية الا ثلاث آيات

قوله عزّ وجلّ – وان كادوا ليستفزونك – نزلت حين جاء رسول الله ﷺ وفد ثقيف وحين قالت اليهود ليست هذه بأرض الأنبياء ، وقوله – وقل رب أدخلنى مدخل صدق – ، وقوله – ان ربك أحاط بالناس – وزاد مقاتل قوله – ان الذين أوتوا العلم من قبله – . وأخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة بنى اسرائيل بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى وابن الضريس وابن مردويه عن ابن مسعود قال : فى بنى اسرائيل والكهف ومريم ، انهنّ من العتاق الأوّل وهنّ من تلادى . وأخرج أحمد والترمذى وحسنه والنسائى والحاكم وابن مردويه عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ يقرأ كل ليلة بنى اسرائيل والزمر . وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى عمرو الشيبانى قال : صلى بنا عبد الله الفجر فقرأ السورتين الآخرة منهما بنو اسرائيل .

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ * وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ۞ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۞

قوله (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) هومصدر سبح يقال سبح يسبح تسبيحا وسبحانا ، مثل كفر اليمين تكفيرا وكفرانا ومعناه التنزيه والبراءة لله من كل نقص ، وقال سيبويه العامل فيه فعل لا من لفظه والتقدير : أنزه الله تنزيها ، فوقع سبحان مكان تنزيها ، فهو على هذا مثل قعد القرفصاء واشتمل الصماء ، وقيل : هو علم للتسبيح كعثمان للرجل ، وانتصابه بفعل مضمر متروك اظهاره تقديره أسبح الله سبحان ، ثم نزل منزلة الفعل وسد مسده ، وقد قدمنا فى قوله ـ سبحانك لاعلم لنا الا ماعلمتنا ـ طرفا من الكلام المتعلق بسبحان ، والاسراء قيل : هو سير الليل ، يقال سرى وأسرى : كسقى وأسقى لغتان ، وقد جمع بينهما الشاعر فى قوله :

حىّ النضير وربة الخدر ۞ أسرت الىّ ولم تكن تسرى

وقيل هو سير أول الليل خاصة ، واذا كان الاسراء لايكون الا فى الليل فلا بدّ للتصريح بذكر الليل بعده من فائدة ، فقيل أراد بقوله ليلا تقليل مدة الاسراء وانه أسرى به فى بعض الليل من مكة الى الشام مسافة أربعين ليلة . ووجه دلالة ليلا على تقليل المدة مافيه من التنكير الدال على البعضية بخلاف ما إذا قلت سريت الليل فانه يفيد استيعاب السير له جميعا . وقد استدل صاحب الكشاف على افادة ليلا للبعضية بقراءة عبد الله وحذيفة من الليل . وقال الزجاج : معنى أسرى بعبده ليلا سير عبده يعنى محمدا ليلا وعلى هذا فيكون معنى أسرى معنى سير ، فيكون للتقييد بالليل فائدة ، وقال بعبده ولم يقل بنبيه أو رسوله أو بمحمد تشريفا له ﷺ قال أهل العلم ، لو كان غير هذا الاسم أشرف منه لسماه الله سبحانه به فى هذا المقام العظيم والحالة العلية

لا تدعنى الايا عبدها ۞ فانه أشرف أسمائى

ادعاء بأسماء نبزا فى قبائلها ۞ كان أسماء أضحت بعض أسمائى

(من المسجد الحرام) قال الحسن وقتادة : يعنى المسجد نفسه وهو ظاهر القرآن . وقال عامة المفسرين أسرى برسول الله ﷺ من دار أم هانىء فحملوا المسجد الحرام على مكة أو الحرام لاحاطة كل واحد منهما بالمسجد الحرام ، أو لأن الحرم كله مسجد ، ثم ذكر سبحانه الغاية التى أسرى برسوله ﷺ اليها فقال (الى المسجد الأقصى) وهو بيت المقدس ، وسمى الأقصى لبعد المسافة بينه و بين المسجد الحرام ولم يكن حينئذ وراءه مسجد ، ثم وصف المسجد الأقصى بقوله (الذى باركنا حوله) بالثمار والأنهار والأنبياء والصالحين ، فقد بارك الله سبحانه حول المسجد الأقصى ببركات الدنيا والآخرة ، وفى باركنا بعد قوله أسرى التفات من الغيبة الى التكلم ، ثم ذكر العلة التى أسرى به لأجلها فقال (لنريه من آياتنا) أى ما أراه الله سبحانه فى تلك الليلة من العجائب التى من جملتها قطع هذه المسافة الطويلة فى جزء من الليل (إنه) سبحانه (هو السميع) بكل مسموع ، ومن جملة ذلك قول رسوله ﷺ (البصير) بكل مبصر ، ومن جملة ذلك ذات رسوله وأفعاله : وقد اختلف أهل العلم هل كان الاسراء بجسده ﷺ مع روحه أو بروحه فقط ، فذهب معظم السلف والخلف الى الأول ، وذهب الى الثانى طائفة من أهل العلم منهم عائشة ومعاوية والحسن وابن اسحاق ، وحكاه ابن جرير عن حذيفة بن اليمان ، وذهبت طائفة الى التفصيل فقالوا : كان الاسراء بجسده يقظة الى بيت المقدس والى السماء بالروح ، واستدلوا على هذا التفصيل بقوله الى المسجد الأقصى فجعله غاية للاسراء بذاته ﷺ فلو كان الاسراء من بيت المقدس الى السماء وقع بذاته لذكره : والذى دلت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة هو ماذهب اليه معظم السلف والخلف من أن الاسراء بجسده

وروحه يقظة الى بيت المقدس ، ثم الى السموات ولاحاجة الى التأويل ، وصرف هذا النظم القرآنى وما يماثله من ألفاظ الأحاديث الى مايخالف الحقيقة ، ولامقتضى لذلك الا مجرد الاستبعاد وتحكيم محض العقول القاصرة عن فهم ماهو معلوم من أنه لايستحيل عليه سبحانه شىء ، ولو كان ذلك مجرد رؤيا كما يقوله من زعم أن الاسراء كان بالروح فقط ، وأن رؤيا الأنبياء حق لم يقع التكذيب من الكفرة للنبى ﷺ عند اخباره لهم بذلك حتى ارتد من ارتد ممن لم يشرح بالايمان صدرا ، فان الانسان قد يرى فى نومه ماهو مستبعد ، بل ماهو محال ولاينكر ذلك أحد ، وأما التمسك لمن قال بأن هذا الاسراء انما كان بالروح على سبيل الرؤيا بقوله ـ وماجعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس ـ فعلى تسليم أن المراد بهذه الرؤيا هو هذا الاسراء فالتصريح الواقع هنا بقوله «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا» والتصريح فى الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأنه أسرى به لاتقصر عن الاستدلال بها على تأويل هذه الرؤيا الواقعة فى الآية برؤية العين ، فانه قد يقال لرؤية العين رؤيا ، وكيف يصح حمل هذا الاسراء على الرؤيا مع تصريح الأحاديث الصحيحة بأن النبى ﷺ ركب البراق ، وكيف يصح وصف الروح بالركوب ، وهكذا كيف يصح حمل هذا الاسراء على الرؤيا مع تصريحه ﷺ بأنه كان عند أن أسرى به بين النائم واليقظان ، وقد اختلف أيضا فى تاريخ الاسراء ، فروى أن ذلك كان قبل الهجرة الى المدينة بسنة ، وروى أن الاسراء كان قبل الهجرة بأعوام ، ووجه ذلك أن خديجة صلت مع النبى ﷺ وقد ماتت قبل الهجرة بخمس سنين ، وقيل بثلاث ، وقيل بأربع ، ولم تفرض الصلاة الا ليلة الاسراء ، وقد استدل بهذا ابن عبد البر على ذلك ، وقد اختلفت الرواية عن الزهرى ، وممن قال بأن الاسراء كان قبل الهجرة بسنة الزهرى فى رواية عنه ، وكذلك الحربى فانه قال أسرى بالنبى ﷺ ليلة سبع وعشرين من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة ، وقال ابن القاسم فى تاريخه كان الاسراء بعد مبعثه بثمانية عشر شهرا ، قال ابن عبد البر : لا أعلم أحدا من أهل السير قال بمثل هذا ، وروى عن الزهرى أنه أسرى به قبل مبعثه بسبعة أعوام ، وروى عنه أنه قال كان قبل مبعثه بخمس سنين وروى يونس عن عروة عن عائشة أنها قالت توفيت خديجة قبل أن تفرض الصلاة (وآتينا موسى الكتاب) أى التوراة ، قيل والمعنى كرمنا محمدا بالمعراج وأكرمنا موسى بالكتاب (وجعلناه) أى ذلك الكتاب ، وقيل موسى (هدى لبنى اسرائيل) يهتدون به (أن لاتتخذوا) . قرأ أبو عمرو بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية : أى لئلا يتخذوا * والمعنى آتيناه الكتاب لهداية بنى اسرائيل لئلا يتخذوا (من دونى وكيلا) قال الفراء : أى كفيلا بأمورهم ، وروى عنه أنه قال كافيا ، وقيل معناه : أى متوكلون عليه فى أمورهم ، وقيل شريكا ، ومعنى الوكيل فى اللغة من توكل اليه الأمور (ذرية من حملنا مع نوح) نصب على الاختصاص أو النداء ، ذكرهم سبحانه أنعامه عليهم فى ضمن انجاء آبائهم من الغرق ، ويجوز أن يكون المفعول الأول لقوله أن لاتتخذوا : أى لاتتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دونى وكيلا كقوله ـ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ـ وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو بدل من فاعل تتخذوا . وقرأ مجاهد بفتح الذال . وقرأ زيد بن ثابت بكسرها ، والمراد بالذرية هنا جميع من فى الأرض لأنهم من ذرية من كان فى السفينة ، وقيل موسى وقومه من بنى اسرائيل وهذا هو المناسب لقراءة النصب على النداء والنصب على الاختصاص ، والرفع على البدل وعلى الخبر فانهما كلها راجعة الى بنى اسرائيل المذكورين ، وأما على جعل النصب على أن ذرية هى المفعول الأول لقوله لاتتخذوا فالأولى تفسير الذرية بجميع من فى الأرض من بنى آدم (انه كان عبدا شكورا) أى نوحا وصفه الله بكثرة الشكر وجعله كالعلة لما قبله ايذانا بكون الشكر من أعظم أسباب الخير ومن أفضل الطاعات حثا لذريته على

شكر

XVII ٤-١٥

شكر الله سبحانه .

وقد أخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . قال : أسرى بالنبي ﷺ ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب . قال : أسرى برسول الله ﷺ الى بيت المقدس قبل خروجه الى المدينة بسنة . وأخرج البيهقى عن عروة مثله . وأخرج البيهقى أيضا عن السدّى قال : أسرى برسول الله ﷺ قبل مهاجره بستة عشر شهرا . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (الذى باركنا حوله) قال : أنبتنا حوله الشجر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل) قال : جعله الله هدى يخرجهم من الظلمات الى النور وجعله رحمة لهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (ألا تتخذوا من دونى وكيلا) قال : شريكا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله (ذرية من حملنا مع نوح) قال : هو على النداء ياذرية من حملنا مع نوح . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن زيد الانصارى قال : قال رسول ﷺ «ذرية من حملنا مع نوح ما كان مع نوح الا أربعة أولاد حام ، وسام ، ويافث ، وكوش ، فذلك أربعة أولاد انسلوا هذا الخلق» ، واعلم أنه قد أطال كثير من المفسرين كابن كثير والسيوطى وغيرهما فى هذا الموضع بذكر الأحاديث الواردة فى الاسراء على اختلاف ألفاظها ، وليس فى ذلك كثير فائدة ، فهى معروفة فى مواضعها من كتب الحديث ، وهكذا أطالوا بذكر فضائل المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، وهو مبحث آخر ، والمقصود فى كتب التفسير ما يتعلق بتفسير ألفاظ الكتاب العزيز ، وذكر أسباب النزول ، وبيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية ، وما عدا ذلك فهو فضلة لا تدعو اليه حاجة .

وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا * إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا *

قوله (وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب) أى أعلمنا وأخبرنا أو حكمنا وأتممنا وأصل القضاء : الاحكام للشيء ، والفراغ منه ، وقيل أوحينا ، ويدل عليه قوله الى بنى اسرائيل ولو كان بمعنى الاعلام والاخبار لقال قضينا بنى اسرائيل ، ولو كان بمعنى حكمنا لقال على بنى اسرائيل ، ولو كان بمعنى أتممنا لقال لبنى اسرائيل ، والمراد بالكتاب : التوراة ، ويكون انزالها على نبيهم موسى كانزالها عليهم لكونهم قومه ، وقيل المراد بالكتاب : اللوح المحفوظ . وقرأ أبو العالية وسعيد بن جبير فى الكتب . وقرأ عيسى الثقفى

(لتفسدن فى الأرض) بفتح المثناة ، ومعنى هذه القراءة قريب من معنى قراءة الجمهور لأنهم اذا أفسدوا فسدوا فى نفوسهم ، والمراد بالفساد مخالفة ماشرعه الله لهم فى التوراة ، والمراد بالأرض : أرض الشام و بيت المقدس وقيل أرض مصر ، واللام فى لتفسدن جواب قسم محذوف . قال النيسابورى : أو أجرى القضاء المبتوت مجرى القسم كأنه قيل : وأقسمنا لتفسدن وانتصاب (مرتين) على أنه صفة مصدر محذوف ، أو على أنه فى نفسه مصدر عمل فيه ماهو من غير جنسه ، والمرة الأولى : قتل شعياء أوحبس أرمياء أو مخالفة أحكام التوراة : والثانية قتل يحيى بن زكريا والعزم على قتل عيسى (ولتعلن علوا كبيرا) هذه اللام كاللام التى قبلها : أى لتستكبرن عن طاعة الله ولتستعلن على الناس بالظلم والبغى مجاوزين الحد فى ذلك (فاذا جاء وعد أولاهما) أى أولى المرتين المذكورتين (بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد) أى قوة فى الحروب و بطش عند اللقاء ، قيل هو بختنصر وجنوده ، وقيل جالوت ، وقيل جند من فارس ، وقيل جند من بابل (فجاسوا خلال الديار) أى عاثوا وترددوا ، يقال جاسوا وهاسوا وداسوا بمعنى ، ذكره ابن عزيز والقتيبى . قال الزجاج : معناه طافوا خلال الديار هل بقى أحد لم يقتلوه . قال : والجوس طلب الشيء باستقصاء . قال الجوهرى : الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار : أى تخللوها كما يجوس الرجل للأخبار : أى يطلبها ، وكذا قال أبو عبيدة . وقال : ابن جرير معنى: جاسوا طافوا بين الديار يطلبونهم و يقتلونهم ذاهبين وجائين . وقال الفراء معناه قتلوهم بين بيوتهم وأنشد لحسان :

ومنا الذى لاقى بسيف محمد ＊ فجاس به الاعداء عرض العساكر

وقال : قطرب معناه نزلوا وأنشد قول الشاعر :

فجسنا ديارهم عنوة ＊ وأبنا بساداتهم موثقينا

وقرأ ابن عباس فحاسوا بالحاء المهملة . قال أبو زيد : الحوس والجوس والعوس والهوس : الطوف بالليل وقيل الطوف بالليل : هو الجوسان محركا كذا قال أبو عبيدة . وقرئ خلل الديار ومعناه معنى خلال وهو وسط الديار (وكان) ذلك (وعدا مفعولا) أى كائنا لا محالة (ثم رددنا لكم الكرة عليهم) أى الدولة والغلبة والرجعة ، وذلك عند تو بتهم ، قيل وذلك حين قتل داود جالوت ، وقيل حين قتل بختنصر (وأمددناكم بأموال و بنين) بعد نهب أموالكم وسبى أبنائكم حتى عاد أمركم كما كان (وجعلناكم أكثر نفيرا) قال أبو عبيدة : النفير العدد من الرجال . فالمعنى أكثر رجالا من عدوكم . والنفير من ينفر مع الرجل من عشيرته ، يقال نفير ونافر مثل قدير وقادر ، ويجوز أن يكون النفير جمع نفر (ان أحسنتم) : أى أفعالكم وأقوالكم على الوجه المطلوب منكم (أحسنتم لأنفسكم) لأن ثواب ذلك عائد اليكم (وان أسأتم) أفعالكم وأقوالكم فأوقعتموها لا على الوجه المطلوب منكم (فلها) أى فعليها ، ومثله قول الشاعر :

فخر صريعا لليدين وللفم ＊ أى على اليدين وعلى الفم . قال ابن جرير : اللام بمعنى الى أى فاليها ترجع الاساءة كقوله تعالى ــ بأن ربك أوحى لها ــ أى اليها ، وقيل المعنى فلها الجزاء أو العقاب . وقال الحسين بن الفضل فلها رب يغفر الاساءة ، وهذا الخطاب قيل هو لبنى اسرائيل الملابسين لما ذكر فى هذه الآيات ، وقيل لبنى اسرائيل الكائنين فى زمن محمد ﷺ ومعناه اعلامهم ماحل بسلفهم فليرتقبوا مثل ذلك ، وقيل هو خطاب لمشركى قريش (فاذا جاء وعد الآخرة) أى حضر وقت ماوعدوا من عقوبة المرة الآخرة : والمرة الآخرة هى قتلهم يحيى بن زكريا كما سبق ، وقصة قتله مستوفاة فى الانجيل واسمه فيه يوحنا ، قتله ملك من ملوكهم بسبب امرأة حملته على قتله ، واسم الملك لاخت قاله ابن قتيبة ، وقال ابن جرير هيردوس ، وجواب اذا محذوف تقديره بعثناهم لدلالة جواب اذا الأولى عليه و (ليسوءوا وجوهكم) متعلق

بهذا

بهذا الجواب المحذوف : أي ليفعلوا بكم مايسوء وجوهكم حتى تظهر عليكم آثار المساءة وتتبين في وجوهكم الكآبة ، وقيل المراد بالوجوه السادة منهم . وقرأ الكسائي لنسوء بالنون على أن الضمير لله سبحانه وقرأ أبي لنسوءن بنون التأكيد . وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثاب وحمزة وابن عامر ليسوء بالتحتية والافراد قال الزجاج : كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته ، والضمير لله أوللوعد (وليدخلوا المسجد) معطوف على ليسوءوا (كما دخلوه أول مرة وليتبروا) أي يدمروا و يهلكوا ، وقال قطرب يهدموا ، ومنه قول الشاعر :

فما الناس الاعاملان فعامل ۞ يتبر مايبنى وآخر رافع

وقرأ الباقون بالتحتية وضم الهمزة واثبات واو بعدها على ان الفاعل عبادلنا (ماعلوا) : أي ماغلبوا عليه من بلادكم أومدة علوهم (تتبيرا) أي تدميرا ، ذكر المصدر ازالة للشك وتحقيقا للخبر (عسى ربكم أن يرحمكم) يابني اسرائيل بعد انتقامه منكم في المرة الثانية (وان عدتم) للثالثة (عدنا) الى عقوبتكم . قال أهل السير ثم انهم عادوا الى مالاينبغي وهو تكذيب محمد ﷺ وكتمان ماورد من بعثه في التوراة والانجيل فعاد الله الى عقوبتهم على أيدي العرب ، فجرى على بني قريظة والنضير و بني قينقاع وخيبر ماجرى من القتل والسبي والاجلاء وضرب الجزية على من بقي منهم ، وضرب الذلة والمسكنة (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) وهو المحبس فهو فعيل بمعنى فاعل أومفعول ۞ والمعنى أنهم محبوسون في جهنم لايتخلصون عنها أبدا . قال الجوهري : حصره يحصره حصرا . ضيق عليه وأحاط به ، وقيل فراشا ومهادا ، وأراد على هذا بالحصير الحصير الذي يفرشه الناس (ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) يعني القرآن يهدي الناس للطريقة التي هي أقوم من غيرها من الطرق ، وهي ملة الاسلام فالتي هي أقوم صفة لموصوف محذوف ، وهي الطريق . وقال الزجاج للحال التي هي أقوم الحالات ، وهي توحيد الله والايمان برسله ، وكذا قال الفراء (و يبشر المؤمنين) قرأ حمزة والكسائي يبشر بفتح الياء وضم الشين . وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الشين من التبشير : أي يبشر بما اشتمل عليه من الوعد بالخير آجلا وعاجلا للمؤمنين (الذين يعملون الصالحات) التي أرشد إلى عملها القرآن (أن لهم أجرا كبيرا) أي بأن لهم (وأن الذين لايؤمنون بالآخرة) وأحكامها المبينة في القرآن (أعتدنا لهم عذابا أليما) وهو عذاب النار ، وهذه الجملة معطوفة على جملة يبشر بتقدير يخبر : أي ويخبر بأن الذين لايؤمنون بالآخرة ، وقيل معطوفة على قوله أن لهم أجرا كبيرا ، ويراد بالتبشير مطلق الاخبار ، أو يكون المراد منه معناه الحقيقي ، ويكون الكلام مشتملا على تبشير المؤمنين ببشارتين : الأولى ، مالهم من الثواب : والثانية ، مالأعدائهم من العقاب (ويدع الانسان بالشر) المراد بالانسان هنا الجنس لوقوع هذا الدعاء من بعض أفراده وهو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لايحب أن يستجاب له (دعاءه بالخير) أي مثل دعائه لربه بالخير لنفسه ولأهله ، كطلب العافية والرزق ونحوهما ، فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر هلك ، لكنه لم يستجب تفضلا منه ورحمة ، ومثل ذلك ـ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير ـ وقد تقدم ، وقيل المراد بالانسان هنا القائل هذه المقالة هو الكافر يدعو لنفسه بالشر ، وهو استعجال العذاب دعاءه بالخير كقول القائل اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم وقيل هو أن يدعو في طلب المحظور كدعائه في طلب المباح ، وحذفت الواو من ويدع الانسان في رسم المصحف لعدم التلفظ بها لوقوع اللام الساكنة بعدها كقوله ـ سندع الزبانية ، و يمح الله الباطل ، وسوف يؤت الله المؤمنين ـ ونحو ذلك (وكان الانسان عجولا) أي مطبوعا على العجلة ، ومن عجلته أنه يسأل الشر كما يسأل الخير ، وقيل إشارته إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تكمل فيه الروح ، والمناسب

XVI 13-19.

للسياق هو الأول .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (وقضينا إلى بني اسرائيل) قال أعلمناهم . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : أخبرناهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا قضينا إلى بني اسرائيل : قضينا عليهم . وأخرج ابن عساكر فى تاريخه عن علي فى قوله (لتفسدنّ فى الأرض مرّتين) قال الأولى قتل زكريا ، والآخرة قتل يحيى . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى الآية . قال كان أول الفساد قتل زكريا ، فبعث الله عليهم ملك النبط ، ثم ان بني اسرائيل تجهزوا فغزوا النبط فأصابوا منهم ، فذلك قوله فرددنا (لكم الكرة عليهم) : وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال . بعث الله عليهم فى الأولى جالوت ، وبعث عليهم فى المرة الأخرى بختنصر فعادوا فسلط الله عليهم المؤمنين . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه فجاسوا . قال فمشوا . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : تتبيرا . تدميرا . وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك فى قوله (عسى ربكم أن يرحمكم) قال كانت الرحمة التي وعدهم بعث محمد ﷺ . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة فى قوله (وان عدتم عدنا) قال فعادوا فبعث الله سبحانه عليهم محمدا ﷺ فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون * واعلم أنها قد اختلفت الروايات فى تعيين الواقع منهم فى المرّتين ، وفى تعيين من سلطه الله عليهم ، وفى كيفية الانتقام منهم ، ولا يتعلق بذلك كثير فائدة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) قال سجنا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه . قال : معنى حصيرا : جعل الله مأواهم فيها . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن فى قوله حصيرا : قال فراشا ومهادا . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله (ان هذا القرآن يهدى للتي هى أقوم) قال للتي هى أصوب . وأخرج الحاكم عن ابن مسعود أنه كان يتلوا كثيرا (ان هذا القرآن يهدى للتي هى أقوم ويبشر) بالتخفيف . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير) يعني قول الانسان : اللهم العنه واغضب عليه . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله (وكان الانسان عجولا) قال : ضجرا لاصبر له على سراء ولاضراء . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر عن سلمان الفارسي . قال أول ماخلق الله من آدم رأسه فجعل ينظر ، وهو يخلق وبقيت رجلاه ، فلما كان بعد العصر قال يارب أعجل قبل الليل ، فذلك قوله (وكان الانسان عجولا .

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَهُ تَفْصِيلًا * وَكُلَّ إِنْسَنٍ أَلْزَمْنَهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَمَةِ كِتَبًا يَلْقَيْهُ مَنْشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَبَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا * مَنِ ٱهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا * وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَهَا تَدْمِيرًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا *

لما ذكر سبحانه دلائل النبوة والتوحيد أكدها بدليل آخر من عجائب صنعه وبدائع خلقه ، فقال (وجعلنا الليل والنهار آيتين) وذلك لما فيهما من الاظلام والانارة مع تعاقبهما وسائر ما اشتملا عليه من العجائب التي تحار في وصفها الأفهام ، ومعنى كونهما آيتين أنهما يدلان على وجود الصانع وقدرته ، وقدّم الليل على النهار لكونه الأصل (فمحونا آية الليل) أي طمسنا نورها ، وقد كان القمر كالشمس في الانارة والضوء ، قيل ومن آثار المحو السواد الذي يرى في القمر ، وقيل المراد بمحوها أنه سبحانه خلقها ممحوة الضوء مطموسة ، وليس المراد أنه محاها بعد أن لم تكن كذلك (وجعلنا آية النهار مبصرة) أي جعل سبحانه شمسه مضيئة تبصر فيها الأشياء . قال أبو عمرو بن العلاء والكسائي هو من قول العرب : أبصر النهار إذا صار بحالة يبصر بها ، وقيل مبصرة للناس من قوله أبصره فبصر ، فالأوّل وصف لها بحال أهلها ، والثاني وصف لها بحال نفسها ، واضافة آية إلى الليل والنهار بيانيه : أي فمحونا الآية التي هي الليل والآية التي هي النهار كقولهم نفس الشيء وذاته (لتبتغوا فضلا من ربكم) أي لتتوصلوا ببياض النهار إلى التصرف في وجوه المعاش ، واللام متعلق بقوله وجعلنا آية النهار مبصرة : أي جعلناها لتبتغوا فضلا من ربكم : أي رزقا ، إذ غالب تحصيل الأرزاق وقضاء الحوائج يكون بالنهار ، ولم يذكر هنا السكون في الليل اكتفاء بما قاله في موضع آخر ـ وهو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ـ ثم ذكر مصلحة أخرى في ذلك الجعل ، فقال (ولتعلموا عدد السنين والحساب) وهذا متعلق بالفعلين جميعا : أعني محونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لا بأحدهما فقط كالأوّل ، إذ لا يكون علم عدد السنين والحساب ، إلا باختلاف الجديدين ومعرفة الأيام والشهور والسنين : والفرق بين العدد والحساب . أن العدد : احصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شيء . والحساب : احصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص ، فالسنة مثلا ان وقع النظر اليها من حيث عدد أيامها ، فذلك هو العدد ، وإن وقع النظر اليها من حيث تحققها وتحصلها من عدّة أشهر ، قد يحصل كل شهر من عدّة أيام ، قد يحصل كل يوم من عدّة ساعات ، قد تحصلت كل ساعة من عدّة دقائق فذلك هو الحساب (وكل شيء فصلناه تفصيلا) أي كل ما تفتقرون اليه في أمر دينكم ودنيا كم بيناه تبيينا واضحا لا يلتبس ، وعند ذلك تنزاح العلل وتزول الأعذار ـ ليهلك من هلك عن بينة ـ ولهذا قال (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه) قال أبو عبيدة الطائر عند العرب : الحظ ، ويقال له البخت ، فالطائر ماوقع للشخص في الأزل بما هو نصيبه من العقل والعمل والعمر والرزق والسعادة والشقاوة كأن طائرا يطير اليه من وكر الأزل ، وظلمات عالم الغيب طيرانا لا نهاية له ولا غاية الى أن انتهى الى ذلك الشخص في وقته المقدّر من غير خلاص ولا مناص . وقال الأزهري الأصل في هذا أن الله سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من ذريته والعاصي ، فكتب ماعلمه منهم أجمعين ، وقضى سعادة من علمه مطيعا وشقاوة من علمه عاصيا فطار لكل منهم ماهو صائر اليه عند خلقه وانشائه ، وذلك قوله وكل انسان ألزمناه طائرا في عنقه : أي ماطار له في علم الله ، وفي عنقه عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق من بين مايلبس ، قال الزجاج ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) قرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن محيصن وأبو جعفر ويعقوب ويخرج بالمثناة التحتية المفتوحة وبالراء المضمومة على معنى ويخرج له الطائر ، وكتابا منصوب على الحال ، ويجوز أن يكون المعنى يخرج لها الطائر فيصير كتابا . وقرأ يحيى ابن وثاب يخرج بضم الياء وكسر الراء : أي يخرج الله . وقرأ شيبة ومحمد بن السميفع ، وروى أيضا عن أبي جعفر يخرج بضم الياء وفتح الراء على البناء للمفعول :

أى ويخرج له الطائر كتابا . وقرأ الباقون ونخرج بالنون على أن المخرج هو الله سبحانه وكتابا مفعول به ، واحتج أبو عمرو لهذه القراءة بقوله تعالى ألزمناه . وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر يلقاه بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف . وقرأ الباقون بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف ، وانما قال سبحانه يلقاه منشورا تعجيلا للبشرى بالحسنة والتوبيخ على السيئة (اقرأ كتابك) أى نقول له اقرأ كتابك ، أو قائلين له ، قيل يقرأ ذلك الكتاب من كان قارئا ، ومن لم يكن قارئا (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) الباء فى بنفسك زائدة وحسيبا تمييز : أى حاسبا . قال سيبويه ضريب القداح بمعنى ضاربها ، وصريم بمعنى : صارم ، ويجوز أن يكون الحسيب بمعنى الكافى ، ثم وضع موضع الشهيد فعدّى بعلى ، والنفس بمعنى الشخص ، ويجوز أن يكون الحسيب بمعنى المحاسب كالشريك والجليس (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه) بين سبحانه أن ثواب العمل الصالح وعقاب ضده يختصان بفاعلهما لايتعدان منه الى غيره ، فمن اهتدى بفعل ما أمره الله به وترك مانهاه الله عنه ، فانما تعود منفعة ذلك إلى نفسه ، (ومن ضلّ) عن طريق الحق فلم يفعل ماأمر به ، ولم يترك مانهى عنه (فانما يضلّ عليها) أى فان وبال ضلاله واقع على نفسه لايجاوزها ، فكل أحد محاسب عن نفسه ، مجزى بطاعته ، معاقب بمعصيته ، ثم أكد هذا الكلام بأبلغ تأكيد ، فقال (ولا تزر وازرة وزر أخرى) والوزر : الاثم ، يقال وزر يزر وزرا ووزرة : أى إثما والجمع أوزار ، والوزر : الثقل . ومنه ــ يحملون أوزارهم على ظهورهم ــ أى أثقال ذنوبهم : ومعنى الآية لاتحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى تخلص الأخرى عن وزرها وتؤخذ به الأولى ، وقد تقدّم مثل هذا فى الأنعام . قال الزجاج فى تفسير هذه الآية أن الآثم والمذنب لايؤاخذ بذنب غيره (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) لما ذكر سبحانه اختصاص المهتدى بهدايته والضال بضلاله ، وعدم مؤاخذة الانسان بجناية غيره ، ذكر أنه لايعذب عباده إلا بعد الاعذار اليهم بارسال رسله ، وانزال كتبه ، فبين سبحانه أنه لم يتركهم سدى ، ولا يؤاخذهم قبل إقامة الحجة عليهم ، والظاهر أنه لايعذبهم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا بعد الاعذار إليهم بارسال الرسل ، وبه قالت طائفة من أهل العلم ، وذهب الجمهور إلى أن المنفى هنا هو عذاب الدنيا لاعذاب الآخرة (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا) اختلف المفسرون فى معنى أمرنا على قولين : الأول أن المراد به الأمر الذى هو نقيض النهى ، وعلى هذا اختلفوا فى المأمور به ، فالأكثر على أنه الطاعة والخير . وقال فى الكشاف معناه أمرناهم بالفسق ففسقوا ، وأطال الكلام فى تقرير هذا وتبعه المقتدون به فى التفسير ، وما ذكره هو ومن تابعه معارض بمثل قول القائل أمرته فعصانى ، فان كل من يعرف اللغة العربية يفهم من هذا أن المأمور به شىء غير المعصية ، لأن المعصية منافية للأمر مناقضة له ، فكذلك أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شىء غير الفسق ، لأن الفسق عبارة عن الاتيان بضد المأمور به ، فكونه فسقا ينافى كونه مأمورا به ، ويناقضه . القول الثانى أن معنى أمرنا مترفيها أكثرنا فساقها . قال الواحدى : تقول العرب أمر القوم إذا كثروا وأمرهم الله اذا أكثرهم . وقد قرأ أبو عثمان النهدى وأبو رجاء وأبو العالية والربيع ومجاهد والحسن أمّرنا بتشديد الميم : أى جعلناهم أمراء مسلطين . وقرأ الحسن أيضا وقتادة وأبو حيوة الشامى ويعقوب وخارجة عن نافع وحماد بن سلمة عن ابن كثير وعلىّ وابن عباس آمرنا بالمدّ والتخفيف : أى أكثرنا جبابرتها وأمراءها قاله الكسائى . وقال أبو عبيدة آمرته بالمدّ وأمرته لغتان بمعنى كثرته ، ومنه الحديث «خير المال مهرة مأمورة» أى كثيرة النتاج والنسل ، وكذا قال ابن عزيز . وقرأ الحسن أيضا ويحيى بن يعمر أمِرنا بالقصر وكسر الميم على معنى فعلنا ، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس . قال قتادة والحسن المعنى أكثرنا ،

وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد وأنكره الكسائى . وقال لايقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد . قال فى الصحاح . وقال أبو الحسن أمر ماله بالكسر : أى كثر ، وامر القوم : أى كثروا ، ومنه قول لبيد

أن يغبطوا يهبطوا وان أمروا * يوما يكن للهلاك والفند

وقرأ الجمهور أمرنا من الأمر ، ومعناه ماقدمنا فى القول الأول ، ومعنى (مترفيها) المنعمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسعة العيش ، والمفسرون يقولون فى تفسير المترفين : إنهم الجبارون المتسلطون والملوك الجائرون قالوا وإنما خصوا بالذكر لأن من عداهم أتباع لهم : ومعنى فسقوا فيها أخرجوا عن الطاعة وتمرضوا فى كفرهم ، لأن الفسوق الخروج إلى ما هو أفحش (فحق عليها القول) أى ثبت وتحقق عليهم العذاب بعد ظهور فسقهم (فدمرناها تدميرا) أى تدميرا عظيما لايوقف على كنهه لشدته وعظم موقعه ، وقد قيل فى تأويل أمرنا بأنه مجاز عن الأمر الحامل لهم على الفسق ، وهو ادرار النعم عليهم ، وقيل أيضا ان المراد بأردنا أن نهلك قرية أنه قرب اهلاك قرية ، وهو عدول عن الظاهر بدون ملجئ إليه : ثم ذكر سبحانه أن هذه عادته الجارية مع القرون الخالية ، فقال (وكم أهلكنا من القرون) أى كثيرا ما أهلكنا منهم ، فكم مفعول أهلكنا ، ومن القرون بيان لكم وتمييز له : أى كم من قوم كفروا من بعد نوح كعاد وثمود ، فحل بهم البوار ونزل بهم سوط العذاب ، وفيه تخويف لكفار مكة ، ثم خاطب رسوله بما هو ردع للناس كافة ، فقال (وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) قال الفراء إنما يجوز ادخال الباء فى المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أو يذم به ، كقولك كفاك وأكرم به رجلا ، وطاب بطعامك طعاما ، ولا يقال قام بأخيك وأنت تريد قام أخوك ، وفى الآية بشارة عظيمة لأهل الطاعة وتخويف شديد لأهل المعصية ، لأن العلم التام والخبرة الكاملة والبصيرة النافذة تقتضى ايصال الجزاء إلى مستحقه بحسب استحقاقه ، ولا ينافيه مزيد التفضل على من هو أهل لذلك ، والمراد بكونه سبحانه خبيرا بصيرا أنه محيط بحقائق الأشياء ظاهرا وباطنا لاتخفى عليه منها خافية .

وقد أخرج البيهقى فى دلائل النبوة وابن عساكر عن سعيد المقبرى أن عبد الله بن سلام سأل النبى ﷺ عن السواد الذى فى القمر فقال : كانا شمسين قال الله (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل) فالسواد الذى رأيت هو المحو . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس عن النبى ﷺ معنى هذا بأطول منه . قال السيوطى واسناده واه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الانبارى فى المصاحف عن على فى قوله (فمحونا آية الليل) قال : هو السواد الذى فى القمر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس نحوه وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وجعلنا آية النهار مبصرة) قال منيرة (لتبتغوا فضلا من ربكم) قال : جعل لكم سبحا طويلا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فصلناه) قال : بيناه . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير بسند حسن عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول « طائر كل انسان فى عنقه » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ألزمناه طائره فى عنقه) قال : سعادته وشقاوته وماقدر الله له وعليه فهو لازمه أين كان . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن أنس فى قوله (طائره) قال : كتابه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : عمله (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) قال : هو عمله الذى أحصى عليه فأخرج له يوم القيامة ما كتب له من العمل فقرأه منشورا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (اقرأ كتابك) قال . سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئا فى الدنيا . وأخرج ابن عبد البر فى التمهيد عن عائشة فى قوله (ولا تزر وازرة وزر أخرى) قال : سألت خديجة عن أولاد المشركين فقال : هم من آبائهم ، ثم سألته بعد ذلك فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين ، ثم سألته

XVII.19-550

بعد ما استحكم الاسلام فنزلت (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فقال : هم على الفطرة ، أوقال فى الجنة . قال السيوطى : وسنده ضعيف ، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما أن النبي ﷺ سئل فقيل له يارسول الله انا نصيب فى البيات من ذرارى المشركين قال : هم منهم ، وفى ذلك أحاديث كثيرة وبحث طويل ، وقد ذكر ابن كثير فى تفسير هذه الآية غالب الأحاديث الواردة فى أطفال المشركين ، ثم نقل كلام أهل العلم فى المسئلة فليرجع اليه . وأخرج اسحق بن راهويه وأحمد وابن حبان وأبو نعيم فى المعرفة والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى كتاب الاعتقاد عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال « أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئا ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات فى الفترة ، ثم قال فيأخذ الله مواثيقهم ليطيعنه ويرسل اليهم رسولا أن ادخلوا النار قال : فوالذى نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما ومن لم يدخلها يسحب اليها » واسناده عند أحمد ، هكذا حدثنا على بن عبد الله حدثنا معاذ بن هشام حدثنى أبى عن أبى قتادة عن الأحنف بن قيس عن الأسود بن سريع . وأخرج نحوه اسحق بن راهويه وأحمد وابن مردويه عن أبى هريرة ، وهو عند أحمد بالاسناد المذكور عن قتادة عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة . وأخرج قاسم بن أصبغ والبزار وأبو يعلى وابن عبد البر فى التمهيد عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ فذكر نحوه وجعل مكان الأحمق المعتوه . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول والطبرانى وأبو نعيم عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال « يؤتى يوم القيامة بالممسوح عقلا وبالهالك فى الفترة ، وبالهالك صغيرا » فذكر معناه مطولا . وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس فى قوله (أمرنا مترفيها) قال : بطاعة الله فعصوا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن شهر بن حوشب قال : سمعت ابن عباس يقول فى الآية (أمرنا مترفيها) بحق فخالفوه ، فحق عليهم بذلك التدمير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه فى الآية قال : سلطنا شرارها فعصوا فاذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب وهو كقوله ـ وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ـ . وأخرج البخارى وابن مردويه عن ابن مسعود قال : كنا نقول للحى اذا كثروا فى الجاهلية قد أمر بنو فلان

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * ٱنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا * لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا * وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا *

قوله (من كان يريد العاجلة) هذا تأكيد لما سلف من جملة كل انسان ألزمناه ، ومن جملة من اهتدى والمراد بالعاجلة : المنفعة العاجلة أو الدار العاجلة * والمعنى من كان يريد بأعمال البرّ أو بأعمال الآخرة ذلك ، فيدخل تحته الكفرة والفسقة والمراؤن والمنافقون (عجلنا له) أى عجلنا لذلك المريد (فيها) : أى فى تلك

العاجلة ، ثم قيد المعجل بقيدين : الأول قوله (ما نشاء) أى ما يشاء الله سبحانه تعجيله له منها ، لا ما يشاؤه ذلك المريد ولهذا ترى كثيرا من هؤلاء المريدين للعاجلة يريدون من الدنيا ما لا ينالون ويتمنون ما لا يصلون اليه ، والقيد الثانى قوله (لمن نريد) أى لمن نريد التعجيل له منهم ما اقتضته مشيئتنا ، وجملة لمن نريد بدل من الضمير فى له بإعادة الجار بدل البعض من الكل ، لأن الضمير يرجع الى من وهو للعموم ، وهذه الآية تقيد الآيات المطلقة كقوله سبحانه ـ من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ـ وقوله ـ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ـ وقد قيل انه قرئ ما يشاء بالياء التحتية ولا ندرى من قرأ بذلك من أهل الشواذ ، وعلى هذه القراءة فقيل الضمير لله سبحانه : أى ما يشاؤه الله فيكون معناها معنى القراءة بالنون ، وفيه بعد لمخالفته لما قبله : وهو عجلنا وما بعده وهو لمن نريد ، وقيل الضمير راجع الى من فى قوله (من كان يريد) فيكون ذلك مقيدا بقوله لمن نريد أى عجلنا له ما يشاؤه ، لكن بحسب ارادتنا فلا يحصل لمن أراد العاجلة ما يشاؤه الا اذا أراد الله له ذلك ، ثم بعد هذا كله فمن وراء هذه الطلبة الفارغة التى لا تأثير لها الا بالقيدين المذكورين عذاب الآخرة الدائم ، ولهذا قال (ثم جعلنا له جهنم) أى جعلنا له بسبب تركه لما أمر به من العمل للآخرة واخلاصه عن الشوائب عذاب جهنم على اختلاف أنواعه (يصلاها) فى محل نصب على الحال : أى يدخلها (مذموما مدحورا) أى مطرودا من رحمة الله مبعدا عنها ، فهذه عقوبته فى الآخرة مع أنه لا ينال من الدنيا الا ما قدره الله سبحانه له فأين حال هذا الشقى من حال المؤمن التقى ؟ فانه ينال من الدنيا ما قدره الله له وأراده بلا هلع منه ولا جزع مع سكون نفسه واطمئنان قلبه وثقته بربه وهو مع ذلك عامل للآخرة منتظر للجزاء من الله سبحانه : وهو الجنة ، ولهذا قال (ومن أراد الآخرة) أى أراد بأعماله الدار الآخرة (وسعى لها سعيها) أى السعى الحقيق بها اللائق بطالبها ، وهو الاتيان بما أمر به وترك ما نهى عنه خالصا لله غير مشوب ، وكان الاتيان به على القانون الشرعى من دون ابتداع ولا هوى (وهو مؤمن) بالله إيمانا صحيحا ، لأن العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه الا اذا كان من المؤمنين ـ انما يتقبل الله من المتقين ـ والجملة فى محل نصب على الحال ، والاشارة بقوله (فأولئك) الى المريدين للآخرة الساعين لها سعيها ، وخبره (كان سعيهم مشكورا) عند الله : أى مقبولا غير مردود ، وقيل مضاعفا الى أضعاف كثيرة ، فقد اعتبر سبحانه فى كون السعى مشكورا أمورا ثلاثة : الأول إرادة الآخرة . الثانى أن يسعى لها السعى الذى يحق لها . والثالث أن يكون مؤمنا ، ثم بين سبحانه كمال رأفته وشمول رحمته فقال (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك) التنوين فى كلا عوض عن المضاف اليه ، والتقدير كل واحد من الفريقين نمد : أى نزيده من عطائنا على تلاحق من غير انقطاع ، نرزق المؤمنين والكفار وأهل الطاعة وأهل المعصية لا تؤثر معصية العاصى فى قطع رزقه وما به الامداد هو ما عجله لمن يريد الدنيا ، وما أنعم به فى الأولى والأخرى على من يريد الآخرة ، وفى قوله (من عطاء ربك) اشارة الى أن ذلك بمحض التفضل وهو متعلق بنمد (وما كان عطاء ربك محظورا) أى ممنوعا ، يقال : حظره يحظره حظرا منعه ، وكل ما حال بينك وبين شىء فقد حظره عليك ، ومن هؤلاء بدل من كلا ، وهؤلاء معطوف على البدل . قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أنه يعطى المسلم الكافر وأنه يرزقهما جميعا الفريقين ، فقال : هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك . (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) الخطاب لمحمد ﷺ ويحتمل أن يكون لكل من له أهلية النظر والاعتبار ، وهذه الجملة مقررة لما مر من الامداد وموضحة له ، والمعنى انظر كيف فضلنا فى العطايا العاجلة بعض العباد على بعض ، فمن غنى وفقير ، وقوى وضعيف ، وصحيح ومريض ، وعاقل وأحمق ، وذلك لحكمة بالغة تقصر العقول عن ادراكها (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) وذلك لأن نسبة التفاضل

فى درجات الآخرة الى التفاضل فى درجات الدنيا كنسبة الآخرة الى الدنيا ، وليس للدنيا بالنسبة الى الآخرة مقدار ، فلهذا كانت الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وقيل المراد أن المؤمنين يدخلون الجنة والكافرين يدخلون النار فتظهر فضيلة المؤمنين على الكافرين * وحاصل المعنى أن التفاضل فى الآخرة ودرجاتها فوق التفاضل فى الدنيا ومراتب أهلها فيها من بسط وقبض ونحوهما ، ثم لما أجمل سبحانه أعمال البرّ فى قوله : وسعى لها سعيها وهو مؤمن أخذ فى تفصيل ذلك مبتدئا بأشرفها الذى هو التوحيد فقال (لاتجعل مع الله إلها آخر) والخطاب للنبى ﷺ والمراد به أمته تهييجا وإلهابا ، أو لكل متأهل له صالح لتوجيهه اليه ، وقيل هو على إضمار القول ، والتقدير قل لكل مكلف لاتجعل ، وانتصاب : تقعد على جواب النهى والتقدير لا يكن منك جعل فقعود : ومعنى تقعد تصير ، من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة ، وليس المراد حقيقة القعود المقابل للقيام ، وقيل هو كناية عن عدم القدرة على تحصيل الخيرات ، فان السعى فيه انما يتأتى بالقيام ، والعجز عنه يلزمه أن يكون قاعدا عن الطلب ، وقيل : ان من شأن المذموم المخذول أن يقعد نادما مفكرا على مافرط منه فالقعود على هذا حقيقة ، وانتصاب (مذموما مخذولا) على خبرية تقعد أو على الحال : أى فتصير جامعا بين الأمرين الذم لك من الله ومن ملائكته ، ومن صالحى عباده ، والخذلان لك منه سبحانه ، أو حال كونك جامعا بين الأمرين ، ثم لما ذكر ماهو الركن الأعظم وهو التوحيد أتبعه سائر الشعائر والشرائع فقال (وقضى ربك) أى أمر أمرا جزما ، وحكما قطعا ، وحتما مبرما (أن لاتعبدوا) أى بأن لاتعبدوا ، فتكون أن ناصبة ، ويجوز أن تكون مفسرة ولا نهى . وقرئ ووصى ربك : أى وصى عباده بعبادته وحده ، ثم أردفه بالأمر ببرّ الوالدين فقال (وبالوالدين احسانا) أى وقضى بأن تحسنوا بالوالدين إحسانا ، أو وأحسنوا بهما إحسانا ، ولا يجوز أن يتعلق بالوالدين باحسانا ، لأن المصدر لايتقدم عليه ماهو متعلق به : قيل ووجه ذكر الاحسان الى الوالدين بعد عبادة الله سبحانه أنهما السبب الظاهر فى وجود المتولد بينهما ، وفى جعل الاحسان الى الأبوين قرينا لتوحيد الله وعبادته من الاعلان بتأكد حقهما والعناية بشأنهما مالايخفى وهكذا جعل سبحانه فى آية أخرى شكرهما مقترنا بشكره فقال ـ أن اشكر لى ولوالديك ـ ثم خص سبحانه حالة الكبر بالذكر لكونها الى البرّ من الولد أحوج من غيرها فقال (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) اما مركبة من ان الشرطية وما الابهامية لتأكيد معنى الشرط ، ثم أدخلت نون التوكيد فى الفعل لزيادة التقرير كأنه قيل : ان هذا الشرط مما سيقع ألبتة عادة . قال النحويون : ان الشرط يشبه النهى من حيث الجزم وعدم الثبوت فلهذا صح دخول النون المؤكدة عليه وقرأ حمزة والكسائى يبلغان قال الفراء : ثنى لأن الوالدين قد ذكراقبله فصار الفعل على عددهما ، ثم قال أحدهما أو كلاهما على الاستئناف ، وأما على قراءة يبلغن فأحدهما فاعل بالاستقلال وقوله أو كلاهما فاعل أيضا لكن لا بالاستقلال بل بتبعية العطف ، والأولى أن يكون أحدهما على قراءة يبلغان بدل من الضمير الراجع الى الوالدين فى الفعل ويكون كلاهما عطفا على البدل ، ولا يصحّ جعل كلاهما تأكيدا للضمير لاستلزام العطف المشاركة : ومعنى عندك فى كنفك وكفالتك وتوحيد الضمير فى عندك ولا تقل ومابعدهما للاشعار بأن كل فرد من الافراد منهىّ عما فيه النهى ، ومأمور بما فيه الأمر ، ومعنى (فلا تقل لهما أف) لاتقل لواحد منهما فى حالتى الاجتماع والانفراد ، وليس المراد حالة الاجتماع فقط : وفى أف لغات ضم الهمزة مع الحركات الثلاث فى الفاء وبالتنوين وعدمه وبكسر الهمز والفاء بلاتنوين ، وأفى ممالا ، وأفة بالهاء . قال الفراء : تقول العرب فلان يتأفف من ريح وجدها : أى يقول أف أف ، وقال الأصمعى : الأف وسخ الأذن ، والتف وسخ الأظفار يقال ذلك عند استقذار الشئ ، ثم كثر حتى استعملوه فى كل مايتأذون به ، وروى ثعلب عن ابن الاعرابى

أن الأفف الضجر ، وقال القتبي : أصله أنه اذا سقط عليه تراب ونحوه نفخ فيه ليزيله ، فالصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قول القائل أف ، ثم توسعوا فذكروه عند كل مكروه يصل اليهم وقال الزجاج : معناه النتن وقال أبو عمرو بن العلاء : الأف وسخ بين الأظفار والتف قلامتها ❊ والحاصل انه اسم فعل ينبئ عن التضجر والاستثقال ، أو صوت ينبئ عن ذلك ، فنهى الولد عن أن يظهر منه مايدل على التضجر من أبويه أو الاستثقال لهما ، وبهذا النهى يفهم النهى عن سائر مايؤذيهما بفحوى الخطاب أو بلحنه كما هو متقرر فى الأصول (ولاتنهرهما) النهر : الزجر والغلظة ، يقال نهره وانتهره اذا استقبله بكلام يزجره . قال الزجاج : معناه لاتكلمهما ضجرا صائحا فى وجوههما (وقل لهما) بدل التأفيف والنهر (قولا كريما) أى لينا لطيفا أحسن ما يمكن التعبير عنه من لطف القول وكرامته مع التأدب والحياء والاحتشام (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) ذكر القفال فى معنى خفض الجناح وجهين : الأول أن الطائر اذا أراد ضم فراخه اليه للتربية خفض لها جناحه ، فلهذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير ، فكأنه قال للولد اكفل والديك بأن تضمهما الى نفسك كما فعلا ذلك بك فى حال صغرك . والثانى أن الطائر اذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه ، واذا أراد النزول خفض جناحه ، فصار خفض الجناح كناية عن التواضع وترك الارتفاع ، وفى اضافة الجناح الى الذل وجهان : الأول أنها كاضافة حاتم الى الجود فى قولك حاتم الجود ، فالأصل فيه الجناح الذليل ، والثانى سلوك سبيل الاستعارة كأنه تخيل للذل جناحا ثم أثبت لذلك الجناح خفضا . وقرأ الجمهور : الذل بضم الذال من ذل يذل ذلا وذلة ومذلة فهو ذليل . وقرأ سعيد بن جبير وعروة بن الزبير بكسر الذال ، وروى ذلك عن ابن عباس وعاصم ، من قولهم دابة ذلول بينة الذل : أى منقادة سهلة لاصعوبة فيها ، ومن الرحمة فيه معنى التعليل : أى من أجل فرط الشفقة والعطف عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم لمن كان أفقر خلق الله اليهما بالأمس ، ثم كأنه قال له سبحانه ولاتكتف برحمتك التى لادوام لها (و) لكن (قل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) والكاف فى محل نصب على أنه صفة لمصدر محذوف : أى رحمة مثل تربيتهما لى أو مثل رحمتهما لى ، وقيل ليس المراد رحمة مثل الرحمة بل الكاف لاقترانهما فى الوجود فلتقع هذه كما وقعت تلك : والتربية التنمية ، ويجوز أن تكون الكاف للتعليل : أى لأجل تربيتهما لى كقوله ـ واذكروه كما هداكم ـ ولقد بالغ سبحانه فى التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر لها جلود أهل العقوق وتقف عندها شعورهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله (من كان يريد العاجلة) قال : من كان يريد بعمله الدنيا (عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد) ذاك به . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية عن الحسن فى قوله (كلا نمد) الآية : قال كل يرزق الله فى الدنيا البر والفاجر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى الآية : قال يرزق الله من أراد الدنيا ويرزق من أراد الآخرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك قال (محظورا) ممنوعا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد مثله . وأخرج الطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية عن سلمان عن النبى ﷺ قال « مامن عبد يريد أن يرتفع فى الدنيا درجة فارتفع بها الاوضعه الله فى الآخرة درجة أكبرمنها وأطول ، ثم قرأ «وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » وهو من رواية زاذان عن سلمان ، وثبت فى الصحيحين «أن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما يرون الكوكب الغابر فى أفق السماء» . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (مذموما) يقول ملوما . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن الأنبارى فى المصاحف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قرأ : ووصى ربك مكان وقضى ،

XVII 26-27

وقال التزقت الواو والصاد وأنتم تقرءونها وقضى ربك . وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عنه مثله . وأخرج أبو عبيد وابن منيع وابن المنذر وابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عنه أيضا مثله وزاد ولو نزلت على القضاء ماأشرك به أحد * وأقول انما يلزم هذا لو كان القضاء بمعنى الفراغ من الأمر ، وهو وان كان أحد معاني مطلق القضاء ، كما في قوله ــ قضى الأمر الذي فيه تستفتيان ــ ، وقوله ــ فاذا قضيتم مناسككم ، فاذا قضيتم الصلاة ــ ولكنه هاهنا بمعنى الأمر ، وهو أحد معاني القضاء والأمر لايستلزم ذلك ، فانه سبحانه قد أمر عباده بجميع ماأوجبه ، ومن جملة ذلك إفراده بالعبادة وتوحيده ، وذلك لايستلزم أن لايقع الشرك من المشركين ، ومن معاني مطلق القضاء معان أخر غير هذين المعنيين كالقضاء بمعنى الخلق ، ومنه ــ فقضاهن سبع سموات ــ ، وبمعنى الارادة كقوله ــ إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون ــ ، وبمعنى العهد كقوله ــ وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الأمر ــ . وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (وقضى ربك) قال أمر . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في الآية : قال عهد ربك . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (وبالوالدين احسانا) يقول برّا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (فلاتقل لهما أف) لما تميط عنهما من الأذى : الخلاء والبول كما كانا لايقولانه فيما كانا يميطان عنك من الخلاء والبول . وأخرج الديلمي عن الحسين بن عليّ مرفوعا «لوعلم الله شيئا من العقوق أدنى من أف لحرمه» وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد في قوله (وقل لهما قولا كريما) قال : اذا دعواك فقل لبيكما وسعديكما . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية : قال قولا لينا سهلا . وأخرج البخاري في الأدب وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عروة في قوله (واخفض لهما جناح الذلّ) قال : يلين لهما حتى لايمتنع من شيء أحباه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في الآية قال : اخضع لوالديك كما يخضع العبد للسيد الفظ الغليظ . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (وقل رب ارحمهما) ثم أنزل الله بعد هذا ــ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى ــ . وأخرج البخاري في الأدب المفرد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر من طرق عنه نحوه ، وقد ورد في برّ الوالدين أحاديث كثيرة ثابتة في الصحيحين وغيرهما ، وهي معروفة في كتب الحديث .

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا * وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا * وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا * وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا *

قوله (ربكم أعلم بما فى نفوسكم) أى بما فى ضمائركم من الاخلاص وعدمه فى كل الطاعات ، ومن التوبة من الذنب الذى فرط منكم ، أو الاصرار عليه ، ويندرج تحت هذا العموم ما فى النفس من البر والعقوق اندراجا أوليا ، وقيل أن الآية خاصة بما يجب للأبوين من البر ، ويحرم على الأولاد من العقوق ، والأول أولى اعتبارا بعموم اللفظ ، فلا تخصصه دلالة السياق ولا تقيده (ان تكونوا صالحين) قاصدين الصلاح ، والتوبة من الذنب والاخلاص للطاعة فلا يضرّكم ما وقع من الذنب الذى تبتم عنه (فانه كان للأوّابين غفورا) أى الرجاعين عن الذنوب الى التوبة ، وعن عدم الاخلاص الى محض الاخلاص غفورا لما فرط منهم من قول ، أو فعل ، أو اعتقاد ، فمن تاب تاب الله عليه ، ومن رجع الى الله رجع الله اليه ، ثم ذكر سبحانه التوصية بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما ، فقال (وآت ذا القربى حقه) والخطاب إما لرسول الله ﷺ تهييجا و إلهابا لغيره من الأمة ، أو لكل من هو صالح لذلك من المكلفين كما فى قوله (وقضى ربك) والمراد بذى القربى ذو القرابة ، وحقهم هو صلة الرحم التى أمر الله بها ، وكرر التوصية فيها ، والخلاف بين أهل العلم فى وجوب النفقة للقرابة ، أو لبعضهم كالوالدين على الأولاد ، والأولاد على الوالدين معروف ، والذى ينبغى الاعتماد عليه وجوب صلتهم بما تبلغ اليه القدرة وحسبما يقتضيه الحال (والمسكين) معطوف على ذا القربى ، وفى هذا العطف دليل على أن المراد بالحق الحق المالىّ (وابن السبيل) معطوف على المسكين ، والمعنى وآت من اتصف بالمسكنة ، أو بكونه من أبناء السبيل حقه . وقد تقدم بيان حقيقة المسكين وابن السبيل فى البقرة ، وفى التوبة ، والمراد فى هذه الآية التصدق عليهما بما بلغت اليه القدرة من صدقة النفل ، أو مما فرضه الله لهما من صدقة الفرض ، فانهما من الأصناف الثمانية التى هى مصرف الزكاة ، ثم لما أمر سبحانه بما أمر به هاهنا نهى عن التبذير ، فقال (ولا تبذر تبذيرا) التبذير تفريق المال كما يفرّق البذر كيفما كان من غير تعمد لمواقعه ، وهو الاسراف المذموم لمجاوزته للحدّ المستحسن شرعا فى الانفاق ، أو هو الانفاق فى غير الحق ، وان كان يسيرا . قال الشافعى : التبذير إنفاق المال فى غير حقه ، ولا تبذير فى عمل الخير . قال القرطبىّ بعد حكايته لقول الشافعى هذا : وهذا قول الجمهور : قال أشهب عن مالك : التبذير هو أخذ المال من حقه ، ووضعه فى غير حقه ، وهو الاسراف ، وهو حرام لقوله (ان المبذرين كانوا إخوان الشياطين) فان هذه الجملة تعليل للنهى عن التبذير ، والمراد بالاخوة المماثلة التامة ، وتجنب مماثلة الشيطان ولو فى خصلة واحدة من خصاله واجب ، فكيف فيما هو أعمّ من ذلك كما يدلّ عليه اطلاق المماثلة ، والاسراف فى الانفاق من عمل الشيطان ، فاذا فعله أحد من بنى آدم فقد أطاع الشيطان واقتدى به (وكان الشيطان لربه كفورا) أى كثير الكفران عظيم التمرّد عن الحق ، لأنه مع كفره لا يعمل الا شرا ، ولا يأمر الا بعمل الشر ، ولا يوسوس الا بما لا خير فيه ، وفى هذه الآية تسجيل على المبذرين بمماثلة الشياطين ، ثم التسجيل على جنس الشيطان بأنه كفور ، فاقتضى ذلك أن المبذر مماثل للشيطان ، وكل مماثل للشيطان له حكم الشيطان ، وكل شيطان كفور ، فالمبذر كفور (وإما تعرضنّ عنهم) قد تقدم قريبا أن أصل إما هذه مركب من إن الشرطية وما الابهامية ، وان دخول نون التأكيد على الشرط لمشابهته للنهى : أى ان أعرضت عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل لأمر اضطرك إلى ذلك الاعراض (ابتغاء رحمة من ربك) أى لفقد رزق من ربك ، ولكنه أقام المسبب الذى هو ابتغاء رحمة الله مقام السبب الذى هو فقد الرزق ، لأن فاقد الرزق مبتغ له ، والمعنى وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح الله به عليك (فقل لهم قولا ميسورا) أى قولا سهلا لينا كالوعد الجميل ، أو الاعتذار المقبول . قال الكسائى : يسرت له القول : أى لينته . قال الفراء : معنى الآية ان تعرض عن السائل اضاقة واعسارا فقل

لهم قولا ميسورا عدهم عدة حسنة ، ويجوز أن يكون المعنى وان تعرض عنهم ولم تنفعهم لعدم استطاعتك فقل لهم قولا ميسورا ، وليس المراد هنا الاعراض بالوجه ، وفى هـذه الآية تأديب من الله سبحانه لعباده اذا سألهم سائل ماليس عندهم كيف يقولون و بما يردّون ، ولقد أحسن من قال :

ان لايكن ورق يوما أجود بها * للسائلين فانى لين العود

لايعدم السائلون الخير من خلق * اما نوال واما حسن مردود

لما ذكر سبحانه أدب المنع بعد النهى عن التبذير بين أدب الانفاق فقال (ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ولاتبسطها كل البسط) وهـذا النهى يتناول كل مكلف سواء كان الخطاب للنبى ﷺ تعريضا لأمته وتعليما لهم ، أو الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين ، والمراد النهى للانسان بأن يمسك امساكا يصير به مضيقا على نفسه وعلى أهله ، ولايوسع فى الانفاق توسيعا لاحاجة إليه بحيث يكون به مسرفا ، فهو نهى عن جانبى الافراط والتفريط * ويتحصل من ذلك مشروعية التوسط : وهو العدل الذى ندب الله اليه

ولا تك فيها مفرطا أو مفرّطا * كلا طرفى قصد الأمور ذميم

وقد مثـل الله سبحانه فى هـذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة الى عنقه بحيث لايستطيع التصرف بها ، ومثل حال من يجاوز الحدّ فى التصرف بحال من يبسط يده بسطا لايتعلق بسببه فيها شىء مما تقبض الأيدى عليه ، وفى هذا التصوير مبالغة بليغة ، ثم بين سبحانه غائلة الطرفين المنهىّ عنهما فقال (فتقعد ملوما) عنـد الناس بسبب ماأنت عليه من الشح (محسورا) بسبب مافعلته من الاسراف : أى منقطعا عن المقاصد بسبب الفقر ، والمحسور فى الأصل : المنقطع عن السير ، من حسرة السفر اذا بلغ منه ، والبعير الحسير هو الذى ذهبت قوّته فلا انبعاث به ، ومنه قوله تعالى ـ ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير ـ أى كليل منقطع ، وقيل معناه نادما على ماسلف ، فجعله هذا القائل من الحسرة التى هى الندامة وفيه نظر لأن الفاعل من الحسرة حسران ، ولايقال محسور الا للملوم ، ثم سلى رسوله والمؤمنين بأن الذين يرهقهم من الاضاقة ليس لهوانهم على الله سبحانه ، ولكن لمشيئة الخالق الرازق فقال (إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى يوسعه على بعض و يضيقه على بعض لحكمة بالغة ، لا لكون من وسع له رزقه مكرما عنده ، ومن ضيقه عليه هائنا لديه ، قيل ويجوز أن يراد أن البسط والقبض انما هما من أمر الله الذى لاتفنى خزائنـه ، فأما عباده فعليهم أن يقتصدوا ، ثم علل ماذكره من البسط للبعض والتضييق على البعض بقوله (انه كان بعباده خبيرا بصيرا) أى يعلم مايسرون ومايعلنون ، لايخفى عليه من ذلك خافية ، فهو الخبير بأحوالهم البصير بكيفية تدبيرهم فى أرزاقهم ، وفى هذه الآية دليل على أنه المتكفل بأرزاق عباده ، فلذلك قال بعدها (ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق) أملق الرجل لم يبق له الا الملقات : وهى الحجارة العظام الملس . قال الهذلى يصف صائدا :

أتيح لها أقيدر ذو خشيف * اذا سامت على الملقات ساما

الأقيدر تصغير الأقدر : وهو الرجل القصير ، والخشيف من الثياب الخلق ، وسامت مرّت ، و يقال أملق اذا افتقر وسلب الدهر مابيده . قال أوس : * وأملق ماعندى خطوب تنبل *

نهاهم الله سبحانه عن أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر ، وقد كانوا يفعلون ذلك ، ثم بين لهم أن خوفهم من الفقر حتى يبلغوا بسبب ذلك الى قتل الأولاد لاوجه له ، فان الله سبحانه هو الرازق لعباده يرزق الأبناء كما يرزق الآباء فقال (نحن نرزقهم واياكم) ولستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع ، وقد مرّ مثل هذه الآية فى الأنعام ، ثم علل سبحانه النهى عن قتل الأولاد لذلك بقوله (ان قتلهم كان خطئا كبيرا) قرأ الجمهور بكسر

الخاء وسكون الطاء و بالهمز المقصور . وقرأ ابن عامر خطأ بفتح الخاء والطاء والقصر في الهمز ، يقال خطئ في دينه خطئا اذا أثم ، وأخطأ اذا سلك سبيل خطأ عامدا أوغير عامد . قال الأزهرى خطئ يخطأ خطئا مثل أثم يأثم اثما اذا تعمد الخطأ ، وأخطأ اذا لم يتعمد اخطاء وخطاء . قال الشاعر :

دعيني انما خطاء وصدّا * علىّ وانما أهلكت مالى

والخطأ الاسم يقوم مقام الاخطاء ، وفيه لغتان القصر ، وهو الجيد ، والمدّ وهو قليل . وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومد (١) الهمز ، قال النحاس : ولا أعرف لهذه القراءة وجها ، وكذلك جعلها أبو حاتم غلطا . وقرأ الحسن خطا بفتح الخاء والطاء منونة من غير همز * ولما نهى سبحانه عن قتل الأولاد المستدعى لافناء النسل ذكر النهى عن الزنا المفضى الى ذلك لما فيه من اختلاط الأنساب فقال (ولا تقربوا الزنا) وفى النهى عن قربانه بمباشرة مقدّماته نهى عنه بالأولى ، فان الوسيلة الى الشىء اذا كانت حراما كان المتوسل اليه حراما بفحوى الخطاب : والزنا فيه لغتان : المد والقصر . قال الشاعر :

كانت فريضة ماتقول كما * كان الزناء فريضة الرجم

ثم علل النهى عن الزنا بقوله (انه كان فاحشة) أى قبيحا متبالغا فى القبح مجاوزا للحدّ (وساء سبيلا) أى بئس طريقا طريقه ، وذلك لأنه يؤدّى الى النار ، ولاخلاف فى كونه من كبائر الذنوب . وقد ورد فى تقبيحه والتنفير عنه من الأدلة ماهو معلوم ، ولما فرغ من ذكر النهى عن القتل لخصوص الأولاد وعن النهى عن الزنا الذى يفضى الى مايفضى اليه قتل الأولاد من اختلاط الأنساب وعدم استقرارها نهى عن قتل الأنفس المعصومة على العموم فقال (ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله الا بالحق) والمراد بالتى حرّم الله التى جعلها معصومة بعصمة الدين أوعصمة العهد ، والمراد بالحق الذى استثناه هو مايباح به قتل الأنفس المعصومة فى الأصل ، وذلك كالردّة والزنا من المحصن ، وكالقصاص من القاتل عمدا عدوانا ومايلتحق بذلك والاستثناء مفرّغ : أى لاتقتلوها بسبب من الأسباب الا بسبب متلبس بالحق أو الا متلبسين بالحق . وقد تقدّم الكلام فى هذا فى الأنعام ، ثم بين حكم بعض المقتولين بغير حق فقال (ومن قتل مظلوما) أى لابسبب من الأسباب المسوّغة لقتله شرعا (فقد جعلنا لوليه سلطانا) أى لمن يلى أمره من ورثته ان كانوا موجودين ، أولمن له سلطان ان لم يكونوا موجودين ، والسلطان : التسلط على القاتل ان شاء قتل وان شاء عفا وان شاء أخذ الدية ، ثم لما بين إباحة القصاص لمن هو مستحق لدم المقتول ، أوماهو عوض عن القصاص نهاه عن مجاوزة الحدّ فقال (فلا يسرف فى القتل) أى لايجاوز ماأباحه الله له فيقتل بالواحد اثنين أو جماعة ، أو يمثل بالقاتل أو يعذبه . قرأ الجمهور لايسرف بالياء التحتية : أى الولىّ . وقرأ حمزة والكسائى تسرف بالتاء الفوقية ، وهو خطاب للقاتل الأوّل ، ونهى له عن القتل : أى فلا تسرف أيها القاتل بالقتل فان عليك القصاص مع ماعليك من عقوبة الله وسخطه ولعنته ، وقال ابن جرير الخطاب للنبى ﷺ وللأئمة من بعده : أى لاتقتل يامحمد غير القاتل ولايفعل ذلك الأئمة بعدك ، وفى قراءة أبىّ ولاتسرفوا ، ثم علل النهى عن السرف فقال (انه كان منصورا) أى مؤيدا معانا ، يعنى الولى ، فان الله سبحانه قد نصره باثبات القصاص له بما أبرزه من الحجج ، وأوضحه من الأدلة ، وأمر أهل الولايات بمعونته والقيام بحقه حتى يستوفيه ، ويجوز أن يكون الضمير راجعا الى المقتول : أى ان الله نصره بوليه ، قيل وهذه الآية من أوّل مانزل من القرآن فى شأن القتل لأنها مكية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (ان تكونوا صالحين) قال تكون البادرة من الولد إلى الوالد ، فقال الله ان تكونوا صالحين ان تكن النية صادقة (فانه كان

(١) قوله ومدّ الهمز صوابه ومدّها للهمز اه

للأوّابين غفورا) للبادرة التي بدرت منه . وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب عنه في قوله : انه كان للأوّابين غفورا . قال الرجاعين الى الخير . وأخرج سعيد بن منصور وهناد وابن أبي حاتم والبيهقي عن الضحاك في الآية . قال : الرجاعين من الذنب الى التوبة ، ومن السيئات الى الحسنات . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله للأوّابين . قال : للمطيعين المحسنين . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عنه قال : للتوابين . وأخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (وآت ذا القربى حقه) قال أمره بأحقّ الحقوق ، وعلمه كيف يصنع إذا كان عنده وكيف يصنع إذا لم يكن عنده ، فقال (واماتعرضنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) قال إذا سألوك ، وليس عندك شيء انتظرت رزقا من الله (فقل لهم قولا ميسورا) يكون ان شاء الله يكون شبه العدة . قال سفيان والعدة من النبي ﷺ دين . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا في الآية قال : هو أن تصل ذا القرابة وتطعم المسكين وتحسن الى ابن السبيل . وأخرج ابن جرير عن علي بن الحسين أنه قال : لرجل من أهل الشام أقرأت القرآن ؟ قال نعم . قال فما قرأت في بني اسرائيل وآت ذا القربى حقه . قال وانكم للقرابة التي أمر الله أن يؤتى حقهم ؟ قال نعم . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في الآية . قال : والقربى قربى بني عبد المطلب .

وأقول : ليس في السياق مايفيد هـذا التخصيص ، ولادلّ على ذلك دليل ، ومعنى النظم القرآني واضح ان كان الخطاب مع كل من يصلح له من الأمة ، لأن معناه أمر كل مكلف متمكن من صلة قرابته ، بأن يعطيهم حقهم ، وهو الصلة التي أمر الله بها ، وان كان الخطاب للنبي ﷺ ، فان كان على وجه التعريض لأمته ، فالأمر فيـه كالأوّل ، وان كان خطابا له من دون تعريض ، فامته أسوته ، فالأمر له ﷺ بإيتاء ذي القربى حقـه أمر لكل فرد من أفراد أمته ، والظاهر أن هذا الخطاب ليس خاصا بالنبي ﷺ بدليل ماقبل هـذه الآية ، وهي قوله (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) ومابعدها ، وهي قوله ــ ولاتبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين ــ .

وفي معنى هذه الآية الدالة على وجوب صلة الرحم أحاديث كثيرة . وأخرج أحمد والحاكم ، وصححه عن أنس أن رجلا قال يارسول الله « إني ذومال كثير وذوأهل وولد وحاضرة ، فأخبرني كيف أنفق ، وكيف أصنع ؟ قال تخرج الزكاة المفروضة ، فانها طهرة تطهرك وتصل أقاربك وتعرف حقّ السائل والجار والمسكين ، فقال يارسول الله أقلل لي ؟ قال فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولاتبذر تبذيرا . قال حسبي يارسول الله » وأخرج البزار وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري . قال : لما نزلت هـذه الآية وآت ذا القربى حقه دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاها فدك . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت وآت ذا القربى حقه ، أقطع رسول الله ﷺ فاطمة فدك . قال ابن كثير بعد أن ساق حديث أبي سعيد هذا مالفظه ، وهـذا الحديث مشكل لوصح إسناده ، لأن الآية مكية ، وفدك انما فتحت مع خيبرسنة سبع من الهجرة ، فكيف يلتئم هذا مع هذا انتهى . وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبخاري في الأدب وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود في قوله (ولاتبذر تبذيرا) قال التبذير : انفاق المال في غير حقه . وأخرج ابن جرير عنه قال : كنا أصحاب محمد نتحدّث أن التبذير النفقة في غير حقه . وأخرج سعيد بن منصور والبخاري في الأدب وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله ان المبذرين . قال هم الذين ينفقون المال في غـير حقه . وأخرج البيهقي في الشعب عن عليّ

قال

قال : ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك فى غير سرف ولا تبذير ، وما تصدقت فلك ، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (فقل لهم قولا ميسورا) قال : العدة . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن سيار أبى الحكم قال : أتى رسول الله ﷺ بزّ من العراق ، وكان معطاء كريما فقسمه بين الناس ، فبلغ ذلك قوما من العرب ، فقالوا إنا نأتى النبى ﷺ نسأله فوجدوه قدفرغ منه ، فأنزل الله (ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك) قال محبوسة (ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما) يلومك الناس (محسورا) ليس بيدك شىء * أقول : ولاأدرى كيف هذا ؟ فالآية مكية ، ولم يكن إذ ذاك عرب يقصدون رسول الله ﷺ ولايحمل اليه شىء من العراق ولا عما هو أقرب منه ، على أن فتح العراق لم يكن إلا بعد موته ﷺ . وأخرج ابن جرير عن المنهال بن عمرو « بعثت امرأة إلى النبى ﷺ بابنها ، فقالت قل له اكسنى ثوبا ، فقال ماعندى شىء ، فقالت ارجع اليه فقل له اكسنى قميصك فرجع اليه فنزع قميصه فأعطاها إياه، فنزلت ولاتجعل يدك مغلولة الآية » . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود نحوه . وأخرج ابن مردويه عن أبى أمامة أن النبى ﷺ « قال لعائشة وضرب بيده أنفقى ما على ظهر كفى ، قالت اذن لايبقى شىء . قال ذلك ثلاث مرات ، فأنزل الله ولا تجعل يدك مغلولة » الآية ، ويقدح فى ذلك أنه ﷺ لم يتزوج بعائشة الا بعد الهجرة ، وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ولاتجعل يدك مغلولة . قال يعنى بذلك البخل . وأخرجا عنه فى الآية . قال هذا فى النفقة يقول : لاتجعلها مغلولة لاتبسطها بخير ولاتبسطها كل البسط يعنى : التبذير فتقعد ملوما ، يلوم نفسه على مافاته من ماله ، محسورا ذهب ماله كله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) قال : ينظر له ، فان كان الغنى خيرا له أغناه ، وان كان الفقر خيرا له أفقره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (خشية إملاق) قال : مخافة الفقر والفاقة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله خطأ قال : خطيئة . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (ولا تقربوا الزنا) قال : يوم نزلت هذه الآية لم يكن حدود ، فجاءت بعد ذلك الحدود فى سورة النور . وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن أبىّ بن كعب أنه قرأ « ولاتقربوا الزنا انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا إلا من تاب فان الله كان غفورا رحيما » فذكر لعمر فأتاه فسأله ، فقال أخذتها من فى رسول الله وليس لك عمل الا الصفق بالبقيع . وقد ورد فى الترهيب عن فاحشة الزنا أحاديث كثيرة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك فى قوله (ولاتقتلوا النفس) الآية . قال هذا بمكة ونبى الله ﷺ بها ، وهو أوّل شىء نزل من القرآن فى شأن القتل ، كان المشركون من أهل مكة يغتالون أصحاب رسول الله ﷺ فقال الله من قتلكم من المشركين، فلا يحملنكم قتله إياكم على أن تقتلوا له أبا أوأخا أو واحدامن عشيرته وان كانوا مشركين فلا تقتلوا الا قاتلكم ، وهذا قبل أن تنزل براءة ، وقبل أن يؤمر بقتال المشركين فذلك قوله (فلايسرف فى القتل انه كان منصورا) يقول لاتقتل غير قاتلك ، وهى اليوم على ذلك الموضع من المسلمين لايحل لهم أن يقتلوا الا قاتلهم . وأخرج البيهقى فى سننه عن زيد بن أسلم أن الناس فى الجاهلية ، كانوا اذا قتل الرجل من القوم رجلا لم يرضوا حتى يقتلوا به رجلا شريفا ، اذا كان قاتلهم غير شريف لم يقتلوا قاتلهم وقتلوا غيره فوعظوا فى ذلك بقول الله سبحانه ، ولاتقتلوا النفس الى قوله فلا يسرف فى القتل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) قال بينة من الله أنزلها يطلبها ولىّ المقتول القود أو العقل ، وذلك السلطان . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق مجاهد عنه فلايسرف فى القتل قال : لايكثر فى القتل . وأخرج ابن

المنذر من طريق أبي صالح عنه أيضا لايقاتل الا قاتل رحمه .

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا * ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا * أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا *

لما ذكر سبحانه النهى عن اتلاف النفوس أتبعه بالنهى عن اتلاف الأموال ، وكان أهمها بالحفظ والرعاية مال اليتيم ، فقال (ولاتقربوا مال اليتيم) والنهى عن قربانه مبالغة فى النهى عن المباشرة له واتلافه ، ثم بين سبحانه أن النهى عن قربانه ، ليس المراد منه النهى عن مباشرته فيما يصلحه و يفسده بل يجوز لولىّ اليتيم أن يفعل فى مال اليتيم مايصلحه ، وذلك يستلزم مباشرته ، فقال (الا بالتى هى أحسن) أى إلا بالخصلة التى هى أحسن الخصال ، وهى حفظه وطلب الربح فيه والسعى فيما يريد به ، ثم ذكر الغاية التى للنهى عن قربان مال اليتيم ، فقال (حتى يبلغ أشدّه) أى لاتقربوه إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ اليتيم أشدّه ، فاذا بلغ أشدّه كان لكم أن تدفعوه اليه ، أو تتصرفوا فيه باذنه ، وقد تقدّم الكلام على هذا مستوفى فى الأنعام (وأوفوا بالعهد) قد مضى الكلام فيه فى غير موضع . قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد ، فيدخل فى ذلك مابين العبد وربه ، ومابين العباد بعضهم البعض : والوفاء بالعهد هو القيام بحفظه على الوجه الشرعى والقانون المرضى إلا إذا دل دليل خاص على جواز النقض (ان العهد كان مسئولا) أى مسئولا عنه ، فالمسئول هنا هو صاحبه ، وقيل ان العهد يسأل تبكيتا لناقضه (وأوفوا الكيل اذا كلتم) أى أتموا الكيل ولاتخسروه وقت كيلكم للناس (وزنوا بالقسطاس المستقيم) قال الزجاج : هوميزان العدل : أىّ ميزان كان من موازين الدراهم وغيرها ، وفيه لغتان ضم القاف وكسرها ، وقيل هو القبان المسمى بالقرسطون ، وقيل هو العدل نفسه ، وهى لغة الروم ، وقيل لغة سريانية . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر القسطاس بضم القاف . وقرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم بكسر القاف ، والاشارة بقوله (ذلك) الى إيفاء الكيل والوزن ، وهو مبتدأ وخبره (خير) أى خير لكم عند الله وعند الناس يتأثر عنه حسن الذكر وترغيب الناس فى معاملة من كان كذلك (وأحسن تأويلا) أى أحسن عاقبة ، من آل اذا رجع ، ثم أمر سبحانه باصلاح اللسان والقلب ، فقال (ولاتقف ماليس لك به علم) أى لاتتبع مالاتعلم ، من قولك قفوت فلانا اذا اتبعت أثره ، ومنه قافية الشعر لأنها تقفو كل بيت ، ومنه القبيلة المشهورة بالقافة لأنهم يتبعون آثار أقدام الناس ، وحكى ابن جرير عن فرقة أنها قالت : قفا وقاف مثل عثا وعاث . قال منذر بن سعيد البلوطى قفا وقاف ، مثل جذب وجبذ ، وحكى الكسائى عن بعض القراء أنه قرأ تقف بضم القاف وسكون الفاء . وقرأ القراء بفتح القاف وهى لغة لبعض العرب ، وأنكرها أبو حاتم وغيره ، ومعنى الآية النهى

عن

عن أن يقول الانسان مالا يعلم أو يعمل بما لا علم له به : وهذه قضية كلية ، وقد جعلها جماعة من المفسرين خاصة بأمور : فقيل لا تذم أحدا بما ليس لك به علم ، وقيل هي في شهادة الزور : وقيل هي في القذف ، وقال القتيبي : معنى الآية لا تتبع الحدس والظنون ، وهذا صواب ، فان ماعدا ذلك هو العلم ، وقيل المراد بالعلم هنا هو الاعتقاد الراجح المستفاد من مستند قطعيا كان أو ظنيا . قال أبو السعود في تفسيره واستعماله بهذا المعنى مما لاينكر شيوعه * وأقول : ان هذه الآية قد دلت على عدم جواز العمل بما ليس بعلم ، ولكنها عامة مخصصة بالأدلة الواردة بجواز العمل بالظن كالعمل بالعام و بخبر الواحد والعمل بالشهادة والاجتهاد في القبلة وفي جزاء الصيد ونحو ذلك فلا تخرج من عمومها ومن عموم — ان الظن لا يغني من الحق شيئا — الا ما قام دليل جواز العمل به فالعمل بالرأى في مسائل الشرع ان كان لعدم وجود الدليل في الكتاب والسنة ، فقد رخص فيه النبي ﷺ كما في قوله ﷺ لمعاذ لما بعثه قاضيا بم تقضي ؟ قال بكتاب الله ، قال فان لم تجد ، قال فبسنة رسول الله ، قال فان لم تجد ، قال أجتهد رأيي : وهو حديث صالح للاحتجاج به كما أوضحنا ذلك في بحث مفرد ، وأما التوثب على الرأى مع وجود الدليل في الكتاب أو السنة ، ولكنه قصر صاحب الرأى عن البحث فجاء برأيه فهو داخل تحت هذا النهى دخولا أوليا ، لأنه محض رأى في شرع الله ، و بالناس عنه غنى بكتاب الله سبحانه و بسنة رسوله ﷺ ولم تدع اليه حاجة ، على أن الترخيص في الرأى عند عدم وجود الدليل انما هو رخصة للمجتهد يجوز له أن يعمل به ، ولم يدل دليل على أنه يجوز لغيره العمل به و ينزله منزلة مسائل الشرع ، و بهذا يتضح لك أتم اتضاح و يظهر لك أكمل ظهور أن هذه الآراء المدونة في الكتب الفروعية ليست من الشرع في شيء ، والعامل بها على شفا جرف هار ، فالمجتهد المستكثر من الرأى قد قفا ماليس له به علم ، والمقلد المسكين العامل برأى ذلك المجتهد قد عمل بما ليس له به علم ولا لمن قلده — ظلمات بعضها فوق بعض — وقد قيل ان هذه الآية خاصة بالعقائد ولا دليل على ذلك أصلا ، ثم علل سبحانه النهى عن العمل بما ليس بعلم بقوله (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) اشارة الى الأعضاء الثلاثة ، وأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسئولة عن أحوالها شاهدة على أصحابها . وقال الزجاج : ان العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك ، وأنشد ابن جرير مستدلا على جواز هذا قول الشاعر :

ذم المنازل بعد منزلة اللوى * والعيش بعد أولئك الأيام

واعترض بأن الرواية بعد أولئك الأقوام ، وتبعه غيره على هذا الخطأ كصاحب الكشاف . والضمير في كان من قوله (كان عنه مسئولا) يرجع الى كل ، وكذا الضمير في عنه ، وقيل الضمير في كان يعود الى القافي المدلول عليه بقوله (ولا تقف) * وقوله « عنه » في محل رفع لاسناد مسئولا اليه ، ورد بما حكاه النحاس من الاجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل اذا كان جارا أو مجرورا ، قيل والأولى أن يقال انه فاعل مسئولا المحذوف ، والمذكور مفسر له ، ومعنى سؤال هذه الجوارح أنه يسأل صاحبها عما استعملها فيه لأنها آلات والمستعمل لها هو الروح الانساني ، فان استعملها في الخير استحق الثواب ، وان استعملها في الشر استحق العقاب ، وقيل ان الله سبحانه ينطق الأعضاء هذه عند سؤالها فتخبر عما فعله صاحبها (ولا تمش في الأرض مرحا) المرح : قيل هو شدة الفرح ، وقيل التكبر في المشى ، وقيل تجاوز الانسان قدره ، وقيل الخيلاء في المشى ، وقيل البطر والأشر ، وقيل النشاط ، والظاهر أن المراد به هنا الخيلاء والفخر قال الزجاج في تفسير الآية لا تمش في الأرض مختالا فخورا ، وذكر الأرض مع أن المشى لا يكون الا عليها أو على ماهو معتمد عليها تأكيدا وتقريرا ، ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض الا تواضعا * فكم تحتها قوم هم منك أرفع

وان كنت فى عز وحرز ومنعة ﴿ فكم مات من قوم هم منك أمنع

والمرح مصدر وقع حالا : أى ذا مرح ، وفى وضع المصدر موضع الصفة نوع تأكيد . وقرأ الجمهور مرحا بفتح الراء على المصدر ، وحكى يعقوب عن جماعة كسرها على أنه اسم فاعل ، ثم علل سبحانه هذا النهى فقال (انك لن تخرق الأرض) يقال خرق الثوب : أى شقه ، وخرق الأرض قطعها ، والخرق : الواسع من الأرض ﴿ والمعنى أنك لن تخرق الأرض بمشيك عليها تكبرا ، وفيه تهكم بالمختال المتكبر (ولن تبلغ الجبال طولا) أى ولن تبلغ قدرتك الى أن تطاول الجبال حتى يكون عظم جثتك حاملا لك على الكبر والاختيال فلا قوة لك حتى تخرق الأرض بالمشى عليها ولاعظم فى بدنك حتى تطاول الجبال ، فما الحامل لك على ما أنت فيه ؟ وطولا مصدر فى موضع الحال أو تمييز أو مفعول له ، وقيل المراد بخرق الأرض نقبها لاقطعها بالمسافة . وقال الأزهرى خرقها قطعها . قال النحاس : وهذا أبين كأنه مأخوذ من الخرق ، وهو الفتحة الواسعة ، ويقال فلان أخرق من فلان : أى أكثر سفرا ، والاشارة بقوله (كل ذلك) الى جميع ماتقدم ذكره من الأوامر والنواهى ، أو الى مانهى عنه فقط من قوله (ولاتقف ولاتمش) قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى ومسروق سيئه على اضافة سيء الى الضمير ، ويؤيد هذه القراءة قوله (مكروها) فان السيء هو المكروه ، ويؤيدها أيضا قراءة أبى "كان سيآته" ، واختار هذه القراءة أبو عبيد . وقرأ ابن كثير ونافع وأبوعمرو سيئة على أنها واحدة السيئات ، وانتصابها على خبرية كان ، ويكون مكروها صفة لسيئة على المعنى ، فانها بمعنى سيئا ، أو هو بدل من سيئة ، وقيل هو خبر ثان لكان حملا على لفظ كل ورجح أبو على الفارسى البدل ، وقد قيل فى توجيهه بغير هذا مما فيه تعسف لايخفى . قال الزجاج : والاضافة أحسن ، لأن ماتقدم من الآيات فيها سيء وحسن ، فسيئه المكروه ويقوى ذلك التذكير فى المكروه ، قال ومن قرأ بالتنوين جعل «كل ذلك» احاطة بالمنهى عنه دون الحسن ، المعنى كل مانهى الله عنه كان سيئة وكان مكروها ، قال والمكروه على هذه القراءة بدل من السيئة وليس بنعت ، والمراد بالمكروه عند الله هو الذى يبغضه ولايرضاه ، لاأنه غير مراد مطلقا ، لقيام الأدلة القاطعة على أن الأشياء واقعة بارادته سبحانه ، وذكر مطلق الكراهة مع أن فى الأشياء المتقدمة ماهو من الكبائر اشعارا بأن مجرد الكراهة عنده تعالى يوجب انزجار السامع واجتنابه لذلك ﴿ والحاصل أن فى الخصال المتقدمة ماهو حسن وهو المأمور به ، وماهو مكروه وهو المنهى عنه ، فعلى قراءة الاضافة تكون الاشارة بقوله (كل ذلك) الى جميع الخصال حسنها ومكروهها ، ثم الاخبار بأن ماهو سيء من هذه الأشياء وهو المنهى عنه مكروه عند الله ، وعلى قراءة الافراد من دون اضافة تكون الاشارة الى المنهيات ، ثم الاخبار عن هذه المنهيات بأنها سيئة مكروهة عند الله (ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة) الاشارة الى ماتقدم ذكره من قوله (لاتجعل) الى هذه الغاية وترتقى الى خمسة وعشرين تكليفا ، مما أوحى اليك ربك : أى من جنسه أوبعض منه ، وسمى حكمة لأنه كلام محكم ، وهو ماعلمه من الشرائع أو من الأحكام المحكمة التى لايتطرق اليها الفساد ، وعند الحكماء أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته ، ومن الحكمة متعلق بمحذوف وقع حالا : أى كائنا من الحكمة ، أو بدل من الموصول باعادة الجار أو متعلق بأوحى (ولاتجعل مع الله إلها آخر) كرر سبحانه النهى عن الشرك تأكيدا وتقريرا وتنبيها على أنه رأس خصال الدين وعمدته ، قيل وقد راعى سبحانه فى هذا التأكيد دقيقة فرتب على الأول كونه مذموما مخذولا ، وذلك اشارة الى حال الشرك فى الدنيا ، ورتب على الثانى أنه يلقى (فى جهنم ملوما مدحورا) وذلك اشارة الى حاله فى الآخرة ، وفى القعود هناك ، والالقاء هنا اشارة الى أن الانسان فى الدنيا صورة اختيار بخلاف الآخرة ، وقد تقدم تفسير الملوم والمدحور (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ

XVII

من الملائكة اناثا) قال أبو عبيدة : أصفاكم خصكم ، وقال الفضل أخلصكم ، وهو خطاب للكفار القائلين بأن الملائكة بنات الله ، وفيه توبيخ شديد وتقريع بالغ لما كان يقوله هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضل ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره مما قد ذكرناه (انكم لتقولون) يعنى القائلين بأن لهم الذكور ولله الأناث (قولا عظيما) بالغا فى العظم والجراءة على الله الى مكان لا يقادر قدره (ولقد صرفنا فى هذا القرآن) أى بينا ضروب القول فيه من الأمثال وغيرها أو كررنا فيه ، وقيل فى زائدة والتقدير ولقد صرّفنا هذا القرآن ، والتصريف فى الأصل صرف الشىء من جهة الى جهة ، وقيل معنى التصريف المغايرة : أى غايرنا بين المواعظ ليذكروا ويعتبروا ، وقراءة الجمهور صرّفنا بالتشديد ، وقرأ الحسن بالتخفيف ثم علل تعالى ذلك فقال (ليذكروا) أى ليتعظوا ويتدبروا بعقولهم ويتفكروا فيه حتى يقفوا على بطلان مايقولونه . قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى ليذكروا مخففا ، والباقون بالتشديد ، واختارها أبو عبيد لما تفيده من معنى التكثير ، وجملة (ومايزيدهم الا نفورا) فى محل نصب على الحال : أى والحال أن هذا التصريف والتذكير مايزيدهم الا تباعدا عن الحق وغفلة عن النظر فى الصواب لأنهم قد اعتقدوا فى القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر ، وهم لا ينزعون عن هذه الغواية ولا وازع لهم يزعهم الى الهداية .

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله (ولا تقربوا مال اليتيم) قال : كانوا لا يخالطونهم فى مال ولا مأكل ولا مركب حتى نزلت ــ وان تخالطوهم فاخوانكم ــ . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (ان العهد كان مسئولا) قال يسأل الله ناقض العهد عن نقضه . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال : يسأل عهده من أعطاه إياه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (وأوفوا الكيل إذا كلتم) يعنى لغيركم (وزنوا بالقسطاس) يعنى الميزان ، وبلغة الروم الميزان القسطاس (ذلك خير) يعنى وفاء الكيل والميزان خير من النقصان (وأحسن تأويلا) عاقبة . وأخرج ابن أبى شيبة والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : القسطاس العدل بالرومية . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك قال : القسطاس القبان . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : الحديد . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولا تقف) قال : لا تقل . وأخرج ابن جرير عنه قال : لا ترم أحدا بما ليس لك به علم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن الحنفية فى الآية قال : شهادة الزور . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) يقول : سمعه وبصره وفؤاده تشهد عليه . وأخرج الفريابى عن ابن عباس فى قوله (كل أولئك كان عنه مسئولا) قال : يوم القيامة أكذلك كان أم لا ؟ وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (ولا تمش فى الأرض مرحا) قال : لا تمش فخرا وكبرا ، فان ذلك لا يبلغ بك الجبال ولا أن تخرق الأرض بفخرك وكبرك . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : ان التوراة فى خمس عشرة آية من بنى إسرائيل ثم تلا (ولا تجعل مع الله إلها آخر) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (مدحورا) قال مطرودا .

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا * يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا * وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ

لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ۞ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ۞ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۞ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۞

قوله (قل لو كان معه آلهة كما تقولون) قرأ ابن كثير وحفص يقولون بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب للقائلين بأن مع الله آلهة أخرى وإذن جواب عن مقالتهم الباطلة وجزاء للو (لابتغوا الى ذى العرش) وهو الله سبحانه (سبيلا) طريقا للمغالبة والممانعة كما تفعل الملوك مع بعضهم البعض من المقاتلة والمصاولة ، وقيل معناه اذن لابتغت الآلهة الى الله القربة والزلفة عنده ، لأنهم دونه ، والمشركون انما اعتقدوا أنها تقربهم الى الله ۞ والظاهر المعنى الأول ، ومثل معناه قوله سبحانه ـ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ـ ثم نزه تعالى نفسه ، فقال (سبحانه) والتسبيح التنزيه ، وقد تقدم (وتعالى) متباعد (عما يقولون) من الأقوال الشنيعة والفرية العظيمة (علوا) أى تعاليا ، ولكنه وضع العلو موضع التعالى كقوله ـ والله أنبتكم من الأرض نباتا ـ ، ثم وصف العلو بالكبر مبالغة فى النزاهة ، وتنبيها على أن بين الواجب لذاته والممكن لذاته ، وبين الغنى المطلق ، والفقير المطلق مباينة لا تعقل الزيادة عليها ، ثم بين سبحانه جلالة ملكه وعظمة سلطانه ، فقال (يسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) قرئ بالمثناة التحتية فى يسبح وبالفوقية ، وقال «فيهن» بضمير العقلاء لاسناده اليها التسبيح الذى هو فعل العقلاء ، وقد أخبر سبحانه عن السموات والأرض بأنها تسبحه ، وكذلك من فيها من مخلوقاته الذين لهم عقول وهم الملائكة والانس والجن وغيرهم من الأشياء التى لا تعقل ، ثم زاد ذلك تعميما وتأكيدا ، فقال (وان من شىء الا يسبح بحمده) فشمل كل ما يسمى شيئا كائنا ما كان ، وقيل انه يحمل قوله (ومن فيهن) على الملائكة والثقلين ، ويحمل «وان من شىء إلا يسبح بحمده» على ما عدا ذلك من المخلوقات .

وقد اختلف أهل العلم فى هذا العموم هل هو مخصوص أم لا ؟ فقالت طائفة ليس بمخصوص ، وحملوا التسبيح على تسبيح الدلالة ، لأن كل مخلوق يشهد على نفسه ويدل غيره بأن الله خالق قادر ، وقالت طائفة هذا التسبيح على حقيقته والعموم على ظاهره ، والمراد أن كل المخلوقات تسبح لله سبحانه هذا التسبيح الذى معناه التنزيه ، وان كان البشر لا يسمعون ذلك ولا يفهمونه ، ويؤيد هذا قوله سبحانه (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) فانه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمرا مفهوما لكل أحد ، وأجيب بأن المراد بقوله لا تفقهون الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار ، وقالت طائفة ان هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين دون الجمادات ، وقيل خاص بالأجسام النامية فيدخل النباتات ، كما روى هذا القول عن عكرمة والحسن وخصا تسبيح النباتات بوقت نموها لا بعد قطعها . وقد استدل لذلك بحديث أن النبى ﷺ مر على قبرين ، وفيه ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين . وقال انه يخفف عنهما ما لم ييبسا ، ويؤيد حمل الآية على العموم قوله ـ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق ـ وقوله ـ وإن منها لما يهبط من خشية الله ـ ، وقوله ـ وتخر الجبال هدا ـ ونحو ذلك من الآيات ، وثبت فى الصحيح أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام ، وهم يأكلون مع رسول الله ﷺ ، وهكذا حديث حنين الجذع ، وحديث أن حجرا بمكة كان يسلم على النبى ﷺ ، وكلها فى الصحيح ، ومن ذلك تسبيح الحصى فى كفه

صلى

ﷺ ، ومدافعة عموم هذه الآية بمجرّد الاستبعادات ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه و يؤمن بما جاء من عنده ، ومعنى « إلا يسبح بحمده » إلا يسبح متلبسا بحمده ولكن تفقهون تسبيحهم . قرأ الحسن وأبو عمرو ، و يعقوب ، وحفص ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف تسبح بالمثناة الفوقية على الخطاب ، وقرأ الباقون بالتحتية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد (انه كان حليما غفورا) فمن حلمه الامهال لكم ، وعدم انزال عقوبته عليكم ، ومن مغفرته لكم أنه لايؤاخذ من تاب منكم * ولما فرغ سبحانه من الالهيات شرع فى ذكر بعض من آيات القرآن وما يقع من سامعيه ، فقال (و إذا قرأت القرآن جعلنا بينك و بين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) جعلنا بينك يامحمد و بين المشركين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا : أى انهم لاعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك و بينه حجاب يمرّون بك ولا يرونك ، ذكر معناه الزجاج وغيره ، ومعنى مستورا ساتر . قال الأخفش : أراد ساترا ، والفاعل قد يكون فى لفظ المفعول كما تقول : انك لمشئوم وميموم ، وانما هو شائم ويامن ، وقيل معنى مستورا ذاستر ، كقولهم سيل مفعم : أى ذو إفعام ، وقيل هو حجاب لاتراه الأعين فهو مستور عنها ، وقيل حجاب من دونه حجاب فهو مستور بغيره ، وقيل المراد بالحجاب المستور الطبع والختم (وجعلنا على قلوبهم أكنة) الأكنة : جمع كنان . وقد تقدّم تفسيره فى الأنعام ، وقيل هو حكاية لما كانوا يقولونه من قولهم ــ قلوبنا غلف وفى آذاننا وقر ومن بيننا و بينك حجاب ــ و (أن يفقهوه) مفعول لأجله : أى كراهة أن يفقهوه ، أو لئلا يفقهوه : أى يفهموا مافيه من الأوامر ، والنواهى ، والحكم ، والمعانى (وفى آذانهم وقرا) أى صمما وثقلا ، وفى الكلام حذف ، والتقدير ان يسمعوه ، ومن قبائح المشركين أنهم كانوا يحبون أن يذكر آلهتهم كما يذكر الله سبحانه فاذا سمعوا ذكر الله دون ذكر آلهتهم نفروا عن المجلس ، ولهذا : قال الله (و إذا ذكرت ربك فى القرآن وحده) أى واحدا غير مشفوع بذكر آلهتهم ، فهو مصدر وقع موقع الحال (ولوا على أدبارهم نفورا) هو مصدر ، والتقدير هربوا نفورا ، أو نفروا نفورا ، وقيل : جمع نافر كقاعد وقعود * والأول أولى ، ويكون المصدر فى موضع الحال : أى ولوا نافرين (نحن أعلم بما يستمعون به) أى يستمعون اليك متلبسين به من الاستخفاف بك و بالقرآن واللغو فى ذكرك لربك وحده ، وقيل الباء زائدة ، والظرف فى (إذ يستمعون إليك) متعلق بأعلم أى نحن أعلم وقت يستمعون إليك بما يستمعون به ، وفيه تأكيد للوعيد ، وقوله (و إذهم نجوى) متعلق بأعلم أيضا : أى ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجيهم ، وقد كانوا يتناجون بينهم بالتكذيب والاستهزاء ، و (إذ يقول) بدل من إذهم نجوى (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) أى يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم : ماتتبعون إلا رجلا سحر فاختلط عقله وزال عن حدّ الاعتدال . قال ابن الأعرابى المسحور الذاهب العقل الذى أفسد من قولهم طعام مسحور اذا أفسد عمله وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغى نأفسدها ، وقيل المسحور المخدوع ، لأن السحر حيلة وخديعة ، وذلك لأنهم زعموا أن محمدا ﷺ كان يتعلم من بعض الناس ، وكانوا يخدعونه بذلك التعليم ، وقال أبو عبيدة معنى مسحورا أن له سحرا : أى رئة ، فهو لايستغنى عن الطعام والشراب فهو مثلكم ، وتقول العرب للجبان : قد انتفخ سحره وكل من كان يأكل من آدمى أوغيره مسحور ، ومنه قول امرئ القيس :

أرانا موضعين لأمر غيب * ونسحر بالطعام وبالشراب

أى نغذى ونعلل . قال ابن قتيبة : لا أدرى ماحمله على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسروه بالوجوه الواضحة (انظر كيف ضربوا لك الأمثال) أى قالوا تارة انك كاهن ، وتارة ساحر ، وتارة شاعر وتارة مجنون (فضلوا) عن طريق الصواب فى جميع ذلك (فلا يستطيعون سبيلا) الى الهدى ، أوالى

الطعن الذى تقبله العقول و يقع التصديق له ، لاأصل الطعن فقد فعلوامنه ماقدروا عليه ، وقيل لايستطيعون مخرجا لتناقض كلامهم كقولهم : ساحر مجنون .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (إذن لابتغوا الى ذى العرش سبيلا) قال : على أن يزيلوا ملكه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الاسماء والصفات عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ﷺ « ليلة أسرى به الى المسجد الأقصى كان جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فطارا به حتى بلغ السموات العلى ، فلما رجع قال : سمعت تسبيحا من السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى من ذى المهابة مشفقات لذى العلو بما علا سبحان العلى الأعلى سبحانه وتعالى » وأخرج ابن مردويه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : وهو جالس مع أصحابه إذ سمع هدّة ، فقال « أطت السماء وحقها أن تئط ، والذى نفس محمد بيده مافيها موضع شبر إلا فيه جبهة ملك ساجد يسبح بحمده » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبوالشيخ فى العظمة عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « ألا أخبركم بشىء أمر به نوح ابنه ؟ إن نوحا قال : لابنه يابنى آمرك أن تقول سبحان الله ، فانها صلاة الخلائق وتسبيح الخلق ، وبها يرزق الخلق » قال الله تعالى (وان من شىء الا يسبح بحمده) . وأخرج أحمد وابن مردويه من حديث ابن عمر نحوه وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى أمامة قال : «مامن عبد سبح تسبيحة الاسبح ماخلق الله من شىء » قال الله (وان من شىء إلايسبح بحمده) قال ابن كثير إسناده فيه ضعف . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله «قرصت نملة نبيا من الأنبياء ، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله اليه من أجل نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح . وأخرج النسائى وأبوالشيخ وابن مردويه عن ابن عمرو قال : نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال نقيقها تسبيح . وأخرج أبوالشيخ فى العظمة وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (وان من شىء إلايسبح بحمده) قال : الزرع يسبح وأجره لصاحبه ، والثوب يسبح ويقول الوسخ ان كنت مؤمنا فاغسلنى اذن . وأخرج أبوالشيخ عنه قال : كل شىء يسبح إلا الكلب والحمار . وأخرج ابن راهويه فى مسنده من طريق الزهرى قال : أتى أبو بكر بغراب وافر الجناحين ، فجعل ينشر جناحيه ويقول ماصيد من صيد ولاعضد من سجرة الا بما ضيعت من التسبيح . وأخرجه أحمد فى الزهد وأبو الشيخ عن ميمون بن مهران قال : أتى أبو بكر الصديق فذكره من قوله غير مرفوع . وأخرجه أبو نعيم فى الحلية وابن مردويه من حديث أبى هريرة بنحوه . وأخرج ابن مردويه من حديث ابن مسعود بمعنى بعضه . وأخرج أبو الشيخ من حديث أبى الدرداء بمعناه . وأخرج ابن عساكر من حديث أبى رهم نحوه . وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : هذه الآية فى التوراة كقدر ألف آية (وان من شىء إلايسبح بحمده) قال : فى التوراة تسبح له الجبال ، و يسبح له الشجر ، و يسبح له كذا ويسبح له كذا . وأخرج أحمد وأبوالشيخ عن ابن عباس قال : صلى داود ليلة حتى أصبح ، فلما أصبح وجد فى نفسه سرورا فنادته ضفدعة ياداود كنت أدأب منك قد أغفيت اغفاءه . وأخرج البيهقى فى الشعب عن صدقة بن يسار قال : كان داود فى محرابه فأبصر دودة صغيرة ففكر فى خلقها وقال : مايعبأ الله بخلق هذه ، فأنطقها الله فقالت : ياداود أتعجبك نفسك لأنا على قدر ما آتانى الله أذكر لله وأشكر له منك على ما آتاك الله قال الله (وإن من شىء إلايسبح بحمده) وفى الباب أحاديث وروايات عن السلف فيها التصريح بتسبيح جميع المخلوقات . وأخرج أبو يعلى وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن أسماء بنت أبى بكر قال : لما نزلت ــ تبت يدا أبى لهب ــ أقبلت العوراء أم جميل ولها ولولة ، وفى يدها فهر ، وهى تقول :

XVII.52-57

مذمما أبينا ٭ ودينه قلينا ٭ وأمره عصينا ٭ ورسول الله جالس وأبو بكر الى جنبه ، فقال أبو بكر : لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك فقال : انها لن ترانى، وقرأ قرآنا اعتصم به كما قال تعالى (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) فجاءت حتى قامت على أبى بكر فلم تر النبي ﷺ فقالت : ياأبا بكر بلغنى أن صاحبك هجانى ، فقال أبو بكر : لاورب هذا البيت ماهجاك ، فانصرفت وهى تقول : قد علمت قريش أنى بنت سيدها ، وقد رويت هذه القصة بألفاظ مختلفة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) قال : الحجاب المستور أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وأن ينتفعوا به أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن زهير بن محمد فى الآية . قال ذاك رسول الله ﷺ اذا قرأ القرآن على المشركين بمكة سمعوا قراءته ولايرونه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (ولوا على أدبارهم نفورا) قال : الشياطين . وأخرج ابن مردويه عنه فى قوله : اذيستمعون اليك قال : عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل .

وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ٭ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ٭ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ٭ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ٭ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ٭ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ٭ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ٭

لما فرغ سبحانه من حكاية شبه القوم فى النبوات حكى شبهتهم فى أمر المعاد ، فقال (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا) والاستفهام للاستنكار والاستبعاد ٭ وتقرير الشبهة أن الانسان إذا مات جفت عظامه وتناثرت وتفرقت فى جوانب العالم ، واختلطت بسائطها بأمثالها من العناصر ، فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها ، ثم عود الحياة الى ذلك المجموع ، فأجاب سبحانه عنهم بأن اعادة بدن الميت الى حال الحياة أمر ممكن ، ولو فرضتم أن بدنه قد صار أبعد شىء من الحياة ومن رطوبة الحى كالحجارة والحديد ، فهو كقول القائل : أتطمع فىّ وأنا ابن فلان ، فيقول كن ابن السلطان أو ابن من شئت فسأطلب منك حقى ، والرفات ماتكسر وبلى من كل شىء كالفتات والحطام والرضاض ، قاله أبو عبيدة والكسائى والفراء والأخفش تقول منه: رفت الشىء رفتا : أى حطم فهو مرفوت ، وقيل الرفات الغبار ، وقيل التراب (ءإنا لمبعوثون خلقا جديدا) كرّر الاستفهام الدالّ على الاستنكار والاستبعاد تأكيدا ، وتقريرا ، والعامل فى إذا هو مادلّ عليه لمبعوثون ، لاهو نفسه ، لأن مابعد انّ والهمزة واللام لايعمل فيما قبلها ، والتقدير ءإذا كنا عظاما ورفاتا نبعث ءإنا لمبعوثون ، وانتصاب خلقا على المصدرية من غير لفظه ، أو على الحال : أى مخلوقين ، وجديدا صفة له (قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا) آخر (مما يكبر فى صدوركم) قال ابن جرير : معناه ان عجبتم من إنشاء الله لكم عظاما ولحما فكونوا أنتم حجارة أو حديدا إن قدرتم على ذلك ،

وقال على بن عيسى : معناه انكم لوكنتم حجارة أوحديدا لم تفوتوا الله عزّوجلّ اذا أرادكم * إلاأنه خرج مخرج الأمر لأنه أبلغ فى الالزام ، وقيل معناه لوكنتم حجارة أو حديدا لأعادكم كما بدأكم ولأماتكم ثم أحياكم . قال النحاس : وهذا قول حسن ، لأنهم لايستطيعون أن يكونوا حجارة أوحديدا ، وانما المعنى أنهم قد أقرّوا بخالقهم وأنكروا البعث فقيل لهم استشعروا أن تكونوا ماشئتم فلوكنتم حجارة أو حديدا لبعثتم كما خلقتم أوّل مرة * قلت وعلى هذا الوجه قررنا جواب الشبهة قبل هذا (أو خلقا مما يكبر فى صدوركم) أى يعظم عندكم مما هو أكبر من الحجارة والحديد مباينة للحياة فانكم مبعوثون لامحالة ، وقيل المراد به السموات والأرض والجبال لعظمها فى النفوس ، وقال جماعة من الصحابة والتابعين المراد به الموت ، لأنه ليس شىء أكبر فى نفس ابن آدم منه * والمعنى لوكنتم الموت لأماتكم الله ثم بعثكم ، ولايخفى مافى هذا من البعد ، فان معنى الآية الترقى من الحجارة الى الحديد ، ثم من الحديد الى ماهو أكبر فى صدور القوم منه ، والموت نفسه ليس بشىء يعقل ويحسّ حتى يقع الترقى من الحديد اليه ، (فسيقولون من يعيدنا) اذا كنا عظاما ورفاتا ، أو حجارة ، أوحديدا مع مابين الحالتين من التفاوت (قل الذى فطركم أوّل مرّة) أى يعيدكم الذى خلقكم واخترعكم عند ابتداء خلقكم من غير مثال سابق ولاصورة متقدّمة (فسينغضون اليك رءوسهم) أى يحركونها استهزاء ، يقال نغض رأسه ينغض و ينغض و ينغض نغضا ونغوضا : أى تحرك وأنغض رأسه حركه كالمتعجب ، ومنه قول الراجز :

* أنغض نحوى رأسه وأقنعا * وقول الراجز الآخر : * ونغضت من هرم أسنانها *

وقال آخر : * لما رأتنى أنغضت لى رأسها * (ويقولون متى هو) أى البعث والاعادة استهزاء منهم وسخرية (قل عسى أن يكون قريبا) أى هو قريب ، لأن عسى فى كلام الله واجب الوقوع ، ومثله ــ ومايدريك لعلّ الساعة تكون قريبا ــ وكلّ ماهو آت قريب (يوم يدعوكم) الظرف منتصب بفعل مضمر : أى اذكر ، أو بدل من قريبا ، أوالتقدير يوم يدعوكم كان ما كان ، الدعاء النداء إلى المحشر بكلام يسمعه الخلائق ، وقيل هوالصيحة التى تسمعونها ، فتكون داعية لهم الى الاجتماع فى أرض المحشر (فتستجيبون بحمده) أى منقادين له حامدين لما فعله بكم فهو فى محل نصب على الحال وقيل المعنى فتستجيبون والحمد لله ، كما قال الشاعر :

وانى بحمد الله لاثوب فاخر * لبست ولامن غدرة أتقنع

وقد روى أن الكفار عند خروجهم من قبورهم يقولون : سبحانك وبحمدك ، وقيل المراد بالدعاء هنا البعث ، وبالاستجابة أنهم يبعثون ، فالمعنى يوم يبعثكم فتبعثون منقادين (وتظنون إن لبثتم الا قليلا) أى تظنون عند البعث أنكم مالبثتم فى قبوركم إلا زمنا قليلا ، وقيل بين النفختين ، وذلك أن العذاب يكف عن المعذبين بين النفختين ، وذلك أربعون عاما ينامون فيها ، فلذلك ــ قالوا من بعثنا من مرقدنا ــ ، وقيل ان الدنيا تحقرت فى أعينهم ، وقلت حين رأوا يوم القيامة ، فقالوا هذه المقالة (وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن) أى قل يامحمد لعبادى المؤمنين انهم يقولون عند محاورتهم للمشركين الكلمة التى هى أحسن من غيرها من الكلام الحسن كقوله سبحانه ــ ولاتجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن ــ وقوله ــ فقولا له قولا لينا ــ لأن المخاشنة لهم ربما تنفرهم عن الاجابة ، أو تؤدّى الى ما قال سبحانه ــ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ــ وهذا كان قبل نزول آية السيف ، وقيل المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله وينهوا عما نهى عنه ، وقيل هذه الآية للمؤمنين فيما بينهم خاصة ، والأول أولى كما يشهد به السبب الذى سنذكره انشاء الله (ان الشيطان

ينزغ

ينزغ بينهم) أى بالفساد و إلقاء العداوة والاغراء . قال اليزيدى : يقال نزغ بيننا : أى أفسد . وقال غيره : النزغ الاغراء (إن الشيطان كان للانسان عدوّا مبينا) أى متظاهرا بالعداوة مكاشفا بها ، وهو تعليل لما قبله ، وقد تقدم مثل هذا فى البقرة (ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم) قيل هذا خطاب للمشركين * والمعنى ان يشأ يوفقكم للاسلام فيرحمكم أو يميتكم على الشرك فيعذبكم ، وقيل هو خطاب للمؤمنين : أى إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من الكفار أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم ، وقيل ان هذا تفسير للكلمة التى هى أحسن (وما أرسلناك عليهم وكيلا) أى ماوكلناك فى منعهم من الكفر ، وقسرهم على الايمان ، وقيل ماجعلناك كفيلا لهم تؤخذ بهم ، ومنه قول الشاعر :

ذكرت أبا أروى فبتّ كأننى * بردّ الأمور الماضيات وكيل

أى كفيل (وربك أعلم بمن فى السموات والأرض) أعلم بهم ذاتا وحالا واستحقاقا ، وهو أعمّ من قوله — ربكم أعلم بكم — لأن هذا يشمل كل مافى السموات والأرض من مخلوقاته ، وذاك خاص ببنى آدم أو ببعضهم ، وهذا كالتوطئة لقوله (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) أى ان هذا التفضيل عن علم منه بمن هو أعلى رتبة ، وبمن دونه ، وبمن يستحق مزيد الخصوصية بتكثير فضائله وفواضله . وقد تقدم هذا فى البقرة . وقد اتخذ الله ابراهيم خليلا ، وموسى كليما ، وجعل عيسى كلمته وروحه ، وجعل لسليمان ملكا عظيما ، وغفر لمحمد ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وجعله سيد ولد آدم ، وفى هذه الآية دفع لما كان ينكره الكفار مما يحكيه رسول الله ﷺ من ارتفاع درجته عند ربه عزّ وجلّ ، ثم ذكر ما فضل به داود ، فقال (وآتينا داود زبورا) أى كتابا مزبورا . قال الزجاج : أى فلا تنكروا تفضيل محمد واعطاءه القرآن فقد أعطى الله داود زبورا .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ورفاتا) قال : غبارا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله ورفاتا قال : ترابا ، وفى قوله (قل كونوا حجارة أو حديدا) قال : ماشئتم فكونوا ، فسيعيدكم الله كما كنتم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله (أو خلقا مما يكبر فى صدوركم) قال الموت لو كنتم موتا لأحييتكم . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن جرير والحاكم عن ابن عباس مثله . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن الحسن مثله أيضا . وأخرج عبد الله بن أحمد وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه ، وزاد قال فكونوا الموت ان استطعتم فان الموت سيموت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فسينغضون اليك رءوسهم) قال : سيحركونها استهزاء . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد فى قوله (ويقولون متى هو) قال : الاعادة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (فتستجيبون بحمده) قال : بأمره . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية قال : يخرجون من قبورهم وهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة (فتستجيبون بحمده) قال : بمعرفته وطاعته (وتظنون ان لبثتم الا قليلا) أى فى الدنيا تحاقرت الدنيا فى أنفسهم ، وقلت حين عاينوا يوم القيامة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن سيرين فى قوله (وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن) قال : لا إله إلا الله . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال : يعفوا عن السيئة . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : يقول له يرحمك الله يغفر الله لك . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : نزغ الشيطان تحريشه . وأخرج ابن جرير وابن

XVII، ٧٧-٦٥

أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وآتينا داود زبورا) قال : كنا نحدّث أنه دعاء علمه داود وتحميد وتمجيد لله عزّ وجلّ ليس فيه حلال ولاحرام ولافرائض ولاحدود . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس قال : الزبور ثناء على الله ودعاء وتسبيح * قلت الأمر كما قاله قتادة والربيع فانا وقفنا على الزبور فوجدناه خطبا يخطبها داود عليه السلام ويخاطب بها ربه سبحانه عند دخوله الكنيسة ، وجملته مائة وخمسون خطبة كل خطبة تسمى مزمورا بفتح الميم الأولى وسكون الزاى وضم الميم الثانية وآخره راء ، ففى بعض هذه الخطب يشكو داود على ربه من أعدائه ويستنصره عليهم ، وفى بعضها يحمد الله ويمجده ويثنى عليه بسبب ماوقع من النصر عليهم والغلبة لهم ، وكان عند الخطبة يضرب بالقيثارة ، وهى آلة من آلات الملاهى ، وقد ذكر السيوطى فى الدرّ المنثور ههنا روايات عن جماعة من السلف يذكرون ألفاظا وقفوا عليها فى الزبور ليس لها كثير فائدة ، فقد أغنى عنها وعن غيرها ما اشتمل عليه القرآن من المواعظ والزواجر .

قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا * وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا * وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا * وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِي أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا *

قوله (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه) هذا ردّ على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على أنها صور الملائكة ، وعلى طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بإلهية عيسى ومريم وعزير ، فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يقول لهم : ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله ، وقيل أراد بالذين زعمتم نفرا من الجن عندهم ناس من العرب ، وانما خصصت الآية بمن ذكرنا لقوله (يبتغون الى ربهم الوسيلة) ، فان هذا لايليق بالجمادات (فلا يملكون كشف الضر عنكم) أى لايستطيعون ذلك ، والمعبود الحق هو الذى يقدر على كشف الضر ، وعلى تحويله من حال إلى حال ، ومن مكان الى مكان ، فوجب القطع بأن هذه التى تزعمونها آلهة ليست بآلهة ، ثم انه سبحانه أكد عدم اقتدارهم ببيان غاية افتقارهم الى الله فى جلب المنافع ودفع المضارّ ، فقال (أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة) فأولئك مبتدأ والذين يدعون صفته ، وضمير الصلة محذوف : أى يدعونهم ، وخبر المبتدا يبتغون الى ربهم الوسيلة ، ويجوز أن يكون الذين يدعون خبر المبتدا : أى الذين يدعون عباده إلى عبادتهم ، ويكون يبتغون فى محل نصب على الحال . وقرأ ابن مسعود تدعون بالفوقية على الخطاب . وقرأ الباقون بالتحتية على الخبر ، ولاخلاف فى يبتغون انه بالتحتية ، والوسيلة القربة بالطاعة والعبادة : أى يتضرعون الى الله فى طلب مايقربهم الى ربهم ، والضمير فى ربهم يعود الى العابدين أو المعبودين (أيهم أقرب) مبتدأ وخبر . قال الزجاج المعنى : أيهم أقرب بالوسيلة الى الله : أى يتقرّب اليه بالعمل الصالح ، ويجوز أن يكون بدلا من

الضمير فى يبتغون : أى يبتغى من هو أقرب اليه تعالى الوسيلة ، فكيف بمن دونه ؟ وقيل ان يبتغون مضمن معنى يحرصون : أى يحرصون أيهم أقرب اليه سبحانه بالطاعة والعبادة (ويرجون رحمته) كما يرجوها غيرهم (ويخافون عذابه) كما يخافه غيرهم (ان عذاب ربك كان محذورا) تعليل لقوله يخافون عذابه : أى ان عذابه سبحانه حقيق بأن يحذره العباد من الملائكة والأنبياء وغيرهم * ثم بين سبحانه مآل الدنيا وأهلها فقال (وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة) ان نافية ، ومن للاستغراق : أى مامن قرية . أىّ قرية كانت من قرى الكفار ، قال الزجاج . أى مامن أهل قرية إلا سيهلكون إما بموت وإما بعذاب يستأصلهم ، فالمراد بالقرية أهلها ، وانما قيل قبل يوم القيامة ، لأن الاهلاك يوم القيامة غير مختص بالقرى الكافرة ، بل يعمّ كل قرية لانقضاء عمر الدنيا ، وقيل الاهلاك للصالحة والتعذيب للطالحة ، والأوّل أولى لقوله ـ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ـ (كان ذلك) المذكور من الاهلاك ، والتعذيب (فى الكتاب) أى اللوح المحفوظ (مسطورا) أى مكتوبا ، والسطر الخط وهو فى الأصل مصدر ، والسطر بالتحريك مثله . قال جرير :

من شاء بايعته مالى وخلفته * ماتكمل التيم فى ديوانها سطرا

والخلفة بضم الخاء خيار المال ، والسطر جمع أسطار ، وجمع السطر بالسكون أسطر (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأوّلون) قال المفسرون : ان أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا وأن ينحى عنهم جبال مكة ، فأتاه جبريل ، فقال ان شئت كان ماسأل قومك ، ولكنهم ان لم يؤمنوا لم يمهلوا ، وان شئت استأنيت بهم ، فأنزل الله هذه الآية * والمعنى ومامنعنا من إرسال الآيات التى سألوها الا تكذيب الأوّلين ، فان أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله سبحانه فى عباده ، فالمنع مستعار للترك ، والاستثناء مفرّغ من أعمّ الأشياء : أى ماتركنا إرسالها لشىء من الأشياء الا تكذيب الأوّلين ، فان كذب بها هؤلاء كما كذب بها أولئك لاشتراكهم فى الكفر والعناد حلّ بهم ماحلّ بهم ، وأن الأولى فى محل نصب بايقاع المنع عليها ، وأن الثانية فى محل رفع ، والباء فى بالآيات زائدة * والحاصل أن المانع من إرسال الآيات التى اقترحوها هو أن الاقتراح مع التكذيب موجب للهلاك الكلى ، وهو الاستئصال ، وقد عزمنا على أن نؤخر أمر من بعث اليهم محمد ﷺ الى يوم القيامة ، وقيل معنى الآية ان هؤلاء الكفار من قريش ونحوهم مقلدون لآبائهم فلا يؤمنون ألبتة كما لم يؤمن أولئك ، فيكون إرسال الآيات ضائعا ، ثم انه سبحانه استشهد على ماذكر بقصة صالح وناقته ، فانهم لما اقترحوا عليه مااقترحوا من الناقة وصفتها التى قد بينت فى محل آخر وأعطاهم الله مااقترحوا لم يؤمنوا استؤصلوا بالعذاب ، وانما خصّ قوم صالح بالاستشهاد ، لأن آثار اهلاكهم فى بلاد العرب قريبة من قريش وأمثالهم يبصرها صادرهم وواردهم ، فقال (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) أى ذات إبصار يدركها الناس بأبصارهم كقوله ـ وجعلنا آية النهار مبصرة ـ أو أسند اليها حال من يشاهدها مجازا ، أو أنها جعلتهم ذوى ابصار ، من أبصره جعله بصيرا . وقرئ على صيغة المفعول . وقرئ بفتح الميم والصاد وانتصابها على الحال . وقرئ برفعها على أنها خبر مبتدأ محذوف ، والجملة معطوفة على محذوف يقتضيه سياق الكلام : أى فكذبوها وآتينا ثمود الناقة ، ومعنى (فظلموا بها) فظلموا بتكذيبها أو على تضمين ظلموا معنى جحدوا أو كفروا : أى فجحدوا بها أوكفروا بها ظالمين ولم يكتفوا بمجرد الكفر أو الجحد (وما نرسل بالآيات الا تخويفا) اختلف فى تفسير الآيات على وجوه : الأوّل أن المراد بها العبر والمعجزات التى جعلها الله على أيدى الرسل من دلائل الانذار تخويفا للمكذبين ، الثانى أنها آيات الانتقام تخويفا من المعاصى ، الثالث تقلب الأحوال من صغر

الى شباب ، ثم إلى تكهل ، ثم إلى شيب ليعتبر الانسان بتقلب أحواله فيخاف عاقبة أمره ، الرابع آيات القرآن ، الخامس الموت الذريع ، والمناسب للمقام أن تفسر الآيات المذكورة بالآيات المقترحة : أى لانرسل الآيات المقترحة إلا تخويفا من نزول العذاب ، فان لم يخافوا وقع عليهم ، والجملة مستأنفة لامحل لها ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير ظلموا بها : أى فظلموا بها ولم يخافوا ، والحال أن مانرسل بالآيات التى هى من جملتها الا تخويفا . قال ابن قتيبة وما نرسل بالآيات المقترحة الا تخويفا من نزول العذاب العاجل ﴿ ولما ذكر سبحانه الامتناع من إرسال الآيات المقترحة على رسوله لصارف المذكور قوى قلبه بوعد النصر والغلبة ، فقال (وإذقلنا لك إن ربك أحاط بالناس) الظرف متعلق بمحذوف : أى اذكر اذ قلنا لك : أى انهم فى قبضته وتحت قدرته فلا سبيل لهم إلى الخروج مما يريده بهم لاحاطته لهم بعلمه وقدرته ، وقيل المراد بالناس أهل مكة ، واحاطته بهم إهلاكه إياهم : أى ان الله سيهلكهم ، وعبر بالماضى تنبيها على تحقق وقوعه ، وذلك كما وقع يوم بدر ويوم الفتح ، وقيل المراد أنه سبحانه عصمه من الناس أن يقتلوه حتى يبلغ رسالة ربه (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) لما بين سبحانه أن إنزال الآيات يتضمن التخويف ضم إليه ذكر آية الاسراء ، وهى المذكورة فى صدر السورة ، وسماها رؤيا ، لأنها وقعت بالليل ، أولأن الكفرة قالوا لعلها رؤيا ، وقد قدمنا فى صدر السورة وجها آخر فى تفسير هذه الرؤيا ، وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبى ﷺ أنه أسرى به ، وقيل كانت رؤيا نوم ، وأن النبى ﷺ رأى أنه يدخل مكة فافتتن المسلمون لذلك ، فلما فتح الله مكة نزل قوله تعالى — لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق — وقد تعقب هذا بأن هذه الآية مكية ، والرؤيا المذكورة كانت بالمدينة ، وقيل ان هذه الرؤيا المذكورة فى هذه الآية هى أنه رأى بنى مروان ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك ، فقيل انما هى الدنيا أعطوها فسرى عنه ، وفيه ضعف ، فانه لافتنة للناس فى هذه الرؤيا الا أن يراد بالناس رسول الله ﷺ وحده ، ويراد بالفتنة ماحصل من المساءة لرسول الله ﷺ ، أو يحمل على أنه قد كان أخبر الناس بها فافتتنوا ، وقيل ان الله سبحانه أراه فى المنام مصارع قريش ، حتى قال والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم وهو يومئ الى الأرض ، ويقول : هذا مصرع فلان ، هذا مصرع فلان ، فلما سمع قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية (والشجرة الملعونة فى القرآن) عطف على الرؤيا ، قيل وفى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير وما جعلنا الرؤيا التى أريناك والشجرة الملعونة فى القرآن الا فتنة للناس . قال جمهور المفسرين ، وهى شجرة الزقوم ، والمراد بلعنها لعن آكلها ، كما قال سبحانه — إن شجرة الزقوم طعام الأثيم — ، وقال الزجاج : ان العرب تقول لكل طعام مكروه ملعون ، ومعنى الفتنة فيها أن أبا جهل وغيره قالوا : زعم صاحبكم أن نار جهنم تحرق الحجر ، ثم يقول ينبت فيها الشجر ، فأنزل الله هذه الآية ، وروى أن أباجهل أمر جارية فأحضرت تمرا وزبدا ، وقال لأصحابه تزقموا ، وقال ابن الزبعرى : كثر الله من الزقوم فى داركم فانه التمر بالزبد بلغة اليمن ، وقيل ان الشجرة الملعونة هى الشجرة التى تلتوى على الشجر فتقتلها ، وهى شجرة الكشوث ، وقيل هى الشيطان ، وقيل اليهود ، وقيل بنوأمية (ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا) أى نخوفهم بالآيات فما يزيدهم التخويف الا طغيانا متجاوزا للحد متماديا غاية التمادى فما يفيدهم إرسال الآيات الا الزيادة فى الكفر ، فعند ذلك نفعل بهم مافعلناه بمن قبلهم من الكفار ، وهو عذاب الاستئصال ولكنا قد قضينا بتأخير العقوبة .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة والبخارى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم فى الدلائل عن ابن مسعود فى قوله

(قل

(قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضرّ عنكم ولا تحويلا) قال : كان نفر من الانس يعبدون نفرا من الجنّ ، فأسلم النفر من الجنّ وتمسك الانسيون بعبادتهم ، فأنزل الله (أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة) كلاهما ، يعنى الفعلين بالياء التحتية ، وروى نحو هذا عن ابن مسعود من طرق أخرى . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : كان أهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزير ، وروى عنه من وجه آخر بلفظ عيسى وأمه وعزير ، وروى عنه أيضا من وجه آخر بلفظ ، هم عيسى وعزير ، والشمس ، والقمر . وأخرج الترمذى وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ، سلوا الله لى الوسيلة ، قالوا وما الوسيلة ؟ قال القرب من الله ، ثم قرأ يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابراهيم التيمى فى قوله (كان ذلك فى الكتاب مسطورا) قال : فى اللوح المحفوظ . وأخرج أحمد والنسائى والبزار وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وأن ينحى عنهم الجبال فيزرعوا ، فقيل له ان شئت أن تستأنى بهم وان شئت أن نؤتيهم الذى سألوا ، فان كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم ، قال لابل أستأنى بهم ، فأنزل الله (وما منعنا أن نرسل بالآيات) الآية . وأخرج أحمد والبيهقى من طريق أخرى عنه نحوه . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن الربيع بن أنس قال : قال الناس لرسول الله ﷺ لوجئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون ، فقال : رسول الله ﷺ « إن شئتم دعوت الله ، فأنزلها عليكم ، فان عصيتم هلكتم فقالوا لانريدها » . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس (وما نرسل بالآيات الا تخويفا) قال الموت . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن قال : هو الموت الذريع . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) قال : عصمك من الناس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : فهم فى قبضته . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وأحمد والبخارى والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله (وماجعلنا الرؤيا) الآية قال : هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به الى بيت المقدس ، وليست برؤيا منام (والشجرة الملعونة فى القرآن) قال : هى شجرة الزقوم . وأخرج أبو سعيد وأبو يعلى وابن عساكر عن أمّ هانىء أن رسول الله ﷺ لما أسرى به أصبح يحدّث نفرا من قريش ، وهم يستهزئون به فطلبوا منه آية فوصف لهم بيت المقدس ، وذكر لهم قصة العير ، فقال الوليد بن المغيرة هذا ساحر ، فأنزل الله اليه وماجعلنا الرؤيا الآية . وأخرج ابن جرير عن سهل ابن سعد قال : رأى رسول الله ﷺ بنى فلان ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك فما استجمع ضاحكا حتى مات ، فأنزل الله (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) . قال ابن كثير بعد أن ساق إسناده ، وهذا السند ضعيف جدّا ، وذكر من جملة رجال السند محمد بن الحسن بن زبان وهو متروك وشيخه عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد ضعيف جدّا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمرو أن النبى ﷺ قال « رأيت ولد الحكم بن أبى العاص على المنابر كأنهم القردة ، فأنزل الله وماجعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة : يعنى الحكم وولده » . وأخرج ابن أبى حاتم عن يعلى بن مرة قال : قال رسول الله ﷺ رأيت بنى أمية على منابر الأرض وسيملكونكم فتجدونهم أرباب سوء ، واهتمّ رسول الله ﷺ لذلك ، فأنزل الله الآية . وأخرج ابن مردويه عن الحسين بن علىّ نحوه مرفوعا وهو

XVII. 61-67

مرسل . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر عن سعيد بن المسيب نحوه وهو مرسل . وأخرج ابن مردويه عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم سمعت رسول الله ﷺ يقول « لأبيك وجدك انكم الشجرة الملعونة فى القرآن ، وفى هذا نكارة لقولها يقول لأبيك وجدك ولعل جد مروان لم يدرك زمن النبوة » . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : ان رسول الله ﷺ أرى أنه دخل مكة هو وأصحابه ، وهو يومئذ بالمدينة فسار الى مكة قبل الأجل فرده المشركون ، فقال ناس قد رد ، وقد كان حدثنا أنه سيدخلها فكانت رجعته فتنتهم ، وقد تعارضت هذه الأسباب ، ولم يمكن الجمع بينها فالواجب المصير الى الترجيح ، والراجح كثرة وصحة هو كون سبب نزول هذه الآية قصة الاسراء فيتعين ذلك ، وقد حكى ابن كثير إجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك فى الرؤيا ، وفى تفسير الشجرة وأنها شجرة الزقوم ، فلا اعتبار بغيرهم معهم . وأخرج ابن اسحق وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن ابن عباس قال : قال أبو جهل لما ذكر رسول الله ﷺ شجرة الزقوم تخويفا لهم يامعشر قريش هل تدرون ماشجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد ؟ قالوا لا ، قال : عجوة يثرب بالزبد ، والله لئن استمكنا منها لنزقنها تزقا ، قال الله سبحانه ـ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ـ ، وأنزل والشجرة الملعونة فى القرآن الآية . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله (والشجرة الملعونة) قال : ملعونة لأنه قال ـ طلعها كأنه رءوس الشياطين ـ والشياطين ملعونون .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا * وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا *

لما ذكر سبحانه أن الرسول ﷺ كان فى بلية عظيمة من قومه ومحنة شديدة أراد أن يبين أن جميع الأنبياء كانوا كذلك ، حتى أن هذه عادة قديمة سنها إبليس اللعين ، وأيضا لما ذكر أن الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ذكر هاهنا مايحقق ذلك فقال (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) هذه القصة قد ذكرها الله سبحانه فى سبعة مواضع ، فى البقرة ، والأعراف ، والحجر ، وهذه السورة ، والكهف ، وطه ، وص ، وقد تقدم تفسيرها مبسوطا فلنقتصر هاهنا على تفسير مالم يتقدم ذكره من الألفاظ ، فقوله (طينا) منتصب بنزع الخافض : أى من طين ، أوعلى الحال . قال الزجاج : المعنى لمن خلقته طينا ، وهو منصوب على الحال (أرأيتك) أى أخبرنى عن هذا الذى فضلته على لم فضلته ؟ وقد ـ خلقتنى من نار وخلقته من طين ـ فحذف هذا للعلم به (لأحتنكن ذريته) أى لأستولين عليهم بالاغواء والاضلال ، قال الواحدى أصله من احتناك الجراد الزرع ، وهو أن تستأصله بأحناكها وتفسده ، هذا هو الأصل ، ثم سمى الاستيلاء على الشىء ، وأخذه كله احتناكا ، وقيل معناه لأسوقنهم حيث شئت وأقودنهم حيث أردت ، من قولهم حنكت الفرس أحنكه حنكا اذا جعلت فى فيه الرسن ، والمعنى الأول أنسب بمعنى هذه الآية ، ومنه قول الشاعر :

أشكو

أشكو اليك سنة قد أجحفت * جهدا الى جهد بنا وأضعفت * واحتنكت أموالنا واجتلفت

أى استأصلت أموالنا ، واللام فى (لئن أخرتن) هى الموطئة ، وإنما أقسم اللعين هذا القسم على أنه سيفعل بذرية آدم ماذكره لعلم قد سبق اليه من سمع استرقه ، أو قاله لما ظنه من قوة نفوذ كيده فى بنى آدم ، وأنه يجرى منهم فى مجارى الدم ، وأنهم بحيث يروج عندهم كيده وتنفق لديهم وسوسته الامن عصم الله ، وهم المرادون بقوله (إلاقليلا) ، وفى معنى هذا الاستثناء ، قوله سبحانه (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان) ويؤيد ماذكرناه قوله تعالى ــ ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه ــ فانه يفيد أنه قال ماقاله هنا اعتمادا على الظن ، وقيل انه استنبط ذلك من قول الملائكة ــ أتجعل فيها من يفسد فيها ــ ، وقيل علم ذلك من طبع البشر لما ركب فيهم من الشهوات ، أو ظن ذلك لأنه وسوس لآدم ، فقبل منه ذلك ولم يجد له عزما ، كما روى عن الحسن (قال اذهب فمن تبعك منهم) أى أطاعك (فان جهنم جزاؤكم) أى إبليس ومن أطاعه (جزاء موفورا) أى وافرا مكملا ، يقال وفرته أفره وفرا ، ووفر المال بنفسه يفر وفورا ، فهو وافر ، فهو مصدر ، ومنه قول زهير :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه * يفره ومن لايتق الشتم يشتم

ثم كرّر سبحانه الامهال لابليس اللعين ، فقال (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) أى استزعج واستخف من استطعت من بنى آدم ، يقال أفزه واستفزه : أى أزعجه واستخفه ، والمعنى استخفهم بصوتك داعيا لهم الى معصية الله ، وقيل هو الغناء واللهو واللعب والمزامير (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) . قال الفراء وأبو عبيدة : أجلب من الجلبة والصياح : أى صح عليهم ، وقال الزجاج : أى اجمع عليهم كل ماتقدر عليه من مكايدك . فالاجلاب الجمع ، والباء فى بخيلك زائدة ، وقال ابن السكيت الاجلاب الاعانة ، والخيل تقع على الفرسان كقوله ﷺ ياخيل الله اركبى ، وتقع على الأفراس ، والرجل بسكون الجيم : جمع رجل كتاجر وتجر ، وصاحب وصحب ، وقرأ حفص بكسر الجيم على أنه صفة . قال أبو زيد : يقال رجل ورجل ، بمعنى راجل ، فالخيل والرجل كناية عن جميع مكايد الشيطان ، أو المراد كل راكب وراجل فى معصية الله (وشاركهم فى الأموال والأولاد) أما المشاركة فى الأموال ، فهى كل تصرف فيها يخالف وجه الشرع سواء كان أخذا من غير حق ، أو وضعا فى غير حق كالغصب والسرقة والربا ، ومن ذلك تبتيك آذان الأنعام وجعلها بحيرة وسائبة ، والمشاركة فى الأولاد دعوى الولد بغير سبب شرعى ، وتحصيله بالزنا وتسميتهم بعبد اللات وعبد العزى ، والاساءة فى تربيتهم على وجه يألفون فيه خصال الشر وأفعال السوء ويدخل فيه ماقتلوا من أولادهم خشية إملاق ، ووأد البنات ، وتصيير أولادهم على الملة الكفرية التى هم عليها ، ومن ذلك مشاركة الشيطان للمجامع إذالم يسم ، ثم قال (وعدهم) قال الفراء قل لهم لاجنة ولانار ، وقال الزجاج : وعدهم بأنهم لايبعثون (ومايعدهم الشيطان إلاغرورا) أى باطلا ، وأصل الغرور تزيين الخطأ بما يوهم الصواب ، وقيل معناه وعدهم النصرة على من خالفهم ، وهذه الأوامر للشيطان من باب التهديد والوعيد الشديد ، وقيل هى على طريقة الاستخفاف به وبمن تبعه (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) يعنى عباده المؤمنين كما فى غير هذا الموضع من الكتاب العزيز من ان إضافة العباد اليه يراد بها المؤمنون لمافى الاضافة من التشريف ، وقيل المراد جميع العباد بدليل الاستثناء بقوله فى غير هذا الموضع ــ إلا من اتبعك من الغاوين ــ ، والمراد بالسلطان التسلط (وكفى بربك وكيلا) يتوكلون عليه ، فهو الذى يدفع عنهم كيد الشيطان ويعصمهم من إغوائه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قال ابليس ان آدم خلق من تراب من طين خلق ضعيفا

XVI 166-٦٦

وانى خلقت من نار ، والنار تحرق كل شيء (لأحتنكن ذريته الا قليلا) فصدّق ظنه عليهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه لأحتنكن ذريته : قال لأستولين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد لأحتنكن ذريته قال لأحتوينهم وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : لأضلنهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد موفورا قال وافرا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) قال : صوته كل داع دعا الى معصية الله (وأجلب عليهم بخيلك) قال : كل راكب فى معصية الله (ورجلك) قال كل راجل فى معصية الله (وشاركهم فى الأموال) قال كل مال فى معصية الله (والأولاد) قال كل ماقتلوا من أولادهم وأتوا فيهم الحرام . وأخرج الفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى الآية : قال كل خيل تسير فى معصية الله ، وكل مال أخذ بغير حقه ، وكل ولد زنا . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية : قال الأموال ما كانوا يحرّمون من أنعامهم ، والأولاد أولاد الزنا . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : الأموال البحيرة والسائبة والوصيلة لغير الله ، والأولاد سموا عبد الحارث وعبد شمس .

رَبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا * أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا *

قوله (ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر) الازجاء : السوق والاجراء والتسيير ، ومنه قوله سبحانه ـ ألم تر أن الله يزجى سحابا ـ وقول الشاعر :

يا أيها الراكب المزجى مطيته * سائل بنى أسد ماهذه الصور

وقول الآخر : * عوذا تزجى خلفها أطفالها * والمعنى أن الله سبحانه يسير الفلك فى البحر بالريح والفلك هاهنا جمع ، وقد تقدّم ، والبحر هو الماء الكثير عذبا كان أو مالحا ، وقد غلب هذا الاسم على المشهور (لتبتغوا من فضله) أى من رزقه الذى تفضل به على عباده أو من الربح بالتجارة ، ومن زائدة أو للتبعيض ، وفى هذه الآية تذكير لهم بنعم الله سبحانه عليهم حتى لايعبدوا غيره ولا يشركوا به أحدا ، وجملة (انه كان بكم رحيما) تعليل لما تقدّم : أى كان بكم رحيما فهداكم الى مصالح دنياكم (واذا مسكم الضرّ) يعنى خوف الغرق (فى البحر ضلّ من تدعون) من الآلهة وذهب عن خواطركم ، ولم يوجد لاغاثتكم ما كنتم تدعون من دونه من صنم ، أو جنّ ، أو ملك ، أو بشر (الا إياه) وحده فانكم تعقدون رجاءكم برحمته واغاثته ، والاستثناء منقطع ، ومعنى الآية أن الكفار انما يعتقدون فى أصنامهم وسائر معبوداتهم أنها نافعة لهم فى غير هذه الحالة ، فأما فى هذه الحالة فان كل واحد منهم يعلم بالفطرة علما لايقدر على مدافعته أن الأصنام ونحوها لافعل لها (فلما نجاكم الى البرّ أعرضتم) عن الاخلاص لله وتوحيده

ورجعتم

ورجعتم الى دعاء أصنامكم والاستغاثة بها (وكان الانسان كفورا) أى كثير الكفران لنعمة الله ، وهو تعليل لما تقدّمه ، والمعنى أنهم عند الشدائد يتمسكون برحمة الله ، وفى الرخاء يعرضون عنه ، ثم أنكر سبحانه عليهم سوء معاملتهم قائلا (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البرّ) الهمزة للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الاعراض ، فبين لهم أنه قادر على هلاكهم فى البرّ وان سلموا من البحر ، والخسف أن تنهار الأرض بالشىء ، يقال : بئر خسيف : اذا انهدم أصلها ، وعين خاسف : أى غائرة حدقتها فى الرأس ، وخسفت عين الماء اذا غار ماؤها ، وخسفت الشمس اذا غابت عن الأرض ، وجانب البرّ ناحية الأرض ، وسماه جانبا ، لأنه يصير بعد الخسف جانبا ، وأيضا فان البحر جانب من الأرض والبرّ جانب ، وقيل انهم كانوا على ساحل البحر ، وساحله جانب البرّ فكانوا فيه آمنين من مخاوف البحر ، فحذرهم ما أمنوه من البرّ كما حذرهم ماخافوه من البحر (أو يرسل عليكم حاصبا) قال أبو عبيدة والقتيبى : الحصب الرمى : أى ريحا شديدة حاصبة ، وهى التى ترمى بالحصى الصغار . وقال الزجاج : الحاصب التراب الذى فيه حصباء ، فالحاصب ذو الحصباء كاللابن ، والتامر ، وقيل الحاصب حجارة من السماء تحصبهم كما فعل بقوم لوط ، ويقال للسحابة التى ترمى بالبرد حاصب ، ومنه قول الفرزدق :

مستقبلين جبال الشام تضربنا * بحاصب كنديف القطن منثور

(ثم لاتجدوا لكم وكيلا) أى حافظا ونصيرا يمنعكم من بأس الله (أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى) أى فى البحر مرة أخرى بأن يقوّى دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى ركوبه ، وجاء بفى ولم يقل إلى البحر للدلالة على استقرارهم فيه (فيرسل عليكم قاصفا من الريح) القاصف : الريح الشديدة التى تكسر بشدّة ، من قصف الشىء يقصفه : أى كسره بشدّة ، والقصف : الكسر ، أو هو الريح التى لها قصيف : أى صوت شديد من قولهم رعد قاصف . أى شديد الصوت (فيغرقكم) . قرأ أبو جعفر وشيبة ورويس ومجاهد فتغرقكم بالتاء الفوقية على أن فاعله الريح . وقرأ الحسن وقتادة وابن وردان فيغرّقكم بالتحتية والتشديد فى الراء . وقرأ ابو جعفر أيضا الرياح . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالنون فى جميع هذه الأفعال . وقرأ الباقون بالياء التحتية فى جميعها أيضا ، والباء فى بما كفرتم للسببية : أى بسبب كفركم (ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا) أى ثائرا يطالبنا بما فعلنا . قال الزجاج : لاتجدوا من يتبعنا بانكار مانزل بكم . قال النحاس : وهو من الثأر ، وكذا يقال لكل من طلب بثأر أو غيره تبيع وتابع (ولقد كرمنا بنى آدم) هذا اجمال لذكر النعمة التى أنعم الله بها على بنى آدم : أى كرمناهم جميعا ، وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجه لايوجد لسائر أنواع الحيوان مثله ، وحكى ابن جرير عن جماعة أن هذا التكريم هو أنهم يأكلون بأيديهم ، وسائر الحيوانات تأكل بالفم ، وكذا حكاه النحاس ، وقيل ميزهم بالنطق والعقل والتمييز ، وقيل أكرم الرجال باللحى والنساء بالذوائب . وقال ابن جرير : أكرمهم بتسليطهم على سائر الخلق وتسخير سائر الخلق لهم ، وقيل بالكلام والخط والفهم ، ولامانع من حمل التكريم المذكور فى الآية على جميع هذه الأشياء ، وأعظم خصال التكريم العقل ، فان به تسلطوا على سائر الحيوانات وميزوا بين الحسن والقبيح وتوسعوا فى المطاعم والمشارب وكسبوا الأموال التى تسببوا بها الى تحصيل أمور لايقدر عليها الحيوان ، وبه قدروا على تحصيل الأبنية التى تمنعهم مما يخافون ، وعلى تحصيل الأكسية التى تقيهم الحرّ والبرد ، وقيل تكريمهم : هو أن جعل محمدا ﷺ منهم (وحملناهم فى البرّ والبحر) هذا تخصيص لبعض أنواع التكريم ، حملهم سبحانه فى البرّ على الدواب ، وفى البحر على السفن ، وقيل حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم ولم نغرقهم (ورزقناهم

من الطيبات) أى لذيذ المطاعم والمشارب وسائر مايستلذونه وينتفعون به (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) أجمل سبحانه هذا الكثير ولم يبين أنواعه ، فأفاد ذلك أن بنى آدم فضلهم سبحانه على كثير من مخلوقاته ، وقد جعل بعض أهل العلم الكثير هنا بمعنى الجميع ، وهو تعسف لاحاجة اليه .

وقد شغل كثير من أهل العلم بما لم تكن اليه حاجة ولا تتعلق به فائدة ، وهو مسئلة تفضيل الملائكة على الأنبياء ، أو الأنبياء على الملائكة ، ومن جملة ماتمسك به مفضلو الأنبياء على الملائكة هذه الآية ، ولا دلالة لها على المطلوب لما عرفت من إجمال الكثير وعدم تبيينه ، والتعصب فى هذه المسئلة هو الذى حمل بعض الأشاعرة على تفسير الكثير هنا بالجميع حتى يتم له التفضيل على الملائكة ، وتمسك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء ، ولا دلالة بها على ذلك ، فانه لم يقم دليل على أن الملائكة من القليل الخارج عن عن هذا الكثير ، ولو سلمنا ذلك فليس فيما خرج عن هذا الكثير مايفيد أنه أفضل من بنى آدم ، بل غاية مافيه أنه لم يكن الانسان مفضلا عليه ، فيحتمل أن يكون مساويا للانسان ، ويحتمل أن يكون أفضل منه ، ومع الاحتمال لايتم الاستدلال ، والتأكيد بقوله (تفضيلا) يدل على عظم هذا التفضيل وأنه بمكان مكين ، فعلى بنى آدم أن يتلقوه بالشكر ويحذروا من كفرانه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (يزجى) قال يجرى ، وأخرجوا عن قتادة قال : يسيرها فى البحر . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (حاصبا) قال : مطر الحجارة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : حجارة من السماء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس (قاصفا من الريح) قال : التى تغرق . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال : القاصف والعاصف فى البحر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله قاصفا قال : عاصفا ، وفى قوله (ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا) قال نصيرا . وأخرج الطبرانى والبيهقى فى الشعب والخطيب فى تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ «مامن شىء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم ، قيل يارسول الله ولا الملائكة ؟ قال ولا الملائكة : الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر» وأخرجه البيهقى من وجه آخر عن ابن عمرو موقوفا قال : وهو الصحيح . وأخرج البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : المؤمن أكرم على الله من ملائكته . وأخرج الطبرانى عن ابن عمرو عن النبى ﷺ قال «ان الملائكة قالت يارب أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولانأكل ولا نشرب ولانلهو ، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة ، قال لاأجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان» . وأخرجه عبد الرزاق وابن جرير عن زيد بن أسلم قال : قالت الملائكة ، واسناد الطبرانى هكذا ، حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادى ، حدثنا ابراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصى ، حدثنا حجاج بن محمد حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ فذكره . وأخرج ابن عساكر من طريق عروة بن رويم قال : حدثنى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ فذكر نحو حديث ابن عمرو الأول مع زيادة . وأخرج نحوه البيهقى أيضا فى الأسماء والصفات من وجه آخر عن عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ فذكره . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس فى قوله (ولقد كرمنا بنى آدم) قال . جعلناهم يأكلون بأيديهم وسائر الخلق يأكلون بأفواههم . وأخرج الحاكم فى التاريخ والديلمى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «الكرامة الأكل بالأصابع» .

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا * وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا * وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا *

قوله (يوم ندعوا كل أناس بامامهم) قال الزجاج : يعني يوم القيامة ، وهو منصوب على معنى اذكر يوم ندعو ، وقرىء يدعو بالياء التحتية على البناء للفاعل ويدعى على البناء للمفعول ، والباء في بامامهم للالصاق كما تقول : أدعوك باسمك ، ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف هو حال ، والتقدير ندعو كل أناس متلبسين بامامهم : أي يدعون وامامهم فيهم نحو ركب بجنوده ، والأوّل أولى والامام في اللغة كل ما يؤتم به من نبيّ أو مقدم في الدين ، أو كتاب .

وقد اختلف المفسرون في تعيين الامام الذي تدعى كل أناس به ، فقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك انه كتاب كل انسان الذي فيه عمله : أي يدعى كلّ انسان بكتاب عمله ، ويؤيد هذا قوله ـ فأما من أوتي كتابه ـ الآية ، وقال ابن زيد الامام هو الكتاب المنزل عليهم فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل الانجيل بالانجيل ، وأهل القرآن بالقرآن ، فيقال : ياأهل التوراة ياأهل الانجيل ياأهل القرآن ، وقال مجاهد وقتادة : إمامهم نبيهم ، فيقال هاتوا متبعي ابراهيم ، هاتوا متبعي موسى ، هاتوا متبعي عيسى ، هاتوا متبعي محمد ، وبه قال الزجاج ، وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : المراد بالامام امام عصرهم فيدعى أهل كل عصر بامامهم الذي كانوا يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه ، وقال الحسن وأبو العالية . المراد بامامهم أعمالهم فيقال مثلا : أين المجاهدون أين الصابرون أين الصائمون أين المصلون ؟ ونحو ذلك ، وروى عن ابن عباس وأبي هريرة . وقال أبو عبيدة . المراد بامامهم صاحب مذهبهم ، فيقال مثلا : أين التابعون للعالم فلان بن فلان ، وهذا من البعد بمكان . وقال محمد بن كعب بامامهم بأمهاتهم على أن إمام جمع أمّ كخف وخفاف ، وهذا بعيد جدّا ، وقيل الامام هو كل خلق يظهر من الانسان حسن كالعلم والكرم والشجاعة ، أو قبيح كأضدادها ، فالداعي الى تلك الأفعال خلق باطن هو كالامام ذكر معناه الرازي في تفسيره (فمن أوتي كتابه بيمينه) من أولئك المدعوّين ، وتخصيص اليمين بالذكر للتشريف والتبشير (فأولئك) الاشارة الى من باعتبار معناه ، قيل ووجه الجمع الاشارة إلى أنهم مجتمعون على شأن جليل ، أو الاشعار بأن قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد (يقرءون كتابهم) الذي أوتوه (ولا يظلمون فتيلا) أي لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل ، وهو القشرة التي في شق النواة ، أو هو عبارة عن أقلّ شيء ولم يذكر أصحاب الشمال تصريحا ، ولكنه ذكر سبحانه ما يدلّ على حالهم القبيح ، فقال (ومن كان في هذه أعمى) أي من كان من المدعوّين في هذه الدنيا أعمى : أي فاقد البصيرة . قال النيسابوري : لاخلاف أن المراد بهذا العمى عمى القلب ، وأما قوله (فهو في الآخرة أعمى) فيحتمل أن يراد به عمى البصر كقوله ـ ونحشره يوم القيامة أعمى ـ قال لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ـ وفي هذا زيادة العقوبة ،

ويحتمل أن يراد عمى القلب ، وقيل المراد بالآخرة عمل الآخرة : أى فهو فى عمل ، أو فى أمر الآخرة أعمى ، وقيل المراد من عمى عن النعم التى أنعم الله بها عليه فى الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى ، وقيل من كان فى الدنيا التى تقبل فيها التوبة أعمى فهو فى الآخرة التى لا توبة فيها أعمى ، وقيل من كان فى الدنيا أعمى عن حجج الله فهو فى الآخرة أعمى ، وقد قيل ان قوله فهو فى الآخرة أعمى أفعل تفضيل : أى أشدّ عمى وهذا مبنىّ على أنه من عمى القلب اذ لا يقال ذلك فى عمى العين . قال الخليل وسيبويه : لأنه خلقه بمنزلة اليد والرجل ، فلا يقال ما أعماه كما لا يقال ما أيداه . وقال الأخفش : لا يقال فيه ذلك لأنه أكثر من أحرف وقد حكى الفراء عن بعض العرب أنه سمعه يقول : ما أسود شعره ، ومن ذلك قول الشاعر :

أما الملوك فأنت اليوم ألأمهم * لؤما وأبيضهم سربال طباخ

والبحث مستوفى فى النحو . وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى وخلف أعمى بالامالة فى الموضعين وقرأهما أبو عمرو ويعقوب والباقون بغير امالة ، وأمال أبو عبيد الأول دون الثانى (وأضلّ سبيلا) يعنى أن هذا أضلّ سبيلا من الأعمى لكونه لا يجد طريقا الى الهداية بخلاف الأعمى فقد يهتدى فى بعض الأحوال ، ثم لما عدد سبحانه فى الآيات المتقدمة أقسام النعم على بنى آدم أردفه بما يجرى مجرى التحذير من الاغترار بوساوس الأشقياء فقال (وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك) ان هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف ، واللام هى الفارقة بينها وبين النافية * والمعنى وان الشأن قاربوا أن يخدعوك فاتنين ، وأصل الفتنة الاختبار ، ومنه فتن الصائغ الذهب ، ثم استعمل فى كل من أزال الشىء عن حدّه وجهته ، وذلك لأن فى اعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن وافتراء على الله سبحانه من تبديل الوعد بالوعيد وغير ذلك عن الذى أوحينا اليك من الأوامر والنواهى والوعد والوعيد (لتفترى علينا غيره) لتتقول علينا غير الذى أوحينا اليك مما اقترحه عليك كفار قريش (واذا لاتخذوك خليلا) أى لو اتبعت أهواءهم لاتخذوك خليلا لهم : أى والوك وصافوك ، مأخوذ من الخلة بفتح الخاء (ولولا أن ثبتناك) على الحق وعصمناك عن موافقتهم (لقد كدت تركن اليهم) لقاربت أن تميل اليهم أدنى ميل ، والركون هو الميل اليسير ، ولهذا قال (شيئا قليلا) لكن أدركته ﷺ العصمة فمنعته من أن يقرب من أدنى مراتب الركون اليهم ، فضلا عن نفس الركون ، وهذا دليل على أنه ﷺ ماهمّ باجابتهم ، ذكر معناه القشيرى وغيره ، وقيل المعنى وان كادوا ليخبرون عنك بأنك ملت الى قولهم فنسب فعلهم اليه مجازا واتساعا كما تقول للرجل كدت تقتل نفسك . أى كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت ، ذكر معناه المهدوى ، ثم توعده سبحانه فى ذلك أشدّ الوعيد فقال (اذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) أى لو قاربت أن تركن اليهم ، أى مثلى ما يعذب به غيرك ممن يفعل هذا الفعل فى الدارين * والمعنى عذابا ضعفا فى الحياة وعذابا ضعفا فى الممات : أى مضاعفا ، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وأضيفت ، وذلك لأن خطأ العظيم عظيم كما قال سبحانه ـ يانساء النبىّ من يأت منكنّ بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ـ وضعف الشىء مثلاه ، وقد يكون الضعف النصيب كقوله ـ لكلّ ضعف ـ أى نصيب . قال الرازى : حاصل الكلام أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون همك لاستحققت تضعيف العذاب عليك فى الدنيا والآخرة ولصار عذابك مثلى عذاب المشرك فى الدنيا ومثلى عذابه فى الآخرة (ثم لاتجد لك علينا نصيرا) ينصرك فيدفع عنك هذا العذاب . قال النيسابورى : اعلم أن القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها ، والتهديد على المعصية لا يدلّ على الاقدام عليها ، فلا يلزم من الآية طعن فى العصمة (وان كادوا ليستفزونك) الكلام فى هذا كالكلام فى وان كادوا ليفتنونك : أى وان الشأن

انهم

أنهم قاربوا أن يزعجوك من أرض مكة لتخرج عنها ، ولكنه لم يقع ذلك منهم ، بل منعهم الله منه حتى هاجر بأمر ربه بعد أن هموا به ، وقيل انه أطلق الاخراج على ارادة الاخراج تجوزا (وإذن لايلبثون خلافك إلا قليلا) معطوف على ليستفزونك : أى لايبقون بعد اخراجك إلا زمنا قليلا ، ثم عوقبوا عقوبة تستأصلهم جميعا . وقرأ عطاء بن أبى رباح لايلبثوا بتشديد الباء الموحدة . وقرىء لايلبثوا بالنصب على اعمال إذن على أن الجملة معطوف على جملة ـ وان كادوا ـ لا على الخبر فقط . وقرأ نافع وابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو خلفك ، ومعناه بعدك . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى خلافك ، ومعناه أيضا بعدك . وقال ابن الانبارى : خلافك بمعنى مخالفتك ، واختار أبو حاتم القراءة الثانية لقوله ـ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ـ ومما يدل على أن خلاف بمعنى بعد قول الشاعر :

عفت الديار خلافها فكأنما * بسط الشواطب بينهن حصيرا

يقال شطبت المرأة الجريد اذا شققته لتعمل منه الحصير . قال أبو عبيدة : ثم تلقيه الشاطبة الى المنقية (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) سنة منتصبة على المصدرية : أى سن الله سنة ، وقال الفراء : أى يعذبون كسنة من قد أرسلنا فلما سقط الخافض عمل الفعل ، وقيل المعنى سنتنا سنة من قد أرسلنا . قال الزجاج : يقول ان سنتنا هـذه السنة فيمن أرسلنا قبلك اليهم أنهم إذا أخرجوا نبيهم من بين أظهرهم أو قتلوه أن ينزل العذاب بهم (ولا تجد لسنتنا تحويلا) أى ماأجرى الله به العادة لم يتمكن أحـد من تحويله ولا يقدر على تغييره .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنـذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (يوم ندعوا كل أناس بامامهم) قال : إمام هدى وإمام ضلالة . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والخطيب فى تاريخه عن أنس فى الآية قال : نبيهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : بكتاب أعمالهم . وأخرج ابن مردويه عن على فى الآية قال : يدعى كل قوم بامام زمانهم ، وكتاب ربهم ، وسنة نبيهم . وأخرج الترمذى وحسنه والبزار وابن أبى حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله (يوم ندعوا كل أناس بامامهم) قال « يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له فى جسمه ستين ذراعا ويبيض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ ، فينطلق الى أصحابه ، فيرونه من بعيد فيقولون : اللهم ائتنا بهذا ، وبارك لنا فى هذا حتى يأتيهم ، فيقول : أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا ، وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له فى جسمه ستين ذراعا على صورة آدم ويلبس تاجا فيراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من شر هذا اللهم لاتأتنا بهذا قال فيأتيهم فيقولون اللهم اخزه فيقول أبعدكم الله ، فان لكل رجل منكم مثل هذا » . قال البزار : بعد اخراجه لايروى الا من هذا الوجه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس فى قوله (ومن كان فى هذه أعمى) يقول من كان فى الدنيا أعمى عما يرى من قدرتى من خلق السماء والأرض والجبال والبحار والناس والدواب وأشباه هذا (فهو) عما وصفت له (فى الآخرة) ولم يره (أعمى وأضل سبيلا) يقول أبعد حجة . وأخرج الفريابى وابن أبى حاتم من طريق عكرمة عنه نحو هذا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا يقول من عمى عن قدرة الله فى الدنيا فهو فى الآخرة أعمى . وأخرج ابن اسحق وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا قال « ان أمية بن خلف وأبا جهل بن هشام ورجالا من قريش أتوا رسول الله ﷺ فقالوا تعال فتمسح آلهتنا وندخل معك فى دينك ، وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه فراق قومه ويحب اسلامهم فرق لهم ، فأنزل الله وان كادوا ليفتنونك الى قوله نصيرا » . وأخرج ابن مردويه من طريق

الكلبي عن باذان عن جابر بن عبد الله مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال « كان رسول الله ﷺ يستلم الحجر فقالوا لا ندعك تستلمه حتى تستلم بآلهتنا فقال رسول الله ﷺ وما عليّ لو فعلت ، والله يعلم مني خلافه ، فأنزل الله وان كادوا ليفتنونك الآية » . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير أن قريشا أتوا النبي ﷺ فقالوا له ان كنت أرسلت الينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك فركن اليهم فأوحى الله اليه وان كادوا ليفتنونك الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال : أنزل الله ــ والنجم اذا هوى ــ فقرأ عليهم رسول الله ﷺ هذه الآية ــ أفرأيتم اللات والعزى ــ فألقى عليه الشيطان تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهم لترتجى ، فقرأ النبي ﷺ ما بقي من السورة وسجد فأنزل الله ــ وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك ــ الآية ، فما زال مهموما مغموما حتى أنزل الله ــ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلا إذا تمنى ــ الآية . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أن ثقيفا قالوا للنبي ﷺ أجلنا سنة حتى يهدى لآلهتنا فاذا قبضنا الذي يهدى للآلهة أحرزناه ثم أسلمنا وكسرنا الآلهة فهمّ أن يؤجلهم ، فنزلت ــ وان كادوا ليفتنونك ــ الآية . وأخرج ابن جرير عنه في قوله (ضعف الحياة وضعف الممات) يعني ضعف عذاب الدنيا والآخرة . وأخرج البيهقي عن الحسن في الآية قال : هو عذاب القبر . وأخرج أيضا عن عطاء مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : قال المشركون للنبي ﷺ كانت الأنبياء تسكن الشام ، فمالك والمدينة ؟ فهمّ أن يشخص ، فأنزل الله (وان كادوا ليستفزونك من الأرض) الآية . وأخرج ابن جرير عن حضرمي أنه بلغه أن بعض اليهود فذكر نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن عبد الرحمن بن غنم أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا ان كنت نبيا فالحق بالشام فان الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء فصدّق النبيّ ﷺ ما قالوا فتحرّى غزوة تبوك لا يريد الا الشام ، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني اسرائيل بعد ما ختمت السورة ــ وان كادوا ليستفزونك ــ إلى قوله ــ تحويلا ــ فأمره بالرجوع إلى المدينة ، وقال فيها محياك وفيها مماتك ومنها تبعث ، وقال له جبريل سل ربك فان لكلّ نبيّ مسئلة فقال ما تأمرني أن أسأل ؟ قال (قل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) فهؤلاء نزلن عليه في رجعته من تبوك قال ابن كثير : وفي هذا الاسناد نظر ، والظاهر أنه ليس بصحيح فان النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود ، وانما غزاها امتثالا لقوله ــ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ــ وغزاها ليقتصّ وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (وان كادوا ليستفزونك من الأرض) قال همّ أهل مكة باخراج النبي ﷺ من مكة وقد فعلوا بعد ذلك فأهلكهم الله يوم بدر ولم يلبثوا بعده إلا قليلا حتى أهلكهم الله يوم بدر ، وكذلك كانت سنة الله في الرسل إذا فعل بهم قومهم مثل ذلك . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلا) قال : يعني بالقليل يوم أخذهم ببدر ، فكان ذلك هو القليل الذي لبثوا بعده .

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۞ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۞ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ

وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا * وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا * وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا * وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا * قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا * وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا *

لما ذكر سبحانه الالهيات والمعاد والجزاء أردفها بذكر أشرف الطاعات ، وهى الصلاة ، فقال (أقم الصلاة لدلوك الشمس) . وقد أجمع المفسرون على أن هذه الآية المراد بها الصلوات المفروضة .

وقد اختلف العلماء فى الدلوك المذكور فى هذه الآية على قولين : أحدهما أنه زوال الشمس عن كبد السماء قاله عمر وابنه وأبو هريرة وأبو برزة وابن عباس والحسن والشعبى وعطاء ومجاهد وقتادة والضحاك وأبو جعفر الباقر ، واختاره ابن جرير ، والقول الثانى أنه غروب الشمس قاله على وابن مسعود وأبى بن كعب ، وروى عن ابن عباس . قال الفراء : دلوك الشمس من لدن زوالها الى غروبها . قال الأزهرى : معنى الدلوك فى كلام العرب الزوال ، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار دالكة ، وقيل لها إذا أفلت دالكة ، لأنها فى الحالتين زائلة . قال : والقول عندى أنه زوالها نصف النهار لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس ، والمعنى أقم الصلاة من وقت دلوك الشمس (الى غسق الليل) فيدخل فيها الظهر والعصر وصلاتا غسق الليل ، وهما العشاءان ، ثم قال (وقرآن الفجر) هذه خمس صلوات . وقال أبو عبيد دلوكها : غروبها ، ودلكت براح يعنى : الشمس : أى غابت ، وأنشد قطرب على هذا قول الشاعر :

هذا مقام قدمى رباح * ذبت حتى دلكت براح

اسم من أسماء الشمس على وزن حذام وقطام ، ومن ذلك قول ذى الرمة :

مصابيح ليست باللواتى تقودها * نجوم ولا بالآفلات الدوالك

أى الغوارب ، وغسق الليل اجتماع الظلمة . قال الفراء والزجاج يقال غسق الليل وأغسق : اذا أقبل بظلامه . قال أبو عبيد الغسق سواد الليل . قال قيس بن الرقيات :

ان هذا الليل قد غسقا * واشتكيت الهمّ والأرقا

وقيل غسق الليل : مغيب الشفق ، ومنه قول زهير :

ظلت تجود يداها وهى لاهية * حتى اذا جنح الاظلام والغسق

وأصل الكلمة من السيلان يقال : غسقت اذا سالت ، وحكى الفراء غسق الليل وأغسق ، وظلم وأظلم ، ودجى وأدجى ، وغبش وأغبش ، وقد استدل بهذه الغاية أعنى قوله الى غسق الليل من قال ان صلاة الظهر تمادى وقتها من الزوال الى الغروب ، روى ذلك عن الأوزاعى وأبى حنيفة وجوزه مالك والشافعى فى حال الضرورة ، وقد وردت الأحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول الله ﷺ فى تعيين أوقات الصلوات ، فيجب حمل مجمل هذه الآية على مابينته السنة فلا نطيل بذكر ذلك * قوله (وقرآن الفجر) انتصاب قرآن لكونه معطوفا على الصلاة : أى وأقم قرآن الفجر ، قاله الفراء . وقال الزجاج والبصريون انتصابه على الاغراء : أى فعليك قرآن الفجر . قال المفسرون المراد بقرآن الفجر صلاة الصبح . قال الزجاج : وفى هذه فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لاتكون إلا بقراءة حتى سميت الصلاة قرآنا ،

وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أنه لاصلاة الا بفاتحة الكتاب ، وفى بعض الأحاديث الخارجة من مخرج حسن وقرآن معها ، وورد ما يدل على وجوب الفاتحة فى كل ركعة ، وقد حررته فى مؤلفاتى تحريرا مجوّدا ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله (ان قرآن الفجر كان مشهودا) أى تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ، كما ورد ذلك فى الحديث الصحيح ، و بذلك قال جمهور المفسرين (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) من للتبعيض ، وانتصابه على الظرفية بمضمر : أى قم بعض الليل فتهجد به ، والضمير المجرور راجع الى القرآن وماقيل من أنه منتصب على الاغراء ، والتقدير عليك بعض الليل فبعيد جدّا ، والتهجد مأخوذ من الهجود . قال أبو عبيدة وابن الأعرابى هو من الأضداد ، لأنه يقال هجد الرجل : اذا نام ، وهجد اذا سهر فمن استعماله فى السهر قول الشاعر :

ألازارت وأهل منى هجود * فليت خيالها بمنى يعود

يعنى منتبهين ، ومن استعماله فى النوم قول الآخر :

ألاطرقتنا والرفاق هجود * فباتت بعلات النوال تجود

يعنى نياما . وقال الأزهرى : الهجود فى الأصل هو النوم بالليل ، ولكن جاء التفعل فيه لأجل التجنب ومنه تأثم وتحرّج : أى تجنب الاثم والحرج ، فالمتهجد من تجنب الهجود ، فقام بالليل ، وروى عن الأزهرى أيضا أنه قال : المتهجد القائم الى الصلاة من النوم هكذا حكى عنه الواحدى فقيد التهجد بالقيام من النوم ، وهكذا قال مجاهد وعلقمة والأسود ، فقالوا : التهجد بعد النوم . قال الليث ، تهجد اذا استيقظ للصلاة (نافلة لك) معنى النافلة فى اللغة الزيادة على الأصل ، فالمعنى أنها للنبى ﷺ نافلة زائدة على الفرائض ، والأمر بالتهجد وان كان ظاهره الوجوب لكن التصريح بكونه نافلة قرينة صارفة للأمر ، وقيل المراد بالنافلة هنا أنها فريضة زائدة على الفرائض الخمس فى حقه ﷺ ويدفع ذلك التصريح بلفظ النافلة ، وقيل كانت صلاة الليل فريضة فى حقه ﷺ ، ثم نسخ الوجوب ، فصار قيام الليل تطوّعا ، وعلى هذا يحمل ماورد فى الحديث أنها عليه فريضة ، ولأمته تطوّع . قال الواحدى ان صلاة الليل كانت زيادة للنبى ﷺ خاصة لرفع الدرجات ، لا للكفارات ، لأنه غفر له من ذنبه ماتقدم وما تأخر ، وليس لنا بنافلة لكثرة ذنوبنا ، انما نعمل لكفارتها . قال وهو قول جميع المفسرين * والحاصل أن الخطاب فى هذه الآية ، وان كان خاصا بالنبى ﷺ فى قوله أقم الصلاة ، فالأمر له أمر لأمته ، فهو شرع عام ، ومن ذلك الترغيب فى صلاة الليل ، فانه يعمّ جميع الأمة ، والتصريح بكونه نافلة يدل على عدم الوجوب ، فالتهجد من الليل مندوب اليه ومشروع لكل مكلف ، ثم وعده سبحانه على اقامة الفرائض والنوافل ، فقال (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) قد ذكرنا فى مواضع أن عسى من الكريم اطماع واجب الوقوع ، وانتصاب مقاما على الظرفية باضمار فعل ، أو بتضمين البعث معنى الاقامة ، ويجوز أن يكون انتصابه على الحال : أى يبعثك ذا مقام محمود ، ومعنى كون المقام محمودا أنه يحمده كل من علم به * وقد اختلف فى تعيين هذا المقام على أقوال : الأوّل أنه المقام الذى يقومه النبى ﷺ للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربهم سبحانه مما هم فيه ، وهذا القول هو الذى دلت عليه الأدلة الصحيحة فى تفسير الآية ، وحكاه ابن جرير عن أكثر أهل التأويل ، قال الواحدى : واجماع المفسرين على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة . القول الثانى : أن المقام المحمود اعطاء النبى ﷺ لواء الحمد يوم القيامة ، ويمكن أن يقال ان هذا لاينافى القول الأوّل ، إذ لامنافاة بين كونه قائما مقام الشفاعة و بيده لواء الحمد . القول الثالث : أن المقام المحمود هو أن الله سبحانه يجلس محمدا ﷺ معه على كرسيه ، حكاه ابن جرير عن

فرقة

فرقة منهم مجاهد ، وقد ورد فى ذلك حديث ، وحكى النقاش عن أبى داود السجستانى انه قال من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم مازال أهل العلم يتحدثون بهذا الحديث . قال ابن عبد البر : مجاهد وان كان أحد الأئمة بالتأويل ، فان له قولين مهجورين عند أهل العلم : أحدهما هذا ، والثانى فى تأويل ـ وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة . قال معناه تنتظر الثواب ، وليس من النظر انتهى ، وعلى كل حال فهذا القول غير مناف للقول الأول لامكان أن يقعده الله سبحانه هذا المقعد و يشفع تلك الشفاعة . القول الرابع انه مطلق فى كل مقام يجلب الحمد من أنواع الكرامات ، ذكره صاحب الكشاف والمقتدون به فى التفسير ، ويجاب عنه بأن الأحاديث الصحيحة الواردة فى تعيين هذا المقام المحمود متواترة ، فالمصير اليها متعين ، وليس فى الآية عموم فى اللفظ حتى يقال : الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومعنى قوله وهو مطلق فى كل ما يجلب الحمد أنه عام فى كل ما هو كذلك ، ولكنه يعبر عن العام بلفظ المطلق ، كما ذكره فى ذبح البقرة ، ولهذا قال هنا ، وقيل المراد الشفاعة ، وهى نوع واحد مما يتناوله يعنى لفظ المقام ، والفرق بين العموم البدلى والعموم الشمولى معروف ، فلا نطيل بذكره (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) قرأ الجمهور مدخل صدق ومخرج صدق بضم الميمين . وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم بفتحهما ، وهما مصدران بمعنى الادخال والاخراج ، والاضافة الى الصدق لأجل المبالغة نحو حاتم الجود : أى ادخالا يستأهل أن يسمى ادخالا ، ولا يرى فيه ما يكره . قال الواحدى واضافتهما الى الصدق مدح لهما ، وكل شىء أضفته الى الصدق فهو مدح .

وقد اختلف المفسرون فى معنى الآية فقيل نزلت حين أمر بالهجرة ، يريد ادخال المدينة والاخراج من مكة ، واختاره ابن جرير ، وقيل المعنى أمتنى اماتة صدق وابعثنى يوم القيامة مبعث صدق ، وقيل المعنى أدخلنى فيما أمرتنى به ، وأخرجنى مما نهيتنى عنه ، وقيل ادخاله موضع الأمن واخراجه من بين المشركين ، وهو كالقول الأول ، وقيل المراد ادخال عز واخراج نصر ، وقيل المعنى أدخلنى فى الأمر الذى أكرمتنى به من النبوة مدخل صدق ، وأخرجنى منه اذا أمتنى مخرج صدق ، وقيل أدخلنى القبر عند الموت مدخل صدق ، وأخرجنى منه عند البعث مخرج صدق ، وقيل أدخلنى حيثما أدخلتنى بالصدق وأخرجنى بالصدق ، وقيل الآية عامة فى كل ما تتناوله من الأمور فهى دعاء ، ومعناها رب اصلح لى وردى فى كل الأمور وصدرى عنها (واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) أى حجة ظاهرة قاهرة تنصرنى بها على جميع من خالفنى ، وقيل اجعل لى من لدنك ملكا وعزا قويا ، وكأنه ﷺ علم أنه لاطاقة له بهذا الأمر الا بسلطان فسأل سلطانا نصيرا و به قال الحسن وقتادة واختاره ابن جرير . قال ابن كثير : وهو الأرجح ، لأنه لابد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ، ولهذا يقول تعالى ـ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ـ وفى الحديث « ان الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » أى ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام مالا يمنع كثيرا من الناس بالقرآن ، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع انتهى (وقل جاء الحق وزهق الباطل) المراد بالحق الاسلام ، وقيل القرآن ، وقيل الجهاد ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك وعلى ماهو حق كائنا ما كان ، والمراد بالباطل الشرك ، وقيل الشيطان ولا يبعد أن يحمل على كل ما يقابل الحق من غير فرق بين باطل و باطل ، ومعنى زهق بطل واضمحل ، ومنه زهوق النفس ، وهو بطلانها (ان الباطل كان زهوقا) أى ان هذا شأنه فهو يبطل ولا يثبت ، والحق ثابت دائما (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين) قرأ الجمهور ننزل بالنون (١) . وقرأ أبو عمرو بالتخفيف .

١ قوله بالنون صوابه بالنون والتشديد اه مصحح القرآن

وقرأ مجاهد بالياء التحتية والتخفيف ، ورواها المروزى عن حفص ، ومن لابتداء الغاية ، و يصح أن تكون لبيان الجنس ، وقيل للتبعيض ، وأنكره بعض المفسرين لاستلزامه أن بعضه لاشفاء فيه ، ورده ابن عطية بأن المبعض هو انزاله .

واختلف أهل العلم فى معنى كونه شفاء على قولين : الأول أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه . القول الثانى أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ، ونحو ذلك ، ولا مانع من حمل الشفاء على المعنيين من باب عموم المجاز ، أو من باب حمل المشترك على معنييه ، ثم ذكر سبحانه أنه رحمة للمؤمنين لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدين والدنيا ، ولما فى تلاوته وتدبره من الأجر العظيم الذى يكون سببا لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه ، ومثل هذه الآية قوله تعالى ـ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ـ ثم لما ذكر سبحانه مافى القرآن من المنفعة لعباده المؤمنين ذكر ما فيه لمن عداهم من المضرة عليهم ، فقال (ولا يزيد الظالمين الا خسارا) أى ولا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الظالمين الذى وضعوا التكذيب موضع التصديق ، والشك والارتياب موضع اليقين والاطمئنان (الا خسارا) أى هلاكا ، لأن سماع القرآن يغيظهم ويحنقهم ويدعوهم الى زيادة ارتكاب القبائح تمردا وعنادا ، فعند ذلك يهلكون ، وقيل الخسار النقص كقوله ـ فزادتهم رجسا الى رجسهم ـ ثم نبه سبحانه على قبح بعض ماجبل عليه الانسان من الطبائع المذمومة ، فقال (واذا أنعمنا على الانسان) أى على هذا الجنس بالنعم التى توجب الشكر كالصحة والغنى (أعرض) عن الشكر لله والذكر له (ونأى بجانبه) النأى البعد والباء للتعدية أو للمصاحبة ، وهو تأكيد للاعراض ، لأن الاعراض عن الشىء هو أن يوليه عرض وجهه : أى ناحيته والنأى بالجانب أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره ولايبعد أن يراد بالاعراض هنا الاعراض عن الدعاء والابتهال الذى كان يفعله عند نزول البلوى والمحنة به ، ويراد بالنأى بجانبه التكبر والبعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم . وقرأ ابن عامر فى رواية ابن ذكوان وأبوجعفر ناء مثل باع بتأخير الهمزة على القلب ، وقرأ حمزة ناءى بامالة الفتحتين ، ووافقه الكسائى ، وأمال شعبة والسوسى الهمزة فقط . وقرأ الباقون بالفتح فيهما (واذا مسه الشر) من مرض أو فقر (كان يئوسا) شديد اليأس من رحمة الله ❊ والمعنى أنه ان فاز بالمطلوب الدنيوى ، وظفر بالمقصود نسى المعبود ، وان فاته شىء من ذلك استولى عليه الأسف ، وغلب عليه القنوط ، وكلتا الخصلتين قبيحة مذمومة ، ولاينافى مافى هذه الآية قوله تعالى ـ واذا مسه الشر فذو دعاء عريض ـ ونظائره ، فان ذلك شأن بعض آخر منهم غير البعض المذكور فى هذه الآية ، ولايبعد أن يقال لامنافاة بين الآيتين فقد يكون مع شدة يأسه وكثرة قنوطه كثير الدعاء بلسانه (قل كل يعمل على شاكلته) الشاكلة قال الفراء الطريقة ، وقيل الناحية ، وقيل الطبيعة ، وقيل الدين ، وقيل النية ، وقيل الجبلة ، وهى مأخوذة من الشكل ، يقال لست على شكلى ولاعلى شاكلتى ، والشكل : هو المثل والنظير ❊ والمعنى أن كل انسان يعمل على مايشاكل أخلاقه التى ألفها ، وهذا ذم للكافر ومدح للمؤمن (فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) لأنه الخالق لكم العالم بما جبلتم عليه من الطبائع وماتباينتم فيه من الطرائق ، فهو الذى يميز بين المؤمن الذى لايعرض عند النعمة ولا ييأس عند المحنة ، وبين الكافر الذى شأنه البطر للنعم والقنوط عند النقم ❊ ثم لما انجر الكلام الى ذكر الانسان وما جبل عليه ، ذكر سبحانه سؤال السائلين لرسول الله ﷺ عن الروح فقال (ويسألونك عن الروح) قد اختلف الناس فى الروح المسئول عنه ، فقيل هو الروح المدبر للبدن الذى

تكون به حياته ، وبهذا قال أكثر المفسرين ، قال الفراء : الروح الذي يعيش به الانسان لم يخبر الله سبحانه به أحدا من خلقه ، ولم يعط علمه أحدا من عباده ، فقال (قل الروح من أمر ربي) أي إنكم لاتعلمونه ، وقيل الروح المسئول عنه جبريل ، وقيل عيسى ، وقيل القرآن ، وقيل ملك من الملائكة عظيم الخلق ، وقيل خلق كخلق بني آدم ، وقيل غير ذلك مما لاطائل تحته ولافائدة في إيراده ، والظاهر القول الأول ، وسيأتي ذكر سبب نزول هذه الآية ، وبيان السائلين لرسول الله ﷺ عن الروح ، ثم الظاهر أن السؤال عن حقيقة الروح ، لان معرفة حقيقة الشيء أهم وأقدم من معرفة حال من أحواله ، ثم أمره سبحانه أن يجيب على السائلين له عن الروح فقال قل الروح من أمر ربي ، من بيانية ، والأمر الشأن والاضافة للاختصاص ، أي هو من جنس مااستأثر الله بعلمه من الأشياء التي لم يعلم بها عباده ، وقيل معنى من أمر ربي : من وحيه وكلامه ، لامن كلام البشر ، وفي هذه الآية مازجر الخائضين في شأن الروح المتكلفين لبيان ماهيته وإيضاح حقيقته أبلغ زجر وبردعهم أعظم ردع ، وقد أطالوا المقال في هذا البحث بما لايتسع له المقام ، وغالبه بل كله من الفضول الذي لايأتي بنفع في دين ولادنيا .

وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين في الروح بلغت الى ثمانية عشر مائة قول ، فانظر الى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع ، بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه ولم يطلع عليه انبياءه ولاأذن لهم بالسؤال عنه ، ولاالبحث عن حقيقته فضلا عن أممهم المقتدين بهم ، فيالله العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول الى هذا الحد الذي لم تبلغه ولابعضه في غير هذه المسئلة مما أذن الله بالكلام فيه ، ولم يستأثر بعلمه ، ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله سبحانه (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) أي ان علمكم الذي علمكم الله ، ليس الا المقدار القليل بالنسبة الى علم الخالق سبحانه ، وان أوتي حظا من العلم وافرا ، بل علم الأنبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة الى علم الله سبحانه الا كما يأخذ الطائر في منقاره من البحر ، كما في حديث موسى والخضر عليهما السلام .

وقد أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود قال : دلوك الشمس غروبها ، تقول العرب اذا غربت الشمس دلكت الشمس . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي قال : دلوكها غروبها . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، قال : لدلوك الشمس لزوال الشمس ، وأخرج البزار وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ « دلوك الشمس زوالها » وضعف السيوطي اسناده ، وأخرجه مالك في الموطأ وعبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عمر من قوله وأخرج عبد الرزاق عنه قال « دلوك الشمس زياغها بعد نصف النهار » وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن ابن عباس قال « دلوكها زوالها » وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عنه في قوله (لدلوك الشمس) قال اذا فاء الفيء وأخرج ابن جرير عن أبي مسعود وعقبة بن عمرو قالا قال رسول ﷺ « أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر » وأخرج ابن جرير عن أبي برزة الأسلمي قال كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر اذا زالت الشمس ، ثم تلا (أقم الصلاة لدلوك الشمس) . وأخرج ابن مردويه من حديث أنس نحوه ، ومما يستشهد به على أن الدلوك الزوال وسط النهار ماأخرجه ابن جرير عن جابر قال « دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه يطعمون عندي ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج النبي ﷺ فقال : اخرج ياأبا بكر فهذا حين دلكت الشمس » وفي اسناده رجل مجهول ولكنه أخرجه عنه

من طريق أخرى عن سهل بن بكار عن أبى عوانة عن الأسود بن قيس عن نبيح العنبرى عن جابر فذكر نحوه مرفوعا . وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود فى قوله (الى غسق الليل) قال الى العشاء الآخرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : غسق الليل اجتماع الليل وظلمته . وأخرج ابن جرير عنه قال : غسق الليل بدوّ الليل . وأخرج عبد الرزاق عن أبى هريرة قال : دلوك الشمس اذا زالت الشمس عن بطن السماء ، وغسق الليل غروب الشمس . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (وقرآن الفجر) قال صلاة الصبح . وأخرج أحمد والترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله (وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا) قال : تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار تجتمع فيها ، وهو فى الصحيحين عنه مرفوعا بلفظ تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر ، ثم يقول أبو هريرة اقرءوا ان شئتم (وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا) وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والطبرانى عن ابن مسعود موقوفا نحوه . وأخرج الحكيم الترمذى وابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن أبى الدرداء قال : قرأ رسول الله ﷺ (ان قرآن الفجر كان مشهودا) قال تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (نافلة لك) يعنى خاصة للنبى ﷺ ، أمر بقيام الليل وكتب عليه . وأخرج الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى سننه عن عائشة أن النبى ﷺ قال « ثلاث هنّ علىّ فرائض وهنّ لكم سنة : الوتر والسواك وقيام الليل » . وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى أمامة فى قوله (نافلة لك) قال كانت للنبى ﷺ نافلة ولكم فضيلة ، وفى لفظ إنما كانت النافلة خاصة لرسول الله ﷺ وأخرج أحمد والترمذى وحسنه وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) وسئل عنه ، قال هو المقام المحمود الذى أشفع فيه لأمتى . وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتى على تلّ ويكسونى ربى حلة خضراء ثم يؤذن لى فأقول ماشاء الله أن أقول فذلك المقام المحمود » وأخرج البخارى وغيره عن ابن عمر قال : ان كل أمة يوم القيامة تتبع نبيها ، يقولون يافلان اشفع ، يافلان اشفع حتى تنتهى الشفاعة الى النبى ﷺ فذلك يوم يبعثه الله مقاما محمودا . وأخرج عنه نحوه مرفوعا ، والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدّا ثابتة فى الصحيحين وغيرهما فلا نطيل بذكرها ، ومن رام الاستيفاء نظر فى أحاديث الشفاعة فى الأمهات وغيرها . وأخرج الطبرانى فى قوله (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) قال : يجلسه فيما بينه وبين جبريل ويشفع لأمته ، فذلك المقام المحمود . وأخرج الديلمى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا قال يجلسنى معه على السرير » وينبغى الكشف عن إسناد هذين الحديثين . وأخرج أحمد والترمذى وصححه وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ بمكة ، ثم أمر بالهجرة فأنزل الله (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل عن قتادة فى قوله (وقل رب أدخلنى) الآية قال أخرجه الله من مكة مخرج صدق ، وأدخله المدينة مدخل صدق . قال وعلم نبىّ الله أنه لاطاقة له بهذا الأمر الا بسلطان فسأل سلطانا نصيرا لكتاب الله وحدوده وفرائضه ولاقامة كتاب الله فان السلطان عزة

من

من الله جعلها بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض ، وأكل شديدهم ضعيفهم . وأخرج الخطيب عن عمر بن الخطاب قال : والله لما يزع الله بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال « دخل النبى ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) ـ جاء الحق ومايبدئ الباطل ومايعيد » وفى الباب أحاديث . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (ونأى بجانبه) قال تباعد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (كان يئوسا) قال قنوطا ، وفى قوله (كلّ يعمل على شاكلته) قال على ناحيته . وأخرج هناد وابن المنذر عن الحسن قال : على شاكلته . على نيته . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال « كنت أمشى مع النبى ﷺ فى خرب المدينة وهو متكئ على عسيب فمرّ بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض اسألوه عن الروح ، فقال بعضهم لاتسألوه ، فقالوا يامحمد ماالروح ؟ فما زال متكئا على العسيب فظننت أنه يوحى اليه . فقال ـ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الاقليلا » . وأخرج أحمد والترمذى وصححه والنسائى وابن المنذر وابن حبان وأبو الشيخ فى العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل ، فقالوا سلوه عن الروح فنزلت (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وماأوتيتم من العلم الا قليلا) قالوا أوتينا علما كثيرا ، أوتينا التوراة ، ومن أوتى التوراة فقد أتى خيرا كثيرا فأنزل الله ـ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ـ وفى الباب أحاديث وآثار .

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا * إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا * قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا *

لما بين سبحانه أنه ما آتاهم من العلم إلا قليلا بين أنه لوشاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل ، فقال (ولئن شئنا لنذهبنّ بالذى أوحينا إليك) واللام هى الموطئة ، ولنذهبن جواب القسم سادّ مسدّ جواب الشرط . قال الزجاج : معناه لوشئنا لمحوناه من القلوب ومن الكتب حتى لايوجد له أثر انتهى ، وعبر عن القرآن بالموصول تفخيما لشأنه (ثم لاتجد لك به) أى بالقرآن (علينا وكيلا) أى لاتجد من يتوكل علينا فى ردّ شىء منه بعد أن ذهبنا به والاستثناء بقوله (الارحمة من ربك) ان كان متصلا فمعناه إلا أن يرحمك ربك فلانذهب به ، وان كان منقطعا فمعناه لكن لايشاء ذلك رحمة من ربك ، أولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به (ان فضله كان عليك كبيرا) حيث جعلك رسولا وأنزل عليك الكتاب وصيرك سيد

ولد آدم وأعطاك المقام المحمود وغير ذلك مما أنعم به عليه ، ثم احتج سبحانه على المشركين باعجاز القرآن ، فقال (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن) المنزل من عند الله الموصوف بالصفات الجليلة من كمال البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ (لا يأتون بمثله) أظهر فى مقام الاضمار ، ولم يكتف بأن يقول لا يأتون به على أن الضمير راجع الى المثل المذكور ، لدفع توهم أن يكون له مثل معين ، وللاشعار بأن المراد نفى المثل على أى صفة كان ، وهو جواب قسم محذوف كما تدل عليه اللام الموطئة ، وساد مسد جواب الشرط ، ثم أوضح سبحانه عجزهم عن المعارضة سواء كان المتصدى لها كل واحد منهم على الانفراد ، أو كان المتصدر بها المجموع بالمظاهرة فقال (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) أى عونا ونصيرا ، وجواب لو محذوف ، والتقدير ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا لا يأتون بمثله ، فثبت أنهم لا يأتون بمثله على كل حال ، وقد تقدم وجه اعجاز القرآن فى أوائل سورة البقرة ، وفى هذه الآية رد لما قاله الكفار ــ لو نشاء لقلنا مثل هذا ــ واكذاب لهم ، ثم بين سبحانه أن الكفار مع عجزهم عن المعارضة استمروا على كفرهم وعدم ايمانهم فقال (ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى رددنا القول فيه بكل مثل يوجب الاعتبار من الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهى وأقاصيص الأولين والجنة والنار والقيامة (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) يعنى من أهل مكة ، فانهم جحدوا وأنكروا كون القرآن كلام الله بعد قيام الحجة عليهم واقترحوا من الآيات ماليس لهم ، وأظهر فى مقام الاضمار حيث قال : فأبى أكثر الناس توكيدا أو توضيحا ، ولما كان أبى مؤولا بالنفى : أى ماقبل أو لم يرض صح الاستثناء منه بقوله (الا كفورا وقالوا لن نؤمن لك) أى قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبى سفيان والنضر بن الحرث ، ثم علقوا نفى ايمانهم بغاية طلبوها ، فقالوا (حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) قرأ حمزة والكسائى وعاصم حتى تفجر مخففا مثل تقتل . وقرأ الباقون بالتشديد ، ولم يختلفوا فى فتفجر الأنهار أنها مشددة ، ووجه ذلك أبو حاتم بأن الأولى بعدها ينبوع ، وهو واحد ، والثانية بعدها الأنهار ، وهى جمع * وأجيب عنه بأن الينبوع وان كان واحدا فى اللفظ فالمراد به الجمع ، فان الينبوع العيون التى لا تنضب ، ويرد بأن الينبوع عين الماء ، والجمع الينابيع ، وانما يقال للعين ينبوع اذا كانت غزيرة من شأنها النبوع من غير انقطاع ، والياء زائدة كيعبوب ، من عب الماء (أو تكون لك جنة) أى بستان تستر أشجاره أرضه * والمعنى هب أنك لا تفجر الأنهار لأجلنا ففجرها من أجلك بأن تكون لك جنة (من نخيل وعنب فتفجر الأنهار) أى تجريها بقوة (خلالها تفجيرا) أى وسطها تفجيرا كثيرا (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) قرأ مجاهد أو تسقط مسندا إلى السماء . وقرأ من عداه أو تسقط على الخطاب : أى أو تسقط أنت يامحمد السماء والكسف بفتح السين جمع كسفة : وهى قراءة نافع وابن عامر وعاصم ، والكسفة القطعة وقرأ الباقون كسفا باسكان السين . قال الأخفش من قرأ باسكان السين جعله واحدا ، ومن قرأ بفتحها جعله جمعا قال المهدوى : ويجوز أن يكون على قراءة السكون جمع كسفة ، ويجوز أن يكون مصدرا . قال الجوهرى : الكسفة القطعة من الشىء يقال : أعطنى كسفة من ثوبك ، والجمع كسف وكسف ، ويقال الكسف والكسفة واحد ، وانتصاب كسفا على الحال ، والكاف فى كما زعمت فى محل نصب على أنه صفة مصدر محذوف : أى اسقاطا مماثلا لما زعمت ، يعنون بذلك قول الله سبحانه ــ ان نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء ــ قال أبو على : الكسف بالسكون . الشىء المقطوع كالطحن للطحون واشتقاقه على ماقال أبو زيد من كسفت الثوب كسفا اذا قطعته ، وقال الزجاج : من كسفت الشىء اذا غطيته كانه قيل أو تسقطها طبقا علينا (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) .

اختلف

اختلف المفسرون فى معنى قبيلا ، فقيل معناه معاينة قاله قتادة وابن جريج ، واختاره أبو على الفارسى فقال اذا حمله على المعاينة كان القبيل مصدرا كالنكير والنذير ، وقيل معناه كفيلا قاله الضحاك ، وقيل شهيدا قاله مقاتل ، وقيل هو جمع القبيلة : أى تأتى بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة قاله مجاهد وعطاء ، وقيل ضمنا ، وقيل مقابلا كالعشير والمعاشر (أو يكون لك بيت من زخرف) أى من ذهب ، وبه قرأ ابن مسعود ، وأصله الزينة ، والمزخرف المزين ، وزخارف الماء طرائقه ، وقال الزجاج : هو الزينة فرجع الى الأصل معنى الزخرف ، وهو بعيد لأنه يصير المعنى أو يكون لك بيت من زينة (أو ترقى فى السماء) أى تصعد فى معارجها : يقال رقيت فى السلم إذا صعدت وارتقيت مثله (ولن نؤمن لرقيك) أى لأجل رقيك وهو مصدر نحو مضى يمضى مضيا وهوى يهوى هويا (حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) أى حتى تنزل علينا من السماء كتابا يصدقك و يدل على نبوتك نقرؤه جميعا ، أو يقرؤه كل واحد منا ، وقيل معناه كتابا من الله الى كل واحد منا كما فى قوله — بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة — فأمر سبحانه رسوله ﷺ أن يأتى بما يفيد التعجب من قولهم ، والتنزيه للرب سبحانه عن اقتراحاتهم القبيحة ، فقال (قل سبحان ربى) أى تنزيها لله عن أن يعجز عن شىء . وقرأ أهل مكة والشام . قال سبحان ربى ، يعنى النبى ﷺ (هل كنت الا بشرا) من البشر لاملكا حتى أصعد السماء (رسولا) مأمورا من الله سبحانه بإبلاغكم ، فهل سمعتم أيها المقترحون لهذه الأمور أن بشرا قدر على شىء منها ؟ وان أردتم أنى أطلب ذلك من الله سبحانه حتى يظهرها على يدى ، فالرسول إذا أتى بمعجزة واحدة كفاه ذلك ، لأن بها يتبين صدقه ، ولا ضرورة إلى طلب الزيادة ، وأنا عبد مأمور ليس لى أن أتحكم على ربى بما ليس بضرورى ، ولا دعت إليه حاجة ، ولو لزمتنى الاجابة لكل متعنت لاقترح كل معاند فى كل وقت اقتراحات ، وطلب لنفسه اظهار آيات ، فتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، وتنزه عن تعنتاتهم ، وتقدس عن اقتراحاتهم .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال : ان هذا القرآن سيرفع . قيل كيف يرفع ، وقد أثبته الله فى قلوبنا وأثبتناه فى المصاحف ؟ قال يسرى عليه فى ليلة واحدة ، فلا يترك منه آية فى قلب ولا مصحف الا رفعت فتصبحون ، وليس فيكم منه شىء ، ثم قرأ (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك) ، وقد روى عنه هذا من طرق . وأخرج ابن عدى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه ، وأخرج محمد ابن نصر عن عبد الله بن عمرو نحوه موقوفا . وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن معاذ بن جبل مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم ، وصححه عن أبى هريرة موقوفا نحوه أيضا . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمى عن حذيفة بن اليمان مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر مرفوعا نحوه . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال « أتى رسول الله ﷺ محمود بن شيحان ونعمان بن آضى وبحرى بن عمرو وسلام بن مشكم ، فقالوا أخبرنا يامحمد بهذا الذى جئت به أحق من عند الله ؟ فانا لانراه متناسقا كما تناسق التوراة ، فقال لهم والله إنكم لتعرفونه انه من عند الله قالوا إنا نجيئك بمثل ماتأتى به ، فأنزل الله — قل لئن اجتمعت الانس والجن — » الآية . وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبا سفيان بن حرب ، ورجلا من بنى عبد الدار وأبا البحترى أخا بنى أسيد والأسود بن عبد المطلب وربيعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيها ومنبها ابنى الحجاج ،

XVII ٩٦-١٠٢

السهميين : اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد وكلموه وخاصموه ، وذكر حديثا طويلا : يشتمل على ماسألوه عنه وتعنتوه ، وأن ذلك كان سبب نزول قوله ـ وقالوا لن نؤمن لك ـ الى قوله ـ بشرا رسولا ـ * وإسناده عند ابن جرير هكذا : حدثنا أبو كريب حدثنا يونس بن بكير حدثنا محمد بن اسحق : حدثني شيخ من أهل مصر ، قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس فذكره ، ففيه هذا الرجل المجهول . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ـ وقالوا لن نؤمن لك ـ قال نزلت في أخي أم سلمة عبد الله بن أبي أمية . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله (ينبوعا) ، قال عيونا . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ، قال الينبوع : هو النهر الذي يجري من العين . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (أو تكون لك جنة) ، يقول ضيعة . وأخرج ابن جرير عنه (كسفا) قال : قطعا . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا (قبيلا) ، قال : عيانا . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (من زخرف) ، قال من ذهب . وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الانباري وأبو نعيم عن مجاهد ، قال لم نكن نعرف ما الزخرف ؟ حتى سمعنا في قراءة عبد الله أو يكون لك بيت من ذهب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله (كتابا نقرؤه) قال من رب العالمين الى فلان ابن فلان : يصبح عند كل رجل صحيفة عند رأسه موضوعة يقرؤها :

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا * قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا * وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا * ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا * قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا *

حكى سبحانه عنهم شبهة أخرى قد تكرر في الكتاب العزيز التعرض لايرادها وردها في غير موضع فقال (وما منع الناس أن يؤمنوا) المراد الناس على العموم ، وقيل المراد أهل مكة على الخصوص : أي مامنعهم الايمان بالقرآن وبنبوة محمد ﷺ ، وهو المفعول الثاني لمنع ، ومعنى (إذ جاءهم الهدى) أنه جاءهم الوحي من الله سبحانه على رسوله ، وبين ذلك لهم وأرشدهم اليه ، وهو ظرف لمنع أو يؤمنوا ، أي مامنعهم وقت مجيء الهدى أن يؤمنوا بالقرآن والنبوة (الا أن قالوا) : أي مامنعهم الا قولهم ، فهو في محل رفع على أنه فاعل منع ، والهمزة في (أبعث الله بشرا رسولا) للانكار منهم أن يكون الرسول بشرا * والمعنى أن هذا الاعتقاد الشامل لهم ، وهو إنكار أن يكون الرسول من جنس البشر ، هو الذي منعهم عن الايمان بالكتاب وبالرسول ، وعبر عنه بالقول للاشعار بأنه ليس الا مجرد قول قالوه بأفواههم

ثم أمر رسوله ﷺ أن يجيب عن شبهتهم هذه ، فقال (قل لو كان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين) : أى لو وجد وثبت أن فى الأرض بدل من فيها من البشر ملائكة يمشون على الأقدام كما يمشى الانس مطمئنين مستقرين فيها ساكنين بها . قال الزجاج : مطمئنين مستوطنين فى الارض ، ومعنى الطمأنينة السكون ، فالمراد هاهنا المقام والاستيطان ، فانه يقال سكن البلد فلان إذا أقام فيها ، وان كان ماشيا متقلبا فى حاجاته (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) حتى يكون من جنسهم ، وفيه إعلام من الله سبحانه بأن الرسل ينبغى أن تكون من جنس المرسل اليهم ، فكأنه سبحانه اعتبر فى تنزيل الرسول من جنس الملائكة أمرين : الأول كون سكان الأرض ملائكة . والثانى كونهم ماشين على الأقدام : غير قادرين على الطيران بأجنحتهم الى السماء ، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا اليها ، وسمعوا من أهلها مايجب معرفته وسماعه ، فلا يكون فى بعثة الملائكة اليهم فائدة ، وانتصاب بشرا وملكا على أنهما مفعولان للفعلين ، ورسولا فى الموضعين وصف لهما ، وجوز صاحب الكشاف أن يكونا حالين فى الموضعين من رسولا فيهما ، وقواه صاحب الكشاف ، ولعل وجه ذلك أن الانكار يتوجه الى الرسول المتصف بالبشرية فى الموضع الأول ، فيلزم بحكم التقابل أن يكون الآخر كذلك ، ثم ختم الكلام بما يجرى مجرى التهديد ، فقال (قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) : أى قل لهم يا محمد من جهتك كفى بالله وحده شهيدا على إبلاغى إليكم ما أمرنى به من أمور الرسالة ، وقال بينى وبينكم ، ولم يقل بيننا تحقيقا للمفارقة الكلية ، وقيل ان إظهار المعجزة على وفق دعوى النبى شهادة من الله له على الصدق ، ثم علل كونه سبحانه شهيدا كافيا بقوله (إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) : أى عالما بجميع أحوالهم محيطا بظواهرها وبواطنها : بصيرا بما كان منها وما يكون ، ثم بين سبحانه ان الاقرار والانكار مستندان الى مشيئته فقال (ومن يهد الله فهو المهتدى) أى من يرد الله هدايته فهو المهتدى الى الحق ، أو الى كل مطلوب (ومن يضلل) أى يرد إضلاله (فلن تجد لهم أولياء) ينصرونهم (من دون) الله سبحانه ويهدونهم الى الحق الذى أضلهم الله عنه ، أو الى طريق النجاة ، وقوله : فهو المهتدى حملا على لفظ من ، وقوله فلن تجد لهم حملا على المعنى ، والخطاب فى قوله : فلن تجد إما للنبى ﷺ ، أو لكل من يصلح له (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) هذا الحشر على الوجوه فيه وجهان للمفسرين : الأول أنه عبارة عن الاسراع بهم الى جهنم من قول العرب ، قد مر القوم على وجوههم : اذا أسرعوا . الثانى أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم حقيقة كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فى إهانته وتعذيبه ، وهذا هو الصحيح ، لقوله تعالى ـ يوم يسحبون فى النار على وجوههم ـ ، ولما صح فى السنة كما سيأتى ، ومحل على وجوههم النصب على الحال من ضمير المفعول و (عميا) منتصب على الحال (وبكما وصما) معطوفان عليه ، والأبكم : الذى لاينطق ، والأصم : الذى لايسمع ، وهذه هيئة يبعثون عليها فى أقبح صورة ، وأشنع منظر ، قد جمع الله لهم بين عمى البصر ، وعدم النطق ، وعدم السمع ، مع كونهم مسحوبين على وجوههم ، ثم من وراء ذلك (مأواهم جهنم) أى المكان الذى يأوون اليه ، والجملة فى محل نصب على الحال أو هى مستأنفة لامحل لها (كلما خبت زدناهم سعيرا) : أى كلما سكن لهبها : يقال خبت النار تخبو خبوا اذا خمدت وسكن لهبها . قال ابن قتيبة : ومعنى زدناهم سعيرا تسعرا ، وهو التلهب * وقد قيل ان فى خبوّ النار تخفيفا لعذاب أهلها ، فكيف يجمع بينه وبين قوله ـ لايخفف عنهم العذاب ـ * وأجيب بأن المراد بعدم التخفيف أنه لا يتخلل زمان محسوس بين الخبوّ والتسعر ، وقيل انها تخبو من غير تخفيف عنهم من عذابها (ذلك) أى العذاب (جزاؤهم) الذى أوجبه الله لهم واستحقوه عنده ، والباء فى قوله

(بأنهم كفروا بآياتنا) للسببية : أى بسبب كفرهم بها فلم يصدّقوا بالآيات التنزيلية ولا تفكروا فى الآيات التكوينية ، واسم الاشارة مبتدأ وخبره جزاؤهم ، و بأنهم كفروا خبر آخر ، ويجوز أن يكون جزاؤهم مبتدأ ثانيا ، وخبره مابعده ، والجملة خبر المبتدا الأول (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا) : الهمزة للانكار وقد تقدم تفسير الآية فى هذه السورة ، وخلقا : فى قوله (أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) مصدر من غير لفظه ، أوحال : أى مخلوقين . فجاء سبحانه بحجة تدفعهم عن الانكار وتردّهم عن الجحود ، فقال (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم) : أى من هو قادر على خلق هذا ، فهو على إعادة ماهو أدون منه أقدر ، وقيل المراد أنه قادر على إفنائهم وإيجاد غيرهم ، وعلى القول الأول يكون الخلق بمعنى الاعادة ، وعلى هذا القول هو على حقيقته ، وجملة (وجعل لهم أجلا لاريب فيه) عطف على أولم يروا ، والمعنى قدعلموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض ، فهو قادر على خلق أمثالهم ، لأنهم ليسوا بأشدّ خلقا منهن كما قال ـ أأنتم أشدّ خلقا أم السماء ـ وجعل لهم أجلا لاريب فيه ، وهو الموت أو القيامة ، ويحتمل أن تكون الواو للاستئناف ، وقيل فى الكلام تقديم وتأخير : أى أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض وجعل لهم أجلا لاريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم (فأبى الظالمون الا كفورا) : أى أبى المشركون الا جحودا ، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر للحكم عليهم بالظلم ، ومجاوزة الحدّ ، ثم لما وقع من هؤلاء الكفار طلب إجراء الأنهار ، والعيون فى أراضيهم لتتسع معايشهم ، بين الله سبحانه أنهم لا يقنعون ، بل يبقون على بخلهم وشحهم ، فقال (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى) أنتم مرتفع على أنه فاعل فعل محذوف ، يفسره مابعده : أى لو تملكون أنتم تملكون على أن الضمير المنفصل مبدل من الضمير المتصل ، وهو الواو ، ، وخزائن رحمته سبحانه : هى خزائن الأرزاق . قال الزجاج أعلمهم الله أنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق ، لأمسكوا شحا وبخلا ، وهو خشية الانفاق : أى خشية أن ينفقوا : فيفتقروا ، وفى حذف الفعل الذى ارتفع به أنتم ، و إيراد الكلام فى صورة المبتدا والخبر دلالة على أنهم هم المختصون بالشحّ قال أهل اللغة : أنفق وأصرم وأعدم وأقتر : بمعنى قلّ ماله ، فيكون المعنى ، لأمسكتم خشية قلّ المال (وكان الانسان قتورا) : أى بخيلا مضيقا عليه ، يقال قتر على عياله يقتر و يقتر قترا وقتورا : ضيق عليهم فى النفقة ، ويجوز أن يراد وكان الانسان قتورا : أى قليل المال ، والظاهر أن المراد المبالغة فى وصفه بالشحّ ، لان الانسان ليس بقليل المال على العموم . بل بعضهم كثير المال ، الا أن يراد أن جميع النوع الانسانى قليل المال بالنسبة الى خزائن الله وما عنده ، وقد اختلف فى هذه الآية على قولين : أحدهما أنها نزلت فى المشركين خاصة ، وبه قال الحسن . والثانى أنها عامة وهو قول الجمهور ، حكاه الماوردى .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس ، قال قيل يارسول الله : كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم . وأخرج أبو داود والترمذى وحسنه وابن جرير وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة . قال قال رسول الله ﷺ « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف . صنف مشاة ، وصنف ركبانا ، وصنف على وجوههم » . ثم ذكر نحو حديث أنس ، وفى الباب أحاديث . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (مأواهم جهنم) قال : يعنى أنهم وقودها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عنه فى قوله (كلما خبت) ، قال سكنت . وأخرج هؤلاء عنه أيضا فى الآية ، قال كلما أحرقهم

سعرتهم حطبا ، فاذا أحرقتهم فلم يبق منهم شيء صارت جرا تتوهج فذلك خبوها ، فاذا بدّلوا خلقا جديدا عاودتهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله (خزائن رحمة ربي) قال الرزق . وأخرج أيضا عن عكرمة في قوله (اذا لأمسكتم خشية الانفاق) قال إذا ما أطعمتم أحدا شيئا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (خشية الانفاق) قال : الفقر (وكان الانسان قتورا) قال : بخيلا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة (خشية الانفاق) قال : خشية الفاقة (وكان الانسان قتورا) قال : بخيلا ممسكا .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا * فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا * وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا * وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا * قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا *

قوله (ولقد آتينا موسى تسع آيات) : أي علامات دالة على نبوّته . قيل ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن المعجزات المذكورة كأنها مساوية لتلك الأمور التي اقترحها كفار قريش ، بل أقوى منها ، فليس عدم الاستجابة لما طلبوه من الآيات الا لعدم المصلحة في استئصالهم ان لم يؤمنوا بها . قال أكثر المفسرين : الآيات التسع : هي الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والعصا ، واليد ، والسنين ، ونقص الثمرات ، وجعل الحسن مكان السنين ، ونقص الثمرات البحر ، والجبل . وقال محمد بن كعب القرظي هي الخمس التي في الأعراف والبحر ، والعصا ، والحجر ، والطمس على أموالهم ، وقد تقدم الكلام على هذه الآيات مستوفى ، وسيأتي حديث صفوان بن عسال في تعداد هذه الآيات التسع (فاسأل بني إسرائيل) قرأ ابن عباس وابن نهيك فسأل على الخبر : أي سأل موسى فرعون أن يخلي بني إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه ، وقرأ الآخرون ، فاسأل على الأمر : أي سلهم يا محمد حين (جاءهم) موسى ، والسؤال سؤال استشهاد لمزيد الطمأنينة والايقان ، لأن الأدلة إذا تظافرت كان ذلك أقوى ، والمسئولون مؤمنو بني إسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه ، (فقال له فرعون إني لأظنك ياموسى مسحورا) الفاء هي الفصيحة : أي فأظهر موسى عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات ، وبلغه ما أرسل به فقال له فرعون ، والمسحور الذي سحر فخولط عقله . وقال أبو عبيدة والفراء : هو بمعنى الساحر ، فوضع المفعول موضع الفاعل ، ف(قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء) يعني الآيات التي أظهرها ، وأنزل بمعنى أوجد (إلا رب السموات والأرض بصائر) : أي دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته ، وانتصاب بصائر على الحال . قرأ الكسائي بضم التاء من علمت على أنها لموسى ، وروى ذلك عن علي ، وقرأ الباقون بفتحها على الخطاب لفرعون

ووجه القراءة الأولى أن فرعون لم يعلم ذلك ، وانما علمه موسى ، ووجه قراءة الجمهور أن فرعون كان عالما بذلك كما قال تعالى ــ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ــ . قال أبو عبيد المأخوذ به عندنا فتح التاء ، وهو الأصح للمعنى ، لان موسى لا يقول علمت أنا وهو الداعى ، وروى نحو هذا عن الزجاج (وإنى لأظنك يافرعون مثبورا) الظنّ هنا بمعنى اليقين ، والثبور الهلاك والخسران . قال الكميت :

ورأت قضاعة فى الأيا * من رأى مثبور وثابر

أى مخسور وخاسر ، وقيل المثبور الملعون ، ومنه قول الشاعر :

ياقومنا لاتروموا حربنا سفها * ان السفاه وان البغى مثبور

أى ملعون ، وقيل المثبور ناقص العقل ، وقيل هو الممنوع من الخير : يقال ما ثبرك عن كذا مامنعك منه حكاه أهل اللغة ، وقيل المسحور (فأراد أن يستفزّهم من الأرض) أى أراد فرعون أن يخرج بنى إسرائيل وموسى ويزعجهم من الأرض ، يعنى أرض مصر بابعادهم عنها ، وقيل أراد أن يقتلهم وعلى هذا يراد بالأرض مطلق الأرض ، وقد تقدم قريبا معنى الاستفزاز (فأغرقناه ومن معه جميعا) فوقع عليه وعليهم الهلاك بالغرق ، ولم يبق منهم أحدا (وقلنا من بعده لبنى اسرائيل اسكنوا الأرض) أى من بعد إغراقه ومن معه ، والمراد بالأرض هنا ، أرض مصر التى أراد أن يستفزهم منها (فاذا جاء وعد الآخرة) أى الدار الآخرة وهو القيامة ، أو الكرّة الآخرة ، أو الساعة الآخرة (جئنا بكم لفيفا) قال الجوهرى : اللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى ، يقال جاء القوم بلفهم ولفيفهم : أى بأخلاطهم ، فالمراد هنا جئنا بكم من قبوركم مختلطين من كل موضع ، قداختلط المؤمن بالكافر . قال الأصمعى : اللفيف جمع وليس له واحد ، وهو مثل الجمع (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) الضمير يرجع الى القرآن ، ومعنى بالحق أنزلناه أوحيناه متلبسا بالحق ، ومعنى وبالحق نزل أنه نزل وفيه الحق ، وقيل الباق وبالحق الأول بمعنى مع : أى مع الحق أنزلناه كقولهم ركب الأمير بسيفه : أى مع سيفه ، وبالحق نزل ، أى بمحمد كما تقول نزلت بزيد . وقال أبو على الفارسى الباء فى الموضعين بمعنى مع ، وقيل يجوز أن يكون المعنى وبالحق قدرنا أن ينزل وكذلك نزل أو ما أنزلناه من السماء إلا محفوظا وما نزل على الرسول إلا محفوظا من تخليط الشياطين والتقديم فى الموضعين للتخصيص (وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا) أى مبشرا لمن أطاع بالجنة ونذيرا مخوّفا لمن عصى بالنار (وقرآنا فرقناه) انتصاب قرآنا بفعل مضمر يفسره مابعده ، قرأ على وابن عباس وابن مسعود وأبىّ بن كعب وقتادة وأبو رجاء والشعبى (فرقناه) بالتشديد : أى أنزلناه شيئا بعد شىء ، لاجملة واحدة . وقرأ الجمهور فرقناه بالتخفيف : أى بيناه وأوضحناه ، وفرقنا فيه بين الحق والباطل ، وقال الزجاج : فرقه فى التنزيل ليفهمه الناس . قال أبو عبيد : التخفيف أعجب الىّ ، لأن تفسيره بيناه ، وليس للتشديد معنى إلا أنه نزل متفرقا ، ويؤيده مارواه ثعلب عن ابن الأعرابى أنه قال : فرقت مخففا بين الكلام ، وفرقت مشددا بين الأجسام ، ثم ذكر سبحانه العلة لقوله : فرقناه ، فقال (لتقرأه على الناس على مكث) أى على تطاول فى المدة شيئا بعد شىء على القراءة الاولى ، أو أنزلناه آية آية ، وسورة سورة ، ومعناه على القراءة الثانية على مكث : أى على ترسل وتمهل فى التلاوة ، فان ذلك أقرب إلى الفهم وأسهل للحفظ ، وقد اتفق القراء على ضم الميم فى مكث الا ابن محيصن فانه قرأ بفتح الميم (ونزلناه تنزيلا) التأكيد بالمصدر للمبالغة ، والمعنى أنزلناه منجما مفرّقا لما فى ذلك من المصلحة ، ولو أخذوا بجميع الفرائض فى وقت واحد لنفروا ولم يطيقوا (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا) أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقول للكافرين المقترحين للآيات آمنوا به أو لا تؤمنوا ، فسواء إيمانكم به وامتناعكم عنه ، لايزيده ذلك ولاينقصه ، وفى هذا وعيد شديد لأمره ﷺ بالاعراض عنهم

واحتقارهم

واحتقارهم ، ثم علل ذلك بقوله (ان الذين أوتوا العلم من قبله) أى ان العلماء الذين قرءوا الكتب السابقة قبل انزال القرآن وعرفوا حقيقة الوحى وأمارات النبوّة كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام (اذا يتلى عليهم) أى القرآن (يخرّون للأذقان سجدا) أى يسقطون على وجوههم ساجدين لله سبحانه ، والعاقيد الخرور ، وهو السقوط بكونه للأذقان : أى عليها ، لأن الذقن ، وهو مجتمع اللحيين أوّل مايحاذى الأرض . قال الزجاج : لأن الذقن مجتمع اللحيين ، وكما يبتدئ الانسان بالخرور للسجود ، فأوّل مايحاذى الأرض به من وجهه الذقن ، وقيل المراد تعفير اللحية فى التراب ، فان ذلك غاية الخضوع ، وايثار اللام فى للأذقان على على للدلالة على الاختصاص ، فكأنهم خصوا أذقانهم بالخرور ، أو خصوا الخرور بأذقانهم ، وقيل الضمير فى قوله (من قبله) راجع الى النبى ﷺ ، والأولى ماذكرناه من رجوعه الى القرآن ، لدلالة السياق على ذلك ، وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ وحاصلها أنه ان لم يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لاعلم عندهم ولا معرفة بكتب الله ولا بأنبيائه ، فلا تبال بذلك ، فقد آمن به أهل العلم وخشعوا له وخضعوا عند تلاوته عليهم خضوعا ظهر أثره البالغ بكونهم يخرّون على أذقانهم سجدا لله (ويقولون سبحان ربنا) أى يقولون فى سجودهم تنزيها لربنا عما يقوله الجاهلون من التكذيب أو تنزيها له عن خلف وعده (ان كان وعد ربنا لمفعولا) ان هذه هى المخففة من الثقيلة ، واللام هى الفارقة ، ثم ذكر أنهم خروا لأذقانهم باكين ، فقال (ويخرون للأذقان يبكون) وكرر ذكر الخرور للأذقان لاختلاف السبب ، فان الأول لتعظيم الله سبحانه وتنزيهه ، والثانى للبكاء بتأثير مواعظ القرآن فى قلوبهم ومزيد خشوعهم ، ولهذا قال (ويزيدهم) أى سماع القرآن ، أو القرآن بسماعهم له (خشوعا) أى لين قلب ورطوبة عين .

وقد أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (تسع آيات) فذكر ماذكرناه عن أكثر المفسرين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه . قال يده وعصاه ، ولسانه ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . وأخرج الطيالسى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن قانع والحاكم وصححه وأبو نعيم والبيهقى وابن مردويه عن صفوان ابن عسال أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه انطلق بنا الى هذا النبى نسأله ، فأتياه فسألاه عن قول الله (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) فقال « لاتشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ، ولا تسرفوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تسرقوا ، ولا تسحروا ، ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان فيقتله ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا محصنة . أو قال لاتفروا من الزحف ، شك شعبة ، وعليكم يايهود خاصة أن لاتعتدوا فى السبت ، فقبلا يديه ورجليه . وقالا نشهد أنك نبى الله . قال : فما يمنعكما أن تسلما ؟ قالا ان داود دعا الله أن لايزال فى ذريته نبىّ ، وإنا نخاف ان أسلمنا أن يقتلنا اليهود» . وأخرج ابن أبى الدنيا فى ذمّ الغضب عن أنس بن مالك أنه سئل عن قوله (وانى لأظنك يافرعون مثبورا) قال : مخالفا . وقال الأنبياء أكرم من أن تلعن أو تسبّ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس مثبورا قال : ملعونا . وأخرج الشيرازى فى الألقاب وابن مردويه عنه قال : قليل العقل . وأخرج ابن جرير عنه أيضا لفيفا قال : جميعا . وأخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس انه قرأ وقرآنا فرقناه مثقلا . قال نزل القرآن الى السماء الدنيا فى ليلة القدر من رمضان جملة واحدة فكان المشركون اذا أحدثوا شيئا أحدث الله لهم جوابا ، ففرقه الله فى عشرين سنة ، وقد روى نحو هذا

عنه من طرق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا فرقناه قال : فصلناه على مكث بأمد ، يخرون للأذقان يقول للوجوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد اذا يتلى عليهم قال : كتابهم .

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا *

أراد سبحانه أن يعلم عباده كيفية الدعاء والخشوع فقال (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) ومعناه أنهما مستويان فى جواز الاطلاق وحسن الدعاء بهما ، ولهذا قال (أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) التنوين فى أيا عوض عن المضاف اليه ، وما مزيدة لتوكيد الابهام فى أيا ، والضمير فى له راجع الى المسمى وكان أصل الكلام أياما تدعوا فهو حسن ، فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة ، وللدلالة على أنها اذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان ، ومعنى حسن الأسماء استقلالها بنعوت الجلال والاكرام ، ذكر معنى هذا النيسابورى وتبعه أبو السعود . قال الزجاج : أعلمهم الله أن دعاءهم الله ودعاءهم الرحمن يرجعان الى قول واحد ، وسيأتى ذكر سبب نزول الآية ، وبه يتضح المراد منها ، ثم ذكر كيفية أخرى للدعاء فقال (ولاتجهر بصلاتك ولاتخافت بها) أى بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم بأن الجهر والمخافتة من نعوت الصوت ، لامن نعوت أفعال الصلاة ، فهو من اطلاق الكل وارادة الجزء ، يقال خفت صوته خفوتا اذا انقطع كلامه ، وضعف وسكن ، وخفت الزرع اذا ذبل ، وخافت الرجل بقراءته اذا لم يرفع بها صوته ، وقيل معناه لاتجهر بصلاتك كلها ولاتخافت بها كلها ، والأول أولى (وابتغ بين ذلك) أى الجهر والمخافتة المدلول عليهما بالفعلين (سبيلا) أى طريقا متوسطا بين الأمرين فلا تكن مجهورة ولا مخافتا بها ، وعلى التفسير الثانى يكون معنى ذلك النهى عن الجهر بقراءة الصلوات كلها ، والنهى عن المخافتة بقراءة الصلوات كلها ، والامر بجعل البعض منها مجهورا به ، وهو صلاة الليل والمخافتة بصلاة النهار ، وذهب قوم الى أن هذه الآية منسوخة بقوله ـ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ـ ولما أمر أن لايذكر ولا ينادى إلا بأسمائه الحسنى نبه على كيفية الحمد له فقال (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) كما تقوله اليهود والنصارى ، ومن قال من المشركين ان الملائكة بنات الله ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا (ولم يكن له شريك فى الملك) أى مشارك له فى ملكه وربوبيته كما تزعمه الثنوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة (ولم يكن له ولى من الذل) أى لم يحتج إلى موالاة أحد لذل يلحقه فهو مستغن عن الولى والنصير . قال الزجاج : أى لم يحتج أن ينتصر بغيره ، وفى التعرض فى أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذان بأن المستحق للحمد من له هذه الصفات لأنه القادر على الايجاد وافاضة النعم لكون الولد مجبنة ومبخلة ، ولأنه أيضا يستلزم حدوث الأب لأنه متولد من جزء من أجزائه ، والمحدث غير قادر على كمال الانعام ، والشركة فى الملك انما تتصور لمن لايقدر على الاستقلال به ، ومن لايقدر على الاستقلال عاجز فضلا عن تمام ماهو له ، فضلا عن نظام ماهو عليه ، وأيضا الشركة موجبة للتنازع بين الشريكين فقد يمنعه الشريك من افاضة الخير الى أوليائه ومؤدية الى الفساد ـ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ـ والمحتاج الى ولى يمنعه من الذل وينصره على من أراد إذلاله ضعيف لايقدر على مايقدر عليه من هو مستغن بنفسه (وكبره تكبيرا) أى عظمه تعظيما وصفه بأنه أعظم من كل شىء .

وقد

وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال « صلى رسول الله ﷺ بمكة ذات يوم فقال فى دعائه : يا ألله يارحمن ، فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين ، وهو يدعو إلهين ، فأنزل الله قل ادعوا الله أوادعوا الرحمن الآية » . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابراهيم النخعى قال : ان اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الرحمن ، وكان لهم كاهن باليمامة يسمونه الرحمن ، فنزلت الآية وهو مرسل . وأخرج ابن جرير عن مكحول « أن النبى ﷺ كان يتهجد بمكة ذات ليلة يقول فى سجوده يارحمن يارحيم ، فسمعه رجل من المشركين ، فلما أصبح قال : لأصحابه ان ابن أبى كبشة يدعو الليلة الرحمن الذى باليمن ، وكان رجل باليمن يقال له رحمن ، فنزلت » . وأخرج البيهقى فى الدلائل من طريق نهشل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس قال « سئل رسول الله ﷺ عن قول الله : قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن أياماتدعوا الى آخر الآية ، فقال رسول الله ﷺ هو أمان من السرق ، وان رجلا من المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ تلاها حيث أخذ مضجعه ، فدخل عليه سارق فجمع ، مافى البيت وحمله ، والرجل ليس بنائم حتى انتهى الى الباب فوجد الباب مردودا ، فوضع الكارة ، ففعل ذلك ثلاث مرات ، فضحك صاحب الدار ثم قال انى حصنت بيتى » . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس فى قوله (ولا تجهر بصلاتك) الآية قال نزلت ورسول الله ﷺ متوار ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فاذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاءبه ، فقال الله لنبيه ولا تجهر بصلاتك : أى بقراءتك ، فيسمع المشركون ، فيسبوا القرآن ، ولا تخافت بها عن أصحابك ، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ، وابتغ بين ذلك سبيلا يقول بين الجهر والمخافتة . وأخرج ابن مردويه عنه قال كان نبىّ الله ﷺ يجهر بالقراءة بمكة فيؤذى ، فأنزل الله ولاتجهر بصلاتك . وأخرج ابن أبى شيبة عنه أيضا نحوه . وأخرج أبو داود فى ناسخه عنه نحوه . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنه أيضا قال كان مسيلمة الكذاب قد سمى الرحمن ، فكان النبى ﷺ إذا صلى يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم قال : المشركون يذكر إله اليمامة ، فأنزل الله ولا تجهر بصلاتك . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الشعب عن محمد بن سيرين قال نبئت أن أبا بكر كان إذا قرأ خفض ، وكان عمر اذا قرأ جهر ، فقيل لأبى بكر لم تصنع هذا ؟ قال : أنا أناجى ربى ، وقد عرف حاجتى ، وقيل لعمر لم تصنع هذا ؟ قال : أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان ، فلما نزل ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، قيل لأبى بكر ارفع شيئا ، وقيل لعمر اخفض شيئا . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة والبخارى ومسلم وغيرهم عن عائشة قالت : انما نزلت هذه الآية ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها فى الدعاء . وأخرج ابن جرير والحاكم عنها قالت نزلت فى التشهد . وأخرج ابن أبى شيبة وابن منيع وابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس مثل حديث عائشة الأوّل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال : ان اليهود والنصارى قالوا اتخذ الله ولدا ، وقالت العرب : لبيك لاشريك لك الا شريكا هو لك تملكه وماملك ، وقال الصابئون والمجوس : لولا أولياء الله لذلّ ، فأنزل الله هذه الآية قل الحمد لله الى آخرها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (ولم يكن له ولىّ من الذلّ) قال لم يحالف أحدا ولم يبتغ نصر أحد . وأخرج أحمد والطبرانى عن معاذ بن أنس قال « قال رسول الله ﷺ آية العزّ الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا الآية كلها » . وأخرج أبو يعلى وابن السنى عن أبى هريرة قال « خرجت أنا ورسول الله ﷺ ويده فى يدى فأتى علىّ رجل رثّ الهيئة فقال : أى فلان مابلغ بك ماأرى ، قال السقم والضرّ

قال ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر : توكلت على الحي الذي الذي لا يموت الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا إلى آخر الآية ، فأتى عليه رسول الله ﷺ وقد حسنت حاله » فقال مهيم قال لم أزل أقول الكلمات التي علمتني ، وفي لفظ أن النبي ﷺ علم ذلك أبا هريرة . قال ابن كثير : واسناده ضعيف وفي متنه نكارة . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال « ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية _ الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا _ الى آخرها الصغير من أهله والكبير » . وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عبد الكريم بن أبي أمية قال « كان رسول الله ﷺ يعلم الغلام من بني هاشم اذا أفصح سبع مرات _ الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا _ الى آخر السورة » وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف من طريق عبدالكريم عن عمرو بن شعيب فذكره . وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

تفسير سورة الكهف

وهي مائة وإحدى عشرة آية

قال القرطبي : وهي مكية في قول جميع المفسرين ، وروى عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله جرزا والأول أصح انتهى ، ومن القائلين انها مكية جميعها ابن عباس ، أخرجه عنه النحاس وابن مردويه ومنهم ابن الزبير ، أخرجه عنه ابن مردويه * وقد ورد في فضلها أحاديث : منها ما أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » . وأخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن حبان عن أبي الدرداء قال « قال رسول الله ﷺ من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن البراء قال « قرأ رجل سورة الكهف وفي الدار دابة ، فجعلت تنفر فنظر فاذا ضبابة أوسحابة قد غشيته ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال اقرأ فلان ، فان السكينة نزلت للقرآن » ، وهذا الذي كان يقرأ هو أسيد بن حضير كما بينه الطبراني . وأخرج الترمذي وصححه عن أبي الدرداء قال « قال رسول الله ﷺ من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » وفي قراءة العشر الآيات من أولها أومن آخرها أحاديث . وأخرج ابن مردويه والضياء في المختارة عن علي قال : قال رسول الله ﷺ من قرأ الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة تكون ، فان خرج الدجال عصم منه » . وأخرج الطبراني في الأوسط والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي والضياء عن أبي سعيد الخدري قال « قال رسول الله ﷺ من قرأ سورة الكهف كانت له نورا من مقامه الى مكة ، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضره » وأخرج الحاكم وصححه من حديث أبي سعيد « أن النبي ﷺ قال من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين » . وأخرجه البيهقي

أيضا

XVIII. ١٣٦

أيضاً في السنن من هذا الوجه ومن وجه آخر . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال « قال رسول الله ﷺ من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت قال « رسول الله ﷺ ألا أخبركم بسورة ملأ عظمتها ما بين السماء والأرض ولكاتبها من الأجر مثل ذلك ومن قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ، ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه الله من أيّ الليل شاء قالوا بلى يا رسول الله ؟ قال سورة أصحاب الكهف » . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مغفل قال « قال رسول الله ﷺ البيت الذي تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة » وفي الباب أحاديث وآثار ، وفيما أوردناه كفاية مغنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا * فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا *

علّم عباده كيف يحمدونه على إفاضة نعمه عليهم ، ووصفه بالموصول يشعر بعلية ما في حيز الصلة لما قبله ، ووجه كون إنزال الكتاب ، وهو القرآن نعمة على رسول الله ﷺ كونه اطلع بواسطته على أسرار التوحيد ، وأحوال الملائكة والأنبياء ، وعلى كيفية الأحكام الشرعية التي تعبده الله وتعبد أمته بها ، وكذلك العباد كان إنزال الكتاب على نبيهم نعمة لهم لمثل ما ذكرناه في النبيّ (ولم يجعل له عوجا) أي شيئا من العوج بنوع من أنواع الاختلال في اللفظ والمعنى : والعوج بالكسر في المعاني . وبالفتح في الأعيان كذا قيل ، ويرد عليه قوله سبحانه ـ لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ـ يعني الجبال ، وهي من الأعيان قال الزجاج : المعنى في الآية لم يجعل فيه اختلافا كما قال ـ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ـ * والقيم المستقيم الذي لا ميل فيه ، أو القيم بمصالح العباد الدينية والدنيوية ، أو القيم على ما قبله من الكتب السماوية مهيمنا عليها ، وعلى الأول يكون تأكيدا لما دل عليه نفي العوج ، فربّ مستقيم في الظاهر لا يخلو عن أدنى عوج في الحقيقة ، وانتصاب قيما بمضمر : أي جعله قيما ، ومنع صاحب الكشاف أن يكون حالا من الكتاب لأن قوله ولم يجعل معطوف على أنزل فهو داخل في حيز الصلة ، فجاعله حالا من الكتاب فاصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة ، وقال الأصفهاني هما حالان متواليان إلا أن الأول جملة والثاني مفرد ، وهذا صواب لأن قوله ولم يجعل لم يكن معطوفا على ما قبله بل الواو للحال فلا فصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة ، وقيل إن قيما حال من ضمير لم يجعل له ، وقيل في الكلام تقديم وتأخير والتقدير أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا ، ثم أراد سبحانه أن يفصل ما أجمله في قوله

قيما ، فقال (لينذر بأسا شديدا) وحذف المنذر للعلم به مع قصد التعميم ، والمعنى لينذر الكافرين * والبأس العذاب ، ومعنى (من لدنه) صادرا من لدنه نازلا من عنده . روى أبو بكر عن عاصم أنه قرأ من لدنه باشمام الدال الضمة ، وبكسر النون والهاء . وهى لغة الكلابيين . وروى أبو زيد عن جميع القراء فتح اللام وضم الدال وسكون النون (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) قرئ يبشر بالتشديد والتخفيف ، وأجرى الموصول على موصوفه المذكور ، لأن مدار قبول الأعمال هو الايمان (أن لهم أجرا حسنا) وهو الجنة حال كونهم (ماكثين فيه) أى فى ذلك الأجر (أبدا) أى مكثا دائما لا انقطاع له ، وتقديم الانذار على التبشير لاظهار كمال العناية بزجر الكفار ، ثم كرر الانذار وذكر المنذر لخصوصه وحذف المنذر به ، وهو البأس الشديد ، لتقدم ذكره ، فقال (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) وهم اليهود والنصارى وبعض كفار قريش . القائلون بأن الملائكة بنات الله ، فذكر سبحانه أولا قضية كلية ، وهى انذار عموم الكفار ، ثم عطف عليها قضية خاصة هى بعض جزئيات تلك الكلية ، تنبيها على كونها أعظم جزئيات تلك الكلية . فأفاد ذلك أن نسبة الولد الى الله سبحانه أقبح أنواع الكفر (مالهم به من علم) أى بالولد ، أو اتخاذ الله إياه ، ومن مزيدة لتأكيد النفى ، والجملة فى محل نصب على الحال أوهى مستأنفة ، والمعنى مالهم بذلك علم أصلا (ولا لآبائهم) علم . بل كانوا فى زعمهم هذا على ضلالة ، وقلدهم أبناؤهم فضلوا جميعا (كبرت كلمة تخرج من أفواههم) انتصاب كلمة على التمييز ، وقرئ بالرفع على الفاعلية قال الفراء كبرت تلك الكلمة كلمة ، وقال الزجاج كبرت مقالتهم كلمة ، والمراد بهذه الكلمة هى قولهم اتخذ الله ولدا ، ثم وصف الكلمة بقوله : تخرج من أفواههم ، وفائدة هذا الوصف استعظام اجترائهم على التفوه بها ، والخارج من الفم وان كان هو مجرد الهوى ، لكن لما كانت الحروف والأصوات كيفيات قائمة بالهوى أسند الى الحال ما هو من شأن المحل . ثم زاد فى تقبيح ماوقع منهم : فقال (ان يقولون الا كذبا) أى مايقولون الا كذبا . لامجال للصدق فيه بحال . ثم سلى رسوله ﷺ بقوله (فلعلك باخع نفسك على آثارهم) قال الأخفش والفراء : البخع الجهد ، وقال الكسائى : بخعت الأرض بالزراعة اذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة ، وبخع الرجل نفسه اذا نهكها . وقال أبو عبيدة معناه مهلك نفسك ، ومنه قول ذى الرمة : * ألا أيها ذا الباخع الوجد نفسه * فيكون المعنى على هذه الأقوال لعلك مجهد نفسك أو مضعفها أو مهلكها (على آثارهم) على فراقهم ومن بعد توليهم واعراضهم (ان لم يؤمنوا بهذا الحديث) أى القرآن وجواب الشرط محذوف دل عليه ماقبله . وقرئ بفتح أن : أى لأن لم يؤمنوا (أسفا) أى غيظا وحزنا وهو مفعول له أو مصدر فى موضع الحال كذا قال الزجاج (انا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها) هذه الجملة استئناف * والمعنى انا جعلنا ماعلى الأرض مما يصلح أن يكون زينة لها من الحيوانات والنبات والجماد . كقوله سبحانه ـ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ـ وانتصاب زينة على أنها مفعول ثان لجعل ، واللام فى (لنبلوهم أيهم أحسن عملا) متعلقة بجعلنا ، وهى إما للغرض أو للعاقبة ، والمراد بالابتلاء أنه سبحانه يعاملهم معاملة لو كانت تلك المعاملة من غيره لكانت من قبيل الابتلاء والامتحان ، قال الزجاج : أيهم رفع بالابتداء الا أن لفظه لفظ الاستفهام ، والمعنى لنمتحن أهذا أحسن عملا أم ذاك ؟ قال الحسن أيهم أزهد ، وقال مقاتل أيهم أصلح فيما أوتى من المال ، ثم أعلم سبحانه أنه مبيد لذلك كله ومفنيه فقال (وانا لجاعلون ماعليها صعيدا جرزا) أى لجاعلون ماعليها من هذه الزينة عند تناهى عمر الدنيا صعيدا ترابا ، قال أبو عبيدة الصعيد المستوى من الأرض ، وقال الزجاج هو الطريق الذى لانبات فيه قال الفراء الجرز الأرض التى لانبات فيها ، من قولهم : امرأة جرزا اذا كانت أكولا ، وسيفا جرازا اذا كان

مستأصلا ، وجرز الجراد والشاة والابل الأرض اذا أكلت ماعليها . قال ذو الرمة :

طوى النحز والاجراز مافى بطونها * ومعنى النظم لاتحزن يامحمد مما وقع من هؤلاء من التكذيب فانا قد جعلنا ماعلى الأرض زينة لاختبار أعمالهم ، وانا لمذهبون ذلك عند انقضاء عمر الدنيا فمجازوهم ان خيرا فخير ، وان شرا فشر .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) الآية . قال أنزل الكتاب عدلا قيما (ولم يجعل له عوجا) ملتبسا . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك (قيما) قال مستقيما . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة (من لدنه) أى من عنده . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى (حسنا) يعنى الجنة (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) قال هم اليهود والنصارى . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس . قال اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبوجهل والنضر بن الحارث وأمية بن خلف والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأبو البخترى فى نفر من قريش ، وكان رسول الله ﷺ قد كبر عليه مايرى من خلاف قومه اياه ، وانكارهم ماجاء به من النصيحة فأحزن حزنا شديدا ، فأنزل الله سبحانه (فلعلك باخع نفسك) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه باخع نفسك يقول قاتل نفسك . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى مثله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد (أسفا) قال جزعا . وأخرج عبدالرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة أسفا قال حزنا . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (انا جعلنا ماعلى الارض زينة لها) قال الرجال . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير من قوله مثله . وأخرج أبو نصر السجزى فى الابانة من طريق مجاهد عن ابن عباس فى الآية : قال العلماء زينة الأرض . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال هم الرجال العباد العمال لله بالطاعة وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم فى التاريخ وابن مردويه عن ابن عمر قال تلا رسول الله ﷺ هذه الآية (لنبلوهم أيهم أحسن عملا) فقلت مامعنى ذلك يارسول الله ؟ قال ليبلوكم أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرعكم فى طاعة الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال ليختبرهم أيهم أحسن عملا . قال أيهم أتم عقلا . وأخرج عن الحسن أيهم أحسن عملا . قال أشدهم للدنيا تركا ، وأخرج أيضا عن الثورى . قال أزهدهم فى الدنيا . وأخرج ابن جرير عن عباس فى قوله (وانا لجاعلون ماعليها صعيدا جرزا) قال يهلك كل شىء ويبيد . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : الصعيد التراب والجبال التى ليس فيها زرع . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن ، قال يعنى بالجرز الخراب

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَٰتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا
رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ
عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ
إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ
وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً
لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا

يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا *

قوله (أم حسبت) أم هى المنقطعة المقدّرة ببل والهمزة عند الجمهور ، وببل وحدها عند بعضهم والتقدير بل أحسبت ، أو بل حسبت ، ومعناها الانتقال من حديث الى حديث آخر ، لا لابطال الأوّل والاضراب عنه كما هو معنى بل فى الأصل * والمعنى ان القوم لما تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان ، قال سبحانه بل أظننت يامحمد أنهم كانوا عجبا من آياتنا فقط لاتحسب ذلك فان آياتنا كلها عجب ، فان من كان قادرا على جعل ما على الأرض زينة لها للابتلاء ، ثم جعل ما عليها صعيدا جرزا كأن لم تغن بالأمس ، لاتستبعد قدرته وحفظه ورحمته بالنسبة الى طائفة مخصوصة ، وان كانت قصتهم خارقة للعادة ، فان آيات الله سبحانه كذلك وفوق ذلك . و (عجبا) منتصبة على أنه خبر كان : أى ذات عجب ، أو موصوفة بالعجب مبالغة ، ومن آياتنا فى محل نصب على الحال ، و (إذ أوى الفتية) ظرف لحسبت أو لفعل مقدّر ، وهو اذكر : أى صاروا اليه وجعلوه مأواهم ، والفتية هم أصحاب الكهف ، والكهف هو الغار الواسع فى الجبل . فان كان صغيرا سمى غارا ، والرقيم قال كعب والسدى انه اسم القرية التى خرج منها أصحاب الكهف ، وقال سعيد بن جبير ومجاهد انه لوح من حجارة أو رصاص رقت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف ، قال الفراء : ويروى أنه انما سمى رقيما لأن أسماءهم كانت مرقومة فيه . والرقم الكتابة وروى مثل ذلك عن ابن عباس . ومنه قول العجاج فى أرجوزة له * ومستقرى المصحف الرقيم *

وقيل ان الرقيم اسم كلبهم . وقيل هو اسم الوادى الذى كانوا فيه . وقيل اسم الجبل الذى فيه الغار ، قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله لأن خلق السموات والأرض ومابينهما أعجب من قصة أصحاب الكهف (فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة) أى من عندك ومن ابتدائية متعلقة بآتنا ، أو لمحذوف وقع حالا ، والتنوين فى رحمة إما للتعظيم أو للتنويع ، وتقديم من لدنك للاختصاص أى رحمة مختصة بأنها من خزائن رحمتك ، وهى المغفرة فى الآخرة والأمن من الاعداء ، والرزق فى الدنيا (وهيء لنا من أمرنا رشدا) أى أصلح لنا ، من قولك هيأت الأمر فتهيأ ، والمراد بأمرهم الأمر الذى هم عليه وهو مفارقتهم للكفار : والرشد نقيض الضلال ، ومن للابتداء . ويجوز أن تكون للتجريد كما فى قولك رأيت منك رشدا : وتقديم المجرورين للاهتمام بهما (فضربنا على آذانهم) قال المفسرون أنمناهم . والمعنى سددنا آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات ، والمفعول محذوف : أى ضربنا على آذانهم الحجاب تشبيها للانامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها ، و (فى الكهف) ظرف لضربنا ، وانتصاب (سنين) على الظرفية ، و (عددا) صفة لسنين : أى ذوات عدد على أنه مصدر أو بمعنى معدودة على أنه لمعنى المفعول ، ويستفاد من وصف السنين بالعدد الكثرة ، قال الزجاج : ان الشيء إذا قلّ فهم مقدار عدده فلم يحتج الى العدد ، وان كثر احتاج إلى أن يعدّ ، وقيل يستفاد منه التقليل لان الكثير قليل عند الله — وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدّون — (ثم بعثناهم) أى أيقظناهم من تلك النومة (لنعلم) أى ليظهر معلومنا ، وقرىء بالتحتية مبنيا للفاعل على طريقة الالتفات ، و (أىّ الحزبين) مبتدأ معلق عنه العلم لما فى أىّ من الاستفهام ، وخبره (أحصى) وهو فعل ماض ، قيل والمراد بالعلم الذى جعل علة للبعث هو الاختبار مجازا فيكون المعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم ، والأولى ماذكرناه من أن المراد به ظهور معلوم الله سبحانه لعباده ، والمراد بالحزبين الفريقان من المؤمنين والكافرين من أصحاب الكهف

المختلفين فى مدة لبثهم . ومعنى أحصى أضبط . وكأنه وقع بينهم تنازع فى مدة لبثهم فى الكهف ، فبعثهم الله ليتبين لهم ذلك ، و يظهر من ضبط الحساب ممن لم يضبطه ، وما فى (لما لبثوا) مصدرية . أى أحصى للبثهم وقل اللام زائدة ، وما بمعنى الذى و (أمدا) تمييز ، والأمد الغاية : وقيل ان أحصى أفعل تفضيل . ورد بأنه خلاف ما تقرر فى علم الاعراب ، وما ورد من الشاذ لا يقاس عليه كقولهم : أفلس من ابن المذلق ، وأعدى من الجرب * وأجيب بأن أفعل التفضيل من المزيد قياس مطرد عند سيبويه وابن عصفور ، وقيل ان الحزبين هم أصحاب الكهف اختلفوا بعد انتباههم كم لبثوا ؟ وقيل ان أصحاب الكهف حزب وأصحابهم حزب ، وقال الفراء : ان طائفتين من المسلمين فى زمان أصحاب الكهف اختلفوا فى مدة لبثهم (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) هذا شروع فى تفصيل ما أجمل فى قوله اذ أوى الفتية : أى نحن نخبرك بخبرهم بالحق أى قصصناه بالحق ، أو متلبسا بالحق (انهم فتية) أى أحداث شبان ، و (آمنوا بربهم) صفة لفتية والجملة مستأنفة بتقدير سؤال ، والفتية جمع قلة ، (وزدناهم هدى) بالتثبيت والتوفيق ، وفيه التفات من الغيبة الى الخطاب (وربطنا على قلوبهم) أى قويناها بالصبر على هجر الأهل والأوطان ، وفراق الخلان والأخدان (إذ قاموا) الظرف منصوب بربطنا . واختلف أهل التفسير فى هذا القيام على أقوال : فقيل انهم اجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد ، فقال رجل منهم هو أكبر القوم انى لأجد فى نفسى شيئا ، إن ربى رب السموات والارض ، فقالوا ونحن أيضا كذلك نجد فى أنفسنا ، فقاموا جميعا (فقالوا ربنا رب السموات والارض) قاله مجاهد ، وقال أكثر المفسرين انه كان لهم ملك جبار يقال له دقيانوس ، وكان يدعو الناس الى عبادة الطواغيت ، فثبت الله هؤلاء الفتية وعصمهم حتى قاموا بين يديه ، فقالوا ربنا رب السموات والارض ، وقال عطاء ومقاتل انهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم (لن ندعوا من دونه إلها) أى لن نعبد معبودا آخر غير الله لا اشتراكا ولا استقلالا (لقد قلنا إذا شططا) أى قولا ذا شطط ، أو قولا هو نفس الشطط لقصد المبالغة بالوصف بالمصدر ، واللام هى الموطئة للقسم ، والشطط الغلو ومجاوزة الحد . قال أعشى بنى قيس :

أتنتهون ولن ينهى ذوى شطط * كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

(هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة) هؤلاء مبتدأ ، وخبره اتخذوا ، وقومنا عطف بيان ، وفى هذا الاخبار معنى الانكار ، وفى الاشارة اليهم تحقير لهم (لولا يأتون عليهم بسلطان بين) أى هلا يأتون بحجة ظاهرة تصلح للتمسك بها (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) فزعم أن له شريكا فى العبادة أى لا أحد أظلم منه (واذ اعتزلتموهم) أى فارقتموهم وتنحيتم عنهم جانبا : أى عن العابدين للأصنام ، وقوله (وما يعبدون الا الله) معطوف على الضمير المنصوب ، وما موصولة أو مصدرية : أى واذ اعتزلتموهم واعتزلتم معبودهم أو الذى يعبدونه ، وقوله الا الله استثناء منقطع على تقدير أنهم لم يعبدوا الا الاصنام ، أو متصل على تقدير أنهم شركوها فى العبادة مع الله سبحانه ، وقيل هو كلام معترض اخبار من الله سبحانه عن الفتية أنهم لم يعبدوا غير الله فتكون ما على هذا نافية (فأووا إلى الكهف) أى صيروا اليه واجعلوه مأواكم . قال الفراء هو جواب اذ ، ومعناه اذهبوا اليه واجعلوه مأواكم وقيل هو دليل على جوابه ، أى اذ اعتزلتموهم اعتزالا اعتقاديا ، فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا ، واذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء الى الكهف (ينشر لكم ربكم من رحمته) أى يبسط ويوسع (ويهيء لكم من أمركم مرفقا) أى يسهل وييسر لكم من أمركم الذى أنتم بصدده (مرفقا) المرفق بفتح الميم وكسرها لغتان قرئ بهما ، مأخوذ من الارتفاق وهو الانتفاع ، وقيل فتح الميم أقيس ، وكسرها أكثر . قال الفراء وأكثر العرب على كسر الميم

XVIII 16-19

من الأمر ومن مرفق الانسان ، وقد تفتح العرب الميم فيهما فهما لغتان ، وكأن الذين فتحوا أرادوا أن يفرقوا بين المرفق من الأمر ، والمرفق من الانسان ، وقال الكسائى الكسر فى مرفق اليد : وقيل المرفق بالكسر ما ارتفقت به ، والمرفق بالفتح الأمر الرافق والمراد هنا ما يرتفقون به ، وينتفعون بحصوله ، والتقديم فى الموضعين يفيد الاختصاص .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ، قال : الرقيم الكتاب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفىّ عنه ، قال : الرقيم ، واد دون فلسطين قريب من أيلة ، والراويان عن ابن عباس ضعيفان . وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عنه أيضا قال : هو الجبل الذى فيه الكهف . وأخرج ابن المنذر عنه ، قال : والله ما أدرى ما الرقيم الكتاب أم بنيان ؟ وفى رواية عنه من طريق أخرى ، قال وسألت كعبا ، فقال اسم القرية التى خرجوا منها . وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال الرقيم : الكلب . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (كانوا من آياتنا عجبا) ، يقول الذى آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله (فضربنا على آذانهم) يقول : أرقدناهم (ثم بعثناهم لنعلم أىّ الحزبين) من قوم الفتية ، أهل الهدى ، وأهل الضلالة (أحصى لما لبثوا) ، وذلك أنهم كتبوا اليوم الذى خرجوا فيه والشهر والسنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله (وزدناهم هدى) ، قال إخلاصا . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وربطنا على قلوبهم) قال بالايمان وفى قوله (لقد قلنا إذا شططا) ، قال كذبا . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى ، قال : جورا . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى فى قوله (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) ، قال كان قوم الفتية يعبدون الله ويعبدون معه آلهة شتىّ ، فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، عن قتادة فى الآية ، قال : هى فى مصحف ابن مسعود ، وما يعبدون من دون الله ، فهذا تفسيرها .

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا * وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا *

قوله (وترى الشمس إذا طلعت) شرع سبحانه فى بيان حالهم ، بعد ما أووا الى الكهف (تزاور) قرأ أهل الكوفة بحذف تاء التفاعل ، وقرأ ابن عامر تزوّر . قال الأخفش : لايوضع الازورار فى هذا المعنى ، إنما يقال هو مزورّ عنى : أى منقبض ، وقرأ الباقون بتشديد الزاى وادغام تاء التفاعل فيه بعد

تسكينها ، وتزاور مأخوذ من الزور بفتح الواو ، وهو الميل ، ومنه زاره إذا مال إليه ، والزور الميل ، فمعنى الآية أن الشمس إذا طلعت تميل وتتنحى (عن كهفهم) قال الراجز الكلبي * جاب المندا عن هوانا أزور * أى مائل (ذات اليمين) : أى ناحية اليمين ، وهى الجهة المسماة باليمين ، وانتصاب ذات على الظرف ، (وإذا غربت تقرضهم) القرض : القطع . قال الكسائى والأخفش والزجاج وأبو عبيدة : تعدل عنهم وتتركهم ، قرضت المكان : عدلت عنه ، تقول لصاحبك هل وردت مكان كذا ، فيقول : إنما قرضته إذا مرّ به وتجاوز عنه ، والمعنى أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين أى يمين الكهف ، وإذا غربت تمرّ (ذات الشمال) : أى شمال الكهف لا تصيبه . بل تعدل عن سمته الى الجهتين ، والفجوة المكان المتسع ، وجملة (وهم فى فجوة منه) فى محل نصب على الحال ، وللمفسرين فى تفسير هذه الجملة قولان : الأوّل أنهم مع كونهم فى مكان منفتح انفتاحا واسعا فى ظلّ جميع نهارهم لا تصيبهم الشمس فى طلوعها ولا فى غروبها ، لأن الله سبحانه حجبها عنهم . والثانى أن باب ذلك الكهف كان مفتوحا الى جانب الشمال ، فاذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف ، وإذا غربت كانت عن يساره ، ويؤيد القول الأوّل قوله (ذلك من آيات الله) فان صرف الشمس عنهم مع توجه الفجوة الى مكان تصل اليه عادة أنسب بمعنى كونها آية ، ويؤيده أيضا إطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها الى جهة كذا ، ومما يدلّ على أن الفجوة المكان الواسع قول الشاعر :

ألبست قومك مخزاة ومنقصة * حتى أبيحوا وخلوا فجوة الدار

ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله (من يهد الله) أى الى الحق (فهو المهتد) الذى ظفر بالهدى وأصاب الرشد والفلاح (ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) أى ناصرا يهديه الى الحق كدقيانوس وأصحابه ، ثم حكى سبحانه طرفا آخر من غرائب أحوالهم ، فقال (وتحسبهم أيقاظا) جمع يقظ بكسر القاف وفتحها (وهم رقود) أى نيام ، وهو جمع راقد كقعود فى قاعد . قيل وسبب هذا الحسبان أن عيونهم كانت مفتحة ، وهم نيام . وقال الزجاج لكثرة تقلبهم (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) أى نقلبهم فى رقدتهم الى الجهتين ، لئلا تأكل الأرض أجسادهم (وكلبهم باسط ذراعيه) حكاية حال ماضية ، لان اسم الفاعل لا يعمل اذا كان بمعنى المضىّ كما تقرّر فى علم النحو . قال أكثر المفسرين : هربوا من ملكهم ليلا ، فمرّوا براع معه كلب فتبعهم * والوصيد . قال أبو عبيد وأبو عبيدة هو فناء الباب ، وكذا قال المفسرون ، وقيل العتبة ، وردّ بأن الكهف لا يكون له عتبة ولا باب ، وإنما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا) قال الزجاج : فرارا منصوب على المصدرية بمعنى التولية ، والفرار : الهرب (ولملئت) قرئ بتشديد اللام وتخفيفها (منهم رعبا) قرئ بسكون العين وضمها : أى خوفا يملأ الصدر ، وانتصاب رعبا على التمييز ، أو على أنه مفعول ثان ، وسبب الرّعب الهيبة التى ألبسهم الله إياها ، وقيل طول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم ووحشة مكانهم ، ويدفعه قوله تعالى — لبثنا يوما أو بعض يوم — فان ذلك يدل على أنهم لم ينكروا من حالهم شيئا ، ولا وجدوا من أظفارهم وشعورهم ما يدل على طول المدّة (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم) الاشارة الى المذكور قبله أى وكما فعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات بعثناهم من نومهم ، وفيه تذكير لقدرته على الاماتة والبعث جميعا ، ثم ذكر الأمر الذى لأجله بعثهم ، فقال ليتساءلوا بينهم أى ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع فى مدّة اللبث لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال ، وظهور القدرة الباهرة والاقتصار على علة التساؤل لا ينفى غيرها ، وإنما أفرده لاستتباعه لسائر الآثار ، وجملة (قال قائل منهم كم لبثتم) مبينة

لما قبلها من التساؤل : أى كم مدة لبثكم فى النوم ؟ قالوا ذلك لانهم رأوا فى أنفسهم غير ما يعهدونه فى العادة (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) أى قال بعضهم جوابا عن سؤال من سأل منهم : قال المفسرون انهم دخلوا الكهف غدوة ، و بعثهم الله سبحانه آخر النهار ، فلذلك قالوا يوما ، فلما رأوا الشمس قالوا أو بعض يوم وكان قد بقيت بقية من النهار ، وقد مرّ مثل هذا الجواب فى قصة عزير فى البقرة قالوا ربكم أعلم بما لبثتم أى قال البعض الآخر هذا القول : إما على طريق الاستدلال ، أوكان ذلك إلهاما لهم من الله سبحانه : أى انكم لا تعلمون مدة لبثكم ، وانما يعلمها الله سبحانه (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) أعرضوا عن التحاور فى مدة اللبث ، وأخذوا فى شىء آخر ، كأنه قال القائل منهم : اتركوا ما أنتم فيه من المحاورة ، وخذوا فى شىء آخر مما يهمكم ، والفاء للسببية ، والورق الفضة مضروبة ، أوغير مضروبة ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائى وحفص عن عاصم بكسر الراء ، وقرأ أبو عمرو وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم بسكونها ، وقرئ بكسر الراء وإدغام القاف فى الكاف ، وقرأ ابن محيصن بكسر الواو وسكون الراء ، وفى حملهم لهذه الورق معهم دليل على أن إمساك بعض ما يحتاج اليه الانسان لا ينافى التوكل على الله ، والمدينة دقسوس ، وهى مدينتهم التى كانوا فيها ، ويقال لها اليوم طرسوس كذا قال الواحدى (فلينظر أيها أزكى طعاما) أى ينظر أىّ أهلها أطيب طعاما ، وأحلّ مكسبا ، أو أرخص سعرا ، وقيل يجوز أن يعود الضمير الى الأطعمة المدلول عليها فى المقام كما يقال زيد طبت أبا على أن الأب هو زيد ، وفيه بعد ، واستدل بالآية على حلّ ذبائح أهل الكتاب لان عامة أهل المدينة كانوا كفارا ، وفيهم قوم يخفون إيمانهم ، ووجه الاستدلال أن الطعام يتناول اللحم كما يتناول غيره مما يطلق عليه اسم الطعام (وليتلطف) أى يدقق النظر حتى لايعرف أو لا يغبن ، والأول أولى ، ويؤيده (ولا يشعرنّ بكم أحدا) أى لا يفعلنّ ما يؤدّى الى الشعور ويتسبب له ، فهذا النهى يتضمن التأكيد للأمر بالتلطف ، ثم علل ماسبق من الأمر والنهى ، فقال (إنهم إن يظهروا عليكم) أى يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم ، يعنى أهل المدينة (يرجموكم) يقتلوكم بالرجم ، وهذه القتلة هى أخبث قتلة ، وكان ذلك كان عادة لهم ، ولهذا خصه من بين أنواع مايقع به القتل (أو يعيدوكم فى ملتهم) أى يردّوكم الى ملتهم التى كنتم عليها قبل أن يهديكم الله ، أو المراد بالعود هنا الصيرورة على تقدير أنهم لم يكونوا على ملتهم ، وإيثار كلمة فى على كلمة الى للدلالة على الاستقرار (ولن تفلحوا إذا أبدا) فى إذن معنى الشرط ، كأنه قال ان رجعتم الى دينهم ، فلن تفلحوا إذا أبدا ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وقدأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (تزاور) قال تميل ، وفى قوله (تقرضهم) قال تذرهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : تقرضهم ، قال تتركهم (وهم فى فجوة منه) قال المكان الداخل . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ، قال : الفجوة : الخلوة من الأرض ، ويعنى بالخلوة الناحية من الأرض . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (ونقلبهم) الآية ، قال ستة أشهر على ذى الجنب اليمين ، وستة أشهر على ذى الجنب الشمال . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبير فى الآية ، قال كى لا تأكل الأرض لحومهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد أن اسم كلبهم قطمورا . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال اسمه قطمير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله بالوصيد قال بالفناء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه ، قال بالباب . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر

XVIII 20-25

وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (أزكى طعاما) قال أحلّ ذبيحة ، وكانوا يذبحون للطواغيت . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أزكى طعاما : يعني أطهر ، لأنهم كانوا يذبحون للطواغيت .

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا * سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ * فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا * وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا * وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا *

قوله (وكذلك أعثرنا عليهم) أي وكما أنمناهم وبعثناهم ، أعثرنا عليهم : أي أطلعنا الناس عليهم وسمى الاعلام إعثارا ، لأن من كان غافلا عن شيء فعثر به نظر اليه وعرفه ، فكان الاعثار سببا لحصول العلم (ليعلموا أن وعد الله حقّ) أي ليعلم الذين أعثرهم الله عليهم أن وعد الله بالبعث حق ، قيل وكان ملك ذلك العصر ممن ينكر البعث ، فأراه الله هذه الآية . قيل وسبب الاعثار عليهم أن ذلك الرجل الذي بعثوه بالورق ، وكانت من ضربة دقيانوس الى السوق ، لما اطلع عليها أهل السوق اتهموه بأنه وجد كنزا ، فذهبوا به الى الملك ، فقال له من أين وجدت هذه الدراهم ؟ قال بعت بها أمس شيئا من التمر ، فعرف الملك صدقه . ثم قصّ عليه القصة فركب الملك وركب أصحابه معه حتى وصلوا الى الكهف (وأنّ الساعة لا ريب فيها) أي وليعلموا أن القيامة لا شكّ في حصولها ، فان من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من البعث (إذ يتنازعون بينهم أمرهم) الظرف متعلق بأعثرنا : أي أعثرنا عليهم وقت التنازع والاختلاف بين أولئك الذين أعثرهم الله في أمر البعث ، وقيل في أمر أصحاب الكهف في قدر مكثهم ، وفي عددهم ، وفيما يفعلونه بعد أن اطلعوا عليهم (فقالوا ابنوا عليهم بنيانا) لئلا يتطرّق الناس اليهم ، وذلك أن الملك وأصحابه لما وقفوا عليهم وهم أحياء أمات الله الفتية ، فقال بعضهم : ابنوا عليهم بنيانا يسترهم عن أعين الناس ، ثم قال سبحانه حاكيا لقول المتنازعين فيهم وفي عددهم ، وفي مدة لبثهم ، وفي نحو ذلك مما يتعلق بهم (ربهم أعلم بهم) من هؤلاء المتنازعين فيهم ، قالوا ذلك تفويضا للعلم الى الله سبحانه ، وقيل هو من كلام الله سبحانه ، ردّا لقول المتنازعين فيهم : أي دعوا ما أنتم فيه من التنازع ، فاني أعلم بهم منكم ، وقيل ان الظرف في إذ يتنازعون متعلق بمحذوف هو اذكر ، ويؤيده أن الاعثار ليس في زمن التنازع بل قبله ، ويمكن أن يقال : ان أولئك القوم مازالوا متنازعين فيما بينهم قرنا بعد قرن ، منذ أووا الى الكهف الى وقت الاعثار ، ويؤيد ذلك أن خبرهم كان مكتوبا على باب الغار ، كتبه بعض المعاصرين لهم من المؤمنين الذين كانوا يخفون إيمانهم كما قاله المفسرون (قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذنّ عليهم مسجدا) ذكر اتخاذ المسجد يشعر بأن

هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم ، هم المسلمون ، وقيل هم أهل السلطان ، والملك من القوم المذكورين فانهم الذين يغلبون على أمر من عداهم ، والأول أولى . قال الزجاج هذا يدل على أنه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون بالبعث والنشور . لأن المساجد للمؤمنين (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم) هؤلاء القائلون بأنهم ثلاثة أو خمسة أوسبعة ، هم المتنازعون فى عددهم فى زمن رسول الله ﷺ من أهل الكتاب والمسلمين ، وقيل هم أهل الكتاب خاصة ، وعلى كل تقدير فليس المراد أنهم جميعا قالوا جميع ذلك ، بل قال بعضهم بكذا ، و بعضهم بكذا ، و بعضهم بكذا ثلاثة رابعهم كلبهم : أى هم ثلاثة أشخاص ، وجملة رابعهم كلبهم فى محل نصب على الحال : أى حال كون كلبهم جاعلهم أربعة بانضمامه اليهم (ويقولون خمسة سادسهم كلبهم) الكلام فيه كالكلام فيما قبله ، وانتصاب (رجما بالغيب) على الحال : أى راجين أوعلى المصدر أى يرجمون رجما ، والرجم بالغيب هوالقول بالظن والحدس من غير يقين ، والموصوفون بالرجم بالغيب هم كلا الفريقين : القائلين بأنهم ثلاثة ، والقائلين بأنهم خمسة (ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) كأن قول هذه الفرقة أقرب الى الصواب بدلالة عدم إدخالهم فى سلك الراجين بالغيب . قيل و إظهار الواو فى هذه الجملة يدل على أنها مرادة فى الجملتين الأوليين . قال أبو علىّ الفارسى قوله : رابعهم كلبهم ، وسادسهم كلبهم جملتان استغنى عن حرف العطف فيهما بما تضمنتا من ذكر الجملة الأولى ، وهى قوله ثلاثة ، والتقدير هم ثلاثة هكذا حكاه الواحدى عن أبى علىّ ، ثم قال وهذا معنى قول الزجاج فى دخول الواو فى وثامنهم و إخراجها من الأول وقيل هى مزيدة للتوكيد ، وقيل انها واو الثمانية ، وان ذكره متداول على ألسن العرب إذا وصلوا الى الثمانية كما فى قوله تعالى ــ وفتحت أبوابها ــ وقوله ــ ثيبات وأبكارا ــ ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يخبر المختلفين فى عددهم بما يقطع التنازع بينهم ، فقال (قل ربى أعلم بعدتهم) منكم أيها المختلفون ثم أثبت علم ذلك لقليل من الناس ، فقال (ما يعلمهم) أى يعلم ذواتهم فضلا عن عددهم ، أو ما يعلم عددهم على حذف المضاف (إلا قليل) من الناس ، ثم نهى الله سبحانه رسوله ﷺ عن الجدال مع أهل الكتاب فى شأن أصحاب الكهف ، فقال (فلا تمار فيهم) المراء فى اللغة الجدال : يقال مارى يمارى مماراة ومراء : أى جادل ، ثم استثنى سبحانه من المراء ما كان ظاهرا واضحا ، فقال (إلا مراء ظاهرا) أى غير متعمق فيه ، وهو أن يقصّ عليهم ما أوحى الله اليه فحسب . وقال الرازى : هو أن لا يكذبهم فى تعيين ذلك العدد ، بل يقول هذا التعيين لادليل عليه ، فوجب التوقف ، ثم نهاه سبحانه عن الاستفتاء فى شأنهم ، فقال (ولا تستفت فيهم منهم أحدا) أى لا تستفت فى شأنهم من الخائضين فيهم أحدا منهم ، لأن المفتى يجب أن يكون أعلم من المستفتى ، وهاهنا الأمر بالعكس ، ولا سيما فى واقعة أهل الكهف ، وفيما قصّ الله عليك فى ذلك ما يغنيك عن سؤال من لا علم له (ولا تقولنّ لشىء إنى فاعل ذلك غدا) أى لأجل شىء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان ، فعبر عنه بالغد ، ولم يرد الغد بعينه ، فيدخل فيه الغد دخولا أوّليا . قال الواحدى : قال المفسرون لما سألت اليهود النبىّ ﷺ عن خبر الفتية ، فقال أخبركم غدا ، ولم يقل إن شاء الله ، فاحتبس الوحى عنه حتى شقّ عليه ، فأنزل الله هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة الله ، يقول إذا قلت لشىء إنى فاعل ذلك غدا ، فقل إن شاء الله . وقال الأخفش والمبرد والكسائى والفراء لاتقولنّ لشىء إنى فاعل ذلك الا أن تقول إن شاء الله ، فأضمر القول ولما حذف تقول نقل شاء الى لفظ الاستقبال ، قيل وهذا الاستثناء مفرّغ : أى لا تقولنّ ذلك فى حال من الأحوال ، إلا حال ملابسته لمشيئة الله وهو أن تقول إن شاء الله ، أو فى وقت من الأوقات الاوقت أن يشاء الله أن تقوله مطلقا ، وقيل الاستثناء جار مجرى التأبيد كأنه قيل : لاتقوله أبدا كقوله

ـ وما كان لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ـ لأن عودهم في ملتهم مما لا يشاؤه الله (واذكر ربك إذا نسيت) الاستثناء بمشيئة الله : أى فقل إن شاء الله ، سواء كانت المدّة قليلة أو كثيرة .

وقد اختلف أهل العلم في المدّة التى يجوز الحاق الاستثناء فيها بعد المستثنى منه على أقوال معروفة في مواضعها ، وقيل المعنى (واذكر ربك) بالاستغفار (إذا نسيت وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا) المشار اليه بقوله من هذا هو نبأ أصحاب الكهف : أى قل يامحمد عسى أن يوفقنى ربى لشيء أقرب من هذا النبأ من الآيات والدلائل الدالة على نبوّتى . قال الزجاج : عسى أن يعطينى ربى من الآيات والدلالات على النبوّة مايكون أقرب فى الرشد وأدلّ من قصة أصحاب الكهف ، وقد فعل الله به ذلك حيث آتاه من علم غيوب المرسلين وخبرهم ما كان أوضح فى الحجة وأقرب الى الرشد من خبر أصحاب الكهف ، وقيل الاشارة الى قوله واذكر ربك إذا نسيت : أى عسى أن يهدينى ربى عند هذا النسيان لشيء آخر بدل هذا المنسىّ ، وأقرب منه رشدا وأدنى منه خيرا ومنفعة ، والأوّل أولى (ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا) قرأ الجمهور بتنوين مائة ونصب سنين فيكون سنين على هذه القراءة بدلا أو عطف بيان . وقال الفراء وأبو عبيدة والزجاج والكسائى فيه تقديم وتأخير ، والتقدير سنين ثلثمائة ورجح الأوّل أبو علىّ الفارسى . وقرأ حمزة والكسائى باضافة مائة إلى سنين ، وعلى هذه القراءة تكون سنين تميزا على وضع الجمع موضع الواحد فى التميز كقوله تعالى ـ بالأخسرين أعمالا ـ قال الفراء : ومن العرب من يضع سنين موضع سنة . قال أبو على الفارسى هذه الأعداد التى تضاف فى المشهور الى الآحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف الى المجموع وفى مصحف (١) عبد الله ثلثمائة سنة . وقال الأخفش لاتكاد العرب تقول مائة سنين . وقرأ الضحاك ثلثمائة سنون بالواو . وقرأ الجمهور تسعا بكسر التاء . وقرأ أبو عمرو بفتحها ، وهذا اخبار من الله سبحانه بمدّة لبثهم . قال ابن جرير ان بنى اسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدّة بعد الاعثار عليهم ، فقال بعضهم انهم لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين ، فأخبر الله نبيه ﷺ أن هذه المدّة فى كونهم نياما وأن مابعد ذلك مجهول للبشر ، فأمر الله أن يردّ علم ذلك اليه ، فقال (قل الله أعلم بما لبثوا) قال ابن عطية : فقوله على هذا لبثوا الأوّل يريد فى يوم الكهف ، ولبثوا الثانى يريد بعد الاعثار عليهم الى مدة محمد ﷺ ، أو الى أن ماتوا ، وقال بعضهم انه لما قال (وازدادوا تسعا) لم يدر الناس أهى ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام ، واختلف بنو اسرائيل بحسب ذلك فأمر الله بردّ العلم إليه فى التسع ، فهى على هذا مبهمة ، والأوّل أولى ، لأن الظاهر من كلام العرب المفهوم بحسب لغتهم أن التسع أعوام ، بدليل أن العدد فى هذا الكلام للسنين لا للشهور ولا للأيام ولا للساعات ، وعن الزجاج أن المراد ثلثمائة سنة شمسية وثلثمائة وتسع سنين قمرية ، وهذا انما يكون من الزجاج على جهة التقريب ، ثم أكد سبحانه اختصاصه بعلم مالبثوا بقوله (له غيب السموات والأرض) أى ماخفى فيهما وغاب من أحوالهما ليس لغيره من ذلك شيء ، ثم زاد فى المبالغة والتأكيد فجاء بما يدلّ على التعجب من إدراكه للمبصرات والمسموعات ، فقال (أبصر به وأسمع) فأفاد هذا التعجب على أن شأنه سبحانه فى علمه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه ادراك المدركين ، وأنه يستوى فى علمه الغائب ، والحاضر ، والخفى ، والظاهر ، والصغير ، والكبير ، واللطيف ، والكثيف ، وكان أصله ماأبصره وما أسمعه ، ثم نقل الى صيغة الأمر للإنشاء ، والباء زائدة عند سيبويه وخالفه الأخفش ، والبحث مقرر فى علم النحو (مالهم من دونه من ولىّ) الضمير لأهل السموات والأرض ، وقيل لأهل الكهف ، وقيل

(١) لم تثبت هذه القراءة فى كتب القراءات ، أفاد ذلك العلامة سيدنا حسين هادى القارى عافاه الله

Zam. gives it from Ubai.

لمعاصري محمد ﷺ من الكفار : أي مالهم من موال يواليهم أو يتولى أمورهم أو ينصرهم ، وفي هذا بيان لغاية قدرته وأن الكل تحت قهره (ولا يشرك في حكمه أحدا) قرأ الجمهور برفع الكاف على الخبر عن الله سبحانه . وقرأ ابن عباس والحسن وأبو رجاء وقتادة بالتاء الفوقية وإسكان الكاف على أنه نهي للنبي ﷺ أن يجعل لله شريكا في حكمه ، ورويت هذه القراءة عن ابن عامر . وقرأ مجاهد بالتحتية والجزم . قال يعقوب : لا أعرف وجهها ، والمراد بحكم الله : ماقضيه ، أو علم الغيب * والأول أولى ، ويدخل علم الغيب في ذلك دخولا أوليا ، فإن علمه سبحانه من جملة قضائه .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وكذلك أعثرنا عليهم) قال أطلعنا . وأخرج عبدالرزاق وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (قال الذين غلبوا على أمرهم) قال الأمراء ، أوقال السلاطين . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله (سيقولون ثلاثة) قال : اليهود (ويقولون خمسة) قال النصارى . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (رجما بالغيب) قال : قذفا بالظن . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله (مايعلمهم إلا قليل) قال أنا من القليل كانوا سبعة . وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس . قال السيوطي بسند صحيح في قوله « مايعلمهم إلا قليل » قال : أنا من أولئك القليل كانوا سبعة ، ثم ذكر أسماءهم ، وحكاه ابن كثير عن ابن عباس من رواية قتادة وعطاء وعكرمة ، ثم قال فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (فلا تمار فيهم) يقول : حسبك ماقصصت عليك . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله (ولا تستفت فيهم منهم أحدا) قال اليهود . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس في قوله (ولاتقولن لشيء) الآية قال : إذا نسيت أن تقول لشيء اني أفعله فنسيت أن تقول : ان شاء الله ، فقل إذا ذكرت : إن شاء الله . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه عنه أنه كان يرى الاستثناء ولو بعدسنة ، ثم قرأ (واذكر ربك إذا نسيت) . وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عنه أيضا في الآية قال هي خاصة لرسول الله ﷺ وليس لأحد أن يستثني إلا في صلة يمين . وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عمر قال : كل استثناء موصول فلا حنث على صاحبه ، وإذا كان غير موصول فهو حانث . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، وفي رواية تسعين تلد كل امرأة منهن غلاما يقاتل في سبيل الله ، فقال له الملك قل : ان شاء الله فلم يقل ، فطاف فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان . قال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لو قال : إن شاء الله لم يحنث ، وكان دركا لحاجته » . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن عكرمة (إذا نسيت) قال اذا غضبت . وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن الحسن (إذا نسيت) قال : إذا لم تقل ان شاء الله . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال « ان الرجل ليفسر الآية يرى أنها كذلك فيهوى أبعد مابين السماء والأرض ، ثم تلا (ولبثوا في كهفهم) الآية . ثم قال كم لبث القوم ؟ قالوا ثلثمائة وتسع سنين ، قال : لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل الله (قل الله أعلم بما لبثوا) ولكنه حكى مقالة القوم ، فقال (سيقولون ثلاثة) الى قوله (رجما بالغيب) فأخبر أنهم لايعلمون ، ثم قال سيقولون (ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في حرف ابن مسعود ، وقالوا « ولبثوا في كهفهم » الآية : يعني انما قاله الناس ألا ترى أنه قال

(قل

XVIII 26-30

(قل الله أعلم بما لبثوا) . وأخرج ابن مردويه عن الضحاك عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية (ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة) قيل يارسول الله : أياما أم أشهرا أم سنين ؟ فأنزل الله (سنين وازدادوا تسعا) . وأخرجه ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك بدون ذكر ابن عباس . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (أبصر به وأسمع) قال الله يقوله .

وَٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا * وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا * وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا *

قوله (واتل ماأوحى اليك) أمره الله سبحانه أن يواظب على تلاوة الكتاب الموحى اليه ، قيل ويحتمل أن يكون معنى قوله « واتل » واتبع ، أمرا من التلوّ ، لامن التلاوة ، و (من كتاب ربك) بيان للذى أوحى اليه (لامبدّل لكلماته) أى لاقادر على تبديلها وتغييرها ، وإنما يقدر على ذلك هو وحده . قال الزجاج : أى ماأخبر الله به وما أمر به فلا مبدّل له ، وعلى هذا يكون التقدير : لامبدّل لحكم كلماته (ولن تجد من دونه ملتحدا) الملتحد : الملتجأ ، وأصل اللحد : الميل . قال الزجاج : لن تجد معدلا عن أمره ونهيه ، والمعنى : أنك ان لم تتبع القرآن ، و تتله ، وتعمل بأحكامه لن تجد معدلا تعدل إليه ومكانا تميل إليه ، وهذه الآية آخر قصة أهل الكهف * ثم شرع سبحانه فى نوع آخر كما هو دأب الكتاب العزيز ، فقال (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) قد تقدّم فى الأنعام نهيه ﷺ عن طرد فقراء المؤمنين بقوله — ولا تطرد الذين يدعون ربهم — ، وأمره سبحانه هونا بأن يحبس نفسه معهم ، فصبر النفس هو حبسها ، وذكر الغداة والعشى كناية عن الاستمرار على الدعاء فى جميع الأوقات ، وقيل فى طرفى النهار ، وقيل المراد صلاة العصر والفجر . وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن وابن عامر (بالغدوة) بالواو ، واحتجوا بأنها فى المصحف كذلك مكتوبة بالواو . قال النحاس : وهذا لايلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو ، ولا تكاد العرب تقول الغدوة ، ومعنى (يريدون وجهه) أنهم يريدون بدعائهم رضى الله سبحانه ، والجملة فى محل نصب على الحال ، ثم أمره سبحانه بالمراقبة لأحوالهم فقال (ولا تعد عيناك عنهم) أى لاتتجاوز عيناك إلى غيرهم . قال الفراء : معناه لاتصرف عينيك عنهم ، وقال الزجاج : لاتصرف بصرك إلى غيرهم من ذوى الهيئات والزينة ، واستعماله بعن لتضمنه معنى النبوّ ، من عدوته عن الأمر : أى صرفته عنه ، وقيل معناه لاتحتقرهم عيناك (تريد زينة الحياة الدنيا) أى مجالسة أهل الشرف والغنى ، والجملة فى محل نصب على الحال : أى حال كونك مريدا لذلك ، هذا اذا كان فاعل

تريد هو النبي ﷺ ، وان كان الفاعل ضميرا يعود إلى العينين ، فالتقدير مريدة زينة الحياة الدنيا واسنادا لارادة إلى العينين مجاز ، وتوحيد الضمير للتلازم كقول الشاعر :

لمن زحلوقة زلّ * بها العينان تنهلّ

(ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) أى جعلناه غافلا بالختم عليه ، نهى رسول الله ﷺ عن طاعة من جعل الله قلبه غافلا عن ذكره كأولئك الذين طلبوا منه أن ينحى الفقراء عن مجلسه ، فانهم طالبوا تنحية الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه وهم غافلون عن ذكرالله ، ومع هذا فهم ممن اتبع هواه وآثره على الحق ، فاختار الشرك على التوحيد (وكان أمره فرطا) أى متجاوزا عن حدّ الاعتدال ، من قولهم فرس فرط اذا كان متقدما للخيل ، فهو على هذا من الافراط ، وقيل هو من التفريط ، وهو التقصير والتضييع . قال الزجاج : ومن قدم العجز فى أمره أضاعه وأهلكه ، ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ مايقوله لأولئك الغافلين ، فقال (وقل الحق من ربكم) أى قل لهم ان ماأوحى اليك وأمرت بتلاوته هو الحق الكائن من جهة الله ، لامن جهة غيره حتى يمكن فيه التبديل والتغيير ، وقيل المراد بالحق الصبر مع الفقراء . قال الزجاج : أى الذين أتيتكم به (الحق من ربكم) يعنى لم آتكم به من قبل نفسى انما أتيتكم به من الله (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) قيل هو من تمام القول الذى أمر رسوله أن يقوله ، والفاء لترتيب ماقبلها على مابعدها ، ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه ، لامن القول الذى أمر به رسول الله ﷺ ، وفيه تهديد شديد ، ويكون المعنى ، قل لهم يامحمد الحقّ من ربكم وبعد أن تقول لهم هذا القول من شاء أن يؤمن بالله ويصدّقك فليؤمن ومن شاء أن يكفر به ويكذبك فليكفر ، ثم أكد الوعيد وشدّده ، فقال (انا اعتدنا للظالمين) أى أعددنا وهيأنا للظالمين الذين اختاروا الكفر بالله والجحد له والانكار لأنبيائه نارا عظيمة (أحاط بهم سرادقها) أى اشتمل عليهم والسرادق : واحد السرادقات . قال الجوهرى : وهى التى تمدّ فوق صحن الدار ، وكل بيت من كرسف فهو سرادق ، ومنه قول رؤبة .

ياحكم بن المنذر بن جارود * سرادق المجد عليك ممدود

وقال الشاعر :

هو المدخل النعمان بيتا سماؤه * صدور الفيول بعد بيت مسردق

يقوله سلام بن جندل لما قتل ملك الفرس ملك العرب النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة . وقال ابن الأعرابى : سرادقها سورها . وقال القتيبى : السرادق الحجرة التى تكون حول الفسطاط * والمعنى أنه أحاط بالكفار سرادق النار على تشبيه مايحيط بهم من النار بالسرادق المحيط بمن فيه (وان يستغيثوا) من حرّ النار (يغاثوا بماء كالمهل) وهو الحديد المذاب . قال الزجاج : انهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب أو الصفر ، وقيل هو درديّ الزيت ، وقال أبو عبيدة والأخفش هو كل ماأذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس ، وقيل هو ضرب من القطران ، ثم وصف هذا الماء الذى يغاثون به بأنه (يشوى الوجوه) اذا قدّم اليهم صارت وجوههم مشوية لحرارته (بئس الشراب) شرابهم هذا (وساءت) النار (مرتفقا) متكأ ، يقال ارتفقت : أى اتكأت ، وأصل الارتفاق نصب المرفق ، ويقال ارتفق الرجل اذا نام على مرفقه ، وقال القتيبى : هو المجلس ، وقيل المجتمع (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) هذا شروع فى وعد المؤمنين بعد الفراغ من وعيد الكافرين * والمعنى إن الذين آمنوا بالحق الذى أوحى اليك وعملوا الصالحات من الأعمال (إنا لانضيع أجر من أحسن عملا) هذا خبر ان الذين آمنوا ، والعائد محذوف :

أى

أى من أحسن منهم عملا ، وجملة (أولئك لهم جنات عدن) استئناف لبيان الأجر ، والاشارة الى من تقدم ذكره ، وقيل يجوز أن يكون أولئك خبر ان الذين آمنوا ، وتكون جملة (إنا لانضيع) اعتراضا ويجوز أن يكون أولئك خبرا بعد خبر ، وقد تقدم الكلام في جنات عدن ، وفى كيفية جرى الأنهار من تحتها (يحلون فيها من أساور من ذهب) قال الزجاج : أساور جمع أسورة ، وأسورة جمع سوار ، وهى زينة تلبس فى الزند من اليد وهى من زينة الملوك ، قيل يحلى كل واحد منهم ثلاثة أسورة : واحد من فضة وواحد من لؤلؤ وواحد من ذهب ، وظاهر الآية أنها جميعها من ذهب ، ويمكن أن يكون قول القائل هذا جمعا بين الآيات لقوله سبحانه فى آية أخرى ـ أساور من فضة ـ ولقوله فى آية أخرى (ولؤلؤا) ومن فى قوله من أساور للابتداء ، وفى من ذهب للبيان . وحكى الفراء يحلون بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام ، يقال حليت المرأة تحلى فهى حالية إذا لبست الحلىّ (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق) قال الكسائى : السندس الرقيق واحدة سندسة ، والاستبرق ماثخن ، وكذا قال المفسرون وقيل الاستبرق هو الديباج كما قال الشاعر : * وإستبرق الديباج طورا لباسها * وقيل هو المنسوج بالذهب . قال القتيبى : وهو فارسى معرّب . قال الجوهرى : وتصغيره أبيرق ، وخصّ الأخضر لأنه الموافق للبصر ولكونه أحسن الألوان (متكئين فيها على الأرائك) قال الزجاج : الأرائك جمع أريكة ، وهى السرر فى الحجال ، وقيل هى أسرّة من ذهب مكللة بالدرّ والياقوت ، وأصل اتكأ اوتكأ ، وأصل متكئين موتكئين ، والاتكاء التحامل على الشيء (نعم الثواب) ذلك الذى أثابهم الله به (وحسنت) تلك الأرائك (مرتفقا) أى متكأ ، وقد تقدم قريبا .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (ملتحدا) قال ملتجأ . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب عن سلمان قال : جاءت المؤلفة قلوبهم : عيينة ابن بدر ، والأقرع بن حابس فقالوا يارسول الله لوجلست فى صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون سلمان وأباذرّ وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصوف جالسناك وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله (واتل ماأوحى اليك) الى قوله (إنا أعتدنا للظالمين نارا) زاد أبو الشيخ عن سلمان أن رسول الله ﷺ قام يلتمسهم حتى أصابهم فى مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى ، فقال : الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى معكم المحيا والممات . وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال نزلت على رسول الله ﷺ وهو فى بعض أبياته (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) فخرج يلتمسهم فوجد قوما يذكرون الله منهم ثائر الرأس وجاف الجلد وذو الثوب الخلق ، فلما رآهم جلس معهم وقال : الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم . وأخرج البزار عن أبى سعيد وأبى هريرة قالا : جاء رسول الله ﷺ ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف فسكت ، فقال رسول الله ﷺ « هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم » وفى الباب روايات . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن نافع قال : أخبرنى عبد الله بن عمر فى هذه الآية (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) أنهم الذين يشهدون الصلوات الخمس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده فى قوله (واصبر نفسك) الآية قال : نزلت فى صلاة الصبح وصلاة العصر . وأخرج ابن مردويه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) قال . نزلت فى أمية بن خلف ، وذلك أنه دعا النبى ﷺ

الى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة ، فأنزل الله هذه الآية ، يعنى من ختمنا على قلبه يعنى التوحيد (واتبع هواه) يعنى الشرك (وكان أمره فرطا) يعنى فرطا فى أمر الله وجهالة بالله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن بريدة قال : دخل عيينة بن حصن على النبى ﷺ فى يوم حار ، وعنده سلمان عليه جبة صوف ، فثار منه ريح العرق فى الصوف ، فقال عيينة : يامحمد إذا نحن أتيناك ، فأخرج هذا وضرباءه من عندك لايؤذينا ، فاذا خرجنا فأنت وهم أعلم ، فأنزل الله ولا تطع من أغفلنا قلبه الآية ، وقد ثبت فى صحيح مسلم فى سبب نزول الآية المتضمنة لمعنى هذه الآية : وهى قوله تعالى ـ ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ـ عن سعد ابن أبى وقاص قال كنا مع النبى ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبى ﷺ اطرد هؤلاء لايجترئون علينا قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل و بلال ورجلان نسيت اسمهما ، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ماشاء الله أن يقع ، فحدّث نفسه ، فأنزل الله ولا تطرد الذين يدعون ربهم الآية . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وكان أمره فرطا) قال : ضياعا . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة (وقل الحق) قال : هو القرآن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الاسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) يقول من شاء الله له الايمان آمن ومن شاءله الكفر كفر ، وهو قوله ـ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ـ . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : فى الآية هذا تهديد ووعيد . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله (أحاط بهم سرادقها) قال حائط من نار . وأخرج أحمد والترمذى وابن أبى الدنيا وابن جرير وأبو يعلى وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال « لسرادق النار أربعة جدر كثافة كل جدار منها مسيرة أربعين سنة » . وأخرج أحمد والبخارى وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن يعلى بن أمية قال : قال رسول الله ﷺ « ان البحر هو من جهنم ، ثم تلا نارا أحاط بهم سرادقها » . وأخرج أحمد والترمذى وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى قوله (بماء كالمهل) قال « كعكر الزيت ، فاذا قرب اليه سقطت فروة وجهه فيه » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (كالمهل) قال : أسود كعكر الزيت . وأخرج ابن أبى شيبة وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطية قال : سئل ابن عباس عن المهل ، فقال ماء غليظ كدردىّ الزيت . وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن مسعود أنه سئل عن المهل ، فدعا بذهب وفضة ، فأذابه فلما ذاب قال : هذا أشبه شىء بالمهل الذى هو شراب أهل النار ولونه لون السماء غير أن شراب أهل النار أشدّ حرا من هذا . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال : هل تدرون ماالمهل ؟ المهل مهل الزيت ، يعنى آخره . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وساءت مرتفقا) قال : مجتمعا . وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء . وأخرج البيهقى عن أبى الخير مرثد ابن عبد الله . قال فى الجنة شجرة تنبت السندس منه يكون ثياب أهل الجنة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن عكرمة . قال الاستبرق : الديباج الغليظ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الهيثم بن مالك الطائى قال : قال رسول الله ﷺ « ان الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة مايتحوّل منه ، ولا يمله ، يأتيه مااشتهت نفسه ولذت عينه » . وأخرج ابن أبى شيبة

وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الأرائك السرر في جوف الحجال عليها الفرش منضود في السماء فرسخ . وأخرج البيهقي في البعث عنه قال : لاتكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة أنه سئل عن الأرائك ، فقال : هي الحجال على السرر .

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا *

قوله (واضرب لهم مثلا رجلين) هذا المثل ضربه الله سبحانه لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة الفقراء فهو على هذا متصل بقوله (واصبر نفسك) .

وقد اختلف في الرجلين هل هما مقدّران أومحققان ؟ فقال بالأوّل بعض المفسرين . وقال بالآخر بعض آخر ، واختلفوا في تعيينهما فقيل هما أخوان من بني اسرائيل ، وقيل هما أخوان مخزوميان من أهل مكة : أحدهما مؤمن ، والآخر كافر ، وقيل هما المذكوران في سورة الصافات في قوله ـ قال قائل منهم اني كان لي قرين ـ وانتصاب مثلا ورجلين على أنهما مفعولا اضرب ، قيل والأوّل هو الثاني والثاني هو الأوّل (جعلنا لأحدهما جنتين) هو الكافر ، و (من أعناب) بيان لما في الجنتين : أي من كروم متنوّعة (وحففناهما بنخل) الحفّ الاحاطة ، ومنه ـ حافين من حول العرش ـ ويقال حف القوم بفلان يحفون حفا : أي أطافوا به ، فمعنى الآية وجعلنا النخل مطيفا بالجنتين من جميع جوانبهما (وجعلنا بينهما زرعا) أي بين الجنتين ، وهو وسطهما ، ليكون كل واحد منهما جامعا للأقوات والفواكه ، ثم أخبر سبحانه عن الجنتين بأن كل واحدة منهما كانت تؤدّي حملها ومافيها ، فقال (كلتا الجنتين آتت أكلها) أخبر عن كلتا بآتت ، لأن لفظه مفرد ، فراعى جانب اللفظ . وقد ذهب البصريون الى أن كلتا وكلا اسم مفرد غير مثنى ، وقال الفراء : هو مثنى ، وهو مأخوذ من كل فخففت اللام وزيدت الألف للتثنية . وقال سيبويه ألف كلتا للتأنيث ، والتاء بدل من لام الفعل ، وهي واو ، والأصل كلوا . وقال أبو عمرو التاء ملحقة

وأكلهما : هو ثمرهما ، وفيه دلالة على أنه قد صار صالحا للأكل . وقرأ عبد الله بن مسعود كل الجنتين آتى أكله (ولم تظلم منه شيئا) أى لم تنقص من أكلها شيئا ، يقال ظلمه حقه : أى نقصه ، ووصف الجنتين بهذه الصفة للإشعار بأنهما على خلاف ما يعتاد فى سائر البساتين فانها فى الغالب تكثر فى عام ، وتقل فى عام (وفجرنا خلالهما نهرا) أى أجرينا وشققنا وسط الجنتين نهرا ليسقيهما دائما من غير انقطاع ، وقرئ فجرنا بالتشديد للمبالغة ، وبالتخفيف على الأصل (وكان له) أى لصاحب الجنتين (ثمر) ، قرأ أبو جعفر وشيبة ، وعاصم ، ويعقوب ، وابن أبى اسحق ثمر بفتح الثاء والميم ، وكذلك قرءوا فى قوله ـ أحيط بثمره ـ وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم فيهما ، وقرأ الباقون بضمهما جميعا فى الموضعين . قال الجوهرى الثمرة واحدة الثمر ، وجمع الثمر ثمار . مثل جبل وجبال . قال الفراء وجمع الثمار ثمر . مثل كتاب وكتب ، وجمع الثمر أثمار . مثل عنق وأعناق ، وقيل الثمر جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك ، وقيل : هو الذهب والفضة خاصة ، (فقال لصاحبه) أى قال صاحب الجنتين الكافر لصاحبه المؤمن (وهو يحاوره) أى والكافر يحاور المؤمن ، والمعنى : يراجعه الكلام ويجاوبه ، والمحاورة المراجعة ، والتحاور التجاوب (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) النفر الرهط ، وهو مادون العشرة ، وأراد هاهنا الأتباع والخدم والأولاد (ودخل جنته) أى دخل الكافر جنة نفسه . قال المفسرون : أخذ بيد أخيه المسلم ، فأدخله جنته يطوف به فيها ، ويريه عجائبها ، وإفراد الجنة هنا يحتمل أن وجهه كونه لم يدخل أخاه الا واحدة منهما ، أو لكونهما لما اتصلا كانا كواحدة ، أولأنه أدخله فى واحدة ، ثم واحدة ، أولعدم تعلق الغرض بذكرهما ، وما أبعد ما قاله صاحب الكشاف انه وحد الجنة للدلالة على أنه لا نصيب له فى الجنة التى وعد المؤمنون ، وجملة (وهو ظالم لنفسه) فى محل نصب على الحال : أى وذلك الكافر ظالم لنفسه بكفره وعجبه (قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا) أى قال الكافر لفرط غفلته وطول أمله ما أظن أن تفنى هذه الجنة التى تشاهدها (وما أظن الساعة قائمة) أنكر البعث بعد انكاره لفناء جنته ، قال الزجاج أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة (ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منهما منقلبا) اللام هى الموطئة للقسم ، والمعنى أنه ان يرد الى ربه فرضا وتقديرا كما زعم صاحبه ; واللام فى لأجدن جواب القسم والشرط : أى لأجدن يومئذ خيرا من هذه الجنة ، فى مصاحف مكة والمدينة والشام خيرا منهما ، وفى مصاحف أهل البصرة والكوفة خيرا منها على الافراد ، و(منقلبا) منتصب على التميز : أى مرجعا وعاقبة قال هذا قياسا للغائب على الحاضر ، وأنه لما كان غنيا فى الدنيا ، سيكون غنيا فى الأخرى ، اغترارا منه بما صار فيه من الغنى الذى هو استدراج له من الله (قال له صاحبه) أى قال للكافر صاحبه المؤمن حال محاورته له منكرا عليه ما قاله (أكفرت بالذى خلقك من تراب) بقولك ـ ما أظن الساعة قائمة وقال خلقك من تراب : أى جعل أصل خلقك من تراب حيث خلق أباك آدم منه ، وهو أصلك ، وأصل البشر فلكل فرد حظ من ذلك ، وقيل يحتمل أنه كان كافرا بالله فأنكر عليه ما هو عليه من الكفر ، ولم يقصد أن الكفر حدث له بسبب هذه المقالة (ثم من نطفة) وهى المادة القريبة (ثم سواك رجلا) أى صيرك إنسانا ذكرا وعدل أعضاءك وكملك ، وفى هذا تلويح بالدليل على البعث ، وأن القادر على الابتداء قادر على الاعادة ، وانتصاب رجلا على الحال أو التميز (لكنا هو الله ربى) كذا قرأ الجمهور باثبات الألف بعد لكن المشددة . وأصله لكن أنا حذفت الهمزة وألقيت حركتها على النون الساكنة قبلها فصار لكننا ، ثم استثقلوا اجتماع النونين فسكنت الأولى وأدغمت فى الثانية ، وضمير هو للشأن ، والجملة بعده خبره والمجموع خبر أنا ، والراجع ياء الضمير ، وتقدير الكلام لكن أنا الشأن الله ربى ، قال أهل

العربية : إثبات ألف أنا فى الوصل ضعيف ، قال النحاس مذهب الكسائى والفراء والمازنى أن الأصل لكن أنا ، وذكر نحو ما قدّمنا ، وروى عن الكسائى أن الأصل لكن الله هو ربى أنا . قال الزجاج إثبات الألف فى لكنا فى الادراج جيد لأنها قد حذفت الألف من أنا ، فجاءوا بها عوضا ، قال وفى قراءة أبىّ لكن أنا هو الله ربى ، وقرأ ابن عامر والمثنى عن نافع ، وورش عن يعقوب لكنا فى حال الوصل والوقف معا باثبات الألف ، ومثله قول الشاعر :

أنا سيف العشيرة فاعرفونى ☼ فانى قد تذربت السناما

ومنه قول الأعشى :

فكيف أنا وانتحالى القوافى ☼ وبعد الشيب يكفى ذاك عارا

ولا خلاف فى إثباتها فى الوقف ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى وأبو العالية ، وروى عن الكسائى لكن هو الله ربى ، ثم نفى عن نفسه الشرك بالله ، فقال (ولا أشرك بربى أحدا) وفيه إشارة الى أن أخاه كان مشركا ، ثم أقبل عليه يلومه ، فقال (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله) لو لا للتحضيض : أى هلاّ قلت عند ما دخلتها هذا القول ، قال الفراء والزجاج ما فى موضع رفع على معنى الأمر ماشاء الله ، أى هلا قلت حين دخلتها الأمر بمشيئة الله ، وما شاء الله كان ، ويجوز أن تكون ما مبتدأ والخبر مقدّر أى ما شاء الله كائن ، ويجوز أن تكون ما شرطية والجواب محذوف : أى أىّ شىء شاء الله كان (لا قوّة إلا بالله) أى هلا قلت ماشاء الله لا قوّة إلا بالله ، تحضيضا له على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله ، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها ، وعلى الاعتراف بالعجز ، وأن ماتيسر له من عمارتها انما هو بمعونة الله لا بقوّته وقدرته ، قال الزجاج لا يقوى أحد على مافى يده من ملك ونعمة إلا بالله ولا يكون إلا ماشاء الله ، ثم لما علمه الايمان وتفويض الأمور إلى الله سبحانه أجابه عن افتخاره بالمال والنفر ، فقال (إن ترنى أنا أقلّ منك مالا وولدا) المفعول الأوّل ياء الضمير ، وأنا ضمير فصل ، وأقلّ المفعول الثانى للرؤية ان كانت علمية ، وان جعلت بصرية كان انتصاب أقلّ على الحال ، ويجوز أن يكون أنا تأكيدا لياء الضمير ، وانتصاب مالا وولدا على التمييز (فعسى ربى أن يؤتينى خيرا من جنتك) هذا جواب الشرط ، أى إن ترنى أفقر منك ، فأنا أرجو أن يرزقنى الله سبحانه جنة خيرا من جنتك فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما (ويرسل عليها حسبانا) أى ويرسل على جنتك حسبانا ، والحسبان مصدر ، بمعنى الحساب كالغفران ، أى مقدارا قدّره الله عليها ، ووقع فى حسابه سبحانه ، وهو الحكم بتخريبها ، قال الزجاج الحسبان من الحساب ، أى يرسل عليها عذاب الحساب ، وهو حساب ما كسبت يداك ، وقال الأخفش حسبانا : أى مرامى (من السماء) واحدها حسبانة ، وكذا قال أبو عبيدة والقتيبى ، وقال ابن الاعرابى الحسبانة السحابة ، والحسبانة الوسادة ، والحسبانة الصاعقة . وقال النضر بن شميل : الحسبان سهام يرمى بها الرجل فى جوف قصبة تنزع فى قوس ، ثم يرمى بعشرين منها دفعة ، والمعنى يرسل عليها مرامى من عذابه : إما برد . وإما حجارة أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب ، ومنه قول أبى زياد الكلابى ☼ أصاب الأرض حسبان ☼ أى جراد (فتصبح صعيدا زلقا) أى فتصبح جنة الكافر بعد إرسال الله سبحانه عليها حسبانا صعيدا ، أى أرضا لانبات بها وقد تقدم تحقيقه ، زلقا : أى تزلّ فيها الأقدام لملاستها ، يقال مكان زلق بالتحريك ، أى دحض ، وهو فى الاصل مصدر قولك زلقت رجله تزلق زلقا وأزلقها غيره ، والمزلقة الموضع الذى لايثبت عليه قدم ، وكذا الزلاقة ، وصف الصعيد بالمصدر مبالغة ، أو أريد به المفعول ، وجملة (أو يصبح ماؤها غورا) معطوفة على الجملة التى قبلها : والغور الغائر وصف الماء بالمصدر مبالغة

والمعنى أنها تصير عادمة للماء بعد أن كانت واجدة له ، وكان خلالها ذلك النهر يسقيها دائما ، ويجىء الغور : بمعنى الغروب ، ومنه قول أبى ذؤيب :

هل الدهر الا ليلة ونهارها * والاطلوع الشمس ثم غيارها

(فلن تستطيع له طلبا) أى لن تستطيع طلب الماء الغائر فضلا عن وجوده وردّه ولا تقدر عليه بحيلة من الحيل ، وقيل المعنى فلن تسطيع طلب غيره عوضا عنه * ثم أخبر سبحانه عن وقوع مارجاه ذلك المؤمن وتوقعه من إهلاك جنة الكافر ، فقال (وأحيط بثمره) قد قدّمنا اختلاف القراء فى هذا الحرف وتفسيره ، وأصل الاحاطة من إحاطة العدوّ بالشخص كما تقدّم فى قوله ـ إلا أن يحاط بكم ـ وهى عبارة عن إهلاكه وإفنائه ، وهو معطوف على مقدّر كأنه قيل فوقع ما توقعه المؤمن وأحيط بثمره (فأصبح يقلب كفيه) أى يضرب إحدى يديه على الأخرى ، وهو كناية عن الندم ، كأنه قيل فأصبح يندم (على ما أنفق فيها) أى فى عمارتها و إصلاحها من الأموال ، وقيل المعنى يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق ، لأن الملك قد يعبر عنه باليد من قولهم فى يده مال ، وهو بعيد جدّا ، وجملة (وهى خاوية على عروشها) فى محل نصب على الحال : أى والحال أن تلك الجنة ساقطة على دعائمها التى تعمد بها الكروم أو ساقط بعض تلك الجنة على بعض ، مأخوذ من خوت النجوم تخوى اذا سقطت ولم تمطر فى نوئها ، ومنه قوله تعالى ـ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ـ قيل وتخصيص ماله عروش بالذكر دون النخل والزرع لأنه الأصل ، وأيضا إهلاكها مغن عن ذكر إهلاك الباقى ، وجملة (ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا) معطوفة على يقلب كفيه ، أو حال من ضميره : أى وهو يقول تمنى عند مشاهدته لهلاك جنته بأنه لم يشرك بالله حتى تسلم جنته من الهلاك ، أو كان هذا القول منه على حقيقته ، لا لما فاته من الغرض الدنيوى ، بل لقصد التوبة من الشرك ، والندم على ما فرط منه (ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله) فئة اسم كان ، وله خبرها ، وينصرونه صفة لفئة : أى فئة ناصرة ، ويجوز أن تكون ينصرونه الخبر ، ورجح الأوّل سيبويه ، ورجح الثانى المبرّد ، واحتج بقوله ـ ولم يكن له كفوا أحد ـ والمعنى : أنه لم تكن له فرقة وجماعة يلتجىء اليها و ينتصر بها ، ولا نفعه النفر الذين افتخر بهم فيما سبق (وما كان) فى نفسه (منتصرا) أى ممتنعا بقوّته عن إهلاك الله لجنته ، وانتقامه منه (هنالك الولاية لله الحق) . قرأ أبو عمرو والكسائى الحق بالرفع نعتا للولاية ، وقرأ أهل المدينة وأهل مكة وعاصم وحمزة الحق بالجرّ نعتا لله سبحانه ، قال الزجاج ويجوز النصب على المصدر والتوكيد كما تقول هذا لك حقا ، وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى الولاية بكسر الواو ، وقرأ الباقون بفتحها ، وهما لغتان بمعنى ، والمعنى هنالك : أى فى ذلك المقام النصرة لله وحده لا يقدر عليها غيره ، وقيل هو على التقديم والتأخير : أى الولاية لله الحق هنالك (هو خير ثوابا وخير عقبا) أى هو سبحانه خير ثوابا لأوليائه فى الدنيا والآخرة ، وخير عقبا : أى عاقبة ، قرأ الأعمش وعاصم وحمزة عقبا بسكون القاف ، وقرأ الباقون بضمها ، وهما بمعنى واحد : أى هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به ، يقال هذا عاقبة أمر فلان ، وعقباه : أى أخراه :

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله (جعلنا لأحدهما جنتين) قال الجنة : هى البستان فكان له بستان واحد ، وجدار واحد ، وكان بينهما نهر ، فلذلك كانا جنتين ، ولذلك سماه جنة من قبل الجدار الذى عليها . وأخرج ابن أبى حاتم عن يحيى بن أبى عمرو الشيبانى ، قال نهر أبى قرطس نهر الجنتين قال ابن أبى حاتم ، وهو نهر مشهور بالرملة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (ولم تظلم منه شيئا) قال لم تنقص ، كل شجر الجنة أطعم . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة

عنه

عنه (وكان له ثمر) يقول مال . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ، قال قرأها ابن عباس ، وكان له ثمر بالضم ، وقال هي أنواع المال . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ، وكان له ثمر ، قال ذهب وفضة . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة (وهو ظالم لنفسه) يقول كفور لنعمة ربه . وأخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنت عميس قالت : علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن عند الكرب « الله الله ربي لا أشرك به شيئا » . وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن يحيى بن سليم الطائفي عمن ذكره ، قال طلب موسى من ربه حاجة فأبطأت عليه فقال ماشاء الله ، فإذا حاجته بين يديه ، فقال يارب إني أطلب حاجتي منذ كذا وكذا أعطيتها الآن ، فأوحى الله اليه ياموسى ، أما علمت أن قولك ما شاء الله أنجح ماطلبت به الحوائج . وأخرج أبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل أو مال أو ولد فيقول ماشاء الله لاقوة الا بالله الادفع الله عنه كل آفة حتى تأتيه منيته » وقرأ (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله) وفي إسناده عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس . قال أبو الفتح الأزدي عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس لايصح حديثه . وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عن أنس نحوه موقوفا . وأخرج البيهقي في الشعب عنه نحوه مرفوعا . وأخرج أحمد من حديث أبي هريرة قال : قال لي نبي الله ﷺ « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش ؟ قلت نعم قال أن تقول لاقوة إلا بالله » . وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى أن النبي ﷺ قال له « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة لاحول ولاقوة إلا بالله » وقد وردت أحاديث وآثار عن السلف في فضل هذه الكلمة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (فتصبح صعيدا زلقا) قال : مثل الجرز . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (حسبانا من السماء) قال عذابا فتصبح صعيدا زلقا : أي قد حصد مافيها فلم يترك فيها شيء (أو يصبح ماؤها غورا) أي ذاهبا قد غار في الأرض (وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه) قال : يصفق (على ما أنفق فيها) متلهفا على مافاته .

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا * ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا *

ثم ضرب سبحانه مثلا آخر لجبابرة قريش ، فقال (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا) أي اذكر لهم مايشبه الحياة الدنيا في حسنها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يركنوا اليها ، وقد تقدم هذا المثل في سورة يونس ، ثم بين سبحانه هذا المثل ، فقال (كماء أنزلناه من السماء) ويجوز أن يكون هذا هو المفعول الثاني لقوله اضرب على جعله بمعنى صير (فاختلط به نبات الأرض) أي اختلط بالماء نبات الأرض حتى استوى ، وقيل المعنى ان النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء ، لأن النبات انما يختلط ويكثر بالمطر ، فتكون الباء في به سببية (فأصبح) النبات (هشيما) الهشيم الكسير ، وهو من النبات ماتكسر بسبب انقطاع الماء عنه وتفتت ، ورجل هشيم ضعيف البدن ، وتهشم عليه فلان إذا تعطف ، واهتشم مافي ضرع الناقة إذا احتلبه ، وهشم الثريد كسره وثرده ، ومنه قول ابن الزبعرى :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه * ورجال مكة مسنتون عجاف

(تذوره الرياح) تفرقه . قال أبو عبيده وابن قتيبة تذروه تنسفه ، وقال ابن كيسان تذهب به وتجيء ، والمعنى متقارب ، وقرأ طلحة بن مصرّف تذريه الريح ، قال الكسائي ، وفي قراءة عبد الله تذريه ، يقال ذرته الريح تذروه ، وأذرته تذريه ، وحكى الفراء : أذريت الرجل عن فرسه : أي قلبته (وكان الله على كل شيء مقتدرا) أي على كل شيء من الأشياء يحييه ويفنيه بقدرته لا يعجز عن شيء (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) هذا ردّ على الرؤساء الذين كانوا يفتخرون بالمال ، والغنى ، والأبناء ، فأخبرهم سبحانه أن ذلك مما يتزين به في الدنيا لا مما ينفع في الآخرة ، كما قال في الآية الأخرى - إنما أموالكم وأولادكم فتنة - وقال - إن من أزواجكم وأولادكم عدوّا لكم فاحذروهم - ، ولهذا عقب هذه الزينة الدنيوية بقوله (والباقيات الصالحات) أي أعمال الخير ، وهي ما كان يفعله فقراء المسلمين من الطاعات (خير عند ربك ثوابا) أي أفضل من هذه الزينة بالمال والبنين ثوابا ، وأكثر عائدة ومنفعة لأهلها (وخير أملا) أي أفضل أملا ، يعني أن هذه الأعمال الصالحة لأهلها من الأمل أفضل مما يؤمله أهل المال والبنين ، لأنهم ينالون بها في الآخرة أفضل مما كان يؤمله هؤلاء الأغنياء في الدنيا ، وليس في زينة الدنيا خير حتى تفضل عليها الآخرة ، ولكن هذا التفضيل خرّج مخرج قوله تعالى - أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا - ، والظاهر أن الباقيات الصالحات كل عمل خير فلا وجه لقصرها على الصلاة ، كما قال بعض ، ولا لقصرها على نوع من أنواع الذكر ، كما قاله بعض آخر ، ولا على ما كان يفعله فقراء المهاجرين باعتبار السبب ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وبهذا تعرف أن تفسير الباقيات الصالحات في الأحاديث بما سيأتي لا ينافي اطلاق هذا اللفظ على ما هو عمل صالح من غيرها .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن عليّ قال (المال والبنون) حرث الدنيا والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد جمعهما الله لأقوام . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (والباقيات الصالحات) قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال « استكثروا من الباقيات الصالحات : قيل وما هنّ يارسول الله ؟ قال التكبير ، والتهليل والتسبيح ، والتحميد ولا حول ولا قوّة إلا بالله» وأخرج الطبراني وابن شاهين وابن مردويه عن أبي الدرداء مرفوعا بلفظ « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله هنّ الباقيات الصالحات » وأخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الصغير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعا «خذوا جنتكم ، قيل يارسول الله من أيّ عدوّ قد حضر ؟ قال بل جنتكم من النار قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فانهنّ يأتين يوم القيامة مقدّمات معقبات ومجنبات وهي الباقيات الصالحات» وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن مردويه عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ ، قال «ألا وأن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله الباقيات الصالحات» وأخرج ابن مردويه نحوه من حديث أنس مرفوعا وزاد « التكبير وسماهنّ الباقيات الصالحات » وأخرج ابن مردويه نحوه من حديث أبي هريرة . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه من حديث عائشة مرفوعا نحوه وزادت «ولا حول ولا قوّة إلا بالله» وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من حديث عليّ مرفوعا نحوه . وأخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس مرفوعا فذكر نحوه دون الحوقلة . وأخرج الطبراني عن سعد بن جنادة مرفوعا نحوه . وأخرج البخاري في تاريخه وابن جرير عن ابن عمر من قوله نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس من قوله نحوه ، وكل هذه الأحاديث

مصرحة بأنها الباقيات الصالحات ، وأما ماورد فى فضل هذه الكلمات من غير تقييد بكونها المرادة فى الآية فأحاديث كثيرة لافائدة فى ذكرها هنا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : كل شىء من طاعة الله ، فهو من الباقيات الصالحات .

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا * وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا * مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا * وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا * وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا *

وقوله (ويوم نسير الجبال) قرأ الحسن* وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر تسير بمثناة فوقية مضمومة وفتح الياء التحتية على البناء للمفعول ، ورفع الجبال على النيابة عن الفاعل ، وقرأ ابن محيصن ومجاهد تسير بفتح التاء الفوقية والتخفيف على أن الجبال فاعل . وقرأ الباقون نسير بالنون على أن الفاعل هو الله سبحانه والجبال منصوبة على المفعولية ، ويناسب القراءة الأولى قوله تعالى ـ وإذا الجبال سيرت ـ ، ويناسب القراءة الثانية قوله تعالى ـ وتسير الجبال سيرا ـ ، واختار القراءة الثالثة أبو عبيدة : لأنها المناسبة لقوله ـ وحشرناهم ـ قال : بعض النحويين : التقدير والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسير الجبال ، وقيل العامل فى الظرف فعل محذوف ، والتقدير واذكر يوم نسير الجبال ، ومعنى تسيير الجبال ازالتها من أماكنها وتسييرها كما تسير السحاب ، ومنه قوله تعالى ـ وهى تمر مر السحاب ـ ، ثم تعود إلى الأرض بعد أن جعلها الله ، كما قال ـ وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا ـ ، والخطاب فى قوله (وترى الأرض بارزة) لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح للرؤية ، ومعنى بروزها ظهورها وزوال مايسترها من الجبال والشجر والبنيان ، وقيل المعنى ببروزها بروز مافيها من الكنوز والأموات ، كما قال سبحانه ـ وألقت مافيها وتخلت ـ ، وقال ـ وأخرجت الارض أثقالها ـ ، فيكون المعنى وترى الأرض بارزا مافى جوفها (وحشرناهم) أى الخلائق ، ومعنى الحشر الجمع : أى جمعناهم الى الموقف من كل مكان (فلم نغادر منهم أحدا) فلم نترك منهم أحدا ، يقال غادره وأغدره اذا تركه ، قال عنترة :

غادرته متعفرا أوصاله * والقوم بين مجرح ومجندل

أى تركته ، ومنه الغدر ، لأن الغادر ترك الوفاء للمغدور ، قالوا وانما سمى الغدير غديرا ، لأن الماء ذهب وتركه ، ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها (وعرضوا على ربك صفا) انتصاب صفا على الحال : أى مصفوفين ، كل أمة وزمرة صف ، وقيل عرضوا صفا واحدا كما فى قوله ـ ثم ائتوا صفا ـ أى جميعا ، وقيل قياما ، وفى الآية تشبيه حالهم بحال الجيش الذى يعرض على السلطان (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول

مرة) هو على اضمار القول : أى قلنا لهم لقد جئتمونا ، والكاف فى كما خلقناكم نعت مصدر محذوف : أى مجيئا كائنا كمجيئكم عند أن خلقناكم أوّل مرة ، أو كائنين كما خلقناكم أوّل مرة : أى حفاة عراة غرلا ، كما ورد ذلك فى الحديث . قال الزجاج : أى بعثناكم وأعدناكم كما خلقناكم لأن قوله لقدجئتمونا معناه بعثناكم (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) هذا اضراب وانتقال من كلام الى كلام للتقريع والتوبيخ ، وهو خطاب لمنكرى البعث : أى زعمتم فى الدنيا أن لن تبعثوا وأن لن نجعل لكم موعدا نجازيكم بأعمالكم وننجز ماوعدناكم به من البعث والعذاب ، وجملة (ووضع الكتاب) معطوفة على عرضوا ، والمراد بالكتاب صحائف الأعمال ، وأفرده لكون التعريف فيه للجنس ، والوضع اما حسى بأن يوضع صحيفة كل واحد فى يده : السعيد فى يمينه ، والشقىّ فى شماله ، أو فى الميزان ، واما عقلى : أى أظهر عمل كل واحد من خير وشرّ بالحساب الكائن فى ذلك اليوم (فترى المجرمين مشفقين مما فيه) أى خائفين وجلين مما فى الكتاب الموضوع لما يتعقب ذلك من الافتضاح فى ذلك الجمع ، والمجازاة بالعذاب الأليم (ويقولون ياويلتنا) يدعون على أنفسهم بالويل لوقوعهم فى الهلاك ، ومعنى هذا النداء قد تقدّم تحقيقه فى المائدة (مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) أى أىّ شىء له لايترك معصية صغيرة ولا معصية كبيرة إلا حواها وضبطها وأثبتها (ووجدوا ماعملوا) فى الدنيا من المعاصى الموجبة للعقوبة ، أووجدوا جزاء ماعملوا (حاضرا) مكتوبا مثبتا (ولا يظلم ربك أحدا) أى لايعاقب أحدا من عباده بغير ذنب ، ولا ينقص فاعل الطاعة من أجره الذى يستحقه ، ثم انه سبحانه عادإلى الردّ على أرباب الخيلاء من قريش ، فذكر قصة آدم واستكبار إبليس عليه ، *فقال (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) أى واذكر وقت قولنا لهم اسجدوا سجود تحية وتكريم ، كما مرّ تحقيقه (فسجدوا) طاعة لأمر الله وامتثالا لطلبه السجود (إلا إبليس) فانه أبى واستكبر ولم يسجد ، وجملة (كان من الجنّ) مستأنفة لبيان سبب عصيانه وأنه كان من الجنّ ولم يكن من الملائكة فلهذا عصى ، ومعنى (ففسق عن أمر ربه) أنه خرج عن طاعة ربه . قال الفراء : العرب تقول فسقت الرطبة عن قشرها لخروجها منه . قال النحاس : اختلف فى معنى ففسق عن أمر ربه على قولين : الأوّل مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى أتاه الفسق لما أمر فعصى فكان سبب الفسق أمر ربه ، كما تقول أطعمه عن جوع . والقول الآخر قول قطرب أن المعنى على حذف المضاف : أى فسق عن ترك أمره ، ثم انه سبحانه عجب من حال من أطاع ابليس فى الكفر والمعاصى وخالف أمر الله ، فقال (أفتتخذونه وذريته أولياء) كأنه قال : أعقيب ماوجد منه من الاباء والفسق تتخذونه وتتخذون ذريته : أى أولاده ، وقيل أتباعه مجازا أولياء (من دونى) فتطيعونهم بدل طاعتى وتستبدلونهم بى ، والحال أنهم : أى ابليس وذريته (لكم عدوّ) أى أعداء وأفرده لكونه اسم جنس ، أولتشبيهه بالمصادر كما فى قوله ــ فانهم عدوّ لى ــ ، وقوله ــ هم العدوّ ــ أى كيف تصنعون هذا الصنع وتستبدلون بمن خلقكم وأنعم عليكم بجميع ماأنتم فيه من النعم ؟ بمن لم يكن لكم منه منفعة قط ، بل هو عدوّ لكم يترقب حصول مايضركم فى كل وقت (بئس للظالمين بدلا) أى الواضعين للشىء فى غير موضعه المستبدلين بطاعة ربهم طاعة الشيطان فبئس ذلك البدل الذى استبدلوه بدلا عن الله سبحانه (ماأشهدتهم خلق السموات والأرض) قال أكثر المفسرون ان الضمير للشركاء ، والمعنى أنهم لو كانوا شركاء لى فى خلق السموات والأرض وفى خلق أنفسهم لكانوا مشاهدين خلق ذلك مشاركين لى فيه ولم يشاهدوا ذلك ولا أشهدتهم إياه أنا فليسوا لى بشركاء ، وهذا استدلال بانتفاء الملزوم المساوى على انتفاء اللازم ، وقيل الضمير للمشركين الذين التمسوا طرد فقراء المؤمنين ، والمراد أنهم ما كانوا

شركاء لى فى تدبير العالم بدليل أنى ماأشهدتهم خلق السموات والأرض (ولاخلق أنفسهم) وماعتضدت بهم بل هم كسائر الخلق ، وقيل المعنى أن هؤلاء الظالمين جاهلون بما جرى به القلم فى الأزل ، لأنهم لم يكونوا مشاهدين خلق العالم ، فكيف يمكنهم أن يحكموا بحسن حالهم عند الله ، والأوّل من هذه الوجوه أولى لما يلزم فى الوجهين الآخرين من تفكيك الضميرين ، وهذه الجملة مستأنفة لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور ، وقرأ أبو جعفر ما أشهدناهم ، وقرأ الباقون ما أشهدتهم ، ويؤيده (وماكنت متخذ المضلين عضدا) والعضد يستعمل كثيرا فى معنى العون ، وذلك أن العضد قوام اليد ، ومنه قوله ـ سنشدّ عضدك بأخيك ـ أى سنعينك ونقوّيك به ، ويقال أعضدت بفلان اذا استعنت به ، وذكر العضد على جهة المثل ، وخصّ المضلين بالذكر لزيادة الذمّ والتوبيخ * والمعنى مااستعنت على خلق السموات والأرض بهم ولا شاورتهم وما كنت متخذ الشياطين أو الكافرين أعوانا ، ووحد العضد لموافقة الفواصل ، وقرأ أبو جعفر الجحدرى وما كنت بفتح التاء على أن الخطاب للنبى ﷺ : أى وما كنت يامحمد متخذا لهم عضدا ولا صح لك ذلك ، وقرأ الباقون بضم التاء ، وفى عضد لغات ثمان أفصحها فتح العين وضمّ الضاد ، وبها قرأ الجمهور ، وقرأ الحسن عضد بضم العين والضاد ، وقرأ عكرمة بضم العين واسكان الضاد وقرأ الضحاك بكسر العين وفتح الضاد ، وقرأ عيسى بن عمر بفتحهما ، ولغة تميم فتح العين وسكون الضاد ، ثم عاد سبحانه الى ترهيبهم بأحوال القيامة فقال (ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم) قرأ حمزة ويحيى بن وثاب وعيسى بن عمر نقول بالنون ، وقرأ الباقون بالياء التحتية : أى اذكر يوم يقول الله عزّ وجلّ للكفار توبيخا لهم وتقريعا نادوا شركائى الذين زعمتم أنهم ينفعونكم ويشفعون لكم ، وأضافهم سبحانه الى نفسه جريا على مايعتقده المشركون ، تعالى الله عن ذلك (فدعوهم) أى فعلوا ما أمرهم الله به من دعاء الشركاء (فلم يستجيبوا لهم) إذ ذاك : أى لم يقع منهم مجرّد الاستجابة لهم ، فضلا عن أن ينفعوهم أو يدفعوا عنهم (وجعلنا بينهم موبقا) أى جعلنا بين هؤلاء المشركين وبين من جعلوهم شركاء لله موبقا ، ذكر جماعة من المفسرين أنه اسم واد عميق فرق الله به تعالى بينهم ، وعلى هذا فهو اسم مكان . قال ابن الأعرابى : كل حاجز بين شيئين فهو موبق . وقال الفراء : الموبق المهلك * والمعنى جعلنا تواصلهم فى الدنيا مهلكا لهم فى الآخرة ، يقال وبق يوبق ، فهو وبق ، هكذا ذكره الفراء فى المصادر ، وحكى الكسائى وبق يبق وبوقا ، فهو وابق ، والمراد بالمهلك على هذا هو عذاب النار يشتركون فيه ، والأوّل أولى لأن من جملة من زعموا أنهم شركاء لله الملائكة وعزير والمسيح ، فالموبق هو المكان الحائل بينهم . وقال أبو عبيدة : الموبق هنا الموعد للهلاك ، وقد ثبت فى اللغة أوبقه بمعنى أهلكه ، ومنه قول زهير :

ومن يشترى حسن الثناء بماله * يصن عرضه عن كل شنعاء موبق

ولكن المناسب لمعنى الآية هو المعنى الأوّل (ورءا المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) المجرمون موضوع موضع الضمير للاشارة الى زيادة الذمّ لهم بهذا الوصف المسجل عليهم به : والظن هنا بمعنى اليقين ، والمواقعة المخالطة بالوقوع فيها ، وقيل ان الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون ذلك ظنا (ولم يجدوا عنها مصرفا) أى معدلا يعدلون اليه ، أو انصرافا ، لأن النار قد أحاطت بهم من كل جانب . قال الواحدى : المصرف الموضع الذى ينصرف اليه ، وقال القتيبى : أى معدلا ينصرفون اليه ، وقيل ملجأ يلجأون إليه * والمعنى متقارب فى الجميع .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وترى الأرض بارزة) قال : ليس عليها بناء ولا شجر . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (لايغادر

XVIII .52-56

صغيرة ولا كبيرة) قال : الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك ، وزاد ابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم عنه قال : الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين ، والكبيرة القهقهة بذلك * وأقول صغيرة وكبيرة نكرتان فى سياق النفى فيدخل تحت ذلك كل ذنب يتصف بالصغر ، وكل ذنب يتصف بالكبر ، فلا يبقى من الذنوب شىء إلا أحصاه الله وما كان من الذنوب ملتبسا بين كونه صغيرا أو كبيرا ، فذلك انما هو بالنسبة الى العباد لا بالنسبة الى الله سبحانه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : ان من الملائكة قبيلة ، يقال لهم الجن فكان إبليس منهم ، وكان يوسوس مابين السماء والأرض فعصى فسخط الله عليه فسخه الله شيطانا رجيما . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله (كان من الجن) قال : كان خازن الجنان ، فسمى بالجان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا قال : إن إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازنا على الجنان . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال : قاتل الله أقواما زعموا أن إبليس كان من الملائكة ، والله يقول كان من الجن . وأخرج ابن جرير وابن الأنبارى عنه أنه قال : ما كان من الملائكة طرفة عين انه لأصل الجن كما أن آدم أصل الانس . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (ماأشهدتهم خلق السموات والأرض) قال : يقول ماأشهدت الشياطين الذين اتخذتم معى هذا (وما كنت متخذ المضلين عضدا) قال . الشياطين عضدا ، قال ولا اتخذتهم عضدا على شىء عضدونى عليه فأعانونى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (وجعلنا بينهم موبقا) يقول مهلكا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج أبو عبيد وهناد وابن المنذر عنه قال : واد فى جهنم . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن أنس فى الآية قال : واد فى جهنم من قيح ودم . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عمرو قال : هو واد عميق فى النار فرق الله به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (فظنوا أنهم مواقعوها) قال علموا .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا * وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا * وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا *

لما ذكر سبحانه افتخار الكفرة على فقراء المسلمين بأموالهم وعشائرهم وأجابهم عن ذلك وضرب لهم الأمثال الواضحة ، حكى بعض أهوال الآخرة ، فقال (ولقد صرّفنا) أى كرّرنا ورددنا (فى هذا

القرآن للناس) أى لأجلهم ولرعاية مصلحتهم ومنفعتهم (من كل مثل) من الأمثال التى من جملتها الأمثال المذكورة فى هذه السوره ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية فى سورة بنى إسرائيل ، وحين لم يترك الكفار ماهم فيه من الجدال بالباطل ، ختم الآية بقوله (وكان الانسان أكثر شىء جدلا) قال الزجاج المراد بالانسان الكافر ، واستدل على أن المراد الكافر بقوله تعالى (ويجادل الذين كفروا بالباطل) وقيل المراد به فى الآية النضر بن الحرث ، والظاهر العموم وأن هذا النوع أكثر الأشياء التى يتأتى منها الجدال جدلا ، ويؤيد هذا ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث علىّ أن النبى ﷺ طرقه وفاطمة ليلا ، فقال « ألا تصليان ؟ فقلت يارسول الله إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع الىّ شيئا ، ثم سمعته يضرب فخذه ، ويقول وكان الانسان أكثر شىء جدلا » ، وانتصاب جدلا على التمييز (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأوّلين) قد تقدّم الكلام على مثل هذا فى سورة بنى إسرائيل ، وذكرنا أن أن الأولى فى محل نصب ، والثانية فى محل رفع ، والهدى القرآن ومحمد ﷺ ، والناس هنا هم أهل مكة ، والمعنى على حذف مضاف : أى مامنع الناس من الايمان والاستغفار الا طلب إتيان سنة الأوّلين ، أو انتظار إتيان سنة الأوّلين ، وزاد الاستغفار فى هذه السورة ، لأنه قد ذكر هنا مافرط منهم من الذنوب التى من جملتها جدالهم بالباطل ، وسنة الأوّلين هو أنهم اذا لم يؤمنوا عذبوا عذاب الاستئصال . قال الزجاج سنتهم هو قولهم ـ إن كان هذا هو الحقّ من عندك الآية ـ (أو يأتيهم العذاب) أى عذاب الآخرة (قبلا) . قال الفراء ان قبلا جمع قبيل : أى متفرقا يتلو بعضه بعضا ، وقيل عيانا ، وقيل فجأة ، ويناسب ما قاله الفراء قراءة أبى جعفر وعاصم والأعمش وحمزة والكسائى ويحيى بن وثاب وخلف : قبلا بضمتين فانه جمع قبيل ، نحو سبيل وسبل ، والمراد أصناف العذاب ، ويناسب التفسير الثانى : أى عيانا ، قراءة الباقين بكسر القاف وفتح الباء : أى مقابلة ومعاينة ، وقرئ بفتحتين على معنى أو يأتيهم العذاب مستقبلا ، وانتصابه على الحال * فحاصل معنى الآية أنهم لايؤمنون ولا يستغفرون الا عند نزول عذاب الدنيا المستأصل لهم ، أو عند إتيان أصناف عذاب الآخرة أو معاينته (وما نرسل المرسلين) من رسلنا الى الأمم (الا) حال كونهم (مبشرين) للمؤمنين (ومنذرين) للكافرين ، فالاستثناء مفرّغ من أعم العام ، وقد تقدّم تفسير هذا (ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحقّ) أى ليزيلوا بالجدال بالباطل الحق ويبطلوه ، وأصل الدحض الزلق : يقال دحضت رجله : أى زلقت تدحض دحضا ، ودحضت الشمس عن كبد السماء زالت ، ودحضت حجته دحوضا بطلت ، ومن ذلك قول طرفة :

أبا منذر رمت الوفاء فهبته * وحدت كما حاد البعير عن الدحض

ومن مجادلة هؤلاء الكفار بالباطل قولهم للرسل ـ ما أنتم الا بشر مثلنا ـ ونحو ذلك (واتخذوا آياتى) أى القرآن (وما أنذروا) به من الوعيد والتهديد (هزوا) أى لعبا وباطلا ، وقد تقدّم هذا فى البقرة (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها) أى لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه التنزيلية أو التكوينية أو مجموعهما فتهاون بها وأعرض عن قبولها ، ولم يتدبرها حقّ التدبر ويتفكر فيها حقّ التفكر (ونسى ما قدّمت يداه) من الكفر والمعاصى ، فلم يتب عنها . قيل والنسيان هنا بمعنى الترك ، وقيل هو على حقيقته (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه) أى أغطية : والأكنة جمع كنان ، والجملة تعليل لاعراضهم ونسيانهم . قال الزجاج أخبر الله سبحانه أنّ هؤلاء طبع على قلوبهم (وفى آذانهم وقرا) أى وجعلنا فى آذانهم ثقلا يمنع من استماعه ، وقد تقدّم تفسير هذا فى الأنعام (وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا) لأن الله قد طبع على قلوبهم بسبب كفرهم ومعاصيهم (وربك الغفور ذو الرحمة) أى كثير المغفرة ، وصاحب الرحمة التى وسعت كل شىء فلم يعاجلهم بالعقوبة ، ولهذا قال

(لو يؤاخذهم بما كسبوا) أى بسبب ما كسبوه من المعاصى التى من جلتها الكفر والمجادلة والاعراض (لعجل لهم العذاب) لاستحقاقهم لذلك (بل) جعل (لهم موعد) أى أجل مقدر لعذابهم ، قيل هو عذاب الآخرة ، وقيل يوم بدم (لن يجدوا من دونه موئلا) أى ملجأ يلجئون اليه وقال أبو عبيدة منجا ، وقيل محيصا ، ومنه قول الشاعر :

لا وألت نفسك خليتها * للعامريين ولم تكلم

وقال الأعشى :

وقد أخالس ربّ البيت غفلته * وقد يحاذر منى ثم ما يئل

أى ماينجو (وتلك القرى) أى قرى عاد وثمود وأمثالها (أهلكناهم) هذا خبر اسم الاشارة والقرى صفته ، والكلام على حذف مضاف : أى أهل القرى أهلكناهم (لما ظلموا) أى وقت وقوع الظلم منهم بالكفر والمعاصى (وجعلنالمهلكهم موعدا) أى وقتا معينا ، قرأ عاصم (١) مهلكهم بفتح الميم واللام ، وهو مصدر هلك ، وأجاز الكسائى والفراء كسر اللام وفتح الميم ، وبذلك قرأ حفص ، وقرأ الجمهور بضم الميم وفتح اللام ، وقال الزجاج مولك : اسم للزمان ، والتقدير لوقت مهلكهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (إلا أن تأتيهم سنة الأوّلين) قال عقوبة الأوّلين . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأعمش فى قوله (قبلا) قال جهارا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ، قال فجأة . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (ونسى ما قدّمت يداه) قال نسى ما سلف من الذنوب الكثيرة . وأخرج أيضا عن ابن عباس (بما كسبوا) يقول بما عملوا . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى (بل لهم موعد) قال الموعد يوم القيامة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (موئلا) قال ملجأ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد موئلا ، قال محرزا .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَيٰهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَيٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا *

الظرف فى قوله (وإذ قال) متعلق بفعل محذوف هو اذكر . قيل ووجه ذكر هذه القصة فى هذه السورة ، أن اليهود لما سألوا النبى ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وقالوا ان أخبركم فهو نبىّ

(١) قوله عاصم صوابه أبو بكر عن عاصم اه مصحح القرآن

والا

والا فلا . ذكر الله قصة موسى والخضر تنبيها على أن النبيّ لا يلزمه أن يكون عالما بجميع القصص والأخبار * وقد اتفق أهل العلم على أن موسى المذكور هو موسى بن عمران النبيّ المرسل الى فرعون ، وقالت فرقة ، لا التفات الى ما تقوله منهم نوف البكالى انه ليس ابن عمران ، وانما هو موسى بن ميشى بن يوسف بن يعقوب ، وكان نبيا قبل موسى بن عمران ، وهذا باطل قد ردّه السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم كما فى صحيح البخارى وغيره : والمراد بفتاه هنا ، هو يوشع بن نون . قال الواحدى : أجمعوا على أنه يوشع بن نون ، وقد مضى ذكره فى المائدة ، وفى آخر سورة يوسف ، ومن قال ان موسى هو ابن ميشى ، قال ان هذا الفتى لم يكن هو يوشع بن نون . قال الفراء ، وانما سمى فتى موسى ، لأنه كان ملازما له يأخذ عنه العلم ويخدمه (ومعنى لا أبرح) لا أزال ، ومنه قوله ـ لن نبرح عليه عاكفين ـ ومنه قول الشاعر :

وأبرح ما أدام الله قومى * بحمد الله منتطقا مجيدا

وبرح اذا كان بمعنى زال فهو من الأفعال الناقصة ، وخبره هنا محذوف اعتمادا على دلالة ما بعده وهو (حتى أبلغ مجمع البحرين) قال الزجاج لا أبرح بمعنى لا أزال ، وقد حذف الخبر لدلالة حال السفر عليه ، ولأنّ قوله ، حتى أبلغ غاية مضروبة ، فلا بدّ لها من ذى غاية ، فالمعنى لا أزال أسير الى أن أبلغ ، ويجوز أن يراد لايبرح مسيرى حتى أبلغ ، وقيل معنى لا أبرح لا أفارقك حتى أبلغ مجمع البحرين ، وقيل يجوز أن يكون من برح التام : بمعنى زال يزال ، ومجمع البحرين ملتقاهما ، قيل المراد بالبحرين بحر فارس والروم ، وقيل بحر الأردن وبحر القلزم ، وقيل مجمع البحرين عند طنجة ، وقيل بافريقية وقالت طائفة المراد بالبحرين : موسى والخضر ، وهو من الضعف بمكان ، وقد حكى عن ابن عباس ولا يصح (أو أمضى حقبا) أى أسير زمانا طويلا ، قال الجوهرى : الحقب بالضم ثمانون سنة . وقال النحاس الذى يعرفه أهل اللغة أن الحقب والحقبة زمان من الدهر مبهم غير محدود ، كما أن رهطا وقوما منهم غير محدود ، وجمعه أحقاب * وسبب هذه العزيمة على السير من موسى عليه السلام ما روى أنه سئل موسى من أعلم الناس ؟ فقال أنا ، فأوحى الله اليه انّ أعلم منك عبد لى عند مجمع البحرين (فلما بلغا) أى موسى وفتاه (مجمع بينهما) أى بين البحرين ، وأضيف مجمع الى الظرف توسعا ، وقيل البين : بمعنى الافتراق : أى البحران المفترقان يجتمعان هناك ، وقيل الضمير لموسى والخضر : أى وصلا الموضع الذى فيه اجتماع شملهما ، ويكون البين على هذا بمعنى الوصل ، لأنه من الأضداد ، والأوّل أولى (نسيا حوتهما) قال المفسرون انهما تزوّدا حوتا مملحا فى زنبيل ، وكانا يصيبان منه عند حاجتهما الى الطعام ، وكان قد جعل الله فقدانه أمارة لهما على وجدان المطلوب * والمعنى أنهما نسيا تفقد أمره ، وقيل الذى نسى إنما هو فتى موسى ، لأنه وكل أمر الحوت اليه ، وأمره أن يخبره اذا فقده ، فلما انتهيا الى ساحل البحر وضع فتاه المكتل الذى فيه الحوت فأحياه الله ، فتحرّك واضطرب فى المكتل ، ثم انسرب فى البحر ، ولهذا قال (فاتخذ سبيله فى البحر سربا) انتصاب سربا على أنه المفعول الثانى لاتخذ ، أى اتخذ سبيلا سربا ، والسرب النفق الذى يكون فى الأرض للضبّ ونحوه من الحيوانات ، وذلك أن الله سبحانه أمسك جرية الماء على الموضع الذى انسرب فيه الحوت ، فصار كالطاق ، فشبه مسلك الحوت فى البحر مع بقائه وانجياب الماء عنه بالسرب الذى هو الكوّة المحفورة فى الأرض . قال الفراء لما وقع فى الماء جد مذهبه فى البحر ، فكان كالسرب ، فلما جاوزا ذلك المكان الذى كانت عنده الصخرة ، وذهب الحوت فيه انطلقا ، فأصابهما ما يصيب المسافر من النصب والكلال ، ولم يجدا النصب حتى جاوزا الموضع الذى فيه

الخضر ، ولهذا قال سبحانه (فلما جاوزا) أى مجمع البحرين الذى جعل موعدا للملاقاة (قال لفتاه آتنا غداءنا) وهو ما يؤكل بالغداة ، وأراد موسى أن يأتيه بالحوت الذى جعلاه معهما (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) أى تعبا وإعياء ، قال المفسرون الاشارة بقوله : سفرنا هذا الى السفر الكائن منهما بعد مجاوزة المكان المذكور ، فانهما لم يجدا النصب الا فى ذلك دون ما قبله (قال أرأيت إذ أوينا الى الصخرة) أى قال فتى موسى لموسى ، ومعنى الاستفهام تعجيبه لموسى مما وقع له من النسيان هناك مع كون ذلك الأمر مما لاينسى ، لأنه قد شاهد أمرا عظيما من قدرة الله الباهرة ، ومفعول أرأيت محذوف لدلالة ما ذكره من النسيان عليه ، والتقدير أرأيت مادهانى ، أو نابنى فى ذلك الوقت والمكان ، وتلك الصخرة كانت عند مجمع البحرين الذى هو الموعد ، وانما ذكرها دون أن يذكر مجمع البحرين لكونها متضمنة لزيادة تعيين المكان ، لاحتمال أن يكون المجمع مكانا متسعا يتناول مكان الصخرة وغيره ، وأوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذى تقدم ذكره ، لبيان أن ذلك الغداء المطلوب هو ذلك الحوت الذى جعلاه زادا لهما ، وأمارة لوجدان مطلوبهما ، ثم ذكر ما يجرى مجرى السبب فى وقوع ذلك النسيان ، فقال (وما أنسانيه إلا الشيطان) بما يقع منه من الوسوسة ، و (أن أذكره) بدل اشتمال من الضمير فى أنسانيه ، وفى مصحف عبد الله ، وما أنسانيه أن أذكره الا الشيطان (واتخذ سبيله فى البحر عجبا) انتصاب عجبا على أنه المفعول الثانى كما مر فى سربا ، والظرف فى محل نصب على الحال ، يحتمل أن يكون هذا من كلام يوشع ، أخبر موسى أن الحوت اتخذ سبيله عجبا للناس ، وموضع التعجب أن يحيا حوت قد مات ، وأكل شقه ، ثم يثب الى البحر ويبقى أثر جريته فى الماء لا يمحو أثرها جريان ماء البحر ، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه لبيان طرف آخر من أمر الحوت ، فيكون ما بين الكلامين اعتراضا (قال ذلك ما كنا نبغى) أى قال موسى لفتاه ذلك الذى ذكرت من فقد الحوت فى ذلك الموضع هو الذى كنا نطلبه ، فان الرجل الذى نريده هو هنالك (فارتدا على آثارهما قصصا) أى رجعا على الطريق التى جاآ منها يقصان أثرهما لئلا يخطئا طريقهما ، وانتصاب قصصا على أنه مصدر لفعل محذوف ، أو على الحال : أى قاصين أو مقتصين ، والقصص فى اللغة اتباع الأثر (فوجدا عبدا من عبادنا) هو الخضر فى قول جمهور المفسرين ، وعلى ذلك دلت الأحاديث الصحيحة ، وخالف فى ذلك من لا يعتد بقوله ، فقال ليس هو الخضر بل عالم آخر ، قيل سمى الخضر لأنه كان اذا صلى اخضر ما حوله قيل واسمه بليا بن ملكان ، ثم وصفه الله سبحانه ، فقال (آتيناه رحمة من عندنا) قيل الرحمة هى النبوة ، وقيل النعمة التى أنعم الله بها عليه (وعلمناه من لدنا علما) وهو ما علمه الله سبحانه من علم الغيب الذى استأثر به ، وفى قوله من لدنا تفخيم لشأن ذلك العلم ، وتعظيم له * قال الزجاج وفيما فعل موسى وهو من جلة الأنبياء من طلب العلم ، والرحلة فى ذلك ما يدل على أنه لا ينبغى لأحد أن يترك طلب العلم وان كان قد بلغ نهايته ، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه ، ثم قص الله سبحانه علينا ما دار بين موسى والخضر بعد اجتماعهما ، فقال (قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا) فى هذا السؤال ملاطفة ومبالغة فى حسن الأدب ، لأنه استأذنه أن يكون تابعا له على أن يعلمه مما علمه الله من العلم : والرشد الوقوف على الخير وإصابة الصواب ، وانتصابه على أنه مفعول ثان لتعلمنى : أى علما ذا رشد أرشد به ، وقرئ رشدا بفتحتين ، وهما لغتان كالبخل والبخل * وفى الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وان تفاوتت المراتب * وليس فى ذلك ما يدل على أن الخضر أفضل من موسى ، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل وقد يأخذ الفاضل عن المفضول اذا اختص أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر ، فقد كان علم موسى علم الأحكام

الشرعية

الشرعية ، والقضاء بظاهرها ، وكان علم الخضر علم بعض الغيب ومعرفة البواطن (قال إنك لن تستطيع معي صبرا) أي قال الخضر لموسى إنك لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي ، لأن الظواهر التي هي علمك لا توافق ذلك ، ثم أكد ذلك مشيرا الى علة عدم الاستطاعة ، فقال (وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) أي كيف تصبر على علم ظاهره منكر ، وأنت لاتعلم ، ومثلك مع كونك صاحب شرع لايسوغ له السكوت على منكر والاقرار عليه ، وخبرا منتصب على التمييز : أي لم تحط به خبرك : والخبر العلم بالشيء والخبير بالأمور ، هو العالم بخفاياها ، و بما يحتاج الى الاختبار منها (قال ستجدني إن شاء الله صابرا) أي قال موسى للخضر ستجدني صابرا معك ، ملتزما طاعتك (ولا أعصي لك أمرا) جملة ولا أعصي معطوفة على صابرا ، فيكون التقييد بقوله : إن شاء الله شاملا للصبر ونفي المعصية ، وقيل ان التقييد بالمشيئة مختص بالصبر ، لأنه أمر مستقبل لايدري كيف يكون حاله فيه ، ونفي المعصية معزوم عليه في الحال ، ويجاب عنه بأن الصبر ، ونفي المعصية متفقان في كون كل واحد منهما معزوم عليه في الحال ، وفي كون كل واحد منهما لايدري كيف حاله فيه في المستقبل . (قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء) مما تشاهده من أفعالي المخالفة لما يقتضيه ظاهر الشرع الذي بعثك الله به (حتى أحدث لك منه ذكرا) أي حتى أكون أنا المبتدئ لك بذكره ، و بيان وجهه ومايئول اليه ، وهذه الجمل المعنونة ، بقال : وقال مستأنفة لأنها جوابات عن سؤالات مقدرة كل واحدة ينشأ السؤال عنها عما قبلها :

وقد أخرج الدارقطني في الأفراد وابن عساكر من طريق مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس قال الخضر ابن آدم لصلبه ونسيء له في أجله حتى يكذب الدجال . وأخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال انما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فاذا هي تهتز من خلفه خضراء . وأخرجه ابن عساكر من حديث ابن عباس . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر عن مجاهد انما سمي الخضر ، لأنه اذا صلى اخضر ماحوله . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله (لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين) قال حتى أنتهي . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (مجمع البحرين) قال بحر فارس والروم ، وهما نحو المشرق والمغرب وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس مثله . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب قال مجمع البحرين إفريقية . وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب قال طنجة . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (أو أمضي حقبا) قال سبعين خريفا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه ، قال دهرا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (نسيا حوتهما) قال كان مملوحا مشقوق البطن . وأخرج ابن المنذر عنه في قوله (فاتخذ سبيله في البحر سربا) قال أثره يابس في البحر كأنه في حجر . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (فارتدا على آثارهما قصصا) قال عودهما على بدئهما . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (آتيناه رحمة من عندنا) قال أعطيناه الهدى والنبوة .

واعلم أنها قد رويت في قصة الخضر مع موسى المذكورة في الكتاب العزيز أحاديث كثيرة ، وأتمها وأكملها ماروى عن ابن عباس ولكنها اختلفت بعض الألفاظ ، وكلها مروية من طريق سعيد بن جبير عنه ، و بعضها في الصحيحين وغيرهما ، و بعضها في أحدهما ، و بعضها خارج عنهما ، وقد رويت من طريق العوفي عنه كما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم ، ومن طريق هرون بن عنترة عن أبيه عنه عند ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والخطيب وابن عساكر ، فلنقتصر على الرواية التي هي أتم

الروايات الثابتة فى الصحيحين ، ففى ذلك مايغنى عن غيره * وهى قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس أن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بنى اسرائيل ، قال ابن عباس كذب عدوّ الله ، حدثنا أبيّ بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ان موسى قام خطيبا فى بنى اسرائيل فسئل : أيّ الناس أعلم ؟ فقال أنا ، فعتب الله عليه اذ لم يردّ العلم اليه ، فأوحى الله اليه أن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى يارب فكيف لى به ؟ قال تأخذ معك حوتا فتجعله فى مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ ، فأخذ حوتا فجعله فى مكتل . ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى اذا كانا من الغد ، قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به ، فقال له فتاه (أرأيت إذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا) قال فكان للحوت سربا ، ولموسى وفتاه عجبا ، فقال موسى : ذلك ما كنا نبغى فارتدا على آثارهما قصصا ، قال سفيان يزعم ناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة لايصيب ماؤها ميتا الا عاش قال وكان الحوت قد أكل منه ، فلما قطر عليه الماء عاش ، قال فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا الى الصخرة فاذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى . فقال الخضر : وأنى بارضك السلام ؟ قال أنا موسى ، قال موسى بنى إسرائيل ، قال نعم ، قال أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا ، قال إنك لن تستطيع معى صبرا ياموسى إنى على علم من الله علمنيه لاتعلمه أنت . وأنت على علم من الله علمك الله لاأعلمه . قال موسى ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ، فقال له الخضر : فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا ، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرّت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول ، فلما ركبا فى السفينة ، لم يفجأ الا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم . فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت الى سفينتهم ، فخرقتها لتغرق أهلها لقدجئت شيئا إمرا ، قال ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا ، قال لاتؤاخذنى بما نسيت ولاترهقنى من أمرى عسرا . قال وقال رسول الله ﷺ فكانت الأولى من موسى نسيانا . قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة ، فقال له الخضر مانقص علمى وعلمك من علم الله الامثل مانقص هذا العصفور الذى وقع على حرف السفينة من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله ، فقال موسى أقتلت نفسا زاكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا ، قال وهذه أشد من الأولى (قال ان سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقضّ فأقامه) قال مائل ، فقال الخضر بيده هكذا فأقامه ، ف(قال) موسى قوم آتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا (لوشئت لاتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بينى و بينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) فقال رسول الله ﷺ وددنا أن موسى كان صبر حتى يقصّ الله علينا من خبرهما . قال سعيد بن جبير ، وكان ابن عباس يقرأ (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) وكان يقرأ (وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين) وبقية روايات سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب هى موافقة لهذه الرواية فى المعنى . وان تفاوتت الألفاظ فى بعضها

فلا

فلا فائدة فى الاطالة بذكرها وكذلك روايات غير سعيد عنه .

فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا *

قوله (فانطلقا) أى موسى والخضر على ساحل البحر يطلبان السفينة ، فمرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فحملوهم (حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها) قيل : قلع لوحا من ألواحها . وقيل لوحين مما يلى الماء . وقيل خرق جدار السفينة ليعيبها ولا يتسارع الغرق إلى أهلها (قال) موسى (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا) أى لقد أتيت أمرا عظيما : يقال أمر الأمر اذا كبر والامر الاسم منه . وقال أبو عبيدة : الامر الداهية العظيمة . وأنشد :

قد لقى الأقران منى نكرا * داهية دهيا وأمرا إمرا

وقال القتيبى : الامر العجب . وقال الأخفش أمر أمره يأمر اذا اشتد ، والاسم الامر . قرأ حمزة والكسائى (ليغرق أهلها) بالياء التحتية المفتوحة ، ورفع أهلها على أنه فاعل . وقرأ الباقون بالفوقية المضمومة ونصب أهلها على المفعولية (قال) أى الخضر (ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا) أذكره ماتقدم من قوله له سابقا (إنك لن تستطيع معى صبرا) ف(قال) له موسى (لاتؤاخذنى بما نسيت) يحتمل أن تكون مامصدرية ، أى لاتؤاخذنى بنسيانى أو موصولة أى لاتؤاخذنى بالذى نسيته ، وهو قول الخضر ـ فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا ـ فالنسيان إما على حقيقته على تقدير أن موسى نسى ذلك ، أو بمعنى الترك على تقدير أنه لم ينس ماقاله له ، ولكنه ترك العمل به (ولاترهقنى من أمرى عسرا) قال أبو زيد أرهقته عسرا إذا كلفته ذلك : والمعنى عاملنى باليسر لابالعسر . وقرئ عسرا بضمتين (فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله) أى الخضر ، ولفظ الغلام يتناول الشاب البالغ كما يتناول الصغير : قيل كان الغلام يلعب مع الصبيان فاقتلع الخضر رأسه (قال) موسى (أقتلت نفسا زاكية بغير نفس) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بألف بعد الزاى وتخفيف الياء اسم فاعل . وقرأ الباقون بتشديد الياء من دون ألف ،

الزاكية البريئة من الذنوب . قال أبو عمرو الزاكية التى لم تذنب ، والزكية التى أذنبت ثم تابت . وقال الكسائى الزاكية والزكية لغتان . وقال الفراء الزاكية والزكية مثل القاسية والقسية ، ومعنى بغير نفس بغير قتل نفس محرّمة حتى يكون قتل هذه قصاصا (لقد جئت شيئا نكرا) أى فظيعا منكرا لايعرف فى الشرع . قيل معناه أنكر من الأمر الأوّل لكون القتل لايمكن تداركه ، بخلاف نزع اللوح من السفينة فانه يمكن تداركه بارجاعه ، وقيل النكر أقلّ من الامر ، لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة ، قيل استبعد موسى أن يقتل نفسا بغير نفس ، ولم يتأوّل للخضر بأنه يحل القتل بأسباب أخر (قال) الخضر (ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا) زاد هنا لفظ لك ، لأن سبب العتاب أكثر ، وموجبه أقوى ، وقيل زاد لفظ لك لقصد التأكيد كما تقول لمن توبخه : لك أقول واياك أعنى (قال) موسى (ان سألتك عن شىء بعدها) أى بعد هذه المرّة ، أو بعد هذه النفس المقتولة (فلا تصاحبنى) أى لاتجعلنى صاحبا لك ، نهاه عن مصاحبته مع حرصه على التعلم لظهور عذره ، ولذا قال (قد بلغت من لدنى عذرا) يريد أنك قد أعذرت حيث خالفتك ثلاث مرات ، وهذا كلام نادم شديد الندامة ، اضطره الحال الى الاعتراف وسلوك سبيل الانصاف . قرأ الأعرج تصحبنى بفتح التاء والباء وتشديد النون . وقرأ الجمهور تصاحبنى . وقرأ يعقوب تصحبنى بضم التاء وكسر الحاء ، ورواها سهل عن أبى عمرو ، قال الكسائى معناه لاتتركنى أصحبك . وقرأ الجمهور لدنى بضم الدال إلا أن نافعا وعاصما خففا النون ، وشددها الباقون . وقرأ أبو بكر عن عاصم لدنى بضم اللام وسكون الدال قال ابن مجاهد وهى غلط ، قال أبو علىّ هذا التغليط لعله من جهة الرواية ، فأما على قياس العربية فصحيحة وقرأ الجمهور عذرا بسكون الذال . وقرأ عيسى بن عمر بضم الذال ، وحكى الدانى أن أبيا روى عن النبى ﷺ بكسر الراء وياء بعدها باضافة العذر الى نفسه (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية) قيل هى أيلة وقيل انطاكية . وقيل برقة : وقيل قرية من قرى أذربيجان : وقيل قرية من قرى الروم (استطعما أهلها) هذه الجملة فى محل الجر على أنها صفة لقرية ، ووضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التأكيد ، أو لكراهة اجتماع الضميرين فى هذه الكلمة لما فيه من الكلفة ، أو لزيادة التشنيع على أهل القرية باظهارهم (فأبوا أن يضيفوهما) أى أبوا أن يعطوهما ماهو حق واجب عليهم من ضيافتهما ، فمن استدل بهذه الآية على جواز السؤال وحلّ الكدية فقد أخطأ خطأ بينا ، ومن ذلك قول بعض الأدباء الذين يسألون الناس

فان رددت فما فى الردّ منقصة * علىّ قد ردّ موسى قبل والخضر

وقد ثبت فى السنة تحريم السؤال بما لايمكن دفعه من الأحاديث الصحيحة الكثيرة (فوجدا فيها) أى فى القرية (جدارا يريد أن ينقضّ) اسناد الارادة الى الجدار مجاز . قال الزجاج الجدار لايريد إرادة حقيقية الا أن هيئة السقوط قد ظهرت فيه كما تظهر أفعال المريدين القاصدين فوصف بالارادة ، ومنه قول الراعى :

فى مهمه فلقت به هاماتها * فلق الفؤوس اذا أردن نصولا

ومعنى الانقضاض السقوط بسرعة ، يقال انقضّ الحائط اذا وقع ، وانقضّ الطائر اذا هوى من طيرانه فسقط على شىء ، ومعنى فأقامه فسوّاه ، لأنه وجده مائلا فرده كما كان . وقيل نقضه وبناه . وقيل أقامه بعمود ، وقد تقدّم فى الحديث الصحيح أنه مسحه بيده (قال) موسى (لوشئت لاتخذت عليه أجرا) أى على إقامته واصلاحه ، تحريضا من موسى للخضر على أخذ الأجر . قال الفراء معناه لو شئت لم تقمه حتى يقرونا فهو الأجر ، قرأ أبو عمرو ويعقوب وابن كثير وابن محيصن واليزيدى والحسن : لتخذت يقال تخذ فلان يتخذ تخذا مثل اتخذ . وقرأ الباقون لاتخذت (قال) الخضر (هذا فراق بينى وبينك)

على

على اضافة فراق الى الظرف اتساعا . أى هذا الكلام والانكار منك على ترك الأجر هو المفرق بيننا قال الزجاج المعنى هذا فراق بيننا : أى هـذا فراق اتصالنا ، وكرر بين تأكيدا ، ولما قال الخضر لموسى بهذا أخذ فى بيان الوجه الذى فعل بسببه تلك الأفعال التى أنكرها موسى . فقال (سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) والتأويل رجوع الشيء الى مآله ، ثم شرع فى البيان له . فقال (أما السفينة) يعنى التى خرقها (فكانت لمساكين) لضعفاء لايقدرون على دفع من أراد ظلمهم (يعملون فى البحر) ولم يكن لهم مال غير تلك السفينة يكرونها من الذين يركبون البحر ويأخذون الأجرة ، وقداستدل الشافعى بهذه الآية على أن الفقير أسوأ حالا من المسكين (فأردت أن أعيبها) أى أجعلها ذات عيب بنزع مانزعته منها (وكان وراءهم ملك) قال المفسرون : يعنى أمامهم ، ووراء يكون بمعنى أمام ، وقد مرّ الكلام على هذا فى قوله ــ من ورائه عـذاب غليظ ــ ، وقيل أراد خلفهم ، وكان طريقهم فى الرجوع عليه ، وما كان عندهم خبر بأنه (يأخذ كل سفينة غصبا) أى كل سفينة صالحة لامعيبة ، وقد قرئ بزيادة صالحة روى ذلك عن أبيّ وابن عباس . وقرأ جماعة بتشديد السين من مساكين ، واختلف فى معناها : فقيل هم ملاحو السفينة ، وذلك أن المساك هو الذى يمسك السفينة ، والأظهر قراءة الجمهور بالتخفيف (وأما الغلام) يعنى الذى قتله (فكان أبواه مؤمنين) أى ولم يكن هو كذلك (فخشينا أن يرهقهما) أى يرهق الغلام أبويه ، يقال رهقه : أى غشيه ، وأرهقته أغشاه . قال المفسرون : معناه خشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه فى دينه ، وهوالكفر ، و (طغيانا) مفعول يرهقهما (وكفرا) معطوف عليه ، وقيل المعنى فخشينا أن يرهق الوالدين طغيانا عليهما وكفرا لنعمتهما بعقوقه ، قيـل ويجوز أن يكون فخشينا من كلام الله ، ويكون المعنى كرهنا كراهة من خشى سوء عاقبة أمر فغيره ، وهـذا ضعيف جدّا ، فالكلام كلام الخضر * وقد استشكل بعض أهل العلم قتل الخضر لهذا الغلام بهذه العلة ، فقيل انه كان بالغا وقد استحق ذلك بكفره ، وقيل كان يقطع الطريق فاستحق القتل لذلك ، ويكون معنى فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا : أن الخضر خاف على الأبوين أن يذبا عنه ويتعصبا له فيقعا فى المعصية ، وقد يؤدّى ذلك الى الكفر والارتداد * والحاصل أنه لا اشكال فى قتل الخضر له إذا كان بالغا كافرا أو قاطعا للطريق هذا فيما تقتضيه الشريعة الاسلامية ، ويمكن أن يكون للخضر شريعة من عنـد الله سبحانه تسوّغ له ذلك ، وأما اذا كان الغلام صبيا غير بالغ ، فقيل ان الخضر علم باعلام الله له أنه لو صار بالغا لكان كافرا يتسبب عن كفره اضلال أبويه وكفرهما ، وهذا وان كان ظاهر الشريعة الاسلامية يأباه ، فان قتل من لاذنب له ولا قد جرى عليه قلم التكليف لخشية أن يقع منه بعد بلوغه مايجوز به قتله لايحلّ فى الشريعة المحمدية ، ولكنه حلّ فى شريعة أخرى ، فلا اشكال ، وقد ذهب الجمهور الى أن الخضر كان نبيا (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منـه) قرأ الجمهور بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال . وقرأ عاصم وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بسكون الباء وتخفيف الدال ، والمعنى أردنا أن يرزقهما الله بدل هذا الولد ولدا خيرا منه (زكاة) أى دينا وصلاحا وطهارة من الذنوب (وأقرب رحما) قرأ ابن عباس وحمزة والكسائى وابن كثير وابن عامر رحما بضم الحاء . وقرأ الباقون بسكونها ، ومعنى الرحم الرحمة : يقال رحمه الله رحمة ورحمى ، والألف للتأنيث (وأما الجدار) يعنى الذى أصلحه (فكان لغلامين يتيمين فى المدينة) هى القرية المذكورة سابقا ، وفيه جواز اطلاق اسم المدينة على القرية لغة (وكان تحته كنز لهما) قيل كان مالا جسيما كما يفيده اسم الكنز ، إذ هو المال المجموع . قال الزجاج : المعروف فى اللغة أن الكنز اذا أفرد فمعناه المال المدفون ، فاذا لم يكن مالا قيل : كنز علم وكنز فهم ، وقيل لوح من ذهب ، وقيل صحف مكتوبة

(وكان أبوهما صالحا) فكان صلاحه مقتضيا لرعاية ولديه وحفظ مالهما ، قيل هو الذى دفنه ، وقيل هو الأب السابع من عند الدافن له ، وقيل العاشر (فأراد ربك) أى مالكك ومدبر أمرك ، وأضاف الرب الى ضمير موسى تشريفا له (أن يبلغا أشدّهما) أى كمالهما وتمام نموهما (ويستخرجا كنزهما) من ذلك الموضع الذى عليه الجدار ، ولو انقضّ لخرج الكنز من تحته (رحمة من ربك) لهما ، وهو مصدر فى موضع الحال : أى مرحومين من الله سبحانه (وما فعلته عن أمرى) أى عن اجتهادى ورأيى ، وهو تأكيد لما قبله ، فقد علم بقوله فأراد ربك أنه لم يفعله الخضر عن أمر نفسه (ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا) أى ذلك المذكور من تلك البيانات التى بينتها لك وأوضحت وجوهها تأويل ماضاق صبرك عنه ولم تطق السكوت عليه ، ومعنى التأويل هنا هو المآل الذى آلت اليه تلك الأمور ، وهو اتضاح ما كان مشتبها على موسى وظهور وجهه ، وحذف التاء من تسطع تخفيفا .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (لقد جئت شيئا إمرا) يقول : نكرا . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله إمرا ، قال : عجبا . وأخرج ابن جرير عن أبىّ بن كعب فى قوله (لا تؤاخذنى بما نسيت) قال لم ينس ، ولكنها من معاريض الكلام . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : كان الخضر عبدا لاتراه الأعين الا من أراد الله أن يريه إياه ، فلم يره من القوم الا موسى ، ولو رآه القوم لحالوا بينه وبين خرق السفينة وبين قتل الغلام * وأقول ينبغى أن ينظر من أين له هذا ؟ فان لم يكن مستنده الا قوله : ولو رآه القوم الخ ، فليس ذلك بموجب لما ذكره ، أما أوّلا فان من الجائز أن يفعل ذلك من غير أن يراه أهل السفينة وأهل الغلام ، لا لكونه لاتراه الأعين ، بل لكونه فعل ذلك من غير اطلاعهم ، وأما ثانيا فيمكن أن أهل السفينة وأهل الغلام قد عرفوه وعرفوا أنه لايفعل ذلك الا بأمر من الله كما يفعل الأنبياء ، فسلموا لأمر الله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (نفسا زاكية) قال مسلمة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ، قال لم تبلغ الخطايا . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الحسن نحوه . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (شيئا نكرا) قال : النكر أنكر من العجب . وأخرج أحمد عن عطاء قال : كتب نجدة الحرورى الى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان ، فكتب اليه ان كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم ، وزاد ابن أبى شيبة من طريق أخرى عنه ، ولكنك لا تعلم ، قد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم فاعتزلهم . وأخرج مسلم وأبو داود والترمذى وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وابن مردويه عن أبىّ بن كعب عن النبى ﷺ قال الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا ولو أدرك لأرهق أبويه طغيانا وكفرا . وأخرج أبو داود والترمذى وعبدالله بن أحمد والبزار وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عن أبىّ أن النبى ﷺ قرأ (من لدنى عذرا) مثقلة . وأخرج ابن مردويه عن أبىّ أن النبى ﷺ قرأ (أن يضيفوهما) مشددة . وأخرج ابن الأنبارى فى المصاحف وابن مردويه عن أبىّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قرأ (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقضّ) فهدمه ، ثم قعد يبنيه * قلت ورواية الصحيحين التى قدّمناها أنه مسحه بيده أولى . وأخرج الفريابى فى معجمه وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبىّ أن النبى ﷺ قرأ (لو شئت لتخذت عليه أجرا) مخففة . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والترمذى والنسائى والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر لقصّ الله

علينا

XVIII ٩٢-٩٦

علينا من خبره ، ولكن (قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني) ، وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقرأ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا . وأخرج ابن الانبارى عن أبيّ بن كعب أنه قرأها كذلك . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن أبي الزاهرية ، قال كتب عثمان ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الانبارى عن ابن عباس أنه كان يقرأ ، وأما الغلام فكان كافرا ، وكان أبواه مؤمنين . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال هي في مصحف عبد الله فخاف ربك أن يرهقهما طغيانا وكفرا . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (خيرا منه زكاة) قال : دينا (وأقرب رحما) قال : مودّة ، فأبدلا جارية ولدت نبيا . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (وكان تحته كنز لهما) قال كان الكنز لمن قبلنا وحرّم علينا ، وحرّمت الغنيمة على من كان قبلنا وأحلت لنا ، فلا يعجبنّ الرجل ، فيقول فما شأن الكنز ، أحلّ لمن قبلنا وحرّم علينا ، فان الله يحلّ من أمره مايشاء ، ويحرّم مايشاء ، وهي السنن والفرائض ، يحلّ لأمة ويحرّم على أخرى . وأخرج البخارى في تاريخه والترمذى وحسنه والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في قوله (وكان تحته كنز لهما) قال ذهب وفضة . وأخرج الطبرانى عن أبي الدرداء في قوله ، وكان تحته كنز لهما : قال أحلت لهم الكنوز ، وحرّمت عليهم الغنائم ، وأحلت لنا الغنائم ، وحرّمت علينا الكنوز . وأخرج البزار وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي ذرّ رفعه . قال : ان الكنز الذى ذكره الله في كتابه لوح من ذهب مصمت فيه : عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب ، وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك ، وعجبت لمن ذكر الموت ثم غفل لا إله الا الله محمد رسول الله ، وفي نحو هذا روايات كثيرة لاتتعلق بذكرها فائدة . وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وأحمد في الزهد والحميدى في مسنده وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله (وكان أبوهما صالحا) قال حفظا بصلاح أبيهما . وأخرج ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « ان الله عز وجل يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده وولد ولده وأهل دويرته وأهل دويرات حوله ، فما يزالون في حفظ الله تعالى مادام فيهم » . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال ان الله يصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده ويحفظه في دويرته ، والدويرات حوله ، فما يزالون في ستر من الله وعافية . وأخرج ابن جرير من طريق الحسن ابن عمارة عن أبيه ، قال قيل لابن عباس لم نسمع لفتى موسى بذكر ، وقد كان معه ، فقال ابن عباس قال فيما يذكر من حديث الفتى أنه شرب من الماء فخلد فأخذه العالم فطابق به سفينة ثم أرسله في البحر فانها لتموج به الى يوم القيامة ، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه . قال ابن كثير اسناده ضعيف ، الحسن متروك وأبوه غير معروف .

وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً

XVIII

ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۞ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۞ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۞

لما أجاب سبحانه عن سؤالين من سؤالات اليهود ، وانتهى الكلام الى حيث انتهى شرع سبحانه فى السؤال الثالث والجواب عنه ، فالمراد بالسائلين هنا هم اليهود ،

واختلفوا فى ذى القرنين اختلافا كثيرا فقيل هو الاسكندر بن فيلقوس الذى ملك الدنيا بأسرها اليونانى بانى الاسكندرية ، وقال ابن اسحق هو رجل من أهل مصر : اسمه مرزبان بن مرزبة اليونانى : من ولد يونان بن يافث بن نوح ، وقيل هو ملك اسمه هرمس ، وقيل ملك اسمه هرديس ، وقيل شاب من الروم ، وقيل كان نبيا وقيل كان عبدا صالحا ، وقيل اسمه عبد الله بن الضحاك ، وقيل مصعب بن عبد الله : من أولاد كهلان بن سبأ وحكى القرطبى عن السهيلى أنه قال : ان الظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان : أحدهما كان على عهد إبراهيم عليه السلام ، والآخر كان قريبا من عيسى عليه السلام ، وقيل هو أبو كرب الحميرى ، وقيل هو ملك من الملائكة ، ورجح الرازى القول الأول ، قال لأن من بلغ ملكه من السعة والقوة الى الغاية التى نطق بها التنزيل ، انما هو الاسكندر اليونانى كما تشهد به كتب التاريخ ، قال فوجب القطع بأن ذا القرنين هو الاسكندر ، قال وفيه إشكال لانه كان تلميذا لارسطاطاليس الحكيم ، وكان على مذهبه ، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب إرسطاطاليس حق وصدق ، وذلك مما لاسبيل اليه . قال النيسابورى قلت ليس كل ما ذهب اليه الفلاسفة باطلا ، فلعله أخذ منهم ما صفا وترك ما كدر والله أعلم ، ورجح ابن كثير ما ذكره السهيلى أنهما اثنان كما قدمنا ذلك ، وبين أن الأول طاف بالبيت مع إبراهيم أول ما بناه وآمن به واتبعه وكان وزيره الخضر ، وأما الثانى فهو الاسكندر المقدونى اليونانى ، وكان وزيره الفيلسوف المشهور إرسطاطاليس ، وكان قبل المسيح بنحو من ثلثمائة سنة ، فأما الأول المذكور فى القرآن فكان فى زمن الخليل ، هذا معنى ما ذكره ابن كثير فى تفسيره راويا له عن الأزرقى وغيره ، ثم قال وقد ذكرنا طرفا صالحا فى أخباره فى كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية ۞ وحكى أبو السعود فى تفسيره عن ابن كثير أنه قال وانما بينا هذا : يعنى أنهما اثنان ، لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد ، وأن المذكور فى القرآن العظيم هو هذا المتأخر ، فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير : كيف لا ، والأول كان عبدا صالحا مؤمنا ، وملكا عادلا ، ووزيره الخضر ، وقد قيل انه كان نبيا ، وأما الثانى فقد كان كافرا ، ووزيره إرسطاطاليس الفيلسوف ، وكان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفى سنة ، فأين هذا من ذاك ؟ انتهى ۞ قلت لعله ذكر هذا فى الكتاب الذى ذكره سابقا ، وسماه بالبداية والنهاية ولم يقف عليه ، والذى يستفاد من كتب التاريخ هو أنهما اثنان كما ذكره السهيلى والأزرقى وابن كثير وغيرهم لا كما ذكره الرازى وادعى أنه الذى تشهد به كتب التواريخ ، وقد وقع الخلاف هل هو نبى أم لا ؟ وسيأتى ما يستفاد منه المطلوب آخر هذا البحث إن شاء الله .

وأما السبب الذى لأجله سمى ذا القرنين ، فقال الزجاج والأزهرى : انما سمى ذا القرنين ، لأنه بلغ قرن الشمس من مطلعها ، وقرن الشمس من مغربها ، وقيل انه كان له ضفيرتان من شعر ، والضفائر تسمى قرونا ، ومنه قول الشاعر :

فلثمت فاها آخذا بقرونها ۞ شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

والحشرج ماء من مياه العرب ، وقيل انه رأى فى أوّل ملكه كأنه قابض على قرنى الشمس ، فسمى بذلك ، وقيل كان له قرنان تحت عمامته ، وقيل انه دعا الى الله ، فشجه قومه على قرنه ، ثم دعا الى الله ، فشجوه على قرنه الآخر ، وقيل انما سمى بذلك ، لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه ، وقيل لأنه انقرض فى وقته قرنان من الناس وهو حىّ ، وقيل لأنه كان اذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعا ، وقيل لأنه أعطى علم الظاهر والباطن ، وقيل لأنه دخل النور والظلمة ، وقيل لأنه ملك فارس والروم ، وقيل لأنه ملك الروم والترك ، وقيل لأنه كان لتاجه قرنان * قوله (قل سأتلوا عليكم منه ذكرا) أى سأتلو عليكم أيها السائلون من ذى القرنين خبرا ، وذلك بطريق الوحى المتلوّ * ثم شرع سبحانه فى بيان ما أمر به رسوله أن يقوله لهم من أنه سيتلو عليهم منه ذكرا ، فقال (إنا مكنا له فى الأرض) أى أقدرناه بما مهدنا له من الأسباب ، فجعلنا له مكنة وقدرة على التصرف فيها ، وسهل عليه المسير فى مواضعها ، وذلل له طرقها حتى تمكن منها أين شاء وكيف شاء ؟ ومن جملة تمكينه فيها أنه جعل له الليل والنهار سواء فى الاضاءة (وآتيناه من كل شىء) مما يتعلق بمطلوبه (سببا) أى طريقا يتوصل بها الى ما يريده (فأتبع سببا) من تلك الأسباب . قال المفسرون والمعنى طريقا تؤدّيه الى مغرب الشمس قال الزجاج فأتبع سببا من الأسباب التى أوتى ، وذلك أنه أوتى من كل شىء سببا فأتبع من تلك الأسباب التى أوتى سببا فى المسير الى المغرب ، وقيل أتبع من كل شىء علما يتسبب به الى ما يريد ، وقيل بلاغا الى حيث أراد ، وقيل من كل شىء يحتاج اليه الخلق ، وقيل من كل شىء تستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء * وأصل السبب الحبل فاستعير لكل ما يتوصل به الى الشىء . قرأ ابن عامر وأهل الكوفة وعاصم وحمزة والكسائى فأتبع بقطع الهمزة ، وقرأ أهل المدينة وأهل مكة وأبو عمرو بوصلها . قال الأخفش تبعته وأتبعته بمعنى : مثل ردفته وأردفته ، ومنه قوله ـ فأتبعه شهاب ثاقب ـ قال النحاس واختار أبو عبيدة قراءة أهل الكوفة ، قال لأنها من السير ، وحكى هو والأصمعى أنه يقال : تبعته وأتبعته اذا سار ولم يلحقه وأتبعه اذا لحقه . قال أبو عبيدة ، ومثله ـ فأتبعوهم مشرقين ـ . قال النحاس وهذا من الفرق وان كان الأصمعى قد حكاه فلا يقبل الا بعلم أو دليل ، وقوله عز وجل ـ فأتبعوهم مشرقين ـ ليس فى الحديث أنهم لحقوهم ، وانما الحديث لما خرج موسى وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه فى البحر انطبق عليهم البحر * والحق فى هذا أن تبع واتبع وأتبع لغات بمعنى واحد ، وهو بمعنى السير (حتى اذا بلغ مغرب الشمس) أى نهاية الارض من جهة المغرب ، لان من وراء هذه النهاية البحر المحيط ، وهو لا يمكن المضىّ فيه (وجدها تغرب فى عين حمئة) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى حامية : أى حارة ، وقرأ الباقون حمئة : أى كثيرة الحمأة ، وهى الطينة السوداء تقول : حمئت البئر حمأ بالتسكين إذا نزعت حمأتها ، وحمأت البئر حمأ بالتحريك كثرت حمأتها ، ويجوز أن تكون حامية من الحمأة ، فخففت الهمزة وقلبت ياء ، وقد يجمع بين القراءتين : فيقال كانت حارة وذات حمأة * قيل ولعل ذا القرنين لما بلغ ساحل البحر المحيط رآها كذلك فى نظره ، ولا يبعد أن يقال لامانع من أن يمكنه الله من عبور البحر المحيط حتى يصل الى تلك العين التى تغرب فيها الشمس ، وما المانع من هذا بعد أن حكى الله عنه أنه بلغ مغرب الشمس ، ومكن له فى الأرض والبحر من جملتها ، ومجرد الاستبعاد لا يوجب حمل القرآن على خلاف ظاهره (ووجد عندها قوما) الضمير فى عندها إما للعين أو للشمس : قيل هم قوم لباسهم جلود الوحش ، وكانوا كفارا ، فخيره الله بين أن يعذبهم وبين أن يتركهم ، فقال (إما أن تعذب ، وإما أن تتخذ فيهم حسنا) أى إما أن تعذبهم بالقتل من أوّل الأمر ، وإما أن تتخذ فيهم أمرا

ذا حسن أو أمرا حسنا مبالغة بجعل المصدر صفة للأمر ، والمراد دعوتهم الى الحق وتعليمهم الشرائع . (قال) ذو القرنين مختارا للدعوة التى هى الشق الأخير من الترديد (أما من ظلم) نفسه بالاصرار على الشرك ، ولم يقبل دعوتى (فسوف نعذبه) بالقتل فى الدنيا (ثم يردّ الى ربه) فى الآخرة (فيعذبه) فيها (عذابا نكرا) أى منكرا فظيعا . قال الزجاج خيره الله بين الأمرين . قال النحاس وردّ علىّ بن سليمان قوله لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبىّ فيخاطب بهذا ، فكيف يقول لربه عز وجل ، ثم يردّ الى ربه ، وكيف يقول ، فسوف نعذبه فيخاطبه بالنون ، قال والتقدير قلنا يامحمد قالوا ياذا القرنين . قال النحاس وهذا الذى ذكره لايلزم لجواز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبىّ فى وقته ، وكأنّ ذا القرنين خاطب أولئك القوم فلا يلزم ماذكره ، ويمكن أن يكون مخاطبا للنبىّ الذى خاطبه الله على لسانه ، أوخاطب قومه الذين وصل بهم الى ذلك الموضع . قال ثعلب : أن فى قوله : إما أن تعذب وإما أن تتخذ فى موضع نصب ، ولو رفعت لكان صوابا بمعنى فأما هو كقول الشاعر :

فسيروا فاما حاجة تقضيانها ◊ وإما مقيل صالح وصديق

(وأما من آمن) بالله وصدّق دعوتى (وعمل) عملا (صالحا) مما يقتضيه الايمان (فله جزاء الحسنى) قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم وابن كثير وابن عامر ، فله جزاء بالرفع على الابتداء : أى جزاء الخصلة الحسنى عند الله ، أو الفعلة الحسنى ، وهى الجنة . قاله الفراء ، واضافة الجزاء الى الحسنى التى هى الجنة كاضافة حق اليقين ودار الآخرة ، ويجوز أن يكون هذا الجزاء من ذى القرنين : أى أعطيه وأتفضل عليه ، وقرأ سائر الكوفيين ، فله جزاء الحسنى بنصب جزاء وتنوينه . قال الفراء انتصابه على التمييز ، وقال الزجاج هو مصدر فى موضع الحال : أى مجزيا بها جزاء . وقرأ ابن عباس ومسروق بنصب جزاء من غير تنوين . قال أبو حاتم هى على حذف التنوين لالتقاء الساكنين . قال النحاس وهذا عند غيره خطأ لانه ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين ، وقرئ برفع جزاء منونا على أنه مبتدأ ، والحسنى بدل منه والخبر الجارّ والمجرور (وسنقول له من أمرنا يسرا) أى مما نأمر به قولا ذا يسر ليس بالصعب الشاق ، أوأطلق عليه المصدر مبالغة (ثم أتبع سببا) أى طريقا آخر غير الطريق الأولى ، وهى التى رجع بها من المغرب وسار فيها الى المشرق (حتى اذا بلغ مطلع الشمس) أى الموضع الذى تطلع عليه الشمس أوّلا من معمور الأرض ، أو مكان طلوعها لعدم المانع شرعا ولا عقلا من وصوله اليه كما أوضحناه فيما سبق (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) يسترهم ، لامن البيوت ولا من اللباس ، بل هم حفاة عراة لا يأوون الى شىء من العمارة : قيل لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقرّ عليها البناء (كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا) أى كذلك أمر ذى القرنين أتبع هذه الأسباب حتى بلغ ، وقد علمنا حين ملكناه ماعنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به ، وقيل المعنى لم نجعل لهم سترا مثل ذلك الستر الذى جعلنا لكم من الأبنية والثياب ، وقيل المعنى كذلك بلغ مطلع الشمس مثل مابلغ من مغربها ، وقيل المعنى كذلك تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم ، فقضى فى هؤلاء كما قضى فى أولئك من تعذيب الظالمين والاحسان الى المؤمنين ، ويكون تأويل الاحاطة بما لديه فى هذه الوجوه على ما يناسب ذلك كما قلنا فى الوجه الأوّل .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال : قالت اليهود للنبى ﷺ يامحمد انك انما تذكر ابراهيم وموسى وعيسى والنبيين انك سمعت ذكرهم منا ، فأخبرنا عن نبىّ لم يذكره الله فى التوراة الا فى مكان واحد ، قال ومن هو ؟ قالوا ذو القرنين ، قال مابلغنى عنه شىء فخرجوا فرحين قد غلبوا فى أنفسهم ، فلم

يبلغوا

يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات ويسألونك عن ذى القرنين . وأخرج عبدالرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبى هريرة قال « قال رسول الله ﷺ ماأدرى أتبع كان نبياأم لا ؟ وماأدرى أذوالقرنين كان نبياأم لا ، وماأدرى الحدود كفارات لأهلها أم لا ؟ » . وأخرج ابن مردويه عن سالم بن أبى الجعد قال : سئل علىّ عن ذى القرنين أنبىّ هو ؟ قال سمعت نبيكم ﷺ يقول : هو عبد ناصح الله فنصحه . وأخرج ابن عبد الحكم فى فتوح مصر وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى المصاحف وابن أبى عاصم فى السنة وابن مردويه من طريق أبى الطفيل أن ابن الكواء سأل علىّ بن أبى طالب عن ذى القرنين أنبيا كان أم ملكا ؟ قال لم يكن نبيا ولا ملكا ، ولكن كان عبداصالحا أحب الله فأحبه الله ، ونصح لله فنصحه الله ؛ بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه فمات ، ثم أحياه الله لجهادهم ، ثم بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه الآخر فمات ، فأحياه الله لجهادهم ، فلذلك سمى ذا القرنين ، وان فيكم مثله . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عمرو قال : ذوا القرنين نبىّ . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأحوص بن حكيم عن أبيه أن النبى ﷺ سئل عن ذى القرنين ؟ فقال هو ملك مسح الأرض بالأسباب . وأخرج ابن عبد الحكم فى فتوح مصر وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن خالد بن معدان الكلاعى مرفوعا مثله . وأخرج ابن عبد الحكم وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى كتاب الاضداد وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب أنه سمع رجلا ينادى يمنى ياذا القرنين ، فقال عمر ها أنتم قد سميتم بأسماء الأنبياء فما بالكم وأسماء الملائكة ، وفى الباب غير ماذكرناه مما يغنى عنه ماقد أوردناه ، وقد أخرج ابن عبدالحكم فى فتوح مصر وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى فى الدلائل عن عقبة بن عامر الجهنى حديثا يتضمن أن نفرا من اليهود سألوا النبى ﷺ عن ذى القرنين ، فأخبرهم بما جاءوا له ابتداء ، وكان فيما أخبرهم به أنه كان شابا من الروم ، وأنه بنى الاسكندرية ، وأنه علا به ملك فى السماء ، وذهب به إلى السدّ ، وإسناده ضعيف ، وفى متنه نكارة ، وأكثر مافيه أنه من أخبار بنى إسرائيل ، ذكر معنى هذا ابن كثير فى تفسيره وعزاه الى ابن جرير والأموى فى مغازيه ، ثم قال بعد ذلك والعجب أن أبا زرعة الدارى مع جلالة قدره ساقه بتمامه فى كتابه دلائل النبوّة انتهى ، وقد ساقه بتمامه السيوطى فى الدر المنثور ، وساق أيضا خبرا طويلا عن وهب بن منبه وعزاه الى ابن اسحق وابن المنذر وابن أبى حاتم والشيرازى فى الألقاب وأبى الشيخ ، وفيه أشياء منكرة جدّا ، وكذلك ذكر خبرا طويلا عن محمد الباقر أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، ولعل هذه الأخبار ونحوها منقولة عن أهل الكتاب ، وقد أمرنا بأن لانصدقهم ولا نكذبهم فيما ينقلونه الينا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وآتيناه من كل شىء سببا) قال علما . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن أبى هلال أن معاوية بن أبى سفيان قال لكعب الأحبار أنت تقول ان ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا ، قال له كعب ان كنت قلت ذلك فان الله قال وآتيناه من كل شىء سببا . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عثمان بن أبى حاضر أن ابن عباس ذكر له أن معاوية بن أبى سفيان ، قرأ الآية التى فى سورة الكهف (تغرب فى عين حامية) قال ابن عباس : فقلت لمعاوية ماتقرؤها الا حمئة فسأل معاوية عبد الله بن عمرو كيف تقرؤها ، فقال عبد الله كما قرأتها ، قال ابن عباس : فقلت لمعاوية فى بيتى نزل القرآن ، فأرسل الى كعب ، فقال له أين تجد الشمس تغرب فى التوراة ، فقال له كعب : سل أهل العربية ، فانهم أعلم بها ، وأما أنا فانى أجد فى التوراة فى ماء وطين ، وأشار بيده إلى المغرب . قال ابن أبى حاضر : لوأنى عندكما أيدتك بكلام تزداد به بصيرة فى حمئة . قال ابن عباس :

XVIII 91-99

وما هو ؟ قلت : فيما نأثر قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين فى كلفه بالعلم واتباعه إياه :

قد كان ذو القرنين عمر مسلما * ملكا تذل له الملوك وتحشد
فأتى المشارق والمغارب يبتغى * أسباب ملك من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها * فى عين ذى خلب وثاط حرمد

فقال ابن عباس : ما الخلب ؟ قلت : الطين بكلامهم . قال فما الثاط ؟ قلت : الحمأة . قال فما الحرمد ؟ قلت : الأسود ، فدعا ابن عباس غلاما ، فقال اكتب مايقول هذا الرجل . وأخرج الترمذى وأبو داود الطيالسى وابن جرير وابن المنذر عن أبى بن كعب أن النبى ﷺ « كان يقرأ فى عين حمئة » . وأخرج الطبرانى والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا مثله .

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكًّا وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا *

ثم حكى سبحانه سفر ذى القرنين إلى ناحية أخرى ، وهى ناحية القطر الشمالى بعد تهيئة أسبابه ، فقال (ثم اتبع سببا) أى طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب (حتى اذا بلغ بين السدّين) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص وابن محيصن ويحيى اليزيدى وأبو زيد عن المفضل بفتح السين . وقرأ الباقون بضمها . قال أبو عبيدة وابن الأنبارى وأبو عمرو بن العلاء : السد ان كان بخلق الله سبحانه فهو بضم السين حتى يكون بمعنى مفعول : أى هو مما فعله الله وخلقه ، وان كان من عمل العباد فهو بالفتح حتى يكون حدثا ، وقال ابن الأعرابى : كل ماقابلك فسدّ ماوراءه فهو سدّ وسد نحو الضعف والضعف ، والفقر والفقر ، والسدّان هما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان ، وانتصاب بين على أنه مفعول به كما ارتفع بالفاعلية فى قوله ـ لقد تقطع بينكم ـ ، وقيل موضع بين السدّين هو منقطع أرض الترك مما يلى المشرق لاجبلا أرمينية وأذربيجان ، وحكى ابن جرير فى تاريخه أن صاحب اذربيجان أيام فتحها وجه انسانا من ناحية الخزر فشاهده ، ووصف أنه بنيان رفيع وراءه خندق وثيق منيع ، و (وجد من دونهما) أى من ورائهما مجاوزا عنهما ، وقيل أمامهما (قوما لا يكادون يفقهون قولا) قرأ حمزة والكسائى يفقهون بضم الياء وكسر القاف من أفقه اذا أبان : أى لايبينون لغيرهم كلاما ، وقرأ الباقون بفتح الياء والقاف : أى لايفهمون كلام غيرهم ، والقراءتان صحيحتان ، ومعناهما لايفهمون عن غيرهم ولايفهمون غيرهم ، لأنهم لايعرفون غير لغة أنفسهم (قالوا) أى هؤلاء القوم الذين لايفهمون قولا ، قيل ان فهم ذى القرنين لكلامهم من جملة الأسباب التى أعطاه الله ، وقيل انهم قالوا ذلك لترجمانهم ، فقال لذى القرنين عما قالوا له (ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض) يأجوج ومأجوج اسمان عجميان بدليل منع صرفهما

وبه قال الأكثر ، وقيل مشتقان من أج الظليم فى مشيه اذا هرول ، وتأججت النار اذا تلهبت ، قرأهما الجمهور بغير همز ، وقرأ عاصم بالهمز . قال ابن الأنبارى : وجه همزهما وان لم يعرف له أصل أن العرب قد همزت حروفا لايعرف للهمزفيها أصل كقولهم : كبأث ورثأث واستشأث الريح . قال أبو على : يجوزأن يكونا عربيين ، فمن همز فهو على وزن يفعول مثل يربوع ، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقلبها ألفا مثل راس ، أما مأجوج ، فهو مفعول من أج ، والكلمتان من أصل واحد فى الاشتقاق . قال وترك الصرف فيهما على تقدير كونهما عربيين للتأنيث والتعريف كأنه اسم للقبيلة .

واختلف فى نسبهم ، فقيل هم من ولد يافث بن نوح ، وقيل يأجوج من الترك ، ومأجوج من الجيل والديلم . وقال كعب الأحبار : احتلم آدم فاختلط ماؤه بالتراب فخلقوا من ذلك الماء ، قال القرطبى : وهذا فيه نظر ، لأن الأنبياء لايحتلمون ، وانما هم من ولد يافث كذلك قال مقاتل وغيره .

وقد وقع الخلاف فى صفتهم ، فمن الناس من يصفهم بصغر الجثث وقصر القامة ، ومنهم من يصفهم بكبر الجثث وطول القامة ، ومنهم من يقول لهم مخالب كمخالب السباع ، وان منهم صنفا يفترش احدى أذنيه ويلتحف بالأخرى ، ولأهل العلم من السلف ومن بعدهم أخبار مختلفة فى صفاتهم وأفعالهم .

واختلف فى افسادهم فى الأرض ، فقيل هو أكل بنى آدم ، وقيل هوالظلم ، والغشم ، والقتل وسائر وجوه الافساد ، وقيل كانوا يخرجون إلىأرض هؤلاء القوم الذين شكوهم إلى ذىالقرنين فى أيام الربيع فلا يدعون فيها شيئا أخضر إلا أكلوه (فهل نجعل لك خرجا) هـذا الاستفهام من باب حسن الأدب مع ذى القرنين . وقرىء خراجا . قال الأزهرى : الخراج يقع على الضريبة ويقع على مال الفيء ، ويقع على الجزية وعلى الغلة . والخراج أيضا اسم لما يخرج من الفرائض فى الأموال ، والخرج المصدر ، وقال قطرب : الخرج الجزية والخراج فى الأرض ، وقيل الخرج مايخرجه كل أحد من ماله ، والخراج مايجبيه السلطان ، وقيل هما بمعنى واحد (على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) أى ردما حاجزا بيننا وبينهم . وقرىء سدا بفتح السين . قال الخليل وسيبويه : الضم هو الاسم ، والفتح المصدر . وقال الكسائى : الفتح والضم لغتان بمعنى واحد ، وقدسبق قريبا ماحكيناه عن أبى عمرو بن العلاء وأبى عبيدة وابن الانبارى من الفرق بينهما . وقال ابن أبى اسحق : مارأته عيناك فهو سدّ بالضم ، وما لا ترى فهو سدّ بالفتح ، وقد قدّمنا بيان من قرأ بالفتح وبالضم فى السدّين (قال مامكنى فيه ربى) أى قال لهم ذو القرنين مابسطه الله لى من القدرة والملك (خير) من خرجكم ، ثم طلب منهم المعاونة له فقال (فأعينونى بقوة) أى برجال منكم يعملون بأيديهم ، أو أعينونى بآلات البناء ، أو بمجموعهما . قال الزجاج بعمل تعملونه معى ، قرأ ابن كثير وحده ما مكننى بنونين ، وقرأ الباقون بنون واحدة (أجعل بينكم وبينهم ردما) هذا جواب الأمر ، والردم : ماجعل بعضه على بعض حتى يتصل . قال الهروى ، يقال ردمت الثلمة أردمها بالكسر ردما : أى سددتها ، والردم أيضا : الاسم ، وهو السدّ ، وقيل الردم أبلغ من السدّ ، إذ السدّ كل مايسدّ به ، والردم : وضع الشىء على الشىء من حجارة ، أو تراب ، أو نحوهما حتى يقوم من ذلك حجاب منيع ، ومنه ردم ثوبه : إذا رقعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض ، ومنه قول عنترة : ❊ هل غادر الشعراء من متردم ❊

أى من قول يركب بعضه على بعض (آتونى زبر الحديد) أى أعطونى وناولونى ، وزبر الحديد جمع زبرة ، وهى القطعة . قال الخليل الزبرة من الحديد : القطعة الضخمة . قال الفراء : معنى « آتونى زبر الحديد » ائتونى بها ، فلما ألقيت الياء زيدت ألفا ، وعلى هذا فانتصاب زبر بنزع الخافض (حتى إذا ساوى بين الصدفين) والصدفان : جانبا الجبل . قال الأزهرى : يقال لجانبي الجبل صدفان اذا تحاذيا لتصادفهما :

أى تلاقيهما ، وكذا قال أبو عبيدة والهروى . قال الشاعر :

كلا الصدفين ينفذه سناها ❊ توقد مثل مصباح الظلام

وقد يقال لكل بناء عظيم مرتفع صدف : قاله أبو عبيدة ، قرأ نافع وحمزة والكسائى وحفص الصدفين بفتح الصاد والدال ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو و يعقوب واليزيدى وابن محيصن بضم الصاد والدال . وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر بضم الصاد وسكون الدال . وقرأ ابن الماجشون بفتح الصاد وضم الدال ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد لأنها أشهر اللغات ، ومعنى الآية : أنهم أعطوه زبر الحديد ، فجعل يبنى بها بين الجبلين حتى ساواهما (قال انفخوا) أى قال للعملة انفخوا على هذه الزبر بالكيران (حتى إذا جعله نارا) أى جعل ذلك المنفوخ فيه ، وهو الزبر نارا : أى كالنار فى حرّها واسناد الجعل إلى ذى القرنين مجاز لكونه الآمر بالنفخ ، قيل كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة ، ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى ، والحديد اذا أوقد عليه صار كالنار ، ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة ، وهو معنى قوله (قال آتونى أفرغ عليه قطرا) قال أهل اللغة القطر : النحاس الذائب ، والافراغ : الصب ، وكذا قال أكثر المفسرين . وقالت طائفة القطر : الحديد المذاب . وقالت فرقة أخرى : منهم ابن الانبارى هو الرصاص المذاب (فما اسطاعوا) أصله استطاعوا ، فلما اجتمع المتقاربان ، وهما التاء والطاء خففوا بالحذف . قال ابن السكيت ، يقال ما استطيع ، وما أسطيع ، وما أستيع ، و بالتخفيف قرأ الجمهور ، وقرأ حمزة وحده : فما اسطاعوا بتشديد الطاء كأنه أراد استطاعوا فأدغم التاء فى الطاء ، وهى قراءة ضعيفة الوجه . قال أبو على الفارسى : هى غير جائزة . وقرأ الأعمش فما استطاعوا على الأصل ، ومعنى (أن يظهروه) أن يعلوه : أى فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا على ذلك الردم لارتفاعه وملاسته (وما استطاعوا له نقبا) يقال نقبت الحائط : إذا خرقت فيه خرقا ، نخلص إلى ماوراءه . قال الزجاج : ماقدروا أن يعلوا عليه لارتفاعه وانملاسه ، وما استطاعوا أن ينقبوه من أسفله لشدّته وصلابته (قال هذا رحمة من ربى) أى قال ذو القرنين مشيرا الى السدّ : هذا السدّ رحمة من ربى : أى أثر من آثار رحمته لهؤلاء المتجاوزين للسدّ ولمن خلفهم ممن يخشى عليه معرتهم لولم يكن ذلك السدّ ، وقيل الاشارة الى التمكين من بنائه (فاذا جاء وعد ربى) أى أجل ربى أن يخرجوا منه ، وقيل هو مصدر بمعنى المفعول ، وهو يوم القيامة (جعله دكاء) أى مستويا بالأرض ، ومنه قوله — حتى إذا دكت الأرض دكا — . قال الترمذى أى مستويا ، يقال ناقة دكاء : إذا ذهب سنامها . وقال القتبى أى جعله مدكوكا ملصقا بالأرض . وقال الحليمى قطعا متكسرا . قال الشاعر : ❊ هل غير غار دك غارا فانهدم ❊ قال الأزهرى : دككته : أى دققته ومن قرأ دكاء بالمد ، وهو عاصم وحمزة والكسائى أراد التشبيه بالناقة الدكاء ، وهى التى لاسنام لها : أى مثل دكاء ، لأن السدّ مذكر ، فلا يوصف بدكاء . وقرأ الباقون دكا بالتنوين على أنه مصدر ، ومعناه ماتقدم ، ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الحال : أى مدكوكا (وكان وعد ربى حقا) أى وعده بالثواب والعقاب ، أو الوعد المعهود حقا ثابتا لايتخلف ، وهذا آخر قول ذى القرنين .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (حتى اذا بلغ بين السدّين) قال الجبلين : أرمينية وأذربيجان . وأخرج أيضا عن ابن جريج (لايكادون يفقهون قولا) قال : الترك . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال : يأجوج ومأجوج شبر وشبران ، وأطولهم ثلاثة أشبار ، وهم من ولد آدم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى البعث وابن عساكر عن ابن عمرو عن النبى ﷺ قال « ان يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولو

أرسلوا

أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم ، ولا يموت منهم رجل الاترك من ذريته ألفا فصاعدا ، وان من ورائهم ثلاث أمم ، تاويل ، وتاريس ، ومنسك » . وأخرج النسائى من حديث عمرو بن أوس عن أبيه مرفوعا « أنه لايموت رجل منهم الا ترك من ذريته ألفا فصاعدا » . وأخرج أحمد والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن أبى حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال « ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض يحفرون السد كل يوم حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس . قال الذى عليهم ارجعوا فستفتحونه غدا ، فيعودون اليه أشدّ ما كان حتى اذا بلغت مدتهم ، وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم ارجعوا ، فستفتحونه غدا ان شاء الله ويستثنى ، فيعودون اليه ، وهو كهيئته حين تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس فيستقون المياه ، ويتحصن الناس منهم فى حصونهم ، فيرمون بسهامهم الى السماء ، فترجع مخضبة بالدماء ، فيقولون قهرنا من فى الأرض وعلونا من فى السماء قسرا وعلوا ، فيبعث الله عليهم نغفا فى أقفائهم فيهلكون ، قال رسول الله ﷺ فوالذى نفس محمد بيده ان دواب الأرض لتسمن وتبطر وتشكر شكرا من لحومهم ، وقد ثبت فى الصحيحين من حديث زينب بنت جحش قالت « استيقظ رسول الله ﷺ من نومه وهو محمرّ وجهه ، وهو يقول لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق ، قلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال نعم : اذا كثر الخبث » . وأخرجا نحوه من حديث أبى هريرة مرفوعا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فهل نجعل لك خرجا) قال : أجرا عظيما وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله (ردما) قال : هو كأشد الحجاب . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (زبر الحديد) قال : قطع الحديد . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه بين الصدفين . قال الجبلين . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : رؤوس الجبلين . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس فى قوله (قطرا) قال النحاس . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة فما استطاعوا أن يظهروه قال أن يرتقوه . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : أن يعلوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (جعله دكاء) قال : لا أدرى الجبلين يعنى به أم بينهما .

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا * وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا * أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا * قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا *

قوله (وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض) هذا من كلام الله سبحانه بعد انقضاء كلام ذى القرنين ، والضمير فى بعضهم ليأجوج ومأجوج : أى تركنا بعض يأجوج ومأجوج يوم مجىء الوعد ، أو يوم

خروج يأجوج ومأجوج يموج فى بعض آخر منهم : يقال ماج الناس اذا دخل بعضهم فى بعض حيارى كموج الماء * والمعنى أنهم يضطربون ويختلطون ، وقيل الضمير فى بعضهم للخلق ، واليوم يوم القيامة : أى وجعلنا بعض الخلق من الجنّ والانس يموج فى بعض ، وقيل المعنى وتركنا يأجوج ومأجوج يوم كمال السدّ وتمام عمارته بعضهم يموج فى بعض ، وقد تقدّم تفسير (ونفخ فى الصور) فى الأنعام ، قيل هى النفخة الثانية بدليل قوله بعد (فجمعناهم جمعا) فان الفاء تشعر بذلك ، ولم يذكر النفخة الأولى ، لأن المقصود هنا ذكر أحوال القيامة * والمعنى جمعنا الخلائق بعد تلاشى أبدانهم ومصيرها ترابا جمعا تاما على أكمل صفة ، وأبدع هيئة ، وأعجب أسلوب (وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا) المراد بالعرض هنا الاظهار : أى أظهرنا لهم جهنم حتى شاهدوها يوم جمعنا لهم ، وفى ذلك وعيد للكفار عظيم لما يحصل معهم عند مشاهدتها من الفزع والروعة ، ثم وصف الكافرين المذكورين بقوله (الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى) أى كانت أعينهم فى الدنيا فى غطاء ، وهو ماغطى الشىء وستره من جميع الجوانب عن ذكرى عن سبب ذكرى ، وهو الآيات التى يشاهدها من له تفكر واعتبار ، فيذكر الله بالتوحيد والتمجيد ، فأطلق المسبب على السبب ، أو عن القرآن العظيم ، وتأمل معانيه ، وتدبر فوائده ، ثم لما وصفهم سبحانه بالعمى عن الدلائل التكوينية ، أو التنزيلية ، أو مجموعهما أراد أن يصفهم بالصمم عن استماع الحق ، فقال (وكانوا لايستطيعون سمعا) أى لايقدرون على الاستماع ، لما فيه الحق من كلام الله وكلام رسوله ، وهذا أبلغ مما لوقال وكانوا صما ، لأن الأصم قد يستطيع السمع اذا صيح به ، وهؤلاء لااستطاعة لهم بالكلية ، وفى ذكر غطاء الأعين وعدم استطاعة السماع تمثيل لتعاميهم عن المشاهدة بالأبصار واعراضهم عن الادلة السمعية (أفحسب الذين كفروا) الحسبان هنا بمعنى الظنّ ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ والفاء للعطف على مقدّر كنظائره * والمعنى أفظنوا أنهم ينتفعون بما عبدوه مع إعراضهم عن تدبر آيات الله وتمرّدهم عن قبول الحق ، ومعنى (أن يتخذوا عبادى من دونى) أن يتخذوهم من دون الله ، وهم الملائكة والمسيح والشياطين (أولياء) أى معبودين ، قال الزجاج : المعنى أيحسبون أن ينفعهم ذلك ، وقرئ أفحسب بسكون السين ، ومعناه أكافيهم ومحسبهم أن يتخذوهم أولياء على أنه مبتدأ وخبر ، يريد أن ذلك لايكفيهم ولاينفعهم عند الله كما حسبوا (إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا) أى هيأناها لهم نزلا يتمتعون به عند ورودهم . قال الزجاج : النزل المأوى والمنزل ، وقيل انه الذى يعدّ للضيف ، فيكون تهكما بهم كقوله ـ فبشرهم بعذاب أليم ـ ، والمعنى أن جهنم معدّة لهم عندنا كما يعدّ النزل للضيف (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا) انتصاب أعمالا على التمييز ، والجمع للدلالة على ارادة الأنواع منها ، ومحل الموصول ، وهو (الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا) الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قيل من هم ؟ فقيل هم الذين ضلّ سعيهم ، والمراد بضلال السعى بطلانه وضياعه ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الذم ، ويكون الجواب (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم) ، ويجوز أن يكون فى محل جر على أنه نعت للأخسرين ، أو بدل منه ، ويكون الجواب أيضا هو أولئك ومابعده ، وأوّل هذه الوجوه هو أولاها ، وجملة (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) فى محل نصب على الحال من فاعل ضلّ : أى والحال أنهم يظنون أنهم محسنون فى ذلك منتفعون بآثاره ، وتكون جملة (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم) مستأنفة مسوقة لتكميل الخسران وبيان سببه ، هذا على الوجه الأوّل الراجح ، لاعلى الوجوه الآخرة ، فانها هى الجواب كما قدّمنا ، ومعنى كفرهم بآيات ربهم كفرهم بدلائل توحيده من الآيات التكوينية والتنزيلية ، ومعنى كفرهم بلقائه كفرهم بالبعث ومابعده من أمور الآخرة ، ثم رتب على ذلك قوله (فحبطت أعمالهم)

أى التى عملوها مما يظنونه حسنا ، وهو خسران وضلال ، ثم حكم عليهم بقوله (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) أى لايكون لهم عندنا قدر ولا نعبأ بهم ، وقيل لايقام لهم ميزان توزن به أعمالهم ، لأن ذلك إنما يكون لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين ، وهؤلاء لاحسنات لهم . قال ابن الأعرابى : العرب تقول مالفلان عندنا وزن : أى قدر لخسته ، ويوصف الرجل بأنه لاوزن له لخفته ، وسرعة طيشه ، وقلة تثبته * والمعنى على هذا أنهم لايعتدّ بهم ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة ، وقرأ مجاهد يقيم بالياء التحتية : أى فلا يقيم الله ، وقرأ الباقون بالنون ، ثم بين سبحانه عاقبة هؤلاء وما يؤول إليه أمرهم ، فقال (ذلك) أى الذى ذكرناه من أنواع الوعيد (جزاؤهم) ويكون قوله (جهنم) عطف بيان للجزاء ، أو جملة جزاؤهم جهنم مبتدأ وخبر ، والجملة خبر ذلك ، والسبب فى ذلك أنهم ضموا إلى الكفر اتخاذ آيات الله واتخاذ رسله هزوا ، فالباء فى (بما كفروا) للسببية ، ومعنى كونهم هزوا أنهم مهزوء بهم * وقد اختلف السلف فى تعيين هؤلاء الأخسرين أعمالا ، فقيل اليهود والنصارى ، وقيل كفار مكة ، وقيل الخوارج ، وقيل الرهبان أصحاب الصوامع ، والأولى حمل الآية على العموم لكل من اتصف بتلك الصفات المذكورة ، ثم ذكر سبحانه بعد هذا الوعيد لهؤلاء الكفار الوعد للمؤمنين ، فقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى جمعوا بينهما حتى كانوا على ضدّ صفة من قبلهم (كانت لهم) . قال ابن الانبارى : كانت فيما سبق من علم الله كانت لأهل طاعته (جنات الفردوس نزلا) . قال المبرد الفردوس فيما سمعت من كلام العرب الشجر الملتف والأغلب عليه العنب ، واختار الزجاج ماقاله مجاهد : أن الفردوس البستان باللغة الرومية ، وقد تقدّم بيان النزل ، وانتصابه على أنه خبر كان * والمعنى كانت لهم ثمار جنة الفردوس نزلا معدّا لهم مبالغة فى إكرامهم ، وانتصاب (خالدين فيها) على الحال ، وكذلك جملة (لايبغون عنها حولا) فى محل نصب على الحال ، والحول مصدر : أى لايطلبون تحوّلا عنها إذ هى أعزّ من أن يطلبوا غيرها ، أو تشتاق أنفسهم الى سواها . قال ابن الأعرابى وابن قتيبة والأزهرى الحول اسم بمعنى التحول يقوم مقام المصدر ، وقال أبو عبيدة والفراء : ان الحول التحويل .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس فى قوله (وتركنا بعضهم) الآية . قال الجنّ والانس (يموج) بعضهم (فى بعض) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (لايستطيعون سمعا) قال : لايعقلون سمعا . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر عن علىّ أنه قرأ (أفحسب الذين كفروا) قال أبو عبيد بجزم السين وضم الباء . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة أنه قرأ كذلك . وأخرج عبدالرزاق والبخارى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه من طريق مصعب بن سعد قال : سألت أبى قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا أهم الحرورية ، قال لاهم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمدا ﷺ ، وأما النصارى فكفروا بالجنة ، وقالوا لاطعام فيها ولاشراب ، والحرورية ــ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ــ ، وكان سعد يسميهم الفاسقين . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد ابن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن مصعب قال : قلت لأبى قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الحرورية هم : قال لا ولكنهم أصحاب الصوامع والحرورية قوم زاغوا فأزاغ الله قلوبهم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى خميصة عبد الله بن قيس قال : سمعت علىّ بن أبى طالب يقول : فى هذه الآية قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا انهم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم فى السوارى . وأخرج ابن مردويه عن أبى الطفيل قال : سمعت علىّ بن أبى طالب وسأله ابن الكوّا ، فقال (هل

نبئكم بالأخسرين أعمالا) قال : فجرة قريش . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريقين عن علي أنه سئل عن هذه الآية قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا قال : لاأظن الا أن الخوارج منهم ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ : قال « انه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضة . وقال اقرءوا ان شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا» . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ «سلوا الله الفردوس فانها سرة الجنة ، وان أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش » وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فانه وسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأحمد والترمذي وابن جرير والحاكم والبيهقي وابن مردويه عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال « ان في الجنة مائة درجة كل درجة منها مابين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة ومن فوقها يكون العرش ومنه تفجر أنهار الجنة الأربعة فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس » والأحاديث بهذا المعنى كثيرة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : الفردوس بستان بالرومية . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : هو الكرم بالنبطية ، وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وابن المنذر عن عبد الله بن الحارث أن ابن عباس سأل كعبا عن الفردوس قال : هي جنات الأعناب بالسريانية ، وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (لايبغون عنها حولا) قال متحوّلا .

قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا * قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا *

لما ذكر سبحانه أنواع الدلائل نبه على كمال القرآن ، فقال (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي) قال ابن الأنباري : سمي المداد مدادا لامداده الكاتب ، وأصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء ، ويقال للزيت الذي يوقد به السراج مداد ، والمراد بالبحر هنا الجنس * والمعنى لو كتبت كلمات علم الله وحكمته ، وفرض أن جنس البحر مدادا لها لنفد البحر قبل نفود الكلمات ، ولو جئنا بمثل البحر مدادا لنفد أيضا ، وقيل في بيان المعنى لو كان البحر مدادا للقلم والقلم يكتب (لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي) وقوله (ولو جئنا بمثله مددا) كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت قوله قل لو كان ، وفيه زيادة مبالغة وتأكيد ، والواو لعطف مابعده على جملة مقدرة مدلول عليها بما قبلها : أي لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته لو لم يجيء بمثله مددا ولو جئنا بمثله مددا ، والمدد الزيادة ، وقيل عنى سبحانه بالكلمات الكلام القديم الذي لاغاية له ولا منتهى ، وهو وان كان واحدا فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لمافيه من الفوائد ، وقد عبرت العرب عن الفرد بلفظ الجمع ، قال الأعشى :

ووجه نقيّ اللون صاف يزينه * مع الجيد لبات لها ومعاصم

فعبر باللبات عن اللبة . قال الجبائي : ان قوله قبل أن تنفد كلمات ربي يدل على أن كلماته قد تنفد في الجملة ، وما ثبت عدمه امتنع قدمه * وأجيب بأن المراد الألفاظ الدالة على متعلقات تلك الصفة

الأزلية ، وقيل فى الجواب ان نفاد شىء قبل نفاد شىء آخر لايدلّ على نفاد الشىء الآخر ، ولا على عدم نفاده فلا يستفاد من الآية الا كثرة كلمات الله بحيث لاتضبطها عقول البشر ، أما أنها متناهية ، أو غير متناهية فلا دليل على ذلك فى الآية ، والحق أن كلمات الله تابعة لمعلوماته ، وهى غير متناهية ، فالكلمات غير متناهية ، وقرأ مجاهد وابن محيصن وحميد ولو جئنا بمثله مدادا ، وهى كذلك فى مصحف أبيّ ، وقرأ الباقون مددا ، وقرأ حمزة والكسائى قبل أن ينفد بالتحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية ، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يسلك مسلك التواضع ، فقال (قل إنما أنا بشر مثلكم) أى ان حالى مقصور على البشرية لايتخطاها الى الملكية ، ومن كان هكذا فهو لايدّعى الاحاطة بكلمات الله الا أنه امتاز عنهم بالوحى اليه من الله سبحانه ، فقال (يوحى الىّ) وكفى بهذا الوصف فارقا بينه و بين سائر أنواع البشر ، ثم بين أن الذى أوحى اليه هو قوله (أنما إلهكم إله واحد) لاشريك له فى ألوهيته ، وفى هذا ارشاد الى التوحيد ، ثم أمرهم بالعمل الصالح : والتوحيد ، فقال (فمن كان يرجوا لقاء ربه) الرجاء توقع وصول الخير فى المستقبل ● والمعنى من كان له هذا الرجاء الذى هو شأن المؤمنين (فليعمل عملا صالحا) وهو مادلّ الشرع على أنه عمل خير يثاب عليه فاعله (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) من خلقه سواء كان صالحا ، أو طالحا ، حيوانا أو جمادا ، قال الماوردى : قال جميع أهل التأويل فى تفسير هذه الآية : ان المعنى لايرائى بعمله أحدا ● وأقول ان دخول الشرك الجلىّ الذى كان يفعله المشركون تحت هذه الآية هو المقدم على دخول الشرك الخفى الذى هو الرياء ، ولا مانع من دخول هذا الخفى تحتها ، انما المانع من كونه هو المراد بهذه الآية .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (لكلمات ربى) يقول : علم ربى . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية : قال يقول ينفد ماء البحر قبل أن ينفد كلام الله وحكمته . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله (فمن كان يرجوا لقاء ربه) الآية : قال أنزلت فى المشركين الذين عبدوا مع الله إلها غيره ، وليست هذه فى المؤمنين . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى عن ابن عباس قال « قال رجل يانبىّ الله انى أقف المواقف أبتغى وجه الله ، وأحب أن يرى موطنى فلم يردّ عليه شيئا ، حتى نزلت هذه الآية ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » وأخرج ابن منده وأبو نعيم فى الصحابة وابن عساكر من طريق السدّى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : كان جندب بن زهير اذا صلى ، أو صام ، أو تصدّق ، فذكر بخير ارتاح له فزاد فى ذلك لمقالة الناس فلا يريد به الله ، فنزل فى ذلك فمن كان يرجوا لقاء ربه الآية . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : « قال رجل يارسول الله أعتق وأحب أن يرى ، وأتصدّق وأحب أن يرى ، فنزلت فمن كان يرجوا لقائه ربه» الآية وهو مرسل . وأخرجه هناد فى الزهد عنه أيضا . وأخرج ابن سعد وأحمد والترمذى وابن ماجه والبيهقى فى الشعب عن أبى سعيد بن أبى فضالة الانصارى ، وكان من الصحابة سمعت رسول الله ﷺ يقول « اذا جمع الله الأوّلين والآخرين ليوم لاريب فيه نادى مناد من كان أشرك فى عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فان الله أغنى الشركاء عن الشرك » . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى عن أبى هريرة أن رجلا « قال يارسول الله الرجل يجاهد فى سبيل الله ، وهو يبتغى عرضا من الدنيا ؟ فقال لاأجر له فأعظم الناس ذلك ، فعاد الرجل فقال لاأجر له » وأخرج ابن أبى الدنيا فى الاخلاص وابن جرير فى تهذيبه والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن شدّاد بن أوس قال : كنا نعدّ الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر . وأخرج الطيالسىّ وأحمد وابن أبى الدنيا والطبرانى والحاكم وصححه

وابن مردويه والبيهقي عن شداد بن أوس أيضا قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من صلى يرائي فقد أشرك ، ومن صام يرائي فقد أشرك ، ومن تصدق يرائي فقد أشرك ، ثم قرأ فمن كان يرجوا لقاء ربه» الآية . وأخرج الطيالسي وأحمد وابن مردويه وأبو نعيم عن شداد أيضا قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الله يقول أنا خير قسيم لمن أشرك بي ، من أشرك بي شيئا ، فان عمله قليله وكثيره لشريكه الذى أشركه أنا عنه غني » . وأخرج أحمد والحكيم الترمذي وابن جرير في تهذيبه والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيخ الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي لمكان رجل» وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي عن شداد بن أوس سمعت رسول الله ﷺ يقول « أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية ، قلت أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال نعم : أما انهم لايعبدون شمسا ، ولاقمرا ، ولاحجرا ، ولاوثنا ، ولكن يراءون الناس بأعمالهم ، قلت يارسول الله ماالشهوة الخفية ؟ قال يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته » . وأخرج أحمد ومسلم وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ عن ربه أنه قال « أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا برىء منه ، وهو للذى أشرك » وفي لفظ « فمن أشرك بي أحدا فهو له كله » وفي الباب أحاديث كثيرة في التحذير من الرياء وأنه الشرك الأصغر ، وأن الله لايقبله ، وقد استوفاها صاحب الدر المنثور في هذا الموضع فليرجع اليه ، ولكنها لاتدل على أنه المراد بالآية بل الشرك الجلي يدخل تحتها دخولا أوليا ، وعلى فرض أن سبب النزول هو الرياء كما يشير الى ذلك ماقدمنا ، فالاعتبار بعموم اللفظ لابخصوص السبب كما هو مقرر في علم الأصول .

وقد ورد في فضائل هذه الآية بخصوصها . ماأخرجه الطبراني وابن مردويه عن أبي حكيم قال : « قال رسول الله ﷺ لولم ينزل على أمتي الا خاتمة سورة الكهف لكفتهم » . وأخرج ابن راهويه والبزار والحاكم وصححه والشيرازي في الألقاب وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : « قال رسول الله ﷺ من قرأ في ليلة فمن كان يرجوا لقاء ربه الآية كان له نور من عدن أبين الى مكة حشوه الملائكة » قال ابن كثير بعد إخراجه غريب جدا . وأخرج ابن الضريس عن أبي الدرداء قال : من حفظ خاتمة الكهف كان له نور يوم القيامة من لدن قرنه الى قدمه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن معاوية بن أبي سفيان أنه تلا هذه الآية فمن كان يرجوا لقاء ربه ، وقال انها آخر آية نزلت من القرآن . قال ابن كثير : وهذا أثر مشكل ، فان هذه الآية هي آخرة سورة الكهف ، والكهف كلها مكية ، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها ماينسخها ولايغير حكمها ، بل هي مثبتة محكمة فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على مافهمه .

تفسير سورة مريم

هي مكية وآياتها ثمان وتسعون آية

أخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس ، قال أنزلت بمكة سورة (كهيعص) . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير ، قال نزلت سورة مريم بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله . وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن أمّ سلمة أن النجاشي ، قال لجعفر بن أبي طالب هل معك مما جاء به ، يعني رسول الله ﷺ عن الله شيء ؟ قال نعم ، فقرأ عليه صدرا من (كهيعص) فبكى النجاشي حتى أخضل لحيته ، وبكت أساقفته ، حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ماتلا عليهم ، ثم قال النجاشي : ان هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، وقد ذكر ابن اسحق القصة بطولها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّاءَ * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَا زَكَرِيَّاءُ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عُتِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا *

قوله (كهيعص) قرأ أبو جعفر هذه الحروف مقطعة ، ووصلها الباقون ، وأمال أبو عمرو الهاء ، وفتح الياء ، وعكس ذلك ابن عامر وحمزة ، وأمالهما جميعا الكسائي وأبو بكر وخلف ، وقرأهما بين اللفظين أهل المدينة وفتحهما الباقون * وعن خارجة أن الحسن كان يضم كاف ، وحكى عن غيره أنه كان يضم ها ، وقال أبو حاتم لايجوز ضمّ الكاف ولا الهاء ولا الياء ، قال النحاس قراءة أهل المدينة من أحسن ما في هذا ، والامالة جائزة في ها وفي يا ، وقد اعترض على قراءة الحسن جماعة ، وقيل في تأويلها انه كان يشمّ الرفع فقط ، وأظهر الدال من هجاء صاد نافع وأبو جعفر وابن كثير وعاصم و يعقوب

وهو اختيار أبى عبيد وأدغمها الباقون ، وقد قيل فى توجيه هذه القراءات ان التفخيم هو الأصل ، والامالة فرع عنه ، فمن قرأ بتفخيم الهاء والياء فقد عمل بالأصل ، ومن أمالهما فقد عمل بالفرع ، ومن أمال أحدهما وفخم الآخر ، فقد عمل بالأمرين ، وقد تقدم الكلام فى هذه الحروف الواقعة فى فواتح السورة مستوفى فى أوائل سورة البقرة ، ومحل هذه الفاتحة ان جعلت اسما للسورة على ماعليه الأكثر الرفع على أنها مبتدأ خبرها مابعدها ، قاله الفراء ، واعترضه الزجاج ، فقال هذا محال لأن كهيعص ليس هو مما أنبأنا الله عز وجل به عن زكرياء ، وقد أخبرالله تبارك وتعالى عنه وعما بشر به ، وليس كهيعص من قصته ، أوعلى أنها خبر مبتدا محذوف ، وان جعلت مسرودة على نمط التعديد ، فقوله (ذكر رحمة ربك) خبر لمبتدا محذوف أى هذا ذكر رحمة ربك . وقيل هو مبتدأ خبره محذوف : أى فيما يتلى عليك ذكر رحمة ربك . قال الزجاج ذكر مرتفع بالمضمر ، والمعنى هذا الذى نتلوه عليك ذكر رحمة ربك (عبده زكرياء) يعنى إجابته إياه حين دعاه وسأله الولد ، وانتصاب عبده على أنه مفعول للرحمة قاله الأخفش ، وقيل للذكر ، ومعنى ذكر الرحمة بلوغها واصابتها ، كما يقال ذكرنى معروف فلان : أى بلغنى ، وقرأ يحيى بن يعمر ذكر بالنصب ، وقرأ أبو العالية عبده بالرفع على أن المصدر مضاف الى المفعول ، وفاعل الذكر هو عبده ، وزكرياء على القراءتين عطف بيان له ، أو بدل منه ، وقرأ الكلبى ذكر على صيغة الفعل الماضى مشددا ومخففا على أن الفاعل عبده ، وقرأ ابن معمر على الأمر ، وتكون الرحمة على هذا عبارة عن زكرياء ، لأن كل نبىّ رحمة لأمته (إذ نادى ربه نداء خفيا) العامل فى الظرف رحمة ، وقيل ذكر ، وقيل هو بدل اشتمال من زكرياء . واختلف فى وجه كون ندائه هذا خفيا ، فقيل لأنه أبعد عن الرياء ، وقيل أخفاه ، لئلا يلام على طلبه للولد فى غير وقته ، ولكونه من أمور الدنيا ، وقيل أخفاه مخافة من قومه ، وقيل كان ذلك منه لكونه قد صار ضعيفا هرما لايقدر على الجهر (قال رب إنى وهن العظم منى) هذه الجملة مفسرة لقوله : نادى ربه ، يقال وهن يهن وهنا اذا ضعف فهو واهن ، وقرئ بالحركات الثلاث ، أراد أن عظامه فترت وضعفت قوّته ، وذكر العظم ، لأنه عمود البدن ، وبه قوامه ، وهو أصل بنائه ، فاذا وهن تداعى وتساقطت قوّته ، ولأن أشدّ مافى الانسان صلبه ، فاذا وهن كان ماوراءه أوهن ، ووحد العظم قصدا الى الجنس المفيد لشمول الوهن لكل فرد من أفراد العظام (واشتعل الرأس شيبا) قرأ أبو عمرو بادغام السين فى الشين ، والباقون بعدمه : والاشتعال فى الأصل انتشار شعاع النار ، فشبه به انتشار بياض شعر الرأس فى سواده بجامع البياض والانارة ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية ، بأن حذف المشبه به وأداة التشبيه ، وهذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها . قال الزجاج : يقال للشيب اذا كثر جدا قد اشتعل رأس فلان ، وأنشد للبيد :

فان ترى رأسى أمسى واضحا ٭ سلط الشيب عليه فاشتعل

وانتصاب شيبا على التمييز قاله الزجاج . وقال الأخفش انتصابه على المصدر ، لأن معنى اشتعل شاب قال النحاس قول الأخفش أولى ، لأنه مشتق من فعل ، والمصدرية أظهر فيما كان كذلك ، وكان الأصل اشتعل شيب رأسى فاسند الاشتعال الى الرأس لافادة الشمول (ولم أكن بدعائك رب شقيا) أى لم أكن بدعائى إياك خائبا فى وقت من الأوقات ، بل كلما دعوتك استجبت لى .

قال العلماء يستحب للمرء أن يجمع فى دعائه بين الخضوع ، وذكر نعم الله عليه كما فعل زكرياء هاهنا فان فى قوله : وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا غاية الخضوع والتذلل واظهار الضعف والقصور عن نيل مطالبه وبلوغ مآربه ، وفى قوله : ولم أكن بدعائك ربّ شقيا ذكر ماعوّده الله من الانعام عليه

باجابة

بإجابة أدعيته : يقال شقى بكذا : أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه (وإنى خفت الموالى من ورائى) قرأ عثمان بن عفان ومحمد بن على بن الحسين وأبوه على ويحيى بن يعمر : خفت بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء وفاعله الموالى : أى قلوا وعجزوا عن القيام بأمر الدين بعدى ، أو انقطعوا بالموت : مأخوذا من خفت القوم اذا ارتحلوا ، وهذه قراءة شاذة بعيدة عن الصواب ، وقرأ الباقون خفت بكسر الخاء وسكون الفاء على أن فاعله ضمير يعود الى زكرياء ، ومفعوله الموالى ، ومن ورائى متعلق بمحذوف لا بخفت ، وتقديره خفت فعل الموالى من بعدى . قرأ الجمهور : ورائى بالهمز والمد وسكون الياء ، وقرأ ابن كثير بالهمز والمد وفتح الياء ، وروى عنه أنه قرأ بالقصر مفتوح الياء : مثل عصاى ، والموالى هنا هم الأقارب الذين يرثون وسائر العصبات من بنى العم ونحوهم ، والعرب تسمى هؤلاء موالى ، قال الشاعر :

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا * لاتنشروا بيننا ما كان مدفونا

وقيل الموالى الناصرون له * واختلفوا فى وجه المخافة من زكرياء لمواليه من بعده ، فقيل خاف أن يرثوا ماله ، وأراد أن يرثه ولده ، فطلب من الله سبحانه أن يرزقه ولدا . وقال آخرون انهم كانوا مهملين لأمر الدين ، فخاف أن يضيع الدين بموته ، فطلب وليا يقوم به بعد موته ، وهذا القول أرجح من الأول ، لأن الأنبياء لايورثون ، وهم أجل من أن يعتنوا بأمور الدنيا ، فليس المراد هنا وراثة المال ، بل المراد وراثة العلم والنبوة والقيام بأمر الدين ، وقد ثبت عن نبينا ﷺ أنه قال « نحن معاشر الأنبياء لانورث ما تركناه صدقة » (وكانت امرأتى عاقرا) العاقر : هى التى لاتلد لكبر سنها ، والتى لاتلد أيضا لغير كبر وهى المرادة هنا ، ويقال للرجل الذى لايلد عاقر أيضا ، ومنه قول عامر بن الطفيل :

* لبئس الفتى ان كنت أعور عاقرا * . قال ابن جرير وكان اسم امرأته اشاع بنت فاقود بن ميل ، وهى أخت حنة ، وحنة هى أم مريم . وقال القتيبى هى اشاع بنت عمران ، فعلى القول يكون يحيى بن زكرياء ابن خالة أم عيسى ، وعلى القول الثانى يكونان ابنى خالة كما ورد فى الحديث الصحيح (فهب لى من لدنك وليا) أى أعطنى من فضلك وليا ، ولم يصرح بطلب الولد لما علم من نفسه بأنه قد صار هو وامرأته فى حالة لا يجوز فيها حدوث الولد بينهما وحصوله منهما ، وقد قيل انه كان ابن بضع وتسعين سنة وقيل بل أراد بالولى الذى طلبه هو الولد ، ولا مانع من سؤال من كان مثله لما هو خارق للعادة ، فان الله سبحانه قد يكرم رسله بما يكون كذلك ، فيكون من جملة المعجزات الدالة على صدقهم (يرثنى ويرث من آل يعقوب) قرأ أهل الحرمين والحسن وعاصم وحمزة وابن محيصن(١) والزيدى ويحيى بن المبارك بالرفع فى الفعلين جميعا على أنهما صفتان للولى ، وليسا بجواب للدعاء ، وقرأ يحيى بن يعمر وأبو عمرو ويحيى ابن وثاب والأعمش والكسائى بالجزم فيهما على أنهما جواب للدعاء ، ورجح القراءة الأولى أبو عبيد ، وقال هى أصوب فى المعنى ، لأنه طلب وليا هذه صفته ، فقال هب لى الذى يكون وارثى ، ورجح ذلك النحاس وقال لأن جواب الأمر عند النحويين فيه معنى الشرط والمجازاة : تقول أطع الله يدخلك الجنة : أى ان تطعه يدخلك الجنة ، وكيف يخبر الله سبحانه بهذا ، أعنى كونه أن يهب له وليا يرثه ، وهو أعلم بذلك ، والوراثة هنا هى وراثة العلم والنبوة على ما هو الراجح كما سلف ، وقد ذهب أكثر المفسرين الى أن يعقوب المذكور هنا هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ، وزعم بعض المفسرين أنه يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان ، وبه قال الكلبى ومقاتل ، وآل يعقوب هم خاصته الذين يؤول أمرهم اليه للقرابة أو الصحبة أو الموافقة فى الدين ، وقد كان فيهم أنبياء وملوك ، وقرئ يرثنى وارث من آل يعقوب على أنه فاعل يرثنى . وقرئ وارث آل يعقوب : أى أنا . وقرئ أو يرث آل يعقوب بلفظ التصغير على أن هذا المصغر

(١) قوله والزيدى ويحيى بن المبارك الصواب ويحيى بن المبارك اليزيدى اه مصحح القرآن

فاعل يرثني ، وهذه القراءات في غاية الشذوذ لفظا ومعنى (واجعله رب رضيا) أي مرضيا في أخلاقه وأفعاله ، وقيل راضيا بقضائك وقدرك ، وقيل رجلا صالحا ترضى عنه ، وقيل نبيا كما جعلت آباءه أنبياء (يازكرياء إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) . قال جمهور المفسرين ان هذا النداء من الله سبحانه ، وقيل انه من جهة الملائكة ، لقوله في آل عمران — فنادته الملائكة — ، وفي الكلام حذف : أي فاستجاب له دعاءه ، فقال يازكرياء ، وقد تقدم في آل عمران وجه التسمية بيحيى وزكرياء ، قال الزجاج سمى يحيى لأنه حيي بالعلم والحكمة التي أوتيها (لم نجعل له من قبل سميا) قال أكثر المفسرين : معناه لم تسم أحدا قبله يحيى ، وقال مجاهد وجماعة معنى : لم نجعل له من قبل سميا ، أنه لم يجعل له مثلا ولا نظيرا ، فيكون على هذا مأخوذا من المساماة أو السمو ، ورد هذا بأنه يقتضى تفضيله على ابراهيم وموسى ، وقيل معناه لم تلد عاقر مثله ، والأول أولى ، وفي اخباره سبحانه بأنه لم يسم بهذا الاسم قبله أحد فضيلة له من جهتين : الأولى أن الله سبحانه هو الذي تولى تسميته به ، ولم يكلها الى الأبوين ، والجهة الثانية أن تسميته باسم لم يوضع لغيره يفيد تشريفه وتعظيمه (قال رب أنى يكون لي غلام) أي كيف ، أومن أين يكون لي غلام ؟ وليس معنى هذا الاستفهام الانكار ، بل التعجب من قدرة الله وبديع صنعه ، حيث يخرج ولدا من امرأة عاقر وشيخ كبير ، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في آل عمران (وقد بلغت من الكبر عتيا) : يقال عتا الشيخ يعتو عتيا اذا انتهى سنه وكبر ، وشيخ عات اذا صار الى حال اليبس والجفاف ، والأصل عتوا لأنه من ذوات الواو فأبدلوه ياء لكونها أخف ، ومثل ما في الآية قول الشاعر :

انما يعذر الوليد ولا يعـــذر من كان في الزمان عتيا

وقرأ يحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وحفص والأعمش عتيا بكسر العين ، وقرأ الباقون بضم العين وهما لغتان ، ومحل جملة : وكانت امرأتي عاقرا النصب على الحال من ضمير المتكلم ، ومحل جملة : وقد بلغت من الكبر عتيا النصب أيضا على الحال ، وكلا الجملتين لتأكيد الاستبعاد والتعجب المستفاد من قوله : أنى يكون لي غلام : أي كيف يحصل بيننا ولد الآن ، وقد كانت امرأتي عاقرا لم تلد في شبابها وشبابي وهي الآن عجوز ، وأنا شيخ هرم ، ثم أجاب الله سبحانه على هذا السؤال المشعر بالتعجب والاستبعاد بقوله (قال كذلك قال ربك) الكاف في محل رفع ، أي الأمر كذلك ، والاشارة الى ماسبق من قول زكريا ثم ابتدأ بقوله قال ربك ويحتمل أن يكون محله النصب على المصدرية ، أي قال قولا مثل ذلك ، والاشارة بذلك الى مبهم يفسره قوله (هو علي هين) وأما على الاحتمال الأول فتكون جملة : هو علي هين مستأنفة مسوقة لازالة استبعاد زكريا بعد تقريره ، أي قال هو مع بعده عندك علي هين ، هو فيعل ، من هان الشيء يهون اذا لم يصعب ولم يمتنع من المراد . قال الفراء : أي خلقه علي هين (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) هذه الجملة مقررة لما قبلها . قال الزجاج . أي خلق الولد لك كخلقك ، والمعنى أن الله سبحانه خلقه ابتداء وأوجده من العدم المحض ، فايجاد الولد له بطريق التوالد المعتاد أهون من ذلك وأسهل منه ، وانما لم ينسب ذلك الى آدم عليه السلام لكونه المخلوق من العدم حقيقة ، بأن يقول وقد خلقت أباك آدم من قبل ، ولم يك شيئا : للدلالة على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشاء آدم من العدم قرأ أهل المدينة وأهل مكة والبصرة وعاصم وابن عامر ، وقد خلقتك من قبل ، وقرأ سائر الكوفيين : وقد خلقناك من قبل (قال رب اجعل لي آية) أي علامة تدلني على وقوع المسئول وتحققه وحصول الحبل ، والمقصود من هذا السؤال تعريفه وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه قال ابن الانباري وجه ذلك أن نفسه تاقت الى سرعة الأمر ، فسأل الله آية يستدل بها على قرب ما من

به

به عليه ، وقيل طلب آية تدله على أن البشرى من الله سبحانه ، لا من الشيطان ، لأن إبليس أوهمه بذلك كذا قال الضحاك والسدّى وهو بعيد جدًا (قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) قد تقدم تفسير هذا فى آل عمران مستوفى ، وانتصاب سويا على الحال ، والمعنى آيتك أن لا تقدر على الكلام ، والحال أنك سوىّ الخلق ، ليس بك آفة تمنعك منه ، وقد دلّ بذكر الليالى هنا ، والأيام فى آل عمران أن المراد ثلاثة أيام ولياليهن (فخرج على قومه من المحراب) ، وهو مصلاه ، واشتقاقه من الحرب ، كأنّ ملازمه محارب الشيطان ، وقيل من الحرب محركا ، كأن ملازمه يلقى حربا وتعبا ونصبا (فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) قيل معنى أوحى : أومأ بدليل قوله فى آل عمران ــ إلا رمزا ــ ، وقيل كتب لهم فى الأرض ، وبالأوّل قال الكلبى والقرظى وقتادة وابن منبه ، وبالثانى قال مجاهد ، وقد يطلق الوحى على الكتابة . ومنه قول ذى الرمّة :

سوى الأربع الدهم اللواتى كأنها ۞ بقية وحى فى بطون الصحائف

وقال عنترة : كوحى صحائف من عهد كسرى ۞ فأهداها لأعجم طمطمىّ

وأن فى قوله أن سبحوا مصدرية أو مفسرة ، والمعنى فأوحى إليهم بأن صلوا : أو أى صلوا ، وانتصاب بكرة وعشيا على الظرفية . قال الفراء : العشى يؤنث ، ويجوز تذكيره إذا أبهم . قال وقد يقال العشىّ جمع عشية ، قيل والمراد صلاة الفجر والعصر ، وقيل المراد بالتسبيح هو قولهم سبحان الله فى الوقتين : أى نزهوا ربكم طرفى النهار .

وقد أخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله (كهيعص) كبير هاد أمين عزيز صادق ، وفى لفظ كاف بدل كبير . وأخرج عبد الرزاق وآدم بن أبى إياس وعثمان بن سعيد الدارمى فى التوحيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس كهيعص ، قال كاف من كريم وها من هاد ويا من حكيم ، وعين من عليم ، وصاد من صادق . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود ، وناس من الصحابة كهيعص : هو الهجاء المقطع ، الكاف من الملك ، والهاء من الله ، والياء والعين من العزيز ، والصاد من المصوّر . وأخرج ابن مردويه عن الكلبى أنه سئل عن كهيعص ، فحدّث عن أبى صالح عن أمّ هانئ عن رسول الله ﷺ قال « كاف هاد عالم صادق » . وأخرج عثمان بن سعيد الدارمى وابن ماجه وابن جرير عن فاطمة ابنة علىّ قالت كان علىّ يقول يا كهيعص اغفر لى . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى كهيعص ، قال الكاف الكافى ، والهاء الهادى ، والعين العالم ، والصاد الصادق . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن السدّى قال كان ابن عباس يقول فى كهيعص وحم ويس وأشباه هذا هو اسم الله الأعظم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال هو قسم أقسم الله به ، وهو من أسماء الله .

وكما وقع الخلاف فى هذا وأمثاله بين الصحابة وقع بين من بعدهم ولم يصح مرفوعا فى ذلك شىء ، ومن روى عنه من الصحابة فى ذلك شىء فقد روى عن غيره ما يخالفه ، وقد يروى عن الصحابى نفسه التفاسير المتخالفة المتناقضة فى هذه الفواتح فلا يقوم شىء من ذلك حجة بل الحق الوقف ، وردّ العلم فى مثلها إلى الله سبحانه ، وقد قدّمنا تحقيق هذا فى فاتحة سورة البقرة . وأخرج أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ «قال كان زكريا نجارا» . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : كان آخر أنبياء بنى إسرائيل زكريا بن أزر بن مسلم من ذرية يعقوب دعا ربه سرّا (قال

ربّ إنى وهن العظم منى) إلى قوله (خفت الموالى) قال وهم العصبة (يرثنى) يرث نبوّتى ونبوّة آل يعقوب ، فنادته الملائكة ، وهو جبريل : ان الله يبشرك (بغلام اسمه يحيى) فلما سمع النداء جاءه الشيطان فقال يازكريا ان الصوت الذى سمعت ليس من الله انما هو من الشيطان سخر بك ، فشك ، وقال (أنى يكون لى غلام) يقول من أين يكون وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ، قال الله (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وإنى خفت الموالى من ورائى) قال الورثة : وهم عصبة الرجل . وأخرج الفريابى عنه قال : كان زكريا لايولدله فسأل ربه ، فقال (رب هب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب) قال : يرث مالى ويرث من آل يعقوب النبوّة . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله (لم نجعل له من قبل سميا) قال : مثلا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه عنه قال : لاأدرى كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذا الحرف عتيا أوعسيا . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله (عتيا) قال : لبث زمانا فى الكبر . وأخرج أيضا عن السدّى قال : هرما . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) قال : اعتقل لسانه من غير مرض ، وفى لفظ من غير خرس أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا (فأوحى إليهم) قال : كتب لهم كتابا . وأخرج ابن أبى الدنيا والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله (أن سبحوا) قال : أمرهم بالصلاة (بكرة وعشيا) .

يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا *

قوله (يايحيى) هاهنا حذف ، وتقديره : وقال الله للمولود يايحيى ، أو فولد له مولود فبلغ المبلغ الذى يجوز أن يخاطب فيه ، فقلنا له يايحيى ، وقال الزجاج : المعنى فوهبنا له وقلنا له يايحيى ، والمراد بالكتاب التوراة لأنه المعهود حينئذ ، ويحتمل أن يكون كتابا مختصا به وان كنا لانعرفه الآن ، والمراد بالأخذ إما الأخذ الحسى أو الأخذ من حيث المعنى ، وهو القيام بما فيه كما ينبغى وذلك بتحصيل ملكة تقتضى سهولة الاقدام على المأمور به ، والاحجام عن المنهىّ عنه ، ثم أكده بقوله (بقوّة) أى بجدّ وعزيمة واجتهاد (وآتيناه الحكم صبيا) المراد بالحكم الحكمة ، وهى الفهم للكتاب الذى أمر بأخذه وفهم الأحكام الدينية ، وقيل هى العلم وحفظه والعمل به ، وقيل النبوّة ، وقيل العقل ، ولا مانع من أن يكون الحكم صالحا لحمله على جميع ماذكر ، قيل كان يحيى عند هذا الخطاب له ابن سنتين ، وقيل ابن ثلاث (وحنانا من لدنا) معطوف على الحكم . قال جمهور المفسرين : الحنان الرحمة والشفقة والعطف والمحبة ، وأصله توقان النفس ، مأخوذ من حنين الناقة على ولدها . قال أبو عبيدة : تقول حنانك ياربّ وحنانيك ياربّ بمعنى واحد يريد رحمتك . قال طرفة :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا * حنانيك بعض الشرّ أهون من بعض

وقال امرؤ القيس :

ويمنحها بنو شمجى بن جرم * معيزهم حنانك ذا الحنان

قال ابن الأعرابى : الحنان مشدّدا من صفات الله عزوجل ، والحنان مخففا : العطف والرحمة ، والحنان

الرزق والبركة . قال ابن عطية : والحنان فى كلام العرب أيضا ماعظم من الأمور فى ذات الله ، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل ، والله لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن قبره حنانا ، يعنى بلالا ، لما مر به ، وهو يعذب ، وقيل ان القائل لذلك هو ورقة بن نوفل . قال الأزهرى معنى ذلك لأترحمن عليه ، ولأتعطفن عليه لأنه من أهل الجنة ، ومثله قول الحطيئة :

تحنن على هداك المليك ٭ فان لكل مقام مقالا

ومعنى (من عندنا) من جنابنا ، قيل ويجوز أن يكون المعنى أعطيناه رحمة من لدنا كائنة فى قلبه يتحنن بها على الناس ، ومنهم أبواه وقرابته حتى يخلصهم من الكفر (وزكاة) معطوف على ماقبله ، والزكاة التطهير والبركة ، والتنمية ، والبر : أى جعلناه مباركا للناس يهديهم الى الخير ، وقيل زكيناه بحسن الثناء عليه كتزكية الشهود ، وقيل صدقة تصدقنا به على أبويه ، قاله ابن قتيبة (وكان تقيا) أى متجنبا لمعاصى الله مطيعا له ، وقد روى أنه لم يعمل معصية قط (وبرا بوالديه) معطوف على تقيا ، البر هنا بمعنى البار ، فعل بمعنى فاعل ٭ والمعنى لطيفا بهما محسنا اليهما (ولم يكن جبارا عصيا) أى لم يكن متكبرا ولا عاصيا لوالديه أو لربه ، وهذا وصف له عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح (وسلام عليه) قال ابن جرير وغيره : معناه أمان عليه من الله . قال ابن عطية : والأظهر عندى أنها التحية المتعارفة ، فهى أشرف وأنبه من الأمان ، لأن الأمان متحصل له بنفى العصيان عنه ، وهو أقل درجاته ، وانما الشرف فى أن يسلم الله عليه ، ومعنى (يوم ولد) أنه أمن من الشيطان وغيره فى ذلك اليوم ، أو أن الله حياه فى ذلك اليوم ، وهكذا معنى (يوم يموت) وهكذا معنى (يوم يبعث حيا) قيل أوحش ما يكون الانسان فى ثلاثة مواطن يوم ولد لأنه خرج مما كان فيه ، ويوم يموت لأنه يرى قوما لم يكن قد عرفهم وأحكاما ليس له بها عهد ، ويوم يبعث ، لأنه يرى هول يوم القيامة ، فخص الله سبحانه يحيى بالكرامة والسلامة فى المواطن الثلاثة .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (يايحيى خذ الكتاب بقوة) قال بجد (وآتيناه الحكم صبيا) قال الفهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : يقول اعمل بما فيه من فرائض . وأخرج ابن المنذر عن مالك بن دينار . قال اللب . وأخرج أبو نعيم والديلمى وابن مردويه عن ابن عباس عن النبى ﷺ فى قوله وآتيناه الحكم صبيا قال : أعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن أبى حاتم عن قتادة قال : وهو ابن ثلاث سنين . وأخرج الحاكم فى تاريخه من طريق نهشل بن سعد عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « قال الغلمان ليحيى بن زكريا اذهب بنا نلعب ، فقال يحيى ما للعب خلقنا اذهبوا نصلى فهو قول الله : وآتيناه الحكم صبيا » . وأخرج ابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتى الحكم صبيا » . وأخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس موقوفا ، وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله (وحنانا) قال لا أدرى ما هو إلا أنى أظنه يعطف الله على عبده بالرحمة ، وقد فسرها جماعة من السلف بالرحمة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وزكاة) قال بركة ، وفى قوله (وكان تقيا) قال طهر فلم يعمل بذنب .

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ٭ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا

XIX 16-27

فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا *

قوله (واذكر فى الكتاب مريم) هذا شروع فى ابتداء خلق عيسى ، والمراد بالكتاب هذه السورة : أى اذكر يا محمد للناس فى هذه السورة قصة مريم ، ويجوز أن يراد بالكتاب جنس القرآن ، وهذه السورة منه ، ولما كان الذكر لايتعلق بالأعيان احتيج الى تقدير مضاف يتعلق به الذكر ، وهو قصة مريم ، أوخبر مريم (إذ انتبذت) العامل فى الظرف هو ذلك المضاف المقدّر ، ويجوز أن يجعل بدل اشتمال من مريم ، لأن الأزمان مشتملة على مافيها ، ويكون المراد بمريم خبرها ، وفى هذا الابدال دلالة على تفخيم شأن الوقت لوقوع قصتها العجيبة فيه ، والنبذ الطرح والرمى . قال الله سبحانه ـ فنبذوه وراء ظهورهم ـ * والمعنى أنها تنحت وتباعدت ، وقال ابن قتيبة : اعتزلت ، وقيل انفردت ، والمعانى متقاربة ، واختلفوا فى سبب انتباذها ، فقيل لأجل أن تعبد الله سبحانه ، وقيل لتطهر من حيضها ، و (من أهلها) متعلق بانتبذت ، وانتصاب (مكانا شرقيا) على المفعولية للفعل المذكور : أى مكانا من جانب الشرق ، والشرق بسكون الراء : المكان الذى تشرق فيه الشمس ، وانما خصّ المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة الشرق لأنها مطلع الأنوار ، حكى معناه ابن جرير .

وقد اختلف الناس فى نبوّة مريم ، فقيل انها نبية بمجرّد هذا الارسال اليها ومخاطبتها للملك ، وقيل لم تكن نبية ، لأنه انما كلمها الملك وهو على مثال البشر ، وقد تقدم الكلام فى هذا فى آل عمران (فاتخذت من دونهم حجابا) أى اتخذت من دون أهلها حجابا يسترها عنهم لئلا يروها حال العبادة ، أو حال التطهر من الحيض ، والحجاب الستر والحاجز (فأرسلنا اليها روحنا) هو جبريل عليه السلام ، وقيل هو روح عيسى ، لأن الله سبحانه خلق الأرواح قبل الأجساد ، والأوّل أولى لقوله (فتمثل لها بشرا سويا) أى تمثل جبريل لها بشرا مستوى الخلق لم يفقد من نعوت بنى آدم شيئا ، قيل ووجه تمثل الملك لها بشرا أنها لاتطيق أن تنظر إلى الملك وهو على صورته ، فلما رأته فى صورة انسان حسن كامل الخلق قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريدها بسوء ، فاستعاذت بالله منه ، و (قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) أى ممن يتقى الله ويخافه ، وقيل ان تقيا اسم رجل صالح ، فتعوّذت منه تعجبا ، وقيل انه اسم رجل فاجر معروف فى ذلك الوقت ، والأوّل أولى ، وجواب الشرط محذوف : أى فلا تتعرض لى (قال إنما أنا رسول ربك) أى قال لها جبريل إنما أنا رسول ربك الذى استعذت به ، ولست ممن يتوقع منه ماخطر ببالك من إرادة السوء (لأهب لك غلاما زكيا) جعل الهبة من قبله لكونه سببا فيها من جهة كون الاعلام لها من جهته ، أو من جهة كون النفخ قام به فى الظاهر . وقرأ أبو عمرو و يعقوب وورش عن نافع

ليهب

لهب على معنى أرسلنى الله لهب لك ، وقرأ الباقون بالهمز * والزكى الطاهر من الذنوب الذى ينمو على النزاهة والعفة ، وقيل المراد بالزكى النبىّ (قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر) أى لم يقربنى زوج ولا غيره (ولم أك بغيا) البغىّ هى الزانية التى تبغى الرجال . قال المبرد : أصله بغوى على فعول قلبت الواو ياء ثم أدغمت فى الياء وكسرت الغين للمناسبة ، وقال ابن جنى انه فعيل ، وزيادة ذكر كونها لم تك بغيا مع كون قولها لم يمسسنى بشر يتناول الحلال والحرام لقصد التأكيد تنزيها لجانبها من الفحشاء ، وقيل ما استبعدت من قدرة الله شيئا ، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد هل من قبل زوج تتزوّجه فى المستقبل أم يخلقه الله سبحانه ابتداء ، وقيل ان المس عبارة عن النكاح الحلال ، وعلى هذا لا يحتاج الى بيان وجه قولها : ولم أك بغيا ، وما ذكرناه من شموله أولى باستعمالات أهل اللغة ، وما يوجد فى محاوراتهم مما يطول تعداده اه (ولنجعله آية للناس) أى ولنجعل هذا الغلام أو خلقه من غير أب آية للناس يستدلون بها على كمال القدرة ، وهو علة لمعلل محذوف ، والتقدير خلقناه لنجعله ، أو معطوف على علة أخرى مضمرة تتعلق بما يدل عليه قوله سبحانه : وهو علىّ هين ، وجملة (قال كذلك قال ربك هو علىّ هين) مستأنفة ، والقائل هو الملك ، والكلام فيها كالكلام فيما تقدم من قول زكرياء * وقوله (ورحمة منا) معطوف على آية : أى ولنجعله رحمة عظيمة كائنة منا للناس لما ينالونه منه من الهداية والخير الكثير ، لأن كل نبىّ رحمة لأمته (وكان أمرا مقضيا) أى وكان ذلك المذكور أمرا مقدرا قد قدره الله سبحانه وجف به القلم (فحملته) هاهنا كلام مطوىّ ، والتقدير فاطمأنت إلى قوله فدنا منها فنفخ فى جيب درعها فوصلت النفخة الى بطنها فحملته ، وقيل كانت النفخة فى ذيلها ، وقيل فى فمها ، قيل ان وضعها كان متصلا بهذا الحمل من غير مضىّ مدة للحمل ، ويدلّ على ذلك قوله (فانتبذت به مكانا قصيا) أى تنحت واعتزلت الى مكان بعيد ، والقصىّ هو البعيد ، قيل كان هذا المكان وراء الجبل ، وقيل أبعد مكان فى تلك الدار ، وقيل أقصى الوادى ، وقيل انها حملت به ستة أشهر ، وقيل ثمانية أشهر ، وقيل سبعة (فأجاءها المخاض الى جذع النخلة) أى ألجأها واضطرها ، ومنه قول زهير : * أجاءته المخافة والرجاء * . وقرأ شبل فاجاءها من المفاجأة ، ورويت هذه القراءة عن عاصم ، وقرأ الحسن بغير همز ، وفى مصحف أبىّ : فلما أجاءها . قال فى الكشاف : ان أجاءها منقول من جاء . إلا أن استعماله قد تعين بعد النقل الى معنى الالجاء ، وفيه بعد ، والظاهر أن كل واحد من الفعلين موضوع بوضع مستقلّ ، والمخاض مصدر مخضت المرأة تمخض مخضا ومخاضا إذا دنا ولادها . وقرأ الجمهور بفتح الميم . وقرأ ابن كثير بكسرها ، والجذع ساق النخلة اليابسة ، كأنها طلبت شيئا تستند اليه وتتعلق به كما تتعلق الحامل لشدّة وجع الطلق بشىء مما تجده عندها ، والتعريف إما للجنس أو للعهد (قالت ياليتنى متّ قبل هذا) أى قبل هذا الوقت ، تمنت الموت لأنها خافت أن يظنّ بها السوء فى دينها ، أو لئلا يقع قوم بسببها فى البهتان (وكنت نسيا) النسى فى كلام العرب الشىء الحقير الذى من شأنه أن ينسى ولا يذكر ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل ، ومنه قول الكميت :

أتجعلنا جسرا لكلب قضاعة * ولسنا بنسى فى معدّ ولا دخل

وقال الفراء : النسى ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها ، فقول مريم (نسيا منسيا) أى حيضة ملقاة ، وقد قرىء بفتح النون وكسرها ، وهما لغتان مثل الحجر والحجر ، والوتر والوتر ، وقرأ محمد بن كعب القرظى نساء بالهمز مع كسر النون . وقرأ نوف البكالى بالهمز مع فتح النون . وقرأ بكر بن حبيب : نسيا بفتح النون وتشديد الياء بدون همز ، والمنسى المتروك الذى لا يذكر ولا يخطر ببال أحد من الناس (فناداها

من تحتها) أي جبريل لما سمع قولها، وكان أسفل منها تحت الأكمة، وقيل تحت النخلة، وقيل المنادى هو عيسى. وقد قرئ بفتح الميم من «من» وكسرها. وقوله (ألا تحزني) تفسير للنداء: أي لا تحزني أو المعنى بأن لا تحزني على أنها المصدرية (قد جعل ربك تحتك سريا) قال جمهور المفسرين السري: النهر الصغير. والمعنى قد جعل ربك تحت قدمك نهرا، قيل كان نهرا قد انقطع عنه الماء، فأرسل الله فيه الماء لمريم، وأحيا به ذلك الجذع اليابس الذي اعتمدت عليه حتى أورق وأثمر، وقيل المراد بالسري هنا عيسى، والسري: العظيم من الرجال، ومنه قولهم فلان سري: أي عظيم، ومن قوم سراة: أي عظام (وهزي إليك بجذع النخلة) الهز التحريك: يقال هزه فاهتز، والباء في بجذع النخلة مزيدة للتوكيد. وقال الفراء العرب تقول هزه وهز به، والجذع هو أسفل الشجرة. قال قطرب. كل خشبة في أصل شجرة فهي جذع، ومعنى اليك الى جهتك، وأصل تساقط تتساقط فأدغم التاء في السين. وقرأ حمزة والأعمش تساقط مخففا. وقرأ عاصم في رواية حفص والحسن بضم التاء مع التخفيف وكسر القاف. وقرئ تتساقط باظهار التاءين. وقرئ بالتحتية مع تشديد السين. وقرئ تسقط ويسقط. وقرأ الباقون بادغام التاء في السين، فمن قرأ بالفوقية جعل الضمير للنخلة، ومن قرأ بالتحتية جعل الضمير للجذع، وانتصاب (رطبا) على بعض هذه القراءات للتمييز، وعلى البعض الآخر على المفعولية لتساقط. قال المبرد والأخفش: يجوز انتصاب رطبا بهزي، أي هزي اليك رطبا (جنيا) بجذع النخلة. أي على جذعها، وضعفه الزمخشري، والجني المأخوذ طريا، وقيل هو ما طاب وصلح للاجتناء، وهو فعيل بمعنى مفعول، قال الفراء: الجني والمجني واحد، وقيل هو فعيل بمعنى فاعل. أي رطبا طريا طيبا (فكلي واشربي) أي من ذلك الرطب وذلك الماء، أو من الرطب وعصيره، وقدم الأكل مع أن ذكر النهر مقدم على الرطب، لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها الى شرب الماء، ثم قال (وقري عينا) قرأ الجمهور بفتح القاف. وحكى ابن جرير أنه قرئ بكسرها، قال وهي لغة نجد. والمعنى طيبي نفسا وارفضي عنك الحزن، وهو مأخوذ من القر والقرة، وهما البرد، والمسرور بارد القلب ساكن الجوارح، وقيل المعنى وقري عينا برؤية الولد الموهوب لك، وقال الشيباني معناه نامي. قال أبو عمرو: أقر الله عينه أي أنام عينه وأذهب سهره (فاما ترين من البشر أحدا) أصله ترءيين: مثل تسمعين خففت الهمزة وسقطت النون للجزم وياء الضمير لما كنين بعد لحوق نون التوكيد، ومثل هذا مع عدم لحوق نون التوكيد قول ابن دريد:

اما ترى رأسي حاكى لونه * طرة صبح تحت أذيال الدجى

وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة، ترين بسكون الياء وفتح النون مخففة، قال أبو الفتح وهي شاذة وجواب الشرط (فقولي إني نذرت للرحمن صوما) أي قولي ان طلب منك الكلام أحد من الناس إني نذرت للرحمن صوما: أي صمتا، وقيل المراد به الصوم الشرعي، وهو الامساك عن المفطرات، والأول أولى، وفي قراءة أبي: إني نذرت للرحمن صوما صمتا بالجمع بين اللفظين وكذا روى عن أنس، وروى عنه أنه قرأ صوما وصمتا بالواو، والذي عليه جمهور المفسرين أن الصوم هنا الصمت، ويدل عليه (فلن أكلم اليوم إنسيا) ومعنى الصوم في اللغة أوسع من المعنيين. قال أبو عبيدة كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم، وقراءة أبي تدل على أن المراد بالصوم هنا الصمت، لأنه تفسير للصوم، وقراءة أنس تدل على أن الصوم هنا غير الصمت كما تفيده الواو، ومعنى: فلن أكلم اليوم إنسيا، أنها لا تكلم أحدا من الانس بعد اخبارهم بهذا الخبر، بل انما تكلم الملائكة وتناجي ربها، وقيل انها لم تخبرهم

هنا باللفظ ، بل بالاشارة المفيدة للنذر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (انتبذت من أهلها مكانا شرقيا) قال مكانا أظلها الشمس أن يراها أحد منهم . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ، قال إنما اتخذت النصارى المشرق قبلة ، لأن مريم اتخذت من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذوا ميلاده قبلة ، وإنما سجدت اليهود على حرف حين نتق فوقهم الجبل ، فجعلوا ينحرفون ، وهم ينظرون اليه : يتخوفون أن يقع عليهم ، فسجدوا سجدة رضيها الله ، فاتخذوها سنة . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى الأسماء والصفات وابن عساكر من طريق السدى عن أبى مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود ، قالا خرجت مريم بنت عمران الى جانب المحراب لحيض أصابها ، فلما طهرت إذا هى برجل معها (فتمثل لها بشرا) ففزعت و (قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) فخرجت وعليها جلبابها ، فأخذ بكمها فنفخ فى جنب درعها ، وكان مشقوقا من قدامها ، فدخلت النفخة صدرها فحملت ، فأتتها أختها امرأة زكرياء ليلة تزورها ، فلما فتحت لها الباب التزمتها ، فقالت امرأة زكرياء يامريم أشعرت أنى حبلى قالت مريم أشعرت أنى حبلى ، فقالت امرأة زكرياء ، فانى وجدت ما فى بطنى سجد للذى فى بطنك ، فذلك قوله تعالى ــ مصدقا بكلمة من الله ــ فولدت امرأة زكرياء يحيى ، ولما بلغ أن تضع مريم خرجت الى جانب المحراب (فأجاءها المخاض الى جذع النخلة ، قالت ياليتنى مت قبل هذا) الآية (فناداها) جبريل (من تحتها ألا تحزنى) فلما ولدته ذهب الشيطان ، فأخبر بنى إسرائيل أن مريم ولدت ، فلما أرادوها على الكلام أشارت الى عيسى فتكلم ف(قال إنى عبد الله آتانى الكتاب) الآيات ولما ولد لم يبق فى الأرض صنم الا خر لوجهه . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى مريم ، قال حين حملت وضعت . وأخرج ابن عساكر عنه ، قال وضعت لثمانية أشهر . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (فأرسلنا اليها روحنا) قال جبريل . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء نحوه أيضا وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الأسماء والصفات وابن عساكر عن أبى بن كعب فى الآية ، قال تمثل لها روح عيسى فى صورة بشر فحملته ، قال حملت الذى خاطبها دخل فى فيها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (مكانا قصيا) قال نائيا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (الى جذع النخلة) قال كان جذعا يابسا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا فى قوله (وكنت نسيا منسيا) قال لم أخلق ولم أك شيئا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة ، وكنت نسيا منسيا ، قال حيضة ملقاة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد نحوه وأخرج عبد بن حميد عن نوف البكالى والضحاك مثله ، وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة فى قوله : فناداها من تحتها ، قال الذى ناداها جبريل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ، قال الذى ناداها من تحتها جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها * وقد اختلفت الروايات عن السلف ، هل هذا المنادى هو جبريل أو عيسى . وأخرج عبد بن حميد عن أبى بكر بن عياش قال قرأ عاصم بن أبى النجود ، فناداها من تحتها بالنصب ، قال وقال عاصم من قرأ بالنصب فهو عيسى ، ومن قرأ بالخفض فهو جبريل . وأخرج الطبرانى وابن مردويه وابن النجار عن ابن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول ان السرى الذى قال الله لمريم (قد جعل ربك تحتك سريا) نهر أخرجه الله لها لتشرب منه ، وفى إسناده أيوب بن نهيك الجبلى ، قال فيه أبو حاتم الرازى ضعيف ، وقال أبو زرعة منكر

الحديث ، وقال أبو فتح الأزدى متروك الحديث ، وقال الطبرانى بعد إخراج هذا الحديث انه غريب جدا وأخرج الطبرانى فى الصغير وابن مردويه عن البراء بن عازب عن النبى ﷺ فى قوله قد جعل ربك تحتك سريا ، قال النهر ، وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وصححه والحاكم وابن مردويه عن البراء ، قال فى الآية هو الجدول ، وهو النهر الصغير ، فناهر بهذا أن الموقوف أصح * وقد روى عن جماعة من التابعين أن السرىّ هو عيسى ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (رطبا جنيا) قال طريا ، وأخرج ابن المنذر وابن مردويه فى قوله (إنى نذرت للرحمن صوما) قال صمتا ، وأخرج عبد بن حميد وابن الانبارى عنه أنه قرأ صوما صمتا .

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا * يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا * وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا * وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا *

لما اطمأنت مريم عليها السلام بما رأت من الآيات وفرغت من نفاسها (أتت به) أى بعيسى ، وجملة (تحمله) فى محل نصب على الحال ، وكان إتيانها اليهم من المكان القصىّ التى انتبذت فيه ، فلما رأوا الولد معها حزنوا ، وكانوا أهل بيت صالحين (فقالوا) منكرين لذلك (يامريم لقدجئت) أى فعلت (شيئا فريا) قال أبو عبيدة : الفرىّ العجيب النادر ، وكذا قال الأخفش ، والفرى القطع ، كأنه مما يخرق العادة ، أو يقطع بكونه عجيبا نادرا ، وقال قطرب الفرى الجديد من الأسقية ، أى جئت بأمر بديع جديد لم تسبق اليه ، وقال سعيد بن مسعدة الفرىّ المختلق المفتعل ، يقال فريت وأفريت بمعنى واحد ، والولد من الزنا كالشيء المفترى ، قال تعالى ــ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ــ وقال مجاهد الفرىّ العظيم (ياأخت هارون)

قد وقع الخلاف فى معنى هذه الأخوّة ، وفى هارون المذكور من هو ؟ فقيل هو هارون أخو موسى ، والمعنى أن من كان نظنها مثل هارون فى العبادة كيف تأتى بمثل هذا ، وقيل كانت مريم من ولد هارون أخى موسى ، فقيل لها ياأخت هارون ، كما يقال لمن كان من العرب : ياأخا العرب ، وقيل كان لها أخ من أبيها اسمه هارون ، وقيل هارون هذا رجل صالح فى ذلك الوقت ، وقيل بل كان فى ذلك الوقت رجل فاجر اسمه هارون ، فنسبوها اليه على وجهة التعيير والتوبيخ ، حكاه ابن جرير ولم يسم قائله وهو ضعيف (ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا) هذا فيه تقرير لما تقدّم من التعيير والتوبيخ ، وتنبيه على أن الفاحشة من ذرّية الصالحين مما لاينبغى أن تكون (فأشارت اليه) أى الى عيسى ، وإنما اكتفت بالاشارة ولم تأمره بالنطق ، لأنها نذرت للرحمن صوما عن الكلام كما تقدم ، هذا على تقدير أنها كانت إذذاك فى أيام نذرها ، وعلى تقدير أنها قد خرجت من أيام نذرها ، فيمكن أن يقال ان اقتصارها على الاشارة للمبالغة فى اظهار الآية العظيمة ، وأن هذا المولود يفهم الاشارة ويقدر على العبارة (قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) هذا الاستفهام للانكار والتعجب من اشارتها الى ذلك

المولود

المولود بأن يكلمهم ، قال أبو عبيدة : فى الكلام حشو زائد * والمعنى كيف نكلم صبيا فى المهد كقول الشاعر : * وجيران لنا كانوا كرام * وقال الزجاج : الأجود أن تكون من فى معنى الشرط والجزاء ، والمعنى من يكون فى المهد صبيا فكيف نكلمه ، ورجحه ابن الأنبارى وقال : لايجوز أن يقال ان كان زائدة ، وقد نصبت صبيا ، ويجاب عنه بأن القائل بزيادتها يجعل الناصب له الفعل ، وهو نكلم كما سبق تقديره ، وقيل ان كان هنا هى التامة التى بمعنى الحدوث والوجود ، ورد بأنها لو كانت تامة لاستغنت عن الخبر ، والمهد هو شىء معروف يتخذ لتنويم الصبى * والمعنى كيف نكلم من سبيله أن ينوم فى المهد لصغره ، وقيل هو هنا حجر الأم ، وقيل سرير كالمهد ، فلما سمع عيسى كلامهم (قال إنى عبد الله) فكان أول ما نطق به الاعتراف بالعبودية لله (آتانى الكتاب) أى الانجيل : أى حكم لى بإيتائى الكتاب والنبوة فى الأزل ، وان لم يكن قد نزل عليه فى تلك الحال ، ولا قد صار نبيا ، وقيل انه آتاه الكتاب وجعله نبيا فى تلك الحال ، وهو بعيد (وجعلنى مباركا أين ما كنت) أى حيثما كنت ، والبركة أصلها من بروك البعير ، والمعنى جعلنى ثابتا فى دين الله ، وقيل البركة هى الزيادة والعلو ، فكأنه قال جعلنى فى جميع الأشياء زائدا عاليا منجحا ، وقيل معنى المبارك النفاع للعباد ، وقيل المعلم للخير ، وقيل الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر (وأوصانى بالصلاة) أى أمرنى بها (والزكاة) زكاة المال ، أو تطهير النفس (مادمت حيا) أى مدة دوام حياتى ، وهذه الأفعال الماضية هى من باب تنزيل مالم يقع منزلة الواقع تنبيها على تحقق وقوعه لكونه قد سبق فى القضاء المبرم (وبرا بوالدتى) معطوف على مباركا ، واقتصر على البر بوالدته لأنه قد علم فى تلك الحال أنه لم يكن له أب ، وقرئ وبرا بكسر الباء على أنه مصدر وصف به مبالغة (ولم يجعلنى جبارا شقيا) الجبار المتعظم الذى لايرى لأحد عليه حقا ، والشقى العاصى لربه ، وقيل الخائب ، وقيل العاق (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) قال المفسرون . السلام هنا بمعنى السلامة . أى السلامة على يوم ولدت فلم يضرنى الشيطان فى ذلك الوقت ولا أغوانى عند الموت ولا عند البعث ، وقيل المراد به التحية ، قيل واللام للجنس ، وقيل للعهد . أى وذلك السلام الموجه الى يحيى فى هذه المواطن الثلاثة موجه الى ، قيل انه لم يتكلم المسيح بعد هذا الكلام حتى بلغ المدة التى تتكلم فيها الصبيان فى العادة .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله (فأتت به قومها تحمله) قال : بعد أربعين يوما بعد ماتعالت من نفاسها . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن المغيرة بن شعبة ، قال بعثنى رسول الله ﷺ إلى أهل نجران ، فقالوا أرأيت ماتقرءون : يا أخت هارون ؟ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، قال فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم ؟ وهذا التفسير النبوى يغنى عن سائر ماروى عن السلف فى ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال : كان عيسى قد درس الانجيل وأحكامها فى بطن أمه ، فذلك قوله (إنى عبد الله آتانى الكتاب) . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : آتانى الكتاب الآية ، قال قضى أن أكون كذلك . وأخرج الاسماعيلى فى معجمه وأبو نعيم فى الحلية وابن مردويه وابن النجار عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ فى قول عيسى : وجعلنى مباركا أين ما كنت قال « جعلنى نفاعا للناس أينما اتجهت » . وأخرج ابن عدى وابن عساكر عن ابن مسعود عن النبى ﷺ فى قوله (وجعلنى مباركا) قال معلما ومؤدبا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولم يجعلنى جبارا شقيا) يقول عصيا .

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلُ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۞ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۞ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۞ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۞ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۞

الاشارة بقوله (ذلك) الى المتصف بالأوصاف السابقة . قال الزجاج . ذلك الذى قال إنى عبد الله عيسى ابن مريم ، لاماتقوله النصارى : من أنه ابن الله وأنه إله . وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب : قول الحق بالنصب . وقرأ الباقون بالرفع ، فوجه القراءة الأولى أنه منتصب على المدح ، أوعلى أنه مصدر مؤكد لقال إنى عبد الله . قاله الزجاج ، ووجه القراءة الثانية أنه نعت لعيسى . أى ذلك عيسى ابن مريم قول الحقّ ، قاله الكسائى ، وسمى قول الحق كما سمى كلمة الله ، والحق هو الله عزّ وجلّ ، وقال أبو حاتم : المعنى هو قول الحق ، وقيل التقدير هذا الكلام قول الحق ، وهو من باب اضافة الموصوف الى الصفة مثل حق اليقين ، وقيل الاضافة للبيان ، وقرئ قال الحق ، وروى ذلك عن ابن مسعود ، وقرأ الحسن قول الحقّ بضم القاف ، والقول والقول والقال والمقال بمعنى واحد ، و (الذى فيه يمترون) صفة لعيسى : أى ذلك عيسى ابن مريم الذى فيه يمترون قول الحق ، ومعنى يمترون يختلفون على أنه من المماراة ، أو يشكون على أنه من المرية . وقد وقع الاختلاف فى عيسى ، فقالت اليهود هو ساحر ، وقالت النصارى هو ابن الله (ما كان لله أن يتخذ من ولد) أى ماصحّ ولا استقام ذلك ، فأن فى محل رفع على أنها اسم كان . قال الزجاج : من فى من ولد مؤكدة تدلّ على نفى الواحد والجماعة ، ثم نزه سبحانه نفسه . فقال (سبحانه) أى تنزه وتقدس عن مقالتهم هذه ، ثم صرح سبحانه بما هو شأنه ، تعالى سلطانه ، فقال (اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) أى اذا قضى أمرا من الأمور فيكون حينئذ بلا تأخير . وقد سبق الكلام على هذا مستوفى فى البقرة ، وفى إيراده فى هذا الموضع تبكيت عظيم للنصارى : أى من كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد ؟ (وأن الله ربى وربكم فاعبدوه) قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو بفتح أن . وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة بكسرها ، وهو من تمام كلام عيسى ، وقرأ أبىّ ان الله بغير واو ، قال الخليل وسيبويه : فى توجيه قراءة النصب بأن المعنى ولأن الله ربى وربكم ، وأجاز الفراء أن يكون فى موضع خفض عطفا على الصلاة ، وجوّز أبو عمرو بن العلاء عطفه على أمرا (هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى ذكرته لكم من أنه ربى وربكم ، هو الطريق القيم الذى لا اعوجاج فيه ولا يضلّ سالكه (فاختلف الأحزاب من بينهم) من زائدة للتوكيد ، والأحزاب اليهود والنصارى . أى فاختلفت الفرق من أهل الكتاب فى أمر عيسى ، فاليهود قالوا انه ساحر كما تقدم ، وقالوا انه ابن يوسف النجار ، والنصارى اختلفت فرقهم فيه ، فقالت النسطورية منهم هو ابن الله ، وقالت الملكية هو ثالث ثلاثة ، وقالت اليعقوبية هو الله تعالى فأفرطت النصارى وغلت ، وفرّطت اليهود وقصرت (فويل للذين كفروا) وهم المختلفون فى أمره (من مشهد يوم عظيم) أى من شهود يوم القيامة وما يجرى فيه من الحساب والعقاب ، أو من مكان الشهود فيه ، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم ، وقيل المعنى فويل لهم من حضورهم المشهد العظيم الذى اجتمعوا فيه للتشاور (أسمع بهم وأبصر) قال أبو العباس : العرب تقول هذا فى موضع التعجب ، فيقولون : أسمع بزيد ، وأبصر به : أى ما أسمعه وأبصره

فعجب

فعجب الله سبحانه نبيه ﷺ منهم (يوم يأتوننا) أي للحساب والجزاء (لكن الظالمون اليوم) أي في الدنيا (في ضلال مبين) أي واضح ظاهر ولكنهم أغفلوا التفكر، والاعتبار والنظر في الآثار (وأنذرهم يوم الحسرة) أي يوم يتحسرون جميعا، فالمسيء يتحسر على إساءته، والمحسن على عدم استكثاره من الخير (إذ قضى الأمر) أي فرغ من الحساب، وطويت الصحف، وصار أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وجملة (وهم في غفلة) في محل نصب على الحال: أي غافلين عما يعمل بهم، وكذلك جملة (وهم لا يؤمنون) في محل نصب على الحال (إنا نحن نرث الأرض ومن عليها) أي نميت سكانها فلا يبقى بها أحد يرث الأموات، فكأنه سبحانه ورث الأرض ومن عليها حيث أماتهم جميعا (وإلينا يرجعون) أي يردون إلينا يوم القيامة فنجازي كلا بعمله، وقد تقدم مثل هذا في سورة الحجر.

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (قول الحق) قال: الله الحق عز وجل. وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عنه في قوله (الذي فيه يمترون) قال: اجتمع بنو إسرائيل وأخرجوا منهم أربعة نفر من كل قوم عالمهم فامتروا في عيسى حين رفع، فقال أحدهم هو الله هبط الى الأرض وأحيا من أحيا، وأمات من أمات، ثم صعد الى السماء، وهم اليعقوبية، فقالت الثلاثة كذبت، ثم قال اثنان منهم للثالث قل فيه، فقال هو ابن الله وهم النسطورية، فقال اثنان كذبت، ثم قال أحد الاثنين للآخر قل فيه، فقال: هو ثالث ثلاثة، الله إله، وعيسى إله، وأمه إله، وهم الاسرائيلية، وهم ملوك النصارى، فقال الرابع: كذبت، هو عبد الله ورسوله وروحه من كلمته وهم المسلمون، فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال فاقتتلوا، فظهروا على المسلمين، فذلك قول الله سبحانه — ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس — قال قتادة وهم الذين قال الله — فاختلف الأحزاب من بينهم — قال اختلفوا فيه، فصاروا أحزابا فاختصم القوم، فقال المرء المسلم أنشدكم بالله: هل تعلمون أن عيسى كان يطعم الطعام، وأن الله لا يطعم؟ قالوا اللهم نعم، قال فهل تعلمون أن عيسى كان ينام، وأن الله لا ينام؟ قالوا اللهم نعم فخصمهم المسلمون فاقتتل القوم، فذكر لنا أن اليعقوبية ظهرت يومئذ وأصيب المسلمون، فأنزل الله (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم). وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (أسمع بهم وأبصر) يقول الكفار يومئذ أسمع شيء وأبصره، وهم اليوم لا يسمعون ولا يبصرون. وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (يوم يأتوننا) قال ذلك يوم القيامة. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «اذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا، فيشرئبون وينظرون اليه، فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه، ثم ينادى يا أهل النار هل تعرفون هذا، فيشرئبون وينظرون، فيقولون نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه فيؤمر به فيذبح، ويقال يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ (وأنذرهم يوم الحسرة) الآية، وأشار بيده قال: أهل الدنيا في غفلة. وأخرج النسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعا نحوه. وأخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال: يوم الحسرة: هو من أسماء يوم القيامة، وقرأ — أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله —، وعلي هذا ضعيف، والآية التي استدل بها ابن عباس لا تدل على المطلوب لا بمطابقة ولا تضمن ولا التزام.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ

وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ۞ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۞ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۞ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ۞ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ۞ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ۞ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ۞ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۞ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۞

قوله (واذكر) معطوف على وأنذر ، والمراد بذكر الرسول إياه فى الكتاب أن يتلو ذلك على الناس كقوله ـ واتل عليهم نبأ إبراهيم ـ ، وجملة (إنه كان صدّيقا نبيّا) تعليل لما تقدّم من الأمر لرسول الله ﷺ بأن يذكره ، وهى معترضة مابين البدل والمبدل منه ، والصدّيق كثير الصدق ، وانتصاب نبيّا على أنه خبرآخر لكان : أى اذكر إبراهيم الجامع لهذين الوصفين ، و(إذ قال لأبيه) بدل اشتمال من إبراهيم ، وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ماوقع فيه من الحوادث للمبالغة ، وأبو إبراهيم هوآزر على ما تقدّم تقريره ، والتاء فى ياأبت عوض عن الياء ، ولهذا لايجتمعان ، والاستفهام فى (لم تعبد) للإنكار والتوبيخ (مالا يسمع) ما تقوله من الثناء عليه والدعاء له (ولا يبصر) ماتفعله من عبادته ومن الأفعال التى تفعلها مريدا بها الثواب ، ويجوز أن يحمل نفى السمع والابصارعلى ماهو أعمّ من ذلك : أى لا يسمع شيئا من المسموعات ، ولا يبصر شيئا من المبصرات (ولا يغنى عنك شيئا) من الأشياء ، فلا يجلب لك نفعا ولا يدفع عنك ضررا ، وهى الأصنام التى كان يعبدها آزر .

أورد إبراهيم عليه السلام على أبيه الدلائل والنصائح ، وصدّر كلا منها بالنداء المتضمن للرفق واللين استمالة لقلبه ، وامتثالا لأمر ربه ، ثم كرر دعوته الى الحق ، فقال (ياأبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك) فأخبر أنه قد وصل اليه من العلم نصيب لم يصل الى أبيه ، وأنه قد تجدّد له حصول ما يتوصل به منه الى الحق ، ويقتدر به على إرشاد الضالّ ، ولهذا أمره باتباعه ، فقال (فاتبعنى أهدك صراطا سويا) مستويا موصلا الى المطلوب منجيا من المكروه ، ثم أكد ذلك بنصيحة أخرى زاجرة له عما هو فيه فقال (ياأبت لا تعبد الشيطان) أى لا تطعه ، فإن عبادة الأصنام : هى من طاعة الشيطان ، ثم علل ذلك بقوله (إنّ الشيطان كان للرحمن عصيا) حين ترك ما أمره به من السجود لآدم ، ومن أطاع من هو عاص لله سبحانه فهو عاص لله ، والعاصى حقيق بأن تسلب عنه النعم وتحلّ به النقم . قال الكسائى : العصى والعاصى بمعنى واحد ، ثم بين له الباعث على هذه النصائح ، فقال (ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) قال الفراء : معنى أخاف هنا أعلم . وقال الأكثرون ان الخوف هنا محمول على ظاهره ، لأن إبراهيم غيرجازم بموت أبيه على الكفر ، إذ لو كان جازما بذلك لم يشتغل بنصحه ، ومعنى الخوف على الغير : هو أن يظنّ وصول الضرر الى ذلك الغير (فتكون للشيطان وليا) أى انك اذا أطعت الشيطان كنت معه فى النار واللعنة ، فتكون بهذا السبب مواليا ، أوتكون بسبب موالاته فى العذاب معه ، وليس هناك ولاية حقيقية لقوله سبحانه ـ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ ـ وقيل

الولىّ بمعنى التالى ، وقيل الولىّ بمعنى القريب : أى تكون للشيطان قريبا منه فى النار ، فلما مرّت هذه النصائح النافعة والمواعظ المقبولة بسمع آزر قابلها بالغلاظة والفظاظة والقسوة المفرطة ، ف(قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم) والاستفهام للتقريع والتوبيخ والتعجيب ، والمعنى أمعرض أنت عن ذلك ومنصرف الى غيره ؟ ثم توعده ، فقال (لئن لم تنته لأرجمنك) أى بالحجارة ، وقيل باللسان ، فيكون معناه لأشتمنك ، وقيل معناه لأضربنك ، وقيل لأظهرنّ أمرك (واهجرنى مليا) أى زمانا طويلا . قال الكسائى : يقال هجرته مليا وملوة وملاوة ، بمعنى الملاوة من الزمان ، وهو الطويل ، ومنه قول مهلهل :

فتصدّعت صمّ الجبال لموته * وبكت عليه المرملات مليا

وقيل معناه اعتزلنى سالم العرض لا اصيبك منى معرّة ، واختار هذا ابن جرير ، فمليا على هذا منتصب على الحال من إبراهيم ، وعلى القول الأوّل منتصب على الظرفية ، فلما رأى إبراهيم إصرار أبيه على العناد (قال سلام عليك) أى تحية توديع ومتاركة كقوله ـ واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ـ وقيل معناه أمنة منى لك ، قاله ابن جرير ، وانما أمنه مع كفره لأنه لم يؤمر بقتاله ، والأوّل أولى ، وبه قال الجمهور ، وقيل معناه الدعاء له بالسلامة ، استمالة له ورفقا به ، ثم وعده بأن يطلب له المغفرة من الله سبحانه تألفا له وطمعا فى لينه وذهاب قسوته :

والشيخ لا يترك أخلاقه * حتى يوارى فى ثرى رمسه

وكان منه هذا الوعد قبل أن يعلم أنه يموت على الكفر ، وتحق عليه الكلمة ، ولهذا قال الله سبحانه فى موضع آخر ـ فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرّأ منه ـ بعد قوله ـ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ـ وجملة (إنه كان بى حفيا) تعليل لما قبلها ، والمعنى سأطلب لك المغفرة من الله فانه كان بى كثير البرّ واللطف : يقال حفى به وتحفّى اذا برّه . قال الكسائى : يقال حفى بى حفاوة وحفوة ، وقال الفراء إنه كان بى حفيا : أى عالما لطيفا يجيبنى اذا دعوته ، ثم صرح الخليل بما تضمنه سلامه من التوديع والمتاركة ، فقال (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله) أى أهاجر بدينى عنكم وعن معبوداتكم حيث لم تقبلوا نصحى ولا نجعت فيكم دعوتى (وأدعوا ربى) وحده (عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا) أى خائبا ، وقيل عاصيا ، قيل أراد بهذا الدعاء : هو أن يهب الله له ولدا وأهلا يستأنس بهم فى اعتزاله ويطمأن اليهم عند وحشته ، وقيل أراد دعاءه لأبيه بالهداية ، وعسى للشك لأنه كان لا يدرى هل يستجاب له فيه أم لا ، والأوّل أولى لقوله (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب) أى جعلنا هؤلاء الموهوبين له أهلا وولدا بدل الأهل الذين فارقهم (وكلا جعلنا نبيّا) أى كل واحد منهما ، وانتصاب كلا على أنه المفعول الأوّل لجعلنا ، قدّم عليه للتخصيص ، لكن بالنسبة اليهم أنفسهم ، لا بالنسبة الى من عداهم : أى كل واحد منهم جعلنا نبيا ، لا بعضهم دون بعض (ووهبنا لهم من رحمتنا) بأن جعلناهم أنبياء ، وذكر هذا بعد التصريح بجعلهم أنبياء لبيان أن النبوّة هى من باب الرحمة ، وقيل المراد بالرحمة هنا المال ، وقيل الأولاد ، وقيل الكتاب ، ولا يبعد أن يندرج تحتها جميع هذه الامور (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) لسان الصدق الثناء الحسن ، عبر عنه باللسان لكونه يوجد به كما عبر باليد عن العطية ، وإضافته الى الصدق ووصفه بالعلوّ للدلالة على أنهم أحقاء بما يقال فيهم من الثناء على ألسن العباد .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (لأرجمنك) قال لأشتمنك (واهجرنى

XIR. ٤٥-٦٤

مليا) قال حينا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه واهجرنى مليا ، قال اجتنبنى سويا . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا فى الآية ، قال اجتنبنى سالما قبل أن تصيبك منى عقوبة . وأخرج عبد ابن حميد عن سعيد بن جبير وعكرمة مليا : دهرا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ، قال سالما . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (إنه كان بى حفيا) قال لطيفا . وأخرج ابن أبي حاتم عنه فى قوله (ووهبنا له إسحق ويعقوب) قال يقول وهبنا له إسحق ويعقوب ابن ابنه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا فى قوله (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) قال الثناء الحسن .

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا * وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا * وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا * أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا * جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا *

قفى سبحانه قصة إبراهيم بقصة موسى لأنه تلوه فى الشرف ، وقدّمه على اسمعيل لئلا يفصل بينه وبين ذكر يعقوب : أى واقرأ عليهم من القرآن قصة موسى (إنه كان مخلصا) قرأ أهل الكوفة بفتح اللام : أى جعلناه مختارا وأخلصناه ، وقرأ الباقون بكسرها : أى أخلص العبادة والتوحيد لله غير مراء للعباد (إنه كان رسولا نبيا) أى أرسله الله الى عباده فأنبأهم عن الله بشرائعه التى شرعها لهم ، فهذا وجه ذكر النبيّ بعد الرسول مع استلزام الرسالة للنبوّة ، فكأنه أراد بالرسول معناه اللغوى لا الشرعى ، والله أعلم ، وقال النيسابورى الرسول الذى معه كتاب من الأنبياء ، والنبيّ الذى ينبئ عن الله عز وجل وان لم يكن معه كتاب ، وكان المناسب ذكر الأعمّ قبل الأخص الا أن رعاية الفاصلة اقتضت عكس ذلك كقوله فى طه — رب هارون وموسى — انتهى (وناديناه من جانب الطور الأيمن) أى كلمناه من جانب الطور ، وهو جبل بين مصر ، ومدين اسمه زبير ، ومعنى الأيمن أنه كان ذلك الجانب عن يمين موسى فان الشجرة كانت فى ذلك الجانب ، والنداء وقع منها ، وليس المراد يمين الجبل نفسه . فان الجبال لا يمين لها ولا شمال ، وقيل معنى الأيمن الميمون ، ومعنى النداء أنه تمثل له الكلام من ذلك الجانب (وقرّبناه نجيا) أى أدنيناه بتقريب المنزلة حتى كلمناه ، والنجىّ بمعنى المناجى كالجليس والنديم ، فالتقريب هنا هو تقريب التشريف والاكرام ، مثلت حاله بحال من قربه الملك لمناجاته . قال الزجاج قربه منه فى المنزلة حتى سمع

مناجاته ، وقيل ان الله سبحانه رفعه حتى سمع صريف القلم ، روى هذا عن بعض السلف (ووهبنا له من رحمتنا) أى من نعمتنا ، وقيل من أجل رحمتنا ، و (هارون) عطف بيان ، و (نبيا) حال منه ، وذلك حين سأل ربه قال — واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى — ووصف الله سبحانه اسمعيل بصدق الوعد مع كونه جميع الأنبياء كذلك ، لأنه كان مشهورا بذلك مبالغا فيه ، وناهيك بأنه وعد الصبر من نفسه على الذبح فوفى بذلك ، وكان ينتظر لمن وعده بوعد الأيام والليالى ، حتى قيل انه انتظر لبعض من وعده حولا ، والمراد باسمعيل هنا هو اسمعيل بن ابراهيم ، ولم يخالف فى ذلك الامن لا يعتد به ، فقال هو اسمعيل بن حزقيل ، بعثه الله الى قومه فسلخوا جلدة رأسه ، نخيره الله فيما شاء من عذابهم ، فاستعفاه ورضى بثوابه ، وقد استدل بقوله تعالى فى اسمعيل (وكان رسولا نبيا) على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة فان أولاد ابراهيم كانوا على شريعته ، وقيل انه وصفه بالرسالة ، لكون ابراهيم أرسله الى جرهم (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة) قيل المراد بأهله هنا أمته ، وقيل جرهم ، وقيل عشيرته كما فى قوله — وأنذر عشيرتك الأقربين — والمراد بالصلاة والزكاة هنا ، هما العبادتان الشرعيتان ، ويجوز أن يراد معناهما اللغوى (وكان عند ربه مرضيا) أى رضيا زاكيا صالحا . قال الكسائى والفراء من قال مرضىّ بنى على رضيت ، قالا وأهل الحجاز يقولون مرضوّ (واذكر فى الكتاب إدريس) اسم إدريس أخنوخ قيل هو جدّ نوح ، فان نوحا هو ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ ، وعلى هذا فيكون جدّ أبى نوح ذكره الثعلبى وغيره ، وقد قيل ان هذا خطأ ، وامتناع إدريس للعجمة والعلمية ٭ وهو أوّل من خط بالقلم ونظر فى النجوم والحساب ، وأوّل من خاط الثياب ، قيل وهو أوّل من أعطى النبوّة من بنى آدم ، وقد اختلف فى معنى قوله (ورفعناه مكانا عليا) فقيل ان الله رفعه الى السماء الرابعة ، وقيل الى السادسة ، وقيل الى الثانية ، وقد روى البخارى فى صحيحه من حديث الاسراء وفيه : ومنهم إدريس فى الثانية ، وهو غلط من رواية شريك بن عبد الله بن أبى نمر ٭ والصحيح أنه فى السماء الرابعة كما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أنس بن مالك عن النبىّ ﷺ وقيل ان المراد برفعه مكانا عليا : ما أعطيه من شرف النبوّة ، وقيل انه رفع الى الجنة (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين) الاشارة الى المذكورين من أوّل السورة الى هنا ، والموصول صفته ، ومن النبيين بيان للموصول ، و (من ذرية آدم) بدل منه باعادة الخافض ، وقيل ان من فى من ذرية آدم للتبعيض (وممن حملنا مع نوح) أى من ذرّية من حملنا معه وهم من عدا إدريس ، فان إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح (ومن ذرّية إبراهيم) وهم الباقون (وإسرائيل) أى ومن ذرّية إسرائيل ، ومنهم موسى وهارون ويحيى وعيسى ، وقيل انه أراد بقوله من من ذرّية آدم إدريس وحده ، وأراد بقوله وممن حملنا مع نوح إبراهيم وحده ، وأراد بقوله ومن ذرّية ابراهيم اسمعيل واسحق ويعقوب ، وأراد بقوله ومن ذرّية إسرائيل موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى (وممن هدينا) أى من جملة من هدينا الى الاسلام (واجتبينا) بالايمان (اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجدا وبكيا) وهذا خبر لأولئك ، ويجوز أن يكون الخبر هو الذين أنعم الله عليهم ، وهذا استئناف لبيان خشوعهم لله وخشيتهم منه . وقد تقدّم فى سبحان بيان معنى خرّوا سجدا : يقال بكى يبكى بكاء وبكيا . قال الخليل : اذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن : أى ليس معه صوت ، ومنه قول الشاعر :

بكت عينى وحقّ لها بكاها ٭ وما يغنى البكاء ولا العويل

وسجدا منصوب على الحال . قال الزجاج : قد بين الله أن الأنبياء كانوا اذا سمعوا آيات الله بكوا وسجدوا ، وقد استدلّ بهذه الآية على مشروعية سجود التلاوة ، ولما مدح هؤلاء الأنبياء بهذه الأوصاف ترغيبا لغيرهم

فى الاقتداء بهم وسلوك طريقتهم ذكر أضدادهم تنفيرا للناس عن طريقتهم ؛ فقال (فخلف من بعدهم خلف) أى عقب سوء . قال أهل اللغة : يقال لعقب الخير خلف بفتح اللام ، ولعقب الشرّ خلف بسكون اللام ، وقد قدّمنا الكلام على هذا فى آخر الأعراف (أضاعوا الصلاة) قال الأكثر : معنى ذلك أنهم أخروها عن وقتها ، وقيل أضاعوا الوقت ، وقيل كفروا بها وجحدوا وجوبها ، وقيل لم يأتوا بها على الوجه المشروع ، والظاهر أن من أخر الصلاة عن وقتها أو ترك فرضا من فروضها أو شرطا من شروطها أو ركنا من أركانها فقد أضاعها ، ويدخل تحت الاضاعة من تركها بالمرّة أو جحدها دخولا أوّليا .

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية ؟ فقيل فى اليهود ، وقيل فى النصارى ، وقيل فى قوم من أمة محمد ﷺ يأتون فى آخر الزمان ، ومعنى (واتبعوا الشهوات) أى فعلوا ماتشتهيه أنفسهم وترغب اليه من المحرّمات كشرب الخمر والزنا (فسوف يلقون غيا) الغىّ هو الشرّ عند أهل اللغة كما أن الخير هو الرشاد ♦ والمعنى أنهم سيلقون شرّا لاخيرا ، وقيل الغىّ الضلال ، وقيل الخيبة ، وقيل هو اسم واد فى جهنم ، وقيل فى الكلام حذف ، والتقدير سيلقون جزاء الغىّ كذا قال الزجاج ، ومثله قوله سبحانه ـ يلق أثاما ـ أى جزاء أثام (إلا من تاب وآمن وعمل صالحا) أى تاب مما فرط منه من تضييع الصلوات واتباع الشهوات فرجع إلى طاعة الله وآمن به وعمل عملا صالحا ، وفى هذا الاستثناء دليل على أن الآية فى الكفرة لافى المسلمين (فأولئك يدخلون الجنة) قرأ أبو جعفر وشيبة وابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر يدخلون بضم الياء وفتح الخاء ، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الخاء (ولا يظلمون شيئا) أى لاينقص من أجورهم شىء وان كان قليلا ، فان الله سبحانه يوفى اليهم أجورهم ، وانتصاب (جنات عدن) على البدل من الجنة ، بدل البعض لكون جنات عدن بعض من الجنة . قال الزجاج : ويجوز جنات عدن بالرفع على الابتداء ، وقرئ كذلك ، قال أبو حاتم ولولا الخط لكان جنة عدن : يعنى بالافراد مكان الجمع وليس هذا بشىء ، فان الجنة اسم لمجموع الجنات التى هى بمنزلة الأنواع للجنس ، وقرئ بنصب الجنات على المدح ، وقد قرئ جنة بالافراد (التى وعد الرحمن عباده بالغيب) هذه الجملة صفة لجنات عدن ، و بالغيب فى محل نصب على الحال من الجنات ، أو من عباده : أى متلبسة ، أو متلبسين بالغيب ، وقرئ بصرف عدن ، ومنعها على أنها علم لمعنى العدن ، وهو الاقامة ، أو علم لأرض الجنة (إنه كان وعده مأتيا) أى موعوده على العموم ، فتدخل فيه الجنات دخولا أوّليا . قال الفراء : لم يقل آتيا ، لأن كل ما أتاك فقد أتيته ، وكذا قال الزجاج (لايسمعون فيها لغوا) هو الهذر من الكلام الذى يلغى ولا طائل تحته ، وهو كناية عن عدم صدور اللغو منهم ، وقيل اللغو كل ما لم يكن فيه ذكر الله (إلا سلاما) هو استثناء منقطع : أى سلام بعضهم على بعض ، أو سلام الملائكة عليهم . وقال الزجاج السلام : اسم جامع للخير ، لأنه يتضمن السلامة ♦ والمعنى : أن أهل الجنة لايسمعون مايؤلمهم وانما يسمعون مايسلمهم (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) . قال المفسرون : ليس فى الجنة بكرة ولا عشية ، ولكنهم يؤتون رزقهم على مقدار مايعرفون من الغداء والعشاء (تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا) أى هذه الجنة التى وصفنا أحوالها نورثها من كان من أهل التقوى كما يبقى على الوارث مال موروثه ، قرأ يعقوب نورّث بفتح الواو وتشديد الراء ، وقرأ الباقون بالتخفيف ، وقيل فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : نورث من كان تقيا من عبادنا .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وكان رسولا نبيا) قال النبىّ الذى يكلم و ينزل عليه ولا يرسل ، ولفظ ابن أبى حاتم « الأنبياء الذين ليسوا برسل يوحى الى

أحدهم

أحدهم ولا يرسل الى أحد » . والرسل : الأنبياء الذين يوحى اليهم ويرسلون . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (جانب الطور الأيمن) قال جانب الجبل الأيمن (وقربناه نجيا) قال نجا بصدقه . وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية قال : قربه حتى سمع صريف القلم ، وروى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس في الآية قال : حتى سمع صريف القلم يكتب في اللوح . وأخرجه الديلمي عنه مرفوعا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون) قال كان هرون أكبر من موسى ، ولكن انما وهب له نبوته . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ورفعناه مكانا عليا) قال كان ادريس خياطا ، وكان لايغرز غرزة الا قال سبحان الله ، وكان يمسي حين يمسي ، وليس على الأرض أفضل عملا منه ، فاستأذن ملك من الملائكة ربه ، فقال : يارب ائذن لي فأهبط إلى ادريس ؟ فأذن له فأتى ادريس ، فقال : إني جئتك لأخدمك : قال كيف تخدمني وأنت ملك وأنا انسان ؟ ثم قال ادريس هل بينك و بين ملك الموت شيء ؟ قال الملك ذاك أخي من الملائكة . قال هل تستطيع أن تنفعني ؟ قال أما يؤخر شيئا أو يقدمه فلا ، ولكن سأكلمه لك فيرفق بك عند الموت ، فقال اركب بين جناحي : فركب ادريس فصعد الى السماء العليا فلقي ملك الموت و إدريس بين جناحيه ، فقال له الملك : ان لي اليك حاجة ، قال علمت حاجتك تكلمني في إدريس ، وقد محي اسمه من الصحيفة فلم يبق من أجله الا نصف طرفة عين ، فمات ادريس بين جناحي الملك . وأخرج ابن أبي شيبة في المصاحف وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : سألت كعبا فذكر نحوه ، فهذا هو من الاسرائيليات التي يرويها كعب . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال « رفع إدريس إلى السماء السادسة » . وأخرج الترمذي وصححه وابن المنذر وابن مردويه قال : حدثنا أنس ابن مالك عن النبيّ ﷺ قال « لما عرج بي رأيت إدريس في السماء الرابعة » . وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدريّ مرفوعا نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : رفع إدريس كما رفع عيسى ولم يمت . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال إدريس هو إلياس ، وحسنه السيوطي . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله (أولئك الذين أنعم الله عليهم) الى آخره : قال هذه تسمية الأنبياء الذين ذكرهم : أما من ذرية آدم فادريس ونوح ، وأما من حمل مع نوح : فابرهيم * وأما ذرية ابراهيم : فاسمعيل ، واسحق ، و يعقوب * وأما ذرية إسرائيل : فموسى ، وهرون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله (فخلف من بعدهم خلف) قال هم اليهود والنصارى . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في الآية قال : هم من هذه الأمة يتراكبون في الطرق كما تراكب الأنعام لايستحيون من الناس ، ولا يخافون من الله في السماء . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود في قوله (أضاعوا الصلاة) قال ليس إضاعتها تركها قد يضيع الانسان الشيء ولا يتركه ، ولكن إضاعتها : اذا لم يصلها لوقتها . وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري سمعت رسول الله ﷺ وتلا هذه الآية (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات) الآية قال : يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات (فسوف يلقون غيا) ثم يكون خلف يقرءون القرآن لايعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ، ومنافق ، وفاجر . وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر : سمعت رسول الله ﷺ يقول « سيهلك من أمتي أهل الكتاب وأهل اللبن : قلت يارسول الله ما أهل الكتاب ؟ قال قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين

XIX.65-93

آمنوا : قلت ماأهل اللبن ؟ قال قوم يتبعون الشهوات و يضيعون الصلوات . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه عن عائشة أنها كانت ترسل بالصدقة لأهل الصدقة ، وتقول : لاتعطوامنها بربريا ولابربرية ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول هم الخلف الذين قال الله (فخلف من بعدهم خلف) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فسوف يلقون غيا) قال خسرا . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى البعث من طرق عن ابن مسعود فى قوله (فسوف يلقون غيا) قال الغىّ : نهر، أو واد فى جهنم من قيح بعيد القعر، خبيث الطعم ، يقذف فيـه الذين يتبعون الشهوات ، وقد قال بأنه واد فى جهنم البراء بن عازب ، روى ذلك عنه ابن المنذر والطبرانى . وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه والبيهقى عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « لو أن صخرة زنة عشر عشرأواق قذف بها من شفير جهنم مابلغت قعرها سبعين خريفا ، ثم تنتهى الى غىّ وأثام : قلت وما غىّ وأثام ؟ قال نهران فى أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار ، وهما اللذان ذكر الله فى كتابه (فسوف يلقون غيا) ومن يفعل ذلك يلق أثاما » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبىّ ﷺ قال الغىّ : واد فى جهنم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (لايسمعون فيها لغوا) قال باطلا . وأخرج سعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (بكرة وعشيا) قال يؤتون به فى الآخرة على مقدار ما كانوا يؤتون به فى الدنيا . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول من طريق أبان عن الحسن وأبى قلابة قالا : قال رجل يارسول الله هل فى الجنة من ليل ؟ قال وماهيجك على هذا ؟ قال سمعت الله يذكر فى الكتاب (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) فقلت الليل من البكرة والعشى ؟ فقال رسول الله ﷺ ليس هناك ليـل ، وإنما هوضوء ونور ، يرد الغـدوّ على الرواح والرواح على الغدوّ تأتيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلاة التى كانوا يصلون فيها فى الدنيا ، وتسلم عليهم الملائكة . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال « مامن غداة من غدوات الجنة ، وكل الجنة غدوات الا أنه يزف الى ولىّ الله فيها زوجة من الحور العين وأدناهنّ التى خلقت من الزعفران » . قال بعد إخراجه . قال أبو محمد هذا حديث منكر .

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا * رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا * وَيَقُولُ الْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا * فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا * وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا *

قوله (وما نتنزل) أى قال الله سبحانه : قل ياجبريل وما نتنزل ، وذلك أن رسول الله ﷺ استبطأ نزول جبريل عليـه ، فأمر جبريل أن يخبره بأن الملائكة ماتتنزل عليـه الا بأمر الله ، قيل احتبس جبريل عن رسول الله ﷺ أربعين يوما ، وقيل خمسة عشر ، وقيـل اثنى عشر ، وقيـل

ثلاثة

ثلاثة أيام ، وقيل ان هذا حكاية عن أهل الجنة ، وأنهم يقولون عند دخولها : وما نتنزل هذه الجنان (إلا بأمر ربك) * والأوّل أولى بدلالة ماقبله ، ومعناه يحتمل وجهين : الأوّل وما نتنزل عليك إلا بأمر ربك لنا بالتنزل . والثانى وما نتنزل عليك الا بأمر ربك الذى يأمرك به بما شرعه لك ولأمتك والتنزل : النزول على مهل ، وقد يطلق على مطلق النزول ، ثم أكد جبريل ماأخبر به النبىّ ﷺ فقال (له مابين أيدينا وماخلفنا وما بين ذلك) أى من الجهات والأماكن ، أو من الأزمنة الماضية والمستقبلة ، وما بينهما من الزمان أو المكان الذى نحن فيه ، فلا نقدر على أن ننتقل من جهة الى جهة ، أو من زمان الى زمان الا بأمر ربك ومشيئته ، وقيل المعنى : له ماسلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة وما بين ذلك ، وهو مابين النفختين ، وقيل الأرض التى بين أيدينا اذا نزلنا ، والسماء التى وراءنا وما بين السماء والأرض ، وقيل مامضى من أعمارنا وما غبر منها والحالة التى نحن فيها ، وعلى هذه الأقوال كلها يكون المعنى : أن الله سبحانه هو المحيط بكل شىء لايخفى عليه خافية ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرّة فلا نقدم على أمر الا باذنه ، وقال : وما بين ذلك ، ولم يقل وما بين ذينك لأن المراد : وما بين ماذكرنا كما فى قوله سبحانه ـ عوان بين ذلك ـ (وما كان ربك نسيا) أى لم ينسك وان تأخر عنك الوحى ، وقيل المعنى : انه عالم بجميع الأشياء لاينسى منها شيئا ، وقيل المعنى : وما كان ربك ينسى الارسال اليك عند الوقت الذى يرسل فيه رسله (ربّ السموات والأرض وما بينهما) أى خالقهما ، وخالق مابينهما ، ومالكهما ، ومالك مابينهما ، ومن كان هكذا فالنسيان محال عليه ، ثم أمر الله نبيه ﷺ بعبادته والصبر عليها ، فقال (فاعبده واصطبر لعبادته) والفاء للسببية لأن كونه رب العالمين سبب موجب لأن يعبد ، وعدّى فعل الصبر باللام دون على التى يتعدّى بها لتضمنه معنى الثبات (هل تعلم له سميا) الاستفهام للانكار * والمعنى : أنه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه فى العبادة ، فيلزم من ذلك أن تكون غير خالصة له سبحانه ، فلما انتفى المشارك استحق الله سبحانه أن يفرد بالعبادة وتخلص له : هذا مبنىّ على أن المراد بالسمىّ هو الشريك فى المسمى ، وقيل المراد به : الشريك فى الاسم كما هو الظاهر من لغة العرب ، فقيل المعنى انه لم يسم شىء من الأصنام ولا غيرها بالله قط ، يعنى بعد دخول الألف واللام التى عوّضت عن الهمزة ولزمت ، وقيل المراد هل تعلم أحدا اسمه الرحمن غيره . قال الزجاج : تأويله والله أعلم هل تعلم له سميا يستحق أن يقال له : خالق ، وقادر ، وعالم بما كان وبما يكون ، وعلى هذا لاسمىّ لله فى جميع أسمائه ، لأن غيره وان سمى بشىء من أسمائه ، فلله سبحانه حقيقة ذلك الوصف ، والمراد بنفى العلم المستفاد من الانكار هنا نفى المعلوم على أبلغ وجه وأكمله (ويقول الانسان أئذا ماءتّ لسوف أخرج حيا) قرأ الجمهور على الاستفهام ، وقرأ ابن ذكوان اذا ماءتّ على الخبر ، والمراد بالانسان ها هنا الكافر ، لأن هذا الاستفهام هنا للانكار والاستهزاء والتكذيب بالبعث ، وقيل اللام فى الانسان للجنس بأسره وان لم يقل هذه المقالة إلا البعض ، وهم الكفرة فقد يسند الى الجماعة ماقام بواحد منهم ، والمراد بقوله أخرج : أى من القبر ، والعامل فى الظرف فعل دلّ عليه أخرج ، لأن مابعد اللام لايعمل فيما قبلها (أو لايذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا) الهمزة للانكار التوبيخى ، والواو لعطف الجملة التى بعدها على الجملة التى قبلها ، والمراد بالذكر هنا اعمال الفكر : أى ألا يتفكر هذا الجاحد فى أوّل خلقه فيستدلّ بالابتداء على الاعادة ، والابتداء أعجب وأغرب من الاعادة ، لأن النشأة الأولى هى اخراج لهذه المخلوقات من العدم الى الوجود ابتداعا واختراعا ، لم يتقدّم عليه مايكون كالمثال له ، وأما النشأة الآخرة فقد تقدّم عليها النشأة الأولى فكانت كالمثال لها ، ومعنى «من قبل» قبل الحالة التى

هو عليها الآن ، وجملة : ولم يك شيئا فى محـل نصب على الحال : أى والحال أنه لم يكن حينئذ شيئا من الأشياء أصلا ، فاعادته بعـد أن كان شيئا موجودا أسهل وأيسر ، قرأ أهل مكة وأبو عمرو وأبو جعفر وأهل الكوفة الا عاصما أو لا يذكر بالتشديد ، وأصله يتذكر ، وقرأ شيبة ونافع وعاصم وابن عامر يذكر بالتخفيف ، وفى قراءة أبىّ أولا يتذكر * ثم لما جاء سبحانه وتعالى بهذه الحجة التى أجمع العقلاء على أنه لم يكن فى حجج البعث حجة أقوى منها أكدها بالقسم باسمه سبحانه مضافا الى رسوله تشريفا له وتعظيما ، فقال (فوربك لنحشرنهم) ومعنى لنحشرنهم لنسوقنهم الى المحشر بعد إخراجهم من قبورهم أحياء كما كانوا ، والواو فى قوله (والشياطين) للعطف على المنصوب ، أو بمعنى مع * والمعنى أن هؤلاء الجاحدين يحشرهم الله مع شياطينهم الذين أغووهم وأضلوهم ، وهذا ظاهر على جعل اللام فى الانسان للعهد ، وهو الانسان الكافر ، وأما على جعلها للجنس فلكونه قد وجـد فى الجنس من يحشر مع شيطانه (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) الجثىّ : جمع جاث ، من قولهم : جثا على ركبتيه يجثو جثوا ، وهو منتصب على الحال : أى جاثين على ركبهم لما يصيبهم من هول الموقف وروعة الحساب ، أو لكون الجثى على الركب شأن أهل الموقف كما فى قوله سبحانه ـ وترى كل أمة جاثية ـ ، وقيـل المراد بقوله جثيا جماعات ، وأصله جمع جثوة ، والجثوة هى المجموع من التراب أو الحجارة . قال طرفة :

أرى جثوتين من تراب عليهما * صفائح صم من صفيح منضد

(ثم لننزعنّ من كل شيعة) الشيعة الفرقـة التى تبعت دينا من الأديان ، وخصص ذلك الزمخشرى ، فقال هى الطائفة التى شاعت : أى تبعت غاويا من الغواة قال الله تعالى ـ ان الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا ـ * ومعنى (أيهم أشدّ على الرحمن عتيا) من كان أعصى لله وأعتى فانه ينزع من كلّ طائفة من طوائف الغىّ والفساد أعصاهم وأعتاهم ، فاذا اجتمعوا طرحهم فى جهنم * والعتىّ هاهنا مصدر كالعتوّ ، وهو التمرّد فى العصيان ، وقيل المعنى لننزعنّ من أهل كلّ دين قادتهم ورؤساءهم فى الشرّ . وقد اتفق القراء على قراءة أيهم بالضم الا هرون القارى فانه قرأها بالفتح . قال الزجاج : فى رفع أيهم ثلاثة أقوال : الأوّل قول الخليل بن أحمد انه مرفوع على الحكاية * والمعنى ثم لننزعنّ من كل شيعة الذين يقال لهم أيهم أشدّ ، وأنشد الخليل فى ذلك قول الشاعر :

ولقد أبيت من الفتاة بمنزل * فأبيت لاحرج ولا محروم

أى فأبيت بمنزلة الذى يقال له هو لاحرج ولا محروم . قال النحاس : ورأيت أبا اسحق يعنى الزجاج يختار هـذا القول ويستحسنه ، القول الثانى قول يونس وهو أن لننزعنّ بمنزلة الأفعال التى تلغى وتعلق ، فهذا الفعل عنـده معلق عن العمل فى أىّ ، وخصص الخليل وسيبويه وغيرهما التعليق بأفعال الشك ونحوها مما لم يتحقق وقوعه : القول الثالث قول سيبويه ان أيهم هاهنا مبنىّ على الضم ، لأنه خالف أخواته فى الحذف ، وقد غلط سيبويه فى قوله هـذا جمهور النحويين حتى قال الزجاج ماتبين لى أن سيبويه غلط فى كتابه الا فى موضعين : هذا أحدهما ، وللنحويين فى اعراب أيهم هذه فى هـذا الموضع كلام طويل (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) يقال صلى يصلى صليا مثل مضى الشىء يمضى مضيا ، قال الجوهرى : يقال صليت الرجل نارا اذا أدخلته النار وجعلته يصلاها ، فان ألقيته القاء كأنك تريد الاحراق * قلت أصليته بالألف وصليته تصلية ، ومنه ـ ويصلى سعيرا ـ ومن خفف فهو من قولهم : صلى فلان النار بالكسر يصلى صليا احترق ، قال الله تعالى : الذين هم أولى بها صليا . قال العجاج : * والله لولا النار أن تصلاها * ومعنى الآية أن هؤلاء الذين هم أشدّ على الرحمن عتيا هم أولى بصليها أو صليهم

أولى

أولى بالنار (وإن منكم إلا واردها) الخطاب للناس من غير التفات ، أو للإنسان المذكور ، فيكون التفاتا : أى ما منكم من أحد إلا واردها : أى واصلها

وقد اختلف الناس فى هذا الورود ، فقيل الورود الدخول ويكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم ، وقالت فرقة : الورود هو المرور على الصراط ، وقيل ليس الورود الدخول إنما هو كما يقول وردت البصرة ولم أدخلها ، وقد توقف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورود ، وحمله على ظاهره لقوله تعالى ـ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ـ قالوا فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها ، ومما يدل على أن الورود لا يستلزم الدخول قوله تعالى ـ ولما ورد ماء مدين ـ فإن المراد أشرف عليه لأنه دخل فيه ، ومنه قول زهير :

فلما وردن الماء زرقا جمامه ❊ وضعن عصى الحاضر المتخيم

ولا يخفى أن القول بأن الورود هو المرور على الصراط ، أو الورود على جهنم وهى خامدة فيه جمع بين الأدلة من الكتاب ، والسنة ، فينبغى حمل هذه الآية على ذلك ، لأنه قد حصل الجمع بحمل الورود على دخول النار مع كون الداخل من المؤمنين مبعدا من عذابها ، أو بحمله على المضى فوق الجسر المنصوب عليها ، وهو الصراط (كان على ربك حتما مقضيا) أى كان ورودهم المذكور أمرا محتوما قد قضى سبحانه أنه لا بد من وقوعه لا محالة ، وقد استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن العقاب واجب على الله ، وعند الأشاعرة أن هذا مشبه بالواجب من جهة استحالة تطرق الخلف إليه (ثم ننجى الذين اتقوا) أى اتقوا ما يوجب النار ، وهو الكفر بالله ومعاصيه ، وترك ما شرعه ، وأوجب العمل به . قرأ عاصم الجحدرى ومعاوية بن قرة ننجى بالتخفيف من أنجى ، وبها قرأ حميد ويعقوب والكسائى ، وقرأ الباقون بالتشديد ، وقرأ ابن أبى ليلى (ثم نذر) بفتح الثاء من ثم ، والمراد بالظالمين الذين ظلموا أنفسهم بفعل ما يوجب النار ، أو ظلموا غيرهم بمظلمة فى النفس أو المال أو العرض ، والجثى جمع جاث ، وقد تقدم قريبا تفسير الجثى وإعرابه .

وقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ، فنزلت (وما نتنزل إلا بأمر ربك) إلى آخر الآية وزاد ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وكان ذلك الجواب لمحمد . وأخرج ابن مردويه من حديث أنس قال : سئل رسول الله ﷺ أى البقاع أحب إلى الله ، وأيها أبغض إلى الله ؟ قال «ما أدرى حتى أسأل ، فنزل جبريل ، وكان قد أبطأ عليه ، فقال لقد أبطأت على حتى ظننت أن بربى على موجدة ، فقال وما نتنزل إلا بأمر ربك . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : أبطأ جبريل على النبى ﷺ أربعين يوما ثم نزل ، فقال له النبى ﷺ ما نزلت حتى اشتقت إليك ، فقال له جبريل أنا كنت إليك أشوق ، ولكنى مأمور ، فأوحى الله إلى جبريل أن قل له وما نتنزل إلا بأمر ربك» وهو مرسل . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : أبطأت الرسل على رسول الله ﷺ ثم أتاه جبريل ، فقال له ما حبسك عنى ؟ قال وكيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم ولا تنقون براجمكم ولا تأخذون شواربكم ولا تستاكون . وقرأ وما نتنزل إلا بأمر ربك وهو مرسل أيضا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير (له ما بين أيدينا) قال من أمر الآخرة (وما خلفنا) قال من أمر الدنيا (وما بين ذلك) قال ما بين الدنيا والآخرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة وما بين ذلك قال ما بين النفختين . وأخرج ابن المنذر عن أبى العالية مثله ، وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى والبيهقى والحاكم وصححه عن أبى الدرداء رفع الحديث قال ما أحل الله فى كتابه فهو حلال وما حرم فهو

حرام وما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته ، فان الله لم يكن لينسى شيئا ، ثم تلا (وما كان ربك نسيا) وأخرج ابن مردويه من حديث جابر مثله ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله (هل تعلم له سميا) قال هل تعرف للرب شبها أو مثلا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عنه هل تعلم له سميا قال : ليس أحد يسمى الرحمن غيره ، وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : يامحمد هل تعلم للاله من ولد ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله (ويقول الانسان) قال : العاص بن وائل ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (جثيا) قال : قعودا ، وفى قوله (عتيا) قال معصية . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله عتيا قال عصيا ، وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (ثم لننزعن) قال : لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤوسهم فى الشر ، وأخرج ابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن ابن مسعود قال : نحشر الأول على الآخر حتى اذا تكاملت العدة أثارهم جميعا ، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرما ، ثم قرأ فوربك لنحشرنهم إلى قوله عتيا ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) قال يقول انهم أولى بالخلود فى جهنم . وأخرج أحمد وعبد ابن حميد والحكيم الترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن أبى سمية قال : اختلفنا فى الورود ، فقال بعضنا لايدخلها مؤمن ، وقال بعضنا يدخلونها جميعا (ثم ننجى الذين اتقوا) فلقيت جابر بن عبدالله فذكرت له ، فقال وأهوى بأصبعه الى أذنيه صمتا ان لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لايبقى بر ولافاجر إلادخلها ، فتكون على المؤمن بردا وسلاما كما كانت على ابراهيم حتى ان للنار ضجيجا من بردها (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) . وأخرج عبد الرزاق وسعيد ابن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن مجاهد قال : خاصم نافع بن الأزرق ابن عباس ، فقال ابن عباس الورود : الدخول ، وقال نافع لا ، فقرأ ابن عباس ــ إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ــ وقال وردوا أم لا ؟ وقرأ ــ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ــ أوردوا أم لا ؟ أما أنا وأنت فسندخلها فانظرهل نخرج منها أم لا ؟ . وأخرج الحاكم عن ابن مسعود فى قوله (وإن منكم إلا واردها) قال : وإن منكم إلا داخلها . وأخرج هناد والطبرانى عنه فى الآية قال : ورودها الصراط . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى وابن الأنبارى وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله (وان منكم إلاواردها) قال : قال رسول الله ﷺ «يرد الناس كلهم النار ، ثم يصدرون عنها بأعمالهم ، فأولهم كلمح البرق ، ثم كالريح ، ثم كحضر الفرس ، ثم كالراكب فى رحله ، ثم كشد الرجل ، ثم كمشيه» وقد روى نحو هذا من حديث ابن مسعود من طرق . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «وإن منكم إلا واردها» يقول مجتاز فيها . وأخرج مسلم وغيره عن أم مبشر قالت : قال رسول الله ﷺ «لايدخل النار أحد شهد بدرا والحديبية ، قالت حفصة أليس الله يقول وإن منكم إلا واردها قال ألم تسمعيه يقول ، ثم ننجى الذين اتقوا» وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما قال : قال رسول الله ﷺ «لايموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم» ثم قرأ سفيان وإن منكم إلا واردها . وأخرج أحمد والبخارى فى تاريخه وأبو يعلى والطبرانى وابن مردويه عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ «قال : من حرس من وراء المسلمين فى سبيل الله متطوعا لايأخذه سلطان لم ير النار بعينيه الا تحلة القسم ، فان الله يقول وان منكم إلاواردها» والأحاديث فى تفسير هذه الآية كثيرة جدا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن

أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (حتما مقضيا) قال: قضاء من الله. وأخرج الخطيب فى تالى التلخيص عن عكرمة حتما مقضيا قال: قسما واجبا. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ونذر الظالمين فيها جثيا) قال باقين فيها.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا * قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا * وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا * أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا *

الضمير فى (عليهم) راجع الى الكفار الذين سبق ذكرهم فى قوله: أئذا مامت لسوف أخرج حيا أى هؤلاء اذا قرئ عليهم القرآن تعذروا بالدنيا، وقالوا لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا أطيب من حالنا، ولم يكن بالعكس، لأن الحكيم لا يليق به أن يهين أولياءه ويعز أعداءه، ومعنى البينات الواضحات التى لاتلتبس معانيها، وقيل ظاهرات الاعجاز، وقيل انها حجج وبراهين، والأول أولى، وهى حال مؤكدة، لأن آيات الله لاتكون الا واضحة، ووضع الظاهر موضع المضمر فى قوله (قال الذين كفروا) للاشعار بأن كفرهم هو السبب لصدور هذا القول عنهم، وقيل المراد بالذين كفروا هنا هم المتمردون المصرون منهم، ومعنى قالوا (للذين آمنوا) قالوا لأجلهم، وقيل هذه اللام هى لام التبليغ كما فى قوله ــ وقال لهم نبيهم ــ أى خاطبوهم بذلك وبلغوا القول اليهم (أى الفريقين خير مقاما) المراد بالفريقين المؤمنون والكافرون، كأنهم قالوا أفريقنا خير أم فريقكم، قرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وشبل بن عباد مقاما بضم الميم وهو موضع الاقامة، ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الاقامة، وقرأ الباقون بالفتح: أى منزلا ومسكنا، وقيل المقام الموضع الذى يقام فيه بالأمور الجليلة، والمعنى أى الفريقين أكبر جاها وأكثر أنصارا وأعوانا، والندى والنادى مجلس القوم ومجتمعهم، ومنه قوله تعالى ــ تأتون فى ناديكم المنكر ــ وناداه جالسه فى النادى، ومنه دار الندوة، لأن المشركين كانوا يتشاورون فيها فى أمورهم، ومنه أيضا قول الشاعر: * أنادى به آل الوليد وجعفرا * (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) القرن الأمة والجماعة (هم أحسن أثاثا ورئيا) الأثاث المال أجمع: الابل والغنم والبقر والعبيد والمتاع، وقيل هو متاع البيت خاصة، وقيل هو الجديد من الفرش، وقيل اللباس خاصة، واختلفت القراآت فى ورئيا، فقرأ أهل المدينة وابن ذكوان وريا بياء مشددة، وفى ذلك وجهان: أحدهما أن يكون من رأيت ثم خففت الهمزة فأبدل منها ياء، وأدغمت الياء فى الياء، والمعنى على هذه القراءة هم أحسن منظرا وبه قال جمهور المفسرين، وحسن المنظر يكون من جهة حسن اللباس، أو حسن الأبدان وتنعمها، أو مجموع الأمرين، وقرأ أهل الكوفة وأبو عمرو وابن كثير ورئيا بالهمز، وحكاها ورش عن نافع وهشام عن ابن عباس، ومعناها معنى القراءة الأولى. قال الجوهرى من همز جعله من المنظر من رأيت، وهو ما

رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة ، وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفي :

أشاقتك الظعائن يوم بانوا * بذى الرئى الجميل من الأثاث

ومن لم يهمز : إما أن يكون من تخفيف الهمزة ، أو يكون من رويت ألوانهم أوجلودهم ريا : أى امتلأت وحسنت . وقد ذكر الزجاج معنى هذا كما حكاه عنه الواحدى ، وحكى يعقوب أن طلحة بن مصرف قرأ بياء واحدة خفيفة ، فقيل ان هذه القراءة غلط ، ووجهها بعض النحويين أنه كان أصلها الهمزة فقلبت ياء ثم حذفت إحدى الياءين ، وروى عن ابن عباس أنه قرأ بالزاى مكان الراء ، وروى مثل ذلك عن أبى بن كعب وسعيد بن جبير والأعصم المكى واليزيدى ، والزى الهيئة والحسن ، قيل ويجوز أن يكون من زويت : أى جمعت ، فيكون أصلها زويا فقلبت الواو ياء ، والزى محاسن مجموعة (قل من كان فى الضلالة) أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب على هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية : أى من كان مستقرا فى الضلالة (فليمدد له الرحمن مدا) هذا وان كان على صيغة الأمر ، فالمراد به الخبر ، وانما خرج مخرج الأمر لبيان الامهال منه سبحانه للعصاة ، وأن ذلك كائن لا محالة لتنقطع معاذير أهل الضلال ، ويقال لهم يوم القيامة ــ أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر ــ أو للاستدراج كقوله سبحانه ــ إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ــ وقيل المراد بالآية الدعاء بالمد والتنفيس ، قال الزجاج تأويله أن الله جعل جزاء ضلالته أن يتركه و يمده فيها ، لأن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر كأن المتكلم يقول أفعل ذلك وامر به نفسى (حتى اذا رأوا ما يوعدون) يعنى الذين مد لهم فى الضلالة ، وجاء بضمير الجماعة اعتبارا بمعنى من ، كما أن قوله كان فى الضلالة فليمدد له اعتبار بلفظها ، وهذه غاية للمد ، لا لقول المفتخرين إذ ليس فيه امتداد (إما العذاب وإما الساعة) هذا تفصيل لقوله مايوعدون : أى هذا الذى توعدون هو أحد أمرين : إما العذاب فى الدنيا بالقتل والأسر ، وإما يوم القيامة وما يحل بهم حينئذ من العذاب الأخروى (فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا) هذا جواب الشرط ، وهوجواب على المفتخرين . أى هؤلاء القائلون : أى الفريقين خير مقاما ، اذا عاينوا ما يوعدون به من العذاب الدنيوى بأيدى المؤمنين ، أو الأخروى ، فسيعلمون عند ذلك من هو شر مكانا من الفريقين ، وأضعف جندا منهما : أى أنصارا وأعوانا * والمعنى أنهم سيعلمون عند ذلك أنهم شر مكانا لا خير مكانا ، وأضعف جندا ، لا أقوى ولا أحسن من فريق المؤمنين ، وليس المراد أن للمفتخرين هنالك جندا ضعفاء ، بل لا جند لهم أصلا كما فى قوله سبحانه ــ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا ــ ، ثم لما أخبر سبحانه عن حال أهل الضلالة ، أراد أن يبين حال أهل الهداية ، فقال (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) وذلك أن بعض الهدى يجر الى البعض الآخر ، والخير يدعو الى الخير ، وقيل المراد بالزيادة العبادة من المؤمنين ، والواو فى ويزيد للاستئناف ، والجملة مستأنفة لبيان حال المهتدين ، وقيل الواو للعطف على فليمدد ، وقيل للعطف على جملة من كان فى الضلالة . قال الزجاج المعنى أن الله يجعل جزاء المؤمنين أن يزيدهم يقينا كما جعل جزاء الكافرين أن يمدهم فى ضلالتهم (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا) هى الطاعات المؤدية الى السعادة الأبدية ، ومعنى كونها خيرا عند الله ثوابا ، أنها أنفع عائدة مما يتمتع به الكفار من النعم الدنيوية (وخير مردا) المرد هاهنا مصدر كالرد ، والمعنى وخير مردا للثواب على فاعلها ليست كأعمال الكفار التى خسروا فيها ، والمرد المرجع والعاقبة والتفضيل للتهكم بهم للقطع بأن أعمال الكفار لا خير فيها أصلا * ثم أردف سبحانه مقالة أولئك المفتخرين بأخرى مثلها على سبيل التعجب ، فقال (أفرأيت الذى كفر بآياتنا) أى أخبرنى بقصة هذا الكافر واذكر حديثه عقب حديث

أولئك ، وانما استعملوا أرأيت بمعنى أخبر ، لأن رؤية الشيء من أسباب صحة الخبر عنه ، والآيات تم كل آية ومن جملتها آية البعث ، والفاء للعطف على مقدّر يدل عليه المقام : أى أنظرت فرأيت ، واللام فى (لأوتين مالا وولدا) هى الموطئة للقسم ، كأنه قال والله لأوتين فى الآخرة مالا وولدا : أى انظر الى حال هذا الكافر وتعجب من كلامه وتأليه على الله مع كفره به وتكذيبه بآياته * ثم أجاب سبحانه عن قول هذا الكافر بما يدفعه ويبطله ، فقال (أطلع) على (الغيب) أى أعلم ما غاب عنه حتى يعلم أنه فى الجنة (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) بذلك ، فانه لا يتوصل الى العلم إلا باحدى هاتين الطريقتين ، وقيل المعنى أنظر فى اللوح المحفوظ ؟ أم اتخذ عند الرحمن عهدا ، وقيل معنى : أم اتخذ عند الرحمن عهدا ؟ أم قال لا إله إلا الله فأرحمه بها ، وقيل المعنى أم قدّم عملا صالحا فهو يرجوه ، واطلع مأخوذ من قولهم: اطلع الجبل اذا ارتقى الى أعلاه . وقرأ حمزة والكسائى ويحيى بن وثاب والأعمش وولدا بضم الواو ، والباقون بفتحها ، فقيل هما لغتان معناهما واحد : يقال ولد وولد كما يقال عدم وعدم ، قال الحارث بن حلزة :

ولقد رأيت معاشرا * قد ثمروا مالا وولدا

وقال آخر : فليت فلانا كان فى بطن أمه * وليت فلانا كان ولد حمار

وقيل الولد بالضم للجمع وبالفتح للواحد ، وقد ذهب الجمهور الى أن هذا الكافر أراد بقوله : لأوتين مالا وولدا أنه يؤتى ذلك فى الدنيا ، وقال جماعة فى الجنة ، قيل والمعنى ان أقمت على دين آبائى لأوتين وقيل المعنى لو كنت على باطل لما أوتيت مالا وولدا (كلا سنكتب مايقول) كلا حرف ردع وزجر : أى ليس الأمر على ماقال هذا الكافر من أنه يؤتى المال والولد سنكتب مايقول : أى سنحفظ عليه مايقوله فنجازيه به فى الآخرة ، أو سنظهر ما يقول ، أو سننتقم منه انتقام من كتبت معصيته (ونمد له من العذاب مدّا) أى نزيده عذابا فوق عذابه مكان مايدّعيه لنفسه من الامداد بالمال والولد أو نطوّل له من العذاب ما يستحقه وهو عذاب من جمع بين الكفر والاستهزاء (ونرثه ما يقول) أى نميته فنرثه المال والولد الذى يقول انه يؤتاه * والمعنى مسمى ما يقول ومصداقه ، وقيل المعنى نحرمه ما تمناه ونعطيه غيره (ويأتينا فردا) أى يوم القيامة لا مال له ولا ولد ، بل نسلبه ذلك ، فكيف يطمع فى أن نعطيه ، وقيل المراد بما يقول نفس القول لا مسماه ، والمعنى انما يقول هذا القول مادام حيا ، فاذا أمتناه حلنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضا له منفردا عنه ، والأول أولى :

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (أىّ الفريقين خير مقاما) قال قريش تقوله لها ولأصحاب محمد . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله خير مقاما ، قال المنازل ، وأحسن نديا ، قال المجالس ، وفى قوله أحسن أثاثا ، قال المتاع والمال ، ورئيا ، قال المنظر . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدّا) فليدعه الله فى طغيانه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن حبيب بن أبى ثابت قال فى حرف أبىّ قل من كان فى الضلالة فانه يزيده الله ضلالة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما فى قوله (أفرأيت الذى كفر) من من حديث خباب بن الأرت قال كنت رجلا قينا وكان لى على العاص بن وائل دين ، فأتيته أتقاضاه فقال لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث ، قال فانى اذامتّ ثم بعثت جئتنى ولى ثم مال وولد فأعطيك ، فأنزل الله فيه هذه الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) قال لا إله إلا الله يرجو بها . وأخرج ابن المنذر وابن

أبي حاتم عنه في قوله (ونرثه ما يقول) قال ماله وولده .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا * أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا * فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا * يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا * لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا * وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا *

حكى سبحانه ما كان عليه هؤلاء الكفار الذين تمنوا ما لا يستحقونه ، وتألوا على الله سبحانه من اتخاذهم الآلهة من دون الله لأجل يتعززون بذلك ، قال الهروى معنى (ليكونوا لهم عزا) ليكونوا لهم أعوانا . قال الفراء : معناه ليكونوا لهم شفعاء في الآخرة ، وقيل معناه ليتعززوا بهم من عذاب الله ويمتنعوا بها (كلا سيكفرون بعبادتهم) أي ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا ، والضمير في الفعل إما للآلهة : أي ستجحد هذه الاصنام عبادة الكفار لها يوم ينطقها الله سبحانه ، لانها عند أن عبدوها جمادات لا تعقل ذلك ، وإما للمشركين : أي سيجحد المشركون أنهم عبدوا الأصنام ، ويدل على الوجه الأول قوله تعالى ــ ما كانوا إيانا يعبدون ــ وقوله ــ فألقوا اليهم القول إنكم لكاذبون ــ ويدل على الوجه الثاني قوله تعالى ــ والله ربنا ما كنا مشركين ــ وقرأ ابن أبي نهيك كلا بالتنوين ، وروى عنه مع ذلك ضم الكاف وفتحها ، فعلى الضم هي بمعنى جميعا ، وانتصابها بفعل مضمر ، كأنه قال سيكفرون كلا سيكفرون بعبادتهم ، وعلى الفتح يكون مصدرا لفعل محذوف ، تقديره كل هذا الرأى كلا وقراءة الجمهور هي الصواب ، وهي حرف ردع وزجر (ويكونون عليهم ضدا) أي تكون هذه الآلهة التي ظنوها عزا لهم ضدا عليهم ، أي ضدا للعز ، وضد العز الذل هذا على الوجه الأول ، وأما على الوجه الثاني فيكون المشركون للآلهة ضدا وأعداء يكفرون بها بعد أن كانوا يحبونها ويؤمنون بها (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) ذكر الزجاج في معنى هذا وجهين : أحدهما أن معناه خلينا بين الكافرين وبين الشياطين فلم نعصمهم منهم ولم نعذهم ، بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم ــ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ــ الوجه الثاني انهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم . قال ــ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا ــ فمعنى الارسال هاهنا التسليط ، ومن ذلك قوله سبحانه لابليس ــ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ــ ويؤيد الوجه الثاني تمام الآية ، وهو (تؤزهم أزا) فان الأز والهز والاستفزاز معناها التحريك والتهييج والازعاج ، فأخبر الله سبحانه أن الشياطين تحرك الكافرين وتهيجهم وتغويهم ، وذلك هو التسليط لها عليهم ، وقيل معنى الأز الاستعجال ، وهو مقارب لما ذكرنا لان الاستعجال تحريك وتهييج واستفزاز وازعاج ، وسياق هذه الآية لتعجيب رسول الله ﷺ من حالهم والتنبيه له على أن جميع ذلك باضلال الشياطين وإغوائهم ، وجملة : تؤزهم أزا في محل نصب على الحال ، أو مستأنفة على تقدير سؤال يدل عليه المقام ، كأنه قيل ماذا تفعل الشياطين بهم ؟ (فلا تعجل

عليهم) بأن تطلب من الله إهلاكهم بسبب تصميمهم على الكفر وعنادهم للحق وتمرّدهم عن داعى الله سبحانه ، ثم علل سبحانه هذا النهى بقوله (إنما نعدّ لهم عدّا) يعنى نعدّ الأيام والليالى والشهور والسنين من أعمارهم الى انتهاء آجالهم ، وقيل نعدّ أنفاسهم ، وقيل خطواتهم ، وقيل لحظاتهم ، وقيل الساعات . وقال قطرب نعدّ أعمالهم ، وقيل المعنى لا تعجل عليهم ، فانما نؤخرهم ليزدادوا إثما * ثم لما قرر سبحانه أمر الحشر وأجاب عن شبهة منكريه أراد أن يشرح حال المكلفين حينئذ ، فقال (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) الظرف منصوب بفعل مقدّر ، أى اذكر يامحمد يوم الحشر ، وقيل منصوب بالفعل الذى بعده ، ومعنى حشرهم إلى الرحمن حشرهم الى جنته ودار كرامته ، كقوله — إنى ذاهب الى ربى — والوفد جمع وافد كالركب جمع راكب ، وصحب جمع صاحب ، يقال وفد يفد وفدا إذا خرج الى ملك أو أمر خطير كذا قال الجوهرى (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) السوق الحثّ على السير ، والورد العطاش قاله الأخفش وغيره ، وقال الفرّاء وابن الأعرابى : هم المشاة وقال الأزهرى هم المشاة العطاش كالابل تردالماء . وقيل وردا أى للورد . كقولك جئتك إكراما : أى للاكرام . وقيل افرادا : قيل ولاتناقض بين هذه الأقوال فهم يساقون مشاة عطاشا افرادا ، وأصل الورد الجماعة التى ترد الماء من طير أو ابل أوقوم أو غير ذلك . والورد الماء الذى يورد ، وجملة (لايملكون الشفاعة) مستأنفة لبيان بعض ما يكون فى ذلك اليوم من الأمور ، والضمير فى يملكون راجع الى الفريقين وقيل للمتقين خاصة . وقيل للمجرمين خاصة ، والأوّل أولى : ومعنى لايملكون الشفاعة أنهم لايملكون أن يشفعوا لغيرهم . وقيل لايملك غيرهم أن يشفع لهم ، والأوّل أولى (الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) هذا الاستثناء متصل على الوجه الأوّل : أى لايملك الفريقان المذكوران (الشفاعة الا من) استعد لذلك بما يصير به من جملة الشافعين لغيرهم بأن يكون مؤمنا متقيا ، فهذا معنى اتخاذ العهد عند الله . وقيل معنى اتخاذ العهد أن الله أمره بذلك كقولهم * عهد الأمير الى فلان اذا أمره به : وقيل معنى اتخاذ العهد شهادة أن لا اله الا الله : وقيل غير ذلك ، وعلى الاتصال فى هذا الاستثناء يكون محل من فى من اتخذ الرفع على البدل ، أو النصب على أصل الاستثناء . وأما على الوجه الثانى فالاستثناء منقطع لان التقدير لايملك المجرمون الشفاعة (الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) وهم المسلمون . وقيل هو متصل على هذا الوجه أيضا ، والتقدير لايملك المجرمون الشفاعة الا من كان منهم مسلما (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى ولدا بضم الواو واسكان اللام . وقرأ الباقون فى الاربعة المواضع المذكورة فى هذه السورة بفتح الواو واللام . وقد قدمنا الفرق بين القراءتين ، والجملة مستأنفة لبيان قول اليهود والنصارى ، ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله ، وفى قوله (لقد جئتم شيئا إدّا) التفات من الغيبة الى الخطاب ، وفيه رد لهذه المقالة الشنعاء ، والادّ كما قال الجوهرى الداهية والأمر الفظيع ، وكذلك الادّة وجمع الأدّة أدد يقال أدّت فلانا الداهية تؤدّه أدّاء بالفتح . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى أدّا بفتح الهمزة . وقرأ الجمهور بالكسر . وقرأ ابن عباس وأبو العالية آدّا مثل مادّا ، وهى مأخوذة من الثقل يقال أده الحمل يؤده اذا أثقله ، قال الواحدى (لقد جئتم شيئا ادّا) أى عظيما فى قول الجميع ، ومعنى الآية قلتم قولا عظيما . وقيل الادّ العجب والادة الشدة * والمعنى متقارب والتركيب يدور على الشدة والثقل (يكاد السموات يتفطرن منه) قرأ نافع والكسائى وحفص ويحيى بن وثاب يكاد بالتحتية . وقرأ الباقون بالفوقية وقرأ نافع وابن كثير (١) وحفص يتفطرن بالتاء الفوقية . وقرأ حمزة وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر والمفضل ينفطرن بالتحتية من الانفطار ، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله — إذا السماء انفطرت — وقوله

(١) قوله وحفص صوابه والكسائى وحفص اه مصحح القرآن .

- السماء منفطر به - وقرأ ابن مسعود يتصدعن ، والانفطار والتفطر التشقق (وتنشق الأرض) أى وتكاد أن تنشق الأرض ، وكرر الفعل لما أكد لأن تتفطرن وتنشق معناهما واحد (وتخر الجبال) أى تسقط وتهدم ، وانتصاب (هدا) على أنه مصدر مؤكد لأن الخرور فى معناه ، أوهومصدر لفعل مقدر : أى وتهد هدا ، أو على الحال : أى مهدودة ، أوعلى أنه مفعول له : أى لأنها تهد قال الهروى يقال هدنى الأمر وهد ركنى أى كسرنى وبلغ منى ، قال الجوهرى هد البناء يهده هدا كسره وضعضعه ، وهدته المصيبة أوهنت ركنه وانهد الجبل أى انكسر ، والهدة صوت وقع الحائط . كما قال ابن الاعرابى ، ومحل (أن دعوا للرحمن ولدا) الجر بدلا من الضمير فى منه ، وقال الفراء فى محل نصب بمعنى لأن دعوا . وقال الكسائى هو فى محل خفض بتقدير الخافض . وقيل فى محل رفع على أنه فاعل هدا ، والدعاء بمعنى التسمية أى سموا للرحمن ولدا ، أو بمعنى النسبة أى نسبوا له ولدا (وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا) أى لايصلح له ولايليق به لاستحالة ذلك عليه لأن الولد يقتضى الجنسية والحدوث ، والجملة فى محل نصب على الحال أى قالوا اتخذ الرحمن ولدا ، أو أن دعوا للرحمن ولدا والحال أنه مايليق به سبحانه ذلك (ان كل من فى السموات والأرض) أى ما كل من فى السموات والأرض (إلا) وهو (آتى) الله يوم القيامة مقرا بالعبودية خاضعا ذليلا كما قال - وكل أتوه داخرين - أى صاغرين * والمعنى : أن الخلق كلهم عبيده فكيف يكون واحد منهم ولدا له ؟ وقرئ آت على الأصل (لقد أحصاهم) أى حصرهم وعلم عددهم (وعدهم عدا) أى عد أشخاصهم بعد أن حصرهم فلايخفى عليه أحد منهم (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) أى كل واحد منهم يأتيه يوم القيامة فردا لاناصر له ولامال معه كما قال سبحانه - يوم لاينفع مال ولابنون - .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ويكونون عليهم ضدا) قال أعوانا . وأخرج عبد بن حميد عنه ضدا قال حسرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال تؤزهم أزا تغويهم اغواء . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا تؤزهم أزا . قال تحرض المشركين على محمد وأصحابه وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال تزعجهم إزعاجا الى معاصى الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن ابن عباس (وفدا) قال ركبانا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن أبى هريرة (وفدا) قال على الابل . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق : راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا ، والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدا وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن ابن عباس (وردا) قال عطاشا وأخرج ابن المنذر عن أبى هريرة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) قال شهادة أن لا إله إلا الله وتبرأ من الحول والقوة ، ولا يرجو الا الله . وأخرج ابن مردويه عنه فى الآية قال من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ (الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) قال ان الله يقول يوم القيامة من كان له عندى عهد فليقم فلا يقوم الا من قال هذا فى الدنيا قولوا : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة انى أعهد اليك فى الحياة الدنيا انك ان تكلنى الى عملى تقربنى من الشر وتباعدنى من الخير ، وانى لا أثق الا برحمتك فاجعله لى عندك عهدا تؤديه الى يوم القيامة انك لاتخلف الميعاد . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس

قال

٩٤-٩٦ ٩١٨

قال : قال رسول الله ﷺ من أدخل على مؤمن سرورا فقد سرنى ، ومن سرنى فقد اتخذ عند الرحمن عهدا ، ومن اتخذ عند الرحمن عهدا : فلا تمسه النار ان الله لايخلف الميعاد . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ من جاءنا بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئا جاءوله عندالله عهد أن لايعذبه ، ومن جاءقد انتقص منهم شيئا فليس له عند الله عهد ان شاء رحمه وان شاء عذبه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (لقد جئتم شيئا إدّا) قال قولا عظيما ، وفى قوله (يكاد السموات) قال ان الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق الا الثقلين وكادت تزول منه لعظمة الله سبحانه وكما لاينفع مع الشرك احسان المشرك . كذلك يرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين ، وفى قوله (وتخرّ الجبال هدّا) قال هدما . وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة والطبرانى والبيهقى فى الشعب من طريق عون عن ابن مسعود قال ان الجبل لينادى الجبل باسمه يافلان هل مرّ بك اليوم أحد ذكر الله فاذا قال نعم استبشر . قال عون أفيسمعن الزور اذا قيل ولا يسمعن الخير هنّ للخير أسمع ، وقرأ (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) الآيات

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۞ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۞ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۞

ذكر سبحانه من أحوال المؤمنين بعض ماخصهم به بعد ذكره لقبائح الكافرين ، فقال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) أى حبا فى قلوب عباده يجعله لهم من دون أن يطلبوه بالأسباب التى توجب ذلك كما يقذف فى قلوب أعدائهم الرعب ، والسين فى سيجعل للدلالة على أن ذلك لم يكن من قبل وأنه مجعول من بعد نزول الآية . وقرئ ودّا بكسر الواو ، والجمهور من السبعة وغيرهم على الضم . ثم ذكر سبحانه تعظيم القرآن خصوصا هذه السورة لاشتمالها على التوحيد والنبوّة . وبيان حال المعاندين . فقال (فانما يسرناه بلسانك) أى يسرنا القرآن بانزالنا له على لغتك ، وفصلناه وسهلناه ، والباء بمعنى على ، والفاء لتعليل كلام ينساق اليه النظم كأنه قيل : بلغ هذا المنزل أو بشر به أوأنذر (فانما يسرناه) الآية . ثم علل ماذكره من التيسير . فقال (لتبشر به المتقين) أى المتلبسين بالتقوى ، المتصفين بها (وتنذر به قوما لدّا) اللدّ جمع الألد ، وهو الشديد الخصومة ، ومنه قوله تعالى – ألدّ الخصام قال الشاعر :

أبيت نجيا للهموم كأننى ۞ أخاصم أقواما ذوى جدل لدّا

وقال أبو عبيدة : الألدّ الذى لايقبل الحق ويدّعى الباطل ، وقيل اللدّ الصم ، وقيل الظلمة (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) أى من أمة وجماعة من الناس ، وفى هذا وعد لرسول الله ﷺ بهلاك الكافرين ووعيد لهم (هل تحس منهم من أحد) هذه الجملة مقررة لمضمون ماقبلها : أى هل تشعر بأحد منهم أوتراه (أو تسمع لهم ركزا) الركز الصوت الخفى ، ومنه ركز الرمح اذا غيب طرفه فى الأرض . قال طرفة :

وصادقتها سمع التوجس للسرى ۞ لركز خفى أو لصوت مفند

وقال ذو الرمة :

إذا توجس ركزا مقفر ندس * بنبأة الصوت ما فى سمعه كذب

أى : فى استماعه كذب بل هو صادق الاستماع ، والندس الحاذق ، والنبأة الصوت الخفى . وقال اليزيدى وأبو عبيدة : الركز ما لا يفهم من صوت أو حركة

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عبدالرحمن بن عوف . أنه لما هاجر الى المدينة وجد فى نفسه على فراق أصحابه بمكة منهم شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف ، فأنزل الله ـ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ الآية . قال ابن كثير : وهو خطأ ، فان السورة مكية بكمالها لم ينزل شىء منها بعد الهجرة ولم يصح سند ذلك . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال نزلت فى على بن أبى طالب (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) قال محبة فى قلوب المؤمنين . وأخرج ابن مردويه والديلمى عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ لعلىّ قل اللهم اجعل لى عندك عهدا واجعل لى عندك ودّا واجعل لى فى صدور المؤمنين مودة ، فأنزل الله الآية فى علىّ . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس (ودا) قال محبة فى الناس فى الدنيا . وأخرج الحكيم الترمذى وابن مردويه عن علىّ قال سألت رسول الله ﷺ عن قوله سيجعل لهم الرحمن ودّا ما هو ؟ قال المحبة الصادقة فى صدور المؤمنين . وثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : اذا أحب الله عبدا نادى جبريل انى قد أحببت فلانا فأحبه ، فينادى فى السماء . ثم ينزل له المحبة فى أهل الأرض فذلك قوله (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا) واذا أبغض الله عبدا نادى جبريل : انى قد أبغضت فلانا فينادى فى أهل السماء . ثم ينزل له البغضاء فى الأرض ، والأحاديث والآثار فى هذا الباب كثيرة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (وتنذر به قوما لدّا) قال فجارا وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال صما . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (هل تحسّ منهم من أحد) قال هل ترى منهم من أحد . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ركزا) قال صوتا .

تفسير سورة طه

هى مكية ، وآياتها مائة وخمس وثلاثون آية

قال القرطبى مكية فى قول الجميع . وأخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال نزلت سورة طه بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج الدارمى وابن خزيمة فى التوحيد ، والعقيلى فى الضعفاء ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن عدىّ وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : قال رسول ﷺ ان الله تبارك وتعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام ، فلما

سمعت الملائكة القرآن قالت : طوبى لأمة ينزل عليها هذا ، وطوبى لأجواف تحمل هذا ، وطوبى لألسنة تكلمت بهذا . قال ابن خزيمة بعد إخراجه حديث غريب . وفيه نكارة ، وابراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما . يعنى ابراهيم بن مهاجر بن مسمار وشيخه عمر بن حفص بن ذكوان وهما من رجال إسناده . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال أعطيت السورة التى ذكرت فيها الانعام من الذكر الأول . وأعطيت سورة طه والطواسين من ألواح موسى ، وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم البقرة من تحت العرش ، وأعطيت المفصل نافلة . وأخرج ابن مردويه عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال : « كل قرآن يوضع عن أهل الجنة فلا يقرءون منه شيئا الا سورة طه و يس فانهم يقرءون بهما فى الجنة » وأخرج الدارقطنى فى سننه عن أنس بن مالك ، فذكر قصة عمر بن الخطاب مع أخته وخباب وقراءتهما طه ، وكان ذلك بسبب اسلام عمر ، والقصة مشهورة فى كتب السير .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ * وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ *

قوله (طه) قرأ بإمالة الهاء وفتح الطاء أبو عمرو وابن أبى اسحق ، وأمالهما جميعا أبو بكر وحمزة والكسائى والأعمش . وقرأهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين ، واختار هذه القراءة أبو عبيد . وقرأ الباقون بالتفخيم . قال الثعلبى ، وهى كلها لغات صحيحة فصيحة . وقال النحاس لاوجه للامالة عند أكثر أهل العربية لعلتين : الأولى أنه ليس هاهنا ياء ، ولا كسرة حتى تكون الامالة ، والعلة الثانية أن الطاء من موانع الامالة .

وقد اختلف أهل العلم فى معنى هذه الكلمة على أقوال : الأول أنها من المتشابه الذى لا يفهم المراد به ، والثانى أنها بمعنى يارجل فى لغة عكل ، وفى لغة عك . قال الكلبى لو قلت لرجل من عك يارجل لم يجب حتى تقول طه ، وأنشد ابن جرير فى ذلك :

دعوت بطه فى القتال فلم يجب * فخفت عليه أن يكون موائلا

ويروى مزايلا ، وقيل انها فى لغة عك بمعنى ياحبيبى . وقال قطرب هى كذلك فى لغة طىء : أى بمعنى يارجل ، وكذلك قال الحسن وعكرمة ، وقيل هى كذلك فى اللغة السريانية ، حكاه المهدوى ، وحكى ابن جرير أنها كذلك فى اللغة النبطية ، وبه قال السدى وسعيد بن جبير ،

وحكى الثعلبي عن عكرمة أنها كذلك فى لغة الحبشة ، ورواه عن عكرمة ، ولامانع من أن تكون هذه الكلمة موضوعة لذلك المعنى فى تلك اللغات كلها اذا صح النقل ، القول الثالث أنها اسم من أسماء الله سبحانه ، القول الرابع أنها اسم للنبى ﷺ ، القول الخامس أنها اسم للسورة ، القول السادس أنها حروف مقطعة يدل كل واحد منها على معنى ، ثم اختلفوا فى هذه المعانى التى تدل عليها هذه الحروف على أقوال كلها متكلفة متعسفة ، القول السابع : أن معناها طوبى لمن اهتدى ، القول الثامن : أن معناها طأ الأرض يامحمد . قال ابن الانبارى : وذلك أن النبى ﷺ كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورم ويحتاج إلى التروح ، فقيل له طأ الأرض : أى لاتتعب حتى تحتاج إلى الترّوح ، وحكى القاضى عياض فى الشفاء عن الربيع بن أنس قال : كان النبى ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى ، فأنزل الله (طه) يعنى طأ الأرض يامحمد ، وحكى عن الحسن البصرى أنه قرأ طه على وزن دع أمر بالوطء ، والأصل طأ فقلبت الهمزة هاء ، وقد حكى الواحدى عن أكثر المفسرين : أن هذه الكلمة معناها يارجل يريد النبى ﷺ قال : وهو قول الحسن وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة ومجاهد وابن عباس فى رواية عطاء والكلبي غير أن بعضهم يقول هى بلسان الحبشة والنبطية والسريانية ويقول الكلبي هى بلغة عك . قال ابن الانبارى : ولغة قريش وافقت تلك اللغة فى هذا المعنى ، لأن الله سبحانه لم يخاطب نبيه بلسان غير قريش انتهى * واذا تقرّر أنها لهذا المعنى فى لغة من لغات العرب كانت ظاهرة المعنى واضحة الدلالة خارجة عن فواتح السور التى قدّمنا بيان كونها من المتشابه فى فاتحة سورة البقرة ، وهكذا اذا كانت لهذا المعنى فى لغة من لغات العجم واستعملتها العرب فى كلامها فى ذلك المعنى كسائر الكلمات العجمية التى استعملتها العرب الموجودة فى الكتاب العزيز ، فانها صارت بذلك الاستعمال من لغة العرب ، وجملة (ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى) مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب ، والشقاء يجىء فى معنى التعب ، قال ابن كيسان : وأصل الشقاء فى اللغة العناء والتعب ، ومنه قول الشاعر :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله * وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

والمعنى ماأنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط تأسفك عليهم ، وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا ، فهو كقوله سبحانه ـ فلعلك باخع نفسك ـ قال النحاس بعض النحويين يقول : هذه اللام فى لتشقى لام النفى ، و بعضهم يقول لام الجحود ، وقال ابن كيسان : هى لام الخفض ، وهذا التفسير للآية هو على قول من قال ان طه كسائر فواتح السور التى ذكرت تعديدا لأسماء الحروف ، وان جعلت اسما للسورة كان قوله (ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى) خبرا عنها ، وهى فى موضع المبتدأ ، وأما على قول من قال : ان معناها يارجل ، أو بمعنى الأمر بوطء الأرض فتكون الجملة مستأنفة أيضا مسوقة لصرفه ﷺ عما كان عليه من المبالغة فى العبادة ، وانتصاب (الا تذكرة) على أنه مفعول له لأنزلنا كقولك : ماضربتك للتأديب الاشفاقا عليك ، وقال الزجاج : هو بدل من لتشقى : أى ماأنزلناه الاتذكرة ، وأنكره أبو على الفارسى من جهة أن التذكرة ليست بشقاء ، قال وانما هو منصوب على المصدرية : أى أنزلناه لتذكر به تذكرة ، أو على المفعول من أجله : أى ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى به ماأنزلناه الا للتذكرة ، وانتصاب (تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى) على المصدرية : أى أنزلناه تنزيلا ، وقيل بدل من قوله تذكرة ، وقيل هو منصوب على المدح ، وقيل منصوب بيخشى : أى يخشى تنزيلا من الله على أنه مفعول به ، وقيل منصوب على الحال بتأويله باسم الفاعل ، وقرأ أبو حيوة الشامى تنزيل بالرفع على معنى هذا تنزيل ، وممن خلق

متعلق بتنزيلا ، أو بمحذوف هو صفة له ، وتخصيص خلق الأرض والسموات لكونهما أعظم مايشاهده العبادمن مخلوقاته عزّ وجلّ ، والعلى : جمع العليا : أى المرتفعة كجمع كبرى وصغرى على كبر وصغر ، ومعنى الآية اخبار العباد عن كمال عظمة سبحانه وعظيم جلاله ، وارتفاع (الرحمن) على أنه خبر مبتدأ محذوف ، كما قال الأخفش : ويجوز أن يكون مرتفعا على المدح ، أو على الابتداء ، وقرئ بالجر ، قال الزجاج على البدل ممن ، وجوز النحاس أن يكون مرتفعا على البدل من المضمر فى خلق ، وجملة (على العرش استوى) فى محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف ، أو على أنها خبرالرحمن عند من جعله مبتدأ . قال أحمد بن يحيى قال ثعلب الاستواء الاقبال على الشيء ، وكذا قال الزجاج والفراء : وقيل هوكناية عن الملك والسلطان ، والبحث فى تحقيق هذا يطول ، وقدتقدّم البحث عنه فى الاعراف ، والذى ذهب إليه أبوالحسن الأشعرى أنه سبحانه مستوعلى عرشه بغيرحدّ ولا كيف ، والى هذا القول سبقه الجماهير من السلف الصالح الذى يمرّون الصفات كما وردت من دون تحريف ولا تأويل (له مافى السموات ومافى الأرض) أى انه مالك كل شيء ومدبره (وما بينهما) من الموجودات (وما تحت الثرى) الثرى فى اللغة التراب الندىّ : أى ماتحت التراب من شيء . قال الواحدى والمفسرون يقولون انه سبحانه أراد الثرى الذى تحت الصخرة التى عليها الثور الذى تحت الأرض ، ولا يعلم ماتحت الثرى إلا الله سبحانه (وان تجهر بالقول فانه يعلم السرّ وأخفى) الجهر بالقول هو رفع الصوت به ، والسر ماحدّث به الانسان غيره وأسرّه اليه ، والأخفى من السر هوماحدّث به الانسان نفسه وأخطره بباله * والمعنى ان تجهر بذكرالله ودعائه فاعلم أنه غنىّ عن ذلك فانه يعلم السر وما هوأخفى من السر ، فلا حاجة لك الى الجهر بالقول ، وفى هذا معنى النهى عن الجهر كقوله سبحانه ـ واذكر ربك فى نفسك تضرّعا وخيفة ـ ، وقيل السرّ ما أسرّ الانسان فى نفسه ، والأخفى منه هو ماخفى على ابن آدم مما هو فاعله وهو لايعلمه ، وقيل السرّ ماأضمره الانسان فى نفسه ، والأخفى منه مالم يكن ولا أضمره أحد ، وقيل السرّ سر الخلائق ، والأخفى منه سر الله عزّ وجلّ ، وأنكرذلك ابن جرير ، وقال ان الأخفى ماليس فى سرّ الانسان وسيكون فى نفسه * ثم ذكرأن الموصوف بالعبادة على الوجه المذكور هو الله سبحانه المنزه عن الشريك المستحق لتسميته بالأسماء الحسنى ، فقال (الله لاإله إلا هو له الأسماء الحسنى) فالله خبر مبتدأ محذوف : أى الموصوف بهذه الصفات الكمالية الله ، وجملة لاإله إلا هومستأنفة لبيان اختصاص الالهية به سبحانه : أى لاإله فى الوجود الاهو ، وهكذا جملة له الاسماء الحسنى مبينة لاستحقاقه تعالى للأسماء الحسنى ، وهى التسعة والتسعون التى ورد بها الحديث الصحيح .

وقدتقدّم بيانها فى قوله سبحانه ـ ولله الأسماء الحسنى ـ من سورة الأعراف ، والحسنى تأنيث الأحسن ، والأسماء مبتدأ وخبرها الحسنى ، ويجوز أن يكون الله مبتدأ وخبره الجملة التى بعده ، ويجوز أن يكون بدلا من الضمير فى يعلم * ثم قرّر سبحانه أمر التوحيد بذكر قصة موسى المشتملة على القدرة الباهرة ، والخبر الغريب ، فقال (وهل أتاك حديث موسى) الاستفهام للتقرير ، ومعناه أليس قد أتاك حديث موسى ، وقيل معناه قد أتاك حديث موسى ، وقال الكلبىّ لم يكن قد أتاه حديث موسى اذ ذاك ، وفى سياق هذه القصة تسلية للنبى ﷺ ، لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوّة ، وتحمل أثقالها ومقاساة خطوبها وأن ذلك شأن الأنبياء قبله ، والمراد بالحديث القصة الواقعة لموسى ، و (إذ رأى نارا) ظرف للحديث ، وقيل العامل فيه مقدر : أى اذكر ؛ وقيل يقدر مؤخرا : أى حين رأى نارا كان كيت وكيت ، وكانت رؤيته للنار فى ليلة مظلمة لما خرج مسافرا إلى أمه بعد استئذانه لشعيب (ع) لما رآها (قال لأهله امكثوا) والمراد بالأهل هنا امرأته ، والجمع لظاهر لفظ الأهل ، أو للتفخيم ، وقيل المراد بهم المرأة والولد والخادم ، ومعنى

امكثوا أقيموا مكانكم ، وعبر بالمكث دون الاقامة ، لأن الاقامة تقتضى الدوام ، والمكث ليس كذلك ، وقرأ حمزة لأهله بضم الها ، وكذا فى القصص . قال النحاس : وهذا على لغة من قال مررت بهو يارجل فجاء به على الأصل وهو جائز الا أن حمزة خالف أصله فى هذين الموضعين خاصة (إنى آنست نارا) أى أبصرت ، يقال آنست الصوت سمعته ، وآنست الرجل أبصرته ، وقيل الايناس الأبصار البين ، وقيل الايناس مختص بابصار مايؤنس ، والجملة تعليل للأمر بالمكث ، ولما كان الاتيان بالقبس ، ووجود الهدى متوقعين بنى الأمر على الرجاء ، فقال (لعلى آتيكم منها بقبس) أى أجيئكم من النار بقبس ، والقبس شعلة من النار ، وكذا المقباس : يقال قبست منه نارا أقبس قبسا فأقبسنى : أى أعطانى ، وكذا اقتبست . قال اليزيدى : أقبست الرجل علما وقبسته نارا ، فان كنت طلبتها له قلت أقبسته . وقال الكسائى أقبسته نارا وعلما سواء . قال وقبسته أيضا فيهما (أو أجد على النار هدى) أى هاديا يهدينى الى الطريق ويدلنى عليها . قال الفراء : أراد هاديا ، فذكره بلفظ المصدر ، أو عبر بالمصدر لقصد المبالغة على حذف المضاف : أى ذا هدى ، وكلمة : أو فى الموضعين لمنع الخلو دون الجمع ، وحرف الاستعلاء للدلالة على أن أهل النار مستعلون على أقرب مكان اليها (فلما أتاها نودى) أى فلما أتى النار التى آنسها (نودى) من الشجرة ، كما هو مصرح بذلك فى سورة القصص : أى من جهتها ، ومن ناحيتها (ياموسى انى أنا ربك) أى نودى ، فقيل ياموسى . وقرأ أبو عمرو وابن كثير وأبو جعفر وابن محيصن وحميد واليزيدى أنى بفتح الهمزة . وقرأ الباقون بكسرها : أى بأنى (فاخلع نعليك) أمره الله سبحانه بخلع نعليه ، لأن ذلك أبلغ فى التواضع ، وأقرب الى التشريف والتكريم وحسن التأدب ، وقيل انهما كانا من جلد حمار غير مدبوغ ، وقيل معنى الخلع للنعلين تفريغ القلب من الأهل والمال ، وهو من بدع التفاسير ، ثم علل سبحانه الأمر بالخلع ، فقال (إنك بالواد المقدس طوى) المقدس المطهر . والقدس الطهارة ، والأرض المقدسة المطهرة ، سميت بذلك ، لأن الله أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين ، وطوى اسم للوادى . قال الجوهرى وطوى اسم موضع بالشام يكسر طاؤه ويضم ، يصرف ولا يصرف ، فن صرفه جعله اسم واد ومكان وجعله نكرة ، ومن لم يصرفه جعله بلدة ، وبقعة وجعله معرفة ، وقرأ عكرمة طوى بكسر الطاء . وقرأ الباقون بضمها : وقيل ان طوى كثنى من الطى مصدر لنودى ، أو للمقدس . أى نودى نداءين ، أوقدس مرة بعد أخرى (وأنا اخترتك) قرأ أهل المدينة ، وأهل مكة وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائى وأنا اخترتك بالافراد . وقرأ حمزة وإنا اخترناك بالجمع . قال النحاس والقراءة الأولى أولى من جهتين : إحداهما أنها أشبه بالخط ، والثانية أنها أولى بنسق الكلام لقوله (ياموسى إنى أنا ربك) ، ومعنى اخترتك اصطفيتك للنبوة والرسالة ، والفاء فى قوله (فاستمع لما يوحى) لترتيب مابعدها على ماقبلها وما موصولة أو مصدرية أى فاستمع للذى يوحى اليك ، أو للوحى ، وجملة (إننى أنا الله) بدل من ما فى لما يوحى . ثم أمره سبحانه بالعبادة ، فقال (فاعبدنى) والفاء هنا كالفاء التى قبلها لأن اختصاص الالهية به سبحانه موجب لتخصيصه بالعبادة (وأقم الصلاة لذكرى) خص الصلاة بالذكر مع كونها داخلة تحت الأمر بالعبادة ، لكونها أشرف طاعة وأفضل عبادة ، وعلل الأمر باقامة الصلاة بقوله لذكرى : أى لتذكرنى فان الذكر الكامل لايتحقق إلا فى ضمن العبادة والصلاة ، أو المعنى لتذكرنى فيهما لاشتمالهما على الاذكار ، أو المعنى أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة : وقيل المعنى لأذكرك بالمدح فى عليين ، فالمصدر على هذا يحتمل الاضافة إلى الفاعل ، أو إلى المفعول ، وجملة (ان الساعة آتية) تعليل لما قبلها من الأمر أى إن الساعة التى هى وقت الحساب والعقاب آتية فاعمل الخير من عبادة الله والصلاة .

ومعنى

ومعنى (أكاد أخفيها) مختلف فيه . قال الواحدى . قال أكثر المفسرين أخفيها من نفسى وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة ، وقال المبرد وقطرب هذا على عادة مخاطبة العرب يقولون إذا بالغوا فى كتمان الشيء : كتمته حتى من نفسى : أى لم أطلع عليه أحدا ، ومعنى الآية أن الله بالغ فى اخفاء الساعة ، فذكره بأبلغ ماتعرفه العرب ، وقد روى عن سعيد بن جبير أنه قرأ أخفيها بفتح الهمزة ومعناه أظهرها ، وكذا روى أبو عبيد عن الكسائى عن محمد بن سهل عن وفاء بن إياس عن سعيد بن جبير . قال النحاس : وليس لهذه الرواية طريق غير هذا . قال القرطبى ، وكذا رواه ابن الانبارى فى كتاب الرد قال حدثنى أبى حدثنا محمد بن الجهم حدثنا الفراء حدثنا الكسائى فذكره . قال النحاس وأجود من هذا الاسناد مارواه يحيى القطان عن الثورى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير أنه قرأ أخفيها بضم الهمزة . قال ابن الانبارى . قال الفراء ، ومعنى قراءة الفتح أكاد أظهرها ، من خفيت الشيء اذا أظهرته أخفيه . قال القرطبى ، وقد قال بعض اللغويين يجوز أن يكون أخفيها بضم الألف معناه أظهرها ؛ لأنه يقال خفيت الشيء وأخفيته من حروف الاضداد يقع على الستر والاظهار . قال أبو عبيدة خفيت وأخفيت بمعنى واحد . قال النحاس : وهذا حسن ، وقد أنشد الفراء وسيبويه مايدل على أن معنى أخفاه أظهر ، وذلك قول امرئ القيس :

فان تدفنوا الداء لانخفه ◦ وان تبعثوا الحرب لانقعد

أى : وإن تكتموا الداء لانظهره ◦ وقد حكى أبو عبيدة عن أبى الخطاب أنه بضم النون من نخفه وقال امرؤ القيس :

خفاهن من انفاقهن كأنما ◦ خفاهن ودق من عشى مجلب

أى : أظهرهن . وقد زيف النحاس هذا لقول ، وقال ليس المعنى على أظهرها ، ولاسيا وأخفيها قراءة شاذة ، فكيف ترد القراءة الصحيحة الشائعة ، وقال ابن الانبارى فى الآية تفسير آخر ، وهو أن الكلام ينقطع على أكاد ، وبعده مضمر . أى أكاد آتى بها ، ووقع الابتداء بأخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، ومثله قول عمير بن ضابئ البرجمى :

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى ◦ تركت على عثمان تبكى حلائله

أى وكدت أفعل ، واختار هذا النحاس ، وقال أبو على الفارسى هو من باب السلب وليس من الأضداد ، ومعنى أخفيها أزيل عنها خفاءها ، وهو سترها ، ومن هذ اقولهم أشكيته : أى أزلت شكواه وحكى أبو حاتم عن الأخفش أن أكاد زائدة للتأكيد . قال ومثله ـ اذا أخرج يده لم يكد يراها ـ ومثله قول الشاعر :

سريع الى الهيجاء شاك سلاحه ◦ فما ان يكاد قرنه يتنفس

قال : والمعنى أكاد أخفيها : أى أقارب ذلك ، لأنك اذا قلت كاد زيد يقوم جاز أن يكون قام ، وأن يكون لم يقم ، ودل على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه الآية على هذا ، وقوله (لتجزى كل نفس بما تسعى) متعلق بآتية ، أو بأخفيها ، وما مصدرية : أى لتجزى كل نفس بسعيها ، والسعى وان كان ظاهرا فى الأفعال ، فهو هنا يعم الأفعال والتروك ، للقطع بأن تارك مايجب عليه معاقب بتركه مأخوذ به (فلا يصدنك عنها) أى لايصرفنك عن الايمان بالساعة ، والتصديق بها ، أو عن ذكرها ومراقبتها (من لايؤمن بها) من الكفرة ، وهذا النهى وان كان للكافر بحسب الظاهر ، فهو فى الحقيقة نهى له ﷺ عن الانصداد ، أوعن إظهار اللين للكافرين ، فهو من باب « لاأرينك ههاهنا » كما هو معروف ، وقيل الضمير فى عنها للصلاة وهو بعيد ، وقوله (واتبع هواه) معطوف على ماقبله أى من لايؤمن ، ومن

اتبع هواه : أى هوى نفسه بالانهماك فى اللذات الحسية الفانية (فتردى) أى فتهلك لأن انصدادك عنها بصدّ الكافرين لك مستلزم للهلاك ومستتبع له .

وقد أخرج ابن المنذر وابن مردويه والبيهقى فى الشعب وابن عساكر عن ابن عباس أن النبىّ ﷺ « أوّل مانزل عليه الوحى كان يقوم على صدر قدميه إذا صلى » ، فأنزل الله (طه ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى) . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال : قالوا لقد شقى هذا الرجل بربه ، فأنزل الله هذه الآية . وأخرج ابن عساكر عنه أيضا قال : كان رسول الله ﷺ اذا قام من الليل يربط نفسه بحبل لئلا ينام ، فأنزل الله هذه الآية . وأخرج البزار عن علىّ قال : كان النبى ﷺ يراوح بين قدميه يقوم على كل رجل حتى نزلت (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) وحسن السيوطى إسناده . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه بأطول منه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : ان رسول الله ﷺ ربما قرأ القرآن اذا صلى ، فقام على رجل واحدة ، فأنزل الله طه برجليك فما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عنه فى قوله طه . قال يارجل . وأخرج الحارث ابن أبى أسامة وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : طه بالنبطية : أى طأ يارجل . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : هو كقولك : اقعد . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال : طه بالنبطية يارجل . وأخرج ابن جرير عنه قال : طه يارجل بالسريانية . وأخرج الحاكم عنه أيضا قال : طه هو كقولك يامحمد بلسان الحبش ، وفى هذه الروايات عن ابن عباس اختلاف وتدافع . وأخرج ابن مردويه عن أبى الطفيل قال : قال رسول الله ﷺ « إن لى عند ربى عشرة أسماء قال أبو الطفيل حفظت منها ثمانية : محمد ، وأحمد ، وأبو القسم ، والفاتح ، والخاتم ، والماحى ، والعاقب ، والحاشر ، وزعم سيف أن أباجعفر قال له الاسمان الباقيان طه ويس . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله (طه ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى) قال يارجل ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى ، وكان يقوم الليل على رجليه فهى لغة لعك ان قلت لعكى يارجل لم يلتفت واذا قلت طه التفت اليك . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : طه قسم أقسم الله به ، وهو من أسمائه . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وما تحت الثرى) قال : الثرى كل شىء مبتل . وأخرج أبو يعلى عن جابر أن النبى ﷺ سئل ماتحت هذه الأرض ؟ قال الماء ، قيل فما تحت الماء ؟ قال ظلمة ، قيل فما تحت الظلمة ؟ قال الهواء قيل فما تحت الهواء ؟ قال الثرى ، قيل فما تحت الثرى ؟ قال انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه بأطول منه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (يعلم السرّ وأخفى) قال : السرّ ماأسرّه ابن آدم فى نفسه وأخفى ماخفى على ابن آدم عما هو فاعله قبل أن يعمله ، فانه يعلم ذلك كله فيما مضى من ذلك وما بقى علم واحد وجميع الخلائق عنده فى ذلك كنفس واحدة ، وهو كقوله ـ ماخلقكم ولابعثكم الا كنفس واحدة ـ وأخرج الحاكم وصححه عنه فى الآية قال : السرّ ماعلمته أنت ، وأخفى ماقذف الله فى قلبك مما لم تعلمه . وأخرجه عبد الله ابن أحمد فى زوائد الزهد وأبو الشيخ فى العظمة والبيهقى بلفظ يعلم ماتسرّ فى نفسك ويعلم ماتعمل غدا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (أو أجد على النار هدى) يقول من يدلّ على الطريق . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن علىّ فى قوله (فاخلع نعليك) قال كانتا من جلد حمار ميت فقيل له اخلعهما . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (انك بالواد المقدّس طوى) قال المبارك ، طوى قال اسم الوادى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه بالواد المقدس طوى :

يعنى

يعنى الأرض المقدسة ، وذلك أنه مر بواديها ليلا فطوى : يقال طويت وادى كذا وكذا . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله طوى : قال طأ الوادى ، وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال « اذا رقد أحدكم عن الصلاة أوغفل عنها فليصلها اذا ذكرها فان الله قال أقم الصلاة لذكرى » وأخرج الترمذى وابن ماجه وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان وابن مردويه من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من نسى صلاة فليصلها اذا ذكرها ، فان الله قال أقم الصلاة لذكرى » وكان ابن شهاب يقرؤها للذكرى . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (أكاد أخفيها) قال لا أظهر عليها أحدا غيرى . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : أكاد أخفيها من نفسى .

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ * قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ * وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ * لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى * ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَـٰرُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا *

قوله (وما تلك بيمينك ياموسى) قال الزجاج والفراء : ان تلك اسم ناقص وصلت بيمينك : أى ما التى بيمينك ؟ وروى عن الفراء أنه قال : تلك بمعنى هذه ، ولوقال ماذلك لجاز : أى ماذلك الشىء ؟ وبالأول قال الكوفيون . قال الزجاج : ومعنى سؤال موسى عما فى يده من العصا التنبيه له عليها لتقع المعجزة بها بعد التثبت فيها والتأمل لها . قال الفراء : ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى هى عصاى لتثبت الحجة عليه بعد مااعترف ، والا فقد علم الله ماهى فى الأزل ، ومحل ما الرفع على الابتداء ، وتلك خبره ، وبيمينك فى محل نصب على الحال ان كانت تلك اسم اشارة على ماهو ظاهر اللفظ ، وان كانت اسما موصولا كان بيمينك صلة للموصول (قال هى عصاى) قرأ ابن أبى اسحق عصى على لغة هذيل . وقرأ الحسن عصاى بكسر الياء لالتقاء الساكنين (أتوكأ عليها) أى أتحامل عليها فى المشى وأعتمدها عند الاعياء والوقوف ومنه الاتكاء (وأهش بها على غنمى) هش بالعصا يهش هشا اذا خبط بها الشجر ليسقط منه الورق . قال الشاعر :

أهش بالعصا على أغنامى * من ناعم الأوراك والسنام

وقرأ النخعى أهس بالسين المهملة ، وهو زجر الغنم ، وكذا قرأ عكرمة ، وقيل هما لغتان لمعنى واحد (ولى فيها مآرب أخرى) أى حوائج ، واحدها مأربة ومأربة ومأربة مثلث الراء كذا قال ابن الأعرابى وقطرب ، ذكر تفصيل منافع العصا ، ثم عقبه بالاجمال ،

وقد تعرض قوم لتعداد منافع العصا فذكروا من ذلك أشياء : منها قول بعض العرب . عصاى أركزها لصلاتى ، وأعدها لعداتى ، وأسوق بها دابتى ، وأقوى بها على سفرى ، وأعتمد بها فى مشيتى ، ليتسع

خطوى ، وأثب بها النهر ، وتؤمنني العثر ، وألقى عليها كسائى ، فتقينى الحرّ ، وتدفيني من القرّ ، وتدنى إلىّ مابعد منى ، وهى تحمل سفرتى ، وعلاقة إداوتى ، أعصى بها عند الضراب ، وأقرع بها الأبواب ، وأقى بها عقور الكلاب ، وتنوب عن الرمح فى الطعان ، وعن السيف عند منازلة الأقران ، ورثتها عن أبى وأورثها بعدى بنىّ انتهى .

وقد وقفت على مصنف فى مجلد لطيف فى منافع العصا لبعض المتأخرين ، ذكر فيه أخبارا وأشعارا وفوائد لطيفة ونكتا رشيقة ＊ وقد جمع الله سبحانه لموسى فى عصاه من البراهين العظام والآيات الجسام ماأمن به من كيد السحرة ومعرّة المعاندين ، واتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته ، وكان ابن مسعود صاحب عصا النبى ﷺ وعنزته ، وكان يخطب بالقضيب وكذلك الخلفاء من بعده ، وكان عادة العرب العرباء أخذ العصا والاعتماد عليها عند الكلام ، وفى المحافل والخطب (قال ألقها ياموسى) هذه جملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، أمره سبحانه بالقائها ليريه ماجعل له فيها من المعجزة الظاهرة (فألقاها) موسى على الأرض (فاذا هى حية تسعى) وذلك بقلب الله سبحانه لأوصافها وأعراضها حتى صارت حية تسعى : أى تمشى بسرعة وخفة ، قيل كانت عصا ذات شعبتين فصار الشعبتان لها وباقيها جسم حية تنتقل من مكان إلى مكان وتلتقم الحجارة مع عظم جرمها وفظاعة منظرها ، فلما رآها كذلك خاف وفزع وولى مدبرا ولم يعقب ، فعند ذلك (قال) سبحانه (خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) قال الأخفش والزجاج : التقدير الى سيرتها ، مثل ــ واختار موسى قومه ــ قال ويجوز أن يكون مصدرا ، لأن معنى سنعيدها سنسيرها ، ويجوز أن يكون المصدر بمعنى اسم الفاعل : أى سائرة ، أو بمعنى اسم المفعول . أى مسيرة ＊ والمعنى سنعيدها بعد أخذك لها الى حالتها الأولى التى هى العصوية ، قيل انه لما قيل له لاتخف بلغ من عدم الخوف الى أن كان يدخل يده فى فمها ويأخذ بلحيها (واضمم يدك إلى جناحك) قال الفراء والزجاج . جناح الانسان عضده ، وقال قطرب : جناح الانسان جنبه ، وعبر عن الجنب بالجناح لأنه فى محل الجناح ، وقيل إلى بمعنى مع . أى مع جناحك ، وجواب الأمر (تخرج بيضاء) أى تخرج يدك حال كونها بيضاء ، ومحل (من غير سوء) النصب على الحال . أى كائنة من غير سوء ، والسوء العيب ، كنى به عن البرص . أى تخرج بيضاء ساطعا نورها تضىء بالليل والنهار كضوء الشمس من غير برص ، وانتصاب (آية أخرى) على الحال أيضا أى معجزة أخرى غير العصا ، وقال الأخفش . ان آية منتصبة على أنها بدل من بيضاء ، قال النحاس : وهو قول حسن ، وقال الزجاج : المعنى آتيناك أو نؤتيك آية أخرى ، لأنه لما قال تخرج بيضاء دلّ على أنه قد آتاه آية أخرى ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله (لنريك من آياتنا الكبرى) قيل والتقدير فعلنا ذلك لنريك ، ومن آياتنا متعلق بمحذوف وقع حالا ، والكبرى معناها العظمى ، وهو صفة لموصوف محذوف ، والتقدير لنريك من آياتنا الآية الكبرى : أى لنريك بهاتين الآيتين يعنى اليد والعصا بعض آياتنا الكبرى ، فلا يلزم أن تكون اليد هى الآية الكبرى وحدها حتى تكون أعظم من العصا ، فيرد على ذلك أنه لم يكن فى اليد إلا تغير اللون فقط بخلاف العصا ، فان فيها مع تغير اللون الزيادة فى الحجم وخلق الحياة والقدرة على الأمور الخارقة ، ثم صرّح سبحانه بالغرض المقصود من هذه المعجزات ، فقال (اذهب الى فرعون) وخصه بالذكر ، لأن قومه تبع له ، ثم علل ذلك بقوله (انه طغى) أى عصى وتكبر وكفر وتجبر وتجاوز الحدّ ، وجملة (قال ربّ اشرح لى صدرى) مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل فماذا قال ؟ ومعنى شرح الصدر توسيعه ، تضرّع عليه السلام الى ربه وأظهر عجزه بقوله ــ ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ــ ، ومعنى تيسير الأمر تسهيله (واحلل عقدة من لسانى) يعنى العجمة التى كانت فيه من الجمرة التى ألقاها فى فيه وهو طفل : أى أطلق عن لسانى العقدة التى فيه ، قيل أذهب الله

سبحانه تلك العقدة جميعها بدليل قوله (قد أوتيت سؤلك ياموسى) ، وقيل لم تذهب كلها ، لأنه لم يسأل حلّ عقدة لسانه بالكلية ، بل سأل حلّ عقدة تمنع الافهام بدليل قوله من لسانى : أى كائنة من عقد لسانى ، و يؤيد ذلك قوله ـ هو أفصح منى لسانا ـ ، وقوله حكاية عن فرعون ـ ولا يكاد يبين ـ ، وجواب الأمر قوله (يفقهوا قولى) أى يفهموا كلامى ، والفقه فى كلام العرب الفهم ، ثم خص به علم الشريعة والعالم به فقيه ، قاله الجوهرى (واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى) الوزير الموازر كالأكيل المواكل لأنه يحمل عن السلطان وزره : أى ثقله . قال الزجاج : واشتقاقه فى اللغة من الوزر ، وهو الجبل الذى يعتصم به لينجى من الهلكة ، والوزير الذى يعتمد الملك على رأيه فى الأمور و يلتجئ إليه ، وقال الاصمعى . هو مشتق من الموازرة ، وهى المعاونة ، وانتصاب وزيرا وهرون على أنهما مفعولا اجعل ، وقيل مفعولاه : لى وزيرا ، ويكون هرون عطف بيان للوزير ، والأول أظهر ، ويكون لى متعلقا بمحذوف أى كائنا لى ، ومن أهلى صفة لوزيرا ، وأخى بدل من هرون ، قرأ الجمهور اشدد بهمزة وصل ، وأشركه بهمزة قطع كلاهما على صيغة الدعاء : أى يارب أحكم به قوّتى واجعله شريكى فى أمر الرسالة ، والأزر القوّة ، يقال آزره . أى قوّاه ، وقيل الظهر : أى اشدد به ظهرى ، وقرأ ابن عامر ويحيى بن الحارث وأبو حيوة والحسن وعبد الله بن أبى اسحق أشدد بهمزة قطع وأشركه بضم الهمزة . أى أشدد أنا به أزرى وأشركه أنا فى أمرى . قال النحاس : جعلوا الفعلين فى موضع جزم جوابا لقوله اجعل لى وزيرا ، وقرأ بفتح الياء من أخى ابن كثير وأبو عمرو (كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا) هذا التسبيح والذكر هما الغاية من الدعاء المتقدّم ، والمراد التسبيح هنا باللسان ، وقيل المراد به الصلاة ، وانتصاب كثيرا فى الموضعين على أنه نعت مصدر محذوف ، أو لزمان محذوف (انك كنت بنا بصيرا) البصير المبصر والبصير العالم بخفيات الأمور ، وهو المراد هنا ، أى انك كنت بنا عالما فى صغرنا فأحسنت الينا فأحسن الينا أيضا كذلك الآن .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى عصا موسى قال ، أعطاه ملك من الملائكة اذ توجه الى مدين فكانت تضىء له بالليل ، و يضرب بها الأرض فتخرج له النبات ، و يهش بها على غنمه ورق الشجر . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله (وأهش بها على غنمى) قال أضرب بها الشجر فيتساقط منه الورق على غنمى ، وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله (ولى فيها مآرب) قال حوائج ، وأخرج ابن أبى شيبة وعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى نحوه ، وأخرج أيضا عن قتادة قال : كانت تضىء له بالليل ، وكانت عصا آدم عليه السلام . وأخرج أيضا عن ابن عباس فى قوله (فألقاها فاذا هى حية تسعى) قال ولم تكن قبل ذلك حية فمرّت بشجرة فأكلتها ، ومرّت بصخرة فابتلعتها فجعل موسى يسمع وقع الصخرة فى جوفها فولى مدبرا فنودى أن ياموسى خذها ، فلم يأخذها ثم نودى الثانية أن خذها ولا تخف ، فقيل له فى الثالثة انك من الآمنين فأخذها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه (سنعيدها سيرتها الأولى) قال حالتها الأولى . وأخرجا عنه أيضا (من غير سوء) قال من غير برص . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى) قال كان أكبر من موسى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله (وأشركه فى أمرى) قال نبئ هرون ساعتئذ حين نبئ موسى .

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ *
أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِى وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ
عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ * إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ
فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا
فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى * اذْهَبْ أَنتَ
وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى * اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ
يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ *

لما سأل موسى ربه سبحانه أن يشرح صدره وييسر له أمره ويحلل عقدة من لسانه ويجعل له وزيرا من أهله أخبره الله سبحانه بأنه قد أجاب ذلك الدعاء، فقال (قد أوتيت سؤلك ياموسى) أى أعطيت ماسألته، والسؤل المسئول: أى المطلوب كقولك: خبر بمعنى مخبور، وزيادة قوله ياموسى لتشريفه بالخطاب مع رعاية الفواصل، وجملة (ولقد مننا عليك مرّة أخرى) كلام مستأنف لتقوية قلب موسى بتذكيره نعم الله عليه، والمنّ الاحسان والافضال * والمعنى ولقد أحسنا اليك مرّة أخرى قبل هذه المرّة، وهى حفظ الله سبحانه له من شرّ الأعداء كما بينه سبحانه هاهنا، وأخرى تأنيث آخر بمعنى غير (اذ أوحينا الى أمك مايوحى) أى مننا ذلك الوقت وهو وقت الايحاء فاذ ظرف للايحاء، والمراد بالايحاء اليها إما مجرّد الالهام لها أو فى النوم بأن أراها ذلك أو على لسان نبىّ أو على لسان ملك، لا على طريق النبوّة كالوحى الى مريم أو باخبار الأنبياء المتقدّمين بذلك وانتهى الخبر اليها، والمراد بمايوحى ماسيأتى من الأمر لها، أبهمه أوّلا وفسره ثانيا تفخيما لشأنه، وجملة (أن اقذفيه فى التابوت) مفسرة، لأن الوحى فيه معنى القول، أو مصدرية على تقدير بأن اقذفيه، والقذف هاهنا الطرح: أى اطرحيه فى التابوت، وقد مرّ تفسير التابوت فى البقرة فى قصة طالوت (فاقذفيه فى اليمّ) أى اطرحيه فى البحر، واليمّ البحر أو النهر الكبير. قال الفراء: هذا أمر وفيه المجازاة: أى اقذفيه يلقه اليمّ بالساحل، والأمر للبحر مبنىّ على تنزيله منزلة من يفهم ويميز، لما كان إلقاؤه إياه بالساحل أمرا واجب الوقوع، والساحل هو شط البحر، سمى ساحلا لأن الماء سحله، قاله ابن دريد، والمراد هنا مايلى الساحل من البحر، لا نفس الساحل، والضمائر هذه كلها لموسى لا للتابوت، وان كان قد ألقى معه لكن المقصود هو موسى مع كون الضمائر قبل هذا و بعده له، وجملة (يأخذه عدوّ لى وعدوّ له) جواب الأمر بالالقاء، والمراد بالعدوّ فرعون، فان أمّ موسى لما ألقته فى البحر وهو النيل المعروف، وكان يخرج منه نهر الى دار فرعون فساقه الله فى ذلك النهر الى داره، فأخذ التابوت فوجد موسى فيه، وقيل ان البحر ألقاه بالساحل فنظره فرعون فأمر من يأخذه، وقيل وجدته ابنة فرعون، والأوّل أولى (وألقيت عليك محبة منى) أى ألقى الله على موسى محبة كائنة منه تعالى فى قلوب عباده لايراه أحد الا أحبه، وقيل جعل عليه مسحة من جمال لايراه أحد من الناس الا أحبه. وقال ابن جرير: المعنى وألقيت عليك رحمتى، وقيل كلمة من متعلقة بألقيت، فيكون المعنى: ألقيت منى عليك محبة: أى أحببتك، ومن أحبه الله أحبه الناس (ولتصنع على عينى) أى ولتربى وتغذى بمرأى منى، يقال صنع الرجل جاريته: إذا رباها، وصنع فرسه: إذا

داوم على عمله والقيام عليه ، وتفسير « على عينى » بمرأى منى صحيح . قال النحاس : وذلك معروف فى اللغة ، ولكن لا يكون فى هذا تخصيص لموسى ، فان جميع الأشياء بمرأى من الله . وقال أبو عبيدة وابن الانبارىّ ان المعنى لتغذى على محبتى وارادتى ، تقول : أتخذ الأشياء على عينى : أى على محبتى . قال ابن الانبارى العين فى هذه الآية يقصد بها قصد الارادة ، والاختيار ، من قول العرب : غدا فلان على عينى : أى على المحبة منى ، قيل واللام متعلقة بمحذوف : أى فعلت ذلك لتصنع ، وقيل متعلقة بألقيت ، وقيل متعلقة بما بعده ، أى ولتصنع على عينى قدّرنا مشى أختك ، وقرأ ابن القعقاع ولتصنع باسكان اللام على الأمر ، وقرأ أبو نهيك بفتح التاء ، والمعنى ولتكون حركتك وتصرّفك بمشيئتى ، وعلى عين منى (إذ تمشى أختك) ظرف لألقيت ، أو لتصنع ، ويجوز أن يكون بدلا من « إذ أوحينا » ، وأخته اسمها مريم (فتقول هل أدلكم على من يكفله) وذلك أنها خرجت متعرّفة لخبره فوجدت فرعون وامرأته آسية يطلبان له مرضعة ، فقالت لهما هذا القول : أى هل أدلكم على من يضمه إلى نفسه ويربيه ، فقالا لها ومن هو ؟ قالت أمى ؟ فقالا هل لها ابن ؟ قالت نعم لبن أخى هرون ، وكان هرون أكبر من موسى بسنة ، وقيل بأكثر ، فجاءت الأمّ فقبل ثديها ، وكان لا يقبل ثدى مرضعة غيرها ، وهذا هو معنى (فرجعناك إلى أمك) . وفى مصحف أبىّ « فرددناك » ، والفاء فصيحة (كى تقرّ عينها) قرأ ابن عامر فى رواية عبد الحميد عنه كى تقرّ بكسر القاف ، وقرأ الباقون بفتحها . قال الجوهرى : قررت به عينا قرّة وقرورا ، ورجل قرير العين ، وقد قرّت عينه تقرّ وتقرّ ، نقيض سخنت ، والمراد بقرّة العين : السرور برجوع ولدها إليها بعد أن طرحته فى البحر وعظم عليها فراقه (ولا تحزن) أى لا يحصل لها ما يكدّر ذلك السرور من الحزن بسبب من الأسباب ، ولو أراد الحزن بالسبب الذى قرّت عينها بزواله لقدّم نفى الحزن على قرّة العين ، فيحمل هذا النفى للحزن على ما يحصل بسبب يطرأ بعد ذلك ، ويمكن أن يقال ان الواو لما كانت لمطلق الجمع كان هذا الحمل غير متعين ، وقيل المعنى : ولا تحزن أنت ياموسى بفقد إشفاقها ، وهو تعسف (وقتلت نفسا) المراد بالنفس هنا : نفس القبطى الذى وكزه موسى فقضى عليه ، وكان قتله له خطأ (فنجيناك من الغمّ) أى الغمّ الحاصل معك من قتله خوفا من العقوبة الأخروية ، أو الدنيوية ، أو منهما جميعا ، وقيل الغمّ هو القتل بلغة قريش ، وما أبعد هذا (وفتناك فتونا) الفتنة تكون بمعنى المحنة ، وبمعنى الأمر الشاقّ ، وكل ما يبتلى به الانسان ، والفتون يجوز أن يكون مصدرا كالثبور ، والشكور ، والكفور : أى ابتليناك ابتلاء ، واختبرناك اختبارا ، ويجوز أن يكون جمع فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجور فى حجرة ، وبدور فى بدرة : أى خلصناك مرّة بعد مرّة مما وقعت فيه من المحن التى سبق ذكرها قبل أن يصطفيه الله لرسالته ، ولعلّ المقصود بذكر تنجيته من الغمّ الحاصل له بذلك السبب ، وتنجيته من المحن هو الامتنان عليه بصنع الله سبحانه له . وتقوية قلبه عند ملاقاة ما سيقع له من ذلك مع فرعون وبنى اسرائيل (فلبثت سنين فى أهل مدين) قال الفراء : تقدير الكلام وفتناك فتونا ، فخرجت الى أهل مدين فلبثت سنين ، ومثل هذا الحذف كثير فى التنزيل ، وكذا فى كلام العرب فانهم يحذفون كثيرا من الكلام إذا كان المعنى معروفا ، ومدين هى بلد شعيب ، وكانت على ثمانى مراحل من مصر ، هرب إليها موسى ، فأقام بها عشر سنين ، وهى أتمّ الأجلين ، وقيل أقام عند شعيب ثمانيا وعشرين سنة منها عشر مهر امرأته ابنة شعيب ، ومنها ثمانى عشرة سنة بقى فيها عنده حتى ولد له ، والفاء فى « فلبثت » تدل على أن المراد بالمحن المذكورة هى ما كان قبل لبثه فى أهل مدين (ثم جئت على قدر ياموسى) أى فى وقت سبق فى قضائى وقدرى أن

أ كلك وأجعلك نبيا ، أو على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء ، وهو رأس أربعين سنة ، أو على موعد قد عرفته بإخبار شعيب لك به . قال الشاعر :

نال الخلافة إذ كانت له قدرا * كما أتى ربه موسى على قدر

وكلمة ثم المفيدة للتراخى للدلالة على أن مجيئه عليه السلام كان بعد مدة ، وذلك بسبب ماوقع له من ضلال الطريق ، وتفرق غنمه ، ونحو ذلك (واصطنعتك لنفسى) الاصطناع : اتخاذ الصنعة ، وهى الخير تسديه إلى إنسان * والمعنى : اصطنعتك لوحيى ورسالتى لتتصرف على إرادتى . قال الزجاج تأويله : اخترتك لاقامة حجتى ، وجعلتك بينى وبين خلقى ، وصرت بالتبليغ عنى بالمنزلة التى أكون أنا بها لو خاطبتهم واحتججت عليهم ، قيل وهو تمثيل لما خوله الله سبحانه من الكرامة العظمى بتقريب الملك لبعض خواصه (اذهب أنت وأخوك) أى وليذهب أخوك ، وهو كلام مستأنف مسوق لبيان ماهو المقصود من الاصطناع ومعنى (بآياتى) بمعجزاتى التى جعلتها لك آية ، وهى التسع الآيات (ولا تنيا فى ذكرى) أى لا تضعفا ولا تفترا ، يقال ونى ينى ونيا : اذا ضعف . قال الشاعر :

فما ونى محمد مذ أن غفر * له الاله ما مضى وما غبر

وقال امرؤ القيس :

بسيح اذا ما السابحات على الونى * أثرن غبارا بالكديد الموكل

قال الفراء : فى ذكرى وعن ذكرى سواء * والمعنى : لاتقصرا عن ذكرى بالاحسان اليكما ، والانعام عليكما ، وذكر النعمة شكرها ، وقيل معنى « لا تنيا » لا تبطئا فى تبليغ الرسالة ، وفى قراءة ابن مسعود لاتهنا فى ذكرى (اذهبا إلى فرعون انه طغى) هذا أمر لهما جميعا بالذهاب ، وموسى حاضر وهرون غائب تغليبا لموسى ، لأنه الأصل فى أداء الرسالة ، وعلل الأمر بالذهاب بقوله : انه طغى أى جاوز الحد فى الكفر والتمرد ، وخص موسى وحده بالأمر بالذهاب فيما تقدم ، وجمعهما هنا تشريفا لموسى بافراده ، وتأكيدا للأمر بالذهاب بالتكرير ، وقيل ان فى هذا دليلا على أنه لا يكفى ذهاب أحدهما ، وقيل الأول أمر لموسى بالذهاب الى كل الناس . والثانى أمر لهما بالذهاب الى فرعون ، ثم أمرهما سبحانه بالانة القول له لما فى ذلك من التأثير فى الاجابة ، فان التخشين بادئ بدء يكون من أعظم أسباب النفور والتصلب فى الكفر ، والقول اللين هو الذى لاخشونة فيه ، يقال : لان الشىء يلين لينا ، والمراد تركهما للتعنيف كقولهما — هل لك إلى أن تزكى — ، وقيل القول اللين هو الكنية له ، وقيل أن يعداه بنعيم الدنيا ان أجاب ، ثم علل الأمر بالانة القول له بقوله (لعله يتذكر أو يخشى) أى باشرا ذلك مباشرة من يرجو ويطمع ، فالرجاء راجع اليهما كما قاله جماعة من النحويين : سيبويه وغيره ، وقد تقدم تحقيقه فى غير موضع . قال الزجاج : لعل لفظة طمع وترج ، فخاطبهم بما يعقلون ، وقيل لعل هاهنا بمعنى الاستفهام * والمعنى : فانظرا هل يتذكر أو يخشى ، وقيل بمعنى كى ، والتذكر : النظر فيما بلغاه من الذكر وإمعان الفكر فيه حتى يكون ذلك سببا فى الاجابة ، والخشية هى خشية عقاب الله الموعود به على لسانهما ، وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (فاقذفيه فى اليم) قال هو النيل . وأخرج عبد ابن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وألقيت عليك محبة منى) قال كان كل من رآه ألقيت عليه منه محبته . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن سلمة بن كهيل قال حببتك الى عبادى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى عمران الجونى فى قوله (ولتصنع على عينى) قال تربى بعين الله .

وأخرج

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : لتغذى على عيني . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال يقول : أنت بعيني اذ جعلتك أمك في التابوت ، ثم في البحر ، واذ تمشي أختك . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والخطيب عن ابن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول « انما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ يقول الله سبحانه (وقتلت نفسا فنجيناك من الغمّ) قال من قتل النفس (وفتناك فتونا) قال أخلصناك إخلاصا » . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وفتناك فتونا) قال ابتليناك ابتلاء . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : اختبرناك اختبارا . وقد أخرج عبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أثرا طويلا في تفسير الآية ، فمن أحبّ استيفاء ذلك فلينظره في كتاب التفسير من سنن النسائي . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (ثم جئت على قدر) قال لميقات . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد وقتادة (على قدر) قال موعد . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (ولا تنيا) قال لاتبطئا . وأخرج ابن أبي حاتم عن عليّ في قوله (قولا لينا) قال كنه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال كنياه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله (لعله يتذكر أو يخشى) قال هل يتذكر .

قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ * وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى *

قرأ الجمهور أن يفرط بفتح الياء وضم الراء ، ومعنى ذلك : أننا نخاف أن يعجل ويبادر بعقوبتنا ، يقال فرط منه أمر : أي بدر ، ومنه الفارط ، وهو الذي يتقدّم القوم الى الماء : أي يعذبنا عذاب الفارط في الذنب ، وهو المتقدّم فيه : كذا قال المبرد . وقال أيضا فرط منه أمر وأفرط : أسرف ، وفرط : ترك ، وقرأ ابن محيصن يفرط بضم الياء وفتح الراء : أي يحمله حامل على التسرّع الينا ، وقرأت طائفة بضم الياء وكسر الراء ، ومنهم ابن عباس ومجاهد وعكرمة من الافراط : أي يشتط في أذيتنا . قال الراجز :

* قد أفرط العلج علينا وعجل * ومعنى (أو أن يطغى) قد تقدّم قريبا ، وجملة (قال لاتخافا) مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، نهى لهما عن الخوف الذي حصل معهما من فرعون ، ثم علل ذلك بقوله

(انني معكما) أي بالنصر لهما ، والمعونة على فرعون ، ومعنى (أسمع وأرى) إدراك مايجرى بينهما وبينه بحيث لايخفى عليه سبحانه منه خافية ، وليس بغافل عنهما ، ثم أمرهما باتيانه الذى هو عبارة عن الوصول اليه بعد أمرهما بالذهاب اليه فلا تكرار (فقولا انا رسولا ربك) أرسلنا اليك (فأرسل معنا بنى اسرائيل) أى خلّ عنهم ، وأطلقهم من الأسر (ولا تعذبهم) بالبقاء على ما كانوا عليه ، وقد كانوا عند فرعون فى عذاب شديد : يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ، ويكلفهم من العمل مالايطيقونه ، ثم أمرهما سبحانه أن يقولا لفرعون (قد جئناك بآية من ربك) قيل هى العصا واليد ، وقيل ان فرعون قال لهما وماهى ؟ فأدخل موسى يده فى جيب قيصه ، ثم أخرجها لها شعاع كشعاع الشمس ، فعجب فرعون من ذلك ولم يره موسى العصا الا يوم الزينة (والسلام على من اتبع الهدى) أى السلامة . قال الزجاج : أى من اتبع الهدى سلم من سخط الله عزّ وجلّ ومن عذابه ، وليس بتحية . قال والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ، ولا خطاب . قال الفراء : السلام على من اتبع الهدى ، ولمن اتبع الهدى سواء (انا قد أوحى الينا) من جهة الله سبحانه (أن العذاب على من كذب وتولى) المراد بالعذاب : الهلاك والدمار فى الدنيا ، والخلود فى النار ، والمراد بالتكذيب : التكذيب بآيات الله ورسله ، والتولى : الاعراض عن قبولها ، والايمان بها (قال فمن ربكما ياموسى) أى قال فرعون لهما فمن ربكما ؟ فأضاف الربّ اليهما ولم يضفه الى نفسه لعدم تصديقه لهما ، ولجحده للربوبية ، وخصّ موسى بالنداء لكونه الأصل فى الرسالة ، وقيل لمطابقة رؤوس الآى (قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه) أى قال موسى مجيباله ، وربنا مبتدأ ، وخبره « الذى أعطى كل شىء خلقه » ، ويجوز أن يكون ربنا خبر مبتدأ محذوف ، وما بعده صفته ، قرأ الجمهور خلقه بسكون اللام ، وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ خلقه بفتح اللام على أنه فعل ، وهى قراءة ابن أبى اسحق ، ورواها نصير عن الكسائى ، فعلى القراءة الأولى يكون خلقه ثانى مفعولى أعطى ، والمعنى : أعطى كل شىء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به المطابقة له كاليد للبطش ، والرجل للمشى ، واللسان للنطق ، والعين للنظر ، والأذن للسمع ، كذا قال الضحاك وغيره . وقال الحسن وقتادة أعطى كل شىء صلاحه وهداه لما يصلحه . وقال مجاهد المعنى : لم يخلق خلق الانسان فى خلق البهائم ، ولا خلق البهائم فى خلق الانسان ، ولكن خلق كل شىء فقدّره تقديرا ، ومنه قول الشاعر :

وله فى كل شىء خلقه * وكذاك الله ماشاء فعل

وقال الفراء : المعنى خلق للرجل المرأة ، ولكل ذكر مايوافقه من الاناث ، ويجوز أن يكون خلقه على القراءة الأولى هو المفعول الأوّل لأعطى : أى أعطى خلقه كل شىء يحتاجون اليه ، ويرتفقون به ، ومعنى (ثم هدى) أنه سبحانه هداهم الى طرق الانتفاع بما أعطاهم فانتفعوا بكل شىء فيما خلق له ، وأما على القراءة الآخرة ، فيكون الفعل صفة للمضاف أو للمضاف اليه : أى أعطى كل شىء خلقه الله سبحانه ، ولم يخله من عطائه ، وعلى هذه القراءة يكون المفعول الثانى محذوفا : أى أعطى كل شىء خلقه مايحتاج اليه ، فيوافق معناها معنى القراءة الأولى (قال فما بال القرون الأولى) لما سمع فرعون مااحتج به موسى فى ضمن هذا الكلام على إثبات الربوبية كما لا يخفى من أن الخلق والهداية ثابتان بلا خلاف ، ولابدّ لهما من خالق وهاد ، وذلك الخالق والهادى هوالله سبحانه لاربّ غيره . قال فرعون : فما بال القرون الأولى فانها لم تقرّ بالربّ الذى تدعو اليه ياموسى ، بل عبدت الأوثان ونحوها من المخلوقات ، ومعنى البال الحال والشأن ، أى ماحالهم وماشأنهم ؟ وقيل ان سؤال فرعون عن القرون الأولى مغالطة لموسى لما خاف

أن يظهر لقومه أنه قد قهره بالحجة ، أى ماحال القرون الماضية ، وما ذا جرى عليهم من الحوادث ؟ فأجابه موسى ، فـ(قال علمها عند ربى) أى ان هذا الذى سألت عنه ليس مما نحن بصدده ، بل هو من علم الغيب الذى استأثر الله به لا تعلمه أنت ولا أنا ، وعلى التفسير الأوّل يكون معنى « علمها عنـد ربى » أن علم هؤلاء الذين عبدوا الأوثان ونحوها محفوظ عند الله فى كتابه سيجازيهم عليها ، ومعنى كونها فى كتاب أنها مثبتة فى اللوح المحفوظ . قال الزجاج ، المعنى أن أعمالهم محفوظة عند الله يجازى بها ، والتقدير علم أعمالها عند ربى فى كتاب .

وقد اختلف فى معنى (لا يضلّ ربى ولا ينسى) على أقوال : الأوّل أنه ابتداء كلام تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين . وقدتمّ الكلام عند قوله فى كتاب كذا قال الزجاج . قال ومعنى « لا يضلّ » لا يهلك من قوله — أئذا ضللنا فى الأرض — ولا ينسى شيئا من الأشياء ، فقد نزهه عن الهلاك والنسيان ، القول الثانى أن معنى « لا يضلّ » لا يخطىء ، القول الثالث أن معناه لا يغيب . قال ابن الأعرابى أصل الضلال الغيبوبة ، القول الرابع أن المعنى لا يحتاج الى كتاب ، ولا يضلّ عنه علم شىء من الأشياء ، ولا ينسى ماعلمه منها ، حكى هذا عن الزجاج أيضا . قال النحاس وهو أشبهها بالمعنى ◉ ولا يخفى أنه كقول ابن الأعرابى . القول الخامس أن هاتين الجملتين صفة لكتاب ◉ والمعنى أن الكتاب غير ذاهب عن الله ولا هو ناس له (الذى جعل لكم الأرض مهادا) الموصول فى محل رفع على أنه صفة لربى متضمنة لزيادة البيان ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أو فى محل نصب على المدح ، قرأ الكوفيون مهدا على أنه مصدر لفعل مقدّر : أى مهدها مهدا ، أو على تقدير مضاف محذوف : أى ذات مهد ، وهو اسم لما يمهد كالفراش لما يفرش وقرأ الباقون مهادا ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، قالا لاتفاقهم على قراءة — ألم نجعل الأرض مهادا — قال النحاس : والجمع أولى من المصـدر ، لأن هذا الموضع ليس موضع المصـدر الا على حذف المضاف ، قيل يجوز أن يكون مهادا مفردا كالفراش ، ويجوز أن يكون جمعا ◉ ومعنى المهاد : الفراش فالمهاد جمع المهد : أى جعل كل موضع منها مهدا لكل واحد منكم (وسلك لكم فيها سبلا) السلك : إدخال الشىء فى الشىء ◉ والمعنى أدخل فى الأرض لأجلكم طرقا تسلكونها وسهلها لكم وفى الآية الأخرى — الذى جعل لكم الأرض مهادا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون — ثم قال سبحانه ممتنا على عباده (وأنزل من السماء ماء) هو ماء المطر ، قيـل إلى هنا انتهى كلام موسى ، وما بعده ، وهو (فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) من كلام الله سبحانه ، وقيل هو من الكلام المحكىّ عن موسى معطوف على أنزل ، وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور مافيه من الدلالة على كمال القدرة ، ونوقش بأن هذا خلاف الظاهر مع استلزامه فوت الالتفات لعدم اتحاد المتكلم ، ويجاب عنه بأن الكلام كله محكىّ عن واحد ، هو موسى ، والحاكى للجميع هو الله سبحانه ◉ والمعنى فأخرجنا بذلك الماء بسبب الحرث والمعالجة أزواجا ، أى ضروبا وأشباها من أصناف النبات المختلفة ◉ وقوله من نبات صـفة لأزواجا ، أو بيان له ، وكذا شتى صفة أخرى له ، أى متفرقة جمع شتيت . وقال الأخفش التقدير أزواجا شتى من نبات قال وقد يكون النبات شتى ، فيجوز أن يكون شتى نعتا لأزواجا ، ويجوز أن يكون نعتا للنبات ، يقال أمر شتّ ، أى متفرق ، وشتّ الأمر شتا وشتاتا تفرّق واشتتّ مثله ، والشتيت المتفرّق . قال رؤبة :

◉ جاءت معا وأطرقت شتيتا ◉ وجملة (كلوا وارعوا) فى محل نصب على الحال بتقدير القول : أى قائلين لهم ذلك ، والأمر للاباحة ، يقال رعت الماشية الكلأ ورعاها صاحبها رعاية ، أى أسامها وسرحها ، يجىء لازما ومتعدّيا ، والاشارة بقوله (إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) الى ما تقدم ذكره فى

هذه الآيات ، والنهى العقول جمع نهية ، وخص ذوى النهى لأنهم الذين ينتهى الى رأيهم ، وقيل لأنهم ينهون النفس عن القبائح ، وهذا كله من موسى احتجاج على فرعون فى إثبات الصانع جوابا لقوله ـ فمن ربكما ياموسى ـ والضمير فى (منها خلقناكم) وما بعده راجع الى الأرض المذكورة سابقا . قال الزجاج وغيره يعنى أن آدم خلق من الأرض وأولاده منه ، وقيل المعنى أن كل نطفة مخلوقة من التراب فى ضمن خلق آدم ، لأن كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه (وفيها) أى فى الأرض (نعيدكم) بعد الموت فتدفنون فيها وتتفرق أجزاؤكم حتى تصير من جنس الأرض ، وجاء بفى دون الى للدلالة على الاستقرار (ومنها) أى من الأرض (نخرجكم تارة أخرى) أى بالبعث والنشور وتأليف الأجسام وردّ الأرواح اليها على ما كانت عليه قبل الموت ، والتارة كالمرّة (ولقد أريناه آياتنا كلها) أى أرينا فرعون وعرفناه آياتنا كلها ، والمراد بالآيات هى الآيات التسع المذكورة فى قوله ـ ولقد آتينا موسى تسع آيات ـ على أن الاضافة للعهد ، وقيل المراد جميع الآيات التى جاء بها موسى ، والتى جاء بها غيره من الأنبياء ، وأن موسى قد كان عرّفه جميع معجزاته ومعجزات سائر الأنبياء ، والأوّل أولى ، وقيل المراد بالآيات حجج الله سبحانه الدالة على توحيده (فكذب وأبى) أى كذب فرعون موسى وأبى عليه أن يجيبه الى الايمان ، وهذا يدل على أن كفر فرعون كفر عناد لأنه رأى الآيات وكذب بها كما فى قوله ـ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوّا ـ وجملة (قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى) مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل ؟ فماذا قال فرعون بعد هذا ، والهمزة للانكار لما جاء به موسى من الآيات : أى جئت ياموسى لتوهم الناس بأنك نبىّ يجب عليهم اتباعك ، والايمان بما جئت به ، حتى تتوصل بذلك الايهام الذى هو شعبة من السحر إلى أن تغلب على أرضنا وتخرجنا منها ، وانما ذكر الملعون الاخراج من الأرض لتنفير قومه عن إجابة موسى ، فانه اذا وقع فى أذهانهم وتقرّر فى أفهامهم أن عاقبة إجابتهم لموسى الخروج من ديارهم وأوطانهم كانوا غير قابلين لكلامه ولا ناظرين فى معجزاته ولا ملتفتين إلى ما يدعو اليه من الخير (فلنأتينك بسحر مثله) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، واللام هى الموطئة للقسم : أى والله لنعارضنك بمثل ماجئت به من السحر ، حتى يتبين للناس أن الذى جئت به سحر يقدر على مثله الساحر (فاجعل بيننا وبينك موعدا) هو مصدر : أى وعدا ، وقيل اسم مكان : أى اجعل لنا يوما معلوما ، أو مكانا معلوما لا نخلفه قال القشيرى والأظهر أنه مصدر ، ولهذا قال (لا نخلفه) أى لانخلف ذلك الوعد ، والاخلاف أن تعد شيئا ولا تنجزه . قال الجوهرى الميعاد المواعدة والوقت والموضع ، وكذلك الموعد ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج لا نخلفه بالجزم على أنه جواب لقوله اجعل ، وقرأ الباقون بالرفع على أنه صفة لموعدا : أى لا نخلف ذلك الوعد (نحن ولا أنت) وفوّض تعيين الموعد إلى موسى إظهارا لكمال اقتداره على الاتيان بمثل ماأتى به موسى ، وانتصاب (مكانا سوى) بفعل مقدّر يدل عليه المصدر ، أو على أنه بدل من موعد . قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة سوى بضم السين ، وقرأ الباقون بكسرها وهما لغتان ، واختار أبو عبيد وأبو حاتم كسر السين ، لأنها اللغة العالية الفصيحة ، والمراد مكانا مستويا ، وقيل مكانا منصفا عدلا بيننا وبينك . قال سيبويه : يقال سوى وسوى : أى عدل ، يعنى عدلا بين المكانين . قال زهير :

أرونا خطة لا ضيم فيها * يسوّى بيننا فيها السواء

قال أبو عبيدة والقتيبى : معناه مكانا وسطا بين الفريقين ، وأنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفى :

وانّ أبانا كان حلّ ببلدة * سوى بين قيس قيس غيلان والفزر

والفزر

والقزر سعد بن زيد مناة ، ثم واعده موسى بوقت معلوم ، ﴿قال موعدكم يوم الزينة﴾ قال مجاهد وقتادة ومقاتل والسدى كان ذلك يوم عيد يتزينون فيه . وقال سعيد بن جبير كان ذلك يوم عاشوراء وقال الضحاك يوم السبت ، وقيل يوم النيروز ، وقيل يوم كسر الخليج ، وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفى والسلمى وهبيرة عن حفص يوم الزينة بالنصب ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو : أى فى يوم الزينة إنجاز موعدنا ، وقرأ الباقون بالرفع على أنه خبر موعدكم ، وإنما جعل الميعاد زمانا بعد أن طلب منه فرعون أن يكون مكانا سوى ، لأن يوم الزينة يدل على مكان مشهور يجتمع فيه الناس ذلك اليوم ، أو على تقدير مضاف محذوف : أى موعدكم مكان يوم الزينة ، ﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾ معطوف على يوم الزينة ، فيكون فى محل رفع ، أو على الزينة ، فيكون فى محل جر ، يعنى ضحى ذلك اليوم ، والمراد بالناس أهل مصر * والمعنى يحشرون الى العيد وقت الضحى ، وينظرون فى أمر موسى وفرعون . قال الفراء : المعنى إذا رأيت الناس يحشرون من كل ناحية ضحى فذلك الموعد ، قال وجرت عادتهم بحشر الناس فى ذلك اليوم ، والضحى قال الجوهرى : ضحوة النهار بعد طلوع الشمس ثم بعده الضحى ، وهو حين تشرق الشمس ، وخص الضحى لأنه أول النهار ، فاذا امتد الأمر بينهما كان فى النهار متسع ، وقرأ ابن مسعود والجحدرى ، وأن يحشر على البناء للفاعل : أى وأن يحشر الله الناس ضحى * وروى عن الجحدرى أنه قرأ ، وأن نحشر بالنون ، وقرأ بعض القراء بالتاء الفوقية : أى وان تحشر أنت يا فرعون ، وقرأ الباقون بالتحتية على البناء للمفعول .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ﴿إنا نخاف أن يفرط علينا﴾ قال يعجل ﴿أو أن يطغى﴾ قال يعتدى . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله ﴿أسمع وأرى﴾ قال أسمع مايقول وأرى مايجاوبكما به ، فأوحى اليكما فتجاوبانه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن ابن مسعود ، قال لما بعث الله موسى الى فرعون ، قال رب أى شىء أقول ؟ قال قل أهيا شراهيا . قال الأعشى تفسير ذلك الحى قبل كل شىء والحى بعد كل شىء ، وجود السيوطى إسناده ، وسبقه الى تجويد إسناده ابن كثير فى تفسيره . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله ﴿على من كذب وتولى﴾ قال كذب بكتاب الله وتولى عن طاعة الله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله ﴿أعطى كل شىء خلقه﴾ قال خلق لكل شىء زوجه ﴿ثم هدى﴾ قال هداه لمنكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ﴿لايضل ربى﴾ قال لايخطئ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ﴿من نبات شتى﴾ قال مختلف ، وفى قوله ﴿لأولى النهى﴾ قال لأولى التقى . وأخرج ابن المنذر عنه لأولى النهى ، قال لأولى الحجا والعقل . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عطاء الخراسانى ، قال ان الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذى يدفن فيه ، فيذره على النطفة ، فيخلق من التراب ومن النطفة ، وذلك قوله ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾ . وأخرج أحمد والحاكم عن أبى أمامة ، قال لما وضعت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ فى القبر ، قال رسول الله ﷺ « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى بسم الله وفى سبيل الله وعلى ملة رسول الله » وفى حديث فى السنن أنه أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر ، وقال منها خلقناكم ، ثم أخرى ، وقال وفيها نعيدكم ، ثم أخرى ، وقال ومنها نخرجكم تارة أخرى . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله ﴿موعدكم يوم الزينة﴾ قال يوم عاشوراء . وأخرج ابن المنذر عن ابن عمرو نحوه .

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ
بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ
يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ
ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى *
قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً
مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ
سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى *

قوله (فتولى فرعون) أى انصرف من ذلك المقام ليهيئ ما يحتاج اليه مما تواعدا عليه ، وقيل معنى تولى أعرض عن الحق ، والأول أولى (فجمع كيده) أى جمع ما يكيد به من سحره وحيلته ، والمراد أنه جمع السحرة ، قيل كانوا اثنين وسبعين ، وقيل أربعمائة ، وقيل اثنى عشر ألفا ، وقيل أربعة عشر ألفا ، وقال ابن المنذر كانوا ثمانين ألفا (ثم أتى) أى أتى الموعد الذى تواعدا اليه مع جمعه الذى جمعه ، وجملة (قال لهم موسى) مستأنفة جواب سؤال مقدر (ويلكم لا تفتروا على الله كذبا) دعا عليهم بالويل ، ونهاهم عن افتراء الكذب . قال الزجاج هو منصوب بمحذوف ، والتقدير ألزمهم الله ويلا ، قال ويجوز أن يكون نداء كقوله ـ ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ـ (فيسحتكم بعذاب) السحت الاستئصال : يقال سحت وأسحت بمعنى ، وأصله استقصاء الشعر ، وقرأ الكوفيون الا شعبة فيسحتكم بضم حرف المضارعة من أسحت ، وهى لغة بنى تميم ، وقرأ الباقون بفتحه من سحت ، وهى لغة الحجاز وانتصابه على أنه جواب للنهى (وقد خاب من افترى) أى خسر وهلك * والمعنى قد خسر من افترى على الله أى كذب كان (فتنازعوا أمرهم بينهم) أى السحرة لما سمعوا كلام موسى تناظروا وتشاوروا وتجاذبوا أطراف الكلام فى ذلك (وأسروا النجوى) أى من موسى ، وكانت نجواهم هى قولهم (إن هذان لساحران) وقيل انهم تناجوا فيما بينهم ، فقالوا إن كان ما جاء به موسى سحرا فسنغلبه ، وان كان من عند الله ، فسيكون له أمر ، وقيل الذى أسروه أنه اذا غلبهم اتبعوه ، قاله الفراء والزجاج ، وقيل الذى أسروه أنهم لما سمعوا قول موسى ويلكم لا تفتروا على الله ، قالوا : ما هذا بقول ساحر ، والنجوى المناجاة يكون اسما ومصدرا .

قرأ أبو عمرو : إن هذين لساحران بتشديد الحرف الداخل على الجملة وبالياء فى اسم الاشارة على اعمال إن عملها المعروف ، وهو نصب الاسم ورفع الخبر ، ورويت هذه القراءة عن عثمان وعائشة وغيرهما من الصحابة ، وبها قرأ الحسن وسعيد بن جبير والنخعى وغيرهم من التابعين ، وبها قرأ عاصم الجحدرى وعيسى بن عمر كما حكاه النحاس ، وهذه القراءة موافقة للاعراب الظاهر مخالفة لرسم المصحف فانه مكتوب بالألف . وقرأ الزهرى والخليل بن أحمد والمفضل وأبان وابن محيصن وابن كثير وعاصم فى رواية حفص عنه ان هذان بتخفيف ان على أنها نافية ، وهذه القراءة موافقة لرسم المصحف وللاعراب ، وقرأ ابن كثير مثل قراءتهم الا أنه يشدد النون من هذان . وقرأ المدنيون والكوفيون وابن عامر إنّ هذان بتشديد إن وبالألف فوافقوا الرسم وخالفوا الاعراب الظاهر ، وقد تكلم جماعة من أهل

العلم في توجيه قراءة المدنيين والكوفيين وابن عامر . وقداستوفى ذكر ذلك ابن الانباري والنحاس ، فقيل انها لغة بني الحارث بن كعب ، وخثعم وكنانة يجعلون رفع المثنى ونصبه وجره بالألف ، ومنه قول الشاعر :

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى ٭ مساغا لناباه الشجاع لصمما

وقول الآخر ٭ تزود منا بين أذناه ضربة ٭

وقول الآخر : إن أباها وأبا أباها ٭ قد بلغا في المجد غايتاها

ومما يؤيد هذا تصريح سيبويه والأخفش وأبي زيد والكسائي والفراء أن هذه القراءة على لغة بني الحارث بن كعب ، وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب أنها لغة بني كنانة ، وحكى غيره أنها لغة خثعم ، وقيل إن ان بمعنى نعم هاهنا كما حكاه الكسائي عن عاصم ، وكذا حكاه سيبويه . قال النحاس : رأيت الزجاج والأخفش يذهبان اليه ، فيكون التقدير نعم هذان لساحران ، ومنه قول الشاعر :

ليت شعري هل للمحبّ شفاء ٭ من جوى حبهنّ انّ اللقاء

أي نعم اللقاء . قال الزجاج : والمعنى في الآية ان هذان لهما ساحران ، ثم حذف المبتدأ وهو هما ، وأنكره أبو علي الفارسي وأبو الفتح بن جني ، وقيل ان الألف في هذا مشبهة بالألف في يفعلان فلم تغير ، وقيل ان الهاء مقدّرة : أي انه هذان لساحران ، حكاه الزجاج عن قدماء النحويين ، وكذا حكاه ابن الانباري ، وقال ابن كيسان انه لما كان يقال هذا بالألف في الرفع والنصب والجر على حال واحدة ، وكانت التثنية لاتغير الواحد أجريت التثنية مجرى الواحد فثبت الألف في الرفع والنصب والجر فهذه أقوال تتضمن توجيه هذه القراءة بوجه تصح به وتخرج به عن الخطأ ، وبذلك يندفع ماروى عن عثمان وعائشة أنه غلط من الكاتب للمصحف (يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) وهي أرض مصر (بسحرهما) الذي أظهراه (ويذهبا بطريقتكم المثلى) قال الكسائي : بطريقتكم بسنتكم ، والمثلى نعت كقولك : امرأة كبرى ، تقول العرب فلان على الطريقة المثلى يعنون على الهدى المستقيم . قال الفراء : العرب تقول هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم لأشرافهم ، والمثلى تأنيث الأمثل ، وهو الأفضل ، يقال فلان أمثل قومه : أي أفضلهم ، وهم الأماثل ٭ والمعنى أنهما ان يغلبا بسحرهما مال اليهما السادة والأشراف منكم ، أو يذهبا بمذهبكم الذي هو أمثل المذاهب (فأجمعوا كيدكم) الاجماع الاحكام ، والعزم على الشيء . قاله الفراء : تقول أجمعت على الخروج مثل أزمعت . وقال الزجاج : معناه ليكن عزمكم كلكم كالكيد مجمعا عليه ، وقد اتفق القراء على قطع الهمزة في أجمعوا إلا أبا عمرو ، فانه قرأ بوصلها وفتح الميم من الجمع . قال النحاس : وفيما حكى لي عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال يجب على أبي عمرو أن يقرأ بخلاف هذه القراءة ، وهي القراءة التي عليها أكثر الناس (ثم ائتوا صفا) أي مصطفين مجتمعين ليكون أنظم لأموركم وأشدّ لهيبتكم ، وهذا قول جمهور المفسرين ، وقال أبو عبيدة الصف موضع المجمع ، ويسمى المصلى الصف . قال الزجاج : وعلى هذا ، معناه ثم ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم ، يقال : أتيت الصف بمعنى أتيت المصلى ، فعلى التفسير الأول يكون انتصاب صفا على الحال ، وعلى تفسير أبي عبيدة يكون انتصابه على المفعولية ، قال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ، ثم ائتوا والناس مصطفون ، فيكون على هذا مصدرا في موضع الحال ، ولذلك لم يجمع ، وقرئ بكسر الهمزة بعدها ياء ، ومن ترك الهمزة أبدل منها ألفا (وقد أفلح اليوم من استعلى) أي من غلب ، يقال استعلى عليه اذا غلبه ، وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض ، وقيل من قول فرعون لهم ، وجملة (قالوا ياموسى إما أن تلقي) مستأنفة جوابا لسؤال مقدّر ، كأنه قيل فماذا فعلوا بعد ماقالوا فيما بينهم ماقالوا ، فقيل قالوا ياموسى إما أن تلقي ، وان

مع ما فى حيزها فى محل نصب بفعل مضمر : أى اختر إلقاءك أوّلا أو إلقاءنا ، ويجوز أن تكون فى محل رفع على أنها وما بعدها خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر القاؤك ، أو القاؤنا ، ومفعول تلقى محذوف ، والتقدير إما أن تلقى ما تلقيه أوّلا (وإما أن نكون) نحن (أوّل من ألقى) ما يلقيه ، أو أوّل من يفعل الالقاء ، والمراد إلقاء العصىّ على الأرض ، وكانت السحرة معهم عصىّ ، وكان موسى قد ألقى عصاه يوم دخل على فرعون ، فلما أراد السحرة معارضته قالوا له هذا القول ، (قال) لهم موسى (بل ألقوا) أمرهم بالالقاء أوّلا لتكون معجزته أظهر إذا ألقوا هم ما معهم ، ثم يلقى هو عصاه فتبتلع ذلك ، و إظهارا لعدم المبالاة بسحرهم (فإذا حبالهم وعصيهم) فى الكلام حذف ، والتقدير فألقوا فإذا حبالهم ، والفاء فصيحة ، وإذا للمفاجأة أو ظرفية ، والمعنى فألقوا ففاجأ موسى وقت أن (يخيل اليه) سعى حبالهم وعصيهم ، وقرأ الحسن عصيهم بضم العين ، وهى لغة بنى تميم ، وقرأ الباقون بكسرها اتباعا لكسرة الصاد ، وقرأ ابن عباس وابن ذكوان وروح عن يعقوب تخيل بالمثناة ، لأن العصىّ والحبال مؤنثة ، وذلك أنهم لطخوها بالزئبق ، فلما أصابها حرّ الشمس ارتعشت واهتزت ، وقرئ نخيل بالنون على أن الله سبحانه هو المخيل لذلك ، وقرئ يخيل بالياء التحتية مبنيا للفاعل على أن المخيل هو الكيد ، وقيل المخيل هو أنها تسعى ، فأنّ فى موضع رفع : أى يخيل اليه سعيها ، ذكر معناه الزجاج ، وقال الفراء انها فى موضع نصب ، أى بأنها ، ثم حذف الباء . قال الزجاج ، ومن قرأ بالتاء يعنى الفوقية جعل أنّ فى موضع نصب ، أى تخيل اليه ذات سعى ، قال ويجوز أن يكون فى موضع رفع بدلا من الضمير فى تخيل ، وهو عائد على الحبال والعصىّ ، والبدل فيه بدل اشتمال ، يقال خيل اليه إذا شبه له وأدخل عليه البهمة والشبهة (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) أى أحسّ ، وقيل وجد ، وقيل أضمر ، وقيل خاف ، وذلك لما يعرض من الطباع البشرية عند مشاهدة ما يخشى منه ، وقيل خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقى عصاه ، وقيل ان سبب خوفه هو أن سحرهم كان من جنس ما أراهم فى العصا فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا فأذهب الله سبحانه ما حصل معه من الخوف بما بشره به بقوله (قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى) أى المستعلى عليهم بالظفر والغلبة ، والجملة تعليل للنهى عن الخوف (وألق ما فى يمينك) يعنى العصا ، وإنما أبهمها تعظيما وتفخيما ، وجزم (تلقف ما صنعوا) على أنه جواب الأمر قرئ بتشديد القاف ، والأصل تتلقف فحذف احدى التاءين ، وقرئ تلقف بكسر اللام من لقفه اذا ابتلعه بسرعة ، وقرئ تلقف بالرفع على تقدير فانها تتلقف ، ومعنى ما صنعوا الذى صنعوه من الحبال والعصىّ . قال الزجاج : القراءة بالجزم جواب الأمر ، ويجوز الرفع على معنى الحال ، كأنه قال ألقها متلقفة ، وجملة (إنما صنعوا كيد ساحر) تعليل لقوله تلقف ، وارتفاع كيد على أنه خبر لان ، وهى قراءة الكوفيين إلا عاصما ، وقرأ هؤلاء سحر بكسر السين وسكون الحاء ، و إضافة الكيد إلى السحر على الاتساع من غير تقدير ، أو بتقدير ذى سحر ، وقرأ الباقون كيد ساحر (ولا يفلح الساحر حيث أتى) أى لا يفلح جنس الساحر حيث أتى وأين توجه ؟ وهذا من تمام التعليل (فألقى السحرة سجدا) أى فألقى ذلك الأمر الذى شاهدوه من موسى والعصا السحرة سجدا لله تعالى ، وقد مرّ تحقيق هذا فى سورة الأعراف (قالوا آمنا برب هرون وموسى) انما قدّم هرون على موسى فى حكاية كلامهم رعاية لفواصل الآى وعناية بتوافق رؤوسها .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فيسحتكم بعذاب) قال يهلككم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة فيسحتكم قال : يستأصلكم وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى صالح قال فيذبحكم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن علىّ (ويذهبا

XA.٦٤-٣٦

بطريقتكم المثلى) قال يصرفا وجوه الناس اليهما . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : يقول أمثلكم ، وهم بنو إسرائيل . وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق في قوله (تلقف ماصنعوا) مايأفكون ، عن قتادة قال : ألقاها موسى فتحولت حية تأكل حبالهم وماصنعوا . وأخرج عبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة أن سحرة فرعون كانوا تسعمائة ، فقالوا لفرعون ان يكن هذان ساحرين فانا نغلبهما ، فانه لاأسحر منا ، وان كانا من رب العالمين ، فانه لاطاقة لنا برب العالمين ، فلما كان من أمرهم أن خروا سجدا أراهم الله في سجودهم منازلهم التي اليها يصيرون فعندها (قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات) الى قوله (والله خير وأبقى) .

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى *

قوله (قال آمنتم له) يقال آمن له وآمن به ، فمن الأول قوله ـ فآمن له لوط ـ ، ومن الثاني قوله في الأعراف ـ آمنتم به قبل أن آذن لكم ـ ، وقيل ان الفعل هنا متضمن معنى الاتباع ، وقرئ على الاستفهام التوبيخي : أي كيف آمنتم به من غير إذن مني لكم بذلك (انه لكبيركم الذي علمكم السحر) أي ان موسى لكبيركم : أي أسحركم وأعلاكم درجة في صناعة السحر ، أو معلمكم واستاذكم كما يدل عليه قوله (الذي علمكم السحر) . قال الكسائي : الصبي بالحجاز اذا جاء من عند معلمه قال جئت من عند كبيري ، وقال محمد بن اسحق انه لعظيم السحر . قال الواحدي : والكبير في اللغة الرئيس ، ولهذا يقال للعلم الكبير ، أراد فرعون بهذا القول أن يدخل الشبهة على الناس حتى لايؤمنوا ، والا فقد علم أنهم لم يتعلموا من موسى ، ولا كان رئيسا لهم ، ولا بينه وبينهم مواصلة (فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) أي والله لأفعلن بكم ذلك ، والتقطيع للأيدي والأرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، ومن للابتداء (ولأصلبنكم في جذوع النخل) أي على جذوعها كقوله ـ أم لهم سلم يستمعون فيه ـ أي عليه ، ومنه قول سويد بن أبي كاهل :

هم صلبوا العبدي في جذع نخلة * فلا عطست شيبان الا بأجدعا

وانما آثر كلمة في للدلالة على استقرارهم عليها كاستقرار المظروف في الظرف (ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) ، أراد لتعلمن هل أنا أشد عذابا لكم أم موسى ؟ ، ومعنى أبقى أدوم ، وهو يريد بكلامه هذا الاستهزاء بموسى ، لأن موسى لم يكن من التعذيب في شيء ، ويمكن أن يريد العذاب الذي توعدهم به موسى ان لم يؤمنوا ، وقيل أراد بموسى رب موسى على حذف المضاف (قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات) أي لن نختارك على ماجاءنا به موسى من البينات الواضحة من عند الله سبحانه كاليد والعصا ، وقيل انهم

أرادوا بالبينات ماراوه فى سجودهم من المنازل المعدّة لهم فى الجنة (والذى فطرنا) معطوف على ماجاءنا أى لن نختارك على ماجاءنا به موسى من البينات وعلى الذى فطرنا : أى خلقنا ، وقيل هو قسم : أى والله الذى فطرنا لن نؤثرك ، أولانؤثرك ، وهذان الوجهان فى تفسير الآية ذكرهما الفراء والزجاج (فاقض ما أنت قاض) هذا جواب منهم لفرعون لما قال لهم لأقطعن الخ * والمعنى فاصنع ما أنت صانع ، واحكم ماأنت حاكم ، والتقدير ماأنت صانعه (انما تقضى هذه الحياة الدنيا) أى انما سلطانك علينا ونفوذ أمرك فينا فى هذه الدنيا ولاسبيل لك علينا فيما بعدها ، فاسم الاشارة فى محل نصب على الظرفية أو على المفعولية وما كافة ، وأجاز الفراء الرفع على أن تجعل ما بمعنى الذى : أى ان الذى تقضيه هذه الحياة الدنيا فقضاؤك وحكمك منحصر فى ذلك (انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا) التى سلفت منا من الكفر وغيره (وما أكرهتنا عليه من السحر) معطوف على خطايانا : أى ويغفر لنا الذى أكرهتنا عليه من عمل السحر فى معارضة موسى فما فى محل نصب على المفعولية ، وقيل هى نافية ، قال النحاس : والأوّل أولى ، قيل ويجوز أن يكون فى محل رفع بالابتداء والخبر مقدّر : أى وما أكرهتنا عليه من السحر موضوع عنا (والله خير وأبقى) أى خير منك ثوابا وأبقى منك عقابا ، وهذا جواب قوله : ولتعلمنّ أينا أشدّ عذابا وأبقى (انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لايموت فيها ولا يحيى) المجرم هو المتلبس بالكفر والمعاصى ، ومعنى لايموت فيها ولا يحيى : أنه لايموت فيستريح ولا يحيى حياة تنفعه . قال المبرد : لايموت ميتة مريحة ولايحيا حياة ممتعة ، فهو يألم كما يألم الحىّ ويبلغ به حال الموت فى المكروه إلا أنه لايبطل فيها عن احساس الألم ، والعرب تقول : فلان لاحىّ ولا ميت اذا كان غير منتفع بحياته ، وأنشد بن الانبارى فى مثل هذا :

ألا من لنفس لاتموت فينقضى * شقاها ولا تحيا حياة لها طعم

وهذه الآية من جملة ماحكاه الله سبحانه من قول السحرة ، وقيل هو ابتداء كلام ، والضمير فى انه على هذا الوجه للشأن (ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات) أى ومن يأت ربه مصدّقا به قد عمل الصالحات أى الطاعات ، والموصوف محذوف ، والتقدير الأعمال الصالحات ، وجملة قد عمل فى محل نصب على الحال وهكذا مؤمنا منتصب على الحال ، والاشارة بـ(أولئك) الى من باعتبار معناه (لهم الدرجات العلى) أى المنازل الرفيعة التى قصرت دونها الصفات (جنات عدن) بيان للدرجات أو بدل منها ، والعدن الاقامة وقد تقدم بيانه ، وجملة (تجرى من تحتها الأنهار) حال من الجنات ، لأنها مضافة الى عدن ، وعدن علم للاقامة كما سبق ، وانتصاب (خالدين فيها) على الحال من ضمير الجماعة فى لهم : أى ماكثين دائمين ، (و) الاشارة بـ(ذلك) الى ماتقدّم لهم من الأجر ، وهو مبتدأ ، و(جزاء من تزكى) خبره : أى جزاء من تطهر من الكفر والمعاصى الموجبة للنار .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وما أكرهتنا عليه من السحر) قال أخذ فرعون أربعين غلاما من بنى اسرائيل ، فأمر أن يعلموا السحر بالفرما . قال علموهم تعليما لايغلبهم أحد فى الأرض ، قال ابن عباس فهم من الذين آمنوا بموسى وهم الذين قالوا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى فى قوله (والله خير وأبقى) قال خير منك ان أطيع وأبقى منك عذابا ان عصى . وأخرج أحمد ومسلم وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية (انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لايموت فيها ولايحيى) فقال رسول الله ﷺ أما أهلها الذين هم أهلها فانهم لايموتون فيها ولا يحيون ، وأما الذين ليسوا بأهلها فان النار تميتهم إماتة ، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون ، فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال

له

له الحياة أو الحيوان فينبتون كما ينبت الغثاء فى حميل السيل . وأخرج أبو داود وابن مردويه عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ ان أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدرى فى أفق السماء ، وان أبا بكر وعمر منهم وأنعما ، وفى الصحيحين بلفظ ان أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء .

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا * لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ * يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ * كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ * وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ * وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا * قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ *

هذا شروع فى انجاء بنى اسرائيل وإهلاك عدوّهم . وقد تقدّم فى البقرة ، وفى الأعراف . وفى يونس ، واللام فى لقد هى الموطئة للقسم ، وفى ذلك من التأكيد مالايخفى ، و(أن) فى أن أسر بعبادى ، اما المفسرة لأن فى الوحى معنى القول ، أو مصدرية : أى بأن أسر أى أسر بهم من مصر . وقد تقدّم هذا مستوفى (فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا) أى اجعل لهم طريقا ، ومعنى يبسا يابسا وصف به الفاعل مبالغة ، وذلك أن الله تعالى أيبس لهم تلك الطريق حتى لم يكن فيها ماء ولا طين . وقرئ يبسا بسكون الباء على أنه مخفف من يبسا المحرك ، أو وجمع يابس كصحب فى صاحب ، وجملة لاتخاف دركا فى محل نصب على الحال : أى آمنا من أن يدرككم العدوّ ، أو صفة أخرى لطريق ، والدرك اللحاق بهم من فرعون وجنوده . وقرأ حمزة لاتخف على أنه جواب الأمر ، والتقدير ان تضرب لاتخف ، ولاتخشى على هذه القراءة مستأنف : أى ولا أنت تخشى من فرعون أو من البحر . وقرأ الجمهور لاتخاف وهى أرجح لعدم الجزم فى تخشى ، ويجوز أن تكون هذه الجملة على قراءة الجمهور صفة أخرى لطريق : أى لاتخاف منه ولاتخشى منه (فأتبعهم فرعون بجنوده) أتبع هنا مطاوع تبع ، يقال أتبعتهم إذا تبعتهم ، وذلك إذا سبقوك فلحقتهم ، فالمعنى : تبعهم فرعون ومعه جنوده ، وقيل الباء زائدة والأصل

اتبعهم جنوده ، أى أمرهم أن يتبعوا موسى وقومه ، وقرئ فاتبعهم بالتشديد أى لحقهم بجنوده وهو معهم كما يقال : ركب الأمير بسيفه ، أى معه سيفه ، ومحل بجنوده النصب على الحال أى سابقا جنوده معه (فغشيهم من اليم ماغشيهم) أى علاهم وأصابهم ماعلاهم وأصابهم ، والتكرير للتعظيم والتهويل . كما فى قوله ـ الحاقة ما الحاقة ـ وقيل : غشيهم ماسمعت قصته ، وقال ابن الانبارى غشيهم البعض الذى غشيهم ، لأنه لم يغشهم كل ماء البحر ، بل الذى غشيهم بعضه ، فهذه العبارة للدلالة على أن الذى غرقهم بعض الماء ، والأول أولى لما يدل عليه من التهويل والتعظيم . وقرئ فغشاهم من اليم ماغشاهم : أى غطاهم ماغطاهم (وأضل فرعون قومه وماهدى) أى أضلهم عن الرشد ، وما هداهم الى طريق النجاة لأنه قدر أن موسى ومن معه لايفوتونه لكونهم بين يديه يمشون فى طريق يابسة ، و بين أيديهم البحر ، وفى قوله (وماهدى) تأكيد لاضلاله ، لأن المضل قد يرشد من يضله فى بعض الأمور (يابنى اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم) ذكر سبحانه ماأنعم به على بنى اسرائيل بعد إنجائهم ، والتقدير قلنا لهم بعد إنجائهم . يابنى إسرائيل ، ويجوز أن يكون خطابا لليهود المعاصرين لنبينا ﷺ لأن النعمة على الآباء معدودة من النعم على الأبناء ، والمراد بعدوهم هنا فرعون وجنوده ، وذلك باغراقه واغراق قومه فى البحر بمرأى من بنى اسرائيل (وواعدناكم جانب الطور الأيمن) انتصاب جانب على أنه مفعول به ، لاعلى الظرفية لأنه مكان معين غير مبهم ، وانما تنتصب الأمكنة على الظرفية اذا كانت مبهمة . قال مكى وهذا أصل لاخلاف فيه . قال النحاس : والمعنى أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه لنكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام ، وقيل وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتى جانب الطور ، فالوعد كان لموسى . وإنما خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم . وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر و يعقوب ووعدناكم بغير ألف ، واختاره أبو عبيد ، لأن الوعد إنما هو من الله لموسى خاصة والمواعدة لاتكون الامن اثنين ، وقد قدمنا فى البقرة هذا المعنى ، والأيمن منصوب على أنه صفة للجانب ، والمراد يمين الشخص ، لأن الجبل ليس له يمين ولا شمال ، فاذا قيل خذ عن يمين الجبل بمعناه عن يمينك من الجبل . وقرئ بجر الأيمن على أنه صفة للمضاف اليه (ونزلنا عليكم المن والسلوى) قد تقدم تفسير المن بالترنجبين والسلوى بالسمانى وأوضحنا ذلك بما لا مزيد عليه ، وانزال ذلك عليهم كان فى التيه (كلوا من طيبات مارزقناكم) أى وقلنا لهم كلوا والمراد بالطيبات المستلذات ، وقيل الحلال على الخلاف المشهور فى ذلك . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش : قد أنجيتكم من عدوكم ووعدتكم جانب الطور كلوا من طيبات مارزقتكم بتاء المتكلم فى الثلاثة . وقرأ الباقون بنون العظمة فيها (ولا تطغوا فيه) الطغيان التجاوز : أى لاتتجاوزوا ماهو جائز الى مالايجوز ، وقيل المعنى : لاتجحدوا نعمة الله فتكونوا طاغين ، وقيل لاتكفروا النعمة ولاتنسوا شكرها ، وقيل لاتعصوا المنعم : أى لاتحملنكم السعة والعافية على المعصية ، ولا مانع من حمل الطغيان على جميع هذه المعانى . فان كل واحد منها يصدق عليه أنه طغيان (فيحل عليكم غضبى) هذا جواب النهى : أى يلزمكم غضبى و ينزل بكم ، وهو مأخوذ من حلول الدين : أى حضور وقت أدائه (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب والكسائى فيحل بضم الحاء وكذلك قرءوا يحلل بضم اللام الأولى ، وقرأ الباقون بالكسر فيهما وهما لغتان . قال الفراء : والكسر أحب الى من الضم ، لأن الضم من الحلول : بمعنى الوقوع ، ويحل بالكسر يجب ، وجاء التفسير بالوجوب لا بالوقوع ، وذكر نحو هذا أبو عبيدة وغيره * ومعنى فقد هوى فقد هلك . قال الزجاج : فقد هوى : أى صار الى الهاوية ، وهى قعر النار من هوى يهوى هويا : أى سقط من علو الى سفل ، وهوى فلان : أى

مات

مات (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا) أى لمن تاب من الذنوب : التى أعظمها الشرك بالله ، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وعمل عملا صالحا مما ندب اليه الشرع وحسنه (ثم اهتدى) أى استقام على ذلك حتى يموت كذا قال الزجاج وغيره ، وقيل لم يشك فى إيمانه ، وقيل أقام على السنة والجماعة ، وقيل تعلم العلم ليهتدى به ، وقيل علم أن لذلك ثوابا ، وعلى تركه عقابا ، والأول أرجح مما بعده (وما أعجلك عن قومك ياموسى) هذا حكاية لما جرى بين الله سبحانه و بين موسى عند موافاته الميقات . قال المفسرون وكانت المواعدة أن يوافى موسى وجماعة من وجوه قومه ، فسار موسى بهم ، ثم عجل من بينهم شوقا الى ربه ، فقال الله له ما أعجلك ؟ أى ما الذى حملك على العجلة ، حتى تركت قومك وخرجت من بينهم ، فأجاب موسى عن ذلك (قال هم أولاء على أثرى) أى هم بالقرب منى ، تابعون لأثرى واصلون بعدى ، وقيل لم يرد أنهم يسيرون خلفه ، بل أراد أنهم بالقرب منه ينتظرون عوده اليهم ، ثم قال مصرحا بسبب ما سأله الله عنه ، فقال (وعجلت إليك رب لترضى) أى لترضى عنى بمسارعتى الى امتثال أمرك أو لتزداد رضا عنى بذلك . قال أبو حاتم : قال عيسى بن عمر بنو تميم يقولون أولا مقصورة ، وأهل الحجاز يقولون أولاء ممدودة ، وقرأ ابن أبى اسحاق ونصر ورويس عن يعقوب على إثرى : بكسر الهمزة وإسكان الثاء ، وقرأ الباقون بفتحهما وهما لغتان ، ومعنى عجلت اليك : عجلت الى الموضع الذى أمرتنى بالمسير إليه لترضى عنى ، يقال : رجل عجل وعجول وعجلان : بين العجلة ، والعجلة خلاف البطء ، وجملة (قال فانا قد فتنا قومك من بعدك) مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل فماذا قال الله له ؟ فقيل قال إنا قد فتنا قومك من بعدك : أى ابتليناهم واختبرناهم وألقيناهم فى فتنة ومحنة . قال ابن الأنبارى صيرناهم مفتونين ، أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقك من بينهم ، وهم الذين خلفهم مع هرون (وأضلهم السامرى) أى دعاهم الى الضلالة ، وكان من قوم يعبدون البقر ، فدخل فى دين بنى إسرائيل فى الظاهر ، وفى قلبه ما فيه من عبادة البقر ، وكان من قبيلة تعرف بالسامرة ، وقال لمن معه من بنى إسرائيل إنما تخلف موسى عن الميعاد الذى بينكم و بينه لما صار معكم من الحلى ، وهى حرام عليكم وأمرهم بالقائها فى النار ، فكان من أمر العجل ما كان (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) قيل وكان الرجوع الى قومه بعد ما استوفى أربعين يوما : ذا القعدة وعشر ذى الحجة ، والأسف الشديد الغضب ، وقيل الحزين ، وقد مضى فى الأعراف بيان هذا مستوفى (قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) الاستفهام للانكار التوبيخى ، والوعد الحسن وعدهم بالجنة اذا أقاموا على طاعته ، ووعدهم أن يسمعهم كلامه فى التوراة على لسان موسى ليعملوا بما فيها ، فيستحقوا ثواب عملهم ، وقيل وعدهم النصر والظفر ، وقيل هو قوله : وإنى لغفار لمن تاب الآية (أفطال عليكم العهد) الفاء للعطف على مقدر : أى أوعدكم ذلك ، فطال عليكم الزمان فنسيتم (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) أى يلزمكم وينزل بكم ، والغضب : العقوبة والنقمة * والمعنى أم أردتم أن تفعلوا فعلا يكون سبب حلول غضب الله عليكم (فأخلفتم موعدى) أى موعدكم إياى ، فالمصدر مضاف الى المفعول ، لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عز وجل الى أن يرجع اليهم من الطور ، وقيل وعدوه أن يأتوا على أثره الى الميقات ، فتوقفوا فأجابوه ، و (قالوا ما أخلفنا موعدك) الذى وعدناك (بملكنا) بفتح الميم ، وهى قراءة نافع وأبى جعفر وعاصم وعيسى بن عمر ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر الميم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، لأنها على اللغة العالية الفصيحة ، وهو مصدر ملكت الشىء أملكه ملكا ، والمصدر مضاف الى الفاعل والمفعول محذوف : أى بملكنا أمورنا ، أو بملكنا الصواب ، بل أخطأنا ولم نملك أنفسنا

وكنا مضطرين إلى الخطأ ، وقرأ حمزة والكسائى بملكنا بضمّ الميم * والمعنى بسلطاننا : أى لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك ، وقيل إن الفتح والكسر والضم فى بملكنا كلها لغات فى مصدر ملكت الشىء (ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص وأبو جعفر ورويس حملنا بضم الحاء وتشديد الميم ، وقرأ الباقون بفتح الحاء والميم مخففة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لانهم حملوا حلية القوم معهم باختيارهم ، وما حملوها كرها ، فانهم كانوا استعاروها منهم حين أرادوا الخروج مع موسى ، وأوهموهم أنهم يجتمعون فى عيد لهم أو وليمة ، وقيل هو ما أخذوه من آل فرعون لما قذفهم البحر إلى الساحل ، وسميت أوزارا : أى آثاما ، لأنه لا يحلّ لهم أخذها ، ولا تحلّ لهم الغنائم فى شريعتهم والأوزار فى الأصل الأثقال كما صرح به أهل اللغة ، والمراد بالزينة هنا الحلىّ (فقذفناها) أى طرحناها فى النار طلبا للخلاص من إثمها ، وقيل المعنى طرحناها إلى السامرىّ لتبقى لديه ، حتى يرجع موسى فيرى فيها رأيه (فكذلك ألقى السامرىّ) أى فمثل ذلك القذف ألقاها السامرىّ ، قيل إن السامرىّ ، قال لهم حين استبطأ القوم رجوع موسى إنما احتبس عنكم ، لأجل ما عندكم من الحلىّ فجمعوه ودفعوه اليه ، فرمى به فى النار ، وصاغ لهم منه عجلا ، ثم ألقى عليه قبضة من أثر الرسول ، وهو جبريل ، فصار (عجلا جسدا له خوار) أى يخور كما يخور الحىّ من العجول ، والخوار صوت البقر ، وقيل خواره كان بالريح ، لأنه كان عمل فيه خروقا ، فاذا دخلت الريح فى جوفه خار ولم يكن فيه حياة ، (فقالوا هذا إلهكم وإله موسى) أى قال السامرى ومن وافقه هذه المقالة (فنسى) أى فضلّ موسى ولم يعلم مكان إلهه هذا ، وذهب يطلبه فى الطور ، وقيل المعنى فنسى موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم ، وقيل الذى هو السامرىّ : أى ترك السامرىّ ما أمر به موسى من الايمان وضلّ ، كذا قال ابن الأعرابى (أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا) أى أفلا يعتبرون ويتفكرون فى أن هذا العجل لا يرجع اليهم قولا : أى لا يردّ عليهم جوابا ، ولا يكلمهم اذا كلموه ، فكيف يتوهمون أنه إله ، وهو عاجز عن المكالمة ، فأن فى ألا يرجع : هى المخففة من الثقيلة ، وفيها ضمير مقدّر يرجع الى العجل ، ولهذا ارتفع الفعل بعدها ، ومنه قول الشاعر :

فى فتية من سيوف الهند قد علموا * أن هالك كل من يحفى وينتعل

أى أنه هالك ، وقرئ بنصب الفعل على أنها الناصبة ، وجملة (ولا يملك لهم ضرّا ولا نفعا) معطوفة على جملة لا يرجع : أى أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرّا ولا يجلب اليهم نفعا (ولقد قال لهم هارون من قبل) اللام هى الموطئة للقسم ، والجملة مؤكدة لما تضمنته الجملة التى قبلها من الانكار عليهم والتوبيخ لهم : أى ولقد قال لهم هرون من قبل أن يأتى موسى ويرجع اليهم (ياقوم إنما فتنتم به) أى وقعتم فى الفتنة بسبب العجل وابتليتم به وضللتم عن طريق الحق لأجله ، قيل ومعنى القصر المستفاد من إنما هو أن العجل صار سببا لفتنتهم لا لارشادهم ، وليس معناه أنهم فتنوا بالعجل لا بغيره (وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى) أى ربكم الرحمن ، لا العجل ، فاتبعونى فى أمرى لكم بعبادة الله ، ولا تتبعوا السامرى فى أمره لكم بعبادة العجل ، وأطيعوا أمرى ، لا أمره (قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) أجابوا هرون عن قوله المتقدّم بهذا الجواب المتضمن لعصيانه ، وعدم قبول مادعاهم إليه من الخير وحذرهم عنه من الشرّ : أى لن نزال مقيمين على عبادة هذا العجل ، حتى يرجع الينا موسى ، فينظر هل يقرّرنا على عبادته ، أو ينهانا عنها ، فعند ذلك اعتزلهم هارون فى اثنى عشر ألفا من المنكرين لما فعله السامرىّ .

وقد

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله (يبسا) قال يابسا ليس فيه ماء ولا طين . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (لا تخاف دركا) من آل فرعون (ولا تخشى) من البحر غرقا . وأخرجا عنـه أيضا في قوله (فقد هوى) شقي . وأخرجا عنه أيضا (وإني لغـفار لمن تاب) قال من الشرك (وآمن) قال وحد الله (وعمل صالحا) قال أدّى الفرائض (ثم اهتدى) قال لم يشـكك . وأخرج سعيد بن منصور والفريابي عنه أيضا : وإني لغفار لمن تاب ، قال من تاب من الذنب ، وآمن من الشرك ، وعمل صالحا فيما بينه وبين ربه ، ثم اهتدى علم أن لعمله ثوابا يجزى عليه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سـعيد بن جبير : ثم اهتـدى ، قال ثم استقام لزم السنة والجماعة . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبيهقي في البعث من طريق عمرو بن ميمون عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال تعجل موسى إلى ربه ، فقال الله (وما أعجلك عن قومك يا موسى) الآية ، قال فرأى في ظلّ العرش رجلا فعجب له ، فقال من هذا يا ربّ ؟ قال لا أحدثك من هو ، لكن سأخبرك بثلاث فيه : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، ولا يعقّ والديه ، ولا يمشي بالنميمة وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنـذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن عليّ ، قال لما تعجل موسى إلى ربه عمد السامري ، فجمع ماقدر عليه من حليّ بني إسرائيل ، فضربه عجلا ، ثم ألقى القبضة في جوفه ، فاذا هو عجل جسد له خوار فقال لهم السـامري : هذا إلهكم وإله موسى ، فقال لهم هارون : ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنـا ، فلما أن رجع موسى أخذ برأس أخيه ، فقال له هارون ما قال ، فقال موسى للسامريّ ماخطبك قال (قبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سـوّلت لي نفسي) فعمد موسى الى العجل ، فوضع موسى عليه المبارد فبرده بها وهو على شط نهر ، فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد ذلك العجل إلا اصفرّ وجهه مثل الذهب ، فقالوا لموسى ماتوبتنا ؟ قال يقتل بعضكم بعضا ، فأخذوا السكاكين ، فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه ولا يبالي بمن قتل حتى قتل منهم سبعون ألفا ، فأوحى الله الى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم ، فقد غفرت لمن قتل ، وتبت على من بقي ، والحكايات لهذه القصة كثيرة جـدًا . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (بملكنا) قال بأمرنا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنـذر عن قتادة بملكنا قال بطاقتنا . وأخرج ابن أبي حاتم عن الســدّي مثله . وأخرج أيضا عن الحسن ، قال : بسلطاننا . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (هذا إلهكم وإله موسى فنسي) قال فنسي موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه .

قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۞ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۞ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَٰءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۞ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۞ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۞ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۞ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ

آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا *

جملة (قال ياهرون) مستأنفة جواب سؤال مقدّر * والمعنى أن موسى لما وصل إليهم أخذ بشعور رأس أخيه هرون و بلحيته وقال (مامنعك) من اتباعى واللحوق بى عند أن وقعوا فى هذه الضلالة ودخلوا فى الفتنة ، وقيل معنى (مامنعك أن لاتتبعنى) مامنعك من اتباعى فى الانكار عليهم ، وقيل معناه هلا قاتلتهم اذقد علمت أنى لو كنت بينهم لقاتلتهم ، وقيل معناه هلا فارقتهم ، ولافى أن لاتتبعنى زائدة ، وهو فى محل نصب على أنه مفعول ثان لمنع : أى أىّ شيء منعك حين رؤيتك لضلالهم من اتباعى ، والاستفهام فى (أفعصيت أمرى) للانكار والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره * والمعنى كيف خالفت أمرى لك بالقيام لله ومنابذة من خالف دينه وأقمت بين هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلها ، وقيل المراد بقوله أمرى هو قوله الذى حكى الله عنه ـ وقال موسى لأخيه هرون اخلفنى فى قومى وأصلح ولاتتبع سبيل المفسدين ـ فلما أقام معهم ولم يبالغ فى الانكار عليهم نسبه إلى عصيانه (قل يا ابن أمّ لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى) قرئ بالفتح والكسر للميم ، وقد تقدّم الكلام على هذا فى سورة الأعراف ، ونسبه الى الأمّ مع كونه أخاه لأبيه وأمّه عند الجمهور استعطافا له وترقيقا لقلبه ، ومعنى ولابرأسى : ولا بشعر رأسى أى لاتفعل هذا بى عقوبة منك لى ، فان لى عذرا هو (انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل) أى خشيت ان خرجت عنهم وتركتهم أن يتفرقوا فتقول انى فرقت جماعتهم ، وذلك لأن هارون لو خرج لتبعه جماعة منهم وتخلف مع السامرى عند العجل آخرون ، وربما أفضى ذلك الى القتال بينهم ، ومعنى (ولم ترقب قولى) ولم تعمل بوصيتى لك فيهم ، انى خشيت أن تقول فرّقت بينهم وتقول لم تعمل بوصيتى لك فيهم وتحفظها ، ومراده بوصية موسى له هو قوله ـ اخلفنى فى قومى وأصلح ـ قال أبوعبيد : معنى ولم ترقب قولى ولم تنتظر عهدى وقدومى لأنك أمرتنى أن أكون معهم ، فاعتذر هارون الى موسى هاهنا بهذا ، واعتذر اليه فى الأعراف بما حكاه الله عنه هنالك حيث قال ـ ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ـ ثم ترك موسى الكلام مع أخيه وخاطب السامرى ف‍(قال فما خطبك ياسامرىّ) أى ماشأنك وما الذى حملك على ماصنعت (قال بصرت بما لم يبصروا به) أى قال السامرىّ مجيبا على موسى ، رأيت مالم يروا أو علمت بما لم يعلموا وفطنت لما لم يفطنوا له ، وأراد بذلك أنه رأى جبريل على فرس الحياة فألقى فى ذهنه أن يقبض قبضة من أثر الرسول ، وأن ذلك الأثر لايقع على جماد إلا صار حيا ، وقرأ حمزة والكسائى والأعمش وخلف ، مالم تبصروا به بالمثناة من فوق على الخطاب . وقرأ الباقون بالتحتية ، وهى أولى ، لأنه يبعد كلّ البعد أن يخاطب موسى بذلك ويدّعى لنفسه أنه علم مالم يعلم به موسى ، وقرئ بضم الصاد فيهما وبكسرها فى الأوّل وفتحها فى الثانى ، وقرأ أبىّ بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة (فقبصت قبصة) بالصاد المهملة فيهما ، وقرأ الباقون بالضاد المعجمة فيهما ، والفرق بينهما أن القبض بالمعجمة هو الأخذ بجميع الكف ، وبالمهملة بأطراف الأصابع ، والقبضة بضم القاف القدر المقبوض . قال الجوهرى : هى ماقبضت عليه من شيء . قال وربما جاء بالفتح ، وقد قرئ قبضة بضم القاف وفتحها ، ومعنى الفتح المرّة من القبض ، ثم أطلقت على المقبوض ، وهو معنى القبضة بضم القاف ، ومعنى (من أثر الرسول) من المحل الذى وقع عليه حافر فرس جبريل ، ومعنى (فنبذتها) فطرحتها فى الحلىّ المذابة المسبوكة على صورة العجل (وكذلك سوّلت لى نفسى) قال الأخفش : أى زينت : أى ومثل ذلك التسويل سوّلت لى نفسى ، وقيل معنى سوّلت لى نفسى حدّثتنى

نفسى ، فلما سمع موسى منـه ذلك (قال فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لامساس) أى فاذهب من بيننا وأخرج عنا فان لك فى الحياة أى مادمت حيا ، أوطول حياتك أن تقول لامساس : المساس مأخوذ من المماسة : أى لايمسك أحد ولا تمس أحدا ، لكن لابحسب الاختيار منك ، بل بموجب الاضطرار الملجىء الى ذلك ، لأن الله سبحانه أمر موسى أن ينفى السامرىّ عن قومه ، وأمر بنى اسرائيل أن لايخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له ، قيـل انه لما قال له موسى ذلك هرب فجعل يهيم فى البرية مع السباع والوحش لايجد أحـدا من الناس يمسه حتى صار كمن يقول لامساس لبعده عن الناس و بعد الناس عنه كما قال الشاعر :

حمال رايات بها قناعسا ✽ حتى تقول الازد لامساسا

قال سيبويه : وهو مبنى على الكسر . قال الزجاج : كسرت السين لأن الكسرة من علامة التأنيث ، قال الجوهرى فى الصحاح : وأما قول العرب لامساس مثل قطام فانما بنى على الكسر لأنه معدول عن المصدر ، وهو المس . قال النحاس : وسمعت علىّ بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد المبرد يقول اذا اعتلّ الشىء من ثلاث جهات وجب أن يبنى ، واذا اعتلّ من جهتين وجب أن لاينصرف ، لأنه ليس بعد الصرف إلا البناء فمساس ودراك اعتل من ثلاث جهات : منها أنه معدول ، ومنها أنه مؤنث ، ومنها أنه معرفة ، فلما وجب البناء فيه وكانت الألف قبل السين ساكنة كسرت السين لالتقاء الساكنين ، وقد رأيت أبا اسحق يعنى الزجاج ذهب إلى أن هذا القول خطأ ، وألزم أبا العباس اذا سميت امرأة بفرعون أن يبنيه ، وهذا لايقوله أحد . وقد قرأ بفتح الميم أبو حيوة ، والباقون بكسرها ✽ وحاصل ماقيل فى معنى لامساس ثلاثة أوجه : الأوّل أنه حرّم عليه مماسة الناس ، وكان اذا ماسه أحد حمّ الماس والممسوس ، فلذلك كان يصيح اذا رأى أحـدا لامساس ، والثانى أن المراد منع الناس من مخالطته ✽ واعترض بأن الرجل اذا صار مهجورا فلا يقول هو لامساس ، وانما يقال له ✽ وأجيب بأن المراد الحكاية : أى أجعلك ياسامرىّ بحيث اذا أخبرت عن حالك ، قلت لامساس ، والقول الثالث أن المراد انقطاع نسله ، وأن يخبر بأنه لايتمكن من مماسة المرأة ، قاله أبو مسلم ، وهو ضعيف جدّا ، ثم ذكر حاله فى الآخرة فقال (وان لك موعدا لن تخلفه) أى لن يخلفك الله ذلك الموعد ، وهو يوم القيامة ، والموعد مصدر : أى ان لك وعدا لعـذابك ، وهو كائن لامحالة . قال الزجاج : أى يكافئك الله على مافعلت فى القيامة ـ والله لايخلف الميعاد ـ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو و يعقوب وابن محيصن واليزيدى والحسن لن تخلفه بكسر اللام ، وله على هذه القراءة معنيان : أحدهما ستأتيه ولن تجده مخلفا كما تقول أحمدته : أى وجدته محمودا ، والثانى على التهديد : أى لابدّ لك من أن تصير اليه ، وقرأ ابن مسعود لن نخلفه بالنون : أى لن يخلفه الله . وقرأ الباقون بفتح اللام ، وبالفوقية مبنيا للمفعول ، ومعناه ماقدّمناه (وانظر الى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا) ظلت أصله ظللت فحذفت اللام الأولى تخفيفا ، والعرب تفعل ذلك كثيرا ، وقرأ الأعمش بلامين على الأصل ، وفى قراءة ابن مسعود ظلت بكسر الظاء ✽ والمعنى انظر الى إلهك الذى دمت وأقمت على عبادته ، والعاكف الملازم (لنحرقنه) قرأ الجمهور بضم النون وتشديد الراء من حرّقه يحرّقه ، وقرأ الحسن بضم النون وسكون الحاء وتخفيف الراء من أحرقه يحرقه ، وقرأ علىّ وابن عباس وأبو جعفر وابن محيصن وأشهب العقيلى لنحرقنه بفتح النون وضم الراء مخففة من حرقت الشىء أحرقه حرقا اذا بردته وحككت بعضه ببعض أى لنبردنه بالمبارد ، ويقال للمبرد المحرق ، والقراءة الأولى أولى ، ومعناها الاحراق بالنار ، وكذا معنى القراءة الثانية ، وقد جمع بين هـذه الثلاث القراءات بأنه أحرق ، ثم برد بالمبرد ، وفى قراءة ابن مسعود لنذبحنه ثم لنحرقنه ، واللام هى الموطئة للقسم (ثم لننسفنه فى اليم نسفا) النسف نفض الشىء ليذهب

به الريح . قرأ أبو رجاء لننسفنه بضم السين ، وقرأ الباقون بكسرها ، وهما لغتان ، والمنسف ماينسف به الطعام ، وهو شيء منصوب الصدر أعلاه مرتفع ، والنسافة مايسقط منه (إنما إلهكم الله الذى لا إله الا هو) لاهذا العجل الذى فتنكم به السامرىّ (وسع كل شيء علما) قرأ الجمهور وسع بكسر السين مخففة ، وهو متعدّ إلى مفعول واحد ، وهو كل شيء ، وانتصاب علما على التمييز المحوّل عن الفاعل : أى وسع علمه كل شيء . وقرأ مجاهد وقتادة وسّع بتشديد السين وفتحها فيتعدى الى مفعولين ، ويكون انتصاب علما على أنه المفعول الأوّل وان كان متأخرا ، لأنه فى الأصل فاعل ، والتقدير وسع علمه كل شيء ، وقد مرّ نحو هذا فى الأعراف (كذلك نقصّ عليك) الكاف فى محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف أى كما قصصنا عليك خبر موسى كذلك نقص عليك (من أنباء ماقد سبق) أى من أخبار الحوادث الماضية فى الأمم الخالية لتكون تسلية لك ودلالة على صدقك ، ومن للتبعيض : أى بعض أخبار ذلك (وقد آتيناك من لدنا ذكرا) المراد بالذكر القرآن ، وسمى ذكرا لما فيه من الموجبات للتذكر والاعتبار ، وقيل المراد بالذكر الشرف كقوله ـ وانه لذكر لك ولقومك ـ ثم توعد سبحانه المعرضين عن هذا الذكر ، فقال (من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا) أى أعرض عنه فلم يؤمن به ولا عمل بما فيه ، وقيل أعرض عن الله سبحانه ، فان المعرض عنه يحمل يوم القيامة وزرا : أى إثما عظيما وعقوبة ثقيلة بسبب اعراضه (خالدين فيه) أى فى الوزر * والمعنى أنهم يقيمون فى جزائه ، وانتصاب خالدين على الحال (وساء لهم يوم القيامة حملا) أى بئس الحمل يوم القيامة ، والمخصوص بالذمّ محذوف : أى ساء لهم حملا وزرهم ، واللام للبيان كما فى هيت لك .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله (ياهرون مامنعك) إلى قوله (أفعصيت أمرى) قال أمره موسى أن يصلح ولايتبع سبيل المفسدين ، فكان من اصلاحه أن ينكر العجل . وأخرج عنه أيضا فى قوله (ولم ترقب قولى) قال لم تنتظر قولى ما أنا صانع ، وقال ابن عباس لم ترقب لم تحفظ قولى . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وان لك فى الحياة أن تقول لامساس) قال عقوبة له (وان لك موعدا لن تخلفه) قال لن تغيب عنه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا) قال أقمت (لنحرقنه) قال بالنار (ثم لننسفنه فى اليمّ) قال لنذرينه فى البحر . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه كان يقرأ لنحرقنه خفيفة ويقول ان الذهب والفضة لاتحرق بالنار بل تسحل بالمبرد ثم تلقى على النار فتصير رمادا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : اليمّ البحر . وأخرج أيضا عن علىّ قال : اليمّ النهر . وأخرج أيضا عن قتادة فى قوله (وسع كلّ شيء علما) قال ملأ . وأخرج أيضا عن ابن زيد فى قوله (من لدنا ذكرا) قال القرآن . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد وزرا قال إثما . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وساء لهم يوم القيامة حملا) يقول بئس ماحملوا :

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا * وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا * يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا

من

مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً * وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً *

الظرف وهو (يوم ينفخ) متعلق بمقدر هواذكر ، وقيل هو بدل من يوم القيامة ، والأوّل أولى ، قرأ الجمهور ينفخ بضم الياء التحتية مبنيا للمفعول ، وقرأ أبو عمرو وابن أبى اسحق بالنون مبنيا للفاعل ، واستدلّ أبو عمرو على قراءته هذه بقوله ونحشر فانه بالنون ، وقرأ ابن هرمز ينفخ بالتحتية مبنيا للفاعل على أن الفاعل هو الله سبحانه أو اسرافيل ، وقرأ أبو عياض (فى الصور) بفتح الواو جمع صورة ، وقرأ الباقون بسكون الواو ، وقرأ طلحة بن مصرف والحسن (يحشر) بالياء التحتية مبنيا للمفعول ورفع (المجرمين) وهو خلاف رسم المصحف ، وقرأ الباقون بالنون ، وقد سبق تفسير هذا فى الأنعام ، والمراد بالمجرمين المشركون والعصاة المأخوذون بذنوبهم التى لم يغفرها الله لهم ، والمراد (بيومئذ) يوم النفخ فى الصور ، وانتصاب (زرقا) على الحال من المجرمين : أى زرق العيون ، والزرقة الخضرة فى العين كعين السنور والعرب تتشاءم بزرقة العين ، وقال الفراء زرقا : أى عمياء ، وقال الأزهرى : عطاشا ، وهو قول الزجاج ، لأن سواد العين يتغير بالعطش الى الزرقة ، وقيل انه كنى بقوله زرقا عن الطمع الكاذب اذا تعقبته الخيبة وقيل هو كناية عن شخوص البصر من شدّة الخوص ، ومنه قول الشاعر :

لقد زرقت عيناك يابن معكبر * كما كل ضبىّ من اللؤم أزرق

والقول الأوّل أولى ، والجمع بين هذه الآية و بين قوله ـ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ـ ماقيل من أن ليوم القيامة حالات ومواطن تختلف فيها صفاتهم ويتنوع عندها عذابهم ، وجملة (يتخافتون بينهم) فى محل نصب على الحال ، أومستأنفة لبيان ماهم فيه فى ذلك اليوم ، والخفت فى اللغة السكون ، ثم قيل لمن خفض صوته خفته * والمعنى يتساررون : أى يقول بعضهم لبعض سرّا (ان لبثتم الا عشرا) أى مالبثتم فى الدنيا الا عشر ليال ، وقيل فى القبور ، وقيل بين النفختين * والمعنى أنهم يستقصرون مدة مقامهم فى الدنيا ، أو فى القبور ، أو بين النفختين لشدّة مايرون من أهوال القيامة ، وقيل المراد بالعشر عشر ساعات ، ثم لما قالوا هذا القول قال الله سبحانه (نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة) أى أعدلهم قولا ، وأكملهم رأيا ، وأعلمهم عند نفسه (ان لبثتم الا يوما) أى مالبثتم الا يوما واحدا ، ونسبة هذا القول إلى أمثلهم ، لكونه أدلّ على شدّة الهول ، لا لكونه أقرب إلى الصدق (ويسألونك عن الجبال) أى عن حال الجبال يوم القيامة ، وقد كانوا سألوا النبىّ ﷺ عن ذلك ، فأمره الله سبحانه أن يجيب عنهم ، فقال (فقل ينسفها ربى نسفا) قال ابن الأعرابى وغيره يقلعها قلعا من أصولها ، ثم يصيرها رملا يسيل سيلا ، ثم يصيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا ، ثم كالهباء المنثور ، والفاء فى قوله : فقل لجواب شرط مقدّر ، والتقدير ان سألوك فقل ، أو للمسارعة إلى إلزام السائلين ، والضمير فى قوله (فيذرها) راجع إلى الجبال باعتبار مواضعها : أى فيذر مواضعها بعد نسف ما كان عليها من الجبال (قاعا صفصفا) قال ابن الأعرابى : القاع الصفصف الأرض الملساء بلا نبات ولا بناء ، وقال الفراء : القاع مستنقع الماء ، والصفصف القرعاء الملساء التى لانبات فيها ، وقال الجوهرى : القاع المستوى من الأرض ، والجمع أقوع وأقواع وقيعان * والظاهر من لغة العرب : أن القاع الموضع المنكشف ،

والصفصف المستوى الأملس ، وأنشد سيبويه :

وكم دون بيتك من صفصف ✻ ودكداك رمل وأعقادها

وانتصاب قاعا على أنه مفعول ثان ليذر على تضمينه معنى التصيير ، أو على الحال ، والصفصف صفة له ، ومحل (لاترى فيها عوجا) النصب على أنه صفة ثانية لقاعا ، والضمير راجع إلى الجبال بذلك الاعتبار ، والعوج بكسر العين التعوّج . قاله ابن الأعرابى : والأمت التلال الصغار ، والأمت فى اللغة المكان المرتفع ، وقيل العوج الميل ، والأمت الأثر مثل الشراك ، وقيل العوج الوادى ، والأمت الرابية ، وقيل هما الارتفاع ، وقيل العوج الصدوع ، والأمت الأكمة ، وقيل الأمت الشقوق فى الأرض ، وقيل الأمت أن يغلظ فى مكان وتدق فى مكان ، ووصف مواضع الجبال بالعوج بكسر العين ههنا يدفع مايقال : ان العوج بكسر العين فى المعانى و بفتحها فى الأعيان ، وقد تكلف لذلك صاحب الكشاف فى هذا الموضع بما عنه غنى ، وفى غيره سعة (يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له) أى يوم نسف الجبال يتبع الناس داعى الله إلى المحشر ، وقال الفراء : يعنى صوت الحشر ، وقيل الداعى هو إسرافيل إذا نفخ فى الصور لاعوج له : أى لامعدل لهم عن دعائه فلايقدرون على أن يزيغوا عنه ، أو ينحرفوا منه بل يسرعون إليه كذا قال أكثر المفسرين ، وقيل لاعوج لدعائه (وخشعت الأصوات للرحمن) أى خضعت لهيبته ، وقيل ذلت ، وقيل سكنت ، ومنه قول الشاعر :

لما أتى خبر الزبير تواضعت ✻ سور المدينة والجبال الخشع

(فلا تسمع إلا همسا) الهمس الصوت الخفى . قال أكثر المفسرين : هو صوت نقل الأقدام إلى المحشر ، ومنه قول الشاعر : ✻ وهن يمشين بنا هميسا ✻ يعنى صوت أخفاف الابل . وقال رؤبة يصف نفسه :

ليث يدق الأسد الهموسا ✻ ولايهاب الفيل والجاموسا

يقال للأسد الهموس ، لأنه يهمس فى الظلمة : أى يطأ وطئا خفيا ✻ والظاهر أن المراد هنا كل صوت خفىّ سواء كان بالقدم ، أو من الفم ، أوغير ذلك ، و يؤيده قراءة أبىّ بن كعب فلاينطقون إلاهمسا (يومئذ لاتنفع الشفاعة) أى يوم يقع ماذكر لاتنفع الشفاعة من شافع كائنا من كان (إلا من أذن له الرحمن) أى الا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع له (ورضى له قولا) أى رضى قوله فى الشفاعة أورضى لأجله قول الشافع ✻ والمعنى إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن فى أن يشفع له ، وكان له قول يرضى ، ومثل هذه الآية ، قوله ـ لايشفعون إلا لمن ارتضى ـ ✻ وقوله ـ لايملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ـ ✻ وقوله ـ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ـ (يعلم مابين أيديهم وما خلفهم) أى مابين أيديهم من أمر الساعة ، وما خلفهم من أمر الدنيا ، والمراد هنا جميع الخلق ، وقيل المراد بهم الذين يتبعون الداعى ، وقال ابن جرير الضمير يرجع إلى الملائكة ، أعلم الله من يعبدها أنها لاتعلم مابين أيديها وما خلفها (ولا يحيطون به علما) أى بالله سبحانه ، لاتحيط علومهم بذاته ، ولا بصفاته ، ولا بمعلوماته ، وقيل الضمير راجع إلى ما فى الموضعين فانهم لايعلمون جميع ذلك (وعنت الوجوه للحىّ القيوم) أى ذلت وخضعت . قاله ابن الأعرابى ، قال الزجاج : معنى عنت فى اللغة خضعت ، يقال عنى يعنوا عنوا إذا خضع ، ومنه قيل للأسير عان ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

مليك على عرش السماء مهيمن ✻ لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وقيل هو من العناء ، بمعنى التعب (وقد خاب من حمل ظلما) أى خسر من حمل شيئا من الظلم ، وقيل هو الشرك (ومن يعمل من الصالحات) أى الأعمال الصالحة (وهو مؤمن) بالله ، لأن العمل

لايقبل

لايقبل من غير ايمان ، بل هو شرط فى القبول (فلا يخاف ظلما) يصاب به من نقص ثواب فى الآخرة (ولا هضما) الهضم النقص ، والكسر يقال هضمت لك من حقى : أى حططته وتركته ، وهذا يهضم الطعام : أى ينقص ثقله ، وامرأة هضيم الكشح : أى ضامرة البطن ، وقرأ ابن كثير ومجاهد لايخف بالجزم جوابا لقوله : ومن يعمل من الصالحات وقرأ الباقون يخاف على الخبر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن رجلا أتاه ، فقال رأيت قوله (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) وأخرى عميا : قال ان يوم القيامة فيه حالات يكونون فى حال زرقا ، وفى حال عميا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (يتخافتون بينهم) قال : يتساررون . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (أمثلهم طريقة) قال : أوفاهم عقلا ، وفى لفظ قال أعلمهم فى نفسه . وأخرج ابن المنذر وابن جريج قال : قالت قريش كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة ؟ فنزلت (ويسألونك عن الجبال) الآية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فيذرها قاعا صفصفا) قال : لانبات فيه (لاترى فيها عوجا) قال : واديا (ولا أمتا) قال رابية . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة أنه سئل عن قوله (قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا) قال : كان ابن عباس يقول : هى الأرض الملساء التى ليس فيها رابية مرتفعة ولا انخفاض . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس عوجا قال ميلا : ولا أمتا قال : الأمت الأثر مثل الشراك . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال : يحشر الناس يوم القيامة فى ظلمة تطوى السماء وتتناثر النجوم وتذهب الشمس والقمر وينادى مناد فيتبع الناس الصوت يؤمونه ، فذلك قول الله (يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له) . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى صالح فى الآية : قال لاعوج عنه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وخشعت الأصوات) قال : سكنت (فلا تسمع إلا همسا) قال : الصوت الخفى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (إلا همسا) قال : صوت وطء الأقدام . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد قال : الصوت الخفى . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : سر الحديث وصوت الأقدام . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (وعنت الوجوه) قال ذلت . وأخرج عبد الرزاق وعبد ابن حميد عن قتادة مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال خشعت . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال خضعت . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : (وعنت الوجوه) الركوع والسجود . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج (وقد خاب من حمل ظلما) قال : شركا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ، وقد خاب من حمل ظلما قال شركا (فلا يخاف ظلما ولا هضما) قال ظلما : أن يزاد فى سيئاته ، ولا هضما قال : ينقص من حسناته . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : لايخاف أن يظلم فى سيئاته ، ولا يهضم فى حسناته . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه ولاهضما قال غصبا .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا * فَتَعَٰلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا * وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِءَادَمَ

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ *

قوله (وكذلك أنزلناه) معطوف على قوله كذلك نقص عليك أى مثل ذلك الانزال أنزلناه : أى القرآن حال كونه (قرآنا عربيا) أى بلغة العرب ليفهموه (وصرفنا فيه من الوعيد) بينا فيه ضروبا من الوعيد تخويفا وتهديدا أو كررنا فيه بعضا منه (لعلهم يتقون) أى كي يخافوا الله فيتجنبوا معاصيه ويحذروا عقابه (أو يحدث لهم ذكرا) أى اعتبارا واتعاظا ، وقيل ورعا ، وقيل شرفا ، وقيل طاعة وعبادة ، لأن الذكر يطلق عليها . وقرأ الحسن أو نحدث بالنون (فتعالى الله الملك الحق) لما بين للعباد عظيم نعمته عليهم بانزال القرآن نزه نفسه عن مماثلة مخلوقاته فى شىء من الأشياء : أى جل الله عن إلحاد الملحدين وعما يقول المشركون فى صفاته فانه الملك الذى بيده الثواب والعقاب وأنه الحق أى ذو الحق (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه) أى يتم اليك وحيه . قال المفسرون : كان النبى ﷺ يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحى حرصا منه على ما كان ينزل عليه منه فنهاه الله عن ذلك ، ومثله قوله لاتحرك به لسانك لتعجل به ـ على ما يأتى ان شاء الله ، وقيل المعنى ولا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله ، وقرأ ابن مسعود ويعقوب والحسن والأعمش من قبل أن نقضى بالنون ونصب وحيه (وقل رب زدنى علما) أى سل ربك زيادة العلم بكتابه (ولقد عهدنا الى آدم) اللام هى الموطئة للقسم ، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها من تصريف الوعيد : أى لقد أمرناه ووصيناه ، والمعهود محذوف ، وهو ما يأتى من نهيه عن الأكل من الشجرة ، ومعنى (من قبل) أى من قبل هذا الزمان (فنسى) قرأ الأعمش باسكان الياء ، والمراد بالنسيان هنا ترك العمل بما وقع به العهد اليه فيه ، وبه قال أكثر المفسرين ، وقيل النسيان على حقيقته ، وأنه نسى ما عهد الله به اليه وينتهى عنه ، وكان آدم مأخوذا بالنسيان فى ذلك الوقت ، وان كان النسيان مرفوعا عن هذه الأمة ، والمراد من الآية تسلية النبى ﷺ على القول الأول . أى ان طاعة بنى آدم للشيطان أمر قديم ، وأن هؤلاء المعاصرين له ان نقضوا العهد فقد نقض أبوهم آدم ، كذا قال ابن جرير والقشيرى ، واعترضه ابن عطية قائلا بأن كون آدم مماثلا للكفار الجاحدين بالله ليس بشىء ، وقرئ نُسّى بضم النون وتشديد السين مكسورة مبنيا للمفعول : أى فنساه ابليس (ولم نجد له عزما) العزم فى اللغة توطين النفس على الفعل والتصميم عليه ، والمضى على المعتقد فى أى شىء كان ، وقد كان آدم عليه السلام قد وطن نفسه على أن لا يأكل من الشجرة وصمم على ذلك ، فلما وسوس اليه ابليس لانت عريكته وفتر عزمه وأدركه ضعف البشر ، وقيل العزم الصبر : أى لم نجد له صبرا عن أكل الشجرة . قال النحاس : وهو كذلك فى اللغة ، يقال لفلان عزم : أى صبر وثبات على التحفظ عن المعاصى حتى يسلم منها ، ومنه ـ كما صبر أولوا العزم من الرسل ـ ، وقيل المعنى ولم نجد له عزما على الذنب ، وبه قال ابن كيسان ، وقيل ولم نجد له رأيا معزوما عليه ، وبه قال ابن قتيبة * ثم شرع سبحانه فى كيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه ، والعامل فى اذ مقدر : أى (و) اذكر (اذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث للمبالغة ، لأنه اذا وقع الأمر بذكر الوقت كان ذكر ما فيه من الحوادث لازما

بطريق الأولى ، وقد تقدّم تفسير هذه القصة فى البقرة مستوفى ، ومعنى (فتشقى) فتتعب فى تحصيل مالابدّ منه فى المعاش كالحرث والزرع ، ولم يقل فتشقيا ، لأن الكلام من أوّل القصة مع آدم وحده ، ثم علل مايوجبه ذلك النهى بما فيه الراحة الكاملة عن التعب والاهتمام فقال (إن لك أن لاتجوع فيها ولا تعرى) أى فى الجنة * والمعنى أن لك فيها تمتعا بأنواع المعايش وتنعما بأصناف النعم من المآكل الشهية والملابس البهية ، فانه لما نفى عنه الجوع والعرى أفاد ثبوت الشبع والاكتساء له ، وهكذا قوله (وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى) فان نفى الظمأ يستلزم حصول الرىّ ووجود المسكن الذى يدفع عنه مشقة الضحو ، يقال ضحى الرجل يضحى ضحوا اذا برز للشمس فأصابه حرّها ، فذكر سبحانه هاهنا أنه قد كفاه الاشتغال بأمر المعاش وتعب الكدّ فى تحصيله ، ولا ريب أن أصول المتاعب فى الدنيا هى تحصيل الشبع والرىّ والكسوة والسكن ، وماعداهذه ففضلات يمكن البقاء بدونها ، وهو اعلام من الله سبحانه لآدم أنه ان أطاعه فله فى الجنة هذا كله ، وان ضيع وصيته ولم يحفظ عهده أخرجه من الجنة الى الدنيا فيحلّ به التعب والنصب بما يدفع الجوع والعرى والظمأ والضحو ، فالمراد بالشقاء شقاء الدنيا كما قاله كثير من المفسرين لاشقاء الأخرى . قال الفراء : هو أن يأكل من كدّ يديه ، وقرأ أبو عمرو والكوفيون إلا عاصما وأنك لاتظمأ بفتح أن ، وقرأ الباقون بكسرها على العطف على إن لك (فوسوس اليه الشيطان) قد تقدم تفسيره فى الأعراف فى قوله — فوسوس لهما الشيطان — أى أنهى اليه وسوسته ، وجملة (قال يا آدم) الى آخره إما بدل من وسوس أو مستأنفة بتقدير سؤال كأنه قيل فماذا قال له فى وسوسته ؟ و (شجرة الخلد) هى الشجرة التى من أكل منها لم يمت أصلا (وملك لايبلى) أى لايزول ولا ينقضى (فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما) قد تقدّم تفسير هذا ومابعده فى الأعراف . قال الفراء : ومعنى طفقا فى العربية : أقبلا ، وقيل جعلا يلصقان عليهما من ورق التين (وعصى آدم ربه فغوى) أى عصاه بالأكل من الشجرة فغوى فضلّ عن الصواب أوعن مطلوبه ، وهو الخلود بأكل تلك الشجرة ، وقيل فسد عليه عيشه بنزوله الى الدنيا ، وقيل جهل موضع رشده ، وقيل بشم من كثرة الأكل ، قال ابن قتيبة : أكل آدم من الشجرة التى نهى عنها باستزلال ابليس وخداعه اياه ، والقسم له بالله انه له لمن الناصحين حتى دلاه بغرور ولم يكن ذنبه عن اعتقاد متقدّم ونية صحيحة ، فنحن نقول عصى آدم ربه فغوى انتهى . قال القاضى أبو بكر ابن العربى : لايجوز لأحد أن يخبر اليوم بذلك عن آدم * قلت لامانع من هذا بعدأن أخبرنا الله فى كتابه بأنه عصاه ، وكما يقال حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ومما قلته فى هذا المعنى .

عصى أبو العالم وهو الذى * من طينة صوّره الله
وأسجد الأملاك من أجله * وصير الجنة مأواه
أغواه إبليس فمن ذا أنا المسكين إن إبليس أغواه

(ثم اجتباه ربه) أى اصطفاه وقربه . قال ابن فورك : كانت المعصية من آدم قبل النبوّة بدليل مافى هذه الآية ، فانه ذكر الاجتباء والهداية ، بعد ذكر المعصية . واذا كانت المعصية قبل النبوة فجائز عليهم الذنوب وجها واحدا (فتاب عليه وهدى) أى تاب عليه من معصيته ، وهداه الى الثبات على التوبة : قيل وكانت توبة الله عليه ، قبل أن يتوب هو وحواء بقولهما — ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين — وقدمرّ وجه تخصيص آدم بالذكر دون حواء .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (أو يحدث لهم) أى القرآن (ذكرا) قال جدّا وورعا . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (ولاتعجل بالقرآن)

يقول لاتعجل حتى نبينه لك . وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن . قال لطم رجل امرأته . فجاءت الى النبي ﷺ تطلب قصاصا . فجعل النبي ﷺ بينهما القصاص . فأنزل الله (ولاتعجل بالقرآن) الآية : فوقف النبي ﷺ حتى نزلت ـ الرجال قوامون على النساء ـ الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله ولاتعجل الآية قال : لاتتله على أحد حتى نتمه لك . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن منده فى التوحيد والطبراني فى الصغير وصححه عن ابن عباس . قال انما سمي الانسان لأنه عهد اليه فنسي . وأخرج عبد الغنى وابن سعد عن ابن عباس (ولقد عهدنا إلى آدم) أن لاتقرب الشجرة فنسي فترك عهدي (ولم نجد له عزما) قال حفظا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا . فنسي فترك ، ولم نجد له عزما : يقول لم نجعل له عزما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا ـ إنك لاتظمأ فيها ولاتضحى ـ قال لايصيبك فيها عطش ولاحر . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها ، وهى شجرة الخلد » وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبي ﷺ قال « حاج آدم موسى . قال له أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك ، وأشقيتهم بمعصيتك . قال آدم : ياموسى . أنت الذى اصطفاك الله برسالته و بكلامه . أتلومنى على أمر كتبه الله علىّ قبل أن يخلقنى ، أو قدّره علىّ قبل أن يخلقنى . قال رسول ﷺ فحج آدم موسى »

قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ *

قوله (قال اهبطا) قد مرّ تفسيره فى البقرة . أى انزلا من الجنة إلى الأرض . خصهما الله سبحانه بالهبوط لأنهما أصل البشر ، ثم عمم الخطاب لهما ولذريتهما : فقال (بعضكم لبعض عدوّ) والجملة فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن يقال خاطبهما فى هذا وما بعده خطاب الجمع ، لأنهما منشأ الأولاد . ومعنى بعضكم لبعض عدوّ تعاديهم فى أمر المعاش ونحوه ، فيحدث بسبب ذلك القتال والخصام (فاما يأتينكم منى هدى) بارسال الرسل وانزال الكتب (فمن اتبع هداى فلا يضل ولايشقى) أى لايضل فى الدنيا ولايشقى فى الآخرة (ومن أعرض عن ذكرى) أى عن دينى ، وتلاوة كتابى ، والعمل بما فيه ، ولم يتبع هداى (فان له معيشة ضنكا) أى فان له فى هذه الدنيا معيشة ضنكا : أى عيشا ضيقا . يقال منزل ضنك وعيش ضنك ، مصدر يستوى فيه الواحد ومافوقه والمذكر والمؤنث ، قال عنترة :

إن المنية لو تمثل مثلت * مثلى اذا نزلوا بضنك المنزل

وقرئ ضنكى بضم الضاد على فعلى * ومعنى الآية أن الله عز وجلّ جعل لمن اتبع هداه وتمسك بدينه أن يعيش فى الدنيا عيشا هنيا غير مهموم ولامغموم ولا متعب نفسه كما قال سبحانه ـ فلنحيينه حياة طيبة ـ وجعل لمن لم يتبع هداه وأعرض عن دينه أن يعيش عيشا ضيقا ، وفى تعب ونصب ، ومع

مايصيبه فى هذه الدنيا من المتاعب ، فهو فى الأخرى أشدّ تعبا وأعظم ضيقا وأكثر نصبا ، وذلك معنى : (ونحشره يوم القيامة أعمى) أى مسلوب البصر ، وقيل المراد العمى عن الحجة ، وقيل أعمى عن جهات الخير لايهتدى الى شىء منها ، وقد قيل ان المراد بالمعيشة الضنكى عذاب القبر ، وسيأتى مايرجح هـذا ويقويه (قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا) فى الدنيا (قال كذلك) أى مثل ذلك فعلت أنت . ثم فسره بقوله (أتتك آياتنا فنسيتها) أى أعرضت عنها ، وتركتها ، ولم تنظر فيها (وكذلك اليوم تنسى) أى مثل ذلك النسيان الذى كنت فعلته فى الدنيا تنسى : أى تترك فى العمى والعذاب فى النار ، قال الفراء : يقال انه يخرج بصيرا من قبره فيعمى فى حشره (وكذلك نجزى من أسرف) أى مثل ذلك الجزاء نجزيه : والاسراف الانهماك فى الشهوات ، وقيل الشرك (ولم يؤمن بآيات ربه) بل كذب بها (ولعذاب الآخرة أشدّ) أى أفظع من المعيشة الضنكى (وأبقى) أى أدوم وأثبت لأنه لاينقطع .

وقد أخرج ابن أبى شيبة والطبرانى وأبو نعيم فى الحلية وابن مردويه عن ابن عباس . قال : قال رسول الله ﷺ « من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة فى الدنيا ، ووقاه سوء الحساب يوم القيامة » وذلك أن الله يقول (فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس . قال أجار الله تابع القرآن من أن يضل فى الدنيا ، أو يشقى فى الآخرة . ثم قرأ (فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) قال لايضل فى الدنيا ، ولايشقى فى الآخرة . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور ومسدد فى مسنده وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا فى قوله (معيشة ضنكا) قال عذاب القبر ، ولفظ عبدالرزاق قال يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، ولفظ ابن أبى حاتم . قال : ضمة القبر ، وفى اسناده ابن لهيعة ، وفيه مقال معروف . وقد روى موقوفا . قال ابن كثير الموقوف أصح . وأخرج البزار وابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله « فان له معيشة ضنكا » قال المعيشة الضنكى أن يسلط عليه تسعة وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة » . وأخرج ابن أبى الدنيا والحكيم الترمذىّ وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه بأطول منه . قال ابن كثير رفعه منكر جدًا . وأخرج ابن أبى شيبة والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله «فان له معيشة ضنكا . قال عذاب القبر» قال ابن كثير بعد إخراجه إسناد جيد . وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبرانى والبيهقى عن ابن مسعود فى قوله ، فان له معيشة ضنكا : قال عذاب القبر ومجموع ماذكرناهنا يرجح تفسير المعيشة الضنكى بعذاب القبر . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى فى كتاب عذاب القبر عن ابن مسعود . أنه فسر المعيشة الضنكى بالشقاء . وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : (ونحشره يوم القيامة أعمى) قال عمى عليه كل شىء الا جهنم ، وفى لفظ لايبصر إلا النار وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان فى قوله (وكذلك نجزى من أسرف) قال من أشرك بالله .

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ * وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى * فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ

بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناءى الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى * ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى * وأمر أهلك بالصلوة واصطبر عليها لا نسئلك رزقا نحن نرزقك والعقبة للتقوى * وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى * ولو أنا أهلكنهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آيتك من قبل أن نذل ونخزى * قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحب الصراط السوى ومن اهتدى *

قوله (أفلم يهد لهم) الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر ، كما مر غير مرة ، والجملة مستأنفة لتقرير ماقبلها وفاعل يهد هو الجملة المذكورة بعدها ، والمفعول محذوف ، وأنكر البصريون مثل هذا لأن الجمل لاتقع فاعلا ، وجوزه غيرهم . قال القفال : جعل كثرة ماأهلك من القرون مبينا لهم . قال النحاس : وهـذا خطأ . لأن كم استفهام ، فلا يعمل فيها ماقبلها . وقال الزجاج : المعنى أولم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكناه ، وحقيقته تدل على الهدى ، فالفاعل هو الهدى . وقال (كم) فى موضع نصب بأهلكنا وقيل ان فاعل يهد ضمير لله أو للرسول ، والجملة بعده تفسره . ومعنى الآية على ماهو الظاهر أفلم يتبين لأهل مكة خبر من (أهلكنا قبلهم من القرون) حال كون القرون (يمشون فى مساكنهم) ويتقلبون فى ديارهم ، أو حال كون هؤلاء يمشون فى مساكن القرون الذين أهلكناهم عند خروجهم للتجارة وطلب المعيشة ، فيرون بلاد الأمم الماضية ، والقرون الخالية خاوية خاربة من أصحاب الحجر وثمود . وقرى قوم لوط فان ذلك مما يوجب اعتبارهم ، لئلا يحل بهم مثل ماحل بأولئك . وقرأ ابن عباس والسلمى نهد بالنون ، والمعنى على هذه القراءة واضح . وجملة (ان فى ذلك لآيات لأولى النهى) تعليل للانكار ، وتقرير للهداية والاشارة بقوله ذلك إلى مضمون كم أهلكنا الى آخره . والنهى : جمع نهية ، وهى العقل : أى لذوى العقول التى تنهى أربابها عن القبيح (ولولا كلمة سبقت من ربك) أى ولولا الكلمة السابقة ، وهى وعد الله سبحانه بتأخير عذاب هذه الأمة الى الدار الآخرة (لكان) عقاب ذنوبهم (لزاما) أى لازما لهم ، لاينفك عنهم بحال ولايتأخر . وقوله (وأجل مسمى) معطوف على كلمة ، قاله الزجاج وغيره ، والأجل المسمى هو يوم القيامة ، أو يوم بدر ، واللزام مصدر لازم : قيل ويجوز عطف وأجل مسمى على الضمير المستتر فى كان العائد الى الأخذ العاجل المفهوم من السياق تنزيلا للفصل بالخبر منزلة التأكيد : أى لكان الأخذ العاجل (وأجل مسمى) لازمين لهم . كما كانا لازمين لعاد وثمود ، وفيه تعسف ظاهر * ثم لما بين الله سبحانه أنه لايهلكهم بعذاب الاستئصال أمره بالصبر : فقال (فاصبر على مايقولون) من أنك ساحر كذاب ، ونحو ذلك من مطاعنهم الباطلة : والمعنى لاتحتفل بهم ، فان لعذابهم وقتا مضروبا لايتقدم ولايتأخر : وقيل هذا منسوخ بآية القتال (وسبح بحمد ربك) أى متلبسا بحمده . قال أكثر المفسرين . والمراد الصلوات الخمس كما يفيده قوله (قبل طلوع الشمس) فانه إشارة الى صلاة الفجر : (وقبل غروبها) فانه اشارة إلى صلاة العصر (ومن آناء الليل) العتمة : والمراد بالآناء الساعات ، وهى جمع إنى بالكسر والقصر ، وهو الساعة . ومعنى (فسبح) أى فصل (وأطراف النهار) أى المغرب والظهر لان الظهر فى آخر طرف النهار الأول ، وأول طرف النهار الآخر : وقيل ان الاشارة الى صلاة الظهر هى

بقوله ، وقبل غروبها ، لأنها هى وصلاة العصر قبل غروب الشمس ، وقيل المراد بالآية صلاة التطوع ، ولو قيل ليس فى الآية إشارة الى الصلاة بل المراد التسبيح فى هذه الأوقات : أى قول القائل : سبحان الله لم يكن ذلك بعيدا من الصواب ، والتسبيح وان كان يطلق على الصلاة ، ولكنه مجاز والحقيقة أولى الا لقرينة تصرف ذلك الى المعنى المجازى ، وجملة (لعلك ترضى) متعلقة بقوله فسبح : أى سبح فى هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله سبحانه ماترضى به نفسك . هذا على قراءة الجمهور . وقرأ الكسائى وأبو بكر عن عاصم : ترضى بضم التاء مبنيا للمفعول : أى يرتضيك ربك (ولا تمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم) قد تقدم تفسير هذه الآية فى الحجر * والمعنى : لاتطل نظر عينيك ، وأزواجا مفعول متعنا ، وزهرة منصوبة على الحال ، أو بفعل محذوف : أى جعلنا أو أعطينا ، ذكر معنى هذا الزجاج ، وقيل هى بدل من الهاء فى به باعتبار محله ، وهو النصب لاباعتبار لفظه ، فانه مجرور كما تقول مررت به أخاك ، ورجح الفراء النصب على الحال ، يجوز أن تكون بدلا ، ويجوز أن تكون منتصبة على المصدر مثل صبغة الله ووعد الله (وزهرة الحياة الدنيا) زينتها وبهجتها بالنبات وغيره . وقرأ عيسى بن عمر زهرة بفتح الهاء ، وهى نور النبات ، واللام فى (لنفتنهم) فيه متعلق بمتعنا : اى لنجعل ذلك فتنة لهم ، وضلالة ، ابتلاء مناهم كقوله ـ إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم ـ وقيل لنعذبهم ، وقيل لنشدد عليهم فى التكليف (ورزق ربك خير وأبقى) أى ثواب الله ، وما ادخر لصالحى عباده فى الآخرة خير مما رزقهم فى الدنيا على كل حال ، وأيضا فان ذلك لاينقطع ، وهذا ينقطع ، وهو معنى وأبقى ، وقيل المراد بهذا الرزق مايفتح الله على المؤمنين من الغنائم ونحوها ، والأول أولى ، لان الخيرية المحققة ، والدوام الذى لاينقطع انما يتحققان فى الرزق الأخروى لا الدنيوى ، وإن كان حلالا طيبا ـ ماعندكم ينفد وماعند الله باق ـ (وأمر أهلك بالصلاة) أمره الله سبحانه بأن يأمر أهله بالصلاة ، والمراد بهم أهل بيته : وقيل جميع أمته ولم يذكر هاهنا : الأمر من الله له بالصلاة ، بل قصر الأمر على أهله ، إما لكون إقامته لها أمرا معلوما ، أو لكون أمره بها قد تقدم فى قوله : وسبح بحمد ربك إلى آخر الآية ، أو لكون أمره بالأمر لأهله أمرا له ، ولهذا قال (واصطبر عليها) أى اصبر على الصلاة ، ولا تشتغل عنها بشىء من أمور الدنيا (لانسألك رزقا) أى لانسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك ، وتشتغل بذلك عن الصلاة (نحن نرزقك) ونرزقهم ولا نكلفك ذلك (والعاقبة للتقوى) أى العاقبة المحمودة ، وهى الجنة لأهل التقوى على حذف المضاف ، كما قال الأخفش ، وفيه دليل على أن التقوى هى ملاك الأمر وعليها تدور دوائر الخير (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه) أى : قال كفار مكة هلا يأتينا محمد بآية من آيات ربه كما كان يأتى بها من قبله من الأنبياء ، وذلك كالناقة والعصا ، أو هلا يأتينا بآية من الآيات التى قد اقترحناها عليه ، فأجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله (أولم يأتهم بينة مافى الصحف الأولى) يريد بالصحف الأولى التوراة والانجيل والزبور وسائر الكتب المنزلة ، وفيها التصريح بنبوته والتبشير به ، وذلك يكفى ، فان هذه الكتب المنزلة هم معترفون بصدقها وصحتها ، وفيها مايدفع انكارهم لنبوته ، ويبطل تعنتاتهم وتعسفاتهم ، وقيل المعنى أولم يأتهم إهلاكنا للأمم الذين كفروا واقترحوا الآيات ، فما يؤمنهم ان أتتهم الآيات التى اقترحوها أن يكون حالهم كحالهم وقيل المراد أولم تأتهم آية هى أم الآيات وأعظمها فى باب الاعجاز يعنى القرآن ، فانه برهان لما فى سائر الكتب المنزلة وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو ويعقوب وابن أبى اسحاق وحفص أولم تأتهم بالتاء الفوقية ، وقرأ الباقون بالتحتية لأن معنى البينة البيان والبرهان ، فذكروا الفعل اعتبارا بمعنى البينة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، قال الكسائى ، ويجوز بينة بالتنوين ، قال النحاس : اذا نونت بينة ورفعت جعلت مابدلا منها ،

واذا نصبت فعلى الحال * والمعنى أو لم يأتهم ما فى الصحف الأولى مبينا ، وهـذا على ما يقتضيه الجواز النحوى وان لم تقع القراءة به (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله) أى من قبل بعثة محمد ﷺ أو من قبل إتيان البينة بنزول القرآن (لقالوا) يوم القيامة (ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) أى هلا أرسلت إلينا رسولا فى الدنيا (فنتبع آياتك) التى يأتى بها الرسول (من قبل أن نذلّ) بالعذاب فى الدنيا (ونخزى) بدخول النار ، وقرئ نذلّ ونخزى على البناء للمفعول ، وقد قطع الله معذرة هؤلاء الكفرة بإرسال الرسول إليهم قبل إهلاكهم ، ولهذا حكى الله عنهم أنهم ـ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزّل الله من شىء ـ (قل كلّ متربص فتربصوا) أى قل لهم يا محمد كل واحد منا ومنكم متربص : أى منتظر لما يؤول اليه الأمر فتربصوا أنتم (فستعلمون) عن قريب (من أصحاب الصراط السوىّ) أى فستعلمون بالنصر والعاقبة من هو من أصحاب الصراط المستقيم (ومن اهتدى) من الضلالة ونزع عن الغواية ، ومن فى الموضعين فى محل رفع بالابتداء . قال النحاس : والفراء يذهب الى أن معنى من أصحاب الصراط السوىّ : من لم يضل ، والى أن معنى : من اهتدى من ضل ثم اهتدى ، وقيل من فى الموضعين فى محل نصب ، وكذا قال الفراء * وحكى عن الزجاج أنه قال هذا خطأ ، لان الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ، وقرأ أبو رافع : فسوف تعلمون ، وقرأ يحيى بن يعمر وعاصم الجحدرى ، السوى على فعلى ، ووردت هذه القراءة بأن تأنيث الصراط شاذ ، وقيل هى بمعنى الوسط والعدل اه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (أفلم يهد لهم) ألم نبين لهم (كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم) نحو عاد وثمود ومن أهلك من الأمم ، وفى قوله (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى) يقول هذا من مقاديم الكلام : يقول لولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاما . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى نحوه . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد ، قال الأجل المسمى الكلمة التى سبقت من ربك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : لكان لزاما ، قال موتا . وأخرج الفريابى وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (وسبح بحمد ربك) الآية ، قال هى الصلاة المكتوبة . وأخرج الطبرانى وابن مردويه وابن عساكر عن جرير عن النبى ﷺ فى قوله « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ، قال قبل طلوع الشمس صلاة الصبح ، وقبل غروبها صلاة العصر » ، وفى الصحيحين وغيرهما من حديث جرير قال : قال رسول الله ﷺ « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته ، فان استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ، وقرأ : فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها * وفى صحيح مسلم وسنن أبى داود والنسائى عن عمارة بن رؤيبة سمعت رسول الله ﷺ يقول « لن يلج النار أحد صلىّ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن راهويه والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والخرائطى وأبو نعيم عن أبى رافع ، قال أضاف النبى ﷺ ضيفا ، ولم يكن عند النبى ﷺ ما يصلحه ، فأرسلنى إلى رجل من اليهود أن بعنا أو سلفنا دقيقا الى هلال رجب ، فقال لا إلا برهن ، فأتيت النبى ﷺ فأخبرته ، فقال « أما والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ولئن أسلفنى أو باعنى لأدّيت اليه : اذهب بدرعى الحديد ، فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية (ولا تمدّن عينيك) كأنه يعزيه عن الدنيا » . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ « قال إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا ، قالوا وما زهرة الدنيا يا رسول الله ؟ قال بركات الأرض »

وأخرج

XXL ١٠٦

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن أبي سعيد الخدري، قال لما نزلت (وأمر أهلك بالصلاة) كان النبي ﷺ يجيء الى باب علي صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول: الصلاة رحمكم الله – إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا. وأخرج ابن مردويه عن أبي الحمراء نحوه. وأخرج أحمد في الزهد وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن ثابت، قال «كان النبي ﷺ اذا أصابت أهله خصاصة نادى أهله: يا أهلاه صلوا صلوا» قال ثابت وكانت الأنبياء اذا نزل بهم أمر فزعوا الى الصلاة. وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب باسناد قال السيوطي صحيح عن عبد الله بن سلام، قال كان النبي ﷺ إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة. وقرأ – وأمر أهلك بالصلاة – الآية.

تفسير سورة الأنبياء

وهي مكية قال القرطبي في قول الجميع، وهي مائة واثنتا عشرة آية

وأخرج البخاري وغيره عن ابن مسعود، قال بنو إسرائيل والكهف ومريم والأنبياء: هن من العتاق الأول، وهن من تلادي. وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر مثواه، وكلم فيه رسول الله ﷺ فجاءه الرجل، فقال إني استقطعت رسول الله ﷺ واديا ما في العرب واد أفضل منه، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر لا حاجة لي في قطعتك: نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا. اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ *

يقال قرب الشيء واقترب وقد اقترب الحساب : أى قرب الوقت الذى يحاسبون فيه . قال الزجاج : المعنى (إقترب للناس) وقت (حسابهم) أى القيامة كما فى قوله ـ اقتربت الساعة ـ واللام فى للناس متعلقة بالفعل ، وتقديمها هى ومجرورها على الفاعل لادخال الروعة ، ومعنى اقتراب وقت الحساب : دنوّه منهم ، لأنه فى كل ساعة أقرب اليهم من الساعة التى قبلها ، وقيل لأن كل ما هو آت قريب ، وموت كل إنسان قيام ساعته ، والقيامة أيضا قريبة بالاضافة الى ما مضى من الزمان ، فما بقى من الدنيا أقل مما مضى ، والمراد بالناس العموم ، وقيل المشركون مطلقا ، وقيل كفار مكة ، وعلى هذا الوجه قيل المراد بالحساب : عذابهم يوم بدر ، وجملة (وهم فى غفلة معرضون) فى محل نصب على الحال : أى هم فى غفلة بالدنيا معرضون عن الآخرة ، غير متأهبين بما يجب عليهم من الايمان بالله ، والقيام بفرائضه ، والانزجار عن مناهيه (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) من لابتداء الغاية ، وقد استدلّ بوصف الذكر بكونه محدثا على أن القرآن محدث ، لأن الذكر هنا هو القرآن * وأجيب بأنه لانزاع فى حدوث المركب من الأصوات والحروف ، لأنه متجدد فى النزول * فالمعنى محدث تنزيله ، وإنما النزاع فى الكلام النفسى ؛ وهذ المسئلة : أعنى قدم القرآن وحدوثه قد ابتلى بها كثير من أهل العلم والفضل فى الدولة المأمونية والمعتصمية والواثقية ، وجرى للامام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد ، والحبس الطويل ، وضرب بسببها عنق محمد بن نصر الخزاعى ، وصارت فتنة عظيمة فى ذلك الوقت ومابعده ، والقصة أشهر من أن تذكر ، ومن أحبّ الوقوف على حقيقتها : طالع ترجمة الامام أحمد بن حنبل فى كتاب النبلاء لمؤرخ الاسلام الذهبى ، ولقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الاجابة الى القول بخلق القرآن وحدوثه وحفظ الله بهم أمة نبيه عن الابتداع ، ولكنهم رحمهم الله جاوزوا ذلك الى الجزم بقدمه ولم يقتصروا على ذلك حتى كفروا من قال بالحدوث ، بل جاوزوا ذلك الى تكفير من قال لفظى بالقرآن مخلوق ، بل جاوزوا ذلك الى تكفير من وقف ، وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف وإرجاع العلم الى علام الغيوب ، فانه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم الى وقت قيام المحنة وظهور القول فى هذه المسئلة شيء من الكلام ، ولا نقل عنهم كلمة فى ذلك ، فكان الامتناع من الاجابة الى ما دعوا اليه ، والتمسك باذيال الوقف ، وإرجاع علم ذلك الى عالمه هو الطريقة المثلى ، وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله ، والأمر لله سبحانه * وقوله (إلا استمعوه) استثناء مفرغ فى محل نصب على الحال ، وجملة (وهم يلعبون) فى محل نصب على الحال أيضا من فاعل استمعوه ، و (لاهية قلوبهم) حال أيضا والمعنى : ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث فى حال من الأحوال الا فى الاستماع مع اللعب والاستهزاء ولهوة القلوب ، وقرئ : لاهية بالرفع كما قرئ محدث بالرفع (وأسرّ النجوى الذين ظلموا) النجوى اسم من التناجى ، والتناجى لا يكون الا سرّا ، فمعنى إسرار النجوى : المبالغة فى الاخفاء * وقد اختلف فى محل الموصول على أقوال : فقيل انه فى محل رفع بدل من الواو فى أسرّوا ، قاله المبرد وغيره ، وقيل هو فى محل رفع على الذمّ ، وقيل هو فاعل لفعل محذوف ، والتقدير : يقول الذين ظلموا ، واختار هذا النحاس ، وقيل فى محل نصب بتقدير أعنى ، وقيل فى محل خفض على أنه بدل من الناس ذكر ذلك المبرد ، وقيل هو فى محل رفع على أنه فاعل أسرّوا على لغة من يجوّز الجمع بين فاعلين : كقولهم أكلونى البراغيث ، ذكر ذلك الأخفش ، ومثله ـ ثم عموا وصموا كثير منهم ـ ومنه قول الشاعر :

* فاهتدين البغال للاغراض * وقول الآخر :

ولكن دنا بى أبوه وأمه * بحوران يعصرن السليط أقاربه

وقال الكسائي فيه تقديم وتأخير : أي والذين ظلموا أسرّوا النجوى . قال أبو عبيدة : أسرّوا هنا من الأضداد : يحتمل أن يكون بمعنى أخفوا كلامهم ، ويحتمل أن يكون بمعنى أظهروه وأعلنوه (هل هذا إلا بشر مثلكم) هذه الجملة بتقدير القول قبلها : أي قالوا هل هذا الرسول إلا بشر مثلكم لايتميز عنكم بشيء ، ويجوز أن تكون هذه الجملة بدلا من النجوى ، وهل بمعنى النفي : أي وأسرّوا هذا الحديث ، والهمزة في (أفتأتون السحر) للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر كنظائره ، وجملة (وأنتم تبصرون) في محل نصب على الحال * والمعنى اذا كان بشرا مثلكم ، وكان الذي جاء به سحرا ، فكيف تجيبونه اليه وتتبعونه ، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما تناجوا به ، وأمره الله سبحانه أن يجيب عليهم ، فقال (قل ربي يعلم القول في السماء والأرض) أي لا يخفى عليه شيء مما يقال فيهما ، وفي مصاحف أهل الكوفة : قال ربي : أي قال محمد ربي يعلم القول ، فهو عالم بما تناجيتم به ، قيل القراءة الأولى أولى ، لأنهم أسرّوا هذا القول ، فأطلع الله رسوله ﷺ على ذلك وأمره أن يقول لهم هذا . قال النحاس : والقراءتان صحيحتان ، وهما بمنزلة آيتين (وهو السميع) لكل مايسمع (العليم) بكل معلوم ، فيدخل في ذلك ما أسرّوا دخولا أوّليا (بل قالوا أضغاث أحلام) قال الزجاج : أي قالوا الذي تأتي به أضغاث أحلام . قال القتبي : أضغاث الأحلام الرؤيا الكاذبة . وقال اليزيدي : الأضغاث مالم يكن له تأويل ، وهذا إضراب من جهة الله سبحانه حكاية لما وقع منهم ، وانتقال من حكاية قولهم السابق الى حكاية هذا القول * ثم حكى سبحانه إضرابهم عن قولهم : أضغاث أحلام ، فقال (بل افتراه) أي بل قالوا افتراه من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل ، ثم حكى سبحانه عنهم أنهم أضربوا عن هذا ، وقالوا (بل هو شاعر) وما أتى به من جنس الشعر ، وفي هذا الاضطراب منهم ، والتلوّن والتردّد أعظم دليل على أنهم جاهلون بحقيقة ماجاء به ، لايدرون ما هو ولا يعرفون كنهه ؟ أو كانوا قد علموا أنه حق ، وأنه من عند الله ، ولكن أرادوا أن يدفعوه بالصدر ويرموه بكل حجر ومدر ، وهذا شأن من غلبته الحجة وقهره البرهان . ثم بعد هذا كله ، قالوا (فليأتنا بآية) وهذا جواب شرط محذوف : أي ان لم يكن كما قلنا : فليأتنا بآية (كما أرسل الأوّلون) أي كما أرسل موسى بالعصا وغيرها ، وصالح بالناقة ، ومحل الكاف الجرّ صفة لآية ، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف ، وكان سؤالهم هذا سؤال تعنت ، لأن الله سبحانه قد أعطاهم من الآيات ما يكفي ، ولو علم الله سبحانه أنهم يؤمنون اذا أعطاهم ما يقترحونه لأعطاهم ذلك ، كما قال ــ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ــ قال الزجاج اقترحوا الآيات التي لا يقع معها إمهال ، فقال الله مجيبا لهم (ما آمنت قبلهم من قرية) أي قبل مشركي مكة : ومعنى من قرية من أهل قرية ، ووصف القرية بقوله (أهلكناها) أي أهلكنا أهلها ، أو أهلكناها باهلاك أهلها ، وفيه بيان أن سنة الله في الأمم السالفة أن المقترحين اذا أعطوا مااقترحوه ، ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة ، ومن في من قرية مزيدة للتوكيد * والمعنى ما آمنت قرية من القرى التي أهلكناها بسبب اقتراحهم قبل هؤلاء ، فكيف نعطيهم مايقترحون ، وهم أسوة من قبلهم ، والهمزة في (أفهم يؤمنون) للتقريع والتوبيخ * والمعنى : ان لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوا ، فكيف يؤمن هؤلاء لو أعطوا ما اقترحوا ، ثم أجاب سبحانه عن قولهم : هل هذا إلا بشر مثلكم بقوله (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا يوحى اليهم) أي لم نرسل قبلك الى الأمم السابقة الارجالا من البشر ، ولم نرسل اليهم ملائكة كما قال سبحانه ــ قل لوكان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ــ وجملة يوحى اليهم مستأنفة لبيان كيفية الارسال ،

ويجوز أن تكون صفة لرجالا : أى متصفين بصفة الايحاء اليهم ، قرأ حفص وحمزة والكسائى نوحى بالنون ، وقرأ الباقون بالياء التحتية ، ثم أمرهم الله بأن يسألوا أهل الذكر ان كانوا يجهلون هذا ، فقال (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) وأهل الذكر هم أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، ومعنى ان كنتم لا تعلمون : ان كنتم لا تعلمون أن رسل الله من البشر ، كذا قال أكثر المفسرين . وقد كان اليهود والنصارى لا يجهلون ذلك ولا ينكرونه ، وتقدير الكلام ان كنتم لا تعلمون ما ذكر ، فاسألوا أهل الذكر . وقد استدل بالآية على أن التقليد جائز وهو خطأ ، ولو سلم لكان المعنى سؤالهم عن النصوص من الكتاب والسنة ، لا عن الرأى البحت ، وليس التقليد الا قبول قول الغير دون حجته ✽ وقد أوضحنا هذا فى رسالة بسيطة : سميناها « القول المفيد فى حكم التقليد »

ثم لما فرغ سبحانه من الجواب عن شبهتهم أكد كون الرسل من جنس البشر ، فقال (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام) أى ان الرسل أسوة لسائر أفراد بنى آدم فى حكم الطبيعة يأكلون كما يأكلون ويشربون كما يشربون ، والجسد جسم الانسان . قال الزجاج : هو واحد يعنى الجسد ينبئ عن جماعة : أى وما جعلناهم ذوى أجساد لا يأكلون الطعام ، وجملة لا يأكلون الطعام صفة لجسدا : أى وما جعلناهم جسدا مستغنيا عن الأكل ، بل هو محتاج إلى ذلك (وما كانوا خالدين) بل يموتون كما يموت غيرهم من البشر ، وقد كانوا يعتقدون أن الرسل لا يموتون ، فأجاب الله عليهم بهذا ، وجملة (ثم صدقناهم الوعد) معطوفة على جملة يدل عليها السياق ، والتقدير أوحينا اليهم ما أوحينا ، ثم صدقناهم الوعد : أى أنجزنا وعدهم الذى وعدناهم بانجائهم واهلاك من كذبهم ، ولهذا قال سبحانه (فأنجيناهم ومن نشاء) من عبادنا المؤمنين ، والمراد إنجاؤهم من العذاب واهلاك من كفر بالعذاب الدنيوى ، والمراد بـ(المسرفين) المجاوزون للحدّ فى الكفر والمعاصى ، وهم المشركون .

وقد أخرج النسائى عن أبى سعيد عن النبىّ ﷺ فى قوله (وهم فى غفلة معرضون) قال : فى الدنيا . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ فى الآية : قال من أمر الدنيا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (بل قالوا أضغاث أحلام) أى فعل الأحلام إنما هى رؤيا رآها (بل افتراه بل هو شاعر) كل هذا قد كان منه (فليأتنا بآية كما أرسل الأوّلون) كما جاء عيسى وموسى بالبينات والرسل (ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها) أى ان الرسل كانوا إذا جاءوا قومهم بالبينات فلم يؤمنوا لم ينظروا . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : قال أهل مكة للنبىّ ﷺ إذا كان ما تقوله حقا ويسرك أن نؤمن فحوّل لنا الصفا ذهبا فأتاه جبريل ، فقال ان شئت كان الذى سألك قومك ، ولكنه ان كان ثم لم يؤمنوا لم ينظروا ، وان شئت استأنيت بقومك . قال بل أستأنى بقومى ، فأنزل الله (ما آمنت قبلهم) الآية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام) يقول : لم نجعلهم جسدا ليس يأكلون الطعام ، انما جعلناهم جسدا يأكلون الطعام .

لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ✽ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ✽ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ✽ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ✽ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ✽ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ✽ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ✽ لَوْ أَرَدْنَا

أن

XXI ١٦-٢٥

أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ *

نبه عباده على عظيم نعمته عليهم بقوله (لقد أنزلنا إليكم كتابا) يعنى القرآن (فيه ذكركم) صفة لكتابا ، والمراد بالذكر هنا الشرف : أى فيه شرفكم كقوله ـ وإنه لذكر لك ولقومك ـ وقيل : فيه ذكركم : أى ذكر أمر دينكم ، وأحكام شرعكم وما تصيرون إليه من ثواب ، أو عقاب ، وقيل فيه حديثكم . قاله مجاهد : وقيل مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم ، وقيل فيه العمل بما فيه حياتكم . قاله سهل بن عبد الله : وقيل فيه موعظتكم ، والاستفهام فى (أفلا تعقلون) للتوبيخ والتقريع : أى أفلا تعقلون أن الأمر كذلك ، أولا تعقلون شيئا من الأشياء التى من جملتها ما ذكر ، ثم أوعدهم وحذرهم ما جرى على الأمم المكذبة ، فقال (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة) كم فى محل نصب على أنها مفعول قصمنا ، وهى الخبرية المفيدة للتكثير ، والقصم كسر الشىء ودقه ، يقال : قصمت ظهر فلان إذا كسرته ، وانقصمت سنه إذا انكسرت * والمعنى هنا الاهلاك والعذاب ، وأما الفصم بالفاء فهو الصدع فى الشىء من غير بينونة ، وجملة كانت ظالمة فى محل جرّ صفة لقرية ، وفى الكلام مضاف محذوف : أى وكم قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين : أى كافرين بالله مكذبين بآياته ، والظلم فى الأصل وضع الشىء فى غير موضعه ، وهم وضعوا الكفر فى موضع الايمان (وأنشأنا بعدها قوما آخرين) أى أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاك أهلها قوما ليسوا منهم (فلما أحسوا بأسنا) أى أدركوا أورأوا عذابنا ، وقال الأخفش خافوا وتوقعوا ، أو البأس العذاب الشديد (اذا هم منها يركضون) الركض الفرار والهرب والانهزام ، وأصله من ركض الرجل الدابة برجليه ، يقال ركض الفرس اذا كدّه بساقيه ، ثم كثر حتى قيل ركض الفرس اذا عدا ، ومنه ـ اركض برجلك ـ * والمعنى أنهم يهربون منها راكضين دوابهم ، فقيل لهم (لاتركضوا) أى لاتهربوا . قيل ان الملائكة نادتهم بذلك عند فرارهم ، وقيل ان القائل لهم ذلك هم من هنالك من المؤمنين استهزاء بهم وسخرية منهم (وارجعوا إلى ما أترفتم فيه) أى الى نعمكم التى كانت سبب بطركم وكفركم ، والمترف المنعم ، يقال أترف فلان : أى وسع عليه فى معاشه (ومساكنكم) أى وارجعوا إلى مساكنكم التى كنتم تسكنونها وتفتخرون بها (لعلكم تسألون) أى تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير فى المهمات ، وهذا على طريقة التهكم بهم والتوبيخ لهم ، وقيل المعنى لعلكم تسألون عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به ، وقيل لعلكم تسألون أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول العذاب بكم . قال المفسرون وأهل الاخبار : ان المراد بهذه الآية أهل حضور من اليمن ، وكان الله سبحانه قد بعث اليهم نبيا اسمه شعيب بن مهدم ، وقبره بجبل من جبال اليمن يقال له ضين وبينه وبين حضور نحو بريد ، قالوا وليس

هو شعيبا صاحب مدين : قلت وآثار القبر بجبل ضين موجودة ، والعامة من أهل تلك الناحية يزعمون أنه قبر قدم بن قادم (قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين) أى قالوا لما قالت لهم الملائكة لاتركضوا ياويلنا : أى ياهلاكنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا مستوجبين العذاب بما قدمنا ، فاعترفوا على أنفسهم بالظلم الموجب للعذاب (فمازالت تلك دعواهم) أى مازالت هذه الكلمة دعواهم : أى دعوتهم ، والكلمة هى قولهم ياويلنا أى يدعون بها ويرددونها (حتى جعلناهم حصيدا) أى بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل ، والحصيد هنا بمعنى المحصود ، ومعنى (خامدين) أنهم ميتون ، من خمدت النار اذا طفئت ، فشبه خمود الحياة بخمود النار ، كما يقال لمن مات قد طفئ (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) أى لم نخلقهما عبثا ولا باطلا ، بل للتنبيه على أن لهما خالقا قادرا يجب امتثال أمره ، وفيه اشارة اجمالية الى تكوين العالم ، والمراد بما بينهما سائر المخلوقات الكائنة بين السماء والأرض على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها (لو أردنا أن نتخذ لهوا) اللهو مايتلهى به ، قيل اللهو الزوجة والولد ، وقيل الزوجة فقط ، وقيل الولد فقط . قال الجوهرى : قد يكنى باللهو عن الجماع ، ويدل على ماقاله قول امرئ القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى * كبرت وألا يحسن اللهو أمثالى

ومنه قول الآخر * وفيهن ملهى للصديق ومنظر * ، والجملة مستأنفة لتقرير مضمون ماقبلها ، وجواب لو قوله (لاتخذناه من لدنا) أى من عندنا ومن جهة قدرتنا لامن عندكم . قال المفسرون : أى من الحور العين ، وفى هذا رد على من قال باضافة الصاحبة والولد الى الله ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا ، وقيل أراد الرد على من قال : الأصنام أو الملائكة بنات الله ، وقال ابن قتيبة : الآية رد على النصارى (ان كنا فاعلين) قال الواحدى : قال المفسرون ما كنا فاعلين . قال الفراء والمبرد والزجاج : يجوز أن تكون إن للنفى كما ذكره المفسرون : أى مافعلنا ذلك ولم نتخذ صاحبة ولا ولدا ، ويجوز أن تكون للشرط : أى ان كنا ممن يفعل ذلك لاتخذناه من لدنا . قال الفراء : وهذا أشبه الوجهين بمذهب العربية (بل نقذف بالحق على الباطل) هذا اضراب عن اتخاذ اللهو : أى دع ذلك الذى قالوا فانه كذب وباطل ، بل شأننا أن نرمى بالحق على الباطل (فيدمغه) أى يقهره ، وأصل الدمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ ، ومنه الدامغة . قال الزجاج : المعنى نذهبه ذهاب الصغار والاذلال ، وذلك أن أصله اصابة الدماغ بالضرب ، قيل أراد بالحق الحجة اه وبالباطل شبههم ، وقيل الحق المواعظ ، والباطل المعاصى ، وقيل الباطل الشيطان ، وقيل كذبهم ، ووصفهم الله سبحانه بغير صفاته (فاذا هو زاهق) أى زائل ذاهب ، وقيل هالك تالف * والمعنى متقارب ، واذا هى الفجائية (ولكم الويل مما تصفون) أى العذاب فى الآخرة بسبب وصفكم لله بما لايجوز عليه ، وقيل الويل واد فى جهنم ، وهو وعيد لقريش بأن لهم من العذاب مثل الذى لأولئك ، ومن هى التعليلية (وله من فى السموات والأرض) عبيدا وملكا ، وهو خالقهم ورازقهم ومالكهم ، فكيف يجوز أن يكون له بعض مخلوقاته شريكا يعبد كما يعبد ، وهذه الجملة مقررة لما قبلها (ومن عنده) يعنى الملائكة ، وفيه رد على القائلين بأن الملائكة بنات الله ، وفى التعبير عنهم بكونهم عنده اشارة الى تشريفهم وكرامتهم ، وانهم بمنزلة المقربين عند الملوك ، ثم وصفهم بقوله (لايستكبرون عن عبادته) أى لايتعاظمون ولا يأنفون عن عبادة الله سبحانه والتذلل له (ولايستحسرون) أى لايعيون ، مأخوذ من الحسير ، وهو البعير المنقطع بالاعياء والتعب ، يقال : حسر البعير يحسر حسورا أعيا وكل ، واستحسر وتحسر مثله وحسرته أنا حسرا ، يتعدى ولايتعدى . قال أبو زيد : لا يكلون ، وقال ابن الأعرابى : لايفشلون . قال الزجاج : معنى الآية أن هؤلاء الذين ذكرتم أنهم أولاد الله عباد الله لايأنفون عن عبادته ولايتعظمون

عنها

عنها كقوله ـ ان الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ـ وقيل المعنى لاينقطعون عن عبادته وهذه المعانى متقاربة (يسبحون الليل والنهار لايفترون) أى ينزهون الله سبحانه دائما لايضعفون عن ذلك ولايسأمون ، وقيل يصلون الليل والنهار . قال الزجاج : مجرى التسبيح منهم كمجرى النفس منا لايشغلنا عن النفس شيء ، فكذلك تسبيحهم دائم ، وهذه الجملة إما مستأنفة جواب سؤال مقدر ، أو فى محل نصب على الحال (أم اتخذوا آلهة من الأرض) قال المفضل : مقصود هذا الاستفهام الجحد : أى لم يتخذوا آلهة تقدر على الاحياء ، وأم هى المنقطعة ، والهمزة لانكار الوقوع . قال المبرد : ان أم هنا بمعنى هل : أى هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى ، ولاتكون أم هنا بمعنى بل ، لأن ذلك يوجب لهم انشاء الموتى إلا أن تقدر أم مع الاستفهام ، فتكون أم المنقطعة ، فيصح المعنى ، ومن الأرض متعلق باتخذوا ، أو بمحذوف هو صفة لآلهة ، ومعنى (هم ينشرون) هم يبعثون الموتى ، والجملة صفة لآلهة . وهذه الجملة هى التى يدور عليها الانكار والتجهيل ، لانفس الاتخاذ ، فانه واقع منهم لامحالة * والمعنى بل اتخذوا آلهة من الأرض هم خاصة مع حقارتهم ينشرون الموتى ، وليس الأمر كذلك ، فان ما اتخذوها آلهة بمعزل عن ذلك ، قرأ الجمهور ينشرون بضم الياء وكسر الشين من أنشره : أى أحياه ، وقرأ الحسن بفتح الياء : أى يحيون ولايموتون ، ثم انه سبحانه أقام البرهان على بطلان تعدد الآلهة ، فقال (لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) أى لو كان فى السموات والأرض آلهة معبودون غير الله لفسدتا : أى لبطلتا : يعنى السموات والأرض بما فيهما من المخلوقات ، قال الكسائى وسيبويه والأخفش والزجاج وجمهور النحاة : ان الا هنا ليست للاستثناء بل بمعنى غير صفة لآلهة ، ولذلك ارتفع الاسم الذى بعدها وظهر فيه اعراب غير التى جاءت الا بمعناها ، ومنه قول الشاعر :

وكل أخ مفارقه أخوه * لعمر أبيك الا الفرقدان

وقال الفراء : ان الا هنا بمعنى سوى * والمعنى لوكان فيهما آلهة سوى الله لفسدتا ، ووجه الفساد أن كون مع الله إلها آخر يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادرا على الاستبداد بالتصرف ، فيقع عند ذلك التنازع والاختلاف ويحدث بسببه الفساد اهـ (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) الفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان : أى تنزه عز وجل عما لايليق به من ثبوت الشريك له ، وفيه ارشاد للعباد أن ينزهوا الرب سبحانه عما لايليق به (لايسأل عما يفعل) هذه الجملة مستأنفة مبينة أنه سبحانه لقوة سلطانه وعظيم جلاله لايسأله أحد من خلقه عن شيء من قضائه وقدره (وهم) أى العباد (يسألون) عما يفعلون أى يسألهم الله عن ذلك لأنهم عبيده ، وقيل ان المعنى أنه سبحانه لايؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون ، قيل والمراد بذلك أنه سبحانه بين لعباده أن من يسأل عن أعماله كالمسيح والملائكة لايصلح لأن يكون إلها (أم اتخذوا من دونه آلهة) أى بل اتخذوا ، وفيه اضراب وانتقال من إظهار بطلان كونها آلهة بالبرهان السابق إلى اظهار بطلان اتخاذها آلهة مع توبيخهم بطلب البرهان منهم ، ولهذا قال (قل هاتوا برهانكم) على دعوى أنها آلهة ، أو على جواز اتخاذ آلهة سوى الله ، ولاسبيل لهم الى شيء من ذلك ، لامن عقل ولا نقل ، لأن دليل العقل قد مر بيانه ، وأما دليل النقل فقد أشار اليه بقوله (هذا ذكر من معى وذكر من قبلى) أى هذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع ذكر أمتى وذكر الأمم السالفة ، وقد أقمته عليكم وأوضحته لكم ، فأقيموا أنتم برهانكم ، وقيل المعنى هذا القرآن وهذه الكتب التى أنزلت قبلى فانظروا هل فى واحد منها أن الله أمر باتخاذ إله سواه ، قال الزجاج : قيل لهم هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلها غير الله ، فهل فى ذكر من

معى وذكر من قبلى إلا توحيد الله ؟ وقيل معنى الكلام الوعيد والتهديد : أى افعلوا ماشئتم فعن قريب ينكشف الغطاء ، وحكى أبو حاتم أن يحيى بن يعمر وطلحة بن مصرف قرآ : هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بالتنوين وكسر الميم ، وزعم أنه لاوجه لهذه القراءة ، وقال الزجاج فى توجيه هذه القراءة ان المعنى هذا ذكر مما أنزل إلىّ ومما هو معى وذكر من قبلى ، وقيل ذكر كائن من قبلى : أى جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلى ، ثم لما توجهت الحجة عليهم ذمهم بالجهل بمواضع الحق ، فقال (بل أكثرهم لايعلمون الحق) وهذا اضراب من جهته سبحانه وانتقال من تبكيتهم بمطالبتهم بالبرهان الى بيان أنه لايؤثر فيهم إقامة البرهان لكونهم جاهلين للحق لايميزون بينه و بين الباطل ، وقرأ ابن محيصن والحسن الحق بالرفع على معنى هذا الحق ، أو هو الحق ، وجملة (فهم معرضون) تعليل لما قبله من كون أكثرهم لايعلمون : أى فهم لأجل هذا الجهل المستولى على أكثرهم معرضون عن قبول الحق مستمرّون على الاعراض عن التوحيد واتباع الرسول ، فلا يتأملون حجة ، ولا يتدبرون فى برهان ، ولا يتفكرون فى دليل (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا يوحى اليه) قرأ حفص وحمزة والكسائى نوحى بالنون ، وقرأ الباقون بالياء : أى نوحى اليه (أنه لاإله الا أنا) وفى هذا تقرير لأمر التوحيد وتأكيد لما تقدم من قوله : هذا ذكر من معى ، وختم الآية بالأمر لعباده بعبادته ، فقال (فاعبدون) فقد اتضح لكم دليل العقل ، ودليل النقل وقامت عليكم حجة الله .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله (لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم) قال : شرفكم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال : فيه حديثكم ، وفى رواية عنه قال فيه دينكم . وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : بعث الله نبيا من حمير ، يقال له شعيب ، فوثب اليه عبد فضربه بعصا فسار اليهم بختنصر فقاتلهم فقتلهم حتى لم يبق منهم شىء ، وفيهم أنزل الله ــ وكم قصمنا ــ إلى قوله ــ خامدين ــ وأخرج عبدالرزاق وعبدبن حميد وابن المنذرعن الكلبى فى قوله (وكم قصمنا من قرية) قال هى حضور بنى أزد ، وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (وارجعوا الى ماأترفتم فيه) قال ارجعوا إلى دوركم وأموالكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (فما زالت تلك دعواهم) قال : هم أهل حضور كانوا قتلوا نبيهم ، فأرسل الله عليهم بختنصر فقتلهم ، وفى قوله (جعلناهم حصيدا خامدين) قال : بالسيف ضرب الملائكة وجوههم حتى رجعوا الى مساكنهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن وهب قال حدّثنى رجل من الجزريين . قال كان اليمن قريتان ، يقال لاحداهما حضور ، وللأخرى قلابة فبطروا وأترفوا حتى ما كانوا يغلقون أبوابهم ، فلما أترفوا بعث الله اليهم نبيا فدعاهم فقتلوه ، فألقى الله فى قلب بختنصر أن يغزوهم ، فجهز لهم جيشا ، فقاتلوهم فهزموا جيشه فرجعوا منهزمين اليه ، فجهز اليهم جيشا آخرأ كثف من الأول ، فهزموهم أيضا . فلما رأى بختنصرذلك غزاهم هو بنفسه ، فقاتلوهم فهزمهم حتى خرجوا منها يركضون ، فسمعوا مناديا يقول (لاتركضوا وارجعوا إلى ماأترفتم فيه ومساكنكم) فرجعوا ، فسمعوا صوتا مناديا يقول : ياثارات النبى فقتلوا بالسيف ، فهى التى قال الله ، وكم قصمنا من قرية إلى قوله خامدين * قلت وقرى حضور معروفة الآن . بينها و بين مدينة صنعاء نحو بريد فى جهة الغرب منها . وأخرج ابن المنذرعن ابن عباس فى قوله (حصيدا خامدين) قال كخمود النار إذاطفئت . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله (لو أردنا أن نتخذ لهوا) قال اللهو

الولد . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن فى قوله (لو أردنا أن نتخذ لهوا) قال النساء . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولايستحسرون) يقول لايرجعون . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (لايسأل عما يفعل) قال بعباده (وهم يسألون) قال عن أعمالهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس قال : مافى الأرض قوم أبغض الىّ من القدرية ، وماذاك إلا أنهم لايعلمون قدرة الله . قال الله (لايسأل عما يفعل وهم يسألون) .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ * وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ *

قوله (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) هؤلاء القائلون هم خزاعة ، فإنهم قالوا الملائكة بنات الله ، وقيل هم اليهود ، و يصح حمل الآية على كل من جعل لله ولدا . وقد قالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله . وقالت طائفة من العرب الملائكة بنات الله . ثم نزه عز وجلّ نفسه ، فقال (سبحانه) أى تنزيها له عن ذلك ، وهو مقول على ألسنة العباد . ثم أضرب عن قولهم وأبطله ، فقال (بل عباد مكرمون) أى ليسوا كما قالوا ، بل هم عباد الله سبحانه مكرمون بكرامته لهم ، مقرّبون عنده . وقرئ مكرمون بالتشديد ، وأجاز الزجاج والفراء نصب عباد على معنى : بل اتخذ عبادا ، ثم وصفهم بصفة أخرى فقال (لايسبقونه بالقول) أى لايقولون شيئا حتى يقوله ، أو يأمرهم به . كذا قال ابن قتيبة وغيره ، وفى هذا دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم . وقرئ لايسبقونه بضم الباء من سبقته أسبقه (وهم بأمره يعملون) أى هم العاملون بما يأمرهم الله به ، التابعون له المطيعون لربهم (يعلم مابين أيديهم وماخلفهم) هذه الجملة تعليل لما قبلها : أى يعلم ماعملوا وماهم عاملون ، أو يعلم مابين أيديهم وهو الآخرة ، وما خلفهم وهو الدنيا ، ووجه التعليل أنهم إذا علموا بأنه عالم بما قدموا وأخروا ، لم يعملوا عملا ولم يقولوا قولا إلا بأمره (ولايشفعون الا لمن ارتضى) أن يشفع الشافعون له ، وهو من رضى عنه ، وقيل هم أهل لا إله إلا الله ، وقد ثبت فى الصحيح أن الملائكة يشفعون فى الدار الآخرة (وهم من خشيته مشفقون) أى من خشيتهم منه ، فالمصدر مضاف إلى المفعول ، والخشية الخوف مع التعظيم ، والاشفاق الخوف مع التوقع والحذر : أى لايأمنون مكر الله (ومن يقل منهم إنى إله من دونه) أى من يقل من الملائكة إنى إله من دون الله . قال المفسرون : عنى بهذا ابليس ، لأنه لم يقل أحد من الملائكة إنى إله الا إبليس . وقيل

الاشارة الى جميع الأنبياء (فذلك نجزيه جهنم) أى فذلك القائل على سبيل الفرض والتقدير نجزيه جهنم بسبب هذا القول الذى قاله ، كما نجزى غيره من المجرمين (كذلك نجزى الظالمين) أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى الظالمين . أو مثل ماجعلنا جزاء هذا القائل جهنم . فكذلك نجزى الظالمين الواضعين الالهية والعبادة فى غير موضعها . والمراد بالظالمين المشركون (أولم ير الذين كفروا) الهمزة للانكار ، والواو للعطف على مقدر ، والرؤية هى القلبية : أى ألم يتفكروا أو لم يعلموا (أن السموات والأرض كانتا رتقا) قال الأخفش ، انما قال كانتا ، لأنهما صنفان ، أى جماعتا السموات والأرضين . كما قال سبحانه ــ ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ــ وقال الزجاج ، إنما قال كانتا لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد ، لأن السموات كانت سماء واحدة ، وكذلك الأرضون ، والرتق السد ضد الفتق : يقال : رتقت الفتق أرتقه فارتتق : أى التأم ، ومنه الرتقاء لمنضمة الفرج : يعنى أنهما كانتا شيئا واحدا ملتزقتين ففصل الله بينهما ، وقال رتقا ولم يقل رتقين ، لأنه مصدر ، والتقدير كانتا ذواتى رتق ، ومعنى (ففتقناهما) ففصلناهما : أى فصلنا بعضهما من بعض ، فرفعنا السماء ، وأبقينا الأرض مكانها (وجعلنا من الماء كل شىء حى) أى أحيينا بالماء الذى ننزله من السماء كل شىء ، فيشمل الحيوان والنبات ، والمعنى أن الماء سبب حياة كل شىء . وقيل المراد بالماء هنا النطفة ، وبه قال أكثر المفسرين ، وهذا احتجاج على المشركين بقدرة الله سبحانه وبديع صنعه ، وقد تقدم تفسير هذه الآية ، والهمزة فى (أفلا يؤمنون) للانكار عليهم . حيث لم يؤمنوا مع وجود مايقتضيه من الآيات الربانية (وجعلنا فى الأرض رواسى) أى جبالا ثوابت (أن تميد بهم) الميد التحرك والدوران : أى لئلا تتحرك وتدور بهم ، أو كراهة ذلك ، وقد تقدم تفسير ذلك فى النحل مستوفى (وجعلنا فيها) أى فى الرواسى ، أو فى الأرض (فجاجا) قال أبو عبيدة : هى المسالك . وقال الزجاج : كل مخترق بين جبلين فهو فج و (سبلا) تفسير للفجاج ، لأن الفج قد لا يكون طريقا نافذا مسلوكا (لعلهم يهتدون) إلى مصالح معاشهم ، وما تدعو اليه حاجاتهم (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) عن أن يقع ويسقط على الأرض كقوله ــ ويمسك السماء أن تقع على الأرض ــ وقال الفراء : محفوظا بالنجوم من الشيطان . كقوله ــ وحفظناها من كل شيطان رجيم ــ وقيل محفوظا لايحتاج الى عماد ، وقيل المراد بالمحفوظ هنا المرفوع ، وقيل محفوظا عن الشرك والمعاصى ، وقيل محفوظا عن الهدم والنقض (وهم عن آياتها معرضون) أضاف الآيات الى السماء ، لانها مجعولة فيها ، وذلك كالشمس والقمر ونحوهما . ومعنى الاعراض أنهم لايتدبرون فيها ، ولايتفكرون فيما توجبه من الايمان (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر) هذا تذكير لهم بنعمة أخرى مما أنعم به عليهم ، وذلك بأنه خلق لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليتصرفوا فيه فى معايشهم ، وخلق الشمس والقمر أى جعل الشمس آية النهار ، والقمر آية الليل ، ليعلموا عدد الشهور والحساب . كما تقدم بيانه فى سبحان (كل فى فلك يسبحون) أى كل واحد من الشمس والقمر والنجوم فى فلك يسبحون : أى يجرون فى وسط الفلك ، ويسيرون بسرعة كالسابح فى الماء ، والجمع فى الفعل باعتبار المطالع ، قال سيبويه : انه لما أخبر عنهن بفعل من يعقل ، وجعلهن فى الطاعة بمنزلة من يعقل ، جعل الضمير عنهن ضمير العقلاء ، ولم يقل يسبحن أوتسبح ، وكذاقال الفراء ، وقال الكسائى انما قال يسبحون لأنه رأس آية ، والفلك واحد أفلاك النجوم ، وأصل الكلمة من الدوران ، ومنه فلك المغزل لاستدارتها (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) أى دوام البقاء فى الدنيا (أفإن مت) بأجلك المحتوم (فهم الخالدون) أى أفهم الخالدون ، قال الفراء ، جاء بالفاء لتدل على الشرط لانه جواب قولهم سيموت . قال ويجوز حذف الفاء واضمارها ، والمعنى

ان

ان مت فهم يموتون أيضا ، فلا شماتة فى الموت ، وقرئ مت بكسر الميم وضمها لغتان . وكان سبب نزول هذه الآية قول المشركين فيما حكاه الله عنهم ـ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ـ (كل نفس ذائقة الموت) أى ذائقة مفارقة جسدها ، فلا يبقى أحد من ذوات الأنفس المخلوقة كائنا ما كان (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) أى نختبركم بالشدة والرخاء ، لننظر كيف شكركم وصبركم . والمراد أنه سبحانه يعاملهم معاملة من يبلوهم ، وفتنة مصدر لنبلوكم من غير لفظه (وإلينا ترجعون) لا إلى غيرنا فنجازيكم بأعمالكم ان خيرا فخير ، وان شرا فشر .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة . قال : قالت اليهود ان الله عز وجل صاهر الجن ، فكانت بينهم الملائكة ، فقال الله تكذيبا لهم (بل عباد مكرمون) أى الملائكة ليس كما قالوا ، بل عباد أكرمهم بعبادته (لا يسبقونه بالقول) يثنى عليهم (ولا يشفعون) قال لا تشفع الملائكة يوم القيامة (إلا لمن ارتضى) قال لأهل التوحيد . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله الا لمن ارتضى قال لأهل التوحيد لمن رضى عنه . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن فى الآية قال : قول لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن ابن عباس فى الآية قال الذين ارتضاهم لشهادة أن لا إله الا الله . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى البعث عن جابر أن رسول الله ﷺ تلا قوله تعالى «ولا يشفعون الا لمن ارتضى» قال ان شفاعتى لاهل الكبائر من أمتى . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد والحاكم وصححه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (كانتا رتقا ففتقناهما) قال فتقت السماء بالغيث ، وفتقت الأرض بالنبات . وأخرج ابن أبى حاتم عنه كانتا رتقا قال لا يخرج منهما شيء ، وذكر مثل ما تقدم . وأخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية عنه أيضا من طريق أخرى . وأخرج ابن جرير عنه كانتا رتقا قال ملتصقتين . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى العالية فى قوله (وجعلنا من الماء كل شيء حى) قال نطفة الرجل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس (وجعلنا فيها فجاجا سبلا) قال بين الجبال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (كل فى فلك) قال دوران (يسبحون) قال يجرون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عنه كل فى فلك قال : فلك كفلكة المغزل يسبحون قال يدورون فى أبواب السماء . كما تدور الفلكة فى المغزل . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا ، قال هو فلك السماء . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن عائشة . قال دخل أبو بكر على النبى ﷺ وقد مات فقبله . وقال : وانبياه واخليلاه واصفياه . ثم تلا (وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد) الآية : وقوله ـ انك ميت وانهم ميتون ـ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) قال نبتليكم بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية والهدى والضلالة .

وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ
الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ * خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ * وَيَقُولُونَ مَتَىٰ
هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ

XXI - ٩٤١٣ - ٣٩٩

وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمٰنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ *

قوله (وإذ رآك الذين كفروا) يعنى المستهزئين من المشركين (ان يتخذونك الاهزوا) أى مايتخذونك الاهزوا بك ، والهزو السخرية ، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم ـ إنا كفيناك المستهزئين ـ والمعنى مايفعلون بك الااتخاذك هزوا (أهذا الذى يذكر آلهتكم) هو على تقدير القول : أى يقولون أهذا الذى ، فعلى هذا هو جواب اذا ، ويكون قوله (ان يتخذونك الا هزوا) اعتراضا بين الشرط وجوابه ، ومعنى يذكرها يعيبها . قال الزجاج : يقال فلان يذكر الناس : أى يغتابهم ، ويذكرهم بالعيوب ، وفلان يذكر الله : أى يصفه بالتعظيم ويثنى عليه ، وإنما يحذف مع الذكر ماعقل معناه ، وعلى ماقالوا لايكون الذكر فى كلام العرب العيب ، وحيث يراد به العيب يحذف منه السوء ، قيل ومن هذا قول عنترة :

لاتذكرى مهرى وماأطعمته * فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

أى لاتعيبى مهرى ، وجملة (وهم بذكر الرحمن هم كافرون) فى محل نصب على الحال : أى وهم بالقرآن كافرون ، أوهم بذكر الرحمن الذى خلقهم كافرون * والمعنى : أنهم يعيبون على النبى ﷺ أن يذكر آلهتهم التى لاتضر ولاتنفع بالسوء ، والحال أنهم بذكر الله سبحانه بما يليق به من التوحيد ، أو بالقرآن كافرون ، فهم أحق بالعيب لهم ، والانكار عليهم ، فالضمير الأوّل مبتدأ خبره كافرون ، وبذكر متعلق بالخبر ، والضمير الثانى تأكيد (خلق الانسان من عجل) أى جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من العجل . قال الفراء : كأنه يقول بنيته وخلقته من العجلة وعلى العجلة ، وقال الزجاج خوطبت العرب بما تعقل ، والعرب تقول للذى يكثر منه الشىء خلقت منه . كما تقول : أنت من لعب ، وخلقت من لعب ، تريد المبالغة فى وصفه بذلك . ويدل على هذا المعنى قوله ـ وكان الانسان عجولا ـ والمراد بالانسان الجنس ، وقيل المراد بالانسان آدم ، فانه لما خلقه الله ونفخ فيه الروح صار الروح فى رأسه ، فذهب لينهض قبل أن تبلغ الروح الى رجليه فوقع ، فقيل خلق الأنسان من عجل كذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والسدّى والكلبى ومجاهد ، وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعانى ، العجل الطين بلغة حمير . وأنشدوا :

* والنخل تنبت بين الماء والعجل * وقيل ان هذه الآية نزلت فى النضر بن الحارث ، وهو القائل ـ اللهمّ إن كان هذا هو الحق من عندك ـ وقيل : نزلت فى قريش لأنهم استعجلوا العذاب ، وقال الأخفش : معنى خلق الانسان من عجل أنه قيل له كن فكان ، وقيل ان هذه الآية من المقلوب : أى خلق العجل من الانسان * وقد حكى هذا عن أبى عبيدة والنحاس ، والقول الأوّل أولى (سأوريكم آياتى) أى سأريكم نقماتى منكم بعذاب النار (فلا تستعجلون) أى لاتستعجلونى بالاتيان به ، فانه نازل بكم لامحالة : وقيل المراد بالآيات مادل على صدق محمد ﷺ من المعجزات وماجعله الله له من العاقبة المحمودة ، والأوّل أولى ، ويدل عليه قولهم (متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) أى متى حصول هذا الوعد ، الذى تعدنا به من العذاب ، قالوا ذلك على جهة الاستهزاء

والسخرية

والسخرية ، وقيل المراد بالوعد هنا القيامة ، ومعنى (إن كنتم صادقين) إن كنتم يامعشر المسلمين صادقين فى وعدكم ، والخطاب للنبى ﷺ وللمؤمنين الذين يتلون الآيات القرآنية المنذرة بمجىء الساعة وقرب حضور العذاب ، وجملة (لو يعلم الذين كفروا) وما بعدها مقررة لما قبلها : أى لوعرفوا ذلك الوقت ، وجواب لو محذوف ، والتقدير لو علموا الوقت الذى (لايكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولاهم ينصرون) لما استعجلوا الوعيد ، وقال الزجاج : فى تقدير الجواب لعلموا صدق الوعد ، وقيل لو علموه ماأقاموا على الكفر ، وقال الكسائى : هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة : أى لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية ، ويدل عليه ، قوله (بل تأتيهم بغتة) وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما أشهر الجوانب فى إستلزام الاحاطة بها للاحاطة بالكل بحيث لايقدرون على دفعها من جانب من جوانبهم ، ومحل حين لايكفون النصب على أنه مفعول العلم ، وهو عبارة عن الوقت الموعود الذى كانوا يستعجلونه ، ومعنى ولاهم ينصرون ولا ينصرهم أحد من العباد فيدفع ذلك عنهم ، وجملة بل تأتيهم بغتة معطوفة على يكفون : أى لا يكفونها بل تأتيهم العدة ، أو النار ، أو الساعة بغتة : أى فجأة (فتبهتهم) قال الجوهرى : بهته بهتا أخذه بغتا ، وقال الفراء فتبهتهم أى تحيرهم ، وقيل فتفجؤهم (فلا يستطيعون ردّها) أى صرفها عن وجوههم ولا عن ظهورهم ، فالضمير راجع إلى النار ، وقيل راجع إلى الوعد بتأويله بالعدة ، وقيل راجع إلى الحين بتأويله بالساعة (ولاهم ينظرون) أى يمهلون و يؤخرون لتوبة واعتذار ، وجملة (ولقد استهزئ برسل من قبلك) مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ وتعزيته ، كأنه قال : ان استهزأ بك هؤلاء فقد فعل ذلك بمن قبلك من الرسل على كثرة عددهم وخطر شأنهم (فحاق بالذين سخروا منهم) أى أحاط ودار بسبب ذلك بالذين سخروا من أولئك الرسل وهزئوا بهم (ما كانوا به يستهزئون) ماموصولة ، أو مصدرية : أى فأحاط بهم الأمر الذى كانوا يستهزئون به ، أو فأحاط بهم استهزاؤهم أى جزاؤه على وضع السبب موضع المسبب ، أو نفس الاستهزاء ، ان أريد به العذاب الأخروى (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) أى يحرسكم ويحفظكم ، والكلاءة الحراسة والحفظ ، يقال : كلأه الله كلاءة بالكسر : أى حفظه وحرسه . قال ابن هرمة :

ان سليمى والله يكلؤها * ضنت بشىء ما كان يرزؤها

أى قل يامحمد لأولئك المستهزئين بطريق التقريع والتوبيخ من يحرسكم ويحفظكم بالليل والنهار من بأس الرحمن وعذابه الذى تستحقون حلوله بكم ونزوله عليكم ؟ وقال الزجاج : معناه من يحفظكم من بأس الرحمن ، وقال الفراء : المعنى من يحفظكم مما يريد الرحمن إنزاله بكم من عقوبات الدنيا والآخرة ، وحكى الكسائى والفراء : من يكلوكم بفتح اللام ، وإسكان الواو (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) أى عن ذكره سبحانه فلا يذكرونه ولايخطرونه ببالهم ، بل يعرضون عنه ، أوعن القرآن ، أو عن مواعظ الله ، أو عن معرفته (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) أم هى المنقطعة التى بمعنى بل ، والهمزة للاضراب والانتقال عن الكلام السابق المشتمل على بيان جهلهم بحفظه سبحانه إياهم إلى توبيخهم وتقريعهم باعتمادهم على من هو عاجز عن نفع نفسه ، والدفع عنها * والمعنى بل لهم آلهة تمنعهم من عذابنا ، وقيل فيه تقديم وتأخير ، والتقدير ام لهم آلهة من دوننا تمنعهم ، ثم وصف آلهتهم هذه التى زعموا أنها تنصرهم بما يدل على الضعف ، والعجز ، فقال (لايستطيعون نصر أنفسهم ولاهم منا يصحبون) أى هم عاجزون عن نصر أنفسهم فكيف يستطيعون أن ينصروا غيرهم ولاهم منا يصحبون أى ولاهم يجارون من عذابنا . قال ابن قتيبة : أى لايجيرهم منا أحد ، لأن المجير صاحب الجار ، والعرب تقول صحبك الله : أى حفظك

XXI. 45-51

وأجارك ، ومنه قول الشاعر :

ينادى بأعلى صوته متعوّذا ◈ ليصحب منا والرماح دوانى

تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان : أى مجير منه . قال المازنى : هو من أصحبت الرجل إذا منعته . وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال « مرّ النبىّ ﷺ على أبى سفيان وأبى جهل وهما يتحدّثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك ، وقال لأبى سفيان هذا نبىّ بنى عبد مناف ، فغضب أبو سفيان ، فقال ماتنكرون أن يكون لبنى عبدمناف نبىّ ، فسمعها النبىّ ﷺ ، فرجع إلى أبى جهل فوقع به وخوّفه ، وقال ماأراك منتهيا حتى يصيبك ماأصاب عمك ، وقال لأبى سفيان : أما انك لم تقل ماقلت الاحمية » فنزلت هذه الآية (وإذا رآك الذين كفروا) ◈ قلت ينظر من الذى روى عنه السدّى ؟ . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : لما نفخ فى آدم الروح صار فى رأسه فعطس ، فقال : الحمد لله ، فقالت الملائكة : يرحمك الله ، فذهب لينهض قبل أن تمور فى رجليه فوقع ، فقال الله (خلق الانسان من عجل) وقد أخرج نحو هذا ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير . وأخرج نحوه أيضا ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن مجاهد ، وكذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (قل من يكلؤكم) قال : يحرسكم ، وفى قوله (ولاهم منا يصحبون) قال لاينصرون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ولاهم منا يصحبون قال لايجارون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى الآية : قال لايمنعون .

بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ◈ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ◈ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ◈ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ◈ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ◈ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ◈ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ◈ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ◈ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ◈ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ◈ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ◈ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ◈ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ◈

لما أبطل كون الأصنام نافعة أضرب عن ذلك منتقلا إلى بيان أن ماهم فيه من الخير ، والتمتع بالحياة العاجلة هو من الله ؛ لامن مانع يمنعهم من الهلاك ، ولا من ناصر ينصرهم على أسباب التمتع ، فقال (بل متعنا هؤلاء وآباءهم) يعنى أهل مكة متعهم الله بما أنعم عليهم (حتى طال عليهم العمر) فاغترّوا بذلك وظنوا أنهم لايزالون كذلك ، فردّ سبحانه عليهم قائلا (أفلا يرون) أى أفلا ينظرون فيرون (أنا نأتى

الأرض ننقصها من أطرافها) أى أرض الكفر ننقصها بالظهور عليها من أطرافها فنفتحها بلدا بعد بلد وأرضا بعد أرض ، وقيل ننقصها بالقتل والسبى ، وقد مضى فى الرعد الكلام على هذا مستوفى ، والاستفهام فى قوله (أفهم الغالبون) للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره : أى كيف يكونون غالبين بعد نقصنا لأرضهم من أطرافها ؟ وفى هذا إشارة إلى أن الغالبين هم المسلمون (قل إنما أنذركم بالوحى) أى أخوّفكم وأحذركم بالقرآن ، وذلك شأنى وما أمرنى الله به ، وقوله (ولا يسمع الصمّ الدعاء) إما من تتمة الكلام الذى أمر النبىّ ﷺ أن يقوله لهم ، أو من جهة الله تعالى * والمعنى أن من أصمّ الله سمعه وختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة لا يسمع الدعاء ، قرأ أبو عبد الرحمن السلمى ومحمد ابن السميقع ولا يسمع بضم الياء وفتح الميم على ما لم يسم فاعله ، وقرأ ابن عامر وأبو حيوة ويحيى بن الحارث بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الميم : أى انك يا محمد لا تسمع هؤلاء . قال أبو على الفارسى : ولو كان كما قال ابن عامر لكان إذا ما تنذرهم فيحسن نظم الكلام ، فأما (اذا ما ينذرون) فحسن أن يتبع قراءة العامة ، وقرأ الباقون بفتح الياء وفتح الميم ، ورفع الصم على أنه الفاعل (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك) المراد بالنفحة القليل ، مأخوذ من نفح المسك . قاله ابن كيسان ، ومنه قول الشاعر :

وعمرة من سروات النسا * ء تنفح بالمسك أردانها

وقال المبرد : النفحة الدفعة من الشىء التى دون معظمه ، يقال نفحه نفحة بالسيف اذا ضربه ضربة خفيفة ، وقيل هى النصيب ، وقيل هى الطرف * والمعنى متقارب : أى ولئن مسهم أقلّ شىء من العذاب (ليقولنّ ياويلنا إنا كنا ظالمين) أى ليدعون على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفون عليها بالظلم (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) الموازين جمع ميزان ، وهو يدلّ على أنّ هناك موازين ، ويمكن أن يراد ميزان واحد ، عبر عنه بلفظ الجمع ، وقد ورد فى السنة فى صفة الميزان ما فيه كفاية ، وقد مضى فى الأعراف ، وفى الكهف فى هذا ما يغنى عن الاعادة ، والقسط صفة للموازين . قال الزجاج : قسط مصدر يوصف به تقول : ميزان قسط وموازين قسط * والمعنى ذوات قسط ، والقسط العدل . وقرئ القصط بالصاد والطاء ، ومعنى ليوم القيامة لأهل يوم القيامة ، وقيل اللام بمعنى فى : أى فى يوم القيامة (فلا تظلم نفس شيئا) أى لا ينقص من احسان محسن ولا يزاد فى اساءة مسىء (وان كان مثقال حبة من خردل) قرأ نافع وشيبة وأبو جعفر برفع مثقال على أن كان تامة : أى ان وقع أو وجد مثقال حبة ، وقرأ الباقون بنصب المثقال على تقدير وان كان العمل المدلول عليه بوضع الموازين مثقال حبة ، كذا قال الزجاج ، وقال أبو علىّ الفارسى وان كان الظلامة مثقال حبة . قال الواحدى : وهذا أحسن لتقدّم قوله : فلا تظلم نفس شيئا ، ومثقال الشىء ميزانه : أى وان كان فى غاية الخفة والحقارة ، فان حبة الخردل مثل فى الصغر (أتينا بها) قرأ الجمهور بالقصر : أى أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها ، وبها : أى بحبة الخردل ، وقرأ مجاهد وعكرمة آتينا بالمدّ على معنى جازينا بها ، يقال آتى يؤاتى مؤاتاة جازى (وكفى بنا حاسبين) أى كفى بنا محصين ، والحسب فى الأصل معناه العدّ ، وقيل كفى بنا عالمين ، لأن من حسب شيئا علمه وحفظه ، وقيل كفى بنا مجازين على ما قدّموه من خير وشرّ ، ثم شرع سبحانه فى تفصيل ما أجمله سابقا بقوله : ـ وما أرسلنا قبلك الا رجالا يوحى اليهم ـ فقال (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين) المراد بالفرقان هنا التوراة ، لأن فيها الفرق بين الحلال والحرام ، وقيل الفرقان هنا هو النصر على الأعداء كما فى قوله ـ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ـ . قال الثعلبى : وهذا القول أشبه بظاهر الآية ، ومعنى وضياء أنهم استضاءوا بها فى ظلمات الجهل والغواية ، ومعنى وذكرا الموعظة : أى انهم يتعظون بما فيها ، وخصّ المتقين لأنهم

الذين ينتفعون بذلك ، ووصفهم بقوله (الذين يخشون ربهم بالغيب) لأن هـذه الخشية تلازم التقوى ويجوز أن يكون الموصول بدلا من المتقين أو بيانا له ، ومحل بالغيب النصب على الحال : أى يخشون عذابه وهو غائب عنهم ، أو هم غائبون عنه ، لأنهم فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة ، وقرأ ابن عباس وعكرمة ضياء بغير واو . قال الفراء : حذف الواو والمجىء بها واحد ، واعترضه الزجاج بأن الواو تجىء لمعنى فلاتزاد (وهم من الساعة مشفقون) أى وهم من القيامة خائفون وجلون ، والاشارة بقوله (وهـذا ذكر مبارك) إلى القرآن . قال الزجاج : المعنى وهـذا القرآن ذكر لمن تذكر به وموعظة لمن اتعظ به ، والمبارك كثير البركة والخير * وقوله (أنزلناه) صفة ثانية للذكر ، أوخبر بعدخبر ، والاستفهام فى قوله (أفأنتم له منكرون) للانكار لما وقع منهم من الانكار : أى كيف تنكرون كونه منزلا من عندالله مع اعترافكم بأن التوراة منزلة من عنـده (ولقد آتينا ابراهيم رشده) أى الرشد اللائق به و بأمثاله من الرسل ، ومعنى (من قبل) أنه أعطى رشده قبل إيتاء موسى وهرون التوراة ، وقال الفراء : المعنى أعطيناه هداه من قبل النبوة : أى وفقناه للنظر والاستدلال لما جنّ عليه الليل فرأى الشمس والقمر والنجم ، وعلى هذا أكثر المفسرين ، و بالأول قال أقلهم (وكنابه عالمين) أنه موضع لايتاء الرشد ، وأنه يصلح لذلك ، والظرف فى قوله (إذ قال لأبيه) متعلق بآتينا أو بمحذوف : أى اذكر حين قال ، وأبوه هو آزر (وقومه) نمروذ ومن اتبعه ، والتماثيل الأصنام ، وأصل التمثال الشىء المصنوع مشابها لشىء من مخلوقات الله سبحانه ، يقال مثلت الشىء بالشىء : اذا جعلته مشابها له ، واسم ذلك الممثل تمثال ، أنكر عليهم عبادتها بقوله (ماهـذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) والعكوف عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشىء ، واللام فى لها للاختصاص ، ولو كانت للتعدية لجىء بكلمة على : أى ماهذه الأصنام التى أنتم مقيمون على عبادتها ؟ وقيل ان العكوف مضمن معنى العبادة (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) أجابوه بهذا الجواب الذى هو العصا التى يتوكأ عليها كل عاجز ، والحبل الذى يتشبث به كل غريق ، وهو التمسك بمجرّد تقليد الآباء : أى وجدنا آباءنا يعبدونها فعبدناها اقتداء بهم ومشيا على طريقتهم ، وهكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملة الاسلامية ، فان العالم بالكتاب والسنة اذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأى المدفوع بالدليل قالوا هذا قد قال به امامنا الذى وجدنا آباءنا له مقلدين و برأيه آخذين ، وجوابهم هو ماأجاب به الخليل ها هنا (قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) أى فى خسران واضح ظاهر لايخفى على أحد ولا يلتبس على ذى عقل ، فان قوم ابراهيم عبدوا الأصنام التى لاتضرّ ولاتنفع ولا تسمع ولاتبصر ، وليس بعد هذا الضلال ضلال ، ولا يساوى هذا الخسران خسران ، وهؤلاء المقلدة من أهل الاسلام استبدلوا بكتاب الله و بسنة رسوله كتابا قد دوّنت فيـه اجتهادات عالم من علماء الاسلام زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها ، إما لقصور منه ، أو لتقصير فى البحث فوجد ذلك الدليل من وجده وأبرزه واضح المنار * كأنه علم فى رأسه نار * وقال هذا كتاب الله أو هذه سنة رسوله ، وأنشدهم :

دعوا كل قول عند قول محمد * فما آمن فى دينه كمخاطر

فقالوا كما قال الأول .

وما أنا إلا من غزية ان غوت * غويت وان ترشد غزية أرشد

وقد أحسن من قال :

يأبى الفتى الا اتباع الهوى * ومنهج الحقّ له واضح

ثم لما سمع أولئك مقالة الخليل (قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين) أى أجادّ أنت فيما تقول أم

أنت

أنت لاعب مازح (قال) مضربا عما بنوا عليه مقالتهم من التقليد (بل ربكم ربّ السموات والأرض الذى فطرهنّ) أى خلقهنّ وأبدعهنّ (وأنا على ذلكم) الذى ذكرته لكم من كون ربكم هو ربّ السموات والأرض دون ماعداه (من الشاهدين) أى العالمين به المبرهنين عليه ، فإن الشاهد على الشيء هو من كان عالما به مبرهنا عليه مبينا له .

وقد أخرج أحمد والترمذى وابن جرير فى تهذيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن عائشة «أن رجلا قال يارسول الله ان لى مملوكين يكذبوننى ويخونوننى ويعصوننى وأضربهم وأشتمهم فكيف أنا منهم ؟ فقال له رسول الله ﷺ يحسب ماخانوك وعصوك وكذبوك وعقابك اياهم فان كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك ، وان كان عقابك اياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا لاعليك ولالك ، وان كان عقابك اياهم فوق ذنوبهم اقتصّ لهم منك الفضل ، فجعل الرجل يبكى ويهتف فقال رسول الله ﷺ أما تقرأ كتاب الله (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) فقال له الرجل : يارسول الله ماأجد لى ولهم خيرا من مفارقتهم أشهدك أنهم أحرار » رواه أحمد هكذا : حدّثنا أبو نوح قراد أخبرنا ليث بن سعد عن مالك ابن أنس عن الزهرى عن عروة عن عائشة فذكره ، وفى معناه أحاديث . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان يقرأ (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان ضياء) . وأخرج عبد بن حميد عن أبى صالح ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان قال التوراة . وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : الفرقان الحقّ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة : وهذا ذكر مبارك : أى القرآن . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ولقد آتينا ابراهيم رشده قال : هديناه صغيرا ، وفى قوله : ماهذه التماثيل قال : الأصنام .

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ الظَّـٰلِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوٓا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّـٰلِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓا ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ * قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ الْأَخْسَرِينَ *

قوله (وتالله لأكيدنّ أصنامكم) أخبرهم أنه سينتقل من المحاجة باللسان الى تغيير المنكر بالفعل ثقة بالله سبحانه ومحاماة على دينه . والكيد المكر : يقال كاده يكيده كيدا ومكيدة ، والمراد هنا الاجتهاد فى كسر الأصنام : قيل انه عليه الصلاة والسلام قال ذلك سرّا ، وقيل سمعه رجل منهم (بعد أن تولوا مدبرين) أى بعد أن ترجعوا من عبادتها ذاهبين منطلقين . قال المفسرون كان لهم عيد فى كل سنة

يجتمعون فيه ، فقالوا لابراهيم : لو خرجت معنا الى عيدنا أعجبك ديننا ، فقال ابراهيم هذه المقالة ، والفاء فى قوله (فجعلهم جذاذا) فصيحة : أى فولوا ، فجعلهم جذاذا : الجذّ القطع والكسر : يقال جذذت الشيء قطعته وكسرته : الواحد جذاذة ، والجذاذ والجذاذ ما كسر منه . قال الجوهرى قال الكسائى ويقال لحجارة الذهب الجذاذ ، لأنها تكسر . قرأ الكسائى والأعمش وابن محيصن جذاذا بكسر الجيم : أى كسرا وقطعا ، جمع جذيذ ، وهو الهشيم ، مثل خفيف وخفاف ، وظريف وظراف . قال الشاعر :

جذذ الأصنام فى محرابها ⁂ ذاك فى الله العلىّ المقتدر

وقرأ الباقون بالضم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم : أى الحطام والرقق ، فعال بمعنى مفعول ، وهذا هو الكيد الذى وعدهم به . وقرأ ابن عباس وأبو السماك جذاذا بفتح الجيم (الا كبيرا لهم) أى للأصنام (لعلهم اليه) أى الى ابراهيم (يرجعون) فيحاجهم بما سيأتى فيحجهم ، وقيل لعلهم الى الصنم الكبير يرجعون ، فيسألونه عن الكاسر ، لان من شأن المعبود أن يرجع اليه فى المهمات فاذا رجعوا اليه لم يجدوا عنده خبرا ، فيعلمون حينئذ أنها لا تجلب نفعا ولا تدفع ضررا ، ولا تعلم بخير ولا شرّ ، ولا تخبر عن الذى ينوبها من الأمر ، وقيل لعلهم الى الله يرجعون ، وهو بعيد جدّا (قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين) فى الكلام حذف ، والتقدير : فلما رجعوا من عيدهم ورأوا ما حدث بآلهتهم قالوا هذه المقالة ، والاستفهام للتوبيخ ، وقيل ان من ليست استفهامية ، بل هى مبتدأ وخبرها انه لمن الظالمين : أى فاعل هذا ظالم ، والأول أولى لقولهم (سمعنا فتى) الخ فانه قال بهذا بعضهم مجيبا للمستفهمين لهم ، وهذا القائل هو الذى سمع ابراهيم يقول : تالله لأكيدنّ أصنامكم ، ومعنى (يذكرهم) يعيبهم ، وقد سبق تحقيق مثل هذه العبارة ، وجملة (يقال له ابراهيم) صفة ثانية لفتى . قال الزجاج : وارتفع ابراهيم على معنى : يقال له هو ابراهيم ، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف ، وقيل ارتفاعه على أنه مفعول مالم يسمّ فاعله ، وقيل مرتفع على النداء .

ومن غرائب التدقيقات النحوية ، وعجائب التوجيهات الاعرابية ، أن الأعلم الشنتمرى الأشبيلى ، قال انه مرتفع على الاهمال . قال ابن عطية ذهب الى رفعه بغير شيء ، والفتى : هو الشاب ، والفتاة الشابة (قالوا فأتوا به على أعين الناس) القائلون هم السائلون ، أمروا بعضهم أن يأتى به ظاهرا بمرأى من الناس ، قيل انه لما بلغ الخبر نمروذ وأشراف قومه كرهوا أن يأخذوه بغير بينة ، فقالوا هذه المقالة ، ليكون ذلك حجة عليه يستحلون بها منه ما قد عزموا على أن يفعلوه به ، ومعنى (لعلهم يشهدون) لعلهم يحضرون عقابه حتى ينزجر غيره عن الاقتداء به فى مثل هذا ، وقيل لعلهم يشهدون عليه بأنهم رأوه يكسر الأصنام ، أولعلهم يشهدون طعنه على أصنامهم ، وجملة (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم) مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، وفى الكلام حذف تقديره ، فجاء إبراهيم حين أتوا به فاستفهموه هل فعل ذلك لاقامة الحجة عليه فى زعمهم (قال بل فعله كبيرهم هذا) أى قال ابراهيم مقيما للحجة عليهم مبكتا لهم ، بل فعله كبيرهم هذا مشيرا الى الصنم الذى تركه ولم يكسره (فاسألوهم ان كانوا ينطقون) أى ان كانوا ممن يمكنه النطق ويقدر على الكلام ويفهم ما يقال له ، فيجيب عنه بما يطابقه ، أرادعليه الصلاة والسلام أن يبين لهم أن من لايتكلم ولايعلم ليس بمستحق للعبادة ، ولا يصح فى العقل أن يطلق عليه أنه إله ، فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم فى الاعتراف بأن الجمادات التى عبدوها ليست بآلهة ، لأنهم اذا قالوا انهم لا ينطقون ، قال لهم فكيف تعبدون من يعجز عن النطق ؟ ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده فى المكان الذى هو فيه : فهذا الكلام من باب فرض

الباطل مع الخصم حتى تلزمه الحجة ويعترف بالحق ، فان ذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرته ، وقيل أراد إبراهيم عليه السلام بنسبة الفعل الى ذلك الكبير من الأصنام أنه فعل ذلك لأنه غار وغضب من أن يعبد وتعبد الصغار معه إرشادا لهم الى أن عبادة هذه الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تدفع لا تستحسن فى العقل مع وجود خالقها وخالقهم ، والأوّل أولى . وقرأ ابن السميفع بل فعله بتشديد اللام على معنى بل فلعل الفاعل كبيرهم ‌(فرجعوا الى أنفسهم) أى رجع بعضهم الى بعض رجوع المنقطع عن حجته المتفطن لصحة حجة خصمه المراجع لعقله ، وذلك أنهم تنبهوا وفهموا عند هذه المقاولة بينهم وبين إبراهيم أن من لا يقدر على دفع المضرّة عن نفسه ولا على الاضرار بمن فعل به ما فعله ابراهيم بتلك الأصنام يستحيل أن يكون مستحقا للعبادة . ولهذا (قالوا إنكم أنتم الظالمون) أى قال بعضهم لبعض أنتم الظالمون لأنفسكم بعبادة هذه الجمادات ، وليس الظالم من نسبتم الظلم اليه بقولكم : إنه لمن الظالمين (ثم نكسوا على رءوسهم) أى رجعوا الى جهلهم وعنادهم ، شبه سبحانه عودهم الى الباطل بصيرورة أسفل الشىء أعلاه ، وقيل المعنى أنهم طأطؤا رءوسهم خجلة من ابراهيم ، وهو ضعيف لأنه لم يقل نكسوا رءوسهم بفتح الكاف واسناد الفعل اليهم حتى يصح هذا التفسير ، بل قال نكسوا على رءوسهم ، وقرئ نكّسوا بالتشديد ، ثم قالوا بعد أن نكسوا مخاطبين لابراهيم (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) أى قائلين لابراهيم لقد علمت أن النطق ليس من شأن هذه الأصنام ، ف‍(قال) ابراهيم مبكتا لهم ومزريا عليهم (أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا) من النفع (ولا يضرّكم) بنوع من أنواع الضرر ، ثم تضجر عليه السلام منهم ، فقال (أفّ لكم ولما تعبدون من دون الله) وفى هذا تحقير لهم ولمعبوداتهم واللام فى لكم لبيان المتأفف به : أى لكم ولآلهتكم ، والتأفف صوت يدلّ على التضجر (أفلا تعقلون) أى أليس لكم عقول تتفكرون بها ، فتعلمون هذا الصنع القبيح الذى صنعتموه (قالوا حرّقوه) أى قال بعضهم لبعض لما أعيتهم الحيلة فى دفع ابراهيم ، وعجزوا عن مجادلته ، وضاقت عليهم مسالك المناظرة حرّقوا ابراهيم انصرافا منهم الى طريق الظلم والغشم ، وميلا منهم الى اظهار الغلبة بأىّ وجه كان ، وعلى أىّ أمر اتفق ؛ ولهذا قالوا (وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين) أى انصروها بالانتقام من هذا الذى فعل بها ما فعل : ان كنتم فاعلين للنصر ، وقيل هذا القائل هو نمروذ ، وقيل رجل من الأكراد (قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم) فى الكلام حذف تقديره فأضرموا النار ، وذهبوا بابراهيم اليها ، فعند ذلك قلنا يانار كونى ذات برد وسلام ، وقيل ان انتصاب سلاما على أنه مصدر لفعل محذوف أى وسلمنا سلاما عليه (وأرادوا به كيدا) أى مكرا (فجعلناهم الأخسرين) أى أخسر من كل خاسر ، ورددنا مكرهم عليهم ، فجعلنا لهم عاقبة السوء ، كما جعلنا لابراهيم عاقبة الخير .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال لما خرج قوم إبراهيم الى عيدهم مرّوا عليه ، فقالوا يا إبراهيم : ألا تخرج معنا ، قال انى سقيم ، وقد كان بالأمس ، قال (تالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) فسمعه ناس منهم ، فلما خرجوا انطلق الى أهله ، فأخذ طعاما ، ثم انطلق الى آلهتهم فقرّبه إليهم ، فقال ألا تأكلون ، فكسرها الا كبيرهم ، ثم ربط فى يده الذى كسر به آلهتهم ، فلما رجع القوم من عيدهم دخلوا ، فاذا هم بآلهتهم قد كسرت ، واذا كبيرهم فى يده الذى كسر به الأصنام قالوا من فعل هذا بآلهتنا ، فقال الذين سمعوا ابراهيم ، يقول : تالله لأكيدنّ أصنامكم : سمعنا فتى يذكرهم ، فجادلهم عند ذلك ابراهيم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (جذاذا) قال حطاما . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : فتاتا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه

XXI ٦١-٦٦

أيضا (بل فعله كبيرهم هذا) قال عظيم آلهتهم . وأخرج أبو داود والترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لم يكذب ابراهيم فى شىء قط الا فى ثلاث كلهن فى الله : قوله : إنى سقيم ، ولم يكن سقيما ، وقوله لسارة أختى ، وقوله : بل فعله كبيرهم هذا » وهذا الحديث هو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة بأطول من هذا . وقد روى نحو هذا أبو يعلى من حديث أبى سعيد . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال لما جمع لابراهيم ما جمع ، وألقى فى النار جعل خازن المطر يقول متى أومر بالمطر فأرسله ، فكان أمر الله أسرع . قال الله (كونى بردا وسلاما) فلم يبق فى الأرض نار الا طفئت . وأخرج أحمد وابن ماجه وابن حبان وأبو يعلى وابن أبى حاتم والطبرانى عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال « ان ابراهيم حين ألقى فى النار لم تكن دابة الا تطفىء عنه النار غير الوزغ ، فانه كان ينفخ على ابراهيم ، فأمر رسول الله ﷺ بقتله » . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف وابن المنذر عن ابن عمر ، قال : أوّل كلمة قالها ابراهيم حين ألقى فى النار « حسبنا الله ونعم الوكيل » . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله : يا نار كونى ، قال كان جبريل هو الذى ناداها . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لو لم يتبع بردها سلاما لمات إبراهيم من بردها . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علىّ نحوه . وأخرج ابن جرير عن معتمر بن سليمان التيمى عن بعض أصحابه قال : جاء جبريل الى ابراهيم ، وهو يوثق ليلقى فى النار ، فقال يا ابراهيم ألك حاجة ؟ قال أما اليك فلا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن كعب قال : ما أحرقت النار من ابراهيم الا وثاقه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن المنهال ابن عمرو قال : أخبرت أن ابراهيم ألقى فى النار ، فكان فيها : إما خمسين وإما أربعين ، فقال ما كنت أياما وليالى قط أطيب عيشا إذ كنت فيها وددت أن عيشى وحياتى كلها مثل عيشى إذ كنت فيها .

وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ * وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ * وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ *

قد تقدّم أن لوطا : هو ابن أخى ابراهيم ، فحكى الله سبحانه هاهنا أنه نجى ابراهيم ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ، قال المفسرون : وهى أرض الشام ، وكانا بالعراق ، وسماها سبحانه مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها ، ولأنها معادن الأنبياء ، وأصل البركة ثبوت الخير ، ومنه برك البعير اذا لزم مكانه فلم يبرح ، وقيل الأرض المباركة مكة ، وقيل بيت المقدس ، لأن منها بعث الله أكثر الأنبياء ، وهى أيضا كثيرة الخصب ، وقد تقدّم تفسير العالمين ، ثم قال سبحانه ممتنا على ابراهيم (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة) النافلة الزيادة ، وكان ابراهيم قد سأل الله سبحانه أن يهب له ولدا ، فوهب له إسحاق ،

ثم وهب لإسحاق يعقوب من غير دعاء ، فكان ذلك نافلة : أى زيادة ، وقيل المراد بالنافلة هنا : العطية قاله الزجاج ، وقيل النافلة هنا : ولد الولد ، لأنه زيادة على الولد ، وانتصاب نافلة على الحال . قال الفراء : النافلة يعقوب خاصة ، لأنه ولد الولد (وكلا جعلنا صالحين) أى وكل واحد من هؤلاء الأربعة : ابراهيم ولوط وإسحق ويعقوب ، لا بعضهم دون بعض جعلناه صالحا عاملا بطاعة الله تاركا لمعاصيه ، وقيل المراد بالصلاح هنا النبوّة (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) أى رؤساء يقتدى بهم فى الخيرات وأعمال الطاعات ومعنى بأمرنا : بأمرنا لهم بذلك ، أى بما أنزلنا عليهم من الوحى (وأوحينا إليهم فعل الخيرات) أى أن يفعلوا الطاعات ، وقيل المراد بالخيرات : شرائع النبوّات (وكانوا لنا عابدين) أى كانوا لنا خاصة دون غيرنا مطيعين ، فاعلين لما نأمرهم به ، تاركين ما ننهاهم عنه (ولوطا آتيناه حكما وعلما) انتصاب لوطا بفعل مضمر دلّ عليه قوله آتيناه : أى وآتينا لوطا آتيناه ، وقيل بنفس الفعل المذكور بعده ، وقيل بمحذوف هو اذكر ، والحكم النبوّة ، والعلم المعرفة بأمر الدين ، وقيل الحكم : هو فصل الخصومات بالحق ، وقيل هو الفهم (ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث) القرية هى سدوم كما تقدّم ، ومعنى تعمل الخبائث : يعمل أهلها الخبائث ، فوصفت القرية بوصف أهلها ، والخبائث التى كانوا يعملونها هى اللواطة والضراط وخذف الحصى كما سيأتى ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله (إنهم كانوا قوم سوء فاسقين) أى خارجين عن طاعة الله ، والفسوق الخروج كما تقدّم (وأدخلناه فى رحمتنا) بإنجائنا إياه من القوم المذكورين ، ومعنى فى رحمتنا فى أهل رحمتنا ، وقيل فى النبوّة ، وقيل فى الاسلام ، وقيل فى الجنة (إنه من الصالحين) الذين سبقت لهم منا الحسنى (ونوحا إذ نادى) أى واذكر نوحا إذ نادى ربه (من قبل) أى من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين (فاستجبنا له) دعاءه (فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) أى من الغرق بالطوفان ، والكرب الغمّ الشديد ، والمراد بأهله المؤمنون منهم (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا) أى نصرناه نصرا مستتبعا للانتقام من القوم المذكورين ، وقيل المعنى : منعناه من القوم . وقال أبو عبيدة من بمعنى على ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله (إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) أى لم نترك منهم أحدا ، بل أغرقنا كبيرهم وصغيرهم بسبب إصرارهم على الذنب .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبىّ بن كعب فى قوله (إلى الأرض التى باركنا فيها) قال الشام . وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى مالك نحوه . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : لوط كان ابن أخى إبراهيم . وأخرج ابن جرير عنه (ووهبنا له إسحق) قال ولدا (ويعقوب نافلة) قال ابن الابن . وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحكم نحوه أيضا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ووهبنا له إسحاق ، قال أعطيناه ، ويعقوب نافلة قال عطية .

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ *
فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ *
وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ * وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً
تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ * وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ

XXI. ٤٢-٤٤

لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ * وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ *

قوله (وداود) معطوف على نوحا ومعمول لعامله المذكور ، أو المقدر كما مرّ (وسليمان) معطوف على داود ، والظرف فى (إذ يحكمان) متعلق بما عمل فى داود : أى واذكرهما وقت حكمهما . والمراد من ذكرهما ذكر خبرهما . ومعنى (فى الحرث) فى شأن الحرث ، قيل كان زرعا ، وقيل كرما ، واسم الحرث يطلق عليهما (اذ نفشت فيه) أى تفرقت وانتشرت فيه (غنم القوم) قال ابن السكيت ، النفش بالتحريك أن تنتشر الغنم بالليل من غير راع (وكنا لحكمهم شاهدين) أى لحكم الحاكمين ، وفيه جواز اطلاق الجمع على الاثنين ، وهو مذهب طائفة من أهل العربية كالزمخشرى والرضىّ ، وتقدّمهما الى القول به الفراء ، وقيل المراد الحاكمان والمحكوم عليه ، ومعنى شاهدين حاضرين ، والجملة اعتراضية وجملة (ففهمناها سليمان) معطوفة على إذ يحكمان ، لأنه فى حكم الماضى ، والضمير فى ففهمناها يعود إلى القضية المفهومة من الكلام ، أو الحكومة المدلول عليها بذكر الحكم * قال المفسرون : دخل رجلان على داود ، وعنده ابنه سليمان : أحدهما صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : ان هذا انفلتت غنمه ليلا فوقعت فى حرثى ، فلم تبق منه شيئا ، فقال : لك رقاب الغنم ، فقال سليمان : أوغير ذلك ، ينطلق أصحاب الكرم بالغنم فيصيبون من ألبانها ومنافعها ويقوم أصحاب الغنم على الكرم حتى اذا كان كليلة نفشت فيه دفع هؤلاء الى هؤلاء غنمهم ، ودفع هؤلاء الى هؤلاء كرمهم ، فقال داود : القضاء ماقضيت ، وحكم بذلك . قال النحاس : إنما قضى دواد بالغنم لصاحب الحرث ، لأن ثمنها كانا قريبا منه ، وأما فى حكم سليمان فقد قيل : كانت قيمة مانال من الغنم ، وقيمة ماأفسدت الغنم سواء . قال جماعة من العلماء : انداود حكم بوحى ، وحكم سليمان بوحى نسخ الله به حكم داود ، فيكون التفهيم على هذا بطريق الوحى . وقال الجمهور : ان حكمهما كان باجتهاد ، وكلام أهل العلم فى حكم اجتهاد الأنبياء معروف ، وهكذا ماذكره أهل العلم فى اختلاف المجتهدين ، وهل كل مجتهد مصيب ؟ أوالحق مع واحد * وقداستدل المستدلون بهذه الآية على أن كل مجتهد مصيب ، ولاشك أنها تدل على رفع الاثم عن المخطىء ، وأما كون كل واحد منهما مصيبا ، فلا تدلّ عليه هذه الآية ولاغيرها . بل صرّح الحديث المتفق عليه فى الصحيحين وغيرهما أن الحاكم اذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر . فسماه النبى ﷺ مخطئا ، فكيف يقال انه مصيب لحكم الله موافق له ، فان حكم الله سبحانه واحد ، لايختلف باختلاف المجتهدين ، وإلا لزم توقف حكمه عزّوجلّ على اجتهادات المجتهدين ، واللازم باطل . فالملزوم مثله ، وأيضا يستلزم أن تكون العين التى اختلف اجتهاد المجتهدين فيها بالحلّ والحرمة حلالا حراما فى حكم الله سبحانه . وهذا اللازم باطل بالاجماع ، فالملزوم مثله . وأيضا يلزم أن حكم الله سبحانه لايزال يتجدد عند

وجود كل مجتهد له اجتهاد فى تلك الحادثة ، ولا ينقطع ما يريده الله سبحانه فيها الا بانقطاع المجتهدين والاترم باطل ، فالملزوم مثله . وقد أوضحنا هذه المسألة بما لامزيد عليه فى المؤلف الذى سميناه « القول المفيد فى حكم التقليد » وفى « أدب الطلب ومنتهى الارب » فمن أحب الوقوف على تحقيق الحق ، فليرجع اليهما * فان قلت فما حكم هذه الحادثة التى حكم فيها داود وسليمان فى هذه الشريعة المحمدية ، والملة الاسلامية *
قلت : قد ثبت عن النبى ﷺ من حديث البراء أنه شرع لأمته أن على أهل الماشية حفظها بالليل ، وعلى أصحاب الحوائط حفظها بالنهار ، وأن ما أفسدت المواشى بالليل مضمون على أهلها ، وهذا الضمان هو بمقدار الذاهب عينا أو قيمة ، وقد ذهب جمهور العلماء الى العمل بما تضمنه هذا الحديث ، وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين : إلى أن هذا الحكم منسوخ . وأن البهائم إذا أفسدت زرعا فى ليل أو نهار أنه لايلزم صاحبها شىء ، وأدخلوا فسادها فى عموم قول النبى ﷺ « جرح العجماء جبار » قياسا لجميع أفعالها على جرحها ، ويجاب عنه بأن هذا القياس فاسد الاعتبار ، لانه فى مقابلة النص ، ومن أهل العلم من ذهب إلى أنه يضمن رب الماشية ماأفسدته من غير فرق بين الليل والنهار . ويجاب عنه بحديث البراء . ومما يدل على أن هذين الحكمين من داود وسليمان كانا بوحى من الله سبحانه لاباجتهاد قوله (وكلا آتينا حكما وعلما) فان الله سبحانه أخبرنا بأنه أعطى كل واحد منهما هذين الأمرين ، وهما إن كانا خاصين فصدقهما على هذه القضية التى حكاها الله سبحانه عنهما مقدم على صدقهما على غيرها ، وان كانا عامين ، فهذا الفرد من الحكم والعلم ، وهو ماوقع من كل واحد منهما فى هذه القضية أحق أفراد ذلك العام بدخوله تحته ودلالته عليه ، ومما يستفاد من ذلك دفع ماعسى يوهمه تخصيص سليمان بالتفهيم ، من عدم كون حكم داود حكما شرعيا : أى وكل واحد منهما أعطيناه حكما وعلما كثيرا ، لاسليمان وحده * ولما مدح داود وسليمان على سبيل الاشتراك ، ذكر مايختص بكل واحد منهما ، فبدأ بداود . فقال (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن) التسبيح إما حقيقة أو مجاز وقد قال بالأول جماعة ، وهو الظاهر . وذلك أن داود كان إذا سبح سبحت الجبال معه ، وقيل إنها كانت تصلى معه إذا صلى ، وهو معنى التسبيح . وقال بالمجاز جماعة آخرون ، وحملوا التسبيح على تسبيح من رآها ، تعجبا من عظيم خلقها وقدرة خالقها ؛ وقيل كانت الجبال تسير مع داود . فكان من رآها سائرة معه سبح (والطير) معطوف على الجبال ، وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ وخبره محذوف : أى والطير مسخرات ، ولا يصح العطف على الضمير فى يسبحن لعدم التأكيد والفصل (وكنا فاعلين) يعنى ماذكر من التفهيم ، وإيتاء الحكم والتسخير (وعلمناه صنعة لبوس لكم) اللبوس عند العرب السلاح كله درعا كان ، أوجوشنا ، أوسيفا ، أو رمحا . قال الهذلى * وعندى لبوس فى اللباس كأنه * الخ والمراد فى الآية الدروع خاصة ، وهو بمعنى الملبوس . كالركوب والحلوب ، والجار والمجرور أعنى لكم ، متعلق بعلمنا (ليحصنكم من بأسكم) قرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر وحفص وروح لتحصنكم بالتاء الفوقية ، بارجاع الضمير إلى الصنعة ، أوالى اللبوس بتأويل الدرع . وقرأ شيبة وأبو بكر والمفضل وابن أبى اسحاق : لنحصنكم بالنون ، بارجاع الضمير اليه سبحانه . وقرأ الباقون بالياء ، بارجاع الضمير الى اللبوس ، أو الى داود ، أو الى الله سبحانه . ومعنى من بأسكم من حربكم ، أو من وقع السلاح فيكم (فهل أنتم شاكرون) لهذه النعمة التى أنعمنا بها عليكم ، والاستفهام فى معنى الأمر ، ثم ذكر سبحانه ماخص به سليمان . فقال (ولسليمان الريح) أى وسخرنا له الريح (عاصفة) أى شديدة الهبوب . يقال عصفت الريح : أى اشتدت ، فهى ريح عاصف وعصوف ، وانتصاب الريح على الحال .

وقرأ عبد الرحمن الأعرج والسلمي وأبو بكر : ولسليمان الريح ، برفع الريح على القطع مما قبله ، ويكون مبتدأ وخبره تجري . وأما على قراءة النصب فيكون محل (تجري بأمره) النصب أيضا على الحالية ، أو على البدلية (إلى الأرض التي باركنا فيها) وهي أرض الشام كما تقدم (وكنا بكل شيء عالمين) أي بتدبير كل شيء (ومن الشياطين) أي وسخرنا من الشياطين (من يغوصون له) في البحار و يستخرجون منها مايطلبه منهم : وقيل ان من مبتدأ وخبره ماقبله ، والغوص النزول تحت الماء : يقال غاص في الماء والغواص : الذي يغوص في البحر على اللؤلؤ (و يعملون عملا دون ذلك) قال الفراء : أي سوى ذلك وقيل يراد بذلك المحاريب والتماثيل ، وغير ذلك مما يسخرهم فيه (وكنا لهم حافظين) أي لأعمالهم ، وقال الفراء حافظين لهم من أن يهربوا أو يتمنعوا ، أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره . قال الزجاج : كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا . وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوا بالنهار (وأيوب اذ نادى ربه) معطوف على ماقبله والعامل فيه العامل فيه : إما المذكور أو المقدر كما مر ، والعامل في الظرف وهو : إذ نادى ربه ، هو العامل في أيوب (أني مسني الضر) أي بأني مسني الضر . وقرئ بكسر إني .

واختلف في الضر الذي نزل به ماذا هو : فقيل انه قام ليصلي ، فلم يقدر على النهوض ، وقيل انه أقر بالعجز ، فلا يكون ذلك منافيا للصبر ، وقيل انقطع الوحي عنه أربعين يوما ، وقيل ان دودة سقطت من لحمه ، فأخذها وردها في موضعها ، فأكلت منه ، فصاح مسني الضر ، وقيل كانت الدود تناول بدنه فيصبر حتى تناولت دودة قلبه ، وقيل ان ضره قول إبليس لزوجته اسجدي لي ، فخاف ذهاب إيمانها ، وقيل انه تقذره قومه ، وقيل أراد بالضر الشماتة ، وقيل غير ذلك * ولما نادى ربه متضرعا اليه وصفه بغاية الرحمة ، فقال (وأنت أرحم الراحمين) فأخبر الله سبحانه باستجابته لدعائه ، فقال (فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر) أي شفاه الله مما كان به وأعاضه بما ذهب عليه ، ولهذا قال سبحانه (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) قيل تركهم الله عز وجل له ، وأعطاه مثلهم في الدنيا . قال النحاس والاسناد بذلك صحيح ، وقد كان مات أهله جميعا الا امرأته ، فأحياهم الله في أقل من طرف البصر ، وآتاه مثلهم معهم ، وقيل كان ذلك بأن ولد له ضعف الذين أماتهم الله ، فيكون معنى الآية على هذا : آتيناه مثل أهله ومثلهم معهم ، وانتصاب (رحمة من عندنا) على العلة أي آتيناه ذلك لرحمتنا له (وذكرى للعابدين) أي وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر .

واختلف في مدة إقامته على البلاء : فقيل سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال ، وقيل ثلاثين سنة ، وقيل ثماني عشرة سنة (وإسمعيل وإدريس وذا الكفل) أي واذكر هؤلاء ، وإدريس هو أخنوخ ، وذا الكفل إلياس ، وقيل يوشع بن نون ، وقيل زكريا ، والصحيح أنه رجل من بني إسرائيل ، كان لا يتورع عن شيء من المعاصي ؟ فتاب فغفر الله له ، وقيل ان اليسع لما كبر ، قال من يتكفل لي بكذا وكذا من خصال الخير حتى أستخلفه ، فقال رجل أنا ، فاستخلفه ، وسمي ذا الكفل ، وقيل كان رجلا يتكفل بشأن كل إنسان اذا وقع في شيء من المهمات ، وقيل غير ذلك . وقد ذهب الجمهور الى أنه ليس بنبي ، وقال جماعة هو نبي * ثم وصف الله سبحانه هؤلاء بالصبر ، فقال (كل من الصابرين) أي كل واحد من هؤلاء من الصابرين على القيام بما كلفهم الله به (وأدخلناهم في رحمتنا) أي في الجنة ، أو في النبوة ، أو في الخبر على عمومه ، ثم علل ذلك بقوله (إنهم من الصالحين) أي الكاملين في الصلاح (وذا النون) أي واذكر ذا النون ، وهو يونس ابن متى ، ولقب ذا النون لابتلاع الحوت له ، فان النون من أسماء الحوت ، وقيل سمي ذا النون ، لأنه رأى صبيا مليحا ، فقال

دسموا نونتـه ، لئلا تصيبه العـين * وحكى ثعلب عن ابن الأعرابي أن نونة الصبيّ : هي الثقبة التي تكون في ذقن الصبيّ الصغير ، ومعنى دسموا : سوّدوا (إذ ذهب مغاضبا) أي اذكر ذا النون وقت ذهابه مغاضبا : أي مراغما . قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير ذهب مغاضبا لربه ، واختاره ابن جرير والقتيبي والمهدوي ، وحكى عن ابن مسعود . قال النحاس : وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة ، وهو قول صحيح * والمعنى مغاضبا من أجل ربه ، كما تقول غضبت لك : أي من أجلك . وقال الضحاك ذهب مغاضبا لقومه ، وحكى عن ابن عباس ، وقالت فرقة منهم الأخفش : إنما خرج مغاضبا للملك الذي كان في وقته ، واسمه حزقيا ، وقيل لم يغاضب ربه ولا قومه ولا الملك ، ولكنه مأخوذ من غضب اذا أنف ، وذلك أنه لما وعد قومه بالعـذاب وخرج عنهم تابوا وكشف الله عنهم العذاب ، فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك فخرج عنهم ، ومن استعمال الغضب في هذا المعنى قول الشاعر :

* وأغضب أن تهجى تميم بعامر * أي آنف (فظنّ أن لن نقدر عليه) قرأ الجمهور : نقدر بفتح النون وكسر الدال .

واختلف في معنى الآية على هذه القراءة ، فقيل معناها أنه وقع في ظنه أن الله تعالى لا يقدر على معاقبته ، وقد حكى هذا القول عن الحسن وسعيد بن جبير ، وهو قول مردود ، فان هذا الظنّ بالله كفر ، ومثـل ذلك لا يقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وذهب جمهور العلماء أن معناها فظنّ أن لن نضيق عليه : كقوله ــ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ــ أي يضيق ، ومنه قوله ــ ومن قدر عليه رزقه ــ يقال : قدر وقدر وقتر وقتر : أي ضيق ، وقيل هو من القدر الذي هو القضاء والحكم ، أي فظنّ أن لن نقضي عليه العقوبة ، قاله قتادة ومجاهد ، واختاره الفراء والزجاج : مأخوذ من القدر وهو الحكم دون القدرة والاستطاعة . قال أحمد بن يحيى ثعلب هو من التقدير ليس من القدرة : يقال منه : قدّر الله لك الخير يقدره قدرا ، وأنشد ثعلب :

فليست عشيات اللوى برواجع * لنا أبدا ما أبرم السلم النضر
ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى * تباركت ماتقدر مع ذلك الشكر

أي ما تقـدره وتقضي به ، ومما يؤيد ماقاله هؤلاء قراءة عمر بن عبد العزيز والزهري : فظنّ أن لن نقدّر بضم النون وتشـديد الدال من التقدير ، وحكى هذه القراءة الماوردي عن ابن عباس ، ويؤيد ذلك أيضا قراءة عبيد بن عمير وقتادة والأعرج أن لن يقـدّر بضم الياء والتشديد مبنيا للمفعول ، وقرأ يعقوب وعبد الله بن أبي اسحق والحسن يقدر بضم الياء وفتح الدال مخففا مبنيا للمفعول .

وقد اختلف العلماء في تأويل الحـديث الصحيح في قول الرجل الذي لم يعمل خيرا قط لأهله أن يحرقوه اذا مات ، ثم قال فوالله لئن قدر الله عليّ الحديث كما اختلفوا في تأويل هذه الآية ، والكلام في هذا يطول . وقد ذكرنا هاهنا ما لا يحتاج معه الناظر الى غيره ، والفاء في قوله (فنادى في الظلمات) فصيحة : أي كان ما كان من التقام الحوت له ، فنادى في الظلمات ، والمراد بالظلمات : ظلمة الليـل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وكان نداؤه : هو قوله (أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) أي بأن لا إله الخ ، ومعنى سبحانك تنزيها لك من أن يعجزك شيء : إني كنت من الظالمين الذين يظلمون أنفسهم . قال الحسن وقتادة هذا القول من يونس اعتراف بذنبه وتوبة من خطيئته ، قال ذلك وهو في بطن الحوت ، ثم أخبر الله سبحانه بأنه استجاب له ، فقال (فاستجبنا له) دعاءه الذي دعانا به في ضمن اعترافه بالذنب على ألطف وجه (ونجيناه من الغمّ) باخراجنا له من بطن الحوت حتى

قذفه الى الساحل (وكذلك ننجى المؤمنين) أى نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم وما أعددناه لهم من الرحمة ، وهذا هو معنى الآية الأخرى ، وهى قوله ـ فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه الى يوم يبعثون ـ قرأ الجمهور ننجى بنونين ، وقرأ ابن عامر نجى بنون واحدة وجيم مشددة وتسكين الياء على الفعل الماضى وإضمار المصدر ، وكذلك نجى النجاة المؤمنين كما تقول ضرّب زيدا : أى ضرب الضرب زيدا ، ومنه قول الشاعر :

ولو ولدت قفيرة جرو كلب * لسبّ بذلك الجرو الكلابا

هكذا قال فى توجيه هذه القراءة الفرّاء وأبو عبيد وثعلب ، وخطأها أبو حاتم والزجاج وقالا هى لحن لأنه نصب اسم مالم يسمّ فاعله ، وإنما يقال نجى المؤمنون ، ولأبى عبيدة قول آخر ، وهو أنه أدغم النون فى الجيم ، وبه قال القتيبى ، واعترضه النحاس ، فقال هذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين لبعد مخرج النون من مخرج الجيم فلا يدغم فيها ، ثم قال النحاس لم أسمع فى هذا أحسن من شيء سمعته من علىّ بن سليمان الأخفش قال الاصل : ننجى ، فحذف إحدى النونين لاجتماعهما كما تحذف احدى التاءين لاجتماعهما ، نحو قوله تعالى ـ ولا تفرّقوا ـ والأصل ولا تتفرّقوا * قلت وكذا الواحدى عن أبى علىّ الفارسى أنه قال ان النون الثانية تخفى مع الجيم ، ولا يجوز تبيينها ، فالتبس على السامع الاخفاء بالادغام ، فظنّ أنه ادغام ، ويدلّ على هذا إسكانه الياء من نجى ونصب المؤمنين ، ولو كان على ما لم يسمّ فاعله ما سكن الياء ولوجب أن يرفع المؤمنين * قلت ولانسلم قوله انه لا يجوز تبيينها فقد بينت فى قراءة الجمهور ، وقرأ محمد بن السميفع وأبو العالية وكذلك نجى المؤمنين على البناء للفاعل : أى نجى الله المؤمنين .

وقدأخرج ابن جرير عن مرّة فى قوله (إذ يحكمان فى الحرث) قال كان الحرث نبتا فنفشت فيه ليلا فاختصموا فيه الى داود ، فقضى بالغنم لأصحاب الحرث ، فمرّوا على سليمان ، فذكروا ذلك له ، فقال لا ، تدفع الغنم فيصيبون منها ويقوم هؤلاء على حرثهم ، فاذا كان كما كان ردّوا عليهم فنزلت (ففهمناها سليمان) وقد روى هذا عن مرّة عن ابن مسعود . وأخرج ابن جرير والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن مسعود فى قوله (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث) قال : كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته الغنم فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم ، فقال سليمان غير هذا يانبىّ الله ، قال وماذاك ؟ قال يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه ، حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها ، حتى اذا عاد الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ، والغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله (ففهمناها سليمان) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مسروق نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه ، ولكنه لم يذكر الكرم . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عنه نحوه بأطول منه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا (نفشت) قال رعت . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حيد وأبو داود وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن حرام بن محيصة أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطا فأفسدت فيه ، فقضى رسول الله ﷺ ، أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار ، وأن ما أفسدت المواشى بالليل ضامن على أهلها ، وقد علل هذا الحديث ، وقد بسطنا الكلام عليه فى شرح المنتقى . وأخرج ابن مردويه من حديث عائشة نحوه ، وزاد فى آخره ، ثم تلا هذه الآية : وداود وسليمان الآية ، وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « بينما امرأتان معهما ابنان جاء الذئب فأخذ أحد الاثنين فتحا كما إلى داود تقضى به للكبرى

نخرجتا فدعاهما سليمان ، فقال هاتوا السكين أشقه بينهما ، فقالت الصغرى : رحمك الله ، هو ابنها لاتشقه فقضى به للصغرى » ، وهذا الحديث وان لم يكن داخلا فما حكته الآية من حكمهما لكنه من جملة ماوقع لهما . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن قتادة فى قوله (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) قال : يصلين مع داود اذا صلى (وعلمناه صنعة لبوس لكم) قال : كانت صفائح ، فأوّل من سردها وحلقها داود عليه السلام . وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كان سليمان يوضع له ستمائة ألف كرسى ، ثم يجيء أشراف الانس فيجلسون مما يليه ، ثم يجيء أشراف الجن فيجلسون مما يلى أشراف الانس ، ثم يدعو الطير فتظلهم ، ثم يدعو الريح فتحملهم تسير مسيرة شهر فى الغداة الواحدة . وأخرج ابن عساكر والديلمى وابن النجار عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ « قال الله لأيوب تدرى ماجرمك علىّ حتى ابتليتك . قال لايارب . قال لانك دخلت على فرعون فداهنت عنده فى كلمتين » . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : إنما كان ذنب أيوب أنه استعان به مسكين على ظالم يدرؤه ، فلم يعنه ، ولم يأمر بالمعروف ، ولم ينه الظالم عن ظلم المسكين فابتلاه الله ، وفى إسناده جويبر . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد فى الزهد وعبد بن حيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم فى الحلية عن عبدالله بن عبيد بن عمير قال : كان لأيوب أخوان جاآ يوما فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه فقاما من بعيد ، فقال أحدهما للآخر لو كان علم الله من أيوب خيرا ماابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولهما جزعا لم يجزع من شيء قط مثله ، فقال « اللهمّ ان كنت تعلم أنى لم أبت ليلة قط شبعان ، وأنا أعلم مكان جائع فصدّقنى فصدّق من السماء : وهما يسمعان ، ثم قال : اللهمّ ان كنت تعلم أنى لم ألبس قيصا قط ، وأنا أعلم مكان عار فصدّقنى فصدّق من السماء وهما يسمعان ، ثم خرّ ساجدا ، وقال : اللهمّ بعزّتك لا أرفع رأسى حتى تكشف عنّى ، فمارفع رأسه ، حتى كشف الله عنه » . وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر مرفوعا بنحو هذا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) قال : قيل له ياأيوب ان أهلك لك فى الجنة ، فان شئت أتيناك بهم ، وان شئت تركناهم لك فى الجنة وعوضناك مثلهم ، قال لا بل بل اتركهم لى فى الجنة ، قال فتركوا له فى الجنة وعوّض مثلهم فى الدنيا » . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى عن الضحاك قال : بلغ ابن مسعود أن مروان قال : فى هذه الآية وآتيناه أهله ومثلهم معهم قال : أوتى أهلا غير أهله ، فقال ابن مسعود بل أوتى أهله بأعيانهم ومثلهم معهم . وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والرويانى وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال « ان أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد الا رجلين من إخوانه كانا من أخصّ إخوانه كانا يغدوان اليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ماأذنبه أحد ، قال وماذاك ؟ قال منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف عنه مابه ، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك ، فقال أيوب لاأدرى مايقول غير أن الله يعلم أنى أمرّ بالرجلين يتنازعان يذكران الله فارجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهة أن يذكر الله الافى حق ، وكان يخرج لحاجته فاذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه أن ــ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ــ فاستبطأته تلقته وأقبل عليها ، قد أذهب الله مابه من البلاء ، وهو أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : اى بارك الله فيك هل رأيت نبىّ الله المبتلى ، والله على ذلك مارأيت رجلا أشبه به منك اذ كان صحيحا ؟ قال فانى أنا هو ، قال وكان له

أندران أندر للقمح ، وأندر للشعير فبعث الله سحابتين ، فلما كانت أحداهما على أندرالقمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير الورق ، حتى فاض » . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد ابن حيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وذا الكفل) قال : رجل صالح غير نبىّ تكفل لنبىّ قومه أن يكفيه أمر قومه و يقيمهم له و يقضى بينهم بالعدل ، ففعل ذلك ، فسمى ذا الكفل . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان فى بنى إسرائيل قاض حضره الموت ، فقال من يقوم مقامى على أن لا يغضب ، فقال رجل أنا ، فسمى ذا الكفل ، فكان ليله جميعا يصلى ، ثم يصبح صائما فيقضى بين الناس ، وذكر قصة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعرى قال : ما كان ذوالكفل نبيا ، ولكن كان فى بنى إسرائيل رجل صالح يصلى كلّ يوم مائة صلاة فتوفىّ فتكفل له ذو الكفل من بعده ، فكان يصلى كلّ يوم مائة صلاة ، فسمى ذا الكفل . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه وابن المنذر وابن حبان والطبرانى والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى شعب الايمان من طريق سعد مولى طلحة عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال « كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت ، فقال ما يبكيك أكرهتك ؟ قالت لا ولكنه عمل ما عملته قط ، وما حملنى عليه الا الحاجة ، فقال تفعلين أنت هذا ، وما فعلته اذهبى فهى لك ، وقال والله لا أعصى الله بعدها أبدا ، فمات من ليلته فأصبح مكتوب على بابه : ان الله قدغفر للكفل » وأخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وابن مردويه من طريق سعد مولى طلحة . وأخرجه ابن مردويه من طريق نافع عن ابن عمروقال : فيه ذوالكفل . وأخرج ابن جرير والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (وذا النون إذ ذهب مغاضبا) يقول : غضب على قومه (فظنّ أن لن نقدر عليه) يقول : أن لن نقضى عليه عقوبة ولا بلاء فيما صنع بقومه فى غضبه عليهم وفراره ، قال وعقوبته أخذ النون إياه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (فظنّ أن لن نقدر عليه) قال : ظنّ أن لن يأخذه العذاب الذى أصابه . وأخرج أحمد فى الزهد وابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود (فنادى فى الظلمات) قال : ظلمة الليل ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر . وأخرج أحمد والترمذى والنسائى والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول والبزار وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن سعد بن أبى وقاص سمعت رسول الله ﷺ قال « دعوة ذى النون اذ هو فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط الا استجاب له » . وأخرج ابن جرير عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « اسم الله الذى اذا دعى به أجاب ، واذا سئل به أعطى دعوة يونس ابن متى ، قلت يارسول الله ، هل ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال هى ليونس خاصة وللمؤمنين عامة اذا دعوا به ، ألم تسمع قول الله وكذلك ننجى المؤمنين ، فهو شرط من الله لمن دعاه » . وأخرج الحاكم من حديثه أيضا نحوه ، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال « قال رسول الله ﷺ لا ينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس ابن متى » . وروى أيضا فى الصحيح وغيره من حديث ابن مسعود ، وروى أيضا فى الصحيحين من حديث أبى هريرة .

وَزَكَرِيَّاءَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۞ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ

٩٠-٩٦

وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ * وَٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَا آيَةً لِّلْعَٰلَمِينَ * إِنَّ هَٰذِهِۦ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ * فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ * وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ *

قوله (وزكريا) أى واذكر خبر زكريا وقت ندائه لربه ، قال (رب لاتذرنى فردا) أى منفردا وحيدا لاولد لى . وقد تقدم الكلام على هذه الآية فى آل عمران (وأنت خير الوارثين) أى خير من يبقى بعد كل من يموت ، فأنت حسبى ان لم ترزقنى ولدا فانى أعلم أنك لاتضيع دينك وأنه سيقوم بذلك من عبادك من تختاره له وترتضيه للتبليغ (فاستجبنا له) دعاءه (ووهبنا له يحيى) . وقد تقدم مستوفى فى سورة مريم (وأصلحنا له زوجه) . قال أكثر المفسرين : انها كانت عاقرا فجعلها الله ولودا ، فهذا هو المراد باصلاح زوجه ، وقيل كانت سيئة الخلق فجعلها الله سبحانه حسنة الخلق ، ولامانع من ارادة الأمرين جميعا ، وذلك بأن يصلح الله سبحانه ذاتها ، فتكون ولودا بعد أن كانت عاقرا ، و يصلح أخلاقها ، فتكون أخلاقها مرضية بعد أن كانت غير مرضية ، وجملة (انهم كانوا يسارعون فى الخيرات) للتعليل لما قبلها من احسانه سبحانه إلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، فالضمير المذكور راجع إليهم ، وقيل هو راجع إلى زكريا وامرأته ويحيى ، ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم كانوا يدعونه (رغبا ورهبا) أى يتضرعون اليه فى حال الرخاء ، وحال الشدة ، وقيل الرغبة : رفع بطون الأكف إلى السماء ، والرهبة رفع ظهورها ، وانتصاب رغبا ورهبا على المصدرية : أى يرغبون رغبا و يرهبون رهبا ، أو على العلة : أى للرغب والرهب ، أو على الحال : أى راغبين وراهبين ، وقرأ طلحة بن مصرف و يدعونا بنون واحدة ، وقرأ الأعمش بضم الراء فيهما واسكان مابعده ، وقرأ ابن وثاب بفتح الراء فيهما مع اسكان مابعده ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو ، وقرأ الباقون بفتح الراء وفتح مابعده فيهما (وكانوا لنا خاشعين) أى متواضعين متضرعين (والتى أحصنت فرجها) أى واذكر خبرها ، وهى مريم : فانها أحصنت فرجها من الحلال والحرام ولم يمسها بشر ، وانما ذكرها مع الأنبياء وان لم تكن منهم لأجل ذكر عيسى ، وما فى ذكر قصتها من الآية الباهرة (فنفخنا فيها من روحنا) أضاف سبحانه الروح إليه ، وهو لملك تشريفا وتعظيما ، وهو يريد روح عيسى (وجعلناها وابنها آية للعالمين) قال الزجاج : الآية فيهما واحدة لأنها ولدته من غير فحل ، وقيل ان التقدير على مذهب سيبويه : وجعلناها آية وجعلنا ابنها آية كقوله سبحانه ــ والله ورسوله أحق أن يرضوه ــ ، والمعنى : أن الله سبحانه جعل قصتهما آية تامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما ، وقيل أراد بالآية الجنس الشامل ، لما كل واحد منهما من الآيات ، ومعنى أحصنت عفت فامتنعت من الفاحشة وغيرها ، وقيل المراد بالفرج جيب القميص : أى أنها طاهرة الأثواب ، وقد مضى بيان مثل هذا فى سورة النساء ومريم ، ثم لما ذكر سبحانه الأنبياء بين أنهم كلهم مجتمعون على التوحيد ، فقال (إن هذه أمتكم أمة واحدة) والأمة الدين ، كما قال ابن قتيبة : ومنه ــ إنا وجدنا آباءنا على أمة ــ أى على دين ، كأنه

قال إن هذا دينكم دين واحد لاخلاف بين الأمم المختلفة فى التوحيد ، ولا يخرج عن ذلك الا الكفرة المشركون بالله ، وقيل المعنى : ان هذه الشريعة التى بينتها لكم فى كتابكم شريعة واحدة ، وقيل المعنى : ان هذه ملتكم ملة واحدة ، وهى ملة الاسلام ، وإنتصاب أمة واحدة على الحال : أى متفقة غير مختلفة ، وقرئ ان هذه أمتكم بنصب أمتكم على البدل من اسم انّ ، والخبر أمة واحدة ، وقرئ برفع أمتكم ورفع أمة على أنهما خبران ، وقيل على اضمار مبتدأ : أى هى أمة واحدة ، وقرأ الجمهور برفع أمتكم على أنه الخبر ونصب أمة على الحال كما قدمنا ، وقال الفراء : والزجاج على القطع بسبب مجىء النكرة بعد تمام الكلام (وأنا ربكم فاعبدون) خاصة لاتعبدوا غيرى كائنا ما كان (وتقطعوا أمرهم بينهم) أى تفرقوا فرقا فى الدين حتى صار كالقطع المتفرّقة ، وقال الأخفش : اختلفوا فيه ، وهو كالقول الأوّل . قال الأزهرى : أى تفرّقوا فى أمرهم ، فنصب أمرهم بحذف فى ، والمقصود بالآية المشركون ، ذمهم الله بمخالفة الحق واتخاذهم آلهة من دون الله ، وقيل المراد جميع الخلق وأنهم جعلوا أمرهم فى أديانهم قطعا وتقسموه بينهم ، فهذا موحد ، وهذا يهودىّ ، وهذا نصرانىّ ، وهذا مجوسىّ ، وهذا عابد وثن ثم أخبر سبحانه بأن مرجع الجميع إليه ، فقال (كلّ إلينا راجعون) أى كلّ واحد من هذه الفرق راجع إلينا بالبعث ، لا إلى غيرنا (فمن يعمل من الصالحات) أى من يعمل بعض الأعمال الصالحة ، لا كلها ، إذلا يطيق ذلك أحد (وهو مؤمن) بالله ورسله واليوم الآخر (فلا كفران لسعيه) أى لاجحود لعمله ، ولا تضييع لجزائه ، والكفر ضدّ الايمان ، والكفر أيضا جحود النعمة ، وهو ضدّ الشكر ، يقال كفر كفورا وكفرانا ، وفى قراءة ابن مسعود فلا كفر لسعيه (وإنا له كاتبون) أى لسعيه حافظون ، ومثله قوله سبحانه — أنى لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى — (وحرام على قرية أهلكناها) . قرأ زيد بن ثابت وأهل المدينة وحرام ، وقرأ أهل الكوفة وحرم ، وقد اختار القراءة الأولى أبوعبيد وأبو حاتم ، ورويت القراءة الثانية عن علىّ وابن مسعود وابن عباس : وهما لغتان مثل حلّ وحلال ، وقرأ سعيد بن جبير وحرم بفتح الحاء وكسر الراء وفتح الميم ، وقرأ عكرمة وأبو العالية حرم بضم الراء وفتح الحاء والميم ، ومعنى أهلكناها قدرنا اهلاكها ، وجملة (أنهم لايرجعون) فى محلّ رفع على أنه مبتدأ ، وخبره حرام ، أو على أنه فاعل له سادّ مسدّ خبره * والمعنى وممتنع ألبتة عدم رجوعهم الينا للجزاء ، وقيل : ان لافى لايرجعون زائدة : أى حرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك الى الدنيا ، واختار هذا أبو عبيدة : وقيل ان لفظ حرام هنا بمعنى الواجب : أى واجب على قرية ، ومنه قول الخنساء :

وان حراما لاأرى الدهر باكيا * على شجوه الا بكيت على صخر

وقيل حرام : أى ممتنع رجوعهم الى التوبة ، على أن لازائدة . قال النحاس : والآية مشكلة ومن أحسن ماقيل فيها ، وأجله ماروا ابن عيينة وابن علية وهشيم وابن ادريس ومحمد بن فضل وسليم ابن حيان ومعلى عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى معنى الآية قال : واجب أنهم لايرجعون : أى لايتوبون . قال الزجاج وأبو على الفارسى : ان فى الكلام اضمارا ، أى وحرام على قرية حكمنا باستئصالها ، أو بالختم على قلوب أهلها أن يتقبل منهم عمل لأنهم لايرجعون ، أى لايتوبون (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج) حتى هذه هى التى يحكى بعدها الكلام ، ويأجوج ومأجوج قبيلتان من الانس ، والمراد بفتح يأجوج ومأجوج فتح السدّ الذى عليهم ، على حذف المضاف ، وقيل ان حتى هذه هى التى للغاية * والمعنى : أن هؤلاء المذكورين سابقا مستمرّون على ماهم عليه الى يوم القيامة ، وهى يوم فتح سد يأجوج ومأجوج (وهم من كل حدب ينسلون) الضمير ليأجوج ومأجوج

والحدب

والحدب كلّ أكمة من الأرض مرتفعة ، والجمع أحداب ، مأخوذ من حدبة الأرض ، ومعنى (ينسلون) يسرعون ، وقيل يخرجون . قال الزجاج : والنسلان مشية الذئب إذا أسرع . يقال نسل فلان فى العدو ينسل بالكسر والضم نسلا ونسولا ونسلانا : أى ان يأجوج ومأجوج من كلّ مرتفع من الأرض يسرعون المشى ويتفرقون فى الأرض ، وقيل الضمير فى قوله : وهم لجميع الخلق * والمعنى أنهم يحشرون الى أرض الموقف وهم يسرعون من كلّ مرتفع من الأرض ، وقرئ بضم السين ، حكى ذلك المهدوى عن ابن مسعود ، وحكى هذه القراءة أيضا الثعلبى عن مجاهد وأبى الصهباء (واقترب الوعد) عطف على فتحت ، والمراد مابعد الفتح من الحساب ، وقال الفراء والكسائى وغيرهما : المراد بالوعد الحق القيامة ، والواو زائدة * والمعنى حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق ، وهو القيامة ، فاقترب جواب اذا ، وأنشد الفراء * فلما أجزنا ساحة الحيّ وانتحى * أى انتحى ، ومنه قوله تعالى ـ وتله للجبين وناديناه ـ ، وأجاز الفراء أن يكون جواب اذا (فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا) وقال البصريون : الجواب محذوف ، والتقدير قالوا ياويلنا . وبه قال الزجاج : والضمير فى فاذا هى للقصة ، أو مبهم يفسره مابعده ، واذا للمفاجأة ، وقيل ان الكلام تمّ عند قوله هى ، والتقدير فاذا هى : يعنى القيامة بارزة واقعة كأنها آتية حاضرة ، ثم ابتدأ فقال شاخصة أبصار الذين كفروا على تقديم الخبر على المبتدأ : أى أبصار الذين كفروا شاخصة ، و (ياويلنا) على تقدير القول (قد كنا فى غفلة من هذا) أى من هذا الذى دهمنا من البعث والحساب (بل كنا ظالمين) أضربوا عن وصف أنفسهم بالغفلة : أى لم نكن غافلين ، بل كنا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب وعدم الانقياد للرسل .

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله (وأصلحنا له زوجه) قال كان فى لسان امرأة زكريا طول فأصلحه الله ، وروى نحو ذلك عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : وهبنا له ولدها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : كانت عاقرا فجعلها الله ولودا ووهب له منها يحيى ، وفى قوله وكانوا لنا خاشعين قال : أذلاء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله يدعوننا رغبا ورهبا قال : رغبا فى رحمة الله ورهبا من عذاب الله . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله ﷺ عن قول الله سبحانه ويدعوننا رغبا ورهبا قال : رغبا هكذا ورهبا هكذا ، وبسط كفيه ، يعنى جعل ظهرهما للأرض فى الرغبة وعكسه فى الرهبة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن عبد الله بن عكيم قال : خطبنا أبو بكر الصديق فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد فانى أوصيكم بتقوى الله ، وأن تثنوا عليه بما هو له أهل ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة ، فان الله أثنى على زكريا وأهل بيته ، فقال انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (إن هذه أمتكم أمة واحدة) قال ان هذا دينكم دينا واحدا . وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله (وتقطعوا أمرهم بينهم) قال : تقطعوا اختلفوا فى الدين . وأخرج الفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله (وحرام على قرية أهلكناها) قال : وجب اهلاكها (أنهم لايرجعون) قال لايتوبون . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ وحرم على قرية قال : وجب على قرية أهلكناها أنهم لايرجعون كما قال ـ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم اليهم لايرجعون ـ . وأخرج عبد بن حميد عن

XXI ،٩٨-١١٢

عكرمة وسعيد بن جبير مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (من كل حدب) قال شرف (ينسلون) قال يقبلون ، وقد ورد فى صفة يأجوج ومأجوج وفى وقت خروجهم أحاديث كثيرة لايتعلق بذكرها هنا كثير فائدة .

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ * وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ * قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قُلْ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ *

بين سبحانه حال معبودهم يوم القيامة ، فقال (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) وهذا خطاب منه سبحانه لأهل مكة ، والمراد بقوله وما تعبدون الأصنام التى كانوا يعبدون ، قرأ الجمهور حصب بالصاد المهملة : أى وقود جهنم وحطبها ، وكل ماأوقدت به النار أو هيجتها به فهو حصب . كذا قال الجوهرى . قال أبوعبيدة : كل ماقذفته فى النار فقد حصبتها به ، ومثل ذلك قوله تعالى ـ فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ـ ، وقرأ علىّ بن أبى طالب وعائشة حطب جهنم بالطاء ، وقرأ ابن عباس حضب بالضاد المعجمة ، قال الفراء : ذكر لنا أن الحضب فى لغة أهل اليمن الحطب ، ووجه القاء الأصنام فى النار مع كونها جمادات لاتعقل ذلك ولا تحس به التبكيت لمن عبدها وزيادة التوبيخ لهم وتضاعف الحسرة عليهم ، وقيل إنها تحمى فتلصق بهم زيادة فى تعذيبهم ، وجملة (أنتم لها واردون) إما مستأنفة أو بدل من حصب جهنم ، والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبا ، واللام فى لها للتقوية لضعف عمل اسم الفاعل ، وقيل هى بمعنى على ، والمراد بالورود هنا الدخول . قال كثير من أهل العلم : ولا يدخل فى هذه الآية عيسى وعزير والملائكة ، لأن ما لمن لايعقل ، ولو أراد العموم لقال ومن يعبدون . قال الزجاج : ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم (لوكان هؤلاء آلهة ماوردوها) أى لو كانت هذه الأصنام آلهة كما تزعمون ماوردوها : أى ماورد العابدون هم والمعبودون النار ، وقيل ماورد العابدون فقط ، لكنهم وردوها فلم يكونوا آلهة ، وفى هذا تبكيت لعباد الأصنام وتوبيخ شديد (وكلّ فيها خالدون) أى كلّ العابدين والمعبودين فى النار خالدون لايخرجون منها (لهم فيها زفير) أى لهؤلاء الذين وردوا النار ، والزفير صوت نفس المغموم ، والمراد هنا الأنين والتنفس الشديد ، وقد تقدم بيان هذا فى هود (وهم فيها لايسمعون) أى لايسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول ، وقيل لايسمعون شيئا ، لأنهم يحشرون صما كما

قال

قال سبحانه ـ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ـ وإنما سلبوا السماع ، لأن فيه بعض تروّح وتأنس ، وقيل لايسمعون مايسرّهم ، بل يسمعون مايسوءهم * ثم لما بين سبحانه حال هؤلاء الأشقياء شرع فى بيان حال السعداء ، فقال (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) أى الخصلة الحسنى التى هى أحسن الخصال وهى السعادة ، وقيل التوفيق ، أو التبشير بالجنة ، أو نفس الجنة (أولئك عنها مبعدون) اشارة إلى الموصوفين بتلك الصفة ، عنها : أى عن جهنم مبعدون ، لأنهم قد صاروا فى الجنة (لايسمعون حسيسها) الحسّ والحسيس الصوت تسمعه من الشىء يمرّ قريبا منك * والمعنى لايسمعون حركة النار وحركة أهلها ، وهذه الجملة بدل من مبعدون ، أو حال من ضميره (وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) أى دائمون ، وفى الجنة ماتشتهيه الأنفس وتلذه الأعين كما قال سبحانه ـ ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدّعون ـ (لايحزنهم الفزع الأكبر) قرأ أبو جعفر وابن محيصن لايحزنهم بضم الياء وكسر الزاى ، وقرأ الباقون لايحزنهم بفتح الياء وضم الزاى . قال اليزيدى : حزنه لغة قريش ، وأحزنه لغة تميم ، والفزع الأكبر أهوال يوم القيامة من البعث والحساب والعقاب (وتتلقاهم الملائكة) أى تستقبلهم على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم (هذا يومكم الذى كنتم توعدون) أى توعدون به فى الدنيا وتبشرون بما فيه ، هكذا قال جماعة من المفسرين ان المراد بقوله : ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الى هنا هم كافة الموصوفين بالإيمان والعمل الصالح ، لا المسيح وعزير والملائكة ، وقال أكثر المفسرين انه لما نزل انكم وماتعبدون الآية أتى ابن الزبعرى الى رسول الله ﷺ فقال يامحمد ألست تزعم أن عزيرا رجل صالح ، وأن عيسى رجل صالح ، وأن مريم امرأة صالحة ؟ قال بلى ، فقال فان الملائكة ، وعيسى ، وعزير ، ومريم يعبدون من دون الله ، فهؤلاء فى النار ، فأنزل الله : إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ، وسيأتى بيان من أخرج هذا قريبا إن شاء الله (يوم نطوى السماء كطىّ السجل للكتاب) قرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج والزهرى تطوى بمثناة فوقية مضمومة ورفع السماء ، وقرأ مجاهد يطوى بالتحتية المفتوحة مبنيا للفاعل على معنى يطوى الله السماء ، وقرأ الباقون نطوى بنون العظمة وانتصاب يوم بقوله (نعيده) أى نعيده يوم نطوى السماء ، وقيل هو بدل من الضمير المحذوف فى توعدون ، والتقدير الذى كنتم توعدونه يوم نطوى ، وقيل بقوله لايحزنهم الفزع ، وقيل بقوله تتلقاهم ، وقيل متعلق بمحذوف ، وهو اذكر ، وهذا أظهر وأوضح ، والطىّ ضدّ النشر ، وقيل المحو ، والمراد بالسماء الجنس ، والسجل الصحيفة : أى طيا كطىّ الطومار ، وقيل السجل الصك ، وهومشتق من المساجلة وهى المكاتبة ، وأصلها من السجل ، وهو الدلو ، يقال : ساجلت الرجل اذا نزعت دلوا ونزع دلوا ، ثم استعيرت للمكاتبة والمراجعة فى الكلام ، ومنه قول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب :

من يساجلنى يساجل ماجدا * يملأ الدلو إلى عقد الكرب

وقرأ أبو زرعة بن عمرو وابن جرير السجل بضم السين والجيم وتشديد اللام ، وقرأ الأعمش وطلحة بفتح السين واسكان الجيم وتخفيف اللام ، والطىّ فى هذه الآية يحتمل معنيين : أحدهما الطىّ الذى هو ضدّ النشر ، ومنه قوله ـ والسموات مطويات بيمينه ـ ، والثانى الاخفاء والتعمية والمحو ، لأن الله سبحانه يمحو و يطمس رسومها ويكدر نجومها ، وقيل السجل اسم ملك ، وهو الذى يطوى كتب بنى آدم ، وقيل هو اسم كاتب لرسول الله ﷺ ، والأول أولى ، قرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائى ويحيى وخلف للكتب جمعا ، وقرأ الباقون للكتاب ، وهو متعلق بمحذوف حال من السجل : أى كطىّ السجل كائنا للكتب أوصفة له : أى الكائن للكتب ، فان الكتب عبارة عن الصحائف ، وما كتب فيها ، فسجلها بعض

أجزائها ، وبه يتعلق الطىّ حقيقة ، وأما على القراءة الثانية فالكتاب مصدر ، واللام للتعليل ، أى كما يطوى الطومار للكتابة : أى ليكتب فيه ، أو لما يكتب فيه من المعانى الكثيرة ، وهذا على تقدير أن المراد بالطىّ المعنى الأوّل ، وهو ضدّ النشر (كما بدأنا أوّل خلق نعيده) أى كما بدأناهم فى بطون أمهاتهم وأخرجناهم الى الأرض حفاة عراة غرلا كذلك نعيدهم يوم القيامة ، فأوّل خلق مفعول نعيد مقدّرا يفسره نعيده المذكور ، أو مفعول لبدأنا ، وما كافة أو موصولة ، والكاف متعلقة بمحذوف : أى نعيد مثل الذى بدأناه نعيده ، وعلى هذا الوجه يكون أوّل ظرف لبدأنا ، أو حال ، وإنما خص أوّل الخلق بالذكر تصويرا للإيجاد عن العدم ، والمقصود بيان صحة الاعادة بالقياس على المبدأ لشمول الامكان الذاتى لهما ، وقيل معنى الآية نهلك كلّ نفس كما كان أوّل مرة ، وعلى هذا فالكلام متصل بقوله : يوم نطوى السماء ، وقيل المعنى نغير السماء ، ثم نعيدها مرّة أخرى بعد طيها وزوالها ، والأوّل أولى ، وهو مثل قوله ــ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرّة ــ ، ثم قال سبحانه (وعدا علينا إنا كنا فاعلين) انتصاب وعدا على أنه مصدر : أى وعدناوعدا علينا إنجازه والوفاء به ، وهو البعث والاعادة ، ثم أكد سبحانه ذلك بقوله : إنا كنافاعلين . قال الزجاج : معنى انا كنا فاعلين انا كنا قادرين على مانشاء ، وقيل انا كنا فاعلين ماوعدناكم ، ومثله قوله ــ وكان وعده مفعولا ــ (ولقد كتبنا فى الزبور) الزبر فى الأصل الكتب ، يقال زبرت : أى كتبت ، وعلى هذا يصح اطلاق الزبور على التوراة والانجيل ، وعلى كتاب داود المسمى بالزبور ، وقيل المراد به هنا كتاب داود ، ومعنى (من بعد الذكر) أى اللوح المحفوظ ، وقيل هو التوراة : أى والله لقد كتبنا فى كتاب داود من بعد ما كتبنا فى التوراة ، أو من بعد ما كتبنا فى اللوح المحفوظ (أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) . قال الزجاج : الزبور جميع الكتب : التوراة ، والانجيل ، والقرآن ، لأن الزبور والكتاب فى معنى واحد ، يقال زبرت وكتبت ، ويؤيد ماقاله قراءة حمزة فى الزبور بضم الزاى ، فانه جمع زبر .

وقد اختلف فى معنى يرثها عبادى الصالحون ، فقيل المراد أرض الجنة ، واستدل القائلون بهذا بقوله سبحانه ــ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض ــ وقيل هى الأرض المقدّسة ، وقيل هى أرض الأمم الكافرة يرثها نبينا ﷺ وأمته بفتحها ، وقيل المراد بذلك بنو إسرائيل بدليل قوله سبحانه ــ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ــ والظاهر أن هذا تبشير لأمة محمد ﷺ بوراثة أرض الكافرين ، وعليه أكثر المفسرين ، وقرأ حمزة عبادى بتسكين الياء ، وقرأ الباقون بتحريكها (ان فى هذا لبلاغا) أى فيما جرى ذكره فى هذه السورة من الوعظ والتنبيه لبلاغا لكفاية ، يقال فى هذا الشىء بلاغ وبلغة وتبلغ : أى كفاية ، وقيل الاشارة بقوله : ان فى هذا الى القرآن (لقوم عابدين) أى مشغولين بعبادة الله مهتمين بها ، والعبادة هى الخضوع والتذلل ، وهم أمة محمد ﷺ ، ورأس العبادة الصلاة (وماأرسلناك إلارحمة للعالمين) أى وما أرسلناك يامحمد بالشرائع والأحكام إلا رحمة لجميع الناس ، والاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال والعلل : أى ماأرسلناك لعلة من العلل إلا لرحمتنا الواسعة ، فان مابعثت به سبب لسعادة الدارين ، قيل ومعنى كونه رحمة للكفار أنهم أمنوا به من الخسف والمسخ والاستئصال ، وقيل المراد بالعالمين المؤمنون خاصة ، والأوّل أولى بدليل قوله سبحانه ــ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ــ ثم بين سبحانه أن أصل تلك الرحمة هو التوحيد والبراءة من الشرك ، فقال (قل إنما يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد) ان كانت ما موصولة فالمعنى أن الذى يوحى إلىّ هو أن وصفه تعالى مقصور على الوحدانية لايتجاوزها إلى ماينافضها أو يضادّها ، وان كانت ما كافة فالمعنى أن الوحى

إلى

إليّ مقصور على استئثار الله بالوحدة ، ووجه ذلك أن القصر أبدا يكون لما يلي انما ، فإنما الأولى لقصر الوصف على الشيء كقولك انما يقوم زيد : أى مايقوم إلازيد ، والثانية لقصر الشيء على الحكم كقولك انما زيدقائم : أى ليس به إلاصفة القيام (فهل أنتم مسلمون) منقادون مخلصون للعبادة ولتوحيد الله سبحانه (فإن تولوا) أى أعرضوا عن الاسلام (فقل) لهم (آذنتكم على سواء) أى أعلمتكم أنا وإياكم حرب لاصلح بيننا كائنين على سواء فى الاعلام لم أخص به بعضكم دون بعض كقوله سبحانه ـ وإماتخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ـ أى أعلمهم أنك نقضت العهد نقضا سويت بينهم فيه ، وقال الزجاج : المعنى أعلمتكم مايوحى إليّ على استواء فى العلم به ، ولا أظهر لأحد شيئا كتمته على غيره (وإن أدرى أقريب أم بعيد ماتوعدون) أى ماأدرى أماتوعدون به قريب حصوله أم بعيد ، وهو غلبة الاسلام وأهله على الكفر وأهله ، وقيل المراد بما توعدون القيامة ، وقيل آذنتكم بالحرب ولكن لاأدرى مايؤذن لى فى محاربتكم (إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ماتكتمون) أى يعلم سبحانه ماتجاهرون به من الكفر والطعن على الاسلام وأهله وماتكتمونه من ذلك وتخفونه (وإن أدرى لعله فتنة لكم) أى ماأدرى لعلّ الامهال فتنة لكم واختبار ليرى كيف صنعكم (ومتاع إلى حين) أى وتمتيع إلى وقت مقدّر تقتضيه حكمته ، ثم حكى سبحانه وتعالى دعاء نبيه ﷺ بقوله (قال ربّ احكم بالحق) أى احكم بينى و بين هؤلاء المكذبين بما هو الحق عندك ففوّض الأمر إليه سبحانه ، وقرأ أبوجعفر بن القعقاع وابن محيصن رب بضم الباء . قال النحاس : وهذا لحن عند النحويين لايجوز عندهم رجل أقبل حتى يقول يارجل ، وقرأ الضحاك وطلحة و يعقوب أحكم بقطع الهمزة وفتح الكاف وضم الميم : أى قال محمد ربى أحكم بالحقّ من كل حاكم . وقرأ الجحدرى أحكم بصيغة الماضى أى أحكم الأمور بالحق . وقرئ قل بصيغة الأمر : أى قل يامحمد . قال أبوعبيدة : الصفة هنا أقيمت مقام الموصوف والتقدير ربّ احكم بحكمك الحق ، وربّ فى موضع نصب ، لأنه منادى مضاف إلى الضمير ، وقد استجاب سبحانه دعاء نبيه ﷺ فعذبهم ببدر ، ثم جعل العاقبة والغلبة والنصر لعباده المؤمنين والحمد لله ربّ العالمين ، ثم قال سبحانه متمما لتلك الحكاية (وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون) من الكفر والتكذيب ، فربنا مبتدأ وخبره الرحمن : أى هو كثير الرحمة لعباده ، والمستعان خبر آخر : أى المستعان به فى الأمور التى من جملتها ماتصفونه من أن الشوكة تكون لكم ، ومن قولكم ـ هل هذا إلا بشر مثلكم ـ وقولكم ـ اتخذ الرحمن ولدا ـ وكثيرا مايستعمل الوصف فى كتاب الله بمعنى الكذب كقوله ـ ولكم الويل مما تصفون ـ ، وقوله ـ سنجزيهم وصفهم ـ وقرأ المفضل والسلمى على مايصفون بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد وأبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال لما نزلت (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) قال المشركون : فالملائكة وعيسى وعزير يعبدون من دون الله : فنزلت (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) عيسى وعزير والملائكة . وأخرج ابن مردويه والضياء فى المختارة عنه . قال جاء عبد الله بن الزبعرى إلى النبى ﷺ فقال : تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية (إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) قال ابن الزبعرى : قدعبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم كل هؤلاء فى النار مع آلهتنا ، فنزلت ـ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدّون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ـ ثم نزلت (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن

المنذر والطبرانى من وجه آخر عنه أيضا نحوه بأطول منه . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) قال عيسى وعزير والملائكة . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله (حصب جهنم) قال شجر جهنم ، وفى اسناده العوفى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه من وجه آخر ان حصب جهنم وقودها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا . قال هو حطب جهنم بالزنجية . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله (لايسمعون حسيسها) قال حيات على الصراط تقول حس حس . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى عثمان النهدى فى قوله (لايسمعون حسيسها) قال حيات على الصراط تلسعهم ، فاذا لسعتهم قالوا حس حس . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن محمد بن حاطب . قال سئل علىّ عن هذه الآية (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) قال هو عثمان وأصحابه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (لايسمعون حسيسها) يقول لايسمع أهل الجنة حسيس النار اذا نزلوا منزلهم من الجنة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (لا يحزنهم الفزع الأكبر) قال النفخة الآخرة وفى اسناده العوفى . وأخرج أحمد والترمذى وحسنه عن ابن عمر . قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة على كثبان المسك لايهولهم الفزع الأكبر يوم القيامة ، رجل أمّ قوما وهم له راضون ، ورجل كان يؤذن فى كل يوم وليلة ، وعبد أدّى حقّ الله وحقّ مواليه » . وأخرج عبد بن حميد عن علىّ فى قوله (كطىّ السجل) قال ملك . وأخرج عبد بن حميد عن عطية مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر . قال : السجل ملك ، فاذا صعد بالاستغفار قال اكتبوها نورا . وأخرج ابن أبى حاتم وابن عساكر عن أبى جعفر الباقر قال : السجل ملك . وأخرج أبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن منده فى المعرفة وابن مردويه والبيهقى فى سننه وصححه عن ابن عباس قال : السجل كاتب للنبى ﷺ . وأخرج ابن المنذر وابن عدىّ وابن عساكر عن ابن عباس . قال كان لرسول الله ﷺ كاتب يسمى السجل ، وهو قوله (يوم نطوى السماء كطىّ السجل للكتاب) قال كما يطوى السجل الكتاب . كذلك نطوى السماء . وأخرج ابن منده وأبو نعيم فى المعرفة وابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن ابن عمر . قال كان للنبى ﷺ كاتب يقال له السجل ، فأنزل الله (يوم نطوى السماء كطىّ السجل الكتاب) قال ابن كثير فى تفسيره بعد اخراج هذا الحديث ، وهذا منكر جدا من حديث نافع عن ابن عمر لايصح أصلا . قال وكذلك ماتقدم عن ابن عباس من رواية أبى داود وغيره لايصح أيضا ، وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ، وان كان فى سنن أبى داود منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزنى ، وقد أفردت بهذا الحديث جزءا له على حدة ، ولله الحمد . قال وقد تصدّى الامام أبو جعفر ابن جرير للانكار على هذا الحديث وردّه أتمّ ردّ : وقال ولانعرف فى الصحابة أحدا اسمه سجلّ ، وكتاب النبىّ ﷺ كانوا معروفين ، وليس فيهم أحد اسمه السجلّ ، وصدق رحمه الله فى ذلك وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث ، وأما من ذكر فى أسماء الصحابة هذا فانما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره والله أعلم ، قال والصحيح عن ابن عباس أن السجلّ : هو الصحيفة قاله علىّ بن أبى طلحة والعوفى عنه ، ونصّ على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير لأنه المعروف فى اللغة ، فعلى هذا يكون معنى الكلام : يوم نطوى السماء كطىّ السجلّ للكتاب : أى على الكتاب : يعنى المكتوب كقوله — فلما أسلما وتله للجبين — أى على الجبين ، وله نظائر فى اللغة والله أعلم * قلت أما كون هذا هو الصحيح عن ابن عباس فلا ، فان علىّ بن أبى طلحة والعوفىّ ضعيفان ، فالأولى

التعويل على المعنى اللغوى والمصير اليه .

وقد أخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال : (السجلّ) هوالرجل ، زاد ابن مردويه بلغة الحبشة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى تفسير الآية ، قال : كطىّ الصحيفة على الكتاب . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (كما بدأنا أوّل خلق نعيده) يقول نهلك كل شىء كما كان أوّل مرّة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر) قال القرآن (أن الأرض) قال أرض الجنة . وأخرج ابن جرير عنه أيضا ، ولقد كتبنا فى الزبور ، قال الكتب : من بعد الذكر ، قال التوراة وفى إسناده العوفى . وأخرج سعيد بن منصور عنه أيضا ، قال : الزبور والتوراة والانجيل والقرآن ، والذكر : الأصل الذى نسخت منه هذه الكتب الذى فى السماء ، والأرض : أرض الجنة . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) قال أرض الجنة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية . قال أخبر الله سبحانه فى التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد الأرض ، ويدخلهم الجنة ، وهم الصالحون ، وفى قوله (لبلاغا لقوم عابدين) قال عالمين ، وفى إسناده علىّ بن أبى طلحة . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبى هريرة : إنّ فى هذا لبلاغا لقوم عابدين ، قال الصلوات الخمس . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم والديلمى عن أنس قال « قال رسول الله ﷺ فى قول الله : إنّ فى هذا لبلاغا لقوم عابدين قال فى الصلوات الخمس شغلا للعبادة » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس « أن النبىّ ﷺ قرأ هذه الآية لبلاغا لقوم عابدين ، قال هى الصلوات الخمس فى المسجد الحرام جماعة » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) قال من آمن تمت له الرحمة فى الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن عوفى مما كان يصيب الأمم فى عاجل الدنيا من العذاب من الخسف والمسخ والقذف . وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال « قيل يارسول الله ادع الله على المشركين ، قال إنى لم أبعث لعانا ، وانما بعثت رحمة » . وأخرج الطيالسى وأحمد والطبرانى وأبو نعيم فى الدلائل عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « ان الله بعثنى رحمة للعالمين وهدى للمتقين » . وأخرج أحمد والطبرانى عن سلمان أن رسول الله ﷺ قال « أيما رجل من أمتى سببته سبة فى غضبى أو لعنته لعنة ، فانما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما يغضبون ، وإنما بعثنى رحمة للعالمين فاجعلها عليه صلاة يوم القيامة » . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إنما أنا رحمة مهداة » ، وقد روى معنى هذا من طرق . وأخرج ابن أبى خيثمة وابن عساكر عن الربيع بن أنس ، قال لما أسرى بالنبىّ ﷺ رأى فلانا ، وهو بعض بنى أمية على المنبر يخطب الناس فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله (وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين) يقول هذا الملك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، وإن أدرى لعله فتنة لكم : يقول ما أخبركم به من العذاب والساعة ، لعلّ تأخير ذلك عنكم فتنة لكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله (قل ربّ احكم بالحقّ) قال لايحكم الله إلا بالحقّ ، وإنما يستعجل بذلك فى الدنيا يسأل ربه .

XXII. ١-٥

تفسير سورة الحج

وهي ثمان وسبعون آية

اختلف أهل العلم ؟ هل هي مكية أو مدنية . فأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحج بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله . وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال : نزل بالمدينة من القرآن الحج غير أربع آيات مكيات ــ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الى عذاب يوم عقيم ــ ، وحكى القرطبي عن ابن عباس أنها مكية سوى ثلاث آيات ، وقيل أربع آيات الى قوله ــ عذاب الحريق ــ ، وحكى عن النقاش أنه نزل بالمدينة منها عشر آيات . قال القرطبي وقال الجمهور ان السورة مختلطة ، منها مكي ، ومنها مدني . قال وهذا هو الصحيح ، قال الغزنوي : وهي من أعاجيب السور نزلت ليلا ونهارا ، سفرا وحضرا ، مكيا ومدنيا ، سلميا وحربيا ، ناسخا ومنسوخا ، محكما ومتشابها ، وقد ورد في فضلها ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عقبة بن عامر قال : قلت يارسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين ؟ قال نعم ، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما . قال الترمذي هذا حديث ليس إسناده بالقوي . وأخرج أبو داود في المراسيل والبيهقي عن خالد بن معدان أن رسول الله ﷺ قال « فضلت سورة الحج على القرآن بسجدتين » . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والاسماعيلي وابن مردويه والبيهقي عن عمر أنه كان يسجد سجدتين في الحج ، وقال ان هذه السورة فضلت على سائر القرآن بسجدتين . وقد روى عن كثير من الصحابة أن فيها سجدتين ، وبه يقول ابن المبارك والشافعي وأحمد واسحق ، وقال بعضهم ان فيها سجدة واحدة ، وهو قول سفيان الثوري ، وأخرجه ابن أبي شيبة عن ابن عباس وابراهيم النخعي .

بسم الله الرحمن الرحيم

يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ * يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ

لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ *

لما انجرّ الكلام فى خاتمة السورة المتقدمة الى ذكر الاعادة وما قبلها وما بعدها بدأ سبحانه فى هذه السورة بذكر القيامة وأهوالها حثا على التقوى التى هى أنفع زاد ، فقال (يا أيها الناس اتقوا ربكم) أى احذروا عقابه بفعل ما أمركم به من الواجبات وترك ما نهاكم عنه من المحرّمات ، ولفظ الناس يشمل جميع المكلفين من الموجودين ومن سيوجد على ما تقرر فى موضعه . وقد قدّمنا طرفا من تحقيق ذلك فى سورة البقرة ، وجملة (إنّ زلزلة الساعة شىء عظيم) تعليل لما قبلها من الأمر بالتقوى ، والزلزلة شدّة الحركة ، وأصلها من زلّ عن الموضع : أى زال عنه وتحرّك ، وزلزل الله قدمه : أى حرّكها ، وتكرير الحرف يدلّ على تأكيد المعنى ، وهو من إضافة المصدر الى فاعله ، وهى على هذا الزلزلة التى هى أحد أشراط الساعة التى تكون فى الدنيا قبل يوم القيامة ، هذا قول الجمهور ، وقيل انها تكون فى النصف من شهر رمضان ، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها ، وقيل ان المصدر هنا مضاف الى الظرف ، وهو الساعة اجراء له مجرى المفعول ، أو بتقدير فى كما فى قوله ــ بل مكر الليل والنهار ــ وهى المذكورة فى قوله ــ اذا زلزلت الأرض زلزالها ــ قيل وفى التعبير عنها بالشىء إيذان بأن العقول قاصرة عن ادراك كنهها (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت) انتصاب الظرف بما بعده ، والضمير يرجع الى الزلزلة : أى وقت رؤيتكم لها تذهل كل ذات رضاع عن رضيعها وتغفل عنه . قال قطرب تذهل تشتغل ، وأنشد قول الشاعر :

ضرب يزيل الهام عن مقيله * ويذهل الخليل عن خليله

وقيل تنسى ، وقيل تلهو ، وقيل تسلو ، وهذه معانيها متقاربة . قال المبرّد ان ما فى أرضعت بمعنى المصدر : أى تذهل عن الارضاع ، قال وهذا يدلّ على أن هذه الزلزلة فى الدنيا ، إذ ليس بعد القيامة حمل وإرضاع : الا أن يقال من ماتت حاملا فتضع حملها للهول ، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك ، ويقال هذا مثل كما يقال ــ يوما يجعل الولدان شيبا ــ وقيل يكون مع النفخة الأولى ، قال ويحتمل أن تكون الساعة عبارة عن أهوال يوم القيامة ، كما فى قوله ــ مستهم البأساء والضرّاء وزلزلوا ــ ومعنى (وتضع كل ذات حمل حملها) أنها تلقى جنينها لغير تمام من شدّة الهول ، كما أن المرضعة تترك ولدها بغير رضاع لذلك (وترى الناس سكارى) قرأ الجمهور بفتح التاء والراء خطاب لكل واحد : أى يراهم الرائى كأنهم سكارى (وماهم بسكارى) حقيقة ، قرأ حمزة والكسائى : سكرى بغير ألف ، وقرأ الباقون باثباتها وهما لغتان يجمع بهما سكران ، مثل كسلى وكسالى ، ولما نفى سبحانه عنهم السكر ، أوضح السبب الذى لأجله شابهوا السكارى ، فقال (ولكنّ عذاب الله شديد) فبسبب هذه الشدّة والهول العظيم طاشت عقولهم ، واضطربت أفهامهم ، فصاروا كالسكارى ، بجامع سلب كمال التمييز وصحة الادراك ، وقرئ وترى

بضم التاء وفتح الراء مسندا الى المخاطب من أرأيتك : أى تظنهم سكارى ، قال الفرّاء وهذه القراءة وجه جيد فى العربية ، ثم لما أراد سبحانه أن يحتجّ على منكرى البعث قدّم قبل ذلك مقدّمة تشمل أهل الجدال كلهم ، فقال (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) وقد تقدّم إعراب مثل هذا التركيب فى قوله ـ ومن الناس من يقول ـ ومعنى فى الله فى شأن الله وقدرته ، ومحل بغير علم النصب على الحال * والمعنى أنه يخاصم فى قدرة الله فيزعم أنه غير قادر على البعث بغير علم يعلمه ، ولا حجة يدلى بها (ويتبع) فيما يقوله ويتعاطاه ويحتجّ به ويجادل عنه (كل شيطان مريد) أى متمرّد على الله وهو العاتى ، سمى بذلك لخلوّه عن كل خير ، والمراد إبليس وجنوده ، أو رؤساء الكفار الذين يدعون أشياعهم الى الكفر ، وقال الواحدى قال المفسرون: نزلت فى النضر بن الحارث ، وكان كثير الجدال ، وكان ينكر أن الله يقدر على احياء الأموات ، وقيل نزلت فى الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة (كتب عليه أنه من تولاه) أى كتب على الشيطان ، وفاعل كتب أنه من تولاه ، والضمير للشأن : أى من اتخذه وليا (فأنه يضله) أى فشأن الشيطان أن يضله عن طريق الحقّ ، فقوله انه يضله جواب الشرط ان جعلت من شرطية ، أو خبر الموصول ان جعلت موصولة ، فقد وصف الشيطان بوصفين : الأوّل أنه مريد ، والثانى ما أفاده جملة كتب عليه الخ ، وجملة (ويهديه الى عذاب السعير) معطوفة على جملة يضله : أى يحمله على مباشرة ما يصير به فى عذاب السعير ، ثم ذكر سبحانه ما هو المقصود من الاحتجاج على الكفار بعد فراغه من تلك المقدّمة ، فقال (يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث) قرأ الحسن البعث بفتح العين وهى لغة ، وقرأ الجمهور بالسكون ، وشكهم يحتمل أن يكون فى وقوعه أو فى امكانه * والمعنى ان كنتم فى شكّ من الاعادة ، فانظروا فى مبدأ خلقكم : أى خلق أبيكم آدم ليزول عنكم الريب ، ويرتفع الشكّ ، وتدحض الشبهة الباطلة (فانا خلقناكم من تراب) فى ضمن خلق أبيكم آدم (ثم) خلقناكم (من نطفة) أى من منىّ : سمى نطفة لقلته ، والنطفة : القليل من الماء . وقد يقع على الكثير منه ، والنطافة : القطرة ، يقال نطف ينطف : أى قطر ، وليلة نطوف : أى دائمة القطر (ثم من علقة) والعلقة : الدم الجامد ، والعلق : الدم العبيط : أى الطرىّ أو المتجمد ، وقيل الشديد الحمرة ، والمراد الدم الجامد المتكوّن من المنىّ (ثم من مضغة) وهى : القطعة من اللحم قدر ما يمضغ الماضغ تتكوّن من العلقة (مخلقة) بالجرّ صفة لمضغة : أى مستبينة الخلق ظاهرة التصوير (وغير مخلقة) أى لم يستبن خلقها ، ولا ظهر تصويرها . قال ابن الأعرابى : مخلقة يريد قد بدا خلقه ، وغير مخلقة لم تصوّر . قال الأكثر: ما أكمل خلقه بنفخ الروح فيه فهو المخلقة ، وهو الذى ولد لتمام ، وما سقط كان غير مخلقة أى غير حىّ بأكمال خلقته بالروح . قال الفراء : مخلقة تامّ الخلق ، وغير مخلقة : السقط ، ومنه قول الشاعر :

أفى غير المخلقة البكاء * فأين الحزم ويحك والحياء

واللام فى (لنبين لكم) متعلق بخلقنا : أى خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم كمال قدرتنا بتصريفنا أطوار خلقكم (ونقرّ فى الأرحام مانشاء) روى أبو حاتم عن أبى زيد عن المفضل عن عاصم أنه قرأ بنصب نقرّ عطفا على نبين ، وقرأ الجمهور نقرّ بالرفع على الاستئناف : أى ونحن نقرّ : قال الزجاج : نقرّ بالرفع لاغير ، لأنه ليس المعنى فعلنا ذلك لنقرّ فى الأرحام مانشاء ، ومعنى الآية : ونثبت فى الأرحام مانشاء فلا يكون سقطا (إلى أجل مسمى) وهو وقت الولادة ، وقال مانشاء ولم يقل من نشاء ، لأنه يرجع الى الحمل وهو جماد قبل أن ينفخ فيه الروح ، وقرئ ليبين ويقرّ ويخرجكم بالتحتية فى الأفعال الثلاثة ، وقرأ ابن أبى وثاب مانشاء بكسر النون (ثم نخرجكم طفلا) أى نخرجكم من بطون أمهاتكم طفلا : أى

أطفالا ، وانما أفرده ارادة للجنس الشامل للواحد والمتعدد . قال الزجاج : طفلا فى معنى أطفالا ، ودلّ عليه ذكر الجماعة : يعنى فى نخرجكم ، والعرب كثيرا ماتطلق اسم الواحد على الجماعة ، ومنه قول الشاعر :

يلحيننى من حبها ويلمننى ٭ ان العواذل لسن لى بأمير

وقال المبرد : هو اسم يستعمل مصدرا كالرضا ، والعدل فيقع على الواحد ، والجمع : قال الله سبحانه ـ أو الطفل الذين لم يظهروا ـ . قال ابن جرير : هو منصوب على التمييز كقوله ـ فان طبن لكم عن شىء منه نفسا ـ ، وفيه بعد ، والظاهر انتصابه على الحال بالتأويل المذكور ، والطفل يطلق على الصغير من وقت انفصاله الى البلوغ (ثم لتبلغوا أشدّكم) قيل هو علة لنخرجكم معطوف على علة أخرى مناسبة له ، كأنه قيل نخرجكم لتكبروا شيئا فشيئا ثم لتبلغوا الى الأشد ، وقيل ان ثم زائدة ، والتقدير لتبلغوا ، وقيل انه معطوف على نبين ، والأشدّ هو كمال العقل وكمال القوة والتمييز ، قيل وهو مابين الثلاثين الى الأربعين . وقد تقدّم الكلام فى هذا مستوفى فى الأنعام (ومنكم من يتوفّى) يعنى قبل بلوغ الأشدّ ، وقرئ يتوفّى مبنيا للفاعل ، وقرأ الجمهور يتوفّى مبنيا للمفعول (ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر) أى أخسه وأدونه ، وهو الهرم والخرف حتى لايعقل ، ولهذا قال سبحانه (لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) أى شيئا من الأشياء ، أو شيئا من العلم ٭ والمعنى أنه يصير من بعد أن كان ذا علم بالأشياء وفهم لها ، لاعلم له ولا فهم ، ومثله قوله ـ لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين ـ ، وقوله ـ ومن نعمره ننكسه فى الخلق ـ (وترى الأرض هامدة) هذه حجة أخرى على البعث ، فانه سبحانه احتج باحياء الأرض بانزال الماء على احياء الأموات : والهامدة اليابسة التى لاتنبت شيئا ، قال ابن قتيبة : أى ميتة يابسة كالنار اذا طفئت ، وقيل دارسة ، والهمود الدروس ، ومنه قول الأعشى .

قالت قتيلة مالجسمك شاحبا ٭ وأرى ثيابك باليات همودا

وقيل هى التى ذهب عنها الندى ، وقيل هالكة ، ومعانى هذه الأقوال متقاربة (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) المراد بالماء هنا المطر ، ومعنى اهتزت تحركت ، والاهتزاز شدّة الحركة ، يقال هززت الشىء فاهتز : أى حركته فتحرك ٭ والمعنى تحركت بالنبات ، لأن النبات لايخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض ازالة حقيقة ، فسماه اهتزازا مجازا . وقال المبرد : المعنى اهتز نباتها فحذف المضاف ، واهتزازه شدّة حركته ، والاهتزاز فى النبات أظهر منه فى الأرض ، ومعنى ربت ارتفعت ، وقيل انتفخت ٭ والمعنى واحد ، وأصله الزيادة ، يقال ربا الشىء يربو ربوا اذا زاد ، ومنه الربا والربوة . وقرأ يزيد بن القعقاع وخالد بن الياس وربأت : أى ارتفعت حتى صارت بمنزلة الرابية ، وهو الذى يحفظ القوم على مكان مشرف يقال له رابئ ورابئة وربيئة (وأنبتت) أى أخرجت (من كلّ زوج بهيج) أى من كلّ صنف حسن ولون مستحسن ، والبهجة الحسن ، وجملة (ذلك بأن الله هو الحق) مستأنفة ، لما ذكر افتقار الموجودات اليه سبحانه وتسخيرها على وفق ارادته واقتداره . قال بعد ذلك هذه المقالات ، وهى اثبات أنه سبحانه الحق ، وأنه المتفرد باحياء الموتى ، وأنه قادر على كلّ شىء من الأشياء ٭ والمعنى أنه المتفرد بهذه الأمور وأنها من شأنه لايدّعى غيره أنه يقدر على شىء منها ، فدلّ سبحانه بهذا على أنه الحقّ الحقيق الغنىّ المطلق ، وأن وجود كل موجود مستفاد منه ، والحقّ هو الموجود الذى لايتغير ولا يزول ، وقيل ذو الحقّ على عباده ، وقيل الحقّ فى أفعاله . قال الزجاج : ذلك فى موضع رفع : أى الأمر ماوصفه لكم ، وبين بأن الله هو الحق . قال ، ويجوز أن يكون ذلك نصبا ، ثم أخبر سبحانه بأن (الساعة آتية) أى فى مستقبل الزمان ، قيل لابدّ من اضمار فعل : أى ولتعلموا أن الساعة آتية (لاريب فيها) أى

لاشك فيها ولا تردد ، وجملة (لاريب فيها) خبر ثان للساعة ، أو فى محل نصب على الحال ، ثم أخبر سبحانه عن البعث ، فقال (وأن الله يبعث من فى القبور) فيجازيهم بأعمالهم ان خيرا فخير وان شرا فشر ، وأن ذلك كائن لامحالة .

وقد أخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وصححه والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه من طرق عن الحسن وغيره عن عمران بن حصين قال : لما نزلت (يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم) الى قوله (ولكن عذاب الله شديد) أنزلت عليه هذه ، وهو فى سفر ، فقال أتدرون أى يوم ذلك ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال ذلك يوم يقول الله لآدم ابعث بعث النار . قال يارب وما بعث النار ؟ قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار ، وواحدا الجنة ، فأنشأ المسلمون يبكون ، فقال رسول الله ﷺ « قاربوا وسددوا وأبشروا فانها لم تكن نبوة قط الا كان بين يديها جاهلية فتؤخذ العدة من الجاهلية فان تمت والا كملت من المنافقين وما مثلكم والأمم ، الا كمثل الرقمة فى ذراع الدابة ، أو كالشامة فى جنب البعير ، ثم قال انى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا ثم قال انى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا ، ثم قال انى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا قال ولاأدرى ؟ قال الثلثين أم لا » . وأخرج الترمذى وصححه وابن جرير وابن المنذر عن عمران بن حصين مرفوعا نحوه ، وقال فى آخره « اعملوا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده انكم لمع خليقتين ما كانتا مع شىء الا كثرتاه يأجوج ومأجوج ، ومن مات من بنى آدم ومن بنى ابليس ، فسرى عن القوم بعض الذى يجدون قال اعملوا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده ماأنتم فى الناس الا كالشامة فى جنب البعير أو كالرقمة فى ذراع الدابة » . وأخرج عبدالرزاق وعبدبن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس مرفوعا نحوه . وأخرج البزار وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس مرفوعا نحوه أيضا وفى الصحيحين وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال : قال النبى ﷺ فذكر نحوه ، وفى آخره فقال من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم واحد وهل أنتم فى الأمم الا كالشعرة السوداء فى الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود » . وأخرج عبدالرزاق وعبدبن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (كتب عليه) قال : كتب على الشيطان . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد مثله (أنه من تولاه) قال اتبعه . وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود قال « حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق أن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله اليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد فوالذى لاإله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدا . وأخرج ابن أبى حاتم وصححه عن ابن عباس فى قوله (مخلقة وغير مخلقة) قال المخلقة ما كان حيا ، وغير المخلقة ما كان سقطا ، وروى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (من كل زوج بهيج) قال حسن . وأخرج عبدالله بن أحمد فى زوائد الزهد عن معاذ بن جبل قال : من علم أن الله عز وجل حق وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور دخل الجنة .

ومن

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُنِيرٍ * ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِلْعَبِيدِ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ * يَدْعُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنْفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ * يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُۥ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ * إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ * مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ * وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَنْ يُرِيدُ *

قوله (ومن الناس من يجادل فى الله) أى فى شأن الله ، كقول من قال : ان الملائكة بنات الله ، والمسيح ابن الله ، وعزير ابن الله ، قيل نزلت فى النضر بن الحارث ، وقيل فى أبى جهل ، وقيل هى عامة لكل من يتصدى لاضلال الناس واغوائهم ، وعلى كل حال ، فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ ، وان كان السبب خاصا * ومعنى اللفظ ومن الناس فريق يجادل فى الله ، فيدخل فى ذلك كل مجادل فى ذات الله ، أو صفاته ، أو شرائعه الواضحة ، و (بغير علم) فى محل نصب على الحال : أى كائنا بغير علم ، قيل والمراد بالعلم هو العلم الضرورى . وبالهدى هو العلم النظرى الاستدلالى ، والأولى حمل العلم على العموم ، وحمل الهدى على معناه اللغوى ، وهو الارشاد : والمراد بالكتاب المنير هو القرآن ، والمنير النير البين الحجة الواضح البرهان ، وهو وان دخل تحت قوله بغير علم ، فافراده بالذكر كافراد جبريل بالذكر بعد ذكر الملائكة ، وذلك لكونه الفرد الكامل الفائق على غيره من أفراد العلم ، وأما من حمل العلم على الضرورى ، والهدى على الاستدلالى ، فقد حمل الكتاب هنا على الدليل السمعى ، فتكون الآية متضمنة لنفى الدليل العقلى ضروريا كان ، أو استدلاليا ، ومتضمنة لنفى الدليل النقلى بأقسامه ، وما ذكرناه أولى ، قيل والمراد بهذا المجادل فى هذه الآية هو المجادل فى الآية الأولى ، أعنى قوله ـ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ـ ، وبذلك قال كثير من المفسرين ، والتكرير للمبالغة فى الذم كما تقول للرجل تذمه وتوبخه أنت فعلت هذا أنت فعلت هذا ؟ ويجوز أن يكون التكرير لكونه وصفه فى كل آية بزيادة على ماوصفه به فى الآية الأخرى ، فكأنه قال ـ ومن الناس من يجادل فى الله ويتبع كل شيطان مريد ـ بغير علم (ولا هدى ولا كتاب منير) ليضل عن سبيل الله اه ، وقيل الآية الأولى فى المقلدين اسم فاعل . والثانية فى المقلدين اسم مفعول . ولاوجه لهذا كما أنه لاوجه لقول من قال : ان الآية الأولى خاصة باضلال المتبوعين لتابعيهم ، والثانية عامة فى كل اضلال وجدال ، وانتصاب (ثانى عطفه) على الحال من فاعل يجادل ، والعطف الجانب ، وعطفا الرجل جانباه من يمين وشمال ، وفى تفسيره وجهان : الأول أن المراد به من يلوى عنقه مرحا وتكبرا ، ذكر معناه الزجاج . قال وهذا يوصف به المتكبر * والمعنى ومن الناس من يجادل فى الله متكبرا . قال المبرد : العطف ما انثنى من العنق ، والوجه الثانى أن المراد بقوله ثانى عطفه الاعراض

أى معرضا عن الذكر ، كذا قال الفراء والمفضل وغيرهما كقوله تعالى ـ ولى مستكبرا كأن لم يسمعها ـ وقوله ـ لووا رؤوسهم ـ ، وقوله ـ أعرض ونأى بجانبه ـ ، واللام فى (ليضلّ عن سبيل الله) متعلق بتجادل : أى ان غرضه هو الاضلال عن السبيل ، وان لم يعترف بذلك . وقرئ ليضلّ بفتح الياء على أن تكون اللام هى لام العاقبة كأنه جعل ضلاله غاية لجداله ، وجملة (له فى الدنيا خزى) مستأنفة مبينة لما يحصل له بسبب جداله من العقوبة . والخزى الذل ، وذلك بما يناله من العقوبة فى الدنيا من العذاب المعجل وسوء الذكر على ألسن الناس ، وقيل الخزى الدنيوى هو القتل كما وقع فى يوم بدر (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) أى عذاب النار المحرقة ، والاشارة بقوله (ذلك) الى ماتقدّم من العذاب الدنيوى والأخروى ، وهو مبتدأ خبره (بما قدّمت يداك) ، والباء للسببية : أى ذلك العذاب النازل بك بسبب ماقدّمته يداك من الكفر والمعاصى ، وعبر باليد عن جملة البدن لكون مباشرة المعاصى تكون بها فى الغالب ، ومحل أن ومابعدها فى قوله (وأن الله ليس بظلام للعبيد) الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف : أى والأمر أنه سبحانه لايعذب عباده بغير ذنب . وقد مرّ الكلام على هذه الآية فى آخر آل عمران فلا نعيده (ومن الناس من يعبد الله على حرف) هذا بيان لشقاق أهل الشقاق . قال الواحدى : قال أكثر المفسرين الحرف الشك ، وأصله من حرف الشىء ، وهو طرفه ، مثل حرف الجبل والحائط ، فان القائم عليه غير مستقر ، والذى يعبد الله على حرف قلق فى دينه على غير ثبات وطمأنينة كالذى هو على حرف الجبل ونحوه يضطرب اضطرابا و يضعف قيامه ، فقيل للشاك فى دينه انه يعبد الله على حرف ، لأنه على غير يقين من وعده ووعيده ، بخلاف المؤمن ، لأنه يعبده على يقين و بصيرة فلم يكن على حرف ، وقيل الحرف الشرط : أى ومن الناس من يعبد الله على شرط ، والشرط هو قوله (فان أصابه خير اطمأن به) أى خير دنيوى من رخاء وعافية وخصب وكثرة مال ، ومعنى اطمأنّ به ثبت على دينه واستمرّ على عبادته ، أو اطمأن قلبه بذلك الخير الذى أصابه (وان أصابته فتنة) أى شىء يفتتن به من مكروه يصيبه فى أهله ، أو ماله ، أو نفسه (انقلب على وجهه) أى ارتدّ ورجع الى الوجه الذى كان عليه من الكفر ، ثم بين حاله بعد انقلابه على وجهه فقال (خسر الدنيا والآخرة) أى ذهبا منه وفقدهما ، فلاحظ له فى الدنيا من الغنيمة والثناء الحسن ، ولا فى الآخرة من الأجر وما أعدّه الله للصالحين من عباده . وقرأ مجاهد وحميد بن قيس والأعرج والزهرى وابن أبى اسحق خاسر الدنيا والآخرة على صيغة اسم الفاعل منصوبا على الحال . وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . والاشارة بقوله (ذلك) الى خسران الدنيا والآخرة . وهو مبتدأ وخبره (هو الخسران المبين) أى الواضح الظاهر الذى لاخسران مثله (يدعو من دون الله مالا يضرّه ومالا ينفعه) أى هذا الذى انقلب على وجهه ورجع الى الكفر يدعو من دون الله : أى يعبد متجاوزا عبادة الله إلى عبادة الأصنام مالايضرّه ان ترك عبادته ، ولاينفعه ان عبده لكون ذلك المعبود جمادا لايقدر على ضرّ ولا نفع ، والاشارة بقوله (ذلك) الى الدعاء المفهوم من الفعل ، وهو يدعو واسم الاشارة مبتدأ وخبره (هو الضلال البعيد) أى عن الحق والرشد مستعار من ضلال من سلك غير الطريق فصار بضلاله بعيدا عنها قال الفراء : البعيد الطويل (يدعو لمن ضرّه أقرب من نفعه) يدعو بمعنى يقول ، والجملة مقرّرة لما قبلها من كون ذلك الدعاء ضلالا بعيدا . والأصنام لانفع فيها بحال من الأحوال بل هى ضرر بحت لمن يعبدها ، لأنه دخل النار بسبب عبادتها ، وإيراد صيغة التفضيل مع عدم النفع بالمرّة للمبالغة فى تقبيح حال ذلك الداعى ، أو ذلك من باب ـ وانا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ـ واللام هى الموطئة للقسم ، ومن موصولة أو موصوفة ، وضرّه مبتدأ خبره أقرب ، والجملة صلة الموصول . وجملة (لبئس

المولى

المولى ولبئس العشير) جواب القسم * والمعنى أنه يقول ذلك الكافر يوم القيامة لمعبوده الذى ضرّه أقرب من نفعه لبئس المولى أنت ولبئس العشير : والمولى الناصر ، والعشير الصاحب ، ومثل ما فى هذه الآية قول عنترة .

يدعون عنتر والرماح كأنها * أشطان بئر فى لبان الأدهم

وقال الزجاج : يجوز أن يكون يدعو فى موضع الحال . وفيه هاء محذوفة . أى ذلك هو الضلال البعيد يدعوه وعلى هذا يوقف على يدعو ، ويكون قوله لمن ضرّه أقرب من نفعه كلاما مستأنفا مرفوعا بالابتداء وخبره لبئس المولى . قال وهـذا لأن اللام لليمين والتوكيد فجعلها أول الكلام ، وقال الزجاج والفراء يجوز أن يكون يدعو مكررة على ماقبلها على جهة تكثير هذا الفعل الذى هو الدعاء : أى يدعو مالا يضرّه ولا ينفعه يدعو مثل ضربت زيدا ضربت ، وقال الفراء والكسائى والزجاج . معنى الكلام القسم ، واللام مقدّمة على موضعها ، والتقدير يدعو من لضرّه أقرب من نفعه ، فمن فى موضع نصب بيدعو ، واللام جواب القسم وضرّه مبتدأ ، وأقرب خبره ، ومن التصرف فى اللام بالتقديم والتأخير قول الشاعر :

خالى لأنت ومن جرير خاله * ينل العلاء ويكرم الأخوالا

أى لخالى أنت . قال النحاس : وحكى لنا على بن سليمان عن محمد بن يزيد قال : فى الكلام حذف والمعنى يدعو لمن ضره أقرب من نفعه إلاها ، قال النحاس : وأحسب هذا القول غلطا عن محمد بن يزيد ، ولعل وجهه أن ماقبل اللام هذه لايعمل فيما بعدها ، وقال الفراء أيضا ، والقفال اللام صلة : أى زائدة ، والمعنى : يدعو من ضره أقرب من نفعه : أى يعبده ، وهكذا فى قراءة عبد الله بن مسعود بحذف اللام وتكون اللام فى لبئس المولى وفى لبئس العشير على هذا موطئة للقسم (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار) لما فرغ من ذكر حال المشركين ، ومن يعبد الله على حرف ذكر حال المؤمنين فى الآخرة ، وأخبر أنه يدخلهم هذه الجنات المتصفة بهذه الصفة ، وقد تقدم الكلام فى جرى الأنهار من تحت الجنات ، وبينا أنه ان أريد بها الأشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها ، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وان أريد بها الأرض فلا بد من تقدير مضاف : أى من تحت أشجارها (ان الله يفعل مايريد) هذه الجملة تعليل لما قبلها : أى يفعل مايريده من الأفعال ـ لايسأل عما يفعل ـ فيثيب من يشاء ويعذب من يشاء (من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة) قال النحاس : من أحسن ماقيل فى هذه الآية أن المعنى : من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا ﷺ وانه يتهيأ له أن يقطع النصر الذى أوتيه (فليمدد بسبب الى السماء) أى فليطلب حيلة يصل بها الى السماء (ثم ليقطع) أى ثم ليقطع النصر ان تهيأ له (فلينظر هل يذهبن كيده) وحيلته (مايغيظ) من نصر النبى ﷺ ، وقيل المعنى من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا حتى يظهره على الدين كله ، فليمت غيظا . ثم فسره بقوله (فليمدد بسبب الى السماء) أى فليشدد حبلا فى سقف بيته (ثم ليقطع) أى ثم ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقا * والمعنى ، فليختنق غيظا حتى يموت ، فان الله ناصره ومظهره ، ولاينفعه غيظه ، ومعنى فلينظر هل يذهبن كيده : أى صنيعه وحيلته مايغيظ : أى غيظه ، وما مصدرية ، وقيل ان الضمير فى ينصره يعود الى من * والمعنى : من كان يظنّ أن الله لايرزقه فليقتل نفسه ، وبه قال أبو عبيدة ؛ وقيل ان الضمير يعود الى الدين : أى من كان يظنّ ان لن ينصر الله دينه . وقرأ الكوفيون باسكان اللام فى ثم ليقطع ، قال النحاس : وهذه القراءة بعيدة من العربية (وكذلك أنزلناه آيات بينات) أى مثل ذلك الانزال البديع أنزلناه آيات واضحات ظاهرة الدلالة على مدلولاتها (وأن الله يهدى من يريد) هدايته ابتداء أو زيادة فيها لمن كان مهديا من قبل .

XXII ١٦٠٤٤

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (ثانى عطفه) قال لاوى عنقه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس والسدى وابن زيد وابن جريج أنه المعرض . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله (ثانى عطفه) قال أنزلت فى النضر بن الحارث . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية . قال هو رجل من بنى عبد الدار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ثانى عطفه قال مستكبرا فى نفسه . وأخرج البخارى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (ومن الناس من يعبد الله على حرف) قال كان الرجل يقدم المدينة ، فان ولدت امرأته غلاما وأنتجت خيله قال هذا دين صالح ، وان لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله قال هذا دين سوء . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه بسند صحيح . قال كان ناس من الأعراب يأتون النبى ﷺ يسلمون ، فاذا رجعوا إلى بلادهم ، فان وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا ان ديننا هذا لصالح فتمسكوا به ، وان وجدوا عام جدب وعام ولاد سوء وعام قحط . قالوا مافى ديننا هذا خير ، فأنزل الله ومن الناس من يعبد الله على حرف . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا نحوه ، وفى إسناده العوفى . وأخرج ابن مردويه أيضا من طريقه أيضا عن أبى سعيد . قال أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاءم بالاسلام ، فأتى النبى ﷺ فقال أقلنى أقلنى . قال ان الاسلام لايقال ، فقال لم أصب من دينى هذا خيرا ذهب بصرى ومالى ومات ولدى ، فقال يايهودى : الاسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة ، فنزلت ومن الناس من يعبد الله على حرف . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (من كان يظن أن لن ينصره الله) قال من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا فى الدنيا والآخرة (فليمدد بسبب) قال فليربط بحبل إلى السماء . قال إلى سماء بيته السقف (ثم ليقطع) قال ثم يختنق به حتى يموت . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه . قال من كان يظن أن لن ينصره الله : يقول أن لن يرزقه الله ، فليمدد بسبب إلى السماء ، فليأخذ حبلا فليربطه فى سماء بيته فليختنق به (فلينظر هل يذهبن كيده مايغيظ) قال فلينظر هل ينفعه ذلك أو يأتيه برزق .

إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد * ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء * هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم * يصهر به ما فى بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق * إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير * وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد *

قوله

قوله (إن الذين آمنوا) أى بالله وبرسوله ، أو بما ذكر من الآيات البينات (والذين هادوا) هم اليهود المنتسبون الى ملة موسى (والصابئين) قوم يعبدون النجوم : وقيل هم من جنس النصارى وليس ذلك بصحيح بل هم فرقة معروفة لاترجع الى ملة من الملل المنتسبة الى الأنبياء (والنصارى) هم المنتسبون الى ملة عيسى (والمجوس) هم الذين يعبـدون النار ، ويقولون ان للعالم أصلين : النور والظلمة ، وقيل هم قوم يعبدون الشمس والقمر ، وقيل هم قوم يستعملون النجاسات ، وقيل هم قوم من النصارى اعتزلوهم ولبسوا المسوح ، وقيل انهم أخذوا بعض دين اليهود ، و بعض دين النصارى (والذين أشركوا) الذين يعبدون الاصنام ، وقـد مضى تحقيق هذا فى البقرة ، ولكنه سبحانه قدّم هنالك النصارى على الصابئين ، وأخرهم عنهم هنا . فقيل وجه تقديم النصارى هنالك أنهم أهل كتاب دون الصابئين ، ووجه تقديم الصابئين هنا أنّ زمنهم متقدّم على زمن النصارى ، وجملة (ان الله يفصل بينهم يوم القيامة) فى محل رفع على أنها خبر لان المتقدمة ، ومعنى الفصل انه سبحانه يقضى بينهم فيدخل المؤمنين منهم الجنة والكافرين منهم النار ، وقيل الفصل هوأن يميز المحقّ من المبطل بعلامة يعرف بها كل واحد منهما ، وجملة (ان الله على كل شىء شهيد) تعليل لما قبلها : أى انه سبحانه على كل شىء من أفعال خلقه وأقوالهم شهيد لايعزب عنه شىء منها ، وأنكر الفراء أن تكون جملة ان الله يفصل بينهم خبرا لان المتقدّمة . وقال لايجوز فى الكلام ان زيدا ان أخاه منطلق ، وردّ الزجاج ماقاله الفراء ، وأنكره وأنكر ماجعله مماثلا للآية ، ولاشك فى جواز قولك ان زيدا ان الخير عنده ، وان زيدا انه منطلق ، ونحو ذلك (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض) الرؤية هنا هى القلبية لا البصرية : أى ألم تعلم ، والخطاب لكل من يصلح له ، وهو من تتأتى منه الرؤية ، والمراد بالسجود هنا هو الانقياد الكامل ، لاسجود الطاعة الخاصة بالعقلاء ، سواء جعلت كلة من خاصة بالعقلاء ، أوعامة لهم ولغيرهم ، ولهذا عطف (الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدّواب) على من ، فان ذلك يفيد أن السجود هو الانقياد لا الطاعة الخاصة بالعقلاء ، وانما أفرد هذه الأمور بالذكر مع كونها داخلة تحت من ، على تقدير جعلها عامة لكون قيام السجود بها مستبعدا فى العادة ، وارتفاع (كثير من الناس) بفعل مضمر يدل عليه المذكور : أى ويسجد له كثير من الناس ، وقيل مرتفع على الابتداء وخبره محذوف وتقديره وكثير من الناس يستحق الثواب ، والأوّل أظهر ، وانما لم يرتفع بالعطف على من ، لأن سجود هؤلاء الكثير من الناس هوسجود الطاعة الخاصة بالعقلاء ، والمراد بالسجود المتقدّم هو الانقياد ، فلو ارتفع بالعطف على من ، لكان فى ذلك جمع بين معنيين مختلفين فى لفظ واحد ، وأنت خبير بأنه لاملجئ الى هذا بعد حمل السجود على الانقياد ولاشك أنه يصح أن يراد من سجود كثير من الناس هو انقيادهم لا نفس السجود الخاص ، فارتفاعه على العطف لابأس به ، وان أبى ذلك صاحب الكشاف ومتابعوه ، وأما قوله (وكثير حق عليه العذاب) فقال الكسائى والفراء انه مرتفع بالابتداء وخبره مابعده ، وقيل هو معطوف على كثير الأوّل ويكون المعنى : وكثير من الناس يسجد ، وكثير منهم يأبى ذلك ، وقيـل المعنى : وكثير من الناس فى الجنة ، وكثير حق عليـه العذاب ، هكذا حكاه ابن الانبارى (ومن يهن الله فما له من مكرم) أى من أهانه الله ، بأن جعله كافرا شقيا ، فما له من مكرم يكرمه ، فيصير سعيدا عزيزا . وحكى الأخفش والكسائى والفراء أن المعنى ومن يهن الله فما له من مكرم : أى إكرام (ان الله يفعل مايشاء) من الأشياء التى من جملتها ماتقدّم ذكره من الشقاوة والسعادة والاكرام والاهانة (هذان خصمان) الخصمان أحدهما أنجس الفرق اليهود والنصارى والصابئون والمجوس والذين أشركوا ، والخصم الآخر المسلمون

فهما فريقان مختصمان ، قاله الفراء وغيره ، وقيل المراد بالخصمين الجنة والنار . قالت الجنة خلقني لرحمته ، وقالت النار خلقني لعقوبته ، وقيل المراد بالخصمين هم الذين برزوا يوم بدر ، فمن المؤمنين حمزة وعليّ وعبيدة ، ومن الكافرين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة . وقد كان أبو ذرّ رضي الله يقسم أن هذه الآية نزلت في هؤلاء المتبارزين كما ثبت عنه في الصحيح ، وقال بمثل هذا جماعة من الصحابة ، وهم أعرف من غيرهم بأسباب النزول ، وقد ثبت في الصحيح أيضا عن عليّ أنه قال فينا نزلت هذه الآية وقرأ ابن كثير هذانّ بتشديد النون ، وقال سبحانه (اختصموا) ولم يقل اختصما . قال الفراء : لأنهم جمع ، ولو قال اختصما لجاز ، ومعنى (في ربهم) في شأن ربهم : أي في دينه ، أو في ذاته ، أو في صفاته ، أو في شريعته لعباده ، أو في جميع ذلك ، ثم فصل سبحانه ماأجمله في قوله — يفصل بينهم — فقال (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) . قال الأزهري : أي سوّيت وجعلت لبوسا لهم ، شبهت النار بالثياب لأنها مشتملة عليهم كاشتمال الثياب ، وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيها على تحقق وقوعه ، وقيل ان هذه الثياب من نحاس قد أذيب فصار كالنار ، وهي السرابيل المذكورة في آية أخرى ، وقيل المعنى في الآية أحاطت النار بهم ، وقرئ قطعت بالتخفيف ، ثم قال سبحانه (يصب من فوق رءوسهم الحميم) والحميم هو الماء الحار المغلى بنار جهنم ، والجملة مستأنفة ، أو هي خبر ثان للموصول (يصهر به مافي بطونهم) الصهر الاذابة ، والصهارة ماذاب منه ، يقال صهرت الشيء فانصهر : أي أذبته فذاب فهو صهير * والمعنى أنه يذاب بذلك الحميم مافي بطونهم من الأمعاء والاحشاء (والجلود) معطوفة على ما : أي ويصهر به الجلود ، والجملة في محل نصب على الحال ، وقيل ان الجلود لاتذاب ، بل تحرق ، فيقدّر فعل يناسب ذلك ، ويقال وتحرق به الجلود كما في قول الشاعر : * علفتها تبنا وماء باردا * أي وسقيتها ماء ، ولايخفى أنه لاملجئ لهذا ، فان الحميم اذا كان يذيب مافي البطون فاذابته للجلد الظاهر بالأولى (ولهم مقامع من حديد) المقامع جمع مقمعة ومقمع . قمعته ضربته بالمقمعة ، وهي قطعة من حديد * والمعنى لهم مقامع من حديد يضربون بها : أي للكفرة ، وسميت المقامع مقامع لأنها تقمع المضروب : أي تذلله . قال ابن السكيت أقمعت الرجل عني إقماعا إذا اطلع عليك فرددته عنك (كلما أرادوا أن يخرجوا منها) أي من النار (أعيدوا فيها) أي في النار بالضرب بالمقامع ، و(من غمّ) بدل من الضمير في منها باعادة الجارّ أو مفعول له : أي لأجل غمّ شديد من غموم النار (وذوقوا عذاب الحريق) هو بتقدير القول : أي أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق : أي العذاب المحرق ، وأصل الحريق : الاسم من الاحتراق ، تحرّق الشيء بالنار واحترق حرقة واحتراقا ، والذوق مماسة يحصل معها إدراك الطعم ، وهو هنا توسع ، والمراد به إدراك الألم قال الزجاج : وهذا لأحد الخصمين . وقال في الخصم الآخر وهم المؤمنون (إنّ الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار) فبين سبحانه حال المؤمنين بعد بيانه لحال الكافرين ، ثم بين الله سبحانه بعض ماأعدّه لهم من النعيم بعد دخولهم الجنة فقال (يحلون فيها) قرأ الجمهور يحلون بالتشديد والبناء للمفعول ، وقرئ مخففا : أي يحليهم الله أو الملائكة بأمره ، ومن في قوله (من أساور) للتبعيض : أي يحلون بعض أساور ، أو للبيان ، أو زائدة ، ومن في (من ذهب) للبيان ، والأساور جمع أسورة والأسورة جمع سوار ، وفي السوار لغتان : كسر السين وضمها ، وفيه لغة ثالثة ، وهي اسوار ، قرأ نافع وابن كثير وعاصم وشيبة (ولؤلؤا) بالنصب عطف على محل أساور : أي ويحلون لؤلؤا ، أو بفعل مقدّر ينصبه ، وهكذا قرأ بالنصب يعقوب والجحدري وعيسى بن عمر ، وهذه القراءة هي الموافقة لرسم المصحف فان هذا الحرف مكتوب فيه بالألف ، وقرأ الباقون بالجرّ عطفا على أساور . أي يحلون من أساور ومن لؤلؤ ،

واللؤلؤ

واللؤلؤ مايستخرج من البحر من جوف الصدف ، قال القشيرى : والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ ، ولايبعد أن يكون فى الجنة سوار من لؤلؤ مصمت كما أن فيها أساور من ذهب (ولباسهم فيها حرير) أى جميع مايلبسونه حرير كما تفيده هذه الاضافة ، ويجوز أن يراد أن هذا النوع من الملبوس الذى كان محرّما عليهم فى الدنيا حلال لهم فى الآخرة ، وأنه من جملة مايلبسونه فيها ، ففيها ماتشتهيه الأنفس ، وكل واحد منهم يعطى ماتشتهيه نفسه وينال مايريده (وهدوا الى الطيب من القول) أى أرشدوا اليه ، قيل هو لا إله الا الله وقيل الحمد لله ، وقيل القرآن ، وقيل هو مايأتيهم من الله سبحانه من البشارات . وقد ورد فى القرآن مايدلّ على هذا القول المجمل هنا ، وهو قوله سبحانه ــ الحمد لله الذى صدقنا وعده . الحمد لله الذى هدانا لهذا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ــ ، ومعنى (وهدوا الى صراط الحميد) أنهم أرشدوا الى الصراط المحمود وهو طريق الجنة ، أو صراط الله الذى هو دينه القويم ، وهو الاسلام .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (والصابئين) قال هم قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون القبلة ، ويقرءون الزبور ، والمجوس عبدة الشمس والقمر والنيران والذين أشركوا عبدة الأوثان (إن الله يفصل بينهم) قال الأديان ستة ، خمسة للشيطان ، ودين الله عزّ وجلّ . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى الآية قال : فصل قضاءه بينهم فجعل الخمسة مشتركة وجعل هذه الأمة واحدة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال . الذين هادوا اليهود ، والصابئون ليس لهم كتاب ، والمجوس أصحاب الأصنام ، والمشركون نصارى العرب . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى ذرّ أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية (هذان خصمان) الآية نزلت فى الثلاثة والثلاثة الذين بارزوا يوم بدر ، وهم حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث وعلىّ بن أبى طالب ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة قال علىّ وأنا أوّل من يجثو فى الخصومة على ركبتيه بين يدى الله يوم القيامة . وأخرجه البخارى وغيره من حديث علىّ . وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس بنحوه ، وهكذا روى عن جماعة من التابعين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (قطعت لهم ثياب من نار) قال من نحاس ، وليس من الآنية شىء اذا حمى أشدّ حرّا منه ، وفى قوله (يصب من فوق رءوسهم الحميم) قال : النحاس يذاب على رءوسهم ، وقوله (يصهر به مافى بطونهم) قال تسيل أمعاؤهم (والجلود) قال تتناثر جلودهم . وأخرج عبد بن حميد والترمذى وصححه وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وأبو نعيم فى الحلية وابن مردويه عن أبى هريرة أنه تلا هذه الآية يصبّ من فوق رءوسهم الحميم فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص الى جوفه فيسلت مافى جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان » . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله يصهر به مافى بطونهم قال : يمشون وأمعاؤهم تتساقط وجلودهم ، وفى قوله ولهم مقامع من حديد قال يضربون بها ، فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالويل والثبور . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : يسقون ماء اذا دخل فى بطونهم أذابها والجلود مع البطون . وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى البعث والنشور عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال « لو أن مقمعا من حديد وضع فى الأرض فاجتمع الثقلان ماأقلوه من الأرض ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان » . وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن سلمان قال : النار سوداء مظلمة لايضىء لهبها ولا جمرها ، ثم قرأ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ أعيدوا فيها ، وفى الصحيحين

وغيرهما عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة » وفى الباب أحاديث . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وهدوا إلى الطيب من القول قال ألهموا . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : هدوا إلى الطيب من القول فى الخصومة إذ قالوا : الله مولانا ولا مولى لكم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن اسمعيل بن أبى خالد فى الآية قال : القرآن وهدوا إلى صراط الحميد قال : الاسلام . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك فى الآية قال : الاسلام . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : لا إله إلا الله والله أكبر والحمد لله الذى قال ـ اليه يصعد الكلم الطيب ـ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ *
ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ *

قوله (إن الذين كفروا و يصدّون عن سبيل الله) عطف المضارع على الماضى ، لأن المراد بالمضارع ما مضى من الصدّ ، ومثل هـذا قوله ـ الذين كفروا وصـدّوا عن سبيل الله ـ ، أو المراد بالصدّ هاهنا الاستمرار لا مجرّد الاستقبال ، فصح بذلك عطفه على الماضى ، ويجوز أن تكون الواو فى و يصدّون واو الحال : أى كفروا ، والحال أنهم يصدّون ، وقيـل الواو زائدة والمضارع خبر إن ، والأولى أن يقـدّر خبر انّ بعـد قوله : والباد ، وذلك نحو خسروا أو هلكوا . وقال الزجاج : ان الخبر نذقه من عـذاب أليم ، وردّ بأنه لو كان خبرا ، لأنّ لم يجزم ، وأيضا لو كان خبرا لان لبقى الشرط ، وهو : ومن يرد بغير جواب ، فالأولى أنه محذوف كما ذكرنا ، والمراد بالصدّ المنع ، و بسبيل الله دينه : أى يمنعون من أراد الدخول فى دين الله (والمسجد الحرام) معطوف على سبيل الله ، قيل المراد به المسجد نفسه كما هو الظاهر من هـذا النظم القرآنى ، وقيل الحرم كله ، لأن المشركين صدّوا رسول الله ﷺ وأصحابه عنه يوم الحديبية ، وقيل المراد به مكة بدليل قوله (الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد) أى جعلناه للناس على العموم يصلون فيه و يطوفون به مستويا فيه العاكف ، وهو المقيم فيـه الملازم له ، والباد أى الواصل من البادية ، والمراد به الطارئ عليه من غير فرق بين كونه من أهل البادية أو من غيرهم ، وانتصاب سواء على أنه المفعول الثانى لجعلناه ، وهو بمعنى مستويا ، والعاكف مرتفع به ، وصف المسجد الحرام بذلك لزيادة التقريع والتوبيخ للصادّين عنه ، ويحتمل أن يكون انتصاب سواء على الحال ، وهذا على قراءة النصب ، وبها قرأ حفص عن عاصم ، وهى قراءة الأعمش ، وقرأ الجمهور برفع سواء على أنه مبتدأ وخبره العاكف ، أو على أنه خبر مقدّم ، والمبتدأ العاكف : أى العاكف فيه والبادى سواء ، وقرئ بنصب سواء وجرّ العاكف على أنه صفة للناس : أى جعلناه للناس العاكف والبادى سواء ، وأثبت الياء فى البادى ابن كثير وصلا ووقفا ، وحذفها أبو عمرو فى الوقف ، وحذفها نافع فى الوصل والوقف

قال القرطبي : وأجمع الناس على الاستواء فى المسجد الحرام نفسه .

واختلفوا فى مكة فذهب مجاهد ومالك الى أن دور مكة ومنازلها يستوى فيها المقيم والطارئ ، وذهب عمر بن الخطاب وابن عباس وجماعة الى أن للقادم أن ينزل حيث وجد ، وعلى ربّ المنزل أن يؤويه شاء أم أبى ، وذهب الجمهور إلى أن دور مكة ومنازلها ليست كالمسجد الحرام ، ولأهلها منع الطارئ من النزول فيها ﴿ والحاصل أن الكلام فى هذا راجع الى أصلين : الأصل الأوّل ما فى هـذه الآية هل المراد بالمسجد الحرام المسجد نفسه ، أو جميع الحرم ، أو مكة على الخصوص . والثانى هل كان فتح مكة صلحا أو عنوة ، وعلى فرض أن فتحها كان عنوة هل أقرّها النبي ﷺ فى يد أهلها على الخصوص ؟ أو جعلها لمن نزل بها على العموم ، وقد أوضحنا هذا فى شرحنا على المنتقى بما لايحتاج الناظر فيه الى زيادة (ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) مفعول يرد محذوف لقصد التعميم ، والتقدير ومن يرد فيه مرادا : أىّ مراد بالحاد : أى بعدول عن القصد ، والالحاد فى اللغة الميل إلا أنه سبحانه بين هنا أنه الميل بظلم .

وقد اختلف فى هذا الظلم ماذا هو ؟ فقيل هو الشرك ، وقيل الشرك والقتل ، وقيل صيد حيواناته وقطع أشجاره ، وقيل هو الحلف فيه بالأيمان الفاجرة ، وقيل المراد المعاصى فيه على العموم ، وقيل المراد بهذه الآية أنه يعاقب بمجرّد الارادة لمعصية فى ذلك المكان . وقد ذهب إلى هذا ابن مسعود وابن عمر والضحاك وابن زيد وغيرهم حتى قالوا لو همّ الرجل فى الحرم بقتل رجل بعدن لعذّبه الله ﴿ والحاصل أن هذه الآية دلت على أن من كان فى البيت الحرام مأخوذا بمجرّد الارادة للظلم ، فهى مخصصة لما ورد من أن الله غفر لهذه الأمّة ماحدّثت به أنفسها إلا أن يقال إن الارادة فيها زيادة على مجرّد حديث النفس ، وبالجملة فالبحث عن هـذا وتقرير الحق فيه على وجه يجمع بين الأدلة ويرفع الأشكال يطول جدًا ، ومثل هذه الآية حديث « اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار قيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قل انه كان حريصا على قتل صاحبه » فدخل النار هنا بسبب مجرّد حرصه على قتل صاحبه . وقد أفردنا هذا البحث برسالة مستقلة ، والباء فى قوله بالحاد ان كان مفعول يرد محذوفا كما ذكرنا فليست بزائدة ، وقيل انها زائدة هنا كقول الشاعر :

نحن بنو جعـدة أصحاب الفلج ﴿ نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

أى نرجو الفرج ، ومثله :

ألم يأتيك والأنباء تنمى ﴿ بما لاقت لبون بنى زياد

أى ما لاقت ، ومن القائلين بأنها زائدة الأخفش ﴿ والمعنى عنده ومن يرد فيه إلحادا بظلم ، وقال الكوفيون دخلت الباء لأن المعنى بأن يلحد ، والباء مع أن تدخل وتحذف ، ويجوز أن يكون التقدير ومن يرد الناس بالحاد ، وقيل انّ يرد مضمن معنى يهمّ ﴿ والمعنى ومن يهمّ فيه بالحاد ، وأما الباء فى قوله بظلم فهى للسببية ﴿ والمعنى ومن يرد فيه بالحاد بسبب الظلم ، ويجوز أن يكون بظلم بدلا من بالحاد باعادة الجارّ ويجوز أن يكونا حالين مترادفين (واذ بوّأنا لابراهيم مكان البيت) أى واذكر وقت ذلك ، يقال بوّأته منزلا و بوّأت له كما يقال : مكنتك ومكنت لك . قال الزجاج : معناه جعلنا مكان البيت مبوّأ لابراهيم ، ومعنى بوّأنا بينا له مكان البيت ، ومثله قول الشاعر :

كم من أخ لى ماجد ﴿ بوّأته بيدى لحدا

وقال الفراء : إن اللام زائدة ومكان ظرف : أى أنزلناه فيه (ألا تشرك بى شيئا) قيل أن هذه هى مفسرة لبوّأنا لتضمنه معنى تعبدنا ، لأن التبوئة هى للعبادة . وقال أبو حاتم : هى مصدرية : أى لأن

لاتشرك بى ، وقيل هى المخففة من الثقيلة ، وقيل هى زائدة ، وقيل معنى الآية : وأوحينا اليه أن لاتعبد غيرى . قال المبرد : كأنه قيل له وحدنى فى هذا البيت ، لأن معنى لاتشرك بى وحدنى (وطهر بيتى) من الشرك وعبادة الأوثان ، وفى الآية طعن على من أشرك من قطان البيت : أى هذا كان الشرط على أبيكم فمن بعده وأنتم فلم تفوا بل أشركتم ، وقالت فرقة : الخطاب بقوله ألا تشرك لمحمد ﷺ وهذا ضعيف جدًا ، ومعنى : وطهر بيتى تطهيره من الكفر والأوثان والدماء وسائر النجاسات ، وقيل عنى به التطهير عن الأوثان فقط ، وذلك أن جرهما والعمالقة كانت لهم أصنام فى محل البيت ، وقد مرّ فى سورة براءة مافيه كفاية فى هذا المعنى ، والمراد بالقائمين هنا هم المصلون (و) ذكر (الركع السجود) بعده لبيان أركان الصلاة دلالة على عظم شأن هذه العبادة ، وقرن الطواف بالصلاة ، لأنهما لايشرعان إلا فى البيت ، فالطواف عنده والصلاة إليه (وأذن فى الناس بالحج) قرأ الحسن وابن محيصن وآذن بتخفيف الذال والمدّ . وقرأ الباقون بتشديد الذال ، والاذان الاعلام ، وقد تقدّم فى براءة .

قال الواحدى قال جماعة المفسرين : لما فرغ ابراهيم من بناء البيت جاءه جبريل فأمره أن يؤذن فى الناس بالحج . فقال يارب من يبلغ صوتى ؟ فقال الله سبحانه : أذن وعلىّ البلاغ ، فعلا المقام فأشرف به حتى صار كأعلى الجبال ، فأدخل أصبعيه فى أذنيه وأقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا وقال يأيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت فأجيبوا ربكم ، فأجابه من كان فى أصلاب الرجال وأرحام النساء : لبيك اللهم لبيك ، وقيل ان الخطاب لنبينا محمد ﷺ . والمعنى أعلمهم يامحمد بوجوب الحج عليهم ، وعلى هذا فالخطاب لابراهيم انتهى عند قوله : والركع السجود ، وقيل ان خطابه انقضى عند قوله : واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ، وان قوله : أن لاتشرك بى ومابعده خطاب لنبينا محمد ﷺ ، وقرأ الجمهور بالحج بفتح الحاء ، وقرأ ابن أبى اسحق فى كلّ القرآن بكسرها (يأتوك رجالا) هذا جواب الأمر ، وعده الله اجابة الناس له الى حج البيت مابين راجل وراكب ، فمعنى رجالا مشاة جمع راجل ، وقيل جمع رجل . وقرأ ابن أبى اسحق رجالا بضم الراء وتخفيف الجيم ، وقرأ مجاهد رجالى على وزن فعالى مثل كسالى ، وقدّم الرجال على الركبان فى الذكر لزيادة تعبهم فى المشى ، وقال : يأتوك وان كانوا يأتون البيت ، لأن من أتى الكعبة حاجا فقد أتى ابراهيم ، لأنه أجاب نداءه (وعلى كل ضامر) عطف على رجالا : أى وركبانا على كل بعير ، والضامر البعير المهزول الذى أتعبه السفر ، يقال ضمر يضمر ضمورا ، ووصف الضامر بقوله (يأتين) باعتبار المعنى ، لأن ضامر فى معنى ضوامر ، وقرأ أصحاب ابن مسعود وابن أبى عبلة والضحاك يأتون على أنه صفة لرجالا ، والفج الطريق الواسع ، الجمع فجاج ، والعميق البعيد ، واللام فى (ليشهدوا منافع لهم) متعلقة بقوله يأتوك ، وقيل بقوله وأذن ، والشهود الحضور ، والمنافع هى تعمّ منافع الدنيا والآخرة ، وقيل المراد بها المناسك ، وقيل المغفرة ، وقيل التجارة كما فى قوله ـ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ـ (ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات) أى يذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم الله ، وقيل ان هذا الذكر كناية عن الذبح لأنه لاينفك عنه ، والأيام المعلومات هى أيام النحر كما يفيد ذلك قوله (على مارزقهم من بهيمة الأنعام) وقيل عشر ذى الحجة . وقد تقدّم الكلام فى الأيام المعلومات والمعدودات فى البقرة فلا نعيده ، والكلام فى وقت ذبح الأضحية معروف فى كتب الفقه وشروح الحديث ، ومعنى : على مارزقهم على ذبح مارزقهم من بهيمة الأنعام ، وهى الابل والبقر والغنم ، وبهيمة الأنعام هى الأنعام ، فالاضافة فى هذا كالاضافة فى قولهم : مسجد الجامع وصلاة الأولى (فكلوا منها) الأمر هنا للندب عند الجمهور ، وذهبت طائفة إلى أن الأمر للوجوب ، وهذا التفات من الغيبة إلى الخطاب (وأطعموا البائس الفقير) البائس

ذوالبؤس ، وهو شدّة الفقر ، فذكر الفقير بعده لمزيدالايضاح ، والأمر هنا للوجوب ، وقيل للندب (ثم ليقضوا تفثهم) المراد بالقضاء هنا هو التأدية : أى ليؤدّوا ازالة وسخهم ، لأن التفث هو الوسخ والقذارة من طول الشعر والأظفار ، وقد أجمع المفسرون كما حكاه النيسابورى على هذا . قال الزجاج : ان أهل اللغة لايعرفون التفث ، وقال أبوعبيدة : لم يأت فى الشعر مايحتج به فى معنى التفث ، وقال المبرد : أصل التفث فى اللغة كل قاذورة تلحق الانسان ، وقيل قضاؤه ادّهانه ، لأن الحاج مغبرّ شعث لم يدهن ولم يستحد ، فاذا قضى نسكه وخرج من احرامه حلق شعره ولبس ثيابه ، فهذا هو قضاء التفث . قال الزجاج : كأنه خروج من الاحرام الى الاحلال (وليوفوا نذورهم) أى ماينذرون به من البرّ فى حجهم ، والأمر للوجوب ، وقيل المراد بالنذور هنا أعمال الحج (وليطوّفوا بالبيت العتيق) هذا الطواف هو طواف الافاضة . قال ابن جرير : لاخلاف فى ذلك بين المتأولين ، والعتيق القديم كما يفيده قوله سبحانه — إن أوّل بيت وضع للناس — الآية ، وقد سمى العتيق ، لان الله أعتقه من أن يتسلط عليه جبار ، وقيل لأن الله يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب ، وقيل لأنه أعتق من غرق الطوفان ، وقيل العتيق الكريم .

وقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله والمسجد الحرام قال الحرم كله ، وهو المسجد الحرام سواء العاكف فيه والباد قال خلق الله فيه سواء . وأخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : هم فى منازل مكة سواء فينبغى لأهل مكة أن يوسعوا لهم حتى يقضوا مناسكهم ، وقال البادى وأهل مكة سواء يعنى فى المنزل والحرم . وأخرج ابن أبى شيبة عن عبد الله بن عمرو قال : من أخذ من أجور بيوت مكة انما يأكل فى بطونه نارا . وأخرج ابن سعد عن عمر ابن الخطاب أن رجلا قال له عند المروة : ياأمير المؤمنين أقطعنى مكانا لى ولعقبى ، فأعرض عنه عمر وقال : هو حرم الله سواء العاكف فيه والباد . وأخرج ابن أبى شيبة عن عطاء قال : كان عمر يمنع أهل مكة أن يجعلوا لها أبوابا حتى ينزل الحاج فى عرصات الدور . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه قال السيوطى باسناد صحيح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ فى قول الله : سواء العاكف فيه والباد قال سواء المقيم والذى يدخل . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال « مكة مباحة لاتؤجر بيوتها ولا تباع رباعها » . وأخرج ابن أبى شيبة وابن ماجه عن علقمة بن نضلة قال : توفى رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وماتدعى رباع مكة إلا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى أسكن رواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عيسى بن يونس عن عمر بن سعيد بن أبى حفرة عن عثمان بن أبى سليمان عن علقمة فذكره . وأخرج الدارقطنى عن ابن عمر مرفوعا «من أكل كراء بيوت مكة أكل نارا» وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن راهويه وأحمد وعبد بن حميد والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود رفعه فى قوله ومن يرد فيه بالحاد بظلم قال لو أن رجلا همّ فيه بالحاد وهو بعدن أبين لأذاقه الله عذابا أليما . قال ابن كثير : هذا الاسناد صحيح على شرط البخارى ووقفه أشبه من رفعه ، ولهذا صمم شعبة على وقفه . وأخرج سعيد بن منصور والطبرانى عن ابن مسعود فى الآية قال : من همّ بخطيئة فلم يعملها فى سوى البيت لم تكتب عليه حتى يعملها ، ومن همّ بخطيئة فى البيت لم يمته الله من الدنيا حتى يذيقه من عذاب أليم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى عبد الله بن أنيس أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار فافتخروا فى الأنساب فغضب عبد الله بن أنيس فقتل الأنصارى ثم ارتدّ عن الاسلام وهرب إلى مكة فنزلت فيه ومن يرد بالحاد بظلم يعنى من لجأ إلى الحرم بالحاد يعنى بميل

XXII-31-68

عن الاسلام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله ومن يرد فيه بالحاد بظلم قال بشرك . وأخرج عبد بن حميد والبخارى فى تاريخه وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن يعلى بن أمية عن رسول الله ﷺ قال : احتكار الطعام فى الحرم الحاد فيه . وأخرج سعيد بن منصور والبخارى فى تاريخه وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال : احتكار الطعام بمكة الحاد بظلم . وأخرج عبد ابن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عمر قال : بيع الطعام بمكة الحاد . وأخرج البيهقى فى الشعب عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول احتكار الطعام بمكة الحاد . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن علىّ قال : لما أمر ابراهيم ببناء البيت خرج معه اسمعيل وهاجر ، فلما قدم مكة رأى على رأسه فى موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس فكلمه فقال يا ابراهيم ابن على ظلى أو على قدرى ولا تزد ولا تنقص فلما بنى خرج وخلف اسمعيل وهاجر ، وذلك حين يقول الله : واذ بوّأنا لابراهيم مكان البيت الآية . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطاء : والقائمين ، قال المصلين عنده . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة معناه . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى السنن عن ابن عباس قال : لما فرغ ابراهيم من بناء البيت ، قال ربّ قد فرغت ، فقال (أذّن فى الناس بالحجّ) قال ربّ وما يبلغ صوتى ؟ قال أذن وعلىّ البلاغ ، قال ربّ كيف أقول ؟ قال قل « يا أيها الناس كتب عليكم الحجّ الى البيت العتيق » فسمعه من فى السماء والأرض ، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون ، وفى الباب آثار عن جماعة من الصحابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (ليشهدوا منافع لهم) قال أسواقا كانت لهم ، ما ذكر الله منافع الا الدنيا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : منافع فى الدنيا ومنافع فى الآخرة ، فأما منافع الآخرة ؟ فرضوان الله ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من لحوم البدن فى ذلك اليوم والذبائح والتجارات . وأخرج أبو بكر المروزى فى كتاب العيدين عنه أيضا قال : الأيام المعلومات أيام العشر . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الأيام المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده . وأخرج ابن جرير عنه أيضا ، قال أيام التشريق . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا فى الأيام المعلومات ، قال قبل يوم التروية بيوم ، ويوم التروية ويوم عرفة . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : البائس الزمن . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر قال : التفث المناسك كلها . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : التفث حلق الرأس والأخذ من العارضين ونتف الابط وحلق العانة والوقوف بعرفة والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار وقصّ الأظفار وقصّ الشارب والذبح . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه وليطوّفوا بالبيت العتيق هو طواف الزيارة يوم النحر ، وورد فى وجه تسمية البيت بالعتيق آثار عن جماعة من الصحابة ، وقد أشرنا الى ذلك سابقا ، وورد فى فضل الطواف أحاديث ليس هذا موضع ذكرها .

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ * حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ * ذَٰلِكَ وَمَن

يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۞ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۞ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞

محل (ذلك) الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف : أى الأمر ذلك ، أو مبتدأ خبره محذوف أو فى محل نصب بفعل محذوف : أى افعلوا ذلك ، والمشار اليه هو ماسبق من أعمال الحج ، وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين ، أو بين طرفى كلام واحد ، والحرمات جمع حرمة . قال الزجاج : الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه ، وهى فى هذه الآية مانهى عنها ومنع من الوقوع فيها ۞ والظاهر من الآية عموم كل حرمة فى الحج وغيره كما يفيده اللفظ وان كان السبب خاصا ، وتعظيمها ترك ملابستها (فهو خير له) أى فالتعظيم خير له (عند ربه) : يعنى فى الآخرة من التهاون بشىء منها ، وقيل ان صيغة التفضيل هنا لا يراد بها معناها الحقيقى ، بل المراد أن ذلك التعظيم خير ينتفع به ، فهى عدة بخير (وأحلت لكم الأنعام) وهى الابل والبقر والغنم (إلا مايتلى عليكم) أى فى الكتاب العزيز من المحرمات ، وهى الميتة وماذكر معها فى سورة المائدة ، وقيل فى قوله ـ إلا مايتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم ـ (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) الرجس : القذر ، والوثن : التمثال ، وأصله من وثن الشىء : أى أقام فى مقامه ، وسمى الصليب وثنا لأنه ينصب ويركز فى مقامه ، فلا يبرح عنه والمراد اجتناب عبادة الأوثان ، وسماها رجسا لأنها سبب الرجس وهو العذاب ، وقيل جعلها سبحانه رجسا حكما ، والرجس النجس ، وليست النجاسة وصفا ذاتيا لها ولكنها وصف شرعى ، فلا تزول الا بالايمان كما أنها لا تزول النجاسة الحسية إلا بالماء . قال الزجاج : من هنا لتخليص جنس من أجناس : أى فاجتنبوا الرجس الذى هو وثن (واجتنبوا قول الزور) الذى هو الباطل ، وسمى زورا لأنه مائل عن الحق ، ومنه قوله تعالى ـ تزاور عن كهفهم ـ وقولهم مدينة زوراء : أى مائلة ، والمراد هنا قول الزور على العموم ، وأعظمه الشرك بالله بأى لفظ كان وقال الزجاج : المراد بقول الزور هاهنا تحليلهم بعض الأنعام وتحريمهم بعضها ، وقولهم ـ هذا حلال وهذا حرام ـ ، وقيل المراد به شهادة الزور ، وانتصاب (حنفاء) على الحال : أى مستقيمين على الحق ، أو مائلين الى الحق ، ولفظ حنفاء من الأضداد : يقع على الاستقامة ، ويقع على الميل ، وقيل معناه حجاجا ، ولا وجه لهذا (غير مشركين به) هو حال كالأول : أى غير مشركين به شيئا من الأشياء كما يفيده الحذف من العموم ، وجملة (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء) مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الأمر بالاجتناب ۞ ومعنى خر من السماء : سقط الى الأرض : أى انحط من رفيع الايمان الى حضيض الكفر (فتخطفه الطير) ، يقال خطفه يخطفه اذا سلبه ، ومنه قوله ـ يخطف أبصارهم ـ أى تخطف لحمه وتقطعه بمخالبها ، قرأ أبو جعفر ونافع بتشديد الطاء وفتح الخاء ، وقرئ بكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما (أو تهوى به الريح) أى تقذفه وترمى به (فى مكان سحيق) أى بعيد : يقال سحق يسحق سحقا فهو سحيق اذا بعد . قال الزجاج : أعلم الله أن بعد من أشرك به من الحق كبعد ما خر من السماء ، فتذهب به الطير أو هوت به الريح فى مكان بعيد (ذلك ومن يعظم شعائر الله) الكلام فى هذه الاشارة قد تقدم قريبا

والشعائر جمع الشعيرة ، وهي كل شيء فيه لله تعالى شعار ، ومنه شعار القوم في الحرب ، وهو علامتهم التي يتعارفون بها ، ومنه اشعار البدن ، وهو الطعن في جانبها الأيمن ، فشعائر الله أعلام دينه ، وتدخل الهدايا في الحج دخولا أوليا ، والضمير في قوله (فانها من تقوى القلوب) راجع الى الشعائر بتقدير مضاف محذوف : أي فان تعظيمها من تقوى القلوب : أي من أفعال القلوب التي هي من التقوى ، فان هذا التعظيم ناشئ من التقوى (لكم فيها منافع) أي في الشعائر على العموم ، أو على الخصوص ، وهي البدن كما يدل عليه السياق * ومن منافعها الركوب والدر والنسل والصوف وغير ذلك (إلى أجل مسمى) وهو وقت نحرها (ثم محلها إلى البيت العتيق) أي حيث يحل نحرها * والمعنى أنها تنتهي الى البيت وما يليه من الحرم ، فمنافعهم الدنيوية المستفادة منها مستمرة الى وقت نحرها ، ثم تكون منافعها بعد ذلك دينية ، وقيل إن محلها هاهنا مأخوذ من إحلال الحرام * والمعنى أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي تنتهي الى طواف الافاضة بالبيت ، فالبيت على هذا مراد بنفسه (ولكل أمة جعلنا منسكا) المنسك هاهنا المصدر من نسك ينسك اذا ذبح القربان ، والذبيحة نسيكة ، وجمعها نسك ، وقال الأزهري ان المراد بالمنسك في الآية موضع النحر ، ويقال منسك بكسر السين وفتحها لغتان قرأ بالكسر الكوفيون الا عاصما ، وقرأ الباقون بالفتح ، وقال الفراء : المنسك في كلام العرب : الموضع المعتاد في خير أو شر ، وقال ابن عرفة : ولكل أمة جعلنا منسكا : أي مذهبا من طاعة الله ، وروى عن الفراء : أن المنسك العيد ، وقيل الحج ، والأول أولى لقوله (ليذكروا اسم الله) الى آخره ، والأمة : الجماعة المجتمعة على مذهب واحد * والمعنى وجعلنا لكل أهل دين من الأديان ذبحا يذبحونه ودما يريقونه أو متعبدا أو طاعة أو عيدا أو حجا يحجونه ليذكروا اسم الله وحده ويجعلوا نسكهم خاصا به (على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) أي على ذبح ما رزقهم منها ، وفيه اشارة الى أن القربان لا يكون الا من الأنعام دون غيرها ، وفي الآية دليل على أن المقصود من الذبح المذكور هو ذكر اسم الله عليه ثم أخبرهم سبحانه بتفرده بالالهية وأنه لا شريك له ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ثم أمرهم بالاسلام له ، والانقياد لطاعته وعبادته ، وتقديم الجار والمجرور على الفعل للقصر ، والفاء هنا كالفاء التي قبلها ، ثم أمر رسوله ﷺ بأن يبشر (المخبتين) من عباده : أي المتواضعين الخاشعين المخلصين ، وهو مأخوذ من الخبيت ، وهو المنخفض من الأرض * والمعنى بشرهم يا محمد بما أعد الله لهم من جزيل ثوابه وجليل عطائه ، وقيل ان المخبتين هم الذين لا يظلمون غيرهم واذا ظلمهم غيرهم لم ينتصروا ، ثم وصف سبحانه هؤلاء المخبتين بقوله (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أي خافت وحذرت مخالفته ، وحصول الوجل منهم عند الذكر له سبحانه دليل على كمال يقينهم وقوة إيمانهم ، ووصفهم بالصبر (على ما أصابهم) من البلايا والمحن في طاعة الله ، ثم وصفهم باقامة (الصلاة) أي الاتيان بها في أوقاتها على وجه الكمال . قرأ الجمهور . والمقيمي الصلاة بالجر على ما هو الظاهر ، وقرأ أبو عمرو بالنصب على توهم بقاء النون ، وأنشد سيبويه على ذلك قول الشاعر : * الحافظو عورة العشيرة * البيت بنصب عورة ، وقيل لم يقرأ بهذه القراءة أبو عمرو ، وقرأ ابن محيصن ، والمقيمين : باثبات النون على الأصل ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود ، ثم وصفهم سبحانه بقوله (ومما رزقناهم ينفقون) : أي يتصدقون به وينفقونه في وجوه البر ، ويضعونه في مواضع الخير ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه ـ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ـ .

وقد

XXII 56.38

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (حرمات الله) قال الحرمة مكة والحج والعمرة وما نهى الله عنه من معاصيه كلها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) يقول اجتنبوا طاعة الشيطان في عبادة الأوثان (واجتنبوا قول الزور) يعني الافتراء على الله والتكذيب به . وأخرج أحمد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أيمن بن خريم قال : قام رسول الله ﷺ خطيبا فقال « يأيها الناس عدلت شهادة الزور شركا بالله ثلاثا ، ثم قرأ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » قال أحمد غريب إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد . وقد اختلف عنه في رواية هذا الحديث ، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعا من النبي ﷺ . وقد أخرجه أحمد وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب من حديث خريم * وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي بكرة قال : قال رسول الله ﷺ « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا ، قلنا بلى يارسول الله ، قال الاشراك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئا ، فجلس ، فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (حنفاء لله غير مشركين به) قال حجاجا لله غير مشركين به ، وذلك أن الجاهلية كانوا يحجون مشركين ، فلما أظهر الله الاسلام ، قال الله للمسلمين حجوا الآن غير مشركين بالله . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر الصديق نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ومن يعظم شعائر الله) قال البدن . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، ومن يعظم شعائر الله : قال الاستسمان والاستحسان والاستعظام ، وفي قوله (لكم فيها منافع إلى أجل مسمى) قال الى أن تسمى بدنا ، وأخرج هؤلاء عن مجاهد نحوه ، وفيه قال ولكم فيها منافع إلى أجل مسمى : في ظهورها وألبانها وأوبارها وأشعارها وأصوافها الى أن تسمى هديا ، فاذا سميت هديا ذهبت المنافع (ثم محلها) يقول حين تسمى (الى البيت العتيق) . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة ، قال : اذا دخلت الحرم فقد بلغت محلها . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولكل أمة جعلنا منسكا) قال عيدا . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : إهراق الدماء . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : ذبحا . وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في الآية ، قال : مكة لم يجعل الله لأمة قط منسكا غيرها . وقد وردت أحاديث في الأضحية ليس هذا موضع ذكرها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (وبشر المخبتين) قال المطمئنين . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الغضب وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الايمان عن عمرو بن أوس قال : المخبتون في الآية الذين لا يظلمون الناس ، واذا ظلموا لم ينتصروا .

وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ *

قرأ ابن أبي اسحاق (والبدن) بضم الباء والدال، وقرأ الباقون باسكان الدال وهما لغتان، وهذا الاسم خاص بالابل، وسميت بدنة لأنها تبدن، والبدانة: السمن، وقال أبو حنيفة ومالك، انه يطلق على غير الابل، والأول أولى لما سيأتي من الأوصاف التي هي ظاهرة في الابل، ولما تفيده كتب اللغة من اختصاص هذا الاسم بالابل، وقال ابن كثير في تفسيره، واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين: أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعا كما صح في الحديث (جعلناها لكم) وهي ما تقدم بيانه قريبا (لكم فيها خير) أي منافع دينية ودنيوية كما تقدم (فاذكروا اسم الله عليها) أي على نحرها ومعنى (صوافّ) أنها قائمة قد صفت قوائمها، لأنها تنحر قائمة معقولة، وأصل هذا الوصف في الخيل يقال: صفن الفرس فهو صافن اذا قام على ثلاث قوائم وثنى الرابعة، وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد وزيد ابن أسلم وأبو موسى الأشعرى صوافي: أي خوالص لله لا تشركون به في التسمية على نحرها أحدا، وواحد صوافّ صافة، وهي قراءة الجمهور، وواحد صوافي صافية، وقرأ ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وأبو جعفر ومحمد بن على: صوافن بالنون جمع صافنة، والصافنة هي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب، ومنه قوله تعالى ـ الصافنات الجياد ـ، ومنه قول عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليه ۞ مقلدة أعنتها صفونا

وقال الآخر

ألف الصفون فما يزال كأنه ۞ مما يقوم على الثلاث كسيرا

(فاذا وجبت جنوبها) الوجوب السقوط: أي فاذا سقطت بعد نحرها، وذلك عند خروج روحها (فكلوا منها) ذهب الجمهور أن هذا الأمر للندب (وأطعموا القانع والمعترّ) هذا الأمر قيل هو للندب كالأول، وبه قال مجاهد والنخعى وابن جرير وابن سريج. وقال الشافعى وجماعة هو للوجوب

واختلف في القانع من هو؟ فقيل هو السائل، يقال قنع الرجل بفتح النون يقنع بكسرها اذ اسأل، ومنه قول الشماخ:

لمال المرء يصلحه فيغنى ۞ مفاقره أعفّ من القنوع

أى السؤال، وقيل هو المتعفف عن السؤال المستغنى ببلغة، ذكر معناه الخليل. قال ابن السكيت من العرب من ذكر القنوع بمعنى القناعة، وهي الرضا والتعفف وترك المسألة، وبالأول قال زيد بن أسلم وابنه وسعيد بن جبير والحسن، وروى عن ابن عباس، وبالثانى قال عكرمة وقتادة ۞ وأما المعترّ، فقال محمد بن كعب القرظى ومجاهد وابراهيم والكلبي والحسن انه الذى يتعرّض من غير سؤال، وقيل هو الذى يعتريك ويسألك، وقال مالك أحسن ماسمعت: أن القانع الفقير. والمعترّ الزائر، وروى عن ابن عباس: أن كلاهما الذى لا يسأل، ولكن القانع الذى يرضى بما عنده ولا يسأل. والمعترّ الذى يتعرّض لك ولا يسألك، وقرأ الحسن والمعترى ومعناه كمعنى المعترّ، ومنه قول زهير:

على مكثريهم رزق من يعتريهم ۞ وعند المقلين السماحة والبذل

يقال اعترّه واعتراه وعرّه وعراه اذا تعرّض لما عنده أوطلبه، ذكره النحاس (كذلك سخرناها لكم) أى مثل ذلك التسخير البديع سخرناها لكم، فصارت تنقاد لكم الى مواضع نحرها فتنحرونها وتنتفعون بها بعد أن كانت مسخرة للحمل عليها والركوب على ظهرها والحلب لها ونحو ذلك (لعلكم تشكرون) هذه النعمة التي أنعم الله بها عليكم (لن ينال الله لحومها ولادماؤها) أى لن يصعد اليه ولا يبلغ رضاه ولا يقع موقع القبول منه لحوم هذه الابل التي تتصدّقون بها ولا دماؤها التي تنصب عند نحرها من حيث انها لحوم ودماء (ولكن يناله) أى يبلغ إليه تقوى قلوبكم، ويصل إليه اخلاصكم له وارادتكم بذلك وجهه فان ذلك هو الذى يقبله الله ويجازى عليه، وقيل المراد أصحاب اللحوم والدماء: أى لن يرضى المضحون

والمتقرّبون إلى ربهم باللحوم والدماء ولكن بالتقوى . قال الزجاج : أعلم الله أن الذى يصل إليه تقواه وطاعته فيما يأمر به ، وحقيقة معنى هذا الكلام تعود الى القبول ، وذلك أن مايقبله الانسان يقال قد ناله ووصل إليه ، نخاطب الله الخلق كعادتهم فى مخاطباتهم (كذلك سخرها لكم) كرّر هذا التذكير ، ومعنى (لتكبروا الله على ماهداكم) هو قول الناحر : الله أكبر عند النحر ، فذكر فى الآية الأولى الأمر بذكر اسم الله عليها ، وذكرهنا التكبير للدلالة على مشروعية الجمع بين التسمية والتكبير ، وقيل المراد بالتكبير وصفه سبحانه بما يدلّ على الكبرياء ، ومعنى على ماهداكم على ما أرشدكم اليه من علمكم بكيفية التقرّب بها ، وما مصدرية ، أوموصولة (وبشر المحسنين) قيل المراد بهم المخلصون ، وقيل الموحدون * والظاهر أن المراد بهم كل من يصدر منه من الخير مايصح به اطلاق اسم المحسن عليه .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عبد الله بن عمر قال : لانعلم البدن الامن الابل والبقر . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : البدن ذات الجوف . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : ليس البدن الا من الابل ، وأخرجوا عن الحكم نحوه ، وأخرجوا عن عطاء نحو ما قال ابن عمر . وأخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن المسيب نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن نحوه أيضا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن يعقوب الرباحى عن أبيه قال : أوصى إلىّ رجل ، وأوصى ببدنة فأتيت ابن عباس : فقلت له ان رجلا أوصى إلىّ وأوصى ببدنة فهل تجزئ عنى بقرة ؟ قال نعم : ثم قال ممن صاحبكم ؟ فقلت من بنى رباح ، فقال ومتى اقتنى بنو رباح البقر إلى الابل ، وهم صاحبكم ، إنما البقر للأسد وعبد القيس . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى الدنيا فى الأضاحى وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن أبى ظبيان قال : سألت ابن عباس عن قوله (فاذكروا اسم الله عليها صوافّ) قال : اذا أردت أن تنحر البدنة فأقمها على ثلاث قوائم معقولة ، ثم قل بسم الله والله أكبر . وأخرج الفريابى وأبو عبيد وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله (صوافّ) قال : قياما معقولة ، وفى الصحيحين وغيرهما عنه أنه رأى رجلا قد أناخ بدنته ، وهو ينحرها ، فقال ابعثها قياما مقيدة سنة محمد ﷺ . وأخرج أبو عبيدة وعبد بن حميد وابن المنذر عن ميمون بن مهران قال : فى قراءة ابن مسعود صوافن : يعنى قياما . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (فاذا وجبت) قال : سقطت على جنبها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال نحرت . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال (القانع) المتعفف (والمعتر) السائل . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر قال : القانع الذى يقنع بما آتيته . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : القانع الذى يقنع بما أوتى ، والمعترّ الذى يعترض . وأخرج عنه أيضا قال : القانع الذى يجلس فى بيته . وأخرج عبد بن حميد والبيهقى فى سننه عنه أنه سئل عن هذه الآية ، فقال أما القانع فالقانع بما أرسلت اليه فى بيته ، والمعتر الذى يعتريك . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : القانع الذى يسأل ، والمعتر الذى يتعرض ، ولا يسأل ، وقد روى عن التابعين فى تفسير هذه الآية أقوال مختلفة ، والمرجع المعنى اللغوى لاسيما مع الاختلاف بين الصحابة ومن بعدهم فى تفسير ذلك . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان المشركون إذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء فينضحون بها نحو الكعبة ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك ، فأنزل الله (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن جريج نحوه .

إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ

ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور *

قرأ أبو عمرو وابن كثير يدفع ، وقرأ الباقون يدافع ، وصيغة المفاعلة هنا مجرّدة عن معناها الأصلى ، وهو وقوع الفعل من الجانبين كما تدلّ عليه القراءة الأخرى ، وقد ترد هذه الصيغة ، ولا يراد بها معناها الأصلى كثيرا مثل عاقبت اللصّ ونحو ذلك ، وقد قدّمنا تحقيقه . وقيل ان ايراد هذه الصيغة هنا للمبالغة ، وقيل للدلالة على تكرر الواقع * والمعنى يدافع عن المؤمنين غوائل المشركين ، وقيل يعلى حجتهم ، وقيل يوفقهم ، والجملة مستأنفة لبيان هذه المزية الحاصلة للمؤمنين من رب العالمين ، وأنه المتولى للمدافعة عنهم ، وجملة (إنّ الله لايحبّ كلّ خوان كفور) مقرّرة لمضمون الجملة الأولى ، فان المدافعة من الله لهم عن عباده المؤمنين مشعرة أتمّ إشعار بأنهم مبغضون إلى الله غير محبوبين له . قال الزجاج : من ذكر غير اسم الله وتقرب إلى الأصنام بذبيحته فهو خوّان كفور ، وايراد صيغتى المبالغة للدلالة على أنهم كذلك فى الواقع لا لاخراج من خان دون خيانتهم ، أو كفر دون كفرهم (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) قرئ أذن مبنيا للفاعل ومبنيا للمفعول وكذلك يقاتلون ، قرئ مبنيا للفاعل ومبنيا للمفعول ، وعلى كلا القراءتين فالأذن من الله سبحانه لعباده المؤمنين بأنهم إذا صلحوا للقتال ، أوقاتلهم المشركون قاتلوهم . قال المفسرون : كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بألسنهم وأيديهم فيشكون ذلك الى رسول الله ﷺ ، فيقول لهم اصبروا فانى لم أومر بالقتال حتى هاجر ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية بالمدينة ، وهى أول آية نزلت فى القتال ، وهذه الآية مقرّرة أيضا لمضمون قوله إنّ الله يدافع ، فان اباحة القتال لهم هى من جملة دفع الله عنهم ، والباء فى بأنهم ظلموا للسببية : أى بسبب أنهم ظلموا بما كان يقع عليهم من المشركين من سب وضرب وطرد ، ثم وعدهم سبحانه النصر على المشركين ، فقال (وإنّ الله على نصرهم لقدير) وفيه تأكيد لما مرّ من المدافعة أيضا ، ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق) ويجوز أن يكون بدلا من الذين يقاتلون ، أو فى محل نصب على المدح ، أو محل رفع باضمار مبتدأ ، والمراد بالديار مكة (إلا أن يقولوا ربنا الله) . قال سيبويه : هو استثناء منقطع : أى لكن لقولهم ربنا الله : أى أخرجوا بغير حق يوجب إخراجهم لكن لقولهم ربنا الله ، وقال الفراء والزجاج : هو استثناء متصل ، والتقدير الذين أخرجوا من ديارهم بلا حق الا بأن يقولوا ربنا الله ، فيكون مثل قوله سبحانه ــ وماتنقمون منا إلا أن آمنا ــ ، وقول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهنّ فلول من قراع الكتائب

(ولولا دفاع الله الناس) قرأ نافع ولولا دفاع ، وقرأ الباقون ولولا دفع * والمعنى لولا ماشرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك ، وذهبت مواضع العبادة من الأرض ، ومعنى (لهدمت) لخربت باستيلاء أهل الشرك على أهل الملل ، فالصوامع : هى صوامع الرهبان ، وقيل صوامع الصابئين ، والبيع : جمع بيعة ، وهى كنيسة النصارى ، والصلوات هى كنائس اليهود ، واسمها بالعبرانية صلوثا بالمثلثة فعرّبت ، والمساجد : هى مساجد المسلمين ، وقيل المعنى لولا هذا الدفع لهدّمت فى زمن موسى

الكنائس ، وفى زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفى زمن محمد المساجد . قال ابن عطية : هذا أصوب ماقيل فى تأويل الآية ، وقيل المعنى ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة ، وقيل لولا دفع الله العذاب بدعاء الأخيار ، وقيل غير ذلك ، والصوامع : جمع صومعة ، وهى بناء مرتفع ، يقال صمع الثريدة اذا رفع رأسها ، ورجل أصمع القلب : أى حادّ الفطنة ، والأصمع من الرجال الحديد القول ، وقيل الصغير الأذن ثم استعمل فى المواضع التى يؤذن عليها فى الاسلام . وقد ذكر ابن عطية فى صلوات تسع قراآت ، ووجه تقديم مواضع عبادات أهل الملل على موضع عبادة المسلمين كونها أقدم بناء وأسبق وجودا . والظاهر من الهدم المذكور ، معناه الحقيق كما ذكره الزجاج وغيره ، وقيل المراد به المعنى المجازى ، وهو تعطلها من العبادة ، وقرئ لهدّمت بالتشديد ، وانتصاب كثيرا فى قوله (يذكر فيها اسم الله كثيرا) على أنه صفة لمصدر محذوف : أى ذكرا كثيرا ، أو وقتا كثيرا ، والجملة صفة للمساجد ، وقيل لجميع المذكورات (ولينصرنّ الله من ينصره) اللام هى جواب لقسم محذوف : أى والله لينصر الله من ينصره ، والمراد بمن ينصر الله من ينصر دينه وأولياءه ، والقوىّ القادر على الشيء ، والعزيز الجليل الشريف . قاله الزجاج : وقيل الممتنع الذى لا يرام ولا يدافع ولا يمانع ، والموصول فى قوله (الذين إن مكناهم فى الأرض) فى موضع نصب صفة لمن فى قوله من ينصره قاله الزجاج : وقال غيره هو فى موضع جرّ صفة لقوله للذين يقاتلون ، وقيل المراد بهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم باحسان ، وقيل أهل الصلوات الخمس ، وقيل ولاة العدل ، وقيل غير ذلك ، وفيه إيجاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على من مكنه الله فى الأرض وأقدره على القيام بذلك . وقد تقدّم تفسير الآية ، ومعنى (ولله عاقبة الأمور) أن مرجعها الى حكمه وتدبيره دون غيره .

وقد أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : لما أخرج النبىّ ﷺ من مكة ، قال أبو بكر أخرجوا نبيهم – إنا لله وإنا إليه راجعون – ليهلكنّ القوم ، فنزلت (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) الآية . قال ابن عباس : وهى أوّل آية نزلت فى القتال ، قال الترمذى حسن ، وقد رواه غير واحد عن الثورى ، وليس فيه ابن عباس انتهى . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : (الذين أخرجوا من ديارهم) أى من مكة الى المدينة بغير حق يعنى محمدا ﷺ وأصحابه . وأخرج عبد ابن حميد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان قال : فينا نزلت هذه الآية الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق والآية بعدها أخرجنا من ديارنا بغير حق ، ثم مكناهم فى الأرض أقمنا الصلاة وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر فهى لى ولأصحابى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب قال : انما أنزلت هذه الآية فى أصحاب محمد (ولولا دفع الله الناس) الآية : قال لولا دفع الله بأصحاب محمد عن التابعين لهدّمت صوامع . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (لهدّمت صوامع) الآية قال : الصوامع التى تكون فيها الرهبان ، والبيع مساجد اليهود وصلوات كنائس النصارى ، والمساجد مساجد المسلمين . وأخرجا عنه قال : البيع بيع النصارى ، وصلوات كنائس اليهود . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى قوله (الذين ان مكناهم فى الأرض) قال : أرض المدينة (أقاموا الصلاة) قال المكتوبة (وآتوا الزكاة) قال المفروضة (وأمروا بالمعروف) قال بلا إله إلا الله (ونهوا عن المنكر) قال عن الشرك بالله (ولله عاقبة الأمور) قال : وعند الله ثواب ماصنعوا .

XXII . ٩٦-٤٥

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ
مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّنْ مِنْ
قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا
فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِنْ
تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ
رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ
الْمَصِيرُ * قُلْ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ *

قوله (وان يكذبوك) الخ هذه تسلية لرسول الله ﷺ وتعزية له متضمنة للوعد له باهلاك المكذبين له كما أهلك سبحانه المكذبين لمن كان قبله ، وفيه ارشاد له ﷺ الى الصبر على قومه والاقتداء بمن قبله من الأنبياء فى ذلك ، وقد تقدم ذكر هذه الأمم وما كان منهم ومن أنبيائهم وكيف كانت عاقبتهم ، وانما غير النظم فى قوله (وكذب موسى) فجاء بالفعل مبنيا للمفعول ، لأن قوم موسى لم يكذبوه وانما كذبه غيرهم من القبط (فأمليت للكافرين) أى أخرت عنهم العقوبة وأمهلتهم ، والفاء لترتيب الامهال على التكذيب (ثم أخذتهم) أى أخذت كلّ فريق من المكذبين بالعذاب بعد انقضاء مدة الامهال (فكيف كان نكير) هذا الاستفهام للتقرير : أى فانظر كيف كان انكارى عليهم وتغيير ما كانوا فيه من النعم واهلاكهم ، والنكير اسم من المنكر . قال الزجاج : أى ثم أخذتهم فأنكرت أبلغ انكار . قال الجوهرى : النكير والانكار تغيير المنكر ، ثم ذكر سبحانه كيف عذب أهل القرى المكذبة ، فقال (وكأين من قرية أهلكناها) أى أهلكنا أهلها ، وقد تقدم الكلام على هذا التركيب فى آل عمران ، وقرئ أهلكتها ، وجملة (وهى ظالمة) حالية ، وجملة (فهى خاوية) عطف على أهلكناها ، لا على ظالمة لأنها حالية ، والعذاب ليس فى حال الظلم ، والمراد بنسبة الظلم اليها نسبته الى أهلها : والخواء بمعنى السقوط : أى فهى ساقطة (على عروشها) أى على سقوفها ، وذلك بسبب تعطل سكانها حتى تهدمت فسقطت حيطانها فوق سقوفها ، وقد تقدم تفسير هذه الآية فى البقرة (وبئر معطلة) معطوف على قرية * والمعنى وكم من أهل قرية ، ومن أهل بئر معطلة هكذا قال الزجاج ، وقال الفراء : انه معطوف على عروشها ، والمراد بالمعطلة المتروكة ، وقيل الخالية عن أهلها لهلاكهم ، وقيل الغائرة ، وقيل معطلة من الدلاء والأرشية ، والقصر المشيد هو المرفوع البنيان كذا قال قتادة والضحاك : ويدلّ عليه قول عدىّ بن زيد :

شاده مرمرا وجلله كلسا * فللطير فى ذراه وكور

شاده : أى رفعه ، وقال سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومجاهد ، المراد بالمشيد المجصص ، مأخوذ من الشيد ، وهو الجص ، ومنه قول الراجز :

لاتحسبنى وان كنت امرأ غمرا * كحية الماء بين الطين والشيد

وقيل

وقيل المشيد الحصين . قاله الكلبي . قال الجوهرى : المشيد المعمول بالشيد ، والشيد بالكسر كل شىء طليت به الحائط من جص أو بلاط ، وبالفتح المصدر ، تقول شاده يشيده جصصه ، والمشيد بالتشديد المطول . قال الكسائى للواحد من قوله تعالى ـ فى بروج مشيدة ـ * والمعنى المعنى وكم من قصر مشيد معطل مثل البئر المعطلة ؟ ومعنى التعطيل فى القصر هو أنه معطل من أهله ، أومن آلاته ، أونحو ذلك . قال القرطبى فى تفسيره ، ويقال ان هذه البئر والقصر بحضرموت معروفان ، فالقصر مشرف على قلة جبل لايرتقى اليه بحال ، والبئر فى سفحه لاتقر الريح شيئا سقط فيها الا أخرجته ، وأصحاب القصر ملوك الحضر ، وأصحاب البئر ملوك البدو ، حكى الثعلبى وغيره : أن البئر كان بعدن من اليمن فى بلد يقال لها حضوراء ، نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح ، ونجوا من العذاب ومعهم صالح فمات صالح ، فسمى المكان حضرموت ، لأن صالحا لما حضره مات فبنوا حضوراء وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلا ، ثم ذكر قصة طويلة ، وقال بعد ذلك ، وأما القصر المشيد فقصر بناه شداد بن عاد بن إرم ، لم يبن فى الأرض مثله فيما ذكروا وزعموا ، وحاله أيضا كحال هذه البئر المذكورة فى إيحاشه بعد الأنس ، واقفاره بعد العمران ، وان أحدا لايستطيع أن يدنو منه على أميال ، لما يسمع فيه من عزيف الجن والأصوات المنكرة بعد النعيم والعيش الرغد وبهاء الملك ، وانتظام الأهل كالسلك فبادوا وما عادوا ، فذكرهم الله سبحانه فى هذه الآية موعظة وعبرة . قال : وقيل انهم الذين أهلكهم بختنصر على ماتقدم فى سورة الأنبياء فى قوله ـ وكم قصمنا من قرية ـ فتعطلت بئرهم وخربت قصورهم انتهى * ثم أنكر سبحانه على أهل مكة عدم اعتبارهم بهذه الآثار قائلا (أفلم يسيروا فى الأرض) حثا لهم على السفر ليروا مصارع تلك الأمم فيعتبروا ، ويحتمل أن يكونوا قدسافروا ولم يعتبروا ، فلهذا أنكر عليهم ، كما فى قوله ـ وانكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ـ ، ومعنى (فتكون لهم قلوب يعقلون بها) أنهم بسبب ماشاهدوا من العبر تكون لهم قلوب يعقلون بها مايجب أن يتعقلوه ، وأسند التعقل الى القلوب ، لأنها محل العقل كما أن الآذان محل السمع ، وقيل ان العقل محله الدماغ ، ولا مانع من ذلك ، فان القلب هو الذى يبعث على ادراك العقل ، وان كان محله خارجا عنه .

وقد اختلف علماء المعقول فى محل العقل وماهيته اختلافا كثيرا لاحاجة الى التطويل بذكره (أوآذان يسمعون بها) أى مايجب أن يسمعوه مماتلاه عليهم أنبياؤهم من كلام الله ، ومانقله أهل الأخبار اليهم من أخبار الأمم المهلكة (فانها لاتعمى الأبصار) . قال الفراء : الهاء عماد يجوز أن يقال ، فانه وهى قراءة عبد الله بن مسعود ، والمعنى واحد ، التذكير على الخبر ، والتأنيث على الأبصار ، أو القصة : أى فان الأبصار لاتعمى ، أو فان القصة لاتعمى الأبصار : أى أبصار العيون (ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) أى ليس الخلل فى مشاعرهم ، وانما هو فى عقولهم : أى لاتدرك عقولهم مواطن الحق ومواضع الاعتبار . قال الفراء والزجاج : ان قوله التى فى الصدور من التوكيد الذى تزيده العرب فى الكلام كقوله : عشرة كاملة ، ويقولون بأفواههم ، ويطير بجناحيه . ثم حكى سبحانه عن هؤلاء ما كانوا عليه من التكذيب والاستهزاء فقال (ويستعجلونك بالعذاب) لأنهم كانوا منكرين لمجيئه أشد إنكار ، فاستعجالهم له هو على طريقة الاستهزاء والسخرية ، وكأنهم كانوا يقولون ذلك عند سماعهم لما تقوله الأنبياء عن الله سبحانه من الوعد منه عز وجل بوقوعه عليهم وحلوله بهم ، ولهذا قال (ولن يخلف الله وعده) قال الفراء فى هذه الآية وعيد لهم بالعذاب فى الدنيا والآخرة ، وذكر الزجاج وجها آخر فقال : أعلم أن الله لايفوته شىء ، وإن يوما عنده وألف سنة فى قدرته واحد ، ولافرق بين وقوع

مايستعجلون به من العذاب وتأخره فى القدرة ، إلا أن الله تفضل بالامهال انتهى ، ومحل جملة : ولن يخلف الله وعده النصب على الحال : أى والحال أنه لايخلف وعده أبدا ، وقد سبق الوعد فلا بد من مجيئه حتما ، أوهى اعتراضية مبينة لماقبلها ، وعلى الأول تكون جملة (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) مستأنفة ، وعلى الثانى تكون معطوفة على الجملة التى قبلهامسوقة لبيان حالهم فى الاستعجال ، وخطابهم فى ذلك ببيان كمال حلمه لكون المدة القصيرة عنده كالمدة الطويلة عندهم . كما فى قوله ـ انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ـ قال الفراء : هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم فى الآخرة : أى يوم من أيام عذابهم فى الآخرة كألف سنة ، وقيل المعنى وان يوما من الخوف والشدة فى الآخرة كألف سنة من سنى الدنيا فيها خوف وشدة ، وكذلك يوم النعيم قياسا . قرأ ابن كثير وحمزة والكسائى مما يعدون بالتحتية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله : ويستعجلونك . وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب ، واختارها أبو حاتم (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىّ المصير) هذا إعلام منه سبحانه أنه أخذ قوما بعد الاملاء والتأخير . قيل وتكرير هذا مع ذكره قبله للتأكيد ، وليس بتكرار فى الحقيقة ، لان الأول سيق لبيان الاهلاك مناسبا لقوله : فكيف كان نكير ، ولهذا عطف بالفاء بدلا عن ذلك ، والثانى سيق لبيان الاملاء مناسبا لقوله : ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة . فكأنه قيل ، وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أمهلتهم حينا . ثم أخذتهم بالعذاب ومرجع الكل إلى حكمى ، فجملة : وإلىّ المصير تذييل لتقرير ماقبلها . ثم أمره الله سبحانه أن يخبر الناس بأنه نذير لهم بين يدى الساعة مبين لهم ما نزل اليهم ، فمن آمن وعمل صالحا فاز بالمغفرة والرزق الكريم وهو الجنة ، ومن كان على خلاف ذلك فهو فى النار وهم الذين سعوا فى آيات الله معاجزين ، يقال عاجزه سابقه ، لأن كل واحد منهما فى طلب إعجاز الآخر ، فاذا سبقه قيل أعجزه وعجزه ، قاله الأخفش ، وقيل معنى معاجزين ظانين ومقدرين أن يعجزوا الله سبحانه ويفوتوه فلا يعذبهم ، قاله الزجاج : وقيل معاندين ، قاله الفراء .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله (فهى خاوية على عروشها) قال خربة ليس فيها أحد (وبئر معطلة) عطلها أهلها وتركوها (وقصر مشيد) قال شيدوه وحصنوه فهلكوا وتركوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، وبئر معطلة ، قال التى تركت لاأهل لها وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ، وقصر مشيد ، قال هو المجصص . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عطاء نحوه أيضا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ، وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون قال من الأيام الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض . وأخرج ابن المنذر عن عكرمه ، قال فى الآية هو يوم القيامة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة ، فقدمضى منها ستة آلاف . وأخرج ابن عدى والديلمى عن أنس مرفوعا نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس معاجزين ، قال مراغمين . وأخرج ابن جرير عنه أنه قال مشاقين .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ

الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ *

قوله (من رسول ولا نبيّ) قيل الرسول الذي أرسل الى الخلق بإرسال جبريل اليه عيانا ومحاورته شفاها ، والنبيّ الذي يكون إلهاما أو مناما ، وقيل الرسول من بعث بشرع وأمر بتبليغه ، والنبيّ من أمر أن يدعو الى شريعة من قبله ، ولم ينزل عليه كتاب ، ولا بدّ لهما جميعا من المعجزة الظاهرة (إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) معنى تمنى : تشهى وهيأ فى نفسه ما يهواه . قال الواحدى : وقال المفسرون : معنى تمنى : تلا ، قال جماعة المفسرين فى سبب نزول هذه الآية أنه ﷺ لما شقّ عليه إعراض قومه عنه تمنّى فى نفسه أن لا ينزل عليه شىء ينفرهم عنه لحرصه على إيمانهم ، فكان ذات يوم جالسا فى ناد من أنديتهم ، وقد نزل عليه سورة ـ والنجم إذا هوى ـ فأخذ يقرؤها عليهم حتى بلغ قوله ـ أفرأيتم اللات والعزّى ومنات الثالثة الأخرى ـ وكان ذلك التمنى فى نفسه ، فجرى على لسانه مما ألقاه الشيطان عليه « تلك الغرانيق العلى ، وان شفاعتها لترتجى » فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله ﷺ فى قراءته حتى ختم السورة ، فلما سجد فى آخرها سجد معه جميع من فى النادى من المسلمين والمشركين ، فتفرّقت قريش مسرورين بذلك ، وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر فأتاه جبريل ، فقال ما صنعت ؟ تلوت على الناس مالم آتك به عن الله ، فحزن رسول الله ﷺ وخاف خوفا شديدا ، فأنزل الله هذه الآية ، هكذا قالوا .

ولم يصح شىء من هذا ، ولا ثبت بوجه من الوجوه ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه ، قال الله ـ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ـ وقوله ـ وما ينطق عن الهوى ـ وقوله ـ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم ـ فنفى المقاربة للركون فضلا عن الركون * قال البزار هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ باسناد متصل ، وقال البيهقى هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، ثم أخذ يتكلم أن رواة هذه القصة مطعون فيهم . وقال إمام الأئمة ابن خزيمة ان هذه القصة من وضع الزنادقة . قال القاضى عياض فى الشفاء ان الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الاخبار عن شىء بخلاف ما هو عليه لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا . قال ابن كثير قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين الى أرض الحبشة ظنا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا ، ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح ، واذا تقرّر لك بطلان ذلك عرفت أن معنى : تمنى ، قرأ وتلا كما قدّمنا من حكاية الواحدى لذلك عن المفسرين ، وكذا قال البغوى ان أكثر المفسرين قالوا معنى : تمنى تلا . وقرأ كتاب الله ، ومعنى : ألقى الشيطان فى أمنيته : أى فى تلاوته وقراءته . قال ابن جرير هذا القول أشبه بتأويل الكلام ، ويؤيد هذا ما تقدّم فى تفسير قوله ـ لا يعلمون الكتاب إلا أمانىّ ـ وقيل معنى : تمنى حدّث ، ومعنى : ألقى الشيطان فى أمنيته فى حديثه روى هذا عن ابن عباس ، وقيل معنى تمنى قال * فحاصل معنى الآية أن الشيطان أوقع فى مسامع المشركين ذلك من دون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولا جرى على لسانه ، فتكون هذه الآية تسلية لرسول

الله ﷺ أي لايهولنك ذلك ولا يحزنك ، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء ، وعلى تقدير أن معنى تمنى حدّث نفسه كما حكاه الفرّاء والكسائي ، فانهما قالا : تمنى اذا حدّث نفسه ، فالمعنى : أنه اذا حدّث نفسه بشيء تكلم به الشيطان وألقاه في مسامع الناس من دون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولاجرى على لسانه . قال ابن عطية لا خلاف أن إلقاء الشيطان : إنما هو لألفاظ مسموعة وقعت بها الفتنة ، وقد قيل في تأويل الآية ان المراد بالغرانيق : الملائكة ، ويردّ بقوله : فينسخ الله ما يلقى الشيطان : أي يبطله ، وشفاعة الملائكة غير باطلة ، وقيل ان ذلك جرى على لسانه ﷺ سهوا ونسيانا وهما مجوّزان على الأنبياء ، ويردّ بأن السهو والنسيان فيما طريقه البلاغ غير جائز كما هو مقرّر في مواطنه ، ثم لما سلاه الله سبحانه بهذه التسلية وأنها قد وقعت لمن قبله من الرسل والأنبياء بين سبحانه أنه يبطل ذلك ولا يثبته ولا يستمر تغرير الشيطان به ، فقال (فينسخ الله ما يلقى الشيطان) أي يبطله ويجعله ذاهبا غير ثابت (ثم يحكم الله آياته) أي يثبتها (والله عليم حكيم) أي كثير العلم والحكمة في كل أقواله وأفعاله ، وجملة (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة) للتعليل : أي ذلك الالقاء الذي يلقيه الشيطان فتنة : أي ضلالة (للذين في قلوبهم مرض) أي شكّ ونفاق (والقاسية قلوبهم) هم المشركون ، فان قلوبهم لا تلين للحق أبدا ولاترجع الى الصواب بحال ، ثم سجل سبحانه على هاتين الطائفتين وهما من في قلبه مرض ، ومن في قلبه قسوة بأنهم ظالمون ، فقال (وإنّ الظالمين لفي شقاق بعيد) أي عدواة شديدة ، ووصف الشقاق بالبعد مبالغة ، والموصوف به في الحقيقة من قام به ، ولما بين سبحانه أن ذلك الالقاء كان فتنة في حقّ أهل النفاق والشكّ والشرك بين أنه في حقّ المؤمنين العالمين بالله العارفين به سبب لحصول العلم لهم بأن القرآن حقّ وصدق ، فقال (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحقّ من ربك) أي الحقّ النازل من عنده ، وقيل إن الضمير في أنه راجع الى تمكين الشيطان من الالقاء ، لأنه مما جرت به عادته مع أنبيائه ، ولكنه يردّ هذا قوله (فيؤمنوا به) فان المراد الايمان بالقرآن : أي يثبتوا على الايمان به (فتخبت له قلوبهم) أي تخشع وتسكن وتنقاد ، فان الايمان به وإخبات القلوب له لا يمكن أن يكونا لتمكين من الشيطان بل للقرآن (وإنّ الله لهاد الذين آمنوا) في أمور دينهم (إلى صراط مستقيم) أي طريق صحيح لا عوج به . وقرأ أبو حيوة : وإن الله لهاد الذين آمنوا بالتنوين (ولا يزال الذين كفروا في مرية منه) أي في شكّ من القرآن ، وقيل في الدين الذي يدل عليه ذكر الصراط المستقيم ، وقيل في إلقاء الشيطان ، فيقولون : ماباله ذكر الأصنام بخير ثم رجع عن ذلك ؟ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : في مرية بضم الميم (حتى تأتيهم الساعة) أي القيامة (بغتة) أي فجأة (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) وهو يوم القيامة لأنه لا يوم بعده ، فكان بهذا الاعتبار عقيما ، والعقيم في اللغة من لا يكون له ولد ، ولما كانت الأيام تتوالى جعل ذلك كهيئة الولادة ، ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقم ، وقيل يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر ، وقيل انّ اليوم وصف بالعقم ، لأنه لارأفة فيه ولا رحمة ، فكأنه عقيم من الخير ، ومنه قوله تعالى – فأرسلنا عليهم الريح العقيم – أي التي لا خير فيها ولا تأتي بمطر (الملك يومئذ لله) أي السلطان القاهر والاستيلاء التامّ : يوم القيامة لله سبحانه وحده لا منازع له فيه ولا مدافع له عنه ، وجملة (يحكم بينهم) مستأنفة جوابا عن سؤال مقدّر ، ثم فسر هذا الحكم بقوله سبحانه (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم) أي كائنون فيها مستقرّون في أرضها منغمسون في نعيمها (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) أي جمعوا بين الكفر بالله والتكذيب بآياته (فأولئك لهم عذاب مهين) أي عذاب متصف بأنه مهين للمعذبين بالغ منهم المبلغ العظيم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن الأنبارى فى المصاحف عن عمرو بن دينار قال . كان ابن عباس يقرأ (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبيّ ولا محدّث) . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعد بن ابراهيم ابن عبدالرحمن بن عوف مثله ، وزاد فنسخت محدّث ، قال والمحدّثون : صاحب يس ولقمان ومؤمن آل فرعون وصاحب موسى . وأخرج البزار والطبرانى وابن مردويه والضياء فى المختارة . قال السيوطى بسند رجاله ثقات من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ان رسول الله ﷺ قرأ « ـ أفرأيتم اللات والعزّى ومنات الثالثة الأخرى ـ تلك الغرانيق العلى ، وان شفاعتهنّ لترتجى ، ففرح المشركون بذلك ، وقالوا قد ذكر آلهتنا ، فجاءه جبريل ، فقال اقرأ علىّ ما جئت به ، فقرأ ـ أفرأيتم اللات والعزّى ومنات الثالثة الأخرى ـ تلك الغرانيق العلى ، وان شفاعتهنّ لترتجى ، فقال : ما أتيتك بهذا هذا من الشيطان ، فأنزل الله (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى) الآية » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، قال السيوطى بسند صحيح عن سعيد بن جبير ، قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم ، فذكر نحوه ولم يذكر ابن عباس ، وكذا رواه ابن أبى حاتم عن أبى العالية والسدّى عن سعيد مرسلا ، ورواه عبد بن حميد عن السدّى عن أبى صالح مرسلا ، ورواه ابن أبى حاتم عن ابن شهاب مرسلا . وأخرج ابن جرير عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام نحوه مرسلا أيضا * والحاصل أن جميع الروايات فى هذا الباب : إما مرسلة ، أو منقطعة لا تقوم الحجة بشىء منها . وقد أسلفنا عن الحفاظ فى أوّل هذا البحث ما فيه كفاية ، وفى الباب روايات من أحبّ الوقوف على جميعها فلينظرها فى الدرّ المنثور للسيوطى ، ولا يأتى التطويل بذكرها هنا بفائدة ، فقد عرّفناك أنها جميعها لا تقوم بها الحجة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (حتى اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) يقول اذا حدّث ألقى الشيطان فى حديثه . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك ، قال : يعنى بالتمنى التلاوة والقراءة ، ألقى الشيطان فى أمنيته : فى تلاوته (فينسخ الله) ينسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان على لسان النبىّ . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد : اذا تمنى قال تكلم فى أمنيته ، قال كلامه . وأخرج ابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله (عذاب يوم عقيم) قال يوم بدر . وأخرج ابن مردويه عن أبىّ بن كعب نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير : عذاب يوم عقيم ، قال يوم بدر . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير وعكرمة مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية ، قال يوم القيامة لاليلة له . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الضحاك مثله .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ * ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ

اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ *

أفرد سبحانه المهاجرين بالذكر تخصيصا لهم بمزيد الشرف ، فقال (والذين هاجروا فى سبيل الله) قال بعض المفسرين : هم الذين هاجروا من مكة الى المدينة ، وقال بعضهم : الذين هاجروا من الأوطان فى سرية أو عسكر ، ولا يبعد حمل ذلك على الأمرين ، والكل من سبيل الله (ثم قتلوا أوماتوا) أى فى حال المهاجرة ، واللام فى (ليرزقنهم الله رزقا حسنا) جواب قسم محذوف ، والجملة خبر الموصول بتقدير القول ، وانتصاب رزقا على أنه مفعول ثان : أى مرزوقا حسنا ، أو على أنه مصدر مؤكد ، والرزق الحسن : هو نعيم الجنة الذى لا ينقطع ، وقيل هو الغنيمة لأنه حلال ، وقيل هو العلم والفهم كقول شعيب ــ ورزقنى منه رزقا حسنا ــ قرأ ابن عامر وأهل الشام : ثم قتلوا بالتشديد على التكثير وقرأ الباقون بالتخفيف (وإن الله لهو خير الرازقين) فانه سبحانه يرزق بغير حساب ، وكل رزق يجرى على يد العباد لبعضهم البعض ، فهو منه سبحانه ، لارازق سواه ولا معطى غيره ، والجملة تذييل مقررة لما قبلها ، وجملة (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) مستأنفة ، أو بدل من جملة ليرزقنهم الله ، قرأ أهل المدينة مدخلا بفتح الميم ، وقرأ الباقون بضمها ، وهواسم مكان أريد به الجنة ، وانتصابه على أنه مفعول ثان أو مصدر ميمى مؤكد للفعل المذكور . وقد مضى الكلام على مثل هذا فى سورة سبحان ، وفى هذا من الامتنان عليهم والتبشير لهم مالا يقادر قدره ، فان المدخل الذى يرضونه هو الأوفق لنفوسهم والأقرب الى مطالبهم ، على أنهم يرون فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وذلك هو الذى يرضونه وفوق الرضا (وإن الله لعليم) بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم (حليم) عن تفريط المفرطين منهم لايعاجلهم بالعقوبة ، والاشارة بقوله (ذلك) إلى ماتقدم . قال الزجاج : أى الأمر ما قصصنا عليكم من إنجاز الوعد للمهاجرين خاصة اذا قتلوا أوماتوا ، فهو على هذا خبرمبتدأ محذوف ، ومعنى (ومن عاقب بمثل ماعوقب به) من جازى الظالم بمثل ماظلمه ، وسمى الابتداء باسم الجزاء مشاكلة كقوله تعالى ــ وجزاء سيئة سيئة مثلها ــ وقوله تعالى ــ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ــ والعقوبة فى الأصل إنما تكون بعد فعل تكون جزاء عنه ، والمراد بالمثلية أنه اقتصر على المقدار الذى ظلم به ولم يزد عليه ، ومعنى (ثم بغى عليه) أن الظالم له فى الابتداء عاوده بالمظلمة بعد تلك المظلمة الأولى ، قيل المراد بهذا البغى : هو ما وقع من المشركين من إزعاج المسلمين من أوطانهم بعد أن كذبوا نبيهم وآذوا من آمن به ، واللام فى (لينصرنه الله) جواب قسم محذوف : أى لينصرن الله المبغى عليه على الباغى (إن الله لعفو غفور) أى كثير العفو والغفران للمؤمنين فيما وقع منهم من الذنوب ، وقيل العفو والغفران لما وقع من المؤمنين من ترجيح الانتقام على العفو ، وقيل ان معنى (ثم بغى عليه) أى ثم كان المجازى مبغيا عليه : أى مظلوما ، ومعنى ثم تفاوت الرتبة ، لأن الابتداء بالقتال معه نوع ظلم كما قيل فى أمثال العرب « البادى أظلم » وقيل انهذه الآية مدنية ، وهى فى القصاص والجراحات ، والاشارة بقوله (ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار) الى ماتقدم من نصر الله سبحانه

للمبنى عليه ، وهو مبتدأ وخبره جملة بأن الله يولج ، والباء للسببية : أى ذلك بسبب أنه سبحانه قادر ، ومن كمال قدرته ايلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل ، وعبر عن الزيادة بالايلاج ، لأن زيادة أحدهما تستلزم نقصان الآخر ، والمراد تحصيل أحد العرضين فى محل الآخر . وقد مضى فى آل عمران معنى هذا الايلاج (وأن الله سميع) يسمع كل مسموع (بصير) يبصر كل مبصر ، أو سميع للأقوال مبصر للأفعال ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة ، والاشارة بقوله (ذلك بأن الله هو الحق) الى ماتقدم من اتصافه سبحانه بكمال القدرة الباهرة والعلم التام : أى هو سبحانه ذو الحق ، فدينه حق ، وعبادته حق ونصره لأوليائه على أعدائه حق ، ووعده حق ، فهو عز وجل فى نفسه وأفعاله وصفاته حق (وأن ماتدعون من دونه هو الباطل) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة تدعون بالفوقية على الخطاب للمشركين ، واختار هذه القراءة أبو حاتم . وقرأ الباقون بالتحتية على الخبر ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة * والمعنى ان الذين تدعونه إلها ، وهى الأصنام هو الباطل الذى لاثبوت له ولالكونه إلها (وأن الله هو العلى) أى العالى على كل شىء بقدرته المتقدس على الأشباه والأنداد المتنزه عما يقول الظالمون من الصفات (الكبير) أى ذو الكبرياء ، وهو عبارة عن كمال ذاته وتفرده بالالهية ، ثم ذكر سبحانه دليلا بينا على كمال قدرته ، فقال (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة) الاستفهام للتقرير ، والفاء للعطف على أنزل ، وارتفع الفعل بعد الفاء لكون استفهام التقرير بمنزلة الخبر كما قاله الخليل وسيبويه قال الخليل : المعنى أنزل من السماء ماء فكان كذا وكذا ، كما قال الشاعر :

ألم تسأل الربع القوى فينطق * وهل يخبرنك اليوم بيداء سملق

معناه قد سألته فنطق . قال الفراء : ألم تر خبر كما تقول فى الكلام ان الله ينزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة : أى ذات خضرة كما تقول مبقلة ومسبعة : أى ذات بقل وسباع ، وهو عبارة عن استعجالها أثر نزول الماء بالنبات واستمرارها كذلك عادة ، وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة الاخضرار مع الاشعار بتجدد الانزال واستمراره ، وهذا المعنى لايحصل الا بالمستقبل ، والرفع هنا متعين لأنه لو نصب لانعكس المعنى المقصود من الآية فينقلب الى نفى الاخضرار ، والمقصود اثباته ، قال ابن عطية : هذا لا يكون : يعنى الاخضرار فى صباح ليلة المطر الا بمكة وتهامة * والظاهر أن المراد بالاخضرار اخضرار الأرض فى نفسها لاباعتبار النبات فيها كما فى قوله ـ فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ـ ، والمراد بقوله (ان الله لطيف) أنه يصل علمه الى كل دقيق وجليل ، وقيل لطيف بأرزاق عباده ، وقيل لطيف باستخراج النبات ، ومعنى (خبير) أنه ذو خبرة بتدبير عباده ومايصلح لهم ، وقيل خبير بما ينطوون عليه من القنوط عند تأخير المطر ، وقيل خبير بحاجتهم وفاقتهم (له مافى السموات ومافى الأرض) خلقا وملكا وتصرفا وكلهم محتاجون الى رزقه (وان الله لهو الغنى) فلا يحتاج الى شىء (الحميد) المستوجب للحمد فى كل حال (ألم تر أن الله سخر لكم مافى الأرض) هذه نعمة أخرى ذكرها الله سبحانه ، فأخبر عباده بأنه سخر لهم مايحتاجون اليه من الدواب والشجر والأنهار وجعله لمنافعهم (والفلك) عطف على ما ، أو على اسم أن : أى وسخر لكم الفلك فى حال جريها فى البحر ، وقرأ عبد الرحمن الأعرج والفلك بالرفع على الابتداء وما بعده خبره ، وقرأ الباقون بالنصب ، ومعنى (تجرى فى البحر بأمره) أى بتقديره ، والجملة فى محل نصب على الحال على قراءة الجمهور (ويمسك السماء أن تقع على الأرض) أى كراهة أن تقع ، وذلك بأنه خلقها على صفة مستلزمة للامساك ، والجملة معطوفة على تجرى (الا باذنه) أى بارادته ومشيئته ، وذلك يوم القيامة (ان الله بالناس لرءوف رحيم) أى كثير الرأفة والرحمة حيث سخر هذه الأمور لعباده وهيأ لهم أسباب المعاش وأمسك السماء أن تقع على الأرض فتهلكهم تفضلا منه على عباده وإنعاما عليهم

ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى ، فقال (وهو الذى أحياكم) بعد أن كنتم جمادا (ثم يميتكم) عند انقضاء أعماركم (ثم يحييكم) عند البعث للحساب والعقاب (ان الانسان لكفور) أى كثير الجحود لنعم الله عليه مع كونها ظاهرة غير مستترة ، ولاينافى هذا خروج بعض الأفراد عن هذا الجحد ، لأن المراد وصف جميع الجنس بوصف من يوجد فيه ذلك من أفراده مبالغة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن سلمان الفارسى سمعت رسول الله ﷺ يقول «من مات مرابطا أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر ، وأجرى عليه الرزق وأمن من الفتانين واقرءوا ان شئتم والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا الى قوله حليم » واسناد ابن أبى حاتم هكذا : حدثنا المسيب بن واضح حدثنا ابن المبارك عن عبد الرحمن بن شريح عن عبد الكريم بن الحرث عن أبى عقبة يعنى أبا عبيدة بن عقبة . قال قال شرحبيل بن السمط : طال رباطنا واقامتنا على حصن بأرض الروم ، فمر بى سلمان يعنى الفارسى قال : سمعت رسول الله ﷺ فذكره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن فضالة بن عبيد الأنصارى الصحابى أنه كان برودس فمروا بجنازتين أحدهما قتيل والآخر متوفى فمال الناس عن القتيل ، فقال فضالة مالى أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا هذا القتيل فى سبيل الله فقال والله ما أبالى من أى حفرتيهما بعثت اسمعوا كتاب الله : والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا الآية ، واسناده عند ابن أبى حاتم هكذا : حدثنا أبو زرعة عن زيد بن بشر أخبرنى ضمام أنه سمع أبا قبيل وربيعة بن سيف المغافرى يقولان كنا برودس ومعنا فضالة بن عبيد الأنصارى صاحب رسول الله ﷺ فذكره * قلت ويؤيد هذا قول الله سبحانه — ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله — . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله ومن عاقب بمثل ماعوقب به قال ان النبى ﷺ بعث سرية فى ليلتين بقيتا من المحرم فلقوا المشركين ، فقال المشركون بعضهم لبعض قاتلوا أصحاب محمد فانهم يحرمون القتال فى الشهر الحرام ، وان أصحاب محمد ناشدوهم وذكروهم بالله أن يعرضوا لقتالهم فانهم لايستحلون القتال فى الشهر الحرام الا من بادأهم ، وأن المشركين بدءوا فقاتلوهم ، فاستحل الصحابة قتالهم عند ذلك فقاتلوهم ونصرهم الله عليهم ، وهو مرسل . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله ومن عاقب الآية قال تعاون المشركون على النبى ﷺ وأصحابه فأخرجوه فوعده الله أن ينصره وهو فى القصاص أيضا . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد (وأن مايدعون من دونه هو الباطل) قال الشيطان . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (ان الانسان لكفور) قال يعد المصيبات وينسى النعم .

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ * وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ *

عاد سبحانه الى بيان أمر التكاليف مع الزجر لمعاصرى رسول الله ﷺ من أهل الأديان عن منازعته ، فقال (لكلّ أمة جعلنا منسكا) أى لكلّ قرن من القرون الماضية وضعنا شريعة خاصة بحيث لاتتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها الى شريعة أخرى ، وجملة (هم ناسكوه) صفة لمنسكا ، والضمير لكل أمة : أى تلك الأمة هى العاملة به لاغيرها ، فكانت التوارة منسك الأمة التى كانت من مبعث موسى الى مبعث عيسى ، والانجيل منسك الأمة التى من مبعث عيسى الى مبعث محمد ﷺ ، والقرآن منسك المسلمين ، والمنسك مصدر لااسم مكان كما يدلّ عليه هم ناسكوه ، ولم يقل ناسكون فيه ، وقيل المنسك موضع أداء الطاعة ، وقيل هو الذبائح ، ولا وجه للتخصيص ، ولااعتبار بخصوص السبب ، والفاء فى قوله (فلا ينازعنك فى الأمر) لترتيب النهى على ماقبله ، والضمير راجع الى الأمم الباقية آثارهم : أى قد عينا لكلّ أمة شريعة ، ومن جملة الأمم هذه الأمة المحمدية ، وذلك موجب لعدم منازعة من بقى منهم لرسول الله ﷺ ومستلزم لطاعتهم إياه فى أمر الدين ، والنهى إما على حقيقته ، أو كناية عن نهيه ﷺ عن الالتفات الى نزاعهم له . قال الزجاج : انه نهى له ﷺ عن منازعتهم : أى لاتنازعهم أنت كما تقول لايخاصمك فلان : أى لاتخاصمه ، وكما تقول لايضار بنك فلان : أى لاتضاربه ، وذلك أن المفاعلة تقتضى العكس ضمنا ، ولايجوز لايضربنك فلان وأنت تريد لاتضربه ، وحكى عن الزجاج أنه قال فى معنى الآية فلا ينازعنك : أى فلا يجادلنك ، قال ودلّ على هذا : وان جادلوك ، وقرأ أبو مجلز فلا ينزعنك فى الأمر : أى لايستخفنك ولا يغلبنك على دينك ، وقرأ الباقون ينازعنك من المنازعة (وادع الى ربك) أى وادع هؤلاء المنازعين ، أو ادع الناس على العموم إلى دين الله وتوحيده والايمان به (انك لعلى هدى مستقيم) أى طريق مستقيم لا اعوجاج فيه (وان جادلوك) أى وان أبوا إلا الجدال بعد البيان لهم وظهور الحجة عليهم (فقل الله أعلم بما تعملون) أى فكل أمرهم الى الله وقل لهم هذا القول المشتمل على الوعيد (الله يحكم بينكم) أى بين المسلمين والكافرين (يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين فيتبين حينئذ الحق من الباطل ، وفى هذه الآية تعليم لهذه الأمة بما ينبغى لهم أن يجيبوا به من أراد الجدال بالباطل ، وقيل انها منسوخة بآية السيف ، وجملة (ألم تعلم) مستأنفة مقررة لمضمون ماقبلها ، والاستفهام للتقرير : أى قد علمت يامحمد وتيقنت (أن الله يعلم مافى السماء والأرض) ومن جملة ذلك ماأنتم فيه مختلفون (ان ذلك) الذى فى السماء والأرض من معلوماته (فى كتاب) أى مكتوب عنده فى أمّ الكتاب (ان ذلك على الله يسير) أى ان الحكم منه سبحانه بين عباده فيما يختلفون فيه يسير عليه غير عسير ، أو ان احاطة علمه بما فى السماء والأرض يسير عليه (ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا) هذا حكاية لبعض فضائحهم : أى انهم يعبدون أصناما لم يتمسكوا فى عبادتها بحجة نيرة من الله سبحانه (وماليس لهم به علم) من دليل عقل يدلّ على جواز ذلك بوجه من الوجوه (وما للظالمين من نصير) ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية فى آل عمران ، وجملة (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) معطوفة على يعبدون ، وانتصاب بينات على الحال : أى حال كونها واضحات ظاهرات الدلالة (تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر) أى الأمر الذى ينكر ، وهو غضبهم وعبوسهم عند سماعها ، أو المراد بالمنكر الانكار : أى تعرف فى وجوههم انكارها ، وقيل هو التجبر والترفع ، وجملة (يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ماذلك المنكر الذى يعرف فى وجوههم ؟ فقيل يكادون يسطون : أى يبطشون ، والسطوة شدّة البطش ، يقال سطا به يسطو اذا بطش به بضرب ، أو شتم ، أو أخذ باليد ، وأصل السطو القهر .

XXII. ٦٦٠٦٤

وهكذا ترى أهل البدع المضلة اذا سمع الواحد منهم مايتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز ، أومن السنة الصحيحة مخالفا لما اعتقده من الباطل والضلالة رأيت في وجهه من المنكر مالو تمكن من أن يسطو بذلك العالم لفعل به مالا يفعله بالمشركين ، وقد رأينا وسمعنا من أهل البدع مالا يحيط به الوصف ، والله ناصر الحق ومظهر الدين وداحض الباطل ودامغ البدع وحافظ المتكلمين بما أخذه عليهم المبينين للناس مانزل اليهم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ثم أمر رسوله أن يرد عليهم ، فقال (قل أفأنبئكم) أى أخبركم (بشر من ذلكم) الذى فيكم من الغيظ على من يتلو عليكم آيات الله ومقاربتكم للوثوب عليهم ، وهو النار التى أعدها الله لكم فالنار مرتفعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : ماهذا الأمر الذى هو هو شر مما نكابده ونشاهده عند سماعنا ماتتلوه علينا ، فقال هو (النار وعدها الله الذين كفروا) ، وقيل ان النار مبتدأ وخبره جملة وعدها الله الذين كفروا ، وقيل المعنى : أفأخبركم بشر مما يلحق تالى القرآن منكم من الأذى والتوعد لهم والتوثب عليهم ، وقرئ النار بالنصب على تقدير أعنى ، وقرئ بالجر بدلا من شر (وبئس المصير) أى الموضع الذى تصيرون اليه ، وهو النار .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (هم ناسكوه) قال يعنى هم ذابحوه (فلاينازعنك فى الأمر) يعنى فى أمر الذبح . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه أيضا . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : فلا ينازعنك فى الأمر قول أهل الشرك : أما ماذبح الله بيمينه فلا تأكلوه ، وأما ماذبحتم بأيديكم فهو حلال . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : خلق الله اللوح المحفوظ لمسيرة مائة عام ، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش : اكتب ، قال ماأكتب ؟ قال علمى فى خلقى الى يوم تقوم الساعة ، فجرى القلم بما هو كائن فى علم الله إلى يوم القيامة ، فذلك قوله للنبى ﷺ (ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض) يعنى مافى السموات السبع والأرضين السبع (ان ذلك) العلم (فى كتاب) يعنى فى اللوح المحفوظ مكتوب قبل أن يخلق السموات والأرضين (ان ذلك على الله يسير) يعنى هين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس يكادون يسطون : يبطشون .

يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ * مَاقَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ * يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَـٰهِدُوا فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَـٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّـٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَـٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ *

قوله (ياأيها الناس ضرب مثل) هذا متصل بقوله : ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا ، قال الأخفش : ليس ثم مثل ، وانما المعنى ضربوا لى مثلا (فاستمعوا) قولهم ، يعنى أن الكفار جعلوا لله مثلا

بعبادتهم غيره ، فكأنه قال : جعلوا لى شبها فى عبادتى فاستمعوا خبر هذا الشبه ، وقال القتيبى : ان المعنى يأيها الناس مثل من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذبابا ، وان سلبها شيئا لم تستطع أن تستنقذه منه . قال النحاس : المعنى ضرب الله عزّ وجلّ لما يعبدونه من دونه مثلا ، قال وهذا من أحسن ماقيل فيه : أى بين الله لكم شبها ولمعبودكم ، وأصل المثل جملة من الكلام متلقاة بالرضا والقبول مسيرة فى الناس مستغربة عندهم ، وجعلوا مضربها مثلا لموردها ، ثم قد يستعيرونها للقصة أو الحالة أو الصفة المستغربة لكونها مماثلة لها فى الغرابة كهذه القصة المذكورة فى هذه الآية ، والمراد بما يدعونه من دون الله : الأصنام التى كانت حول الكعبة وغيرها ، وقيل المراد بهم السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله لكونهم أهل الحلّ والعقد فيهم ، وقيل الشياطين الذين حملوهم على معصية الله ، والأوّل أوفق بالمقام وأظهر فى التمثيل ، والذباب اسم للواحد يطلق على الذكر والأنثى ، وجمع القلة أذبة ، والكثرة ذبان مثل غراب وأغربة وغربان ، وقال الجوهرى : الذباب معروف الواحد ذبابة * والمعنى لن يقدروا على خلقه مع كونه صغير الجسم حقير الذات ، وجملة (ولو اجتمعوا له) معطوفة على جملة أخرى شرطية محذوفة : أى لو لم يجتمعوا له لن يخلقوه ولو اجتمعوا له ، والجواب محذوف ، والتقدير لن يخلقوه ، وهما فى محل نصب على الحال : أى لن يخلقوه على كلّ حال ، ثم بين سبحانه كمال عجزهم وضعف قدرتهم ، فقال (وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه) أى اذا أخذ منهم الذباب شيئا من الأشياء لا يقدرون على تخليصه منه لكمال عجزهم وفرط ضعفهم ، والاستنقاذ والانقاذ التخلص ، واذا عجزوا عن خلق هذا الحيوان الضعيف ، وعن استنقاذ ما أخذه عليهم فهم عن غيره مما هو أكبر منه جرما وأشدّ منه قوة أعجز وأضعف ، ثم عجب سبحانه من ضعف الأصنام والذباب ، فقال (ضعف الطالب والمطلوب) ، فالصنم كالطالب من حيث انه يطلب خلق الذباب أو يطلب استنقاذ ماسلبه منه ، والمطلوب الذباب ، وقيل الطالب عابد الصنم ، والمطلوب الصنم ، وقيل الطالب الذباب والمطلوب الآلهة ، ثم بين سبحانه أن المشركين الذين عبدوا من دون الله آلهة عاجزة الى هذه الغاية فى العجز ماعرفوا الله حق معرفته ، فقال (ماقدروا الله حقّ قدره) أى ماعظموه حق تعظيمه ولا عرفوه حق معرفته ، حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له مع كون حالها هذا الحال ، وقد تقدّم فى الأنعام (ان الله لقوى) على خلق كل شىء (عزيز) غالب لا يغالبه أحد ، بخلاف آلهة المشركين ، فانها جماد لا تعقل ولا تنفع ولا تضرّ ولا تقدر على شىء . ثم أراد سبحانه أن يردّ عليهم مايعتقدونه فى النبوّات والالهيات ، فقال : (الله يصطفى من الملائكة رسلا) كجبريل واسرافيل وميكائيل وعزرائيل (و) يصطفى أيضا رسلا (من الناس) وهم الأنبياء ، فيرسل الملك إلى النبى ، والنبيّ الى الناس ، أو يرسل الملك لقبض أرواح مخلوقاته ، أو لتحصيل ماينفعكم ، أو لانزال العذاب عليهم (ان الله سميع) لأقوال عباده (بصير) بمن يختاره من خلقه (يعلم مابين أيديهم وماخلفهم) أى ماقدّموا من الأعمال وما يتركونه من الخير والشرّ كقوله تعالى ــ ونكتب ماقدّموا وآثارهم ــ (والى الله ترجع الأمور) لا إلى غيره ، ولما تضمن ماذكره من أن الأمور ترجع اليه الزجر لعباده عن معاصيه ، والحضّ لهم على طاعاته صرح بالمقصود ، فقال (ياأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) أى صلوا الصلاة التى شرعها الله لكم ، وخص الصلاة لكونها أشرف العبادات . ثم عمم فقال (واعبدوا ربكم) أى افعلوا جميع أنواع العبادة التى أمركم الله بها (وافعلوا الخير) أى ماهو خير ، وهو أعم من الطاعة الواجبة والمندوبة ، وقيل المراد بالخير هنا المندوبات . ثم علل ذلك بقوله (لعلكم تفلحون) أى اذا فعلتم هذه كلها رجوتم الفلاح * وهذه الآية من مواطن سجود التلاوة عند الشافعى ، ومن وافقه لا عند أبى حنيفة ، ومن قال بقوله ، وقد تقدّم أن هذه السورة فضلت بسجدتين ، وهذا دليل على ثبوت

السجود عند تلاوة هذه الآية . ثم أمرهم بما هو سنام الدين وأعظم أعماله ، فقال (وجاهدوا فى الله) أى فى ذاته ومن أجله ، والمراد به الجهاد الأكبر ، وهو الغزو للكفار ومدافعتهم اذا غزوا بلاد المسلمين ، وقيل المراد بالجهاد هنا امتثال ما أمرهم الله به فى الآية المتقدمة ، أو امتثال جميع ما أمر به ونهى عنه على العموم ، ومعنى (حق جهاده) المبالغة فى الأمر بهذا الجهاد ، لأنه أضاف الحق إلى الجهاد ، والأصل إضافة الجهاد إلى الحق : أى جهادا خالصا لله ، فعكس ذلك لقصد المبالغة ، وأضاف الجهاد إلى الضمير اتساعا ، أو لاختصاصه به سبحانه من حيث كونه مفعولا له ومن أجله وقيل المراد بحق جهاده هو أن لاتخافوا فى الله لومة لائم ، وقيل المراد به استفراغ مافى وسعهم فى احياء دين الله ، وقال مقاتل والكلبى ان الآية منسوخة بقوله تعالى ــ فاتقوا الله ما استطعتم ــ كما أن قوله ــ اتقوا الله حق تقاته ــ منسوخ بذلك ، ورد ذلك بأن التكليف مشروط بالقدرة ، فلا حاجة الى المصير الى النسخ . ثم عظم سبحانه شأن المكلفين بقوله (هو اجتباكم) أى اختاركم لدينه ، وفيه تشريف لهم عظيم . ثم لما كان فى التكليف مشقة على النفس فى بعض الحالات قال (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) أى من ضيق وشدة .

وقد اختلف العلماء فى هذا الحرج الذى رفعه الله : فقيل هو ما أحله الله من النساء مثنى وثلاث ورباع وملك اليمين ، وقيل المراد قصر الصلاة ، والافطار للمسافر ، والصلاة بالايماء على من لا يقدر على غيره ، و إسقاط الجهاد عن الأعرج والأعمى والمريض ، واغتفار الخطأ فى تقديم الصيام وتأخيره لاختلاف الأهلة ، وكذا فى الفطر والأضحى ، وقيل المعنى أنه سبحانه ماجعل عليهم حرجا بتكليف مايشق عليهم ، ولكن كلفهم بما يقدرون عليه ، ورفع عنهم التكاليف التى فيها حرج ، فلم يتعبدهم بها كما تعبد بها بنى إسرائيل ، وقيل المراد بذلك أنه جعل لهم من الذنب مخرجا بفتح باب التوبة وقبول الاستغفار والتكفير فيما شرع فيه الكفارة والأرش ، أو القصاص فى الجنايات ، ورد المال أو مثله أو قيمته فى الغصب ونحوه ، والظاهر أن الآية أعم من هذا كله ، فقد حط سبحانه مافيه مشقة من التكاليف على عباده : إما باسقاطها من الأصل وعدم التكليف بها كما كلف بها غيرهم ، أو بالتخفيف وتجويز العدول الى بدل لامشقة فيه ، أو بمشروعية التخلص عن الذنب بالوجه الذى شرعه الله ، وما أنفع هذه الآية وأجل موقعها وأعظم فائدتها ، ومثلها قوله سبحانه ــ فاتقوا الله ما استطعتم ــ وقوله ــ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ــ وقوله ــ ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ــ وفى الحديث الصحيح أنه سبحانه قال : قد فعلت كما سبق بيانه فى تفسير هذه الآية ، والأحاديث فى هذا كثيرة ، وانتصاب ملة فى (ملة أبيكم ابراهيم) على المصدرية بفعل دل عليه ماقبله : أى وسع عليكم دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم وقال الزجاج المعنى : اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم ، وقال الفراء انتصب على تقدير حذف الكاف : أى كملة ، وقيل التقدير : وافعلوا الخير كفعل أبيكم ابراهيم ، فأقام الملة مقام الفعل ، وقيل على الاغراء ، وقيل على الاختصاص ، وإنما جعله سبحانه أباهم لأنه أبو العرب قاطبة ، ولأن له عند غير العرب الذين لم يكونوا من ذريته حرمة عظيمة كحرمة الأب على الابن لكونه أبا نبيهم ﷺ (هو سماكم المسلمين من قبل) أى فى الكتب المتقدمة (وفى هذا) أى القرآن ، والضمير لله سبحانه ، وقيل راجع إلى إبراهيم ، والمعنى هو : أى ابراهيم سماكم المسلمين من قبل النبى ﷺ ، وفى هذا : أى فى حكمه أن من اتبع محمدا فهو مسلم . قال النحاس : وهذا القول مخالف لقول علماء الأمة . ثم علل سبحانه ذلك بقوله (ليكون الرسول شهيدا عليكم) أى بتبليغه اليكم (وتكونوا شهداء على الناس) أن رسلهم قد بلغتهم ، وقد تقدم بيان معنى هذه الآية فى البقرة . ثم أمرهم بما هو أعظم الأركان الاسلامية ، فقال (فأقيموا الصلاة

وآتوا

وآتوا الزكاة) وتخصيص الخصلتين بالذكر لمزيد شرفهما (واعتصموا بالله) أى اجعلوه عصمة لكم مما تحذرون، والتجئوا اليه فى جميع أموركم، ولا تطلبوا ذلك الامنه (هو مولاكم) أى ناصركم ومتولى أموركم دقيقها وجليلها (فنعم المولى ونعم النصير) أى لا مماثل له فى الولاية لأموركم والنصرة على أعدائكم، وقيل المراد بقوله اعتصموا بالله، تمسكوا بدين الله؛ وقيل ثقوا به تعالى .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (يأيها الناس ضرب مثل) قال نزلت فى صنم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه (ضعف الطالب والمطلوب) قال الطالب آلهتهم، والمطلوب الذباب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة فى قوله لا يستنقذوه منه قال لا تستنقذ الأصنام ذلك الشىء من الذباب . وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضا قال: قال رسول الله ﷺ «ان الله اصطفى موسى بالكلام وابراهيم بالخلة» وأخرج أيضا عن أنس وصححه أن النبى ﷺ قال «موسى بن عمران صفى الله» . وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال لى عمر ألسنا كنا نقرأ فيما نقرأ (وجاهدوا فى الله حق جهاده فى آخر الزمان كما جاهدتم فى أوله) قلت بلى : فمتى هذا يا أمير المؤمنين؟ قال إذا كانت بنو أمية الأمراء، وبنو المغيرة الوزراء وأخرجه البيهقى فى الدلائل عن المسور بن مخرمة قال: قال عمر لعبد الرحمن بن عوف فذكره . وأخرج الترمذى وصححه وابن حبان وابن مردويه والعسكرى فى الأمثال عن فضالة ابن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ «المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله» . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة أنها سألت النبى ﷺ عن هذه الآية (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) قال الضيق . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد قال: قال أبو هريرة لابن عباس أما علينا فى الدين من حرج فى أن نسرق أو نزنى . قال بلى قال فما جعل عليكم فى الدين من حرج . قال: الاصر الذى كان على بنى اسرائيل وضع عنكم . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق ابن شهاب أن ابن عباس كان يقول وما جعل عليكم فى الدين من حرج توسعة الاسلام ما جعل الله من التوبة والكفارات . وأخرج سعيد ابن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عثمان بن يسار عن ابن عباس ما جعل عليكم فى الدين من حرج . قال هذا فى هلال رمضان اذا شك فيه الناس، وفى الحج اذا شكوا فى الأضحى، وفى الفطر وأشباهه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير أن ابن عباس سئل عن الحرج، فقال ادع لى رجلا من هذيل فجاءه، فقال ما الحرج فيكم؟ قال الحرجة من الشجر التى ليس فيها مخرج، فقال ابن عباس الذى ليس له مخرج . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقى فى سننه من طريق عبيد الله بن أبى يزيد أن ابن عباس سئل عن الحرج، فقال هاهنا أحد من هذيل، قال رجل أنا . فقال ما تعدّون الحرجة فيكم؟ قال الشىء الضيق، قال هو ذاك . وأخرج البيهقى فى سننه عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر . قال قرأ عمر بن الخطاب هذه الآية: وما جعل عليكم فى الدين من حرج . ثم قال لى ادع لى رجلا من بنى مدلج . قال عمر: ما الحرج فيكم؟ قال الضيق . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: ملة أبيكم . قال دين أبيكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: سماكم المسلمين من قبل . قال الله عزّ وجلّ سماكم وروى نحوه عن جماعة من التابعين . وأخرج الطيالسى وأحمد والبخارى فى تاريخه والترمذى وصححه والنسائى وأبو يعلى وابن خزيمة وابن حبان والبغوى والباوردى وابن قانع والطبرانى والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى شعب الايمان عن الحارث الأشعرى عن رسول الله ﷺ قال «من دعا بدعوة الجاهلية فانه من جثى جهنم قال رجل يارسول الله وان صام وصلى . قال نعم فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها المسلمين والمؤمنين عباد الله» .

تفسير سورة المؤمنون

هى مكية بلا خلاف . قال القرطبي كلها مكية فى قول الجميع ، وآياتها مائة وتسع عشرة آية

وقد أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه وغيرهم عن عبد الله بن السائب . قال صلى النبي ﷺ بمكة الصبح فاستفتح سورة المؤمنين ، حتى اذا جاء ذكر موسى وهرون ، أو ذكر عيسى أخذته سعلة فركع . وأخرج البيهقى من حديث أنس عن النبى ﷺ أنه قال « لما خلق الله الجنة قال لها تكلمى ، فقالت قد أفلح المؤمنون . وأخرجه أيضا ابن عدى والحاكم . وأخرج الطبرانى فى السنة وابن مردويه من حديث ابن عباس مثله . وقد ورد فى فضائل العشر الآيات من أوّل هذه السورة ماسيأتى قريبا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

قوله (قد أفلح المؤمنون) قال الفراء قد هاهنا يجوز أن تكون تأكيدا لفلاح المؤمنين ، ويجوز أن تكون تقريبا للماضى من الحال ، لأن قد تقرب الماضى من الحال حتى تلحقه بحكمه ، ألا تراهم يقولون قد قامت الصلاة قبل حال قيامها ، ويكون المعنى فى الآية أن الفلاح قد حصل لهم ، وأنهم عليه فى الحال ، والفلاح الظفر بالمراد والنجاة من المكروه ، وقيل البقاء فى الخير ، وأفلح اذا دخل فى الفلاح ، ويقال أفلحه إذا أصاره الى الفلاح ، وقد تقدّم بيان معنى الفلاح فى أوّل البقرة . وقرأ طلحة بن مصرف قد أفلح بضم الهمزة وبناء الفعل للمفعول ، وروى عنه أنه قرأ أفلحوا المؤمنون على الابهام والتفسير ، أو على لغة أكلونى البراغيث . ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) وما عطف عليه ، والخشوع منهم من جعله من أفعال القلوب : كالخوف والرهبة ، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح : كالسكون وترك الالتفات والعبث ، وهو فى اللغة السكون والتواضع والخوف والتذلل .

وقد اختلف الناس فى الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها على قولين : قيل الصحيح

الأوّل ، وقيل الثانى ، وادّعى عبد الواحد بن زيد اجماع العلماء على أنه ليس للعبد إلاما عقل من صلاته . حكاه النيسابورى فى تفسيره . قال ومما يدل على صحة هذا القول قوله تعالى ـ أفلا يتدبرون القرآن ـ والتدبر لايتصوّر بدون الوقوف على المعنى ، وكذا قوله ـ أقم الصلاة لذكرى ـ والغفلة تضادّ الذكر ، ولهذا قال ـ ولا تكن من الغافلين ـ وقوله ـ حتى تعلموا ماتقولون ـ نهى للسكران ، والمستغرق فى هموم الدنيا بمنزلته ، واللغو . قال الزجاج : هو كل باطل ولهو وهزل ومعصية ومالايجمل من القول والفعل ، وقد تقدّم تفسيره فى البقرة ، وقال الضحاك ان اللغو هنا الشرك ، وقال الحسن انه المعاصى كلها ، ومعنى إعراضهم عنه تجنبهم له وعدم التفاتهم إليه ، وظاهره اتصافهم بصفة الاعراض عن اللغو فى كل الأوقات فيدخل وقت الصلاة فى ذلك دخولا أوّليا كما تفيده الجملة الاسمية ، وبناء الحكم على الضمير ، ومعنى فعلهم للزكاة تأديتهم لها ، فعبر عن التأدية بالفعل ، لأنها مما يصدق عليه الفعل ، والمراد بالزكاة هنا المصدر ، لأنه الصادر عن الفاعل ، وقيل يجوز أن يراد بها العين على تقدير مضاف : أى (والذين هم) لتأدية (الزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون) الفرج يطلق على فرج الرجل والمرأة ، ومعنى حفظهم لها أنهم ممسكون لها بالعفاف عما لايحل لهم ، قيل والمراد هنا الرجال خاصة دون النساء بدليل قوله (إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم) للاجماع على أنه لايحل للمرأة أن يطأها من تملكه . قال الفراء ان على فى قوله إلا على أزواجهم بمعنى من ، وقال الزجاج المعنى أنهم يلامون فى إطلاق ماحظر عليهم فأمروا بحفظه إلا على أزواجهم ، ودلّ على المحذوف ذكر اللوم فى آخر الآية ، والجملة فى محل نصب على الحال ، وقيل ان الاستثناء من نفى الارسال المفهوم من الحفظ : أى لايرسلونها على أحد إلا على أزواجهم ، وقيل المعنى إلا والين على أزواجهم وقوامين عليهم ، من قولهم كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان * والمعنى : أنهم لفروجهم حافظون فى جميع الأحوال إلا فى حال تزوّجهم أو تسرّيهم ، وجملة أوماملكت أيمانهم فى محل جرّ عطفا على أزواجهم ، ومامصدرية ، والمراد بذلك الاماء ، وعبر عنهنّ بما التى لغير العقلاء ، لأنه اجتمع فيهنّ الأنوثة المنبئة عن قصور العقل وجواز البيع والشراء فيهنّ كسائر السلع ، فأجراهن بهذين الأمرين مجرى غير العقلاء ، وجملة (فانهم غير ملومين) تعليل لما تقدّم مما لايجب عليهم حفظ فروجهم منه (فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) الاشارة الى الزوجات وملك اليمين ومعنى العادون المجاوزون إلى مالايحلّ لهم ، فسمى سبحانه من نكح مالايحل عاديا ، ووراء هنا بمعنى سوى وهومفعول ابتغى . قال الزجاج : أى فمن ابتغى مابعد ذلك فمفعول الابتغاء محذوف ، ووراء ظرف .

وقد دلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة ، واستدلّ بها بعض أهل العلم على تحريم الاستمناء لأنه من الوراء لماذكر ، وقد جمعنا فى ذلك رسالة سميناها «بلوغ المنى فى حكم الاستمنا» ، وذكرنا فيها أدلة المنع والجواز وترجيح الراجح منهما (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) قرأ الجمهور لأماناتهم بالجمع . وقرأ ابن كثير بالافراد ، والأمانة مايؤتمنون عليه ، والعهد مايعاهدون عليه من جهة الله سبحانه ، أوجهة عباده وقد جمع العهد والأمانة كل مايتحمله الانسان من أمر الدين والدنيا ، والأمانة أعمّ من العهد ، فكل عهد أمانة ، ومعنى راعون : حافظون (والذين هم على صلواتهم يحافظون) قرأ الجمهور صلواتهم بالجمع . وقرأ حمزة والكسائى صلاتهم بالافراد ، ومن قرأ بالافراد فقد أراد اسم الجنس ، وهو فى معنى الجمع ، والمحافظة على الصلاة إقامتها ، والمحافظة عليها فى أوقاتها ، واتمام ركوعها وسجودها وقراءتها ، والشروع من أذكارها . ثم مدح سبحانه هؤلاء . فقال (أولئك هم الوارثون) أى الأحقاء بأن يسموا بهذا الاسم دون غيرهم . ثم بين الموروث بقوله (الذين يرثون الفردوس) وهو أوسط الجنة . كما صح تفسيره بذلك عن رسول الله

ﷺ والمعنى : أن من عمل بما ذكر فى هذه الآيات فهو الوارث الذى يرث من الجنة ذلك المكان ، وفيه استعارة لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم ، وقيل المعنى أنهم يرثون من الكفار منازلهم حيث فرقوها على أنفسهم ، لأنه سبحانه خلق لكل انسان منزلا فى الجنة ومنزلا فى النار ، ولفظ الفردوس لغة رومية معرّبة ، وقيل فارسية ، وقيل حبشية ، وقيل هى عربية ، وجملة (هم فيها خالدون) فى محل نصب على الحال المقدّرة ، أو مستأنفة لامحل لها ، ومعنى الخلود أنهم يدومون فيها لايخرجون منها ولا يموتون فيها ، وتأنيث الضمير مع أنه راجع الى الفردوس لأنه بمعنى الجنة .

وقد أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والترمذى والنسائى وابن المنذر والعقيلى والحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل والضياء فى المختارة عن عمر بن الخطاب . قال كان اذا أنزل على رسول الله ﷺ الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل ، فأنزل الله عليه يوما فمكثنا ساعة فسرّى عنه فاستقبل القبلة ، فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولاتحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وأرضنا وارض عنا . ثم قال لقد أنزل علىّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنة ، ثم قرأ (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العشر ، وفى إسناده يونس بن سليم الايلى . قال النسائى : لانعرف أحدا رواه عن ابن شهاب الايونس بن سليم ويونس لانعرفه . وأخرج البخارى فى الأدب المفرد والنسائى وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن يزيد بن بابنوس قال : قلنا لعائشة كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خلقه القرآن ، ثم قالت تقرأ سورة المؤمنين اقرأ قد أفلح المؤمنون حتى بلغ العشر ، فقالت هكذا كان خلق رسول الله ﷺ . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير والبيهقى فى سننه عن محمد بن سيرين قال : نبئت أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء ، فنزلت (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) . وأخرجه عبد الرزاق عنه ، وزاد فأمره بالخشوع فرمى ببصره نحو مسجده . وأخرجه عنه أيضا عبد بن حميد وأبو داود فى المراسيل وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى السنن بلفظ كان إذا قام فى الصلاة نظر هكذا ، وهكذا يمينا وشمالا ، فنزلت الذين هم فى صلاتهم خاشعون فحنى رأسه ، وروى عنه من طرق مرسلا هكذا . وأخرجه الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عنه عن أبى هريرة أن النبىّ ﷺ ، كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء ، فنزلت : الذين هم فى صلاتهم خاشعون فطأطأ رأسه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن سيرين بلفظ : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون رءوسهم وأبصارهم إلى السماء فى الصلاة يلتفتون يمينا وشمالا : فأنزل الله قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، قالوا برءوسهم فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك فى الصلاة ، ولم يلتفتوا يمينا وشمالا . وأخرج ابن المبارك فى الزهد وعبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن علىّ أنه سئل عن قوله الذين هم فى صلاتهم خاشعون قال : الخشوع فى القلب وأن تلين كنفك للمرء المسلم وأن لا تلتفت فى صلاتك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله الذين هم فى صلاتهم خاشعون قال : خائفون ساكنون . وقد ورد فى مشروعية الخشوع فى الصلاة والنهى عن الالتفات ، وعن رفع البصر إلى السماء أحاديث معروفة فى كتب الحديث . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (والذين هم عن اللغو معرضون) قال الباطل . وأخرج عبد الرزاق وأبو داود فى ناسخه عن القاسم بن محمد أنه سئل عن المتعة ، فقال إنى لأرى تحريمها فى القرآن ، ثم تلا (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم) . وأخرج عبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والطبرانى عن ابن مسعود أنه : قيل له ان الله يكثر ذكر

XXIII 12-22

الصلاة فى القرآن ـ الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين هم على صلواتهم يحافظون ـ قال : ذلك على مواقيتها ، قالوا ما كنا نرى ذلك الا على تركها ، قال تركها كفر . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه عن أبى هريرة فى قوله (أولئك هم الوارثون) قال : يرثون مساكنهم ومساكن إخوانهم التى أعدت لهم لو أطاعوا الله . وأخرج سعيد بن منصور وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة قال « قال رسول الله ﷺ مامنكم من أحد الا وله منزلان : منزل فى الجنة ومنزل فى النار ، فاذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله أولئك هم الوارثون » . وأخرج عبد بن حميد والترمذى : وقال حسن صحيح غريب عن أنس ، فذكر قصة ، وفيها أن النبى ﷺ قال : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها . ويدل على هذه الوراثة المذكورة هنا قوله تعالى ـ تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا ـ ، وقوله ـ تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ـ ويشهد لحديث أبى هريرة هذا ما فى صحيح مسلم عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « يجىء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى » وفى لفظ له . قال رسول الله ﷺ « إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا ، فيقول هذا فكاكك من النار » .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَٰنَ مِنْ سُلَٰلَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا الْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَٰهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَٰلِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَٰفِلِينَ * وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَٰدِرُونَ * فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّٰتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ *

لما حث سبحانه عباده على العبادة ، ووعدهم الفردوس على فعلها عاد إلى تقرير المبدأ والمعاد ليتمكن ذلك فى نفوس المكلفين ، فقال (ولقد خلقنا الانسان) إلى آخره ، واللام جواب قسم محذوف ، والجملة مبتدأة ، وقيل معطوفة على ماقبلها ، والمراد بالانسان الجنس لأنهم مخلوقون فى ضمن خلق أبيهم آدم ، وقيل المراد به آدم ، والسلالة فعالة من السل ، وهو استخراج الشىء من الشىء ، يقال : سللت الشعرة من العجين ، والسيف من الغمد فانسل ، فالنطفة سلالة ، والولد سليل ، وسلالة أيضا ، ومنه قول الشاعر :

فجاءت به عضب الأديم غضنفرا * سلالة فرج كان غير حصين

وقول الآخر : وهل هند الا مهرة عربية * سلالة أفراس تحللها بغل

ومن فى (من سلالة) ابتدائية متعلقة بخلقنا ، وفى (من طين) بيانية متعلقة بمحذوف ، وقع صفة لسلالة : أى كائنة من طين * والمعنى : أنه سبحانه خلق جوهر الانسان أوّلا من طين ، لأن الأصل

آدم ، وهو من طين خالص ، وأولاده من طين ومنيّ ، وقيل السلالة الطين اذا عصرته انسلّ من بين أصابعك ، فالذي يخرج هو السلالة . قاله الكلبي (ثم جعلناه) أى الجنس باعتبار أفراده الذين هم بنو آدم ، أو جعلنا نسله على حذف مضاف ان أريد بالانسان آدم (نطفة) . وقد تقدّم تفسير النطفة فى سورة الحج ، وكذلك تفسير العلقة والمضغة . والمراد بالقرار المكين : الرّحم ، وعبر عنها بالقرار الذى هو مصدر مبالغة ، ومعنى (ثم خلقنا النطفة علقة) أى انه سبحانه أحال النطفة البيضاء علقة حمراء (فخلقنا العلقة مضغة) أى قطعة لحم غير مخلقة (فخلقنا المضغة عظاما) أى جعلها الله سبحانه متصلبة لتكون عمودا للبدن على أشكال مخصوصة (فكسونا العظام لحما) أى أنبت الله سبحانه على كل عظم لحما على المقدار الذى يليق به ويناسبه (ثم أنشأناه خلقا آخر) أى نفخنا فيه الروح بعد أن كان جمادا ، وقيل أخرجناه إلى الدنيا ، وقيل هو نبات الشعر ، وقيل خروج الأسنان ، وقيل تكميل القوى المخلوقة فيه ، ولا مانع من إرادة الجميع ، والمجيء بثم لكمال التفاوت بين الخلقين (فتبارك الله أحسن الخالقين) أى استحق التعظيم والثناء ، وقيل مأخوذ من البركة : أى كثر خيره وبركته : والخلق فى اللغة التقدير ، يقال خلقت الأديم إذا قسته لتقطع منه شيئا ، فمعنى أحسن الخالقين أتقن الصانعين المقدّرين ، ومنه قول الشاعر :

ولأنت تفرى ماخلقت وبعـض القوم يخلق ثم لايفرى

(ثم إنكم بعد ذلك لميتون) الاشارة بقوله : ذلك إلى الأمور المتقدمة : أى ثم إنكم بعد تلك الأمور لميتون صائرون إلى الموت لامحالة (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) من قبوركم إلى المحشر للحساب والعقاب ، واللام فى (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) جوب لقسم محذوف ، والجملة مبتدأة مشتملة على بيان خلق مايحتاجون اليه بعد بيان خلقهم ، والطرائق هى السموات . قال الخليل والفراء والزجاج : سميت طرائق لأنه طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل . قال أبو عبيدة : طارقت الشيء جعلت بعضه فوق بعض ، والعرب تسمى كل شيء فوق شيء طريقة ، وقيل لأنها طرائق الملائكة ، وقيل لأنها طرائق الكواكب (وما كنا عن الخلق غافلين) المراد بالخلق هنا المخلوق : أى وما كنا عن هذه السبع الطرائق وحفظها عن أن تقع على الأرض بغافلين ، وقال أكثر المفسرين : المراد الخلق كلهم بغافلين بل حفظنا السموات عن أن تسقط ، وحفظنا من فى الأرض أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم ، أو تميد بهم الأرض ، أو يهلكون بسبب من الأسباب المستأصلة لهم ، ويجوز أن يراد نفى الغفلة عن القيام بمصالحهم وما يعيشون به ، ونفى الغفلة عن حفظهم (وأنزلنا من السماء ماء) هذا من جملة ما امتنّ الله سبحانه به على خلقه ، والمراد بالماء ماء المطر ، فان به حياة الأرض وما فيها من الحيوان ، ومن جملة ذلك ماء الأنهار النازلة من السماء والعيون ، والآبار المستخرجة من الأرض ، فان أصلها من ماء السماء ، وقيل أراد سبحانه فى هذه الآية الأنهار الأربعة : سيحان ، وجيحان ، والفرات ، والنيل ، ولاوجه لهذا التخصيص ، وقيل المراد به الماء العذب ، ولاوجه لذلك أيضا فليس فى الأرض ماء إلا وهو من السماء ، ومعنى (بقدر) بتقدير منا أو بمقدار يكون به صلاح الزرائع والثمار ، فانه لو كثر لكان به هلاك ذلك ، ومثله قوله سبحانه — وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم — ، ومعنى (فأسكناه فى الأرض) جعلناه مستقرّا فيها ينتفعون به وقت حاجتهم إليه كالماء الذى يبقى فى المستنقعات والغدران ونحوها (وإنا على ذهاب به لقادرون) أى كما قدرنا على إنزاله فنحن قادرون على أن نذهب به بوجه من الوجوه ، ولهذا التنكير حسن موقع لايخفى ، وفى هـذا تهديد شديد لما يدلّ عليه من قدرته سبحانه على اذهابه وتغويره حتى يهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم ، ومثله قوله — قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء

معين ـ ، ثم بين سبحانه مايتسبب عن انزال الماء ، فقال (فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب) أى أوجدنا بذلك الماء جنات من النوعين المذكورين (لكم فيها) أى فى هذه الجنات (فواكه كثيرة) تتفكهون بها وتتطعمون منها ، وقيل المعنى ومن هذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعاشكم كقوله : فلان يأكل من حرفة كذا ، وهو بعيد ، واقتصر سبحانه على النخيل والأعناب ، لأنها الموجودة بالطائف والمدينة ومايتصل بذلك . كذا قال ابن جرير : وقيل لأنها أشرف الأشجار ثمرة وأطيبها منفعة وطعما ولذة ، قيل المعنىّ بقوله لكم فيها فواكه ان لكم فى هذه الجنات فواكه من غير العنب والنخيل ، وقيل المعنى لكم فى هذين النوعين خاصة فواكه ، لأن فيهما أنواعا مختلفة متفاوتة فى الطعم واللون .

وقد اختلف أهل الفقه فى لفظ الفاكهة على ماذا يطلق ؟ اختلافا كثيرا ، وأحسن ماقيل انها تطلق على الثمرات التى يأكلها الناس ، وليست بقوت لهم ولا طعام ولا إدام * واختلف فى البقول هل تدخل فى الفاكهة أم لا ؟ وانتصاب شجرة على العطف على جنات ، وأجاز الفراء الرفع على تقدير ، وثم شجرة فتكون مرتفعة على الابتداء وخبرها محذوف مقدّر قبلها ، وهو الظرف المذكور . قال الواحدى : والمفسرون كلهم يقولون ان المراد بهذه الشجرة شجرة الزيتون ، وخصت بالذكر لأنه لايتعاهدها أحد بالسقى ، وهى التى تخرج الدهن منها ، فذكرها الله سبحانه امتنانا منه على عباده بها ، ولأنها أكرم الشجر وأعمها نفعا وأكثرها بركة ، ثم وصف سبحانه هذه الشجرة بأنها (تخرج من طور سيناء) وهو جبل ببيت المقدس ، والطور الجبل فى كلام العرب ، وقيل هو مما عرّب من كلام العجم * واختلف فى معنى سيناء ، فقيل هو الحسن ، وقيل هو المبارك ، وذهب الجمهور الى أنه اسم للجبل كما تقول جبل أحد ، وقيل سيناء حجر بعينه أضيف الجبل اليه لوجوده عنده ، وقيل هو كلّ جبل يحمل الثمار ، وقرأ الكوفيون سيناء بفتح السين ، وقرأ الباقون بكسر السين ، ولم يصرف لأنه جعل اسما للبقعة ، وزعم الأخفش أنه عجمى ، وقرأ الجمهور (تنبت بالدهن) بفتح المثناة وضمّ الباء الموحدة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضمّ المثناة وكسر الباء الموحدة * والمعنى على القراءة الأولى أنها تنبت فى نفسها متلبسة بالدهن ، وعلى القراءة الثانية الباء بمعنى مع ، فهى للمصاحبة . قال أبو علىّ الفارسى : التقدير تنبت جناها ومعه الدهن ، وقيل الباء زائدة . قاله أبو عبيدة ، ومثله قول الشاعر :

هنّ الحرائر لاربات أخمرة * سود المحاجر لايقرأن بالسور

وقال آخر * نضرب بالسيف ونرجو بالفرج * . وقال الفراء والزجاج : ان نبت وأنبت بمعنى ، والاصمعى ينكر أنبت ، ويرد عليه قول زهير :

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم * قطينا لهم حتى اذا أنبت البقل

أى نبت . وقرأ الزهرى والحسن والأعرج تنبت بضم المثناة وفتح الموحدة . قال الزجاج وابن جنى : أى تنبت ومعها الدهن ، وقرأ ابن مسعود تخرج بالدهن ، وقرأ زر بن حبيش تنبت الدهن بحذف حرف الجرّ ، وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب بالدهان (وصبغ للآكلين) معطوف على الدهن : أى تنبت بالشىء الجامع بين كونه دهنا يدهن به ، وكونه صبغا يؤتدم به ، قرأ الجمهور صبغ ، وقرأ قوم صباغ مثل لبس ولباس ، وكل إدام يؤتدم به فهو صبغ وصباغ ، وأصل الصبغ مايلوّن به الثوب ، وشبه الادام به لأن الخبز يكون بالادام كالمصبوغ به (وان لكم فى الأنعام لعبرة) هذه من جملة النعم التى امتنّ الله بها عليهم ، وقد تقدّم تفسير الأنعام فى سورة النحل . قال النيسابورى فى تفسيره : ولعلّ القصد بالأنعام هنا الى الابل خاصة ، لأنها هى المحمول عليها فى العادة ، ولأنه قرنها بالفلك ، وهى سفائن البرّ كما أن الفلك سفائن

البحر ، و بين سبحانه أنها عبرة ، لأنها مما يستدل بخلقها وأفعالها على عظيم القدرة الالهية ، ثم فصل سبحانه ما فى هذه الأنعام من النعم بعد ماذكره من العبرة فيها للعباد فقال (نسقيكم مما فى بطونها) يعنى سبحانه : اللبن المتكون فى بطونها المنصب إلى ضروعها ، فان فى انعقاد ماتأكله من العلف واستحالته إلى هذا الغذاء اللذيذ ، والمشروب النفيس أعظم عبرة للمعتبرين ، وأكبر موعظة للمتعظين . قرئ نسقيكم بالنون على أن الفاعل هو الله سبحانه ، وقرئ بالتاء الفوقية على أن الفاعل هو الانعام ، ثم ذكر ما فيها من المنافع إجمالا ، فقال (ولكم فيها منافع كثيرة) يعنى فى ظهورها وألبانها وأولادها وأصوافها وأشعارها ، ثم ذكر منفعة خاصة ، فقال (ومنها تأكلون) لما فى الأكل من عظيم الانتفاع لهم ، وكذلك ذكر الركوب عليها لما فيه من المنفعة العظيمة ، فقال (وعليها وعلى الفلك تحملون) أى وعلى الأنعام ، فان أريد بالأنعام الابل والبقر والغنم : فالمراد وعلى بعض الأنعام ، وهى الابل خاصة ، وان أريد بالأنعام الابل خاصة ، فالمعنى واضح ، ثم لما كانت الأنعام هى غالب ما يكون الركوب عليه فى البر ضم اليها ما يكون الركوب عليه فى فى البحر ، فقال : وعلى الفلك تحملون تتميما للنعمة وتكميلا للمنة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : السلالة صفو الماء الرقيق الذى يكون منه الولد . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : ان النطفة اذا وقعت فى الرحم طارت فى شعر وظفر فتمكث أربعين يوما ، ثم تنحدر فى الرحم فتكون علقة ، وللتابعين فى تفسير السلالة أقوال قد قدمنا الاشارة اليها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (ثم أنشأناه خلقا آخر) قال الشعر والأسنان . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه ثم أنشأناه خلقا آخر قال : نفخ فيه الروح ، وكذا قال مجاهد وعكرمة والشعبى والحسن وأبو العالية والربيع بن أنس والسدى والضحاك وابن زيد ، واختاره ابن جرير . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ثم أنشأناه خلقا آخر : قال حين استوى به الشباب . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن صالح أبى الخليل قال : لما نزلت هذه الآية على النبى ﷺ الى قوله ثم أنشأناه خلقا آخر قال عمر : (فتبارك الله أحسن الخالقين) قال والذى نفسى بيده انها ختمت بالذى تكلمت به ياعمر . وأخرج الطيالسى وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أنس قال : قال عمر وافقت ربى فى أربع : قلت يارسول الله لو صلينا خلف المقام ، فأنزل الله ـ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ـ وقلت يارسول الله لو اتخذت على نسائك حجابا ، فانه يدخل عليك البر والفاجر ، فأنزل الله ـ واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ـ وقلت لأزواج النبى ﷺ لتنتهن أو ليبدله الله أزواجا خيرا منكن ، فنزلت ـ عسى ربه ان طلقكن ـ الآية ، ونزلت ولقد خلقنا الانسان من سلالة الى قوله ثم أنشأناه خلقا آخر ، فقلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين . وأخرج ابن راهويه وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : أملى رسول الله ﷺ هذه الآية : ولقد خلقنا الانسان إلى قوله خلقا آخر ، فقال معاذ بن جبل فتبارك الله أحسن الخالقين ، فضحك رسول الله ﷺ ، فقال له معاذ : مم ضحكت يارسول الله ؟ قال بها ختمت فتبارك الله أحسن الخالقين ، وفى اسناده جابر الجعفى ، وهو ضعيف جدا . قال ابن كثير : وفى خبره هذا نكارة شديدة ، وذلك أن هذه السورة مكية ، وزيد بن ثابت انما كتب الوحى بالمدينة ، وكذلك اسلام معاذ بن جبل انما كان بالمدينة والله أعلم . وأخرج ابن مردويه والخطيب ، قال السيوطى بسند ضعيف عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « أنزل الله من الجنة الى الأرض خمسة أنهار : سيحون ، وهو نهر الهند ، وجيحون ، وهو نهر بلخ ، ودجلة ، والفرات ، وهما نهرا العراق ، والنيل ، وهو نهر مصر

XXIII 23-43

أنزلها من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل فاستودعها الجبال وأجراها في الأرض ، وجعلها منافع للناس في أصناف معايشهم ، فذلك قوله (وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكناه في الأرض) فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله جبريل فرفع من الأرض القرآن والعلم ، والحجر من ركن البيت ، ومقام إبراهيم وتابوت موسى بما فيه ، وهذه الأنهار الخمسة ، فيرفع كل ذلك إلى السماء ، فذلك قوله (وإنا على ذهاب به لقادرون) فإذا رفعت هذه الأشياء من الارض فقد أهلها خير الدنيا والآخرة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، قال : طور سيناء ، هو الجبل الذي نودي منه موسى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله (تنبت بالدهن) قال : هو الزيت يؤكل ويدهن به .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ * قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ * ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ *

لما ذكر سبحانه الفلك أتبعه بذكر نوح ، لأنه أول من صنعه ، وذكر ما صنعه قوم نوح معه بسبب إهمالهم للتفكر في مخلوقات الله سبحانه والتذكر لنعمه عليهم ، فقال (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه) وفي ذلك تعزية لرسول الله ﷺ ، وتسلية له ببيان أن قوم غيره من الأنبياء كانوا يصنعون مع أنبيائهم ما يصنعه قومه معه ، واللام جواب قسم محذوف ، (فقال يا قوم اعبدوا الله) أي اعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا كما يستفاد من الآيات الآخرة ، وجملة (مالكم من إله غيره) واقعة موقع التعليل لما قبلها ، وارتفاع

غيره لكونه وصفا لاله على المحل ، لانه مبتدأ خبره لكم : أى مالكم فى الوجود إله غيره سبحانه ، وقرئ بالجر اعتبارا بلفظ إله (أفلا تتقون) أى أفلا تخافون أن تتركوا عبادة ربكم الذى لا يستحق العبادة غيره ، وليس لكم إله سواه * وقيل المعنى : أفلا تخافون أن يرفع عنكم ما خولكم من النعم ويسلبها عنكم * وقيل المعنى : أفلا تقون أنفسكم عذابه الذى تقتضيه ذنوبكم (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) أى قال أشراف قومه الذين كفروا به (ما هذا إلا بشر مثلكم) أى من جنسكم فى البشرية ، لا فرق بينكم وبينه (يريد أن يتفضل عليكم) أى يطلب الفضل عليكم بأن يسودكم حتى تكونوا تابعين له منقادين لأمره ، ثم صرحوا بأن البشر لا يكون رسولا ، فقالوا (ولو شاء الله لأنزل ملائكة) أى لو شاء الله إرسال رسول لأرسل ملائكة ، وانما عبر بالانزال عن الارسال ، لأن إرسالهم الى العباد يستلزم نزولهم اليهم (ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) أى بمثل دعوى هذا المدعى للنبوة من البشر ، أو بمثل كلامه ، وهو الأمر بعبادة الله وحده ، أو ما سمعنا ببشر يدعى هذه الدعوى فى آبائنا الأولين : أى فى الأمم الماضية قبل هذا : وقيل الباء فى بهذا زائدة : أى ما سمعنا هذا كائنا فى الماضين ، قالوا هذا اعتمادا منهم على التقليد واعتصاما بحبله ، ولم يقنعوا بذلك حتى ضموا اليه الكذب البحت ، والبهت الصراح ، فقالوا (إن هو إلا رجل به جنة) أى جنون لا يدرى ما يقول (فتربصوا به حتى حين) أى انتظروا به حتى يستبين أمره ، بأن يفيق من جنونه فيترك هذه الدعوى ، أو حتى يموت فتستريحوا منه . قال الفراء ليس يريد بالحين هنا وقتا بعينه إنما هو كقولهم : دعه الى يوم ما ، فلما سمع عليه الصلاة والسلام كلامهم وعرف تماديهم على الكفر وإصرارهم عليه (قال رب انصرنى) عليهم فانتقم منهم بما تشاء وكيف تريد ، والباء فى (بما كذبون) للسببية : أى بسبب تكذيبهم إياى (فأوحينا إليه) عند ذلك : أى أرسلنا اليه رسولا من السماء (أن اصنع الفلك) وأن هى مفسرة لما فى الوحى من معنى القول (بأعيننا) أى متلبسا بحفظنا وكلاءتنا ، وقد تقدم بيان هذا فى هود * ومعنى (ووحينا) أمرنا لك وتعليمنا إياك لكيفية صنعها ، والفاء فى قوله (فاذا جاء أمرنا) لترتيب ما بعدها على ما قبلها من صنع الفلك ، والمراد بالأمر : العذاب (وفار التنور) معطوف على الجملة التى قبله عطف النسق ، وقيل عطف البيان : أى إن مجىء الأمر هو فور التنور : أى تنور آدم الصائر إلى نوح : أى إذا وقع ذلك (فاسلك فيها من كل زوجين اثنين) أى أدخل فيها ، يقال سلكه فى كذا أدخله ، وأسلكته أدخلته . قرأ حفص : من كل بالتنوين ، وقرأ الباقون بالاضافة ، ومعنى القراءة الأولى من كل أمة زوجين ، ومعنى الثانية من كل زوجين ، وهما أمة الذكر والأنثى اثنين ، وانتصاب (أهلك) بفعل معطوف على فاسلك ، لا بالعطف على زوجين ، أو على اثنين على القراءتين لأدائه الى اختلاف المعنى : أى واسلك أهلك (إلا من سبق عليه القول منهم) أى القول باهلاكه منهم (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) بالدعاء لهم بانجائهم ، وجملة (إنهم مغرقون) تعليل للنهى عن المخاطبة : أى إنهم مقضى عليهم بالاغراق لظلمهم ، ومن كان هكذا فهو لا يستحق الدعاء له (فاذا استويت) أى علوت (أنت ومن معك) من أهلك وأتباعك (على الفلك) راكبين عليه (فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) أى حال بيننا وبينهم ، وخلصنا منهم ، كقوله ــ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ــ ، وقد تقدم تفسير هذه القصة فى سورة هود على التمام والكمال ، وإنما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق جزما ، لأنه قد سبق فى علمه أن ذلك سبب نجاتهم من الظلمة ، وسلامتهم من أن يصابوا بما أصيبوا به من العذاب ، ثم أمره أن يسأل ربه ما هو أنفع له وأتم

فائدة ، فقال (وقل ربّ أنزلني منزلا مباركا) أى أنزلني في السفينة . قرأ الجمهور منزلا بضم الميم وفتح الزاى على أنه مصدر ، وقرأ زرّ بن حبيش وأبو بكر عن عاصم والمفضل بفتح الميم وكسر الزاى على أنه اسم مكان ، فعلى القراءة الأولى : أنزلني إنزالا مباركا ، وعلى القراءة الثانية : أنزلني مكانا مباركا . قال الجوهرى : والمنزل بفتح الميم والزاى النزول ، وهو الحلول ، تقول : نزلت نزولا ومنزلا . قال الشاعر :

أإن ذكرتك الدار منزلها جمل * بكيت فدمع العين منحدر سجل

بنصب منزلها ، لأنه مصدر ، قيل أمره الله سبحانه بأن يقول هذا القول عند دخوله السفينة ، وقيل عند خروجه منها ، والآية تعليم من الله لعباده اذا ركبوا ثم نزلوا أن يقولوا هذا القول (وأنت خير المنزلين) هذا ثناء منه على الله عزّ وجلّ إثر دعائه له . قال الواحدى قال المفسرون : انه أمر أن يقول عند استوائه على الفلك : الحمد لله ، وعند نزوله منها : ربّ أنزلني منزلا مباركا ، والاشارة بقوله (إن فى ذلك) إلى ما تقدّم مما قصه الله علينا من أمر نوح عليه السلام : والآيات الدلالات على كمال قدرته سبحانه ، والعلامات التى يستدلّ بها على عظيم شأنه (وإن كنا لمبتلين) أى لمختبرين لهم بارسال الرسل اليهم ، ليظهر المطيع والعاصى للناس أو للملائكة ، وقيل المعنى انه يعاملهم سبحانه معاملة المختبر لأحوالهم ، تارة بالارسال ، وتارة بالعذاب (ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) أى من بعد إهلاكهم . قال أكثر المفسرين : ان هؤلاء الذين أنشأهم الله بعدهم ، هم عاد قوم هود لمجىء قصتهم على إثر قصة نوح فى غير هذا الموضع ، ولقوله فى الاعراف — واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح — وقيل هم ثمود ، لانهم الذين أهلكوا بالصيحة . وقد قال سبحانه فى هذه القصة — فأخذتهم الصيحة — وقيل هم أصحاب مدين قوم شعيب ، لانهم ممن أهلك بالصيحة (فأرسلنا فيهم رسولا) عدّى فعل الارسال بفى مع أنه يتعدّى بالى ، للدلالة على أن هذا الرسول المرسل اليهم نشأ فيهم بين أظهرهم ، يعرفون مكانه ومولده ، ليكون سكونهم الى قوله أكثر من سكونهم الى من يأتيهم من غير مكانهم ، وقيل وجه التعدية للفعل المذكور بفى أنه ضمن معنى القول : أى قلنا لهم على لسان الرسول (اعبدوا الله) ولمذا جىء بأن المفسرة ، والاوّل أولى ، لأن تضمين أرسلنا : معنى قلنا لا يستلزم تعديته بفى ، وجملة (مالكم من إله غيره) تعليل للأمر بالعبادة (أفلا تتقون) عذابه الذى يقتضيه شرككم (وقال الملأ من قومه) أى أشرافهم وقادتهم ، ثم وصف الملأ بالكفر والتكذيب ، فقال (الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة) أى كذبوا بما فى الآخرة من الحساب والعقاب ، أوكذبوا بالبعث (وأترفناهم) أى وسعنالهم نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه (فى الحياة الدنيا) من كثرة الأموال ورفاهة العيش (ماهذا إلا بشر مثلكم) أى قال الملأ لقومهم هذا القول ، وصفوه بمساواتهم فى البشرية ، وفى الاكل (مما تأكلون منه) والشرب مما تشربون منه ، وذلك يستلزم عندهم أنه لا فضل له عليهم . قال الفرّاء : ان معنى (ويشرب مما تشربون) على حذف منه : أى مما تشربون منه ، وقيل ان ما مصدرية ، فلا تحتاج الى عائد (ولئن أطعتم بشرا مثلكم) فيما ذكر من الأوصاف (إنكم إذن لخاسرون) أى مغبونون بترككم آلهتكم واتباعكم إياه من غير فضيلة له عليكم ، والاستفهام فى قوله (أيعدكم أنكم إذا متم) للانكار ، والجملة مستأنفة مقرّرة لماقبلها من تقبيح اتباعهم له . قرىء بكسر الميم من متم ، من مات يمات نخاف يخاف . وقرىء بضمها من مات يموت : كقال يقول (وكنتم ترابا وعظاما) أى كان بعض أجزائكم ترابا ، و بعضها عظاما نخرة لا لحم فيها ولا أعصاب عليها ، قيل وتقديم التراب لكونه أبعد فى عقولهم ، وقيل المعنى كان متقدموكم ترابا ، ومتأخروكم عظاما (أنكم مخرجون) أى من قبوركم أحياء كما كنتم ،

قال سيبويه أنّ الاولى فى موضع نصب بوقوع أيعدكم عليها ، وأن الثانية بدل منها . وقال الفرّاء والجرمى والمبرّد : ان أن الثانية مكررة للتوكيد ، وحسن تكريرها لطول الكلام ، و بمثله قال الزجاج ، وقال الاخفش أن الثانية فى محل رفع بفعل مضمر : أى يحدث إخراجكم كما تقول : اليوم القتال ، فالمعنى اليوم يحدث القتال (هيهات هيهات لما توعدون) أى بعد ماتوعدون ، أو بعيد ما توعدون ، والتكرير للتأكيد . قال ابن الانبارى ، وفى هيهات عشر لغات ثم سردها ، وهى مبينة فى علم النحو . وقد قرئ بعضها ، واللام فى لما توعدون لبيان المستبعد كما فى قولهم : هيت لك ، كأنه قيل لماذا هذا الاستبعاد ؟ فقيل لما توعدون * والمعنى بعد إخراجكم للوعد الذى توعدون ، هذا على أن هيهات اسم فعل ، وقال الزجاج هو فى تقدير المصدر : أى البعد لما توعدون ، أو بعد لما توعدون على قراءة من نوّن فتكون على هذا مبتدأ خبره لما توعدون . ثم بين سبحانه اترافهم بأنهم قالوا (إن هى الا حياتنا الدنيا) أى ما الحياة الا حياتنا الدنيا ، لا الحياة الآخرة التى تعدنا بها ، وجملة (نموت ونحيا) مفسرة لما ادّعوه من قصرهم حياتهم على حياة الدنيا ، ثم صرحوا بنفى البعث ، وأن الوعد به منه افتراء على الله ، فقالوا (وما نحن بمبعوثين إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا) أى ما هو فيما يدّعيه إلا مفتر للكذب على الله (وما نحن له بمؤمنين) أى بمصدّقين له فيما يقوله (قال ربّ انصرنى) أى قال نبيهم لما علم بأنهم لا يصدّقونه ألبتة : ربّ انصرنى عليهم وانتقم لى منهم بسبب تكذيبهم إياى (قال عما قليل ليصبحنّ نادمين) أى قال الله سبحانه مجيبا لدعائه واعداله بالقبول لما دعا به : عما قليل من الزمان ليصبحنّ نادمين على ما وقع منهم من التكذيب والعناد والاصرار على الكفر ، و «ما» فى عما قليل مزيدة بين الجارّ والمجرور للتوكيد لقلة الزمان كما فى قوله ــ فبما رحمة من الله ــ ، ثم أخبر سبحانه بأنها (أخذتهم الصيحة) وحاق بهم عذابه ونزل عليهم سخطه . قال المفسرون صاح بهم جبريل صيحة واحدة مع الريح التى أهلكهم الله بها فماتوا جميعا ، وقيل الصيحة : هى نفس العذاب الذى نزل بهم ، ومنه قول الشاعر :

صاح الزمان بآل برمك صيحة * خرّوا لشدّتها على الأذقان

والباء فى بالحق متعلق بالأخذ ، ثم أخبر سبحانه عما صاروا اليه بعد العذاب النازل بهم : فقال (فجعلناهم غثاء) أى كغثاء السيل الذى يحمله : والغثاء ما يحمل السيل من بالى الشجر والحشيش والقصب ونحو ذلك مما يحمله على ظاهر الماء * والمعنى صيرهم هلكى فيبسوا كما ييبس الغثاء (فبعدا للقوم الظالمين) انتصاب بعدا على المصدرية ، وهو من المصادر التى لا يذكر فعلها معها : أى بعدوا بعدا ، واللام لبيان من قيل له ذلك .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فاسلك فيها) يقول : اجعل معك فى السفينة (من كلّ زوجين اثنين) . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد (وقل ربّ أنزلنى منزلا مباركا) . قال لنوح حين أنزل من السفينة . وأخرج هؤلاء عن قتادة فى الآية ، قال يعلمكم سبحانه كيف تقولون إذا ركبتم ، وكيف تقولون اذا نزلتم ؟ أما عند الركوب ــ فسبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون ــ وبسم الله مجراها ومرساها إنّ ربى لغفور رحيم ــ ، وعند النزول (رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله (قرنا) . قال أمة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (هيهات هيهات) قال بعيد بعيد . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله (فجعلناهم غثاء) قال جعلوا كالشىء الميت البالى من الشجر .

XXIII. ... 56

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ آيَةً وَآوَيْنَٰهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ * يَٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَٰتِ وَاعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَأَنَّ هَٰذِهِۦ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ *

قوله (ثم أنشأنا من بعدهم) أى من بعد إهلاكهم (قرونا آخرين) قيل هم قوم صالح ولوط وشعيب كما وردت قصتهم على هذا الترتيب فى الأعراف وهود ، وقيل هم بنو إسرائيل ، والقرون الأمم ، ولعل وجه الجمع هنا للقرون والافراد فيما سبق قريبا أنه أراد هاهنا أمما متعددة وهناك أمة واحدة ، ثم بين سبحانه كمال علمه وقدرته فى شأن عباده ، فقال (ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) أى ما تتقدم كل طائفة مجتمعة فى قرن آجالها المكتوبة لها فى الهلاك ولا تتأخر عنها ، ومثل ذلك قوله تعالى ـ فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ـ ، ثم بين سبحانه أن رسله كانوا بعد هذه القرون متواترين ، وأن شأن أممهم كان واحدا فى التكذيب لهم ، فقال (ثم أرسلنا رسلنا تترا) ، والجملة معطوفة على الجملة التى قبلها بمعنى أن إرسال كل رسول متأخر عن إنشاء القرن الذى أرسل اليه ، لا على معنى أن إرسال الرسل جميعا متأخر عن إنشاء تلك القرون جميعا ، ومعنى : تترا تتواتر واحدا بعد واحد ويتبع بعضهم بعضا ، من الوتر ، وهو الفرد . قال الأصمعى : واترت كتبى عليه أتبعت بعضها بعضا الا أن بين كل واحد منها و بين الآخر مهلة ، وقال غيره : المتواترة المتتابعة بغير مهلة . قرأ ابن كثير وابن عمرو تترى بالتنوين على أنه مصدر . قال النحاس وعلى هذا يجوز تترى بكسر التاء الأولى ، لان معنى ثم أرسلنا واترنا ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال : أى متواترين (كلما جاء أمة رسولها كذبوه) هذه الجملة مستأنفة مبينة لمجىء كل رسول لأمته على أن المراد بالمجىء التبليغ (فأتبعنا بعضهم بعضا) أى فى الهلاك بما نزل بهم من العذاب (وجعلناهم أحاديث) الاحاديث جمع أحدوثة ، وهى ما يتحدث به الناس كالأعاجيب جمع أعجوبة ، وهى ما يتعجب الناس منه . قال الاخفش : انما يقال جعلناهم أحاديث فى الشر ، ولا يقال فى الخير ، كما يقال : صار فلان حديثا : أى عبرة ، وكما قال سبحانه فى آية أخرى ـ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ¤ قلت وهذه الكلية غير مسلمة ، فقد يقال صار فلان حديثا حسنا ، ومنه قول ابن دريد فى مقصورته :

وانما المرء حديث بعده ¤ فكن حديثا حسنا لمن روى

(فبعدا لقوم لا يؤمنون) وصفهم هنا بعدم الايمان ، وفيما سبق قريبا بالظلم لكون كل من

الوصفين صادرا عن كل طائفة من الطائفتين ، أو لكون هؤلاء لم يقع منهم إلا مجرّد عدم التصديق ، وأولئك ضموا إليه تلك الأقوال الشنيعة ، التي هي من أشد الظلم وأفظعه ، ثم حكى سبحانه ما وقع من فرعون وقومه عند إرسال موسى وهرون إليهم ، فقال (ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا) هي التسع المتقدم ذكرها غير مرّة ، ولا يصح عدّ فلق البحر منها هنا ، لأن المراد الآيات التي كذبوا بها واستكبروا عنها ، والمراد بالسلطان المبين : الحجة الواضحة البينة ، قيل هي الآيات التسع نفسها ، والعطف من باب « إلى الملك القرم وابن الهمام » ، وقيل أراد العصى ، لانها أمّ الآيات ، فيكون من باب عطف جبريل على الملائكة ، وقيل المراد بالآيات : الدلائل التي كانت لهما ، وبالسلطان المبين : التسع الآيات ، والمراد بالملأ في قوله (إلى فرعون وملائه) : هم الأشراف منهم كما سبق بيانه غير مرّة (فاستكبروا) أي طلبوا الكبر وتكلفوه فلم ينقادوا للحق (وكانوا قوما عالين) قاهرين للناس بالبغي والظلم ، مستعلين عليهم ، متطاولين كبرا وعنادا وتمرّدا ، وجملة (فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا) معطوفة على جملة « استكبروا » وما بينهما اعتراض ، والاستفهام للانكار : أي كيف نصدق من كان مثلنا في البشرية ، والبشر يطلق على الواحد كقوله ــ بشرا سويا ــ كما يطلق على الجمع كما في قوله ــ فاما ترينّ من البشر أحدا ــ فتثنيته هنا هي باعتبار المعنى الأول ، وأفرد المثل لانه في حكم المصدر ، ومعنى (وقومهما لنا عابدون) أنهم مطيعون لهم منقادون لما يأمرونهم به كانقياد العبيد . قال المبرد العابد : المطيع الخاضع . قال أبو عبيدة : العرب تسمى كل من دان للملك عابدا له ، وقيل يحتمل انه كان يدّعي الالهية فدعى الناس إلى عبادته فأطاعوه ، واللام في « لنا » متعلقة بعابدون ، قدّمت عليه لرعاية الفواصل ، والجملة حالية (فكذبوهما) أي فأصرّوا على تكذيبهما (فكانوا من المهلكين) بالغرق في البحر ، ثم حكى سبحانه ماجرى على قوم موسى بعد إهلاك عدوّهم ، فقال (ولقد آتينا موسى الكتاب) يعني التوراة ، وخصّ موسى بالذكر لان التوراة أنزلت عليه في الطور ، وكان هارون خليفته في قومه (لعلهم يهتدون) أي لعلّ قوم موسى يهتدون بها إلى الحق ، ويعملون بما فيها من الشرائع ، فجعل سبحانه ايتاء موسى إياها إيتاء لقومه لأنها وان كانت منزلة على موسى فهي لارشاد قومه ، وقيل ان ثمّ مضافا محذوفا أقيم المضاف إليه مقامه : أي آتينا قوم موسى الكتاب ، وقيل ان الضمير في « لعلهم » يرجع الى فرعون وملائه ، وهو وهم ، لان موسى لم يؤت التوراة الا بعد إهلاك فرعون وقومه كما قال سبحانه ــ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ماأهلكنا القرون الأولى ــ ، ثم أشار سبحانه الى قصة عيسى إجمالا ، فقال (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) أي علامة تدلّ على عظيم قدرتنا ، و بديع صنعنا ، وقد تقدّم الكلام على هذا في آخر سورة الأنبياء في تفسير قوله سبحانه ــ وجعلناها وابنها آية للعالمين ــ ، ومعنى قوله (وآويناهما إلى ربوة) إلى مكان مرتفع : أي جعلناهما يأويان إليها ، قيل هي أرض دمشق ، و به قال عبد الله بن سلام وسعيد بن المسيب ومقاتل ، وقيل بيت المقدس : قاله قتادة وكعب ، وقيل أرض فلسطين : قاله السدّي (ذات قرار) أي ذات مستقرّ يستقرّ عليه ساكنوه (ومعين) أي وماء معين . قال الزجاج : هو الماء الجاري في العيون ، فالميم على هذا زائدة كزيادتها في منبع ، وقيل هو فعيل بمعنى مفعول . قال عليّ بن سليمان الأخفش معن الماء : إذا جرى فهو معين وممعون : وكذا قال ابن الأعرابي ، وقيل هو مأخوذ من الماعون ، وهو النفع ، و بمثل ماقال الزجاج قال الفراء (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات) قال الزجاج : هذه مخاطبة لرسول الله ﷺ ودلّ الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا ، وقيل ان هذه المقالة خوطب بها كل نبيّ ، لأن هذه طريقتهم التي ينبغي

لهم السكون عليها ، فيكون المعنى : وقلنا يأيها الرسل خطابا لكل واحد على انفراده لاختلاف أزمنتهم . وقال ابن جرير : ان الخطاب لعيسى . وقال الفراء : هو كما تقول للرجل الواحد كفوا عنا ، والطيبات : مايستطاب ويستلذ ، وقيل هي الحلال ، وقيل هي ماجمع الوصفين المذكورين ، ثم بعد أن أمرهم بالأكل من الطيبات أمرهم بالعمل الصالح ، فقال (واعملوا صالحا) أى عملا صالحا وهوما كان موافقا للشرع ، ثم علل هـذا الأمر بقوله (إنى بما تعملون عليم) لايخفى على شيء منه ، وإنى مجازيكم على حسب أعمالكم إن خيرا فخير ، وان شرا فشر (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) هـذا من جملة ماخوطب به الأنبياء * والمعنى : إن هذه ملتكم وشريعتكم أيها الرسل ملة واحدة ، وشريعة متحدة يجمعها أصل هو أعظم مابعث الله به أنبياءه وأنزل فيه كتبه ، وهودعاء جميع الانبياء الى عبادة الله وحده لاشريك له ، وقيل المعنى : ان هذا الذى تقدم ذكره هو دينكم وملتكم فالزموه على أن المراد بالامة هنا الدين كما فى قوله ـ انا وجدنا آباءنا على أمة ـ ، ومنه قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وهل يأثمن ذوأمة وهوطائع

قرئ بكسر ان على الاستئناف المقرر لما تقدمه ، وقرئ بفتحها وتشديدها . قال الخليل هى فى موضع نصب لما زال الخافض : أى أنا عالم بأن هـذا دينكم الذى أمرتكم أن تؤمنوا به . وقال الفراء : ان متعلقة بفعل مضمر ، وتقديره : واعلموا أن هذه أمتكم . وقال سيبويه هى متعلقة باتقون ، والتقدير فاتقون لأن أمتكم أمة واحـدة ، والفاء فى (فاتقون) لترتيب الأمر بالتقوى على ماقبله من كونه ربكم المختص بالربوبيـة : أى لاتفعلوا مايوجب العقوبة عليكم منى بأن تشركوا بى غيرى ، أو تخالفوا ماأمرتكم به أو نهيتكم عنه ، ثم ذكر سبحانه ماوقع من الأمم من مخالفتهم لما أمرهم به الرسل ، فقال (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا) والفاء لترتيب عصيانهم على ماسبق من الأمر بالتقوى ، والضمير يرجع الى مايدل عليـه لفظ الامة * والمعنى : أنهم جعلوا دينهم مع اتحاده قطعا متفرقة مختلفة . قال المبرد زبرا : فرقا وقطعا مختلفة ، واحدها زبور ، وهى الفرقة والطائفة ، ومثله الزبرة ، وجمعها زبر : فوصف سبحانه الأمم بأنهم اختلفوا : فاتبعت فرقة التوراة ، وفرقة الزبور ، وفرقة الانجيل ، ثم حرفوا وبدلوا ، وفرقة مشركة تبعوا مارسمه لهم آباؤهم من الضلال . قرئ زبرا بضم الباء جمع زبور ، وقرئ بفتحها : أى قطعا كقطع الحديد (كل حزب بما لديهم فرحون) أى كل فريق من هؤلاء المختلفين بما لديهم : أى بما عنـدهم من الدين فرحون : أى معجبون به (فذرهم فى غمرتهم حتى حـين) أى اتركهم فى جهلهم ، فليسوا بأهل للهداية ، ولايضق صدرك بتأخير العذاب عنهم ، فلكل شيء وقت ، شبه سبحانه ماهم فيه من الجهل بالماء الذى يغمر من دخل فيه ، والغمرة فى الأصل مايغمرك ويعلوك ، وأصله الستر ، والغمر : الماء الكثير لأنه يغطى الأرض ، وغمر الرداء هوالذى يشمل الناس بالعطاء ، ويقال للحقد الغمر ، والمراد هنا : الحيرة والغفلة والضلالة ، والآية خارجة مخرج التهديد لهم ، لامخرج الأمر له ﷺ بالكف عنهم ، ومعنى « حتى حـين » حتى يحضر وقت عذابهم بالقتل ، أو حتى يموتوا على الكفر فيعـذبون فى النار (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين) أى أيحسبون أنما نعطيهم فى هذه الدنيا من الأموال والبنين (نسارع) به (لهم) فيمافيه خيرهم وإكرامهم ، والهمزة للانكار ، والجواب عن هذا مقدر يدل عليـه قوله (بل لايشعرون) لأنه عطف على مقـدر ينسحب اليـه الكلام : أى كلا لانفعل ذلك بل هم لايشعرون بشيء أصلا كالبهائم التى لاتفهم ولا تعقل فان ماخولناهم من النعم ، وأمددناهم به من الخيرات إنما هو استدراج لهم ليزدادوا إثما كما قال سبحانه ـ إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ـ . قال الزجاج المعنى نسارع لهم به فى الخيرات ، فحذفت به ، وما فى إنما موصولة ، والرابط هو هذا المحذوف . وقال الكسائى

ان أنما هنا حرف واحد فلا يحتاج الى تقدير رابط : قيل يجوز الوقف على بنين ، وقيل لا يحسن ، لأن يحسبون يحتاج الى مفعولين ، فتمام المفعولين فى الخيرات . قال ابن الانبارى : وهذا خطأ لأن ما كافة ، وقرأ أبوعبد الرحمن السلمى وعبد الرحمن بن أبى بكرة : يسارع بالياء التحتية على أن فاعله مايدل عليه أمددنا ، وهو الامداد ، ويجوز أن يكون المعنى : يسارع الله لهم ، وقرأ الباقون نسارع بالنون . قال الثعلبى وهذه القراءة هى الصواب لقوله نمدهم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ثم أرسلنا رسلنا تترا) قال : يتبع بعضهم بعضا ، وفى لفظ قال بعضهم على اثر بعض . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) قال ولدته من غير أب . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس آية قال عبرة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس (وآويناهما الى ربوة) قال الربوة المستوية ، والمعين : الماء الجارى ، وهو النهر الذى قال الله ــ قد جعل ربك تحتك سريا ــ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه (وآويناهما الى ربوة) قال هى المكان المرتفع من الأرض ، وهو أحسن مايكون فيه النبات (ذات قرار) ذات خصب ، والمعين : الماء الظاهر . وأخرج وكيع والفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وتمام الرازى وابن عساكر . قال السيوطى بسند صحيح عن ابن عباس فى قوله (الربوة) قال أنبئنا أنها دمشق . وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن سلام مثله . وكذا أخرجه ابن أبى حاتم عنه . وأخرج ابن عساكر عن أبى أمامة مرفوعا نحوه ، وإسناده ضعيف . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه وابن عساكر عن مرة النهزى سمعت رسول الله ﷺ يقول الربوة الرملة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم فى الكنى وابن عساكر عن أبى هريرة . قال هى الرملة من فلسطين . وأخرجه ابن مردويه من حديثه مرفوعا . وأخرج الطبرانى وابن السكن وابن منده وأبو نعيم وابن عساكر عن الأقرع بن شفى العكى مرفوعا نحوه . وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال ــ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم ــ وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام يمد يديه إلى السماء : يارب يارب فأنى يستجاب لذلك » . وأخرج سعيد بن منصور عن حفص الفزارى فى قوله (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) قال ذلك عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه . وأخرجه عبدان فى الصحابة عن حفص مرفوعا وهو مرسل ، لأن حفصا تابعى .

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ * وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ *

حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ *

لما نفى سبحانه الخيرات الحقيقية عن الكفرة المتنعمين أتبع ذلك بذكر من هو أهل للخيرات عاجلا وآجلا فوصفهم بصفات أربع : الأولى قوله (ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون) الاشفاق : الخوف ، تقول أنا مشفق من هذا الأمر : أى خائف ، قيل الاشفاق هو الخشية ، فظاهر مافى الآية التكرار * وأجيب بحمل الخشية على العذاب : أى من عذاب ربهم خائفون ، وبه قال الكلبي ومقاتل * وأجيب أيضا بحمل الاشفاق على ماهو أثر له : وهو الدوام على الطاعة : أى الذين هم من خشية ربهم دائمون على طاعته * وأجيب أيضا بأن الاشفاق كمال الخوف فلا تكرار ، وقيل هو تكرار للتأكيد ، والصفة الثانية قوله (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) قيل المراد بالآيات هى التنزيلية ، وقيل هى التكوينية ، وقيل بمجموعهما ، قيل وليس المراد بالايمان بها هو التصديق بوجودها فقط ، فان ذلك معلوم بالضرورة ولا يوجب المدح ، بل المراد التصديق بكونها دلائل وأن مدلولها حق ، والصفة الثالثة قوله (والذين هم بربهم لايشركون) أى يتركون الشرك تركا كليا ظاهرا وباطنا ، والصفة الرابعة قوله (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون) أى يعطون ما أعطوا وقلوبهم خائفة من أجل ذلك الاعطاء يظنون أن ذلك لاينجيهم من عذاب الله ، وجلة : وقلوبهم وجلة فى محل نصب على الحال : أى والحال أن قلوبهم خائفة أشد الخوف . قال الزجاج : قلوبهم خائفة لأنهم الى ربهم راجعون ، وسبب الوجل هو أن يخافوا أن لايقبل منهم ذلك على الوجه المطلوب ، لامجرد رجوعهم اليه سبحانه ، وقيل المعنى : أن من اعتقد الرجوع الى الجزاء والحساب وعلم أن المجازى والمحاسب هو الربّ الذى لاتخفى عليه خافية لم يخل من وجل : قرأت عائشة وابن عباس والنخعى : يأتون ما أتوا مقصورا من الاتيان . قال الفراء ولو صحت هذه القراءة لم تخالف قراءة الجماعة ، لأن من العرب من يلزم فى الهمز الألف فى كل الحالات . قال النحاس : ومعنى هذه القراءة يعملون ما عملوا ، والاشارة بقوله (أولئك) الى المتصفين بهذه الصفات ، ومعنى (يسارعون فى الخيرات) يبادرون بها . قال الفراء والزجاج ينافسون فيها ، وقيل يسابقون ، وقرىء يسرعون (وهم لها سابقون) اللام للتقوية ، والمعنى : هم سابقون إياها ، وقيل اللام بمعنى الى كما فى قوله ـ بأن ربك أوحى لها ـ أى أوحى إليها ، وأنشد سيبويه قول الشاعر :

تجانف عن أهل اليمامة ناقتى * وما قصدت من أهلها لسوائكا

أى إلى سوائكا ، وقيل المفعول محذوف ، والتقدير : وهم سابقون الناس لأجلها ، ثم لما انجرّ الكلام الى ذكر أعمال المكلفين ذكر لها حكمين : الأوّل قوله ـ ولا نكلف نفسا الا وسعها ـ الوسع هو الطاقة . وقد تقدّم بيان هذا فى آخر سورة البقرة ، وفى تفسير الوسع قولان : الأوّل أنه الطاقة كما فسره بذلك أهل اللغة . الثانى أنه دون الطاقة ، وبه قال مقاتل والضحاك والكلبي والمعتزلة قالوا لأن الوسع إنما سمى وسعا لأنه يتسع على فاعله فعله ولا يضيق عليه ، فمن لم يستطع الجلوس فليوم إيماء ، ومن لم يستطع الصوم فليفطر ، وهذه الجملة مستأنفة للتحريض على ماوصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدّية إلى نيل الكرامات ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حدّ الوسع والطاقة ، وأن ذلك عادة الله سبحانه فى

تكليف عباده ، وجملة (ولدينا كتاب ينطق بالحق) من تمام ماقبلها من نفى التكليف بما فوق الوسع والمراد بالكتاب صحائف الأعمال : أى عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل واحد من المكلفين على ماهى عليه ، ومعنى « ينطق بالحق » يظهر به الحق المطابق للواقع من دون زيادة ولا نقص ، ومثله قوله سبحانه ــ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ــ ، وفى هذا تهديد للعصاة وتأنيس للطيعين من الحيف والظلم ، وقيل المراد بالكتاب : اللوح المحفوظ فانه قد كتب فيه كل شىء ، وقيل المراد بالكتاب : القرآن ، والأوّل أولى . وفى هذه الآية تشبيه للكتاب بمن يصدر عنه البيان بالنطق بلسانه ، فان الكتاب يعرب عما فيه كما يعرب الناطق المحق ، وقوله (بالحق) يتعلق بينطق ، أو بمحذوف هو حال من فاعله : أى ينطق ملتبسا بالحق ، وجملة (وهم لايظلمون) مبينة لما قبلها من تفضله وعدله فى جزاء عباده : أى لايظلمون بنقص ثواب أو بزيادة عقاب ، ومثله قوله سبحانه ــ ووجدوا ماعملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ــ ، ثم أضرب سبحانه عن هذا ، فقال (بل قلوبهم فى غمرة من هذا ــ ، والضمير للكفار : أى بل قلوب الكفار فى غمرة غامرة لها عن هذا الكتاب الذى ينطق بالحق ، أو عن الأمر الذى عليه المؤمنون ، يقال : غمره الماء اذا غطاه ، ونهر غمر يغطى من دخله ، والمراد بها هنا الغطاء والغفلة أوالحيرة والعمى ، وقد تقدم الكلام على الغمرة قريبا (ولهم أعمال من دون ذلك) قال قتادة ومجاهد : أى لهم خطايا لابدّ أن يعملوها من دون الحق ، وقال الحسن وابن زيد : المعنى ولهم أعمال رديئة لم يعملوها من دون ماهم عليه لابدّ أن يعملوها فيدخلون بها النار ، فالاشارة بقوله : ذلك إما الى أعمال المؤمنين ، أوالى أعمال الكفار : أى لهم أعمال من دون أعمال المؤمنين التى ذكرها الله ، أو من دون أعمال الكفار التى تقدم ذكرها من كون قلوبهم فى غفلة عظيمة مما ذكر ، وهى فنون كفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ماسيأتى من طعنهم فى القرآن . قال الواحدى : اجماع المفسرين وأصحاب المعانى على أن هذا اخبار عما سيعملونها من أعمالهم الخبيثة التى كتبت عليهم لابدّ لهم أن يعملوها ، وجملة (هم لها عاملون) مقرّرة لما قبلها : أى واجب عليهم أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم من الشقاوة لامحيص لهم عن ذلك ، ثم رجع سبحانه الى وصف الكفار ، فقال (حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب) حتى هذه هى التى يبتدأ بعدها الكلام ، والكلام هو الجملة الشرطية المذكورة ، وهذه الجملة مبينة لما قبلها ، والضمير فى مترفيهم راجع الى من تقدم ذكره من الكفار ، والمراد بالمترفين المتنعمين منهم ، وهم الذين أمدّهم الله بما تقدم ذكره من المال والبنين . أو المراد بهم الرؤساء منهم ، والمراد بالعذاب هو عذابهم بالسيف يوم بدر ، أوبالجوع بدعاء النبىّ ﷺ عليهم حيث قال : اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ، وقيل المراد بالعذاب عذاب الآخرة ، ورجح هذا بأن مايقع منهم من الجؤار انما يكون عند عذاب الآخرة ، لأنه الاستغاثة بالله ولم يقع منهم ذلك يوم بدر ولا فى سنى الجوع ، ويجاب عنه بأن الجؤار فى اللغة الصراخ والصياح . قال الجوهرى : الجؤار مثل الخوار ، يقال جأر الثور يجأر : أى صاح ، وقد وقع منهم ومن أهلهم وأولادهم عند أن عذبوا بالسيف يوم بدر ، وبالجوع فى سنى الجوع : وليس الجؤار ها هنا مقيدا بالجؤار الذى هو التضرّع بالدعاء حتى يتمّ ماذكره ذلك القائل ، وجملة (إذاهم يجأرون) جواب الشرط ، واذا هى الفجائية * والمعنى حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب فاجئوا بالصراخ ، ثم أخبر سبحانه أنه يقال لهم حينئذ على جهة التبكيت (لا تجأروا اليوم) فالقول مضمر ، والجملة مسوقة لتبكيتهم واقناطهم وقطع أطماعهم ، وخصص سبحانه المترفين مع أن العذاب لاحق بهم جميعا واقع على مترفيهم وغير مترفيهم لبيان أنهم بعد النعمة التى كانوا فيها صاروا على حالة تخالفها وتباينها فانتقلوا من

النعيم

النعيم التامّ إلى الشقاء الخالص ، وخصّ اليوم بالذكر للتهويل ، وجملة (إنكم منا لاتنصرون) تعليل للنهى عن الجؤار * والمعنى إنكم من عذابنا لاتمنعون ولا ينفعكم جزعكم ، وقيل المعنى انكم لايلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم مما دهمكم من العذاب ، ثم عدّد سبحانه عليهم قبائحهم توبيخا لهم ، فقال (قد كانت آياتى تتلى عليكم) أى فى الدنيا ، وهى آيات القرآن (فكنتم على أعقابكم تنكصون) أى ترجعون وراءكم ، وأصل النكوص أن يرجع القهقرى ، ومنه قول الشاعر :

زعموا أنهم على سبل الحق * وأنا نكص على الأعقاب

وهو هنا استعارة للإعراض عن الحق ، وقرأ علىّ بن أبى طالب على أدباركم بدل على أعقابكم تنكصون بضم الكاف ، وعلى أعقابكم متعلق بتنكصون ، أو متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل تنكصون (مستكبرين به) الضمير فى به راجع الى البيت العتيق ، وقيل للحرم ، والذى سوّغ الاضمار ، قبل الذكر اشتهارهم بالاستكبار به وافتخارهم بولايته والقيام به ، وكانوا يقولون لايظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم وخدّامه ، و إلى هذا ذهب جمهور المفسرين : وقيل الضمير عائد إلى القرآن * والمعنى : أن سماعه يحدث لهم كبرا وطغيانا فلا يؤمنون به . قال ابن عطية : وهذا قول جيد ، وقال النحاس : القول الأوّل أولى و بينه بما ذكرنا ، فعلى القول الأوّل يكون به متعلقا بمستكبرين ، وعلى الثانى يكون متعلقا بـ(سامرا) لأنهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون ، وكان عامّة سمرهم ذكر القرآن والطعن فيه ، والسامر كالحاضر فى الاطلاق على الجمع . قال الواحدى : السامر الجماعة يسمرون بالليل : أى يتحدّثون ، ويجوز أن يتعلق « به » بقوله (تهجرون) والهجر بالفتح الهذيان : أى تهذون فى شأن القرآن ، ويجوز أن يكون من الهجر بالضم ، وهو الفحش ، وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبو حيوة سمرا بضم السين وفتح الميم مشدّدة ، وقرأ زيد بن على وأبو رجاء سمارا ، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس ، وانتصاب سامرا على الحال إما من فاعل تنكصون ، أو من الضمير فى مستكبرين ، وقيل هو مصدر جاء على لفظ الفاعل ، يقال قوم سامر ، ومنه قول الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر

قال الراغب : ويقال سامر وسمار ، وسمر وسامرون ، قرأ الجمهور تهجرون بفتح التاء المثناة من فوق وضم الجيم ، وقرأ نافع وابن محيصن بضم التاء وكسر الجيم من أهجر : أى أفحش فى منطقه ، وقرأ زيد بن على وابن محيصن وأبو نهيك بضم التاء وفتح الهاء وكسر الجيم مشدّدة مضارع هجر بالتشديد ، وقرأ ابن أبى عاصم كالجمهور الا أنه بالياء التحتية ، وفيه التفات .

وقد أخرج الفريابى وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن ماجه وابن أبى الدنيا فى نعت الخائفين وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن عائشة قالت : قلت يارسول الله : قول الله (والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة) أهو الرجل يسرق ويزنى ويشرب الخمر ، وهو مع ذلك يخاف الله ؟ قال لا ، ولكنه الرجل يصوم ويتصدّق ويصلى ، وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن الأنبارى فى المصاحف وابن جرير وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قالت عائشة يارسول الله فذكر نحوه . وأخرج عبد الرزاق عن ابن عباس فى قوله (والذين يؤتون ما آتوا) قال : يعطون ما أعطوا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (وقلوبهم وجلة) قال : يعملون خائفين . وأخرج الفريابى وابن جرير عن ابن عمر والذين يؤتون ما آتوا قال الزكاة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن عائشة والذين يؤتون

XXIII. ٧٠-٧١

ما أتوا قالت : هم الذين يخشون الله ويطيعونه . وأخرج عبد بن حميد عن ابن أبى مليكة قال : قالت عائشة ، لأن تكون هذه الآية كما أقرأ أحبّ الىّ من حمر النعم ، فقال لها ابن عباس ماهى ؟ قالت الذين يؤتون ما أتوا ، وقد قدّمنا ذكر قراءتها ومعناها . وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عنها عن النبىّ ﷺ ، أنه قرأ والذين يؤتون ما أتوا مقصورا من المجىء . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد ابن حميد والبخارى فى تاريخه وابن المنذر وابن أبى شيبة وابن الأنبارى فى المصاحف والدارقطنى فى الأفراد والحاكم وصححه وابن مردويه عن عبيد بن عمير أنه سأل عائشة كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية والذين يؤتون ما آتوا والذين يأتون ما أتوا ؟ قالت أيتهما أحبّ إليك ؟ قلت والذى نفسى بيده لأحدهما أحبّ الىّ من الدنيا وما فيها جميعا ، قالت أيهما ؟ قلت الذين يأتون ما أتوا ، فقالت أشهد أن رسول الله ﷺ ، كان يقرؤها كذلك ، وكذلك أنزلت ، ولكن الهجاء حرّف ، وفى إسناده اسماعيل ابن علىّ ، وهو ضعيف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) قال : سبقت لهم السعادة من الله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (بل قلوبهم فى غمرة من هذا) يعنى بالغمرة الكفر والشك (ولهم أعمال من دون ذلك) يقول : أعمال سيئة دون الشرك (هم لها عاملون) قال : لابدّ لهم أن يعملوها . وأخرج النسائى عنه (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب) قال : هم أهل بدر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (إذاهم يجأرون) قال يستغيثون ، وفى قوله (فكنتم على أعقابكم تنكصون) قال : تدبرون ، وفى قوله (سامرا تهجرون) قال : تسمرون حول البيت وتقولون هجرا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه مستكبرين به ، قال بحرم الله أنه لايظهر عليهم فيه أحد . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضا سامرا تهجرون قال : كانت قريش يتحلقون حلقا يتحدّثون حول البيت . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه عنه أن رسول الله ﷺ كان يقرأ مستكبرين به سامرا تهجرون : قال كان المشركون يهجرون برسول الله ﷺ فى القول فى سمرهم . وأخرج النسائى وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال : انما كره السمر حين نزلت هذه الآية مستكبرين به سامرا تهجرون .

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ * حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ

XXIII 42 45

وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ *

قوله (أفلم يدبروا القول) بين سبحانه أن سبب إقدامهم على الكفر هو أحد هذه الأمور الأربعة: الأول عدم التدبر فى القرآن، فانهم لو تدبروا معانيه لظهر لهم صدقه وآمنوا به وبما فيه، والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر: أى فعلوا مافعلوا فلم يدبروا، والمراد بالقول القرآن، ومثله ـ أفلا يتدبرون القرآن ـ * والثانى قوله (أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين) أم هى المنقطعة: أى بل أجاءهم من الكتاب مالم يأت آباءهم الأولين، فكان ذلك سببا لاستنكارهم للقرآن، والمقصود تقرير أنه لم يأت آباءهم الأولين رسول، فلذلك أنكروه، ومثله قوله ـ لتنذر قوما ماأنذر آباؤهم ـ وقيل انه أتى آباءهم الأقدمين رسل أرسلهم الله اليهم. كما هى سنة الله سبحانه فى ارسال الرسل إلى عباده، فقد عرف هؤلاء ذلك، فكيف كذبوا هذا القرآن، وقيل المعنى: أم جاءهم من الأمن من عذاب الله مالم يأت آباءهم الأولين كاسماعيل ومن بعده * والثالث قوله (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) وفى هذا إضراب وانتقال من التوبيخ بما تقدم الى التوبيخ بوجه آخر: أى بل ألم يعرفوه بالأمانة والصدق فأنكروه، ومعلوم أنهم قد عرفوه بذلك * والرابع قوله (أم يقولون به جنة) وهذا أيضا انتقال من توبيخ الى توبيخ: أى بل أتقولون به جنة: أى جنون، مع أنهم قد علموا أنه أرجح الناس عقلا، ولكنه جاء بما يخالف هواهم فدفعوه وجحدوه تعصبا وحمية. ثم أضرب سبحانه عن ذلك كله، فقال (بل جاءهم بالحق) أى ليس الأمر كما زعموا فى حق القرآن والرسول، بل جاءهم ملتبسا بالحق، والحق هو الدين القويم، (وأكثرهم للحق كارهون) لما جبلوا عليه من التعصب، والانحراف عن الصواب، والبعد عن الحق فلذلك كرهوا هذا الحق الواضح الظاهر، وظاهر النظم أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق، ولكنهم لم يظهروا الايمان خوفا من الكارهين له، وجملة (ولو اتبع الحق أهواءهم) مستأنفة مسوقة لبيان أنه لو جاء الحق على مايهوونه ويريدونه لكان ذلك مستلزما للفساد العظيم، وخروج نظام العالم عن الصلاح بالكلية، وهو معنى قوله (لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) قال أبو صالح وابن جريج ومقاتل والسدى الحق هو الله * والمعنى: لو جعل مع نفسه كما يحبون شريكا لفسدت السموات والأرض، وقال الفراء والزجاج: يجوز أن يكون المراد بالحق القرآن: أى لو نزل القرآن بما يحبون من الشرك لفسد نظام العالم، وقيل المعنى: ولو كان الحق مايقولون من اتخاذ الآلهة مع الله لاختلفت الآلهة، ومثل ذلك قوله ـ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ـ وقد ذهب الى القول الأول الأكثرون، ولكنه يرد عليه أن المراد بالحق هنا هو الحق المذكور قبله فى قوله: بل جاءهم بالحق، ولا يصح أن يكون المراد به هنالك الله سبحانه، فالأولى تفسير الحق هنا وهناك بالصدق الصحيح من الدين الخالص من شرع الله * والمعنى: ولو ورد الحق متابعا لأهوائهم، موافقا لفاسد مقاصدهم لحصل الفساد، والمراد بقوله: ومن فيهن. من فى السموات والأرض من المخلوقات. وقرأ ابن مسعود وما بينهما، وسبب فساد المكلفين من بنى آدم ظاهر، وهو ذنوبهم التى من جملتها الهوى المخالف للحق، وأما فساد ماعداهم فعلى وجه التبع لأنهم مدبرون فى الغالب بذوى العقول فلما فسدوا فسدوا، ثم ذكر سبحانه أن نزول القرآن عليهم من جملة الحق، فقال (بل أتيناهم

بذكرهم) والمراد بالذكر هنا القرآن : أى بالكتاب الذى هو فخرهم وشرفهم ، ومثله قوله ــ وانه لذكر لك ولقومك ــ * والمعنى : بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذى كان يجب عليهم أن يقبلوه ، ويقبلوا عليه ، وقال قتادة : المعنى بذكرهم الذى ذكر فيه ثوابهم وعقابهم ، وقيل المعنى بذكر مالهم به حاجة من أمر الدين . وقرأ ابن أبى اسحق وعيسى بن عمر أتيتهم بتاء المتكلم . وقرأ أبو حيوة والجحدرى أتيتهم بتاء الخطاب : أى أتيتهم يامحمد . وقرأ عيسى بن عمر بذكراهم ، وقرأ قتادة نذكرهم بالنون والتشديد من التذكير ، وتكون الجملة على هذه القراءة فى محل نصب على الحال ، وقيل الذكر هو الوعظ والتحذير (فهم عن ذكرهم معرضون) أى هم بما فعلوا من الاستكبار والنكوص عن هذا الذكر المختص بهم معرضون لايلتفتون اليه بحال من الأحوال ، وفى هذا التركيب مايدل على أن إعراضهم مختص بذلك لايتجاوزه إلى غيره . ثم بين سبحانه أن دعوة نبيه ﷺ ليست مشوبة بأطماع الدنيا ، فقال (أم تسألهم خرجا) وأم هى المنقطعة * والمعنى : أم يزعمون أنك تسألهم خرجا تأخذه على الرسالة ، والخرج الأجر والجعل ، فتركوا الايمان بك و بما جئت به لأجل ذلك ، مع أنهم يعلمون أنك لم تسألهم ذلك ولاطلبته منهم (فخراج ربك خير) أى فرزق ربك الذى يرزقك فى الدنيا ، وأجره الذى يعطيكه فى الآخرة خير لك مماذكر . قرأ حمزة والكسائى والأعمش ويحيى بن وثاب : أم تسألهم خراجا . وقرأ الباقون خرجا ، وكلهم قرءوا : فخراج ، الا ابن عامر وأبا حيوة فانهما قرآ : فخرج بغير ألف ، والخرج هو الذى يكون مقابلا للدخل ، يقال لكل ماتخرجه الى غيرك خرجا ، والخراج غالب فى الضريبة على الأرض . قال المبرد : الخرج المصدر ، والخراج الاسم . قال النضر بن شميل سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج والخراج ، فقال الخراج مالزمك ، والخرج ماتبرعت به ، وروى عنه أنه قال : الخرج من الرقاب والخراج من الأرض (وهو خير الرازقين) هذه الجملة مقرّرة لما قبلها من كون خراجه سبحانه خيرا . ثم لما أثبت سبحانه لرسوله من الأدلة الواضحة المقتضية لقبول ماجاء به ونفى عنه أضداد ذلك قال (وانك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) أى الى طريق واضحة تشهد العقول بأنها مستقيمة غير معوجة ، والصراط فى اللغة الطريق ، فسمى الدين طريقا لأنها تؤدّى اليه . ثم وصفهم سبحانه بانهم على خلاف ذلك ، فقال (وان الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) يقال : نكب عن الطريق ينكب نكوبا ، اذا عدل عنه ، ومال الى غيره والنكوب والنكب العدول والميل ، ومنه النكباء الريح بين ريحين ، سميت بذلك لعدولها عن المهابّ ، وعن الصراط متعلق بناكبون ، والمعنى : أن هؤلاء الموصوفين بعدم الايمان بالآخرة عن ذلك الصراط أو جنس الصراط لعادلون عنه . ثم بين سبحانه أنهم مصرّون على الكفر لايرجعون عنه بحال ، فقال (ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضرّ) أى من قحط وجدب (للجوا فى طغيانهم) أى لتمادوا فى طغيانهم وضلالهم (يعمهون) يتردّدون و يتذبذبون و يخبطون ، وأصل اللجاج التمادى فى العناد ، ومنه اللجة بالفتح لتردّد الصوت ، ولجة البحر تردّد أمواجه ، ولجة الليل تردّد ظلامه ، وقيل المعنى : لورددناهم إلى الدنيا ولم ندخلهم النار وامتحناهم للجوا فى طغيانهم (ولقد أخذناهم بالعذاب) جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ماقبلها ، والعذاب قيل هو الجوع الذى أصابهم فى سنى القحط ، وقيل المرض ، وقيل القتل يوم بدر ، واختاره الزجاج ، وقيل الموت ، وقيل المراد من أصابه العذاب من الأمم الخالية (فما استكانوا لربهم) أى ماخضعوا ولاتذللوا : بل أقاموا على ما كانوا فيه من التمرّد على الله والانهماك فى معاصيه (وما يتضرّعون) أى وما يخشعون لله فى الشدائد عند إصابتها لهم ، ولايدعونه لرفع ذلك (حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد) قيل هو عذاب الآخرة ، وقيل قتلهم يوم بدر بالسيف ، وقيل القحط الذى

أصابهم

أصابهم ، وقيل فتح مكة (اذاهم فيه مبلسون) أى متحيرون لايدرون مايصنعون ، والابلاس التحير والاياس من كل خير . وقرأ السلمى مبلسون بفتح اللام من أبلسه : أى أدخله فى الابلاس . وقد تقدّم فى الأنعام (وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار) امتنّ عليهم ببعض النعم التى أعطاهم ، وهى نعمة السمع والبصر (والافئدة) فصارت هذه الأمور معهم ليسمعوا المواعظ و ينظروا العبر و يتفكروا بالأفئدة فلم ينتفعوا بشيء من ذلك لاصرارهم على الكفر ، و بعدهم عن الحق ، ولم يشكروه على ذلك ، ولهذا قال (قليلا ماتشكرون) أى شكرا قليلا حقيرا غير معتدّ به باعتبار تلك النعم الجليلة ، وقيل المعنى أنهم لايشكرونه ألبتة، لاأن لهم شكرا قليلا . كما يقال لجاحد النعمة ، ماأقلّ شكره : أى لا يشكر ، ومثل هذه الآية قوله ـ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم (وهو الذى ذرأ كم فى الأرض) أى بثكم فيها كما تبث الحبوب لتنبت وقد تقدّم تحقيقه (وإليه تحشرون) أى تجمعون يوم القيامة بعد تفرّقكم (وهو الذى يحيي و يميت) على جهة الانفراد والاستقلال ، وفى هذا تذكير لنعمة الحياة ، و بيان الانتقال منها الى الدار الآخرة (وله اختلاف الليل والنهار) . قال الفراء : هو الذى جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان فى السواد والبياض ، وقيل اختلافهما نقصان أحدهما وزيادة الآخر ، وقيل تكرّرهما يوما بعد يوم وليلة بعد ليلة (أفلا تعقلون) كنه قدرته وتتفكرون فى ذلك ، ثم بين سبحانه أنه لاشبهة لهم فى إنكار البعث الا التشبث بحبل التقليد المبنيّ على مجرّد الاستبعاد ، فقال (بل قالوا مثل ماقال الأوّلون) أى آباؤهم والموافقون لهم فى دينهم ، ثم بين ماقاله الأوّلون ، فقال (قالوا أئذا كنا ترابا وعظاما أئنالمبعوثون) فهذا مجرّد استبعاد لم يتعلقوا فيه بشيء من الشبه ، ثم كملوا ذلك القول بقولهم (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل) أى وعدنا هذا البعث ووعده آباؤنا الكائنون من قبلنا فلم نصدّقه كما لم يصدقه من قبلنا ، ثم صرّحوا بالتكذيب وفرّوا إلى مجرد الزعم الباطل ، فقالوا (إن هذا إلا أساطير الأوّلين) أى ماهذا إلا أكاذيب الأوّلين التى سطروها فى الكتب جمع أسطورة كأحدوثة ، والأساطير الأباطيل والترهات والكذب .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى صالح فى قوله (أم لم يعرفوا رسولهم) قال عرفوه ولكنهم حسدوه . وفى قوله (ولو اتبع الحق أهواءهم) قال الحق الله عزّ وجلّ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (بل أتيناهم بذكرهم) قال بينا لهم . وأخرجوا عنه فى قوله (عن الصراط لناكبون) قال عن الحقّ لحائدون . وأخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ ، فقال يامحمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز : يعنى الوبر بالدم ، فأنزل الله ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم ومايتضرّعون ، وأصل الحديث فى الصحيحين أنّ رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا ، فقال : اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف الحديث . وأخرج ابن جرير وأبو نعيم فى المعرفة والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أن ابن أثال الحنفى لما أتى رسول الله ﷺ فأسلم وهو أسير فخلى سبيله لحق باليمامة ، فحال بين أهل مكة و بين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز ، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ ، فقال أليس تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ، قال بلى . قال فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع ، فأنزل الله (ولقد أخذناهم بالعذاب) الآية . وأخرج العسكرى فى المواعظ عن علىّ بن أبى طالب فى قوله (فما استكانوا لربهم ومايتضرعون) قال أى لم يتواضعوا فى الدعاء ولم يخضعوا ، ولو خضعوا لله لاستجاب لهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد) قال قد مضى ، كان يوم بدر .

قُلْ لِمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَٰهُمْ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ * ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ *

أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يسأل الكفار عن أمور لاعذر لهم من الاعتراف فيها ، ثم أمره أن ينكر عليهم بعد الاعتراف منهم ويوبخهم ، فقال (قل لمن الأرض ومن فيها) أى قل يامحمد لأهل مكة هذه المقالة ، والمراد بمن فى الأرض الخلق جميعا ، وعبر عنهم بمن تغليبا للعقلاء (ان كنتم تعلمون) شيئا من العلم ، وجواب الشرط محذوف : أى ان كنتم تعلمون فأخبرونى ، وفى هذا تلويح بجهلهم وفرط غباوتهم (سيقولون لله) أى لابدّ لهم أن يقولوا ذلك ، لأنه معلوم ببديهة العقل ، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم بعد اعترافهم (أفلا تذكرون) ترغيبا لهم فى التدبر وامعان النظر والفكر ، فان ذلك مما يقودهم إلى اتباع الحق وترك الباطل ، لأن من قدر على ذلك ابتداء قدر على احياء الموتى (قل من ربّ السموات السبع وربّ العرش العظيم . سيقولون لله) جاء سبحانه باللام نظرا إلى معنى السؤال ، فان قولك : من ربه ، ولمن هو فى معنى واحد كقولك : من ربّ هذه الدار فيقال : زيد ويقال لزيد ، وقرأ أبو عمرو وأهل العراق سيقولون الله بغير لام ، نظرا إلى لفظ السؤال ، وهذه القراءة أوضح من قراءة الباقين باللام ، ولكنه يؤيد قراءة الجمهور أنها مكتوبة فى جميع المصاحف باللام بدون ألف ، وهكذا قرأ الجمهور فى قوله (قل من بيده ملكوت كلّ شىء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله) باللام نظرا الى معنى السؤال كما سلف ، وقرأ أبو عمرو وأهل العراق بغير لام نظرا إلى لفظ السؤال ، ومثل هذا قول الشاعر :

اذا قيل من ربّ المزالف والقرى * وربّ الجياد الجرد قيل لخالد

أى لمن المزالف ، والملكوت الملك ، وزيادة التاء للمبالغة ، نحو جبروت ورهبوت ، ومعنى (وهو يجير) أنه يغيث غيره اذا شاء ويمنعه (ولا يجار عليه) أى لايمنع أحد أحدا من عذاب الله ولا يقدر على نصره واغاثته ، يقال أجرت فلانا إذا استغاث بك فحميته ، وأجرت عليه إذا حميت عنه (قل فأنى تسحرون) قال الفراء والزجاج : أى تصرفون عن الحق وتخدعون ، والمعنى كيف يخيل لكم الحق باطلا والصحيح فاسدا ، والخادع لهم هو الشيطان أو الهوى أو كلاهما ، ثم بين سبحانه أنه قد بالغ فى الاحتجاج عليهم فقال (بل أتيناهم بالحق) أى الأمر الواضح الذى يحقّ اتباعه (وانهم لكاذبون) فيما ينسبونه الى الله سبحانه من الولد والشريك ، ثم نفاهما عن نفسه فقال (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله) من فى الموضعين زائدة لتأكيد النفى ، ثم بين سبحانه مايستلزمه مايدّعيه الكفار من اثبات الشريك ،

فقال (اذاً لذهب كل إله بما خلق) وفى الكلام حذف تقديره لو كان مع الله آلهة لانفرد كل إله بخلقه واستبدّ به وامتاز ملكه عن ملك الآخر ، ووقع بينهم التطالب والتحارب والتغالب (ولعلا بعضهم على بعض) أى غلب القوىّ على الضعيف وقهره وأخذ ملكه كعادة الملوك من بنى آدم ، وحينئذ فذلك الضعيف المغلوب لايستحق أن يكون إلها ، واذا تقرّر عدم امكان المشاركة فى ذلك ، وأنه لايقوم به الا واحد تعين أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه ، وهذا الدليل كما دلّ على نفى الشريك فانه يدلّ على نفى الولد ، لأن الولد ينازع أباه فى ملكه ، ثم نزّه سبحانه نفسه ، فقال (سبحان الله عما يصفون) أى من الشريك والولد ، واثبات ذلك لله عزّ وجلّ (عالم الغيب والشهادة) أى هو مختص بعلم الغيب والشهادة ، وأما غيره فهو وان علم الشهادة لايعلم الغيب ، قرأ نافع وأبو بكر وحمزة والكسائى عالم بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف : أى هو عالم ، وقرأ الباقون بالجرّ على أنه صفة لله أو بدل منه ، وروى عن يعقوب أنه كان يخفض اذا وصل و يرفع إذا ابتدأ (فتعالى) الله (عما يشركون) معطوف على معنى ماتقدم كأنه قال : علم الغيب فتعالى ، كقولك : زيد شجاع فعظمت منزلته : أى شجع فعظمت ، أو يكون على اضمار القول : أى أقول فتعالى الله ٭ والمعنى أنه سبحانه متعال عن أن يكون له شريك فى الملك (قل ربّ اماتر ينى مايوعدون) أى ان كان ولابدّ أن تر ينى مايوعدون من العذاب المستأصل لهم (ربّ فلا تجعلنى فى القوم الظالمين) أى قل يارب فلا تجعلنى . قال الزجاج : أى ان أنزلت بهم النقمة ياربّ فاجعلنى خارجا عنهم ، ومعنى كلامه هذا أن النداء معترض ، و «ما» فى إما زائدة : أى قل ربّ ان تر ينى ، والجواب فلا تجعلنى ، وذكر الربّ مرّتين مرّة قبل الشرط ، ومرّة بعده مبالغة فى التضرّع . وأمره الله أن يسأله أن لايجعله فى القوم الظالمين مع أن الأنبياء لايكونون مع القوم الظالمين أبدا ، تعليما له ﷺ من ربه كيف يتواضع ؟ وقيل يهضم نفسه ، أو لكون شؤم الكفر قد يلحق من لم يكن من أهله كقوله ـ واتقوا فتنة لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة ، ثم لما كان المشركون ينكرون العذاب و يسخرون من النبيّ ﷺ اذا ذكر لهم ذلك أكد سبحانه وقوعه بقوله (وانا على أن نريك مانعدهم لقادرون) أى أن الله سبحانه قادر على أن يرى رسوله عذابهم ، ولكنه يؤخره لعلمه بأن بعضهم سيؤمن ، أو لكون الله سبحانه لايعذبهم والرسول فيهم ، وقيل قد أراه الله سبحانه ذلك يوم بدر و يوم فتح مكة ، ثم أمره سبحانه بالصبر الى أن ينقضى الأجل المضروب للعذاب ، فقال (ادفع بالتى هى أحسن السيئة) أى ادفع بالخصلة التى هى أحسن من غيرها ، وهى الصفح والاعراض عما يفعله الكفار من الخصلة السيئة وهى الشرك ، قيل وهذه الآية منسوخة بآية السيف ، وقيل هى محكمة فى حقّ هذه الأمة فيما بينهم ، منسوخة فى حقّ الكفار (نحن أعلم بما يصفون) أى مايصفونك به مما أنت على خلافه ، أو بما يصفون من الشرك والتكذيب ، وفى هذا وعيد لهم بالعقوبة ، ثم علمه سبحانه مايقوّيه على ماأرشده اليه من العفو والصفح ومقابلة السيئة بالحسنة ، فقال (وقل ربّ أعوذ بك من همزات الشياطين) الهمزات جمع همزة ، وهى فى اللغة الدفعة باليد أو بغيرها ، وهمزات الشياطين نزغاتهم ووساوسهم كما قاله المفسرون ، يقال همزه ولمزه ونخسه : أى دفعه ، وقيل الهمز كلام من وراء القفا ، واللمز المواجهة ، وفيه إرشاد لهذه الأمة الى التعوّذ من الشيطان ، ومن همزات الشياطين سورات الغضب التى لايملك الانسان فيها نفسه (وأعوذ بك ربّ أن يحضرون) أمره سبحانه أن يتعوّذ بالله من حضور الشياطين بعد ما أمره أن يتعوّذ من همزاتهم ٭ والمعنى وأعوذ بك أن يكونوا معى فى حال من الأحوال ، فانهم اذا حضروا الانسان لم يكن لهم عمل الا الوسوسة والاغراء على الشرّ والصرف عن الخير ، وفى قراءة أبىّ ، وقل ربّ عائذا بك من همزات الشياطين وعائذا بك ربّ

أن يحضرون .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (قل من بيده ملكوت كل شيء) قال خزائن كل شيء . وأخرج عبد بن حيد وابن جرير وابن المنذر عنه (ادفع بالتي هي أحسن السيئة) يقول أعرض عن أذاهم إياك . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطاء ادفع بالتي هي أحسن قال : بالسلام . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن أنس في قوله ادفع بالتي هي أحسن السيئة ، قال : قول الرجل لأخيه ماليس فيه ، فيقول ان كنت كاذبا فأنا أسأل الله أن يغفر لك ، وان كنت صادقا فأنا أسأل الله أن يغفر لي . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبوداود والترمذي وحسنه والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : « كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات نقولهن عند النوم من الفزع : بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » قال فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ، ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه ، وفي اسناده محمد بن اسحق ، وفيه مقال معروف . وأخرج أحمد عن الوليد بن الوليد أنه قال : يارسول الله اني أجد وحشة « قال إذا أخذت مضجعك فقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون فانه لايحضرك » و بالحرى ألا يضرك .

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ * فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ * قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ * وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ *

(حتى) هي الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية ، وهي مع ذلك غاية لماقبلها متعلقة بقوله لكاذبون وقيل بيصفون ، والمراد بمجيء الموت مجيء علاماته (قال رب ارجعون) أي قال ذلك الأحد الذي

حضره الموت تحسرا وتحزنا على مافرط منه رب ارجعون : أى ردونى الى الدنيا ، وانما قال ارجعون بضمير الجماعة لتعظيم المخاطب ، وقيل هو على معنى تكرير الفعل : أى ارجعنى ارجعنى ارجعنى ، ومثله قوله ـ ألقيا فى جهنم ـ قال المازنى معناه ألق ألق ، وهكذا قيل فى قول امرئ القيس :

* قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * ومنه قول الحجاج * ياحرسى اضربا عنقه * ومنه قول الشاعر : * ولوشئت حرمت النساء سواكم * وقول الآخر : * ألافارحمونى يا إله محمد *

وقيل انهم لما استغاثوا بالله قال قائلهم رب ، ثم رجع الى مخاطبة الملائكة ، فقال ارجعون (لعلى أعمل صالحا) أى أعمل عملا صالحا فى الدنيا اذا رجعت اليها من الايمان ومايتبعه من أعمال الخير ، ولما تمنى أن يرجع ليعمل رد الله عليه ذلك بقوله (كلا انها كلمة هو قائلها) فجاء بكلمة الردع والزجر ، والضمير فى أنها يرجع الى قوله : رب ارجعون : أى ان هذه الكلمة هوقائلها لامحالة ، وليس الأمر على مايظنه من أنه يجاب الى الرجوع الى الدنيا ، أو المعنى انه لوأجيب إلى ذلك لما حصل منه الوفاء كما فى قوله ـ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ـ ، وقيل ان الضمير فى قائلها يرجع إلى الله : أى لاخلف فى خبره ، وقد أخبرنا بأنه لايؤخر نفسا إذا جاء أجلها (ومن ورائهم برزخ) أى من أمامهم و بين أيديهم : والبرزخ هو الحاجز بين الشيئين . قاله الجوهرى .

واختلف فى معنى الآية ، فقال الضحاك ومجاهد وابن زيد حاجز بين الموت والبعث ، وقال الكلبى هو الأجل مابين النفختين ، و بينهما أربعون سنة . وقال السدى : هوالأجل ، و (الى يوم يبعثون) هو يوم القيامة (فاذا نفخ فى الصور) قيل هذه هى النفخة الأولى ، وقيل الثانية ، وهذا أولى ، وهى النفخة التى تقع بين البعث والنشور ، وقيل المعنى فاذا نفخ فى الأجساد أرواحها ، على أن الصور جمع صورة ، لا القرن و يدل على هذا قراءة ابن عباس والحسن الصور بفتح الواو مع ضم الصاد جمع صورة ، وقرأ أبو رزين بفتح الصاد والواو ، وقرأ الباقون بضم الصاد وسكون الواو ، وهو القرن الذى ينفخ فيه (فلا أنساب بينهم يومئذ) أى لايتفاخرون بالأنساب و يذكرونها لما هم فيه من الحيرة والدهشة (ولا يتساءلون) أى لايسأل بعضهم بعضا ، فان لهم اذ ذاك شغلا شاغلا ، ومنه قوله تعالى ـ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته و بنيه ـ ، وقوله ـ ولا يسأل حميم حميما ـ ، ولا ينافى هذا مافى الآية الأخرى من قوله ـ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ـ فان ذلك محمول على اختلاف المواقف يوم القيامة ، فالاثبات باعتبار بعضها ، والنفى باعتبار بعض آخر كما قررناه فى نظائر هذا ، مما أثبت تارة ونفى أخرى (فمن ثقلت موازينه) أى موزوناته من أعماله الصالحة (فأولئك هم المفلحون) أى الفائزون بمطالبهم المحبوبة ، الناجون من الأمور التى يخافونها (ومن خفت موازينه) وهى أعماله الصالحة (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) أى ضيعوها وتركوا ما ينفعها (فى جهنم خالدون) هذا بدل من صلة الموصول ، أو خبر ثان لاسم الاشارة . وقد تقدم الكلام على هذه الآية مستوفى فلا نعيده ، وجملة (تلفح وجوههم النار) مستأنفة ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال ، أو تكون خبرا آخر لأولئك : واللفح الاحراق ، يقال : لفحته النار اذا أحرقته ولفحته بالسيف اذا ضربته ، وخص الوجوه لأنها أشرف الأعضاء (وهم فيها كالحون) هذه الجملة فى محل نصب على الحال : والكالح الذى قد تشمرت شفتاه و بدت أسنانه قاله الزجاج ، ودهر كالح : أى شديد . قال أهل اللغة : الكلوح تكشر فى عبوس ، وجملة (ألم تكن آياتى تتلى عليكم) هى على إضمار القول : أى يقال لهم ذلك تو بيخا وتقريعا : أى ألم تكن آياتى تتلى عليكم فى الدنيا (فكنتم بها تكذبون) وجملة (قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا) مستأنفة جواب سؤال مقدر : أى غلبت علينا

لذاتنا وشهواتنا ، فسمى ذلك شقوة ، لأنه يؤول الى الشقاء . قرأ أهل المدينة (١) وأبو عمرو وعاصم شقوتنا ، وقرأ الباقون شقاوتنا ، وهـذه القراءة مروية عن ابن مسعود والحسن (وكنا قوما ضالين) أى بسبب ذلك فانهم ضلوا عن الحق بتلك الشقوة ، ثم طلبوا ما لا يجابون اليه ، فقالوا (ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون) أى فان عدنا الى ما كنا عليه من الكفر وعدم الايمان فانا ظالمون لأنفسنا بالعود الى ذلك ، فأجاب الله عليهم بقوله (قال اخسئوا فيها ولا تكلمون) أى اسكتوا فى جهنم . قال المبرد الخسء إبعاد بمكروه ، وقال الزجاج تباعدوا تباعد سخط وأبعدوا بعد الكلب * فالمعنى على هذا أبعدوا فى جهنم ، كما يقال للكلب اخسأ : أى ابعد ، خسأت الكلب خسأ طردته ، ولا تكلمون فى إخراجكم من النار ورجوعكم الى الدنيا ، أو فى رفع العذاب عنكم ، وقيل المعنى لا تكلمون رأسا ، ثم علل ذلك بقوله (إنه كان فريق من عبادى يقولون) وهم المؤمنون ، وقيل الصحابة ، يقولون (ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين) قرأ الجمهور : إنه كان فريق بكسر إن استئنافا تعليليا ، وقرأ أبىّ بفتحها (فاتخذتموهم سخريا) قرأ نافع وحمزة والكسائى بضم السين ، وقرأ الباقون بكسرها ، وفرّق بينهما أبو عمرو ، فجعل الكسر من جهة الهزؤ ، والضم من جهة السخرية . قال النحاس : ولا يعرف هذا الفرق الخليل ولا سيبويه ولا الكسائى ولا الفرّاء ، وحكى الثعلبى عن الكسائى : أن الكسر بمعنى الاستهزاء ، والسخرية بالقول : والضم بمعنى التسخير والاستبعاد بالفعل (حتى أنسوكم ذكرى) أى اتخذتموهم سخريا إلى هذه الغاية فانهم نسوا ذكر الله لشدّة اشتغالهم بالاستهزاء (وكنتم منهم تضحكون) فى الدنيا * والمعنى حتى نسيتم ذكرى باشتغالكم بالسخرية والضحك ، فنسب ذلك الى عباده المؤمنين لكونهم السبب ، وجملة (إنى جزيتهم اليوم بما صبروا) مستأنفة لتقرير ما سبق ، والباء فى بما صبروا للسببية (أنهم هم الفائزون) قرأ حمزة والكسائى بكسر الهمزة على الاستئناف ، وقرأ الباقون بالفتح : أى لأنهم الفائزون ، ويجوز أن يكون منصوبا على أنه المفعول الثانى للفعل (قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين) القائل هو الله عزّ وجلّ تذكيرا لهم كم لبثوا ؟ لما سألوا الرجوع إلى الدنيا بعد أن أخبرهم بأن ذلك غير كائن كما فى قوله : اخسئوا فيها ، والمراد بالأرض : هى الأرض التى طلبوا الرجوع اليها ، ويحتمل أن يكون السؤال عن جميع مالبثوه فى الحياة وفى القبور ، وقيل هو سؤال عن مدّة لبثهم فى القبور لقوله : فى الأرض ، ولم يقل على الأرض ، وردّ بمثل قوله تعالى ـ ولا تفسدوا فى الأرض ـ وانتصاب عدد سنين على التمييز ، لما فى كم من الابهام ، وسنين بفتح النون على أنها نون الجمع ، ومن العرب من يخفضها وينونها (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) استقصروا مدّة لبثهم لما هم فيه من العذاب الشديد ، وقيل إن العذاب رفع عنهم بين النفختين ، فنسوا ما كانوا فيه من العذاب فى قبورهم ، وقيل أنساهم الله ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الأولى الى النفخة الثانية ، ثم لما عرفوا ما أصابهم من النسيان لشدّة ما هم فيه من الهول العظيم أحالوا على غيرهم ، فقالوا (فاسأل العادّين) أى المتمكنين من معرفة العدد ، وهم الملائكة ، لأنهم الحفظة العارفون بأعمال العباد وأعمارهم ، وقيل المعنى : فاسأل الحاسبين العارفين بالحساب من الناس ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى : قل كم لبثتم فى الأرض على الأمر * والمعنى قل يا محمد للكفار ، أو يكون أمرا للملك بسؤالهم ، أو التقدير : قولوا كم لبثتم ، فأخرج الكلام مخرج الأمر للواحد ، والمراد الجماعة ، وقرأ الباقون : قال كم لبثتم على أن القائل هو الله عز وجل أو الملك (قال إن لبثتم إلا قليلا) قرأ حمزة والكسائى قل ان لبثتم كما فى الآية الاولى ، وقرأ الباقون قال على الخبر ، وقد تقدم توجيه القراءتين : أى ما لبثتم فى الأرض إلا لبثا قليلا (لو أنكم كنتم تعلمون) شيئا من العلم ، والجواب محذوف :

---

(١) قوله أهل المدينة : صوابه أهل الحجاز اه مصحح القرآن

أى

أى لو كنتم تعلمون لعلمتم اليوم قلة لبثكم فى الأرض ، أو فى القبور ، أوفيهما ، فكل ذلك قليل بالنسبة إلى لبثهم ، ثم زاد سبحانه فى توبيخهم ، فقال (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا) الهمزة للتوبيخ والتقرير ، والفاء للعطف على مقدر كما تقدم بيانه فى مواضع : أى ألم تعلموا شيئا فحسبتم ، وانتصاب عبثا على الحال : أى عابثين ، أو على العلة : أى للعبث ، قال بالأول سيبويه وقطرب ، وبالثانى أبو عبيدة ، وقال أيضا يجوز أن يكون منتصبا على المصدرية ، وجملة (وأنكم إلينا لا ترجعون) معطوفة على أنما خلقناكم عبثا ، والعبث فى اللغة : اللعب ، يقال عبث يعبث عبثا فهو عابث : أى لاعب ، وأصله من قولهم عبثت الأقط : أى خلطته * والمعنى أفحسبتم أن خلقنا لكم للإهمال كما خلقت البهائم ولا ثواب ولاعقاب ، وأنكم إلينا لا ترجعون بالبعث والنشور فنجازيكم بأعمالكم ، قرأ حمزة والكسائى ترجعون بفتح الفوقية وكسر الجيم مبنيا للفاعل ، وقرأ الباقون على البناء للمفعول ، وقيل انه يجوز عطف ، وأنكم إلينا لا ترجعون على عبثا على معنى أنما خلقناكم للعبث ولعدم الرجوع . ثم نزّه سبحانه نفسه ، فقال (فتعالى الله) أى تنزّه عن الأولاد والشركاء او عن أن يخلق شيئا عبثا ، أو عن جميع ذلك ، وهو (الملك) الذى يحق له الملك على الاطلاق (الحقّ) فى جميع أفعاله وأقواله (لا إله إلا هو ربّ العرش الكريم) فكيف لا يكون إلاها وربا ، لما هو دون العرش الكريم من المخلوقات ، ووصف العرش بالكريم لنزول الرحمة والخير منه ، أو باعتبار من استوى عليه ، كما يقال : بيت كريم إذا كان ساكنوه كراما ، قرأ أبو جعفر وابن محيصن واسمعيل وأبان بن ثعلب : الكريم بالرفع على أنه نعت لرب ، وقرأ الباقون بالجرّ على أنه نعت للعرش ، ثم زيف ما عليه أهل الشرك توبيخا لهم وتقريعا ، فقال (ومن يدع مع الله إلاها آخر) يعبده مع الله أو يعبده وحده ، وجملة (لا برهان له به) فى محل نصب صفة لقوله : إلاها ، وهى صفة لازمة جىء بها للتأكيد ، كقوله ـ يطير بجناحيه ـ : والبرهان الحجة الواضحة والدليل الواضح ، وجواب الشرط قوله (فإنما حسابه عند ربه) وجملة لا برهان له به معترضة بين الشرط والجزاء : كقولك : من أحسن الى زيد لاأحقّ منه بالاحسان ، فالله مثيبه ، وقيل ان جواب الشرط قوله : لا برهان له به على حذف فاء الجزاء كقول الشاعر : * من يفعل الحسنات الله يشكرها * (إنه لايفلح الكافرون) قرأ الحسن وقتادة بفتح أن على التعليل ، وقرأ الباقون بالكسر على الاستئناف ، وقرأ الحسن : لايفلح بفتح الياء واللام مضارع فلح بمعنى أفلح ، ثم ختم هذه السورة بتعليم رسوله ﷺ أن يدعوه بالمغفرة والرحمة ، فقال (وقل ربّ اغفر وارحم وأنت خير الرّاحمين) أمره سبحانه بالاستغفار لتقتدى به أمّته ، وقيل أمره بالاستغفار لأمّته . وقد تقدّم بيان كونه أرحم الرّاحمين ، ووجه اتصال هذا بما قبله أنه سبحانه لما شرح أحوال الكفار أمر بالانقطاع اليه والالتجاء الى غفرانه ورحمته .

وقد أخرج ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت وابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : اذا أدخل الكافر فى قبره فيرى مقعده من النار (قال ربّ ارجعون) أتوب أعمل صالحا فيقال له قد عمرت ما كنت معمرا ، فيضيق عليه قبره ، فهو كالمنهوش ينازع ويفزع تهوى اليه حيات الأرض وعقاربها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج ، قال زعموا أن النبىّ ﷺ قال لعائشة : ان المؤمن اذا عاين الملائكة ، قالوا نرجعك الى الدنيا ، فيقول الى دار الهموم والأحزان ، بل قدما الى الله ، وأما الكافر فيقولون له نرجعك ، فيقول ربّ ارجعون (لعلى أعمل صالحا فيما تركت) وهو مرسل وأخرج الديلمى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « اذا حضر الانسان الوفاة يجمع له كل شىء يمنعه عن الحقّ ، فيجعل بين عينيه ، فعند ذلك يقول ربّ ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت » . وأخرج

البيهق فى الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله أعمل صالحا قال : أقول لا إله الا الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن عائشة قالت ويل لأهل المعاصى من أهل القبور يدخل عليهم فى قبورهم حيات سود ، حية عند رأسه ، وحية عند رجليه يقرصانه حتى تلتقيا فى وسطه ، فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال الله (ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) قال حين نفخ فى الصور ، فلا يبقى حىّ الا الله . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أنه سئل عن قوله ، فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، وقوله ـ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ـ ، فقال انها مواقف ، فأما الموقف الذى لا أنساب بينهم ولا يتساءلون عند الصعقة الأولى لا أنساب بينهم فيها اذا صعقوا ، فاذا كانت النفخة الآخرة ، فاذاهم قيام يتساءلون . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عنه أيضا أنه سئل عن الآيتين ، فقال أما قوله ، ولا يتساءلون ، فهذا فى النفخة الأولى حين لايبقى على الأرض شىء ، وأما قوله : فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، فانهم لما دخلوا الجنة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون . وأخرج ابن المبارك فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية وابن عساكر عن ابن مسعود قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين . وفى لفظ يؤخذ بيد العبد أوالأمة يوم القيامة على رؤوس الأولين والآخرين ، ثم ينادى مناد ، ألا ان هذا فلان بن فلان ، فمن كان له حق قبله فليأت الى حقه ، وفى لفظ من كان له مظلمة فليجئ فليأخذ حقه فيفرح والله المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وان كان صغيرا ، ومصداق ذلك فى كتاب الله ، فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . وأخرج أحمد والطبرانى والحاكم والبيهقى فى سننه عن المسور بن مخرمة قال : قال رسول الله ﷺ « ان الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبى وسببى وصهرى » . وأخرج البزار والطبرانى وأبو نعيم والحاكم والضياء فى المختارة عن عمر بن الخطاب سمعت رسول الله ﷺ يقول « كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة الا سببى ونسبى » . وأخرج ابن عساكر عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى » . وأخرج أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر « مابال رجال يقولون ان رحم رسول الله ﷺ لاينفع قومه ، بلى والله ان رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة وانى أيها الناس فرط لكم » ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (تلفح وجوههم النار) قال : تنفخ . وأخرج ابن مردويه والضياء فى صفة النار عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله « تلفح وجوههم النار قال : تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعقابهم » . وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود فى الآية قال : لفحتهم لفحة فما أبقت لحما على عظم إلا ألقته على أعقابهم . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وصححه وابن أبى الدنيا فى صفة النار وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وأبو نعيم فى الحلية وابن مردويه فى قوله (وهم فيها كالحون) قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه عن ابن مسعود فى الآية قال : كالوح الرأس النضيج بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس كالحون قال عابسون . وقد ورد فى صفة أهل النار ومايقولونه وما يقال لهم أحاديث كثيرة معروفة . وأخرج الحكيم الترمذى وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن السنى فى عمل اليوم والليلة ، وابن مردويه

وأبو

وأبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود أنه قرأ فى أذن مصاب : أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا حتى ختم السورة فبرئ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « بماذا قرأت فى أذنه ؟ فأخبره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « والذى نفسى بيده لو أن رجلا موقنا قرأ بها على جبل لزال » . وأخرج ابن السنى وابن منده وأبو نعيم فى المعرفة قال السيوطى : بسند حسن من طريق محمد بن ابراهيم التيمى عن أبيه قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى سرية وأمرنا أن نقول إذا أمسينا وأصبحنا أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون ، فقرأناها فغنمنا وسلمنا اﻫ .

بحمد الله تعالى تمّ طبع الجزء الثالث من التفسير المسمى « فتح القدير »

تأليف

الامام محمد بن على بن محمد الشوكانى

ويليه : الجزء الرابع ، وأوّله تفسير سورة النور

فهــــرس

الجزء الثالث

من كتاب تفسير فتح القدير

للعلامة محمد بن على بن محمد الشوكانى رحمه الله

صحيفة

٢ تفسير سورة يوسف

فضل سورة يوسف عليه الصلاة والسلام

٣ لماذا كانت سورة يوسف أحسن القصص

٥ الكلام على الكواكب التى رآها سيدنا يوسف

٦ أسماء إخوة سيدنا يوسف واسم أمه

٧ الكلام فى نبوة اخوته صلى الله عليهم وسلم

٩ هل كان نبيا سيدنا يوسف وقت المحنة

١٤ شرح حادثة امرأة العزيز مع سيدنا يوسف

١٨ الذين تكلموا فى المهد ، و بأى سن كان شاهد سيدنا يوسف

١٩ من هن النسوة اللاتى شغفهن حب يوسف

٢١ هل صورة الانسان أجل وأكمل صور الخلق

٢٣ ماهى الآيات التى رأوها

٢٨ شرح رؤيا الملك

٣١ تحقيق الملك مع النسوة وظهور براءة سيدنا يوسف

٣٣ هل للانسان أن يمدح نفسه و يطلب الولاية اذا كان يثق بنفسه

٣٤ ما كان بين يوسف واخوته لما حضروا مصر لاشتراء الطعام

٣٨ الرد على من ينكر تأثير العين والحكم فى العائن

٣٩ ماذا كان من يوسف لما أحضر له اخوته شقيقه بنيامين

٤٢ تفسير قوله تعالى قالوا ان يسرق الخ

٤٨ تعرّف يوسف لاخوته ليعرفوه وعدم عتابه لهم لما عرفوه واعتذروا له

٥٠ أىّ قيص قيص يوسف

٥١ هل كتب سيدنا يعقوب الى سيدنا يوسف كتابا وماهو ؟

٥٣ كيف تحققت رؤيا سيدنا يوسف

٥٨ معنى قوله تعالى (وظنوا أنهم قد كذبوا)

٥٩ تفسير سورة الرعد

هل فى قراءة سورة الرعد عند المحتضر فائدة

٦٢ عبرة وشرحها

٦٥ معنى قوله تعالى (يحفظونه من أمر الله)

٦٩ الكلام على سجود من فى السموات والأرض وعلى سجود الظلال

٧١ مثلان وشرحهما

٧٣ الكلام على السحاب والرعد

٧٤ صفات المؤمنين والكافرين والحكم على كلّ منهما

٧٨ قيمة الدنيا ، وماهى طوبى ؟

صحيفة

٧٩ الكلام على قوله تعالى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) الآية
٨٤ الكلام على قوله تعالى يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب
٨٦ معنى نقص الأرض من أطرافها
٨٧ من هو الذى عنده علم الكتاب ؟

٨٨ تفسير سورة ابراهيم

٨٩ هل يرسل الله الرسل بلسان قومهم ودفع اعتراض ضخم
٩٢ هل الشكر يستوجب المزيد
معنى ردّ الكفار أيديهم فى أفواههم
٩٤ عود الى الشكر وما يعقبه من المزيد
٩٧ وصف شيء من عذاب الكفار وبيان غلظه وشدّته
٩٨ خطبة ابليس لأهل النار وافحامه لهم افحاما عجيبا والكلام على ذلك
١٠١ مثل لكلمة الإيمان وكلمة الكفر
١٠٢ معنى يثبت الله الذين آمنوا الآية
١٠٥ نعم يعدّدها ربنا ويمنّ بها علينا
١٠٧ الجواب عما لعله يتوهم فى قوله تعالى ومن عصانى فانك غفور رحيم
١٠٩ السيدة سارة والسيدة هاجر رضى الله عنهما
١١١ معنى وان كان مكرهم لتزول منه الجبال
١١٤ الأرض بعد أن تبدّل

١١٥ تفسير سورة الحجر

١١٨ متى يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين
١٢٠ الكلام على البروج
كيف حفظت السماء من الشياطين ؟
١٢١ معنى كون الرياح لواقح
١٢٣ معنى المستقدمين والمستأخرين
١٢٤ أصل الانسان والجان وحادثة ابليس مع سيدنا آدم

صحيفة

١٢٦ الكلام على أبواب جهنم
١٢٨ ماأعدّ للمتقين وحالهم فى الجنة
١٢٩ محاورة سيدنا ابراهيم مع الملائكة
١٣٠ الملائكة مع سيدنا لوط
١٣٢ حال قوم سيدنا لوط معه صلى الله عليه وسلم
هل أجمع المفسرون على أن ربنا أقسم بحياة نبينا صلى الله عليه وسلم
١٣٣ من هم المتوسمون هل هم أهل الفراسة
١٣٥ هل أصحاب الأيكة وأهل مدين أمتان مختلفتان
ماهى السبع المثانى
١٣٧ من هم المقتسمون وما فعلوا بالقرآن
١٣٨ المستهزئون الذين كفى الله نبيه منهم
الكلام فى الفاتحة وفضلها
١٤٠ حديث يتعلق بآخر السورة ينبغى أن يرى

١٤٠ تفسير سورة النحل

١٤١ ما المراد بالأمر الذى أتى ونهوا عن استعجاله
ماهو الروح الذى يلقيه ربنا على من يشاء من عباده
١٤٢ منن جليلة امتنّ الله بها على عباده
١٤٣ الكلام على لحوم الخيل حلا وحرمة
١٤٤ رجوع الى الكلام على لحوم الخيل
١٤٥ منن أخرى يمتنّ بها علينا ربنا فليتأملها المؤمن
١٤٨ هل من يخلق هذه المنن يصح أن يساوى بمن لايخلق شيئا
كيف لانحصى نعم ربنا
١٥٠ قيمة الآلهة التى يدعونها من دون الله
١٥١ عادة الله مع أهل المكر السيء بدينه ورسله
١٥٢ معنى لاجرم ومن هو المتكبر؟ وما جزاؤه
١٥٣ الكفار والمؤمنون ووصف كل وجزاؤه

صحيفة
١٥٥ كيف يفهم قول الكفار لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء
١٥٦ كيف يفهم قول الله للشيء كن فيكون
١٥٧ ماذا أعدّ الله لمن هاجروا من بعد ماظلموا
١٦٠ معنى يتعين لبيان الفوقية فى قوله تعالى يخافون ربهم من فوقهم
١٦٢ دفع اعتراض ينبغى أن يحاط به
١٦٣ عجب عجيب ؟ حال الكفار مع الله ومع آلهتهم
١٦٤ حال العرب الوثنيين اذا بشروا بالأنثى
ماذا يفعل الله بالناس لو آخذهم بذنوبهم
١٦٧ معنى قوله تعالى فهو وليهم اليوم
الكلام على سقى وأسقى لغة ، وعلى الضمير المذكر الراجع الى الأنعام
١٦٨ العبرة فى خروج اللبن من بين فرث ودم خالصا سائغا للشاربين
الكلام على السكر فى قوله تعالى تتخذون منه سكرا
١٦٩ هل العسل شفاء لكل الأمراض أو لبعضها الكلام على ذلك
١٧٠ أخبار وردت فى العسل
١٧١ مراتب العمر والأرذل منه ومعناه
١٧٤ مثلان يفهمان أنه لايصح التسوية بين خالق الخلق و بين الأصنام الجمادات
١٧٩ نعم يمتنّ علينا بها ربنا وما أجلّ ما يمتنّ به الحكيم القدير
١٨١ الكلام على العدل والاحسان والفحشاء والمنكر
١٨٢ أفضل آية وأجمع آية وأكثر آية تفويضا وأرجى آية
١٨٣ الكلام على الوفاء بالعهد وعلى اليمين بعد توكيدها
١٨٦ ماهى الحياة الطيبة التى يحيي ربنا عليها المؤمن العامل للصالحات

صحيفة
ماذا يفعل مريد قراءة القرآن
١٨٧ من هذا البشر الذى زعموا أنه يعلم الرسول والردّ عليهم فى ذلك
١٨٨ آثار فى بيان الحياة الطيبة التى يحياها المؤمن الصالح
١٩٠ الكلام على من كفر مكرها وقلبه مطمئنّ بالايمان
هل يغفر الله لمن فتن إذا هاجر وجاهد وصبر
١٩١ شيء من تعذيب الكفار لبعض المؤمنين المستضعفين وقت هجرتهم
١٩٢ ماهى القرية التى جعلها الله مثلا
الاستعارة التى فى قوله تعالى فأذاقها الله لباس الجوع والخوف
١٩٥ مامعنى كون سيدنا ابراهيم أمة
١٩٦ كيف اختلف أهل السبت فيه
هل لمن أصيب بظلامة أن يعاقب بمثلها وان صبر كان خيرا
١٩٨ ماهو السبب فى نزول قوله تعالى وان عاقبتم الآية

١٩٨ تفسير سورة الاسراء

١٩٩ بحث لغوى فى لفظ التسبيح والاسراء
بم بارك الله حول المسجد الأقصى
هل كان الاسراء ببدن رسول الله صلى الله عليه وسلم أم بروحه فقط
٢٠٠ متى أسرى به صلى الله عليه وسلم
٢٠٢ ماقضاه الله على بنى اسرائيل من قهر عدوّهم لهم حين عصيانهم وقهرهم لعدوهم بعد ماتابوا
٢٠٥ معنى أن الله محا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة
٢٠٦ ماهو العذاب المنفى فى قوله تعالى وما كنا معذبين الآية أهو عذاب الدنيا أم عذاب الآخرة

صحيفة

٢٠٧ الكلام على قوله تعالى أمرنا مترفيها ففسقوا فيها
٢١٠ الوصية على الوالدين والتشديد فى عدم عقوقهما
٢١٣ ماهو التبذير وماقيمة المبذر فى حكم الشرع
٢١٤ نواه جازمة يجب أن تمتثل فلتراجع
٢١٥ معنى كون ولى القاتل منصورا ، ومعنى نهيه عن الاسراف فى القتل
٢١٨ أوامر ونواه يجب أن تمتثل فلتعرف فانها فى غاية الأهمية
٢٢٢ ما الحق فى تسبيح كل شىء بحمد ربنا هل هو مجاز أم حقيقة ، وليراجع هذا البحث
٢٢٣ مامعنى المسحور
٢٢٩ ما الحكمة فى عدم إجابة الكفار فيما اقترحوه من الآيات
معنى كون الله لم يرسل الآيات الا تخويفا
٢٣٠ ماهى الرؤيا التى جعلها الله فتنة للناس
ماهى الشجرة الملعونة فى القرآن
٢٣٢ قصة ابليس مع سيدنا آدم وأنها ذكرت فى القرآن سبع مرات
٢٣٦ رأى المفسر فى قوله تعالى وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا
٢٣٦ أحاديث فى تفضيل بنى آدم على الملائكة
٢٣٧ من هو الامام الذى يدعى كل أناس به
٢٣٧ الكلام على قوله تعالى ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى
٢٤٢ معنى قوله تعالى ومن الليل فتهجد به نافلة لك
ماهو المقام المحمود الذى وعده الرسول صلى الله عليه وسلم
٢٤٣ معنى مدخل الصدق ومخرج الصدق
٢٤٤ هل القرآن شفاء للقلوب أو الأبدان أو شفاء لكليهما

صحيفة

ماهو الروح والكلام فيه
٢٤٩ هل يذهب القرآن من القلوب والمصاحف يوما ما
٢٥٠ شبهة للكفار فى أن يكون الرسول بشرا والجواب عنها
٢٥١ على أى حال يحشر الكافرون
٢٥٣ ماهى التسع الآيات التى أوتيها سيدنا موسى
٢٥٦ الكلام على آية العز والآية قبلها

٢٥٨ تفسير سورة الكهف

فضل سورة الكهف وليراجع فانه جليل
٢٥٩ مامعنى ولم يجعل له عوجا
٢٦٢ قصة أهل الكهف ، وهى من بدائع القرآن فلتتأمل
٢٧٠ معنى قوله تعالى واذكر ربك اذا نسيت
٢٧١ كلام ربنا مع نبيه فى شأن فقراء المؤمنين وفى شأن الكفار
٢٧٢ ما أعدّ للكافرين وما أعد للمؤمنين
٢٧٥ الكلام على الرجلين اللذين ضربهما الله مثلا
٢٧٩ مثل آخر هو مثل الحياة الدنيا والكلام عليه
٢٨٠ الكلام على الباقيات الصالحات
٢٨١ معنى العرض ، وكيف يعرض الناس
٢٨٢ قصة ابليس مع سيدنا آدم ، وبيان أنه من الجن لا الملائكة
الكلام على قوله تعالى : ماأشهدتهم خلق السموات والأرض
٢٨٨ قصة سيدنا موسى مع فتاه ومع سيدنا الخضر ، وهى من عجائب القرآن
٢٩١ بقية قصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر
٢٩٦ الكلام على ذى القرنين وقصته
٣٠٠ بقية هذه القصة ، وفى ذلك الكلام على يأجوج ومأجوج

صحيفة

٣٠٤ من هم الأخسرون أعمالا وما هو جزؤاهم

٣٠٥ ماهو جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات

٣٠٦ هل يدخل الخوارج فى الأخسرين أعمالا
الكلام على الجنة وخصوصا جنة الفردوس
والتحريض على سؤالها
ماهى كلمات الله التى تنفد البحار ولاتنفد
وهل هى قابلة لأن تنفد أم لا ؟

٣٠٧ الكلام على قوله تعالى فمن كان يرجو
لقاء ربه الآية

٣٠٩ تفسير سورة مريم

فضل هذه السورة

٣١٠ سيدنا زكريا وقصته

٣١٤ ماهو الحكم الذى أوتيه سيدنا يحيى صبيا
وفضل سيدنا يحيى

٣١٦ قصة السيدة مريم فى حملها ووضعها لسيدنا
عيسى وبراءتها

٣٢٣ كيف امترى بنو اسرائيل فى سيدنا عيسى
صلى الله عليه وسلم

٣٢٤ قصة سيدنا ابراهيم الخليل مع والده

٣٢٦ فضل سيدنا موسى وسيدنا هارون وسيدنا
اسمعيل وسيدنا ادريس

٣٢٧ معنى رفع ربنا لسيدنا ادريس مكانا عليا
وتنبيه على غلط

٣٣٤ معنى الورود فى قوله تعالى وان منكم الا
واردها

٣٣٨ هل تكون الآلهة يوم القيامة ضدّا لعابديها
لاعزّا لهم

٣٣٩ كيف يحشر المتقون والمجرمون
أىّ جريمة جريمة من يزعم أن الله اتخذ
ولدا

٣٤٠ ماهو العهد الذى يملك به الانسان الشفاعة

٣٤١ ماهو الود الذى سيجعله الله لعباده الصالحين

صحيفة

٣٤٢ لماذا يسر الله القرآن بلسانه صلى الله
عليه وسلم

٣٤٢ تفسير سورة طه

٣٤٣ فضل هذه السورة
مامعنى لفظ طه ؟

٣٤٥ مامعنى الرحمن على العرش استوى ، ومامعنى
السر وما أخفى
قصة سيدنا موسى حينما رأى نارا

٣٤٧ معنى أكاد أخفيها

٣٥٢ منة ربنا على سيدنا موسى فى تربيته منذ
كان رضيعا ومايتصل بذلك حتى صار نبيا

٣٥٥ قصة سيدنا موسى مع فرعون وقومه بعد
الرسالة

٣٥٨ معنى قوله تعالى أريناه آياتنا كلها
توعد فرعون لسيدنا موسى أن يأتيه بسحر
مثل آيتيه

٣٥٩ الموعد للاجتماع لذلك

٣٦٢ مبلغ عظم السحر الذى فعله سحرة فرعون
ابتلاع عصا سيدنا موسى كل ذلك السحر
بعد أن انقلبت ثعبانا
ايمان السحرة بمجرد رؤيتهم هذه المعجزة

٣٦٣ اتهام فرعون لهم بأنهم تلاميذ سيدنا موسى
وانه كبيرهم الذى علمهم السحر وتهديده
لهم بقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم على جذوع
النخل لأجل إيمانهم بموسى من غير إذنه

٣٦٣ استخفافهم بكل هذا التهديد ومضيهم على
إيمانهم ولينظر ماقالوا فانه يشف عن
ايمان كالجبال

٣٦٥ كيف نجى ربنا موسى وقومه ، وكيف أغرق
فرعون وقومه

٣٦٧ جواب سيدنا موسى لما سأله ربه لم استعجل
وتقدم قومه الى الميقات

صحيفة

٣٦٧ غضب سيدنا موسى وتوبيخه لقومه لما أخبره مولاه أن السامرى أضلهم
٣٦٨ كيف صنع السامرى العجل وكيف أضل بنى اسرائيل
٣٦٨ تصميم بنى اسرائيل على عبادة العجل حتى يرجع سيدنا موسى رغم نهى سيدنا هرون لهم ، و بيانه فتنتهم بذلك العجل الذى اتخذوه إلها ، وانما إلههم الرحمن
٣٧٠ لوم سيدنا موسى أخاه سيدنا هارون على عدم انكاره على بنى اسرائيل لما عبدوا العجل ، وجواب سيدنا هارون على ذلك اللوم
جواب السامرى لما سأله سيدنا موسى لماذا صنع ماصنع
٣٧١ عقوبة السامرى الدنيوية على تلك الشنيعة
معنى تحريق ذلك العجل ثم نسفه فى اليمّ
٣٧٦ ماذا كان من سيدنا آدم بعد نهيه عن الأكل من الشجرة وكيف حاوره ابليس فى ذلك الأكل
٣٨٢ هل صلاة الصبح والعصر هما التسبيح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومافضل هاتين الصلاتين

٣٨٣ تفسير سورة الأنبياء

٣٨٤ كلام للمؤلف فى حدوث القرآن ورأيه فيما كان من المتقدمين فى هذه المسألة
٣٨٦ رأى المفسر فى التقليد
٣٨٨ الكلام على قوله تعالى لو أردنا أن نتخذ لهوا الآية
٣٨٩ لماذا تفسد السموات والأرض لو كان فيهما آلهة الا الله
٣٩١ الردّ على من قالوا ان الله اتخذ الملائكة بنات و بيان قدر الملائكة

صحيفة

٣٩٢ معنى فتق السموات والأرض بعد أن كانتا رتقا
٣٩٣ هل يشفع فى أهل الكبائر
٣٩٤ فيمن نزل قوله تعالى خلق الانسان من عجل ، ومعنى هذا التركيب
٣٩٨ قصة سيدنا ابراهيم مع قومه وتشبيه المصنف المقلدين للأئمة بقومه
٤٠٠ كيف يفهم قول الله تعالى بل فعله كبيرهم هذا : الآية
٤٠٢ ماذا كان لما ألقى سيدنا ابراهيم فى النار
٤٠٣ فضل ربنا على ابراهيم ولوط واسحاق ويعقوب ونوح
٤٠٤ قضية الحرث التى فهمها الله سليمان والكلام عليها
٤٠٥ فضل الله على داود وسليمان
٤٠٦ ماذا فعل ربنا مع سيدنا أيوب لما دعاه ؟
٤٠٧ قصة سيدنا يونس لما ذهب مغاضبا .
٤١٠ الكلام على سيدنا ذى الكفل
٤١٢ معنى قوله تعالى وحرام على قرية أهلكناها الآية و إزالة إشكالها
٤١٨ بيان وضع حديث السجل
٤١٩ كيف أن نبينا أرسل رحمة للعالمين

٤٢٠ تفسير سورة الحجّ ، وهل لها فضل

٤٢١ هول يوم القيامة والى أىّ حد يصل
٤٢٢ مراتب خلق ربنا للانسان
٤٢٤ بعث النار من بنى آدم ومقدار هذه الأمة
٤٣٠ أهل النار وأهل الجنة وماأعد لكل منهما فى داره
٤٣٣ الكلام على قوله تعالى ومن يرد فيه بالحاد بظلم الآية
٤٣٤ من المأمور بقوله تعالى وأذن فى الناس بالحج
٤٣٥ بحث جليل فى بيوت مكة باعتبار أنها للجميع الطارىء والمقيم

صحيفة

٤٣٩ هل تعدل شهادة الزور الشرك بالله
٤٤٠ من القانع ومن المعترّ
٤٤٣ صفة من ينصرهم الله لانهم ينصرونه
٤٤٣ هل أوّل آية نزلت في الجهاد أذن للذين يقاتلون الآية
٤٤٧ الكلام على قوله تعالى (الا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته)
٤٥٠ آيات وعبر ينبغي نظرها
٤٥٢ فضل الموت في سبيل الله
٤٥٤ مثل لمن عبد غير الله عز وجلّ
٤٥٦ كيف لم يجعل الله علينا في ديننا من حرج

٤٥٨ تفسير سورة المؤمنون

هل الخشوع فريضة في الصلاة أم فضيلة
٤٥٩ صفات للمؤمنين الذين أفلحوا
٤٦٠ هل يفتدى ربنا المؤمنين من النار بالكافرين
مراتب خلق الانسان
٤٦٢ آيات وعبر أخرى ينبغي أن ترى ليزداد ناظرها إيمانا
٤٦٤ ماوافق عمر فيه ربه والتنبيه على عدم اعتبار حديثين
٤٦٥ قصة سيدنا نوح مع قومه
٤٦٩ عادة الأمم مع رسلهم وعادة الله تعالى معهم
٤٧٠ قصة سيدنا موسى مع قومه
٤٧١ هل قد تكون كثرة الأموال والأولاد أهانة لا كرامة
٤٧٣ صفات للفضلاء من أهل الايمان فليعرض العبد نفسه عليها
٤٧٧ هل لواتبع الحق أهواء الكفار كانت تفسد السموات والأرض
٤٧٨ هل القرآن فخر وشرف لمن نزل لهم
٤٧٨ هل سؤال المرشد من يرشدهم أجرا يصح أن يكون سببا في اعراضهم عنه
٤٨٠ براهين على وحدانية الله تعالى تلقم المشركين الحجر لأنهم يعترفون بها
٤٨١ برهان آخر على نفي الولد والشريك لله عز وجلّ
٤٨٣ هل العمل هو مناط الاكرام والاهانة يوم القيامة
٤٨٤ هل السخرية بالمؤمن لايمانه تخلد الساخر في النار ، وهل صبر المؤمن على تلك السخرية مع ضعفه يكون سببا في فوزه ؟
٤٨٥ تنزيه ربنا نفسه عن أن يكون خلق الناس عبثا
هل يسأل الكافر الرجعة الى الدنيا ليعمل صالحا ولا يسألها المؤمن
٤٨٦ الجمع بين قوله تعالى ولايتساءلون ، وقوله فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون
هل ينفع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة وان عدم نفع الانساب في وقت مخصوص
كيف كلوح أهل النار ، وهم فيها
٤٨٧ أيّ فضل فضل الآيات الأربعة آخر هذه السورة

﴿ تمت ﴾

الكتب الموضحة بعد : تطلب من مكتبتنا ، ومن المكاتب الشهيرة

القول المفيد
في
أدلة الاجتهاد والتقليد

لإمام الأصوليين وحافظ المحدثين وقدوة المجتهدين

محمد بن علي الشوكاني

تحفة الذاكرين

بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين

صلى الله عليه وآله وسلم

للحافظ المحدث : محمد بن علي بن محمد الشوكاني اليماني الصنعاني

« الأحاديث مضبوطة بالشكل الكامل »

نيل الأوطار

شرح

منتقى الأخبار

من أحاديث سيد الأخيار

لما كان « متن منتقى الاخبار » مشتملا على الأحاديث النبوية التى ترجع أصول الأحكام اليها ، و يعتمد علماء الاسلام عليها ، لما اشتهر به مؤلفه « الحجة الفقيه المحدث شيخ الاسلام مجد الدين عبدالسلام الحرانى المعروف بابن تيمية » من أمانة النقل وحسن الاختيار من الكتب الستة الصحاح وغيرها ، وصار مرجعا يعول عليه وملجأ يركن اليه

لذلك قام بشرحه شرحا وافيامستوفيا الاعراب والأسانيد ، و بين ماأشكل فيه من الالغاز والتعاقيد ، من هو أقدر أهل زمانه الذى كان يرحل اليه فى معضلات الأمور ، شيخ مشايخ القطر اليمانى .

الامام محمد بن على بن محمد الشوكانى

صاحب التصانيف العديدة ، فزاده نورا على نور بما تنشرح لمرآه الصدور

وقد امتازت هذه الطبعة عن غيرها بضبط الأحاديث بالشكل الكامل ليعم نفعها الخاص والعام . مراجعة ومصححة بمعرفة لجنة من العلماء الاعلام ومقسمة إلى ثمانية أجزاء متساوية الحجم مرتبة ومبوبة ومستوفية التراجم والفهارس .

DUE DATE

MAR 2 4 1998			
	201-6503		Printed in USA

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0040300102

BP
130.4
.S542
v. 3

NOV 20 1975